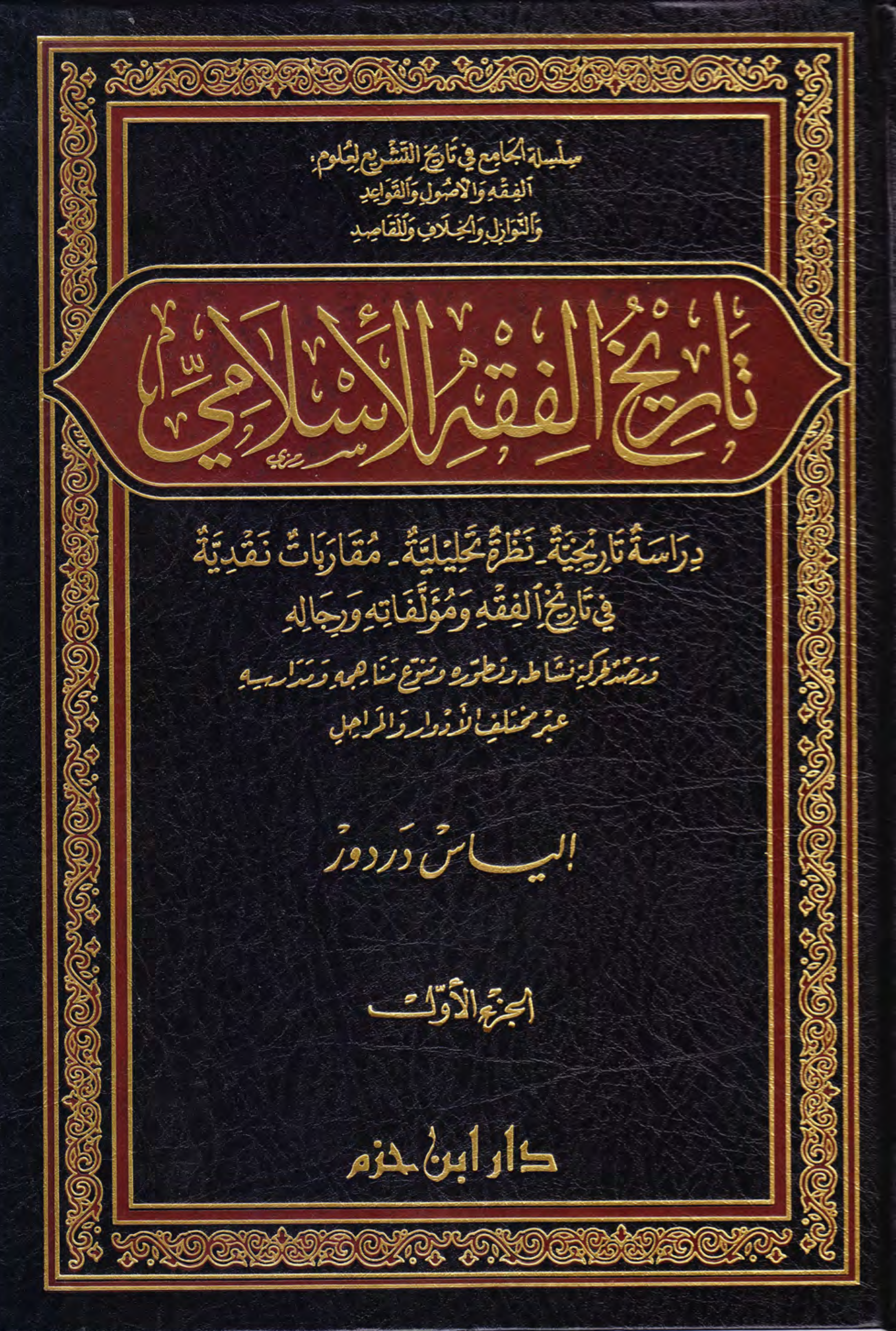

سلسلة الجامع في تاريخ التشريع لعلوم:
الفقه والأصول والقواعد
والنوازل والخلاف والمقاصد
تاريخ الفقه الإسلامي
دراسة تاريخية - نظرة تحليلية - مقاربات نقدية
في تاريخ الفقه ومؤلفاته ورجاله
ورصد لحركة نشاطه وتطوره وتنوع مناهجه ومدارسه
عبر مختلف الأدوار والمراحل
إلياس دردور
الجزء الأول
دار ابن حزم


تاريخ الفقه الإسلامي
١



سلسلة الجامع في تاريخ التشريع لعلوم:
الفقه والأصول والقواعد
والنوازل والخلاف والمقاصد

تاريخ الفقه الإسلامي

دراسة تاريخية - نظرة تحليلية - مقاربات نقدية
في تاريخ الفقه ومؤلفاته ورجاله
ورصد لحركة نشاطه وتطوره وتنوع مناهجه ومدارسه
عبر مختلف الأدوار والمراحل

إلياس دردور

الجزء الأول

دار ابن حزم

الطَّبعَة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

ISBN 978-9953-81-973-0



الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

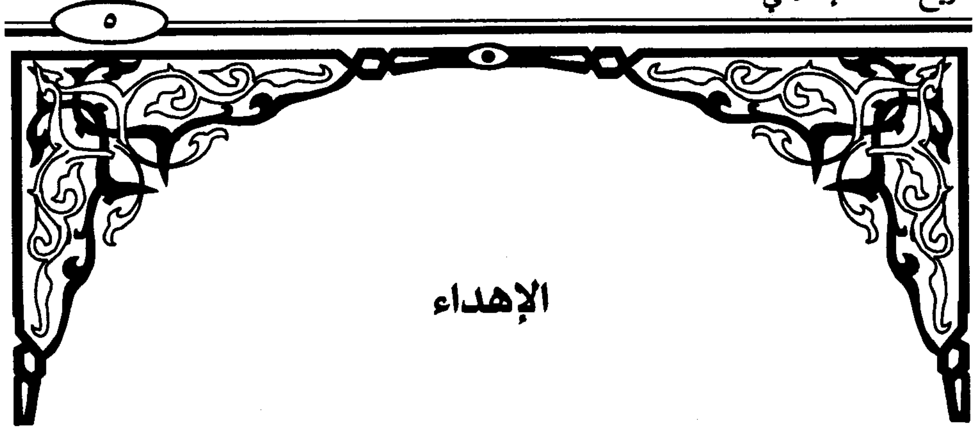
دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com



الإهداء

* إلى روح والدي محمد البشير الحبيب، أسأل الله أن يشمله بعفوه وغفرانه.

* إلى والدتي الكريمة، أسأل الله لها دوام الصحّة والعافية.

* إلى كلّ من اعتنى بتربيتي وأحاطني بعطفه وتعهّدني بلطفه، أسأل الله لهم أشرف الدرجات وأكمل الكرامات في الدنيا والآخرة.

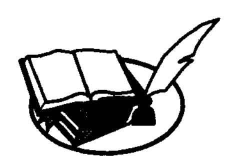
* إلى زوجتي الوفيّة التي شاركتني برأيها وعونها، أسأل الله لها الخير كلّه عاجله وآجله.

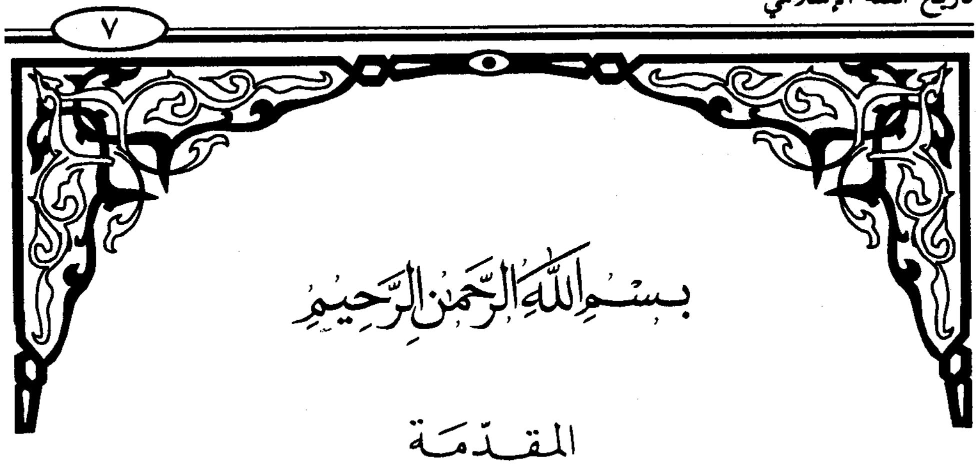
* إلى أفلاذ كبدي الذين زينوا بيتي بطلعتهم البهيّة وأناروا حياتي بإشراقاتهم السنيّة: الدرّة اللامعة غادة، والبدر الطالع أحمد، والجوهر المكنون محمد رافع، أسأل الله أن يزيّن بهم محضري ويحيي بهم ذكري، وأن يعينني على تربيتهم وبرّهم.

* إلى ثلاثة من مشائخ الزيتونة وأعلامها الذين كان لهم التأثير البالغ والأثر العميق في اعتنائي بالعلوم الشرعيّة: الشيخ علي الهنتاتي الفقيه المقرىء، والشيخ عثمان العيّاري مدرّس علم القراءات بجامع الزيتونة الأعظم ثمّ بجامعة الزيتونة، والشيخ محمّد عزّ الدين سلّام المدرّس بالجامع الأعظم ثمّ المختصّ بجامعة الزيتونة في علم الفرائض فقهاً وعملاً، أسأل الله أن يتقبّلهم في الصالحين من عباده.

* إلى إخوتي وأصهاري وأحبّتي وزملائي، أسأل الله لهم التوفيق والسداد والرشاد.

لكلّ هؤلاء جميعاً أهدي هذا العمل.





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله الذي لا يخرج شيء عن قدرته، ولا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد الذي محا الله به ظلمات الجهل وأظهر به منارات العلم والهدى، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه السلسلة الجامعة **في تاريخ التشريع لعلوم: الفقه والأصول والقواعد والنوازل والخلاف والمقاصد**، دراسة واسعة في تاريخ هذه العلوم الدقيقة، وبحث في كيفيّة نشأتها وتطوّرها، ورصد لحركة نشاطها في الأمّة الإسلاميّة، وتفاعلاتها عبر الأدوار التي مرّت بها، من خلال الوقوف على اختلاف مذاهبها ومناهجها وتنوّع مدارسها، وجهود العلماء في إظهارها وتأسيسها، ومراحل تأصيلها وتفريعها.

وعلى الرغم ما لعلماء السلف من الاعتناء الكامل والإحاطة الشاملة بالكتابة في كلّ المواضيع الهامّة والقضايا الخطيرة التي ارتقى إليها فكرهم، والتي برهنت على ما كان لهم من واسع الاطّلاع وعظيم المعرفة والمشاركة في شتّى أنواع العلوم ومختلف نواحي المعرفة، فإنّ الكتابة في تاريخ التشريع بطريقته الجديدة وبمنهجه الحديث تعتبر من الفنون المبتكرة، ومن

أوائل من تصدّر للكتابة فيه من المسلمين[١] ـ فيما أعلم ـ هو الشيخ محمد الحجوي الفاسي (١٣٧٦هـ) في كتابه: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي حيث اهتدى إلى طريقة تناول بالبحث فيها جوانب تتعلّق بتاريخ الفقه وتاريخ مذاهبه والوقوف على تراجم أعلامه، وقسّم تاريخ الفقه الإسلامي في ذلك إلى أربعة أدوار هي: الطفوليّة والشباب والكهولة والهرم، فأظهر تاريخاً للفقه كان فيه غير مسبق بمثله.

ثمّ حذا حذوه الشيخ محمد الخضري بك حيث صنّف مؤلّفاً مختصراً سمّاه: تاريخ التشريع الإسلامي، اهتدى فيه إلى تقسيم تاريخ الفقه إلى ستّة أدوار: من حياة الرسول ﷺ إلى بداية القرن الرابع عشر الهجري.

ثمّ اشترك ثلاثة من علماء الأزهر وهم: الشيخ عبداللطيف السبكي والشيخ محمد عليّ السايس، والشيخ محمد يوسف البربري، في تصنيف كتاب بعنوان تاريخ التشريع الإسلامي، ساروا فيه على نفس تقسيم الشيخ الخضري، ونهجوا فيه نهجه.

ومن التآليف الأولى القيّمة كذلك ما كتبه الدكتور محمد يوسف موسى تحت عنوان تاريخ الفقه الإسلامي، ثمّ توالت الكتابات في هذا المجال بعد ذلك تترى.

وأمّا في خصوص تاريخ الفقه الجعفري فمن أوائل من تصدّر لذلك: الشيخ هاشم معروف الحسني الذي وضع كتاباً بعنوان: تاريخ الفقه الجعفري، عرض ودراسة.

فحازت هذه المؤلّفات السبق في التأليف ووضعت اللبنات الأولى لهذا الفنّ المبتكر، فكان لا بدّ من الرجوع إليها والاطّلاع عليها، حيث وجّهتني إلى معاني استفدت منها.

غير أنّ الذي وضع أمامي مادّة تشريعيّة عميقة، وتاريخاً فقهيّاً دقيقاً

---

(١) فضلاً عن بعض المستشرقين الذين اهتمّوا بدراسة تاريخ الفقه الإسلامي وتدريسه في ديار الغرب.

هو المرحوم العلاّمة محمد الفاضل بن عاشور في محاضراته ودراساته القيّمة والنادرة في تاريخ التشريع الإسلامي، وخاصّة منها تلك التي كان يلقيها بين سنتي ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م و١٣٨٧هـ/١٩٦٨م، خلال زياراته المتكرّرة للمغرب الأقصى، والتي عرفت بالدروس الحسنيّة.

تلك المحاضرات التي وجدت فيها من عمق التفكير ودقّة الاستنتاجات في الفقه المقارن عموماً، وفي الفقه المالكي على وجه الخصوص، ما فتح أمامي سبلاً كنت عنها غافلاً وأرشدتني إلى مسائل كنت عنها ساهيا، وخرجت بعد قراءتها ـ على اختصارها وإيجازها ـ برؤية مهذّبة جامعة وتصوّر موضوعي منطقي لنشاط العقل الفقهي.

وأعظم استفادتي منها تتجلّى في تقسيمات أدوار تاريخ الفقه الإسلامي التي راعى فيها حركة الفقه ذاتها، خلافا لغيرها من التقسيمات التي راعت جوانب خارجة عن حركة الفقه.

وإن كنْت لا أنكر ما للعوامل السياسيّة والجغرافيّة من تأثير على علوم الإسلام، لكن تبقى حسب اعتقادي كلّها تأثيرات جانبيّة ويبقى التقسيم الموضوعي المنطقي العميق هو ذاك الذي ينبع من ذات العلم لا من خارجه، فأن نسير بالفقه مثلاً من دور التأسيس إلى التأصيل فالتفريع فالتطبيق ثمّ النقد والتنقيح والاختيار وغيرها من المراحل، أولى وأحرى من ربط أدوار الفقه بقيام الدول وسقوطها، ذلك أنّ الفقه هو فقه المجتمع، ونشاط الحركة الفقهيّة هو نشاط رجال الفقه لا نشاط رجال السياسة.

ولقد كان الدافع لكتابي هذا ـ على وفرة من كتب في هذا الموضوع في هذا العصر ـ خمسة أمور:

١ ـ محاولة قراءة تاريخ الفقه وفهمه من خلال حركة الفقه وعلاقتها بالمراكز العلميّة المنتشرة في البلاد الإسلاميّة، ودراسة تطوّراته وموجبات تغيّراته بمقتضى ما دخل على تلك المراكز من تحوّلات في ضوء تنافس المذاهب ورجالاتها.

٢ ـ إعطاء حظّ أوفر لأعلام أهل المغرب والأندلس ـ الغرب

الإسلامي ـ الذين حُجبوا إلى حدّ ما من كتابات إخواننا المشارقة حين كتبوا في تاريخ الفقه الإسلامي مقارنة بالأعداد الهائلة من أعلام أهل مصر والعراق والشام وغيرها من ديار الشرق الإسلامي.

٣ ـ إظهار دور المرأة الفعّال وإبراز مشاركتها الحقيقيّة في بناء صرح العلوم الإسلاميّة وإحاطتها بالمعارف الشرعيّة على اختلاف أنواعها.

٤ ـ اعتماد تقسيم جديد في سير أدوار الفقه ومراحله هو ألصق بالفقه من سائر التقسيمات الأخرى التي لها علاقة بجوانب خارجة عن الفقه ذاته.

٥ ـ التوسّع في دراسة علوم واسعة الآفاق، عظيمة الشأن، لها علاقة بمصادر التشريع الإسلامي، دون الاقتصار على علم أو علمين، لما لهذه العلوم من ارتباط وثيق وصلة متينة، بحيث لا يكاد ينفكّ علم عن علم ولا نكاد نؤرّخ لفنّ إلاّ وجدنا للفنون الأخرى مدخلاً فيه واشتراكاً لها معه، ذلك أنّ كلّ هذه الفنون تنبع من مشكاة واحدة، وتلك هي ميزة الشريعة الإسلاميّة عن سائر الشرائع الوضعيّة والقوانين البشريّة.

هذا، ولقد ظننت أوّل الأمر أنّه بإمكاني أن أفرغ من تأليف هذا الكتاب الجامع في عام أو عامين على أقصى تقدير، بعد أن قمت خلال دراستي الجامعيّة بجمع ما أمكن من كتابات في هذا المجال، أنتظر الفرصة السانحة للكتابة في هذا الموضوع الذي طالما أخذ بعقلي وشغل فكري ووجدت له نفسي ميلاً وبه شغفاً، وما إن سمح الوقت بذلك حتّى بدأت العمل دون كلل أو ملل، ولم أفرغ من قسميْه الأوّلين ـ تاريخ الفقه وأصوله ـ إلاّ بعد سنوات من الجهد والبحث.

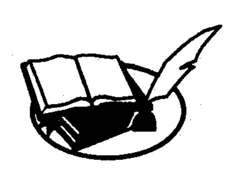
غير أنّي بمجرّد أن أتممت هذين القسمين، خطر ببالي أن أراجع ما كتبت، وما إن بدأت في تنفيذ هذه الفكرة حتّى وجدت نفسي أراجع كلّ جملة كنت قد كتبتها، وأجيل النظر في كلّ فكرة كنت قد أثبتها، أعاود الكتابة من جديد، فأضيف ما أراه ناقصاً، وأحذف ما أراه حشواً، وأسدّ ما أعتبره ثغرة، لا أهدأ في ذلك بأيّ حال، وتمثّلت أثناء ذلك قول العماد الأصبهاني: إنّي رأيت أنّه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلاّ قال في غده

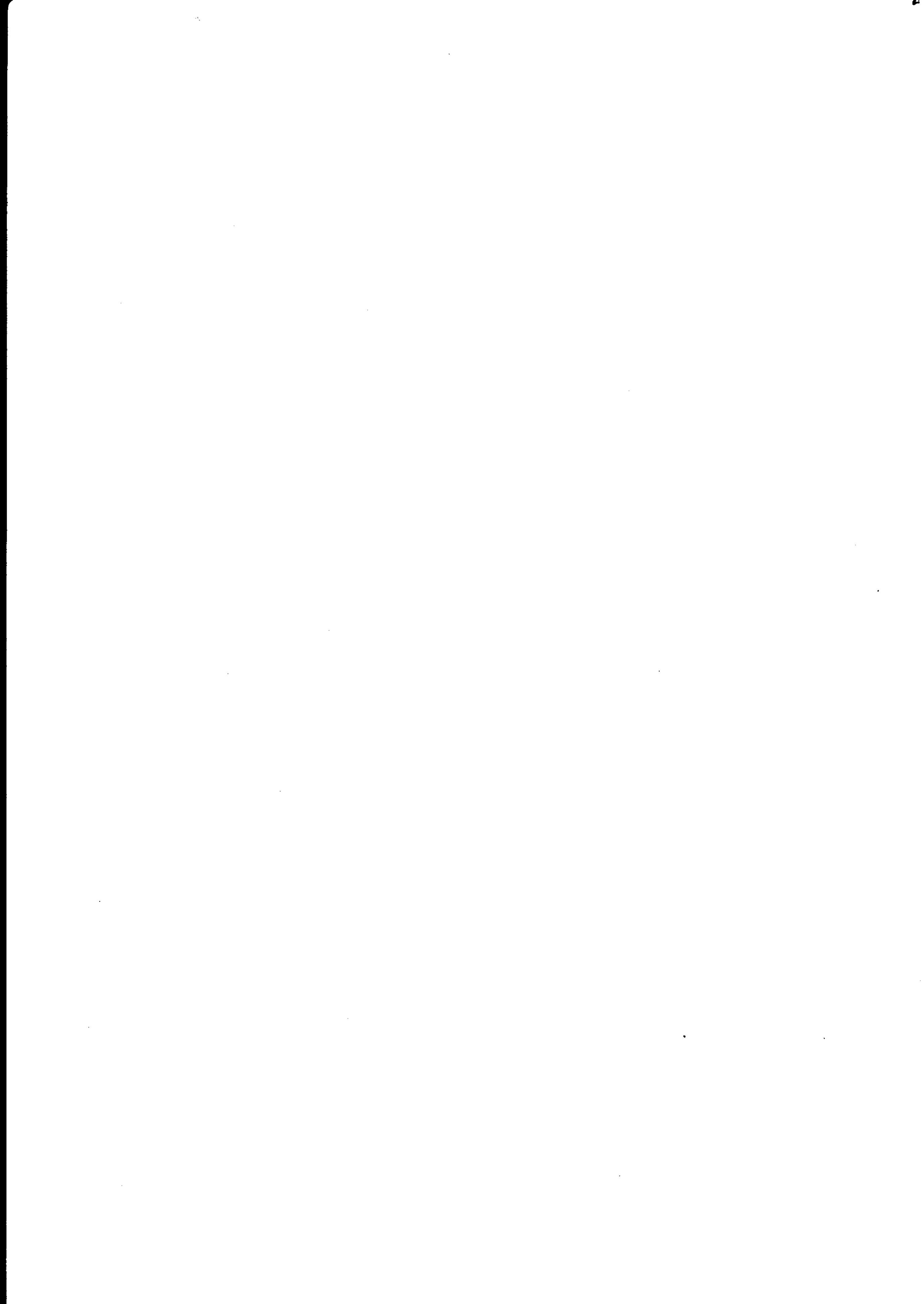
لو غُيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

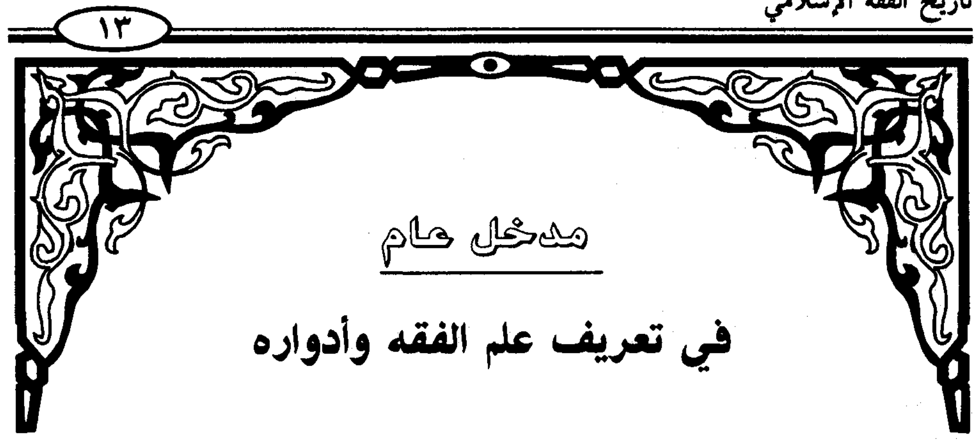
وعلى كلّ حال فقد سعيت على قدر الجهد، وبذلت مبلغ الجدّ على أن أحقّق الغاية من هذا الكتاب، وألمس الهدف المنشود.

هذا، وقد عهدت إلى دار ابن حزم ببيروت في طبع هذه السلسلة من الجامع في تاريخ التشريع، راجياً لصاحبها السيّد أحمد مصطفى قصيباتي كلّ التوفيق في حمل رسالة النشر.

وختاماً أسأل الله أن يلهمنا في أعمالنا كلّها الصواب والسداد، ومنه نستمدّ العون والرشاد، إنّه سميع قريب مجيب الدعوات.







مدخل عام

في تعريف علم الفقه وأدواره

تعريف علم الفقه:

الفقه لغة:

ـ ١ ـ الفقه بمعنى الفهم:

الفقه في اللغة يأتي بمعنى الفهم، ففي كتاب التعريفات للجرجاني: الفقه هو في اللغة عبارة عن فهم غرض المتكلّم من كلامه(١).

ومنه قول الله تبارك وتعالى حكاية عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾(٢)، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(٣)، وقوله عزّ من قائل: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾(٤).

وفي حديث مجيء الملائكة إلى الرسول ﷺ وهو نائم، قالوا: أوّلوها له يفقهها(٥).

---

(١) الجرجاني: التعريفات ص ١٥٥.
(٢) هود، الآية: ١٩.
(٣) الإسراء، الآية: ٤٤.
(٤) النساء، الآية: ٧٨.
(٥) البخاري: الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، وقول الله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾...

ـ ٢ ـ الفقه بمعنى العلم:

وقد يرد الفقه بمعنى العلم بالشيء والفطنة، ففي لسان العرب: الفقه: العلم بالشيء والفهم له، وفي القاموس المحيط: الفقه بالكسر العلم بالشيء والفهم له والفطنة(١).

ويرى الآمدي أنّ الفقه في اللغة يقتصر على معنى الفهم فحسب، قال في الإحكام: أمّا الفقه ففي اللغة عبارة عن الفهم... وقيل هو العلم، والأشبه أنّ الفهم مغاير للعلم، إذ الفهم عبارة عن جودة الذهن من جهة تهيئه لاقتناص كلّ ما يرد عليه من المطالب وإن لم يكن المتّصف به عالماً كالعامي الفطن، وأمّا العلم فسيأتي تحقيقه عن قريب، وعلى هذا فكلّ عالم فهم، وليس كلّ فهم عالماً(٢).

الفقه اصطلاحاً:

أمّا في الاصطلاح الشرعي فقد غلب استعمال الفقه على العلم بمسائل الدين، واختصّ بذلك حتى بات عند الإطلاق لا يتناول غيره

قال ابن منظور: الفقه العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلوم كما غلب النجم على الثريّا(٣).

وقد ورد في الأحاديث الشريفة استعمال الفقه بهذا المعنى في غير موضع من ذلك قول الرسول ﷺ: **«الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»**(٤).

وقوله ﷺ ـ لمّا قدم عليه أهل اليمن ـ: **«أتاكم أهل اليمن أضعف**

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة فقه، الزاوي: ترتيب القاموس المحيط، مادة فقه.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ٧/١.

(٣) لسان العرب، مادة فقه.

(٤) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، وكتاب المناقب، مسلم: كتاب فضائل الصحابة، وكتاب البرّ والصلة.

قلوباً وأرقّ أفئدة، الفقه يمان والحكمة يمنيّة»[١].

وقد ظلّ هذا الإطلاق الذي غلب على مدلول كلمة «الفقه» سائداً من صدر الإسلام إلى النصف الأوّل من القرن الثاني للهجرة، حيث عرّف الإمام أبو حنيفة الفقه بأنّه: «معرفة النفس ما لها وما عليها»، وهو تعريف عام يتناول الاعتقادات كالإيمان ونحوه، والوجدانيات أي الأخلاق والتصوّف، والعمليات كالعبادات والمعاملات ونحوها، وهذا هو الفقه الأكبر[٢].

وهذا التعريف يتلاءم مع العصر الإسلامي الأوّل حيث لم يكن الفقه ـ بالمعنى الخاص الذي استقرّ عليه عرف العلماء فيما بعد ـ قد استقلّ عن غيره من العلوم الشرعيّة، ولم تتميّز العلوم بعدُ بموضوعات معيّنة ولم يستقلّ كلّ منها عن الآخر.

ويرى الإمام الغزالي أنّ الفقه قد أطلق في صدر الإسلام على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس وما يتعلّق بذلك، حيث قال في كتابه الإحياء: ولقد كان اسم الفقه في العصر الأوّل مطلقاً على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوّة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدّة التطلّع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب، ويدلّك عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾[٣] وما يحصل به الإنذار والتخويف، هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف بل التجرّد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه[٤].

وسواء كان المدلول الاصطلاحي لكلمة الفقه في العصر الإسلامي

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، مسلم: كتاب الإيمان.

(٢) القنوجي: أبجد العلوم ٢/٤٠٠.

(٣) التوبة، الآية: ١٢٢.

(٤) إحياء علوم الدين ١/٣٢.

الأوّل هو علم الدين وفهمه كما في تعريف أبي حنيفة، أم هو كما ذكره الإمام الغزالي، فإنّ هذا المدلول لم يبق على ما هو عليه، وإنّما أصبح يطلق على: العلم بالأحكام الشرعيّة العمليّة المكتسبُ من أدلّتها التفصيليّة[١].

وبذلك أصبح موضوع الفقه مقتصراً على معرفة ما للنفس وما عليها من الأحكام العمليّة دون الاعتقادات والوجدانيات.

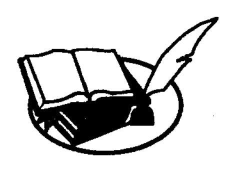
ومنذ أن انحصر الفقه في هذا المدلول واستقرّ على هذا المفهوم الخاص انبرى العلماء في وضع التعريفات المختلفة.

ومن بين هذه التعريفات ما نصّ عليه الإمام الجويني في الورقات حيث قال: الفقه هو معرفة الأحكام الشرعيّة التي طريقها الاجتهاد[٢].

وعرّفه الغزالي بقوله: هو عبارة عن العلم بالأحكام الشرعيّة الثابتة لأفعال المكلّفين خاصّة[٣].

وقال ابن خلدون: هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلّفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقّاة من الكتاب والسنّة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلّة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلّة قيل لها فقه[٤].

ونحو ذلك من التعريفات المختلفة.



---

(١) المحلّي: شرح جمع الجوامع ١/٤٢ ـ ٤٣.
(٢) الجويني: الورقات مع شرح العبّادي بهامش إرشاد الفحول للشوكاني، ص ١٢ ـ ١٣.
(٣) المستصفى ١/٤ ـ ٥.
(٤) المقدّمة ص ٤٤٥.



أدوار الفقه الإسلامي

اعتاد الباحثون في تاريخ الفقه الإسلامي أن يقسّموا مراحل التشريع الإسلامي إلى أدوار متعدّدة تبعاً لتطوّر الفقه حسب المراحل التي مرّ بها من حيث النشأة والتكوين فالرسوخ والتدوين ثمّ الاتّباع والتقليد ثمّ اليقظة والتجديد، أو تبعاً للعصور التي عرفها كلّ دور حسب الأحداث السياسيّة والاجتماعيّة التي كان لها من التأثير العميق على سير الفقه كالعصر الأموي والعصر العباسي الأوّل والعصر العباسي الثاني ونحو ذلك.

ولذلك كان تقسيم الباحثين لهذه الأدوار مختلفاً باختلاف مناهجهم في الكتابة، وقد رام أغلبهم تقسيم هذه الأدوار إلى خمسة أو ستّة، وهناك من قصرها على ثلاثة أو أربعة.

وتبقى جميع التقسيمات سواء أكانت بهذا الاعتبار أو ذاك تقسيمات نسبيّة لأنّها إنّما وضعت بحسب الحالة الغالبة في كلّ دور من تلك الأدوار، ذلك أنّ التاريخ الإسلامي لم يعدم مثلاً من وجود مجتهدين بعد القرن الرابع الهجري رغم أنّ تلك المرحلة من تاريخ الفقه اصطلح بعضهم على تسميتها بدور الاتّباع والتقليد.

فالمراعى إذن في تقسيم هذه الأدوار إنّما هو المميّزات الغالبة والحالة العامّة التي تكون عليها تلك الفترة من تاريخ الفقه وأهله.

والتقسيم الذي فضّلته ورغبت فيه دون سواه، هو الآتي:

* **الدور الأوّل: دور التأسيس:**

ويمتدّ من البعثة النبويّة إلى وفاة الرسول الأكرم ﷺ سنة ١١ للهجرة.

وقد امتدّ هذا الدور ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً، شمل فيها الحياة المكّية والحياة المدنيّة، وإن كانت تفاصيل الأحكام التشريعيّة المتعلّقة بشؤون حياة المسلمين وتنظيم سيرها قد تكوّنت بالمدينة المنوّرة.

* **الدور الثاني: عصر الصحابة والتابعين:**

ويمتدّ من وفاة الرسول الأكرم ﷺ إلى الثلث الأوّل من القرن الثاني للهجرة، ويشمل هذا الدور التشريعي مرحلتين اثنتين:

١ ـ **المرحلة الأولى**: عصر كبار الصحابة: وتشمل فترة الخلفاء الراشدين الأربعة التي امتدت على مدى ثلاثة عقود تقريباً.

٢ ـ **المرحلة الثانية**: نصطلح على تسميتها بعصر صغار الصحابة وكبار التابعين: وتمتدّ من نهاية المرحلة السابقة إلى حوالي الثلث الأوّل من القرن الثاني للهجرة.

* **الدور الثالث: دور التأصيل والتفريع:**

ويمتدّ من حوالي الثلث الأوّل من القرن الثاني إلى منتصف القرن الثالث، ويشمل بدوره مرحلتين اثنتين:

١ ـ **المرحلة الأولى**: مرحلة التأصيل: وهي مرحلة ظهور أئمّة المذاهب الفقهيّة.

٢ ـ **المرحلة الثانية**: مرحلة التفريع: وهي مرحلة كتابة الفقه وتدوينه.

* **الدور الرابع: دور التطبيق: وهو عصر مجتهدي المسائل:**

ويمتدّ من حوالي منتصف القرن الثالث إلى منتصف القرن الخامس، وفي هذا الدور برزت قضيّة الانتصار للمذاهب الفقهيّة والقيام عليها تفريعاً

وتعليلاً وترجيحاً، وظهرت مصنّفات التهذيب والاختصار والشرح.

ويشمل مرحلتين اثنتين:

مرحلة أولى: اصطلحنا على تسميتها بالنبضات الأخيرة لعصور الاجتهاد المطلق.

ومرحلة ثانية: غلب عليها جنوح الفقهاء إلى التقليد وغلق باب الاجتهاد.

*** الدّور الخامس: دور النقد والتنقيح والاختيار:**

ويمتدّ من منتصف القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن السابع الهجري.

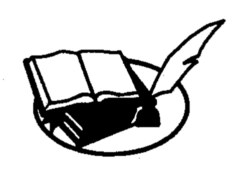
*** الدور السادس: دور التفقّه أو توليد المسائل وابتكار الأنظار والأبحاث:**

وهو أطول الأدوار زمناً، فهو يمتدّ من منتصف القرن السابع إلى أوائل القرن الثالث عشر الهجري.

*** الدور السابع: دور احتكاك الفقه بالقوانين الوضعيّة والمدارك الحقوقيّة الأجنبيّة:**

وفي هذا الدور محاولات تجديد عظيمة في كتابة الفقه وإعادة صياغته وإخراجه في ثوب جديد بما يتلاءم ومتطلبات العصر.

ويمتدّ من أوائل القرن الثالث عشر إلى الآن.

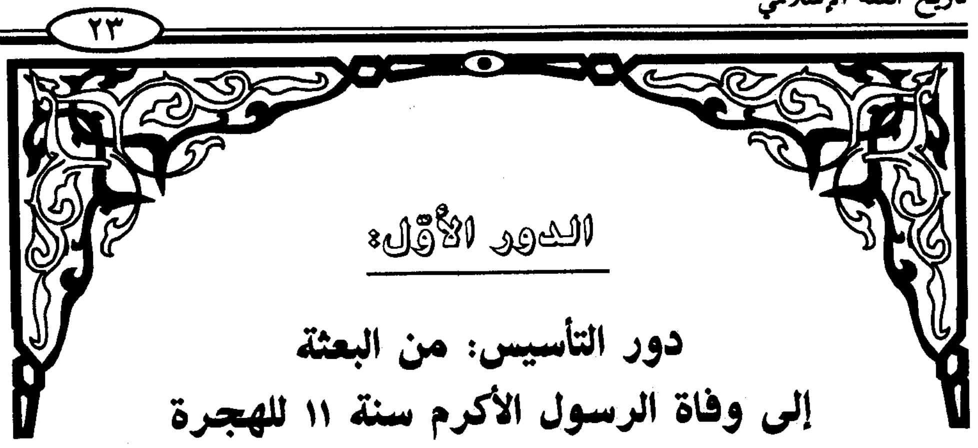




الجزء الأوّل

يشمل الأدوار الثلاثة الأولى من تاريخ الفقه وهي الفترة التاريخية الممتدّة من البعثة النبوية إلى منتصف القرن الثالث الهجري.





الدور الأوّل:

دور التأسيس: من البعثة إلى وفاة الرسول الأكرم سنة ١١ للهجرة

تمهيد:

في الوقت الذي سار فيه العباد على غير هدى من الله يتخبّطون في ظلام الوثنيّة ويتعثّرون في أذيال الضلالات فيحلّون ما حرّم الله ويعبثون بحقوق العباد ويتعدّون حدود الله.

في هذا الجوّ المليء بالإلحاد والإشراك بعث الله محمّداً بن عبدالله بن عبد المطّلب برسالته إلى العالمين أجمعين ليرشدهم إلى طريق الهداية ويذكّرهم بحقيقة وجود الخالق ويحدّد لهم وظائف المخلوق.

فاقتنع بهذه الرسالة السامية أوّل الأمر البعض ممّن كان لهم اتّصال وثيق بالرسول الأكرم ﷺ مثل زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وابن عمّه عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، ومولاه زيد بن حارثة، وأخلص أصدقائه أبو بكر الصديق.

ثمّ تلا هؤلاء رجال من أفذاذ قريش وأعيانها كأبي عبيدة عامر بن الجرّاح والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن عفّان والزبير بن العوّام وسعد بن أبي وقّاص وعبدالرحمٰن بن عوف وطلحة بن عبيدالله وغيرهم.

واستمرّ الرسول عليه السلام ثلاث سنوات يدعو لدين الله سرًّا، يقصد

كلّ من يتوسّم فيه الخير من أهل قريش ويخاطب بدعوته كلّ من يثق فيه لتلقّي النور الذي بُعث به، ويتوجّه برسالته إلى كلّ من يجد فيه الاستعداد النفسي لقبول أمره، حتى انضمّ إلى الثلّة الأولى من المؤمنين رجال آخرون عدّوا كذلك من السابقين الأوّلين في الإسلام.

ثمّ أُمر الرسول ﷺ بعد السرّ والكتمان بالانتقال إلى مرحلة الجهر بدين الله والإعلان، فما كان من الرسول إلاّ أن أطاع أمر ربّه وصدع بدعوة خالقه.

وعندها كشّرت قريش عن أنيابها ونصبت العداوة لخير خلق الله وأتباعه وأعلنت الحرب التي لا هوادة فيها ضدّ كلّ من اتّبع دعوته وأسلم وجهه لله، وترصّدوا خطاهم وأعملوا فيهم شتّى وسائل النكاية والتنكيل، وتتبّعوهم بالتعذيب والقتل والحبس وقطع الأرزاق.

ولمّا رأى الرسول الأكرم ما حلّ بأنصاره من البلاء العظيم وما لحق أتباعه من الابتلاء المرير، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة لما كان يعلم في حاكمها من إقامة العدل والحكم بالقسطاس المستقيم.

ومكث الرسول بمكّة يدعو إلى سبيل ربّه كما أُمر مستفيداً من مواسم الحجّ حيث يفد على مكّة العرب من كلّ صوب وحدب حتّى هيأ الله لدعوته تربة نقيّة وبيئة صالحة في أهل المدينة المنوّرة، فبعث معهم سفيره مصعب بن عمير يقرئهم ما نزل من القرآن ويرسّخ فيهم عقيدة الإسلام متّخذاً دار أسعد بن زرارة مقاماً له، فأحدث مصعب تغييراً كبيراً بعقول الناس وحقّق بفضل الله نجاحاً عظيماً في إقناع الكثير من أهل المدينة بهذا الدين الجديد.

فتهيّأت هذه الدار الجديدة لاستقبال خير خلق الله بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة المحمّدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، حيث أذن الله تعالى لرسوله الكريم بالهجرة إليها فاستجاب النبيّ الكريم لنداء ربّه واتّخذ الخطوات اللازمة واستكمل وضع الأسباب لهذه الهجرة المباركة ثمّ

توجّه مستعينا بالله لمقرّ دعوته الجديد الذي وصل إليه في ربيع الأوّل من سنة ٦٢٢ للميلاد.

وبداية من هذا التاريخ أصبحت المدينة المنوّرة مركز المسلمين وملجأهم، وامتزج بها ثلاثة أصناف من السكّان:

* المهاجرون: وهم الذين هاجروا من مكّة والتحقوا بالمدينة.

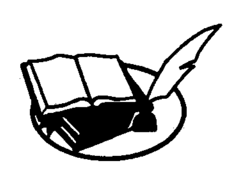
* الأنصار: وهم الذين دخلوا في الإسلام من سكّان المدينة الأصليين، الأوس والخزرج.

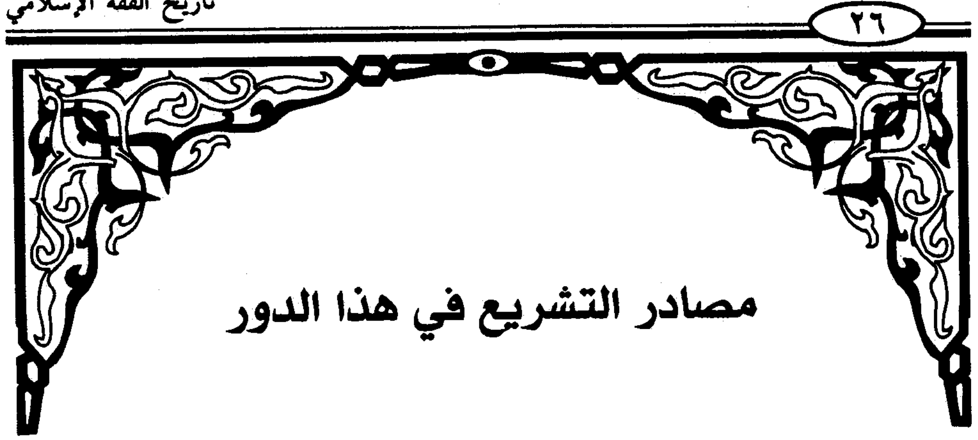
* اليهود: الذين وقع إجلاؤهم تدريجيّا من جزيرة العرب لمكايدهم المتواصلة ونكثهم للعهود والمواثيق التي عقدت بينهم وبين المسلمين.

واستمرّت هذه الفترة نحوا من عشر سنوات ثمّ أذن الله لرسوله الكريم بالانتقال إلى جوار ربّه في شهر ربيع الأوّل سنة ١١ للهجرة الموافق لسنة ٦٣٢ للميلاد.

وبذلك يكون هذا الدور الفقهي الأوّل الذي هو دور التأسيس قد استمرّ اثنتين وعشرين سنة وأشهرا، كانت مصادر التشريع فيه القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة.

وفيما يلي قراءة لهذين المصدرين في هذا الدور:





مصادر التشريع في هذا الدور

لقد كان شأن التشريع والفقه في حياة الرسول موكلاً إلى الوحي - قرآناً وسنّةً - وما كان لأحد من المسلمين أن يتقدّم في حكم أو أن يتعجّل بالفتوى في مسألة قبل أن يقضي الله ورسوله فيها استجابة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾[1].

وما كان لأحد من المسلمين أن يتخيّر من أمره شيئاً غير ما اختار له الله ورسوله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[2].

اللّهمّ إلاّ ما كان من أفعال تصدر عن بعض الصحابة فيقرّها الرسول بسكوت منه مع دلالة الرضى أو بإظهار استحسان وتأييد، فتدخل بذلك ضمن السنّة التقريريّة كما سنوضّح لاحقاً.

وقد اتّخذ هؤلاء الصحابة الذين آمنوا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد بن عبدالله نبيّاً ورسولاً وبالقرآن دستوراً، اتّخذوا من نبيّ هذا الدين الجديد الذي سكنت إليه جوارحهم واطمأنّت إليه نفوسهم أسوة حسنة

(١) الحجرات، الآية: ١.
(٢) الأحزاب، الآية: ٣٦.

وقدوة صالحة يرجعون إليه في كلّ شأن من شؤون حياتهم ويترسّمون خطواته ويتنافسون على طاعته فكان الرسول يغمرهم بتوجيهاته السامية ويشرح لهم ما نزل عليه من آيات الله والحكمة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[2].

من هذا المنطلق كان المسلمون في هذا الدور الأوّل وهم في حاجة ماسّة إلى معرفة ما نزل من آيات الله في حاجة كذلك إلى معرفة بيان الرسول ﷺ لتلك الآيات، فكانت المصادر التي يستقي منها المسلم أحكام دينه هي القرآن الكريم والسنّة النبويّة، فكلاهما وحي من عند الله غير أنّ القرآن وحي باللفظ والمعنى، والسنّة الشريفة وحي بالمعنى دون اللفظ، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[3]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[4].

قال الإمام الشافعي: فذكر الله الكتاب وهو القرآن وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنّة رسول الله ﷺ، وهذا يشبه ما قال والله أعلم لأنّ القرآن ذكر وأتبعه الحكمة، وذكر الله منّه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة[5] فلم يجز ـ والله أعلم ـ أن يقال الحكمة ههنا إلاّ سنّة رسول الله[6].

---

(١) النحل، الآية: ٤٤.

(٢) النحل، الآية: ٦٤.

(٣) النجم ـ الآيتان ـ ٣ و٤.

(٤) النساء، الآية: ١١٣.

(٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ آل عمران ـ الآية ١٦٤.

(٦) الرسالة ص ٧٨.

وأصحاب الرسول ﷺ هم من هم في حسن السمع والطاعة والائتمار بأوامر الله والانتهاء عن نواهيه والاسترشاد بتوجيهات الرسول والاقتداء بسلوكه وأخلاقه والانقياد والتسليم لله ولرسوله تحقيقا لقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[1].

ولقد صوّر الإمام الدهلوي إذعان الصحابة وحسن انقيادهم لله ولرسوله تصويرا دقيقا حين قال: اعلم أنّ رسول الله ﷺ لم يكن الفقه في زمانه الشريف مدوّنا، ولم يكن البحث في الأحكام يومئذ مثل البحث من هؤلاء الفقهاء حيث يبنون بأقصى جهدهم الأركان والشروط والآداب ويفرضون الصور، ويتكلّمون عن تلك الصور المفروضة ويحدّون ما يقبل الحدّ ويحصرون ما يقبل الحصر إلى غير ذلك من صنائعهم، أمّا رسول الله ﷺ فكان يتوضّأ فيرى الصحابة وضوءه فيأخذون به من غير أن يبيّن أنّ هذا ركن وذلك أدب، وكان يصلّي فيرون صلاته فيصلّون كما رأوه يصلّي، وحجّ فرمق الناس حجّه ففعلوا كما فعل، فهذا كان غالب حاله ﷺ، ولم يبيّن أنّ فروض الوضوء ستّة أو أربعة، ولم يفرض أنّه يحتمل أن يتوضّأ إنسان بغير موالاة حتّى يحكم عليه بالصحّة أوالفساد إلاّ ما شاء الله، وقلّما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء، فعن ابن عبّاس قال: ما رأيت قوما كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلاّ عن ثلاث عشرة مسألة[2] حتى قبض، كلّهنّ في القرآن، منهنّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾[3]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾[4]، قال: ما كانوا يسألون

---

(١) النساء، الآية: ٦٥.

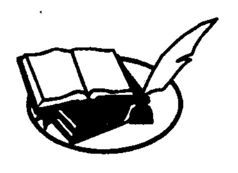
(٢) قال ابن قيم الجوزية عند سوقه لكلام ابن عبّاس، قلت: ومراد ابن عبّاس بقوله: ما سألوه إلاّ عن ثلاث عشرة مسألة، المسائل التي حكاها الله في القرآن عنهم، وإلاّ فالمسائل التي سألوه عنها وبيّن لهم أحكامها بالسنّة لا تكاد تحصى (إعلام الموقّعين ٥٩/١).

(٣) البقرة، الآية: ٢١٧.

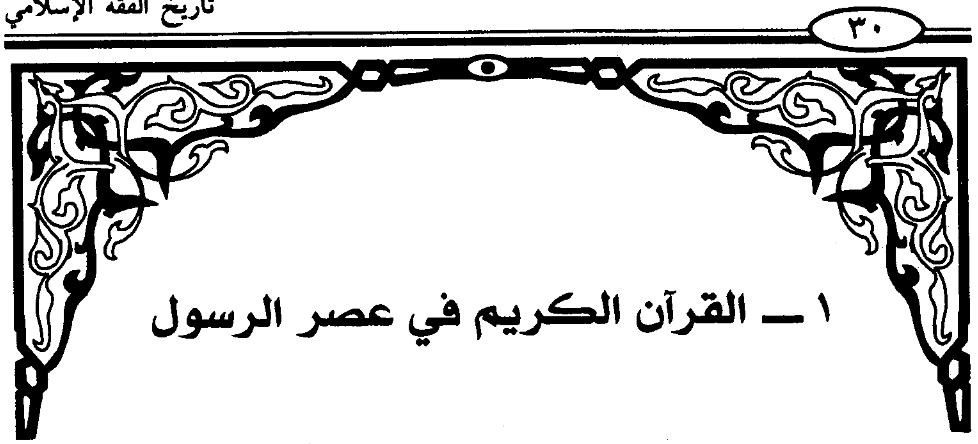
(٤) البقرة، الآية: ٢٢٢.

إلاّ عمّا ينفعهم... وكان ﷺ يستفتيه الناس في الوقائع فيفتيهم وتُرفع إليه القضايا فيقضي فيها ويرى الناس يفعلون معروفا فيمدحه أو منكراً فينكر عليهم، وكلّ ما أفتى به مستفتياً عنه وقضى به في قضيّة أو أنكره على فاعله كان في الاجتماعات(١).

تلك هي مصادر التشريع في هذا الدور: كتاب الله وسنّة نبيّه، ولنثن الآن عنان القلم إلى الحديث عن هذين المصدرين بشيء من التفصيل والبيان.



(١) شاه وليّ الله الدهلوي: حجّة الله البالغة ٢٤٤/١.



١ ــ القرآن الكريم في عصر الرسول

القرآن هو الكلام المعجز المنزّل على الرسول محمّد ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبّد بتلاوته.

والأصوليون يطلقون القرآن على الكلّ وعلى أبعاضه، فيقال لمن قرأ اللفظ المنزّل كلّه إنّه قرأ قرآنا، كما يقال لمن قرأ بعض الآيات منه إنّه قرأ قرآنا.

وقد ثبت أنّ القرآن أنزل على الرسول محمّد ﷺ في شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[١].

والليلة التي ابتدأ فيها نزول الوحي هي ليلة القدر لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[٢]، وقوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[٣]، والليلة المباركة على الأرجح هي ليلة القدر[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة القدر، الآية: ١.

(٣) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٢٦/١٦، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٣٧/٤، ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٧٧/٢٥ ـ ٢٧٨.

وكان **أوّل ما نزل** على الإطلاق قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾[١] إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[٢].

واستمرّ **نزول القرآن** يتتابع إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٨١﴾[٣] وعاش النبيّ ﷺ بعد نزولها تسع ليال، ثمّ انتقل إلى الرفيق الأعلى لليلتين خلتا من ربيع الأوّل.

فكان **نزول القرآن منجماً ومفرّقاً** على مدى اثنتين وعشرين سنة وأشهر وهي المدّة الفاصلة بين مبتدأ التنزيل ومختتمه، وفي ذلك يقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾[٤].

ولتنجيم القرآن أسرار وحِكم كثيرة: منها ما صرّح بها القرآن ومنها ما نبّه إليها العلماء والمفسّرون.

فأمّا ما جاء في القرآن:

ـ ١ ـ من ذلك قول الله جلّت حكمته: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ۝٣٢﴾[٥]، فالله تعالى لم يُكذب الكفّار حين عابوا على الرسول الأكرم تنزّل القرآن مفرّقاً، وإنّما أجابهم ببيان الحكمة في نزوله على هذه الكيفيّة، وهي تثبيت فؤاد الرسول ﷺ على الحقّ وتقوية قلبه وشحذ عزيمته، ذلك أنّ في تجدّد نزول الوحي على الرسول وتكرار تنزّله عليه تسلية لقلبه وتأييداً له للمضيّ قدما، واستشعاراً للعناية الإلهيّة المتواصلة.

ـ ٢ ـ ومن ذلك قوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ

---

(١) سورة العلق، الآية: ١.

(٢) سورة العلق، الآية: ٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[١]، وفي ذلك من التيسير على المسلمين في حفظه وتدبّر معانيه والنظر في أحكامه وحِكمه ممّا لا يخفى عن كلّ ذي عقل سليم.

وأمّا ما أشار إليه العلماء، فمن ذلك:

ـ ٣ ـ أنّ في نزول القرآن مفرّقا ما يساعد على تكرار التحدّي به وتحقيق الإعجاز، فقد ثبت أنّ القرآن الكريم قد تحدّى العرب على مراحل متدرّجة، تحدّاهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو ساعد بعضهم بعضاً.

فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[٢] وقال أيضاً: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[٣].

ثمّ تحدّاهم بأن يأتوا بعشر سور مثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾[٤].

ثمّ تحدّاهم بأن يأتوا بسورة واحدة منه، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾[٥].

فثبت بذلك الإعجاز وظهرت قدرة المعجز.

ـ ٤ ـ وفي نزول القرآن منجّماً مسايرة للحوادث ومواكبة للوقائع المستجدّة، فتكون الآيات المنزّلة أوقع في النفس وأبلغ.

ـ ٥ ـ كما أنّ في نزول القرآن مفرّقاً من التدرّج بالتشريع ما يدعو

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٣) سورة الطور، الآية: ٣٤.
(٤) سورة هود، الآية: ١٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

إلى تجنّب المفاجآت الداعية إلى الإعراض، فلا تشقّ على الأنفس التكاليف ولا تنفر القلوب عن قبول الأحكام المنزّلة وما فيها من أوامر ونواه ملزمة.

هكذا كان ينزل القرآن منجّماً ومفرّقاً، شيئاً فشيئاً على مدى اثنتين وعشرين سنة وأشهر، فربّما نزلت آية واحدة أو حتّى جزء من آية أحياناً، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[١] فعن زيد بن ثابت قال: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيته السكينة فوقعت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثمّ سرّي عنه فقال: اكتب فكتبت في كتف[٢] ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ إلى آخر الآية.

فقام ابن أمّ مكتوم ـ وكان رجلاً أعمى ـ لمّا سمع فضيلة المجاهدين فقال: يا رسول الله فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلمّا قضى كلامه غشيت رسول الله ﷺ السكينة فوقعت فخذه على فخذي ووجدت من ثقلها في المرّة الثانية كما وجدت في المرّة الأولى ثمّ سرّي عن رسول الله ﷺ فقال: «اقرأ يا زيد»، فقرأت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ الآية كلّها، قال زيد: فأنزلها الله وحدها[٣] فألحقتها، والذي نفسي بيده لكأنّي أنظر إلى ملحقها عند صدع في كتف[٤].

وربّما نزلت بضع آيات في غالب الأحيان كما في سورة اقرأ، فأوّل ما نزل منها مفتتح السورة إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[٥]

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٥.

(٢) الكتف: عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه.

(٣) أي قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه من كتاب الجهاد واللفظ له، والإمام أحمد في مسنده من مسند الأنصار.

(٥) سورة العلق، الآية: ٥.

وكما في سورة الضحى، فأوّل ما نزل منها مفتتح السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾[(١)].

وربّما تنزل أحياناً سورة كاملة كما هو الحال بالنسبة لسورة المرسلات فعن عبدالله بن مسعود قال: كنّا مع النبيّ ﷺ في غار حراء فنزلت عليه والمرسلات عرفاً فأخذتها من فيه وإنّ فاه رطب بها فلا أدري بأيّها ختم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨﴾[(٢)].

وكذلك بالنسبة لسورة الأنعام فعن عبدالله بن عباس قال: نزلت سورة الأنعام بمكّة ليلاً جملة وحولها سبعون ألف ملك، وعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيّعها سبعون ألف ملك**»[(٣)].

وكان كلّما نزل على رسول الله نجم من القرآن طلب إلى أصحابه أن يحفظوه، فقد كان التعويل على الحفظ في الصدور في ذلك العصر يفوق التعويل على الحفظ بين السطور على عادة العرب يومئذ من جعل صدورهم أناجيلهم.

ورغم بساطة وسائل الكتابة وأدواتها لديهم فإنّ ذلك لم يصرف بعض من كان يحسن الكتابة من الصحابة من تدوين آيات القرآن الكريم زيادة منهم في التوثّق والحفظ حتّى تظاهر الكتابة الحفظ، ويعاضد ما دوّن بين السطور ما حصّل في الصدور.

فكان لرسول الله **كتّاب وحي** يكتبون ما يملي عليهم من آيات الله، يدوّنونها في العسب ـ جريدة النخل ـ واللخاف ـ حجارة بيض رقيقة ـ وفي الرقاع وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع.

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٥.

(٢) سورة المرسلات ـ الآيتان ٤٨، ٥٠ ـ والحديث أخرجه الحاكم النيسابوري في مستدركه على الصحيحين.

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه.

وكان هؤلاء الكتّاب من خيرة صحابة رسول الله، ففيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب وخالد بن الوليد وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت.

وقد جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ من الحفّاظ فضلاً عن هؤلاء معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وأبو أيّوب الأنصاري[١].

وكان **جمع القرآن وترتيب آياته** يتمّ حسب إرشاد النبيّ ﷺ، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام.

وقد توفّي الرسول ﷺ والقرآن كلّه محفوظ في صدور الحفّاظ من الصحابة مدوّن بين السطور بما تيسّر من وسائل الكتابة آنذاك فبلغت سوره مائة وأربع عشرة سورة، وبلغت آياته نحو ستّة آلاف ومائتين وستّ وثلاثين آية.

وكان نزول القرآن قد انقسم إلى مدّتين متمايزتين، مدّة مكّية ومدّة مدنيّة، فما نزل قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنوّرة اصطلح عليه بالقرآن المكّي ولو كان نزوله بغير مكّة، وأمّا ما نزل بعد الهجرة فاصطلح عليه بالقرآن المدني ولو كان نزوله بمكّة.

وهذا التقسيم هو المشهور، وقد اعتمده العلماء واشتهر بينهم[٢].

ومن **خصائص القرآن المكّي**: أنّ التشريع فيه قد اتّجه إلى إصلاح العقيدة وتعميق أبعادها في نفوس المؤمنين والحفاظ على نقائها وصفائها، فحمل على أهل الشرك والوثنيّة وأتاهم بكلّ حجّة وحكّمهم إلى الحسّ وضرب لهم أبلغ الأمثال وفتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحقّ وقاضاهم إلى الأوّليات والمشاهدات يقودهم بذلك إلى الاعتراف بوحدانية الله والتسليم بمضامين الوحي.

---

(١) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢ و٢٤١، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ٣٨/١ و٦٢ ـ ٦٣، الزرقاني: مناهل العرفان ٢٣٢/١ ـ ٢٤١.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١٨٧/١ ـ ١٨٨، الإتقان في علوم القرآن ٨/١ وما بعدها، مناهل العرفان ١٨٦/١.

وتحدّث عن عادات أهل مكّة القبيحة ولفت أنظارهم إلى ما في ذلك من دناءة ومساوىء وما زال بهم حتّى طهّرهم منها تطهيراً.

وشرح لهم أصول الأخلاق وحقوق الاجتماع فكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان وحبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وقصّ عليهم من أنباء الرسل وأقوامهم ما فيه أبلغ المواعظ والعبر.

وسلك في خطابه القرآني سبيل الإيجاز حتّى جاءت السور المكيّة قصيرة الآيات، صغيرة السور، إذ كانوا أهل فصاحة يناسبهم الإيجاز والإقلال[١].

وأمّا **القرآن المدني** فمن خصائصه: أنّ التشريع فيه قد اتّجه إلى التفصيل في شتّى جوانب القوانين المدنيّة والجنائيّة والحربيّة والاجتماعيّة والدوليّة، وكذلك الحقوق الشخصيّة وسائر ضروب العبادات والمعاملات ومختلف التشريعات العمليّة التي تقام عليها أمور المجتمع وتساس بمقتضاها شؤون الدولة.

كما دعا أهل الكتاب إلى الإسلام وناقشهم في عقائدهم الباطلة وسلك في ذلك كلّه طريق الإطناب والإسهاب في الآيات والسور[٢].

على أنّه وإن انفصل التشريع المدني عن التشريع المكّي من حيث الزمن وكذلك من حيث الخصائص والمميّزات فلا يعني ذلك أنّ بين التشريعين خطّا فاصلا يزيل ما بينهما من ارتباط وامتداد، **إذ ما بني التشريع المدني إلاّ على أصول التوحيد وقواعد الإيمان التي نزل بها الوحي في مكّة.**

وقد فصّل الإمام الشاطبي هذا المعنى حين قال: المدني من السور ينبغي أن يكون منزّلا في الفهم على المكّي، وكذلك المكّي بعضه مع بعض والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل وإلاّ لم يصحّ، والدليل على ذلك أنّ معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكّي كما أنّ المتأخّر من كلّ واحد منهما مبني على متقدّمه، دلّ على

(١) مناهل العرفان ١/١٩٥ ـ ١٩٧.
(٢) مناهل العرفان ١/١٩٧.

ذلك الاستقراء، وذلك إنّما يكون ببيان مجمل أو تخصيص عموم أو تقييد مطلق أو تفصيل ما لم يفصّل أو تكميل ما لم يظهر تكميله.

وأوّل شاهد على هذا أصل الشريعة، فإنّها جاءت متمّمة لمكارم الأخلاق ومُصلحة لما أفسد قبل من ملّة إبراهيم عليه السلام، ويليه تنزيل سورة الأنعام فإنّها نزلت مبيّنة لقواعد العقائد وأصول الدين، وقد خرّج العلماء منها قواعد التوحيد التي صنّف فيها المتكلّمون من أوّل إثبات واجب الوجود إلى إثبات الإمامة، هذا ما قالوا، وإذا نظرت بالنظر المسوق في هذا الكتاب ـ أي بالنظر الكلّي الأصولي ـ تبيّن به من قرب بيان القواعد الشرعيّة الكلّية التي إذا انخرم منها كلّي واحد انخرم نظام الشريعة أو نقص منها أصل كلّي.

ثمّ لمّا هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة كان من أوّل ما نزل عليه سورة البقرة وهي التي قرّرت قواعد التقوى المبنيّة على قواعد سورة الأنعام فإنّها بيّنت من أقسام أفعال المكلّفين جملتها وإن تبيّن في غيرها تفاصيل لها كالعبادات التي هي قواعد الإسلام، والعادات من أصل المأكول والمشروب وغيرهما، والمعاملات من البيوع والأنكحة وما دار بها، والجنايات من أحكام الدماء وما يليها، وأيضاً فإنّ حفظ الدين.

فيها وحفظ النفس والعقل والنسل والمال مضمّن فيها، وما خرج عن المقرّر فيها فبحكم التكميل، فغيرها من السور المدنيّة المتأخّرة عنها مبنيّ عليها كما كان غير الأنعام من المكّي المتأخّر عنها مبنيّا عليها، وإذا تنزلت إلى سائر السور بعضها مع بعض في الترتيب وجدتها كذلك حذو القذّة بالقذّة[1].

ولقد كانت **طريقة تشريع الأحكام** في هذا العصر ـ سواء منها المكّي أو المدني ـ تجري على أحد وجوه ثلاثة:

الوجه الأوّل: أن تنزل مناسبة لحوادث وقعت في زمن الرسول ﷺ، فتتنزّل الآية أو الآيات ببيان ما يتّصل بتلك الحادثة.

---

(١) الشاطبي: الموافقات ٣/٤٠٦ ـ ٤٠٧.

وهذه الحوادث يمكن أن تكون:

ـ ١ ـ **بسبب حصول خلاف**: كالخلاف الذي نشب بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج حتّى كادوا أن يقتتلوا، وذلك أنّ الأوس والخزرج كانوا في الجاهليّة قد تخاذلوا وتحاربوا حتّى تفانوا وكانت بينهم حروب وآخرها يوم بعاث التي انتهت قبل الهجرة بثلاث سنين، فلمّا اجتمعوا على الإسلام زالت تلك الأحقاد بينهم وأصبحوا عدّة للإسلام، فساء ذلك يهود يثرب فقام شاس بن قيس اليهودي ـ وهو شيخ قديم منهم ـ فجلس إلى الأوس والخزرج أو دسّ عليهم من يذكّرهم حروب بعاث، فكادوا أن يقتتلوا ونادى كلّ فريق: يا للأوس، يا للخزرج، واجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفّوا للقتال، فنزل على النبيّ ﷺ قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[١] فجاء عليه الصلاة والسلام حتّى وقف بين الصفّين وقال: أتدعون الجاهليّة وأنا بين أظهركم؟ وفي رواية: أبدعوى الجاهليّة؟ ـ أي تدعون بدعوى الجاهليّة ـ وقرأ الآية ورفع صوته، فما فرغ منها حتّى عرفوا أنّها نزغة من الشيطان وكيد من عدوّهم، فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون، ثمّ انصرفوا مع النبيّ ﷺ سامعين مطيعين[٢].

ـ ٢ ـ **أو بسبب ارتكاب خطإ عظيم**: كقرب الصلاة في حالة سكر ـ قبل تحريم الخمر على المسلمين ـ وذلك أنّ الخمر كانت حلالاً لم يحرّمها الله تعالى أوّل الأمر فبقيت على الإباحة الأصليّة وفي المسلمين من يشربها، وقد أبقى الله إباحتها رحمة للمسلمين في معتادهم مع تهئية النفوس إلى قبول تحريمها.

فَعَنْ عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: صنع لنا عبدالرحمٰن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منّا، وحضرت الصلاة فقدّموني فقرأت: (قل يا أيّها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ونحن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥٥/٤، التحرير والتنوير ٢٨/٤.

نعبد ما تعبدون) فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[1].

- ٣ - **أو بسبب رغبة من الرغبات**: كموافقات عمر بن الخطّاب، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب قال: وافقت ربّي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتّخذنا من مقام إبراهيم مصلّى، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[2] وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنّه يكلّمهنّ البرّ والفاجر، فنزلت آية الحجاب[3] واجتمع نساء النبيّ ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهنّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فنزلت الآية[4] - أي كما نطق بها عمر بن الخطاب -[5].

وفي صحيح مسلم قال عمر بن الخطاب: وافقت ربّي في ثلاث، في مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر[6].

وليس في رواية مسلم ذكر لاجتماع نساء النبيّ في الغيرة عليه، فتكون موافقة عمر في أربع[7].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وانظر: الجامع لأحكام القرآن ٥/٢٠٠، التحرير والتنوير ٥/٦٠.

(٢) سورة البقرة - من الآية - ١٢٥.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى من الآية ٥٣ من سورة الأحزاب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

(٤) سورة التحريم، الآية: ٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢/١١٢ و١٨/١٩١، ١٩٣.

(٦) إشارة إلى قوله تعالى من الآية ٦٧ من سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

(٧) والمتتبّع لأقوال المفسّرين يجد أنّ القرآن قد نزل على مراد عمر بن الخطاب في مواضع أخرى كذلك كما في قوله تعالى من الآية ٨٤ من سورة التوبة التي نزلت في شأن عبدالله بن أبيّ بن سلول ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ وذلك من قبيل الإلهام والتحدّث الذي شهد له به النبيّ ﷺ (الجامع لأحكام القرآن ٨/٢١٨ - ٢١٩).

ـ ٤ ـ **أو من أجل النهي عن القيام بعمل ما:** مثل ما ورد عن عبدالله بن عبّاس أنّ رسول الله ﷺ بعث مرثداً الغنوي ـ واسمه كنّاز بن حصين الغنوي ـ وكان حليفاً لبني هاشم فبعثه إلى مكّة سرّاً ليخرج رجلاً أو ناسا من المسلمين بها أسرى، فسمعت بقدومه امرأة يقال لها: «عناق» وكانت خليلة له في الجاهليّة، فلمّا أسلم أعرض عنها فأتته فقالت: ويحك يا مرثد ألا تخلو؟ فقال لها: إنّ الإسلام قد حال بيني وبينك وحرّمه علينا، فقالت: فتزوّجني، قال: حتّى أستأذن رسول الله، فأتى النبيّ ﷺ فاستأذنه فنزل قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾(١)، فنهى رسول الله ﷺ مرثد عن التزوّج بها لأنّها مشركة(٢).

ـ ٥ ـ **أو من أجل ردّ حقّ لأصحابه:** من ذلك ما ورد عن جابر بن عبدالله قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما معك في أُحد شهيداً، وإنّ عمّهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا تنكحان إلاّ ولهما مال، فقال رسول الله يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث(٣) فبعث رسول الله إلى عمّهما وقال له: اعط ابنتي سعد الثلثين، واعط أمّهما الثمن وما بقي فهو لك(٤).

---

(١) سورة البقرة ـ من الآية ـ ٢٢١.

(٢) الواحدي: أسباب النزول ص ٦٧، الجامع لأحكام القرآن ٦٧/٣، التحرير والتنوير ٣٥٩/٢.

(٣) أي قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ الآية ١١ من سورة النساء، وقد رويت في سبب نزول الآية أحاديث كثيرة واختلفت الروايات في ذلك (انظر: الجامع لأحكام القرآن ٥٧/٥ ـ ٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه من كتاب الفرائض، وابن ماجه في سننه من كتاب الفرائض أيضاً، واللفظ للترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح. =

الوجه الثاني: أن تنزل الآيات متضمّنة لأحكام وقع سؤال الرسول ﷺ عنها ـ وجميعها افتتحت بكلمة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ ـ وهذه الأسئلة الموجّهة إلى الرسول منها ما كانت صادرة عن المسلمين ومنها ما كانت صادرة عن غيرهم:

* **النوع الأوّل: ما كان صادراً عن غير المسلمين**: وهذا النوع إمّا أن يكون.

ـ ١ ـ بإغراء من اليهود لتعجيز النبيّ: من ذلك ما كان من المشركين بمكّة الذين سألوا الرسول ﷺ بإغراء من أحبار اليهود في يثرب ـ وقد كان بين قريش وبين أهل يثرب صِلات كثيرة من مصاهرة وتجارة وصحبة حتّى أنّه كان لكلّ يثربيّ صاحب بمكّة ينزل عنده إذا قدم الآخر بلده ـ[1] فسألوه عن ذي القرنين فنزل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾[2].

ومن ذلك أيضاً ما ورد عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل عنه فقالوا: سلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[3].

وعن عبدالله بن عباس قال: بينا أنا مع النبيّ ﷺ في حرث وهو متّكىء على عسيب إذ مرّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه[4] وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا:

= والحديث أخرجه النسائي في سننه، كتاب تفسير القرآن، والإمام أحمد في مسند بني هاشم ومسند المكثرين من الصحابة.

(١) التحرير والتنوير١٥/١٩٥ و١٦/١٧.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٤) والمقصود ما ألجأكم إلى سؤال تخافون عاقبته بأن يستقبلكم بأمر تكرهونه.

سلوه، فسألوه عن الروح فأمسك النبيّ ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً، فعلمت أنّه يوحى إليه فقمت مقامي فلمّا نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[١].

ووجه الجمع بين الحديثين أنّ اليهود لمّا سألوا النبيّ ﷺ قد ظنّ النبيّ أنّهم أقرب من قريش إلى فهم معنى الروح فانتظر أن ينزل عليه الوحي بما يجيبهم به أبين ممّا أجاب به قريشاً، فكرّر الله تعالى إنزال الآية التي نزلت بمكّة أو أمره أن يتلوها عليهم ليعلم أنّهم وقريشاً سواء في العجز عن إدراك هذه الحقيقة أو أنّ الجواب لا يتغيّر.

هذا، ولا مانع من أن يتكرّر السؤال في مناسبات وذلك شأن الذين معارفهم محدودة فهم يلقونها في كلّ مجلس[٢].

ومن ذلك أيضاً أنّ المشركين أرادوا امتحان رسول الله ﷺ وذلك لفرط إنكارهم فجعلوا يسألونه عن الساعة ووقتها تعجيزاً له، فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٣].

وقيل أنّ اليهود هم الذين كانوا يقولون للنبيّ ﷺ: إن كنت نبيّاً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم[٤].

ومن ذلك أيضاً ما رواه الواحدي أنّ أحد اليهود سأل أنصاريّاً عن الأهلّة وأحوالها في الدقّة إلى أن تصير بدراً ثمّ تتناقص حتّى تختفي فسأل

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم وكتاب تفسير القرآن وكتاب الاعتصام وكتاب التوحيد.
وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنّة.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/١٩٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٧/٣٣٥، التحرير والتنوير ٩/٢٠١.

الأنصاري رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[(١)].

وقيل هذا ممّا سأل عنه اليهود واعترضوا به على النبيّ، فقال معاذ: يا رسول الله إنّ اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلّة فما بال الهلال يبدو دقيقاً ثمّ يزيد حتى يستوي ويستدير ثمّ ينتقض حتّى يعود كما كان؟ فأنزل الله هذه الآية[(٢)].

ـ ٢ ـ أو سؤال استهزاء واستخفاف لا سؤال استهداء واسترشاد: من ذلك أنّهم كانوا يحيلون انقضاء هذا العالم ويقولون فأين تكون هذه الجبال التي نراها، فقد روي أنّ رجلاً من ثقيف سأل النبي ﷺ عن ذلك، وهم أهل جبال لأنّ موطنهم الطائف، فأنبأهم الله بمصيرها وأنزل قوه تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾[(٣)] إبطالاً لشبهتهم وتعليماً للمؤمنين[(٤)].

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس أنّه قال: سأل مشركو مكّة رسول الله متى تكون الساعة استهزاءً، وقد عقدوا قلوبهم على استحالة وقوعها[(٥)]، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾[(٦)].

*** النوع الثاني: ما كان صادراً عن المسلمين: وهذا النوع.**

ـ ١ ـ منه ما كانت الحال فيه مظنّة حيرة المسلمين: مثل سؤالهم عن

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ـ ١٨٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٤١/٢، التحرير والتنوير ١٩٣/٢.
(٣) سورة طه ـ الآيات ـ ١٠٥ ـ ١٠٧.
(٤) التحرير والتنوير ٣٠٦/١٦ ـ ٣٠٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠٧/١٩، التحرير والتنوير ٩٤/٣٠.
(٦) سورة النازعات ـ الآيات ـ ٤٢ ـ ٤٤.

قربان النساء في المحيض، وذلك أنّ المشركين كانوا لا يقربون نساءهم إذا كنّ حيّضاً، وكانوا يفرطون في الابتعاد عنهنّ مدّة الحيض وكان العرب في المدينة وما والاها قد اعتادوا عوائد بني إسرائيل في تجنّب مؤاكلة الحائض ومساكنتها بل إنّ من قبائل العرب من كانت الحائض عندهم مبغوضة، فإن حاضت المرأة أخرجوها إلى الربض حتّى تطهر، فكانت الحال مظنّة حيرة المسلمين في هذا الأمر تبعث على السؤال عنه، ولذلك تساءل المسلمون عن أحقّ المناهج في هذا الشأن، وقد روي أنّ السائل عن هذا هو أبو الدحداح ثابت بن الدحداح الأنصاري، وروي أنّ السائل أسيد بن حضير وروي أنّه عبّاد بن بشر[1].

وعن أنس: أنّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنّ[2] في البيوت، فسأل أصحاب النبيّ ﷺ النبيّ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ إلى آخر الآية، فقال النبي: «**اصنعوا كلّ شيء إلاّ النكاح**»، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلاّ خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعبّاد بن بشر فقالا: يا رسول الله إنّ اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهنّ؟ فتغيّر وجه رسول الله ﷺ حتّى ظننّا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هديّة من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في أثرهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما[3].

ـ ٢ ـ ومنه ما كان السؤال عمّا أحلّ بعد أن نزل أو بعد أن سمعوا ما حرّم عليهم:

من ذلك أنّ عديّ بن حاتم وزيد بن مهلهل وهو زيد الخيل الذي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/٨١، التحرير والتنوير ٢/٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٢) جمع الضمير لأنّ المراد بالمرأة الجنس.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، والنسائي في سننه، كتاب الطهارة وكتاب الحيض والاستحاضة، وأحمد في مسنده من باقي مسند المكثرين من الصحابة، والدارمي في كتاب الطهارة.

سمّاه رسول الله زيد الخير قالا: يا رسول الله إنّا قوم نصيد بالكلاب والبزاة وإنّ الكلاب تأخذ البقر والحمر والظبّاء فمنه ما ندرك ذكاته ومنه ما تقتله فلا ندرك ذكاته، وقد حرّم الله الميتة فماذا يحلّ لنا؟[١] فنزل قوله تبارك وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾[٢].

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس قال: لمّا أنزل الله عزّ وجلّ قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٣]، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾[٤] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتّى يأكله أو يفسد فاشتدّ ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾[٥]، فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه[٦]، وقد روي أنّ السائل عن اليتامى هو عبدالله بن رواحة.

ـ ٣ ـ ومنه ما كان السؤال متعلّقاً بالوجوه التي ينفقون فيها وأين يضعون ما لزم إنفاقه:

من ذلك ما رواه الواحدي عن ابن عباس[٧] أنّ عمرو بن الجموح الأنصاري وكان ذا مال سأل رسول الله ﷺ بماذا يتصدّق وعلى من ينفق فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/٦٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.
(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ٣/٣٧، التحرير والتنوير ٢/٣١٧.

وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾﴾[1].

ـ ٤ ـ ومنه ما يكون السؤال بعد اختلاف في أمر وتنازع في استحقاق شيء ما:

من ذلك أنّ العرب قد كانت لهم عوائد متّبعة في الجاهليّة في الغنائم والأنفال أرادوا العمل بها وتخالفوا في شأنها، وذلك أنّه لمّا كان يوم بدر حاور المسلمون الرسول في الغنائم فمنهم من كان يتكلّم بصريح السؤال ومنهم من كان يخاصم أو يجادل غيره بما يؤذن حاله بأنّه يتطلّب فهما في هذا الشأن وقد تكرّرت الحوادث في هذا الشأن يومئذ[2] حتّى أنزل الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾[3].

ـ ٥ ـ ومنه ما يكون السؤال ممّا يرجع إلى إصلاح الأحوال التي كان عليها الناس في الجاهليّة:

مثل ما كان من شيوع شرب الخمر في الجاهليّة، وذلك أمر معلوم لمن علم أدبهم وتاريخهم، فقد كانت الخمر قوام أود حياتهم وقصارى لذّاتهم ومسرّة زمانهم وملهى أوقاتهم ولم يكن للعرب عيش أعجب منها، ولكنّ الله لم يهمل رحمته بالناس حتّى في حملهم على مصالحهم فلذلك جاءهم في تحريمها بطريقة التدريج فأقرّ حقبة إباحة شربها، ثمّ هيّأ ومهّد لتحريمها على البتات[4] حتّى تساءل الصحابة عن حكمها وسألوا الرسول قولاً فصلاً في شأنها، من ذلك ما رواه الواحدي من أنّ عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل متلفة للمال.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٨/٩.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ١.

(٤) التحرير والتنوير ٣٣٨/٢ ـ ٣٤٠.

فنزل قوله تبارك وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾(١).

* الوجه الثالث: أن تنزل الآيات ابتداءً من غير سبب، بحيث تكون غير مسبوقة بسؤال ولا بحادثة معيّنة، ولكنّ الخالق سبحانه وتعالى العليم بأمور عباده، الخبير بشؤون خلقه، رأى أنّه قد آن أوان إبلاغها فيوحي بها إلى عبده، وهذا الوجه من الآيات موجود بكثرة في القرآن.

ومن **طبيعة النصوص القرآنيّة** أنّها قطعيّة الورود باعتبار أنّها نصوص منقولة بطريق التواتر كتابة ومشافهة، وأمّا من ناحية دلالتها على الأحكام فهي على نوعين:

فمنها ما هو قطعي: بحيث يدلّ النصّ على معناه دون احتمال التأويل، وهذا النوع من النصوص لا مجال للاجتهاد فيه وذلك مثل آيات وجوب الصلاة والصوم والزكاة ومثل آيات المواريث التي حدّدت أنصبة الوارثين ومثل آيات حرمة الزنا وشرب الخمر وحرمة أكل أموال الناس بالباطل، وغيرها من الأحكام التي أخذت حكم المعلوم من الدين بالضرورة.

ومنها ما هو ظنّي: بمعنى أنّها تحتمل التأويل، وهذه النصوص مجال الاجتهاد، والنظر فيها مفتوح، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾(٢) فلفظ القرء من الألفاظ المشتركة التي تجمع معنيين مختلفين متضادّين: هما الحيض والطهر، ولذلك كانت دلالة الآية ظنّية لا قطعيّة، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾(٣) و«أو» ههنا قد تفيد التخيير فيكون

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٢) سورة البقرة ـ من الآية ـ ٢٢٨.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

المعنى المستفاد من الآية أنّ السلطان مخيّر في هذه العقوبات يفعل بقاطع السبيل أيّها شاء، وقد تفيد التفصيل والتبعيض فمن حارب وقتل وأخذ المال صُلب، ومن قتل ولم يأخذ المال قُتل، ومن أخذ المال ولم يقتل قُطعت يده ورجله من خلاف(١).

والفرق بين ما هو قطعي في دلالته وما هم ظنّي في دلالته من النصوص، هو أنّ القطعي واجب الاتّباع فهو بمنزلة العقائد في الملّة، وأمّا الظنّي فهو منبع الخلاف وتعدّد الأفهام والاجتهادات في الأحكام.

وقد **انتهج القرآن في بيان الأحكام** نهجاً تميّز بالتنوّع حتى يكون خطابه أدعى إلى القبول وأبعث على الامتثال، فلم يلتزم بأسلوب واحد في الطلب والتخيير، وإنّما نوّع من تلك الأساليب ممّا يجعل المكلّف يشعر بحلاوة الخطاب وتميّزه ولا يجد فيه تكراراً مملاً يدعوه إلى استثقاله والتبرّم منه، كما أنّ الأصوليين والفقهاء والمتكلّمين واللغويين والمفسّرين يجدون وراء هذا التنوّع حقلاً خصباً للتأمّل والنظر.

وقد استخلص بعضهم بعد الاستقراء ـ **أساليب القرآن المختلفة في الطلب والتخيير** رأيت من المفيد أن أسوقها في هذا المجال لأهميّتها(٢).

ـ ١ ـ **الطلب**: للقرآن في طلب الأفعال جملة أساليب منها ما يتعلّق بطلب الفعل ومنها ما يتعلّق بطلب الكفّ عن الفعل، فأمّا ما يتعلّق بطلب الفعل فمنها:

*** صريح الأمر**:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(٣)

---

(١) ابن السيّد البطليوسي: الإنصاف ص ٤٨.

(٢) تاريخ التشريع الإسلامي ص ٢٤ ـ ٢٩.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٠.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾(١).

*** الإخبار بأنّ الفعل مكتوب على المخاطبين:**

كقول الله تبارك وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ﴾(٢) وقوله عزّ وجلّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾(٤) وقوله: ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ﴾(٥) وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾(٦).

*** الإخبار بأنّ الفعل على الناس عامّة أو على طائفة خاصّة:**

كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾(٧) وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾... ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾(٨) وقوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾(٩).

*** حمل الفعل المطلوب على المطلوب منه:**

كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ﴾(١٠) وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ﴾(١١).

(١) سورة النساء، الآية: ٥٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.
(٥) سورة النساء، الآية: ٢٤.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٠٣.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٩) سورة البقرة، الآية: ٢٤١.
(١٠) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.
(١١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

وهذا الأسلوب يأتي تارة بما يؤكد الطلب وتارة بما يدلّ على عدم التحتّم كقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[1]..

*** أن يكون طلب الفعل بالصيغة الطلبيّة وهي فعل الأمر أو المضارع المقرون باللام:**

كقوله عزّ من قائل: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾[3].

*** التعبير بفرض:**

كقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾[4].

*** ذكر الفعل جزاء لشرط ـ وهذا ليس عاماً ـ:**

كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾[5]، وقوله عزّ وجلّ ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[6]، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[7].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.
(٣) سورة الحجّ، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٨٠.

*** ذكر الفعل مقروناً بلفظ خير:**

كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾(١).

*** ذكر الفعل مقروناً بوعد:**

كقوله عزّ وجلّ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾(٢).

*** وصف الفعل بأنه برّ أو موصل للبرّ:**

كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾(٣)، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾(٤)، وقوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾(٥).

وأمّا ما يتعلّق بطلب الكفّ عن الفعل فله كذلك أساليب مختلفة منها:

*** صريح النهي:**

كقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ﴾(٦)، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾(٧).

*** التحريم:**

كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.
(٦) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٧) سورة الممتحنة، الآية: ٩.

وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[١]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

*** عدم الحِلّ:**

كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾[٥]، وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾[٦].

*** صيغة النهي:** وهي المضارع المسبوق بلا الناهية أو فعل الأمر الدال على طلب الكفّ، وذلك نحو: دع، وذر، واجتنب، ولا تقرب:

كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾[٨]، وقوله عزّ وجلّ ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾[٩]، وقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[١٠].

*** نفي البرّ عن الفعل:**

كقوله تبارك وتعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.
(٣) سورة النور، الآية: ٣.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٩.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.
(٧) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ١٢٠.
(٩) سورة الأحزاب، الآية: ٤٨.
(١٠) سورة الحجّ، الآية: ٣١.

وَٱلْمَغْرِبِ...﴾[١]، وقوله عزّ وجلّ ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[٢].

*** نفي الفعل:**

كقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣]، وقوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[٤]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾[٥].

*** ذكر الفعل مقروناً باستحقاق الإثم:**

كقوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾[٦].

*** ذكر الفعل مقروناً بوعيد:**

كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٧]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[٨].

*** وصف الفعل بأنه شرّ:**

كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾[٩].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨١.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٣٤.
(٨) سورة التوبة، الآية: ٢٧٥.
(٩) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

ـ ٢ ـ **التخيير**: وللقرآن أساليب في ترك الأمر للمكلّف على التخيير والإباحة إن شاء فعل وإن شاء ترك فمنها:

*** لفظ الحلّ مسنداً إلى الفعل أو متعلّقاً به:**

كقوله عزّ وجلّ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾(٢)، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ﴾(٣).

*** نفي الإثم:**

كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ﴾(٤)، وقوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾(٥)، وقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ﴾(٦).

*** نفي الجناح:**

كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ﴾(٧)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ﴾(٨).

هكذا كان منهج القرآن في بيان الأحكام منهجاً اتّسم بالتنوّع في بيان

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٢.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٩٣.
(٨) سورة النور، الآية: ٥٨.

أوامره ونواهيه وتضمّن الكثير من المسائل المتعلّقة بنواحي الحياة المختلفة، فمنها الأحكام المتعلّقة بنظام الأحوال الشخصيّة ومنها أحكام المعاملات الماليّة وأحكام العقوبات والأحكام الدستوريّة والدوليّة فضلاً عن الأحكام المتعلّقة بالوجدانيات التي تدعو إلى تهذيب النفس وتسمو بالفرد والجماعة نحو الكمال، وكذلك الأحكام المتعلّقة بالعقيدة والعبادات.

هذه الأحكام على تعدّدها وتنوّعها قد جاءت لإسعاد الإنسان في حياته وآخرته ولذلك كان لكلّ عمل دنيويّ بُعد أخرويّ، بمعنى أنّ كلّ عمل سواء كان تعبّدياً أو مدنيّاً أو جنائيّاً أو دستوريّاً إلاّ وله أثره الذي يترتّب عليه في الدنيا من آداء للواجب أو إفادة للحليّة أو للحرمة، أو إنشاء لحقّ أو زواله أو توقيع للعقوبة أو ترتيب للمسؤولية ونحو ذلك، كما له أثره الذي يترتّب عليه في الآخرة من ثواب أو عقاب.

هذا الربط المحكم والشدّ الوثيق بين العمل الدنيوي والجزاء الأخروي في كلّ حكم من الأحكام التي ورد بها القرآن ليس من باب العبث ولا من قبيل الصدفة، وإنّما هو من مقتضيات منطق التشريع الإسلامي الذي جعل الحياة الدنيا دار اختبار وامتحان، وجعل الآخرة دار الجزاء والخلود.

من هذا المنطلق كان التشريع في الإسلام يُعنى بإصلاح البُعد العقائدي في الإنسان كما يعنى بتنظيم الحياة العمليّة مرتّباً على كلّ فعل أو تصرّف إنساني بعدين: بعداً دنيويّاً يُبنى على ظاهر الفعل الإنساني وتصرّفاته، وبعدا أخرويّا يبنى على باطن الفعل وحقيقته.

فعن أمّ سلمة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّما أنا بشر وإنّكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي له على نحو ممّا أسمع، فمن قضيت له من أخيه شيئاً فلا يأخذ فإنّما أقطع له قطعة من النار**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحيل وكتاب الأحكام، ومالك في الموطّأ، كتاب الأقضية.

هذا التشريع الإلهي الذي أُنزل لإصلاح أحوال الناس وانتظام جميع جوانب حياتهم قد رُوعيت فيه جوانب ثلاث هي **خصائص هذا التشريع الإسلامي**، وهي:

*** الخاصيّة الأولى: السماحة ورفع الحرج:**

أمّا السماحة فهي ـ كما عرّفها العلاّمة الشيخ الطاهر بن عاشور ـ: سهولة المعاملة في اعتدال محمود فيما اعتاد الناس التشديد فيه، فهي وسط بين التضييق والتساهل وهي راجعة إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسّط(١).

والسماحة هي من الأصول العامّة المقطوع بها، وهي من المبادىء الأساسيّة لهذا التشريع، فخاصيته السماح وشأنه الرفق بالناس حتى أنّه لا يساغ لأحد أن يعرض عن أحكام الله بحجّة عدم القدرة وقلّة الطاقة وهذا في جميع حالات الإنسان قويّاً كان أو ضعيفاً لأنّ الله تعالى قد جعل هذا التشريع سمحاً سهلاً، راعى فيه طاقة الإنسان وإمكاناته وقدراته.

وبهذا تميّزت شريعة الإسلام عن بقيّة الشرائع السماويّة التي شرّع الله فيها من الأحكام الشاقّة ما يتناسب مع أوضاع الأمم السالفة، كاشتراط قتل النفس للتوبة من العصيان والتخلّص من الخطيئة، فقد قال سبحانه وتعالى حاكيا هذا الأمر في القرآن ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾(٢)، وغير هذا من التكاليف الشاقّة ممّا أشار إليه القرآن إجمالا بقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾(٣)(٤).

ومن **مظاهر هذه السماحة** قلّة التكاليف الشرعيّة، فالتشريع الإلهي لم يأت بتكاليف كثيرة ترهق المكلّفين لأنّ في إرهاقهم خروجاً عن السماحة

(١) مقاصد الشريعة ص ٦١ ـ ٦٢، وأصول النظام الاجتماعي ص ٢٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٤.
(٣) الإصر: العبء الثقيل، والمراد به هنا التكاليف الشرعيّة (الجامع لأحكام القرآن ٤٣٢/٣).
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

والاعتدال، ولذلك فرض الله تعالى الصوم في السنة شهراً، والحجّ في العمر مرّة، ونحو ذلك من أحكام العبادات.

ولا يقتصر نطاق السماحة والتيسير على شؤون العبادات وإنّما يتّسع لكلّ الأحكام من معاملات مدنيّة وعقوبات جزائيّة وتشريعات قضائيّة ونحوها.

والحكمة من السماحة: أنّ الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمور الفطرة راجعة إلى الجبلّة، فهي كائنة في النفوس، سهل عليها قبولها، ومن الفطرة النفور من الشدّة والإعنات، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[(١)].

وقد أراد الله أن تكون شريعة الإسلام شريعة عامّة ودائمة، فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذها بين الأمّة سهلاً، ولا يكون ذلك إلاّ إذا انتفى عنها الإعنات والضرر، فكانت بسماحتها أشدّ ملاءمة للنفوس لأنّ فيها إراحة النفوس في حالتي خويصتها ومجتمعها ـ أي في حالتيها الفرديّة والاجتماعيّة ـ ومن هذا كلّه يتبيّن لنا ما للسماحة من أثر عظيم في انتشار الشريعة وطول دوامها[(٢)].

ونظرا لحرص الشارع على استدامة هذا الوصف الأعظم لأحكامه فقد قرّر لها أنّها إن عرض لها من العوارض الزمنيّة أو الحاليّة ما يصيّرها مشتملة على شدّة انفتح لها باب الرخصة المشروع[(٣)]، بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ﴾[(٥)].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٨.

(٢) مقاصد الشريعة ص ٦٣.

(٣) ابن عاشور محمد الطاهر: أصول النظام الاجتماعي ص ٢٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

(٥) سورة الأنعام ـ ١١٩.

ومن هنا يتّضح أنّ التشريع قد بُني على سهولة قبوله في نفوس الناس لأنّه تشريع سمح سهل ليس نكاية ولا حرجاً، فهو يحمل الناس على المصالح حملاً أقصى ما يمكن أن يكون الحمل من الرحمة والتيسير، إذ لا فائدة في التشريع إلاّ العمل به(١).

وأمّا الحرج فهو كلّ ما أدّى إلى مشقّة زائدة في البدن أو النفس أو المال حالاً أو مآلاً.

والمقصود برفع الحرج هو إزالة كلّ ما يؤدّي إلى تلك المشقّة الزائدة سواء تعلّقت بالبدن أو النفس أو المال وسواء أكانت في الحال أو في المآل، ويتوجّه الرفع والإزالة إلى حقوق الله سبحانه وتعالى لأنّها مبنيّة على المسامحة، ويكون ذلك إمّا بارتفاع الإثم عند الفعل، وإمّا بارتفاع الطلب للفعل، وحينما يرتفع كلّ ذلك ترتفع حالة الضيق التي يعاينها المكلّف عندما يستشعر أنّه يقدم على ما لا يرضي الله، وهذا هو الحرج النفسي والخوف من العقاب الأخروي، كما يرتفع الحرج الحسّي حينما يكون التكليف شاقّا، فيأتي العفو من الله سبحانه وتعالى إمّا بالكفّ عن الفعل الموقع في الحرج، وإمّا بإباحة الفعل عند الحاجة إليه(٢).

ولرفع الحرج في شريعة الله مظاهر ثلاثة:

ـ ١ ـ أنّ أحكامها مبنيّة على التيسير نظراً لغالب الأحوال، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(٣)، وقال أيضاً ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(٤).

ـ ٢ ـ أنّها تعمد إلى تغيير الحكم الشرعي من صعوبة إلى سهولة في

(١) مقاصد الشريعة ص ١٣٢.
(٢) ابن حميد: رفع الحرج في الشريعة الإسلاميّة ص ٤٨ ـ ٤٩.
(٣) سورة الحجّ ـ الآية ٧٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

الأحوال العارضة للأمّة أو للأفراد، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾[١]، وقال تبارك وتعالى أيضاً: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾[٢].

ـ ٣ ـ أنّها لم تترك للمخاطَبين بها عذرا في التقصير في العمل بها لأنّها بُنيت على أصول الحكمة والتحليل والضبط والتحديد[٣].

فقاعدة رفع الحرج روح تسري في جسم الشريعة كلّها كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحيّة، وهي مبنيّة على رعاية ضعف الإنسان وكثرة أعبائه وتعدّد مشاغله وضغط الحياة ومتطلّباتها عليه، وشارع هذا الدين رؤوف رحيم لا يريد بعباده عنتاً ولا رهقاً، وإنّما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال والمآل في المعاش والمعاد[٤].

ويظهر هذا لكلّ متتبّع لأحكام الشريعة الجزئيّة المتضمّنة في النصوص التفصيلية في مختلف النوازل الشرعيّة، فجميع الأحكام متّفقة على أصل رفع الحرج، قال تعالى ـ في ختام آية الطهارة بعد أن رخّص في التيمّم عند فقد الماء ـ ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾[٥]، وقال تعالى في أواخر سورة الحجّ ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾[٦]، وفي سورة النساء بعد إباحة الزواج بالإماء لمن عجز عن الحرائر، قال ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾[٧]، وفي سورة البقرة بعد أن شرّع الله العفو في القتل لمن طابت به نفسه قال ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾[٨].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.
(٣) مقاصد الشريعة ص ١٣٢.
(٤) القرضاوي: الخصائص العامّة للإسلام ص ١٧٧.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٦.
(٦) الآية ـ ٧٨.
(٧) الآية ـ ٢٨.
(٨) الآية ـ ١٧٨.

وهكذا فإنّ في القرآن آيات عديدة نصّت على نفي الحرج صراحة، آيتان منها تنفي الحرج عن الدين كلّه، وخاصّة آية الحجّ، والآيات الأخرى تنفي الحرج عن فئات معيّنة وفي حالات خاصّة، ولكن هذا لا يعني قصور دلالتها، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[١].

وقد جاءت الأحاديث النبويّة الشريفة تؤكّد هذا الاتّجاه القرآني في السير نحو رفع الحرج، وكانت سِمة الرسول المميّزة له في كتب أهل الكتاب هي: سمة الميسّر ورافع الآصار والأغلال التي أرهقت أهل الأديان السابقة كما قال تعالى في محكم تنزيله ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٢].

والسبب في **رفع الحرج** عن الناس في التكاليف أمران:

أحدهما: خوف الانقطاع من الطريق وبغض العبادة وكراهة التكليف، ولذلك فإنّ الله تبارك وتعالى قد وضع هذه الشريعة المباركة حنيفيّة سمحة سهلة[٣] حفظ فيها على الخلق قلوبهم من النفرة من تكاليفها وحبّبها لهم بذلك، فلو عملوا على خلاف السماح والسهولة لدخل عليهم فيما كلّفوا به ما لا تخلص بهم أعمالهم.

الثاني: خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلّقة بالعبد المختلفة الأنواع، مثل قيامه على أهله وولده إلى تكاليف أخر، فربّما كان التوغّل في بعض الأعمال شاغلا عنها وقاطعا للمكلّف دونها، وربّما أراد حمل الطرفين على المبالغة في الاستقصاء فانقطع عنهما، فإنّ المكلّف مطلوب بأعمال ووظائف شرعيّة لا بدّ له منها ولا محيص له عنها يقوم فيها بحقّ

---

(١) ابن حميد: رفع الحرج في الشريعة الإسلاميّة ص ٥٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٣) وقد أخرج أحمد في مسنده والبخاري في كتاب الأدب والطبراني في الكبير أنّ الرسول ﷺ قال: «**أحبّ الأديان إلى الله الحنيفيّة السمحة**» (انظر: السيوطي: الجامع الصغير وشرحه فيض القدير للمناوي ١/٢٢٠).

ربّه تعالى، فإذا أوغل في عمل شاق فربّما قطعه عن غيره ولا سيّما حقوق الغير التي تتعلّق به، فيكون عبادته أو عمله الداخل فيه قاطعا عمّا كلّفه الله به فيقصر فيه، فيكون بذلك ملوماً غير معذور إذ المراد منه القيام بجميعها على وجه لا يخلّ بواحدة منها ولا بحال من أحواله فيها[1].

*** الخاصيّة الثانية: مراعاة سنّة التدريج في التشريع:**

لقد رأينا كيف أنّ الأحكام كانت تنزل بناء على حوادث وقعت في زمن النبيّ ﷺ، أو جوابا على أسئلة وجّهت إليه سواء أكان مصدر هذه الأسئلة المسلمون أو سواهم من اليهود والمشركين، وكانت أحياناً تنزل ابتداء بناء على تقدير الشارع أنّه قد آن أوان إبلاغها.

والحكمة في ذلك أنّ الرسول ﷺ قد بُعث إلى العرب وكانت قد استحكمت فيهم عقائد ومعاملات وعادات وأعراف منها ما هو صالح ومنها ما هو ضارّ ومفسد، فأبقى الصالح منها وأبطل الفاسد منها.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى في ذلك أن يتدرّج بهم شيئاً فشيئاً لإكمال دينه وإتمام نعمته على خلقه فضلاً عمّا في التدرّج من تيسير للمعرفة ووقوف على أسباب التشريع وما يحيط بنزول الحكم من ظروف وملابسات.

ومراعاة سنّة التدريج فيما شرّعه الله لعباده إيجاباً أو تحريماً ثبت في مواضع كثيرة من القرآن، وفيما يلي نماذج تبرز هذه السنّة الإلهيّة وعيّنات تثبت هذه الحكمة الربّانيّة.

*** في مجال العبادات:** لقد فرضها الله على مراحل حتّى انتهت إلى ما هي عليه.

ـ ١ ـ فالصلاة شرّعت في أوّل الأمر صلاة في الغداة وصلاة في

---

(١) الموافقات ١٣٦/٢ ـ ١٤٣.

العشيّ ركعتين ركعتين، ثمّ جعلها الله خمس صلوات في اليوم والليلة، وأقرّها في السفر على ركعتين وزادها في الحضر إلى أربع ركعات في الظهر والعصر والعشاء.

ـ ٢ ـ والصوم كان أوّل الأمر اختياريّاً من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً عن كلّ يوم أفطره، ثمّ أصبح فريضة لازمة على كلّ مسلم مقيم خال من الأعذار المبيحة للفطر.

ـ ٣ ـ والزكاة فرضت أوّل الأمر على التخيير فمن شاء أنفق متى شاء، فلا نصاب يحدّد الأموال القليلة من الأموال الكثيرة ولا مقادير تحدّد نسبة ما يجب إخراجه على كلّ صنف من الأصناف وغيرها من الشروط اللازمة لوجوب إخراج الزكاة، ثمّ أصبحت بعد ذلك فريضة لازمة محدّدة المقادير، واجبة على كلّ من توفّرت فيه شروط وجوب آدائها.

* **في مجال الممنوعات**: والمحرّمات قد روعي فيها كذلك ما روعي في الواجبات، فحرّم بعضها على مراحل حتّى انتهت إلى ما هي عليه:

ـ ١ ـ فالخمر التي كانت من المشروبات المنتشرة عند العرب لم تحرّم رأسا، وإنّما وقع التمهيد لتحريمها حتّى انتهت إلى التحريم القاطع.

ففي أوّل الأمر حين سأل المسلمون رسول الله ﷺ عن حكم شاربها نزل قول الله تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴿٢١٩﴾﴾[1] فلم يقطع النصّ القرآني بوجوب الانتهاء عن شربها، وإنّما مهّد لتحريمها ببيان أضرارها.

ثمّ صرّح بالنهي عن قرب الصلاة حالة السكر فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٣.

ثمّ جاء التصريح القاطع بطلب الكفّ على سبيل الإلزام، فقال تبارك وتعالى في محكم تنزيله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[1].

ـ ٢ ـ والربا الذي كان أهل الجاهليّة يستحلّونه أضعافاً مضاعفة قد تدرّج التشريع في تحريمه، ففي أوّل الأمر أوضح الله أنّ الربا لا نماء فيه ولا بركة فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾[2].

فلم يصرّح بطلب الكفّ عن التعامل بالربا وإن كان يفهمه من أسلوب هذه الآية فقيه النفس الخبير بسرّ التشريع، لأنّ الله أقام مقارنة بين الربا وبين الزكاة وبيّن أنّ الأخيرة ممّا يضاعف الله ثوابها، ثمّ صرّح بأنّ الربا ظلم، وأنّه قد حرّم على اليهود طيّبات كثيرة بسبب بغيهم وظلمهم وأكلهم الربا وقد نهوا عنه، فقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾[3].

ثمّ نهى بعدها عن تعاطي الربا في أبشع صوره وهي الصورة التي كانت شائعة بين الناس في الجاهليّة وصدر الإسلام، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾[4].

---

(١) سورة المائدة ـ الآيتان ـ ٩٠ ـ ٩١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٩.

(٣) سورة النساء ـ الآيتان ـ ١٦٠ ـ ١٦١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

وعلّق العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور تعليقا مفيدا أثناء تفسيره لهذه الآية=

ثمّ نزلت الآيات الحاسمة مصرّحة بالنهي المطلق عن التعامل بالربا مصحوبة بالتهديد والترهيب وإعلان الحرب على المرابين فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ اتَّقُوا۟ اللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾[1].

وعلى أصل سنّة التدريج في التشريع ثبت أصل آخر هو الإجمال ثمّ التفصيل، ويبدو هذا واضحا من خلال المقارنة بين التشريع المكّي والتشريع المدني، فالتشريع المكّي فيما تعرّض له من أحكام عمليّة جاء خطابه بشكل كلّي، ثمّ جاء التشريع المدني ليفصّل ما ورد بشكل كلّي في الفترة المكيّة.

= فقال: ولقد قضى المسلمون بعد هذا التحريم الصريح قرونا طويلة لم يروا أنفسهم فيها محتاجين إلى التعامل بالربا ولم تكن ثروتهم أيّامئذ قاصرة عن ثروة بقيّة الأمم في العالم أزمان كانت سيادة العالم بيدهم أو أزمان كانوا مستقلّين بإرادة شؤونهم، فلمّا صارت سيادة العالم بيد أمم غير إسلاميّة وارتبط المسلمون بغيرهم في التجارة والمعاملة، وانتظمت سوق الثروة العالميّة على قواعد القوانين التي لا تتحاشى المراباة في المعاملات، ولا تعرف أساليب مواساة المسلمين دهش المسلمون، وهم اليوم يتساءلون وتحريم الربا في الآية صريح وليس لما حرّمه الله مبيح ولا مخلّص من هذا المضيق إلاّ أن تجعل الدول الإسلاميّة قوانين ماليّة تبنى على أصول الشريعة في المصارف والبيوع وعقود المعاملات المركّبة من رؤوس الأموال وعمل العمّال وحوالات الديون ومقاصّتها وبيعها، وهذا يقضي بإعمال أنظار علماء الشريعة والتدارس بينهم في مجمع يحوي طائفة من كلّ فرقة كما أمر الله تعالى (التحرير والتنوير ٨٧/٤).

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٧٥ ـ ٢٧٩.

يقول الشاطبي: إذا رأيت في المدنيات أصلاً كلّياً فتأمّله تجده جزئيّاً بالنسبة إلى ما هو أعمّ منه أو تكميلاً لأصل كلّي، وبيان ذلك أنّ الأصول الكلّية التي جاءت الشريعة بحفظها خمسة وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

أمّا الدين فهو أصل ما دعا إليه القرآن والسنّة وما نشأ عنهما، وهو أوّل ما نزل بمكّة.

وأمّا النفس فظاهر إنزال حفظها بمكّة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[3]، وأشباه ذلك.

وأمّا العقل فهو وإن لم يرد تحريم ما يفسده وهو الخمر إلاّ بالمدينة، فقد ورد في المكّيات مجملاً، إذ هو داخل في حرمة حفظ النفس كسائر الأعضاء ومنافعها من السمع والبصر وغيرهما وكذلك منافعهما، فالعقل محفوظ شرعاً في الأصول المكيّة عمّا يزيله رأساً كسائر الأعضاء ساعة أو لحظة، ثمّ يعود كأنّه غطى عنه ثمّ كشف عنه، وأيضاً فإنّ حفظه على هذا الوجه من المكمّلات لأنّ شرب الخمر قد بيّن الله مثالها في القرآن حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾[4]، فظهر أنّها من العون على الإثم والعدوان.

وأمّا النسل فقد ورد المكّي من القرآن بتحريم الزنى والأمر بحفظ الفروج إلاّ على الأزواج أو ملك اليمين.

وأمّا المال فورد فيه تحريم الظلم وأكل مال اليتيم والإسراف والبغي

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.
(٢) سورة التكوير، الآيتان: ٨، ٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٩١.

ونقص المكيال أو الميزان والفساد في الأرض وما دار بهذا المعنى.

وأمّا العرض الملحق بها فداخل تحت النهي عن إذايات النفوس.

ولم ترد هذه الأمور في الحفظ من جانب العدم إلاّ وحفظها من جانب الوجود حاصل، ففي الأربعة الأواخر ظاهر، وأمّا الدين فراجع إلى التصديق بالقلب والانقياد بالجوارح، والتصديق بالقلب آت بالمقصود في الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ليفرّع عن ذلك كلّ ما جاء مفصّلاً في المدني، فالأصل وارد في المكّي، والانقياد بالجوارح حاصل بوجه واحد، ويكون ما زاد على ذلك تكميلاً.

وقد جاء في المكّي من ذلك النطق بالشهادتين والصلاة والزكاة، وذلك يحصل به معنى الانقياد، وأمّا الصوم والحجّ فمدنيان من باب التكميل، على أنّ الحجّ كان من فعل العرب أوّلاً وراثة عن أبيهم إبراهيم عليه السلام، فجاء الإسلام فأصلح منه ما أفسدوا وردّهم فيه إلى مشاعرهم، وكذلك الصيام أيضاً فقد كانوا في الجاهليّة يصومون يوم عاشوراء، وكان النبيّ ﷺ يصومه أيضاً حين قدم المدينة، صامه وأمر بصيامه حتّى نسخه رمضان، فأحكمهما التشريع المدني وأقرّهما على ما أقرّ الله تعالى من التمام الذي بيّنه في اليوم الذي هو أعظم أيّامه حين قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(١) فلهما أصل في المكّي على الجملة.

والجهاد الذي شُرّع بالمدينة فرع من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو مقرّر بمكّة كقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾(٢)، وما أشبه ذلك.

وبناء على ما تقدّم يمكن القول بأنّ التشريع المكّي هو أصل للتشريع

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٧.

بالمدينة، والتشريع المكّي مجمل نادرا ما يتعرّض لأحكام تفصيليّة، في حين أنّ التشريع المدني قد تعرّض للعديد من التفصيلات خاصّة فيما يتعلّق بالمعاملات المدنيّة، وفي ذلك من التدرّج بالتشريع ما لا يخفى على كلّ ذي علم.

*** الخاصيّة الثالثة: النسخ:**

يطلق النسخ في لغة العرب على معنيين أحدهما: الإزالة والإبطال، وثانيهما: النقل والتحويل، أمّا في الاصطلاح فقد عرّف بتعاريف مختلفة، وما دام الهدف في هذا المقام تصوير حقيقة النسخ في التشريع الإسلامي في هذا الدور فإنّي أكتفي بتعريف واحد أراه أنسب، وهو: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخّر.

ويظهر من كلام المتقدّمين أنّ النسخ في عرفهم أعمّ منه في كلام الأصوليين، إذ قد يطلقون على تقييد المطلق نسخاً، وعلى تخصيص العموم بدليل متّصل أو منفصل نسخاً، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخاً كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخّر نسخاً، لأنّ جميع ذلك مشترك في معنى واحد، وهو أنّ النسخ في الاصطلاح عند المتأخّرين اقتضى أنّ الأمر المتقدّم غير مراد في التكليف، وإنّما المراد ما جيء به آخراً، فالأوّل غير معمول به، والثاني هو المعمول به[1].

ومن شواهد هذا التعميم قول ابن عبّاس في قول الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾[2] هو منسوخ بقول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[3].

ونحن سواء سرنا في تعريف النسخ مع إطلاق المتقدّمين ـ وهو الأعمّ ـ أم سرنا مع إطلاق الأصوليين ـ وهو الأخصّ ـ فإنّ ذلك لا ينفي

(١) الموافقات ٤٦/٣ ـ ٥٠ و١٠٨/٣.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

حقيقة ثابتة وهي أنّ النسخ في التشريع الإسلامي قد وقع في هذا الدور الذي نحن بصدده.

والباعث على وقوع النسخ في القرآن هو رعاية مصلحة المسلمين وأخذهم إلى بعض الأحكام على وجه التدريج حتّى يسهل عليهم الامتثال، كما يرجع إلى أصل من الأصول الثلاثة التي كنّا قد أثبتناها في التشريع الإسلامي ألا وهو السماحة ورفع الحرج.

فليس في النسخ ـ كما يتوهّم البعض ـ شيء من العبث في كثير ولا في قليل، فالله تبارك وتعالى يقول ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[1] فالحكم الناسخ قد يكون خيراً من الحكم المنسوخ، وقد يكون مثله، وذلك أنّه قد يكون أخفّ منه، ومصدر الخيريّة فيه ـ حين يكون كذلك ـ أنّه أيسر في العمل، وقد يكون أشقّ منه ومصدر الخيريّة ـ إن كان من هذا النوع ـ أنّه أعظم مثوبة وأكثر أجراً، وقد يكون هو والمنسوخ متماثلين في السهولة أو في المشقّة وفي مقدار الأجر فليس أحدهما أيسر أداء ولا أعظم أجراً ولكن أسبقهما استنفد الغاية من تشريعه وأصبح الثاني هو الذي تقتضيه المصلحة ويتطلّبه المجتمع في وضعه الذي تطوّر إليه[2].

ومن أمثلة **نسخ الحكم الأصعب بما هو أسهل منه**: نسخ وجوب وقوف الواحد من المسلمين للعشرة من الكفّار حيث اقتضته قلّة المسلمين، ورفع هذا الوجوب حيث استغني عنهم بكثرتهم، قال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾[3] ثمّ قال الله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

(٢) مصطفى زيد: النسخ في القرآن الكريم ٢٧٨/١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[١].

ومثل نسخ تحتّم تقديم الصدقات بين يدي النجوى برفع ذلك التحتيم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ﴾[٢] ثمّ قال تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾[٣].

ومثل نسخ طلب قيام جزء من الليل يقرب من نصفه بالاقتصار على قراءة ما تيسّر من القرآن، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾[٤] ثمّ قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾[٥].

ومن أمثلة **نسخ الأسهل بما هو أصعب منه**: موقف الإسلام من مشكلة الخمر إذ كانت مشكلة معقّدة كلّ التعقيد، ذلك أنّ عرب الجاهليّة كانوا يحتسون الخمر بصورة تكاد تكون إجماعيّة، ويأتونها لا على أنّها عادة مجرّدة بل على أنّها أمارة قوّة ومظهر الفتوّة وعنوان الشهامة، فلم يكن معقولاً أن ينجح الإسلام في فطامهم عنها لو لم يتألّفهم ويتلطّف بهم إلى درجة أن يمتنّ عليهم بها أوّل الأمر كأنّه يشاركهم في شعورهم، وحسبكم في هذا الامتنان بذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًاۗ﴾[٦]، وإلى حدّ أنّه أبى أن يحرّمها عليهم في

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٢.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٣.
(٤) سورة المزّمّل ـ الآيات ـ ١ ـ ٤.
(٥) سورة المزّمّل، الآية: ٢٠.
(٦) سورة النحل، الآية: ٦٧.

وقت استعدّت فيه بعض الأفكار لتسمع كلمة تحريمه حين سألوا الرسول ﷺ عن حكمها(١).

ومن أمثلة **نسخ الحكم بمساويه في صعوبته أو سهولته**: نسخ القِبلة التي كانت أوّلاً إلى بيت المقدس ثمّ أصبحت إلى بيت الله الحرام، قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾(٢).

والآيات المنسوخة منها **ما نسخ حكمها وتلاوتها** كنسخ تحريم عشر رضعات بتحريم خمس رضعات المشار إليها بالحديث الذي ورد عن عائشة أمّ المؤمنين أنّها قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرّمن ثمّ نسخن بخمس معلومات فتوفّي رسول الله ﷺ وهنّ فيما يقرأ من القرآن(٣).

ومنها **ما نسخ لفظها وبقي حكمها** كآية تقديم الصدقة أمام مناجاة الرسول ﷺ وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾(٤).

ومنها **ما نسخ لفظه وبقي حكمه** كنسخ آية رجم الزاني المحصن مع بقاء الحكم، فقد روى الإمام مالك أنّ عمر بن الخطاب قدم المدينة فخطب الناس فقال: أيّها الناس قد سنّت لكم السنن وفرضت لكم الفرائض وتركتم على الواضحة إلاّ أن تضلّوا بالناس يميناً وشمالاً، وضرب بإحدى يديه على الأخرى ثمّ قال: إيّاكم أن تهلكوا عن آية الرجم أن

---

(١) مناهل العرفان ٢/١٩٥ ـ ١٩٦، التحرير والتنوير ٢/٣٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

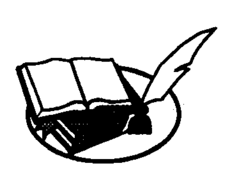
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، ومالك في الموطّأ، كتاب الرضاع، باب جامع ما جاء في الرضاعة.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

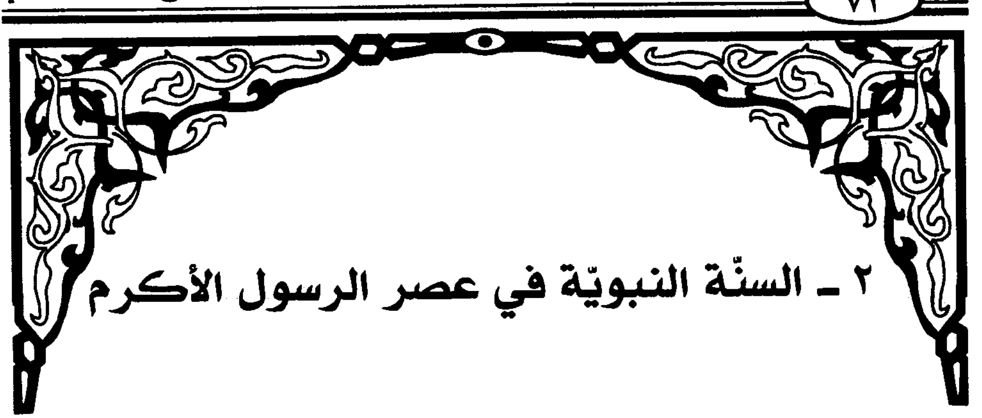
يقول قائل لا نجد حدّين في كتاب الله فقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا، والذي نفسي بيده لولا أن يقول الناس زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله تعالى لكتبتها: الشيخ والشيخة ـ أي الثيّب والثيّبة ـ فارجموهما البتّة، فإنّا قد قرأناها(١).

وفي كلّ ذلك حِكم جليلة وأسرار بليغة علمنا منها ما علمنا وخفي عنّا الكثير ممّا لا نعلمه، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك حين تعقّب على تبديل آية مكان آية فقال ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾(٢) ثمّ قال في الردّ على الذين اتّهموا الرسول الأكرم بالتبديل ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣) ثمّ شرح بعض الحكمة في التبديل، فقال عزّ وجلّ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾(٤).

وبما أنّه قد تقرّر أنّ ما نزل بمكّة من أحكام الشريعة هو ما كان من الأحكام الكلّية والقواعد الأصوليّة في الدين على غالب الأمر فقد اقتضى ذلك أنّ النسخ في الأحكام المنزّلة بمكّة قليل لا كثير لأنّ النسخ يكون في الجزئيات، والجزئيات المكّية قليلة(٥).



(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، والإمام أحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة بلفظ مختصر.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٠١.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠١.
(٤) سورة النحل، الآية: ١٠٢.
(٥) الموافقات ٣/١٠٤ ـ ١٠٥.



٢ ـ السنّة النبويّة في عصر الرسول الأكرم

لقد كرّم الله نبيّه محمّدا ﷺ بمهمّة التبيين، تبيين مراد الله تعالى ممّا أجمله من أحكام، وإيضاح الحقّ حين يختلف فيه الناس ليكون للرسول ﷺ إضافة إلى مهمّة التبليغ، الاختصاص بمنزلة التفويض إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(١)، وقال أيضاً ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾(٢).

فكانت السنّة النبويّة الشريفة خير معين على فهم كتاب الله العزيز والتطلّع إلى فهم مقاصده، لذا كان الصحابة في هذا الدور في حاجة أكيدة إلى معرفة سنّة الرسول ﷺ مع حاجتهم إلى معرفة كتاب الله تعالى.

والمقصود من **مصطلح السنّة** ـ في هذا المجال ـ: ما ورد عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

فالقول: ما تحدّث به النبيّ في مختلف المناسبات ممّا يتعلّق بتشريع الأحكام.

والفعل: ما نقله الصحابة من أفعال النبيّ في مختلف شؤون الحياة.

والتقرير: ما أقرّه النبيّ من أفعال صدرت عن بعض أصحابه الكرام بسكوت منه مع دلالة الرضى، أو بإظهار استحسان وتأييد.

وسنّة رسول الله ﷺ هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، فالقرآن

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٤.

الكريم هو أساس الشريعة ومصدرها الأوّل وقد تقدّمها لأنّ كلام الله تعالى منزّل على رسوله باللفظ والمعنى ومتعبّد بتلاوته ومقطوع به جملة وتفصيلاً، أمّا السنّة فهي مقطوع بها على الجملة لا على التفصيل، وهي بيان للقرآن، والبيان متأخّر على المبيّن.

والعمل بسنّة رسول الله ﷺ واجب محتّم على كلّ مسلم، دلّ على ذلك القرآن الكريم في غير موضع، فقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول وجعل طاعة الرسول طاعة لله، فقال ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[١]، وأمر المسلمين بوجوب اتّباع الرسول فيما يأمر به وينهى، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٢]، وقرن طاعة الله بطاعة رسوله في آيات كثيرة، فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[٣] فأمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلاماً بأنّ طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنّه أوتي الكتاب ومثله معه[٤].

وفي أقوال الرسول ﷺ ما يحثّ على ذلك، فمن بلاغاً الإمام مالك أنّ رسول الله ﷺ قال: **«تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسّكتم بهما كتاب الله وسنّة نبيّه»**[٥]، وعن أبي رافع ـ مولى النبيّ واسمه أسلم ـ أنّ الرسول ﷺ قال: **«لا ألفينّ أحدكم متّكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري ممّا أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتّبعناه»**[٦].

وفي هذا دليل على أنّ الرسول ﷺ قد أوتي القرآن والسنّة، وأنّ الاقتصار على القرآن لا يبلغ بالمؤمن إلى مراد الله تعالى.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٤) ابن قيم الجوزيّة: إعلام الموقّعين ٤٨/١.
(٥) الموطأ، كتاب الجامع.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، وأبو داود في سننه، كتاب السنّة.

ولذلك كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لا يفرّقون بين حكم ورد في القرآن وبين حكم صدر عن رسول الله وإنّما كانوا يتقبّلون كلّ الأوامر بالطاعة والعمل.

فقد ورد عن عبدالله بن مسعود أنّه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمّصات والمتفلّجات للحسن المغيّرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد، فقالت: يا أبا عبدالرحمٰن بلغني أنّك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله، فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته، فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١).

وعن عبدالرحمٰن بن يزيد أنّه رأى مُحرماً عليه ثيابه فنهاه، فقال: ائتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي فقرأ عليه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(٢).

ومن هذا المنطلق كان القرآن غالباً ما يحتاج إلى بيان مجمله وتقييد مطلقه وتخصيص ما كان منه عامّاً وتفسير ما كان منه مشكلاً وتحقيق ما كان منه محتملاً، وقد قامت السنّة النبويّة الشريفة بتلك المهمّة فحريّ بنا أن نتعرّض لبيان مكانتها من ناحية ما ورد فيها من أحكام وذلك ببيان وظيفتها ونسبتها إلى القرآن.

وفيما يلي بيان لذلك:

**** وظيفة السنّة النبويّة من حيث دلالتها على الأحكام الشرعيّة:**

إذا تتبّعنا السنّة النبويّة من حيث دلالتها على الأحكام الشرعيّة وجدناها تردّ إلى وظائف ثلاث(٣).

في مجال خدمة القرآن الكريم، وهي:

---

(١) الموافقات ٤/٢٥.

(٢) المصدر السابق ٤/٢٦.

(٣) قال الشافعي: فلم أعلم من أهل العلم مخالفا في أنّ سنن النبيّ من ثلاثة وجوه، فاجتمعوا منها على وجهين، والوجهان يجتمعان ويتفرّعان، أحدهما: ما أنزل الله فيه=

ـ ١ ـ أن تكون موافقة لما جاء في القرآن، فترد مورد التأكيد والتقرير.

ـ ٢ ـ أن تكون بيانا لما ورد في القرآن، فتبيّن مجمله وتقيّد مطلقه وتخصّص عامه وتوضّح مشكله.

ـ ٣ ـ أن تدلّ على حكم سكت عنه القرآن فتستقلّ حينئذ بالتشريع وتكون مؤسّسة لحكم ابتداءً.

ـ ١ ـ الوظيفة الأولى:

أن تكون موافقة لما جاء في القرآن بتقرير مضمونه وتأكيد أحكامه بما يقطع احتمال المجاز، فتأمر بعين ما أمر به وتنهى عن عين ما نهى عنه وتخبر بعين ما أخبر به[1] فتكون مطابقة لما جاء في القرآن مطابقة تامّة، وحينئذ يكون للحكم الشرعي مصدران ويقوم عليه دليلان شرعيان، دليل من القرآن ودليل مؤيّد من السنّة النبويّة، ومن أمثلة ذلك:

* الأحاديث التي أفادت الإقرار بوحدانيّة الله والتصديق برسالة النبيّ محمّد ﷺ، وكذلك الأحاديث التي أمرت بوجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحجّ البيت من غير أن تتعرّض لبيان شروطها وأركانها، فهي موافقة للآيات التي وردت في ذلك، كالحديث الذي ورد عن عبدالله بن عمر بن الخطاب أنّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«بُني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحجّ البيت وصوم رمضان»**[2]، فإنّه موافق

= نصّ كتاب، فبيّن رسول الله مثل ما نصّ الكتاب، والآخر: ممّا أنزل الله فيه جملة كتاب فبيّن عن الله معنى ما أراد، وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما، والوجه الثالث: ما سنّ رسول الله فيما ليس فيه نصّ كتاب (الرسالة ص ٩١ ـ ٩٢).

وتعرّض ابن قيم الجوزية في بيانه لوجوب اتّباع السنة ولو كانت زائدة على ما ورد في القرآن إلى هذا التقسيم الثلاثي فقال: والسنّة مع القرآن ثلاثة أوجه، أحدها: أن تكون موافقة له من كلّ وجه، فيكون توارد القرآن والسنّة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتظافرها، الثاني: أن يكون بيانا لما أريد بالقرآن وتفسيرا له، الثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرّمة لما سكت عن تحريمه (إعلام الموقعين عن ربّ العالمين ٣٠٧/٢).

(١) الأشقر محمد سليمان: أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام الشرعيّة ٣٤/١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان.

لقول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[٥].

* ومثل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[٦] فأكّدت السنّة هذا المعنى ووافقته بما ورد عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**كلّ المسلم على المسلم حرام فذكر: ماله**»[٧].

* ومثل قول الله عزّ وجلّ في شأن الزوجات ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٨] فوافقت السنّة هذا الحكم وأيّدته بما ورد عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**استوصوا بالنساء خيرا**»[٩].

* ومثل قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[١٠]، وروى أبو موسى الأشعري أنّ الرسول ﷺ قال: «**إنّ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[١١].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٦) سورة النساء، الآية: ٢٩.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصلة والآداب، والترمذي في سننه، كتاب البرّ والصلة، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، وابن ماجة في سننه، كتاب الفتن.

(٨) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع.

(١٠) سورة هود، الآية: ١٠٢.

(١١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، ومسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصلة والآداب.

ونحو ذلك من الآيات القرآنيّة التي جاءت السنّة فوافقتها وأيّدتها فيكون توارد القرآن والسنّة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلّة وتظافرها.

ـ ٢ ـ الوظيفة الثانية:

أن تكون مفصّلة ومفسّرة لما جاء في القرآن، وهذا التفصيل والتفسير يكون على أربعة أوجه:

*** الوجه الأوّل: تبيين ما جاء في القرآن مجملاً:**

يدخل تحت هذا الوجه الأحاديث التي فصّلت ما أجمل في القرآن من أحكام العبادات كبيان كيفيّة إقامة الصلاة وتفصيل مواقيتها وعدد ركعاتها وسائر أحكامها، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها والأموال التي تجب فيها، وبيان أحكام الصوم، ومناسك الحجّ، وأحكام الذبائح والصيد، وتفاصيل الأنكحة، وأحكام البيوع ممّا وقع مجملاً في القرآن.

وفيما يلي أمثلة نصيّة في ذلك:

* فرض الله تعالى الصلاة على المؤمنين وحرّضهم على المحافظة على آدائها فقال ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾[(١)] من غير أن يبيّن سبحانه وتعالى أوقاتها في القرآن، بل أورد ذلك مجملا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[(٢)] فتولّت السنّة تفصيل أوقات الصلاة، فمن ذلك ما رواه سليمان بن بريدة عن أبيه أنّ رجلاً سأل النبيّ ﷺ عن وقت الصلاة، فقال له: **«صلّ معنا هذين»** ـ يعني اليومين ـ فلمّا زالت الشمس أمر بلالاً فأذّن ثمّ أمره فأقام الظهر، ثمّ أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقيّة، ثمّ أمره فأقام المغرب حين غابت الشمس، ثمّ أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق، ثمّ أمره فأقام الفجر حين طلع الفجر، فلمّا أن كان اليوم الثاني أمره فأبرد بالظهر، فأبرد بها ـ

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

فأنعم أن يبرد بها - وصلّى العصر والشمس مرتفعة أخّرها فوق الذي كان، وصلّى المغرب قبل أن يغيب الشفق، وصلّى العشاء بعد ما ذهب ثلث الليل وصلّى الفجر فأسفر بها، ثمّ قال: **«أين السائل عن وقت الصلاة»**، فقال الرجل: أنا يا رسول الله، قال: **«وقت صلاتكم بين ما رأيتم»**(١).

* ومثاله أيضاً ما ورد في القرآن الكريم مجملاً في قول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(٢)، فبيّن رسول الله بصلاته وتعليمه المسلمين كيفيّة الصلاة وعدد ركعاتها ومواضع السرّ فيها من الجهر وقال: **«صلّوا كما رأيتموني أصلّي»**(٣).

* وأوجب الله تعالى الزكاة بنصّ القرآن الكريم من غير أن يبيّن شروط وجوبها ولا نصابها ولا الأموال التي تجب فيها فجاءت السنّة ببيان كلّ ذلك، فذكرت من شروط وجوبها تمام الحول فقد روى عليّ بن أبي طالب أنّ رسول الله ﷺ قال: **«ليس في مال زكاة حتّى يحول عليه الحول»**(٤)، وحدّدت النصاب الذي تجب فيه الزكاة، فقد ورد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة»**(٥)، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنّ النبي ﷺ قال: **«ليس في أقلّ من خمس ذود شيء، ولا في أقلّ من أربعين من الغنم شيء، ولا في أقلّ من ثلاثين من البقر شيء، ولا في أقلّ من عشرين مثقالاً من الذهب ولا في أقلّ من مائتي درهم شيء»**(٦)،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، وابن ماجة في سننه، كتاب الصلاة.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٣.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان وكتاب الأدب وكتاب أخبار الآحاد.
(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة وأحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ومسلم في كتاب الزكاة وغيرهما واللفظ للبخاري.
(٦) أخرجه الدارقطني في كتاب الزكاة.

وعيّنت المقدار الواجب في كلّ نوع من أنواعها، فعن سالم بن عبدالله عن أبيه أنّ النبي ﷺ قال: «**فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بعلا العشر، وفيما سقي بالسواني أو النضح نصف العشر**»(١)، وعن سالم عن أبيه أيضاً أنّ رسول الله ﷺ كتب كتاب الصدقة فلم يخرجه إلى عماله حتى قُبض فقرنه بسيفه، فلمّا قبض عمل به أبو بكر حتّى قبض وعمر حتى قبض(٢)، وفيه بيان مفصّل لزكاة الإبل والغنم في كلّ قدر بلغته وما يجب إخراجه في ذلك.

*** الوجه الثاني: تقييد ما جاء في القرآن مطلقاً:**

مثل قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾(٣) فإنّ قطع اليد لم يقيّد في الآية بموضع خاص، واليد تطلق على الكفّ أي من أطراف الأصابع إلى الكفّ(٤) أو من أطراف الأصابع إلى الكتف(٥) لكنّ السنّة النبويّة قيّدت القطع من الرسغ، فقد ورد عن عبدالله بن عمرو أنّه قال: قطع النبيّ ﷺ سارقاً من المفصل(٦) فالرسول ﷺ بسنّته الفعليّة قيّد مطلق الآية، فبان أنّ مراد الله من اليد: اليد اليمنى، وأنّ موضع القطع يكون من الكوع لا من المرفق ولا من الذراع.

*** الوجه الثالث: تخصيص ما جاء في القرآن عامّاً:**

ومن أمثلة ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾(٧) فهذه الآية نصّت على حكم عام في وراثة

---

(١) أخرجه البخاري ومالك وأصحاب السنن بألفاظ مختلفة.
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزكاة.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٢.
(٤) لسان العرب ـ مادة يدي.
(٥) ترتيب القاموس المحيط ـ مادة يدى.
(٦) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب السرقة، باب السارق يسرق أوّلاً فتقطع يده اليمنى من مفصل الكفّ.
(٧) سورة المائدة، الآية: ١١.

الأولاد لآبائهم وأمّهاتهم يثبت في كلّ أصل مورّث وفي كلّ ولد وارث، ثمّ جاءت السنّة النبويّة فخصّت الموروث بغير الأنبياء لقوله ﷺ فيما روته عائشة: «**لا نورث ما تركناه صدقة**»(١).

وخصّت السنّة كذلك الوارث بغير القاتل المتعمّد لقول الرسول: «**لا يرث القاتل شيئاً**»(٢) فلمّا ثبت عن رسول الله ذلك عُلم أنّ الله أراد بعض الأولاد دون بعض.

*** الوجه الرابع: توضيح ما جاء في القرآن مشكلاً:**

كما في الحديث الذي بيّن المراد من الخيطين في قول الله عزّ وجلّ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾(٣) فقد أشكلت هذه الآية على بعض الصحابة وفهموا منها العقال الأبيض والعقال الأسود فقال لهم الرسول: «**هما بياض النهار وسواد الليل**».

فقد ورد عن عدي بن حاتم قال: لمّا نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي، فغدوت على رسول الله فذكرت له ذلك فقال: إنّما ذلك سواد الليل وبياض النهار(٤)، وفي رواية أخرى: أنّ عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، ما ﴿الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ أهما الخيطان، قال: «**إنّك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين ثمّ قال: لا بل سواد الليل وبياض النهار**»(٥)، وفي رواية ثالثة: «**إنّ وسادك لعريض طويل، إنّما هو الليل والنهار**»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفرائض.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الديات، والدارمي في سننه، كتاب الفرائض بلفظ: لا يرث القاتل من المقتول شيئاً، وأخرجه مالك في الموطّأ، كتاب العقول بلفظ: ليس لقاتل شيء.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن.
(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصوم.

ومن أمثلة ما أشكل في القرآن وقامت السنّة بتوضيحه قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[١]، وقد ورد تفسير الظلم في هذه الآية بالشرك ولكنّ بعض الصحابة أشكل عليهم ذلك أوّل الأمر وفهموا من الآية عموم الظلم فشقّ ذلك عليهم.

فعن عبدالله بن مسعود قال لمّا نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقّ ذلك على أصحاب النبيّ ﷺ وقالوا: أيّنا لم يظلم نفسه، فقال رسول الله ﷺ: «**ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**»[٢].

ـ ٣ ـ الوظيفة الثالثة: السنّة المكمّلة أو المستقلّة بالتشريع:

وهي كلّ ما شرّع رسول الله ﷺ فيما ليس فيه نصّ من القرآن، فأضاف بسنّته أحكاما جديدة، فيكون بذلك قد أثبت وأنشأ أحكاماً سكت عنها القرآن، ويكون الحكم حينئذٍ ثابتاً بالسنّة ولا يدلّ عليه نصّ من القرآن[٣].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدّين.

(٣) وقد اتّفق جميع من يعتدّ بهم من علماء الأمّة في مختلف الأصقاع والأزمان على وجوب الاعتداد بالسنّة المستقّة بالتشريع وعلى اعتبارها ووجوب العمل بها فقال الشافعي: وما سنّ رسول الله فيما ليس لله فيه حكم فبحكم الله سنّه وكذلك أخبرنا الله في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ (سورة الشورى ٥٢، ٥٣) وقد سنّ رسول الله مع كتاب الله، وسنّ فيما ليس فيه بعينه نصّ كتاب، وكلّ ما سنّ فقد ألزمنا الله باتّباعه وجعل في اتّباعه طاعته، وفي العنود ـ أي العتوّ والطغيان والانحراف ـ عن اتّباعها معصيته التي لم يعذر بها خلقا ولم يجعل له من اتّباع سنن رسول الله مخرجاً (الرسالة ص ٨٨ ـ ٨٩).
ونفس المعنى أكّده ابن قيم الجوزيّة بقوله: فما كان منها ـ أي السنّة ـ زائداً على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبيّ يجب طاعته فيه ولا تحلّ معصيته، وليس هذا=

وقد تقرّر استقلال السنّة في تشريع الأحكام وإثباتها لأحكام زائدة عن القرآن استناداً إلى ما جاء في القرآن من وجوب طاعة الرسول استقلالاً، فلا مناص من وجوب الاعتداد بالزيادة التي جاءت بها السنّة.

ومن بين الأمثلة الدالة على ذلك:

* ما جاء عن النبيّ الأكرم ﷺ من نهي عن أكل كلّ ذي ناب من السباع وكلّ ذي مخلب من الطير(١)، وليس ذلك في القرآن.

وروى ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبيّ ﷺ نهى عن أكل لحوم الحمر الأهليّة(٢).

* وكذا تحريم لبس الحرير والذهب على الرجال لما روي عن عليّ بن أبي طالب أنّه قال: إنّ نبيّ الله ﷺ أخذ حريراً فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً فجعله في شماله ثمّ قال: «**إنّ هذين حرام على ذكور أمّتي**»(٣).

* وكما في ميراث الجدّة، فقد سئل عنها أبو بكر فقال: مالك في كتاب الله من شيء، فلمّا أخبره المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أنّ

= تقديما على كتاب الله بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله، ولو كان رسول الله لا يطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى وسقطت طاعته المختصّة به، وإنّه إذا لم يجب طاعته إلاّ فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه لم يكن له طاعة خاصة تختصّ به وقد قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (سورة النساء ٩٠) (إعلام الموقعين ٢/٣٠٧).

ونقل الإمام الشوكاني اتّفاق العلماء على ذلك فقال: اعلم أنّه قد اتّفق من يعتدّ به من أهل العلم على أنّ السنّة المطهّرة مستقلّة بتشريع الأحكام، وأنّها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام (إرشاد الفحول ص ٣٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي وكتاب الذبائح والصيد، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان.

(٣) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الزينة، وأبو داود في سننه، كتاب اللباس، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنّة.

النبيّ ﷺ أعطاها السدس أمضى لها ذلك[١] رغم أنّه لا أصل لها في القرآن، ولكن السنّة اختصّت بتشريعها.

* ومن أمثلة ما اختصّت به السنّة من التشريعات في مجال العبادات ما تعلّق بزكاة الفطر، فقد روي عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على كلّ حرّ أو عبد، ذكر أو أنثى من المسلمين[٢]، ونحو ذلك من الأحكام والتشريعات التي استقلت السنّة بها[٣].

وهكذا كان أصحاب رسول الله في هذا الدور الأوّل من أدوار تاريخ الفقه، الذي هو العصر النبوي يستفيدون الأحكام من القرآن العظيم ومن الرجوع إلى سنّة الرسول الكريم، حتّى أنّه قد بلغ بهم الحال في الاقتداء به أن كانوا يفعلون ما يفعل ويأتون ما يأتي ويتركون ما يترك دون أن يعلموا أحياناً لذلك سبباً أو يطّلعوا في ذلك على حكمة أو يتطلّعوا إلى معرفة علّة الحكم.

*** * كيفيّة تلقّي الصحابة السنّة النبويّة الشريفة عن رسول الله:**

كان أصحاب رسول الله ﷺ يحرصون على حضور مجالسه حرصاً شديداً إلى جانب القيام على أعمالهم الحياتيّة وقد يعسر على بعضهم الحضور لاشتغالهم بشؤونهم التجارية والمعاشيّة عموماً فيتناوبون مجالسه، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار

---

(١) أصل هذا الحديث عند الترمذي وأبو داود وابن ماجة ومالك، في كتاب الفرائض.

(٢) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي ومالك، في كتاب الزكاة، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة بألفاظ مختلفة.

(٣) على أنّ هناك من رام القول بأنّ الزيادة التي جاءت بها السنة لم تستقلّ السنّة بإثباتها وإنّما تفرّعت على أصل قرآني عام، أو إلى وحدة المقصد، أو ترجع إلى إشارته إلاّ أنّ الشاطبي قد دحض هذا التمشّي حين قال: إنّه لا يفي بما ادّعاه إلاّ أن يتكلّف في ذلك مآخذ لا يقبلها كلام العرب ولا يوافق على مثلها السلف الصالح ولا العلماء الراسخون في العلم (الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية لمحمود الخالدي ١٢٦/١، والموافقات ٥٢/٤).

في بني أميّة ابن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنّا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك(١).

ويقول البرّاء بن عازب: ما كلّ الحديث سمعناه من رسول ﷺ، كان يحدّثنا أصحابنا وكنّا مشتغلين في رعاية الإبل، وأصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون ما يفوتهم سماعه من رسول الله ﷺ فيسمعونه من أقرانهم وممّن هو أحفظ منهم(٢).

وأمّا الذين بعدت عليهم المسافة وحالت دون حضورهم مجالس رسول الله أو التناوب عليها فكانوا كلّما نزلت بهم نازلة واستعصى عليهم حلّها ولم يهتدوا إلى أحد من أصحاب رسول الله أن يخبرهم بحكم ما أشكل عليهم ضربوا أكباد الإبل نحو مدينة رسول الله ﷺ ليسمعوا حكم الله ورسوله فيما نزل بهم، ومن ذلك ما روي عن عقبة بن الحارث أنّه تزوّج ابنة لأبي إهاب بن عزيز فأتته امرأة فقالت: إنّي قد أرضعت عقبة والتي تزوّج، فقال لها عقبة: ما أعلم أنّك أرضعتني ولا أخبرتني، فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فسأله، فقال رسول الله: كيف وقد قيل، ففارقها عقبة(٣).

وقد كان تلقّي أصحاب الرسول لسنّته الشريفة يتمّ من وجهين اثنين(٤):

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.

(٢) الحافظ النيسابوري: معرفة علوم الحديث ص ١٤، وأخرجه أحمد في مسنده ـ كتاب مسند الكوفيين ـ بلفظ: ما كلّ الحديث سمعناه من رسول ﷺ، كان يحدّثنا أصحابنا عنه وكانت تشغلنا عنه رعيّة الإبل.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.

(٤) محمد عجاج الخطيب: السنة قبل التدوين ص ٦٠ ـ ٦٧ وأصول الحديث ص٦٨ ـ ٧١، بتصرّف.

ـ ١ ـ وقائع كانت تحدث للرسول فيبيّن الحكم فيها وينشره بين المسلمين:

من ذلك ما روي عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: مرّ رسول الله ﷺ بطعام وقد حسّنه صاحبه فأدخل يده فيه فإذا طعام رديء فقال: «**ضع هذا على حده وهذا على حده فمن غشّنا فليس منّا**»(١).

وقد يرى الرسول ﷺ أو يسمع صحابيًا يخطىء فيصحّح له خطأه ويرشده إلى الصواب، من ذلك ما رواه جابر قال: أخبرني عمر بن الخطاب أنّ رجلاً توضّأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبيّ ﷺ فقال: «**ارجع فأحسن وضوءك، فرجع ثمّ صلّى**»(٢).

ـ ٢ ـ وقائع كانت تحدث للمسلمين فيسألون الرسول عنها فيجيبهم فيما سألوا عنه، وقد تكون هذه الوقائع من خصوصيات السائل نفسه، أو قد تكون ممّا يتعلّق بغيره:

والصحابة في كلّ ذلك لا يخجلون من ذكر ما تحدث لهم من قضايا ولا يتوانون في عرض ما ألمّ بهم من مشكلات، بل يسارعون إلى الرسول ﷺ ليقفوا على حقيقة تطمئنّ لها قلوبهم ويسلّموا بها تسليماً.

وكان يفعل ذلك النساء والرجال على حدّ السواء حتّى قالت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها: نِعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهنّ الحياء أن يتفقّهن في الدين(٣).

وعن إبراهيم بن مهاجر قال سمعت صفيّة تحدّث عن عائشة أنّ أسماء سألت رسول الله ﷺ عن الغسل من المحيض فقال: «**تأخذ إحداكنّ ماءها وسدرها فتطهر فتحسن الطهور أو تبلغ في الطهور ثمّ تصبّ على**

---

(١) أخرجه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، وابن ماجة في سننه، كتاب الطهارة وسننها.

رأسها فتدلكه دلكا شديدا حتّى يبلغ شؤون رأسها ثمّ تصبّ عليها الماء ثمّ تأخذ فرصة ممسكة فتطهر بها»، قالت أسماء: كيف أتطهّر بها؟ قال: «**سبحان الله تطهّري بها**»، قالت عائشة كأنها تخفي ذلك: تتبّعي بها أثر الدم، قالت: وسألته عن الغسل من الجنابة(١).

وقد يسألونه عن أخصّ من ذلك، فيستفتونه في أشدّ الأمور دقّة من ذلك ما رواه عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنّ امرأة رفاعة القرظي جاءت النبيّ ﷺ فقالت: كنت عند رفاعة فطلّقني فأبتّ طلاقي فتزوّجت عبدالرحمٰن بن الزبير إنّما معه مثل هدبة الثوب، فقال: «**أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة**».

وفي رواية: فضحك رسول الله ﷺ، وقال: «**لعلّك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا حتّى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك**»، وأبو بكر جالس عنده ـ أي عند النبيّ ـ وخالد بن سعيد بن العاص ينتظر أن يُؤذن له، فقال: يا أبا بكر ألا تسمع إلى هذه ما تجهر به عند النبيّ ﷺ(٢).

وعن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة الأنصاري عن جدّته أمّ سليم أنّها كانت مجاورة أمّ سلمة زوج النبيّ ﷺ فكانت تدخل عليها، فدخل النبيّ ﷺ، فقالت أمّ سليم: يا رسول الله أرأيت إذا رأت المرأة أنّ زوجها يجامعها في المنام أتغتسل؟ فقالت أمّ سلمة: تربت يداك يا أمّ سليم فضحكت النساء عند رسول الله ﷺ، فقالت أمّ سليم: إنّ الله لا يستحي من الحقّ، وإنّا إن نسأل النبيّ ﷺ عمّا أشكل علينا خير من أن نكون منه على عمياء، فقال النبيّ ﷺ لأمّ سلمة: «**بل أنت تربت يداك، نعم يا أمّ سليم عليها الغسل إذا وجدت الماء**»، فقالت أمّ سلمة: يا رسول الله وهل للمرأة ماء، فقال النبيّ ﷺ: «**فأنّى يشبهها ولدها؟ هنّ شقائق الرجال**»(٣).

وقد يحدث أن يخجل بعض أصحاب رسول الله فيحملون غيرهم أن

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الطهارة وسننها.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، والنسائي في سننه، كتاب النكاح.
(٣) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار.

يسألوه من ذلك ما رواه عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: كنت رجلاً مذّاء، فكنت أستحي أن أسأل النبيّ ﷺ لمكان ابنته فأمرت المقداد بن الأسود فسأله، فقال: يغسل ذكره ويتوضّأ[١].

وكان المسلمون يسألونه فيما يخطر لهم من شؤون دينهم ودنياهم دون أن يحجبهم عنه حاجب ولا يمنعهم منه مانع، لذلك نرى الأعرابي البعيد عنه يسأله كما يسأله الصحابي الملازم له كلّهم يريدون معرفة أحكام دينهم، بل إنّ الصحابة الملازمين للرسول ﷺ كانوا ربّما يفضّلون أن يأتي الأعرابي العاقل من أهل البادية فيسأل الرسول ﷺ وهم له منصتون.

ومن ذلك ما روي عن عليّ بن أبي طالب أنّه قال: جاء أعرابي إلى النبيّ ﷺ فقال يا رسول الله إنّا نكون بالبادية فتخرج من أحدنا الرويحة، فقال رسول الله: **«إنّ الله عزّ وجلّ لا يستحي من الحقّ، إذا فعل أحدكم فليتوضّأ ولا تأتوا النساء في أعجازهنّ»**، وقال مرّة: **«في أدبارهنّ»**[٢].

ومن ذلك أيضاً ما ورد عن أنس بن مالك أنّه قال: بينما نحن جلوس مع النبيّ ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثمّ عقله ثمّ قال أيّكم محمد؟ والنبيّ متّكىء بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتّكىء، فقال له الرجل: يا ابن عبد المطّلب، فقال له النبيّ ﷺ: **«قد أجبتك»**، فقال الرجل للنبيّ: إنّي سائلك فمشدّد عليك في المسألة فلا تجد عليّ في نفسك، فقال: **«سل عمّا بدا لك»**، قال: أسألك بربّك وربّ من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلّهم؟ فقال: **«اللّهمّ نعم»**، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تصلّي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: **«اللّهمّ نعم»**، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: **«اللّهمّ نعم»**، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا، فقال النبيّ ﷺ: **«اللّهمّ نعم»**،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، وأحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.

(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.

فقال الرجل: آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر(١).

وعن أنس أيضاً قال: كنّا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء(٢) فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمّد أتانا رسولك فزعم أنّك تزعم أنّ الله أرسلك، قال: «**صدق**»، قال: فمن خلق السماء؟ قال: «**الله**»، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «**الله**»، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «**الله**»، قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: «**نعم**»، قال: وزعم رسولك أنّ علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا، قال: «**صدق**»، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «**نعم**»، قال: وزعم رسولك أنّ علينا زكاة في أموالنا، قال: «**صدق**»، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «**نعم**»، قال: وزعم رسولك أنّ علينا صوم شهر في سنتنا، قال: «**صدق**»،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.

(٢) إشارة إلى النهي الوارد في قوله تعالى من سورة المائدة ١٠١ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ وقد اختلفت الروايات في بيان نوع هذه الأشياء المسؤول عنها والصحيح من ذلك حديث موسى بن أنس بن مالك عن أبيه في الصحيحين قال: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة فصعد المنبر ذات يوم فقال: لا تسألوني عن شيء إلاّ بيّنت لكم فأنشأ رجل كان إذا لاحى يدعى لغير أبيه فقال: يا رسول الله من أبي، قال: أبوك حذافة ـ أي فدعاه لأبيه الذي يعرف به ـ والسائل هو عبدالله بن حذافة السّهمي كما ورد في بعض روايات الحديث، وفي رواية لمسلم عن أبي موسى: فقام رجل آخر فقال: من أبي، قال: أبوك سالم مولى شيبة وفي بعض روايات هذا الخبر في غير الصحيح عن أبي هريرة أنّ رجلاً آخر قام فقال: أين أبي؟ وفي رواية: أين أنا؟ فقال: في النار وانفرد البخاري برواية عن ابن عباس قال: كان قوم من المنافقين يسألون رسول الله استهزاء فيقول الرجل تضلّ ناقته: أين ناقتي ويقول الرجل: من أبي، ويقول المسافر: ماذا ألقى في سفري، فأنزل الله هذه الآية (التحرير والتنوير ٦/٦٥).

قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «**نعم**»، قال: وزعم رسولك أنّ علينا حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً، قال: «**صدق**»، قال: ثمّ ولّى وقال: والذي بعثك بالحقّ لا أزيد عليهنّ ولا أنقص منهنّ، فقال النبيّ: «**لئن صدق ليدخلنّ الجنّة**»(١).

وقد يختصم مسلمان في قضيّة أو حكم فيطلبان من الرسول الفصل بينهما في قضيتهما، من ذلك أنّ عمر ابن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأنيها رسول الله ﷺ فتصبّرت حتّى سلّم فلببته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت فإنّ رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إنّي سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها، فقال رسول الله ﷺ: «**أرسله، اقرأ يا هشام**»، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله: «**كذلك أنزلت**»، ثمّ قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال: «**كذلك أنزلت، إنّ هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسّر منه**»(٢).

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أنّهما قالا إنّ رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنشدك الله إلاّ قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر وهو أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله واذن لي، فقال رسول الله ﷺ: «**قل**»، قال: إنّ ابني كان عسيفاً على هذا - أي أجيراً - فزنى بامرأته وإنّي أُخبرت أنّ على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة فسألت أهل العلم فأخبروني إنّما على ابني جلد مائة وتغريب عام وأنّ على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم ردّ، وعلى ابنك جلد**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن.

مائة وتغريب عام، اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها»، قال: فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت[١].

ومن ذلك ما رواه عروة قال: خاصم الزبيّر رجل من الأنصار فقال النبيّ ﷺ: **«اسق يا زبيّر حتّى يبلغ الماء الجدر ثمّ أمسك»**[٢].

ومن ذلك أيضاً ما رواه رجاء بن حيوة والعرس بن عميرة عن أبيه عديّ قال: خاصم رجل من كندة يقال له امرؤ القيس بن عابس رجلاً من حضر موت إلى رسول الله ﷺ في أرض فقضى على الحضرمي بالبيّنة فلم تكن له بيّنة، فقضى على امرؤ القيس باليمين، فقال الحضرمي: إن أمكنته من اليمين يا رسول الله ذهبت وربّ الكعبة أرضي، فقال رسول الله ﷺ: **«من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أخيه لقي الله وهو عليه غضبان»**، وتلا رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَـٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[٣] فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله، قال: **«الجنّة»**، قال: فاشهد أنّي قد تركتها له كلّها[٤].

هذا، وقد استقصى الشيخ عبدالله محمد بن فرج المالكي القرطبي قضايا الرسول في كتاب: «أقضية رسول الله ﷺ» فبلغت نحو الثمانين قضيّة.

ـ ٣ ـ وقائع عاين فيها أصحاب رسول الله تصرفاته في حال الهدي والإرشاد وحملهم على أكمل الأحوال في جميع المجالات من عبادات ومعاملات وغيرها فتشبّعوا بهذه الروح العالية.

وبهذه الطريقة كانت السنّة النبويّة الشريفة في هذا الدور الأوّل من أدوار الفقه، كالقرآن الكريم تشرّع للوقائع وتقضي للحوادث وتنبّه على

(١) أخرجه الجماعة، واللفظ للبخاري في كتاب الشروط.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المساقاة.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

(٤) أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد واللفظ له في مسند الشاميين.

معالي الآداب وترشد إلى تهذيب النفوس والأخلاق، فكان أصحاب رسول الله يتعلّمون ذلك ويحرصون أشدّ الحرص على ملازمة مجالسه وعدم التفويت فيها، وكانوا يتذاكرون ما يسمعونه منه دواماً واستمراراً بقلوب حيّة وعقول مستنيرة ورغبة جيّاشة في امتلاك ما به يتمّ إيمانهم ويكمل ورعهم وما به تسمو هممهم نحو العلياء.

**** ما دوّن من السنّة في هذا الدور:**

لقد كان اعتماد أصحاب رسول الله ﷺ في تلقّي الحديث عنه مقتصراً على استعداداتهم في الحفظ وطاقاتهم في الاستيعاب، ذلك أنّ الرسول الأكرم قد نهى بادىء الأمر عن كتابة أحاديثه وتدوينها خوف اختلاطها بالقرآن، أو لئلاّ يتّخذ مع القرآن كتاب يضاهيه في التلاوة والقراءة، فعن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدّثوا عنّي ولا حرج ومن كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار**»[1].

ثمّ نسخ هذا النهي الصادر عن الرسول في كتابة سنّته وتدوينها فأذن بالكتابة بعد أن زالت الموانع الداعية إلى منع ذلك، فكان عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ممّن يسّر الله له تدوين الحديث، فقد كتب الحديث وجمع منه بخطّ يده ما شاء الله له ذلك، يشهد لذلك ما ورد عن أبي هريرة أنّه قال: ما من أصحاب النبيّ ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منّي إلاّ ما كان من عبدالله بن عمرو فإنّه كان يكتب ولا أكتب[2].

وعن عبدالله بن عمرو قال: كنت أكتب كلّ شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كلّ شيء تسمعه ورسول الله ﷺ بشر يتكلّم في الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتاب،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.

فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه فقال: «**اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلاّ حقّ**»[١].

وعن أبي هريرة قال: كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنّي أسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه، فقال رسول الله ﷺ: «**استعن بيمينك وأومأ بيده إلى الخطّ**»[٢].

وهكذا فإنّ أصحاب رسول الله كانوا قد كتبوا عن الرسول بعض أحاديثه بإذن خاصّ منه، ثمّ كتب غيرهم من الصحابة بعد أن زال خوف لبس القرآن بغيره، فجاء الإذن العام لينسخ النهي الخاص بوقت نزول القرآن.

وتوجد أخبار صحيحة كثيرة تؤكّد أنّ أصحاب الرسول ﷺ قد كتبوا صحفا عديدة في هذا الدور الأوّل الذي هو العصر النبوي، وقد اشتهر منها صحيفة عبدالله بن عمرو بن العاص المعروفة بالصحيفة الصادقة، حتّى إنّ عبدالله بن عمرو رضي الله عنه كان يقول: ما يرغبني في الحياة إلاّ الصادقة والوهط، فأمّا الصادقة فصحيفة كتبتها من رسول الله ﷺ، وأمّا الوهط فأرض تصدّق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها[٣]، وقد نقل الإمام أحمد مضمون هذه الصحيفة في مسنده.

ولمّا استُخلف أبو بكر الصديق وجّه أنس بن مالك عاملاً على البحرين ثمّ كتب له كتاباً في الصدقات جاء فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم.

وهذا الحديث وإن تكلّم في بعض رجاله فإنّ له شواهد تقوّيه، منها ما أخرجه الطبراني في الكبير والحاكم النيسابوري في مستدركه عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنّ رسول الله ﷺ قال: «**قيّدوا العلم بالكتاب**» (المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦٣٤/١ و٦٨٠/٤).

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، وابن عبدالبرّ: جامع بيان العلم وفضله ٨٦/١.

هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين التي أمر الله بها رسول الله ﷺ فمن سئلها من المؤمنين على وجهها فليعطها ومن سئل فوقها فلا يعطه...[١]، وقد روي أنّ الكتاب كان ممهوراً بخاتم الرسول الله ﷺ[٢].

كما اشتهرت صحيفة عليّ بن أبي طالب، فقد روي عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالب هل عندكم كتاب؟ قال: لا إلاّ كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر[٣].

وكان لأبي هريرة رضي الله عنه كتبا جمعها في عهد رسول الله ﷺ وضمّنها أحاديثه، فقد روى الفضيل بن حسن بن عمرو بن أميّة الضمري عن أبيه قال: تحدثت عند أبي هريرة بحديث فأنكره، فقلت: إنّي قد سمعته منك، فقال: إن كنت سمعته منّي فهو مكتوب عندي، فأخذ بيدي إلى بيته فأرانا كتباً كثيرة من حديث رسول الله ﷺ فوجد ذلك الحديث، فقال: قد أخبرتك أنّي إن كنت حدّثتك به فهو مكتوب عندي[٤].

وكان سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه يحتفظ كذلك بكتب فيها طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ[٥].

وإضافة إلى ما دوّنه الصحابة من أحاديث الرسول الله ﷺ في مختلف مسائل الدين والحياة ممّا نطق به الصادق الأمين، فإنّ النبيّ ﷺ قد اتّخذ كتّاباً فاقوا الستّين كاتباً، كتبوا له جميع المحالفات والمعاهدات مع القبائل

---

(١) أخرجه البخاري وأبو داود وابن ماجة والبيهقي في كتاب الزكاة.

(٢) أصول الحديث ص ١٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم وأحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة، واللفظ للبخاري.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ٨٩/١.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ٨٩/١.

والملوك سوى ما كتب إليهم من المراسلات، كما كتبوا له الكتب التي كان يرسلها إلى عمّاله وولاّته[١].

ومن أشهر هذه الكتب الكتاب الذي أمر النبيّ ﷺ بتدوينه في السنة الأولى للهجرة، وهو عبارة عن وثيقة نظّم الرسول بموجبها العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم الناشىء بالمدينة المنوّرة والمؤلّف من المهاجرين والأنصار، وبينه وبين المجموعات الأخرى المتواجدة في المدينة كعرب يثرب ويهود المدينة.

وقد جاء في مقدّمة هذا الكتاب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتاب من محمّد النبيّ ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنّهم أمّة واحدة من دون الناس...، وجاء في ختامه: وأنّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلاّ من ظلم وأثم، وأنّ الله جار لمن برّ واتّقى ومحمّد رسول الله ﷺ[٢].

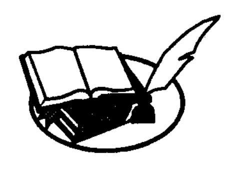
وكتب إلى هرقل عظيم الروم وإلى المقوقس عظيم القبط وإلى كسرى أبرويز عظيم فارس وإلى المنذر بن ساوى العبدي عامل كسرى على البحرين وإلى باذان الفارسي ملك اليمن وإلى ربيعة بن ذي المرحب من حضر موت وإلى هوذة بن علي شيخ اليمامة، وإلى عمير ذي مرّان من همدان وكتب إلى قبيلة عبد قيس في البحرين وإلى جيفر وعبد ابني الجلندى شيخي عمان وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة، كما كتب إلى أسقف الروم بالقسطنطينيّة وإلى أسقف أيلة وأهلها وإلى أبي الحارث بن علقمة أسقف نجران وكتب إلى أهل عمان والبحرين وإلى أهل دما من عمان ولوفد ثمالة والحدّان في عمان وإلى أزد دب ـ فيما بين عمان

(١) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٢٤ ـ ٢٧.

(٢) انظر النصّ الكامل: سيرة ابن هشام ٥٠١/٢ ـ ٥٠٤، مجموعة الوثائق السياسية ص ٥٩ ـ ٦٢.

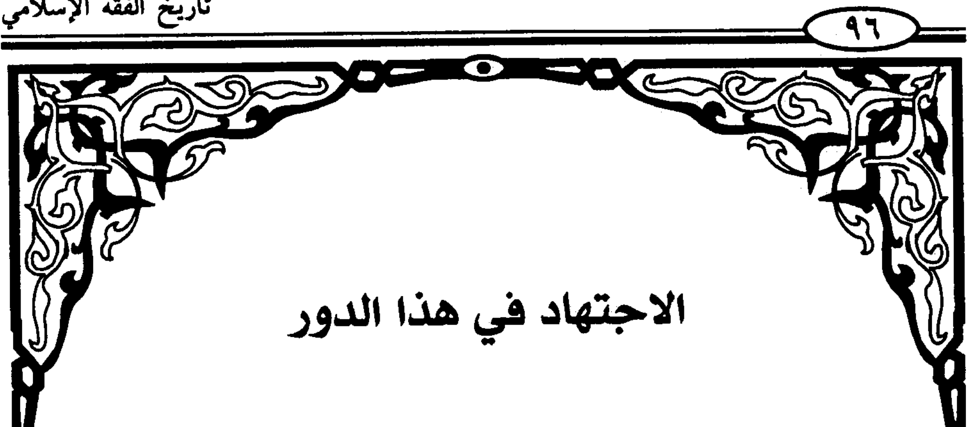
والبحرين وهي تابعة الآن إلى دولة الإمارات العربية المتحدة - كما كتب أيضاً إلى عامّة المسلمين في ثقيف وكتب إلى بني زاكان من أهل قزوين في إيران وكتب عهودا لليهود وللنصارى ولأقارب سلمان الفارسي المجوسيين وكتب إلى عمّاله في الصدقات وبيّن لهم كيف يسيرون في أهل الإسلام، فكتب إلى واليه على البحرين العلاء بن الحضرمي في الزكاة وفي طلب المندوبين وكتب إلى عمرو بن حزم واليه على اليمن في العقول وإلى شرحبيل بن عبد كلال وغيره من أقيال أهل اليمن ممّن أسلم في الزكاة والديات وإلى فروة ابن مسيك في الصدقات، وغيرها من الكتب التي أربت على مائتي كتاب وثمانين كتاباً(١).

وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يتعهّدون السنّة النبويّة الشريفة بالحفظ والتدوين بمثل ما كانوا يتعاهدون القرآن الكريم حتّى قيل إنّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت عنده نسخ العهود والمواثيق ملء صندوق(٢).



(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٤٣ - ٥٧٧.

(٢) وهذه العهود والمواثيق احترقت حين احترق الديوان يوم الجماجم سنة ٨٢ للهجرة، والذي بقي بعد ذلك قضت عليه صروف الزمن وغارة التتار، ولكن وإن كانت أصول أكثر هذه الوثائق قد ضاعت فإنّ روّاة الحديث والمؤرّخين قد حفظوا لنا جملة صالحة منها كما أثبت ذلك محمد حميد الله في كتابه الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة وكما يظهر ذلك في قائمة المصادر التي ألحقها بآخر الكتاب (انظر: مجموعة الوثائق ص ٢٤ وص ٦٤٥ - ٦٦٤).



الاجتهاد في هذا الدور

من الثابت أنّ النبيّ ﷺ قد اجتهد في حياته، وأنّ الوحي الإلهي كان يرشد النبيّ ويوجّهه فيقرّه فيما أصاب فيه ويعاتبه فيما أخطأ تعليماً للأمّة من بعده وإرشاداً لها، ولذلك أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالاجتهاد في حياته وأقرّهم أحياناً على ما اجتهدوا فيه.

*** من اجتهادات النبيّ:**

ـ ١ ـ ما وقع منه ﷺ في قبول فداء أسرى بدر: فعن ابن عباس أنّ عمر بن الخطاب قال: لمّا أسروا الأسارى ـ يوم بدر ـ قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر ما ترون في هؤلاء الأسارى، فقال أبو بكر: يا نبيّ الله هم بنو العمّ والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوّة على الكفّار فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«ما ترى يا ابن الخطاب»**، قال: قلت لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكّننا فنضرب أعناقهم... فإنّ هؤلاء أئمّة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلمّا كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أيّ شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: **أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة** ـ شجرة قريبة من نبيّ الله ﷺ ـ وأنزل الله تعالى: ﴿مَا

كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[1].

ثمّ أحلّ لهم الله الغنائم فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾[2] فأحلّ الله تعالى الغنيمة لهم[3].

ـ ٢ ـ ما وقع منه ﷺ من إذنه للمنافقين بالتخلّف عن غزوة تبوك حين جاؤوا يعتذرون إليه، ذلك أنّ فريقا من المنافقين استأذنوا النبيّ ﷺ أن يتخلّفوا عن الغزوة، منهم ابن أبي ابن سلول والجدّ بن قيس ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعة وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة، فأذن النبيّ ﷺ لمن استأذنه حملا للناس على الصدق، إذ كان ظاهر حالهم الإيمان، وعلماً بأنّ المعتذرين إذا ألجئوا إلى الخروج لا يغنون شيئاً، لأنّ في خروجهم بلا عدّة ونيّة صادقة فساد، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾[4] فعاتب الله نبيّه ﷺ عتاب تلطّف في أن أذن لهم لأنّه لو لم يأذن لهم لقعدوا فيكون ذلك دليلاً للنبيّ ﷺ على نفاقهم وكذبهم في دعوى الإيمان كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ﴾[5]، ولأنّ الرسول ﷺ اجتهد فبدر منه ترك الأولى، قدّم الله له العفو على الخطاب الذي هو في صورة عتاب[6] فنزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[7].

---

(١) سورة الأنفال ـ الآيتان ـ ٦٧ ـ ٦٨.
(٢) سورة الأنفال ـ الآية ٦٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، الجهاد والسير، وأحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٧.
(٥) سورة محمد، الآية: ٣٠.
(٦) التحرير والتنوير ١٠/٢١٠، الجامع لأحكام القرآن ٨/١٥٤.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

ـ ٣ ـ وعن ابن عباس قال: قال النبيّ ﷺ يوم افتتح مكّة: «... **إنّ هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله يوم القيامة وإنّه لم يحلّ القتال فيه لأحد قبلي ولم يحلّ لي إلاّ ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفّر صيده ولا يلتقط لقطته إلاّ من عرّفها ولا يختلى خلاها**»، قال العباس: يا رسول الله إلاّ الإذخر فإنّه لقينهم ولبيوتهم، قال: قال: «**إلاّ الإذخر**»، وفي رواية: فسكت ثمّ قال: «**إلاّ الإذخر**»[1].

ـ ٤ ـ وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: أتينا خيبر فحاصرناهم حتّى أصابتنا مخمصة شديدة ثمّ إنّ الله تعالى فتحها عليهم فلمّا أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم أوقدوا نيراناً كثيرة، فقال النبيّ ﷺ: «**ما هذه النيران؟**» على أيّ شيء توقدون؟ قالوا: على لحم، قال: على أيّ لحم؟ قالوا: لحم حمر الأنسيّة، قال النبيّ ﷺ: «**اهريقوها واكسروها**»، فقال رجل: يا رسول الله أو نهرقها ونغسلها، قال: أو ذاك[2].

*** من اجتهادات أصحاب النبيّ بحضرته:**

ـ ١ ـ اجتهاد سعد بن معاذ في بني قريظة:

عن أبي سعيد الخدري قال: إنّ أهل قريظة نزلوا على حكم سعد بن معاذ فأرسل النبيّ ﷺ إليه فجاءه على حمار، قال: فلمّا دنا قريبا من المسجد قال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى سيّدكم أو خيركم**»، ثمّ قال: «**إنّ هؤلاء نزلوا على حكمك**»، قال: تقتل مقاتلهم وتسبى ذرّيتهم، قال: فقال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ وكتاب الجزية والموادعة وكتاب المغازي، ومسلم في صحيحه، كتاب الحجّ، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي وكتاب الأدب، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، وكتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان.

النبيّ ﷺ: «**لقد قضيت بحكم الله** وربّما قال: **قضيت بحكم الملك**»[(١)].

- ٢ - اجتهاد أبي بكر في سلب قتيل قتله أبو قتادة فأخذ سلبه رجل آخر:

عن أبي قتادة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين فلمّا التقينا كانت للمسلمين جولة قال: فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين فاستدرت إليه حتّى آتيته من ورائه فضربته على حبل عاتقه، وأقبل عليّ فضمّني ضمّة وجدت فيها ريح الموت، ثمّ أدركه الموت فأرسلني، فلحقت عمر بن الخطاب فقال: ما للناس؟ فقلت: أمر الله، ثمّ إنّ الناس رجعوا وجلس رسول الله ﷺ، فقال: «**من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه**»، قال: فقمت فقلت: من يشهد لي؟ ثمّ جلست، ثمّ قال مثل ذلك، فقمت. فقلت: من يشهد لي؟ ثمّ جلست، ثمّ قال ذلك الثالثة، فقمت، فقال رسول الله: «**ما لك يا أبا قتادة؟**» فقصصت عليه القصّة، فقال رجل من القوم: صدق يا رسول الله، سلب ذلك القتيل عندي، فأرضه من حقّه، وقال أبو بكر الصديق: لا ها الله[(٢)] إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله وعن رسوله فيعطيك سلبه، فقال رسول الله ﷺ: «**صدق فأعطه إيّاه فأعطاني**»[(٣)].

- ٣ - اجتهاد أبي بكر في مسألة الإقرار بالزنا:

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: كنت عند النبيّ ﷺ جالسا فجاء ماعز بن مالك فاعترف عنده مرّة فردّه، ثمّ جاءه فاعترف الثانية فردّه، ثمّ جاءه فاعترف الثالثة فردّه، فقلت له: إنّك إن اعترفت الرابعة رجمك،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب وكتاب الاستئذان.

(٢) قال أبو إسحاق الشيرازي تعليقا على هذه الحادثة: ولا يقدم على الفتيا بحضرة رسول الله مع عظم القدر وجلالة المحلّ إلاّ الثقة بعلمه والمتحقّق بفضله وفهمه (طبقات الفقهاء ص ٣٨).

(٣) أخرجه مسلم ومالك وأبو داود في كتاب الجهاد وأحمد في مسند الأنصار.

قال: فاعترف الرابعة فحبسه ثمّ سأل عنه فقالوا: ما نعلم إلاّ خيرا، قال: فأمر برجمه[١].

*** من اجتهادات أصحاب النبيّ في غيبته:**

كما كان أصحاب الرسول ﷺ يجتهدون بحضرته فقد كانوا أيضاً يفتون في غيبته، وكانوا كلّما أفتوا واجتهدوا أطلعوا رسول الله على ما بدا منهم من بذل للجهد واستفراغ للوسع في استخراج الحكم واستنباطه، فإن رآهم الرسول قد أصابوا الحقّ أقرّهم، وإن رآهم أخطؤوا أرشدهم إلى وجه الصواب في المسألة.

فمن أمثلة النوع الأوّل: وهو ما اجتهد فيه الصحابة فرآهم الرسول قد أصابوا الحقّ فأقرّهم عليه:

ـ ١ ـ اجتهاد صحابيين وقد خرجا في سفر:

فعن أبي سعيد الخدري قال: خرج رجلان في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيمّما صعيدا طيّبا فصلّيا، ثمّ وجدا الماء في الوقت، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة، ولم يعد الآخر، ثمّ أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له، فقال للذي لم يعد: أصبت السنّة وأجزأتك صلاتك، وقال للذي توضّأ وأعاد: لك الأجر مرتين[٢].

ـ ٢ ـ اجتهاد عليّ بن أبي طالب في قضيتين باليمن:

أمّا الأولى: فقد ورد من حديث حنش بن المعتمر عن عليّ بن أبي طالب قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فانتهينا إلى قوم قد بنوا زبية للأسد، فبينما هم كذلك يتدافعون إذ سقط رجل فتعلّق بآخر، ثمّ تعلّق رجل بآخر حتّى صاروا فيها أربعة، فجرحهم الأسد، فانتدب له رجل بحربة فقتله وماتوا من جراحتهم كلّهم، فقام أولياء الأوّل إلى أولياء الآخر

---

(١) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.

(٢) أخرجه أبو داود والدارمي في كتاب الطهارة.

فأخرجوا السلاح ليقتتلوا فأتاهم علي رضي الله عنه على تفيئة ذلك[١] فقال: تريدون أن تقاتلوا ورسول الله حيّ؟ إنّي أقضي بينكم قضاء إن رضيتم فهو القضاء وإلاّ حجز بعضكم عن بعض حتّى تأتوا النبيّ ﷺ فيكون هو الذي يقضي بينكم، فمن عدا بعد ذلك فلا حقّ له، اجمعوا من قبائل الذين حفروا البئر ربع الديّة وثلث الديّة ونصف الديّة والديّة كاملة، فللأوّل الربع لأنّه هلك من فوقه، وللثاني ثلث الديّة وللثالث نصف الدية وللرابع الديّة كاملة، فأبوا أن يرضوا، فأتوا النبيّ ﷺ وهو عند مقام إبراهيم فقصّوا عليه القصّة، فقال: أنا أقضي بينكم واحتبى، فقال رجل من القوم إنّ عليّا قضى فينا فقصّوا عليه القصّة فأجازه رسول الله ﷺ[٢].

وأمّا الثانية: فقد ورد عن زيد بن أرقم قال: أُتي عليّ رضي الله عنه بثلاثة وهو باليمن وقعوا على امرأة في طهر واحد فسأل اثنين: أتقرّان لهذا بالولد، قالا: لا، ثمّ سأل اثنين أتقرّان لهذا بالولد، قالا: لا، فأقرع بينهم فألحق الولد بالذي صارت إليه القرعة، وجعل عليه ـ أي للرجلين ـ ثلثي الديّة، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فضحك حتّى بدت نواجذه[٣].

ـ ٣ ـ اجتهاد الصحابة في مسألة الصلاة في بني قريظة:

فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال لنا النبيّ ﷺ لمّا رجع من الأحزاب: «**لا يصلينّ أحد العصر إلاّ في بني قريظة**»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم لا نصلّي حتّى نأتيها، وقال بعضهم بل نصلّي لم يرد منّا ذلك، فذكر ذلك للنبيّ فلم يعنّف واحدا منهم[٤].

فمن صلّاها منهم في الطريق نظر إلى المعنى وفهم أنّ مراد الرسول

---

(١) أتيته على تفئة ذلك أي على حينه وزمانه (لسان العرب، مادة تفأ).

(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب الطلاق.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة.

إنّما هو سرعة النهوض وهؤلاء سلف أصحاب المعاني والقياس، ومن أخّرها وصلاّها ليلاً في بني قريضة نظر إلى اللفظ وهؤلاء سلف أهل الظاهر(١).

ـ ٤ ـ اجتهاد عمرو بن العاص:

عن عمرو بن العاص قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل(٢) فأشفقت إن اغتسلت أن أهلّك، فتيّممت ثمّ صلّيت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «**يا عمرو صلّيت بأصحابك وأنت جنب**»، فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إنّي سمعت الله يقول ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾(٣) فضحك رسول الله ولم يقل شيئاً(٤).

ومن أمثلة النوع الثاني: وهو ما اجتهد فيه الصحابة فبيّن لهم الرسول وجه الخطأ ولم يقرّهم عليه:

ـ ١ ـ ما ورد عن جابر بن عبدالله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منّا حجر فشجّه في رأسه ثمّ احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمّم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات، فلمّا قدمنا النبيّ ﷺ أخبر بذلك فقال: «**قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنّما شفاء العيّ السؤال، إنّما كان يكفيه أن يتيمّم**

(١) إعلام الموقعين ٢٠٣/١.
(٢) سمّيت بذلك لأنّ المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفرّوا، ثمّ لمّا قرب منهم المسلمون ألقى الله في قلوبهم الرعب وفرّوا، وقيل سمّيت بذلك لأنّ بها ماء يقال له السلسل، وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان، وسببها أنّ الرسول ﷺ بلغه أنّ جمعا من قضاعة تجمّعوا للإغارة وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعث ﷺ عمرو بن العاص في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسا (أحمد بن زيني دحلان: السيرة النبويّة ٢٤٤/٢).
(٣) سورة النساء، الآية: ٢٩.
(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، وأحمد في مسند الشاميين، واللفظ لأبي داود.

ويعصر أو يعصب ـ شكّ راوي الحديث ـ **على جرحه خرقة ثمّ يمسح عليها ويغسل سائر جسده»**(١).

ـ ٢ ـ ما ورد عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سريّة فصبّحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلاّ الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبيّ ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **«أقال لا إله إلاّ الله وقتلته؟»** قلت: يا رسول الله إنّما قالها خوفاً من السلاح، قال: **«أفلا شققت عن قلبه حتّى تعلم قالها أم لا؟»** فما زال يكرّرها حتّى تمنّيت أنّي أسلمت يومئذ(٢).

ـ ٣ ـ ما ورد عن عمّار بن ياسر أنّه كان في سفر مع عمر بن الخطاب فأصابتهما الجنابة فأمّا عمر فلم يصلّ، وأمّا عمّار قال: فتمعكت ـ تمرغت ـ في الصعيد وصلّيت، فذكرت ذلك للنبيّ ﷺ، فقال: إنّما يكفيك هكذا، وضرب النبيّ ﷺ بكفّيه الأرض ونفخ فيهما ثمّ مسح بهما وجهه وكفّيه(٣).

ـ ٤ ـ ما ورد عن ابن عمر قال: أتى رسول الله ﷺ ضيف فقال لبلال: **ائتنا بطعام**، فذهب بلال فأبدل صاعين من تمر بصاع من تمر جيّد، وكان تمرهم دوناً، فأعجب النبيّ ﷺ التمر فقال: **من أين هذا التمر؟** فأخبره أنّه أبدل صاعاً بصاعين، فقال رسول الله ﷺ: **«ردّ علينا تمرنا»**، وفي رواية: فأنكرها رسول الله وقال: **«أربيتم»**، وفي رواية ثالثة قال: **لا يصلح ذلك ولكن بع تمرك ثمّ ابتع حاجتك** أو قال: **واشتر من أيّ تمر شئت**(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان وأبو داود في كتاب الجهاد وأحمد في مسند البصريين ومسند الأنصار، واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمّم، والنسائي في سننه، كتاب الطهارة، وأبو داود في سننه، كتاب الطهارة، واللفظ للبخاري.

(٤) أخرجه النسائي في سننه، كتاب البيوع، وأحمد بألفاظ مختلفة في مسند المكثرين من الصحابة.

- ٥ - ما ورد عن عائشة قالت: دخلت بريرة وهي مكاتبة فقالت: اشتريني وأعتقيني، قالت: نعم، قالت: لا يبيعوني حتّى يشترطوا ولائي، فقالت: لا حاجة لي بذلك، ثمّ إنّ عائشة ذكرت لرسول الله ما قالت لها بريرة فقال: اشتريها وأعتقيها ودعيهم يشترطون ما شاؤوا، فاشترتها عائشة فأعتقتها، واشترط أهلها الولاء، فقال النبيّ ﷺ: «**الولاء لمن أعتق وإن اشترطوا مائة شرط**»[1].

- ٦ - ما ورد عن سالم عن أبيه قال: بعث النبيّ ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كلّ رجل منّا أسيره حتّى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كلّ رجل منّا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره حتّى قدمنا على النبيّ ﷺ، فذكرناه، فرفع النبيّ ﷺ يده - وفي رواية: رفع يديه حتّى رأيت بياض إبطيه - فقال: «**اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد**» مرّتين[2].

وقد أحصى ابن حزم الأندلسي وقائع عديدة اجتهد فيها الصحابة ولم يقرّهم الرسول عليها[3].

والمتأمّل في هذه الأصناف المختلفة من الاجتهادات سواء ما تعلّق منها باجتهاد الرسول، أو ما تعلّق منها باجتهاد أصحابه المهديين فإنّ جميعها لا يخرج عن كونه أحكاماً من دين الله، ذلك أنّ اجتهاد الرسول إمّا أن يقرّه الوحي أو لا يقرّه، فيكون في كلا الحالتين من وحي الله لرسوله في الإقرار وفي التصويب.

وأمّا اجتهاد الصحابة، فما كان منه بحضرة الرسول أو في غيبته

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق.

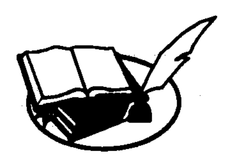
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، وكتاب الدعوات.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام ٦/٢٤٥ - ٢٤٦.

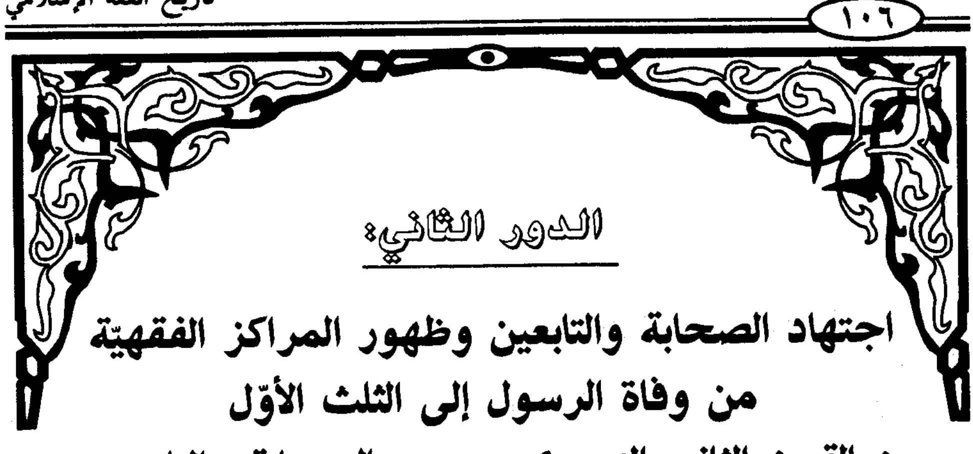
وأقرّهم عليه فقد دخل في السنّة التقريريّة، وما لم يقرّهم عليه فقد بيّن لهم حكم الله فيه فيكون ذلك من سنّة الرسول ﷺ.

وبهذا المعنى يمكن أن نُرجع الفقه في هذا الدور الأوّل الذي هو العصر النبوي إلى مصدرين اثنين لا ثالث لهما: كتاب الله وسنّة نبيّه.

وهكذا فما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى حتّى أتمّ دين الله وأبرم شريعة الله وترك المسلمين على البيضاء ليلها كنهارها[١].



(١) من حديث الرسول فيما رواه العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقلنا: يا رسول الله، إنّ هذه الموعظة مودّع فماذا تعهد إلينا، قال: **«قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلاّ هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنواجذ وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشياً، فإنّما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد»** (أخرجه ابن ماجة في المقدمة، وأحمد في مسند الشاميين).



الدور الثاني:

اجتهاد الصحابة والتابعين وظهور المراكز الفقهيّة من وفاة الرسول إلى الثلث الأوّل من القرن الثاني الهجري - عصر الصحابة والتابعين -

تمهيد:

ما إن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتّى وجد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أنفسهم أمام وقائع جديدة ونوازل طارئة تتطلّب حلولاً، ولمّا كان الدور الأوّل الذي هو دور التأسيس القائم على الوحي الإلهي قد انقضى، وحلّ هذا الدور الذي هو دور عصر الصحابة والتابعين، كان لا بدّ من اللجوء إلى الاجتهاد الذي كان الرسول قد درّب عليه أصحابه استعداداً لتحمّل أمانة التبليغ من بعده.

ذلك أنّ الحوادث كانت تستجدّ بلا انقطاع كما هو الحال في كلّ مجتمع ينمو ويتشكّل في ضوء ظروف متغيّرة وأحداث متجدّدة.

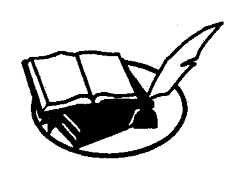
هذه الوقائع كانت تستجدّ أحياناً نتيجة عوامل عاديّة تعرفها الحياة الهادئة، وأحياناً نتيجة عوامل غير عاديّة كحروب الردّة وحروب المتنبّئين، وكذلك الفتن الداخليّة مثل مقتل الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، وحروب الخليفة الراشدي الرابع عليّ بن أبي طالب في مواقع الجمل وصفّين وغيرهما، وما خلّفته من آثار مسّت جميع مستويات الحياة الفرديّة منها والجماعيّة، الاجتماعيّة والاقتصاديّة منها والسياسيّة.

ولمّا لم يجد الصحابة فيما بين أيديهم من النصوص القرآنيّة والنبويّة المتناهية ما يفي بالغرض لاستيعاب جميع تلك الحوادث والنوازل، لم يكن أمامهم إلاّ الاجتهاد سبيلاً للإحاطة بما نزل بهم من وقائع.

فانبرى الصحابة الذين اشتهروا بالإفتاء على عهد الرسول ﷺ في التصدّي لهذه الوقائع، فأدرجوا من أعيان الأحداث الجزئيّة ما ينضوي تحت أصولها وألحقوا الفروع الجزئيّة بأصولها الكليّة في محاولة منهم لاستيعاب الطوارىء الجديدة.

وبهذا الشكل أخذ الفقه يخطو خطواته الأولى نحو النموّ والاتّساع، ونحو البناء والتشييد.

وقد ارتأينا أن نقسّم هذا الدور إلى مرحلتين اثنتين تختصّ كلّ مرحلة منهما بخصائص وسمات معيّنة.





المرحلة الأولى:

عصر الخلفاء الراشدين

واجه المسلمون على إثر وفاة الرسول ﷺ مشكلة من أعوص المشاكل، بدت في أوّل الأمر تنذر بشرّ مستطير ثمّ انتهت بفضل الله نهاية محمودة، تلك هي مسألة خلافة رسول الله ﷺ في تسيير شؤون الدولة ورعاية شؤون المسلمين التي انتهت بتولية أبي بكر الصديق حيث بويع بيعة خاصّة في اجتماع سقيفة بني ساعدة ثمّ بويع البيعة العامّة في المسجد النبوي الشريف.

ولم يكد أبو بكر الصديق يتقلّد خلافة المسلمين حتّى قام المرجفون والذين في قلوبهم مرض ممّن كان إسلامهم على غير يقين وحسبوا أنّ الفرصة سانحة للقضاء على دين الله فهبّوا في ثورة عارمة معلنين الردّة، واستشرى خطرهم حتّى عمّ أطراف بلاد الإسلام في جزيرة العرب، وممّا زاد الأمر سوءً انتحال بعض أصحاب الردّة ورؤوسها صفة النبوّة وكان أشدّهم خطرا في ذلك مسيلمة الكذّاب.

ومن لطف الله بعباده وبلاده أن مكّن لأبي بكر الصديق في الأرض، فواجه هذا الخطب العظيم بحزم وشدّة استطاع من خلالها أن يعيد كامل الجزيرة العربية إلى سيطرة المسلمين.

وبعد أن استقرّت الأوضاع الداخليّة شرع في تسيير الجيوش إلى البلاد البعيدة، ولمّا أدرك أنّ أجله قد حان، أوصى من بعده لعمر بن الخطاب.

وفي عهد الفاروق اتّسعت الفتوحات وعمّ عدله بلاد الشام والعراق وإيران ومصر واستقرّ أمر المسلمين على أفضل حال، حتّى إذا طعن بخنجر الغدر وأشرف على الموت حمّل أمانة الخلافة من بعده إلى مجلس شورى يتألّف من ستّة شخصيات من أعيان الصحابة ممّن توفّي الرسول وهو عنهم راض، فانعقد الأمر لذي النورين عثمان بن عفان.

وفي عهد عثمان استقرّت الأحوال أعواماً على ما كانت عليه زمن أبي بكر وعمر وفتحت أرمينية وإفريقية وقبرص وقرعت أبواب القسطنطينية ذاتها ووصلت الجيوش إلى طبرستان وسجستان وخراسان ومرو وكرمان، وبلغت السودان والحبشة في الجنوب، والهند والصين في الشرق.

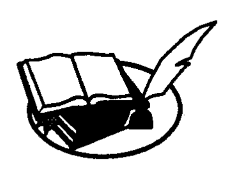
ثمّ حدث أن أغرت سياسة الخليفة الراشدي عثمان بن عفان حفيظة الكثيرين من المتمرّدين الذين أشعلوا نار الفتنة بين المسلمين وتمكّنوا من زرع روح الخلاف الداخلي، فعظم الخطب حتّى طالبوا الخليفة بالتنحّي عن منصبه واشتدّ الحال على المسلمين وانتهى باقتحام بيت الخليفة وقتله.

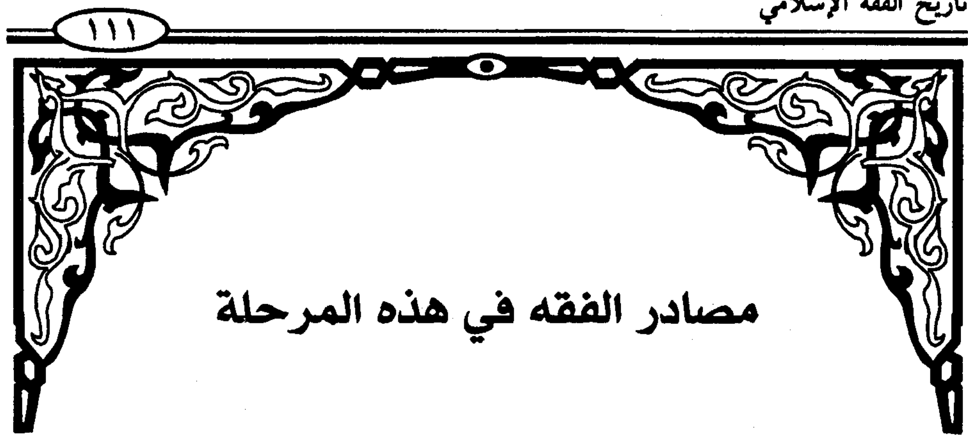
فآلت الخلافة إلى عليّ بن أبي طالب وقد أُثخنت بالجراح وأُثقلت بالخلافات والانشقاقات، فواجهته فتن عظيمة وأحداثٌ رهيبة في الشام والعراق تفرّق على إثرها المسلمون إلى شيع وأحزاب، وكانت أشدّ هذه الأحزاب وقعاً على المسلمين وأعظمها خطباً فرقة الخوارج التي لم يتورّع أنصارها من تكفير مخالفيهم بل ذبحهم أحياناً وبقر بطونهم.

وقد أجمع ثلاثة من الخوارج على التخلّص من عليّ بن أبي طالب خليفة المسلمين ومعاوية بن أبي سفيان قائد جيوش الشام وعمرو بن العاص نصير معاوية فلم ينجح في هذه المهمّة الشنيعة إلاّ عبدالرحمٰن بن ملجم الذي طعن الخليفة بسيف مسموم فألحقه بالشهداء الأبرار.

إنّ هذه الأحداث الداخليّة التي عصفت بالبلاد الإسلاميّة وما خلّفته من جراحات وآلام في جسم الأمّة من ناحية، وتلك الفتوحات الخارجيّة التي أدّت إلى احتكاك المسلمين بالعالم الخارجي وتفتّح عيونهم على عادات وتقاليد البلاد المفتوحة وتلاحمهم مع ما يستجدّ من مشاكل تلك

البلاد وتطوّراتها من ناحية ثانية، كلّ هذه الأحداث الإيجابية منها والسلبية التي عرفتها البلاد وعايشها العباد قد أثّرت بلا شكّ تأثيرا عميقا في صياغة الفقه الذي كان في هذه المرحلة ينمو ويتّسع بنموّ الحياة واتّساعها خاصّة وأنّ حياة الناس كانت مصطبغة بدون أدنى شكّ بصبغة دينيّة متينة لا تكاد تنفكّ عنها في كلّ جزئية من جزئيات الحياة.





مصادر الفقه في هذه المرحلة

ـ ١ ـ القرآن الكريم:

لقد كان لحروب الردّة وحروب المتنبّئين من الوقع العظيم على عهد أبي بكر ما لا يخفى على دارس على الرغم من الحزم الذي أبداه أبو بكر الصديق في معالجة هذه القضيّة المصيريّة وعلى الرغم من الشدّة التي اتّسم بها في حربه لهم.

فعلى الرغم من كلّ ذلك فقد كانت هذه الحروب شديدة على المسلمين استشهد فيها ما يقرب من السبعين من خيار الصحابة وحفّاظ كتاب الله تعالى، الأمر الذي جعل الخليفة الراشدي أبا بكر الصديق يوافق على اقتراح عمر بن الخطاب في جمع القرآن العظيم كلّه بين دفّتي مصحف واحد، بعد أن كان متردّداً من قبل.

فقد روي عن عبيد بن السبّاق أنّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنّ عمر أتاني فقال إنّ القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن وإنّي أخشى أن يستحرّ القتل بالقرّاء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنّي أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتّى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد: قال أبو بكر إنّك رجل شاب عاقل لا نتّهمك

وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ ممّا أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتّى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبّعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتّى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[1] حتّى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفّاه الله ثمّ عند عمر حياته ثمّ عند حفصة بنت عمر[2].

وممّا يلحظ في هذا الجمع أنّ زيد بن ثابت قد انتهج فيه طريقة دقيقة محكمة وضعها له أبو بكر وعمر فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبّت بالغ وحذر دقيق وتحرّيات شاملة، فلم يكتف بما حفظ قلبه ولا بما كتب بيده ولا بما سمع بأذنه، بل جعل يتتبّع ويستقصي آخذا على نفسه أن يعتمد في جمعه على مصدرين اثنين: أحدهما ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ، والثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال، وبلغ من مبالغته في الحيطة والحذر أنّه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتّى يشهد شاهدان عدلان أنّه كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

وبذلك لم يعتمد زيد على الحفظ وحده بدليل ما ورد في الحديث السابق أنّه لم يجد آخر سورة براءة إلاّ مع أبي خزيمة، والمقصود أنّه لم يجدها مكتوبة إلاّ مع أبي خزيمة وإلاّ فإنّ زيدا كان يحفظها، وكان كثير من الصحابة ممّن جمعوا القرآن ولا يزالون على قيد الحياة يحفظونها، ولكنّه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة زيادة في التوثّق ومبالغة في

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن.

وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ ممّا أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتّى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبّعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتّى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾(١) حتّى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفّاه الله ثمّ عند عمر حياته ثمّ عند حفصة بنت عمر(٢).

وممّا يلحظ في هذا الجمع أنّ زيد بن ثابت قد انتهج فيه طريقة دقيقة محكمة وضعها له أبو بكر وعمر فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبّت بالغ وحذر دقيق وتحرّيات شاملة، فلم يكتف بما حفظ قلبه ولا بما كتب بيده ولا بما سمع بأذنه، بل جعل يتتبّع ويستقصي آخذا على نفسه أن يعتمد في جمعه على مصدرين اثنين: أحدهما ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ، والثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال، وبلغ من مبالغته في الحيطة والحذر أنّه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتّى يشهد شاهدان عدلان أنّه كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

وبذلك لم يعتمد زيد على الحفظ وحده بدليل ما ورد في الحديث السابق أنّه لم يجد آخر سورة براءة إلاّ مع أبي خزيمة، والمقصود أنّه لم يجدها مكتوبة إلاّ مع أبي خزيمة وإلاّ فإنّ زيدا كان يحفظها، وكان كثير من الصحابة ممّن جمعوا القرآن ولا يزالون على قيد الحياة يحفظونها، ولكنّه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة زيادة في التوثّق ومبالغة في

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن.

الاحتياط[١].

فتمّ بتوفيق الله وعونه جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق بين دفتي مصحف واحد، وبقي هذا المصحف عند أبي بكر حتّى توفّاه الله ثمّ عند الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، فلمّا توفّي احتفظت به عندها أمّ المؤمنين حفصة بنت عمر.

وفي عهد عثمان بن عفان تجدّد الداعي إلى جمع القرآن ثانية والعودة إلى الصحف المحتفظ بها عند حفصة، حيث وقع اختلاف بين المسلمين في قراءة القرآن أفزع الصحابة.

فعن أنس بن مالك أنّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمّة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثمّ نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبيّر وسعيد ابن العاص وعبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنّما نزل بلسانهم[٢]، ففعلوا حتّى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كلّ أفق بمصحف ممّا نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفة أو مصحف أن يحرق[٣].

واستجاب الصحابة رضوان الله عليهم لخليفة المسلمين عثمان بن

(١) مناهل العرفان ١/٢٤٥.

(٢) قال ابن شهاب الزهري: فاختلفوا يومئذ في التابوت والتابوه، فقال القرشيون: التابوت، وقال زيد: التابوه، فرفع اختلافهم إلى عثمان فقال: اكتبوه التابوت فإنّه نزل بلسان قريش (أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن.

عفّان فحرّقوا مصاحفهم وصحفهم التي كانت بين أيديهم[١]، وأصبح مصحف عثمان الذي عرف بمصحف الإمام، المصحف المعوّل عليه دون غيره من المصاحف.

ـ ٢ ـ السنّة النبويّة:

رأينا كيف أنّ النبيّ ﷺ قد نهى في أوّل الأمر عن كتابة الحديث خوف اختلاطه بالقرآن أو لئلاّ يُتّخذ مع القرآن كتاب يضاهيه في التلاوة والقراءة، ثمّ نسخ النهي عن الكتابة إلى الإباحة والإذن بالتدوين بعد زوال أسباب المنع.

وثبت أنّ هناك من دوّن في عهد الرسول ﷺ سواء كان بإذن خاص من النبيّ كعبدالله بن عمرو بن العاص، أو بعد الإذن العام.

ورغم ما روي عن رسول الله في إذنه بتدوين حديثه، ورغم ما كتب في عهده ﷺ من أحاديث فإنّ الصحابة رضوان الله عليهم نراهم في هذا الدور يحجمون عن تدوين الأحاديث ويكتفون في تناقلها بالرواية اعتمادا على ما وعته عقولهم وما حفظته صدورهم.

فهذا عمر بن الخطاب يعزم في أيّام خلافته على تدوين أحاديث رسول الله ويستخير الله شهراً كاملاً ثمّ يعدل عن ذلك، فعن عروة بن الزبيّر أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يكتب السنن، فاستفتى أصحاب النبيّ ﷺ في ذلك فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ثمّ أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إنّي كنت أريد أن أكتب السنن وإنّي ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله، وإنّي والله لا أشوب ـ لا أنسى ـ كتاب الله بشيء أبداً.

---

(١) إلاّ ما كان من عبدالله بن مسعود فإنّه قال: يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلّوها فإنّ الله يقول ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فالقوا الله بالمصاحف، قال ابن شهاب الزهري: فبلغني أنّ ذلك كرهه من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب النبيّ ﷺ (أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن).

وعن يحيى بن جعدة أنّ عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنّة ثمّ بدا له أن لا يكتبها ثمّ كتب في الأمصار: من كان عنده شيء فليمحه.

وعن ابن وهب قال سمعت مالكاً يحدّث أنّ عمر بن الخطاب أراد أن يكتب الأحاديث أو كتبها ثمّ قال: لا كتاب مع كتاب الله، قال مالك: ولم يكن القوم يكتبون إنّما كانوا يحفظون، فمن كتب منهم الشيء فإنّما كان يكتبه ليحفظه فإذا حفظه محاه[١].

وإنّما كره الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الكتابة في هذا الدور حتّى لا يتّخذ مع القرآن كتاباً يُضاهى به كما مرّ بيانه، ولئلاّ يتّكل الكاتب على ما كتب فلا يحفظ فيقلّ الحفظ، خاصّة وأنّ العرب كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك[٢].

*** منهج الصحابة في رواية الحديث:**

ـ ١ ـ الإقلال من الرواية:

ثمّ مع كراهتهم للكتابة والتدوين كانوا قد نهجوا نهج الإقلال من رواية الحديث فقد روي عن عمر بن الخطاب أنّه كان يقول: أقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ.

وروي عن قرظة بن كعب قال: خرجنا نريد العراق فشيّعنا عمر إلى صرار ثمّ دعا بماء فتوضّأ ثمّ قال لنا: أتدرون لـمّ خرجت معكم؟ قلنا أردت أن تشيّعنا وتكرمنا، قال إنّ مع ذلك لحاجة خرجت لها، إنّكم تأتون بلدة لأهلها دويّ بالقرآن كدويّ النحل فلا تصدّوهم بالأحاديث عن رسول الله ﷺ فتشغلوهم، جوّدوا القرآن وأقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ، امضوا وأنا شريككم، فلمّا قدم قرظة قالوا: حدّثنا، قال: نهانا عمر بن الخطاب.

---

(١) ابن عبدالبرّ: جامع بيان العلم وفضله ٧٧/١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٨٢/١ ـ ٨٣.

ولذلك كان أبو هريرة يمسك عن التحديث زمن عمر بن الخطاب ويقلّ من رواية الحديث، ولم يحدّث ويكثر من ذلك إلاّ بعدما طال به العمر واحتاج الناس إلى ما عنده من العلم وكان يقول: لقد حدّثتكم بأحاديث لو حدّثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربني بالدرّة(١).

وكان ابن مسعود يقول: إنّ هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره(٢).

وكان سفيان بن عيينة يقول وقد نظر إلى أصحاب الحديث: لو أدركنا وإيّاكم عمر بن الخطاب لأوجعنا ضرباً(٣).

والظاهر أنّ هذا النهج الذي انتهجه الصحابة في الإقلال من رواية الحديث إنّما كان لقرب عهدهم بالرسول ﷺ، ولكون أغلب الصحابة الذين سمعوا من رسول الله لا يزالون على قيد الحياة فلم تكن هناك حاجة متأكّدة لرواية الحديث، والاعتناء به على سبيل السماع والتحصيل والحفظ خاصّة وأنّ عمر بن الخطاب قد ألزم أصحاب رسول الله بالبقاء بجواره بالمدينة إلاّ من كان منهم قد خرج في مهمّة فرخّص له ذلك.

وقد حمل ابن عبدالبرّ منهج عمر في الإقلال من رواية الحديث على وجوه منها:

* أنّه كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن فخشي عليهم الاشتغال بغيره عنه إذ هو الأصل لكلّ علم.

* وأنّه كان خوف مواقعه الكذب على رسول الله ﷺ وخوف الاشتغال عن تدبّر السنن والقرآن، لأنّ المكثر لا تكاد تراه إلاّ غير متدبّر ولا متفقّه فعاب عليهم الإكثار خوفا من أن يرتفع التدبّروالتفهّم.

ولا يجب أن يحمل منهجه في الإقلال من الحديث على الإطلاق

(١) المصدر السابق ١٤٧/٢ ـ ١٤٨.

(٢) نفس المصدر ٨٠/١.

(٣) نفس المصدر ١٥٩/٢.

ـ ٢ ـ التحرّي والاحتياط في النقل:

وكما سار الصحابة رضي الله عنهم في هذا العصر على نهج الإقلال من رواية الحديث ساروا كذلك على نهج التحرّي والاحتياط في نقل الحديث، ورغم أنّ أصحاب رسول الله كانوا جميعاً عدولاً فيما بينهم لا يُتّهمون في دينهم ولا في تقواهم فقد كانوا يتثبّتون فيما يرويه بعضهم ويتحرّون فيما ينقلون ويحتاطون فيما يسمعون ويطالبون بالشاهد على روايتهم.

وكانت الطريقة المتّبعة لدى أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب مع قلّة روايتهما للحديث رغم تقدّم صحبتهما وملازمتهما النبيّ ﷺ ألاّ يقبلا حديثاً إلاّ إذا شهد بسماعه عن الرسول ﷺ اثنان من الصحابة.

فروى ابن شهاب الزهري عن قبيصة بن ذؤيب قال: جاءت الجدّة إلى أبي بكر رضي الله عنه تسأله ميراثها فقال: ما أعلم لك في كتاب الله شيئاً، ولا أعلم لك في سنّة رسول الله ﷺ من شيء حتّى أسأل الناس، فسأل فقال المغيرة بن شعبة: سمعت رسول الله جعل لها السدس، فقال: من يشهد معك أو من يعلم معك، فقام محمد بن مسلمة فقال مثل ذلك، فأنفذه لها[١].

وروي عن أبي موسى الأشعري أنّه جاء يستأذن على عمر بن الخطاب فاستأذن ثلاثاً ثمّ رجع، فأرسل عمر بن الخطاب في أثره فقال: ما لك لم تدخل؟ فقال أبو موسى: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **الاستئذان ثلاث فإن أذن لك فادخل وإلاّ فارجع**، فقال عمر: ومن يعلم هذا؟ لئن لم تأتني بمن يعلم ذلك لأفعلنّ بك كذا وكذا، فخرج أبو موسى حتّى جاء مجلساً في المسجد يقال له مجلس الأنصار، فقال: إنّي أخبرت عمر بن الخطاب أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: الاستئذان ثلاث فإن أذن لك

---

(١) أخرجه أحمد في مسند الشاميين.

فادخل وإلاّ فارجع، فقال: لئن لم تأتني بمن يعلم هذا لأفعلنّ بك كذا وكذا، فإن كان سمع ذلك أحد منكم فليقم معي، فقالوا لأبي سعيد الخدري: قم معه، وكان أبو سعيد أصغرهم، فقام معه، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب، فقال عمر بن الخطاب لأبي موسى: أمّا إنّي لم أتّهمك ولكن خشيت أن يتقوّل الناس على رسول الله ﷺ(١).

وروى حسين بن أبي وقّاص قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ما يمنعني أن أحدّث عن رسول الله ﷺ أن لا أكون أوعى أصحابه عنه، ولكنّي أشهد لسمعته يقول: من قال عليّ ما لم أقل فليتبوّأ مقعده من النار(٢).

وكانت طريقة عليّ بن أبي طالب في قبول الرواية أن يحلّف كلّ من يسمعه حديثاً لم يبلغه عن رسول الله حتّى يطمئنّ إلى صدقه، فعن أسماء بن الحكم الفزاري أنّ عليّ بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً ينفعني الله بما شاء منه، وإذا حدّثني عنه غيره استحلفته، فإذا حلف صدّقته، وإنّ أبا بكر حدّثني وصدق أبو بكر قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من رجل يذنب ذنبا فيتوضّأ فيحسن الوضوء ثمّ يصلّي ركعتين ويستغفر الله إلاّ غفر له»**(٣).

ورغم هذا النهج العام الذي سار عليه الصحابة في الإقلال من رواية الحديث والاحتياط في نقله فإنّ ذلك لم يمنع بعض صغار الصحابة من أمثال عبدالله بن العباس من الاعتناء بسماعه والسعي في سبيل تحصيله وحفظه.

فعن عكرمة عن ابن عباس قال: لمّا قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلمّ فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنّهم اليوم كثير، فقال:

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الاستئذان.
(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.
(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنّة فيها، وأحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.

وعجبا لك يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك؟ قال ابن عباس: فترك ذلك وأقبلت أسأل، فإن كان ليبلغني الحديث عن رجل فآتي بابه وهو قائل فأتوسّد ردائي على بابه يسفي الريح عليّ من التراب فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عمّ رسول الله ما جاء بك؟ هلاّ أرسلت إليّ فآتيك؟ فأقول: لا أنا أحقّ أن آتيك فأسأله عن الحديث، فعاش الرجل الأنصاري حتّى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألونني، فقال: هذا الفتى كان أعقل منّي.

وروى عبيدالله بن علي بن أبي رافع أنّ ابن عباس كان يأتي أبا رافع فيقول: ما صنع النبيّ ﷺ يوم كذا ومع ابن عباس من يكتب ما يقول[١].

*** الرحلة في طلب الحديث:**

انقضى عصر أبي بكر وعمر وأعظم السنّة النبويّة الشريفة محفوظة في صدور أصحاب الرسول، غير شائعة بين الناس كثيراً، إذ أنّ منهج أبي بكر وعمر كان يقوم على الاعتناء بكتاب الله والاحتياط للسنّة النبويّة من التزيّد عليها والاحتراز لها حتّى من الوقوع في الخطأ والوهم غير المقصود، وكانت سياستهما تقوم على استبقاء كبار الصحابة وملازمتهم المدينة فلا يخرج منها إلاّ من دعت الحاجة الملحّة إلى خروجه.

فلمّا كان عهد عثمان بن عفان أذن لأصحاب رسول الله بمغادرة المدينة والانتشار في الأرض فتوزّعوا في الأمصار وعند كلّ واحد منهم مجموعة من الأحاديث التي كان قد سمعها من رسول الله أو سمعها من أصحابه وقد يتفرّد بعضهم برواية أحاديث لم يسمعها غيره، واحتاج الناس إلى ما عندهم من العلم والسنن فتصدّر كلّ صحابي أو أكثر بتعليم أهالي الإقليم الذي استقرّوا به، وانتشرت الأحاديث بانتشار الصحابة في الأمصار.

والأقاليم، فأصبح طلاّب الحديث من أبناء الصحابة ومن التابعين لا يستطيعون استيفاء الأحاديث من مركز واحد، ولا يبلغون الدرجة الحقيقيّة

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٣٣١/٢ ـ ٣٣٢.

في الاعتناء بسماع الحديث وتحصيله وحفظه إلاّ إذا رحلوا في طلبه من بلد إلى آخر، فظهرت الرحلة في طلب الحديث وتركّزت الأنظار بعناية أعظم حول من بقي من أصحاب الرسول، واشتهر منهم سبعة بكثرة الرواية، وهم: أبو هريرة روى ٥٣٧٤ حديثاً، ثمّ عبدالله بن عمر بن الخطاب وعدد ما رواه ١٦٣٠ حديثاً، ثمّ أنس بن مالك وعدد أحاديثه ١٢٨٦ حديثاً، ثمّ عائشة أمّ المؤمنين وعدد ما روته ١٢١٠ حديثاً، ثمّ عبدالله بن عباس وعدد ما رواه ١٦٦٠ حديثاً، ثمّ جابر بن عبدالله وعدد ما رواه ١٥٤٠ حديثاً، ثمّ أبو سعيد الخدري وعدد ما رواه ١١٧٠ حديثاً.

ومضى الأمر على تلك الحال من طلب للحديث واعتناء به تحصيلا ورواية إلى أن رفعت الفتنة رأسها ونفثت بسمومها في أواخر عهد الخليفة عثمان بن عفان فكانت تلك الفتنة بفظاعتها وخطورتها منعرجاً حاسماً في حياة المسلمين وتاريخهم الديني والسياسي.

ـ ٣ ـ الاجتهاد والرأي:

احتاج الناس في هذا العصر إلى المجتهدين من أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يكونوا رضوان الله عليهم كلّهم أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ من جميعهم وإنّما كانوا على اختلاف في درجة الإفتاء والفقه في الدين، فمنهم العامّة الذين لم يُعرفوا بفقه ولا دراية وإذا نزلت بأحدهم نازلة سأل فيها أهل الذكر، وكان منهم المجتهدون الأوّلون وهم الفقهاء من أصحاب الرسول الذين اجتهدوا في حياة الرسول.

وهؤلاء الصحابة كانوا ألين الأمّة قلوباً وأعمقها علماً وأقلّها تكلّفاً وأحسنها بياناً وأصدقها إيماناً وأعمقها نصيحة وأقربها إلى الله وسيلة، وكانوا كما شهد فيهم بعض التابعين: كالإخاذ الإخاذة تروي الراكب، والإخاذة تروي الراكبين، والإخاذة تروي العشرة، والإخاذة لو نزل بها أهل الأرض لأصدرتهم[1] ـ أي أشبعتهم من الماء ـ وهؤلاء الذين تميّزوا من بين

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١/١١ و١٦.

الصحابة بممارستهم الاجتهاد والإفتاء هم الذين عرفوا باسم القرّاء[١] كما قال ابن خلدون ـ أو الذين عرفوا باسم الفقهاء والعلماء من القرّاء فيما بعد[٢].

وبوفاة النبيّ ﷺ أصبح هؤلاء الذين مارسوا الاجتهاد بين يدي النبيّ وكان مرجعهم إليه، وتخرّجوا على ذلك في الاجتهاد بالنبيّ، أصبحوا بالطبع هم المرجع للناس.

وهؤلاء هم الذين اهتمّ العلماء بجمع أسمائهم فألّفت فيهم تآليف ونظّمت في إحصائهم منظومات، وقد كانوا ـ كما ذكر ابن حزم ونقله عنه ابن قيم الجوزيّة ـ متفاوتين في الإفتاء بين مكثر ومقلّ ومتوسّط، بحيث إنّ مجموعهم قد بلغ مائة ونيْفا وثلاثين[٣] اشتهر منهم سبعة اعتبروا هم المكثرون من الصحابة فيما روي عنهم من الفتيا، وعدّوا من الطبقة الأولى في العلم، وقد اختلف العادون في بعضهم فوضعوا واحداً مكان آخر.

فروى ابن سعد بإسناد صحيح قال: أصحاب الفتوى ستّة وهم: عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وأبيّ بن كعب وأبو موسى الأشعري وزيد بن ثابت[٤].

وروي عن مسروق أنّه قال: شافهت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستّة: عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي الدرداء وزيد بن ثابت رضي الله عنهم[٥].

---

(١) وفي الحديث عن عاصم، قال: سمعت أنسا يقول: ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على سريّة ما وجد على السبعين الذين أصيبوا يوم بئر معونة، كانوا يدعون القرّاء (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة).

(٢) ابن خلدون: المقدّمة ص ٤٢٨.

(٣) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ٨٧/٥، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١/ ١٢ ـ ١٤.

(٤) ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٥٦٢.

(٥) ابن عبدالبرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٦٠/٤.

وفي رواية أخرى أنه قال: شاممت أصحاب محمد ﷺ ـ أي بحثت عنهم ـ فوجدت علمهم ينتهي إلى ستّة، فذكر أبيّ بن كعب عوضاً عن معاذ بن جبل[١].

وقال الشعبي: ثلاثة يستفتي بعضهم من بعض، فكان عمر بن الخطاب وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت يستفتي بعضهم من بعض، وكان عليّ بن أبي طالب وأبيّ بن كعب وأبو موسى الأشعري يستفتي بعضهم من بعض[٢].

وقال مسروق: انتهى العلم إلى ثلاثة: عالم بالمدينة وعالم بالشام وعالم بالعراق، فعالم المدينة عليّ بن أبي طالب، وعالم العراق عبدالله بن مسعود، وعالم الشام أبو الدرداء، فإذا التقوا سأل عالم الشام وعالم العراق عالم المدينة ولم يسألهما[٣].

وقال الإمام الشعبي: قضاة هذه الأمّة: عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري.

وكان عبدالله بن مسعود يقول: إنّي لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم.

وقال سعيد بن المسيّب: كان عمر يتعوّذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن[٤] ـ أي عليّ بن أبي طالب ـ

وكان ابن عباس يقول: أُعطي عليّ بن أبي طالب تسعة أعشار العلم وإنّه لأعلمهم بالعشر الباقي[٥].

---

(١) إعلام الموقعين ١٦/١.
(٢) المصدر السابق ١٥/١.
(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٢.
(٤) إعلام الموقعين ١٦/١.
(٥) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٢.

وقال شهر بن حوشب: كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدّثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا إليه هيبة له.

وقال ابن أبي نجيح: كان أصحاب ابن عباس يقولون: ابن عباس أعلم من عمر بن الخطاب ومن عليّ بن أبي طالب ومن عبدالله بن مسعود ويعدّون ناسا فيثب عليهم الناس فيقولون: لا تعجلوا علينا إنّه لم يكن أحد من هؤلاء إلاّ وعنده من العلم ما ليس عند صاحبه، وكان ابن عباس قد جمعه كلّه[(١)].

والملاحظ من خلال هذه الروايات ـ وروايات أخرى أعرضنا عنها اختصارا ـ اختلاف القوم فيمن هو أعلم الصحابة، واختلاف النظر في هذا أمر طبيعي والأهمّ من هذا أنّ العلماء قد عدّوا سبعة من الصحابة هم سادة المفتين والعلماء والمكثرون من الفتيا وهم على الأشهر: عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن عباس وزيد بن ثابت وعائشة أمّ المؤمنين.

ثمّ المتوسّطون منهم فيما روي عنهم من الفتيا وعددهم عشرون، وهم: أبو بكر الصديق وأمّ المؤمنين أمّ سلمة وأنس بن مالك وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وعثمان بن عفان وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله ابن الزبير وأبو موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص وسلمان الفارسي وجابر بن عبدالله ومعاذ بن جبل وطلحة بن عبيدالله والزبيّر بن العوام وعبدالرحمٰن بن عوف وعمران بن حصين وأبو بكرة وعبادة بن الصامت ومعاوية بن أبي سفيان.

ثمّ المقلّون الذين لا يروى عن الواحد منهم إلاّ المسألة والمسألتان والزيادة اليسيرة على ذلك فعددهم بعد التقصّي واحد وعشرون ومائة[(٢)].

---

(١) إعلام الموقعين ١٨/١ ـ ٢٠.

(٢) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ٨٧/٥ ـ ٨٩، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١/ ١٢ ـ ١٤.

هؤلاء الصحابة الذين تخرّجوا بالنبيّ ﷺ بذاته فكانوا سادة الأمّة وأئمّتها وقادتها، كانوا في عهد أبي بكر وعمر مجتمعين في المدينة المنوّرة حيث تكوّنت الشريعة العمليّة وحيث نشأت نواة الاجتهاد الأولى، ثمّ سرعان ما اتّسعت الدولة الإسلاميّة وامتدّت الفتوحات في عهد عثمان بن عفان وأذن لهم بالسعي في أنحاء الدولة الممتدّة، فتوزّعوا في تلك البلاد الشاسعة بقصد تعليم الأمّة وإرشادها.

والحقّ يقال إنّ انتشار الصحابة في الأمصار المفتوحة لم يكن من سياسة عثمان بن عفان كما يتبادر للكثير أوّل الأمر، ولكنّ الناظر يرى أنّ هذه البعثات كانت تتمّ منذ عهد الرسول ﷺ، فقد بعث مثلاً معاذ بن جبل إلى اليمن، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وبعث بغيرهما من الصحابة، وذاك أمر تتطلّبه مصلحة الدولة ويحتاج إليه المسلمون في تلك البلاد، فكان يرسل إلى الأنحاء المختلفة من سادات الصحابة من المفتين والعلماء ليتلقّى عنهم الناس الدين تلقّياً صحيحاً.

ولمّا توفّي الرسول ﷺ خرج بعض الصحابة من المدينة ونزلوا أماكن مختلفة فربّما استقرّوا بها واتّخذوها مقاماً وموطناً.

وحين تولّى عمر بن الخطاب الخلافة بعث عمّار بن ياسر وعبدالله بن مسعود إلى الكوفة وقال لأهلها: أمّا بعد فإنّي بعثت إليكم عمّاراً أميراً وعبدالله قاضياً ووزيراً. . . فاسمعوا لهما وأطيعوا فقد آثرتكم بهما على نفسي.

وروى أبو مسلم الخراساني أنّه دخل حمص ـ زمن خلافة عمر ـ فرأى حلّقة فيها اثنان وثلاثون رجلاً من أصحاب رسول الله[١].

ففي عهد عمر رضي الله عنه خرج كثير من الصحابة من المدينة بغاية الفتح والجهاد وبغاية التعليم والإرشاد أو بتكليف من الخليفة لتسيير شؤون ولاية من الولايات، توزّعوا في الأقاليم وسكنوا بلاداً شاسعة واستوطنوا

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٣، ٤٦.

وماتوا في أماكن شتّى، مثل عبادة بن الصامت وسعد بن عبادة وسهيل بن عمرو وحذيفة بن اليمان وسلمان الفارسي وأبو عبيدة بن الجراح وأبو الدرداء وغيرهم كثير.

ورغم هذه البعثات التي اقتضتها مصلحة الإسلام والمسلمين فقد عُرف عن عمر أنّه كان لا يحبّذ خروج الصحابة من المدينة ولا يسمح لهم بذلك وخاصّة منهم من اشتهر بالإفتاء.

ولكن في عهد عثمان بن عفان كانت ظاهرة توزّع الصحابة في أنحاء البلاد قد شاعت وانتشرت حتّى عدّت بعد ذلك من سياسة عثمان بن عفان ونهجه في عدم إلزام أصحاب رسول الله بالمكوث إلى جواره بعد أن أذن لهم إذنا عامّا وسمح لهم بحريّة اختيار موطن الإقامة، فاختار بعضهم مكّة، ونزل بعضهم الشام وتوجّه بعضهم إلى البصرة وقصد البعض الآخر مصر وسائر بلاد الإسلام.

على أنّ الجمع الأعظم والعدد الأكبر من الصحابة قد لزم المدينة ولم يخرج منها ذلك أنّ النبيّ ﷺ قد ترك بالمدينة ما يقرب من اثني عشر ألفاً من الصحابة دفن منهم بالبقيع نحو عشرة آلاف وتفرّق منها وانجلى عنها ألفان في نواحي متفرّقة.

وهؤلاء الصحابة أهل الإيمان وجند الرحمٰن قد أنشأوا بتوزّعهم في الأمصار حركة اجتهاديّة في كلّ بلدة نزلوا بها، فتعدّدت مراكز الاجتهاد بتعدّد الأقاليم التي نزل بها الصحابة، وبعد أن كان الفقه فقه المدينة حيث يقيم أكثر الصحابة وأشهرهم فقها وعلماً، أصبحت المراكز عديدة، وغدا أتباع كلّ صحابيّ لا يعدلون به غيره، فكان أهل مكّة من أتباع ابن عباس يرون أنّ ابن عباس أعلم من عمر بن الخطاب ومن عليّ بن أبي طالب ومن عبدالله بن مسعود. . . وإنّه لم يكن أحد من هؤلاء إلاّ وعنده من العلم ما ليس عند صاحبه، وأنّ ابن عبّاس كان قد جمعه كلّه.

وكان أصحاب ابن مسعود يرون أنّه لو نزل به أهل الأرض لأشبعهم علماً، ولكن ذلك لم يكن يمنعهم من أن ينصفوا الصحابة من أهل العلم

ويقرّوا لهم بالفضل، فهذا مسروق من أعلام تابعي العراق ومن تلامذة ابن مسعود يشهد حين قدومه المدينة أنّ زيد بن ثابت من الراسخين في العلم(١).

وغير ذلك كثير ممّا يطول عرضه.

والتحق بهؤلاء الفقهاء من أصحاب الرسول في كلّ مركز من تلك المراكز وجوه من أعلام التابعين الذين نالوا شرف الإفتاء بحضور الصحابة، واقتصر كثير من التابعين بالتفقّه على الصحابة الذين نزلوا عندهم واشتهروا بالأخذ عنهم دون سواهم في حين رأى بعضهم أن يطوف البلاد ويسمع من غيرهم.

وهكذا انبثقت نواة المراكز الفقهيّة الأولى التي جرت فيما بينها حركة الاجتهاد في هذا الدور.

*** منهج الصحابة في استنباط الأحكام الفقهية:**

لقد كان المنهج الأمثل الذي قرّره الرسول الأكرم ﷺ في استنباط الأحكام هو الاعتماد على كتاب الله ثمّ على سنّة رسول الله ثمّ الاجتهاد على هذين الأصلين عند عدم النصّ، وقد دلّ على ذلك حديث معاذ بن جبل حين بعثه رسول الله عاملاً على اليمن، قال: «**كيف تقضي إذا عرض لك قضاء**»، قال: أقضي بكتاب الله، قال: «**فإن لم تجد في كتاب الله**»، قال: فبسنّة رسول الله، قال: «**فإن لم تجد في سنّة رسول الله ولا في كتاب الله**»، قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «**الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله**»(٢).

هذا المنهج الذي أقرّه الرسول الأكرم في حياته سار عليه أصحابه بعد

---

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١/١٦، ١٨، ١٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، وأحمد في مسند الأنصار، والدارمي في المقدّمة.

مماته، فهذا أبو بكر الصديق كان إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى به، وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنّة رسول الله ﷺ، فإن وجد فيها ما يقضي به قضى به، فإن أعياه ذلك سأل الناس: هل علمتم أنّ رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء؟ فربّما قام إليه القوم فيقولون: قضى فيه بكذا وكذا، فإن لم يجد سنّة سنّها النبيّ ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به.

وكان عمر يفعل ذلك، فإذا أعياه أن يجد ذلك في الكتاب والسنّة سأل هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء؟ فإن كان لأبي بكر قضاء قضى به وإلاّ جمع علماء الناس واستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رسالته المشهورة في القضاء، فممّا جاء فيها: الفهم الفهم فيما أدلي إليك ممّا ورد عليك ممّا ليس في قرآن ولا سنّة، ثمّ قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ثمّ اعمد فيما ترى إلى أحبّها إلى الله وأشبهها بالحقّ.

ولمّا بعث عمر شريحاً على قضاء الكوفة قال له: انظر ما تبيّن لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً، وما لم يتبيّن لك في كتاب الله فاتّبع فيه سنّة رسول الله ﷺ، وما لم يتبيّن لك فيه السنّة فاجتهد فيه رأيك[1].

وعن عبدالرحمٰن بن يزيد قال: أكثر الناس يوماً على عبدالله بن مسعود يسألونه، فقال: أيّها الناس إنّه قد أتى علينا زمان ولسنا نقضي ولسنا هناك، ثمّ إنّ الله بلغنا ما ترون، فمن عرض عليه قضاء بعد اليوم فليقض بما في كتاب الله، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيّه ﷺ فليقض بما قضى به الصالحون، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيّه ﷺ ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه، ولا يقل إنّي

---

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقّعين ١/٦٢ ـ ٦٣ و١/٨٦.

أرى وإنّي أخاف فإنّ الحلال بيّن والحرام بيّن، وبين ذلك مشتبهات، فدع ما يريبك لما لا يريبك.

وفي رواية ثانية أنّه قال: فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيّه ﷺ ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه، فإن لم يحسن فليقم ولا يستحي.

وعن عبدالله بن أبي يزيد قال: رأيت ابن عباس إذا سئل عن شيء هو في كتاب الله قال به، فإن لم يكن في كتاب الله وقاله رسول الله ﷺ قال به، فإن لم يكن في كتاب الله ولم يقله رسول الله وقاله أبو بكر أو عمر قال به، وإلاّ اجتهد رأيه(١).

وهكذا كان أصحاب رسول الله يسيرون وفق منهج أساسه استقراء القرآن العظيم وسنّة النبيّ الكريم فإن أعياهم الدليل من الكتاب والسنّة استأنسوا فيما لا نصّ فيه بآراء بعضهم وكانوا بفعلهم ذاك قد كوّنوا نواة الإجماع بمعناه الذي حدّده الأصوليون بعد ذلك، وربّما التجؤوا إلى معرفة الأمثال وقاسوا الأشباه بنظائرها وكانوا بفعلهم ذاك قد توسّعوا في استعمال القياس، وقد بلغ التواتر المعنوي عنهم باستعماله.

ولم يكن أعلام الصحابة من الفقهاء والمفتين على درجة واحدة في استعمال الرأي والاجتهاد، وإنّما كان منهم المتوسّع في ذلك الذي يجتهد ويقدم على ذلك كلما دعت الحاجة إليه، وكان منهم المقلّ في استعمال الرأي الذي يرى الخير كلّ الخير في التأخّر عن استعماله.

ولكن على الرغم من اختلاف مواقفهم في التوسّع في الاجتهاد أو عدم التوسّع فيه، فإنّهم لم يكونوا يجترئون على الفتوى، وكانوا يتدافعونها ويكرهون التسرّع فيها ويودّ كلّ واحد منهم أن يكفيه إيّاها غيره، فإذا رأى أنّها قد تعيّنت عليه بذل اجتهاده في معرفة حكمها، يدلّ على ذلك ما روي

(١) ابن عبدالبرّ: جامع بيان العلم وفضله ٢/٧٠ ـ ٧٢، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقّعين ١/٦٢ ـ ٦٤.

عن ابن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ، أراه قال في المسجد، فما كان منهم محدّث إلاّ ودّ أنّ أخاه كفاه الحديث، ولا مفت إلاّ ودّ أنّ أخاه كفاه الفتيا[١].

نماذج من فتاوى الصحابة واجتهاداتهم في هذه المرحلة:

ـ ١ ـ من اجتهادات أبي بكر:

* روي عن أبي بردة قال: لقيت مروان بن الحكم بالمدينة فقال: يا ابن أبي موسى، ألم أخبر أنّ الجدّ لا ينزّل منزلة الأب وأنت لا تنكر، قال: قلت ولو كنت أنت لم تنكر، قال مروان: فأنا أشهد على عثمان بن عفان أنّه شهد على أبي بكر أنّه جعل الجدّ أبا إذا لم يكن دونه أب[٢].

ـ ٢ ـ من اجتهادات عمر:

* إلغاؤه لسهم المؤلّفة قلوبهم من الزكاة: الوارد في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ...﴾[٣]، ولقد كان اجتهاد عمر في هذا متعلّقاً بتحقيق المناط، فلقد رأى أنّ الإسلام وصل شأنه إلى القمّة في القوّة والمنعة سواء من الناحية المعنويّة المتعلّقة بسطوع حجته وبرهانه، أو من الناحية الماديّة المتعلّقة بكثرة أهله وسعة انتشاره، فظهر له أنّ مناط حقّ المؤلّفة قلوبهم في الزكاة لم يعد متحقّقاً في عهده لما أصبح عليه الإسلام من منعة وعزّة لا يحتاج معهما إلى أن يخطب ودّهم بالمال فألغى عطاءهم، وفي إلغائه لعطائهم موافقة لنصّ الآية التي ربطت حقّ عطائهم بتألّف المسلمين إيّاهم خلافاً لما قد يتوهّمه البعض من أنّ ذلك منه معارض للآية[٤].

---

(١) ابن عبدالبرّ: جامع بيان العلم وفضله ٢/٢٠٠، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١/٣٤.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب الفرائض.

(٣) سورة التوبة ـ الآية ٦٠.

(٤) البوطي محمد سعيد رمضان: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلاميّة ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

* عدم قطع يد السارق عام المجاعة: فقد كان ممّا رآه عمر رضي الله عنه أنّ السرقة أثناء مجاعة عامّة تتعلّق به شبهة حقّ فيما سرقه، وذلك أنّ المضطرّ يجوز له أن يأخذ من مال غيره ما يسدّ ضرورته ولو من دون إذنه(١).

وقد روي عن عمر أنّه قال: لا قطع في سنة(٢)، وثبت أنّ رجلاً جاء إلى عمر في ناقة، فقال له: هل لك في ناقتين عشراوين مرتعتين سمينتين بناقتك؟ فإنّا لا نقطع في عام السنة(٣).

وهذا على نحو قضيّة عمر في غلمان حاطب، فعن ابن حاطب أنّ غلمة لحاطب بن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة، فأتى بهم عمر فأقرّوا، فأرسل إلى عبدالرحمٰن بن حاطب فجاء فقال له: إنّ غلمان حاطب سرقوا ناقة رجل من مزينة وأقرّوا على أنفسهم، فقال عمر: يا كثير بن الصّلت اذهب فاقطع أيديهم، فلمّا ولّى بهم ردّهم عمر ثمّ قال: أمّا والله لولا أنّي أعلم أنّكم تستعملونهم وتجيعونهم حتّى إنّ أحدهم لو أكل ما حرّم الله عليه حلّ له لقطعت أيديهم، وأيّم الله إذ لم أفعل لأغرّمك غرامة توجعك، ثمّ قال: يا مزني بكم أريدت منك ناقتك؟ قال: بأربعمائة، قال عمر: اذهب فاعطه ثمانمائة(٤).

* قتل الجماعة بالواحد: فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ غلاماً قتل غيلة، فقال عمر: لو اشترك فيها أهل صنعاء لقتلتهم، وقال مغيرة بن حكيم عن أبيه: إنّ أربعة قتلوا صبيّا فقال عمر مثله(٥).

وعن سعيد بن المسيّب أنّ عمر بن الخطاب قتل نفرا خمسة أو سبعة

(١) المرجع السابق ص ١٤٦.
(٢) ابن رشد: البيان والتحصيل ٣٢٤/١٦.
(٣) ابن حزم: المحلّى ٣٤٣/٨، المسألة ٢٢٧٧.
(٤) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١١/٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديّات.

برجل واحد قتلوه غيلة، فقال عمر: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعا[١].

* إمضاء الطلاق ثلاثا بكلمة واحدة: فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة. فقال عمر: إنّ الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة - أي مُهلة - فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم[٢].

- ٣ - من اجتهادات عثمان:

* أمره بإخراج زكاة الديْن: فعن السائب بن يزيد أنّ عثمان بن عفّان كان يقول: هذا شهر زكاتكم، فمن كان عليه دين فليؤدّ دينه حتى تحصل أموالكم، فتؤدّون منه الزكاة[٣].

* توريث المبتوتة في مرض الموت: فعن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف أنّ عبدالرحمٰن بن عوف طلّق امرأته البتّة وهو مريض، فورّثها عثمان بن عفّان منه بعد انقضاء عدّتها[٤].

* قضاؤه في الضوال: فعن ابن شهاب الزهري أنّه كان يقول: كانت ضوال الإبل في زمان عمر بن الخطاب إبلا مؤبّلة تناتج، لا يمسّها أحد حتّى إذا كان زمان عثمان بن عفّان أمر بتعريفها ثمّ تباع، فإذا جاء صاحبها أعطي ثمنها[٥].

- ٤ - من اجتهادات عليّ:

* أقلّ الحمل ستّة أشهر: فقد ورد عن الإمام مالك بلاغا أنّ

(١) أخرجه مالك في الموطّأ، كتاب العقول.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق.
(٣) أخرجه مالك في الموطّأ، كتاب الزكاة، باب الزكاة في الدين.
(٤) أخرجه مالك في الموطّأ، كتاب الطلاق، باب طلاق المريض.
(٥) أخرجه مالك في الموطّأ، كتاب الأقضية، باب القضاء في الضوال.

عثمان بن عفّان أُتي بامرأة قد ولدت في ستّة أشهر فأمر بها أن ترجم، فقال عليّ بن أبي طالب: ليس ذلك عليها، إنّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾(١)، وقال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾(٢) فالحمل يكون ستّة أشهر فلا رجم عليها(٣).

* حدّ شارب الخمر: فعن عكرمة أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه استشار في الخمر يشربها الرجل، فقال عليّ بن أبي طالب: نرى أن تجلده ثمانين فإنّه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى(٤) فجعله عمر حدّ الفرية ثمانين، ووافقه عليه الصحابة.

* ومن ذلك أنّ عمر بن الخطاب أرسل في طلب امرأة فأجهضت بفزعها، فاستشار الصحابة، فقال له عثمان ابن عفان وعبدالرحمٰن بن عوف: إنّما أنت مؤدّب ولا شيء عليك، وأمّا عليّ بن أبي طالب فقال له: أمّا المأثم فأرجو أن يكون منحطًّا عنك وأرى عليك الديّة، فاستحسن عمر اجتهاد عليّ وقال له: عزمت عليك أن لا تبرح حتّى تضربها على بني عديّ، يعني قومه(٥).

هؤلاء الخلفاء الأربعة هم أعظم المجتهدين وأكمل المفتين في هذه المرحلة، وهم أعلم الأمّة بأحوال النبيّ وأفقههم في تصرّفاته، فهم أسبق الناس إسلاما وأعرف القوم بسنّته، وهم الذين فتحوا للعلماء باب الاجتهاد ونهجوا لهم طريقه وبيّنوا لهم سبيله.

غير أنّ قلّة المسائل التي اجتهد فيها أبو بكر إنّما كان بسبب تقدّم

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٣) أخرجه مالك في الموطّأ، كتاب الحدود، باب ما جاء في الرجم.
(٤) أخرجه مالك في الموطّأ، كتاب الأشربة، باب الحدّ في الخمر.
(٥) الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام ٤/٥٥، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١/٢١٥.

وفاته وبقاء الحياة في عهده على بساطتها وعدم تشعّبها وقلّة طروء النوازل التي هي منشأ الاجتهاد، ثمّ إنّ أغلب الصحابة الذين حفظوا الدين والسنن وشهدوا الوحي والتنزيل ما زالوا على قيد الحياة وقد كفوه كلفة الاشتغال بالناس وإفتائهم وإقرائهم.

وكان غيرهم من الصحابة كذلك يستفتون فيفتون ويسألون فيجتهدون في هذه المرحلة، فكانوا ربّما اتّفقوا جميعا في الحكم ولو بعد اختلاف في وجهات النظر فيعدّ ذلك إجماعا منهم، وربّما اختلفوا فيسلّمون لوليّ الأمر فيهم برفع الخلاف واتّباع ما اختاره من حكم، أو ربّما اختلفوا فعمل كلّ منهم بما أدّاه إليه اجتهاده في المسألة، وكان بعضهم ربّما اجتهد في المسألة حيث لم يبلغه فيها الحديث، فيقضى فيها أو يفتي بغير السنّة، ثمّ يتراجع عمّا قال عندما يبلغه الحديث، فهذه أنواع أربعة نبرز حقيقتها بأمثلة توضّحها:

- **النوع الأوّل: ما اجتهد فيه الصحابة واتّفقت عليه كلمتهم ولو بعد اختلاف: وذلك مثل:**

* إجماع الصحابة على تقديم أبي بكر الصدّيق في الخلافة بعد اختلاف في ذلك بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة.

* إجماع الصحابة على كتابة المصحف وجمع القرآن في عهد أبي بكر بعد توقّف منه ومن زيد بن ثابت في فعل ما لم يفعله الرسول ﷺ.

* إجماع الصحابة على موافقة عثمان في جمع الناس على مصحف واحد وترتيب واحد وحرف واحد بعد نفور أبداه عبدالله بن مسعود حين قال: على قراءة من تأمروني أن أقرأ، فلقد قرأت على رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، ولقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنّي أعلمهم بكتاب الله، ولو أعلم أنّ أحداً أعلم منّي لرحلت إليه[1].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

وقوله: يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلّوها فإنّ الله يقول ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(١) فألقوا الله بالمصاحف، قال ابن شهاب الزهري: فبلغني أنّ ذلك كرهه من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب النبيّ ﷺ(٢).

ثمّ استجاب رضي الله عنه بعد ذلك لما اتّفق عليه الصحابة فحرّق الجميع مصاحفهم وصحفهم التي كانت بين أيديهم وبذلك أصبح المعوّل عليه دون غيره من المصاحف مصحف عثمان الذي عرف بمصحف الإمام.

* إجماع الصحابة على إلحاق الحدّ في الخمر بحدّ القذف بعد اجتهاد اجتهده عليّ بن أبي طالب وأقرّه عليه الصحابة.

* إجماع الصحابة على توريث الجدّ وإن اختلفوا في تعيين مصيره ونسبته المستحقّة ميراثاً في بعض الحالات، وعلى توريث ابن الابن والأعمام وبنوهم.

ـ النوع الثاني: ما اجتهد فيه الصحابة واختلفوا ثمّ رفع أمر الإمام الخلاف: وذلك مثل:

* رأيهم في المرأة المخيّرة: فقد ورد عن عليّ بن أبي طالب أنّه قال: سألني أمير المؤمنين عمر عن الخيار، فقلت: إن اختارت زوجها فهي واحدة وهو أحقّ بها، وإن اختارت نفسها فهي واحدة بائنة، فقال: ليس كذلك، إن اختارت نفسها فهي واحدة وهو أحقّ بها، وإن اختارت زوجها فلا شيء، قال عليّ: فاتّبعته على ذلك، فلمّا خلص الأمر إليّ وعلمت أنّي أُسأل عن الفروج عدت إلى ما كنت أرى، فقال زاذان: لأمر جامعت عليه أمير المؤمنين وتركت رأيك له أحبّ إلينا من أمر انفردت به، فضحك

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن.

وقال: أمّا إنّه قد أرسل إلى زيد بن ثابت وخالفني وإيّاه، وقال: إن اختارت زوجها فهي واحدة، وزوجها أحقّ بها، وإن اختارت نفسها فهي ثلاث(١).

* تسوية الصدّيق بين الناس في العطاء واختيار عمر المفاضلة في ذلك: فقد رأى أبو بكر أن يسوّي في العطاء، رافضا أن يكون عطاؤهم هذا ثمنا لما يقومون به من أعمال هي لله خالصة، في حين كان عمر لا يرى رأيه بل يختار المفاضلة بين الناس، لذلك لمّا ولِّي الخلافة فاضل بين المسلمين في الأعطية وكان يحلف على أيمان ثلاث ويقول: والله ما أحد أحقّ بهذا المال من أحد وما أنا بأحقّ به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلاّ وله في هذا المال نصيب إلاّ عبدا مملوكا، ولكنّا على منازلنا من كتاب الله تعالى وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت لهم ليأتينّ الراعي بحبل صنعاء حظّه من هذا المال وهو يرعى مكانه(٢).

* اختلافهم في قسمة الأرض المفتوحة: لمّا اتّسعت الفتوحات في زمن عمر سأله بعض الصحابة أن يقسم بينهم ما أفاء الله عليهم من العراق والشام كما كان يفعل أبو بكر حيث كان يقسم بينهم أيّام خلافته الأراضي المفتوحة ومضى العمل على ذلك في عهده، فلمّا ولِّي عمر أبى عليهم ذلك ورأى أن تكون وقفاً يصرف خراجها في مصالح المسلمين، وقال لهم: قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء، ولئن بقيت ليبلغنّ الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ودمه في وجهه(٣).

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٢١٦/١.
(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.
(٣) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٢٤.

وقال: لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلاّ قسمتها بين أهلها ـ أي الفاتحين ـ كما قسم النبيّ خيبر[١].

وعلى رأي عمر سار الخليفتان عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب من بعده، ورغم معارضة عبدالرحمٰن بن عوف وعمّار بن ياسر والزبيّر بن العوّام وبلال بن رباح الذي كان أشدّ الناس معارضة لهذا الاجتهاد، حيث رأوا أن تخمّس الأرض كما قسّم الرسول أرض خيبر، غير أنّ أمر الإمام قد رفع الخلاف في المسألة ولزم الناس ما ألزمهم إيّاه.

* حكم من منع الزكاة ولم يجحد وجوبها: ذهب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى أنّ حكمه حكم المرتدّ وبذلك حكم في مانعي الزكاة من العرب، فقاتلهم وسبى ذرّيتهم، ولمّا ولّي عمر الخلافة من بعده نقض حكم أبي بكر في هذه المسألة فأطلق من كان استرقّ منهم[٢]، وردّ ما سبي من نساء المرتدّين إلى أهليهنّ حرائر إلاّ من ولدت لسيّدها منهنّ، ومن جملتهنّ كانت خولة بنت جعفر الحنفيّة أمّ محمد بن الحنفيّة ولد الإمام عليّ رضي الله عنه.

ـ النوع الثالث: اختلافهم في المسألة وعمل كلّ منهم بما أدّاه إليه اجتهاده:

وهذا النوع من الاختلاف ـ كما بيّن الإمام الشاطبي ـ يظهر فيه وجه الموالاة والتحابب والتعاطف بين المختلفين في مسائل الاجتهاد، حيث لم يؤدّ بهم الاختلاف إلى أن يصيروا شيعاً ولا تفرّقوا فرقاً لأنّهم مجتمعون على طلب قصد الشارع، وحال اختلافهم كحال اختلاف المتعبّدين لله بالعبادات المختلفة، فرجل تقرّبه الصلاة، وآخر يقرّبه الصيام، وآخر تقرّبه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة وفرض الخمس عن زيد بن أسلم عن أبيه.

(٢) ابن رشد: بداية المجتهد ١/٢٥٠، وراجع في ذلك مناظرة أبي بكر وعمر في شأن قتال مانعي الزكاة: نيل الأوطار للشوكاني ٤/١٧٥ ـ ١٧٩.

الصدقة، إلى غير ذلك من العبادات، فهم متّفقون في أصل التوجّه لله المعبود وإن اختلفوا في أصناف التوجّه، فكذلك المجتهدون لمّا كان قصدهم إصابة مقصد الشارع صارت كلمتهم واحدة وقولهم واحداً والأقوال ليست مقصودة لأنفسها بل ليتعرّف منها المقصد المتّحد[(١)].

ومن أمثلة ما وقع بين الصحابة من أنواع هذا الاختلاف:

* التكبير في صلاة العيدين: فقد ذهب المغيرة بن شعبة وأنس بن مالك وعبدالله بن عباس إلى أنّ التكبير في صلاة العيد يكون تسعاً في كلّ ركعة، وروي عن عبدالله بن عمر وأبي هريرة أنّ التكبير في الأولى سبع مع تكبيرة الإحرام قبل القراءة، وفي الثانية ستّ مع تكبيرة القيام من السجود، وروي عن عبدالله بن مسعود أنّه كان يكبّر في الأولى ثلاثاً بعد تكبيرة الإحرام، وفي الثانية ثلاث تكبيرات بعد القراءة[(٢)].

* التنفّل قبل صلاة العيد وبعدها: ذهب عبدالله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وجابر بن عبدالله إلى أنّه لا يتنفّل لا قبلها ولا بعدها، في حين ذهب أنس بن مالك وعروة بن الزبيّر إلى أنّه يتنفّل قبلها وبعدها، ولعبدالله ابن مسعود قول آخر: وهو أن يتنفّل بعدها ولا يتنفّل قبلها[(٣)].

* حكم الاعتمار: اختلف الصحابة في حكم العمرة، فروي عن عليّ بن أبي طالب وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس إلى أنّها واجبة كالحجّ، في حين روي عن عبدالله بن مسعود وجابر بن عبدالله إلى أنّها سنّة وتطوّع[(٤)].

* تخمير المحرم وجهه: بعد إجماع الصحابة على أنّ المحرم لا يخمّر رأسه اختلفوا في تخمير الوجه، فروي عن عبدالله بن عمر أنّ ما

---

(١) الشاطبي: الموافقات ٤/٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) ابن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١/٢١٧ ـ ٢١٨.

(٣) المصدر السابق ١/٢٢٠.

(٤) ابن رشد: بداية المجتهد ١/٣٢٢ ـ ٣٢٣.

فوق الذقن من الرأس لا يخمّره المحرم، وروي عن زيد بن ثابت وجابر بن عبدالله وعبدالله بن عباس وسعد بن أبي وقاص أنّ للمحرم أنْ يخمّر وجهه إلى الحاجبين(١).

* وقت وقوع الطلاق في الإيلاء: ذهب عليّ بن أبي طالب وعبدالله بن عمر إلى أنّه إذا آل الرجل من زوجه ومضت أربعة أشهر فإنّه يوقف بعد انقضاء الأربعة أشهر، فإمّا أن يفيء أو يطلّق، وذهب عبدالله بن مسعود إلى أنّ الطلاق يقع بانقضاء الأربعة أشهر إلاّ أن يفيء فيها(٢).

* أكل ذوات الحافر الإنسيّ: وهي الخيل والبغال والحمير، وقد ورد عن جمهور الصحابة تحريمها وخالف في ذلك عبدالله بن عباس وعائشة أمّ المؤمنين فكانا يبيحانها(٣).

هذا، ولقد استدركت عائشة رضي الله عنها في كثير من المسائل على أعلام الصحابة حتّى إنّ الإمام الزركشي قد صنّف في ذلك مؤلّفا سمّاه الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ضمّنه ما تفرّدت به الصدّيقة رضي الله عنها أو خالفت فيه سواها برأي منها أو كان فيه سنّة بيّنة أو زيادة علم متقنة أو أنكرت فيه على علماء زمانها أو رجع فيه إليها أجلّة من أعيان أوانها أو حرّرته من فتوى أو اجتهدت فيه من رأي رأته أقوى(٤).

ـ النوع الرابع: الاجتهاد بما يخالف النصّ، ثمّ الرجوع عن ذاك الاجتهاد وتركه لحديث بلغه:

ومن أمثلة ذلك:

* أنّ عمر بن الخطاب قضى بأنّ الديّة للعاقلة ولم يورّث المرأة من ديّة زوجها شيئاً، حتّى أخبره الضحّاك بن سفيان أنّ رسول الله ﷺ كتب

(١) المصدر السابق ٣٢٧/١ ـ ٣٢٨.
(٢) نفس المصدر ١٠٠/٢.
(٣) نفس المصدر ٤٦٩/١.
(٤) الزركشي: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٢٧.

إليه أن يورّث امرأة أشيم الضبّابي من ديّة زوجها فرجع إليه عمر[١].

* وعن سعيد بن المسيّب أنّ عمر بن الخطاب قضى في الإبهام بخمس عشرة من الإبل، وفي التي تليها بعشر، وفي الوسطى بعشر، وفي التي تلي الخنصر بتسع، وفي الخنصر بستّ[٢] فكان قضاؤه رضي الله عنه في ديّة الأصابع أنّها مختلفة بحسب منافعها[٣] حتّى بلغه كتاباً كان عند عمرو بن حزم يذكر أنّه من رسول الله وفيه أنّ رسول الله قال: وفي كلّ إصبع ممّا هنالك عشر من الإبل[٤].

* وكذلك لم يكن عند عثمان بن عفّان علم بأنّ المتوفّى عنها زوجها تعتدّ في بيت الموت حتّى حدّثته الفريعة بنت مالك بن سنان أخت أبي سعيد الخدري بقصّتها لمّا توفّي زوجها وأنّ النبيّ ﷺ قال لها: **«امكثي في بيتك حتّى يبلغ الكتاب أجله»**، وأنّها أعتدت فيه أربعة أشهر وعشراً فاتّبعه وقضى به[٥].

* وكان أبو هريرة يرى أنّ من أصبح جنباً فلا صوم له، حتّى بلغه حديث الرسول فرجع عن رأيه، فقد روي عن أبي بكر بن عبدالرحمٰن قال: سمعت أبا هريرة يقصّ ويقول في قصصه: من أدركه الفجر جنباً فلا يصم، قال: فذكرت ذلك لعبدالرحمٰن بن الحارث فذكره لأبيه فأنكر ذلك، فانطلق عبدالرحمٰن وانطلقت معه حتّى دخلنا على عائشة وأمّ سلمة، فسألها عبد الرحمٰن عن ذلك فقال: فكلّمناها، فقالت: كان النبيّ ﷺ يصبح جنبا من غير طُهر ثمّ يصوم، فانطلقنا حتّى دخلنا على مروان فذكر

---

(١) الشافعي: الرسالة ص ٤٢٦.
(٢) المصدر السابق ص ٤٢٢.
(٣) ابن تيمية: رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص ١٣.
(٤) أخرجه مالك في الموطّأ، كتاب العقول، والنسائي في سننه، كتاب القسامة، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة بزيادة لفظ: والأصابع سواء، والدارمي في كتاب الديات بزيادة لفظ: في كلّ إصبع من أصابع اليد.
(٥) أخرجه مالك في الموطّأ، وأصحاب السنن الأربعة والدارمي في كتاب الطلاق عن زينب بنت كعب.

ذلك له عبدالرحمٰن فقال مروان: عزمت عليك إلاّ ما ذهبت إلى أبي هريرة فرددت عليه ما يقول، قال: فجئنا أبا هريرة وأبو بكر حاضر ذلك كلّه، فذكر له عبدالرحمٰن، فقال أبو هريرة: أهما قالتاه لك؟ قال: نعم، قال: هما أعلم، ثمّ ردّ أبو هريرة ما كان يقول في ذلك إلى الفضل بن عباس، قال أبو هريرة: سمعت ذلك من الفضل ولم أسمع من النبيّ ﷺ، قال: فرجع أبو هريرة عمّا كان يقول في ذلك[١].

* وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه يرى بأن لا تصدر[٢] المرأة قبل طواف الوداع لما سمعه من النهي أن يصدر أحد من الحاج حتّى يكون آخر عهده بالبيت، وكانت الحائض عند زيد من الحاج الذين يشملهم النهي، فلمّا أفتاها ابن عباس بالصدر إذا كانت قد زارت بعد النحر، أنكر عليه زيد وقال له: تفتي أن تصدر الحائض قبل أن يكون آخر عهدها بالبيت؟ فقال له ابن عباس إمّا لا، فسل فلانة الأنصارية - قيل هي أمّ سليم بنت ملحان - هل أمرها بذلك رسول الله ﷺ ؟ فسألها زيد فأخبرته فصدّق زيد المرأة ورأى عليه حقّا أن يرجع عن خلاف ابن عباس، فرجع زيد بن ثابت إلى ابن عباس يضحك ويقول: ما أراك إلاّ قد صدقت[٣].

* وعن هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعري عن بنت وابنة ابن وأخت، فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، وائت ابن مسعود فسيتابعني، فسئل ابن مسعود وأخبر بقول أبي موسى، فقال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى رسول الله ﷺ، للابنة النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم[٤].

---

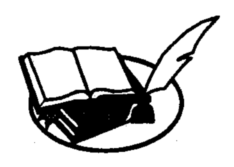
(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام.

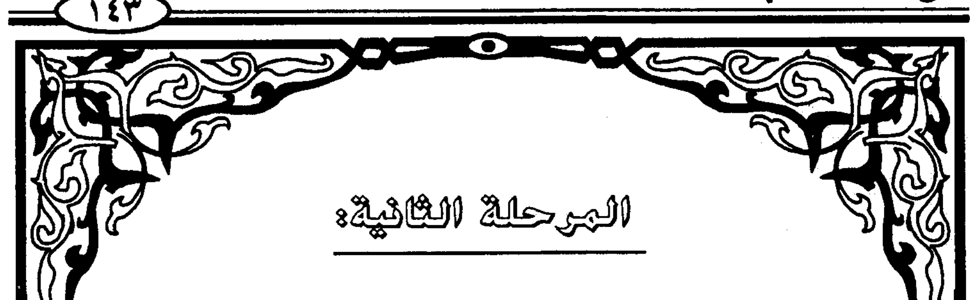
(٢) الصدر هو رجوع المسافر من مقصده.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحجّ، والإمام الشافعي في الرسالة ص ٤٤٠ - ٤٤٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض.

فهذه وغيرها من الأمثلة الكثيرة جدّا الموجودة في كتب السنّة تؤكّد بوضوح موقف أصحاب الرسول من الاجتهاد، وكيف أنّهم لم يتردّدوا في استفراغ الوسع وبذل الجهد وإعمال الرأي وهم أتقى الأمّة وأفضلها، وذلك كلّما وضعتهم الظروف أمام نوازل ووقائع تطلّبت منهم استنباط الأحكام المناسبة لتلك الوقائع.





المرحلة الثانية:

عصر صغار الصحابة وكبار التابعين

نُوزع الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة حتى جرّد السيف فما صفت له وقتل بسيف الغدر، فلمّا استشهد بايع أهل الكوفة ابنه الحسن بن عليّ سبط رسول الله ﷺ وريحانته، فأقام فيهم ستّة أشهر، ثمّ بعث إليه معاوية بن أبي سفيان يبذل له تسليم الأمر إليه، فأجابه إلى ما طلب ونزل له عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين، واصطلحا على ذلك سنة إحدى وأربعين في شهر ربيع الأوّل، فظهرت به المعجزة النبويّة، فقد روى أبو بكرة قال: قال رسول الله ﷺ للحسن بن عليّ: **«إنّ ابني هذا سيّد وإنّي أرجو أن يصلح الله به بين فئتين من أمّتي»**، وفي رواية: **«ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين»**[1].

وارتحل الحسن بن علي عن الكوفة إلى المدينة فأقام بها حتّى توفّي بفعل سمّ دسّ له.

وكان معاوية يعلم أنّ دولته لم يرض عنها كثير من المؤمنين، فحين قدم المدينة جلس في حلقة فيها ابن عمر وابن عباس وعبدالرحمٰن بن أبي بكر فأعرض عنه ابن عباس فقال معاوية: أنا أحقّ بهذا الأمر من هذا المعرض وابن عمّه ـ أي عليّ بن أبي طالب ـ فقال ابن عباس: ولـمّ؟ أَلِتقدم في الإسلام؟ أم سابقة مع رسول الله أو قرابة منه؟ قال معاوية:

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنّة.

ولكنّي ابن عمّ المقتول، قال: فهذا ابن أبي بكر أحقّ به، قال: إنّ أباه مات موتاً ـ أي طبيعياً ـ قال: فهذا أحقّ ابن عمر به، قال: إنّ أباه قتله كافر، قال: فذاك أدحض لحجّتك أن كان المسلمون عتبوا على ابن عمّك فقتلوه.

وحين كتب معاوية إلى الأمصار في أخذ البيعة وولاية العهد لابنه يزيد، وقرأ مروان بن الحكم ـ عامل معاوية على المدينة ـ كتاب معاوية فقال: إنّ الله قد أرى أمير المؤمنين في ولده يزيد رأياً حسناً، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر فقام عبدالرحمٰن بن أبي بكر وقال: سنّة هرقل وقيصر، إنّ أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته.

فلمّا مات معاوية بايع أهل الشام يزيد ثمّ بعث إلى أهل المدينة من يأخذ له البيعة فأبى الحسين بن عليّ وعبدالله بن الزبير أن يبايعاه وخرجا من ليلتهما إلى مكّة.

وكان أهل الكوفة يكتبون إلى الحسين بن عليّ يدعونه إلى الخروج إليهم زمن معاوية وهو يأبى، فلمّا بويع يزيد جدّد أهل العراق إلى الحسين الرُّسُل والكتب يدعونه إليهم، فأقام على ما هو مهموما يجمع الإقامة مرّة ويريد المسير إليهم أخرى، فأشار عليه عبدالله بن الزبير بالخروج، في حين أشار عليه ابن عمر وابن عباس وجابر بن عبدالله وأبو سعيد الخدري وجمع من الصحابة بالمكوث في المدينة، ولكنّه اختار المسير إلى العراق، فخرج من مكّة ومعه طائفة من آل بيته، وكتب يزيد إلى واليه بالعراق بقتاله فوجّه إليه جيشاً قوامه أربعة آلاف، فإذا بأهل الكوفة يخذلونه كما خذلوا أباه من قبله، فقُتل في كربلاء، وفي كيفيّة قتله شناعة فظيعة لا يحتمل قلب المؤمن وصفها.

ولمّا قُتل الحسين بن عليّ رضي الله عنه أظهر أهل الكوفة التحسّر والندم وطالبوا بدمه وهم أولى من يطالب به، وبعث ابن عبيدالله بن زياد عامل العراق برأس الحسين وبني أبيه إلى يزيد.

واعتصم عبدالله بن الزبير بمكّة ودعا لنفسه بالخلافة واستمرّ على ذلك إلى أن تغلّب عليه عبدالملك بن مروان حيث جهّز لقتاله الحجّاج بن يوسف الثقفي في أربعين ألفاً، فلمّا حوصرت مكّة ورميت بالمنجنيق، خذله ابن الزبير أصحابه حتّى ظفر به الحجّاج فقتله وصلبه.

ومقت المسلمون جرّاء هذه الأحداث حكم بني أميّة رغم ما كان لدولتهم من فضل في توسيع رقعة بلاد الإسلام وفتحهم فتوحات عظيمة.

وممّا زاد في بغض الناس لهم ما اشتهر به بعض خلفائهم من أمثال يزيد بن معاوية (٦٤هـ) من شرب للخمور وإتيان للمنكرات وترك للصلاة وإسراف في المعاصي حتّى قال بعضهم ما خرجنا على يزيد حتّى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء.

وما اشتهر به الوليد بن يزيد بن عبدالملك (١٢٦هـ) من ظلم واستبداد وفسق وانتهاك للحرمات واستخفاف بأمر الله.

وفضلاً عن ذلك فإنّ بعض عمّالهم من أمثال الحجّاج بن يوسف وغيره كانوا يعمدون إلى الاستخفاف بمن بقي من الصحابة وإذلالهم، فكان الحجّاج يهينهم ضرباً وشتماً وحبساً وروي أنّه ختم في أعناق الصحابة وأيديهم كأنس بن مالك وجابر بن عبدالله وسهل بن سعد الساعدي وغيرهم، وقتل الكثير من كبار التابعين حتّى قال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: كان الوليد بالشام والحجّاج بالعراق وعثمان بن جبارة بالحجاز وقرّة بن شريك بمصر، امتلأت الأرض والله جوراً[(١)].

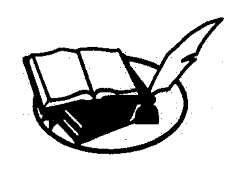
هذه الأحداث وغيرها كان لها بلا ريب الأثر الخطير على الأمّة الإسلاميّة التي تفرّقت إلى أحزاب وشيع كلّ منها يرى أنّ الحقّ إلى جانبه، كما كان لها الأثر العميق على سير الفقه، ولا شكّ أنّ الاستبداد يمحو الاجتهاد، ذلك أنّ الاستبداد والاجتهاد ضدّان لا يجتمعان.

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٠٣، ٢٠٦ ـ ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٥٠.

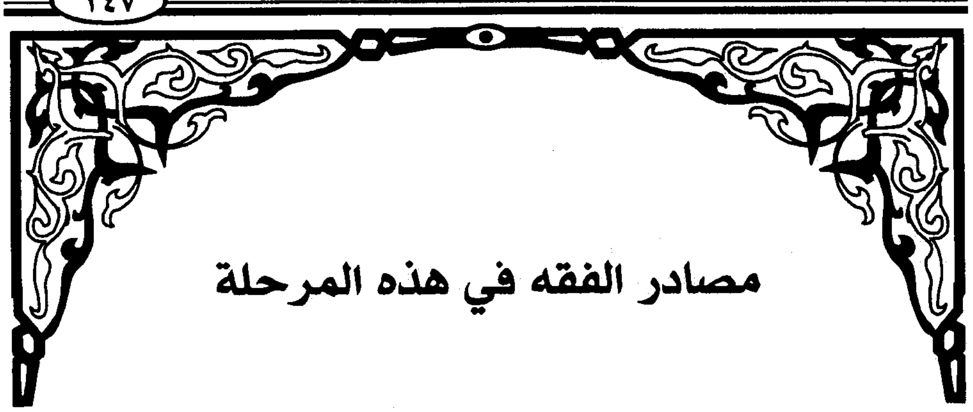
ولنا في ذلك حادثتان:

الأولى: وقعت في زمن معاوية بن أبي سفيان: فقد روى أسيد بن حضير الأنصاري أنّه كان عاملاً على اليمامة وأنّ مروان كتب إليه أنّ معاوية كتب إليه أنّ أيّما رجل سرق منه سرقة فهو أحقّ بها حيث وجدها، ثمّ كتب بذلك مروان إليّ، قال: فكتبت إلى مروان أنّ النبيّ ﷺ قضى بأنّه إذا كان الذي ابتاعها من الذي سرقها غير متّهم يخيّر سيّدها، فإن شاء أخذ الذي سرق منه بثمنها، وإن شاء اتّبع سارقه، ثمّ قضى بذلك أبو بكر وعمر وعثمان، فبعث مروان بكتابي إلى معاوية فكتب معاوية إلى مروان: إنّك لست أنت ولا أسيد تقضيان عليّ ولكنّي أقضي فيما وُلّيت عليكما، فأنفذ لما أمرتك به، فبعث مروان بكتاب معاوية، فقلت: لا أقضي به ما ولّيت بما قال معاوية(١).

الثانية: وقعت في زمن عبدالملك بن مروان: فقد روي عن ابن جريج عن أبيه قال: خطبنا عبدالملك بن مروان بالمدينة بعد قتل الزبير عام حجّ سنة خمس وسبعين فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أمّا بعد فلست بالخليفة المستضعف ولا الخليفة المداهن ولا الخليفة المأفون، ألا وإنّ من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال، ألا وإنّي لا أداوي أدواء هذه الأمّة إلاّ بالسيف حتّى تستقيم لي قناتكم، تكفلوننا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم؟ فلن تزدادوا إلاّ عقوبة حتّى يحكم السيف بيننا وبينكم... والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاّ ضربت عنقه، ثمّ نزل(٢).



(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب البيوع، باب الرجل يبيع السلعة فيستحقّها مستحق.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢١٨ ـ ٢١٩.



مصادر الفقه في هذه المرحلة

ـ ١ ـ القرآن الكريم:

نسخت المصاحف العثمانيّة في عهد الخليفة الراشدي الثالث خالية من الشكل والنقط[١] ذلك أنّ سلامة لغتهم وصفاء سليقتهم كان يغنيهم عن شكل الحروف وإعجامها.

وظلّ الناس يقرؤون القرآن على الرسم العثماني دون ما حاجة منهم إلى الشكل والإعجام ما يقرب من أربعين سنة.

وفي خلافة عبدالملك بن مروان بدأ اللّبس والإشكال يدخل على المسلمين في قراءة المصاحف من جرّاء فساد لسانهم، حتّى يروى أنّ الوليد بن عبدالملك كان لحّانا فقال على منبر المسجد النبوي: يا أهل المدينة ـ برفع المنادى ـ، وقرأ مرّة قوله تعالى: ﴿ياليتها﴾ ـ بضمّ التاء ـ ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ وتحت المنبر عمر بن عبدالعزيز وسليمان بن عبدالملك، فقال سليمان: وددتها والله[٢].

---

(١) ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنّ الإعجام كان معروفا قبل الإسلام، وأنّ الصحابة لم يثبتوه في المصاحف حتّى يبقى احتمال قراءة الكلمة بوجوه القراءات الموجودة فيها، ومنهم من ذهب إلى أنّ الإعجام لم يعرفه العرب إلاّ في خلافة عبدالملك بن مروان.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣.

واختلف العلماء في أوّل من نقّط القرآن على هذا العهد، وتردّدت في هذا الموضوع روايتان:

* الرواية الأولى: تؤكّد أنّ أوّل من نقّط المصحف هو قاضي البصرة أبو الأسود الدؤلي، فقد روي أنّ زيادا والي البصرة لعهد عبدالملك بن مروان بعث إلى أبي الأسود الدؤلي أن اعمل شيئاً يكون للناس إماماً يُعرف به كتاب الله عزّ وجلّ، فاستعفاه أبو الأسود من ذلك حتّى سمع قارئاً يقرأ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولِهِۦ﴾[(١)] بجرّ اللاّم من كلمة «رسوله» فقال أبو الأسود: ما ظننت أنّ أمر الناس يؤول إلى هذا، فرجع إلى زياد فقال: أفعل ما أمر به الأمير، فليبغني كاتبا لقنا يفعل ما أقول، فأتي به، فقال أبو الأسود إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحروف فانقط نقطة فوقه، وإن ضممت فمي فانقط بين يدي الحروف، وإن كسرت فاجعل النقط من تحت، ففعل ذلك[(٢)].

ويميل البعض إلى أنّ أبا الأسود الدؤلي إنّما نقّط القرآن بأمر عبدالملك بن مروان[(٣)]، ولا تضارب في ذلك إذ من الممكن أن يكون عبدالملك قد أرسل بأمره إلى واليه على البصرة زياد، فقام هذا الوالي بتنفيذ أمر الخليفة واختار أبا الأسود الدؤلي للقيام بهذه المهمّة وتابع الأمر بنفسه.

* الرواية الثانية: تؤكّد أنّ هذه المهمّة الجليلة تحمّل أعباءها التابعيان الجليلان: يحيى بن يعمر العدواني ونصر بن عاصم الليثي، وذلك أنّ عبدالملك بن مروان كلّف واليه الحجّاج بن يوسف أن يُعنى بهذا الأمر، فندب له يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم فأعجما المصحف لأوّل مرّة[(٤)].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣.
(٢) اليافعي: مرآة الجنان ص ٢٣٣.
(٣) السيوطي: الإتقان ١٧١/٢.
(٤) الزرقاني: مناهل العرفان ٤٠٦/١.

وقيل إنّ محمد بن سيرين كان له مصحف منقوط نقطه له يحيى بن يعمر، وورد أيضاً أنّ نصر بن عاصم أوّل من نقّط المصاحف، وكان يقال له نصر الحروف(١).

ولا تعارض بين القولين الأخيرين والرواية الثانية، فلا مانع من اعتبار أنّ كلّاً منهما هو أوّل من نقّط المصحف باعتبار أنّ الحجاج قد ندبهما معاً للقيام بهذه المهمّة.

ويمكن كذلك الجمع بين الروايتين الأولى والثانية، بأنّ أبا الأسود الدؤلي هو أوّل من جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الضمّة نقطة بين أجزاء الحرف، وجعل علامة الكسر نقطة أسفل الحرف، فجعل الشكل بالنقط، ثمّ استبدل بعد ذلك نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر طريقة الشكل بالنقط، إلى طريقة الضبط بالحركات فاتّخذا رسوماً وأشكالاً جديدة هي الفتحة والضمّة والكسرة المتعارف عليها إلى اليوم بين أهل اللغة، ويبدو أنّ الذي دعاهما إلى هذا التغيير بل واضطرّهما إليه أنّه لو أُبقي الشكل بالنقط، ثمّ الإعجام بالنقط كذلك، لحصل الخلط واشتبه الأمر على قارىء القرآن، فلذلك فصلا بين الإعجام الذي هو بالنقط، وبين الشكل الذي هو بالحركات.

ـ ٢ ـ السنّة النبويّة:

إنّ الإحاطة بجميع أحاديث الرسول ﷺ لم تكن لأحد من الأمّة، ولا يمكن ادّعاؤه لواحد قطّ ولو كان من الصحابة الذين هم أعلم الأمّة بأحوال رسول الله وسنّته، ذلك أنّ النبيّ ﷺ كان يحدّث أو يفتي أو يقضي أو يفعل الشيء فيسمعه أو يراه من يكون حاضراً ويبلّغه أولئك أو بعضهم لمن يبلغونه، فينتهي علم ذلك إلى من شاء من

(١) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١/٢٥٠ ـ ٢٥١.

العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

ثمّ في مجلس آخر قد يحدّث أو يفتي أو يقضي أو يفعل شيئاً ويشهده بعض من كان غائبا عن ذلك المجلس ويبلغونه لمن أمكنهم، فيكون عند هؤلاء من العلم ما ليس عند هؤلاء، وعند هؤلاء ما ليس عند هؤلاء، وإنّما يتفاضل العلماء من الصحابة ومن بعدهم كثرة العلم أو جودته(١).

وفي هذه المرحلة من هذا الدور حيث الكثرة الكاثرة من أعلام التابعين تركّزت الأنظار بعناية أكبر حول القلّة من صغار الصحابة الذين تصدّروا هذه المرحلة، فاجتهد الناس للرحلة في طلب الحديث منهم والتفقّه عليهم والأخذ عنهم.

فعن كثير بن قيس قال: كنت جالساً عند أبي الدرداء في مسجد دمشق، فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء أتيتك من المدينة، مدينة رسول الله ﷺ لحديث بلغني أنّك تحدّث به عن النبيّ ﷺ، قال: فما جاء بك تجارة؟ قال لا، قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا، قال: فإنّي سمعت رسول الله يقول: **«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقا إلى الجنّة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنّ طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتّى الحيتان في الماء، وإنّ فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً وإنّما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظّ وافر»**(٢).

وكان سعيد بن المسيّب يقول: إن كنت لأسير الليالي والأيّام في طلب الحديث الواحد، ويروى أنّ مسروقاً رحل في حرف، وقد كان كثير

---

(١) ابن تيميّة: رفع الملام عن الأئمّة الأعلام ص ١١.

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه، المقدمة، باب فضل العلم والحثّ على طلبه.

الترحال في طلب الحديث حتّى قال الشعبي: ما علمت أنّ أحداً من الناس كان أطلب لعلم في أفق من الآفاق من مسروق.

وعن بسر بن عبيدالله الحضرمي قال: إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه.

وكان الشعبي يقول: لو أنّ رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ما رأيت أنّ سفره ضاع[1].

ولم تكن الرحلة في طلب الحديث مقتصرة على التابعين للنهل من معارف من بقي من الصحابة، بل إنّنا لنجد في هذه المرحلة أنّ بعض الصحابة كانوا يتحمّلون أعباء السفر للتثبّت من حديث أو سماعه ممّن انفرد بروايته.

فقد روى الصحابي الجليل جابر بن عبدالله (٧٤هـ) قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فابتعت بعيراً فشددت عليه رحلي ثمّ سرت إليه شهراً حتّى قدمت الشام فإذا عبدالله بن أنيس الأنصاري (٥٤هـ)، فأتيت منزله وأرسلت إليه أنّ جابراً على الباب فرجع إليّ الرسول فقال: جابر بن عبدالله؟ فقلت: نعم، فخرج إليّ فاعتنقته واعتنقني، قال: قلت حديث بلغني عنك أنّك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه أنا منه، قال: سمعت الرسول ﷺ يقول: **«يحشر الله تبارك وتعالى العباد أو قال الناس ـ** شكّ الراوي ـ **وأومأ بيده حفاة عراة غرلاً بهما قال: قلنا ما بهما؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد ومن قرب: أنا الملك الديّان لا ينبغي لأحد من أهل الجنّة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتّى اللّطمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنّة يطلبه بمظلمة حتّى اللطمة، قال: قلنا له كيف؟ وإنّما نأتي الله عزّ وجلّ حفاة عراة غرلا، قال: بالحسنات والسيّئات»**[2].

(١) ابن عبدالبرّ: جامع بيان العلم وفضله ١/١١٣ ـ ١١٤.

(٢) ابن عبدالبرّ: جامع بيان العلم وفضله ١/١١١ ـ ١١٢.

وثبت أنّ الصحابي الجليل أبا أيّوب الأنصاري (٥٠هـ) رحل إلى عقبة بن عامر، فلمّا قدم مصر أخبروا عقبة، فخرج إليه، قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيرك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من ستر مؤمناً على خزية ستر الله عليه يوم القيامة»**، قال: فأتى أبو أيّوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة وما حلّ رحله[١].

وعلى هذا النهج كان أصحاب رسول الله وكثير من التابعين يرحلون في طلب الحديث الواحد الأيّام العديدة، حتّى أصبح طلب الحديث والرحلة في سماعه غاية العلماء ومقصد الطلّاب، فكان لتلك الرحلات عظيم الأثر في انتشار السنّة ومعرفة أسباب ورودها والمحافظة عليها وجمعها.

ومضت الأيّام والسنون وكلّ رواة السنّة إمّا صحابيّ ثقة، عدل، أو تابعي كبير يتحرّى الصدق ويتثبّت في قبول الرواية، وقد يقع لبعضهم أحياناً عن غير عمد منهم خطأ أو نسيان، فينقدون في بعض ما رووا، ثمّ ظهر في أوائل المائة الثانية من الرواة من يروي المرسل والمنقطع، ومن كثر خطؤه ومن كان منهم قليل الضبط رغم عدالته.

وإذا كانت المرحلة الأولى من هذا الدور مرحلة تعايش صغار الصحابة وكبار التابعين مع كبار الصحابة وأعلامهم حيث كان الكبار يتولّون التحديث، والصغار منهم والتابعون يتحمّلون عنهم ويتلقّون ما يسمعون منهم دون ورود احتمال الكذب، فإنّ هذه المرحلة التي هي مرحلة تعايش صغار الصحابة وكبار التابعين قد تكدّر فيها صفو الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة بفعل الآثار التي خلّفتها الفتنة الكبرى وما أعقبها من تفرّق الأمّة إلى أحزاب وشيع، فاستغلّ الزنادقة وأصحاب الأهواء ومن غلب عليه الجهل أو التعصّب لحزب ما، هذه الظروف الجديدة وبدأوا يضعون

(١) النووي: مقدمة شرح صحيح مسلم ص ٨٠ ـ ٩٢.

الأحاديث ويختلقون الأقوال وينسبونها إلى الرسول بهتاناً وزوراً لخدمة أغراضهم المختلفة.

غير أنّه سرعان ما كان أمرهم يفتضح لوجود بقيّة باقية من الصحابة وكبار التابعين الذين كانوا يعرفون المتزيّدين الذين يدسّون الأحاديث أو يغيّرونها كما كانوا يعرفون من اشتهر من العدول الأمناء.

فعن طاوس قال: جاء بشير بن كعب إلى ابن عبّاس فجعل يحدّثه، فقال له ابن عبّاس: عد لحديث كذا وكذا، فعاد له ثمّ حدّثه، فقال له: عد لحديث كذا وكذا، فعاد له، فقال له: ما أدري أعرفت حديثي كلّه وأنكرت هذا، أم أنكرت حديثي كلّه وعرفت هذا، فقال له ابن عبّاس: إنّا كنّا نحدّث عن رسول الله ﷺ إذ لم يكن يُكذب عليه، فلمّا ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنّه قال: كنّا نحفظ الحديث والحديث يحفظ عن رسول الله ﷺ، فأمّا إذ ركبتم كلّ صعب وذلول فهيهات.

وعن مجاهد قال: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس فجعل يحدّث ويقول قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ، فجعل ابن عبّاس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عبّاس مالي لا أراك تسمع لحديثي، أحدّثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع، فقال ابن عباس: إنّا كنّا مرّة إذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله ﷺ: «**ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا**»، فلمّا ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلاّ ما نعرف[1].

ولمّا قيل لعبدالله بن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعة، قال: يعيش لها الجهابذة[2].

وهكذا بعد أن كانت مهمّة العلماء من الأمّة مركّزة على الاهتمام

(١) القاري: شرح نخبة الفكر لابن حجر ص ١٢٧.
(٢) القاري: شرح نخبة الفكر ٨٢ ـ ٨٤ و٨٧ ـ ٨٨.

بالنظر في متن الحديث واستنباط ما أمكن استنباطه من أحكام، أصبحت مهمّتهم تتطلّب قبل استخراج الحكم، العناية بسند الحديث والعودة به إلى مصدره الأصلي الذي أخذ عنه، أي النظر في الإسناد، وتتبّع الرواة وتاريخ حياتهم وكشف النقاب عن سيرهم وأحوالهم لمعرفة الثقة العدل الضابط من غيره.

فأمّا في شأن إسناد الحديث: فقد روي عن محمد بن سيرين - من أعلام التابعين - أنّه قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلمّا وقعت الفتنة، قالوا سمّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنّة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم.

وكان عبدالله بن المبارك يقول: الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، وكان يقول: بيننا وبين القوم القوائم يعني الإسناد.

وهكذا بدأ في هذه المرحلة أعلام الحديث كالحسن البصري وطاوس بن كيسان اليماني وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والشعبي وغيرهم من أعلام التابعين يتكلّمون في الأسانيد.

وأمّا في خصوص نقد الرواة فقد اعتنى أعلام هذه المرحلة بتتبّع تاريخ الرواة وأحوالهم، ولم تأخذهم في الله لومة لائم، ولا منعهم مانع من بذل ما في وسعهم للتنقيب في أغوار سِيرهم وتجريح الراوي إذا كان فيه ما يدعو إلى تجريحه سواء من حيث عدالته أو من حيث ضبطه.

فقد أتي ابن عباس بكتاب فيه قضاء عليّ رضي الله عنه فمحاه إلاّ قدر، وفي رواية: فجعل يكتب منه أشياء ويمرّ به الشيء فيقول: والله ما قضى بهذا عليّ إلاّ أن يكون ضلّ، حتّى روي عن بعض أصحاب عليّ أنّه قال: قاتلهم الله أيّ علم أفسدوا، وذلك لما أدخلته الروافض والشيعة في علم عليّ رضي الله عنه وحديثه، وما تقوّلوه عليه من الأباطيل وأضافوه إليه من الروايات والأقاويل المفتعلة والمختلقة وخلطوه بالحقّ، حتّى قيل

لم يكن يصدق على عليّ في الحديث عنه إلاّ من أصحاب عبدالله بن مسعود[١].

ولذلك كان محمد بن سيرين يقول: إنّ هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم.

وعن ابن أبي الزناد عن أبيه قال: أدركت بالمدينة مائة كلّهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال ليس من أهله.

وكان سفيان الثوري يقول: إنّي أحبّ أن أكتب الحديث على ثلاثة أوجه، حديث أكتبه أريد أن أتّخذه دينا وحديث رجل أكتبه فأوقفه لا أطرحه ولا أدين به وحديث رجل ضعيف أحبّ أن أعرفه ولا أعبأ به[٢].

وهكذا احتاط العلماء في نقل الحديث فلم يقبلوه إلاّ من أهله، فكانت هذه المرحلة عبارة عن وضع الأسس الأولى الكفيلة بتمييز الحديث الموضوع من الحديث الصحيح عبر التثبّت في الإسناد ثمّ نقد الرواة.

ومن لطف الله بعباده أنّه تولّى حفظ هذا الدين بذاته فقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[٣] فشمل حفظ الذكر الحفظ من التلاشي والحفظ من الزيادة والنقصان فيه بأن يسّر تواتره وأسباب ذلك وسلّمه من التبديل والتغيير حتّى حفظته الأمّة من حياة النبيّ ﷺ وصار حفّاظه بالغين عدد التواتر في كلّ مصر[٤]، وكأنّه أراد أنّه من جملة حفظ لفظ الذكر حفظ معناه، ومن جملة معانيه الأحاديث النبويّة الدالّة على توضيح مبانيه، ومن مقتضيات حفظ اللّه لكتابه وسنّة نبيّه أن أقام من عباده من يجدّد أمر هذا الدين في كلّ قرن بل في كلّ زمان[٥].

---

(١) القاري: شرح نخبة الفكر ٨٤ و٨٧ ـ ٨٨.
(٢) ابن عبدالبرّ: جامع بيان العلم وفضله ٩١/١.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٤) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢١/١٤.
(٥) القاري: شرح نخبة الفكر ص ١٢٧.

ولمّا كانت آخر المائة الأولى ورأس المائة الثانية دعت الحاجة إلى ضرورة الاحتياط في حماية السنّة بتعقّب أحاديث الرسول وجمعها ثمّ تدوينها.

وتكاد الروايات تجمع على أنّ أوّل من قام بهذا العمل هو التابعي الجليل إمام العدل والهدى والخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبدالعزيز حيث كتب إلى أبي بكر بن حزم الأنصاري عامله وقاضيه على المدينة المنوّرة: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإنّي خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلاّ حديث النبيّ ﷺ ولتفشّوا العلم ولتجلسوا حتّى يعلّم من لا يعلم فإنّ العلم لا يهلك حتّى يكون سرًّا[١].

قال ابن حجر: يستفاد منه ابتداء تدوين الحديث النبوي، وكانوا قبل ذلك يعتمدون على الحفظ، فلمّا خاف عمر بن عبدالعزيز من ذهاب العلم بموت العلماء رأى أنّ في تدوينه ضبطاً له وإبقاءً.

والظاهر أنّ الخليفة عمر بن عبدالعزيز لم يخصّ بهذه المهمّة الجليلة عامله على المدينة دون سائر عمّاله، بل أرسل كذلك إلى سائر ولاته في جميع الأمصار يطلب منهم جمع السنن، يؤكّد ذلك ما نقله ابن حجر من رواية أبي نعيم في تاريخ أصبهان أنّ عمر بن عبدالعزيز كتب إلى الآفاق: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه[٢].

وعن سعد بن إبراهيم قال: أمرنا عمر بن عبدالعزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً فبعث إلى كلّ أرض له عليها سلطان دفتراً[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.
قال ابن حجر: والمحتمل أنّ قول عمر إلى قوله ذهاب العلماء، وأنّ ما بعده ليس من كلام عمر، وبه صرّح أبو نعيم في المستخرج (فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٢٤٦/١).

(٢) فتح الباري ٢٤٥/١ ـ ٢٤٦.

(٣) ابن عبدالبرّ: جامع بيان العلم وفضله ٩١/١ ـ ٩٢.

ويبدو أنّ عمّال الأمصار قد بدؤوا في جمع السنّة، ولكن الخليفة عمر قد مات قبل أن يصله شيء من ذلك ولكن قد يكون محمد بن شهاب الزهري حاز السبق في هذا المجال بعمل فردي قرّ به عين الخليفة قبل وفاته وهذه المحاولات الأولى التي تمّت في عهد عمر بن عبدالعزيز يمكن أن تعتبر أوّل عمل رسمي في سبيل جمع السنّة وحفظها من الضياع وحمايتها من التزيّد عليها.

ولذا تردّدت عبارات العلماء على أنّ ابتداء تدوين الحديث وقع على رأس المائة الأولى في خلافة عمر بن عبدالعزيز ثمّ كثر التدوين والتصنيف، وحصل بذلك خير كثير[١].

ولا غرابة في أن يكون الإمام الزهري هو صاحب الجهد الفريد فهو أوّل من دوّن العلم وكتبه[٢]، وله نحو من تسعين حديثاً يرويه ولا يشاركه فيه أحد بأسانيد جياد حتّى قال أعلام عصره: لولا الزهري لضاعت كثير من السنن.

والذي يظهر أنّ تدوين الإمام الزهري للسنّة لم يكن كالتدوين الذي قام به البخاري ومسلم وغيرهما من رجال الحديث لاحقا، وإنّما كان عبارة عن تدوين كلّ ما سمعه من أحاديث الصحابة غير مبوّب على أبواب العلم، وربّما كان مختلطاً بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، وهذا ما تقتضيه طبيعة البداءة في كلّ أمر جديد[٣].

يؤكّد ذلك ما روي عن صالح بن كيسان قال: كنت أنا وابن شهاب ونحن نطلب العلم فاجتمعنا على أن نكتب السنن فكتبنا ما جاء عن النبيّ ﷺ، ثمّ قال: نكتب ما جاء عن أصحابه، فقلت: لا ليس بسنّة، وقال هو: بل هو سنّة، فكتب ولم أكتب، فأنجح وضيّعت.

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ٢٦٢/١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٨٨/١ و٩١.

(٣) السباعي: السنّة ومكانتها في التشريع ص ١٠٥ و٢١١.

وما روي عن أبي الزناد قال: كنّا نكتب الحلال والحرام، وكان ابن شهاب يكتب كلّ ما يسمع، فلمّا احتيج إليه علمت أنّه أعلم الناس[١].

ـ ٣ ـ الاجتهاد والرأي:

لمّا توفيّ رسول الله ﷺ ترك بالمدينة المنوّرة حوالي اثني عشر ألف صحابي، مات منهم نحو عشرة آلاف بالمدينة، وتفرّق ألفان في شتّى أنحاء بلاد الإسلام استقطبت العراق العدد الأكثر منهم، فنزل بالكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر وتوجّه البقيّة إلى مصر وإلى الشام وإلى إفريقية وإلى خراسان وما وراءها وإلى سائر بلاد الإسلام.

فكان عبدالله بن عبّاس وعبدالله بن عمر وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وجابر بن عبدالله ورافع بن خديج وسلمة بن الأكوع وأبو واقد الليثي وعبدالله بن بحينة مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله ﷺ يفتون ويحدّثون بالمدينة عن رسول الله من لدن توفّي عثمان بن عفّان إلى أن توفّوا[٢].

وكان بالكوفة من فقهاء الصحابة سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود وخبّاب بن الأرت وسهل بن حنيف وأبو قتادة بن ربعي وسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان وأبو موسى الأشعري والبرّاء بن عازب والنعمان بن بشير والمغيرة بن شعبة وعدي بن حاتم الطائي وعبدالله بن أبي أوفى مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله سكنوا الكوفة وأكثرهم دفنوا بها[٣].

وكان بالشام من أعلام الصحابة عبادة بن الصامت وسعد بن عبادة وأبو الدرداء وشرحبيل بن حسنة والفضل بن العباس ومعاوية بن أبي سفيان والضحّاك بن قيس والمقدام بن معدي كرب وحبيب بن مسلمة وعوف بن

(١) جامع بيان العلم وفضله ٨٨/١، ٩٢.
(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥١، الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٧٢/٢.
(٣) الحاكم النيسابوري: معرفة علوم الحديث ص ١٩١.

مالك الأشجعي مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله نزلوا الشام واستقرّوا بها.

وكان بمكّة من فقهاء الصحابة حبر الأمّة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس وعتاب بن أسيد وعبدالله بن السائب المخزومي قارىء الصحابة بمكّة، مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله ممّن نزلوا مكّة وأقاموا بها.

وكان ممّن نزل البصرة من فقهاء الصحابة أنس بن مالك وعثمان بن أبي العاص وعبدالله بن سرجس وعمران بن حصين وعبدالرحمٰن بن سمرة والأقرع بن حابس مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم(١).

وكان بمصر عمرو بن العاص وابنه عبدالله وأبو ذرّ الغفاري والزبير بن العوّام وغيرهم، وكان بإفريقية عقبة بن عامر الجهني ومعاوية بن حديج وأبو لبابة الأنصاري وأبو زمعة البلوي وغيرهم.

وهكذا الأمر في سائر الأمصار حيث استقرّت كلّ مجموعة من الصحابة في بلد من البلدان وانتصبوا للإفتاء بها وكانت فتاويهم متّحدة ومتوافقة في بعض الأحيان، ومختلفة في أغلب الأحيان، ومن هنا جاء مجال الاجتهاد الذي قضى بنتيجة الاختلاف.

وانقرض عصر الصحابة ما بين تسعين إلى مائة إذ أنّ آخر من مات من الصحابة بالكوفة عبدالله بن أبي أوفى سنة ٨٦هـ، وآخر من مات بالمدينة من الصحابة سهل بن سعد الساعدي سنة ٩١هـ وهو ابن مائة سنة، وآخر من مات من الصحابة بالبصرة أنس بن مالك سنة ٩١هـ، وقيل ٩٣هـ، وهو ابن مائة وسبع سنين وآخر من مات بالشام من الصحابة عبدالله بن بسر سنة ٨٨هـ، وكان أبو الطفيل عامر بن واثلة رأى النبيّ وكان آخر من رآه موتاً، مات بعد سنة مائة(٢).

---

(١) الحاكم النيسابوري: معرفة علوم الحديث ص ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥٢ ـ ٥٣.

وعن طريق هذه الطبقة المتخرّجة بالنبيّ ﷺ بذاته، والتي تكوّنت تكوّنا اجتهاديّاً غير معصوم متأثّراً باجتهاد المعصوم، تكوّن فقهاء التابعين حيث التفّ حول كلّ فقيه من فقهاء الصحابة أو حول كلّ طائفة في مصر من الأمصار جماعة ممّن قصدوا في التفافهم حوله أن يسلكوا مسلكه وأن يتعوّدوا على طريقته وأن يتخرّجوا بالوصول إلى غايته في مقدرته على الإفتاء وتقرير الأحكام الفقهيّة، فتخرّجوا تخرّجا عمليّا بالمخالطة والممارسة أثّر فيهم انطباع السلائق والطباع التي كانت للفقهاء من الصحابة الذين التفّ حولهم هؤلاء الفقهاء الناشئون من التابعين، وقد تكوّنت فيهم ملكات من هذه المخالطة والممارسة بمقتضاها أصبح كلّ واحد يستطيع الفتوى ويتمكّن منها على نحو ما كان قدوته يستطيع الفتوى ويتمكّن منها، ومع تأثّره بالطبع الخاص والعوامل التي كان يسلك بها[١].

وعلى ذلك تكوّن فقهاء التابعين، فظهر فقهاء المدينة السبعة المشهورون الذين اتّبعوا في الأكثر أقضية أبي بكر وعمر وعثمان وفتاوى زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر وأمّ المؤمنين عائشة وروايات أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، ولمع فقهاء العراق من أمثال الأسود النخعي ومسروق بن الأجدع وشريح القاضي والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي الذين اتّبعوا في الأكثر أقضية عليّ بن أبي طالب وفتاوى عبدالله بن مسعود، ونبغ فقهاء مكّة من أمثال عطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وعمرو بن دينار وعكرمة مولى ابن عبّاس الذين اتّبعوا في الأكثر فتاوى عبدالله بن عباس، وظهر بالبصرة الحسن البصري ومحمد بن سيرين ومسلم ابن يسار وأبو قلابة الذين أخذوا في الأغلب عن أنس بن مالك، وكذا الحال في سائر الأمصار.

وهكذا سار أعلام التابعين على نفس مناهج من كان عندهم من الصحابة متكوّنين بهم تكوّن ملكات، يسيرون بطريقة سليقة انطباعيّة ترجع إلى الملكات على النحو الذي كان يسير عليه الأساتذة العظام من فقهاء

---

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٥٥.

الصحابة الجلّة الذين تكوّنوا بهم وتخرّجوا[١].

وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أنّ المدينة المنوّرة والكوفة قد اشتهرتا بالفقه، في الوقت الذي اصطبغت فيه مكّة بسمة التفسير أخذاً عن ابن عباس ترجمان القرآن، وعرفت الشام بالتضلّع في السِير والمغازي، الأمر الذي أدّى إلى تزعّم كلّ من المدينة والكوفة لحركة الفقه وتطوّرها.

فكان سعيد بن المسيّب ـ وهو من فقهاء المدينة السبعة ـ أعلم الناس بالحلال والحرام، فإذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: لا تسألوني عن ذلك، واسألوا من يزعم أنّه لا يخفى عليه منه شيء ـ ويعني عكرمة مولى ابن عباس ـ[٢].

وكان القاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ من الفقهاء السبعة ـ لا يتصدّران لتفسير القرآن[٣].

وكان مجاهد ـ من أعلام التابعين بمكّة ـ قد قرأ القرآن على ابن عباس ثلاثين مرّة.

وشهد الشعبي ـ من أعلام التابعين بالكوفة ـ أنّه ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة[٤].

ولمّا سئل الإمام مالك عن مسألة وأجاب فيها، قال له السائل: إنّ أهل الشام يخالفونك فيها فيقولون كذا وكذا، فقال مالك: ومتى كان هذا الشأن ـ يعني الفقه والفتوى ـ بالشام، إنّما هذا الشأن وقف على أهل المدينة والكوفة[٥].

ولمّا كانت المدينة المنوّرة سليمة من ظهور البدع، وإن كان بها من

---

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٥٥ ـ ٥٦.
(٢) الطبري: مقدمة تفسير الطبري ٢٩/١.
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٨٧/٥ و٢٠٠.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٢٢٥/٩، ٢٤٥.
(٥) ابن عبدالبرّ: جامع بيان العلم وفضله ١٩٤/٢.

هو مضمر لذلك فكان عندهم مهاناً مذموماً[١] حيث تميّزت باستقرار وهدوء ضمنا لها التفرّد والريادة في العلم والفقه على سائر البلاد، فكان الأعلام من المراكز الأخرى يعودون إلى أعلامها في كثير من مسائل الفقه والفتوى، حتى روي عن الخليفة الراشدي عمر بن عبدالعزيز أنّه كان يكتب إلى الأمصار يعلّمهم السنن والفقه، ويكتب إلى المدينة يسألهم عمّا مضى ويعلمونه بما عندهم.

وسئل حبيب بن أبي ثابت: أيّما أعلم بالسنّة ـ أو بالفقه ـ أهل الحجاز أم أهل العراق؟ فقال: أهل الحجاز.

وكان كلّما رحل إليها العلماء ونزلوها استبان فضلهم عمّا سواهم إذا عادوا إلى أمصارهم حتّى إنّ مجاهد بن جبر وعمرو بن دينار وغيرهما من أعلام مكّة قالوا في شأن قرينهم عطاء بن أبي رباح: لم يزل شأننا متشابها متناظرا، حتّى خرج عطاء إلى المدينة، فلمّا رجع إلينا استبان فضله علينا.

ولذلك اعتبر بعض العلماء أنّ كلّ حديث ليس له أصل بالمدينة وإن كان منقطعا ففيه ضعف، وأنّ ما أدرك عليه الناس بالمدينة فلا يشكّ فيه، وهو الحقّ.

وكان أبو بكر بن عمر بن حزم يقول: إذا وجدت أهل المدينة قد أجمعوا على شيء فلا يكن في قلبك منه شيء[٢].

ومن هذا المنطلق رأى أهل الحجاز أنّ أحاديثهم مقدّمة على أحاديث من سواهم من أهل العراق والشام لبقاء المدينة بمنأى عن الفتن والتشيّع والإرجاء والاعتزال وبدع النسّاك، وذهب المذهب ببعض أعلام المدينة إلى تنزيل حديث أهل العراق منزلة حديث أهل الكتاب فلا يصدّقونهم ولا يكذّبونهم حتّى اشتهرت العراق بأنّها دار الضرب وأنّ الحديث يخرج من المدينة شبراً فيعود من العراق ذراعاً.

---

(١) ابن تيميّة: مجموع الفتاوى ٢٠/٣٠٢.

(٢) القاضي عياض: ترتيب المدارك ١/٦٢ ـ ٦٣.

ولمّا كان ذاك هو واقع العراق وحالها، تشدّد فقهاؤها في قبول الحديث واشترطوا شروطاً وإن كانت تضمن سلامة الحديث من التزيّد والاختلاق، فإنّه لا يسلم معها إلاّ القليل.

ومع قلّة الاعتماد على السنّة وضبط الأحاديث وحفظها ظهرت الحاجة في العراق إلى الاجتهاد وإعمال الرأي.

وهكذا كانت الظروف السياسية والمواقع الإقليميّة ـ بحسب البعد عن الدار النبويّة ـ[1] من العوامل المساعدة على ظهور نمطين من الاجتهاد، نمط اعتدّ بالأثر بعد إحكام ضبط السنّة، وجمع مادة فقهيّة خصبة عن طريق الأخذ والرواية، ونمط عوّل على الرأي وأكثر من القياس لا لجهل بالحديث ولكن لكمال الضبط فقلّت الرواية عنده.

وقد تزعّم النمط الأوّل أعلام المدينة المتمسّكون بالسنّة الواقفون عند حدود الأثر، فسمّيت مدرستهم بحسب منهجهم في الاجتهاد وطريقتهم في استنباط الأحكام: مدرسة الحديث أو مدرسة الأثر، وبحسب الموقع: مدرسة المدينة أو الحجاز، في حين تزعّم النمط الثاني أعلام الكوفة وفقهاؤها، وسمّيت مدرستهم بحسب منهجهم وطريقتهم في الاجتهاد: مدرسة الرأي، وبحسب الموقع: مدرسة العراق.

غير أنّ الملفت للنظر أنّ مدرسة الحديث لم تُعدم من وجود أصحاب الرأي ضمن أعلامها من الذين كانوا لا يتهيّبون من استعمال الرأي والإكثار منه، مثل ربيعة بن أبي عبدالرحمٰن صاحب المعضلات بالمدينة البصير بالرأي والقياس حتّى عرف بذلك وسمّي بربيعة الرأي، كما أنّ مدرسة الرأي بدورها لم تُعدم من كبار المحدّثين من أمثال عامر بن شرحبيل الشعبي محدّث الكوفة وعالمها الذي أدرك خمسمائة من الصحابة أو أكثر وما رئي أحد أعلم بسنّة ماضية مثله، وكان إذا عرضت له فتوى لم يجد فيها نصّا انقبض ولم يفت، وكان يقول: عليك بآثار السلف وإن رفضك

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٣٠١/٢٠.

الناس، وإيّاك وآراء الرجال وإن زخرفوها لك بالقول[١].

وهكذا تبدو مسألة الاعتماد على الرأي وعلى الأثر ـ في هذه المرحلة من هذا الدور ـ بل وفي كلّ مرحلة ودور من أدوار الفقه مرتبطة أشدّ الارتباط بالخيط الطويل المتماسك من طرفيه اللذين هما الأثر والنظر.

والعلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسيّة متفاعلة لا غنى لطرف منهما عن الآخر، بحيث أنّ افتقاد أيّ منهما أو استغناؤه عن الآخر لا ينشأ عنه فقهاً مرتبطاً بأصوله التي هي مدارك الشريعة.

فلا يمكن لأيّ عمل من الأعمال الفقهيّة أن يستقلّ فيه الأثر على النظر استقلالاً تامّاً بحيث لا يكون للنظر مدخل بحال في العمل الفقهي الذي هو استنتاج، كما لا يمكن أن يستقلّ النظر بحيث لا يكون للأثر أيّ اتّصال بذلك العمل الاستنتاجي لأنّ الاستنتاج حينئذ يخرج عن حقيقة الاجتهاد إلى حقيقة الهوى، ولذلك كان العنصران ضروريين ـ كلّ منهما ـ لكلّ عمل فقهيّ.

فليس من المقبول بعد ذلك أن يفرض أنّ فقيهاً من الفقهاء يكون فقهه غير قائم على الأثر وأن نعتقد أنّه من الجائز أن يكون الفقهاء الذين اعتبروا أهل رأي بمعزل عن الأثر، وليس من المقبول كذلك أن يفرض أنّ فقيهاً من الفقهاء يكون فقهه غير مستند إلى النظر ولا أن نعتبر الفقهاء الذين اعتبروا أهل حديث بمعزل عن النظر، وإنّما الأمر يرجع إلى تصنيفهم كما هو الواقع داخل هذين الصنفين باعتبار أنّ أحد الصنفين هو الصنف الذي يكون للعمل الأثري عنده غالبيّة نسبيّة على العمل النظري، وأنّ الصنف الآخر بالعكس هو الذي يكون للعمل النظري عنده غالبيّة نسبيّة على العمل الأثري[٢].

وخير ما نختتم به هذا العنصر منافسة استدلاليّة بين علمين من أعلام

---

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١٥٢/٤.

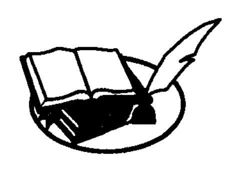
(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٨٣، ٨٤، ٨٦، بتصرّف.

المدرسة الحجازيّة تبرز بوضوح غالبيّة النظر على الأثر عند أحدهما، وغالبيّة الأثر على النظر عند الآخر:

فعن ربيعة بن أبي عبدالرحمٰن أنّه قال: سألت سعيد بن المسيّب: كم في إصبع المرأة؟ فقال: عشر من الإبل، فقلت: كم في إصبعين؟ قال: عشرون من الإبل، فقلت: كم في ثلاث؟ فقال: ثلاثون من الإبل، فقلت: كم في أربع؟ قال: عشرون من الإبل، فقلت: حين عظم جرحها واشتدّت مصيبتها نقص عقلها؟ فقال سعيد: أعراقيّ أنت؟ فقلت: بل عالم متثبّت أو جاهل متعلّم، فقال سعيد: هي السنّة يا ابن أخي(١).

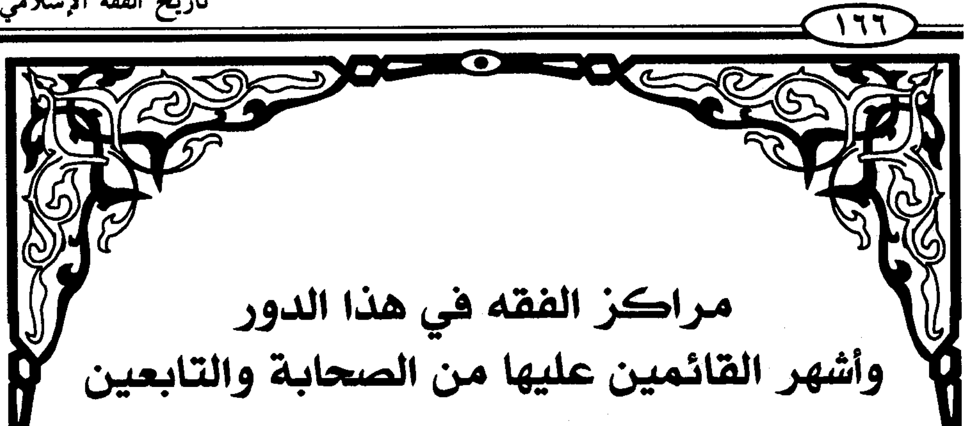
وهذا مثال حيّ للفرق بين المنهج الذي يكون فيه للأثر غالبيّة على النظر، وبين المنهج الذي يكون فيه للنظر غالبيّة على الأثر.

وقد أدرك ربيعة الرأي هذا الفرق بين المنهجين وما بينهما من تفاوت بحسب كثرة غالبيّة الأثر أو النظر حتّى بين أعلام المدرسة الواحدة فيما بينهم، فقد روي عن الإمام مالك قوله: كان ربيعة بن أبي عبدالرحمٰن يقول لابن شهاب الزهري: إنّ حالي ليست تشبه حالك، فقال ابن شهاب: وكيف ذاك؟ قال ربيعة: أنا أقول برأيي من شاء أخذه فاستحسنه وعمل به ومن شاء تركه، وأنت في القوم تحدّث عن النبيّ ﷺ فيحفظ(٢).



(١) أخرجه مالك في الموطّأ، كتاب العقول، باب ما جاء في عقل الأصابع.

(٢) الحاكم النيسابوري: معرفة علوم الحديث ص ٦٢.



مراكز الفقه في هذا الدور وأشهر القائمين عليها من الصحابة والتابعين

أنشأ أصحاب رسول الله ﷺ حين توزّعوا في بلاد الإسلام المترامية الأطراف حركة اجتهاديّة بفعل ما روي عنهم من فتاوى وأقضية مختلفة في الغالب، فتكوّنت بهم مدارس اجتهاديّة مثّلت النواة الأولى لما عرف عند الفقهاء بالأمصار التي هي المراكز الفقهيّة الأولى.

وتخرّج على أيدي هؤلاء الأعلام من الصحابة في كلّ مركز من تلك المراكز الفقهيّة تلاميذ هم أبناء الصحابة والتابعون سلكوا مسلكهم في الاجتهاد وتعوّدوا على طريقتهم في الاستنباط، ولمع منهم مجموعة قاموا على تلك المراكز وسطع نجمهم في حياة أساتذتهم من الصحابة وبعد مماتهم.

ونستطيع أن نردّ هذه المراكز في هذا الدور إلى تسعة:

المركز الأوّل: المدينة المنوّرة:

هي دار الإيمان وأرض هجرة الرسول ووهي مبدأ الحلال والحرام وبها نزلت أغلب الأحكام، وهي التي وردت في شأنها الآثار في اختصاصها بفضل العلم والسنّة والقرآن، وفي فضل علم أهلها وترجيحه على علم غيرهم واقتداء السلف بهم، وهي مركز الجمهور الأعظم من الصحابة وكبار التابعين.

وأصل هذا المركز الفقهي فتاوى أبي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب قبل انتقاله إلى الكوفة، وفتاوى زيد بن ثابت وعائشة أمّ المؤمنين وأبي هريرة، ومن صغار الصحابة عبدالله ابن عمر وأبو سعيد الخدري وعبدالله بن عبّاس قبل انتقاله إلى مكّة، وأشباه لهم ممّن هيّأ الله لهم البقاء بالمدينة.

غير أنّ أكثر أقضية وفتاوى هذا المركز كانت في الأغلب تعتمد على أقضية عمر بن الخطاب وفتاوى زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر وعائشة أمّ المؤمنين، وأكثر روايات هذا المركز كانت في الأغلب تعتمد على روايات أبي هريرة وأبي سعيد الخدري.

فانحصر بذلك غالبيّة التأثير على هذا المركز في هؤلاء الستّة، وفيما يلي لمحة عن علمهم وفضلهم:

* **عمر بن الخطّاب**(١):

هو أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطّاب بن نفيل بن عبد العزى، يجتمع في نسبه مع الرسول ﷺ في كعب بن لؤي بينه وبين عمر ثمانية آباء.

كان من أجلّاء فقهاء الصحابة وعظمائهم ومن الذين يفتون على عهد الرسول، ومن قضاة هذه الأمّة.

وكان رضي الله عنه يرى الرأي فينزل به القرآن وما قال الناس في شيء وقال فيه عمر إلاّ جاء القرآن بنحو ما يقول عمر، وقد نزل القرآن بموافقته في أسرى بدر وفي الحجاب وفي مقام إبراهيم وفي تحريم الخمر وذكر أبو عبدالله الشيباني في كتاب فضائل الإمامين أنّ عمر وافق ربّه في أحد وعشرين موضعاً.

---

(١) اليافعي: مرآة الجنان ١/١١٥، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٣٨ - ٣٩، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١/١٦، ٢٠، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٢٢ - ١٢٥، ابن العماد: شذرات الذهب ١/٥٤ - ٥٥، ابن عبدالبرّ: الاستيعاب ٢/٤٦٤.

ومن أقضيته التي تدلّ على عمق فهمه وسداد رأيه إلغاؤه سهم المؤلّفة قلوبهم من الزكاة، ووقف قطع يد السارق عام المجاعة، وقضاؤه بقتل الجماعة بالواحد، وإلزامه المطلّق ثلاثاً بلفظ واحد بما التزم به أي ثلاث طلقات وغير ذلك من القضايا التي تدلّ على دقّة فهمه وشدّة فطنته وكثرة علمه ممّا يتحيّر فيه كلّ فاضل، ويتعجّب من حسنه كلّ عاقل(١).

ومن نظر في فتاويه على التفصيل وتأمّل معاني قوله على التحصيل وجد في كلامه من دقيق الفقه ما لا يجد في كلام أحد، ولو لم يكن له إلاّ الفصول التي ذكرها في كتابه إلى أبي موسى الأشعري لكفى ذلك في الدلالة على فضله.

*** شهادة الرسول له بالفضل والعلم:**

عن أبي ذرّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ الله وضع الحقّ على لسان عمر يقول به»**(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إنّ الله جعل الحقّ على لسان عمر وقلبه»**(٣).

وعن ابن عمر أيضاً أنّ النبيّ ﷺ قال: **«بينا أنا نائم إذ رأيت قدحاً أتيت فيه بلبن فشربت منه حتّى إنّي لأرى الريّ يجري في أظفاري ثمّ أعطيت فضلي عمر بن الخطاب»**، قالوا: فما أوّلت يا رسول الله؟ قال: **«العلم»**(٤).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون عليّ وعليهم قمص، فمنها ما يبلغ إلى الثدي ومنها**

---

(١) تقدّم تفصيل الكلام في هذه الأقضية.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، وابن ماجة في سننه، المقدّمة، والإمام أحمد في مسند الأنصار.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

دون ذلك، وعرض عليّ عمر بن الخطّاب وعليه قميص يجرّه»، قالوا: فما أوّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: «**الدين**»(١).

وعن سعد بن أبي وقّاص أنّ رسول الله ﷺ قال لعمر: «**يا ابن الخطّاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجّا قطّ إلاّ سلك فجّا غير فجّك**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدّثون فإن يك في أمّتي أحد فإنّه عمر**».

وفي رواية ثانية: «**لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمّتي منهم أحد فعمر**»(٣).

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء، وإنّ أبا بكر وعمر منهم وأنعما**»(٤).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كان بعدي نبيّ لكان عمر بن الخطّاب**»(٥).

*** شهادة الصحابة له بالفضل والعلم:**

قال عبدالله بن عمر: ما نزل بالناس أمر قطّ فقالوا فيه وقال فيه عمر، إلاّ نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر(٦)، وفي رواية أخرى عن ابن عمر أيضاً أنّه قال: وما كان عمر يقول لشيء إنّي لأراه كذا إلاّ كان كما يقول،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب وكتاب الأدب.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة.

وعن قيس بن طلق قال: كنّا نتحدّث أنّ عمر ينطق على لسان ملك[١].

وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما نبعد أنّ السكينة تنطق على لسان عمر[٢].

وكان عبدالله بن مسعود يقول: لو أنّ علم عمر وضع في كفّة الميزان، ووضع علم أهل الأرض في كفّة لرجح علم عمر.

ورغم أنّ ابن مسعود كان له أتباع قد حرّروا فتياه ومذاهبه في الفقه، فقد كان يترك مذهبه وقوله لقول عمر وكان لا يكاد يخالفه في شيء من مذاهبه ويرجع من قوله إلى قوله، وكان عبدالله لا يقنت، ويقول: لو قنت عمر لقنت عبدالله، ويقول: لو سلك الناس واديا وشعبا وسلك عمر واديا وشعبا لسلكت وادي عمر وشعبه، وكان يقول: لمجلس كنت أجلسه مع عمر أوثق في نفسي من عمل سنة.

وقال حذيفة بن اليمان: كأنّ علم الناس مع علم عمر دسّ في حجر، وكان معاذ بن جبل يقول: إنّ أعلم الناس بفريضة وأقسمهم لها عمر بن الخطّاب.

ولمّا استشهد عمر وُضع على سريره فدخل عليه عليّ بن أبي طالب فترحّم عليه ثمّ قال: ما خلّفت أحداً أحبّ إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك وأيم الله إن كنت لأظنّ أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أنّي كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر[٣].

وقال ابن مسعود: لقد مات عمر فذهب بتسعة أعشار العلم.

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ٥٤/١.
(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب.

* شهادة التابعين له بالفضل والعلم:

روي أنّ عبدالله بن الحسن مسح على خفّيه فقيل له: تمسح؟ قال: نعم مسح عمر بن الخطّاب ومن جعل عمر بن الخطّاب بينه وبين الله فقد استوثق. وكان الشعبي ـ من أعلام التابعين بالكوفة ـ يقول: إذا اختلف الناس في شيء فخذوا بما قال عمر بن الخطّاب، ومثل ذلك قال مجاهد ـ من أعلام التابعين بمكّة ـ: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما صنع عمر فخذوا به.

وكان سعيد بن المسيّب ـ من أعلام التابعين بالمدينة ـ يقول: ما أعلم أحداً بعد رسول الله ﷺ أعلم من عمر بن الخطّاب، ومناقبه أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر.

دامت خلافته عشر سنين فكانت أيّامه باهجة زاهرة وسيرته الحسنى محمودة فاخرة والعناية مؤيّدة له ناصرة، واستشهد سنة ٢٣هـ بعد مرجعه من الحج، طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، ودفن مع صاحبيه في حجرة عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها بعد أن استأذنها في حياته وأوصى أن تستأذن أيضاً بعد مماته، فأذنت.

* زيد بن ثابت[١]:

هو زيد بن ثابت النجاري، كاتب الوحي للنبيّ ﷺ وجامع المصحف على عهد أبي بكر وناسخ المصاحف زمن عثمان، وهو أحد فقهاء الصحابة الجلّة الفرّاض وأحد أصحاب الفتوى، وأحد قضاة هذه الأمّة، قد غلب الناس على اثنتين: القرآن والفرائض، حتّى قيل إنّه كان رأسا في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض بالمدينة، وكان إمام الناس بها بعد عمر بن الخطّاب.

(١) ابن حجر: الإصابة ٥٦١/١ ـ ٥٦٢، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١٥/١ ـ ١٦، ١٨، ٢١، الاستيعاب ٥٥٢/١ ـ ٥٥٣، ابن العماد: شذرات الذهب ٩٣/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٦، اليافعي: مرآة الجنان ١٥٤/١ ـ ١٥٥.

وقد قيل: إنّ عبدالله بن عمر وجماعة ممّن عاشوا بعده بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ إنّما كانوا يفتون بمذاهب زيد بن ثابت[١]، وما كانوا أخذوا عنه ممّا لم يكونوا حفظوا فيه عن رسول الله ﷺ قولاً.

وكان عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان يستخلفانه على المدينة، ولا يقدّمان عليه أحداً في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة.

*** شهادة الرسول له بالرسوخ في علم الفرائض:**

عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال: أرحَم أمّتي بأمّتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيّ، ولكلّ أمّة أمين، وأمين هذه الأمّة أبو عبيدة بن الجرّاح[٢].

*** شهادة الصحابة له بالفضل والعلم:**

خطب عمر بن الخطّاب الناس يوماً فقال: من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت.

وكان عبدالله بن عباس يأتي بابه وينتظره حتّى يخرج ليسمع منه العلم، فإذا خرج قال: يا ابن عبّاس هلاّ كنت آتيك أنا، فيقول: العلم يؤتـى ولا يأتـي، فإذا ركب أخذ بركابه، فيقول: ما هذا يا ابن عبّاس: فيقول: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، وفي رواية: هكذا نفعل بالعلماء والكبراء فيأخذ زيد بن ثابت كفّه ويقبّلها ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا.

اختلف في سنة وفاته والأغلب أنّه توفّي سنة ٤٥هـ.

---

(١) وقد ثبت أنّه روى عنه جماعة من الصحابة منهم: أبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عمر وأنس بن مالك وسهل بن سعد وسهل بن حنيف وعبدالله بن يزيد الخطمي (الإصابة ٥٦١/١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وابن ماجة في سننه، المقدّمة.

وحين مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة: اليوم مات حبر هذه الأمّة، وعسى الله أن يجعل في ابن عبّاس منه خلفا، وقال عبدالله بن عمر: مات عالم الناس اليوم.

وقال ابن عبّاس وهو قائم على قبره: هكذا يذهب العلم، وقال: لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد أنّ زيد بن ثابت كان من الراسخين في العلم.

ورثاه شاعر الرسول حسّان بن ثابت بقوله:

ومن للقوافي بعد حسّان وابنه ومن للمعاني بعد زيد بن ثابت

وعلى الجملة فزيد بن ثابت غصن مجد في أعلى ذروة المعاني ثابت.

*** عبدالله بن عمر[1]:**

هو عبدالله بن عمر بن الخطّاب بن نفيل القرشي، الفقيه المحدّث القدوة، من أئمّة الدين ومن زهّاد الصحابة وأكثرهم اتّباعا للسنن، ومن فقهاء الصحابة وأعيانهم.

كان إمام الناس بالمدينة بعد زيد بن ثابت، ومن أعلم الصحابة بالمناسك بعد عثمان بن عفان رضي الله عنه، مولعا بالحجّ لا يتركه، وروي أنّه اعتمر أكثر من ألف عمرة، أقام بعد النبيّ ﷺ ستّين سنة يفتي الناس في الموسم.

كان من روّاة الحديث المكثرين عن النبيّ ﷺ، وروى أيضاً عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبي ذرّ الغفاري ومعاذ بن جبل وعائشة أمّ المؤمنين وغيرهم، وروى عنه من الصحابة جابر بن عبدالله وعبدالله بن عبّاس وغيرهما.

---

(١) مرآة الجنان ١/١٨٥ ـ ١٨٦، الإصابة ٢/ ٣٤٩، شذرات الذهب ١/١٤٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥٠، الإصابة ٢/٣٤٧ ـ ٣٤٩، إعلام الموقعين ١/١٨، الاستيعاب ٢/٣٤٢ ـ ٣٤٥ الذهبي: تذكرة الحفّاظ ١/٣٨ ـ ٣٩.

كان يتحفّظ ما سمع من رسول الله ﷺ ويسأل من حضر إذا غاب عن قوله وفعله، وكان كثير الاتّباع لآثار رسول الله ﷺ، فكان يتّبع آثاره في كلّ مسجد صلّى فيه، وكان يعترض براحلته في طريق رأى رسول الله ﷺ عرض ناقته، وكان إذا وقف بعرفة يقف في الموقف الذي وقف فيه رسول الله ﷺ.

ومن ذلك ما ورد عن عبيد بن جريج أنّه قال لعبدالله بن عمر: يا أبا عبدالرحمٰن رأيتك تصنع أربعا لم أر أحداً من أصحابك يصنعها، قال: وما هي يا ابن جريج، قال: رأيتك لا تمسّ من الأركان إلاّ اليمانيين، ورأيتك تلبس النعال السبتيّة، ورأيتك تصبغ بالصفرة، ورأيتك إذا كنت بمكّة أهلّ الناس إذا رأوا الهلال، ولم تهلّ أنت حتى كان يوم التروية، فقال عبدالله بن عمر: أمّا الأركان فإنّي لم أر رسول الله ﷺ يمسّ منها إلاّ اليمانيين، وأمّا النعال السبتيّة فإنّي رأيت رسول الله ﷺ يلبس النعل التي ليس فيها شعر ويتوضّأ فيها، فأنا أحبّ أن ألبسها، وأمّا الصفرة فإنّي رأيت رسول الله ﷺ يصبغ بها، فأنا أحبّ أن أصبغ بها، وأمّا الإهلال فإنّي لم أر رسول الله ﷺ يهلّ حتى تنبعث به راحلته(١).

ورغم كثرة مروياته عن الرسول ﷺ، فقد كان شديد الاتقاء للحديث عن رسول الله، شديد التحرّي والاحتياط والتوقّي في فتواه وكلّ ما يأخذ به نفسه، وإذا سئل أحياناً قال: لا أدري، أتريدون أن تجعلوا ظهورنا جسورا في جهنّم تقولون: أفتانا بهذا ابن عمر، حتى أنّ ابن عبّاس قال مرّة: عجبا لابن عمر وردّه الناس، ألا ينظر فيما يشكّ فيه، فإن كانت مضت به سنّة قال بها، وإلاّ قال برأيه.

*** شهادة الرسول له بالصلاح:**

عن حفصة أمّ المؤمنين أنّ النبيّ ﷺ قال لها: «**إنّ أخاك رجل**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء وكتاب اللباس، ومسلم في صحيحه، كتاب الحجّ، ومالك في الموطّأ، كتاب الحجّ.

صالح، أو قال: **إنّ عبدالله رجل صالح»**[١].

وعن نافع عن ابن عمر قال: إنّ رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرون الرؤيا على عهد رسول الله ﷺ فيقصّونها على رسول الله ﷺ فيقول فيها رسول الله ما شاء الله، وأنا غلام حديث السنّ، وبيتي المسجد قبل أن أنكح، فقلت في نفسي لو كان فيك خير لرأيت مثل ما يرى هؤلاء، فلمّا اضطجعت ذات ليلة قلت: اللّهمّ إن كنت تعلم فيّ خيراً فأرني رؤيا» فرأى رؤيا، قال: فقصصتها على حفصة فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال رسول الله: **«إنّ عبدالله رجل صالح لو كان يصلّي من الليل»**، قال نافع: فلم يزل بعد ذلك يكثر من الصلاة[٢] فكان.

يصلّي ما قدّر له ثمّ يأوي إلى فراشه، فيغفي إغفاء الطائر ثمّ يقوم فيتوضّأ ويصلّي ثمّ يرجع، فكان يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمساً، وكان قبل ذلك إذا نام لم يقم حتى يصبح.

*** شهادة الصحابة له بالفضل:**

كان ثلّة من الصحابة يرون أنّه ليس أحد فيهم على الحالة التي فارق عليها النبيّ ﷺ إلاّ ابن عمر.

وكان جابر بن عبدالله رضي الله عنه يقول: ما منّا من أحد أدرك الدنيا إلاّ مالت به، ومال بها غير عبدالله ابن عمر.

*** شهادة التابعين له بالعلم والورع:**

قال ميمون بن مهران: ما رأيت أورع من ابن عمر، وقال: ما رأيت أفقه من ابن عمر.

وقيل لنافع: ما كان عبدالله بن عمر يصنع في منزله، قال: الوضوء لكلّ صلاة، والمصحف فيما بينهما.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير.

وكان محمد بن سيرين يقول: اللّهمّ أبقني ما أبقيت ابن عمر أقتدي به.

وقال ابن المسيّب يوم مات ابن عمر: ما في الأرض أحد أحبّ إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منه وقول سعيد بن المسيّب هذا، نحو ما قال عليّ بن أبي طالب في عمر بن الخطّاب، ـ كما تقدّم ـ.

توفي سنة ٧٤هـ وهو المشهور، وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين، وأوصى حين حضرته الوفاة أن يدفن ليلاً ولا يعلموا الحجّاج لئلاّ يصلّي عليه.

*** عائشة أمّ المؤمنين(١):**

هي الصدّيقة الفقيهة المحدّثة الفصيحة ذات التحقيق أمّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصدّيق، الصادقة ابنة الصدّيق البريئة المبرّأة حبيبة حبيب الله، ذات المحاسن الحميدة والمناقب العديدة، وحيدة عصرها في الفقه والطبّ والشعر(٢).

---

(١) مرآة الجنان ١٦١/١ ـ ١٦٢، الاستيعاب ٣٥٨/٤، الإصابة ٣٦٠/٤ ـ ٣٦١، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١٧/١، ٢١، ٢٢، شذرات الذهب ١١١/١ ـ ١١٢، السيوطي: إسعاف المبطأ برجال الموطأ ص ٤٩، الزركشي: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٣٣، ٣٩، ٤٠، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٦، الاستيعاب ٣٥٨/٤، طبقات ابن سعد ٣٧٥/٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) فعن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة: إنّي لأتفكّر في أمرك فأعجب، أجدك من أفقه الناس فقلت ما يمنعها؟ زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر، وأجدك عالمة بأيّام العرب وأنسابها وأشعارها فقلت: وما يمنعها وأبوها علاّمة قريش؟ ـ وذلك أنّ أبا بكر كان أعلم الناس بأنساب العرب وأخبار قبائلها، وأنباء بطونها ـ ولكن إنّما أعجب أن وجدتك عالمة بالطبّ، فمن أين؟ فأخذت بيدي وقالت: يا عريّة إنّ رسول الله ﷺ كثر من أسقامه فكان أطبّاء العرب والعجم ينعتون له فتعلّمت ذلك» أخرجه البزار في مسنده وقال: هذا الحديث لا نعلمه مرويًّا عن عائشة إلاّ بهذا الإسناد، وأورده أبو نعيم في الحلية، وورد عند الحاكم النيسابوري مثله، وقال صحيح الإسناد، وقال الذهبي في مختصره: على شرط الصحيحين (الزركشي: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٤٩ ـ ٥٠).

وكانت رضي الله عنها مقدّمة في العلم والفرائض والأحكام والحلال والحرام، وكانت من أكثر الصحابة حفظا وفتيا، فكان مشيخة أصحاب رسول الله يسألونها عن الفرائض.

استقلّت بالفتوى منذ زمن أبي بكر وعمر وهلمّ جرّا، وكانت تفتي في زمن عمر وعثمان وما بعد ذلك إلى أن ماتت.

وكان الأكابر من الصحابة إذا أشكل عليهم الأمر في الدين استفتوها فيجدون علمه عندها، فكان عمر بن الخطاب يحيل عليها كلّ ما تعلّق بأحكام النساء أو بأحوال النبيّ البيتيّة، لا يضارعها في هذا الاختصاص أحد من الرجال ولا من النساء، وعليها تتلمذ مشيخة المهاجرين والأنصار(١)، وإلى قولها رجع فقهاء الصحابة كأبي بكر وعمر وابنه عبدالله وأبي هريرة وعبدالله بن عبّاس وعبدالله بن الزبيّر وجابر بن عبدالله وغيرهم(٢).

روي لها عن النبيّ ﷺ ١٢١٠ حديثاً، اتّفق البخاري ومسلم منها على ١٧٤ حديثاً، وانفرد البخاري بـ ٥٤، ومسلم بـ ٦٨، فلم يرو عن النبيّ امرأة أكثر منها.

وروى عنها الحديث كثير من الصحابة منهم: أبوها أبو بكر وعمر بن الخطاب وابنه عبدالله وأبو هريرة وأبو موسى الأشعري وعبدالله بن عباس وعمرو بن العاص وغيرهم.

وحمل عنها من الفقه ما لم يحمل عن أحد سواها.

ومن أخصّ مناقبها ما علم من حبّ رسول الله ﷺ لها، وشاع من تخصيصها عنده، ونزول القرآن في عذرها وبراءتها والتنويه بقدرها، وما نزل بها أمر تكرهه إلاّ جعل الله فيه للمؤمنين فرجاً ومخرجاً كما في نزول آية التيمّم عند انحباس الناس عن السفر بسببها لالتماس عقدها حين

(١) مقدمة محقّق كتاب الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٥ ـ ٦.
(٢) انظر: الباب الثاني من كتاب الإجابة في استدراكها على أعلام الصحابة.

ضاع، حتى قال لها أسيد بن حضير: ما هي بأوّل بركتكم يا آل أبي بكر، ووفاة رسول الله بين سحرها ونحرها، ونزول الوحي في بيتها وهو في لحافها، وغير ذلك من بركتها.

*** شهادة الرسول لها بالفضل:**

فعن أبي موسى الأشعري أنّ رسول الله ﷺ قال: «**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[١].

وقوله ﷺ: «**يا عائشة، هذا جبريل يقرأ عليك السلام**»، فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد النبيّ ﷺ[٢].

*** شهادة الصحابة لها بالعلم بالفضل:**

عن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه أنّه قال: لو كانت امرأة تكون خليفة لكانت عائشة خليفة.

وقال أبو موسى الأشعري: ما أشكل على أصحاب رسول الله ﷺ شيء فسألنا عنه عائشة إلاّ وجدنا عندها منه علماً[٣].

*** شهادة التابعين لها بسعة المعرفة وغزارة العلم وفصاحة اللسان:**

قال ابن شهاب الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل.

وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس وأحسن الناس وأعلم الناس رأيا في العامّة.

وقال عروة بن الزبيّر - ابن أخت عائشة -: كانت عائشة أعلم الناس

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء والمناقب والأطعمة، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق والاستئذان، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وقال: حديث حسن صحيح.

بالحديث، وأعلم الناس بالقرآن، وأعلم الناس بالشعر، وقال: ما جالست أحداً قطّ كان أعلم بقضاء، ولا بحديث بالجاهليّة، ولا أروى للشعر، ولا أعلم بفريضة، ولا طبّ من عائشة، وقال أيضاً: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطبّ ولا بشعر من عائشة، وقال كذلك: ما كان ينزل بها شيء إلاّ أنشدت فيه شعرا.

وعن موسى بن طلحة قال: ما رأيت أحداً أفصح من عائشة[1].

ومن فصاحتها رضي الله عنها ما رواه محمد بن سيرين عن الأحنف بن قيس قال: سمعت خطبة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب والخلفاء كلّهم هلمّ جرّا إلى يومي هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من عائشة» أخرجه الحاكم في مستدركه، ومن فصاحتها ما روي أنّه لمّا توفيّ الصدّيق رضي الله عنه، وقفت عائشة على قبره فقالت: نضّر الله وجهك يا أبت وشكر لك صالح سعيك، فلقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها، وللآخرة معزّا بإقبالك عليها، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله رزوّك، وأعظم المصائب بعده فقدك، إنّ كتاب الله ليعد بحسن الصبر عنك حسن العوض منك، وأنا أستنجز موعود الله فيك بالصبر، وأستقضيه بالاستغفار لك، أمّا لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا، لقد قمت بأمر الدين لمّا وهى شعبه وتفاقم صدعه ورجفت جوانبه، فعليك سلام الله توديع غير قالية لحياتك ولا رازية على القضاء فيك[2].

توفيت رضي الله عنها ليلة ١٧ رمضان من سنة ٥٨هـ كما أثبته الأكثر، وقيل ٥٧هـ، وأوصت أن تدفن ليلاً، فدفنت بعد الوتر بالبقيع وصلّى عليها أبو هريرة، ونزل قبرها عبدالله وعروة ابنا الزبير، والقاسم وعبدالله ابنا محمد بن أبي بكر، وعبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٥٠.

* أبو هريرة[١]:

اختلف في اسمه واسم أبيه على أكثر من ثلاثين قولاً والأشهر أنّ اسمه عبدالرحمٰن بن صخر الدوسي.

لزم أبو هريرة رسول الله ﷺ بعد إسلامه، فلم يفارقه في حضر ولا سفر ـ ولم يفارقه إلاّ حين بعثه مع العلاء بن الحضرمي إلى البحرين ـ، فكان أحرص شيء على سماع الحديث منه وتفقّه عنه، وكان يلزمه على شبع بطنه، فروى عن رسول الله الكثير الطيّب وكان من حفّاظ الصحابة، بل كان أحفظ أصحاب الرسول ﷺ وأحفظ من روى الحديث في دهره، وأكثرهم رواية على الإطلاق، حيث بلغ عدد ما روى ٥٣٧٤ حديثاً، اتّفق البخاري ومسلم منها على ٣٢٥ حديثاً، وانفرد البخاري بـ ٩٣ حديثاً، في حين انفرد مسلم بـ ١٨٩ حديثاً.

روى عنه أكثر من ثمانمائة رجل من أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم، فممّن روى عنه من الصحابة عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع.

وقد كان من الصدق والديانة والعبادة والزهادة والحفظ والعمل الصالح على جانب عظيم، كثير الذكر والتسبيح حسن الأخلاق، له فضائل ومناقب كثيرة وكلام حسن ومواعظ جمّة.

غير أنّ فئة من الناس ممّن لا وازع لهم من خلق أو دين، من أرباب الأهواء المبتدعين ممّن لم يذوقوا للعلم طعما، ولم يعرفوا للإسلام قدراً، قد تحاملوا على هذا الصحابي الجليل وحرصوا على التشكيك في صدقه وزهده وورعه وطعنوا في حفظه وقوّة ذاكرته بكذب واضح وتحريف لبعض الحقائق في تاريخ حياة هذا الصحابي، ممّا لا يستند إلى بحث

---

(١) الاستيعاب ٢٠٢/٤ ـ ٢١٠، الإصابة ٢٠٤/٤ ـ ٢١٠، إسعاف المبطأ ص ٤٦، البداية والنهاية ١٠٣/٨ ـ ١١٤، شذرات الذهب ١١٣/١، مرآة الجنان ١٦٢/١، إعلام الموقعين ٢٣/١.

تاريخي ولا سند علمي، وإنّما اعتمادهم في ذلك إمّا على روايات مكذوبة أو ضعيفة وإمّا على تأويلات باطلة خسيسة فجاءوا بمزاعم باطلة وأقوال زور تافهة يريدون بها هدم ركن شامخ من أركان الدين وقسط وافر من سنّة سيّد المرسلين بالطعن في ما رواه أبو هريرة راوية الإسلام الأوّل، وأكثرهم أحاديث عن رسول ربّ العالمين.

ومن لطف الله تعالى أن هيّأ لأمثال هؤلاء المشكّكين المأجورين من أدعياء العلم التافهين، جنوداً من عباده المؤمنين يذودون عن أصحاب رسول الله ﷺ، ويزيحون الستار عن خبث النفوس، ويردّون كيد الكائدين[1].

ومن مناقبه أنّ الرسول الأكرم ﷺ دعا له ولأمّه فقال: «**اللّهمّ حبّب عبيدك هذا** - يعني أبا هريرة - **وأمّه إلى عبادك المؤمنين، وحبّب إليهم المؤمنين**»[2].

*** شهادة الرسول له بالحفظ والحرص على العلم:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أَحَدٌ أوّل منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلاّ الله خالصا من قلبه أو من نفسه**»[3].

وعن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال: «**من يبسط رداءه حتى أقضي**

---

(١) انظر: الفصل السابع من كتاب السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي للمرحوم الدكتور مصطفى السباعي، وفيه يردّ على ما نسج حول أبي هريرة من افتراءات، وانظر كذلك كتاب الحديث والمحدثون للدكتور محمد محمد أبو زهو ص ١٥٣ - ١٧٢ حول أبي هريرة وما قيل فيه، حيث يذكر بعض الطعون والجواب عنها بإيجاز.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم وكتاب الرقاق.

مقالتي ثمّ يقبضه إليه فلن ينسى شيئاً سمعه منّي، وبسطت بردة عليّ حتى قضى حديثه ثمّ قبضها إليّ فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئاً بعد أن سمعته منه[١].

وروي أنّ زيد بن ثابت قال: بينما أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد ندعو الله ونذكره إذ خرج علينا رسول الله ﷺ حتى جلس إلينا فسكتنا، فقال: عودوا للذي كنتم فيه، قال زيد: فدعوت أنا وصاحبي فجعل رسول الله ﷺ يؤمّن على دعائنا، ثمّ دعا أبو هريرة فقال: «**اللّهمّ إنّي أسألك ما سألك صاحباي وأسألك علماً لا ينسى**»، فقال رسول الله ﷺ: «**آمين**»، فقلنا: يا رسول الله: ونحن نسأل الله تعالى علماً لا ينسى، فقال: «**سبقكم بها الغلام الدوسي**»[٢].

*** شهادة الصحابة له بالحفظ والعلم:**

قال طلحة بن عبيدالله ـ أحد العشرة المبشّرين بالجنّة ـ: لا أشكّ أنّ أبا هريرة سمع من رسول الله ما لم نسمع[٣].

وعن عبدالله بن عمر أنّه قال لأبي هريرة: يا أبا هريرة أنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه[٤]، وفي رواية: وأعلمنا لحديثه[٥]، وقال أيضاً: أبو هريرة خير منّي وأعلم بما يحدّث.

وروي أنّ رجلاً جاء إلى زيد بن ثابت يسأله، فقال له زيد: عليك بأبي هريرة.

ولمّا توفّي أبو هريرة مشى عبدالله بن عمر أمام جنازته وكان يترحّم عليه ويكثر من ذلك ويقول: كان ممّن يحفظ حديث رسول الله ﷺ على المسلمين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، وأحمد في مسنده واللفظ له.
(٢) أخرجه النسائي في سننه، باب العلم، بسند جيّد.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب.
(٥) أخرجه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة.

*** شهادة التابعين له بالرواية والحفظ:**

كان سعيد بن المسيّب ـ صهر أبي هريرة، زوّجه أبو هريرة ابنته ـ إذا رأى أبا هريرة قال: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنّة، ولهذا أكثر عنه من الرواية.

وقال أبو الزعيزعة ـ كاتب مروان بن الحكم أمير المدينة على عهد معاوية بن أبي سفيان ـ أرسل مروان إلى أبي هريرة فجعل يحدّثه، وكان أجلسني خلف السرير أكتب ما يحدّث به حتّى إذا كان في رأس الحول أرسل إليه فسأله وأمرني أن أنظر، فما زاد ولا نقص، ولا غيّر حرفاً عن حرف.

توفّي على المشهور من الأقوال سنة ٥٩هـ وقيل سنة ٥٨هـ وقيل سنة ٥٧هـ.

*** أبو سعيد الخدري(١):**

هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري من نجباء الصحابة وفضلائهم وعلمائهم، ومن أعيان الصحابة وفقهائهم الذين كانوا يفتون بالمدينة ويحدّثون عن رسول الله ﷺ منذ توفّي عثمان بن عفان إلى أن توفّوا.

من الحفّاظ المكثرين العقلاء، حفظ عن النبيّ سننا كثيرة وعلماً جمًّا، فهو أحد السبعة المكثرين من رواية الحديث الذين جاوزوا الألف، فعدد ما رواه ١١٧٠ حديثاً، اتفق الشيخان منها على ٤٦ حديثاً، وانفرد البخاري بـ ١٦ حديثاً، ومسلم بـ ٥٢ حديثاً.

ولبعضهم:

سبع من الصحب فوق الألف قد نقلوا ... من الحديث عن المختار خير مضر
أبو هريرة سعد جابر أنس ... صدّيقة وابن عبّاس كذا ابن عمر

---

(١) البداية والنهاية ٩/٣ ـ ٤، إسعاف المبطأ ص ٤٤، شذرات الذهب ١/١٤٩، مرآة الجنان ١/١٨٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥١، الاستيعاب ٤/٨٩، الإصابة ٢/٣٥.

روى عن الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت وغيرهم، وروى عنه من الصحابة عبدالله بن عبّاس وعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله ومحمود بن لبيد وأبو أمامة بن سهل وأبو الطفيل.

لم يكن أحد من أحداث أصحاب رسول الله ﷺ أفقه من أبي سعيد الخدري.

له مشاهد محمودة، وهو ممّن بايع رسول الله ﷺ على الموت يوم الحديبية، ومن الذين بايعوه على أن لا تأخذهم في الله لومة لائم، وهو الذي روى عن النبيّ ﷺ: **«لا يمنعنّ أحدكم مخافة الناس أن يقول بالحقّ إذا شهده أو علمه»، قال أبو سعيد: فحملني على ذلك أنّي ركبت إلى معاوية فملأت أذنيه ثمّ رجعت**[1].

توفي سنة ٧٤هـ وقيل قبل ذلك.

هؤلاء الستّة من الصحابة هم سادة المفتين وأئمّة الفقه الذين صارت إليهم الفتوى بالمدينة في هذا الدور وعليهم دار علم أهل المدينة، وعلى أيديهم تخرّج الفوج الأوّل من نجباء وفضلاء التابعين المدنييّن.

وقد عُدّ من فضلاء التابعين وأعلامهم من أهل المدينة مائة وسبعون، اشتهر منهم ثلّة من الفقهاء خصّوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، أشهرهم:

الفقهاء السبعة، وسمّوا بذلك لأنّهم كانوا بالمدينة في عصر واحد وعنهم انتشر العلم والفتيا، أو لأنّ الفتوى بعد الصحابة صارت إليهم وشهروا بها.

وقد جمعهم بعض العلماء في بيتين، فقال[2]:

ألا كلّ من لا يقتدي بأئمّة فقسمته ضيزى عن الحقّ خارجة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده.

(٢) مرآة الجنان ٢١٧/١، مخلوف: شجرة النور الزكيّة ص ٢٠، البداية والنهاية ١١٦/٩.

وخـذهـم عـبـيـد الله عـروة قـاسـم   سـعـيـد أبـو بـكـر سـلـيـمـان خـارجـة

وقال غيره[١]:

إذا قيل من في العلم سبعة أبحر   روايتهم ليست عن العلم خارجه
فقل هم: عبيد الله عروة قاسم   سعيد أبو بكر سليمان خارجه

ونظّم عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود شعرا في امرأة من هذيل، ذكر فيه أقرانه من الفقهاء الستّة، وهو سابعهم، فقال[٢]:

أحبّك حبّا لا يحبّك مثله   قريب ولا في العاشقين بعيد
وحبّك يا أمّ الصبيّ مدلّهي   شهيدي أبو بكر فنعم شهيد
ويعرف وجدي قاسم بن محمّد   وعروة ما ألقى بكم وسعيد
ويعلم ما أخفي سليمان علمه   وخارجة يبدي بنا ويعيد
متى تسألي عمّا أقول تخبّري   فللّه عندي طارف وتليد

وروي عن أبي الزناد عن أبيه قال: أدركت من فقهائنا الذين ينتهى إلى قولهم: سعيد بن المسيّب وعروة بن الزبيّر والقاسم بن محمد وأبو بكر بن عبدالرحمٰن وخارجة بن زيد وعبيدالله بن عبدالله وسليمان بن يسار، هم أهل فقه وصلاح وفضل.

وقال الحاكم النيسابوري: فأمّا الفقهاء السبعة من أهل المدينة فسعيد بن المسيّب والقاسم بن محمد بن أبي بكر وعروة بن الزبيّر وخارجة بن زيد بن ثابت وأبو سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وسليمان بن يسار، فهؤلاء الفقهاء السبعة عند الأكثر من علماء الحجاز[٣].

---

(١) إعلام الموقعين ٢٣/١.
(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦١، شذرات الذهب ٢٠٧/١.
(٣) معرفة علوم الحديث ص ٤٣.

فذكر أبا سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف بدل أبي بكر بن عبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام، ورأى أنّ ذلك هو قول الأكثر، ورام هذا القول صاحب شجرة النور الزكيّة[١].

وقد ذكر سالم بن عبدالله أيضاً في الفقهاء السبعة بدلاً عن أبي بكر بن عبدالرحمٰن، وأبي سلمة بن عبدالرحمٰن[٢] فكان عبدالله بن المبارك يقول: فقهاء المدينة سبعة، فذكر فيهم سالم بن عبدالله بن عمر ابن الخطاب، ولم يذكر أبا بكر بن عبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام، ولا أبا سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف[٣].

والخلاصة أنّ هؤلاء التسعة هم من أكابر التابعين من أهل المدينة الذين منهم الفقهاء السبعة، مع خلاف في تحديد أسماء الفقهاء السبعة منهم، فرأى الحافظ النيسابوري أنّ ما ذكره هو رأي الأكثر من علماء الحجاز، غير أنّ عبدالله بن المبارك جعل سالم بن عبدالله بدل أبي سلمة، وجعل أبو الزناد بدلهما أبا بكر ابن عبدالرحمٰن[٤].

وعن يحيى بن سعيد القطّان أنّه قال: فقهاء المدينة عشرة، فلم يذكر أبا بكر بن عبدالرحمٰن وذكر أبان بن عثمان، وقبيصة بن ذؤيب[٥].

وذكر ابن قيّم الجوزيّة المفتين من التابعين بالمدينة فذكر إضافة إلى التسعة المتقدّمين: أبان بن عثمان ابن عفّان ونافع مولى ابن عمر وعلي بن الحسين بن أبي طالب[٦].

---

(١) مخلوف: شجرة النور الزكية ص ٢٠.
(٢) معرفة علوم الحديث ص ٤٣.
(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦١.
(٤) معرفة علوم الحديث ص ٤٣، مقدمة ابن الصلاح ص ١٥٢، السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ص ٢/٢٤٠.
(٥) البداية والنهاية ٩/٢٣٤.
(٦) إعلام الموقعين ١/٢٣.

وإذا أضفنا إلى هؤلاء: سيّدة التابعيّات عمرة بنت عبدالرحمٰن[١]، والحسن بن محمد بن الحنفيّة وباقر العلوم أبا جعفر محمد بن علي[٢] أصبح عددهم ستّة عشر، فلنلو عنان القلم، ولنذكر نبذة من أنوار حياتهم تنير درب كلّ من أراد أن يجمع من حياة الأفذاذ والأبطال بعض الحكم.

*** ١ *: سعيد بن المسيّب[٣]:**

هو سعيد بن المسيّب بن حزن المخزومي (٩٣هـ) المقدّم في فقهاء المدينة السبعة، المجمع على جلالته وديانته وأمانته، أفضل التابعين وسيد فقهائهم، ليس في التابعين أنبل منه.

كان أعلم أهل المدينة بقضايا رسول الله ﷺ وقضايا أبي بكر وقضايا عمر وقضايا عثمان وأعلمهم بما مضى عليه الناس.

وكان يقال: ليس أحد أعلم بكلّ ما قضى به عمر وعثمان من سعيد بن المسيّب، وقال هو عن نفسه: ما بقي أحد أعلم بكلّ قضاء قضاه رسول الله ﷺ، وكلّ قضاء قضاه أبو بكر، وكلّ قضاء قضاه عمر، وكلّ قضاء قضاه عثمان منّي، جمع بين الحديث والتفسير والفقه والورع، وكان يقال له راوية عمر وحامل علمه.

كان سعيد صهر أبي هريرة، زوّجه أبو هريرة ابنته، ولهذا أكثر عنه من الرواية، فكانت جلّ روايته المسند عن أبي هريرة، وكان أثبت التابعين في أبي هريرة.

---

(١) تدريب الراوي ٢/٢٤٢.

(٢) أبناء عليّ بن الحسين زين العابدين ستّة منهم حدّثوا وهم: محمد وعبدالله وزيد وعمر وحسين وفاطمة، وليس فيهم تابعي غير محمد هذا (معرفة علوم الحديث ص ٤٧).

(٣) مرآة الجنان ١/٢١٤ ـ ٢١٥، تدريب الراوي ٢/٢٤٠، مقدمة ابن الصلاح ص ١٥٢، إسعاف المبطأ ص ١٧، البداية والنهاية ٩/١٠٠، إعلام الموقعين ١/٢٢ ـ ٢٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص٥٧ ـ ٥٨، شذرات الذهب ١/١٩١ ـ ١٩٢، البداية والنهاية ٩/٩٩ ـ ١٠١.

أخذ سعيد علمه عن زيد بن ثابت وجالس عبدالله بن عبّاس وعبدالله بن عمر وسعد بن أبي وقّاص، ودخل على أزواج النبيّ ﷺ: عائشة وأمّ سلمة، وأخذا عنهما، وسمع عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب وصهيبا ومحمد بن مسلمة.

وروى الحديث عن عن أبيه وعن عمر بن الخطاب واختلف في سماعه منه، كما روى عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي موسى الأشعري وعن جماعة من الصحابة وحدّث عن جماعة من التابعين.

وقد وفّق الله الدكتور هاشم جميل إلى إخراج مصنّف قيّم في أربعة مجلّدات بعنوان «فقه سعيد بن المسيّب» استطاع أن يجمع فيه فقهه وآراءه ويقوم فيه بدراسة حياته وعصره.

*** من مناقب ابن المسيّب:**

كان سعيد يتّجر في الزيت، وكان من أورع الناس فيما يدخل بيته وبطنه، وكان من أزهد الناس في فضول الدنيا والكلام فيما لا يعني، ومن أكثر الناس أدباً في الحديث.

وروي عنه أنّه قال: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت إلى قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة ـ لمحافظته على الصفّ الأوّل.

ومن محاسنه وتواضعه وزهادته في الدنيا ومحبّته للفقراء أنّ عبدالملك بن مروان خطب ابنة سعيد لابنه ووليّ عهده الوليد بن عبدالملك، وكانت من أحسن نساء عصرها وأكثرهم أدبا وأعلمهم بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، فأبى سعيد أن يزوّجه بها، وزوّجها على درهمين لكثير بن أبي وداعة وهو أحد الفقراء المشتغلين على سعيد بالعلم، فاحتال عليه عبدالملك حتى ضربه بالسياط، ولمّا جاءت بيعة الوليد إلى المدينة في أيّام عبدالملك ضربه نائبه على المدينة هشام بن إسماعيل وأطافه المدينة فرأته امرأة وهو على تلك الحال فقالت: ما هذا الخزي يا سعيد؟

فقال لها من الخزي فررنا إلى ما ترين، ومناقبه ومآثره أكثر من أن تحصر.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

كان يقول: ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت أنفسها إلاّ بمعصية الله، وقوله: من استغنى بالله افتقر الناس إليه، وقوله: الدنيا نذلة وهي إلى كلّ نذل أميل، وأنذل منها من أخذها من غير وجهها ووضعها في غير سبيلها، ويقول: ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلاّ وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، وقوله: ما يئس الشيطان من شيء إلاّ أتاه من قبل النساء.

*** شهادة الصحابة والتابعين وتابعيهم له بالعلم والفضل:**

قال عبدالله بن عمر لرجل سأله عن مسألة: ائت ذاك ـ يعني سعيد بن المسيّب ـ فاسأله ثمّ ارجع إليّ وأخبرني، ففعل ذلك وأخبره، فقال ابن عمر: ألم أخبرك أنّه أحد العلماء؟.

ومرّ سعيد بن المسيّب بعبدالله بن عمر فسلّم عليه ومضى، فالتفت ابن عمر إلى أصحابه وقال: لو رأى رسول الله ﷺ هذا لسرّه، وكان يقول: سعيد أحد المتقنين.

وكان ابن عمر يرسل إلى سعيد بن المسيّب يسأله عن قضايا عمر وأحكامه.

وقال القاسم بن محمد ـ أحد الفقهاء السبعة ـ : هو سيّدنا وأعلمنا.

وقال زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنه: سعيد بن المسيّب أعلم الناس بما تقدّمه من الآثار وأفضلهم في رأيه.

وقال ابن شهاب الزهري: جالسته سبع حجج وأنا لا أظنّ عند أحد علماً غيره.

وقال مكحول وقتادة والزهري وغيرهم: ما رأينا أعلم من ابن المسيّب.

وسئل ابن شهاب الزهري ومكحول من أفقه من لقيتما؟ فقالا: سعيد بن المسيّب.

وقال مكحول: طفت الأرض في طلب العلم، فما لقيت أعلم من سعيد بن المسيّب.

وقال قتادة: ما جمعت علم الحسن إلى علم أحد من العلماء إلاّ وجدت له عليه فضلاً، غير أنّه إذا أشكل عليه شيء كتب إلى سعيد بن المسيّب يسأله.

وعن قتادة أيضاً أنّه قال: ما رأيت أحداً قطّ أعلم بالحلال والحرام من سعيد.

وقال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع منه علماً، وإذا قال سعيد مضت السنّة فحسبك به، وهو عندي أجلّ التابعين.

وكانت وفاته بالمدينة سنة ٩٤هـ على أحد الأقوال، وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء لكثرة من مات فيها منهم.

*** ٢ *: عروة بن الزبير[(١)]:**

هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي (٩٤هـ) من سادات التابعين وأعلامهم وصالحيهم، وكان من فقهاء المدينة المعدودين، كثير الحديث حافظاً للعلم حجّة، جامعاً بين السيادة والعلم والعبادة، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه، وكان أروى الناس للشعر، عالماً بالسير، وهو أوّل من صنّف المغازي، وقد نشره الأعظمي سنة ١٤٠١هـ.

روى عن أبيه الزبير بن العوام ـ أحد العشرة الذين شهد لهم الرسول بالجنّة ـ وعن أمّه أسماء بنت أبي بكر ـ ذات النطاقين ـ وعن أخيه عبدالله

---

(١) شجرة النور الزكية ص ٢٠، مرآة الجنان ٢١٦/١ ـ ٢١٨، البداية والنهاية ١٠١/٩ ـ ١٠٣، شذرات الذهب ١٩٢/١ ـ ١٩٣، إسعاف المبطأ ص ٢٩، إعلام الموقعين ٢٢/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥٨ ـ ٦٠.

وعن عليّ بن أبي طالب وابنيه الحسن والحسين وعن زيد بن ثابت وسعيد بن زيد والمغيرة بن شعبة وأبي هريرة وأمّ سلمة وغيرهم من الصحابة.

وكان من الآخذين عن خالته عائشة الذين لا يكادون يتجاوزون قولها المتفقّهين بها، وكان يقول هو عن نفسه: لقد رأيتني قبل أن تموت عائشة بأربع سنين وأنا أقول: لو ماتت عائشة لما ندمت على شيء إلاّ كنت سألتها عنه، فكان بحرصه ذاك أعلم الناس بحديثها، وفي ذلك يقول قبيصة بن ذؤيب: كان عروة بن الزبير يغلبنا بدخوله على عائشة، ولذلك تبوّأ عروة المكانة السامية بين أقرانه واشتهر بالعلم والفتوى وأصبح من الذين ينتهى إلى قولهم، ومن جملة الفقهاء العشرة الذين كان عمر بن عبدالعزيز يرجع إليهم في زمن ولايته على المدينة.

*** من مناقب عروة:**

كان عروة صوّاما قوّاما حتى روي أنّه مات وهو صائم، وكان يقرأ كلّ يوم ربع القرآن ويقوم به في الليل، وممّا اشتهر عنه أنّه كان أيّام الرطب يفتح منفذا في بستانه للناس فيدخلون ويأكلون، فإذا ذهب الرطب أغلق المنفذ، وكان كلّما دخل بستانه ردّد قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[1] حتى يخرج منه.

وممّا يروى في صبره على كوارث الزمان أنّه أصيب في رجله ـ وهو في سفر صحبة ابنه محمد أحبّ أولاده إليه ـ فأشاروا عليه بقطعها، فقال لهم: إن كان ولا بدّ فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة، فإنّي لا أحسّ بذلك ولا أشعر به، فلمّا تهيّأ للصلاة وكبّر قطعوا رجله فما تحرّك ولا اختلج، فلمّا أتمّ صلاته رفع يديه بالدعاء قائلاً: اللّهمّ إنّك تعلم أنّي لم أمش بها إلى سوء قطّ، اللّهمّ لك الحمد، كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً فلئن كنت أخذت فقد أبقيت، وإن كنت قد أبليت فلطالما عافيت، فلك الحمد

(١) سورة الكهف ـ من الآية ـ ٣٩.

على ما أخذت وعلى ما عافيت، فلمّا قام من موضعه أخبروه أنّ فرسا رفست ابنه محمد فمات، فرفع عروة يديه بالدعاء وقال: الحمد لله كانوا سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستّة - وفي رواية كان لي بنون أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة - فلئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت، ولمّا قضى حاجته من سفره رجع إلى المدينة، وما سمع أنّه ذكر رجله ولا ولده، ولا شكا ذلك إلى أحد حتى وصل المكان الذي أصيبت فيه رجله فتلا قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾(١) فلمّا دخل المدينة المنوّرة أتاه الناس يسلّمون عليه ويعزّونه في رجله وولده.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

رأى عروة رجلاً يصلّي صلاة خفيفة، فقال له: يا أخي أما كانت لك إلى ربّك حاجة في صلاتك؟ إنّي لأسأل الله في صلاتي حتى أسأله الملح.

وكان يقول: ربّ كلمة ذلّ احتملتها أورثتني عزًّا طويلاً، وكان يقول لبنيه: إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة فاعلموا أنّ لها عنده أخوات، وإذا رأيتم الرجل يعمل السيّئة فاعلموا أنّ لها عنده أخوات، فإنّ الحسنة تدلّ على أختها والسيّئة تدلّ على أختها.

*** شهادة أقرانه من التابعين وتابعيهم له بالفقه وسعة العلم:**

قال أبو بكر بن عبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام - أحد فقهاء المدينة المعدودين -: العلم لواحد من ثلاثة، لذي حسب يزيّنه، أو لذي دين يسوس به دينه، أو مختلط بسلطان يتحفه بعلمه، - وفي رواية - ويتخلّص منه بالعلم فلا يقع في هلكة - ولا أعلم أحداً أشرط لهذه الخلال من عروة بن الزبير وعمر بن عبدالعزيز، كلاهما حسيب ديّن من السلطان بإزاء.

وقال عمر بن عبدالعزيز: ما أحد أعلم من عروة بن الزبير، ولذلك

(١) سورة الكهف - من الآية ٦٢.

كان عمر يرجع إليه في زمن ولايته على المدينة[١].

وقال ابن شهاب الزهري: عروة بحر لا تكدّره الدلاء، وقال: رأيت عـروة بحرا لا ينزف.

وقال عراك بن مالك: عروة بن الزبيّر أغزر أهل المدينة حديثاً.

وكان عبدالملك بن مروان الأموي يقول: من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنّة فلينظر إلى عروة بن الزبيّر.

عاش عروة بعد قطع رجله ثماني سنين، وكانت وفاته على أشهر الأقوال في سنة الفقهاء التي هي سنة ٩٤.

*** ٣ *: أبو بكر بن عبدالرحمٰن[٢]:**

هو أبو بكر بن عبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي (٩٤هـ) والمشهور أنّ اسمه وكنيته واحد، وأبوه الحارث من الصحابة، وهو أخو أبي جهل لأمّه.

كان من فقهاء المدينة المعدودين وأحد أئمّة المسلمين في عصره.

كان من الثقة والأمانة والفقه وصحّة الرواية على جانب عظيم، وكان يلقّب براهب قريش لعبادته وفضله، ولكثرة صلاته وصيامه.

روى عن أبيه وأبي مسعود الأنصاري وأبي هريرة وعائشة وأمّ سلمة،

---

(١) كان عمر بن العزيز في زمن ولايته على المدينة لا يقضي في أمر ولا يقطع برأي حتى يرجع بالنظر إلى عشرة من فقهاء المدينة في عصره اختصّهم بالفتوى لما عرفوا به من الفضل والصلاح وهم: عروة بن الزبيّر وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود وأبو بكر بن عبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد وسالم بن عبدالله بن عمر وأخوه عبيدالله بن عبدالله بن عمر وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة وعبدالله بن عامر بن ربيعة (انظر: البداية والنهاية ٧١/٩ و١٠٢).

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥٩، إسعاف المبطأ ص ٤٣، البداية والنهاية ١١٥/٩ ـ ١١٦، شذرات الذهب ١٩٣/١، مرآة الجنان ٢١٨/١.

وروى أيضاً عن عمّار بن ياسر وأسماء بنت أبي بكر وغيرهم.

والصحيح أنّه توفي في سنة الفقهاء التي هي سنة ٩٤هـ، وقيل في التي قبلها، وقيل في التي بعدها.

*** ٤ *: أبو سلمة بن عبدالرحمٰن[١]:**

هو أبو سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف الزهري، قيل اسمه عبدالله وقيل اسمه إسماعيل، وقيل اسمه كنيته.

وهو أحد فقهاء المدينة وأحد الأئمّة الكبار ومن أعيان التابعين وفقهائهم وساداتهم.

كان واسع العلم، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة، وعدّ من المشهورين بالرواية عن أبي هريرة.

روى عن أبيه عبدالرحمٰن بن عوف ـ أحد العشرة الذين شهد لهم الرسول بالجنّة ـ وروى عن عثمان بن عفّان وجابر بن عبدالله وعبدالله بن عمر وعائشة وأمّ سلمة وغيرهم.

قال الشعبي: قدم أبو سلمة الكوفة وكان يمشي بيني وبين رجل، فسئل: من أعلم من بقي؟ فتمنّع وتزجّر ساعة، ثمّ قال: رجل بينكما.

وقال ابن شهاب الزهري: أربعة وجدتهم بحورا: سعيد بن المسيّب وعروة بن الزبيّر وأبو سلمة بن عبدالرحمٰن وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود.

توفّي بالمدينة في سنة الفقهاء التي هي سنة ٩٤هـ وقيل بعد ذلك.

---

(١) إسعاف المبطأ ص ٤٥، شذرات الذهب ١٩٥/١، مرآة الجنان ٢٢٠/١، شجرة النور الزكيّة ٢٠، البداية والنهاية ١١٦/٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦١.

*** ٥ *: علي بن الحسين بن علي[1]:**

هو علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب القرشي الهاشمي (٩٤هـ) الإمام الرابع من أئمّة الشيعة الإماميّة، الملقّب بزين العابدين لكثرة عبادته، أروع الناس وأعبدهم وأتقاهم للّه عزّ وجلّ.

روى الحديث عن أبيه الحسين وعمّه الحسن سيّديْ شباب أهل الجنّة، وعن جابر بن عبدالله وابن عبّاس والمسور بن مخرمة وأبي هريرة وصفيّة وعائشة وأمّ سلمة أمّهات المؤمنين وكثير من الصحابة.

*** من مناقب علي بن الحسين:**

كان علي بن الحسين عالياً رفيعاً ورعاً، وكان ورده في اليوم والليلة ألف ركعة إلى أن مات ومناقبه ومحاسنه كثيرة شهيرة، نقتصر منها على نبذة يسيرة.

روي أنّه كان كثير البرّ بأمّه، حتى قيل له: إنّا نراك من أبرّ الناس بأمّك، ولسنا نراك تأكل معها في صحفة، فقال: أخشى أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه.

وروي أنّه كان إذا توضّأ اصفرّ لونه، وإذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له: ما لك؟ فقال: ما تدرون بين يدي من أقوم؟.

ووقع حريق في بيت هو فيه، وهو ساجد وجعلوا يقولون يا ابن رسول الله، النار فما رفع رأسه، فقيل له في ذلك، فقال: ألهتني عنها النار الأخرى.

وروي أنّه تكلّم رجل فيه وافترى عليه، فقال له زين العابدين: إن كنت كما قلت فأستغفر الله، وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك، فقام إليه الرجل وقبّل رأسه، وقال: جعلت فداك لست كما قلت فاغفر لي، فقال:

---

(١) شذرات الذهب ١٩٤/١، مرآة الجنان ٢١٨/١ ـ ٢٢٠، البداية والنهاية ١٠٣/٩ ـ ١١٥، إسعاف المبطأ ص ٣٠، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٣.

غفر الله لك، فقال الرجل: «الله أعلم حيث يجعل رسالاته».

ولمّا حجّ أراد أن يلبّي فارتعد وقال: أخشى أن أقول لبّيك اللّهمّ لبّيك، فيقال لي: لا لبّيك، فشجّعه من كان معه على التلبية، فلمّا لبّى غشي عليه حتى سقط عن الراحلة.

وكان يعول مائة أهل بيت بالمدينة لا يدرون من يعطيهم، فلمّا مات عليّ بن الحسين فقدوا ذلك، فعرفوا أنّه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به، فكان أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السرّ حتى مات عليّ بن الحسين، ولمّا مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين من فقراء أهل المدينة.

وخرج يوماً من المسجد فسبّه رجل فانتدب الناس إليه، فقال: دعوه، ثمّ أقبل عليه فقال: ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحي الرجل، فألقى إليه خميصة كانت عليه وأمر له بمال، فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول: إنّك من أولاد الأنبياء، وكان إذا ناول المسكين الصدقة قبّله ثمّ ناوله.

وروي أنّ جارية له سكبت عليه ماء ليتوضأ فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجّه، فرفع رأسه إليها، فقالت: إنّ الله يقول ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، فقال: قد كظمت، قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ فقال: عفا الله عنك، فقالت ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] قال: أنت حرّة لوجه الله تعالى.

وروي أنّه كان جالسا في جماعة فسمع داعية في بيته فنهض فدخل منزله ثمّ رجع إلى مجلسه، فقيل له: أمن حدث كانت الداعية؟ قال: نعم، فعزّوه وتعجّبوا من صبره، فقال: إنّا أهل بيت نطيع الله عزّ وجلّ فيما نحبّه، ونحمده على ما نكره.

ولمّا حجّ هشام بن عبدالملك في أيّام أبيه، طاف بالبيت وجهد أن

(١) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.

يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه، فلم يقدر عليه لكثرة الزحام، فنصب له منبر جلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أعيان أهل الشام، وبينما هو كذلك إذ أقبل عليّ بن الحسين، وكان أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً وأشرفهم ذاتاً وطبعاً وأصلاً وفرعاً، فطاف بالبيت فلمّا دنا من الحجر ليستلمه تنحّى عنه الناس إجلالاً له وهيبة واحتراماً، فقال رجل من أهل الشام: من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام: لا أعرفه ـ مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ـ وكان الفرزدق حاضراً فقال: أنا أعرفه، فقال الشاميّ: من هذا يا أبا فراس؟ فأنشأ الفرزدق قصيدة في أكثر من عشرين بيتاً مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلّهم ... هذا التقيّ النقيّ الطاهر العلم

فغضب هشام بن عبدالملك من ذلك وأمر بحبس الفرزدق، فأنفذ له علي بن الحسين مالاً، فلم يقبله الفرزدق وقال: إنّما قلت ما قلت للّه عزّ وجلّ ونصرة للحقّ وقياماً بحقّ رسول الله ﷺ في ذرّيته، فأرسل إليه علي بن الحسين يقول: قد علم الله صدق نيّتك في ذلك، وأقسمت عليك بالله لتقبلنّه، فقبله منه(١).

وروي أنّ قوماً من أهل العراق ذكروا أبا بكر وعمر فنالوا منهما، ثمّ ابتدؤوا في عثمان فقال لهم: أخبروني أأنتم من المهاجرين الأوّلين ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾(٢) قالوا: لا، قال: فهل أنتم من الذين ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾(٣) قالوا: لا، فقال لهم: أمّا أنتم فقد

(١) البداية والنهاية ١٠٨/٩ ـ ١٠٩، مرآة الجنان ٢٦٦/١ ـ ٢٦٧، شذرات الذهب ٢٥١/١ ـ ٢٥٢.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٨.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٩.

أقررتم وشهدتم على أنفسكم أنّكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء، وأنا أشهد أنّكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[1] فقوموا لا بارك الله فيكم ولا قرّب دوركم، أنتم مستهزئون بالإسلام ولستم من أهله.

وكان كثير البكاء فذكروا له ذلك فقال: إنّ يعقوب بكى حتى ابيضّت عيناه من الحزن على يوسف، ولم يعلم أنّه مات، وإنّي رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون في غداة واحدة، فتراهم حزنهم يذهب من قلبي أبدا؟.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

كان يقول: إنّ قوماً عبدوا الله عزّ وجلّ رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرين عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار، وآخرين عبدوه محبّة وشكراً فتلك عبادة الأحرار، وكان يقول: الفكرة مرآة تري المؤمن حسناته وسيّئاته.

وقال لابنه: يا بنيّ لا تصحب فاسقا فإنّه يبيعك بأكلة وأقلّ منها يطمع فيها ثمّ لا ينالها، ولا بخيلاً فإنّه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه، ولا كذّابا فإنّه كالسراب يقرّب منك البعيد ويباعد عنك القريب، ولا أحمق فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك، ولا قاطع رحم فإنّه ملعون في كتاب الله.

وكان يقول: إنّما يجلس الرجل حيث ينتفع، وإنّ العلم يطلب حيث كان.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

وروي عنه أنّه كان يقول: سادة الناس في الدنيا الأسخياء الأتقياء، وفي الآخرة أهل الدين وأهل الفضل والعلم الأتقياء.

ومات لرجل ولد فجزع عليه، فقال له الحسين بن علي: إنّ من وراء ابنك خلالا ثلاثا: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وشفاعة رسول الله، ورحمة الله عزّ وجلّ.

وكان يقول: إنّ الله يحبّ المؤمن المذنب التوّاب، وقال: التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالنابذ لكتاب الله وراء ظهره، إلاّ أن يتّقى منهم تقاه، قالوا: وما تقاه؟ قال: يخاف جباراً عنيداً أن يسطو عليه وأن يطغى.

*** شهادة الصحابة والتابعين وتابعيهم له بالفضل والعلم والفقه:**

عن زر بن حبيش قال: كنت عند ابن عباس فأتى علي بن الحسين فقال ابن عباس: مرحباً بالحبيب ابن الحبيب.

وروي عن سعيد بن المسيّب وأسلم - مولى عمر بن الخطاب - وجماعة من السلف أنّهم قالوا: لم يكن في أهل البيت مثل علي بن الحسين، وقال سعيد: وما رأيت أورع منه.

وقال ابن شهاب الزهري: كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين، وما رأيت أفقه منه، وقال: ما رأيت قرشيّاً أورع منه ولا أفضل.

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري: عليّ بن الحسين أفضل هاشميّ أدركته.

وقال زيد بن أسلم: ما رأيت مثل علي بن الحسين قطّ.

واختلف أهل التاريخ في السنة التي توفي فيها زين العابدين علي بن الحسين، والمشهور أنّه توفي في سنة الفقهاء التي هي سنة ٩٤هـ، وقيل، قبل ذلك بسنة وقيل بسنتين، ودفن بالبقيع.

*** ٦ *: القاسم بن محمد[1]:**

هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (١٠٧هـ) من كبار سادات التابعين، وأحد فقهاء المدينة السبعة الجلّة، المشهورين ومن أفضل أهل المدينة، وأعلم أهل زمانه.

نشأ في حجر عمّته عائشة رضي الله عنها فأكثر عنها من الرواية، وكان من الذين لا يكادون يتجاوزون قولها، وكان أعلم الناس بحديثها، وله روايات كثيرة عن الصحابة رضي الله عنهم وعن غيرهم.

*** شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والفقه:**

قال يحيى بن سعيد: ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضّله على القاسم بن محمد، وعن أبي الزناد قال: ما رأيت فقيهاً أعلم من القاسم بن محمد، وقال الإمام مالك: كان القاسم بن محمد من فقهاء هذه الأمّة، وقال سفيان بن عيينة: كان القاسم أفضل أهل زمانه.

وعن عمر بن عبدالعزيز قال: لو كان أمر الخلافة إليّ ما عدلت عن القاسم، وذلك لأنّ سليمان بن عبدالملك عهد إلى عمر بالخلافة وليزيد من بعده.

اختلف في تاريخ وفاته، والأشهر أنّه توفّي سنة ١٠٧هـ.

*** ٧ *: سالم بن عبدالله[2]:**

هو سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطّاب (١٠٦هـ) من سادات

(١) مرآة الجنان ٢٥٦/١، البداية والنهاية ٢٥٠/٩، شذرات الذهب ٢٣٩/١ ـ ٢٤٠، مرآة الجنان ٢٥٦/١، إعلام الموقعين ٢٢/١، إسعاف المبطأ ص ٢٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥.

(٢) شجرة النور الزكيّة ص ٢٠، مرآة الجنان ٢٥٥/١، شذرات الذهب ٢٣٦/١ ـ ٢٣٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦١، معرفة علوم الحديث ص ٤٣، تدريب الراوي ٢٤٠/٢، البداية والنهاية ٢٣٤/٩ ـ ٢٣٥، إسعاف المبطأ ١٥، طبقات ابن سعد ١٩٦/٥ إسعاف المبطأ ص ١٤.

التابعين وعلمائهم وثقاتهم، الفقيه العابد القدوة، أحد الأئمّة الفقهاء السبعة بالمدينة على رأي ابن المبارك.

كان من العبّاد الزهّاد خشن العيش متواضعا يخدم بيده ويقوم على أعماله بنفسه.

وكان له من الورع شيء كثير، ولا يقبل من الخلفاء عطاء، ومن مناقبه أنّ هشام بن عبدالملك، دخل الكعبة حاجّاً فرأى سالماً واقفاً، فقال له: سلني حوائجك، فقال سالم: إنّي لأستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلمّا خرج سالم خرج هشام في أثره فقال له: الآن خرجت من بيت الله فسلني حاجتك، فقال سالم: من حوائج الدنيا أمن حوائج الآخرة؟ قال هشام: من حوائج الدنيا، قال سالم: إنّي ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها؟.

* **شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والفقه:**

كان أبوه عبدالله بن عمر يقبّله ويقول: ألا تعجبون من شيخ يقبّل شيخا، وكان يقول فيه:

يلومنني في سالم وألومهم وجلدة بين العين والأنف سالم

وكان سعيد بن المسيّب يقول: عبدالله أشبه ولد عمر به، وسالم أشبه ولد عبدالله به.

وقال ربيعة الرأي ـ شيخ مالك ـ: كان الأمر ـ يعني بالمدينة ـ إلى سعيد بن المسيّب، فلمّا مات أفضى الأمر إلى القاسم وسالم.

وقال الإمام مالك رضي الله عنه: لم يكن أحد في زمان سالم أشبه بمن مضى من الصالحين في الزهد والفضل والعيش منه.

توفّي سنة ١٠٦هـ وقيل في التي بعدها.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الأعلام الثلاثة ـ علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله ـ الذين فاقوا أهل المدينة فقها وورعا

هم بنو خالة، وأمّهاتهم بنات ملك الفرس يزدجرد، سبين في عهد عمر بن الخطاب فحصلت واحدة لعبدالله بن عمر فأنجبت سالماً، والأخرى لمحمد بن أبي بكر فأنجبت القاسم والثالثة للحسين بن علي فأنجبت له عليّا زين العابدين(١).

*** ٨ *: عبيدالله بن عبدالله(٢):**

هو عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود (٩٨هـ): ابن أخي عبدالله بن مسعود وأحد الفقهاء السبعة، ومؤدّب عمر بن عبدالعزيز، من سادات التابعين وأعلامهم وفضلائهم.

له روايات كثيرة عن جماعات من الصحابة، فقد روى عن أبيه وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر.

والنعمان بن بشير وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعائشة وميمونة وأمّ سلمة أمّهات المؤمنين وغيرهم من الصحابة.

وممّا يروى عنه أنّ امرأة من هذيل قدمت المدينة فخطبها كثير من الناس لفرط جمالها، فنظّم عبيدالله فيها شعرا، استشهد فيه بأقرانه من الفقهاء الستّة، وهو سابعهم، فقال:

أحبّك حبّا لا يحبّك مثله ... قريب ولا في العاشقين بعيد
وحبّك يا أمّ الصبيّ مدلّهي ... شهيدي أبو بكر فنعم شهيد
ويعرف وجدي قاسم بن محمّد ... وعروة ما ألقى بكم وسعيد
ويعلم ما أخفي سليمان علمه ... وخارجة يبدي بنا ويعيد
متى تسألي عمّا أقول تخبّري ... فللّه عندي طارف وتليد

---

(١) شذرات الذهب ١٩٤/١، مرآة الجنان ٢١٩/١، البداية والنهاية ١٠٤/٩.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٠، شذرات الذهب ٢٠٦/١، البداية والنهاية ١٧٧/٩، شجرة النور الزكيّة ص ١٩، إسعاف المبطأ ص ٣٨، شذرات الذهب ٢٠٧/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٠، إعلام الموقعين ٢٢/١، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٠/١.

فقال سعيد بن المسيّب: فقد أمنت أن تسألنا، ولو سألتنا ما طمعت أن نشهد لك بزور.

شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والفقه:

قال ابن شهاب الزهري: أدركت أربعة بحور، فذكر عبيدالله، وقال: سمعت من العلم شيئاً كثيراً فظننت أنّي اكتفيت حتى لقيت عبيدالله بن عبدالله بن عتبة، فإذا كأنّي ليس في يدي شيء.

وقال أيضاً: كنت لا تشاء أن تجد عند عبيدالله طريقة من علم لا تجدها عند غيره إلاّ وجدت.

وقال عراك بن مالك، وقد سئل من أفقه من رأيت؟ قال: أعلمهم سعيد بن المسيّب، وأغزرهم في الحديث عروة، ولا تشاء أن تفجّر من عبيدالله بحرا إلاّ فجرته.

وكان عمر بن عبدالعزيز يقول: لأن يكون لي مجلس من عبيدالله أحبّ إليّ من الدنيا.

وكان يقول: إنّي لأشتري ليلة من ليالي عبيدالله بألف دينار من بيت المال، فقالوا: يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحرّيك وشدّة حفظك؟ فقال: أين أذهب بكم، والله إنّي لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف، إنّ في المحادثة تلقيحاً للعقل، وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهمّ، وتنقيحاً للأدب.

ولا شكّ أنّ قول عمر بن عبدالعزيز يدلّ دلالة واضحة على مدى المنزلة التي كان يحظى بها عبيدالله عنده، ولا غرابة في ذلك فقد كان عبيدالله مؤدّب عمر، وبالتالي فقد كان القائم على رعايته وسياسته بالتعليم والتأديب والتهذيب، وذاك هو شأن المؤدبين في ذلك الوقت.

توفّي عبيدالله سنة ٩٨هـ على الأصحّ، وقيل قبل ذلك.

* ٩ *: خارجة بن زيد[١]:

هو خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري (١٠٠هـ) الجليل القدر فضلاً وعلماً وعملا، والده من أكابر الصحابة وصدورهم.

كان خارجة يفتي بالمدينة، وكان من فقهائها المعدودين، وهو أحد الفقهاء السبعة الذين مدار الفتوى على قولهم.

وكان عالماً بالفرائض وتقسيم المواريث، ولا غرو في هذا فقد تفقّه على والده زيد الذي كان أعلم الصحابة بعلم الفرائض بشهادة الرسول الأكرم والصحابة رضوان الله عليهم.

وقال مصعب: كان خارجة بن زيد وطلحة بن عبدالله بن عوف في زمانهما يستفتيان وينتهي الناس إلى قولهما، ويقسمان المواريث بين أهلها من الدور والنخل والأموال، ويكتبان الوثائق للناس.

توفي خارجة سنة ١٠٠هـ.

* ١٠ *: سليمان بن يسار[٢]:

هو سليمان بن يسار مولى أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث، وهو أخو عطاء وعبدالملك وعبدالله بني يسار، أحد الفقهاء السبعة والأئمّة الأعلام، ومن أكابر التابعين وساداتهم وعلمائهم.

كان من المجتهدين في العبادة وله روايات كثيرة.

روى عن زيد بن ثابت وأبي هريرة وعبدالله بن عباس والمقداد وجابر بن عبدالله وعائشة ومولاته ميمونة وأمّ سلمة أمّهات المؤمنين.

كان سعيد بن المسيّب يستفتيه السائل فيقول: اذهب إلى سليمان بن يسار فإنّه أعلم من بقي اليوم، وقال الحسن بن محمد بن علي بن أبي

---

(١) شجرة النور الزكية ص ٢٠، البداية والنهاية ١٨٧/٩، شذرات الذهب ٢١٣/١، مرآة الجنان ٢٣٦/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٠.

(٢) انظر: ما تقدّم من ترجمة زيد.

طالب: سليمان عندنا أفهم من ابن المسيّب، ولذلك قال الإمام مالك: سليمان من أعلم الناس عندنا بعد سعيد بن المسيّب.

وقد يكون سليمان أفهم من ابن المسيّب في مسائل الطلاق خاصّة ولذلك قال قتادة: قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهلها بالطلاق؟ فقالوا: سليمان بن يسار.

توفي سليمان سنة ١٠٧هـ وهي نفس السنة التي توفّي فيها القاسم بن محمد.

*** ١١ *: عمرة بنت عبدالرحمٰن[(١)]:**

هي الفقيهة الأنصاريّة الفاضلة العدل الضابطة لما يؤخذ عنها: عمرة بن عبدالرحمٰن بن سعد بن زرارة (٩٨هـ) أخي أبي أمامة أسعد بن زرارة، كانت من أهل الفتيا بالمدينة وسيّدة التابعيات.

كانت في حجر عائشة فأكثرت من الرواية عنها، ولذلك فإنّ عمر بن عبدالعزيز حين عزم على تدوين الحديث بعث بكتاب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عامله وقاضيه على المدينة يطلب منه جمع أحاديث الرسول، وتتبّع ما كان عند خالته عمرة بنت عبدالرحمٰن، وما ذاك إلاّ لما عرف عنها من ضبط ودقّة في الرواية، وممّا جاء في هذا الكتاب: اكتب إليّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ وبحديث عمرة فإنّي قد خشيت دروس العلم وذهابه[(٢)].

وكان سفيان بن عيينة يقول: أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة:

(١) إسعاف المبطأ ص ١٧، شجرة النور الزكيّة ص ٢٠، البداية والنهاية ٢٤٤/٩، مرآة الجنان ٢٥٦/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٠ ـ ٦١، طبقات ابن سعد ١٧٤/٥، الحجوي: الفكر السامي ٣٥٦/٢ مرآة الجنان ٢٣١/١، شذرات الذهب ٢٠٧/١، إسعاف المبطأ ص ٢٩، تدريب الراوي ٢٤٢/٢.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه، المقدّمة.

القاسم بن محمد وعروة بن الزبير وعمرة بنت عبدالرحمٰن، توفيت سنة ٩٨هـ.

*** ١٢ *: نافع مولى ابن عمر[١]:**

هو أبو عبدالله نافع بن سرجس الديلمي (١١٧هـ) مولى عبدالله بن عمر، كان من الثقات النبلاء والأئمّة الأجلاء، ومن المشهورين بالحديث الضابطين الأثبات الذين يؤخذ عنهم.

روى عن مولاه عبدالله بن عمر وعن رافع بن خديج وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعائشة وأمّ سلمة وغيرهم من الصحابة، ومعظم حديث عبدالله بن عمر عليه دار.

بعثه عمر بن عبدالعزيز إلى مصر يعلّمهم السنن، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة.

وكان مالك يقول: كنت إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر، لا أبالي أن أسمعه من أحد.

وفي رواية: كنت إذا سمعت من نافع يحدث عن ابن عمر، لا أبالي أن لا أسمعه من غيره.

وقال الإمام البخاري: أصحّ الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، وأهل الحديث يقولون: رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب، لجلالة كلّ واحد من هؤلاء الرواة.

توفي نافع سنة ١١٧هـ.

---

(١) البداية والنهاية ٣١٩/٩، مرآة الجنان ٢٧٧/١، إسعاف المبطأ ص ٤٠، شذرات الذهب ٢٦٩/١.

*** ١٣ *: الحسن بن محمد بن الحنفيّة[١]:**

هو الحسن بن محمد بن عليّ بن أبي طالب، كان عالماً فقيهاً عارفاً بالاختلاف والفقه، تابعي ثقة، من عقلاء قومه وعلمائهم، ومن أفاضل أهل البيت، ومن أعلم الناس بالاختلاف صحيح الحديث.

روى عن أبيه محمد بن الحنفيّة وابن عباس وجابر بن عبدالله وسلمة بن الأكوع وغيرهم.

قال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً أعلم بما اختلف فيه من الحسن بن محمد، وما كان زهريّكم ـ يعني ابن شهاب ـ هذا إلاّ غلاماً من غلمانه.

اختلف في سنة وفاته فقيل سنة ٩٥هـ وقيل سنة ١٠١هـ في أيّام خلافة عمر بن عبدالعزيز.

*** ١٤ *: قبيصة بن ذؤيب[٢]:**

هو قبيصة بن ذؤيب بن حلحلة الخزاعي المدني، كان من فقهاء المدينة، روى عن جمع كثير من الصحابة، فروى عن أبي بكر وعمر وعثمان بن عفان وعبدالرحمٰن بن عوف وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وعائشة وأمّ سلمة.

كان أوّل أمره مقيماً بالمدينة ولذلك عدّ من فقهائها، ثمّ انتقل إلى دمشق، واتّخذ بها داراً، وكانت له منزلة عند عبدالملك بن مروان، وكان صاحب سرّه ويدخل عليه بغير إذن.

قال الأعمش: فقهاء المدينة أربعة، فذكر فيهم قبيصة بن ذؤيب، وقال: كان قبيصة من أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت.

---

(١) البداية والنهاية ١٤٠/٩، إسعاف المبطأ ص ١٠، شذرات الذهب ٢١٨/١، مرآة الجنان ٢٣٩/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٣.

(٢) البداية والنهاية ٧٣/٩، مرآة الجنان ٢٠٧/١، شذرات الذهب ١٧٩/١، إسعاف المبطأ ص ٣٤، إعلام الموقعين ٢٢/١، ٢٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٢.

وقال أبو الزناد: كان يعدّ فقهاء المدينة أربعة، فذكر فيهم قبيصة.

وقال يحيى بن سعيد القطّان: فقهاء المدينة عشرة فذكر قبيصة بن ذؤيب أخذهم، وكان ابن شهاب الزهري يقول: كان قبيصة بن ذؤيب من علماء هذه الأمّة، وقال مكحول: ما رأيت أحداً أعلم منه.

ثمّ لمّا انتقل إلى دمشق عدّ من فقهائها، ولذلك وصفه البعض بفقيه دمشق، وعدّه بعضهم في المفتين بالشام.

توفّي قبيصة بدمشق سنة ٨٦هـ وقيل سنة ٨٧هـ.

*** ١٥ *: محمد بن علي بن الحسين(١):**

هو أبو جعفر محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، الإمام الخامس من أئمّة الشيعة الإماميّة وهو والد جعفر الصادق، لقّب بالباقر لأنّه بقر العلم أي شقّه وتوسّع فيه.

وهو تابعي جليل كبير القدر كثيرالحديث وأحد أعلام هذه الأمّة علماً وعملا وسيادة وشرفاً، كان ذاكراً خاشعاً صابراً رفيع النسب عالي الحسب عارفاً بالخطرات كثير البكاء والعبرات معرضاً عن الجدال والخصومات.

روى عن أبي سعيد الخدري وجابر بن عبدالله وغيرهما من الصحابة، وحدّث عنه جماعة من كبار التابعين.

قال عبدالله بن عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند محمد بن علي.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

لأبي جعفر الباقر كلام نافع في الحكم والمواعظ، من ذلك قوله: أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مئونة وأكثرهم معونة، إن نسيت ذكّروك، وإن

---

(١) شذرات الذهب ٢٦٠/١، مرآة الجنان ٢٧٣/١ ـ ٢٧٤، البداية والنهاية ٣٠٩/٩ ـ ٣١٢.

ذكرت أعانوك، قوّالون بحقّ الله، قوّامون بأمر الله... وأنزل الدنيا كمنزل نزلته وارتحلت عنه، أو كمال أصبته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء.

وكان يحرّض الناس على ذكر الله تعالى، فيقول: الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن، ولا تصيب الذاكر.

وكان يقول: من دخل قلبه صافي دين الله شغله عمّا سواه، وما عسى أن تكون الدنيا؟ هل هي إلاّ مركباً ركبته، أو ثوباً لبسته، أو امرأة أصبتها.

وكان يقول: الغنى والعزّ يجولان في قلب المؤمن فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكّل أوطناه.

وكان يقول: ما من عبادة أفضل من عفّة بطن أو فرج، وما من شيء أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من أن يسأل، وما يدفع القضاء إلاّ الدعاء، وإنّ أسرع الخير ثوابا البرّ، وأسرع الشرّ عقوبة البغي، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع أن يفعله، وينهى الناس بما لا يستطيع أن يتحوّل عنه، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه.

وكان يقول: ما اغرورقت عين عبد بمائها إلاّ حرّم الله وجه صاحبها على النار، فإن سالت على الخدّين لم يرهق وجهه قتر ولا ذلّة، وما من شيء إلاّ وله جزاء إلاّ الدمعة فإنّ الله يكفّر بها بحور الخطايا، ولو أنّ باكياً بكى من خشية الله في أمّة رحم الله تلك الأمّة.

وكان يقول: كان لي أخ في عيني عظيماً، وكان الذي عظّمه في عيني صغر الدنيا في عينيه.

وقال لابنه: إيّاك والكسل والضجر، فإنّهما مفتاح كلّ خبيثة، إنّك إذا كسلت لم تؤدّ حقّاً، وإن ضجرت لم تصبر على حقّ.

توفّي سنة ١١٤هـ وقيل غير ذلك، ودفن بالبقيع مع أبيه زين العابدين علي بن الحسين.

*** ١٦ * أبان بن عثمان بن عفّان[1]:**

هو أبان بن عثمان بن عفّان الأموي (١٠٥هـ) كان من فقهاء التابعين وعلمائهم، روى عن أبيه.

قال يحيى بن سعيد القطّان: فقهاء المدينة عشرة، فذكر أبان بن عثمان أحدهم.

وقال عمرو بن شعيب: ما رأيت أعلم منه بالحديث والفقه.

توفّي سنة ١٠٥هـ.

وعن هؤلاء بالخصوص، وعن وغيرهم من كبار أعلام هذا الدور انتقل العلم والفقه بالمدينة إلى طبقة من صغار التابعين ممّن شرفوا بلقاء بعض الصحابة وإن كان أكثر تلقّيهم للعلم عن كبار فقهاء التابعين، فخلفوا أسلافهم في الفقه والعلم، وكان من أشهرهم بالمدينة عشرة أعلام، وهم:

ـ ١ ـ ابن شهاب الزهري[2]:

هو محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب الزهري (١٢٤هـ) تابعي جليل وأحد الأعلام من أئمّة الإسلام، رأى عشرة من الصحابة، وحفظ علم الفقهاء السبعة.

كانت له عين حافظة وقلب ذكيّ، فكان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقاً بمتون الأخبار حتى إنّه كان يقول عن نفسه: ما استودعت قلبي شيئاً قطّ فنسيته، حفظ القرآن في نحو من ثمانية وثمانين يوماً وجالس

---

(١) البداية والنهاية ٢٣٣/٩ ـ ٢٣٤، شذرات الذهب ٢٣٣/١، مرآة الجنان ٢٥٤/١.

(٢) البداية والنهاية ٣٤٠/٩ ـ ٣٤٥، إسعاف المبطأ ص ٣٧، شذرات الذهب ٢٨٤/١ ـ ٢٨٥، مرآة الجنان ٢٨٦/١، تذكرة الحفّاظ ١٠٩/١ ـ ١١٠، طبقات ابن سعد ٢/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩، إعلام الموقعين ٢٢/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٤.

سعيد بن المسيّب ثماني سنين تمس ركبته ركبته، وكان يخدم عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ويستسقي له الماء، حتى ظنّت جارية عبيدالله أنّ ابن شهاب خادمه، وكان يدور على مشايخ الحديث ومعه ألواح يكتب عنهم فيها الحديث ويكتب عنهم كلّ ما سمع منهم حتى صار من أعلم الناس وأعلمهم في زمانه، وقد احتاج أهل عصره إليه.

وفي ذلك يقول صالح بن كيسان: اجتمعت أنا وابن شهاب ونحن نطلب العلم، فقلنا نكتب السنن فكتبنا ما جاء عن النبيّ ﷺ، ثمّ قال نكتب ما جاء عن أصحابه فإنّه سنّة، وقلت أنا: ليس بسنّة فلا نكتبه، فكتب ولم أكتب، فأنجح وضيّعت.

ومكث الزهري خمسا وأربعين سنة يختلف من الحجاز إلى الشام، ومن الشام إلى الحجاز حتى أصبح فقيهاً جامعاً، فكان ابن شهاب بعد ذلك يقول: ما صبر أحد على العلم صبري ولا نشره أحد نشري.

وكان لشدّة حرصه على تعهّد العلم، ينزل بالأعراب يعلّمهم لئلاّ ينسى العلم، وكان إذا رجع من عند عروة بن الزبيّر يحدّث جاريته ويسرد عليها ما سمعه منه، فتقول له الجارية: والله ما أدري ما تقول فيقول لها: اسكتي، إنّي لا أريدك وإنّما أريد نفسي.

ولذلك كان ينصح بمذاكرة العلم دواماً واستمراراً، ويقول: إنّما يذهب العلم النسيان وترك المذاكرة، ويقول: إنّ هذا العلم إن أخذته بالمكابرة غلبك ولم تظفر منه بشيء، ولكن خذه مع الأيّام والليالي أخذاً رفيقاً تظفر به، ويقول: للعلم واد فإذا هبطت واديه فعليك بالتؤدة حتى تخرج منه فإنّك لا تقطعه حتى يقطع بك.

ومن لطائف ما يروى عن شغفه بطلب العلم أنّه كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كلّ شيء من أمور الدنيا، فقالت له امرأته يوما: والله إنّ هذه الكتب أشدّ عليّ من ثلاث ضرائر.

روى عن عبدالله بن عمر وسهل بن سعد وأنس بن مالك ومحمود بن الربيع وسعيد بن المسيّب وأبي أمامة بن سهل وطبقتهم من صغار الصحابة

وكبار التابعين، وكان كثير الحديث والعلم والرواية له نحو ألفي حديث، حتى قال الإمام مالك: كان ابن شهاب إذا دخل المدينة لم يحدّث بها أحداً حتى يخرج، وما رئي أحد جمع بعد رسول الله ﷺ ما جمع ابن شهاب.

وكان يطلب العلم بالخصوص من سعيد بن المسيّب وعروة بن الزبيّر وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

كان يقول: إنّ هذا العلم الذي أدّب الله به رسول الله ﷺ، وأدّب رسول الله به أمّته، أمانة الله إلى رسوله ليؤدّيه على ما أدّى إليه، فمن سمع علما فليجعله أمامه حجّة فيما بينه وبين الله.

ويقول: إنّ من غوائل العلم أن يترك العالم حتى يذهب علمه، وفي رواية: أن يترك العالم العمل بالعلم حتى يذهب، فإنّ من غوائله قلّة انتفاع العالم بعلمه.

ويقول: لا يوثق الناس علم عالم لا يعمل به، ولا يؤمن بقول عالم لا يرضى، ويقول: إيّاك وغلول الكتب، فقيل له: وما غلول الكتب؟ قال: حبسها عن أهلها.

وكان يقول: العلم خزائن تفتحها المسائل.

وسئل عن الزاهد فقال: من لم يمنع الحلال شكره، ولم يغلب الحرام صبره.

*** شهادة التابعين وتابعيهم له بالحفظ والعلم:**

قال عمر بن عبدالعزيز: لا أعلم أحداً أعلم بسنّة ماضية من الزهري، وقال: ما رأيت أحداً أحسن سوقا للحديث إذا حدّث منه.

وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً أنصّ للحديث من الزهري، وقال: ولقد جالست جابرا وابن عباس وابن عمر وابن الزبيّر فما رأيت

أحداً أسبق للحديث من الزهري، وقال الإمام أحمد: أحسن الناس حديثاً وأجودهم إسناداً الزهري، وقال أيّوب السختياني: ما رأيت أحداً أعلم من الزهري.

وسئل عراك بن مالك من أعلم من رأيت؟ فقال: أعلمهم بالحلال والحرام ابن المسيّب، وأغزرهم حديثاً عروة، ولا تشاء أن تفجّر من عبيدالله بحرا إلاّ فجّرته، وأعلم هؤلاء عندي، وفي رواية وأفقههم عندي، ابن شهاب لأنّه جمع علمهم إلى علمه.

وقال الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قطّ أجمع من ابن شهاب ولا أكثر علماً منه، وقال: لو سمعته يحدث في الترغيب والترهيب لقلت ما يحسن غير هذا، وإن حدّث عن الأنبياء وأهل الكتاب قلت لا يحسن إلاّ هذا، وإن حدّث عن الأعراب والأنساب قلت: لا يحسن إلاّ هذا، وإن حدّث عن القرآن والسنّة كان حديثه بدعا جامعا.

وقال يحيى بن سعيد: ما بقي عند أحد من العلم ما بقي عند ابن شهاب، وكان يقال: محدّثو أهل الحجاز ثلاثة، الزهري ويحيى بن سعيد وابن جريج، وفصحاء زمانهم أربعة: الزهري وعمر بن عبدالعزيز وموسى بن طلحة وعبيدالله بن عبدالله.

ولمّا حان أجله وهو بموضع يقال له شعب زبدا، في آخر أعمال الحجاز وأوّل أعمال فلسطين، أوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليمرّ المارّ فيدعو له، فدفن هناك، وكانت وفاته يوم ١٧ رمضان من سنة ١٢٤هـ وقيل قبل ذلك بسنة، وقيل بعدها بسنة.

ـ ٢ ـ عبدالرحمٰن بن القاسم(١):

هو عبدالرحمٰن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (١٢٦هـ) الفقيه ابن الفقيه المدني، شيخ الإمام مالك وخال جعفر الصادق.

---

(١) البداية والنهاية ٢١/١٠، شذرات الذهب ٢٩٥/١، مرآة الجنان ٢٩٠/١، تذكرة الحفّاظ ١٢٦/١، إسعاف المبطأ ص ٢٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٥.

كان إماماً ورعاً ثقة، كثير العلم، كبير القدر، روى عن أبيه القاسم بن محمد وأسلم مولى عمر بن الخطاب وسعيد بن المسيّب ومحمد بن جعفر بن الزبير وغيرهم.

قال سفيان بن عيينة: كان أفضل أهل زمانه، وقال الإمام مالك حين رأى ابنه يحيى يدخل ويخرج ولا يجلس: ما يهون عليّ إلاّ أنّ هذا الشأن لا يورث، وإنّ أحداً لم يخلف أباه في مجلسه إلاّ عبدالرحمٰن بن القاسم.

توفي بالشام سنة ١٢٦هـ.

ـ ٣ ـ ربيعة الرأي[(١)]:

هو ربيعة بن أبي عبدالرحمٰن فروخ (١٣٦هـ) عالم المدينة وفقيهها، أحد الأعلام المعروف بربيعة الرأي، قيل له ذلك لأنّه كان يتقوّى بالرأي.

كان إماماً حافظاً فقيهاً مجتهداً بصيراً بالرأي، حافظاً للفقه والحديث، مكث دهراً طويلاً عابداً يصلّي الليل والنهار إلى أن جالس القوم فنطق بلبّ وعقل، فكان صاحب الفتوى بالمدينة.

وكان يجلس إليه وجوه الناس، ويحضر في مجلسه أربعون معتماً، وعنه أخذ الإمام مالك وبه تفقّه.

أدرك جماعة من الصحابة وروى عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد وحنظلة بن قيس وسعيد بن المسيّب والقاسم بن محمد.

*** شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والعلم:**

قال يحيى بن سعيد: ما رأيت أحداً أفطن من ربيعة، وقال عبيدالله بن عمر العمري: ربيعة صاحب معضلاتنا وعالمنا وأفضلنا، وقال سوار بن عبدالله العنبري: ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة الرأي، وقال الإمام

---

(١) شذرات الذهب ٣٢٦/١ ـ ٣٢٧، مرآة الجنان ٣٠٧/١ ـ ٣٠٨، إسعاف المبطأ ١٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ٦٥، تذكرة الحفاظ ١٥٧/١ ـ ١٥٨، وفيات الأعيان ٢٨٩/٢.

مالك: لمّا مات القاسم وسالم أفضى الأمر إلى ربيعة، وكان الإمام مالك يقول: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة الرأي.

توفّي سنة ١٣٦هـ.

- ٤ - أبو الزناد[1]:

هو عبدالله بن ذكوان المدني (١٣٠هـ) المعروف بأبي الزناد، كان فقيه المدينة وأحد علمائها.

روى عن عبدالله بن عمر وأنس بن مالك وأبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف وعبدالله بن جعفر وسعيد بن المسيّب والأعرج عبدالرحمٰن بن هرمز وأكثر عنه من الرواية حتى قيل أبو الزناد راوية الأعرج.

ولاّه عمر بن عبدالعزيز خراج العراق مع عبدالحميد بن عبدالرحمٰن بن زيد بن الخطّاب، وروي أنّه وفد على هشام بن عبدالملك بحساب ديوان المدينة، فسأل هشام بن شهاب: أيّ شهر كان يخرج فيه العطاء لأهل المدينة؟ فقال: لا أدري، قال أبو الزناد: فسألني هشام فقلت: المحرّم، فقال هشام لابن شهاب: يا أبا بكر هذا علم أفدته اليوم، فقال ابن شهاب: مجلس أمير المؤمنين أهل أن يفاد منه العلم.

وكان أبو الزناد قد غلب عليه الحديث حتى كان بعضهم يسمّيه بأمير المؤمنين في الحديث.

ومع ذلك فقد حدّث الليث بن سعد قال: رأيت خلف أبي الزناد ثلاثمائة تابع من طالب فقه وطالب شعر وصنوف ثمّ لم يلبث أن بقي وحده وأقبلوا على ربيعة رغم أنّ أبا حنيفة كان يقول: أبو الزناد أفقه من ربيعة.

---

(١) تذكرة الحفّاظ ١٣٥/١، شذرات الذهب ٣١١/١، مرآة الجنان ٢٩٨/١، معرفة علوم الحديث ص ٤٥ ـ ٤٦، إسعاف المبطأ ص ٢٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٦.

وعندي أنّ هذا من باب المداولة التي توحي بالتجدّد، وتثبت أنّ العلم ليس ملكاً لأحد ولا حكراً على أحد وما وقع لأبي الزناد مع ربيعة، وقع كذلك لربيعة مع مالك، فعن بكر بن عبدالله الصنعاني قال: أتينا مالك بن أنس، فجعل يحدّثنا عن ربيعة فكنّا نستزيده من حديث ربيعة، فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة أهو نائم في ذاك الطاق، فأتينا ربيعة فقلنا له: أنت ربيعة الذي يحدّث عنك مالك بن أنس؟ قال: نعم، قلنا: كيف حظي بك مالك وأنت لم تحظ بنفسك؟ قال: أما سمعتم أنّ مثقالاً من دولة خير من حمل علم، وقد توفي في رمضان سنة ١٣٠هـ وقيل سنة ١٣١هـ.

ـ ٥ ـ محمد بن المنكدر[1]:

هو محمد بن المنكدر بن عبدالله بن الهدير التيمي (١٣٠هـ) الحافظ القدوة القانت الزاهد المجمع على ثقته وتقدّمه في العلم والعمل.

كان من معادن الصدق وكان بيته مأوى الصالحين ومجتمع المفلحين من الزاهدين العابدين.

روى عن أبيه وأبي هريرة وعبدالله بن عبّاس وعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأنس بن مالك وأبي أيّوب الأنصاري وعائشة أمّ المؤمنين وسعيد بن المسيّب وغيرهم.

قال ابن المنكدر: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت.

وقال الإمام مالك: كنت إذا وجدت من قلبي قسوة، آتي ابن المنكدر فأنظر إليه نظرة فأبغض نفسي أيّاماً، وكان يقول: ابن المنكدر سيّد القرّاء.

توفّي سنة ١٣٠هـ وقيل سنة ١٣١هـ.

---

(١) تذكرة الحفّاظ ١٢٧/١، مرآة الجنان ٢٩٨/١، إسعاف المبطأ ص٣٧، شذرات الذهب ٣٠٦/١ ـ ٣٠٧.

ـ ٦ ـ زيد بن أسلم مولى عمر(١):

هو زيد بن أسلم العدوي المدني (١٣٦هـ) مولى عمر بن الخطّاب، الفقيه العابد الذي كان له حلقة الفتوى والعلم بالمدينة.

روى عن أبيه وعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأبي هريرة وسلمة بن الأكوع وأنس بن مالك وأضرابهم.

كان عالماً بالتفسير وله فيه كتاب رواه عنه ابنه عبدالرحمٰن.

قال أبو حازم الأعرج: لقد رأيتنا في حلقة زيد بن أسلم أربعين فقيها، أدنى خصلة فينا التساوي بما في أيدينا، ونقل البخاري أنّ زين العابدين بن علي بن الحسين كان يجلس إلى زيد بن أسلم.

وممّا يروى في ذلك أنّ علي بن الحسين دخل المسجد فتخطى حلق العلم حتى جلس في حلقة زيد بن أسلم، فقال له نافع بن جبير بن مطعم: غفر الله لك، أنت سيّد الناس تأتي تخطى حلق أهل العلم حتى تجلس مع هذا العبد؟ فقال له علي بن الحسين: إنّما يجلس الرجل حيث ينتفع، وإنّ العلم يطلب حيث كان.

وعن عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم قال: لمّا وضع مالك الموطأ جعل أحاديث زيد بن أسلم في آخر الأبواب، فقلت له في ذلك، فقال: إنّها كالسراج تضيء لما قبلها.

بهؤلاء وأمثال لهم من العلماء الأعلام الذين حملوا لواء العلم والاجتهاد انتشر فقه أهل المدينة، وتكوّن بهم التلاميذ من أتباع التابعين.

المركز الثاني: مكّة المكرّمة:

هي أمّ القرى، وبلد الله الحرام، وموطن التشريع المكّي ومنبع

(١) شذرات الذهب ٣٢٧/١، مرآة الجنان ٣٠٨/١، إسعاف المبطأ ص ١٣ ـ ١٤، البداية والنهاية ١٠٦/٩.

الإسلام، ومهبط الوحي وقبلة المسلمين وهي البلد الذي حرّم فيها القتال وأقرّ فيها السلام.

وقد نزلت بها مجموعة وافرة من أصحاب الرسول عدّهم بعضهم فأوصلهم إلى أكثر من خمسين صحابيًّا كمعاذ بن جبل الذي بعثه الرسول إليها ليعلّم أهلها الحلال والحرام، وعتاب بن أسيد خليفة رسول الله بها، وعبدالله بن السائب المخزومي قارىء الصحابة بها وغيرهم(١).

غير أنّ الذي كان رأس الفتوى بها بلا منازع هو البحر وحبر الأمّة وترجمان القرآن عبدالله بن عبّاس فإليه يعود الفضل فيما كان لهذا المركز من شهرة علميّة، وعلى يديه تخرّج أقطاب التابعين من أعلام مكّة.

فلنلق نظرة على أعلام هذا المركز الفقهي.

*** عبدالله بن عباس(٢):**

هو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي (٦٨هـ) ابن عمّ الرسول الأكرم ﷺ، الفقيه المفسّر المحدّث بحر العلوم وحبر الأمّة على العموم.

لمّا توفي النبيّ ﷺ، كان عبدالله ابن ثلاث عشرة سنة، فلم يكن ممّن يفتي لحداثة سنّه لكنّه شمّر عن ساعد الجدّ وأخذ عن كبار الصحابة، وأقبل عليهم يسأل حتى إن كان الحديث ليبلغه عن أحد فيأتي باب داره وهو قائل فيتوسّد رداءه فيسفي عليه الريح من التراب.

وكان يلازم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار يسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ، وما نزل من القرآن في ذلك.

وبهذه الروح العالية في تتبّع العلم وأخذه عن أهله استطاع ابن عبّاس

---

(١) طبقات ابن سعد ٤٤٣/٥ ـ ٤٦٢، معرفة علوم الحديث ص ١٩٢.

(٢) مرآة الجنان ١٧٤/١، الإصابة ٣٣٠/٢ ـ ٣٣٤، البداية والنهاية ٢٩٦/٨ ـ ٣٠٥، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٩، طبقات ابن سعد ٣٦٦/٢ ـ ٣٧٢، إعلام الموقعين ١٨/١ ـ ١٩، إسعاف المبطأ ص ٧، شذرات الذهب ١٣٧/١.

أن يتبوّأ المكان الأعلى في عهد عمر بن الخطاب فكان يدخله مع الشيوخ الكبار من الصحابة ويجلسه معهم حتى قال المهاجرون لعمر: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس، فقال لهم: ذاكم فتى الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول.

وثبت في الصحيح عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنّه ممّن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، وما رأيته دعاني يومئذ إلاّ ليريهم منّي، فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري أو لم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ فتح مكّة فذاك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾، قال عمر: ما أعلم منها إلاّ ما تعلم(١).

وقد أراد عمر بذلك أن يقرّر عند مشائخ الصحابة جلالة قدر ابن عباس وكبير منزلته في العلم والفهم.

ولذلك كان عمر يقول لابن عباس: لقد علمت علماً ما علمناه، ويقول له: إنّك لأصبح فتياننا وجها وأحسنهم عقلاً، وأفقههم في كتاب الله عزّ وجلّ.

وهكذا بعد أن صحب ابن عباس النبيّ ﷺ وأخذ عنه وحفظ الأقوال وضبط الأفعال والأحوال توجّه إلى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فأخذ عنهم علماً عظيماً مع الفهم الثاقب والبلاغة والفصاحة والأصالة والبيان

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي.

فجمع بذلك مفردات ليست لغيره من الصحابة لاتساع علمه وكثرة فهمه وكمال عقله وسعة فضله ونبل أصله.

فكان ابن عباس بعد ذلك يفتي في عهد عمر وعثمان إلى أن توفّي، ويدعوه عمر بن الخطّاب للمعضلات ويقول له: عندك قد جاءتك معضلة ثمّ لا يجاوز قوله وإنّ حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار حتى قال عبدالله بن مسعود: لو أدرك ابن عباس أسناننا ما خالفه منّا أحد.

وفي عهد عثمان بن عفّان تولّى ابن عباس إمامة الحجّ ثمّ استنابه عليّ بن أبي طالب في عهده على البصرة، فكان أهلها مغبوطين به، يفقههم ويعلّم جاهلهم ويعظ غافلهم ويعطي فقيرهم، وفي ذلك يقول أبو بكرة: قدم علينا ابن عباس البصرة وما في العرب مثله حشماً وعلماً وجمالاً وكمالاً.

ولم يزل ابن عباس على البصرة حتى استشهد عليّ بن أبي طالب فلمّا آل الأمر إلى معاوية قصد مكّة واستقرّ بها مفتياً ومعلّماً لأكثر من عشرين سنة، ثمّ أكره على الخروج منها حين اعتزل الناس في خلاف عبدالله بن الزبير مع عبدالملك بن مروان، فنزل الطائف وتوفّي بها بعد سنتين.

ولمّا كان ابن عبّاس ـ من خلال ما تقدّم بيانه ـ قد قضى أغلب فترات حياته أثناء عطائه العلمي، بين المدينة المنوّرة ومكّة المكرّمة، ـ إذ لم يستقرّ بالبصرة إلاّ أربع سنين أو أقلّ من ذلك، ولم يبق بالطائف غير السنتين الأخيرتين من حياته، ـ فلا مانع من اعتباره من أعلام المركز الفقهي بالمدينة، إلاّ أنّ الأظهر هو أنّ ابن عباس قد كان الركن الأساسي للمركز الفقهي بمكّة، ذلك أنّ تلاميذ ابن عباس الذين اشتهروا بالأخذ عنه وتأثّروا بمنهجه الاجتهادي، كان جلّهم إن لم نقل كلّهم من أعلام التابعين المفتين بمكّة وممّا يدعّم هذا الموقف ويؤكّده أنّ الإمام مالكاً الذي ورث علم أهل المدينة قد سأله الرشيد: لِمَ لَمْ نر في كتابك ـ يعني الموطأ ـ ذكراً لعليّ وابن عباس، فقال: لم يكونا ببلدي، ولم ألق رجالهما.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

أثر عن ابن عباس أقوال كثيرة جدّاً منها قوله: قل خيراً تغنم، واسكت عن شرّ تسلم، فإنّك إن لم تفعل تندم.

وجاء إليه رجل فقال له: أوصني، فقال: أوصيك بتوحيد الله والعمل له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإنّ كلّ خير آتيه أنت بعد ذلك منك مقبول وإلى الله مرفوع، وإنّك لن تزدد من موتك إلاّ قرباً فصلّ صلاة مودّع، واصبح في الدنيا كأنّك غريب مسافر فإنّك من أهل القبور، وابك على ذنبك وتب من خطيئتك، ولتكن الدنيا عليك أهون من شسع نعلك، فكأنّ قد فارقتها وصرت إلى عدل الله، ولن تنتفع بما خلّفت ولن ينفعك إلاّ عملك.

وأوصى رجلاً فقال له: لا تكلمنّ فيما لا يعنيك حتى ترى له موضعا، ولا تمار سفيهاً ولا حليماً، فإنّ الحليم يغلبك والسفيه يزدريك، ولا تذكرنّ أخاك إذا توارى عنك إلاّ بمثل الذي تحبّ أن يتكلّم فيك إذا تواريت عنه، واعمل عمل من يعلم أنّه مجزى بالإحسان مأخوذ بالإجرام.

وكان يقول: تمام المعروف تعجيله وتصغيره وستره.

وأصيبت إحدى عينيه فنحل جسمه، فلمّا أصيبت الأخرى وعمي عاد إليه لحمه، فقيل له في ذلك، فقال: أصابني ما رأيتم في الأولى شفقة على الأخرى، فلمّا ذهبتا اطمأنّ قلبي.

وكان يقول: من ترك الصلاة وهو يقدر عليها لقي الله وهو عليه غضبان، وفي رواية: من ترك صلاة واحدة متعمّداً لقي الله وهو عليه غضبان.

وكان يقول أيضاً: لا يكافىء من أتاني يطلب حاجة فرآني لها موضعاً إلاّ الله عزّ وجلّ، وكذا رجل بدأني بالسلام أو أوسع لي في مجلس أو قام لي في مجلس أو رجل سقاني شربة ماء على ظمأ ورجل حفظني بظهر الغيب.

وكان يقول: إنّي لأسمع بالحاكم من حكّام المسلمين يعدل في حكمه فأحبّه ولعلّي لا أقاضي إليه أبدا، وإنّي لأسمع بالغيث يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به ومالي بها سائمة ولا راعية، وإنّي لآتي على آية من كتاب الله تعالى فوددت أنّ المسلمين كلّهم يعلمون منها مثل ما أعلم.

*** دعاء الرسول له بالفقه والعلم وفهم معاني القرآن:**

عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ في بيت ميمونة ـ أمّ المؤمنين وأخت أمّ الفضل لبابة بنت الحارث وخالة ابن عباس ـ فوضعت له وضوءا من الليل، فقالت ميمونة: يا رسول الله وضع لك هذا عبدالله بن عباس فقال: **اللّهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل**(١).

وعن ابن عباس أيضاً قال: ضمّني النبيّ ﷺ إلى صدره وقال: «**اللّهمّ علّمه الحكمة**(٢) وفي رواية: **علّمه الحكمة وتأويل الكتاب**»(٣).

وعن ابن عباس كذلك قال: أتيت رسول الله ﷺ من آخر الليل فصلّيت خلفه فأخذ بيدي فجرّني فجعلني حذاءه، فلمّا أقبل رسول الله ﷺ على صلاته خنست، فصلّى رسول الله ﷺ فلمّا انصرف ـ أي أتمّ صلاته وسلّم ـ قال لي: ما شأني أجعلك حذائي فتخنس، فقلت: يا رسول الله أو ينبغي لأحد أن يصلّي حذاءك وأنت رسول الله الذي أعطاك الله، قال: فأعجبته، فدعا الله لي أن يزيدني علماً وفهماً(٤).

*** شهادة الصحابة والتابعين له بسعة العلم ودقّة الفهم وكمال العقل:**

قال سعد بن أبي وقّاص: ما رأيت أحداً أحضر فهماً ولا ألبّ لبّاً ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً من ابن عباس.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، والترمذي في سننه، كتاب المناقب.
(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه، المقدّمة.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده.

وقال عليّ بن أبي طالب في ابن عباس: إنّنا لننظر إلى الغيث من ستر رقيق لعقله وفطنته.

وقال عبدالله بن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عبّاس، وكذا قال ابن عمر.

وقالت عائشة وأمّ سلمة: ابن عباس أعلم الناس بالمناسك، وقال عبدالله بن عمر: ابن عباس أعلم الناس بما أنزل على محمد ﷺ، وفي رواية: أعلم من بقي بما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ، وقال: لقد أوتي ابن عباس علماً صدقاً.

وعن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة قال: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال، بعلم ما سبق إليه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم ونسب ونائل، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث النبيّ ﷺ منه، ولا أعلم بشعر ولا عربيّة ولا تفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه، ولا أعلم فيما مضى ولا أثقب رأيا فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ما يذكر فيه إلاّ الفقه، ويوماً ما يذكر فيه إلاّ التأويل، ويوماً ما يذكر فيه إلاّ المغازي، ويوماً الشعر، ويوما أيّام العرب، وما رأيت عالماً قطّ جلس إليه إلاّ خضع له، ولا وجدت سائلاً سأله إلاّ وجد عنده علماً، وقال: ما رأيت أحداً أعلم بالسنّة، ولا أجلد رأياً، ولا أثقب نظراً حين ينظر مثل ابن عبّاس، وإن كان عمر بن الخطّاب ليقول له: قد طرأت علينا عضل أقضية أنت لها ولأمثالها.

وقال عطاء بن أبي رباح: ما رأيت مجلساً أكرم من مجلس ابن عباس - رضي الله عنه -، أكثر فقهاً ولا أعظم هيبة، أصحاب القرآن يسألونه، وأصحاب العربيّة يسألونه، وأصحاب الشعر يسألونه، فكلّهم يصدر في واد واسع.

وقيل لطاووس بن كيسان: لم لزمت هذا الغلام - يعني ابن عباس - وتركت الأكابر من الصحابة؟ فقال: إنّي رأيت سبعين من الصحابة إذا تماروا في شيء صاروا إلى قول ابن عباس.

وقال عمرو بن دينار: ما رأيت مجلساً أجمع لكلّ خير من مجلس ابن عباس، الحلال والحرام، وتفسير القرآن، والعربيّة والشعر والطعام.

وعن مسروق قال: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت أجمل الناس، فإذا نطق قلت أفصح الناس، فإذا تحدّث قلت أعلم الناس، وقال الأعمش مثل ذلك.

ولمّا مات ابن عباس ـ بالطائف سنة ٦٨هـ على المشهور من رأي الجمهور ـ صلّى عليه محمد بن الحنفيّة وقال: مات ربّاني هذه الأمّة.

وقال جابر بن عبدالله حين بلغه موت ابن عباس: مات والله أعلم الناس وأحلم الناس، وقد أصيبت به هذه الأمّة مصيبة لا ترتق.

وقال رافع بن خديج: مات اليوم من كان يحتاج إليه من بين المشرق والمغرب في العلم، وقال ابن أبي نجيح: ما رأيت مثل ابن عباس قطّ، ولقد مات يوم مات وإنّه لحبر هذه الأمّة.

وعن ابن عباس أخذ الفقه جماعة من أعلام التابعين عدّوا أعمدة المدرسة الفقهيّة بمكّة، واعتبروا الأصل الأصيل والركن المتين لهذا المركز الفقهي، أشهرهم مجاهد بن جبر، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، وابن أبي نجيح وابن أبي مليكة وعبيد بن عمير.

وفيما يلي ترجمة وجيزة لهم:

*** ١ *: مجاهد بن جبر[(١)]:**

هو أبو الحجاج القرشيّ المخزومي، مجاهد بن جبر المكّي (١٠٣هـ) أحد أئمّة التابعين والمفسّرين كان من أخصّ أصحاب ابن عباس، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير.

---

(١) البداية والنهاية ٩/٢٢٤ ـ ٢٢٨، شذرات الذهب ١/٢٢٤، مرآة الجنان ١/٢٤٣.

أسند عن أعلام الصحابة وعلمائهم، وروى عن عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وأبي هريرة وعبدالله بن عمرو بن العاص وأبي سعيد الخدري ورافع بن خديج.

عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرّة، وعرض عليه مرّتين يوقفه فيهما عند كلّ آية ويسأله عنها.

وكان من كثرة تبحّره وسعة علمه يقول له عبدالله بن عمر: وددت أنّ نافعاً يحفظ حفظك، وفي رواية: وددت أنّ ابني سالماً وغلامي نافعاً يحفظان حفظك.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

كان مجاهد يقول: لو لم يصب المسلم من أخيه إلاّ أنّ حياء منه يمنعه من المعاصي لكان في ذلك خير.

وكان يقول: الفقيه من يخاف الله وإن قلّ علمه، والجاهل من عصى الله وإن كثر علمه.

ويقول: إنّ العبد إذا أقبل على الله بقلبه، أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه.

ويقول: إنّما القلب بمنزلة الكفّ، فإذا أذنب الرجل ذنباً قبض هكذا ـ وضمّ الخنصر حتى ضمّ أصابعه كلّها إصبعاً إصبعاً ـ قال: ثمّ يطبع.

ويقول: الذنوب تحيط بالقلوب كالحائط المبني على الشيء المحيط، كلّما عمل ذنباً ارتفعت حتى تغشى القلب حتى تكون هكذا ـ ثمّ قبض يده ـ ثمّ قال: هو الران.

مات مجاهد وهو ساجد سنة ١٠٣هـ وقيل قبل ذلك، وقيل بعد ذلك.

*** ٢ *: عكرمة مولى ابن عبّاس[١]:**

عكرمة مولى ابن عباس (١٠٧هـ) أصله من البربر من أهل المغرب، وهب لابن عباس، فسمّاه بأسماء العرب واجتهد في تعليمه حتى أصبح أحد فقهاء مكّة من التابعين الأعلام، من أعلم الناس بالتفسير ومن المفسّرين المكثرين والعلماء الربّانيين الذين يستضيء بهم الأنام.

كان عكرمة من الرحّالين الجوّالين، كثير التطوّف والجولان في البلاد، كثير التنقّل في الأقاليم.

طلب العلم أربعين سنة ثمّ أذن له ابن عباس بالفتوى فقال له: انطلق فأفت الناس فمن سألك عمّا يعنيه فأفته، ومن سألك عمّا لا يعنيه فلا تفته، فإنّك تطرح عنّي ثلثي مؤنة الناس.

كان عكرمة أحد أوعية العلم حتى إنّه ليقول عن نفسه: إنّي لأخرج إلى السوق فأسمع الرجل يتكلّم بالكلمة فينفتح لي خمسون باباً من العلم.

أدرك عكرمة مائتين من أصحاب الرسول ﷺ وروى عن كثير منهم أشهرهم: مولاه عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعائشة أمّ المؤمنين والحسن بن عليّ.

واحتجّ الإمام أحمد ويحيى بن معين والبخاري والجمهور بما روى، في حين أعرض عنه الإمام مالك لمذهبه وما كان يرى من رأي الخوارج.

*** شهادة التابعين وتابعيهم له بالعلم وسعة المعرفة بكتاب الله:**

قيل لسعيد بن جبير: هل تعلم أحداً أعلم منك، فقال: عكرمة، وقال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٠، طبقات ابن سعد ٢/٣٨٥ ـ ٣٨٦ و٥/٢٨٨، وفيات الأعيان ٣/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦، شذرات الذهب ١/ ٢٣٢، البداية والنهاية ٩/ ٢٤٤ ـ ٢٤٨، مرآة الجنان ١/ ٢٤٥.

وقال جابر بن يزيد: عكرمة أعلم الناس، وكان يقول: هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا البحر فاسلوه وقال قتادة: أعلم الناس بالتفسير عكرمة.

وقال حبيب بن أبي ثابت ـ من أعلام الكوفة ـ: اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثلهم أبداً، عطاء بن أبي رباح وطاووس بن كيسان وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس ومجاهد بن جبر ـ وجميعهم قد تتلمذ على ابن عباس ـ، فأقبل سعيد ومجاهد يلقيان على عكرمة التفسير فلم يسألاه عن آية إلاّ فسّرها لهما، فلمّا نفد ما عندهما جعل يقول: أنزلت آية كذا في كذا.

وقال سفيان الثوري: خذوا المناسك عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة.

وقال سفيان بن عمرو: كنت إذا سمعت عكرمة يحدّث عن المغازي كأنّه مشرف عليهم ينظر كيف يصنعون ويقتتلون.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

كان عكرمة يقول: إنّ الشيطان ليزيّن للعبد الذنب فإذا عمله تبرّأ منه، فلا يزال يتضرّع إلى ربّه ويتمسكن له ويبكي حتى يغفر الله له ذلك وما قبله.

ويقول: من قرأ سورة يس لم يزل ذلك اليوم في سرور حتى يمسي، ويقول: لكلّ شيء أساس وأساس الإسلام الخلق الحسن.

وكان يعظ أصحابه بقول لقمان لابنه: قد ذقت المرار فلم أذق شيئاً أمرّ من الفقر، وحملت كلّ حمل ثقيل فلم أحمل أثقل من جار السوء، ولو أنّ الكلام من فضّة لكان السكوت من ذهب.

توفّي عكرمة سنة ١٠٧هـ وقيل سنة ١٠٦هـ وقيل سنة ١٠٥هـ، وقيل

مات عكرمة والشاعر كثير عزّة[١] بالمدينة المنوّرة في يوم واحد فصلّي عليهما بعد الظهر فقال الناس: مات أفقه الناس وأشعر الناس.

*** ٣ *: عطاء بن أبي رباح[٢]:**

هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح (١١٤هـ) أحد أجلّاء الفقهاء، وأحد كبار التابعين الثقات الرفعاء، انفرد بالفتوى بمكّة هو مجاهد، وكان فقيهاً عالماً كثير الحديث.

روى الطبراني وغيره أنّ الحلقة في المسجد الحرام كانت لابن عباس، فلمّا مات ابن عباس كانت لعطاء بن أبي رباح.

يقال أنّه أدرك مائتين من الصحابة، وروى عن عدد كثير منهم عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو وعبدالله بن الزبير وأبو هريرة وزيد بن خالد الجهني وأبو سعيد الخدري وجابر بن عبدالله وعائشة وأمّ سلمة.

*** شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والعلم:**

قال ابن جريج: كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان أحسن الناس صلاة، وقال أبو جعفر الباقر: ما رأيت فيمن لقيت أفقه من عطاء.

وقال إسماعيل بن أميّة: كان عطاء يطيل الصمت فإذا تكلّم يخيّل إلينا أنّه يؤيّد، وقيل: كان مجلسه ذكر الله، لا يفتر، فإن سئل أحسن الجواب.

وقال أبو حنيفة: ما رأيت أحداً أفضل من عطاء.

---

(١) هو أحد عشّاق العرب المشهورين به صاحب عزّة بنت حميل بن حفص، وله معها حكايات ونوادر وأمور مشهورة، وأكثر شعره فيها (مرآة الجنان ٢٤٩/١).

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٩، وفيات الأعيان ٢٦١/٣، البداية والنهاية ٣٠٦/٩، مرآة الجنان ٢٧٠/١، البداية والنهاية ٣٠٦/٩ ـ ٣٠٨، تذكرة الحفّاظ ٩٦/١ ـ ٩٨، طبقات ابن سعد ٣٨٦/٢، شذرات الذهب ٢٥٨/١، تدريب الراوي ٢٤٢/٢، إعلام الموقعين ٢٢/١.

وقال الإمام أحمد: ليس أحد أكثر فتوى في التابعين منه ومن الحسن البصري، كان عطاء فقيه مكّة، والحسن مفتي البصرة.

وقال عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم: لمّا مات العبادلة ـ ابن عباس وابن الزبيّر وابن عمرو بن العاص ـ صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي، فكان فقيه أهل مكّة عطاء بن أبي رباح...

وقال قتادة: أعلم الناس بالمناسك عطاء، وقال إبراهيم بن عمر بن كيسان: أذكرهم في زمان بني أميّة يأمرون في الحاجّ مناديا يقول: لا يفتي الناس إلاّ عطاء بن أبي رباح.

وعن أبي جعفر الصادق قال: ما بقي على وجه الأرض أعلم بمناسك الحجّ من عطاء، وقال الأوزاعي: مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

قال عطاء: إنّ الرجل ليحدّثني بالحديث فأنصت إليه كأنّي لم أكن سمعته، وقد سمعته قبل أن يولد، فأريه أنّي إنّما سمعته الآن منه، وهذا من حسن أدبه مع الناس وتواضعه لهم.

وكان يقول: من جلس مجلس ذكر كفّر الله عنه بذلك المجلس عشر مجالس من مجالس الباطل، فقيل: وما مجلس الذكر؟ قال: مجالس الحلال والحرام، كيف تصلّي، كيف تصوم، كيف تنكح وتطلّق، وتبيع وتشتري.

وكان يقول: الدعوة تعمي عين الحكيم فكيف بالجاهل، ولا تغبطنّ ذا نعمة بما هو فيه فإنّك لا تدري إلى ماذا يصير بعد الموت.

كان مرّة يطوف بالبيت فقال لأصحابه: امسكوا، احفظوا عنّي خمساً: القدر خيره وشرّه، حلوه ومرّه من الله عزّ وجلّ، وليس للعباد فيه مشيئة ولا تفويض، وأهل قبلتنا مؤمنون، حرام دماؤهم وأموالهم

إلاّ بحقّها، وقتال الفئة الباغية بالأيدي والنعال والسلاح، والشهادة على الخوارج بالضلالة.

وكان عطاء في آخر حياته بعد ما كبر وضعف ـ وقد بلغ من العمر ثماني وثمانين سنة ـ يفطر في رمضان ويفدي عن إفطاره، ويقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من سورة البقرة وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرّك.

توفّي سنة ١١٤هـ وقيل في التي بعدها.

*** ٤ *: عمرو بن دينار**(١):

هو أبو محمد عمرو بن دينار اليمني الصنعاني (١٢٦هـ) عالم الحرم ومفتي أهل مكّة وأحد التابعين الأعلام.

أصله من أبناء الفرس الذين أرسلوا مع سيف بن ذي يزن وتوالدوا في اليمن.

تفقّه بطائفة من الصحابة والتابعين أشهرهم: عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وجابر بن قيس وطاووس بن كيسان والحسن البصري وسعيد بن جبير.

سكن مكّة، ولذلك عدّه الشيرازي من فقهاء التابعين بها، وذكره ابن قيم الجوزية في المفتين من التابعين بمكّة.

*** شهادة التابعين وتابعيهم له بالعلم والفقه:**

قيل لعطاء بن أبي رباح: بمن تأمرنا؟ قال: بعمرو بن دينار.

وقال طاووس لابنه: يا بنيّ إذا قدمت مكّة فجالس عمرو بن دينار فإنّ أذنيه قمع للعلماء.

وقال عبدالله بن أبي نجيح: ما رأيت أحداً قطّ أفقه من عمرو بن

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٠، مرآة الجنان ١/٢٨٩ ـ ٢٩٠، إعلام الموقعين ١/٢٤، شذرات الذهب ١/٢٩٥.

دينار، وقال شعبة: ما رأيت في الحديث أثبت منه، وكانت وفاته سنة ١٢٦هـ.

* ٥ *: ابن أبي مليكة[1]:

هو عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة التيمي (١١٧هـ) قاضي مكّة وإمام الحرم وشيخه ومؤذنه الأمين، ولّي القضاء بالطائف زمن خلافة عبدالله بن الزبير.

وكان من كبار أصحاب عبدالله بن عبّاس.

توفّي سنت ١١٧هـ وقيل سنة ١١٩هـ.

وذكر ابن قيم الجوزيّة في المفتين من التابعين بمكّة طاووس بن كيسان، الذي يعدّ من أكبر أصحاب عبدالله بن عباس، غير أنّ أبا إسحاق الشيرازي لا يذكره في فقهاء هذه المدرسة وإنّما يذكره في فقهاء التابعين باليمن.

والسبب في هذا الخلاف، أنّ طاووس قد أكثر الرواية عن ابن عباس، وروى عنه أعلام التابعين بمكّة مثل مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار، وكان كثير الحجّ حتى اتّفق موته بمكّة قبل التروية بيوم.

فإذا نظرنا إليه من هذه الزاوية فهو كما اعتبره البعض من فقهاء أهل مكّة وتابعيها.

وذكر بعضهم أنّ طاووس ولّي صنعاء والجند ـ بلدة في اليمن ـ واستقرّ باليمن، ولا شكّ أنّ طاووس خلال ولايته على تلك البلاد قد كان ذا تأثير في فقهاء اليمن وأهل العلم بها حتى عدّ شيخ أهل اليمن وبركتهم ومفتيهم، ولمّا مات طاووس رضي أهل اليمن بابنه عبدالله بن طاووس قاضيا على تلك البلاد بعده.

---

(١) شذرات الذهب ٢٦٧/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٩ ـ ٧٠ و٧٣، إعلام الموقعين ٢٤/١، البداية والنهاية ٢٣٥/٩.

فإذا نظرنا إليه من هذه الزاوية فهو كما اعتبره البعض الآخر من فقهاء أهل اليمن وتابعيها.

وهذا الرأي الأخير هو الذي أرتئيه وأرجّحه لأنّ تأثير طاووس في مدرسة اليمن بيّن واضح، وأمّا أهل مكّة فعلمهم عن كثير سواه من التابعين.

ولا يقدح في هذا الرأي أنّ مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار كانوا قد رووا عن طاووس، فإنّه وإن كانت روايتهم عنه ثابتة، فإنّهم قد اشتركوا معه في التلقّي من عبدالله بن عباس مباشرة حتى لقد عدّ مجاهد أخصّ أصحاب ابن عباس به، كيف لا، وقد عرض عليه القرآن ثلاثين مرّة، وقيل مرّتين يستوقفه في كلّ آية ويسأله عنها، ثمّ إنّ مجاهداً قد انفرد بالفتوى بمكّة هو وعطاء، كما أنّ حلقة العلم في المسجد الحرام كانت بعد ابن عباس لعطاء.

ثمّ نقل علم هؤلاء وغيرهم جماعة من أحداث التابعين من أشهرهم: عبدالله بن أبي نجيح المكّي المفسّر صاحب مجاهد ومفتي مكّة بعد عطاء المتوفّى بمكّة سنة ١٣١هـ وقيل ١٣٢هـ[١].

المركز الثالث: الكوفة:

هي رمح الله وكنز الإيمان ـ كمّا سمّاها عمر بن الخطاب ـ ورأس الإسلام وجمجمة العرب، نزلها وجوه الصحابة، قيل ثلاثمائة من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر، ذكر منهم ابن سعد ١٥٠ صحابياً.

وأشهر من سكنها منهم عبدالله بن مسعود وعليّ بن أبي طالب وسعد بن أبي وقّاص وخبّاب بن الأرت وسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر وأبو موسى الأشعري والبرّاء بن عازب والنعمان بن بشير والمغيرة بن شعبة وجابر بن سمرة وسمرة بن جندب وسعيد بن زيد وسهل بن حنيف وأبو قتادة بن ربعي وأبو مسعود الأنصاري والنعمان بن

(١) مرآة الجنان ٣٠٠/١، شذرات الذهب ٣١١/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧١.

مقرّن وأخوه معقل بن مقرّن وعدي بن حاتم الطائي وعبدالله بن أبي أوفى وغيرهم، وأكثرهم بالكوفة دفنوا[١].

غير أنّ التأثير الأكبر والأثر الأعظم فيما كان للكوفة من شهرة علميّة في هذا الدور إنّما يعود بالأساس لعبدالله بن مسعود الذي كان زعيم هذا المركز الفقهي بلا منازع لطول مكثه به، ثمّ لعليّ بن أبي طالب بعد ذلك.

*** عبدالله بن مسعود[٢]:**

هو عبدالله بن مسعود الهذلي (٣٢هـ) أحد القرّاء الأربعة، وأعلم الصحابة بكتاب الله، وسادس ستّة آمنوا برسول الله وما على وجه الأرض مسلم غيرهم.

كان أوّل من جهر بالقرآن بمكّة بعد النبيّ ﷺ عند بيت الله الحرام وقريش في أنديتها، قرأ سورة الرحمٰن فقاموا إليه فضربوه.

كان يلازم النبيّ ﷺ حتّى ظنّه البعض أنّه من أهل بيته، وكان يحمل لرسول الله ﷺ نعليه وسواكه حتّى كان يقال له صاحب النعلين والسواك.

أخذ من في رسول الله ﷺ سبعين سورة، فعن ابن مسعود قال: كنت غلاما يافعا أرعى الغنم لعقبة بن أبي معيط، فجاء النبيّ ﷺ وأبو بكر، فقال: يا غلام هل من لبن، قال: قلت: نعم ولكنّي مؤتمن، قال: فهل من شاة لم ينز عليها الفحل، فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه في إناء فشرب وسقى أبا بكر ـ وفي رواية: وشرب أبو بكر ثمّ شربت ـ ثمّ قال للضرع اقلص فقلص، ثمّ أتيته بعد هذا فقلت يا رسول الله علّمني من هذا القول ـ وفي رواية: ثمّ أتيته بعد ذلك قلت علّمني من هذا القرآن ـ قال: فمسح رأسي وقال: أنت غلام معلّم، قال:

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/٦ و١٢/٦ ـ ٦٥، معرفة علوم الحديث ص ١٩١.

(٢) البداية والنهاية ١٦٢/٧ ـ ١٦٣، الاستيعاب ٣١٨/٢ ـ ٣٢٤، الإصابة ٣٦٩/٢ ـ ٣٧٠، إعلام الموقعين ١٥/١، ١٧، ٢٥، مرآة الجنان ١٢٢/١، طبقات ابن سعد ٣٤٠/٢ و٣٤٤، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٣ ـ ٤٤، شذرات الذهب ٦٥/١.

فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد[١].

ولذلك كان ابن مسعود يقول عن نفسه: لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنّي أعلمهم بكتاب الله، ولو أنّي أعلم أنّ أحداً أعلم منّي لرحلت إليه، ولم يردّ ذلك عليه أحد من الصحابة ولا عابه، وفي رواية: وما أنزلت سورة إلاّ وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أنّي أعلم أنّ رجلاً أعلم بكتاب الله منّي تبلغه الإبل لأتيته.

وكان مفتيا يرجع إليه في المشكلات بالاتّفاق بين علماء الشام والحجاز والعراق.

*** شهادة الرسول له بالفضل والعلم بالقرآن:**

عن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خذوا القرآن عن أربعة، من ابن أمّ عبد ـ عبدالله بن مسعود ـ فبدأ به**»[٢]، وفي رواية ثانية: «**استقرئوا القرآن من أربعة: من عبدالله ابن مسعود فبدأ به**»[٣]، وفي رواية ثالثة: «**اقرؤوا القرآن من أربعة نفر: من ابن أمّ عبد فبدأ به**»[٤].

وعن عبدالله بن مسعود أنّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما بشّراه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**من سرّه أن يقرأ غضّاً ـ أو رطباً ـ كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبد**»[٥].

وعن عليّ بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: لو كنت مؤمّرا

(١) أخرجه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، ومسلم صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل.
(٥) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.

أحداً من غير مشورة ـ وفي رواية دون مشورة المؤمنين ـ لأمّرت ابن أمّ عبد(١).

وعن عليّ بن أبي طالب أيضاً قال: أمر النبيّ ﷺ ابن مسعود فصعد على شجرة، أمره أن يأتيه بشيء ـ وفي رواية كان يجتني سواكا من الأراك ـ فنظر أصحابه إلى ساق عبدالله بن مسعود حين صعد الشجرة ـ وكان رقيق الساقين ـ فضحكوا، فقال رسول الله ﷺ: «**تضحكون؟ لرجل عبدالله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد**»(٢).

*** شهادة الصحابة له بالعلم والفقه:**

أقبل عبدالله بن مسعود ذات يوم وعمر بن الخطاب جالس، فلمّا رآه قال: كنيّف ملىء فقها، وربّما قال: علماً.

ولـمّا بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة صحبة عمّار بن ياسر كتب إليهم: إنّي قد بعثت إليكم بعمّار بن ياسر أميرا وعبدالله بن مسعود معلّماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، من أهل بدر، فاسمعوا لهما وأطيعوا، وقد آثرتكم على نفسي بعبدالله بن مسعود.

وقيل لعليّ بن أبي طالب: حدّثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ، قال: عن أيّهم؟ قالوا: عن عبدالله بن مسعود، قال: قرأ القرآن وعلم السنّة، ثمّ انتهى وكفاه بذلك.

ولـمّا حضر معاذ بن جبل الموت سنة ١٨هـ قيل له: يا أبا عبدالرحمٰن أوصنا، قال: التمسوا العلم عند أربعة، فذكر فيهم عبدالله بن مسعود.

وأوصى كذلك معاذ عند موته عمرو بن ميمون الأودي أن يلحق بابن مسعود فيصحبه ويطلب العلم عنده ففعل ذلك.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وأحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.

(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.

وكان حذيفة بن اليمان يحلف بالله ويقول: ما أعلم أحداً أشبه دلاً وهديا وسمتا برسول الله ﷺ من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه من عبدالله بن مسعود، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أنّه من أقربهم وسيلة إلى الله يوم القيامة وأعلمهم بكتاب الله.

وكان رضي الله عنه يرجع إليه الصحابة في المشكلات، فعن علقمة قال: قدمت الشام، فلقيت أبا الدرداء فسألته، فقال: تسألوني وفيكم عبدالله بن مسعود؟.

وقال هذيل بن شرحبيل: سئل أبو موسى الأشعري عن رجل ترك بنتا وبنت ابن وأختا، فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، وليس لابنة الابن شيء، وقال أبو موسى: ائت ابن مسعود فسيتابعني، فجاء إليه فقال: للبنت النصف ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي للأخت، فأتيت أبا موسى وأخبرته، فقال: لا تسألوني عن شيء مادام هذا الحبر فيكم.

وقال بعض التابعين: جالست أصحاب رسول الله ﷺ فما رأيت أحداً أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أحبّ إلى أن أكون في صلاحه من ابن مسعود.

وقال الشعبي: ما كان من أصحاب النبيّ ﷺ أفقه صاحبا من عبدالله بن مسعود.

وبعد أن سيّره عمر إلى الكوفة ليعلّمهم أمور دينهم أمّره عثمان بن عفان عليها ثمّ عزله وأمره بالرجوع إلى المدينة، فقدم إلى المدينة فمرض بها وتوفي سنة ٣٢هـ ودفن بالبقيع على أشهر الأقوال.

ولمّا مات ابن مسعود نعي إلى أبي الدرداء فقال: ما ترك بعده مثله.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

كان يقول: لا يسأل أحدكم عن نفسه إلاّ القرآن، فإن كان يحبّ القرآن فهو يحبّ الله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله.

ويقول: الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقل، والغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل.

ولنختم أقواله بهذا القول المأثور الذي كان قد نطق به في آخر أيامه، ولننصت إلى هذا الحوار الربّاني بين راعي الأمّة وخليفة المسلمين عثمان بن عفّان الذي كان قد استقدم ابن مسعود من الكوفة، وبين عبدالله بن مسعود معلّم الكوفة في عهد عمر وأميرها في عهد عثمان.

جاءه عثمان بن عفان عائدا في مرضه الذي مات فيه، فقال له: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال عثمان: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي، قال عثمان: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال عثمان: ألا آمر لك بعطائك؟ ـ وكان قد تركه سنتين ـ قال: لا حاجة لي فيه، قال عثمان: يكون لبناتك من بعدك، قال ابن مسعود: أتخشى على بناتي الفقر؟ إنّي أمرت بناتي أن يقرأن كلّ ليلة سورة الواقعة وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من قرأ الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً»**.

* عليّ بن أبي طالب[1]:

هو عليّ بن أبي طالب (٤٠هـ) ـ واسم أبي طالب عبد مناف ـ بن عبدالمطّلب القرشيّ الهاشميّ، ابن عمّ الرسول الأكرم ﷺ، وأخوه في الدنيا والآخرة[2]، وزوج ابنته فاطمة البتول.

وهو أوّل من أسلم من الصبيان، كان يكنّى بأبي الحسن، وكنّاه

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٢، إعلام الموقعين ١٦/١، طبقات ابن سعد ٣٣٨/٢ ـ ٣٣٩، الاستيعاب ٣٨/٣ ـ ٤٧، تاريخ الخلفاء ص ١٧١ ـ ١٨٦، مرآة الجنان ١٤٢/١ ـ ١٤٣، تنوير الحوالك ص ٧، البداية والنهاية ٣٣٠/٧ و٢/٨، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨١.

(٢) فعن عبدالله بن عمر قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ـ بين المهاجرين ثمّ بين المهاجرين والأنصار ـ فجاء عليّ تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال له الرسول: أنت أخي في الدنيا والآخرة (أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب).

الرسول أبا تراب[١].

كان من أجلّاء فقهاء الصحابة وأحد قضاة هذه الأمّة، ولذلك كان عمر يتعوّذ بالله من معضلة ليس لها ـ أو فيها ـ أبو الحسن.

كان ذا ضرس قاطع في العلم، والفقه في السنّة، حتى إنّه كان ليقول: سلوني فوالله لا تسألونني عن شيء إلاّ أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلاّ وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار وفي سهل أم في جبل، وكان يقول: والله ما نزلت آية إلاّ وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت إنّ ربّي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً صادقاً ناطقاً.

ولم يكن أحد من الصحابة يقول سلوني إلاّ عليّ بن أبي طالب.

وناهيك بفضائله ما اشتهر به من براعته في الشجاعة والعلوم واهتمامه بنصرة الحقّ وإظهار شعائر الإسلام، ومناقبه وماله من المفاخر يخرج في التعداد عن حصر الحاصر، وذلك ممّا يطول ذكره.

*** شهادة الرسول له بالفضل ودعاؤه له بالهداية والتثبيت:**

ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما ورد لعليّ بن أبي طالب، من ذلك ما ورد عن سهل بن سعد قال: قال النبيّ ﷺ يوم خيبر: **«لأعطينّ الراية غداً رجلاً يفتح على يديه، يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله»**، فبات الناس ليلتهم أيّهم يعطى، فغدوا كلّهم

---

(١) فعن عمّار بن ياسر قال: كنت أنا وعليّ رفيقين في غزوة ذات العشيرة، فلمّا نزلها رسول الله ﷺ وأقام بها رأينا أناسا من بني مدلج يعملون في عين لهم في نخل، فقال لي عليّ: يا أبا اليقظان هل لك أن تأتي هؤلاء فننظر كيف يعملون؟ فجئناهم فنظرنا إلى عملهم ساعة ثمّ غشينا النوم، فانطلقت أنا وعليّ فاضطجعنا في صور من النخل في دقعاء من التراب فنمنا فوالله ما أهبّنا إلاّ رسول الله ﷺ يحرّكنا برجله وقد تترّبنا من تلك الدقعاء، فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعليّ يا أبا تراب لما يرى عليه من التراب (أخرجه أحمد في مسند الكوفيين).

يرجوه، فقال: أين عليّ، فقيل يشتكي عينيه، فبصق في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه، فقال: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل ساحتهم ثمّ ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من أن يكون لك حمر النعم[(١)].

قال عليّ: فما رمدت منذ تفل النبيّ ﷺ في عيني[(٢)].

ولمّا خرج الرسول الأكرم ﷺ إلى تبوك استخلف عليّا، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء، قال: «**ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه ليس نبيّ بعدي**»[(٣)]، وفي رواية: «**غير أنّه لا نبيّ بعدي**»[(٤)].

ولمّا نزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ الآية، دعا رسول الله ﷺ عليّا وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «**اللّهمّ هؤلاء أهلي**»[(٥)].

وعن أبي سرحة أو زيد بن أرقم - شكّ الراوي - أنّ الرسول ﷺ قال: «**من كنت مولاه فعليّ مولاه**»[(٦)]، وفي رواية بزيادة: «**اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه**»[(٧)].

وعن عليّ قال بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله تبعثني وأنا شاب أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء، قال: فضرب بيده في صدري ثمّ قال: «**اللّهمّ اهد قلبه وثبّت لسانه**» قال: فما شككت بعد في قضاء بين اثنين[(٨)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير.
(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وابن ماجة في سننه، المقدّمة.
(٧) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة.
(٨) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الأحكام.

وعن زر بن حبيش قال: قال عليّ: والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة إنّه لعهد النبيّ الأميّ ﷺ إليّ أن لا يحبّني إلاّ مؤمن ولا يبغضني إلاّ منافق[١].

ولذلك ورد عن أبي سعيد الخدري قوله: إنّا كنّا لنعرف المنافقين نحن معشر الأنصار ببغضهم عليّ بن أبي طالب[٢].

*** شهادة الصحابة والتابعين له بالفضل والعلم والسبق:**

عن عبدالله بن عباس قال: قال عمر بن الخطاب: أقضانا عليّ[٣]، وكان ابن عباس يقول: إذا حدّثنا الثقة عن عليّ بفتيا لا نعدوها، وقال: أعطي عليّ ـ رضي الله عنه ـ تسعة أعشار العلم وإنّه لأعلمهم بالعشر الباقي.

وقال ابن مسعود: كنّا نتحدّث أنّ أقضى **أهل المدينة** عليّ، وقال: أفرض **أهل المدينة** وأقضاها عليّ بن أبي طالب.

وذكر عليّ عند عائشة فقالت: أمّا إنّه أعلم من بقي بالسنّة، وفي رواية: أمّا إنّه أعلم الناس بالسنّة.

وعن شريح بن هانىء قال: سئلت عائشة عن المسح على الخفّين فقالت: ائت عليّا فإنّه أعلم بذلك منّي[٤].

وروى الحسن قال: جمع عمر أصحاب النبيّ ﷺ ليستشيرهم وفيهم عليّ، فقال: قل فأنت أعلمهم وأفضلهم.

وقال عبدالله بن عيّاش بن أبي ربيعة: كان لعليّ ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والعهد برسول الله ﷺ، والفقه في السنّة، والنجدة في الحرب، والجود في المال.

---

(١) أخرجه مسلم في سننه، كتاب الإيمان، وابن ماجة في سننه، المقدّمة.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة.

وقال مسروق: انتهى العلم إلى ثلاثة: عالم بالمدينة وعالم بالشام وعالم بالعراق، **فعالم المدينة عليّ بن أبي طالب** ، وعالم العراق عبدالله بن مسعود، وعالم الشام أبو الدرداء، فإذا التقوا سأل عالم الشام وعالم العراق عالم المدينة ولا يسألهما.

والملاحظ أنّ في قول ابن مسعود: عليّ أقضى أهل المدينة وأفرض أهل المدينة وكذلك في قول مسروق: عليّ عالم أهل المدينة، يضع القارىء أمام تساؤل: لم جعلنا عليّا من أصول مدرسة الكوفة ولم نجعله من أصول مدرسة المدينة؟ وللإجابة على ذلك نقول:

إنّ الإمام عليّاً قد استقرّ منذ هجرته بالمدينة ولازم الرسول، ولم يتغيّب عنه إلاّ خلال الفترة التي قضّاها باليمن في البعثة التي أرسله فيها الرسول الأكرم، ثمّ في عهد الخلفاء الثلاثة الذين كانوا قبله قد لازم المدينة، وكان لهم خير مرشد وموجّه ومفت.

ولمّا آلت الخلافة إليه سنة **٣٥**هـ اتّجه إلى الكوفة التي فقدت منذ ثلاث سنوات ـ أي سنة **٣٢**هـ ـ رأس الفتوى بها والركن المتين لمركز الكوفة الفقهي ألا وهو عبدالله بن مسعود.

وفي هذا المركز الجديد تولّى الإمام عليّ تسيير شؤون المسلمين وقيادة الأمّة، والتصدّي للمعضلات لسنوات خمس لم تكتمل.

غير أنّ تلك السنوات الخمس الأخيرة التي قضّاها بالكوفة مع ثلّة من الصحابة الذين أخلصوا في صحبته من أمثال عمّار بن ياسر وسلمان الفارسي، ومع من وجد من أتباع ابن مسعود من أمثال عبيدة بن عمرو السلماني الذي كان أحد أصحاب ابن مسعود الذين يفتون ثمّ اشتهر بعد مقدم عليّ بصحبته، لا شكّ أنّ تلك السنين قد أينعت وأثمرت ورسّخت في أعلام هذه المدرسة الجديدة المنهج الاجتهادي القياسي الذي كان يتّصف به الإمام عليّ فضلاً عمّا كانوا قد حذقوه عن ابن مسعود أفقه أصحاب رسول الله.

وبمقابل هذا الرسوخ والتمكين لمنهج عليّ الاجتهادي بمدرسة

الكوفة، فإنّ تأثيره بمدرسة المدينة قد عرف فتوراً نظراً لازدحام مدينة الرسول بأعلام الصحابة الذين كانوا يقومون على الفتوى، وبغياب عليّ بن أبي طالب تلك السنوات الخمس بالكوفة ثمّ وفاته المبكّرة قد أضاع حبل الوصل مع تلاميذ هذه المدرسة، في حين أنّ زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر وعائشة أمّ المؤمنين وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري الذين قادوا مسيرة هذه المدرسة الأثريّة قد طال بهم العهد بالمدينة ولم ينقطع حبل التواصل بينهم وبين تلامذتها فلذلك عدّ هؤلاء أصولها وأساسها.

ويؤيّد هذا المعنى ما ورد عن الإمام مالك رضي الله عنه الذي ورث علم أهل المدينة حين سئل: لم لم نر في كتابك ذكراً لعليّ وابن عبّاس، فقال: لم يكونا ببلدي ولم ألق رجالهما.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

إنّ خطب عليّ بن أبي طالب ومواعظه ووصاياه كثيرة مشهورة يطول الحديث بذكرها ويعزّ حصرها، ومنها قوله: يا حملة القرآن اعملوا به، فإنّما العالم من علم ثمّ عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يجلسون حلقاً فيباهي بعضهم بعضاً، حتّى إنّ الرجل يغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولائك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله.

وكان يقول: التوفيق خير قائد، وحسن الخلق خير قرين، والعقل خير صاحب، والأدب خير ميراث، ولا وحشة أشدّ من العجب.

وكان يقول: جزاء المعصية الوهن في العبادة والضيق في المعيشة والنقص في اللذّة، قيل: وما النقص في اللذّة؟ قال: لا ينال شهوة حلال إلاّ جاءه ما ينغّصه إيّاها.

ومن وصاياه للحسن قوله: يا بنيّ احفظ عنّي أربعاً وأربعاً، قال: وما هنّ؟ قال: أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة

العجب، وأكرم الكرم حسن الخلق، قال فالأربع الأخر؟ قال: إيّاك ومصاحبة الأحمق فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك، وإيّاك ومصادقة الكذّاب فإنّه يقرّب إليك البعيد ويبعد عليك القريب، وإيّاك ومصادقة البخيل فإنّه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه، وإيّاك ومصادقة الفاجر فإنّه يبيعك بالتافه.

وكان يقول: خمس خذوهنّ عنّي: لا يخافنّ أحد منكم إلاّ ذنبه ولا يرجو إلاّ ربّه ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلّم ولا يستحي من لا يعلم إذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول: الله أعلم، وإنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، وإذا ذهب الرأس ذهب الجسد.

ويقول: الفقيه كلّ الفقيه من لم يقنّط الناس من رحمة الله ولم يرخّص لهم في معاصي الله ولم يؤمنّهم من عذاب الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره لأنّه لا خير في عبادة لا علم فيها ولا علم لا فهم معه ولا قراءة لا تدبّر فيها.

ويقول: تعلّموا العلم تعرفوا به، واعملوا تكونوا من أهله، فإنّه يأتي من بعدكم زمان ينكر فيه من الحقّ تسعة أعشاره، وإنّه لا ينجو منه إلاّ كلّ أوّاب منيب.

وقال ضرار الصدائي: أشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضا على لحيته، يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غرّي غيري، إليّ تعرّضت أم إليّ تشوّقت، هيهات هيهات قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعمرك قصير وخطرك حقير، آه من قلّة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق.

ووصف ضرار الصدائي عليّا فقال: كان والله بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلا ويحكم عدلا، يتفجّر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا زهرتها ويستأنس باليل ووحشته وكان

غزير العبرة طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله مع تقريبه إيّانا وقربه منّا لا نكاد نكلّمه هيبة له، يعظّم أهل الدين ويقرّب المساكين، لا يطمع القويّ في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

وسئل الحسن بن أبي الحسن البصري عن عليّ بن أبي طالب فقال: كان عليّ والله سهماً صائباً من مرامي الله على عدوّه وربّاني هذه الأمّة، وذا فضلها وذا سابقتها وذا قرابتها من رسول الله ﷺ، لم يكن بالنومة عن أمر الله، ولا بالملومة في دين الله، ولا بالسروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة.

استشهد رضي الله عنه صبيحة ليلة الجمعة ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ، وصلّى عليه ابنه الحسن، ودفن بدار الإمارة بالكوفة خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوا عن جثّته، وقبره الآن معروف في مدينة النجف، وهو مزار للشيعة.

ومن هذه المدرسة تخرّج الكثير من كبار التابعين الذين كانوا سرج الكوفة، يستفتيهم الناس ويقصدونهم لتلقّي شتى العلوم، على مرأى ومسمع من كبار الصحابة الذين كانوا يسكنون الكوفة، حتّى عدّ بعضهم ستّين شيخا في الكوفة من أصحاب عبدالله بن مسعود، وفيهم قال الشاعر:

وابن مسعود الذي سرج ... القرية أصحابه ذوو الأحلام

ومن أشهر هؤلاء الأعلام:

*** ١ *: علقمة النخعي[(١)]:**

هو أبو شبل علقمة بن قيس بن عبدالله بن علقمة النخعي (٦٢هـ)

---

(١) البداية والنهاية ٢١٧/٨، تذكرة الحفّاظ ٤٨/١، مرآة الجنان ١٦٩/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٩.

الكوفي، من أكابر أصحاب عبدالله بن مسعود وعلمائهم.

كان فقيهاً بارعاً طيّب الصوت بالقرآن، ثبتاً فيما ينقل، صاحب خير وورع، وكان شبيه ابن مسعود في هديه ودلّه وسمته وفضله.

سمع من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وعليّ بن أبي طالب وأبي الدرداء، وجوّد القرآن على ابن مسعود، وتفقّه به، وكان من أنبل أصحابه حتّى قال فيه ابن مسعود: ما أقرأ شيئاً ولا أعلم شيئاً إلاّ وعلقمة يقرؤه ويعلمه.

وكان غير واحد من الصحابة يستفتونه، فقد ورد عن قابوس بن أبي ظبيان قال: قلت لأبي: كيف تأتي علقمة وتدع أصحاب محمد ﷺ؟ قال: يا بنيّ إنّ أصحاب محمد ﷺ كانوا يسألونه، وكانت وفاته سنة ٦٢هـ.

*** ٢ *: مسروق الهمداني**[1]:

هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني (٦٣هـ) الفقيه العابد، صاحب ابن مسعود وأعلم أهل الكوفة بالفتوى.

أخذ عن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وعبدالله بن مسعود، وكان مشهوراً بالعبادة، فكان يصلّي حتّى تورّم قدماه، وحجّ فما نام إلاّ ساجداً.

شهد له الصحابة والتابعون وأتباعهم بالفضل والعلم، فكان الإمام عليّ يقول: يا أهل الكوفة لن تعجزوا أن تكونوا مثل الهمداني - مسروق بن الأجدع - والسلماني - عبيدة بن عمرو - إنّهما شطر لرجل.

وكان الشعبي يقول: ما علمت أحداً أطلب للعلم من مسروق، ويقول علي بن المديني: ما أقدّم على مسروق أحداً من أصحاب عبدالله بن مسعود.

---

(١) مرآة الجنان ١/١٧٠، شذرات الذهب ١/١٢٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٩، تذكرة الحفّاظ ١/٤٩.

توفّي مسروق سنة ٦٣هـ.

* ٣ *: عبيدة بن عمرو السلماني[1]:

هو أبو عمرو عبيدة بن عمرو - وقيل بن قيس - السلماني المرادي الكوفي (٧٢هـ) الفقيه المفتي، تفقّه بعليّ بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود.

كان يقال: ليس بالكوفة أعلم بالفريضة من عبيدة والحارث الأعور، وكان يجلس في المسجد فإذا ورد على شريح القاضي فريضة فيها حدّ رفعها إلى عبيدة ففرض.

وكان القاضي شريح كلّما أشكل عليه أمر كتب إلى عبيدة فيه، وانتهى إلى قوله.

وقد شهد له الإمام عليّ بالفضل فقال: يا أهل الكوفة لن تعجزوا أن تكونوا مثل الهمداني - مسروق بن الأجدع - والسلماني - عبيدة بن عمرو - إنّهما شطر لرجل.

توفّي سنة ٧٢هـ وقيل ٧٣هـ وقيل ٧٤هـ.

* ٤ *: الأسود النخعي[2]:

هو الأسود بن يزيد بن قيس النخعي (٧٥هـ) الفقيه العابد ابن أخي علقمة بن قيس النخعي - الذي تقدمت ترجمته -، من كبار التابعين، ومن أعيان أصحاب عبدالله بن مسعود، ومن كبار أهل الكوفة.

كان مشهوراً بالعبادة وكثرة الصلاة والصيام، حتّى أنّ معاوية بن أبي سفيان استسقى به، فقال: اللّهمّ إنّا نستسقي بخيرنا وأفضلنا الأسود بن يزيد، ثمّ قال: ارفع يديك، فرفع يديه، فدعا، فسقوا.

---

(١) مرآة الجنان ١/١٧٩، شذرات الذهب ١/١٤٤، البداية والنهاية ٨/٣٢٨، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٩ - ٨٠، البداية والنهاية ٨/٣٢٨.

(٢) البداية والنهاية ٩/١٢، مرآة الجنان ١/١٨٦ - ١٨٧، شذرات الذهب ١/١٥٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٩.

وكانت السيّدة عائشة أمّ المؤمنين تقول: ما بالعراق رجل أكرم عليّ من الأسود، وقيل للإمام الشعبي: أيّهما أفضل: علقمة أو الأسود؟ قال: كان علقمة مع البطيء، والأسود يدرك السريع.

توفّي سنة ٧٥هـ.

*** ٥ *: شريح القاضي(١):**

هو أبو أمية شريح بن الحارث الكندي (٧٨هـ) القاضي المشهور، استقضاه عمر بن الخطاب على القضاء بالكوفة، وبقي قاضيا عليها في عهد عثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب، بحيث قيل إنّه مكث قاضيا نحو سبعين سنة، ثمّ استعفى عن القضاء قبل موته بسنة فأعفاه الحجّاج.

ويحكى في سبب توليته القضاء أنّ عمر بن الخطّاب اشترى فرساً من رجل على أن ينظر إليه، فأخذ الفرس فسار به فعطب، فقال لصاحب الفرس: خذ فرسك، فقال: لا، قال: فاجعل بيني وبينك حكما، قال الرجل: نعم، شريح، قال عمر: ومن شريح؟ قال: شريح العراقي، قال: فانطلقا إليه فقصّا عليه القصّة، فقال شريح: يا أمير المؤمنين ردّ كما أخذت أو خذ بما ابتعته، فقال عمر: وهل القضاء إلاّ هذا؟ سر إلى الكوفة فقد ولّيتك قضاءها، فإنّه لأوّل يوم عرفه يومئذ.

كان فقيهاً نبيهاً شاعراً محسناً صاحب مزاح، ومن مزحه أنّه دخل عليه عديّ بن أرطأة فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: اسمع منّي، قال: قل أسمع، قال: إنّي رجل من الشام قال: مكان سحيق، قال: وتزوّجت عندكم، قال: بالرفاه والبنين، قال: وولدت غلاما، قال: ليهنك الفارس، قال: وأردت أن أرحلها، قال: الرجل أحقّ بأهله، قال: وشرطت لها دارها، قال: الشرط أملك، أو قال المؤمنون عند شروطهم، قال: اقض بيننا، قال: قد فعلت، قال: فعلى من

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٠، مرآة الجنان ١/١٨٩، شذرات الذهب ١/١٥٨، البداية والنهاية ٩/٢٢ ـ ٢٥.

فعلت؟، قال: ابن أمّك، قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

وكان أعلم الناس بالقضاء، له فيه دربة بالغة، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل وإصابة، وممّا يحكى في ذلك أنّ عليّ بن أبي طالب دخل على شريح مع خصم له ذمّي، فقام له شريح، فقال له عليّ كرّم الله وجهه: هذا أوّل جورك، فقال شريح: لو كان خصمك مسلما لما قمت لك، وجوهر القضيّة أنّ عليّ بن أبي طالب ادّعى على الذمّي درعا سقطت منه، فقال للذمّي: ما تقول؟ فقال: الدرع درعي وبيدي، فقال شريح لعليّ: ألك بيّنة أنّها سقطت منك؟ قال: نعم، فأحضر كلّاً من الحسن وعبده قنبر، فقال شريح: قبلت شهادة قنبر، ورددت شهادة الحسن، فقال عليّ: ثكلتك أمّك أما بلغك أنّ النبيّ ﷺ قال: **«الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»**[١] فقال شريح: اللّهمّ نعم، غير أنّي لا أجيز شهادة الولد على والده، ثمّ قال لليهودي: خذ الدرع، هي لك، فقال اليهودي متعجّباً: قاضي المسلمين يحكم على أمير المؤمنين؟ أشهد أنّ الدرع لعليّ وأنّ دينكم هو الحقّ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله، فأهدى عليّ عند ذلك الدرع لليهودي فرحا بإسلامه[٢].

وروي أنّ عليّ بن أبي طالب جمع علماء الكوفة في رحبة المسجد، فقال لهم: إنّي أوشك أن أفارقكم، وجعل يسائلهم، ما تقولون في كذا، ما تقولون في كذا؟ ففرغ من جميعهم، وبقي شريح فلمّا فرغ منه قال: اذهب فأنت من أفضل الناس أو قال: فأنت من أفضل العرب.

وقيل لشريح: بأيّ شيء أصبت هذا العلم؟ قال: بمعاوضة العلماء، آخذ منهم وأعطيهم.

توفّي بالكوفة سنة ٧٨هـ وقيل بعد ذلك، وعاش أكثر من مائة سنة.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وابن ماجة في سننه، المقدّمة.

(٢) شذرات الذهب ١/١٥٩.

* ٦ *: الحارث الأعور[١]:

هو الحارث بن قيس الأعور، كان فقيهاً فرضيّا، يقال: ليس بالكوفة أحد أعلم بفريضة من عبيدة بن عمرو والحارث الأعور.

وقال محمد بن سيرين: أدركت الكوفة وبها أربعة ممّن يعد بالفقه، فمن بدأ بالحارث ثنّى بعبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثنّى بالحارث، وعلقمة الثالث، وشريح الرابع.

وكان ابن سيرين يقول أيضاً: إنّ أربعة أدناهم شريح لخيار.

* ٧ *: زرّ بن حبيش[٢]:

هو زر بن حبيش الأسدي (٨٢هـ) من كبار التابعين الذين أدركوا الجاهليّة، ولم يروا النبيّ ﷺ.

روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي ذرّ الغفاري وعبدالله بن مسعود وعبدالرحمٰن بن عوف وحذيفة بن اليمان وأبيّ بن كعب وغيرهم.

وروي عنه أنّه قال: خرجت من الكوفة في وفد ما لي همّ إلاّ لقاء أصحاب محمد ﷺ، فلقيت عبدالرحمٰن بن عوف وأبيّ بن كعب فجالستهما.

كان من أعلم الناس بلسان العرب، حتى قيل إنّ عبدالله بن مسعود كان يسأله عن العربيّة.

توفي سنة ٨٢هـ وقيل في التي بعدها، وقد أتى عليه عشرون ومائة سنة.

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٠.

(٢) الإصابة ٥٧٧/١.

*** ٨ *: عبدالرحمٰن بن أبي ليلى[١]:**

هو عبدالرحمٰن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي (٨٣هـ) الفقيه المقرىء، روى عن الصحابة، وقيل إنّه أخذ عن مائة وعشرين، منهم عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب وغيرهما، وأخذ القرآن عن عليّ بن أبي طالب.

قال محمد بن سيرين: رأيت أصحابه يعظّمونه كأنّه أمير.

خرج مع عبدالرحمٰن بن محمد بن الأشعث أيّام ولاية الحجّاج على الكوفة فضرب عنقه بين يديه صبرا سنة ٨٣هـ وقتل في تلك السنة من أعيان الكوفة وعلمائها مثل ما قتل يوم الجمل.

*** ٩ *: قيس بن أبي حازم[٢]:**

هو قيس بن أبي حازم البجلي الأحمسي (٨٤هـ) أحد علماء الكوفة وروّاتها، وقدماء التابعين، أسلم في عهد الرسول ﷺ وهاجر إلى المدينة لكنّ الرسول الأكرم قبض قبل أن يلقاه، فقد روي عنه أنّه قال: أتيت النبيّ ﷺ، لأبايعه فجئت وقد قبض وأبو بكر قائم على المنبر في مقامه فأطاب الثناء وأكثر البكاء.

روى عن كبار الصحابة، ويقال أنّه لم يرو عن العشرة جميعا غيره، وروى أيضاً عن بلال بن رباح ومعاذ بن جبل وخالد بن الوليد وابن مسعود حتى قيل: ما بالكوفة أحد أروى عن الصحابة من قيس.

توفّي سنة ٨٤هـ وقيل بعد ذلك.

هؤلاء هم أعلى وأنبل الشيوخ من أصحاب عبدالله بن مسعود وعليّ بن أبي طالب، وأوّل طبقة من كبار التابعين الذين كانوا يفتون في

---

(١) شذرات الذهب ١٧١/١، البداية والنهاية ٥٢/٩، مرآة الجنان ٢٠١/١، شذرات الذهب ١٧١/١، الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٩٣/٥.
(٢) الإصابة ٢٧١/٣ ـ ٢٧٢.

مسائل الدين والأكابر من أصحاب الرسول الأكرم ﷺ، حاضرون ويجيزون لهم ذلك.

وعن هؤلاء الأعلام من كبار التابعين بالكوفة تلقّى جماعة من التابعين الذين لم يدركوا عبدالله بن مسعود ـ لتقدّم وفاته ـ ولكنّهم أدركوا مع ذلك المنزلة العليا في سعة العلم والقدرة على الاجتهاد، وأشهرهم:

ـ ١ ـ سعيد بن جبير[١]:

هو أبو عبدالله سعيد بن جبير بن هشام (٩٥هـ) الكوفي المقرىء المفسّر الفقيه المحدّث.

ورغم أنّ سعيد بن جبير معدود في أعلام التابعين المنتمين إلى مدرسة الكوفة إلاّ أنّه قد أخذ العلم عن عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر، وكانت أكثر روايته عن عبدالله بن عباس، وأجاز له في حياته أن يحدّث، فقال سعيد: أحدّث وأنت ها هنا، فقال ابن عباس: أليس من نعمة الله عليك أن تحدّث وأنا شاهد، فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علّمتك، فحدّث في حياته بإذنه، وكان سعيد لا يكتب الفتاوى مع ابن عباس، فلمّا عمي ابن عبّاس كتب، وسمع منه التفسير.

تنقّل سعيد بن جبير في البلاد هربا من بطش الحجّاج بن يوسف الثقفي، فدخل أصبهان وأقام بها مدّة، ثمّ ارتحل منها إلى العراق، وكان يتردّد في كلّ سنة إلى مكّة مرّتين، مرّة للعمرة ومرّة للحجّ.

وروي أنّه لمّا كان بأصبهان كان الناس يسألونه عن الحديث، فلا يحدّث، ثمّ لمّا رجع إلى الكوفة حدّث فلمّا قيل له في ذلك، قال: انشر بزّك حيث تعرف.

ولجأ آخر الأمر إلى مكّة فأقام بها، فأشار من أشار عليه بالهرب منها

---

(١) مرآة الجنان ٢٢٥/١، شذرات الذهب ١٩٨/١ ـ ١٩٩، البداية والنهاية ٩٦/٩ ـ ٩٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٢.

فقال سعيد: والله لقد استحييت من الله ممّا أفرّ ولا مفرّ من قدره.

استمرّ سعيد بن جبير على هذا الحال ما يقرب من اثنتي عشرة سنة، فكان علمه موزّعا بين أهل مكّة وأهل الكوفة.

ونظرا لهذه المدّة الطويلة التي قضّاها سعيد بن جبير مختفياً من الحجّاج وأعوانه، فقد أهمّه ما يحمله من علم واسع لا يستطيع تبليغه في كلّ آن، ولذلك فقد روي عنه أنّه كان يقول: إنّ ممّا يهمّني ما عندي من العلم، وددت أنّ الناس أخذوه.

شهد له حبر الأمّة عبدالله بن عباس بالعلم والقدرة على الإفتاء، فكان ابن عبّاس إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه، يقول: يسألونني وفيهم ابن أمّ دهماء؟ - يعني سعيد بن جبير - وقال خصيف بن عبدالرحمٰن الجزري: كان أعلمهم بالطلاق سعيد بن المسيّب، وأعلمهم بالحجّ عطاء، وأعلمهم بالحلال والحرام طاووس، وأعلمهم بالتفسير مجاهد، وأجمعهم لذلك كلّه سعيد بن جبير.

وكان سعيد بن جبير مع علمه الواسع مشهورا بالصلاح، معروفا بإتقانه للقرآن، فقد روي أنّه قرأ القرآن في ركعة في البيت الحرام، وكان يؤمّ الناس في شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة أخرى، وهكذا أبدا.

وبعد ما يقرب من اثنتيْ عشرة سنة من التخفّي استطاع الحجّاج أن يظفر بسعيد بن جبير[1] فقتله وما على وجه الأرض أحد إلاّ وهو محتاج ومفتقر إلى علم سعيد.

---

(١) حيث أرسل الحجّاج إلى والي المدينة خالد بن عبدالله القسري يخبره أنّ بمكّة أقواما من أهل الشقاق، فعزم خالد أن يبعث بسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وعمرو بن دينار وطلق بن حبيب، وكلّهم من خيار الناس وأعلام التابعين، ومن العلماء العاملين الذين كرهوا ظلم الحجّاج وبطشه بالناس، ثمّ عفا خالد عن عطاء وعمرو بن دينار لأنّهما من أهل مكّة، وبعث بالثلاثة الباقين، فأمّا طلق بن حبيب فمات في الطريق قبل أن يصل، وأمّا مجاهد فحبس وبقي في السجن=

ومن مناقب سعيد بن جبير التي تدلّ على ثباته على الحقّ، ما رواه لنا المؤرخون وأصحاب الطبقات ممّا جرى بينه - وهو يومئذ أعلم أهل الأرض وأصلحها -، وبين الحجّاج بن يوسف - وهو يومئذ أطغى أهل الأرض وأعظمها ظلما - نوردها بنصّها:

لمّا دخل سعيد بن جبير على الحجّاج قام بين يديه، فقال له: أعوذ منك بما استعاذت به مريم بنت عمران حيث قالت ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾(١).

فقال له الحجّاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير، قال: بل أنت شقيّ بن كسير، قال: أمّي أعلم باسمي، قال: شقيت وشقيت أمّك، قال: الغيب يعلمه غيرك، قال: لأوردنّك حياض الموت، قال: أنا إذا كما سمّتني أمّي سعيدا، قال: ما تقول في عبدالملك بن مروان؟، قال: ما لك تسألني عن امرىء أنت واحدة من ذنوبه؟.

قال: ويلك، قال: الويل لمن زحزح عن الجنّة وأدخل النار، قال: ويحك، إنّي قاتلك، قال: إنّ الله عزّ وجلّ قد وقّت لي وقتا أنا بالغه، فإن يكن أجلي قد حضر فهو أمر قد فرغ منه ولا محيص ساعة، وإن تكن العافية فالله تعالى أولى بها، قال: لأبدلنّك بالدنيا نارا تلظّى، قال: لو علمت أنّ ذلك بيدك لاتخذتك إلها.

قال: اذهبوا به فاقتلوه، قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمدا عبده ورسوله، خذها منّي يا حجّاج حتى ألقاك يوم

= حتى مات الحجّاج، وأمّا سعيد بن جبير فأمر الحجّاج بقتله فلم يلبث بعده إلاّ قليلا وعوجل بالعقوبة، فكان إذا نام يرى سعيد في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدوّ الله فيم قتلتني؟ فيقول الحجّاج: ما لي ولسعيد بن جبير، ما لي ولسعيد بن جبير؟ وكان موت الحجاج بالأكلة في بطنه، والبرد في جسمه فكان يوقد النار تحته حتى تحرق ثيابه، فشكا إلى الحسن البصري، فقال له: ألم أكن نهيتك أن تتعرّض للصالحين فلججت؟ وأقام الحجاج على هذه الحال بعلّته تلك خمسة عشر يوماً ثمّ أخذه الله، (البداية والنهاية ٩/٩٦ - ٩٧، شذرات الذهب ١/١٩٨).

(١) سورة مريم، الآية: ١٨.

القيامة بين يدي الله، فلمّا تولّوا به ليقتلوه ضحك سعيد، فقال الحجّاج: ارجعوا به، ثمّ قال له: ما أضحكك؟، قال: عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله جلّ وعلا عليك، ثمّ استقبل القبلة وقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١]، قال الحجّاج: حوّلوا وجهه عن القبلة، قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[٢]، قال: اضربوا به الأرض، وفي رواية قال: اجلدوا به الأرض، قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾[٣]، قال: اذبح فما أنزعه لآيات الله منذ اليوم، قال: اللّهمّ لا تسلّطه على أحد بعدي، أو قال: ولا تمهله من بعدي.

وذبح سعيد رحمه الله من قفاه، فعوقب الحجّاج بعده وعوجل بالعقوبة ولم يلبث إلاّ أيّاما ثمّ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر[٤].

واختلفوا في عمر سعيد حين قتل، فقيل تسعا وأربعين سنة، وقيل سبعا وخمسين سنة، كما اختلفوا في سنة وفاته فقيل سنة ٩٥هـ وقيل في التي قبلها.

* ما أثر عنه من أقوال:

كان يقول: إنّ أفضل الخشية أن تخشى الله خشية تحول بينك وبين معصيته، وتحملك على طاعته، فتلك هي الخشية النافعة.

وكان يقول: الذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر للّه، وإن كثر منه التسبيح وقراءة القرآن.

---

(١) سورة الأنعام ـ الآية ٧٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٥.
(٣) سورة طه، الآية: ٥٥.
(٤) وقد ذكر المؤرخون روايات كثيرة في صيغة الحوار الذي دار بين سعيد بن جبير والحجاج (البداية والنهاية ٩/٩٨ ـ ٩٩، مرآة الجنان ١/٢٢٥ ـ ٢٢٦، شذرات الذهب ١/١٩٩ ـ ٢٠٠).

وسئل: من أعبد الناس؟ فقال: رجل اقترف من الذنوب، فكلّما ذكر ذنبه احتقر عمله.

- ٢ - إبراهيم النخعي[١]:

هو الإمام الجليل أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن الأسود بن عمرو بن ربيعة النخعي (٩٥هـ) فقيه العراق بالاتّفاق.

أخذ العلم عن خاله علقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد بن قيس النخعي، ومسروق، وأدرك أمّ المؤمنين عائشة وهو صغير.

نشأ في أهل بيت فقه، فأخذ فقههم ثمّ جالس أعلام العراق فأخذ صفو حديثهم إلى فقه أهل بيته، فلم يكن أحد مثله، حتى قال عبدالرحمٰن بين زيد بن أسلم: إبراهيم النخعي فقيه أهل الكوفة.

وقال الشعبي حين بلغه موت إبراهيم النخعي: ما خلف بعده مثله.

ولمّا حضرته الوفاة جزع جزعا شديدا، فقيل له في ذلك، فقال: وأيّ خطر عظيم ممّا أنا فيه؟ أنا أتوقّع رسولا يرد عليّ من ربّي إمّا بالجنّة أو بالنار.

وفي رواية أنّه بكى عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: انتظار ملك الموت، ما أدري يبشّرني بجنّة أو بنار.

توفّي سنة ٩٥هـ وقيل سنة ٩٦هـ، وصلّى عليه ابن خاله عبدالرحمٰن بن الأسود بن يزيد.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

كان إبراهيم النخعي يقول: لا يستقيم رأي إلاّ برويّة، ولا رويّة إلاّ برأي، ويقول: إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبيرة الأولى فاغسل يديك من

---

(١) تذكرة الحفّاظ ٧٤/١، مرآة الجنان ٢٢٦/١، شذرات الذهب ٢٠١/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٢، إعلام الموقعين ٢٢/١، البداية والنهاية ١٤٠/٩.

فلاحه، ويقول: إنّي لأرى الشيء ممّا يعاب فلا يمنعني من عيبه إلاّ مخافة أن ابتلى به.

وقال مرّة يعظ الناس: كنّا إذا حضرنا جنازة أو سمعنا بميّت عرف ذلك فينا أيّاماً لأنّا قد عرفنا أنّه نزل به أمر صيّره إلى الجنّة أو إلى النار، وإنكم تتحدّثون في جنازتكم بأحاديث دنياكم.

ـ ٣ ـ عامر الشعبي[(١)]:

هو أبو عمرو عامر بن شراحبيل بن معبد الشعبي (١٠٤هـ) تابعي جليل القدر وافر العلم، علاّمة أهل الكوفة، كان إماماً حافظاً، وكان ذا أدب وافر وعقل فاخر.

أدرك أكثر من خمسمائة من الصحابة، وروى عن جمع منهم وعن كثير من التابعين.

كانت لديه ذاكرة قويّة وكان آية في الحفظ والضبط حتّى كان يقول عن نفسه: ما أودعت قلبي شيئاً فخانني قطّ، وكان يقول أيضاً: ما كتبت سوداء في بيضاء إلاّ حفظتها.

وكان يستفتى وأصحاب النبيّ ﷺ بالكوفة.

وكان مزاحاً ـ شأنه في ذلك شأن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ـ[(٢)]، فقد روي أنّ الشعبي قال لخيّاط مرّ به: عندنا حبّ مكسور تخيطه؟ فقال له: نعم، إن كان عندك خيط من ريح.

ودخل رجل على الشعبي، ومعه في البيت امرأة، فقال: أيّكما الشعبي؟ فقال: هذه.

(١) مرآة الجنان ٢٤٤/١ ـ ٢٤٧، البداية والنهاية ٢٣٠/٩ ـ ٢٣١، شذرات الذهب ٢٢٨/١ ـ ٢٢٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨١.

(٢) انظر: شذرات الذهب ٢٠١/١.

* **شهادة الصحابة والتابعين وأتباعهم له بالعلم والفقه:**

روي أنّ عبدالله بن عمر بن الخطّاب مرّ بالشعبي وهو يحدّث بالمغازي، فقال: شهدت القوم وأنّه أعلم بها منّي، وقال مكحول: ما رأيت أحداً أعلم بسنّة ماضية من عامر الشعبي.

وقال ابن شهاب الزهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيّب بالمدينة، وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن بن أبي الحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام.

وقال عليّ بن المديني: ابن عبّاس في زمانه، والشعبي في زمانه، وسفيان الثوري في زمانه.

وقال بعضهم: ما رأيت أفقه من الشعبي.

وقال أشعث بن سوار: نعى إلينا الحسن البصري عامر الشعبي، فقال: كان والله فيما علمت كثير العلم، عظيم الحلم، قديم السلم، من الإسلام بمكان.

* **ما أثر عنه من أقوال:**

كان يقول: إنّما الفقيه من تورّع عن محارم الله، والعالم من خاف الله تعالى، ويقول: اتّقوا القاصر ـ أو قال الفاجر ـ من العلماء، والجاهل من المتعبّدين.

وكان يقول: رأس العلم إذا سئلت عمّا لا تعلم أن تقول: الله أعلم.

توفّي سنة ١٠٤هـ وقيل في التي قبلها، وقيل في التي بعدها.

ثمّ نقل علم هؤلاء التابعين وغيرهم جماعة من أعلام أحداث التابعين، أشهرهم:

ـ ٤ ـ **الحكم بن عتيبة**[١]:

هو أبو محمد الحكم بن عتيبة بن النهاس الكوفي (١١٥هـ) الفقيه النبيه شيخ الكوفة، ولد هو وإبراهيم النخعي في ليلة واحدة، لكنّه تفقه بإبراهيم.

كان صاحب سنّة واتّباع، وما كان بالكوفة مثله.

كان جليلاً عظيم القدر، إذا قدم المدينة أخلوا له سارية النبيّ ﷺ يصلّي إليها.

قال مجاهد بن رومي: ما كنت أعرف فضل الحكم إلاّ إذا اجتمع علماء الناس في مسجد منى، نظرت إليهم عيال عليه.

ويشهد لهذا ما روي عن الإمام الأوزاعي أنّه قال: قال لي يحيى بن أبي كثير ـ وفي رواية عبدة بن أبي لبابة ـ ونحن بمنى، لقيت الحكم بن عتيبة؟ قال: قلت لا، قال: ما بين لابتيها أفقه منه، قال: وبها عطاء بن أبي رباح وأصحابه، وكانت وفاته سنة ١١٥هـ.

ـ ٥ ـ **حمّاد بن أبي سليمان**[٢]:

هو فقيه الكوفة أبو إسماعيل حمّاد بن أبي سليمان (١٢٠هـ) مولى إبراهيم بن أبي موسى الأشعري.

تفقّه بإبراهيم النخعي، وروى عن الصحابي أنس بن مالك وعن التابعي الجليل سعيد بن المسيّب وغيرهما، وكان جوّاداً سريّاً محتشماً صدوق اللسان.

قيل لإبراهيم النخعي: ما لنا بعدك؟ فقال: حمّاد، وكان سفيان بن

---

(١) شذرات الذهب ٢٦٣/١، تذكرة الحفاظ ١١٧/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٢ ـ ٨٣، مرآة الجنان ٢٧٦/١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٣، مرآة الجنان ٢٨٢/١، شذرات الذهب ٢٧٤/١، تذكرة الحفاظ ١١٧/١.

عيينة يقول: ما كان بالكوفة مثل الحكم بن عتيبة وحمّاد بن أبي سليمان.

توفّي سنة ١٢٠هـ وقيل في التي قبلها.

ـ ٦ ـ حبيب بن أبي ثابت(١):

هو حبيب بن أبي ثابت (١١٩هـ)، فقيه الكوفة ومفتيها مع حمّاد بن أبي سليمان، سمع من عائشة أمّ المؤمنين، وروى عن عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وأنس بن مالك وأبي عبدالرحمٰن السلمي وأبي وائل وسعيد بن جبير وغيرهم.

وكان أبو بكر ابن عيّاش يقول: ثلاثة ليس لهم رابع: حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتيبة وحمّاد بن أبي سليمان.

وكان حبيب بن أبي ثابت يقول: اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثلهم أبداً، عطاء بن أبي رباح، وطاووس بن كيسان، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، ومجاهد بن جبر.

توفّي سنة ١١٩هـ وقيل سنة ١١٧هـ.

ـ ٧ ـ المغيرة بن مقسم(٢):

هو المغيرة بن مقسم الضبّي (١٣٣هـ) الفقيه الكوفي الأعمى، أحد الأئمّة الأعلام، كان من فقهاء أصحاب إبراهيم النخعي، وكان يسمّى: راوية إبراهيم.

كان ذكيًّا، عجباً في الذكاء، حافظاً صاحب سنّة، ويقال أنّه كان أحفظ من حمّاد بن أبي سليمان حتى إنّ المغيرة كان يقول عن نفسه: ما وقع في مسامعي شيء فنسيته، توفّي سنة ١٣٣هـ.

---

(١) تذكرة الحفّاظ ١١٦/١، مرآة الجنان ٢٨٢/١، شذرات الذهب ٢٧٣/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٣، البداية والنهاية ٢٤٥/٩.

(٢) مرآة الجنان ٣٠٤/١، شذرات الذهب ٣٢٣/١، تذكرة الحفاظ ١٤٣/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٣.

وكان بالكوفة الكثير من أحداث الأعلام من أقران هؤلاء الذين نشطوا في طلب العلم وتلّقوا عن الشعبي وإبراهيم النخعي وغيرهما، حتى يروى عن بعضهم أنّهم كانوا يجلسون بالليل يتذاكرون الفقه فربّما لا يقومون حتى يسمعوا النداء لصلاة الفجر(١)، وذلك لشدّة حرصهم على طلب العلم والترقّي فيه.

المركز الرابع: البصرة:

هي ثاني المراكز الفقهيّة بالعراق، بعد الكوفة، نزل بها جمع غفير من أصحاب الرسول الأكرم ﷺ، منذ تأسيسها في عهد عمر بن الخطاب، مثل عمران بن حصين وأبو برزة الأسلمي ومعقل بن يسار وعبدالرحمٰن بن سمرة وعبدالله بن الشخّير والأقرع بن حابس وغيرهم من الصحابة الذين نزلوا البصرة(٢).

وقد سمّى منهم ابن سعد في طبقاته **١٥٢** صحابيّاً(٣) غير أنّ أشهر من نزلها من الصحابة ممّن كان لهم الأثر البالغ والتأثير العميق بلا منازع، في هذا المركز الفقهي الجديد، هما أبو موسى الأشعري وأنس بن مالك.

*** أبو موسى الأشعري(٤):**

فأمّا أبو موسى الأشعري فهو عبدالله بن قيس بن سليم الأشعري، واشتهر باسمه وكنيته معاً، روى عن النبيّ ﷺ وعن الخلفاء الأربعة ومعاذ بن جبل وعبدالله بن مسعود وأبيّ بن كعب وعمّار بن ياسر.

كان ممّن بعثه الرسول ﷺ مع معاذ إلى اليمن ليعلّم الناس القرآن، فكان ممّا أوصاهما به قوله ﷺ: **«يسّرا ولا تعسّرا وبشّرا ولا تنفّرا وتطاوعا**

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٤.
(٢) معرفة علوم الحديث ص ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٣) طبقات ابن سعد ٧/٥ ـ ٨٩.
(٤) الإصابة ٣٥٩/٢ ـ ٣٦٠، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٤، البداية والنهاية ٥٩/٨ ـ ٦٠، الاستيعاب ٣٧٢/٢ ـ ٣٧٣، إعلام الموقعين ١٦/١.

ولا تختلفا»[١].

ثمّ ولاّه عمر البصرة، فعلّم بها وفقّه أهلها، فقد روي أنّ أنس بن مالك قال: بعثني الأشعري إلى عمر فأتيته فسألني عنه، فقلت: تركته يعلّم الناس، فقال: أمّا إنّه كيّس، فلا تسمعها إيّاه.

وكان عمر قد كتب في وصيّته: لا يقرّ لي عامل أكثر من سنة وأقرّ الأشعري أربع سنين.

فكان أبو موسى هو الذي فقّه أهل البصرة وأقرأهم، حتى قال الحسن البصري: ما أتى البصرة راكب خير من لأهلها من أبي موسى الأشعري.

بقي أبو موسى الأشعري واليا على البصرة منذ أن ولاّه عمر بن الخطاب إلى صدر من خلافة عثمان ثمّ صرفه عنها، فنزل حينئذ أبو موسى الكوفة وسكنها، وتفقّه به أهلها حتى ولاّه عثمان عليهم.

استمرّ أبو موسى واليا على الكوفة إلى أن توفّي عثمان بن عفان، فلمّا تولّى الخلافة عليّ بن أبي طالب عزله عنها، غير أنّ أبا موسى استقرّ بالكوفة حتى توفي بها[٢].

ولذلك كان فقه أبي موسى الأشعري موزّعا بين مركزي أهل العراق، أعني مركز الكوفة ومركز البصرة.

ولقد كان رضي الله عنه من قرّاء الصحابة وفقهائهم، وكان حسن الصوت بالقرآن بل كان أحسن الصحابة صوتا في زمانه حتى إنّ الرسول ﷺ قال له: **«لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود»**[٣].

وكان عمر بن الخطاب إذا رأى أبا موسى قال: ذكّرنا ربّنا يا أبا

---

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيهما، كتاب الجهاد والسير.

(٢) وقيل بل مات بمكّة بعد أن اعتزل الناس بعد حادثة التحكيم (الاستيعاب ٢/٣٧٢، البداية والنهاية ٨/٦٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

موسى، فيقرأ عنده[١].

*** شهادة الصحابة والتابعين له بالفضل والعلم:**

سئل الإمام عليّ عن أبي موسى فقال: صبغ في العلم صبغة.

وقال الشعبي: قضاة هذه الأمّة أربعة: عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري، وكذلك قال عليّ بن المديني.

وقال مسروق: كان العلم في ستّة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يصفهم أهل الكوفة عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وأبو موسى الأشعري وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت، رضي الله عنهم، وذكر عن الشعبي مثل ذلك.

وفي تاريخ وفاته خلاف كبير فقيل توفي سنة ٤٤هـ وقيل سنة ٥٠هـ وقيل ٥١ وقيل ٥٢ وقيل ٥٣، كما اختلفوا في مكان وفاته، بالكوفة أم بمكّة.

*** أنس بن مالك[٢]:**

هو أبو حمزة أنس بن مالك الأنصاري خادم رسول الله ﷺ، من سادات الصحابة ذوي الفضائل والإنابة.

خدم النبيّ ﷺ بالمدينة وهو ابن عشر سنين، فعن ابن شهاب الزهري، قال: أخبرني أنس بن مالك الأنصاري أنّه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فكان أمّهاتي يواظبنني على خدمة النبيّ ﷺ

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن.

(٢) مرآة الجنان ٢١١/١، شذرات الذهب ١٨٧/١، الإصابة ٧١/١، البداية والنهاية ٨٩/٩ - ٩٢، إسعاف المبطأ ص ٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٥١ - ٥٢، الاستيعاب ٧٣/١.

فخدمته عشر سنين[(١)].

كنّاه الرسول الأكرم ﷺ أبا حمزة ببقلة يجتنيها، فعن أنس قال: كنّاني رسول الله ﷺ ببقلة كنت أجتنيها[(٢)]، ومازحه النبيّ فقال له: «**يا ذا الأذنين**»[(٣)].

وكان الرسول الأكرم ﷺ يحسن صحبته، فعن أنس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة ليس له خادم، فأخذ أبو طلحة بيدي فانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ أنسا غلام كيّس فليخدمك، قال: فخدمته في السفر والحضر، ما قال لي لشيء صنعته لم صنعت هذا؟ ولا لشيء لم أصنعه، لم لم تصنع هذا هكذا؟[(٤)].

*** دعاء الرسول له بكثرة المال والولد والبركة فيهما:**

عن أنس قال: قالت أمّي ـ أمّ سليم ـ يا رسول الله: خادمك أنس ادع الله له، فقال: اللّهمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته[(٥)] قال أنس: فوالله إنّ مالي لكثير، وإنّ ولدي وولد ولدي ليتعادّون على نحو المائة اليوم[(٦)]، وقد دفن أنس لصلبه إلى مقدم الحجّاج البصرة مائة وعشرين، وكان نخله يثمر في العام مرّتين.

وعن أنس أيضاً قال: مرّ رسول الله ﷺ فسمعت أمّي أمّ سليم صوته، فقالت بأبي وأمّي يا رسول الله أنيس، فدعا لي رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البرّ والصلة وفي المناقب، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا وكتاب الديّات، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

ثلاث دعوات[١] قد رأيت منها اثنتين في الدنيا، وأنا أرجو الثالثة في الآخرة[٢].

ولذلك كان أنس بن مالك يسأل الرسول الأكرم أن يشفع له يوم القيامة، فعن أنس قال: سألت النبيّ ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: **«أنا فاعل»**، قال: قلت يا رسول الله فأين أطلبك، قال: **«اطلبني أوّل ما تطلبني على الصراط»**، قال: قلت: فإن لم ألقك على الصراط، قال: **«فاطلبني عند الميزان»** قلت: فإن لم ألقك عند الميزان، قال: **«اطلبني عند الحوض فإنّي لا أخطىء هذه الثلاث المواطن»**[٣].

روى أنس عن النبيّ ﷺ أحاديث جمّة، وأخبر بعلوم مهمّة، وروى عن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهم.

ويعدّ أنس بن مالك ثالث سبعة من الصحابة المكثرين من الرواية عن رسول الله ﷺ، ـ بعد أبي هريرة وعبدالله بن عمر بن الخطاب ـ وعدد ما رواه ٢٢٨٦ حديثاً[٤]، كانت إقامة أنس بعد وفاة النبيّ ﷺ بالمدينة، وقد استعمله أبو بكر ثمّ عمر على البحرين، ثمّ انتقل فسكن البصرة ومات بها.

وكان كثير العبادة حتى إنّه روي أنّه كان يصلّي فيطيل القيام حتى تقطر قدماه دما.

*** شهادة الصحابة له بالفضل والعلم:**

قال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من ابن أمّ سليم ـ يعني أنس بن مالك ـ وقال محمد بن سيرين: كان أنس بن مالك أحسن الناس صلاة في الحضر وفي السفر.

---

(١) أي قوله ﷺ: اللّهمّ أكثر ماله وولده وأدخله الجنّة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع.

(٤) تدريب الراوي ٢/٢١٧.

وقال قتادة لـمّا مات أنس قال مؤرق العجلي: اليوم ذهب نصف العلم، قيل له، وكيف ذاك يا أبا المعتمر؟ قال: كان إذا خالفنا الرجل قلنا: تعال إلى من سمعه من رسول الله ﷺ.

توفّي أنس سنة ٩٣هـ وهو المشهور، وقيل قبل ذلك بسنة وقيل بسنتين وقيل بثلاث، وقد جاوز المائة، وهو آخر الصحابة موتا بالبصرة، وما بقي أحد صلّى إلى القبلتين غيره.

وإلى هذين الصحابيين، أعني أبا موسى الأشعري وأنس بن مالك يعود الأثر الأعظم والدور الأكبر في تخرّج أعلام التابعين من البصريين الذين تأسّس بهم هذا المركز الفقهي.

ولقد كان أبو موسى الأشعري أقضى من أنس، وكان أنس أكثر رواية للحديث من أبي موسى، ثمّ آلت زعامة البصرة إلى أنس بلا منازع.

ويمكن أن نرجع ذلك إلى عاملين أساسين هما:

أوّلهما: استقرار أنس بالبصرة بعد أن استعمله أبو بكر ثمّ عمر على البحرين، إلى حين وفاته، وهذا يعني أنّ أنساً قد قضى بالبصرة ما يقرب من سبعة عقود من حياته، في حين أنّ أبا موسى الأشعري قد استعمله عمر أوّل الأمر على الكوفة ثمّ على البصرة والياً ومعلّماً وقاضياً، ثمّ عزله عثمان عن البصرة بعد أن أقرّه عليها زمناً وولاّه الكوفة التي عزله عنها عليّ بن أبي طالب بعد ذلك، فكان فقه أبي موسى موزّعاً بين أهل الكوفة وأهل البصرة.

ثانيهما: تأخّر وفاة أنس بن مالك، فإنّ أنساً قد عمّر إلى سنة ٩٣هـ على رأي الجمهور فكان آخر الصحابة موتاً بالبصرة، في حين توفّي أبو موسى سنة ٤٤هـ أو ٥٢هـ على المشهور، ولا شكّ أنّ هذه الفترة الفاصلة بين وفاتهما والتي تتراوح بأربعة عقود على أقل تقدير، قد كان لها العامل الأعظم في جعل أنس بن مالك زعيم هذا المركز الفقهي بلا منازع وإن كنّا لا ننفي تأثير أبي موسى في هذا المركز.

وأشهر من تخرّج بهذا المركز من أعلام التابعين:

*** ١ *: جابر بن زيد[١]:**

هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي (٩٣هـ) الفقيه البصري، أسند عن جماعة من الصحابة، ومعظم روايته عن عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس.

كان من الذين أوتوا العلم، وكان يفتي في البصرة، وكان الصحابة مثل جابر بن عبدالله إذا سأله أهل البصرة عن مسألة يقول: كيف تسألوننا وفيكم أبو الشعثاء؟ وقال له جابر بن عبدالله: يا ابن زيد إنّك من فقهاء البصرة وإنّك ستستفتى، فلا تفتينّ إلاّ بقرآن ناطق أو سنّة ماضية، فإنّك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت.

*** شهادة الصحابة والتابعين له بالعلم والفضل:**

كان عبدالله بن عباس يقول: لو أنّ أهل البصرة نزلوا على قول أبي الشعثاء لأوسعهم علماً عمّا في كتاب الله عزّ وجلّ.

وقال إيّاس بن معاوية: أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد.

وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً أعلم بفتيا من جابر بن زيد.

ولمّا مات جابر بن زيد ودفن، قال قتادة: اليوم دفن أعلم أهل الأرض.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

كان يقول: لأن أتصدّق بدرهم على يتيم ومسكين أحبّ إليّ من حجّة بعد حجّة الإسلام، وكان يقول: نظرت في أعمال البرّ فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال، والصيام مثل ذلك، والحجّ يجهد المال

---

(١) مرآة الجنان ٢١١/١، البداية والنهاية ٩٤/٩ ـ ٩٥، شذرات الذهب ١٨٨/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٨.

والبدن، فرأيت أنّ الحجّ أفضل من ذلك.

توفّي سنة ٩٣هـ وقيل سنة ١٠٣هـ.

*** ٢ *: أبو قلابة عبدالله بن زيد [١]:**

هو أبو قلابة عبدالله بن زيد بن عمرو الجرمي الأزدي (١٠٤هـ) الإمام البصري، طلب للقضاء فهرب وتغرّب، ثمّ نزل الشام وبها مات.

له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة وغيرهم.

كان من كبار الأئمّة والفقهاء وكان رأساً في العلم والعمل، ومناظرته مع علماء عصره في القسامة[٢] بحضرة الخليفة عمر بن عبدالعزيز تدلّ على علم وافر وفقه واسع.

فعن أبي قلابة أنّ عمر بن عبدالعزيز أبرز سريره[٣] يوماً للناس، ثمّ أذن لهم فدخلوا، فقال: ما تقولون في القسامة؟ قال: نقول القسامة القود بها حقّ، وقد أقادت بها الخلفاء، قال لي: ما تقول يا أبا قلابة؟ ونصبني للناس ـ أي أبرزني لمناظرتهم ـ، فقلت: يا أمير المؤمنين عندك رؤوس الأجناد وأشراف العرب ـ وفي رواية وأشراف الناس ـ أرأيت لو أنّ خمسين منهم شهدوا على رجل محصن بدمشق أنّه قد زنى لم يروه أكنت ترجمه؟ قال: لا، قلت: أرأيت لو أنّ خمسين منهم شهدوا على رجل

---

(١) مرآة الجنان ٢٤٨/١، شذرات الذهب ٢٢٦/١، البداية والنهاية ٢٣١/٩.

(٢) قال ابن منظور: القسامة: الذين يحلفون على حقّهم ويأخذون، والقسامة: الجماعة يقسمون على الشيء أو يشهدون، ويمين القسامة منسوبة إليهم، ويقال: قتل فلان فلانا بالقسامة أي باليمين، وجاءت قسامة بني فلان، وأصله اليمين ثمّ جعل قوما (لسان العرب ـ مادة ـ قسم ـ).

(٣) المراد بالسرير ما جرت عادة الخلفاء الاختصاص بالجلوس عليه، والمقصود أنه أخرجه إلى ظاهر الدار لا إلى الشارع، ولذلك قال: ائذن للناس (فتح الباري ٢٩٠/١٢).

بحمص أنّه سرق أكنت تقطعه ولم يروه؟ قال: لا، قلت: فوالله ما قتل رسول الله ﷺ أحداً قطّ إلاّ في إحدى ثلاث خصال، رجل قتل بجريرة نفسه فقتل، أو رجل زنى بعد إحصان، أو رجل حارب الله ورسوله وارتدّ عن الإسلام، فقال القوم: أو ليس قد حدّث أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قطع في السّرق وسمر الأعين ثمّ نبذهم في الشمس، فقلت: أنا أحدّثكم حديث أنس، حدّثني أنس أنّ نفراً من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا الأرض فسقمت أجسامهم فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، قال: «**أفلا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من ألبانها وأبوالها؟**» قالوا: بلى، فخرجوا فشربوا من ألبانها وأبوالها فصحّوا فقتلوا راعي رسول الله ﷺ وأطردوا النّعم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهم، فأدركوا فجيء بهم، فأمر بهم فقطّعت أيديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم ثمّ نبذهم في الشمس حتى ماتوا قلت: وأيّ شيء أشدّ ممّا صنع هؤلاء؟ ارتدّوا عن الإسلام وقتلوا وسرقوا فقال عنبسة بن سعيد: والله إن سمعت كاليوم قطّ[(١)]، فقلت: أتردّ عليّ حديثي يا عنبسة؟ قال: لا ولكن جئت بالحديث على وجهه، والله لا يزال هذا الجند ـ أي أهل الشام ـ بخير ما عاش هذا الشيخ بين أظهرهم قلت وقد كان في هذا سنّة من رسول الله ﷺ[(٢)].

* ما أثر عنه من أقوال:

كان يقول: إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة، ولا يكن همّك ما تحدّث به الناس، فلعلّ غيرك ينتفع ويستغني، وأنت في الظلمة تتعثّر.

---

(١) أي ما سمعت قبل اليوم مثل ما سمعت منك اليوم، وفي رواية: ما رأيت كاليوم قطّ، وعنبسة هذا هو الأموي أخو عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق، وجدّه العاص بن سعيد بن العاص بن أميّة وكان عنبسة من خيار أهل بيته، وله روايات وأخبار مع الحجّاج بن يوسف، وقد وثّقه يحيى بن معين وغيره (فتح الباري ٢٩١/١٢ ـ ٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب باب القسامة من كتاب الديات.

وكان يقول: إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له عذراً جهدك، فإن لم تجد له عذراً فقل: لعلّ لأخي عذراً لا أعلمه.

توفّي بالشام سنة ١٠٤هـ وقيل سنة ١٠٦هـ وقيل سنة ١٠٧هـ.

*** ٣ *: رفيع بن مهران**(١):

هو أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي البصري (١٠٦هـ) المقرىء المفسّر الذي قرأ القرآن على أبيّ بن كعب.

وأبو العالية تابعي ثقة من كبار التابعين، أدرك الجاهليّة وأسلم بعد موت النبيّ ﷺ بسنتين.

أرسل عن كثير من الصحابة منهم عبدالله بن مسعود وأبو ذرّ الغفاري وحذيفة بن اليمان وعليّ بن أبي طالب، وروى عن أبي موسى الأشعري وأبي أيّوب الأنصاري ورافع بن خديج وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم.

كان أهل العلم يقولون: أشبه رجل بالبصرة علماً بإبراهيم النخعي أبو العالية.

وكان أبو بكر بن أبي داود يقول: ليس بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير.

وفي تاريخ وفاته خلاف كبير فقيل توفي سنة ١٠٦هـ وقيل سنة ٩٣هـ وقيل غير ذلك.

*** ٤ *: الحسن البصري**(٢):

هو الحسن بن أبي الحسن البصري (١١٠هـ) الإمام القدوة، المجمع

---

(١) مرآة الجنان ٢١٤/١، شذرات الذهب ١٨٩/١، الإصابة ١٤٤/٤، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٨.

(٢) مرآة الجنان ٢٥٧/١ ـ ٢٥٨، شذرات الذهب ٢٤٤/١ ـ ٢٤٦، البداية والنهاية ٢٦٨/٩ ـ ٢٧٢، طبقات ابن سعد ١٥٦/٧، مرآة الجنان ٢٥٧/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٧.

على جلالته وصلاحه وزهده وفضله وإمامته، إمام أهل البصرة وخير أهل زمانه، وأحد التابعين الكبار الأجلاء علماً وعملا وإخلاصا.

كان جامعا عالماً رفيعا فقيهاً حجّة مأمونا عابدا ناسكا كثير العلم فصيحا جميلا وسيما، حتى قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري، وكانوا يرون أنّ تلك الحكمة والفصاحة من بركة أمّ المؤمنين أمّ سلمة، وذلك أنّ أباه كان مولى لزيد بن ثابت الأنصاري، وكانت أمّه مولاة أمّ سلمة فكانت إذا غابت أمّه في حاجة فيبكي، تعطيه أمّ سلمة ثديها تعلّله به إلى أن تأتي أمّه فيدرّ عليه.

وروي أنّ أمّ سلمة أخرجته إلى عمر بن الخطاب ـ وقد ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ـ فدعا له فقال: اللّهمّ فقّهه في الدين وحبّبه إلى الناس، فما رئي أحد أشبه رأيا بعمر منه.

حفظ القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكان لا يخرج من سورة إلى غيرها حتى يعرف تفسيرها وتأويلها، وفيما أنزلت، وكان لا يأمر بفعل حتى يفعله، ولا ينهى عن شيء حتى يدعه.

وكان إذا أقبل على القوم فكأنّه أقبل من دفن صديقه، وإذا جلس فكأنّه أسير أمر بضرب عنقه، وإذا ذكرت النار فكأنّها لم تخلق إلاّ له.

*** مناقبه:**

له مناقب كثيرة، وحوادث شهيرة من ذلك ما روي أنّه لـمّا ولّي عمر بن هبيرة الفزاري العراق وأضيفت إليه خراسان في عهد يزيد بن عبدالملك، استدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين والإمام الشعبي ـ وذلك في سنة ١٠٣هـ ـ فقال لهم: إنّ الخليفة يزيد قد أخذ عهودنا بالسمع والطاعة وولاّني فيكتب إليّ الأمر من أمره، فأقلّده ما تقلّد من ذلك الأمر، فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه بعض تقيّة: فقال: ما تقول يا حسن؟ قال: يا ابن هبيرة خف الله في يزيد، ولا تخف يزيدا في الله، فإنّ الله يمنعك من يزيد، ولا يمنعك يزيد من الله، ويوشك أن يبعث إليك ملكا فيزيلك عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق

قبرك، ثمّ لا ينجيك إلاّ عملك، يا ابن هبيرة إيّاك أن تعصي الله، فإنّما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله تعالى وعباده، فلا تتركنّ دين الله وعباده لهذا السلطان، فإنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فأضعف ابن هبيرة جائزة الحسن على ابن سيرين والشعبي، فقال الشعبي لابن سيرين: سفسفنا له فسفسف لنا، والسفساف: الرديء من العطيّة.

وكتب إليه عمر بن عبدالعزيز يقول له: إنّي قد ابتليت بهذا الأمر، فانظر لي أعوانا يعينونني عليه، فكتب إليه الحسن كتاباً يقول له فيه: أمّا أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأمّا أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستعن بالله والسلام.

وكانت له مع الحجّاج بن يوسف الثقفي وقائع هائلة مشهورة، واجهه فيها بكلام صادع، وقد سلّمه الله من شرّه.

*** شهادة الصحابة والتابعين له بالفضل والعلم:**

سئل أنس بن مالك عن مسألة، فقال: سلوا مولانا الحسن، فإنّه سمع وسمعنا فحفظ ونسينا.

وقال عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم: فقيه أهل البصرة الحسن البصري.

وقال عليّ بن زيد: أدركت عروة بن الزبيّر وسعيد بن المسيّب ويحيى بن جعدة والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب في آخرين فلم أر مثل الحسن، ولو أنّ الحسن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ وهو رجل لاحتاجوا إلى رأيه.

وقال أحمد بن حنبل: ليس أحد أكثر فتوى في التابعين من الحسن وعطاء، كان عطاء مفتي مكّة، وكان الحسن مفتي البصرة.

وروى بلال بن أبي بردة قال: سمعت أبي يقول: والله لقد أدركت

أصحاب محمد ﷺ فما رأيت أحداً أشبه بأصحاب محمد ﷺ من هذا الشيخ - الحسن البصري -.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

كان جلّ كلام الحسن البصري حِكَماً ومواعظ، بقوّة عبارة وفصاحة، من ذلك:

قوله: إنّ قوما قد ألهتهم أماني المغفرة ورجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة، يقول أحدهم: إنّي لحسن الظنّ بالله وأرجو رحمة الله، وكذب، لو أحسن الظنّ بالله لأحسن العمل لله، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة، يوشك من دخل المفازة من غير زاد ولا ماء أن يهلك.

وقيل للحسن: ما عقوبة العالم إذا أحبّ الدنيا؟ قال: موت القلب، فإذا أحبّ الدنيا طلبها بعمل الآخرة، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ويبقى عليه رسمه.

وكتب الحسن إلى فرقد يقول: أمّا بعد فإنّي أوصيك بتقوى الله والعمل بما علّمك الله والاستعداد لما وعد الله ممّا لا حيلة لأحد في دفعه ولا ينفع الندم عند نزوله، فاحسر عن نفسك قلاع الغافلين وانتبه من رقدة الجاهلين وشمّر الساق فإنّ الدنيا ميدان مسابقة والغاية الجنّة أو النار فإنّ لي ولك مقاما من الله يسألني وإيّاك فيه عن الحقير والدقيق والجليل والخافي.

وكان يقول لخادمه: يا بنيّ أدم الحزن على خير الآخرة لعلّه أن يوصلك إليه، وابك في ساعات الليل والنهار في الخلوة، لعلّ مولاك أن يطّلع عليك فيرحم عبرتك فتكون من الفائزين.

وكان يقول له: يا بنيّ إنّ البكاء داع إلى الرحمة، فإن استطعت أن تكون عمرك باكياً فافعل لعلّه تعالى أن يرحمك، فما هو إلاّ حلول الدار إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار، ما هنالك منزل ثالث.

ويقول: إنّ الباكي من خشية الله لا تقطر من دموعه قطرة حتى تعتق

رقبته من النار، ولو أنّ باكياً بكى في ملأ من خشية الله لرحموا جميعاً، وليس شيء من الأعمال إلا وله وزن إلاّ البكاء من خشية الله فإنّه لا يقوّم الله بالدمعة منه، وما بكى عبد إلاّ شهد عليه قلبه بالصدق أو الكذب.

وكان يقول: الناس في العافية سواء، فإذا نزل البلاء سكن المؤمن إلى إيمانه، والمنافق إلى نفاقه.

ويقول: اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم فإنّ الله عزّ وجلّ لم يدع قولاً إلاّ جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه، فإن سمعت قولاً حسنا فرويدا بصاحبه.

ويقول: من جعل الحمد لله على النعم حصناً وحابساً، وجعل آداء الزكاة على المال سياجاً وحارساً، وجعل العلم له دليلاً وسائساً، أمن العطب وبلغ أعلى الرتب، ومن كان للمال قانصاً وله عن الحقوق حابساً وشغله وألهاه عن طاعة الله كان لنفسه ظالماً ولقلبه بما جنت يداه كالما وسلّطه الله على ماله سالباً وخالساً، ولم يأمل العطب في سائر وجوه الطلب.

توفّي رحمه الله بالبصرة سنة ١١٠هـ وهو ابن ثمان وثمانين سنة.

*** ٥ * محمد بن سيرين**(١):

هو أبو بكر محمد بن سيرين (١١٠هـ) مولى أنس بن مالك، شيخ البصرة مع الحسن في أوانه، وإمام المعبّرين في زمانه، أحد الجلّة الورعين.

كان فقيهاً إماماً غزير العلم، ثقة ثبتا، علاّمة في التعبير، رأسا في الورع غاية في العلم، نهاية في الورع قد أعطي هدياً وسمتاً وخشوعاً، وكان الناس إذا رأوه ذكروا الله، حتى قال بعض السلف: ما رأيت أحداً

---

(١) مرآة الجنان ٢٦٠/١، تذكرة الحفّاظ ٧٨/١، شذرات الذهب ٢٤٧/١، البداية والنهاية ٢٧٤/٩.

أفقه في ورعه، ولا أورع في فقهه من محمد بن سيرين.

ولمّا أريد على القضاء هرب إلى الشام.

روى عن أبي هريرة وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعمران بن حصين وأنس بن مالك وروى عنه جماعة من الأئمّة.

وكان بعضهم إذا روى عنه قال: حدّثني أصدق من رأيت من البشر.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

كان محمد بن سيرين يقول: إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه يأمره وينهاه، وروي عنه أنّه قال: ما أهون الورع، فقيل له: وكيف هو هيّن؟ فقال: إذا رابك شيء فدعه.

وكان إذا ذكر عنده رجل بسوء ذكره بأحسن ما يعلم، وقال: ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم منه وتكتم خيره.

ولد محمد بن سيرين لسنتين بقيتا من خلافة عثمان بن عفان وتوفّي سنة ١١٠هـ بعد موت الحسن البصري بمائة يوم.

*** ٦ * مسلم بن يسار[1]:**

هو أبو عبدالله مسلم بن يسار (١٠٠هـ) البصري، الفقيه الزاهد، أحد عبّاد البصرة وفقهائها، الذي لم يكن يفضل عليه أحد في زمانه.

كان مسلم بن يسار يعدّ خامس خمسة من فقهاء أهل البصرة، وقد أدرك بعض السلف مسجد البصرة وما فيه حلقة يذكر فيها الفقه إلاّ حلقة مسلم بن يسار.

توفّي سنة ١٠٠هـ وقيل سنة ٩٩هـ.

ونقل علم هؤلاء وأمثالهم من أعلام كبار التابعين بالبصرة في هذا

---

(١) مرآة الجنان ٢٣٦/١، البداية والنهاية ١٨٦/٩، شذرات الذهب ٢١٤/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٨.

الدور أحداث التابعين الذين كان أشهرهم:

ـ ١ ـ قتادة بن دعامة السدوسي[١]:

هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي (١١٧هـ) الضرير البصري، أحد علماء التابعين والأئمّة العاملين، عالم أهل البصرة ومفسّر الكتاب، وكان يقول عن نفسه: ما في القرآن آية إلاّ وقد سمعت فيها شيئاً.

كان إماماً في النسب، رأسا في العربيّة واللغة وأيّام العرب، وكان آية في الحفظ، وكان يقول عن نفسه: ما قلت لمحدّث قطّ: أعده عليّ، وما سمعت شيئاً إلاّ وعاه قلبي، حتى إنّ شيخه محمد بن سيرين كان يشهد له بذلك ويقول: قتادة أحفظ الناس.

وروي أنّه أقام عند سعيد بن المسيّب ثمانية أيّام فقال له في اليوم التاسع: ارتحل يا أعمى فقد أنزفتني، روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين منهم سعيد بن المسيّب والحسن البصري وأبو العالية رفيع بن مهران وزرارة بن أوفى وعطاء بن أبي رباح ومجاهد ومحمد بن سيرين ومسروق وغيرهم.

*** شهادة التابعين وأتباعهم له بالفضل والعلم والحفظ:**

قال بعض السلف: ما رأيت أفقه من الزهري وحمّاد وقتادة، وقال سعيد بن المسيّب: ما جاءني عراقيّ أفضل من قتادة.

وقال علي بن المديني: الذين أفتوا أربعة: الزهري، والحكم بن عتيبة، وحمّاد وقتادة.

وقال أحمد بن حنبل: قتادة عالم بالتفسير وباختلاف العلماء، وهوأحفظ أهل البصرة.

توفّي سنة ١١٧هـ وقيل سنة ١١٨هـ.

---

(١) البداية والنهاية ٣١٣/٩، تذكرة الحفاظ ١٢٣/١، شذرات الذهب ٢٦٨/١، مرآة الجنان ٢٧٦/١ ـ ٢٧٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٩.

ـ ٢ ـ إيّاس بن معاوية[1]:

هو إيّاس بن معاوية بن قرّة المزني الليثي (١٢٢هـ) قاضي البصرة، المعدوم مثلاً في الذكاء والفطنة، كان رأساً لأهل البيان والفصاحة، وكان صادق الظنّ لطيفا في الأمور، مشهورا بفرط الذكاء، وهو المشار إليه في قول أبي تمّام:

إقدام عمرو في سماحة حاتم   في حلم أحنف في ذكاء إيّاس

وإيّاه عنى الحريري في المقامة السابعة من مقاماته حين قال: فإذا ألمعيّتي ألمعيّة ابن عبّاس، وفراستي فراسة إيّاس.

كان تابعيّاً جليلاً، وفقيهاً عفيفاً وكان عاقلاً من الرجال فطناً، ولجدّه صحبة.

ولي قضاء البصرة في عهد الخليفة الراشدي عمر بن عبدالعزيز، وذلك أنّ عمر بعث عدي بن أرطأة نائبا على البصرة وأمره أن يجمع بين إيّاس بن معاوية والقاسم بن ربيعة، وينظر أيّهما أفقه فيولّيه القضاء فجمع عدي بينهما، فقال إيّاس ـ وهو يريد التهرّب من ولاية القضاء ـ: أيّها الأمير سل عنّي وعنه فقيهي البصرة الحسن البصري ومحمد بن سيرين ـ وكان القاسم يأتيهما وإيّاس لا يأتيهما ـ فعرف القاسم أنّه إن سألهما الأمير أشارا به، فقال القاسم: ـ وهو يريد التهرّب كذلك من ولاية القضاء ـ لا تسأل عنه ولا عنّي فوالله الذي لا إله إلاّ هو إنّه أفقه وأعلم بالقضاء منّي، فإن كنت كاذبا فما ينبغي أن تولّي كاذبا القضاء، وإن كنت صادقا فينبغي لك أن تقبل نصيحتي، فقال إيّاس: أيّها الأمير إنّ القاسم لمّا عرف أنّه قد أوقف على شفير جهنّم ـ بتولّيه القضاء ـ افتدى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله تعالى عنها وينجو ممّا يخاف، فقال عند ذلك عديّ: أمّا وقد

---

(١) مرآة الجنان ٢٤٨/١ ـ ٢٤٩ و٢٨٣ ـ ٣٨٤، شذرات الذهب ٢٨٠/١، البداية والنهاية ٣٣٤/٩ ـ ٣٣٨، وفيات الأعيان ٢٤٧/١.

فطنت إلى هذا وفهمته، فقد ولّيتك القضاء.

ولمّا تولّى إيّاس القضاء بالبصرة فرح به العلماء حتى قال أيّوب السختياني: لقد رموها بحجرها، وجاءه الحسن البصري ومحمد بن سيرين فسلّما عليه، فبكى إيّاس وذكر حديث الرسول ﷺ: **«القضاة ثلاثة، قاضيان في النار، وقاض في الجنة»**(١) ثمّ جلس للناس في المسجد واجتمع عليه الناس للخصومات.

روى إيّاس عن أبيه عن جدّه مرفوعا، وروى عن أنس بن مالك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيّب وغيرهم.

*** مناقبه:**

كان إيّاس أحد العقلاء الفضلاء الدهاة، له غرائب تدلّ على فطنته وحدّة ذكائه يعجز الإنسان عن حصرها، وقد اشتهر بحدّة الذكاء وسرعة البديهة منذ صغره حتى إنّ أباه معاوية بن قرّة قال: إنّ الناس يلدون أبناء، وولدت أنا أبا، وسئل مرّة: كيف ابنك؟ قال: نعم الابن، كفاني أمر دنياي، وفرّغني لآخرتي.

ومن الوقائع التي تدلّ على فراسته:

* تحاكم إيّاس وهو صبيّ شاب، وشيخ إلى قاضي عبدالملك بن مروان بدمشق، فقال له القاضي: إنّه شيخ وأنت شاب فلا تساوه في الكلام، فقال إيّاس: إن كان كبيرا فالحقّ أكبر منه، فقال له القاضي: اسكت، فقال إيّاس: ومن يتكلّم بحجّتي إذا سكتّ؟ فقال القاضي: ما أحسبك تنطق بحقّ في مجلسي هذا حتّى تقوم، فقال إيّاس: أشهد أن لا إله إلاّ الله، فلمّا بلغ الخبر الخليفة عبدالملك، قال للقاضي: اقض حاجته

(١) وتمام الحديث: **«رجل قضى بغير الحقّ فعلم ذلك، فذاك في النار، وقاض لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاض قضى بالحقّ فذلك في الجنة»** (أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الأحكام، وأبو داود في سننه، كتاب الأقضية، وابن ماجة في سننه، كتاب الأحكام، واللفظ للترمذي).

وأخرجه الساعة من دمشق لا يفسد على الناس.

* وسأل رجل إيّاساً عن النبيذ فقال: هو حرام، فقال الرجل: فأخبرني عن الماء، فقال: حلال، قال: فالكسور، قال: حلال، قال: فالتمر، قال: حلال، قال: فما باله إذا اجتمع حرّم؟ فقال إيّاس: أرأيت لو رميتك بهذه الحفنة من التراب أتوجعك؟ قال: لا، قال: فهذه الحفنة من التبن؟ قال: لا توجعني، قال: فهذه الغرفة من الماء؟ قال: لا توجعني شيئاً، قال: أفرأيت إن خلطت هذا بهذا وهذا حتى صار طيناً ثمّ تركته حتى استحجر ثمّ رميتك أيوجعك؟ قال: إي والله، وتقتلني، قال: فكذلك تلك الأشياء إذا اجتمعت.

* وروي عن إيّاس أنّه قال: ما غلبني أحد قطّ سوى رجل واحد، ذلك أنّي كنت في مجلس القضاء فدخل عليّ رجل شهد عندي أنّ البستان الفلاني وذكر حدوده هو ملك لفلان، فقلت له كم: عدد شجره، فسكت ثمّ قال لي: منذ كم يحكم سيّدنا القاضي في هذا المجلس؟ فقلت: منذ كذا، فقال: كم عدد خشب سقفه؟ فقلت: الحقّ معك وأجزت شهادته.

ولكثرة ما عرف به من الفطنة، كان أصحابه يجلسون حوله ويكتبون عنه الفراسة.

*** ما أثر عنه من أقوال:**

كان إيّاس يقول: إنّي لأكلّم الناس بنصف عقلي، فإذا اختصم إليّ اثنان جمعت لهما عقلي كلّه ، وذكر عنده أحد الحاضرين رجلاً بسوء، فقال له إيّاس: أغزوت الروم؟ قال: لا، قال: فالسند والهند والترك؟ قال: لا، فقال له إيّاس: أفسلم منك الروم والسند والهند والترك، ولم يسلم منك أخوك المسلم؟.

وكان إيّاس قد غلب على الكلام فلا يتكلّم معه أحد إلاّ علاه، فقال له بعضهم: ليس فيك عيب سوى كثرة كلامك، فقال: بحقّ أتكلّم أم بباطل؟ فقيل له: بل بحقّ، فقال إيّاس: كلّما كثر الحقّ فهو خير.

وكان يقول: إنّ أشرف خصال الرجل صدق اللسان، ومن عدم فضيلة الصدق فقد فجع بأكرم أخلاقه.

ولمّا ماتت أمّه بكى عليها، فقيل له في ذلك، فقال: كان لي بابان مفتوحان إلى الجنّة، فغلق أحدهما.

توفّي إيّاس سنة ١٢٢هـ.

- ٣ - ثابت البناني(١):

هو أبو محمد ثابت بن أسلم البناني (١٢٣هـ) - وبنانة من قريش - كان من سادات التابعين علماً وفضلاً وعبادةً وزهداً ونبلاً، وكان من خواص أنس بن مالك، وروى عن غيره من الصحابة.

- ٤ - أيّوب السختياني(٢):

هو أبو بكر أيّوب بن أبي تميمة السختياني (١٣١هـ) فقيه أهل البصرة، وأحد الأعلام من صغار التابعين، وسيّد الفقهاء والعلماء في عصره، وعلم الحفّاظ.

أخذ عنه الإمام مالك وسفيان الثوري وغيرهما.

*** شهادة التابعين وأتباعهم له بالفضل والعلم:**

قال الحسن البصري: أيّوب سيّد شباب أهل البصرة، وقال هشام بن عروة: ما رأيت بالبصرة مثل السختياني، وكان بعض السلف يقول: أيّوب سيّد الفقهاء.

وقال حمّاد بن زيد: كان أيّوب أفضل من جالسته وأشدّهم اتّباعاً للسنّة، وقال سفيان بن عيينة: لم ألق مثله، وذكر ابن المديني أنّ له ثمانمائة حديث.

---

(١) مرآة الجنان ٢٨٥/١، شذرات الذهب ٢٨٢/١.

(٢) مرآة الجنان ٢٩٨/١، شذرات الذهب ٣١٠/١ - ٣١١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٩.

توفّي سنة ١٣١هـ باتفاق.

المركز الخامس: الشام:

نزل بلاد الشام جمع كبير من فضلاء الصحابة الكرام، منهم: أبو عبيدة عامر بن الجرّاح وبلال بن رباح وعبادة بن الصامت ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وشرحبيل بن حسنة وخالد بن الوليد والفضل بن العباس بن عبدالمطلب وعوف بن مالك الأشجعي وغيرهم(١).

وقد ترجم ابن سعد في طبقاته لـ ١١٤ من أعيان الصحابة الذين نزلوا الشام(٢) غير أنّ أشهر من تصدّر لتعليم الناس القرآن وشرائع الإسلام، وكان له الفضل في تثبيت ركائز الفقه والعلم بهذا المركز الجديد هم: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء الذين أرسلهم عمر بن الخطاب إلى الشام استجابة لطلب يزيد بن أبي سفيان حين كتب إلى عمر: قد احتاج أهل الشام إلى من يعلّمهم القرآن ويفقّههم(٣).

* معاذ بن جبل(٤):

هو أبو عبدالرحمٰن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي (١٨هـ) الإمام القدوة في علم الحلال والحرام، إمام الفقهاء وكنز العلماء.

كان من أفضل شباب الأنصار حلماً وحياء وسخاء، وكان من فضلاء الصحابة وفقهائهم، وأعلم الأمّة بالحلال والحرام، وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار، وكان يفتي بالمدينة في حياة الرسول ﷺ وفي زمن أبي بكر.

---

(١) معرفة علوم الحديث ص ١٩٣.
(٢) طبقات ابن سعد ٣٨٤/٧ ـ ٤٣٩.
(٣) الإصابة ٢٦٩/٢.
(٤) الإصابة ٤٢٧/٣، شذرات الذهب ٤٤/١ ـ ٤٥، الاستيعاب ٣٥٦/٣ ـ ٢٥٩، طبقات ابن سعد ٣٤٨/٢ ـ ٣٤٩، البداية والنهاية ٩٥/٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٥ ـ ٤٦، مرآة الجنان ١٠٧/١، تذكرة الحفاظ ١٩/١ ـ ٢٠.

استخلفه الرسول ﷺ على أهل مكّة يعلّمهم الحلال والحرام، وبعثه عام فتح مكّة إلى اليمن ليعلّم الناس القرآن وشرائع الإسلام، ويقضي بينهم، وجعل إليه قبض الصدقات من العمّال الذين باليمن(١) فمكث بها أميراً إلى أن توفّي الرسول ﷺ، وأقرّه أبو بكر الصديق على ذلك يعلّم الناس الخير باليمن، ثمّ رجع من اليمن في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام فاستقرّ بها، حتى استعمله عمر بن الخطاب عليها بعد موت أبي عبيدة بن الجرّاح.

وهكذا يبدو أنّ فقه معاذ بن جبل قد كان موزّعاً بالخصوص بين أهل اليمن وبين أهل الشام، ورغم أنّ معاذ قد كان له خلال إقامته باليمن التأثير والواضح، والأثر العميق في تعليم أهل اليمن، غير أنّ تأثيره في أهل الشام يبدو أكثر وضوحاً، وأبلغ عمقاً، ويتّضح ذلك من خلال تتبّع تراجم الأعلام من كبار التابعين الذين تلقّوا عن الصحابة الكرام في كلا البلدين ـ كما سيتّضح لاحقاً ـ.

*** شهادة الرسول له بالفضل والعلم:**

لمّا أراد رسول الله ﷺ أن يبعث معاذا إلى اليمن، قال له: **«كيف تقضي إذا عرض لك قضاء»**، قال: أقضي بكتاب الله، قال: **«فإن لم تجد في كتاب الله»**، قال: فبسنّة رسول الله، قال: **«فإن لم تجد في سنّة رسول الله ولا في كتاب الله»**، قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: **«الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»**(٢).

---

(١) وكان رسول الله قد قسّم اليمن على خمسة رجال: خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء، والمهاجر بن أبي أميّة على كندة، وزياد بن لبيد على حضر موت، وأبي موسى الأشعري على زبيد وزمعة وعدن والساحل، ومعاذ بن جبل على الجند (الاستيعاب ٣/٣٥٧ شذرات الذهب ١/٤٥) وذكر بعض المؤرخين أنّ معاذ بن جبل هو الذي بنى مسجد الجند، وهو أوّل مسجد بني باليمن (مرآة الجنان ١/١٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، وأحمد في مسند الأنصار، والدارمي في سننه، المقدّمة.

ومعلوم أنّه لا يبعث ﷺ للقضاء إلاّ عالماً أميناً ديّناً، ويكفيك في علمه أنّه قد بيّن طرق الأحكام فأجاد وأحسن.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ ـ وقد ذكر أصحابه ـ: **«وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل»**(١).

وعن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«خذوا القرآن من أربعة، ـ فذكر فيهم معاذ بن جبل ـ»**(٢).

وأخذ رسول الله ﷺ بيد معاذ، فقال: **«يا معاذ إنّي لأحبّك، والله إنّي لأحبّك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعنّ في دبر كلّ صلاة تقول: اللّهمّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**(٣).

*** شهادة الصحابة والتابعين له بالفضل والعلم:**

خطب عمر بن الخطاب الناس فقال: من أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، وقال: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ، ولولا معاذ لهلك عمر، وحين خرج معاذ إلى الشام قال عمر: لقد أخلّ خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به، ولقد كنت كلّمت أبا بكر أن يحبسه ـ أي يلزمه البقاء بالمدينة ـ لحاجة الناس إليه فأبى عليّ، وقال: رجل أراد جهادا، يريد الشهادة فلا أحبسه، فقلت: والله إنّ الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه وفي بيته.

وروي عن عبدالله بن مسعود أنّه قال: إنّ معاذا كان أمّة قانتا للّه حنيفا ولم يك من المشركين، فقال له أحد الحاضرين: يا أبا عبدالرحمٰن، نسيتها؟ ـ يقصد الآية ـ فقال: لا، ولكنّا نشبّهه بإبراهيم، والأمّة الذي يعلّم الناس الخير، والقانت المطيع.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وابن ماجة في سننه، المقدّمة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب وفضائل القرآن، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة.

وروى أبو مسلم الخولاني قال: دخلت حمص فرأيت حلقة فيها اثنان وثلاثون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين برّاق الثنايا، فإذا امترى القوم في شيء أقبلوا عليه فسألوه، فقلت لجليس لي: من هذا؟ قال: هذا معاذ بن جبل.

وكانت وفاة معاذ بالشام بسبب طاعون عمواس ـ ناحية الأردن ـ سنة ١٨هـ وقيل في التي قبلها وقيل في التي بعدها.

*** عبادة بن الصامت[١]:**

هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي (٣٤هـ) أحد النقباء الاثني عشر الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكان ممّن جمع القرآن في عهد النبيّ ﷺ.

وجّهه عمر بن الخطّاب إلى الشام قاضياً ومعلّماً، فأقام بحمص ثمّ انتقل إلى فلسطين، وهو أوّل من تولّى قضاء فلسطين.

ولعبادة قصص متعددة مع معاوية بن أبي سفيان وإنكاره عليه أشياء، وفي بعضها رجوع معاوية له، وفي بعضها شكواه إلى عثمان منه، تدلّ على قوّته في دين الله وقيامه في الأمر بالمعروف.

وممّا يروى في ذلك أنّ خلافاً وقع بينه وبين معاوية في زمن عمر بن الخطاب، فقال عبادة لمعاوية: لا أساكنك بأرض واحدة أبداً، ورحل إلى المدينة، فقال له عمر: ما أقدمك، فأخبره، فقال له: ارجع إلى مكانك فقبّح الله أرضاً لست فيها ولا أمثالك، وكتب إلى معاوية لا إمرة لك على عبادة.

ولم يزل عبادة بالشام منذ خرج إليها إلى أن توفّي بالرملة وقيل بفلسطين ودفن ببيت المقدس سنة ٣٤هـ.

(١) الإصابة ٢/٢٦٨ ـ ٢٦٩، طبقات ابن سعد ٧/٣٨٧، الاستيعاب ٢/٤٥٠، شذرات الذهب ١/٦٩.

* أبو الدرداء[1]:

هو أبو الدرداء (٣٢هـ) الأنصاري الخزرجي، مشهور بكنيته وباسمه جميعا، واختلف في اسمه فقيل هو عويمر وقيل عامر، واختلف في اسم أبيه فقيل عامر وقيل مالك، وقيل غير ذلك.

وهو حكيم هذه الأمّة، وعالم أهل الشام ومقرىء أهل دمشق وفقيههم وقاضيهم، ولّي قضاء دمشق في زمن عمر بن الخطاب.

وكان أبو الدرداء شديد المجاهدة لنفسه، وكان يقول: كنت تاجراً قبل البعث ثمّ حاولت التجارة بعد الإسلام فلم يجتمعا، حتى إنّ سلمان الفارسي ـ وكان الرسول قد آخى بينهما ـ كان يعذله فيما هو فيه من شدّة المجاهدة.

ويروى أنّ زوجته أمّ الدرداء قالت له يوماً: ما عندنا شيء من النفقة، فقال لها: يا هذه إنّ بيننا عقبة كؤوداً لا يجوزها إلاّ المخفّون.

لمّا استعمل أبو الدرداء على القضاء أصبح الناس يهنئونه، فقال: أتهنئوني بالقضاء، وقد جعلت على رأس مهواة، والله لو علم الناس ما في القضاء لأخذوه بالدول رغبة عنه وكراهية له.

وكان أبو الدرداء من علية أصحاب الرسول الأكرم ﷺ ومن أهل النيّة منهم والتفكّر، وكان يقول: تفكّر ساعة خير من قيام ليلة.

وكان إذا دخل المسجد دخل معه من الأتباع مثل ما يكون مع السلطان، وهم يسألونه عن العلم.

ودخل عليه أصحابه في مرض الموت، فقالوا: يا أبا الدرداء ما

---

(١) الإصابة ٤٥/٣، تذكرة الحفاظ ٢٤/١ ـ ٢٥، الاستيعاب ٦٠/٤، الإصابة ٤٥/٣ ـ ٤٦، مرآة الجنان ١٢٢/١، طبقات ابن سعد ٣٩٢/٧ ـ ٣٩٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٧، إعلام الموقعين ١٦/١.

تشتكي؟ قال: أشتكي ذنوبي، قالوا: ما تشتهي؟ قال: أشتهي الجنّة، قالوا: أفلا ندعو لك طبيبا؟ قال: هو الذي أضجعني.

*** شهادة الصحابة والتابعين له بالفضل والعلم:**

كان أبو ذرّ الغفاري لأبي الدرداء يقول: ما حملت ورقاء ولا أظلّت خضراء أعلم منك يا أبا الدرداء، وكان عبدالله بن عمرو بن العاص يقول: حدّثونا عن العالمين العاملين معاذ بن جبل وأبي الدرداء، ولمّا حضرت معاذ بن جبل الوفاة قيل له: يا أبا عبدالرحمٰن أوصنا، فقال: التمسوا العلم عند عويمر أبي الدرداء، فإنّه من الذين أوتوا العلم.

وعن مسروق قال: شافهت أصحاب محمد ﷺ، فوجدت علمهم انتهى إلى ستّة، فذكر منهم: أبو الدرداء.

وكان أبو الدرداء يقول: سلوني، فوالذي نفسي بيده لئن فقدتموني لتفقدنّ رجلاً عظيما من أمّة محمد ﷺ، وقد توفّي أبو الدرداء سنة ٣٢هـ بدمشق وقيل سنة ٣١هـ وقيل غير ذلك.

هؤلاء الثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ هم الأساس في بعث هذا المركز الفقهي، والأصل في نشاط الحركة العلميّة وانتشارها في ربوع بلاد الشام، حيث أقام عبادة بن الصامت في حمص، ونزل أبو الدرداء دمشق، واستقرّ معاذ بفلسطين.

وعلى أيدي هؤلاء الأعلام الثلاثة من الصحابة أضيئت لأهل الشام أنوار العلم والمعرفة، وتخرّجت الدفعة الأولى من كبار التابعين من أهل الشام.

وإذا أضفنا إلى هؤلاء الأعلام الثلاثة من الصحابة، التابعي الجليل عبدالرحمٰن بن غنم الأشعري الذي كان قد بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام ليفقّه أهلها في الدين، فإنّ علم أهل الشام يكون قد انتشر وشاع بهؤلاء الأربعة.

*** ١ * عبدالرحمٰن بن غنم**[(١)]:

هو عبدالرحمٰن بن غنم الأشعري (٧٨هـ) رأس التابعين وشيخ أهل فلسطين وفقيه الشام.

أسلم على عهد الرسول ﷺ ولم يره ولم يفد عليه، ولازم معاذ بن جبل منذ بعثته إلى اليمن إلى أن مات في خلافة عمر بالشام، حتى عرف بصاحب معاذ لملازمته له.

كان من أفقه أهل الشام، وهو الذي فقّه عامة التابعين بالشام، وكان من العباد الصالحين.

روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومعاذ بن جبل وأبي عبيدة بن الجراح وأبي ذر الغفاري وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وغيرهم.

وروى عنه أبو إدريس الخولاني ومكحول ورجاء بن حيوة وجماعة من تابعي الشام.

*** ٢ * أبو إدريس الخولاني**[(٢)]:

هو عائذ الله بن عبدالله الخولاني (٨٠هـ) واعظ أهل دمشق وقاصّهم، وأحد من جمع بين العلم والعمل، وفقيه أهل الشام وقاضيهم من قبل عبدالملك بن مروان.

أخذ العلم عن معاذ بن جبل، وروى عن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأبي ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان وعوف بن مالك وأبي هريرة.

*** شهادة التابعين وأتباعهم له بالفضل والعلم:**

قال ابن شهاب الزهري: أبو إدريس من فقهاء أهل الشام.

---

(١) تذكرة الحفاظ ٥١/١، الاستيعاب ٤٢٤/٢ ـ ٤٢٥، طبقات ابن سعد ٤٤١/٧، البداية والنهاية ٢٦/٩، الإصابة ٩٨/٣.

(٢) تذكرة الحفاظ ٥٦/١ ـ ٥٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٤، مرآة الجنان ١٩٢/١.

وقال مكحول: ما علمت أعلم من أبي إدريس الخولاني، وفي رواية: ما أدركت مثل أبي إدريس الخولاني.

وقال سعيد بن عبدالعزيز التنوخي: كان أبو إدريس الخولاني عالم أهل الشام بعد أبي الدرداء.

توفّي سنة ٨٠هـ باتفاق.

*** ٣ * كثير بن مرّة[(١)]:**

هو أبو شجرة، كثير بن مرّة الحضرمي، عالم أهل حمص، كان إماماً طلّابا للعلم.

أدرك سبعين بدريّا من أصحاب رسول الله ﷺ.

وحدّث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت.

*** ٤ * رجاء بن حيوة[(٢)]:**

هو أبو المقدام رجاء بن حيوة الكندي (١١٠هـ) الشامي الفقيه، كان تابعياً جليلاً، كبير القدر، ثقة فاضلاً، عادلاً، شريفاً نبيلاً كامل السؤدد، كثير العلم.

كان أحد الذين يتبرّك بهم الناس لنزول الغيث، وينصر بهم على الأعداء، وكان يقال سيّد أهل فلسطين رجاء بن حيوة.

وكان مكحول إذا سئل يقول: سلوا شيخنا وسيّدنا رجاء بن حيوة، وقال: هو سيّد أهل الشام في أنفسهم.

وقال مطر الوراق: ما رأيت ـ وفي رواية ما لقيت ـ شاميّا أفقه من رجاء بن حيوة.

---

(١) تذكرة الحفاظ ٥١/١ ـ ٥٢، طبقات ابن سعد ٤٤٨/٧.

(٢) طبقات ابن سعد ٤٥٤/٧، البداية والنهاية ٣٠٤/٩، مرآة الجنان ٢٦٩/١، شذرات الذهب ٢٥٥/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٥، تذكرة الحفاظ ١١٨/١.

وأثنى عليه غير واحد من الأئمّة ووثّقوه في الرواية.

وكان وزير صدق لخلفاء بني أميّة، وهو الذي أشار على سليمان بن عبدالملك في مرض موته أن يجعل الخلافة من بعده لعمر بن عبدالعزيز ففعل.

توفّي سنة ١١٠هـ.

*** ٥ * مكحول**[١]:

هو فقيه الشام أبو عبدالله مكحول بن عبدالله (١١٣هـ) التابعي الجليل وإمام أهل الشام في زمانه وأحد أوعية العلم.

طاف الأرض في سبيل طلب العلم، وكان كلّما دخل مدينة لا يخرج منها حتى يظنّ أنّه ليس بها علم إلاّ وقد سمعه، ولا يدع بها علماً إلاّ وقد حواه عقله واستوعبه ذهنه.

لم يكن في زمانه أبصر بالفتيا منه، ورغم ذلك فقد كان لا يفتي حتى يقول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، هذا رأي والرأي يخطىء ويصيب.

روى عن أبي أمامة الباهلي وواثلة بن الأسقع وأنس بن مالك وعبدالرحمٰن بن غنم وأبي إدريس الخولاني.

كانت له وجاهة عند الناس، فمهما أمر به من شيء فعل.

*** شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والعلم:**

قال ابن شهاب الزهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيّب بالمدينة، وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن بن أبي الحسن بالبصرة، ومكحول بالشام.

وقال سعيد بن عبدالعزيز التنوخي: لم يكن في زمان مكحول أبصر

---

(١) البداية والنهاية ٣٠٥/٩، طبقات ابن سعد ٤٥٣/٧، تذكرة الحفاظ ١٠٧/١ ـ ١٠٨، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٥، مرآة الجنان ٢٧٠/١، شذرات الذهب ٢٥٦/١، إعلام الموقعين ٢٢/١.

بالفتيا منه، وقال: كان أفقه أهل الشام، وقال أبو حاتم: ما أعلم بالشام أفقه من مكحول وقال عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم: فقيه أهل الشام مكحول توفّي سنة ١١٣هـ وقيل غير ذلك.

المركز السادس: مصر:

لمّا فتح الله على المسلمين أرض مصر في عهد عمر بن الخطاب نزل بها الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ لنشر تعاليم الإسلام وأحكامه، ومن بين من نزل مصر من الصحابة عمرو بن العاص وابنه عبدالله بن عمرو وعقبة بن عامر الجهني ومعاذ بن أنس الجهني ومعاوية بن حديج وعبدالله بن سعد بن أبي سرح وغيرهم[١] ترجم ابن سعد في طبقاته لاثنين وثلاثين منهم[٢].

غير أنّ أشهر من نزلها من هؤلاء الصحابة هم: عمرو بن العاص (٤٣هـ) فاتح مصر وأميرها من قبل عمر بن الخطاب ثمّ من قبل معاوية بن أبي سفيان، وابنه عبدالله بن عمرو الذي بقي بمصر بعد وفاة أبيه واستمرّ قائما على تعليم أهل مصر وتفقيههم، وعقبة بن عامر الجهني العالم بالفرائض والفقه الذي سكن مصر واستقرّ بها إلى حين وفاته.

وقد كانت مهمّة التعليم والتفقيه عائدة بالخصوص إلى عبدالله بن عمرو وعقبة بن عامر.

*** عبدالله بن عمرو[٣]:**

هو عبدالله بن عمرو بن العاص القرشي السهمي، من فضلاء الصحابة وعبّادهم المكثرين في الرواية عن رسول الله ﷺ.

كان ديّناً صالحاً كبير القدر، ذا عبادة واجتهاد وورع فاضلاً حافظاً عالماً كثير التلاوة لكتاب الله، كثير الصيام، يسرد الصيام، ويقرأ القرآن كلّ

---

(١) معرفة علوم الحديث ص ١٩٣.
(٢) طبقات ابن سعد ٤٩٣/٧ ـ ٥٠٩.
(٣) شذرات الذهب ١٣٢/١، مرآة الجنان ١٧٢/١ ـ ١٧٣، الاستيعاب ٣٤٧/٢ ـ ٣٥٢.

ليلة، ولا ينام، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال له: **«ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كلّ ليلة»**، فقال ابن عمرو: بلى يا نبيّ الله. ولم أرد بذلك إلاّ الخير، فقال له الرسول: بحسبك أن تصوم من كلّ شهر ثلاثة أيّام، فلم يزل ابن عمرو يراجعه حتى قال له: صم يوماً وأفطر يوماً فذلك صيام داود، ولا صوم أفضل من صوم داود، ونازل رسول الله ﷺ أيضاً في قراءة القرآن، ولم يزل يراجعه حتى قال له: فاقرأه في كلّ سبع ولا تزد على ذلك، فإنّ لزوجك عليك حقّا، ولزورك عليك حقّا، ولجسدك عليك حقّا، فإنّك لا تدري لعلّك يطول بك عمر، قال ابن عمرو: فصرت إلى الذي قال لي النبيّ، فلمّا كبرت وددت أنّي كنت قبلت رخصة نبيّ الله ﷺ[١].

وعبدالله بن عمرو هو أحد العبادلة الذين عاشوا حتى احتيج إلى علمهم[٢].

روى عن النبيّ ﷺ كثيراً، وكان ممّن يسّر الله له تدوين الحديث، فقد كتب الحديث وجمع منه بخطّ يده ما شاء الله له ذلك، حتى قال أبو هريرة: ما من أصحاب النبيّ ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منّي إلاّ ما كان من عبدالله بن عمرو فإنّه كان يكتب ولا أكتب[٣].

وعن عبدالله بن عمرو قال: كنت أكتب كلّ شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كلّ شيء تسمعه ورسول الله ﷺ بشر يتكلّم في الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتابة،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، وكتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم في صحيحه، كتاب الصوم، واللفظ له.

(٢) العبادلة أربعة وهم: ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وابن عمرو، وليس ابن مسعود منهم لتقدّم وفاته، وقيل هم ثلاثة بإسقاط ابن الزبير، وكانوا إذا اجتمعوا على شيء قيل هذا قول العبادلة، وأمّا سائر من يسمّى عبدالله من الصحابة فلا يطلق عليهم العبادلة، وهم نحو مائتين وعشرين نفسا (تدريب الراوي ٢/٢١٩ ـ ٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب كتاب العلم.

فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه، فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلاّ حقّ[١].

روى عن عمر بن الخطاب وأبي الدرداء ومعاذ بن جبل وعبدالرحمٰن بن عوف، وغيرهم، وحدّث عنه من الصحابة عبدالله بن عمر وأبو أمامة والمسور والسائب بن يزيد وأبو الطفيل، وعدد كثير من التابعين منهم سعيد بن المسيّب وعروة بن الزبير وطاووس بن كيسان وعمرو بن العاص وعطاء بن يسار وعكرمة ومسروق بن الأجدع وعامر الشعبي وغيرهم.

واشتهرت صحيفة عبدالله بن عمرو المعروفة بالصحيفة الصادقة، حتى أنّ ابن عمرو رضي الله عنه كان يقول: ما يرغبني في الحياة إلاّ الصادقة والوهط، فأمّا الصادقة فصحيفة كتبتها من رسول الله ﷺ، وأمّا الوهط فأرض تصدّق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها[٢].

وقد نقل الإمام أحمد مضمون هذه الصحيفة في مسنده.

وكان مقام عبدالله بن عمرو بعد الفتوح بمصر، وفي تاريخ وفاته ومكانها خلاف، فقيل مات بالشام سنة ٦٥هـ، وقيل مات بمصر سنة ٧٧هـ، وقيل غير ذلك.

*** عقبة بن عامر[٣]:**

هو عقبة بن عامر الجهني (٥٨هـ) كان مقرئاً وفقيهاً من فقهاء الصحابة، عالماً بالفرائض والفقه، وكان فصيح اللسان مفوّها، وأحد من جمع القرآن.

روى عن النبيّ ﷺ الكثير من الأحاديث، وروى عنه جماعة من

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم.

(٢) أخرجه الدارمي في مقدمة كتاب السنن، وابن عبدالبرّ في جامع بيان العلم وفضله ٨٦/١.

(٣) الإصابة ٤٨٩/٢، مرآة الجنان ١٦٢/١، شذرات الذهب ١١٥/١، الاستيعاب ١٠٦/٢.

الصحابة منهم عبدالله بن عباس وأبو أمامة وجابر بن عبدالله ومسلمة بن خالد، وأمّا رواته من التابعين فكثير منهم جبير بن نفير وأبو إدريس الخولاني وخلق من أهل مصر.

أمّره معاوية على مصر وجمع له في الإمرة بين الخراج والصلاة، فسكن مصر وابتنى بها دارا واستقر بها حتى وفاته سنة ٥٨هـ

وقد حمل التابعون من أبناء مصر عن هؤلاء علماً كثيراً، واشتهر منهم:

*** ١ *: مرثد بن عبدالله[(١)]:**

هو أبو الخير مرثد بن عبدالله اليزني (٩٠هـ) قاضي الإسكندريّة ومفتي أهل مصر في وقته، وقد تفقّه على عقبة بن عامر.

*** ٢ *: بكير بن عبدالله بن الأشج:**

وكان الإمام مالك كلّما ذكره قال: كان من العلماء[(٢)].

*** ٣ *: يزيد بن أبي حبيب[(٣)]:**

هو أبو رجاء يزيد بن أبي حبيب الأزدي (١٢٨هـ) فقيه مصر وشيخها ومفتيها، أخذ الفقه عن مرثد بن عبدالله، وكان كثير الحديث.

وكان فقيه مصر الليث بن سعد يقول: يزيد بن أبي حبيب هو مولانا وسيّدنا ـ أي في الفقه ـ.

المركز السابع: اليمن:

نزل اليمن العدد الكثير من أصحاب الرسول ﷺ، كان قد كلّفهم

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٨، مرآة الجنان ٢٠٩/١ ـ ٢١٠، شذرات الذهب ١٨٣/١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٨.

(٣) مرآة الجنان ٢٩٧/١، شذرات الذهب ٣٠٢/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٨، طبقات ابن سعد ٥١٣/٧.

الرسول الأكرم بمهمّة الدعوة والإرشاد إلى دين الله في ربوع اليمن، وتبشير الناس بالخير وأمرهم به، وتعليمهم القرآن وتفقيههم فيه.

ومن بين هؤلاء الصحابة عليّ بن أبي طالب، فقد بعثه الرسول ﷺ قاضيا ومعلّما، فعن عليّ قال بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله تبعثني وأنا شاب أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء، قال: فضرب بيده في صدري ثمّ قال: **«اللّهمّ اهد قلبه وثبّت لسانه»**، قال: فما شككت بعد في قضاء بين اثنين[١].

ثمّ قسّم بعد ذلك رسول الله ﷺ اليمن على خمسة رجال: خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء، والمهاجر بن أبي أميّة على كندة، وزياد بن لبيد على حضرموت، وأبي موسى الأشعري على زبيد وزمعة وعدن والساحل، ومعاذ بن جبل على الجند ـ من مدن اليمن القديمة ـ[٢].

وعهد الرسول ﷺ إلى معاذ بن جبل وأهل اليمن حين ولاّه أمرهم فيهم بكتاب ضمّنه تعليماته ووضع له فيه الوظائف والصلاة والسنن والشرائع.

وبعث كذلك بعمرو بن حزم عاملاً على اليمن ليفقّه أهلها في الدين ويعلّمهم السنّة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم الصدقات، وكتب له كتاباً عهد فيه عهده وأمره فيه أمره[٣].

وعلى هؤلاء الصحابة وغيرهم ممّن نزل اليمن تخرّج ثلّة من أعلام التابعين اشتهر منهم بالخصوص:

*** ١ *: طاووس بن كيسان**[٤]:

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الأحكام.

(٢) الاستيعاب ٣/٣٥٧، شذرات الذهب ١/٤٥.

(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٢٠٦ ـ ٢١٥.

(٤) تذكرة الحفاظ ١/٩٠، مرآة الجنان ١/٢٥٥ ـ ٢٥٦، شذرات الذهب ١/٢٣٧، البداية والنهاية ٩/٢٣٥ ـ ٢٣٨، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٣، إعلام الموقعين ١/٢٢، مرآة الجنان ١/٢٥٥.

هو الفقيه الإمام طاووس بن كيسان اليماني الجندي الخولاني (١٠٦هـ) شيخ أهل اليمن وبركتهم ومفتيهم.

كان أحد الأئمة والسادات الأعلام علماً وعملاً، جليل القدر نبيل الذكر وأعلم التابعين بالحلال والحرام، جمع العبادة والزهد والعلم النافع والعمل الصالح.

أدرك خمسين من الصحابة، وسمع من زيد بن ثابت وعائشة أمّ المؤمنين وأبي هريرة وزيد بن أرقم وعبدالله بن عباس، وهو من أكبر أصحاب عبدالله بن عباس، وأكثر روايته عنه[(١)].

يعدّ طاووس أوّل طبقة أهل اليمن من التابعين، وذكر بعضهم أنّه ولّي قضاء صنعاء والجند، ووليه بعده ابنه عبدالله.

روى عنه كثير من أعلام التابعين منهم مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار وإبراهيم بن ميسرة ومحمد بن المنكدر وابن شهاب الزهري وحبيب بن أبي ثابت ووهب بن منبه والمغيرة بن حكيم الصنعاني وابنه عبدالله بن طاووس، وغير هؤلاء.

*** شهادة التابعين وتابعيهم له بالفضل والعلم:**

قال بعض السلف: أعلمهم بالحلال والحرام طاووس، وقال عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم: فقيه أهل اليمن طاووس، وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً قط مثل طاووس، وقال قيس بن سعد: كان طاووس فينا مثل ابن سيرين في أهل البصرة.

وروى سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة أنّه حلف وهو مستقبل الكعبة فقال: وربّ هذا البيت ما رأيت أحداً الشريف والوضيع عنده بمنزلة واحدة إلاّ طاووس.

---

(١) ولأنّه كان من خاصّة تلاميذ ابن عباس اعتبره البعض من فقهاء مكّة ومفتيها (ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ٨٩/٥، ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٢٤/١).

* ما أثر عنه من أقوال:

قال طاووس لابنه: يا بنيّ صاحب العقلاء تنسب إليهم وإن لم تكن منهم، ولا تصاحب الجهّال فتنسب إليهم وإن لم تكن منهم، واعلم أنّ لكلّ شيء غاية، وغاية المرء حسن عقله.

ولمّا ولِّي عمر بن عبدالعزيز الخلافة كتب إليه طاووس: إن أردت أن يكون عملك خيراً كلّه فاستعمل أهل الخير، فقال عمر: كفى بها من عظة.

وقال لعطاء بن أبي رباح: إيّاك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل دونك حجابه، وعليك بطلب من بابه مفتوح إلى يوم القيامة.

وجلس مرّة أحد أبناء سليمان بن عبدالملك إلى جنب طاووس، فلم يلتفت إليه، فقيل له: جلس إليك ابن أمير المؤمنين سليمان، فلم تلتفت إليه، فقال: أردت أن يعلم هو وأبوه أنّ للّه عبادا يزهدون فيهم وفيما في أيديهم.

ولكثرة ما كان يحجّ إلى بيت الله، اتّفق موته بمكّة قبل التروية بيوم، سنة ١٠٦هـ وقيل سنة ١٠٥هـ فلم يتهيّأ إخراج جنازته لكثرة الناس حتّى وجّه أمير مكّة بالحرس، وكان عبدالله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب قد وضع السرير على كاهله، فسقطت قلنسوة كانت على رأسه ومزّق رداؤه من خلفه لشدّة الزحام.

* ٢ *: وهب بن منبه[(١)]:

هو التابعي الجليل أبو عبدالله وهب بن منبه الصنعاني (١١٤هـ).

أدرك عدّة من الصحابة وأسند عن عبدالله بن عباس وجابر بن عبدالله والنعمان بن بشير، وروى عن معاذ بن جبل وأبي هريرة، وروى كذلك عن طاووس.

(١) البداية والنهاية ٢٧٦/٩ ـ ٣٠٢، مرآة الجنان ٢٧٤/١، شذرات الذهب ٢٦١/١.

ولي القضاء لعمر بن عبدالعزيز، وكان شديد الاعتناء بكتب الأوّلين وأخبار الأمم وقصص الماضين، حتى كان يشبّه بكعب الأحبار في زمانه.

تُروى عنه أقوال حسنة وحكم ومواعظ، من ذلك قوله: مثل من تعلّم علماً لا يعمل به كمثل طبيب معه شفاء لا يتداوى به، وقوله: إذا أردت أن تعمل بطاعة الله فاجتهد في نصحك وعملك للّه، فإنّ العمل لا يقبل ممّن ليس بناصح، والنصح للّه لا يكمل إلاّ بطاعة الله، كمثل الثمرة الطيّبة ريحها وطعمها كذلك طاعة الله، النصح ريحها والعمل طعمها، ثمّ زيّن طاعتك بالحلم والعقل والفقه والعمل، ثمّ أكبر نفسك عن أخلاق السفهاء وعبيد الدنيا وعبّدها على أخلاق الأنبياء والعلماء العاملين، وعوّدها فعل الحكماء، وامنعها عمل الأشقياء، وألزمها سيرة الأتقياء، واعزبها عن سبل الخبثاء.

وكان يقول: أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا، وأسرعها ردا اتّباع الهوى وحبّ المال، ومن حبّ المال تنتهك المحارم، ومن انتهاك المحارم يغضب الله، وغضب الله ليس له دواء.

وكان يقول: إن تبت تائباً وتصبح نادماً خير لك من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً، ويقول: إن تضحك وأنت معترف بخطيئتك خير لك من أن تبكي وأنت مدل بعلمك.

توفي سنة ١١٤هـ وقيل سنة ١١٠هـ وقيل غير ذلك.

*** ٣ *: حنش بن عبدالله:**

هو حنش بن عبدالله ـ وقيل بن عمرو ـ الصنعاني (١٠٠هـ) تابعي جليل، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة منهم رويفع بن ثابت وأبي هريرة.

كان مع الإمام عليّ بالكوفة ثمّ نزل إفريقية، فكان والياً عليها وعلى

بلاد المغرب، وهو أوّل من ولِّي عشور إفريقية في الإسلام، وكانت وفاته بإفريقية غازيا سنة ١٠٠هـ[١].

*** ٤ *: عبدالله بن طاووس:**

هو عبدالله بن طاووس بن كيسان اليماني (١٣٢هـ) روى عن أبيه، وكان من أعلم الناس بالعربية وأحسنهم خلقا وما رئي ابن فقيه مثله[٢].

المركز الثامن: إفريقيّة التونسيّة:

أذن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان لواليه على مصر عبدالله بن أبي سرح بتسيير الجيوش نحو إفريقية التونسية، فخرج المسلمون سنة ٢٧هـ في نحو عشرين ألف بينهم عدد كبير من الصحابة والتابعين، وعلى رأسهم العبادلة، فدخلوا إفريقية وبلغوا قصور قفصة، واستقروا بسبيطلة لأكثر من سنة.

ولمّا استقرّ الأمر لمعاوية بن أبي سفيان سيّر لإفريقية واليه الجديد على مصر معاوية بن خديج سنة ٤٥هـ في جيش عدّته عشرة آلاف مقاتل به جلّة الصحابة والتابعين، استطاع أثناءها عبدالله بن الزبيّر من دخول مدينة سوسة، وتمكّن عبدالملك بن مروان من دخول مدينة بنزرت، كما تمكّن رويفع بن ثابت الأنصاري من السيطرة على جزيرة جربة.

حتى إذا كانت سنة ٥٠هـ سيّر معاوية جيشا بقيادة عقبة بن نافع، فمكث بإفريقية خمس سنوات وكان أوّل ما قام به تخطيط القيروان وبناء جامعها الذي عرف باسمه، ثمّ أعقب هذه الخطوة الهامّة دخول حسّان بن النعمان سنة ٧٣هـ الذي أسّس مدينة تونس.

ومن وقتها أصبحت إفريقية تحت إشراف ولاّة يعيّنهم الخليفة كنوّاب عنه، وسرعان ما أخذت القيروان حظّها من العلوم فأصبحت مركزا من مراكز

---

(١) البداية والنهاية ١٨٧/٩، شذرات الذهب ٢١٣/١، طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٨١.

(٢) مرآة الجنان ٣٠١/١، شذرات الذهب ٣١٧/١.

العلم والثقافة، كما أصبحت مدينة تونس من أهمّ المدن الإفريقية علماً وفقهاً[١].

وقد استوفى كلّ من المالكي في رياضه والدبّاغ في معالمه عدد أصحاب رسول الله ﷺ الذين دخلوا إفريقية فبلغوا تسعاً وعشرين أو ثلاثين صحابيّا منهم من شهد العقبة، ومنهم من شهد بدراً وما بعدها من المشاهد ومنهم من شهد بيعة الرضوان[٢]، وأشهر هؤلاء: عبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن عامر الجهني ورويفع بن ثابت وعبدالرحمٰن بن أبي بكر الصديق ومعاوية بن خديج وأبو زمعة البلوي دفين القيروان.

وأردف الدبّاغ بذكر اثني عشر آخرين وصفهم بأنّهم من صغار الصحابة، وذكر أنّ بعضهم ممّن ولد على عهد الرسول ﷺ ولم يره، وبعضهم رآه ولم يسمع منه وبعضهم كان مسلماً في حياته[٣]، وأشهر هؤلاء: عاصم بن عمر بن الخطاب وعقبة بن نافع وعبيدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالرحمٰن بن زيد بن الخطاب وعبدالرحمٰن بن العباس وأبو منصور الفارسي - مولى سعد بن أبي وقاص - وهو ممّن سكن القيروان، وكان مقرئاً ومحدّثاً وفقيهاً ومفتياً.

ثمّ عدّ جملة من علماء التابعين وصلحائهم وأفاضلهم الذين سكنوا القيروان واختطوا بها المساجد والدور وكان لأكثرهم بها عقب - وعدّتهم ٢٦ تابعيًّا -[٤]، وأشهر هؤلاء: حنش بن عبدالله الصنعاني من أعلام فقهاء اليمن،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨٨/٣ وما بعدها، ابن عذارى: البيان المغرب ٨/١ - ١٣، المالكي: رياض النفوس ١٤/١ - ٥٧، ابن خلدون: العبر ١١٩/٢ - ١٢٩ و١٠٧/٦، الدبّاغ: معالم الإيمان ٣٣/١ - ٦٩، ابن أبي دينار: المؤنس ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) رياض النفوس ٦٠/١ - ٩٨، معالم الإيمان ٧١/١ - ١٥١.

(٣) معالم الإيمان ١٦١/١ - ١٧٨، طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٦٥ - ٧٨.

وفي قوله: ممّن ولد على عهد رسول الله ﷺ ولم يره، وقوله: وبعضهم كان مسلماً في حياته، في ذلك نظر، إذ من شروط إطلاق الصحبة الرؤية (مقدمة ابن الصلاح ص ١٤٦).

(٤) رياض النفوس ٩٩/١ - ١٤٠، معالم الإيمان ١٨٠/١ - ٢٢٣، طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٧٩ - ٨٣.

وقد سكن القيروان واختطّ بها داراً ومسجداً، ومحمد بن أوس الأنصاري الذي اشتهر بالفقه والرواية، وعلي بن رباح اللخمي الذي سكن القيروان واختط بها مسجداً وداراً لسكناه، وتفقّه عليه أهلها، وعكرمة مولى ابن عباس الذي قدم القيروان وأقام بها وكان له مجلس علم في مؤخرة جامع عقبة غربي المنارة.

ومن هؤلاء التابعين أيضاً: الفقهاء العشرة الذين بعث بهم الخليفة الراشدي عمر بن عبدالعزيز إلى هذا المركز الإسلامي الجديد، حيث أرسل على رأس المائة إلى إفريقية بعثة علميّة تتألّف من عشرة من كبار الفقهاء من أعلام التابعين، اختارهم من أهل العلم والفضل، وعيّن عليهم رئيساً للبعثة ووالياً على إفريقية إسماعيل بن أبي المهاجر، فنزل هؤلاء العشرة مدينة القيروان ونشروا مبادىء الإسلام بربوع إفريقية، وفقّهوا الناس في أصول الدين وفروعه، وبثّوا الوعي وأشاعوا العلم بهذا المركز الفقهي الجديد.

وكان هؤلاء العشرة الأفاضل قد نزلوا القيروان واستقرّوا بها حتى غدت أمّ المدن الإفريقية، تعجّ علماً وفقهاً وتشعّ على البلاد القريبة منها، وعظم بفضل القيروان شأن إفريقية كلّها ونشأ فيها جيل نشط في طلب العلم، وسعى سعيا حثيثا من أجل التفقّه في الدين.

وهؤلاء الفقهاء العشرة الذين كان لهم هذا الفضل هم:

*** ١ *: إسماعيل بن عبيدالله:**

هو إسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر المخزومي (١٣٢) كان فقيهاً صالحاً فاضلاً زاهداً حسن السيرة.

روى عن عبدالله بن عمر بن الخطاب وفضالة بن عبيد، وروى عنه الإمام الأوزاعي وسعيد بن عبدالعزيز وعبدالرحمٰن بن زياد بن أنعم.

استعمله عمر بن عبدالعزيز على أهل إفريقية ليحكم بينهم ويفقّههم

في الدين، فسار بينهم بالحقّ وكان حريصاً على إسلامهم فأسلم المغرب كلّه على يديه، وكانت وفاته بالقيروان[١].

*** ٢ *: سعيد بن مسعود التجيبي:**

هو أبو مسعود سعيد بن مسعود، سكن القيروان وبثّ فيها علماً كثيراً، وكان رجلاً صالحاً عالماً مشهوراً بالدين والفضل، وكان قليل الهيبة للملوك، لا تأخذه في الله لومة لائم.

صحب جماعة من الصحابة وروى عنهم، منهم أبو الدرداء.

أثر عنه أنّه كان يقول: إذا رأيت العبد دنياه تزداد وآخرته تنقص، مقيماً على ذلك راضياً به، فذلك المغبون الذي ينقص دينه وهو لا يشعر.

وكان يقول: صامت سالم خير من ناطق آثم.

وسئل: أيّ الجلساء أشرّ مجالسة، فقال: من يغفلكم قوله، ومن تفتنكم رؤيته، ومن يدعوكم إلى دنياكم فعله.

وسئل عن الذي يزيّن العالم عند من جالسه، فقال: كثرة صمته وقلّة غضبه وحسن خلقه ولينه وخشوعه وتواضعه[٢].

*** ٣ *: موهب بن حيي:**

هو موهب بن حيي المعافري، كان من فضلاء التابعين، روى عن عبدالله بن عباس وغيره من الصحابة.

سكن القيروان وبثّ بها علماً كثيراً وبها كانت وفاته، وهو أحد

---

(١) رياض النفوس ١/١١٥ ـ ١١٧، معالم الإيمان ١/٢٠٣ ـ ٢٠٥، ابن حجر: تهذيب التهذيب ١/٣١٧ ـ ٣١٨.

(٢) طبقات علماء إفريقية ص ٨٧، رياض النفوس ١/١٠٢ ـ ١٠٦، معالم الإيمان ١/١٨٤ ـ ١٨٧.

العشرة التابعين(١).

*** ٤ *: طلق بن جابان:**

هو طلق بن جابان ـ وقيل ابن جعبان ـ الفارسي، كان فقيهاً عالماً، كان يفقّه أهل مصر، وقد عدّه أبو العرب في طبقاته من الفقهاء العشرة الذين بعثهم ليفقّهوا أهل إفريقية(٢).

* ٥ * عبدالله بن يزيد:

هو أبو عبدالرحمٰن عبدالله بن يزيد المعافري (١٠٠هـ) الإفريقي الحبلي، روى عن أبي أيّوب الأنصاري وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن عمر بن الخطاب وفضالة بن عبيد الأنصاري وعقبة بن عامر وأبي ذر الغفاري وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبدالله وغيرهم.

كان صالحاً ثقة فاضلاً، بعثه عمر بن عبدالعزيز ليفقّه أهل إفريقية فانتفعوا به وبثّ فيها علماً كثيراً.

سكن القيروان واختطّ بها داراً ومسجداً وبها مات(٣).

*** ٦ *: إسماعيل بن عبيد الأنصاري:**

كان من أهل الفضل والعبادة والنسك، كثير الصدقة والمعروف مع علم وفقه، سمّي تاجر الله لأنّه جعل ثلث كسبه للّه عزّ وجلّ يصرفه في وجوه الخير.

روى عن عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو، وروى عنه من أهل إفريقية بكر بن سوادة الجذامي وعبدالرحمٰن بن زياد بن

---

(١) رياض النفوس ١/١١٠ ـ ١١١، معالم الإيمان ١/٢١٣.

(٢) طبقات علماء إفريقية ص ٨٦، رياض النفوس ١/١١٧ ـ ١١٨، معالم الإيمان ١/٢١٥.

(٣) طبقات علماء إفريقية ص ٨٦، رياض النفوس ١/٩٩ ـ ١٠١، معالم الإيمان ١/١٨٠، تهذيب التهذيب ٦/٨١ ـ ٨٢.

أنعم، ومن أهل مصر: عمران بن عوف الغافقي ومحارث بن يزيد وغيرهم.

كان من العلماء الكرماء، سكن القيروان وانتفع به خلق كثير من أهلها، وهو أحد العشرة التابعيين الذين بعثهم عمر يفقّهون أهل إفريقية، فلم يزل مقيماً بالقيروان إلى أن حضرته نيّة في الجهاد، فخرج لغزو صقليّة فغرق في البحر ومات وهو معانق المصحف الشريف سنة ١٠٧هـ[(١)].

*** ٧ *: عبدالرحمٰن بن رافع:**

هو أبو الجهم عبدالرحمٰن بن رافع التنوخي (١١٣هـ) قاضي إفريقية، وأحد الفقهاء الذين أرسلهم عمر بن عبدالعزيز ليفقّهوا أهل إفريقية.

كان من فضلاء التابعين روى عن عبدالله بن عمر، وجماعة من الصحابة، وعنه أخذ عبدالرحمٰن بن زياد بن أنعم وبكر بن سوادة وغيرهم.

سكن القيروان، وهو أوّل من استقضي بها بعد فتحها، ولاّه عليها موسى بن نصير سنة ٨٠هـ، كان عدلاً في أحكامه، ثقة في نفسه، توفّي بالقيروان[(٢)].

*** ٨ *: جعثل بن هامان:**

هو جعثل بن هامان بن عمير - وقيل بن هاعان بن عمرو - الرعيني (١١٥هـ) تابعي، وأحد القرّاء الفقهاء، بعثه عمر بن عبدالعزيز إلى المغرب ليقرئهم القرآن.

كان قاضي الجند بإفريقية في زمن هشام بن عبدالملك[(٣)].

---

(١) طبقات علماء إفريقية ص ٨٤ - ٨٦، رياض النفوس ١٠٦/١ - ١٠٩، معالم الإيمان ١٩١/١.

(٢) طبقات علماء إفريقية ص ٨٦، الخشني: قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٣٠٣، رياض النفوس ١١٠/١، معالم الإيمان ١٩٨/١، تهذيب التهذيب ١٨٦/٦.

(٣) رياض النفوس ١١٤/١ - ١١٥، تهذيب التهذيب ٧٩/٢.

*** ٩ *: حبان بن أبي جبلة:**

هو حبان بن أبي جبلة القرشي (١٢٥هـ)، كان من أهل الفضل والدين.

روى عن عبدالله بن عباس وعمرو بن العاص وابنه عبدالله بن عمرو، بعثه عمر بن عبدالعزيز مع جماعة من أهل مصر ليفقّهوا أهل إفريقية، فسكن القيروان وانتفع به أهلها، وبها توفّي سنة ١٢٥هـ، وقيل سنة ١٢٢هـ[١].

*** ١٠ *: بكر بن سوادة:**

هو أبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي (١٢٨) المصري، كان من صلحاء التابعين وفقهائهم، أرسله عمر بن عبدالعزيز إلى أهل إفريقية ليفقههم.

روى عن عقبة بن عامر وعبدالله بن عمرو وسهل بن سعد وغيرهم، وروى عنه جماعة من التابعين منهم سعيد بن المسيّب وابن شهاب الزهري.

سكن القيروان، وبها توفّي[٢].

ونحن إذا تأمّلنا في هذا العقد الثمين ـ كما قال العلامة الفاضل بن عاشور ـ تبيّن لنا أنّ فرائده قد جمعت من أنساب مختلفة، من المهاجرين والأنصار، ومن العدنانيّة والقحطانيّة، ومن الصريح ومن الموالي، ومن العرب والعجم، فلم يجمعهم إلاّ وصف الفقه في الدين، فكانوا بذلك آباء روحانيين للأجيال الإسلاميّة الصاعدة، وأصول أنساب موصولة في الإسلام بأقوى من أواصر الأرحام، روحانيين للأجيال الإسلاميّة الصاعدة، وأصول أنساب موصولة في الإسلام بأقوى من أواصر الأرحام، فبهم

---

(١) الإصابة ٣٧٢/١، رياض النفوس ١١١/١ ـ ١١٢، معالم الإيمان ٢٠٩/١، تهذيب التهذيب ١٧١/٢.

(٢) طبقات علماء إفريقية ص ٨٦، رياض النفوس ١١٢/١ ـ ١١٣، معالم الإيمان ٢١١/١ ـ ٢١٣، تهذيب التهذيب ٤٨٣/١.

انتشرت المساجد وعمّ تغيير المنكر وشاع القرآن والحديث والفقه، واستقامت سيرة الناس على الآداب الشرعيّة[١].

واشترك مع هذا العقد الثمين في تعليم أهل إفريقية معالم الإسلام وأصول الدين، أعلام آخرون وفدوا من المشرق إلى المغرب أبرزهم:

* التابعي الجليل عبدالله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني الذي سكن القيروان وتولّى قضاءها[٢].

* وأبو غطيف بشر الهذلي الذي سكن القيروان واختطّ بها، وتزوّج بنت بكر بن سوادة[٣].

* والقاضي أبو كريب جميل بن كريب المعافري الذي تولّى قضاء القيروان، وكان من أهل العلم والفقه وكان عدلاً فاضلاً، حسن السيرة، كثير التواضع[٤].

* والتابعي الجليل يحيى بن سعيد الأنصاري القاضي المدني الذي أرسله عمر بن عبدالعزيز عاملاً على الصدقات فنزل مدينة تونس وأخذ عنه أهلها، وجالس بها خالد بن أبي عمران التجيبي التونسي[٥].

وقد نزل كذلك بإفريقية الكثير من التابعين الذين أقاموا بها مدّة من الزمان، ثمّ ارتحلوا عنها[٦].

وهكذا تحوّلت القيروان مركزا علميّا يشعّ على جميع أنحاء إفريقية،

---

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ١٣ - ١٤.

(٢) طبقات علماء إفريقية ص ٨٨ - ٨٩، رياض النفوس ١٢٦/١ - ١٢٧.

(٣) طبقات أبي العرب ص ٩١، رياض النفوس ١٢٢/١.

(٤) طبقات علماء إفريقية ص ٢١٧ - ٢١٩، رياض النفوس ١٦٨/١ - ١٧٢، معالم الإيمان ٢٢٤/١ - ٢٢٩.

(٥) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٦، تهذيب التهذيب ٢٢١/١١ - ٢٢٢.

(٦) رياض النفوس ١٤١/١ - ١٥٠، معالم الإيمان ٢٤٤/١ وما بعدها.

وكان لمدينة تونس نوع من المشاركة مع القيروان في قيادة هذا المركز الفقهي في هذا الدور.

فكان من آثار ذلك أن نشأ بإفريقية جيل من مواليد هذه البلاد حبّب إلى نفوسهم الجلوس إلى شيوخ العلم فانكبّوا على حلقات العلماء الوافدين من المشرق، وكان في مقدّمة هذا الجيل الجديد:

* عبدالرحمٰن بن زياد بن أنعم المعافري (١٦١هـ) وهو أوّل مولود ولد في الإسلام بعد فتح إفريقية تلقّى العلم عن جميع أعضاء البعثة العلميّة ـ الفقهاء العشرة ـ وتلقّى عنه العلم الكثير من فضلاء وأعلام المشرق من أمثال سفيان الثوري وعبدالله بن لهيعة وعبدالله بن وهب وعبدالله بن المبارك، كما تلقّى عنه الكثير من أعلام أهل القيروان.

كان ابن أنعم من جلّة المحدّثين منسوبا إلى الزهد والورع متفنّنا في علوم شتّى، سكن القيروان وولّي قضاءها في عهد بني أميّة فسار بالعدل حتى رفع الله قدره وأعلى مناره، فأقام على قضائها إلى سنة ١٣٢هـ تاريخ زوال ملك بني أميّة[١].

* خالد بن أبي عمران التجيبي (١٢٥هـ) قاضي إفريقية وعالم أهل المغرب وفقيههم، وقد كان أبوه قدم مع جيش حسّان بن النعمان سنة ٧١هـ، واستوطن مدينة تونس فولد له فيها خالد، فحفّظه أبوه القرآن.

وروى عنه وعن بعض القيروانيين، وتلقّى العلم عن القاضي يحيى بن سعيد، ثمّ رحل إلى المشرق وسمع من القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومن سالم بن عبدالله بن عمر ومن عروة بن الزبير حتى أصبح فقيهاً بصيراً بالفتوى، وتولّى قضاء تونس إلى أن توفّي[٢].

---

(١) طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٩٥ ـ ١٠٥، رياض النفوس ١/١٥٢ ـ ١٦٢.

(٢) طبقات علماء إفريقية ص ٢١٢ ـ ٢١٥، رياض النفوس ١/١٦٢ ـ ١٦٦.

وكانت الأندلس في هذا الدور تابعة للقيروان، وكان والي القيروان هو المسؤول عن تعيين نوابه بالأندلس، وقد تمّ تكليف ثلّة من أعيان الفقهاء الفاتحين بتولّي مهمّة تعليم أهالي الأندلس[١].

ويبدو أنّ أهل الأندلس لم يعدموا من خدمات البعثة العلميّة التي أرسل بها عمر بن عبدالعزيز إلى القيروان نتيجة الاتصال المتين والترابط الوثيق الذي كان بين إفريقية والأندلس.

ولذلك يمكن أن نعتبر أنّ النشاط العلمي في الأندلس قد بدأ منذ هذا الدور غير أنّه لم يكن بالشمول والاتساع كما هو الحال في شأن القيروان.

وقد كان من أوائل الأعلام الذين علّموا الناشئة بالأندلس الغازي بن قيس (١٩٩هـ) الذي انتصب لتعليم الناس قبل قيام الدولة الأمويّة سنة ١٣٨هـ.

غير أنّ هذا المركز الفقهي الذي يبدو تابعاً للقيروان في هذا الدور ستتّضح معالم نشاطه لاحقا، وسيبرز بالخصوص مع بداية الدور القادم.

المركز التاسع: خراسان:

خراسان الإقليم الواقع في شرق إيران على الحدود السوفياتية والأفغانية، ومن مدنها هراة وبلخ ومرو وسمرقند ونيسابور العاصمة القديمة، وتتقاسم خراسان اليوم إيران الشرقية وأفغانستان وتركمانستان.

وقد نزل بعض أصحاب رسول الله ﷺ خراسان، فكان ممّن نزلها

(١) تجدر الإشارة في هذا المجال إلى أنّ موسى بن نصير الذي ولّي القيروان من سنة ٨٥هـ إلى سنة ٩٦هـ خلفا لحسّان بن ثابت، قد عيّن من جنوده ثلّة من الفقهاء أمرهم بتعليم أهل إفريقية القرآن وتفقيههم في الدين، ويروى أنّه ترك سبعين رجلاً يعلّمون الناس مبادىء الإسلام، واتّبع نفس النهج في الأندلس حيث أوصى طارق بن زياد واليه على طنجة وفاتح الأندلس سنة ٩٢هـ، بتكليف ثلّة من الفقهاء الفاتحين بتعليم أهل الأندلس القرآن ومبادىء الإسلام.

وتوفّي بها: بريدة بن حصيب الأسلمي المدفون بمرو، وأبو برزة الأسلمي والحكم بن عمرو الغفاري وعبدالله بن خازم الأسلمي المدفون بنيسابور، وقثم بن العباس المدفون بسمرقند[١].

وفي هذه الديار البعيدة عن الإسلام برز بعض أجلّة التابعين الذين تكوّن بهم هذا المركز الفقهي الجديد، وكان من أشهرهم: الضحّاك بن مزاحم وعطاء بن أبي مسلم الخراساني والربيع بن أنس وغيرهم.

*** ١ *: الضحّاك بن مزاحم:**

هو التابعي الجليل الضحّاك بن مزاحم الهلالي (١٠٢هـ) الخراساني، من أهل بلخ.

كان إماماً في التفسير حتى إنّ سفيان الثوري كان يقول: خذوا التفسير عن أربعة: مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحّاك.

وكان معلّما وفقيه مكتب عظيم ـ أي مدرسة كبيرة ـ يحوي ثلاثة آلاف صبيّ، فكان يركب حماراً ليدور عليهم إذا عيي، وكان يعلّم الصبيان حسبة.

توفي سنة ١٠٢هـ وقيل قبل ذلك بسنة، وقيل بعد ذلك[٢].

*** ٢ *: عطاء بن أبي مسلم:**

هو عطاء بن أبي مسلم الخراساني (١٣٥هـ) وكان كثير الإرسال عن الصحابة، وكان إذا غزا يحيي الليل صلاة إلاّ نومة السّحر، وكان يعظ القوم ويحضّهم على التهجّد.

---

(١) معرفة علوم الحديث ص ١٩٤، طبقات ابن سعد ٣٦٥/٧ ـ ٣٦٧.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٣، البداية والنهاية ٢٢٣/٩، مرآة الجنان ٢٤٢/١، شذرات الذهب ٢٢٣/١.

كان جوالة، وكان يقول: أوثق عمل في نفسي نشر العلم[١].

توفّي سنة ١٣٥هـ وقد بلغ من العمر ٨٥ سنة.

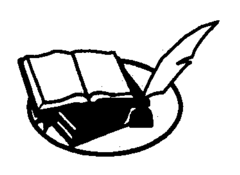
*** ٣ *: الربيع بن أنس:**

كان من أهل البصرة، وقد لقي عبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأنس بن مالك، وكان قد هرب من بطش الحجّاج، تخلّص إليه عبدالله بن المبارك وهو مختف فسمع منه أربعين حديثاً[٢].

تلك هي المراكز التسعة التي كان لها نشاط خصب في مجال الفقه في هذا الدور، والتي قام عليها أعلام من الصحابة والتابعين كانوا قد انتصبوا للفتوى بها، حتى تكوّن بكلّ مركز من تلك المراكز التسعة أتباع حملوا لواء الاجتهاد وكانوا خير خلف لخير سلف.

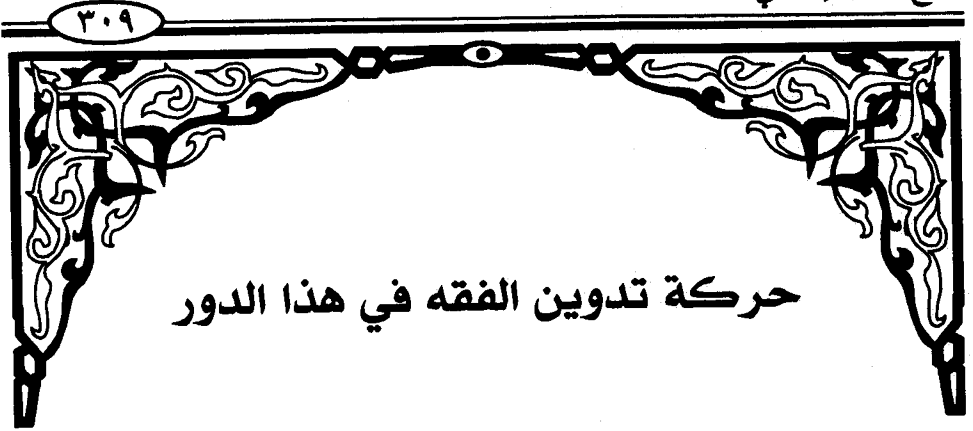
واقتصارنا على هذه المراكز التسعة دون غيرها لا يعني خلوّ ما سواها من البلاد من نور الهداية، ذلك أنّ البلاد المفتوحة من شرقها إلى غربها لم تعدم من وجود المفتين والمقرئين والمحدّثين الذين ملؤوا الأرض علماً وفقها وعمّوا الشرق والغرب نورا وهداية.

وإنّما قصدنا من ذلك ذكر من كانت لها شهرة عن غيرها بوجود حركة فقهيّة نشيطة بها.



(١) مرآة الجنان ٣٠٥/١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٣، شذرات الذهب ٣٢٥/١.

(٢) طبقات ابن سعد ٣٦٩/٧.



حركة تدوين الفقه في هذا الدور

سبق أن بيّنا أنّ اعتماد أصحاب رسول الله ﷺ في تلقّي العلم عنه كان مقتصرا على استعداداتهم في الحفظ وطاقاتهم في الاستيعاب، ذلك أنّ الرسول الأكرم قد نهى بادىء الأمر عن كتابة غير القرآن وتدوينه لئلاّ يتّخذ مع القرآن كتاب يضاهيه، ثمّ نسخ هذا النهي فجاء الإذن بالكتابة بعد أن زالت الموانع الداعية إلى ذلك.

ورغم الإذن العام بجواز الكتابة والتقييد فإنّ كثيراً من الصحابة لم يكونوا يكتبون وإنّما كانوا يحفظون، ومن كان يكتب منهم الشيء فإنّما كان يكتبه ليحفظه فإذا حفظه محاه، ذلك أنّ العرب كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك[١].

حركة تدوين الفقه في المرحلة الأولى من هذا الدور.

رغم أنّ أكثر الصحابة في هذا العصر كانوا يتكلّمون من حفظهم ويروون العلم من صدورهم فإنّ أخباراً صحيحة كثيرة تؤكّد أنّ بعض أصحاب الرسول ﷺ قد كتبوا صحفا عديدة في هذه المرحلة، وألّفوا ورقات في الفقه اصطلحوا على تسميتها بالكتب غير أنّها كما يبدو من خلال الآثار والأخبار الواردة في شأنها، والعصر الذي تنتمي إليه لا تعدو أن تكون أكثر من ورقات في مسائل من الفقه متعدّدة أو هي عبارة عن

(١) جامع بيان العلم وفضله ٧٧/١ و٨٢/١ ـ ٨٣.

رسائل متضمّنة لضوابط فقهيّة وفتاوى محدّدة في قضايا معيّنة.

وقد اشتهر منها:

* كتاب في الصدقات كان عند أبي بكر الصديق وجّه به إلى أنس بن مالك حين ولاّه عاملاً على البحرين جاء فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين التي أمر الله بها رسول الله ﷺ فمن سئلها من المؤمنين على وجهها فليعطها ومن سئل فوقها فلا يعطه(١).

* واشتهرت كذلك رسالة عمر في القضاء إلى أبي موسى الأشعري، ورسالته إلى معاوية بن أبي سفيان، وكتابه في الصدقات الذي كتب عمر بن عبدالعزيز في شأنه ـ حين تولّى الخلافة ـ إلى سالم بن عبدالله يطلب منه أن يكتب إليه به ففعل(٢).

* كما اشتهرت أيضاً صحيفة علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وفيها: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر(٣).

* وكان عند عبدالرحمٰن بن عبدالله بن مسعود كتاب حلف أنّه خطّ أبيه بيده(٤).

* ويبدو أنّه كان لزيد بن ثابت أيضاً كتاب مشهور في الفرائض، هو مجموع رسائله في هذا الفنّ، حيث كان يكتب بها إلى أصحاب رسول الله حين يسألونه.

وقد حفظ لنا موطّأ الإمام مالك قطعة من رسالة زيد بن ثابت إلى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، وأبو داود في سننه، والبيهقي في السنن الكبرى، في كتاب الزكاة.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٣١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم وأحمد في مسند العشرة المبشّرين بالجنّة، واللفظ للبخاري.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ٨٦/١.

معاوية بن أبي سفيان حين كتب إليه يسأله عن الجدّ[١] كما حفظ لنا الإمام البيهقي في سننه الكبرى مجموعة صالحة من هذه المسائل والأحكام حيث أفرد في كتاب الفرائض باباً خاصّاً في ترجيح قول زيد بن ثابت على قول غيره من الصحابة أجمعين في علم الفرائض، وذكر جزءاً هاماً من هذه الرسالة في باب: «من ورث الإخوة للأب والأمّ أو للأب مع الجدّ»، وذكر في مناسبتين من هذا الباب: أنّ عبدالرحمٰن بن أبي الزناد قال: أخذ أبو الزناد هذه الرسالة من خارجة بن زيد بن ثابت ومن كبراء آل زيد بن ثابت»، وأنّ أبا الزناد قد أخذ هذه الرسالة بطولها[٢].

وقد ورد في القطعتين المتبقّيتين عند الإمام البيهقي تسمية هذه الرسالة بالصحيفة حيث جاء فيهما قول زيد بن ثابت إلى معاوية «نحو الذي كتبت به إليك في هذه الصحيفة»[٣].

وممّا يزيد في أهميّة هذه الرسالة أنّ أبا الزناد عبدالرحمٰن بن ذكوان (١٣١هـ) قد قام بشرحها وتفسيرها، في هذه المرحلة المتقدّمة من تاريخ الفقه الإسلامي، وروى هذا الشرح ابنه عبدالرحمٰن بن أبي الزناد، تدلّ على ذلك عبارة تكرّر ورودها عن عبدالرحمٰن بن أبي الزناد عن أبيه عن خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري عن أبيه زيد بن ثابت **أنّ معاني هذه الفرائض وأصولها عن زيد بن ثابت، وأمّا تفسيرها فتفسير أبي الزناد على معاني زيد بن ثابت.**

هذه العبارة تكرّر ورودها في اثني عشر موضعا من أبواب كتاب الفرائض، وهي كالآتي[٤]:

* باب من لا يرث من ذوي الأرحام.

---

(١) الموطّأ، كتاب الفرائض، باب ميراث الجدّ ٢/٥١٠، والسنن الكبرى للبيهقي ٦/٢٤٩.

(٢) السنن الكبرى ٦/٢١٢، و٦/٢٤٧ - ٢٤٨.

(٣) السنن الكبرى ٦/٢٤٧ و٢٤٩.

(٤) السنن الكبرى ٦/٢١٣ و٢٢٥ و٢٢٦ و٢٢٧ و٢٢٩ و٢٣١ و٢٣٢ و٢٣٣ و٢٣٦ و٢٣٨ و٢٤٥ و٢٥٠.

* باب حجب الإخوة والأخوات من كانوا بالأب والابن وابن الابن.
* باب لا ترث مع الأمّ جدّة.
* باب فرض الزوج والزوجة.
* باب ميراث أولاد الابن.
* باب فرض الإخوة والأخوات للأمّ.
* باب ميراث الإخوة والأخوات لأب وأمّ أو لأب.
* باب ميراث الأب.
* باب توريث ثلاث جدّات متحاذيات أو أكثر.
* باب ترتيب العصبة.
* باب ميراث الجدّ.
* باب كيفيّة المقاسمة بين الجدّ والإخوة والأخوات.

هذه القطع المتبقيّة التي وصلتنا في فنّ علم الفرائض لها أهميّتها التاريخيّة، حيث أنّها تعتبر من أقدم الرسائل الفقهيّة، وفترة كتابتها تفيدنا في فهم نشأة وتاريخ تطوّر حركة التدوين ومساره.

وذكر ابن حجر العسقلاني خلال ترجمته لأبي الزناد أنّه كان فقيهاً صاحب كتاب(١) لكنّه لم يذكر اسم الكتاب، ولعلّه أن يكون ذلك الكتاب الذي شرح به كتاب زيد بن ثابت في الفرائض.

حركة تدوين الفقه في المرحلة الثانية من هذا الدور.

توجد نقول كثيرة تؤكّد أنّ ابن شهاب الزهري كان أوّل من دوّن العلم وكتبه(٢).

---

(١) تهذيب التهذيب ٢٠٥/٥.
(٢) جامع بيان العلم وفضله ٨٨/١ و٩١.

وكان التابعي الجليل مكحول (١١٣هـ) قد ألّف كتاباً في مناسك الحجّ، فقد جاء في تهذيب التهذيب أنّ أبا مسهر أخبر عن سعيد بن عبدالعزيز أنّ كتاب مكحول في الحجّ أخذه من العلاء بن الحارث، وقال أبو مسهر: إليه أوصى مكحول[١].

وذكر ابن النديم أنّه كان لمكحول من الكتب: كتاب السنن في الفقه، وكتاب المسائل في الفقه[٢].

والظاهر أنّ تدوين الفقه في هذا الدور لم يكن كالتدوين الذي تمّ لاحقاً، من حيث دقّة الترتيب ووضوح المنهج، وتقسيم الكتاب وتبويبه، وإنّما كان فيما يبدو عبارة عن تدوين لمسائل غير مبوّبة على أبواب العلم المعروفة في كتب الفقه لاحقاً، والأغلب أنّها كانت هذه مختلطة بأحكام الفقه الأكبر وقضايا الأصول، على منوال ما كان يدور في مجالس العلماء من طرح قضايا مختلفة تتعلّق بعلوم شتى.

وهذا ما تقتضيه طبيعة البداءة في كلّ أمر جديد، فقد روي عن أبي الزناد قال: كنّا نكتب الحلال والحرام، وكان ابن شهاب يكتب كلّ ما يسمع، فلمّا احتيج إليه علمت أنّه أعلم الناس[٣].

غير أنّ الملفت للنظر أنّ ابن قيم الجوزيّة يذكر أنّ محمّد بن نوح ـ من أعلام المفتين بالمدينة ـ جمع فتاويه في ثلاثة أسفار ضخمة على أبواب الفقه[٤].

ويرى الشيعة أنّ أئمّة أهل البيت كانوا أسبق الناس في تدوين الفقه ومسائله[٥]، وينسبون إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين (١٢١هـ) كتاب

(١) ابن حجر: تهذيب التهذيب ١٧٨/٨.
(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٨٣.
(٣) جامع بيان العلم وفضله ٨٨/١.
(٤) إعلام الموقّعين ٢٣/١.
(٥) هاشم معروف الحسني: تاريخ الفقه الجعفري ص ٢٥٠ ـ ٢٥٥.

المجموع في الفقه الذي يعتبر بالنسبة للزيديّة أهمّ كتاب فقه تلقّوه بالقبول، والكتاب مطبوع، وقد قام علماء الشيعة بشرحه والعناية به.

وهذا الكتاب يشمل جماع ما نعرفه اليوم من أبواب الفقه وما يتعلّق بها من مسائل وفروع، ويرى الدكتور محمد يوسف موسى[(١)] أنّ المنهج الدقيق المعتمد في تصنيف هذا الكتاب في ذلك الزمن المبكّر من تدوين الفقه مع ما تقتضيه طبيعة البداءة في كلّ أمر جديد يجعلنا لا نطمئنّ إلى صحّة نسبته إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين، فضلاً عن أنّ الكتاب قد تفرّد بروايته عن الإمام زيد، أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي، وقد وجّهت للواسطي هذا، طعونا كثيرة من رجال الجرح والتعديل ومن حفّاظ أهل السنّة وثقاتها تؤكّد أنّه متروك الحديث وأنّه كذّاب غير ثقة ولا مأمون، وأنّه كان يضع عن الإمام زيد ابن علي الأحاديث ويكذب، فقد قال فيه عبدالله بن أحمد بن حنبل عن أبيه: متروك الحديث ليس بشيء، وقال الأثرم عن أحمد: كذاب يروي عن زيد بن علي عن آبائه أحاديث موضوعة، وعن يحيى بن معين أنّه قال فيه: كذّاب غير ثقة ولا مأمون، وقال إسحاق بن راهويه وأبو زرعة: كان يضع الحديث، وقال أبو حاتم: متروك الحديث ذاهب الحديث لا يشتغل به، وقال وكيع: كان في جوارنا يضع الحديث فلمّا فطن له تحوّلْ إلى واسط، وقال النسائي: ليس بثقة ولا يكتب حديثه، وقال: متروك الحديث، وقال الدارقطني: متروك الحديث، وقال الحاكم: يروي عن زيد بن علي الموضوعات، وذكره البخاري في الأوسط في فصل من مات من عشر ومائة إلى عشرين ومائة وقال: منكر الحديث[(٢)].

فهذه النقول الكثيرة من حفّاظ الحديث ورجال الجرح والتعديل من أهل السنّة لا تدع مجالا للشكّ في اتّهام خالد الواسطي بالكذب والوضع،

(١) انظر: تاريخ الفقه الإسلامي ص ١٩٢ ـ ١٩٩ حيث ناقش صاحب الكتاب الموضوع باستفاضة.

(٢) تهذيب التهذيب ٢٦/٨ ـ ٢٧.

ممّا حدا بالدكتور محمد يوسف موسى إلى القول بأنّ أمورا كثيرة تقوم دون التيقّن من صحّة نسبة الكتاب إلى الإمام زيد[١].

غير أنّ السيّد هاشم معروف لم يسلّم له بهذه النتيجة التي خرج بها من بحثه حول هذا الأثر الشيعي معتبرا إيّاه أنّه قد اتّبع أسلوب المغالطات السافرة للتشكيك بهذا الأثر المنسوب إلى الإمام زيد، وأنّه في الوقت الذي اعتاد أن يصول بفكره ويجول في جميع فصول كتابه، قد رأى نفسه مضطرّا أن يقف مكتوف اليدين جامدا في تفكيره حينما تحدّث عن الشيعة، ويقول عنه في موضع آخر: نراه يقف موقف من يحتاط للواقع ويتحفّظ في إعطاء النتائج في بعض أبحاثه، وعلى الأخص حينما يتحدّث عن دور التشيّع في تدوين الفقه والحديث بعد وفاة الرسول، ويعتقد السيّد هاشم معروف أنّ الأسلوب الذي اتّبعه الدكتور محمد يوسف موسى للتشكيك بهذا الأثر المنسوب إلى زيد بن عليّ، قد اتّبع فيه أسلوب المأجورين من كتاب التاريخ وتراجم الرجال[٢].

إنّ الذي يحزّ في النفس هو ذلك الأسلوب الذي انتهجه السيّد هاشم معروف في مناقشته لمثل هذه القضايا، واتّهامه للدكتور محمد يوسف موسى باعتماد المغالطات والتشكيك متجاوزا الطريقة العلميّة في النقاش والحوار، ليتدخّل في قضايا النوايا والإخلاص وكأنّه لعمري يتّهمه في إخلاصه وصدق نواياه ولا نستغرب من السيّد هاشم معروف مثل هذه العبارات النابية، فهو الذي يتّهم الأئمّة الأعلام من أهل السنّة بأنّهم المأجورين من كتاب التاريخ وتراجم الأعلام.

إنّ الحقيقة التي يراها السيّد هاشم كما يتصوّرها في هذه المسألة ـ فضلاً عن غيرها من المسائل التي تطرّق إليها في كتابه ـ هو أن يسلّم له الباحثون في الآثار الإسلاميّة في هذا العصر بأنّ الأئمّة الأعلام من أهل

(١) محمد يوسف موسى: تاريخ الفقه الإسلامي ص ١٩٤.

(٢) هاشم معروف الحسني: تاريخ الفقه الجعفري ص ٢٤٦ و٢٤٧ و٢٤٩ و٢٥١ و٢٥٢.

السنّة الذين اتّهموا خالد الواسطي وجرّحوه، من أمثال الإمام أحمد ويحي بن معين وإسحاق ابن راهويه ووكيع بن الجرّاح والبخاري والنسائي وغيرهم هم رجال مأجورون لم يكتبوا التاريخ للحقّ والتاريخ، وإنّما كتبوه ـ كما يزعم ـ لرجال السياسة وحكام الجور، وبالتالي فأنّ اتّهامهم لخالد الواسطي هذا، كان زوراً وبهتاناً عندها، وعندها فقط يكون الباحثون من أهل السنّة قد تحرّوا الواقع ووفّوا التاريخ حقّه.

ونحن إذ ننأى بأنفسنا أن ننزل إلى هذا المستوى من النقاش العقيم الذي يفرّق ولا يجمع، نرى أنّ هذا الكتاب تبقى له أهميّته التاريخيّة، لأنّ الزمان قد حفظه لنا من التلف، وتصنيفه بلا ريب يعود إلى هذا الدور الذي نحن بصدد دراسته، وإن كنّا نعتقد أنّه ليس من عمل الإمام زيد جمعا وترتيبا، فهو على كلّ حال يبقى أقدم وثيقة تاريخيّة وصلتنا بهذا الترتيب الدقيق.

هذا فيما يخصّ مجموع الإمام زيد، أمّا ما عداه من المصادر الشيعيّة فيذكر ابن النديم في الفنّ الخامس من المقالة السادسة الذي خصّصه لأخبار فقهاء الشيعة وأسماء كتبهم أنّ أوّل كتاب ظهر للشيعة هو كتاب سليم بن قيس الهلالي تفرّد بروايته عنه إبان بن أبي عياش حيث يقول تحت عنوان أخبار فقهاء الشيعة وأسماء ما صنّفوه من الكتب: «من أصحاب أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ سليم بن قيس الهلالي، وكان هاربا من الحجّاج لأنّه طلبه ليقتله فلجأ إلى إبان بن أبي عيّاش فآواه فلمّا حضرته الوفاة أعطاه كتاباً وهو كتاب سليم بن قيس الهلالي المشهور، رواه عنه إبان بن أبي عياش لم يروه عنه غيره... وأوّل كتاب ظهر للشيعة كتاب سليم بن قيس الهلالي».

ثمّ يذكر تحت عنوان الكتب المصنّفة في الفقه الشيعي أسماء عديدة لمصنّفي الشيعة، فيقول: «هؤلاء مشائخ الشيعة الذين رووا الفقه عن الأئمّة ذكرتهم على غير ترتيب، ويذكر في الأثناء كتاب أبي خالد عمرو بن خالد

الواسطي، دون أن يحدّد تاريخ ظهورهم أو عناوين مصنّفاتهم[١].

وفي قائمة أعلام التابعين الذين ألّفوا في الفقه أسماء العديد من المصنّفين من الشيعة في هذه المرحلة من هذا الدور من أمثال[٢]:

* علي بن أبي رافع، التابعي، وقد كان كاتبا لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وتفقّه عليه، له كتاب في فنون من الفقه تكلّم فيه عن الوضوء والصلاة وسائر الأبواب.

* عمرو بن مقدام الملقّب بثابت بن هرمز، له كتاب جامع في الفقه يرويه عن الإمام زين العابدين عليّ ابن الحسين.

* عبدالله ـ أو عبيدالله ـ بن عليّ بن أبي شيبة، له كتاب كبير في الفقه.

* ربيعة بن سميع، ذكره النجاشي في أوّل كتابه في الطبقة الأولى من مصنّفي الشيعة، وذكر أنّ له كتاباً في زكاة النّعم، رواه عن أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه.

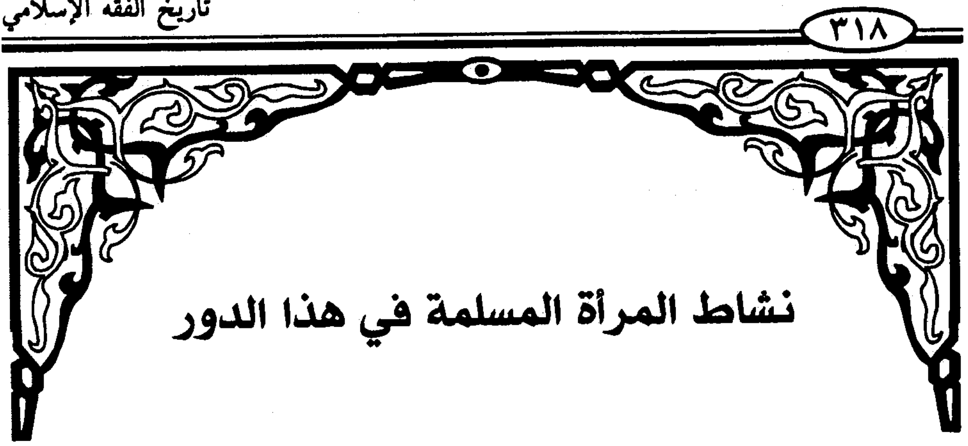
ونحن إذ نورد هذه الأخبار، لا نستبعد ما يراه الشيعة من تصدّرهم لحركة التأليف في هذا الدور من أدوار الفقه، بل نميل إلى القول بأنّ ما يعتقده الشيعة من سبقهم بتدوين الفقه تدوينا دقيقا مبوّبا، لا يجانب الحقيقة والواقع، ونسير مع المرحوم مصطفى عبدالرازق في رأيه بأنّ النزوع إلى تدوين الأحكام الشرعيّة كان أسرع إلى الشيعة لأنّ اعتقادهم العصمة في أئمّتهم أو ما يشبه العصمة كان حريّا أن يسوقهم إلى الحرص على تدوين أقضيتهم وفتاويهم، ذلك أنّ التشيّع تأثّر منذ بداية أمره بعناصر من غير العرب الأميّين الذين كانوا مجبولين على الحفظ نافرين من الكتابة والتدوين[٣].

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٢٧٥.

(٢) تاريخ الفقه الجعفري ص ١٣٣ و٢٥٢ و٢٥٣ و٢٥٥ وتاريخ الفقه الإسلامي لمحمد يوسف ص ١٨٩ و١٩٠، نقلا عن كتابي: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام لآية الله حسن الصدر، وأسماء مصنّفي الشيعة للنجاشي.

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلاميّة ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.



نشاط المرأة المسلمة في هذا الدور

أردت في خاتمة هذا الفصل أن ألقي الضوء على نشاط المرأة المسلمة في هذه الحقبة من تاريخ الفقه الإسلامي، وأن أقدّم للقارىء فكرة إجماليّة عن دورها الفعّال ومشاركتها الحقيقيّة في بناء صرح الفقه حتى تعلم المرأة اليوم أنّ النّساء قد كان لهنّ الدور المعتبر في تكوين الحركة الفقهيّة في صدر الإسلام، وأنّهنّ قد شاركن في نقل العلوم الشرعيّة تعلّما وتعليما، وأنّهنّ لم يكنّ حبيسات البيوت كما يحلو لبعض المغرضين أن يصوّروا حالة المرأة في الإسلام، بل لقد ثبت أنّ جماعة من النساء قد أرسلن إلى رسول الله ﷺ نائبة منهنّ وفدت على رسول الله وهي خطيبة النساء أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصاريّة ـ وكانت من ذوات العقل والدين ـ فكانت ممّا قالت حين أتت الرسول ﷺ: «إنّي رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين كلّهنّ يقلن بقولي وعلى مثل رأيي، إنّ الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء فآمنّا بك واتّبعناك . . .» فالتفت رسول الله ﷺ بوجهه إلى أصحابه فقال: **«هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه؟»**[1].

هذا التحوّل النوعي الذي حدث في تاريخ المرأة مع ظهور الإسلام جعل النساء يطلبن من رسول الله ﷺ أن يجعل لهنّ يوماً يأتينه فيه ليتعلّمن ويتفقّهن، فوافق الرسول الأكرم على طلبهنّ، فقد روي عن أبي سعيد الخدري أنّ النساء قلن غلبنا عليك الرجال يا رسول الله فاجعل لنا يوماً من

(١) الاستيعاب ٤/٢٣٧ ـ ٢٣٨.

نفسك فوعدهنّ يوماً لقيهنّ فيه(١).

وهكذا لم يعزل الرسول الأكرم ﷺ المرأة عن حركة التاريخ، وإنّما جعل منها معلّمة ومتعلّمة شأنها شأن الرجل، باعتبار أنّ كلاّ منهما هو موضع للخطاب وللتكاليف، فإذا بالمرأة عالمة وفقيهة، تستفتى فتفتي، حافظة للسنّة متصدّرة للفتيا، وتحال عليها القضايا التي تتعلّق بأحكام النساء فيجد السائل عندها علماً وفقهاً، وإذا بها مشاركة في بناء الحركة الفقهيّة، مساهمة بنصيب وافر في حركة التشريع الإسلامي وتدوين آثار الرسول ﷺ، حتى إنّ الرجال ليلتفّون حولها مستمعين إلى علمها ينهلون من معارفها، ولقد تتلمذ على بعضهنّ مشائخ العلماء وإلى قولهنّ رجع العلماء وبأحكامهنّ سلّم الفقهاء.

وليس من غرضنا في هذا المجال أن تستقصي جميع الأعلام من النساء اللاتي شاركن في حركة الفقه وتطوّرها خلال هذا الدور الذي هو دور عصر الصحابة والتابعين، وإنّما الذي نسعى إلى بيانه ونحاول إظهاره للقارىء هو الدور الفعّال الذي قامت به المرأة من خلال قيامها على نشاط الفقه وحرصها على نشره بين الأمّة، ولذلك فإنّي أكتفي في هذا المقام بذكر عدد يسير من نماذج حيّة أقدّمها للقارىء الكريم تكون بمثابة خلاصة موجزة حول نشاط المرأة المسلمة في هذا الدور الذي يمتدّ من قيام الخلافة الراشدة إلى الثلث الأوّل من القرن الثاني للهجرة، لعلّ أن تزول به من أذهان بعض المسلمين تلك الفكرة المدسوسة التي مفادها أنّ الإسلام قد فرض على المرأة قيودا جعلتها لا تحسّ بما يجري خارج حدود بيتها ولا تكاد تعي من أمر حياتها غير ذلك.

* عائشة أمّ المؤمنين:

كانت رضي الله عنها مقدّمة في العلم والفرائض والأحكام والحلال والحرام، وكانت من أكثر الصحابة حفظاً وفتيا، فكان مشيخة أصحاب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.

رسول الله يسألونها عن الفرائض، استقلّت بالفتوى منذ زمن أبي بكر وعمر وهلمّ جرّا، وكانت تفتي في زمن عمر وعثمان وما بعد ذلك إلى أن ماتت سنة ٥٨هـ.

وكان الأكابر من الصحابة إذا أشكل عليهم الأمر في الدين استفتوها فيجدون علمه عندها، فكان عمر بن الخطاب يحيل عليها كلّ ما تعلّق بأحكام النساء أو بأحوال النبيّ البيتيّة، لا يضارعها في هذا الاختصاص أحد من الرجال ولا من النساء، وإلى قولها رجع فقهاء الصحابة كأبي بكر وعمر وابنه عبدالله وأبي هريرة وعبدالله بن عبّاس وعبدالله بن الزبير وجابر بن عبدالله وغيرهم، وحمل عنها من الفقه ما لم يحمل عن أحد سواها، وما أشكل على أصحاب رسول الله ﷺ شيء فسألوا عنه عائشة إلاّ وجدوا عندها منه علماً[(١)].

وقد ذكر لها في كتب السنّة أمثلة كثيرة من فتاويها وأجوبتها التي تنمّ عن نشاطها الغزير، من ذلك:

* أنّ أبا سلمة بن عبدالرحمٰن دخل هو وأخو عائشة من الرضاعة على عائشة فسألها عن غسل النبيّ ﷺ (صحيح البخاري، كتاب الغسل، وصحيح مسلم كتاب الحيض، وسنن النسائي كتاب الطهارة).

* وعن عطاء بن أبي رباح قال زرت عائشة مع عبيد بن عمير فسألها عن الهجرة (صحيح البخاري، كتاب المغازي).

* وعن شريح بن هانىء قال: أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفّين (صحيح مسلم، كتاب الطهارة).

* وعن سعد بن هشام بن عامر أنّه أتى عبدالله بن عبّاس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ فقال ابن عبّاس: ألا أدلّك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ، قال: من، قال: عائشة، فأْتها فاسألها ثمّ ائتني فأخبرني

(١) انظر ما تقدّم من ترجمتها.

بردّها عليك (صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها).

* وعن سعد بن هشام أيضاً أنّه وفد على أمّ المؤمنين عائشة فسألها عن صلاة رسول الله ﷺ (سنن النسائي، كتاب قيام الليل وتطوّع النهار).

* وقيل لعبدالله بن عمر إنّ أبا هريرة يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول من تبع جنازة فله قيراط من الأجر، فقال ابن عمر: أكثر علينا أبو هريرة، فبعث إلى عائشة فسألها، وفي رواية فأرسل ابن عمر خبّابا يسألها عن قول أبي هريرة ثمّ يرجع إليه فيخبره ما قالت (صحيح مسلم، كتاب الجنائز).

* وعن قدامة العامري أنّ جسرة بنت دجاجة العامريّة حدثته قالت: سمعت عائشة سألها أناس كلّهم يسأل عن النبيذ، يقول ننبذ التمر غدوة ونشربه عشيّا، وننبذه عشيّا ونشربه غدوة (سنن النسائي، كتاب الأشربة).

* أنّ الأسود بن يزيد دخل على عائشة أمّ المؤمنين فسألها عن صلاة رسول الله ﷺ بالليل (سنن أبي داود، كتاب الصلاة).

* أنّ أبا طلحة الأنصاري وأناس انطلقوا إلى عائشة يسألونها عن البيت الذي فيه كلب وتمثال هل تدخله الملائكة (سنن أبي داود، كتاب اللباس).

* وأرسل مروان بن الحكم أبا بكر بن عبدالرحمٰن بن الحارث إلى عائشة فسألها عن الصائم الذي يصبح وهو جنب (موطّأ مالك، كتاب الصيام).

* وعن قابوس عن أبيه قال: أرسل أبي امرأة إلى عائشة يسألها أيّ الصلاة كانت أحبّ إلى رسول الله ﷺ أن يواظب عليها (مسند الإمام أحمد).

* أنّ عبدالله بن أبي قيس مولى غطيف بن عازب أتى عائشة فسألها عن الركعتين بعد صلاة العصر (مسند الإمام أحمد).

* أنّ أبا موسى الأشعري قال لعائشة إنّي أريد أن أسألك عن شيء

وأنا أستحي منك، فقالت: سل ولا تستحي فإنّما أنا أمّك، فسألها عن الرجل يغشى ولا ينزل (مسند الإمام أحمد).

* وذهب عبدالله بن أبي موسى إلى عائشة فسألها عن الوصال وعن الركعتين بعد العصر، وسألها عن اليوم الذي يختلف فيه من رمضان، ولمّا خرج من عندها سأل عبدالله بن عمر وأبا هريرة، فكلّ واحد منهما قال: أزواج النبيّ ﷺ أعلم بذلك منّا (مسند الإمام أحمد).

* وعن علقمة بن أبي علقمة عن أمّه ـ وكانت مولاة لعائشة ـ أنّها قالت: كانت النساء يبعثن إلى عائشة بالدرجة فيها الكرسف، فيه الصفرة من دم الحيض يسألنها عن الصلاة (صحيح البخاري كتاب الحيض، وموطّأ مالك، كتاب الطهارة).

* وعن معاذة أنّ امرأة سألت عائشة قالت: أتقضي إحدانا صلاتها أيّام حيضها؟ (سنن أبي داود، كتاب الطهارة، وسنن الترمذي، كتاب الطهارة).

* وعن إسماعيل بن أبي خلف أنّه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة، فسألها عبيد عن قراءة رسول الله ﷺ (مسند الإمام أحمد).

* وعن عطاء الخراساني عن يحيى بن يعمر عن عائشة قال: سألها هل كان رسول الله ﷺ يرفع صوته من الليل إذا قرأ (مسند الإمام أحمد).

* وسئلت عن صلاة رسول الله في جوف الليل (سنن أبي داود، كتاب الصلاة).

* أنّ عبيدالله بن عبدالله بن عمر أرسل إلى عائشة يسألها، هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض، (موطّأ مالك، كتاب الطهارة).

* وعن الأسود ومسروق قال: أتينا عائشة نسألها عن المباشرة للصائم فاستحيينا فقمنا قبل أن نسألها، فمشينا لا أدري كم، ثمّ قلنا جئنا

لنسألها عن حاجة ثمّ نرجع قبل أن نسألها، فرجعنا فقلنا: يا أمّ المؤمنين إنّا جئنا لنسألك عن شيء فاستحيينا فقمنا، فقالت: ما هو، سلا ما بدا لكما (مسند الإمام أحمد).

* وعن أبان بن صمعة قال: حدّثني والدي عن عائشة أنّها سئلت عن الأشربة (سنن النسائي، كتاب الأشربة).

* وعن الحارث بن نوفل عن عائشة أنّها سئلت عن غسل المرأة من الجنابة (موطّأ مالك، كتاب الطهارة).

* وسئلت عن صوم رسول الله وسئلت عن نبيذ الجرّ وسئلت ما كان رسول الله يعمل في بيته وسئلت عن ركعتي الفجر وسئلت عن خلق رسول الله وسئلت عن صلاة رسول الله بالليل وسئلت عن القراءة في الركعتين قبل صلاة الفجر (مسند الإمام أحمد).

* وسئلت عن رجل طلّق امرأته البتّة فتزوّجها بعده رجل آخر فطلّقها قبل أن يمسّها، هل يصلح لزوجها الأوّل أن يتزوّجها، (موطّأ مالك، كتاب النكاح).

* وسئلت عن الرجل يصيب المرأة ثمّ يلبس الثوب فيعرق فيه (سنن الدارمي، كتاب الطهارة).

* وسئلت ما يحلّ للرجل من امرأته وهي حائض (سنن الدارمي، كتاب الطهارة).

* وسئلت عن المرأة تمسح على الخضاب (سنن الدارمي، كتاب الطهارة).

*** أمّ سلمة أمّ المؤمنين:**

هي أمّ المؤمنين هند بنت أبي أميّة، كانت موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأي الصائب، وإشارتها على النبيّ ﷺ يوم الحديبية تدلّ على وفور عقلها وصواب رأيها توفيّت سنة ٥٩هـ وقيل سنة ٦١هـ، وهي آخر أمّهات المؤمنين وفاتاً.

روى عنها ابناها عمر وزينب وأخوها عامر وابن أخيها مصعب بن عبدالله ومكاتبها نبهان ومواليها عبدالله بن رافع ونافع وسفينة وابنه وأبو كثير وخيرة والدة الحسن البصري، وممّن يعدّ في الصحابة صفيّة بنت شيبة وهند بنت الحارث الفراسية وقبيصة بن ذؤيب وعبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام، ومن كبار التابعين أبو عثمان النهدي وأبو وائل وسعيد بن المسيّب وأبو سلمة وحميد ولدا عبدالرحمٰن بن عوف وسليمان بن يسار وغيرهم[1].

وقد ذكر لها في كتب السنّة أمثلة كثيرة من فتاويها وأجوبتها التي تؤكّد مساهمتها في حركة الفقه، وإن كانت في ذلك أقلّ من عائشة، ومن الأمثلة على ذلك:

* عن سليمان بن يسار أنّ أبا سلمة بن عبدالرحمٰن، وعبدالله بن عباس اجتمعا عند أبي هريرة وهما يذكران المرأة تنفس بعد وفاة زوجها بليال، فقال ابن عباس: عدّتها آخر الأجلين، وقال أبو سلمة: قد حلّت، فجعلا يتنازعان ذلك، قال: فقال أبو هريرة أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فبعثوا كريباً مولى ابن عبّاس إلى أمّ سلمة يسألها عن ذلك (صحيح مسلم وموطّأ مالك وسنن النسائي، كتاب الطلاق).

* وعن محمد بن إبراهيم عن أمّ ولد لإبراهيم بن عبدالرحمٰن بن عوف أنّها سألت أمّ سلمة زوج النبيّ ﷺ فقالت: إنّي امرأة أطيل ذيلي وأمشي في المكان القذر (موطّأ مالك وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجه والدارمي، كتاب الطهارة).

* وبعث مروان بن الحكم عبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام إلى أمّ سلمة يسألها، فقال: أتيت غلام أمّ سلمة نافعاً فأرسلته إليها فرجع إلي فأخبرني (مسند الإمام أحمد).

---

(١) الاستيعاب ٤/٤٥٤ - ٤٥٥ والإصابة ٤/٤٥٨ - ٤٥٩.

* وأرسل مروان بن الحكم إلى أمّ سلمة يسألها عن الوضوء ممّا مسّت النار (مسند الإمام أحمد).

* وكان مروان يقول: كيف نسأل أحداً عن شيء وفينا أزواج النبيّ (موطّأ مالك، كتاب الصيام).

* وأرسل معاوية بن أبي سفيان إلى أمّ سلمة يسألها هل صلّى النبيّ ﷺ بعد العصر شيئاً (مسند الإمام أحمد).

* وأرسل عبدالله بن عمرو أبا قيس - مولى عمرو بن العاص - إلى أمّ سلمة يسألها هل كان رسول الله ﷺ يقبّل وهو صائم (مسند الإمام أحمد).

* وعن عبدالرحمٰن بن هرمز قال: حدّثني: ناعم مولى أمّ سلمة أنّها سئلت: أتغتسل المرأة مع الرجل (سنن النسائي، كتاب الطهارة).

* وسئلت عن قراءة رسول الله ﷺ (مسند الإمام أحمد).

ولم يكن هذا النشاط مقتصرا على زوجات النبيّ ﷺ، أمّهات المؤمنين دون غيرهنّ من النساء، وإنّما كان هناك من النساء من يرجع إليهنّ في الأحكام في عصرهنّ، فمن ذلك:

* ما ورد عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة أنّ أباه كتب إلى عمر بن عبدالله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على **سبيعة بنت الحارث الأسلميّة** فيسألها عن حديثها وعمّا قال لها رسول الله ﷺ حين استفته في أمرها وقد وضعت حملها بعد أن توفّي زوجها، فتعلّت من نفاسها وتجمّلت للخطّاب (صحيح البخاري، كتاب المغازي، وصحيح مسلم وسنن النسائي وسنن أبي داود كتاب الطلاق).

* وأرسل مروان بن الحكم عبدالله بن عتبة إليها يسألها عمّا أفتاها

به رسول الله ﷺ (مسند الإمام أحمد).

* وعن أبي بكر بن عبدالرحمٰن بن الحارث قال: أرسل مروان إلى **أمّ معقل الأسديّة** يسألها (مسند الإمام أحمد).

* وعن محمد بن عبيد بن أبي صالح المكّي، قال: حججت مع عديّ الكندي، فبعثني إلى **صفيّة بنت شيبة ابنة عثمان بن طلحة** - صاحب الكعبة - يسألها عن أشياء سمعتها من عائشة زوج النبيّ ﷺ.

* وأرسل مروان بن الحكم إلى **فاطمة بنت قيس** قبيصة بن ذؤيب يسألها الحديث الذي تحدّث به عن رسول الله، فحدّثته به، فقال مروان: لم نسمع هذا الحديث إلاّ من امرأة، سنأخذ بالعصمة التي كان الناس عليها، فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان، فبيني وبينكم القرآن، قال الله عزّ وجلّ ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ الآية، قالت: هذا لمن كانت له مراجعة، فأيّ أمر يحدث بعد الثلاث، فكيف تقولون، لا نفقة لها إذا لم تكن حاملا، فعلام تحبسونها (مسلم كتاب الطلاق وسنن النسائي في كتابي النكاح والطلاق) وفي رواية لأبي داود أنّها استظهرت بقول الله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ حتّى ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ الآية، ثمّ قالت: فأيّ أمر يحدث بعد الثلاث.

* ونهى عبدالله بن الزبير عن التمتّع بالعمرة إلى الحجّ وأنكر أن يكون الناس صنعوا ذلك مع رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك عبدالله بن عباس، فقال: وما علم ابن الزبير بهذا، فليرجع إلى أمّه **أسماء بنت أبي بكر** فليسألها، فبلغ ذلك أسماء فقالت: صدق ابن عبّاس، لقد أحلّوا وأحللنا وأصابوا النساء (مسند الإمام أحمد).

* وذكر مروان في إمارته على المدينة أنّه يتوضّأ من مسّ الذكر إذا أفضى إليه الرجل بيده، فأنكر عليه ذلك عروة بن الزبير، وقال: لا وضوء على من مسّه، فلم يزل عروة يماري مروان حتّى دعا مروان رجل من حرسه فأرسله إلى **بسرة بنت صفوان** فسألها عمّا سمعت من رسول الله (سنن النسائي، كتاب الطهارة).

* وعن زيد بن أسلم قال: كان عبدالملك بن مروان يرسل إلى أمّ الدرداء فتبيت عند نسائه ويسألها عن النبيّ ﷺ (مسند الإمام أحمد).

وأمّ الدرداء: هي خيرة بنت أبي حدرد الأسلمي وتعرف بأمّ الدرداء الكبرى - إذ كان لأبي الدرداء امرأتان كلتاهما يقال لها أمّ الدرداء إحداهما رأت النبيّ ﷺ - وهي التي نعني في هذا السياق -، والثانية تزوّجها بعد وفاة النبيّ ﷺ وتعرف بأمّ الدرداء الصغرى -.

كانت أمّ الدرداء الكبرى من فضلى النساء وعقلائهنّ وذوات الرأي فيهنّ مع العبادة والنسك، حفظت عن النبيّ ﷺ وعن زوجها أبي الدرداء عويمر الأنصاري، وروى عنها جماعة من التابعين منهم ميمون بن مهران وصفوان بن عبدالله بن صفوان وزيد بن أسلم وأمّ الدرداء الصغرى، وكانت وفاتها بالشام في خلافة عثمان بن عفّان[(١)].

وأسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرىء القيس الأنصاريّة، وهي بنت عمّ معاذ بن جبل، كانت تكنّى أمّ سلمة، وكان يقال لها خطيبة النساء، وهي من المبايعات، وكانت من ذوات العقل والدين، روى عنها ابن أخيها محمود بن عمرو الأنصاري ومهاجر بن أبي مسلم مولاها وشهر بن حوشب وكان أروى الناس عنها وإسحاق بن راشد وغيرهم، وهي وافدة النساء إلى رسول الله[(٢)].

وزينب بنت أبي سلمة المخزوميّة ربيبة رسول الله ﷺ، أمّها أمّ سلمة بنت أبي أميّة، كانت اسمها برّة فسمّاها الرسول ﷺ زينب، توفيت سنة ٧٣هـ.

كانت زينب محدّثة وفقيهة من أفقه نساء أهل زمانها، حفظت عن النبيّ ﷺ وروت عنه وعن أزواجه أمّها وعائشة وأمّ حبيبة وغيرهنّ، وروى عنها ابنها أبو عبيدة بن عبدالله بن زمعة ومحمد بن عطاء وعراك بن مالك

---

(١) الاستيعاب ٤/٤٤٧ - ٤٤٨، الإصابة ٤/٢٩٥.
(٢) الاستيعاب ٤/٢٣٧ - ٢٣٨، الإصابة ٤/٢٣٤ - ٢٣٥.

وحميد بن نافع وعروة بن الزبير وأبو سلمة بن عبدالرحمٰن وزين العابدين عليّ بن الحسين وآخرون، قال أبو رافع الصائغ: كنت إذا ذكرت امرأة فقيهة بالمدينة ذكرت زينب بنت أبي سلمة، وقال: وهي أفقه امرأة بالمدينة(١).

وعمرة بنت عبدالرحمٰن: وهي عمرة بن عبدالرحمٰن بن أسعد بن زرارة الأنصاريّة، الفقيهة الأنصاريّة المدنيّة التابعيّة الثقة الحجّة الفاضلة العدل الضابطة لما يؤخذ عنها، أخت أبي أمامة أسعد بن زرارة، كانت عالمة، من أهل الفتيا بالمدينة، وسيّدة التابعيات، وكانت من أعلم الناس بحديث عائشة.

كانت في حجر عائشة فأكثرت من الرواية عنها، ولذلك فإنّ عمر بن عبدالعزيز حين عزم على تدوين الحديث بعث بكتاب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عامله وقاضيه على المدينة يطلب منه جمع أحاديث الرسول، وتتبّع ما كان عند خالته عمرة بنت عبدالرحمٰن، وما ذاك إلاّ لما عرف عنها من ضبط ودقّة في الرواية، وممّا جاء في هذا الكتاب: اكتب إليّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ وبحديث عمرة فإنّي قد خشيت دروس العلم وذهابه.

توفيت سنة ٩٨هـ وقيل سنة ١٠٦هـ وقيل سنة ١٠٣هـ وهي ابنة سبع وسبعين سنة.

روى عنها عروة بن الزبير وسليمان بن يسار وابن شهاب الزهري وعروة بن دينار وأخوها محمد بن عبدالرحمٰن الأنصاري وابنها أبو الرجال وابن أخيها يحيى بن عبدالله بن عبدالرحمٰن وابن ابنها حارثة ابن أبي الرجال وابن أخيها أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم، وابنه عبدالله بن أبي بكر، ويحيى وسعد وعبد ربّه أولاد سعيد بن قيس الأنصاري وآخرون(٢).

---

(١) الاستيعاب ٣١٩/٤ ـ ٣٢٠، الإصابة ٣١٧/٤.

(٢) انظر: ما تقدّم من ترجمتها ص ٢٠٥.

وحفصة بنت سيرين: **أمّ الهذيل**: أخت محمد بن سيرين، وهي بصريّة تابعيّة لها روايات كثيرة وقد حفظت القرآن وعمرها اثنتا عشرة سنة، وكانت فقيهة عالمة، من خيار النساء كانت مشهورة بالعبادة والفقه وقراءة القرآن، وكان إيّاس بن معاوية يقول: ما أدركت أحداً أفضّله على حفصة بنت سيرين، فقيل له: الحسن البصري ومحمد بن سيرين، فقال: أمّا أنا فما أفضّل عليها أحداً، وكان محمد بن سيرين إذا استشكل عليه شيء من القرآن أرسل إلى حفصة فسألها كيف تقرأ، وعدّت من سيّدات التابعيّات، حتى أنّ ابن أبي داود كان يقول: سيّدتا التابعيّات حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبدالرحمٰن وتليهما أمّ الدرداء الصغرى، ماتت حفصة سنة ١٠٠هـ وهي ابنة سبعين سنة.

قال عاصم الأحول: كنّا ندخل على حفصة بنت سيرين، وقد جعلت الجلباب هكذا وتنقّبت به، فنقول لها: رحمك الله، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾[1] قال: فتقول لنا: أيّ شيء بعد ذلك؟ فنقول: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ فتقول: هو إثبات الجلباب، توفيت سنة ١٠١هـ[2].

ومعاذة بنت عبدالله العدوية: **أمّ الصهباء البصرية**، من ربات العلم والفقه في الدين ومن أهل العبادة والزهد بالبصرة، روت عن عائشة أمّ المؤمنين وغيرها، وعنها روى أبو قلابة عبدالله بن زيد البصري، الذي كان رأساً في العلم والعمل، وقتادة وعاصم الأحول وإسحاق بن سعيد وأمّ الحسن البصري، وعن يزيد بن هارون قال: أخبرنا جعفر بن كيسان قال: رأيت معاذة محتبية والنساء حولها توفّيت سنة ١٠١هـ[3].

---

(١) سورة النور، الآية ٦٠.

(٢) شذرات الذهب ٢١٩/١، تدريب الراوي ٢٤٢/٢، البداية والنهاية ٣٠٢/٩، طبقات ابن سعد ٤٨٠/٨، تهذيب التهذيب ٤٣٨/١٢.

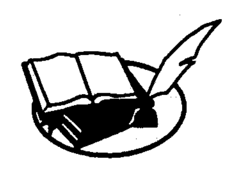
(٣) شذرات الذهب ٢١٨/١، تهذيب التهذيب ٤٥٢/١٢.

وعائشة بنت طلحة التيميّة: أمّ عمران، أمّها أمّ كلثوم بنت أبي بكر الصدّيق، مدنيّة تابعيّة ثقة، حدّث عنها الناس لفضلها وأدبها، وروت عن خالتها عائشة أمّ المؤمنين، وعنها روى ابنها طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمٰن وحبيب بن عمرو وابن أخيها طلحة بن يحيى بن طلحة وابن أخيها الآخر معاوية بن إسحاق وابن ابن أخيها موسى بن عبدالله بن إسحاق وفضيل بن عمرو وعطاء بن أبي رباح وعمر بن سعيد، وغيرهم(١).

وقمير بنت عمرو الكوفيّة امرأة مسروق، وقد روت عن زوجها عن عائشة أمّ المؤمنين، وعنها روى الشعبي ومحمد بن سيرين وابن شبرمة، ولها عند أبي داود حديثها عن عائشة في المستحاضة، وعند النسائي حكاية عن مسروق(٢).

وهكذا تصدّرت المرأة للإفتاء في هذا الدور، وساهمت بنصيبها في حركة التشريع التي انتقلت من الصحابة إلى التابعين إلى تابعيهم، فكان منهنّ الأسوة الصالحة والعالمة الفاضلة التي يأخذ عنها من عاصرها، وعدّ منهنّ المئات في هذا الدور، وليس من غرضنا في هذا الفصل استقصاء عددهنّ ولا ذكرهنّ جميعا، وإلاّ فقد حفل كتاب الطبقات لابن سعد بترجمة النساء المسلمات المبايعات، والنساء اللواتي لم يروين عن رسول الله ﷺ وروين عن أزواجهنّ وغيرهنّ(٣).

وإنّما قصدنا هو أن نلفت نظر القارىء إلى دور بعضهنّ ممّن كان لهنّ الأثر البارز في حركة الفقه وتطوّرها.



---

(١) تهذيب التهذيب ٤٣٦/١٢، ابن سعد ٤٦٧/٨.

(٢) تهذيب التهذيب ٤٤٦/١٢.

(٣) طبقات ابن سعد ٢٢٢/٨ ـ ٤٩٨.



استخلاص ونتائج

نصل في نهاية هذا الدور إلى تقرير جملة من النتائج نجملها فيما يلي:

ـ ١ ـ أنّ الفضل في تأسيس هذه المراكز الفقهيّة وإقامة معالمها وبناء صروحها يعود بالدرجة الأولى إلى أصحاب رسول الله ﷺ الذين توزّعوا في الأمصار فتكوّنت بفتاويهم حركة الاجتهاد في هذا الدور.

ـ ٢ ـ أنّ اجتهادات الصحابة وفتاويهم كانت متّحدة في بعض الأحيان، ومختلفة في غالب الأحوال، وأنّ هذا الاختلاف هو الذي قضى بظهور المدارس الفقهيّة التي انطبعت بطابع مؤسسيها، حتى عرف البعض بالتشديد والبعض بالترخيص، كما عرف البعض بالتوقّف عن الإفتاء في حين عرف البعض بالجرأة في ذلك، حتى لقد روي عن ابن عمر أنّه كان يعيب على ابن عباس جرأته على تفسير القرآن، في حين روي عن ابن عباس أنّه كان يعيب على ابن عمر توقّفه عن الإفتاء فيما لم يسمع فيه شيء.

ـ ٣ ـ أنّ الصحابة لم يكونوا جميعا مجتهدين، وإنّما كان منهم العامة الذين لا يتقدمون لفتوى ولا يقطعون بحكم إلاّ بعد أن يسألوا أهل العلم منهم، وكان منهم من هو أهل للفتوى يسأل فيفتي، وأنّ أهل الفتوى أنفسهم كانوا بين مكثر ومقلّ ومتوسّط.

ـ ٤ ـ أنّ الصحابة الذين كانوا قد تفرّقوا في الأمصار لم يعدم حبل

الاتّصال بينهم، وكانوا يعودون إلى بعضهم البعض في حلّ القضايا والمسائل الطارئة، فكان عمر بن الخطاب وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت يستفتي بعضهم من بعض، وكان عليّ بن أبي طالب وأبيّ بن كعب وأبو موسى الأشعري يستفتي بعضهم من بعض، وكان عبدالله بن مسعود وأبو الدرداء يسألان عليّ بن أبي طالب، وكان عمر بن الخطاب يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن، ونحو ذلك من الشواهد التي مرّت بنا.

وقد ورث أعلام التابعين هذه السنّة الحميدة والخصلة المجيدة عن أعلام الصحابة، فكان التابعون يرحلون إلى سائر الأمصار لطلب العلم ولا يكتفون بالأخذ عمّن نزل بينهم من أصحاب رسول الله، فكان عبيدالله بن عبدالله بن عتبة أحد فقهاء المدينة ممّن تلقّى العلم عن ابن عباس، وكان طاووس اليماني فقيه أهل اليمن، من أشدّ الأتباع اقتداءا بابن عباس، وكذا هو حال أغلب التابعين الذين حملوا فقه الصحابة، لذلك فإنّ مسألة تأثير الصحابي في مركز دون آخر وفي مصر دون آخر إنّما هو بحسب طول مقامه بذلك المركز وبحسب كثرة الأتباع الذين أخذوا عنه وتفقّهوا عليه.

ـ ٥ ـ أنّ فقهاء التابعين الذين تكوّنوا في هذا الدور بفقهاء الصحابة قد تأثّروا بمناهج أساتذتهم في استنباط الأحكام واستخراج المسائل وتقرير الفتاوى، الأمر الذي جعل حركة الاجتهاد التي تأسّست بالصحابة تتعمّق وتتجذّر في هذا الدور مع أعلام التابعين.

ـ ٦ ـ أنّه بالرغم من ظهور الرحلة في طلب العلم والأخذ عن الصحابة المقيمين بالأمصار المختلفة فإنّ ذلك لم يمنع كلّ جمع من التابعين بمصر من الأمصار من الافتخار بأساتذتهم، فكان أهل المدينة لا يعدلون بزيد بن ثابت أحدا، وكان أهل الكوفة يرون أنّ عبدالله بن مسعود قد انتهى إليه علم أصحاب رسول الله ﷺ، وكان أهل مكّة يرون أنّ أكرم المجالس وأكثرها فقها وعلماً هي مجالس عبدالله بن عباس ويرون أنّه قد جمع العلم كلّه.

ـ ٧ ـ أنّ الموالي كان لهم الدور الكبير في نشر العلم وإنماء الفقه

تعلّما وتعليما حتّى صار القائمون على الفقه في أكثر البلدان من الموالي، ولم يعدم من علمهم مركز من المراكز الفقهيّة في سائر البلاد الإسلاميّة فكان عطاء بن أبي رباح فقيه أهل مكّة، وكان طاووس بن كيسان فقيه أهل اليمن، وكان يحيى بن أبي كثير فقيه أهل اليمامة، وكان إبراهيم النخعي فقيه أهل الكوفة، وكان الحسن البصري فقيه أهل البصرة، وكان مكحول فقيه أهل الشام، وكان عطاء الخراساني فقيه أهل خراسان، وكان بالمدينة المنوّرة نافع مولى ابن عمر، وسليمان بن يسار، وزيد بن أسلم، وغيرهم كثير.

ـ ٨ ـ أنّ المؤلفات الفقهيّة التي كتبت في المرحلة الأولى من هذا الدور كانت عبارة عن ورقات غير مبوّبة في مسائل شتى، وإنّما تعورف عليها بأنّها كتب طبقا لما هو جاري عليه الاصطلاح آنذاك من تسمية بعض المسائل المجموعة بالكتاب.

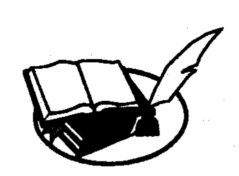
ـ ٩ ـ أنّ كلاّ من أهل الشيعة وأهل السنّة قد حرصا على ادّعاء السبق في تدوين الفقه وجمع مسائله، فالشيعة عنوا عناية جادة وقويّة بتأكيد سبقهم في تدوين الفقه وسائر العلوم الإسلاميّة، وبالمثل فإنّ أهل السنّة حرصوا على تأكيد موقفهم من أنّ أوّل كتاب فقهي بالمعنى الحقيقي للكتاب وقع تدوينه على أيدي علماء السنّة، وكأنّ تسليم أحد الفريقين للآخر بدعوى السبق في بداية تدوين الفقه وسائر العلوم الأخرى يعطي حقّ الوصاية لفرقة على أخرى، أو يجعل الحقائق الدينيّة مِلْكاً لها على حساب الفرق الأخرى.

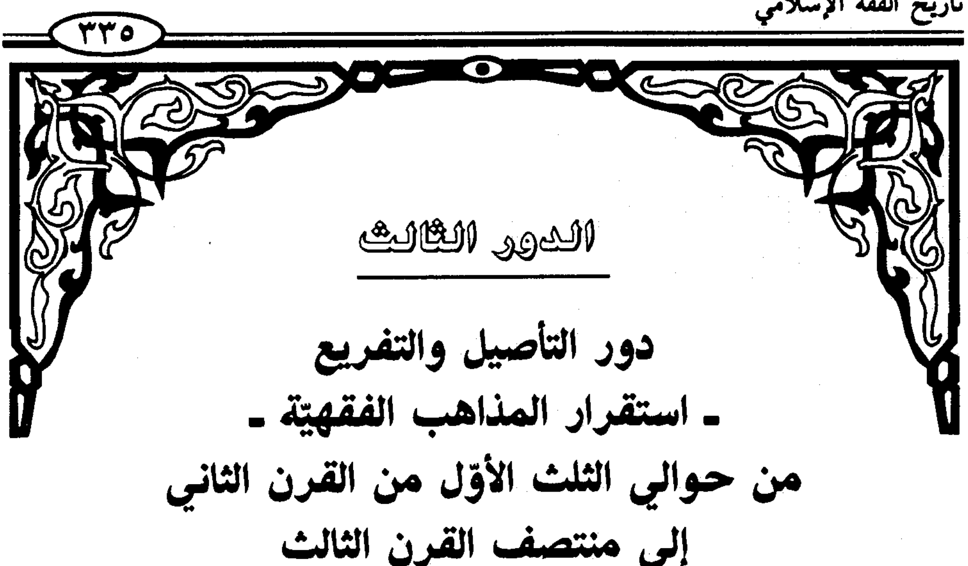
ولذلك نقول بأنّه وإن كان التوصّل إلى معرفة الأمر الحقّ في السابق والمسبوق بتدوين الفقه يفيدنا في مجال النقد التاريخي للفقه الإسلامي، فإنّ ذلك لا يعطي لأيّ كان من الفرق الحقّ في ادّعاء امتلاك الحقائق المطلقة، وتكفير ما سواها أو تبديعها ما لم تتعدّ الضوابط الشرعيّة والأصول الكليّة في فهم الأحكام الشرعيّة.

ورغم ما لهذا الأمر ـ أي معرفة السبق بالتدوين ـ من أهميّة في تاريخ

الفقه الإسلامي من خلال الوقوف على بدايات التدوين، والوصول إلى قول فصل فيه، فإنّي أهيب بالعلماء العاملين أن يذروا التعصّب والانغلاق المذهبي، وتناول بعض الصحابة بالقدح، وأن يعلموا أنّ بقاء النعرة المذهبيّة وأنّ التمسّك بكثير من القضايا الثانويّة والتشديد عليها لا يوصل إلاّ إلى قطع عرى الأخوّة الإسلاميّة.

- ١٠ - أنّ نشاط المرأة المسلمة قد شمل فيما شمل بالإضافة إلى مهمّتها التربويّة السامية داخل البيت، مهمّة الإفتاء وتعليم الأحكام، ممّا جعلها مشاركة للرجل ومساهمة معه في سير الحركة الفقهيّة والتشريعيّة في هذا الدور من تاريخ الفقه الإسلامي، الذي هو عصر الصحابة والتابعين.





الدور الثالث

دور التأصيل والتفريع
ـ استقرار المذاهب الفقهيّة ـ
من حوالي الثلث الأوّل من القرن الثاني إلى منتصف القرن الثالث

تمهيد:

كانت ثورات الخوارج والشيعة تشتعل من حين لآخر في مناطق عديدة من بلاد الإسلام في عهد الدولة الأمويّة، فكانت في كلّ مرّة تخمد نيرانها، ويقتل أنصارها وينكّل بقادتها، وكان العباسيون أثناء ذلك يتحرّكون بكلّ حذر وحيطة في إطار دعوة منظّمة من أجل القضاء على الحكم الأموي.

فلمّا بان على الدولة الأمويّة الضعف والإنهاك بفعل الفتن الداخليّة أعلن العباسيون الثورة على البيت الأموي والإطاحة بحكمهم سنة ١٣٢هـ، معتبرين أنفسهم المخلّصين الشرعيين للمسلمين من مغتصبي السلطة، وأعلنوا أنّ قيامهم هو انتصار للشورى على الظلم والجور، وإعادة الحقّ المسلوب إلى أهله من آل البيت بفرعيهم آل العباس وآل فاطمة.

وجعل العباسيون من الكوفة بادىء الأمر مركزا للخلافة بدلاً من دمشق ثمّ اتّخذوا من مدينة السلام الواقعة على الضفّة الغربيّة لدجلة عاصمة جديدة.

ورغم أنّ العباسيين قد قدّموا أنفسهم باعتبارهم الممثّلين الشرعيين للأمّة إلاّ أنّهم لم يسلموا بعد حين من منازعة العلويين لهم - آل فاطمة وعليّ - فما كان من العبّاسيين إلاّ أن نكّلوا بهم وتتبّعوا آثارهم وأعملوا فيهم سيوفهم، وسجنوا منهم الكثير[١].

ففي خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٧هـ - ١٥٨هـ) كان خروج الأخوين محمد وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب فظفر بهما المنصور فقتلهما وجماعة كثيرة من آل البيت، فكان المنصور بذلك أوّل من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين.

وفي عهد المهدي (١٥٨هـ - ١٦٩هـ) استدعي موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي إلى بغداد وحبسه، ثمّ أطلق سراحه وردّه إلى المدينة.

وفي خلافة موسى الهادي (١٦٩هـ - ١٧٠هـ) ظهر الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي فاجتمع عليه كثير وبايعوه فحاربه العباسيون وقتلوه مع كثير من رفقائه وأهل بيته.

وفي أيّام هارون الرشيد (١٧٠هـ - ١٩٣هـ) ظهر يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي وبايعه خلق كثير سنة ١٧٦هـ فما زال الرشيد يتعقّبه حتى ظفر به فسجنه حتى مات، واستدعى موسى الكاظم بن جعفر الصادق فسجنه وأطال سجنه حتى توفّي سنة ١٨٣هـ.

ورغم هذا التنكيل وشدّة الطلب لهم من العباسيين فإنّ ذلك لم يمنع من انتشار دعوتهم واستئثار التشيّع بالطرف الأكبر من المعارضة، ذلك أنّ الخوارج قد ضعف أمرهم واضمحلّت قوّتهم ولم تبق منهم إلاّ فرق مشتّتة كلّما رفعوا راية الخروج على السلطة أعمل فيهم العباسيون سيوفهم.

وعل رأس المائتين للهجرة كانت الدولة الإسلاميّة قد بلغت أعلى

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦١، ابن كثير: البداية والنهاية ٨٦/١٠ - ٨٧ و١٦٧ و١٨٣، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة ص ٣٨ - ٤٧.

درجات الكمال، ووصل التمدّن الإسلامي إلى أوج عطائه، وقطعت دابر الفتن، وذلك في عهد المأمون (١٩٨هـ ـ ٢١٨هـ) الذي كان ـ كما يقول السيوطي ـ أفضل رجال بني العباس حزما وعزما وحلما وعلماً ورأيا ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤددا وسماحة، جمع الفقهاء من الآفاق وبرع في الفقه والعربيّة وأيّام الناس وعني بالفلسفة وعلوم الأوائل ومهر فيها[١].

وبحلول العقد الثاني من القرن الثالث للهجرة عرف العراق في عهد المعتصم (٢١٨هـ ـ ٢٢٧هـ) ثمّ في عهد ابنه الواثق (٢٢٧هـ ـ ٢٣٢هـ) توافد الأتراك على العراق الذين ترقّوا في الوظائف السامية، ممّا استوجب تدخّلهم في أمور الخلافة، كما امتحن في هذه الفترة الأئمّة الأعلام في قضيّة خلق القرآن، وقاسى الناس من ذلك مشقّة عظيمة وقتل من أجل ذلك خلق من العلماء[٢].

وكنتيجة لهذه السياسة الخرقاء التي سار عليها المعتصم الذي كان عريّا من العلم، ثمّ من بعده الواثق عادت عوامل الضعف والتمزّق لتنخر من جديد في جسم الأمّة.

ورغم أنّ المتوكّل قد رفع المحنة عن الناس في قضيّة خلق القرآن وأظهر الميل إلى السنّة ونصر أهلها إلاّ أنّ الأتراك انحرفوا عن المتوكّل لأمور رأوها فيه واتّفقوا مع المنتصر على قتل أبيه[٣].

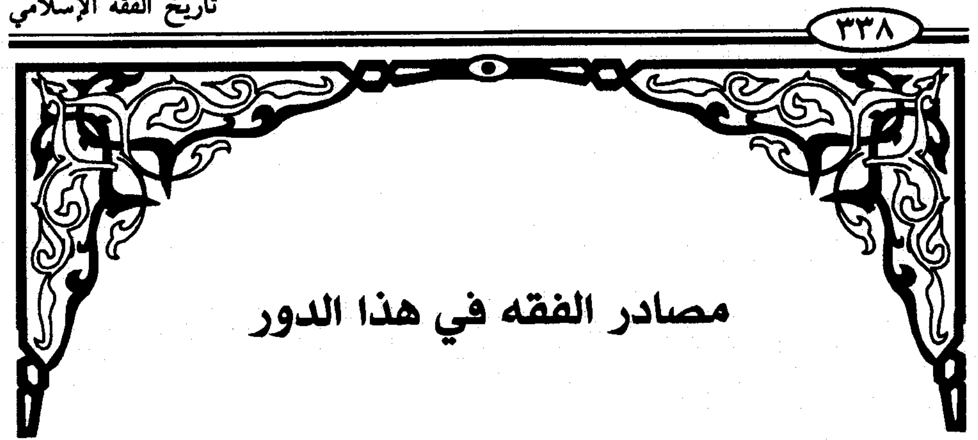
ولا شكّ أنّ هذه الأحداث والتقلّبات السياسيّة قد كان لها الأثر العميق في الفقه ورجاله الذين عانوا من الظلم والقسوة أحياناً فكرهوا قصور الحكّام وانطووا على أنفسهم، وعرفوا المصالحة والموادعة أحياناً أخرى فلقوا الحظوة الكبيرة والمنزلة العليا في الدولة، وكان لآرائهم الفقهيّة الأثر البارز في سياسة الدولة وتنظيم شؤون الحياة.

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٠٦.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٥ و٣٤٠.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٣٥٠.



مصادر الفقه في هذا الدور

ـ ١ ـ القرآن الكريم:

زاد في هذا الدور الاهتمام بحفظ القرآن وظهرت العناية بطرق آدائه، وتركّزت أنظار المسلمين حول علم القراءات، لإدراكهم بأنّ الاهتمام بهذا العلم هو فرع من اهتمامهم بالقرآن الكريم وحفظه.

وتجرّدت أجيال في جميع الأقاليم الإسلاميّة، لضبط قراءته والعناية به أتمّ عناية حتّى صاروا في ذلك أئمّة يقتدى بهم ويرحل إليهم ويؤخذ عنهم، أجمع أهل بلدهم على تلقّي قراءتهم بالقبول، ولم يختلف عليهم فيها اثنان، ولتصدّيهم للقراءة نسبت إليهم[1].

وأخذ يتّبع كلّ قارىء منهم تلاميذ يلازمونه ويأخذون عنه قراءته حتى لمع في سماء هذا العلم عدد لا يحصى من القرّاء وطوائف لا تستقصى من المريدين.

فلمّا كانت المائة الثالثة واتّسع الخرق وقلّ الضبط وكان علم الكتاب والسنّة أوفر ما كان في ذلك العصر تصدّى بعض الأئمّة لضبط ما رواه من القراءات، فكان أوّل إمام معتبر جمع القراءات في كتاب أبو عبيد القاسم بن سلّام (٢٢٤هـ) وكان بعده أحمد بن جبير بن محمد الكوفي (٢٥٨هـ) ثمّ قام الناس بعدهما فألّفوا في القراءات أنواع التآليف[2].

---

(١) ابن الجزري: النشر في القراءات العشر ١/٨ ـ ٩.

(٢) المصدر السابق ١/٣٣ ـ ٣٤.

وانتشر التأليف في تفسير القرآن انتشاراً واسعاً، ومن المفسّرين الذين برزوا في هذا الدور، نذكر أبا زكرياء يحيى بن سلّام القيرواني (٢٠٠هـ) وهو أوّل من كتب تفسيراً للقرآن من المغاربة، كان قد حرّره بالقيروان سنة ١٧٥هـ، فكان طلّاب العلم يقصدونه من كلّ مكان لسماعه وتلقّيه عنه.

ويعتبر هذا التفسير المروي عن ابن سلّام أقدم تفسير بالمأثور وصل إلينا، إذ أنّ جميع التفاسير التي صنّفت قبله قد ضاعت، ولكن هذه الثروة الضائعة قد احتفظ بها ابن جرير الطبري في تفسيره.

واعتنى المسلمون مع التفسير بعلوم قرآنية كثيرة أفردوها بالتصنيف، تعرض ابن النديم في الفنّ الثالث من المقالة الأولى إلى ذكر الكثير منها، وهي كتب مصنّفة في تفسير القرآن ومعانيه ومشكله ومجازه وغريبه ولغاته وفضائله وناسخه ومنسوخه وفي أحكامه وما يتعلّق به من حيث شكله وتنقيطه[١].

ولا يسعنا على كلّ حال أن نستقصيها، ولا هو من قصدنا في هذه اللمحة السريعة.

ـ ٢ ـ السنّة النبويّة:

تعرّضنا في الدور السابق إلى بيان المحاولات الأولى لتدوين السنّة النبويّة التي تمّت في عهد الخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبدالعزيز، حيث أرسل إلى ولاّته بالأمصار يطلب منهم تكليف العلماء بجمع الحديث وتدوينه، غير أنّ الموت فاجأه قبل أن يقف على أمر هذا التدوين وقوفا كاملا.

وفي هذا الدور الثالث تكاثر إقبال علماء الأمّة على كتابة السنّة وتدوين الآثار، وظهرت مصنّفات عديدة في مراكز مختلفة من العالم الإسلامي الممتدّ في فترات متقاربة جدّاً، ولمع أسماء العديد من الأعلام،

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٣٦ ـ ٤٠.

فكان منهم عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج (١٥٠هـ) بمكّة المكرّمة، وأبو محمد بن إسحاق (١٥١هـ) ومالك بن أنس (١٧٩هـ) بالمدينة، وسعيد بن أبي عروبة (١٥٦هـ) والربيع بن صبيح (١٦٠هـ) وحمّاد بن سلمة (١٦٧هـ) بالبصرة، وسفيان الثوري (١٦١هـ) ووكيع بن الجرّاح (١٩٦هـ) بالكوفة، وعبدالرحمٰن الأوزاعي (١٥٧هـ) بالشام، ومعمر بن راشد (١٥٣هـ) باليمن، وعبدالله بن المبارك (١٨١هـ) بخراسان، وهيثم بن بشير (١٨٣هـ) بواسط، والليث بن سعد (١٥٧هـ) وعبدالله بن وهب (١٩٧هـ) بمصر.

وكان جمع هؤلاء الأعلام للحديث مختلطاً بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، حسب الموضوعات الفقهيّة، ثمّ نشأ منهج جديد في نهاية هذه المرحلة من هذا الدور ارتأى أصحابه إفراد أحاديث الرسول بالجمع والتدوين، دون أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، فصنّفوا ما عرف بالمسانيد التي تتوزّع فيها الأحاديث على أساس رواتها من الصحابة دون اعتبار للمواضيع الفقهيّة التي تتعلّق بها.

وممّن صنّف على هذا المنهج الجديد في هذه المرحلة، الربيع بن حبيب الإباضي البصري (١٧٠هـ) وأبو داود سليمان بن جارود الطيالسي (٢٠٤هـ) وأسد بن موسى الأموي (٢١٢هـ) وهو أوّل من صنّف المسند بمصر، وعبيدالله بن موسى العبسي (٢١٣هـ) ويحيى بن عبدالحميد الحماني (٢٢٨هـ) وهو أوّل من صنّف المسند بالكوفة، ونعيم بن حمّاد الخزاعي (٢٢٨هـ) بمصر.

واقتفى آثار هؤلاء الأعلام أئمّة آخرون أمثال إسحاق بن راهويه (٢٣٨هـ) وأحمد بن حنبل (٢٤١هـ) ويعتبر مسنده أوفى تلك المسانيد وأوسعها.

وبجانب هذين النهجين في تصنيف الحديث بدأ في نهاية هذا الدور ينتشر منهج ثالث تتوزّع فيه الأحاديث على الموضوعات، وأوّل من صنّف على هذا المنهج عبدالله بن محمد بن أبي شيبة (٢٣٩هـ) الذي تفرّد ـ كما قيل فيه ـ بتكثير الأبواب وجودة التصنيف وحسن التأليف.

وفي هذا العصر أخذ المحدّثون يعرضون روّاة الحديث على نقد شديد حتّى يحيطوه بسياج متين من الصحّة والثقة الأمر الذي أدّى إلى ظهور فنّ به يتميّز الحديث الصحيح من السقيم، وهو علم ميزان الرجال أو علم الجرح والتعديل.

ولمّا كان آخر هذا الدور طالعتنا مصنّفات في علم تاريخ الرواة تناول فيها أصحابها أحوال الرواة، وأشهر من بدأ التصنيف في هذا الميدان محمد بن سعد (٢٣٠هـ) صاحب كتاب الطبقات، وخليفة بن خيّاط العصفري (٢٤٠هـ) في كتابه طبقات الرواة.

ومن العلوم التي نشأت حول الحديث في هذا الدور، علم غريب الحديث وهوعلم يعنى بتفسير ما فيه من ألفاظ غريبة، وتلك هي إحدى الخطوات الهامّة في فهم الحديث واستنباط الحكم منه، ومن أهمّ ما صنّف في هذا المجال كتاب غريب الحديث لابن سلاّم (٢٢٤هـ).

ومن العلوم التي نشأت لهذا العصر حول الحديث أيضاً، علم علل الحديث ومن أقدم ما وصلنا من مؤلفات هذا العلم كتاب التاريخ والعلل ليحيى بن معين (٢٣٣هـ) وكتاب علل الحديث للإمام (٢٤١هـ).

وهكذا أقبل العلماء على جمع الحديث وخدمته وصيانته حتى أصبح المحور الذي يدور عليه النشاط العلمي في جميع المراكز الإسلاميّة، خاصّة وأنّ العلوم الإسلاميّة قد نشأت تحت ظلال الحديث النبوي لالتصاقه بآثار الصحابة وفتاوى التابعين في كلّ ما يتعلّق بالتشريع والفقه وتفسير القرآن، لا يكاد ينفكّ عنها، ولذلك لم يكن يسلّم لأحد في هذا العصر بالاجتهاد إلاّ إذا كان من العارفين بالحديث مشهوراً في الوقت نفسه بالفقه وجودة النظر فيه.

ولم ينته هذا الدور حتى صارت السنّة النبويّة الشريفة علماً مستقلاّ نشأت حوله علوم كثيرة، مثل علم غريب الحديث، وعلم ناسخ الحديث ومنسوخه، وعلم علل الحديث، وعلم مختلف الحديث ومشكله، وعلم تاريخ الرواة، وغيرها من العلوم التي خدمت السنّة النبويّة ومحّصت

مادتها ونفت عنها الزيف والتدليس(١).

ـ ٣ ـ الاجتهاد:

رأينا في الدور السابق كيف استقرّ علماء الصحابة في الأقطار المختلفة، وكيف التفّ حول كلّ طائفة منهم جماعة من التابعين الذين انطبعوا بطابعهم وساروا على نهجهم، ثمّ حملوا لواء العلم والاجتهاد من بعدهم، فكان لكلّ علم من أعلام تلك الأقطار اجتهادات وفتاوى كغيره من الأعلام الذين كانوا في نفس ذلك القطر، أو كانوا في أقطار أخرى.

غير أنّ هذا الاختلاف بين اجتهاداتهم، والفرق بين مناهجهم إنّما ظهر في التفاوت في مدى استعمال الرأي والأثر، فأهل العراق مثلاً وإن كانوا قد استندوا إلى الحديث والأثر والعمل به، فإنّهم قد أعطوا للرأي حظّا أوفر، وأمّا أهل الحجاز فإنّهم وإن كانوا قد التجؤوا إلى استعمال الرأي واعتمدوا عليه، فإنّهم قد أعطوا للأثر النصيب الأوفر، فانقسموا تبعاً لذلك في نظر أنفسهم، وفي نظر الناس إليهم إلى أهل الرأي وأهل الأثر(٢).

فلمّا جاء الجيل الثالث الذي هو جيل تابعي التابعين، فإنّهم تكوّنوا بين يدي فقهاء التابعين كما تكوّن فقهاء التابعين بين يدي فقهاء الصحابة رضي الله عنهم، فكان هذا التكوّن تكوّناً بالسليقة والانطباع والملكة وكان الاختلاف المتسلسل من الجيل الأوّل ـ جيل الصحابة ـ والثاني ـ جيل التابعين ـ ومن الثالث ـ جيل تابعي التابعين ـ اختلافاً، وإن لم يكن كاشفاً عن اختلاف الأدلّة، وعلى اختلاف التقديرات، إلاّ أنّه يومىء إلى ذلك الاختلاف ويشير إليه.

فالأحكام التي هي فروع لم تختلف طبعاً إلاّ باختلاف الأصول التي

(١) عجّاج الخطيب: أصول الحديث ص ٢٥٣ ـ ٢٩٦.

(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٥٨، الملل والنحل للشهرستاني ٤٥/٢.

استندت إليها، ولذلك فإنّ هذا الجيل الثالث التفتوا إلى استقراء صور الاجتهاد كما التفت علماء العربيّة إلى استقراء أساليب بناء الكلام العربي يستخرجون منه بالمقارنة أصولاً إجماليّة أو أدلّة عامّة، هي عبارة عن القواعد التي أصبحت أدلّة الفقه الاجماليّة(١).

ورغم أنّ مصادر التشريع والأصول التي اعتبرت أدلّة الفقه المتّفق عليها في الدور السابق هي: القرآن الكريم والسنّة النبويّة والإجماع والاجتهاد بالرأي الذي تبلور فيما بعد ليصبح القياس.

ورغم الاتّفاق بين علماء أهل السنّة في هذا الدور على أنّ الأصول والأحكام تعود إلى تلك الأدلّة الأربعة فإنّا نراهم يختلفون في التقدير الجزئي لكلّ دليل من هذه الأدلّة المتّفق عليها بمعنى الكلمة(٢).

فمع الاتّفاق على أنّ القرآن دليل للأحكام الشرعيّة، فقد اختلف الفقهاء في أنّ الكتاب يكون دليلاً في منطوقه ومفهومه معا، أو يكون دليلاً بمنطوقه فقط ـ وهم الذين عطّلوا المفاهيم ـ.

ثمّ اختلفوا في صيغة الأمر ـ مثلاً ـ هل تقتضي الوجوب، أو تقتضي الندب، فكان ذلك خلافاً تفصيليّا في أصل وقع الاتّفاق عليه كليّا، ولكن اختلف في تطبيقه التفصيلي على مسالك الاستدلال به على الأحكام.

وبعد الاتّفاق على أنّ السنّة دليل من أدلّة الأحكام اختلفت طرائق الفقهاء في خبر الآحاد، فمنهم من ذهب إلى أنّه يفيد اليقين، ومنهم من ذهب إلى أنّه لا يفيد إلاّ الظنّ.

كما اختلفوا في كون الأصل في الرواة العدالة أم لا؟ وبني على ذلك اختلافهم في قبول رواية مستور الحال.

واختلفوا في حجيّة الحديث المرسل، فأقرّ البعض بحجّيته وأنكر حجيّته الأغلبيّة.

---

(١) محاضرات ص ٥٦.

(٢) محاضرات ص ٥٨ ـ ٥٩.

واختلفوا في كون مخالفة مذهب الصحابي لمرويه، تقدح في دلالة المرويّ، أو لا تقدح.

ثمّ بعد اتّفاقهم على أنّ الإجماع دليل على الكليّة، اختلفوا في كون الإجماع خاصًّا بفقهاء الصحابة، أو هو عامًّا للفقهاء في كلّ عصر من العصور.

واختلفوا في كون الإجماع يشمل الإجماع القولي، والإجماع السكوتي، أو هو قاصر على النوع الأوّل دون الثاني.

ثمّ بعد اتّفاقهم على أنّ القياس دليل من أدلّة الأحكام المعتبرة، اختلفوا في أنّ القياس يكون حجّة سواء أكان من القياس الجليّ، أو من القياس الخفيّ على حدّ السواء، أو هو مقتصر على معنى القياس الجلّي.

أمّا أئمّة المذهب الشيعي فلم يعتمدوا على غير الأصلين الأوّلين، اللذين هما: القرآن والسنّة، وذلك في جميع مراحل نموّ الفقه وتطوّره[١].

وإلى جانب هذه المصادر الأربعة، أصّل الأئمّة مجموعة من الأصول الخاصّة التي اختلفوا فيها[٢]، وهي أصول تابعة ومكمّلة للأصول القطعيّة، لا على معنى النقص في القرآن والسنّة، وإنّما على معنى أنّها تساعد المجتهد في تكميل طرق الفهم والاستنباط.

ومن هذه الأصول:

*** الاستحسان:**

يراه معتبراً في الأحكام مالك وأبو حنيفة، وهو مذهب أحمد، وقال

---

(١) تاريخ الفقه الجعفري ص ١٧٢.

(٢) سمّاها الغزالي في المستصفى بالأصول الموهومة في مقابلة الأخرى التي سمّاها بالأصول القطعيّة، وعقد لها ابن الحاجب وتابعوه من أمثال تاج الدين السبكي، باباً تابعاً للأبواب الأربعة سمّوه كتاب الاستدلال.

مالك: تسعة أعشار العلم الاستحسان، بخلاف الشافعي فإنّه منكر له جدّاً حتى قال: من استحسن فقد شرّع[١]، وخصّص فصلاً في كتابه الأمّ لإقامة البرهان على إبطال الاستحسان وقال في الرسالة: وإنّما الاستحسان تلذّذ[٢]، والمعروف عن الشيعة أنّهم من نفاة الاستحسان[٣].

* المصلحة المرسلة:

ذهب الإمام مالك إلى اعتبارها، وبنى الأحكام عليها على الإطلاق، واسترسل فيها استرسال المدل العريق في فهم المعاني المصلحيّة، مع مراعاة مقصود الشارع أن لا يخرج عنه ولا يناقض أصلاً من أصوله، حتّى لقد استشنع العلماء كثيراً من وجوه استرساله زاعمين أنّه خلع الربقة، وفتح باب التشريع[٤]، وإلى إثباتها والأخذ بها ذهب كذلك الشافعي[٥]، وخالف في هذا الأصل الإمام أحمد بن حنبل، والشيعة[٦].

* عمل أهل المدينة:

هو أصل قال به الإمام مالك انفراداً، وهذا الدليل هو من أمّهات مسائل مذهب مالك، وخالفه في هذا الأصل جمهور الفقهاء، وشنّع عليه

---

(١) انظر: الشاطبي: الاعتصام ص ٣٨١ - تهذيب شرح الأسنوي ١٩٥/٣ - ابن قدامة المقدسي: روضة الناظر ص ١٤٧ - ١٤٨ - الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام ٢٠٩/٤ - الغزالي: المنخول ص ٣٧٤ والمستصفى ٢٧٤/١ - ابن رشيق: لباب المحصول ٤٤٨/٢ - ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ١٩٢/٥.

(٢) الرسالة ص ٥٠٧.

(٣) محمد تقيّ الحكيم: الأصول العامة للفقه المقارن ص ٣٦٣.

(٤) الشاطبي: الاعتصام ص ٣٦١ و٣٧٧.

(٥) الشاطبي: الموافقات ٣٩/١، الزنجاني: تخريج الفروع على الأصول ص ٢٧٨، الغزالي: المنخول ص ٣٥٧.

(٦) ابن قدامة: روضة الناظر ص ١٥٠، محمد تقي الحكيم: الأصول العامة للفقه المقارن ص ٤٠٤.

البعض في اعتماد هذا الدليل[١].

وقد اعتبر الإمام مالك عمل أهل المدينة - كما يقول الشيخ الفاضل بن عاشور - اعتبار البيئة الأصليّة لتصوّر الأحداث التي تعتبر أدلّة للفروع الفقهيّة، وعلى ذلك فرّق الإمام مالك كما فرّق كثير من أصحابه بين معنى السنّة ومعنى الأثر.

فالسنّة بهذا المعنى هي التي تتجلّى في عمل أهل المدينة، وهي ليست بمعنى المصطلح عند علماء الأصول وعلماء الحديث الذي هو عبارة عن الخبر الراجع إلى قول أو فعل أو إقرار من لدن النبيّ ﷺ، وإنّما هي عبارة عن ذلك الأمر المسترسل المنقول جماعة عن جماعة في البيئة التي تعتبر أقرب البيئات الإسلاميّة لتمثيل البيئة النبويّة التي نزل فيها الوحي على الصورة التي كانت عليها.

وهذا المعنى لا يتّضح إلاّ بالطول والاستمرار والتسلسل غير المنقطع، وهذه أمور لا يمكن أن تتوفّر في البيئات والمراكز الفقهيّة الأخرى، ولا يمكن أن تتصوّر إلاّ في عمل أهل المدينة، أي فيما اتّفق عليه فقهاؤها، وهم الفقهاء السبعة من التابعين ونظرائهم السبعة الذين قال مالك فيهم: إنّ هؤلاء الأربعة عشر من فقهاء التابعين هم أفقه أهل زمانهم وأعرفهم بالحلال والحرام[٢].

*** مذهب الصحابي:**

روي أنّه حجّة يقدّم على القياس ويخصّ به العموم، وهو قول مالك

---

(١) حسن المشّاط: الجواهر الثمينة ص ٢٠٨، روضة الناظر ص ١٢٦، الإحكام لابن حزم ٥٨٤/٤ - ٤٨٥، الشوكاني: إرشاد الفحول ص ٨٢، محمد المدني: المسائل التي بناها الإمام مالك على عمل أهل المدينة ٦٦/١ وما بعدها، ابن رشيق: لباب المحصول ٤٠٣/١ وما بعدها، شعبان: تهذيب شرح الإسنوي ٢٦٤/٢.

(٢) محاضرات ص ٣٨٤.

وأبي حنيفة والشافعي في القديم، وبه قال أحمد، وروي ما يدلّ على أنّه ليس بحجّة وبه قال الشافعي في الجديد، وأحمد في رواية ثانية، ونهض الشيعة إلى عدم إثباته[١].

* سدّ الذرائع:

أخذ بها الإمام مالك وحكّمها في أكثر أبواب الفقه، وبها قال أحمد، وأمّا الشافعي فالظنّ به أنّه تمّ له الاستقراء في سدّ الذرائع على العموم، وأمّا أبو حنيفة وإن كان قد ثبت عنه جواز إعمال الحيل فلا يلزم من ذلك تركه لأصل سدّ الذرائع، وقد نقل عنه موافقة الإمام مالك في سدّ الذرائع في مسائل، ونقل عن الشيعة العمل به[٢].

ومن الأصول التبعيّة أيضاً الاستصحاب والعرف وشرع من قبلنا، وهي أدلّة اختلف في الاحتجاج بها فرأى بعض الأئمّة الاعتماد عليها، في حين رأى البعض الآخر أنّها غير صالحة للاستدلال بها.

وقد ظهر هذا المعنى من الاختلاف في آثارهم التي صدرت عنهم في عصرهم، فابتدأوا يذكرون أدلّة طرق الاستدلال، ويتناقشون فيها.

وبين أيدينا من ذلك مناقشات استدلاليّة بين الأئمّة هي وثائق هامّة تقيم الدليل على ما امتازت به هذه المرحلة من هذا الدور الفقهي، نذكر منها:

/*/ رسالة مالك بن أنس إلى الليث بن سعد:

هي وثيقة علميّة رائعة، وأنموذج للنقد الأدبي، لم نر في أدب

---

(١) روضة الناظر ص ١٤٥، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٢٠١/٤، القرافي: شرح تنقيح الفصول ص ٤٤٥، إرشاد الفحول ص ٢٤٣، الرسالة للشافعي ص ٥٩٧، الزنجاني: تخريج الفروع على الأصول ص ١٦١، محمد تقي الحكيم: الأصول العامة للفقه المقارن ص ٤٤٢.

(٢) الموافقات ٣٠٥/٣ ـ ٣٠٦ و١٩٨/٤، الجواهر الثمينة في بيان أدلّة عالم المدينة ص ٢٢٥، الأصول العامّة للفقه المقارن ص ٤١٤.

الاختلاف أرقى منه أدبا ونبلا، تتعلّق بمناقشة استدلاليّة فيما يعود إلى حجيّة عمل أهل المدينة، ينصح فيها الإمام مالك معاصره فقيه مصر وعالمها الليث بن سعد بضرورة الأخذ بعمل أهل المدينة، ويدعوه إلى عدم مخالفتهم في ذلك، ونصّها:

«من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، سلام عليكم، فإنّي أحمد الله إليك الذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد عصمنا الله وإيّاك بطاعته في السرّ والعلانية وعافانا وإيّاك من كلّ مكروه، اعلم رحمك الله أنّه قد بلغني أنّك تفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجّة من قبلك إليك واعتمادهم على ما جاءهم منك، حقيق بأن تخاف على نفسك وتتّبع ما ترجو النجاة باتّباعه، فإنّ الله تعالى يقول في كتابه ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الآية[1]، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[2] فإنّما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن وأحلّ الحلال وحرّم الحرام إذ رسول الله بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل ويأمرهم فيطيعونه ويسنّ لهم فيتّبعونه، حتّى توفّاه الله واختار له ما عنده صلوات الله عليه ورحمته وبركاته.

ثمّ قام من بعده أتبع الناس له من أمّته ممّن ولّي الأمر من بعده فما نزل بهم ممّا علموا أنفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثمّ أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك في اجتهادهم وحداثة عهدهم، وإن خالفهم مخالف أو قال امرؤ غيره أقوى منه وأولى ترك قوله وعمل بغيره.

ثمّ كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتّبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به لم أر لأحد خلافه للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادّعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون هذا العمل ببلدنا وهذا الذي مضى عليه من

(١) سورة التوبة ـ الآية ١٠٠.

(٢) سورة الزمر ـ الآية ١٧ ـ ١٨.

مضى منّا لم يكونوا من ذلك على ثقة، ولم يكن لهم من ذلك الذي جاز لهم.

فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك فيه لنفسك واعلم أنّي أرجو أن لا يكون دعائي إلى ما كتبت به إليك إلاّ النصيحة للّه تعالى وحده، والنظر لك والظنّ بك، فأنزل كتابي منك منزلته، فإنّك إن فعلت تعلم أنّي لم آلك نصحا.

وفّقنا الله وإيّاك لطاعته وطاعة رسوله في كلّ أمر وعلى كلّ حال، والسّلام عليك ورحمة الله»[1].

/*/ جواب الليث بن سعد عن رسالة مالك بن أنس:

عرض الليث بن سعد في ردّه على هذه الرسالة وجهة نظره وأجاب الإمام مالك عن كثير ممّا ذهب إليه وخالفه فيه، مستشهداً بوقائع كثيرة، ورغم طول هذا الردّ فإنّ كتابنا ليشرف بإثباته على وجهه كاملاً، لنضع بين أعيننا وفي قلوبنا هذا المثال الرائع والسامي في أدب الخلاف والنقد من جهة ولنقيم الدليل من جهة ثانية على ما وصل إليه الأئمّة في هذا العصر من ذكر لأدلّة طرق الاستدلال والبرهنة عليها، وهذا نصّه:

«سلام عليك، فإنّي أحمد الله إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد عافانا الله وإيّاك وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرّني، فأدام الله ذلك لكم وأتمّه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك وإقامتك إيّاها وختمك عليها بخاتمك، وقد أتتنا فجزاك الله عمّا قدمت منها خيرا، فإنّها كتب انتهت إلينا عنك فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها، وذكرت أنّه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة، ورجوت أن يكون لها عندي موضع وأنّه لم

---

(١) ترتيب المدارك ٦٤/١ ـ ٦٥.

يمنعك من ذلك فيما خلا إلاّ أن يكون رأيك فينا جميلاً إلاّ لأنّي لم أذاكرك مثل هذا، وأنّه بلغك أنّي أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وأنّي يحقّ عليّ الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به، وأنّ الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع منّي بالموقع الذي تحبّ، وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشدّ تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ولا آخذ لفتياهم فيما اتّفقوا عليه منّي، والحمد لله ربّ العالمين لا شريك له.

وأمّا ما ذكرت من مقام رسول الله ﷺ بالمدينة ونزول القرآن بها عليه بين ظهري أصحابه وما علّمهم الله منه، وأنّ الناس صاروا به تبعاً لهم فيه فكما ذكرت، وأمّا ما ذكرت من قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ فإنّ كثيراً من أولئك السابقين الأوّلين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاة مرضاة الله فجنّدوا الأجناد واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنّة نبيّه ولم يكتموهم شيئاً علموه، وكان في كلّ جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنّة نبيّه ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسّره لهم القرآن والسنّة، وتقدّمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ولم يكن أولائك الثلاثة مضيّعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم، بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنّة نبيّه، فلم يتركوا أمرا فسّره القرآن أو عمل به النبيّ ﷺ أو ائتمروا فيه بعده إلاّ علّموهموه، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله ﷺ بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمروهم بغيره، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم، مع أنّ أصحاب رسول الله ﷺ قد اختلفوا بعد في الفتيا في أشياء كثيرة، ولولا أنّي قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها

إليك، ثمّ اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله ﷺ، سعيد ابن المسيّب ونظراؤه أشدّ الاختلاف، ثمّ اختلف الذين كانوا بعدهم فحضرتهم بالمدينة وغيرها ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبي عبدالرحمٰن، وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفت وحضرت، وسمعت قولك فيه وقول ذوي الرأي من أهل المدينة يحيى بن سعيد وعبيدالله بن عمر وكثير بن فرقد وغير كثير ممّن هو أسنّ منه حتّى اضطرّك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه، وذاكرتك أنت وعبدالعزيز بن عبدالله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك فكنتما من الموافقين فيما أنكرت، تكرهان منه ما أكرهه ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير وعقل أصيل ولسان بليغ وفضل مستبين وطريقة حسنة في الإسلام ومودّة لإخوانه عامّة ولنا خاصّة، رحمه الله وغفر له وجزاه بأحسن من عمله، وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه، وإذا كاتبه بعضنا فربّما كتب إليه في الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضا، ولا يشعر بالذي مضى من رأيه في ذلك، فهذا الذي يدعوني إلى ترك ما أنكرت تركي إيّاه.

وقد عرفت أيضاً عيب إنكاري إيّاه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلاّ الله لم يجمع منهم إمام قطّ في ليلة مطر، وفيهم أبو عبيدة بن الجرّاح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل، وقد بلغنا أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل**»[1]، وقال: يأتي معاذ يوم القيامة بين يدي العلماء برتوة[2]، وشرحبيل بن حسنة وأبو الدرداء وبلال بن رباح، وكان أبو ذرّ بمصر والزبيّر بن العوام وسعد بن أبي وقّاص، وبحمص سبعون من أهل بدر،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، وابن ماجة في سننه، المقدّمة.

(٢) الرتوة: الخطوة، والحديث أخرجه أحمد في مسنده بلفظ: يحشر يوم القيامة بين يدي العلماء نبذة.

وبأجناد المسلمين كلّها وبالعراق ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعمران بن حصين ونزلها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه في الجنّة سنين، وكان معه من أصحاب رسول الله ﷺ فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قطّ.

ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحقّ، وقد عرفت أنّه لم يزل يقضى بالمدينة به، ولم يقض به أصحاب رسول الله ﷺ بالشام وبحمص ولا بمصر ولا بالعراق، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، ثمّ ولِّي عمر بن عبدالعزيز وكان كما علمت في إحياء السنن والجدّ في إقامة الدين والإصابة في الرأي والعلم بما مضى من أمر الناس، فكتب إليه رزيق ابن الحكم: إنّك كنت تقضي بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحقّ، فكتب عمر بن عبدالعزيز: إنّا كنّا نقضي بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك، فلا نقضي إلاّ بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين، ولم يجمع بين العشاء والمغرب قطّ ليلة المطر، والمطر يسكب عليه في منزله الذي كان فيه بخناصرة ساكنا.

ومن ذلك أنّ أهل المدينة يقضون في صدقات النساء أنّها متى شاءت أن تتكلّم في مؤخّر صداقها تكلّمت فدفع إليها، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك وأهل الشام وأهل مصر، ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا من بعدهم لامرأة بصداقها المؤخّر إلاّ أن يفرّق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقّها.

ومن ذلك قولهم في الإيلاء: إنّه لا يكون عليه طلاق حتى يوقف وإن مرّت أربعة أشهر، وقد حدّثني نافع عن عبدالله بن عمر ـ وهو الذي كان يروى عنه ذلك التوقيف بعد الأشهر ـ أنّه كان يقول في الإيلاء الذي ذكر الله في كتابه: لا يحلّ للمولى إذا بلغ الأجل إلاّ أن يفيء كما أمر الله أو يعزم الطلاق، وأنتم تقولون: إن لبث بعد أربعة الأشهر التي سمّى الله في كتابه ولم يوقف لم يكن عليه طلاق، وقد بلغنا أنّ عثمان بن عفّان

وزيد بن ثابت وقبيصة بن ذؤيب وأبا سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف قالوا في الإيلاء: إذا مضت أربعة الأشهر فهي تطليقة بائنة، وقال سعيد بن المسيّب وأبو بكر بن عبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام وابن شهاب: إذا مضت أربعة الأشهر فهي تطليقة، وله الرجعة في العدّة.

ومن ذلك أنّ زيد بن ثابت كان يقول: إذا ملك الرجل امرأته فاختارت زوجها فهي تطليقة، وإن طلّقت نفسها ثلاثاً فهي تطليقة، وقضى بذلك عبدالملك بن مروان، وكان ربيعة بن عبدالرحمٰن يقوله، وقد كاد الناس يجتمعون على أنّها إن اختارت زوجها لم يكن فيه طلاق، وإن اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة، وإن طلّقت نفسها ثلاثاً بانت منه ولم تحل له حتّى تنكح زوجاً غيره فيدخل بها ثمّ يموت أو يطلّقها، إلاّ أن يردّ عليها في مجلسه فيقول: إنّما ملّكتك واحدة، فيستحلف ويخلّى بينه وبين امرأته.

ومن ذلك أنّ عبدالله بن مسعود كان يقول: أيّما رجل تزوّج أمة ثمّ اشتراها زوجها فاشتراؤه إيّاها ثلاث تطليقات، وكان ربيعة يقول ذلك، وإن تزوّجت المرأة الحرّة عبداً فاشترته فمثل ذلك.

وقد بلّغنا عنكم شيئاً من الفتيا مستكرهاً، وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتابي، فتخوّفت أن تكون استثقلت ذلك، فتركت الكتاب إليك في شيء ممّا أنكره وفيما أوردت فيه على رأيك، وذلك أنّه بلغني أنّك أمرت زفر بن عاصم الهلالي ـ حين أراد أن يستسقي ـ أن يقدّم الصلاة قبل الخطبة، فأعظمت ذلك، لأنّ الخطبة والاستسقاء كهيئة يوم الجمعة إلاّ أنّ الإمام إذا دنا من فراغه من الخطبة فدعا حوّل رداءه ثمّ نزل فصلّى، وقد استسقى عمر بن عبدالعزيز وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيرهما، فكلّهم يقدّم الخطبة والدعاء قبل الصلاة، فاستهتر الناس كلّهم فعل زفر بن عاصم من ذلك واستنكروه.

ومن ذلك أنه بلغني أنّك تقول في الخليطين في المال: إنّه لا تجب عليهما الصدقة حتّى يكون لكلّ واحد منهما ما تجب فيه الصدقة، وفي

كتاب عمر بن الخطاب أنّه يجب عليهما الصدقة ويتردّدان بالسويّة، وقد كان ذلك يعمل به في ولاية عمر بن عبدالعزيز قبلكم وغيره، والذي حدّثنا به يحيى بن سعيد ولم يكن بدون أفاضل العلماء في زمانه فرحمه الله وغفر له وجعل الجنّة مصيره.

ومن ذلك أنّه بلغني أنّك تقول: إذا أفلس الرجل وقد باعه رجل سلعة فتقاضى طائفة من ثمنها أو أنفق المشتري طائفة منها أنّه يأخذ ما وجد من متاعه، وكان الناس على أنّ البائع إذا تقاضى من ثمنها شيئاً أو أنفق المشتري منها شيئاً فليست بعينها.

ومن ذلك أنّك تذكر أنّ النبيّ ﷺ لم يعط الزبيّر بن العوّام إلاّ لفرس واحد، والناس كلّهم يحدّثون أنّه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث، والأمّة كلّها على هذا الحديث، أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل إفريقيّة، لا يختلف فيه اثنان، فلم يكن ينبغي لك - وإن كنت سمعته من رجل مرضيّ - أن تخالف الأمّة أجمعين.

وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا، وأنا أحبّ توفيق الله إيّاك وطول بقائك، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضّيعة إذا ذهب مثلك مع استئناسي بمكانك وإن نأت الدار، فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه، ولا تترك الكتاب إليّ بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك، فإنّي أسرّ بذلك، كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد للّه، نسأل الله أن يرزقنا وإيّاكم شكر ما أولانا وتمام ما أنعم به علينا، والسلام عليك ورحمة الله»[١].

/*/ مناظرة بين أبي حنيفة والأوزاعي:

اجتمع أبو حنيفة مع الأوزاعي بمكّة في دار الخيّاطين، فقال الأوزاعي: مالكم لا ترفعون الأيدي عند الركوع والرفع منه، فقال لأجل أنه لم يصحّ عن رسول الله ﷺ فيه شيء - أي ممّا يجب العمل به بأن لا

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقّعين ٨٣/٣ - ٨٨.

يكون له معارض أرجح منه أطلق لأنّه أدعى إلى إلزام الخصم - فقال الأوزاعي: كيف لم يصحّ، وقد حدّثني الزهري عن سالم عن أبيه - أي ابن عمر - أنّ رسول الله ﷺ كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة، وعند الركوع، وعند الرفع منه، فقال أبو حنيفة: حدّثنا حمّاد عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن عبدالله بن مسعود أنّ النبيّ ﷺ كان لا يرفع يديه إلاّ عند افتتاح الصلاة ثمّ لا يعود، فقال الأوزاعي: أحدّثك عن الزهري عن سالم عن أبيه، وتقول حدّثني حمّاد عن إبراهيم، فقال أبو حنيفة: كان حمّاد أفقه من سالم، وعلقمة ليس بدون ابن عمر في الفقه وإن كانت لابن عمر صحبة، وإن كان له فضل صحبته فالأسود له فضل كثير، وعبدالله هو عبدالله[1].

فأبو حنيفة اختار الترجيح بالفقه، فرجّح بفقه الروّاة، في حين أنّ الأوزاعي اختار علوّ الإسناد فرجّح به.

/* /مناظرة بين الشافعي ومن يرى حرمة المصاهرة بالزنا:

تناظر الإمام الشافعي هو وبعض العراقيين في مسألة المصاهرة بالزنا، فقال الشافعي: الزنا لا يحرّم الحلال، وقال به ابن عبّاس، قال الشافعي: لأنّ الحرام ضدّ الحلال، ولا يقاس شيء على ضدّه، فقال لي قائل: ما تقول لو قبّلت امرأة الرجل ابنه بشهوة حرّمت على زوجها أبدا، فقلت: لم قلت ذا والله تعالى إنّما حرّم أمّهات نسائكم ونحو هذا بالنكاح، فلم يجز أن يقاس الحرام بالحلال؟ فقال: أجد جماعاً وجماعاً قلت: جماعا حمدت به وأحصنت، وجماعاً رجمت به، أحدهما نقمة والآخر نعمة وجعله الله نسباً وصهراً وأوجب به حقوقاً وجعلك محرماً لأمّ امرأتك وابنتها تسافر بهما، وجعل على الزنا نقمة في الدنيا بالحدّ وفي الآخرة بالنار إلاّ أن يعفو الله، فتقيس الحرام الذي هو نقمة على الحلال الذي هو نعمة؟ وقلت له: فلو قال لك وجدت المطلّقة ثلاثاً تحلّ بجماع زوج وإصابة فأحلّها

---

(١) القاري: شرح نخبة الفكر ص ٥٩.

بالزنا لأنّه جماع كجماع، قال: إذا أخطأ لأنّ الله تعالى أحلّها بنكاح زوج، قلت: وكذلك ما حرّم الله في كتابه بنكاح زوج وإصابة زوج، قال: أفيكون شيء يحرّمه الحلال ولا يحرّمه الحرام أقول به؟ قلت: نعم، ينكح أربعا فيحرم عليه أن ينكح من النساء خامسة، أفيحرم عليه إذا زنا بأربع، شيء من النساء؟ قال: لا يمنعه الحرام ممّا يمنعه الحلال قال: فقد ترتدّ فتحرم على زوجها، قلت: نعم وعلى جميع الخلق وأقتلها وأجعل مالها فيئا، قال: فقد نجد الحرام يحرّم الحلال، قلت: أمّا في مثل ما اختلفنا فيه من أمر النساء، فلا[١].

هذا، وقد انتصب الشافعي يوضّح منهجه الواضح فيما سلكه هو خلافاً لغيره من الاستدلال، ووضّح ذلك خاصّة في الأوضاع القيّمة التي أدرجها في كتابه العظيم الجامع كتاب «الأمّ»، فقد عقد كتباً مندرجة في جملة هذا الكتاب هي كتاب «جماع العلم» وكتاب «إبطال الاستحسان» وكتاب «اختلاف مالك والشافعي» وكتاب «الردّ على محمد بن الحسن» فأقام في كتاب «جماع العلم» مناقشة للذين لا يقولون بحجيّة الخبر، وناقش في كتاب «إبطال الاستحسان» أهل العراق، وأوضح في كتاب «اختلاف مالك والشافعي» مخالفة مالك لأحاديث رواها الشافعي عنه، لأنّه عارضها بعمل أهل المدينة أو عارضها بالمصالح المرسلة، وبيّن في كتاب «الردّ على محمد بن الحسن» مخالفة محمد لأحاديث رواها عنه الشافعي مع أنّه لم يقل بها بناء على أنّه قدّم عليها بطريقة الترجيح أو بطريقة المعارضة بدليل آخر مثل الاستحسان.

وهكذا أقام الشافعي مناقشات بيّن الطرق المختلف فيها، وناقشها على طريقته[٢].

/* /وانتصب كذلك أبو يوسف ـ صاحب أبي حنيفة ـ يوضّح منهج

---

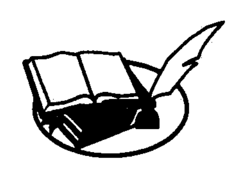
(١) إعلام الموقعين ٢٤٤/٣.

(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٦٠ ـ ٦١.

أستاذه فيما سلكه خلافاً لغيره من الاستدلال، ووضّح ذلك في الكتب التي دوّن فيها آراء أبي حنيفة ورواياته، فكتب أبو يوسف كتاب اختلاف ابن أبي ليلى، وهو كتاب جمع فيه مواضع الخلاف بين أبي حنيفة وابن أبي ليلى (١٤٨هـ) ـ قاضي المنصور ـ وكان بينهما خلاف شديد، وفي هذا الكتاب انتصر أبو يوسف لآراء أبي حنيفة.

وكتب كتاب الردّ على سير الأوزاعي، وهو كتاب قيّم بيّن فيه اختلاف الأوزاعي في العلاقات بين المسلمين وغيرهم في حال الحرب وما يتبع في الجهاد، وفيه نقد الأوزاعي وانتصر لآراء فقهاء العراق.

وكثير من تلك المناقشات والمناظرات الدقيقة قد حفلت بها كتب التراجم والتاريخ ونحوها، ولا يكاد الناظر فيها يفتقد تلك الروح العلميّة المتّسمة بالنقد الرصين والاستدلال الوجيه القائم على أساس الحجّة والبرهان في أدب نبيل وسلوك راق، وهي وثائق قيّمة تبرهن على الأمر الذي امتاز به هذا العصر الذي اصطلحنا على تسميته بعصر استقرار المذاهب.



تسلسل الحلقة العلميّة في مجال التشريع والفقه

بقيت الحركة الاجتهاديّة في **الحجاز** في هذا الدور في نموّ، وكان أكثر اعتماد أهلها على الحديث والأثر، والفتيا المبنيّة على القرآن والسنّة.

ففي **مكّة** ظلّ الفقهاء يتلقّون العلم طبقة عن طبقة حتى وصل إلى أعلام هذا العصر، وكان منهم:

عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج (١٥٠هـ) فقيه الحرم المكّي وأحد أوعية العلم، وكان قد رأى عددا من صغار الصحابة وجالس عمرو بن دينار بعد ما فرغ من عطاء بن أبي رباح سبع سنين، وله كتاب السنن يحتوي على أبواب شتّى من مسائل الفقه[١].

وممّن تلقّى عن ابن جريج الإمام الأوزاعي (١٥٧هـ) وسفيان بن عيينة (١٩٨هـ) وعن سفيان تلقى العلم الإمام الشافعي (٢٠٤هـ) ثمّ انتهى علم أهل مكّة إلى الإمام الشافعي وغلب عليهم تقليده.

أمّا **المدينة المنوّرة** فنبغ بها:

يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري (١٤٣هـ) ولم يكن أفقه منه في عصره[٢].

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧١، شذرات الذهب ١/٣٧٠ ـ ٣٧١، الفهرست ص ٢٨٢.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٦، شذرات الذهب ١/٣٥٠.

وأبو عبدالله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن علي (١٤٨هـ) روى عن أبيه وجدّه وطبقتهما، وهو معدود عند الإماميّة الاثني عشريّة من أئمّتهم الاثني عشر[١].

وابن أبي ذئب هشام بن شعبة القرشي (١٥٩): أبو الحارث محمد بن عبدالرحمٰن بن المغيرة بن الحارث، وكان يشبّه بسعيد بن المسيّب وما خلفه مثله[٢].

وابن أبي سبرة القرشي (١٦٢هـ): أبو بكر بن عبدالله بن محمد العامري المدني، وكان قد تلقّى العلم عن زيد بن أسلم وغيره[٣].

وابن أبي سلمة الماجشون (١٦٤هـ): عبدالعزيز بن عبدالله المدني الفقيه، روى عن الزهري وطبقته، وكان إماماً مفتياً صاحب حلقة، وكان من العلماء الربّانيين والفقهاء المنصفين[٤].

وفي هؤلاء الثلاثة قال مالك حين سأله أبو جعفر المنصور: من بقي بالمدينة من المشيخة، فقال: يا أمير المؤمنين، ابن أبي ذئب وابن أبي سلمة وابن أبي سبرة[٥].

وانتهى علم المدينة بعد ذلك إلى الإمام مالك.

وفي **العراق** انضاف إلى البصرة والكوفة مركز جديد في هذا الدور، هو مركز بغداد الذي علا نجمه وما لبث أن أصبح من أهمّ المراكز الفقهيّة بحكم كون بغداد هي عاصمة الخلافة العبّاسيّة، وأصبح التنافس بين مدن العراق الثلاثة على قدم وساق وشهدت حركة الاجتهاد بها نموّاً سريعاً.

فأمّا **الكوفة** فكان من أشهر أعلامها:

---

(١) شذرات الذهب ٣٦٢/١، مرآة الجنان ٣٢٥/١ ـ ٣٢٦.
(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٧، شذرات الذهب ٣٩٩/١.
(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٧، شذرات الذهب ٤١٣/١.
(٤) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٧، شذرات الذهب ٤١٨/١ ـ ٤١٩.
(٥) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٧.

أبو شبرمة عبدالله: ابن شبرمة (١٤٤هـ) فقيه الكوفة، وما رئي كوفيّ أفقه منه[١].

وابن أبي ليلى: أبو عبدالرحمٰن محمد بن عبدالرحمٰن (١٤٨هـ) قاضي الكوفة ومفتيها، تفقّه بالشعبي وطبقته، وكان من أفقه أهل الدنيا، وعنه أخذ الفقه سفيان الثوري، وكان سفيان الثوري يقول: فقهاؤنا ابن أبي ليلى وابن شبرمة، وكان يفتي بالرأي قبل أبي حنيفة وله كتاب في الفرائض[٢].

وسفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (١٦١هـ) من أعلم الناس بالحلال والحرام، ورأس التاس في زمانه، وسيّد أهل زمانه علماً وعملاً، وأمير المؤمنين في الحديث، وهو أحد الأئمّة المجتهدين في الفقه ومن أصحاب المذاهب المتبوعة، وقد بقي إلى آخر القرن الرابع سفيانيون[٣].

وإليه وإلى أبي حنيفة انتهى علم الكوفة.

وأمّا **البصرة** فممّن اشتهر فيها:

أبو عون: عبدالله بن عون (١٥١هـ) شيخ البصرة وعالمها، وما كان بالعراق أعلم بالسنّة منه[٤].

وسليمان بن المغيرة البصري (١٥٨هـ) سيّد أهل البصرة وعالمها في وقته[٥].

ثمّ كان بعد هؤلاء عبيدالله بن الحسن بن الحصين العنبري (١٦٨) ثمّ أبو سعيد (١٩٨هـ).

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٤، شذرات الذهب ٣٥٣/١.
(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٤، شذرات الذهب ٣٧٧/١، الفهرست ص ٢٥٦.
(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٤ ـ ٨٥، شذرات الذهب ٤٠٥/١ ـ ٤٠٦.
(٤) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٠، شذرات الذهب ٣٧٥/١.
(٥) شذرات الذهب ٤٢١/١.

عبدالرحمٰن بن مهدي[١].

وأمّا **بغداد** فممّن اشتهر فيها:

أبو عبيدالقاسم بن سلّام (٢٢٤هـ) الإمام القارىء الحافظ اللغوي الفقيه البغدادي المجتهد، صاحب التصانيف، وكان يحسن كلّ علم حتى كان الإمام أحمد ينعته بالأستاذ[٢].

وأبو ثور: إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان (٢٤٠) تفقّه بالشافعي وسمع من ابن عيينة وغيره وبرع في العلم ولم يقلّد أحداً، صنّف فجمع في تصنيفه بين الحديث والفقه، واستعمل أوّلاً مذهب أهل الرأي حتّى قدم الشافعي العراق وصحبه فاتّبعه، وهو غير مقلّد لأحد[٣].

وأحمد بن حنبل (٢٤١هـ) وكان إماماً في الحديث وضروبه، وفي الفقه ودقائقه وفي الورع وغوامضه، تلقى العلم عن سفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد ووكيع بن الجرّاح وعبدالرحمٰن بن مهدي وغيرهم من الأعلام وروى عنه الشافعي والبخاري ومسلم وأبو داود وأكثر عنه في سننه[٤].

وأبو سليمان داود بن عليّ بن خلف (٢٠٠هـ ـ ٢٧٠هـ) الفقيه الظاهري، وكان حافظاً مجتهداً، تفقّه على أبي ثور وعلى إسحاق بن راهويه وغيرهما، كان من أكثر الناس تعصّباً للإمام الشافعي ثمّ أصبح صاحب مذهب مستقلّ وتبعه جمع كثير وإليه انتهت رئاسة العلم ببغداد، وكان غزير العلم[٥].

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٠.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٢، شذرات الذهب ١٥٧/٢ ـ ١٥٨، البداية والنهاية ٢٩١/١٠ ـ ٢٩٢.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٢، شذرات الذهب ٢٢١/٢.

(٤) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢٢/١ ٤٠، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩١ ـ ٩٢، شذرات الذهب ٢٢٤/٢ ـ ٢٢٦، البداية والنهاية ٣٢٥/١٠ ـ ٣٤٣، الفهرست ص ٢٨٥.

(٥) طبقات الفقهاء ص ٩٢، شذرات الذهب ٣١٩/٢، البداية والنهاية ١١ /٤٧، الفهرست ص ٢٧١.

وفي **مصر** نبغت جماعة كبيرة من الفقهاء من أمثال:

عمرو بن الحارث (١٤٨هـ) الفقيه المصري الذي حدّث عن ابن أبي مليكة وطبقته، وكان من أحفظ الناس في زمانه(١).

ثمّ انتهى علم أهل مصر إلى علمين من أعلام الفقه والاجتهاد، يعود الفضل في نبوغهما إلى شيخهما يزيد بن أبي حبيب الأزدي أحد أعلام الدور السابق، وهذان العلمان هما:

الليث بن سعد بن عبدالرحمٰن (١٧٥هـ) شيخ الديار المصريّة وعالمها، كان قد اشتغل بالفتوى في زمانه بمصر، وكان الشافعي يرى أنّ الليث أفقه من مالك إلاّ أنّ أصحابه لم يقوموا به(٢).

وابن لهيعة (١٧٤هـ): أبو عبدالرحمٰن عبدالله بن عقبة، الفقيه قاضي مصر ومسندها، الذي ولِّي قضاء مصر من سنة ١٥٥هـ إلى سنة ١٦٤هـ، وعليه تفقّه أقرانه من أمثال سفيان الثوري والأوزاعي وشعبة وماتوا قبله(٣).

وآل علم **الشام** إلى أبي عمرو عبدالرحمٰن بن عمرو الأوزاعي (١٥٧هـ) كما آل علم الحجاز إلى مالك، وكما آل علم العراق إلى أبي حنيفة، وكما آل علم مصر إلى الليث بن سعد.

وكان الأوزاعي إمام الشاميين بلا منازع، وكان رأساً في العلم والعمل، كانوا يقولون: الأوزاعي أفضل أهل زمانه وعالم الأمّة، له كتاب السنن في الفقه، وكتاب المسائل في الفقه(٤).

وكان أبو محمد سعيد بن عبدالعزيز التنّوخي (١٦٧) فقيه الشام مع الأوزاعي وبعده، وكان لأهل الشام كمالك لأهل المدينة، وعلى مذهب

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٨، شذرات الذهب ٣٦٦/١.
(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٨، شذرات الذهب ٤٥٧/١ ـ ٤٥٨.
(٣) شذرات الذهب ٤٥٥/١.
(٤) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٦، شذرات الذهب ٣٩٣/١ ـ ٣٩٤، الفهرست ص ٢٨٤.

الأوزاعي وسعيد بن عبدالعزيز ثبتت الفتيا بالشام(١).

وفي **خراسان** ظهر أئمّة أعلام منهم:

إمام المسلمين أبو عبدالرحمٰن عبدالله بن المبارك (١٨١هـ) الفقيه الحافظ الزاهد، لم يكن في زمانه أطلب للعلم منه، تفقّه بسفيان الثوري ومالك بن أنس، وله كتاب السنن في الفقه، وكان رأسا في العلم والعقل والذكاء، حتى قيل الأئمّة أربعة: سفيان الثوري ومالك وحمّاد بن زيد وابن المبارك(٢).

وعالم المشرق أبو يعقوب إسحاق بن راهويه (١٦١هـ ـ ٢٣٨هـ) الذي جمع بين الحديث والفقه ما رؤي أحفظ منه، وكان له كتاب السنن في الفقه، وناظر الشافعي فلمّا عرف فضله صحبه وصار من أصحاب الشافعي(٣)، وكان إسحاق يكبر الشافعي بعشر سنين.

وفي **اليمن** استمرّ النشاط الفقهي خصباً، وكان على رأس هذا النشاط:

معمر بن راشد الأزدي (١٥٣هـ) وهو إمام اليمن وعالمها، كان ثقة حجّة ورعاً، وإليه ارتحل السفيانان: الثوري وابن عيينة(٤).

وخلفه تلميذه عبدالرزّاق بن همام (٢١٣هـ) أبو بكر الصنعاني، روى عن شيخه معمر وعن ابن جريج وطبقتهما، ورحل الأئمّة إليه إلى اليمن، وكان فيه تشيّع ووثّقه غير واحد(٥).

وفي **إفريقية التونسيّة** نبغ أعلام من الرعيل الأوّل ذاع صيتهم في الفقه

---

(١) طبقات الفقهاء ص ٧٦ ـ ٧٧، شذرات الذهب ٤٢٧/١.
(٢) طبقات الفقهاء ص ٩٤، شذرات الذهب ٤٧٤/١ ـ ٤٧٦، الفهرست ص ٢٨٤.
(٣) طبقات الفقهاء ص ٩٤، شذرات الذهب ٢١٢/٢ ـ ٢١٣، البداية والنهاية ٣١٧/١٠، الفهرست ص ٢٨٦.
(٤) شذرات الذهب ٣٨٣/١.
(٥) شذرات الذهب ١١١/٢ ـ ١١٢، البداية والنهاية ٢٥٦/١٠.

وقوّة الاستنباط، وكان من أشهرهم:

أبو كريب عبدالرحمٰن كريب (١٣٩هـ) قاضي القيروان[١].

وعبدالرحمٰن بن زياد بن أنعم المعافري (١٦١هـ) وقد تلقّى العلم عن سعيد بن يحيى الأنصاري حين قدم إلى تونس عاملاً على الصدقات من جهة عمر بن عبدالعزيز، وتلقّى العلم كذلك عن جميع أعضاء البعثة العلميّة الذين تصدّروا الإفتاء وقادوا حركة التشريع والفقه بإفريقيّة التونسيّة في الدور السابق، وأخذ عنه الكثير من فضلاء أهل الشرق من أمثال سفيان الثوري وابن لهيعة وعبدالله بن المبارك، وأهل مصر وإفريقيّة والمغرب يثنون عليه[٢].

وأمّا **الأندلس** فقد كانت الفتيا بها تدور على الغازي بن قيس الذي كان يؤدّب الناشئة قبل رحلته إلى المشرق، وقد تلقّى علمه عن مالك وابن أبي ذئب وابن جريج والأوزاعي، ثمّ عاد إلى الأندلس بعلم عظيم نفع الله به أهلها، وعنه تلقّى العلم عبدالملك بن حبيب[٣].

وهكذا شهدت حركة الفقه والاجتهاد بهذه المراكز المختلفة نموّاً متسلسلاً، مترابط الحلقات، وانتقل العلم فيها طبقة عن طبقة حتّى توّج ذلك بثمرة مثّلت أثرا من آثار البيئات الفقهيّة المتنوّعة بين تلك الأقاليم.

وتلكم الثمرة هي ظهور أئمّة أعلام جمعوا علم من سبقهم فأصّلوا مسائلهم وقعّدوا نوازلهم وضبطوا أحكامهم، في مناهج صاغوها وأصول أبدعوها، فنشأت بهم المذاهب.

هذه نبذة وجيزة وفكرة إجماليّة عن تسلسل الحلقة العلميّة في مجال التشريع والفقه، تلك الحلقة التي ربطت بين مجتهدي هذا العصر الذين

---

(١) طبقات أبي العرب ص ٢١٧، المالكي: رياض النفوس ١/١٦٨ ـ ١٧٢، الدبّاغ: معالم الإيمان ١/٢٢٤ ـ ٢٢٩.

(٢) طبقات أبي العرب ص ٩٥ وما بعدها، رياض النفوس ١/١٥٢ وما بعدها.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس ص ٣٠٥، ترتيب المدارك ١/٣٤٧ ـ ٣٤٨.

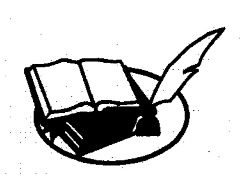
ترسّم الناس خطاهم وعملوا بمقتضى آرائهم، وبين مجتهدي الصحابة والتابعين وما نقل لهم من أقوال وآراء في كتب ومصنّفات أعلام هذا العصر.

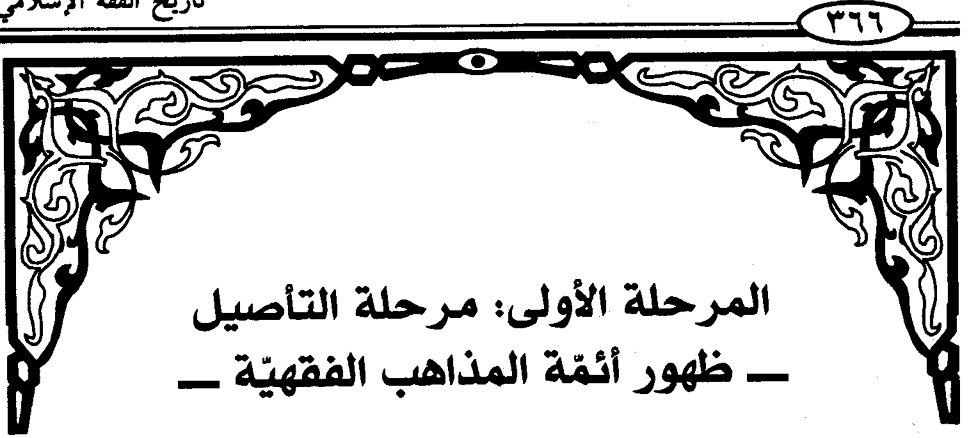
ولكي نفصّل حركة التشريع والفقه في هذا الدور يحسن بنا أن نقسّمه إلى مرحلتين اثنتين:

مرحلة أولى: نصطلح على تسميتها بمرحلة التأصيل، وهي المرحلة التي ظهر فيها أغلب أئمّة المذاهب الفقهيّة، الذين استخرجوا الأصول المتعلّقة بطرق الاستدلال والاستنتاج، ووضعوا المبادىء الكلّية والمناهج العمليّة التي ينبغي السير عليها في استنباط الأحكام.

مرحلة ثانية: نصطلح على تسميتها بمرحلة التفريع، وهي المرحلة التي تصدّر فيها المجتهدون من تلاميذ الأئمّة لتدوين فقه أساتذتهم عن طريق الاجتهاد الفرعي على مقتضى أصول أئمّتهم.

وهذا التقسيم الذي ارتأيناه إنّما هو تقسيم اعتباري بحسب الحالة الغالبة على كلّ مرحلة من هاتين المرحلتين في هذا الدور، حتّى تتّضح الصورة بين حالتي التأصيل والتفريع في المذهب الواحد، وإلاّ فإنّ واقع الحال لا يقبل هذا الفصل بين المرحلتين، ذلك أنّه في الوقت الذي نشأ فيه مثلاً مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك بن أنس، ووضّح كلّ واحد منهما أصوله الاجتهاديّة وسار عليها في اجتهاداته، وانتسب إلى كلّ منهما أعلام اجتهدوا في فروع المذهبين، في الوقت الذي حصل هذا في المذهبين الحنفي والمالكي، نجد أنّ الأئمّة أحمد بن حنبل وأبا ثور وداود بن عليّ ثمّ من بعدهم الطبري الذين جاؤوا بأخرة عن الإمامين أبي حنيفة ومالك، لم تتشكّل بعد مذاهبهم لا في أصولها ولا في فروعها.





المرحلة الأولى: مرحلة التأصيل
ـ ظهور أئمّة المذاهب الفقهيّة ـ

كان اختلاف الفقه في الدور السابق اختلاف أقوال وفتاوى، فلكلّ واحد من الصحابة أن يفتي بما سمعه من الرسول الأكرم ﷺ، ولكلّ واحد من التابعين أن يفتي بما حدّثه به الصحابي عن الرسول ﷺ، حتّى أنّنا كنّا إذا عبّرنا عن ذلك بالمذاهب فإنّما هو معنى من التسامح، فإذا قلنا مثلاً مذهب عطاء أو مذهب فقهاء المدينة، فإنّما تسامح في ذلك تسامحا، لأنّ المذهب الذي له قواعد واضحة وأصول مقرّرة لم يكن موجودا في ذلك الوقت[1]، وإنّما الذي كان موجوداً آنذاك هي الأقوال والفتاوى التي كان فقهاء الصحابة والتابعين يفتون بها بحسب ما ثبت عندهم من أحاديث رسول الله ﷺ من ناحية، وبحسب اختلافهم في فهم النصوص وما يؤدّيه إليه اجتهادهم في ذلك من ناحية ثانية، إذ لم يكونوا على درجة واحدة في العلم والحفظ، ولا على نمط واحد في الاجتهاد والنظر، ولا على طراز واحد في الفهم والاستنباط.

فلمّا اتّجه فقهاء هذا الجيل إلى وضع الأصول، فإنّ هذا الذي يعلّل لنا أنّ المجتهدين الذين استقرّت بهم المذاهب بمعناها المعروف، هم الذين كان كلّ واحد منهم يعتبر ثمرة لمصر من الأمصار وأثرا من آثار البيئات الفقهيّة المتوزّعة بين تلك الأمصار، فظهر مالك بن أنس للمدينة، وظهر

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٥٧.

الشافعي لمكّة، وظهر أبو حنيفة وسفيان الثوري للعراق، وظهر الأوزاعي للشام، وظهر الليث بن سعد لمصر.

وإذا أضفنا إلى هؤلاء الستّة الذين هم فقهاء الأمصار الكبار الذين طبعت مذاهبهم، ودوّنت وسار الناس عليها فيما بعد، إذا أضفنا إلى هؤلاء اثنين ـ ممّن دوّنت مذاهبهم في المرحلة الثانية من هذا الدور ـ ظهرا في بغداد، وكان لظهورهما في العراق أثر عكسي لاتّجاه الفقه العراقي ـ كما يعبّر عنه الآن بردّ الفعل ـ وهما: أحمد بن حنبل وداود بن عليّ على درجتين، فإنّ هؤلاء الأئمّة الثمانية نعتبرهم آثاراً لتقرير الأحكام الشرعيّة وهما عنصر الرأي وعنصر الأثر[١].

وكان غير هؤلاء ممّن عدّوا في هذا الدور من أصحاب المذاهب أيضاً:

سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) نزيل مكّة وعالم الحجاز، وإسحاق ابن راهويه (٢٣٨هـ) عالم المشرق وإمام أهل خراسان، وأبو ثور إبراهيم بن خالد (٢٤٠هـ) أحد المجتهدين ببغداد، وغيرهم كثير ممّن كانوا على علم واسع وفقه غزير.

وجميع هذه المذاهب تنسب إلى أهل السنّة الذين كانوا ولا يزالون الجمهور الأعظم من المسلمين، غير أنّه لم يكتب لجميعها البقاء، فبعضها لم يَنَلْ حظّ التدوين، وبعضها حظي بتدوين جزئي، وبعضها حظي بالتدوين وعرفت أصوله وقواعده غير أنّ القائمين على نشره ممّن يقلّدونه قد انقرضوا، فلم يبق لها وجود إلاّ في بطون الكتب.

وأمّا المذاهب التي كتب لها البقاء وظلّت قائمة إلى يوم الناس هذا، وعليها مدار الفقه والفتوى عند أهل السنّة فهي أربعة مذاهب مشهورة: مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك، ومذهب الشافعي، ومذهب أحمد.

ومن المذاهب المنسوبة كذلك إلى أئمّة هذا الدور، ولا يزال لها بقاء

---

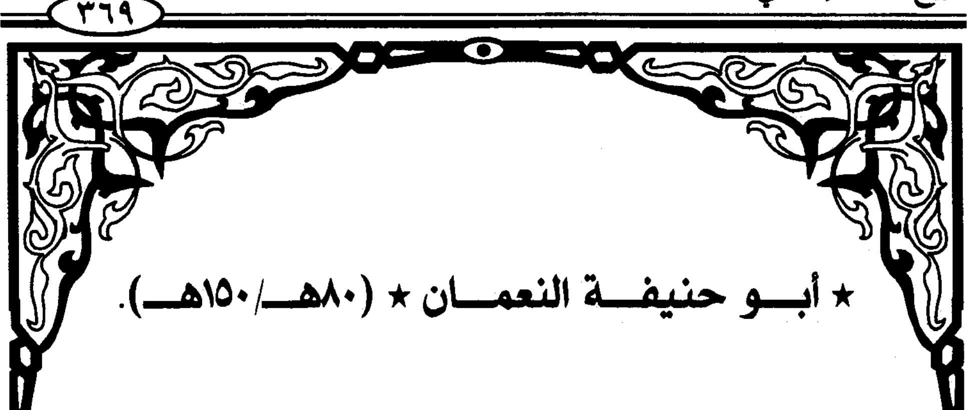
(١) محاضرات، بتصرّف ص ٥٧.

إلى يومنا هذا، مذهب الشيعة الإماميّة الاثني عشريّة الذي ينسب إلى الإمام جعفر الصادق.

ويوجد أيضاً مذهب الشيعة الزيديّة الذي ينسب إلى الإمام زيد بن عليّ (١٢٢) من فقهاء الدور السابق.

كما يوجد المذهب الإباضي المنسوب إلى عبدالله بن إباض التميمي (٨٠هـ) وهو مذهب من مذاهب الخوارج يتّبعه بعض سكّان جربة بتونس وبعض سكان الجزائر.

وفيما يلي تفصيل ما قد أجملناه:



★ أبـو حنيفـة النعمـان ★ (٨٠هـ/١٥٠هـ).

هو النعمان بن ثابت بن زوطي الكوفي(١) إمام أهل الرأي وفقيه أهل العراق غير مدافع، وأحد أئمّة الإسلام، وأحد الأئمّة الأربعة أصحاب المذاهب المتبوعة عند أهل السنّة، ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ وبها نشأ.

عاصر الدولتين الأمويّة والعبّاسيّة، عاش ٥٢ سنة من حكم الأمويين، وأدرك ١٨ سنة من حكم العبّاسيين.

كان في أيّامه أربعة من الصحابة: أنس بن مالك بالبصرة، وعبدالله بن أبي أوفى الأنصاري بالكوفة، وأبو الطفيل عامر بن واثلة بمكّة، وسهل بن سعد الساعدي بالمدينة، ولكن لم تثبت له رواية عن أحد منهم، وأدرك جماعة من التابعين كالشعبي والنخعي وعليّ بن الحسين وغيرهم، ولم يأخذ عن أحد منهم وذلك أنّه حين كان يطلب العلم كان يشتغل خزّازا وله دار كبيرة لعمل الخزّ وعنده صنّاع وأجراء، فلم يتفرّغ للعلم وطلبه، ثمّ رأى بعد ذلك أن يتفرّغ له.

تفقّه على الحكم بن عتيبة شيخ أهل الكوفة، وبصفة خاصّة على حمّاد بن أبي سليمان ـ راوية إبراهيم النخعي وعامر الشعبي ـ، ولازمه ثمانية عشر عاما، ينهل من فقه أهل الكوفة القائم على الإكثار من

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي: ص ٨٦، اليافعي: مرآة الجنان ٣٣٠/١ ـ ٣٣٢، ابن كثير: البداية والنهاية ١٠٧/١٠، ابن النديم: الفهرست ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦، ابن العماد: شذرات الذهب ٣٧٢/١، حاجي خليفة: كشف الظنون ٥٥٦/٢، الحجوي: الفكر السامي ٤١٠/٢ ـ ٤٣٤، الملل والنحل للشهرستاني ٤٦/٢.

القياس وإعمال الرأي، فلمّا مات حمّاد جلس أبو حنيفة مجلسه بالكوفة.

واتّصل بالفقه المكّي عن طريق فقيه التابعين عطاء بن أبي رباح الذي كانت له الحلقة في المسجد الحرام بعد ابن عبّاس.

كما نهل من الفقه المدني عن طريق ابن شهاب الزهري حافظ علم الفقهاء السبعة، ونافع مولى عبدالله ابن عمر المشهور بالحديث، ومحمد بن المنكدر الحافظ القدوة، ويحيى بن سعيد الأنصاري الفقيه الحافظ.

واتّصل أبو حنيفة بثلاثة من أئمّة أهل البيت هم الذروة في زمانه وهم: زيد بن عليّ، ومحمد الباقر بن علي بن الحسين وابنه جعفر الصادق.

فأصبح أبو حنيفة بعد ذلك صاحب غوص في المسائل، مقامه في الفقه لا يلحق، حتى قال سفيان الثوري وعبدالله بن المبارك: كان أبو حنيفة أفقه أهل الأرض في زمانه، وشهد له بذلك خصوصا مالك والشافعي الذي قال فيه: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة، وقال: من أراد الجدل فعليه بأبي حنيفة.

كان أبو حنيفة من أورع ومن أعقل أهل زمانه، وكان من أذكياء بني آدم، جمع الفقه والعبادة والورع والسخاء، وكان كثير الخشوع دائم التضرّع إلى الله تعالى.

توسّع أبو حنيفة في استعمال القياس والاستنباط وتجرّد لفرض المسائل وتقدير وقوعها، وكان صاحب نظر واستدلال، وكان إذا رأى رأيا يقول: علمنا هذا الرأي وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن قدر على غير ذلك فله ما رأى ولنا ما رأينا، وربّما قال: ومن جاءنا بأحسن منه قبلناه.

وكان إذا ناظر أصحابه في المقاييس فربّما انتصفوا منه وعارضوه، فإذا قال: أستحسن لم يلحقه أحد لكثرة ما يورد في الاستحسان من مسائل فيذعن له الجميع ويسلّم له.

أراده يزيد بن عمر بن هبيرة ـ أمير بني أميّة على العراقين ـ للقضاء بالكوفة فامتنع حتى ضرب بالسياط على ذلك فلم يقبل، وعرض عليه الخليفة العباسي المنصور قضاء الرصافة فأبى فسجنه حتى مات في سجنه

وقيل إنّ المنصور سقاه السمّ لقيامه مع إبراهيم، فمات شهيدا وهو ابن سبعين سنة.

أوضح أبو حنيفة منهجه في الاجتهاد، فقال: إنّي آخذ بكتاب الله إذا وجدته، فما لم أجده فيه أخذت بسنّة رسول الله ﷺ والآثار الصحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات، فإذا لم أجد في كتاب الله ولا في سنّة رسول الله ﷺ، أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع قول من شئت ثمّ لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم النخعي والشعبي وابن المسيّب - وعدّد منهم رجالاً - فلي أن أجتهد كما اجتهدوا.

واعتمد في استنباطه للأحكام على أصول وقواعد كلّية هي: القرآن والسنّة والإجماع والقياس وقول الصحابي والاستحسان والعرف وقرّر أنّ الأخذ به كأصل شرعي يترك به القياس، واستوعب أصحابه من بعده في مصنّفاتهم الأصول الثانويّة لمذهبه المستخرجة من كلامه، والتي عليه مبنى جلّ مسائله.

ومن أصول مذهبه اعتماد الحيل الشرعيّة المعروفة بالمخارج من المضايق، وقد عابه بعضهم على ذلك وردّ عليه البخاري كثيراً وعقد لها كتاباً في الجامع الصحيح.

وتشدّد أبو حنيفة في قبول الأحاديث في الوقت الذي توسّع فيه في استعمال القياس والرأي، فلم يقبل خبر الواحد فيما عمّت به البلوى، وقدّم القياس الجليّ على خبر الواحد المعارض له، حتّى أفرط أصحاب الحديث في ذمّه - كما قال ابن عبدالبرّ - وتجاوزوا الحدّ في ذلك.

والحقيقة أنّ ردّه لما ردّ من أخبار الآحاد إنّما كان بتأويل محتمل، وكثير منه قد تقدّمه إليه غيره وتابعه عليه مثله ممّن قال بالرأي، ولا يخلو مذهب من المذاهب من *ترك العمل ببعض السنن الثابتة*، وليس لأحد من علماء الأمّة يثبت حديثاً عن النبيّ ﷺ ثمّ يردّه دون عذر يبديه أو يبديه أتباعه من بعده، كادّعاء نسخ عليه بأثر مثله أو بإجماع أو بعمل يجب على أصله الانقياد إليه أو طعن في سنده.

وهذا الليث بن سعد قد أحصى على الإمام مالك سبعين مسألة رأى

أنّها مخالفة للسنن ممّا قال مالك فيها برأيه وكتب إليه في ذلك[1].

وذكر ابن خلدون في المقدّمة[2] أنّه يقال أنّ أبا حنيفة: بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها وبيّن أنّ السبب في ذلك إنّما يعود إلى المنهج الذي اعتمده في التشدّد في شروط الرواية والتحمّل، وردّ على تقوّل بعض المبغضين المتعسّفين الذين أرجعوا قلّة روايته لقلّة بضاعته في الحديث، مبيّناً: أنّه لا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمّة لأنّ الشريعة إنّما تؤخذ من الكتاب والسنّة، ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعيّن عليه طلبه وروايته والجدّ والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة الأحكام عن صاحبها المبلّغ لها.

وإنّما قلّل منهم من قلّل الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه فيها والعلل التي تعرض في طرقها، سيّما والجرح مقدّم عند الأكثر، فيؤدّيه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد، ويكثر ذلك فتقلّ روايته لضعف في الطرق.

ثمّ قال: والإمام أبو حنيفة إنّما قلّت روايته لما تشدّد في شروط الرواية والتحمّل...، ويدلّ على أنّه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم، والتعويل عليه واعتباره ردّاً وقبولاً.

وختم هذا الفصل بقوله: فلا تأخذك ريبة في ذلك، فالقوم - أي الأئمّة الأعلام - أحقّ الناس بالظنّ الجميل بهم والتماس المخارج الصحيحة لهم.

هذا، ولقد روى عن أبي حنيفة ووثّقه غير واحد من أهل عصره، فكان وكيع بن الجرّاح - إمام أهل الكوفة في الحديث - يفتي برأي أبي حنيفة، وكان يحفظ حديثه كلّه، وكان قد سمع من أبي حنيفة حديثاً كثيراً[3]، وكان الحافظ القدوة يحيى بن سعيد الأنصاري يختار قوله في الفتوى، ويقول ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة، وكان يحيى بن معين

(١) ابن عبدالبرّ: جامع بيان العلم وفضله ١٨١/٢ - ١٨٢.

(٢) ابن خلدون: المقدّمة ص ٤٢٧.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ١٨٣.

ـ أحد الذين انتهت إليهم الرئاسة في الحديث في عصره ـ يقول: ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة، وقد أخذنا بأكثر أقواله[١].

وقد صنّفت حول أبي حنيفة أبحاث كثيرة في ذكر مناقبه وفضائله ناهزت الثلاثين مصنّفاً.

*** آثاره:**

يعتقد الكثيرون أنّه لم يؤثر عن أبي حنيفة كتاباً في الفقه رغم ما يقال من أنّه أفتى في ثلاث وثمانين ألف مسألة، وأنّ كلّ ما أثر عنه أو نسب إليه هو مجموعة رسائل في علم الكلام، وأنّ تلاميذه هم الذين قاموا بتدوين مذهبه وما روي عنه من آراء فقهيّة.

غير أنّ الناظر في هذا الدور يلاحظ انتشار التآليف والمصنّفات في مختلف الأقطار الإسلاميّة، فهذا معاصره ابن أبي ليلى قاضي الكوفة ومفتيها، وهو ممّن كان يفتي بالرأي مثل أبي حنيفة، وقد توفّي قبل أبي حنيفة بسنتين، يصنّف كتاباً في الفرائض[٢].

وهذا ابن جريج من أعلام مكّة، وقد توفّي في نفس السنة التي توفّي فيها أبو حنيفة، يصنّف كتاب السنن ويحوي باب الطهارة والصيام والصلاة والزكاة ونحو ذلك[٣]، وهذا الإمام الأوزاعي عالم أهل الشام يصنّف كتاب السنن في الفقه وكتاب المسائل في الفقه كذلك[٤] فضلاً عن المصنّفات التي ظهرت قبل هذا، وكنّا قد ألمحنا لها.

فلا يتصوّر وأمر الأئمّة على هذا النحو في التأليف والتصنيف أن يتخلّف أبو حنيفة عن ركب معاصريه وهو من هو في سعة العلم وقوّة الاستدلال وحضور الحجّة والبرهان.

وممّا يقوّي هذا الرأي ويرجّحه أنّ أخباراً وردت عن بعض أعلام هذا

(١) البداية والنهاية ١٠/١٠٧.
(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٥٦.
(٣) المصدر السابق ص ٢٨٢.
(٤) نفس المصدر ص ٢٨٤.

الدور تفيد أنّه كان لأبي حنيفة تآليف كتبها بنفسه في الفقه، من ذلك ما أورده الخطيب البغدادي[١]:

* أنّ عبدالله بن المبارك كان يحتفظ في بيته بكتب لأبي حنيفة أخرج منها مسائل من جياد المسائل وأطلع عليها الإمام الأوزاعي، ومن هنا نفهم معنى قول عبدالله بن المبارك: لولا أنّ الله أعانني بأبي حنيفة لكنت كسائر الناس.

* أنّ أبا مسلم المستملي سأل يزيد بن هارون: ما تقول يا أبا خالد في أبي حنيفة والنظر في كتبه؟ قال: انظروا فيها إن كنتم تريدون أن تفقهوا، فإنّي ما رأيت أحداً من الفقهاء يكره النظر في قوله.

* أنّ سفيان الثوري كان قد احتال في كتاب الرهن لأبي حنيفة حتّى نسخه.

ومن الآثار التي تنسب إليه[٢]:

* كتاب الفقه الأكبر الذي يبدأ بأصل التوحيد، ويقال إنّ ابنه حمّاد رواه عنه.

* كتاب الفقه الأبسط ويقال أنّ تلميذه أبا المطيع الحكم بن عبدالله بن سلمة (١٩٩هـ) رواه عنه.

* الضوابط الثلاثة: وهو كتاب في الفقه.

* رسالة في الفرائض: وقد كتب معاصروه رسائل في هذا الفنّ.

* كتاب العالم والمتعلّم: رواه عنه تلميذه أبو مقاتل حفص بن سلم السمرقندي (٢٠٨هـ).

* أربع وصايا: وصيّة في أصول الإسلام توجد في روايتين وبينهما بعض الاختلافات، وصيّة إلى ابنه حمّاد، وصيّة إلى تلميذه يوسف بن خالد

---

(١) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٣٨/١٣ و٣٤٢ و٤٢٦ ـ ٤٢٧.

(٢) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي ٣٧/٣ ـ ٥٠.

السّمتي البصري، وصيّة إلى تلميذه أبي يوسف.

* رسالتان إلى عثمان بن سليمان البتّي (١٤٣هـ).

* مخاطبة مع جعفر بن محمد بن أحمد الرضا (١٤٨هـ).

* مسند أبي حنيفة برواية برواية أبي يوسف، ورواه بعده ابنه يوسف، وكذلك برواية الحسن بن زياد اللؤلؤي (٢٠٤هـ).

وذكر ابن حجر أنّ هذا المسند ليس من جمع أبي حنيفة وأنّ الموجود من حديث أبي حنيفة إنّما هو كتاب الآثار التي رواها محمد بن الحسن عنه، وقد اعتنى في القرن الرابع الهجري الحافظ أبو محمد الحارثي بحديث أبي حنيفة فجمعه ورتّبه على شيوخ أبي حنيفة، وخرّج منه الأحاديث المرفوعة الحافظ أبو بكر بن المقري(١).

وذكر أبو المؤيّد محمد بن محمود الخوارزمي (٦٦٥هـ) أنّه كان في أهل الشام بعض الجاهلين بمقدار الإمام الأعظم أبي حنيفة ينسبونه إلى قلّة رواية الحديث ويزعمون أنّه ليس لأبي حنيفة مسند وأنّه كان لا يروي إلاّ عدّة أحاديث، فقام أبو المؤيّد بجمع خمسة عشر من مسانيد أبي حنيفة التي جمعها له.

فحول علماء الحديث، ورتّبها على أبواب الفقه بحذف المعاد وترك تكرير الإسناد(٢).

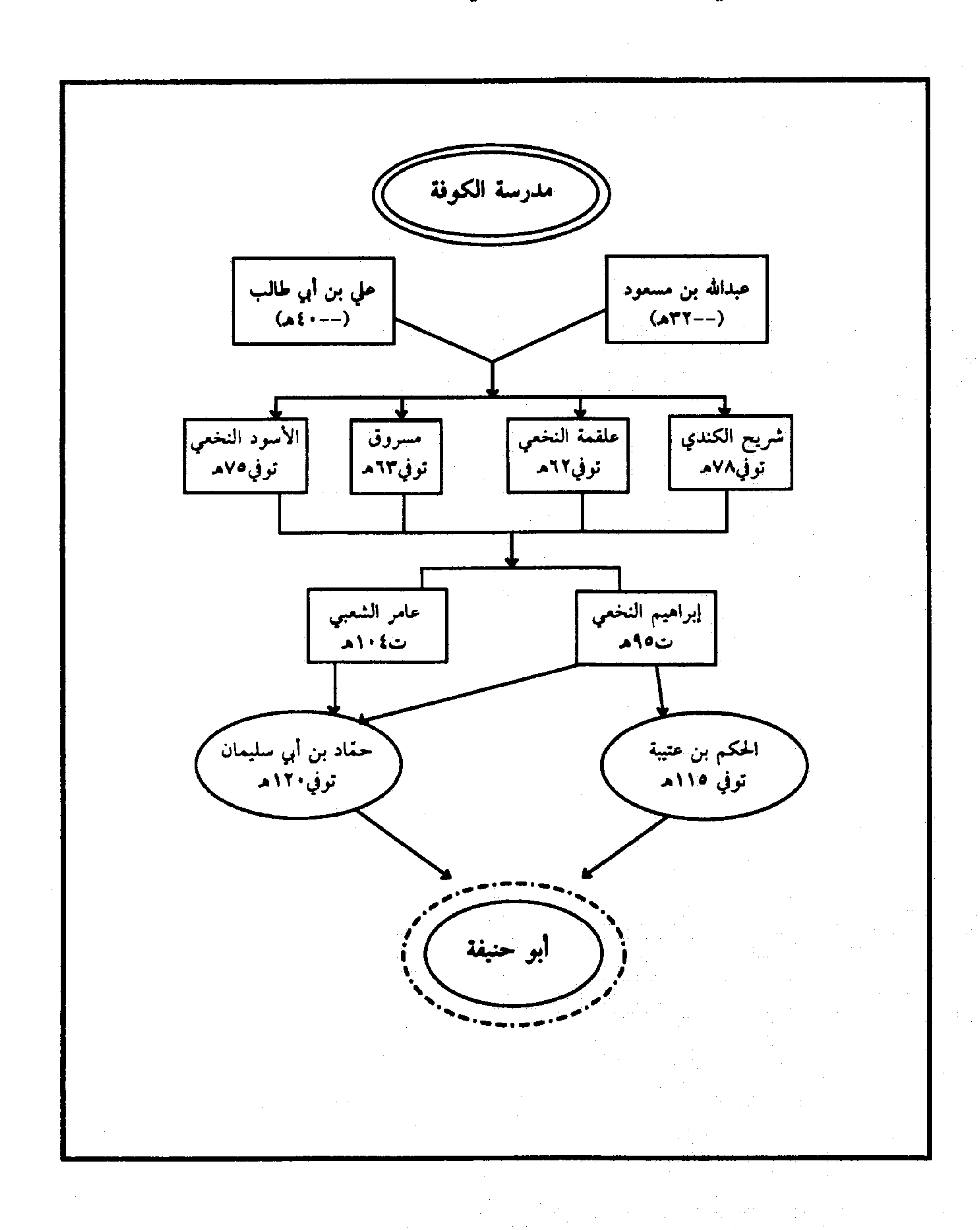
وقد وقف الإمام الحجوي في الفتوحات الإلهيّة لابن عبدالله العلوي فيما انتقاه من مسانيد الأئمّة الأربعة على ترجمة الأحاديث التي انفرد بها أبو حنيفة فكانت ٢١٥ حديثاً دون ما اشترك في إخراجه هو مع بقيّة الأئمّة(٣).

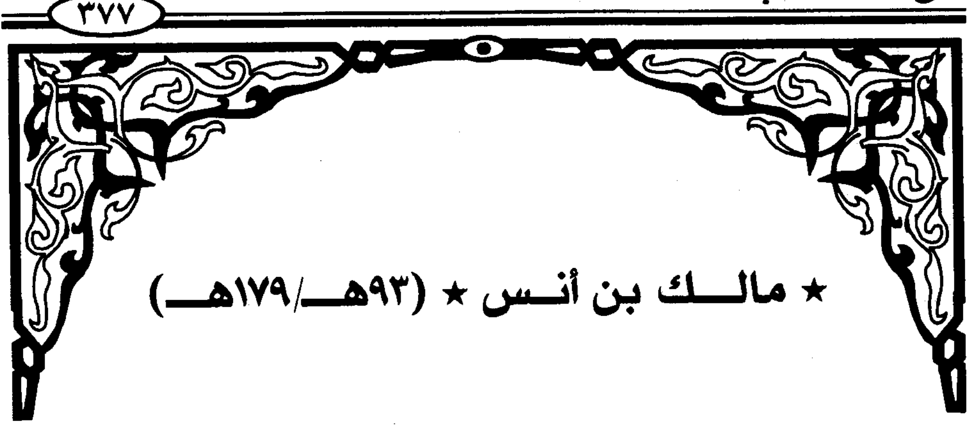
وبهذا يتّضح أنّ ما قيل عن أبي حنيفة من أنّ روايته بلغت إلى سبعة

(١) الحجوي: الفكر السامي ٢/٤١٢ ـ ٤١٣.
(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون ٢/٥٥٦ ـ ٥٥٧.
(٣) الفكر السامي ٢/٤١٥.

عشر حديثاً أو نحوها، هو قول خال من الصحّة.

وفيما يلي رسم بياني لتسلسل الحلقة العلميّة في التشريع والفقه بمدرسة الكوفة التي انتهى علمها إلى أبي حنيفة:





★ مالـــك بن أنــس ★ (٩٣هــ/١٧٩هــ)

هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني[١] أمير المؤمنين في الحديث وإمام دار الهجرة، وفقيه الحجاز، وعالمها في وقته.

وأبو عامر - جدّ أبي مالك - صحابي جليل، شهد جميع الغزوات مع الرسول ﷺ ما عدا غزوة بدر، وابنه مالك - جدّ مالك - من كبار التابعين ومن أفاضل الناس وعلمائهم وكان عمر بن عبدالعزيز يستشيره.

نشأ مالك بالمدينة، وتلقّى علمه عن أعلام الفقهاء من شيوخها وخيرة علمائها.

واظب مالك على طلب العلم منذ صغره، فكانت أمّه تلبسه ثياب العلم وتعممّه وتقول له: اذهب إلى ربيعة فتعلّم من أدبه قبل علمه، فلا يزال مالك يتأدّب بأدب ابن ربيعة حريصا على تنفيذ وصيّة أمّه حتى قال ابن وهب: الذي تعلّمنا من أدب مالك أكثر ممّا تعلّمنا من علمه، وكان ينهل من علم ابن ربيعة حتّى حفظه وزاد عليه وبرع فيه.

---

(١) القاضي عياض: ترتيب المدارك ١٠٢/١ - ٢٧٩ ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٥٦ - ٧٩، الفهرست ص ٢٥١، طبقات الفقهاء ص ٦٧ - ٦٨، البداية والنهاية ١٧٥/١٠، مرآة الجنان ٣٨٧/١ - ٣٩٠، شذرات الذهب ٤٦٥/١ - ٤٦٨، تزيين الممالك بمناقب سيّدنا الإمام مالك للسيوطي ص ٢ - ٦١ وكتاب مناقب سيّدنا الإمام مالك للعلاّمة الزواوي ص ٢ - ٦١، الفكر السامي ٤٤٦/٢ - ٤٦٣.

ولازم عبدالرحمٰن بن هرمز (١١٧هـ) المشهور بالأعرج، وفي ذلك يقول مالك: جالست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة في علم لم أبثّه لأحد من الناس، وكان ابن هرمز يجلّ الإمام مالك، فقد روي أنّ أبا هرمز قال لخادمته يوماً وقد أخبرته أنّ مالكاً بالباب، أدخليه فإنّ ذلك عالم الناس.

وكان مالك حين يأتي بيت ابن هرمز بكرة يجعل في كمّه تمرا فيناوله صبيانه ويقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا: مشغول، فما يخرج حتّى الليل.

وسمع من نافع ـ مولى ابن عمر وناقل علمه ـ يقول مالك: كنت آتي نافعا مولى ابن عمر وأنا يومئذ غلام فينزل إليّ من درجة له فيقعدني معه فيحدّثني، وكنت آتيه نصف النهار وما تظلّني شجرة من شمس أتحيّن خروجه، فإذا خرج أدعه ساعة كأنّي لم أرده، ثمّ أتعرّض له فأسلّم عليه وأدعه حتى إذا دخل البلاط أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيجيبني ثمّ أحبس عنه وكان فيه حدّة، ولمّا كفّ بصر نافع كان مالك يقوده من منزله إلى المسجد فيسأله فيحدّثه.

كما أخذ العلم عن ابن شهاب الزهري ـ حامل علم سعيد بن المسيّب وفقه التابعين من أهل المدينة ـ فعن ابن عبدالحكم أنّه قال: قال لي مالك كنّا نأتي ابن شهاب في داره، وكانت له عتبة حسنة كنّا نجلس عليها نتدافع إذا دخلنا عليه، وقال: كنّا نزدحم على درج ابن شهاب حتى يسقط بعضنا على بعض.

فلذلك كان مالك يتحيّن الفرص للخلوة بأهل العلم والأخذ عنهم، وفي ذلك يقول: شهدت العيد فقلت هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفت من المصلّى حتّى جلست على بابه، فسمعته يقول لجاريته انظري من على الباب، فنظرت فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك، قال: أدخليه، فدخلت فقال: ما تريد، قلت: تحدّثني، قال: هات الألواح، فأخرجت ألواحي فحدّثني بأربعين حديثاً، فقلت زدني، قال: حسبك إن كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفّاظ، قلت: قد رويتها فجذب

الألواح من يدي ثمّ قال: حدّث، فحدّثته بها فردّها إليّ وقال: قم فأنت من أوعية العلم.

كما جلس إلى محمد بن المنكدر، ويحيى بن سعيد الأنصاري وإلى كثير من طبقتهم، وصحب جعفر الصادق وروى عنه، وقد بلغ عدد الذين أخذ عنهم أكثر من تسعمائة شيخ.

تعلّم منهم وحفظ آراءهم ونقل آثارهم وعرف مذاهبهم وأحكم قواعدهم، وما زال حريصا على طلب العلم حتّى تبيّن فضله واشتهر علمه ونبل قدره وعظمت منزلته وعرفت مكانته وظهرت سيادته، فأقرّوا بفضله وأذعنوا لعلمه، فساد جميع أقرانه وفاق أهل زمانه واشتهر خبره في الأمصار وانتشر في سائر الأقطار حتى ارتحل الناس إليه من كلّ مصر وأتوه من كلّ قطر، فجلس لتدريس العلم وهو ابن سبع عشرة سنة وأشياخه متوافرون والمدينة تعجّ بالأئمّة الأعلام - وما جلس حتّى شهد له سبعون شيخا من أهل العلم أنّه موضع لذلك.

ومكث يروي ويفتي ويسمع الناس ويعلّمهم نحواً من سبعين سنة حتى قال العلماء: لا يفتى ومالك في المدينة.

اشتهرت عنه رواية العلم حتى أخذ عنه أقرانه من الرواة ومشاهير الأئمّة، وأشياخه من التابعين ومن غير التابعين الذين تعلّم منهم وروى عنهم من أهل العراق والمشرق، ومن أهل الحجاز واليمن، ومن أهل القيروان، ومن أهل الأندلس، ومن أهل الشام، قال مالك: قلّ رجل كنت أتعلّم منه ما مات حتّى يجيئني ويستفتيني، وفي رواية: فلا رجل كتبت عنه إلاّ كان يأتيني فيستفتيني.

فمن أقرانه ونظرائه الذين أخذوا عنه محمد بن إبراهيم بن دينار (١٨٢هـ) الذي درس معه على ابن هرمز، والذي كان الشافعي يشهد له بالفقه، والمغيرة بن عبدالرحمٰن المخزومي (١٨٦هـ) الذي كان مدار الفتوى في زمان مالك وبعده عليه وعلى ابن دينار، وعبدالعزيز بن أبي حازم

(١٨٤هـ) الذي شهد له الإمام أحمد بالفقه، وكان سفيان الثوري إمام أهل العراق، يسأل مالكاً ويزاحم طلبة العلم على بابه.

وروى عنه كذلك من أرباب الاجتهاد في عصره عالم أهل العراق أبو حنيفة، وسفيان بن عيينة عالم أهل مكّة، ومسلم بن خالد الزنجي شيخ الشافعي، وابن جريج فقيه الحرم المكّي، والأوزاعي إمام أهل الشام، والليث بن سعد إمام أهل مصر وابن أبي ذئب أحد أعلام المدينة، وعبدالله بن المبارك والقاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي أبي حنيفة وغيرهم كثير.

ومن شيوخه الذين رووا عنه واحتاجوا إلى علمه زيد بن أسلم، وفي ذلك يقول ابن أبي حازم: رأيت زيد ابن أسلم واقفا يستفتي مالكاً، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وفي ذلك يقول مالك: قال لي يحيى بن سعيد حين خرج إلى العراق: التقط لي مائة حديث من أحاديث ابن شهاب أرويها عنك، فكتبتها ثمّ دفعتها إليه، فقال لي: أرويها عنك؟ قلت: نعم، وابن شهاب الزهري إمام السنّة ـ وقد مات قبل مالك بخمس وخمسين سنة ـ، وربيعة الرأي فقيه أهل المدينة ـ وقد توفّي قبل مالك بستّ وثلاثين سنة ـ وأيّوب السختياني ـ وقد توفّي قبل مالك بتسع وأربعين سنة ـ وغيرهم.

وبلغ عدد الذين رووا عنه ما يزيد عن ١٣٠٠ من الأعلام في سائر البلاد الإسلاميّة.

وهكذا حصل لمالك ما لم يحصل لغيره قطّ، برع في الحديث حتّى لقّب بأمير المؤمنين في الحديث، وتتبّع فتاوى الصحابة وفقه التابعين حتى أصبح أثبت الناس في حديث المدنيين وأوثقهم إسنادا، وشهد له الجميع بالعلم والفضل، حتّى الشافعي: إذا جاء الحديث فمالك النجم، وفي رواية: إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وقال يحيى بن معين: كان مالك من حجج الله على خلقه، وقال حميد بن الأسود: ما تقلّد أحد من أهل المدينة بعد زيد بن ثابت كما تقلّدوا قول مالك، ولمّا حجّ مالك ضاق الطواف بالناس يأتمون به.

وكان مع علمه، أعظم الناس مروءة وأكثرهم سمتا، كثير الصمت قليل الكلام متحفّظاً بلسانه، يعود المرضى ويقضي الحقوق، وكان من أحسن الناس خلقاً مع أهله وولده ويقول: في ذلك مرضاة لربّك ومثراة في مالك ومنساة في أجلك وقد بلغني ذلك عن بعض أصحاب النبيّ ﷺ.

سعي به إلى والي المدينة جعفر بن سليمان، فقيل له: إنّ مالكاً لا يرى أيمان بيعتكم، وأنّه أفتى بأن يمين المكره لا يلزم، وذلك يستتبع بالضرورة القول بأنّ بيعة أبي جعفر المنصور لا تلزم لأنّها على الإكراه - وذلك عند قيام محمد بن عبدالله بن حسن العلوي - سنة ١٤٧هـ، فدعي به وجرّده وضربه بالسياط ومدّت يداه حتى انخلع كتفاه، وهو في ذلك كلّه يقول: «اللّهم اغفر لهم فإنّهم لا يعلمون»، حتّى غشي عليه، وبقي بعد ذلك مطابق اليدين لا يستطيع أن يرفعهما ولا أن يسوّي رداءه، وارتكب منه أمر عظيم، فلم يزل بعد ذلك في علوّ ورفعة وإعظام بين الناس، وكأنّما كانت تلك السياط حلّة عليه.

ترك في آخر حياته الجلوس في المسجد فكان يصلّي وينصرف إلى مجلسه، وترك اتّباع الجنائز فكان يأتي أصحابها فيعزّيهم، ثمّ ترك ذلك كلّه فلم يكن يشهد الصلوات في المسجد، ولا الجمعة، ولا يأتي أحداً يعزّيه، فكان يعاتب على ذلك، فكان يقول: «ليس يقدر كلّ أحد أن يقول عذره»، والظاهر أنّ ذلك بسبب سلس البول الذي مرض به.

عاش نحو التسعين سنة، وتوفّي بالمدينة ودفن بالبقيع وما ترك على وجه الأرض مثله.

تنافس العلماء على تدوين سيرته وألّفوا في فضائله ومناقبه وأخباره جماعة من السلف والخلف.

أوضح الإمام مالك منهجه في الاجتهاد فقال: ما كان في كتاب الله أو فيما أحكمته السنّة عن رسول الله ﷺ فهو حقّ لا شكّ فيه، وما كان من اجتهاد الرأي فالله أعلم به.

وبيّن طريقته التي لا تعتمد كثيراً على القياس ولا تميل إليه إلاّ إذا اقتضت الضرورة اللجوء إلى ذلك، فقال: أكثر ما في الكتاب - أي الموطّأ

- برأيي فلعمري ما هو برأيي، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمّة المهتدى بهم الذين أخذت عنهم، وهم الذين كانوا يتّقون الله تعالى فكثر عليّ، فقلت: «رأئي» وذلك رأئي إذ كان رأيهم رأي الصحابة الذين أدركوهم عليه وأدركتهم أنا على ذلك، فهذا وراثة توارثوها قرنا عن قرن إلى زماننا.

وما كان «أرى» فهر رأي جماعة ممّن تقدّم من الأئمّة، وما كان فيه «الأمر المجتمع عليه» فهو ما اجتمع عليه من قول أهل الفقه والعلم، لم يختلفوا فيه، وما قلت «الأمر عندنا» فهو ما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام وعرفه الجاهل والعالم، وكذلك ما قلت فيه «ببلدنا» وما قلت فيه: «بعض أهل العلم» فهو شيء استحسنته من قول العلماء.

وأمّا ما لم أسمع منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته حتّى وقع ذلك موقع الحقّ أو قريبا منه حتّى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم، وإن لم أسمع ذلك بعينه فنسبت الرأي إليّ بعد الاجتهاد مع السنّة وما مضى عليه عمل أهل العلم المقتدى بهم، والأمر المعمول به عندنا منذ لدن رسول الله ﷺ والأئمّة الراشدين مع من لقيت، فذلك رأيهم ما خرجت إلى غيره.

وقد بنى مذهبه على أدلّة هي:

القرآن: فأخذ بنصّه، ثمّ بظاهره وهو العموم، ثمّ بدليله وهو مفهوم المخالفة، ثمّ بمفهومه وهو مفهوم الموافقة أو المفهوم بالأولى، ثمّ بتنبيهه وهو التنبيه على العلّة، فهذه أدلّة الكتاب الخمسة.

السنّة: وأدلّتها خمسة على منوال أدلّة الكتاب.

فهذه أدلّة عشرة، ثمّ الإجماع والقياس وعمل أهل المدينة، وقول الصحابي - متى صحّ سنده -، والاستحسان - ويرى فيه تسعة أعشار العلم -، وسدّ الذرائع، والاستصحاب، ومراعاة الخلاف - إذا رجح دليل المخالف على دليله في اللزوم -، والمصالح المرسلة - وكان يسترسل فيها استرسال المدل العريق في فهم المعاني المصلحيّة -.

* آثـاره:

الموطّـأ: صنّفه الإمام مالك وتوخّى فيه القويّ من أحاديث أهل الحجاز، ومزجه بأقوال الصحابة والتابعين من بعدهم، وبناه على تمهيد الأصول للفروع ونبّه فيه على معظم أصول الفقه التي يرجع إليها مسائله وفروعه، ورتّب فيه الأحاديث على أبواب الفقه وموضوعاته، فجاء الموطّأ مقسّماً إلى ٦٣ كتاب وكلّ كتاب إلى أبواب.

وقد شغل كتاب الموطّأ بال الكثير من العلماء، هل هو كتاب حديث أوكتاب فقه، ذلك أنّ منهجه يقوم على الجمع بين الفقه والحديث بصورة لا يكاد يتبيّن معها أنّه يخلص إلى الفقه أو يخلص إلى الحديث[١].

وطريقته أن يذكر ما جاء من أحاديث عن النبيّ ﷺ، ثمّ يردفها بأقوال الصحابة والتابعين من أعلام أهل المدينة، ثمّ يذكر الأمر المجتمع عليه، والأمر المعمول به عند أهل المدينة، إذا اقتضى الحال ذلك.

يروى أنّ مالكاً عند شروعه في تدوين الموطّأ كان يروي مائة ألف حديث ضمّ الموطّأ منها نحو عشرة آلاف حديث، فلم يزل ينظر فيه ويختصره عاماً بعد عام حتّى جعله أربعة آلاف حديث، ثمّ ما زال ينظر فيه ويسقط منه حتّى بقي فيه ألف ونيف، وقد أمضى في جمعه وتأليفه وترتيبه أربعين سنة.

وفي سبب تسميته بالموطّأ، ذكر السيوطي في مقدّمة شرحه على الموطّأ أنّ الإمام مالك قال: عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلّهم واطأني عليه فسمّيته الموطّأ[٢].

وأمّا سبب تأليفه، فقد روى الشافعي أنّ أبا جعفر المنصور بعث إلى

(١) ابن عاشور: محاضرات ص ٣٨٥.

(٢) السيوطي: تنوير الحوالك ص ٧.

الإمام مالك، فقال له: إنّ الناس قد اختلفوا في العراق فضع للناس كتاباً نجمعهم عليه فوضع الموطّأ[(١)].

وفي رواية أنّ أبا جعفر المنصور لمّا قال لمالك ضع كتاباً في العلم نجمع الناس عليه، قال له: اجتنب فيه شدائد ابن عمر ورخص ابن عباس وشواذ ابن مسعود واقصد أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمّة والصحابة[(٢)] فقال له مالك: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين أن تحمل الناس على قول رجل واحد يخطىء ويصيب وإنّما الحقّ من رسول الله ﷺ، وقد تفرّقت أصحابه في البلدان وقلّد أهل كلّ بلد من صار إليهم، فأقرّ أهل كلّ بلد على ما عندهم[(٣)].

وقد تقدّم أنّ الإمام مالك قد أمضى في تأليف الموطّأ أربعين سنة، وبما أنّ أبا جعفر المنصور قد تقلّد الخلافة من سنة ١٣٦هـ إلى سنة ١٥٨هـ، فيكون أبو جعفر قد توفّي قبل أن يتمّ مالك جمع كتابه.

ويدعّم هذا التمشّي ما روي عن أبي مصعب ـ أحد رواة الموطّأ ـ من أنّ أبا جعفر قال لمالك: ضع للناس كتاباً أحملهم عليه فكلّمه مالك في ذلك، فقال: ضعه فما أحد أعلم منك، فوضع الموطّأ، فلم يفرغ منه حتّى مات أبو جعفر، وقال أبو مصعب: سمعت مالكاً يقول دخلت على أبي جعفر بالغداة حين وقعت الشمس بالأرض، . . . فلم يزل يسألني حتّى أتاه المؤذّن بالظهر، فقال لي: أنت أعلم الناس، وفي رواية: أعلم أهل الأرض، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: بلى، ولكنّك تكتم ذلك، ولئن بقيت لأكتبنّ كتابك بماء الذهب، وفي رواية كما تكتب المصاحف ثمّ أعلّقها في الكعبة وأحمل الناس عليها، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل فإنّ في كتابي حديث رسول الله ﷺ وقول الصحابة وقول التابعين ورأي هو

(١) مناقب مالك للزواوي ص ٢٥.
(٢) ترتيب المدارك ١٩٣/١، مناقب مالك للزواوي ص ٢٥.
(٣) مناقب مالك للزواوي ص ٢٥.

إجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم، غير أنّي لا أرى أن يعلّق في الكعبة(١).

غير أنّ الميل إلى هذه الرواية يفضي إلى القول بأنّ الإمام مالك لم ينته من موطّئه ـ وقد أمضى في تأليفه وترتيبه أربعين سنة ـ إلاّ قبل وفاته بثلاث سنوات، أي سنة ١٧٦هـ، هذا إذا افترضنا أنّ أبا جعفر المنصور، قد طلب منه وضع الموطّأ في أوّل سنة من خلافته، وهذا مستبعد جدّا، خاصّة إذا علمنا أنّ الإمام الشافعي الذي ولد سنة ١٥٠هـ قد حفظ الموطّأ وعمره عشر سنوات.

وهناك ما يفيد أنّ الإمام مالك قد شرع في تدوين موطّئه دون ما إشارة من أحد، ولكن حين وقع الموطّأ بين يدي أبي جعفر المنصور ونظر فيه، أعجب به وأراد أن يحمل جميع الأمّة على ما فيه، فعن مالك قال: لمّا حجّ المنصور قال لي: إنّي عزمت على أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها فتنسخ ثمّ أبعث إلى كلّ مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدّوها إلى غيرها من هذا العلم المحدث، فإنّني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعملهم، فقلت يا أمير المؤمنين: لا تفعل فإنّ الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كلّ قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا له من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإنّ ردّهم عمّا اعتقدوا شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كلّ بلد منهم لأنفسهم، فقال: لو طاوعتني على ذلك لأمرت به(٢).

وإذا علمنا أنّ الإمام مالك قد جلس للناس وهو ابن سبع عشرة سنة، وأنّ مولده كان سنة ثلاث وتسعين على خلاف فيما قبلها، وأنّ أبا جعفر المنصور قد توفّي سنة ١٥٨هـ فإنّ هذه الرواية تصبح أقرب للواقع

(١) ترتيب المدارك ١/١٩٢.

(٢) ترتيب المدارك ١/١٩٣، كشف الظنون ٢/٧٢٥، تزيين الممالك ص ٤٦.

وللمعقول، فإذا اعتبرنا مثلاً أنّ الإمام مالكاً قد بدأ في جمع الموطّأ منذ سنة ١١٠هـ - تاريخ جلوسه للحديث وتقلّده للفتيا بعد أن شهد له أهل العلم أنّه موضع لذلك - يكون قد أكمل تصنيفه وترتيبه سنة ١٥٠هـ.

ويقوّي هذا الاعتبار ما ذهب إليه ابن حجر، وذكره السيوطي: من أنّ بداية التصنيف في الحديث كان في عصر واحد، عند انتشار العلماء في الأمصار، حتى أنّه لا ندري أيّهم أسبق[١]، وذلك في سنة بضع وأربعين ومائة[٢].

ويبدو أنّ هذا الإجراء الذي خطر ببال أبي جعفر المنصور وهو أن يجعل العلم علماً واحدا، قد بدا لهارون الرشيد كذلك، فعن مالك أنّه قال: شاورني هارون الرشيد أن يعلّق الموطّأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه، فقلت: لا تفعل فإنّ أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرّقوا في الآفاق وكلّ عند نفسه مصيب[٣].

وقد روى الموطّأ عن مالك كثير من الأعلام، من أهل المدينة ومكّة والشام ومصر والعراق وإفريقية التونسيّة والأندلس.

وبين رواياتهم اختلاف من تقديم وتأخير وزيادة ونقص، ومن أكثرها زيادات رواية أبي مصعب الذي يزيد على سائر الموطآت نحو مائة حديث[٤].

وهذا الاختلاف بين الموطآت باختلاف روّاتها عن مالك مأتاه ما اشتهر به الإمام مالك من شدّة انتقاده للرجال والعلماء، ولذلك كان دائم النظر في موطّئه يخلّصه من عام إلى عام بقدر ما يرى أنّه أصلح للمسلمين

(١) تدريب الراوي ٨٨/١ - ٨٩.
(٢) مقدّمة الموطّأ بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.
(٣) كشف الظنون ٧٢٥/٢، مناقب مالك للزواوي ص ٢٩، تزيين الممالك ص ٤٦.
(٤) تدريب الراوي ١٠٩/١ - ١١٠، تزيين الممالك ص ٤٨.

وأمثل في الدين، حتى قيل: أنّه لو عاش مالك لأسقط علمه كلّه[١].

والذي اشتهر من نسخ الموطّأ ممّا رواه القاضي عياض، أو وقف عليه، أو كان في روايات شيوخه، أو نقل منه أصحاب اختلاف الموطآت نحو عشرين نسخة وذكر بعضهم أنّها ثلاثون نسخة[٢].

ومن هذه الروايات العديدة للموطّأ:

* رواية يحيى بن يحيى بن كثير المصمودي (٢٣٤هـ).

* رواية محمد بن الحسن الشيباني (١٨٩هـ).

* رواية يحيى بن عبدالله بن بكير (٢٣١هـ).

* رواية سويد بن سعيد بن سهل (٢٤٠هـ).

* رواية عبدالرحمٰن بن القاسم (١٩١هـ).

* رواية أبي مصعب الزهري (٢٤٢هـ).

وللإمام مالك تآليف أخرى أشهرها[٣]:

* رسالة إلى ابن وهب في القدر والردّ على القدريّة.

* كتاب في النجوم وحساب مدار الزمان ومنازل القمر.

* رسالة في الأقضية: كتب بها إلى بعض القضاة.

* رسالة في الفتوى: كتب بها إلى أبي غسان محمد بن المطرف، وكان من أعلام أهل المدينة وقرينا لمالك.

* رسالة إلى هارون الرشيد: في الآداب والمواعظ، وقد حدّث بها في الأندلس ابن حبيب عن رجاله عن مالك، وأنكرها غير واحد منهم

---

(١) ترتيب المدارك ١/١٩٣.

(٢) ترتيب المدارك ١/٢٠٣.

(٣) ترتيب المدارك ١/٢٠٤ ـ ٢٠٧، الديباج المذهب ص ٧٥، تاريخ التراث العربي ٣/١٤١.

أصبغ بن الفرج وحلف ما هي من وضع مالك، وشكّ السيوطي في صحّة نسبتها إلى مالك.

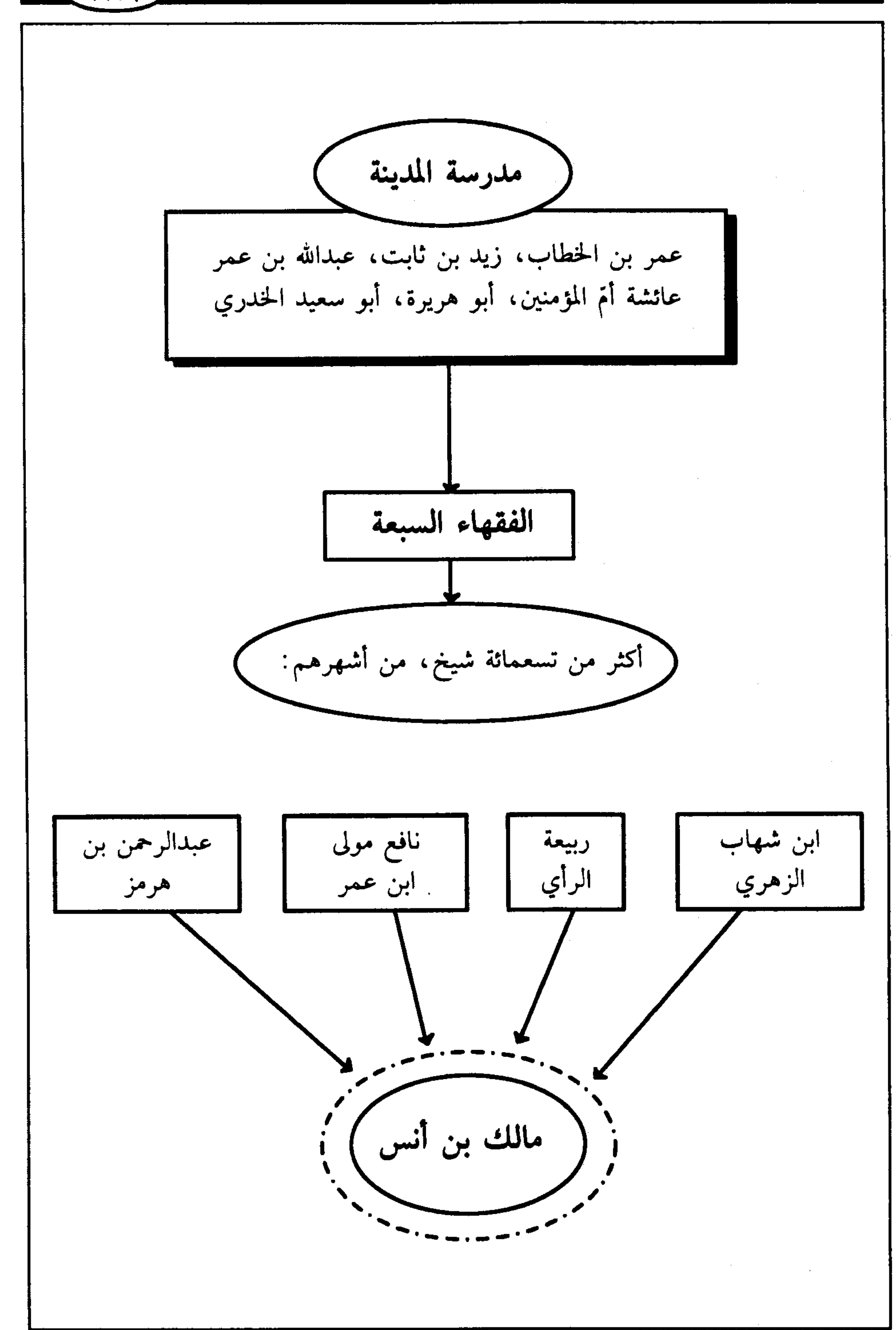
* كتاب في التفسير لغريب القرآن: رواه عنه خالد بن عبدالرحمٰن المخزومي.

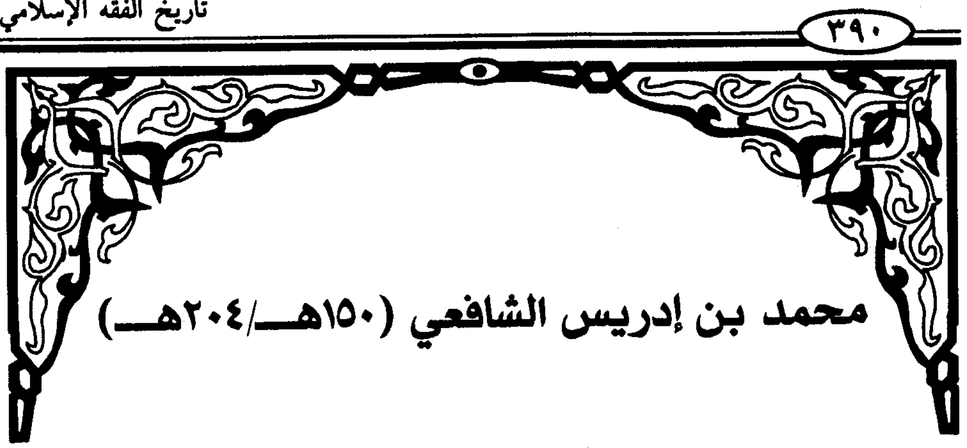
* ونسب إلى مالك كتاب يسمّى كتاب السيرة من رواية عبدالرحمٰن بن القاسم عنه.

* رسالة إلى الليث بن سعد في إجماع أهل المدينة: وقد أثبتناها بكاملها في بداية هذا الفصل.

* مسائل وأجوبتها: رواها عبدالله بن عبدالحكم (٢١٤) وسمعها هو وعبدالله بن وهب وعبدالرحمٰن ابن القاسم.

وهذا رسم بياني لتسلسل الحلقة العلميّة في التشريع والفقه بمدرسة الحجاز التي انتهى علمها إلى مالك ابن أنس:


مدرسة المدينة
عمر بن الخطاب، زيد بن ثابت، عبدالله بن عمر
عائشة أمّ المؤمنين، أبو هريرة، أبو سعيد الخدري
الفقهاء السبعة
أكثر من تسعمائة شيخ، من أشهرهم:
ابن شهاب الزهري
ربيعة الرأي
نافع مولى ابن عمر
عبدالرحمن بن هرمز
مالك بن أنس



محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠هـ/٢٠٤هـ)

هو أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي المطلبي(١) يلتقي نسبه مع النبيّ ﷺ في بني عبد مناف.

ولد بغزّة في السنة التي توفّي فيها أبو حنيفة، ونقلته أمّه إلى مكّة وله سنتان فنشأ بها وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين والموطّأ وهو ابن عشر، وأتقن اللغة والشعر حتّى أنّ الأصمعي على قدره وجلالته في الفصاحة سمع من الشافعي «ديوان الهذلّيين».

تلقّى العلم عن مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكّة، ثمّ رحل إلى المدينة فلازم الإمام مالك، وقرأ عليه الموطّأ كلّه، وأخذ عنه علم أهل المدينة، فأعجب مالك بنباهته وكان يثني على فهمه وحفظه، حتى قال فيه: إن يك أحد يفلح فهذا الغلام، وأذن له شيخه مسلم بن خالد في الإفتاء وهو ابن خمس عشرة سنة.

رحل مع عمّه أبي مصعب إلى اليمن وهناك تولّى الشافعي إحدى ولايات اليمن، ثمّ اتّهم بالتشيّع إلى يحيى بن عبدالله، والدعوة إلى آل البيت، وكان ذلك سنة ١٨٤هـ، فقبض عليه وحمل إلى هارون الرشيد فقيّض الله له محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة فتدخّل له عند الرشيد

(١) طبقات الفقهاء ص ٧١ ـ ٧٣، شذرات الذهب ٢/٨٠ ـ ٨٢، الفهرست ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤، الفكر السامي ٢/٤٦٤ ـ ٤٦٧، البداية والنهاية ١٠/٢٥١ ـ ٢٥٤.

وأحسن القول فيه حتّى أقنعه ببراءته، وببغداد أقام إلى جانب محمد بن الحسن واطّلع على كتب فقهاء العراق، حتى قال: خرجت من بغداد وقد حملت من علم محمد بن الحسن وقر بعير.

وكان الإمام الشافعي وقتها معدودا في أصحاب مالك يناهض قول محمد بن الحسن وأهل الرأي الموغلين في استعمال القياس، ويدافع عن فقه أهل الحجاز القائم على الأثر، حتّى سمّي بناصر الحديث وناصر السنّة.

وقد كان لإقامته هذه دور في تطوير منهجه الاجتهادي وبناء طريقته الجديدة، فتوجّه بعد مغادرته بغداد إلى تأسيس مذهب استقلّ به عن شيخه مالك.

خرج من بغداد سنة ١٨٨هـ فعاد إلى مكّة، وما زال ينتقل بين العراق والحجاز، حتّى توجّه إلى مصر فأقام بها إلى غاية سنة ١٩٥هـ ثمّ غادرها إلى بغداد فاجتمع عليه علماؤها وأخذوا عنه، وكان من بينهم أحمد ابن حنبل وأبو ثور وغيرهما، فاستقرّ له المقام بها سنتين حتى انتشر علمه في العراق واعتنق مذهبه كثير من الأعلام الذين أملى عليهم كتبه.

ثمّ عاد إلى مكّة ومنها إلى بغداد سنة ١٩٨هـ فأقام بها شهرا ثمّ خرج إلى مصر فصنّف بها كتبه الجديدة وأملاها على تلاميذه، واستقرّ بها ملازما الاشتغال بالعلم والتصنيف إلى أن أصابته ضربة شديدة فمرض بها أيّاما وتوفّي عن أربع وخمسين سنة، فسمّيت الكتب التي صنّفها بالعراق بالكتب القديمة نسبة إلى مذهبه القديم، وسمّيت كتبه التي صنّفها بمصر بالكتب الجديدة نسبة إلى مذهبه الجديد.

كان الشافعي شريف النسب، صحيح الدين والمعتقد، سخيّ النفس، من أحسن الناس قصدا وإخلاصا عارفاً بالحديث وناسخه ومنسوخه، حافظاً للكتاب والسنّة، من أعلم الناس بمعانيهما، وأشدّ الناس نزعا للدلائل منهما، حسن التصنيف.

أثنى عليه غير واحد من كبار الأئمّة منهم عبدالرحمٰن بن مهدي، وسأله أن يضع له كتاباً فيه معاني القرآن ويجمع فيه مقبول الأخبار وحجّة

الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنّة، فكتب له كتاب الرسالة، فكان عبدالرحمٰن بن مهدي يدعو له في الصلاة دائما.

وكان أحمد بن حنبل يقول في الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبيّ ﷺ: **«إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها أمر دينها»**(١).

قال: فعمر بن عبدالعزيز على رأس المائة الأولى، والشافعي على رأس المائة الثانية.

كما أثنى عليه مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وإسحاق بن راهويه ومحمد بن الحسن الشيباني وغير واحد ممّن يطول ذكرهم وبسط أقوالهم.

غير أنّ يحيى بن معين قد تكلّم في الشافعي وأكثر القول فيه، وكذلك عليّ بن المديني، وكان أحمد بن حنبل ينهى أصحابه أوّل الأمر عن الشافعي ثمّ عدل عن ذلك ـ فكان يحرص على حضور مجالسه ويشهد له بالعلم والفقه، ويرى فيه مجدّد لأمر دين ـ.

ولذلك صار القاضي عياض إلى القول بأنّه وإن كان الشافعي يسلّم له حسن الاعتبار وتدقيق النظر والقياس وجودة الفقه والإمامة فيه، ويسلّم له في تقرير الأصول وتمهيد القواعد وترتيب الأدلّة والمآخذ وبسطه ذلك ما لم يسبقه إليه من قبله، وكان فيه عليه عيالا كلّ من جاء بعده، مع التفنّن في علم لسان العرب والقيام بالخبر والنسب، فإنّه ليس له إمامة في الحديث ولا معرفة به ولا استقلال بعلمه ولا يدّعيه ولا يدعى له، وقد ضعّفه فيه أهل الصنعة.

وأضاف قائلاً: وإن كان الشافعي متّبعا الحديث ومفتّشا على السنن لكن بتقليد غيره، والاحتمال على رأي سواه، والاعتراف بالعجز عن معرفته، فقد كان يقول لابن مهدي وابن حنبل: أنتما أعلم بالحديث منّي

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم.

فما صحّ عندكما منه فعرّفاني به لآخذ به، وهذه درجة تقصر عن درجة الاجتهاد العالية[١].

هذا، وقد استطرد السبكي في طبقاته خلال الترجمة لأحمد بن صالح المصري، فنقل ما ثلب به الشافعي، ثمّ تصدّى للردّ عليه وأورد قول الإمام أحمد: من أين يعرف ابن معين الشافعي، ولا ما يقوله الشافعي[٢].

دوّن الإمام الشافعي أصول وقواعد مذهبه في كتابيه الرسالة والأمّ ويتلخّص منهجه في الاعتماد على الأصول الأربعة المتّفق عليها وهي على الترتيب: القرآن والسنّة والإجماع والقياس[٣]، وصرّح في مذهبه الجديد بأنّ قول الصحابة حجّة يجب المصير إليه، على تفصيل في ذلك[٤]، وقال في كتاب اختلافه مع مالك: العلم طبقات: الأولى: الكتاب والسنّة، الثانية: الإجماع فيما ليس كتاباً ولا سنّة، الثالثة: أن يقول صحابي فلا يعلم له مخالف من الصحابة، الرابعة: اختلاف الصحابة، الخامسة: القياس[٥].

وأنكر الاحتجاج بالاستحسان، وخصّص فصلاً في كتابه الأمّ للتدليل على بطلان العمل بهذا الأصل، وردّ على إجماع أهل المدينة وأنكر حجّيته.

وقد نشر الإمام الشافعي مذهبه بنفسه، فهو الذي وضع المصنّفات ونشرها بالآفاق، وقد بلغت مصنّفاته ١١٣ مصنّفا بين قديم ـ ما وضعه في بغداد ومكّة ـ وجديد ـ ما وضعه بمصر ـ.

وأشهر هذه المصنّفات[٦]:

* كتاب الأمّ: هو من أعظم مؤلّفات الشافعي، بوّبه على أبواب الفقه

---

(١) ترتيب المدارك ٩٢/١ ـ ٩٣.
(٢) الطبقات الكبرى.
(٣) الرسالة ص ٣٩ و٥٠٨ و٥٩٨ ـ ٥٩٩.
(٤) إعلام الموقعين ١٢١/٤ ـ ١٢٢، الرسالة ص ٥٩٦ ـ ٥٩٨.
(٥) إعلام الموقعين ١٢١/٤ ـ ١٢٢.
(٦) تاريخ التراث العربي ص ١٨٤ ـ ١٨٩.

وموضوعاته وأملاه على تلاميذ في مصر، والكتاب يقع في سبعة أجزاء، رواها عنه تلميذه الربيع بن سليمان المرادي (٢٧٠هـ).

وقد أدرج الشافعي في الجزء السابع من الكتاب مجموعة كتب لطيفة في علم الخلاف والفقه المقارن وهي:

* اختلاف العراقيين: ضمّنه ملاحظاته على كتاب أبي يوسف «اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى».

* اختلاف عليّ وعبدالله بن مسعود:

* اختلاف مالك والشافعي: بيّن فيه مخالفة مالك لأحاديث رواها الشافعي عنه، عارضها مالك بعمل أهل المدينة أو بالمصالح المرسلة.

* جماع العلم: ناقش فيه الذين لا يقولون بحجّية الخبر.

* كتاب الردّ على محمد بن الحسن: بيّن فيه مخالفة محمد بن الحسن لأحاديث رواها عنه الشافعي، عارضها محمد بن الحسن أو رجّح عليها دليلاً آخر مثل الاستحسان.

* كتاب إبطال الاستحسان: ناقش فيه أهل العراق في قولهم بالاستحسان.

* كتاب سير الأوزاعي: ضمّنه ملاحظاته على كتاب أبي يوسف في الردّ على الأوزاعي.

وقد طبع كتاب الأمّ مرات عديدة في سبعة أجزاء كبيرة، وطبع بهامشه مختصر المزني وكتاب اختلاف الحديث، وطبع مرّة أخرى في ثمانية أجزاء وفي مقدّمتها كتاب الرسالة.

* كتاب الرسالة: يعتبر هذا الكتاب الأساس الأوّل لوضع علم أصول الفقه، وقد صنّفه الشافعي بطلب من عبدالرحمٰن بن مهدي، حيث كتب إلى الشافعي أن يضع له كتاباً فيه معاني القرآن ويجمع قبول الأخبار

فيه وحجّة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنّة، وسمّاه الشافعي في مواضع عديدة من الرسالة بالكتاب، وصلنا برواية الربيع المرادي.

* كتاب اختلاف الحديث: عرض فيه الشافعي نظريّته في كيفيّة الترجيح بين حديثين متعارضين، بيّن فيه أنّه لا تعارض حقيقي بين حديثين إلاّ أن يكون أحدهما ناسخا للآخر، أو أن يكون أحدهما ثابتاً والآخر غير ثابت وإذا كانا ثابتين فيجمع بينهما بأن يجعل لكلّ منهما محملاً خلافاً لغيره من الأئمّة الذين قالوا يردّ حديث بحديث وطبع الكتاب في هامش الجزء السابع من كتاب الأمّ.

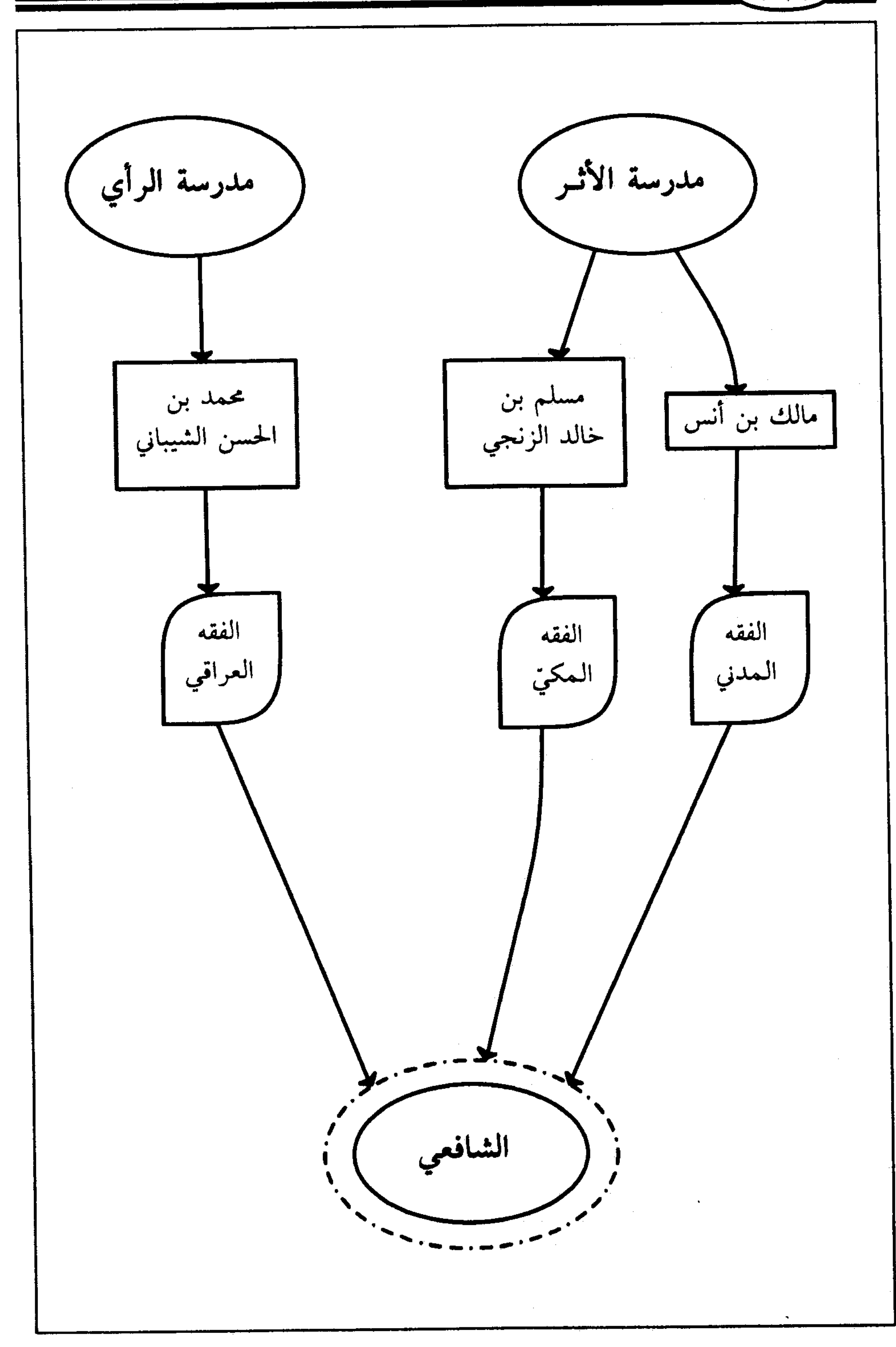
* أحكام القرآن: جمعه الحافظ البيهقي من نصوص الإمام الشافعي.

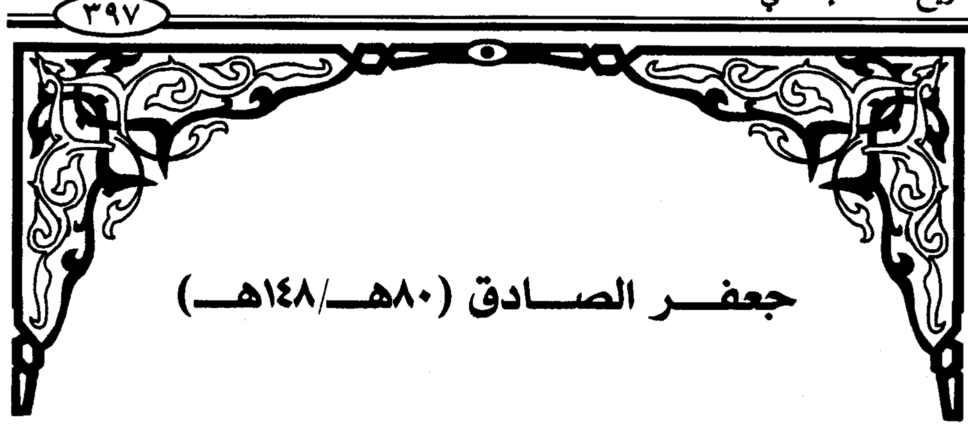
* المسند: يضمّ الأحاديث التي جمعها محمد بن يعقوب الأصمّ من مصنّفات الشافعي المختلفة، وقد طبع في هامش الجزء السابع من كتاب الأمّ.

* مسائل في الفقه: سألها أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشافعي، وأجوبته لهما.

* الحجة: ذكره حاجي خليفة، وقال: هو مجلّد ضخم ألّفه بالعراق، وفي سبب تأليفه: أنّ أصحاب الحديث اجتمعوا على الإمام الشافعي فسألوه أن يضع على كتاب أبي حنيفة، فنظر في كتب محمد بن الحسن سنة حتّى حفظها، ثمّ وضع الكتاب البغدادي، يعني الحجّة.

وفيما يلي رسم بياني لتسلسل الحلقة العلميّة في التشريع والفقه التي تكوّن بها الإمام الشافعي:


مدرسة الرأي
مدرسة الأثـر
محمد بن الحسن الشيباني
مسلم بن خالد الزنجي
مالك بن أنس
الفقه العراقي
الفقه المكيّ
الفقه المدني
الشافعي



جعفـــر الصـــادق (٨٠هـــ/١٤٨هــ)

هو أبو عبدالله جعفر بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، الملقّب بالصادق[١] سادس الأئمّة الاثني عشر عند الشيعة الإماميّة الذين يرون أنّ الإمامة تكون في ذرّية الحسين بن فاطمة الزهراء بعد مقتل الحسن رضي الله عنهم.

وأمّه فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصدّيق.

روى عن أبيه الباقر وجدّه لأمّه القاسم وطبقتهما، وكان سيّد بني هاشم في زمنه.

نشر الإمام الصادق آراءه في أصول الإسلام وفروعه، وشاع الجدل بينه وبين غيره من الفقهاء والعلماء في مباحث الفقه وأصوله وجمعت مدرسة الإمام الصادق آلاف الطلاّب من مختلف الأقطار الإسلاميّة، وانتشر فقهه وحديثه بين الملايين من الناس، ومن أجل ذلك نسب إليه المذهب[٢].

كان الإمام جعفر الصادق راوية للحديث عالماً بالاستنباط ووجوهه، عالماً بأقوال العلماء مطّلعا على مختلف الآراء، يروى في ذلك عن أبي

---

(١) شذرات الذهب ٣٦٢/١، مرآة الجنان ٣٢٥/١ ـ ٣٢٦.

(٢) تاريخ الفقه الجعفري ص ٢٢٥.

حنيفة أنّه قال: قال لي أبو جعفر المنصور، يا أبا حنيفة إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيّئ له من المسائل الشداد، فهيّأت له أربعين مسألة، يقول أبو حنيفة: أتيته فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلمّا بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسلّمت عليه وأومأ فجلست، ثمّ التفت إليه وقال: يا أبا عبدالله هذا أبو حنيفة، فقال: نعم، ثمّ التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبدالله من مسائلك، فجعلت ألقي عليه فيجيبني، فيقول: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، . . . فربّما تابعنا، وربّما تابعهم، وربّما خالفنا جميعاً، حتّى أتيت على الأربعين مسألة وما أخلّ منها بمسألة، فقال أبو حنيفة: إنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس[١].

أخذ عن الإمام جعفر الصادق أئمّة الفقه وكبار الأعلام كسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والإمام مالك وأبو حنيفة وغيرهم.

وكان عالماً بالكيمياء، وأستاذاً لجابر بن حيّان الذي جمع له خمسمائة رسالة في كتاب.

مات وله من العمر ٦٨ سنة، ودفن بالبقيع في قبر فيه أبوه محمد الباقر وجدّه زين العابدين وعمّ جدّه الحسن بن عليّ رضوان الله تعالى عليهم، وأكرم بذلك القبر وما جمع من الأشراف الكرام أولي المناقب.

يقوم منهجه في التشريع على الأخذ بكتاب الله وسنّة رسوله ممّا صحّ من طريق أئمّة الشيعة، واعتماد العقل فيما لم يرد فيه نصّ وردّ الاحتجاج بالإجماع وإبطال العمل بالقياس.

ومن أصول مذهبه اشتراط الاجتهاد في أئمّتهم.

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلاميّة لأبي زهرة ص ٦٤٤.

ومن أشهر الآثار التي تنسب إليه[١]:

* مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة: يحتوي على أقوال لجعفر الصادق ذات بعد أخلاقي في مائة باب.

* وله حول القرآن: كتاب تفسير القرآن وكتاب منافع سور القرآن وكتاب خواص القرآن العظيم.

* وله في مباحث الأصول: كتاب التوحيد وكتاب إثبات الصانع، والأدلّة على الخلق والتدبير.

* وله رسالة في الكيمياء، ورسالة في الإكسير ورسالة في الفأل، والقرعة: كتيّب عن العرافة والفأل.

وله أيضاً: * جدول في مذهب السنين والشهور والأيّام.

* وملحمة: تبحث في التنبّؤات الجويّة.

* ومحمودات الأيّام ومذموماتها ومتوسّطاتها في أحوال من كلّ شهر.

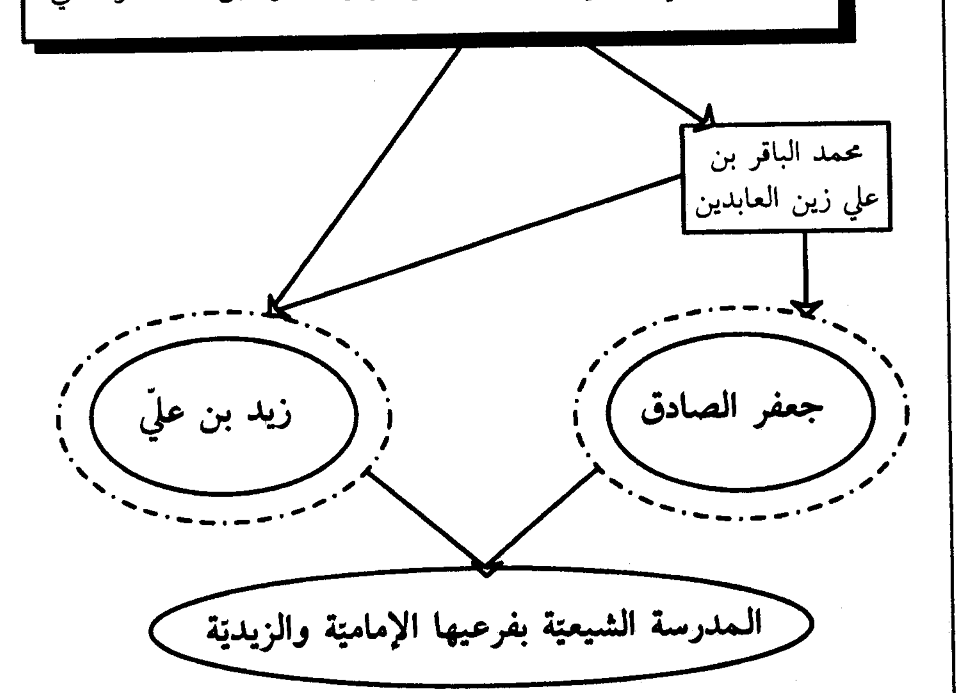
* اختيارات الأيّام والشهور.

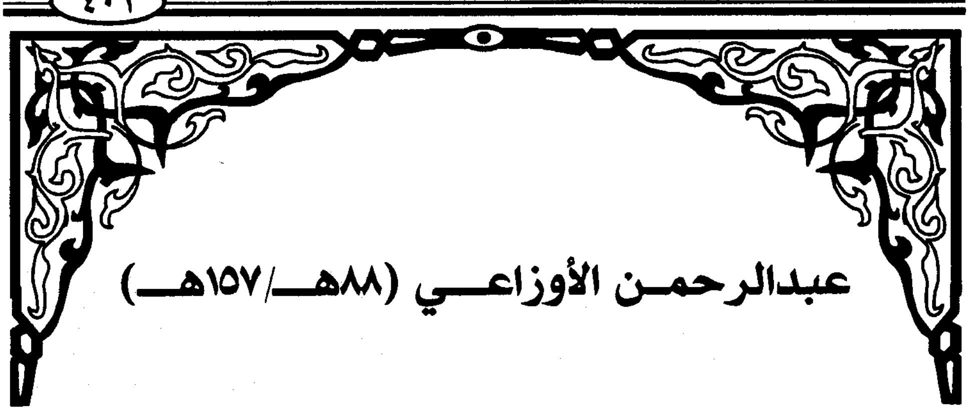
(١) تاريخ التراث العربي ٣/٢٦٩ ـ ٢٧٣.

علي بن أبي طالب

سلمان الفارسي، عمار بن ياسر، أبيّ بن كعب، أبو سعيد الخدري
عبدالله بن عبّاس، جابر بن عبدالله، أبو ذرّ الغفاري
الحسن بن عليّ، الحسين بن علي، محمد بن الحنفيّة

عليّ زين العابدين بن الحسين
حبيب بن ثابت، عليّ وعبيدالله ابني أبي رافع، ثابت بن دينار،
ربيعة بن سميع، سليم بن قيس الهلالي، الحسن بن محمد بن الحنفيّة
عبدالله بن علي بن أبي شيبة، ثابت بن هرمز، عمرو بن خالد الواسطي





عبدالرحمن الأوزاعي (٨٨هـ/١٥٧هـ)

هو أبو عمرو عبدالرحمٰن بن عمرو الأوزاعي[١]، كان إمام أهل الشام في عصره وفقيهها بلا منازع، من كبار تابعي التابعين وأئمّتهم البارعين، تلقّى العلم عن مكحول وعطاء ثمّ رحل في طلب العلم إلى العراق والحجاز ومصر فتلقّى عن جمع كثير من التابعين كابن شهاب الزهري ويحيى بن أبي كثير، حتّى أصبح رأساً في العلم وبلغ الذروة في الفقه والحديث، حتى قال عبدالرحمٰن بن مهدي: الأئمّة في الحديث أربعة: الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري وحمّاد بن زيد، وقال: ما كان بالشام أحد أعلم بالسنّة من الأوزاعي.

اتّفق العلماء على إمامته وعلوّ منزلته وأثنى عليه غير واحد من الأئمّة، فقال مالك: كان الأوزاعي إماماً يقتدى به، وقال سفيان بن عيينة: الأوزاعي إمام أهل زمانه، وقال يحيى بن معين: العلماء أربعة: الثوري وأبو حنيفة ومالك والأوزاعي.

أخذ عنه العلم جمع من الأعلام مثل عبدالله بن المبارك وسفيان الثوري وأبو إسحاق الفزاري الوليد بن مسلم وعمرو بن أبي سلمة وغيرهم.

سئل عن الفقه وله ثلاث عشرة سنة، وأفتى في سبعين ألف مسألة،

---

(١) طبقات الفقهاء ص ٧٦، شذرات الذهب ٣٩٣/١ ـ ٣٩٥، مرآة الجنان ٣٥١/١ ـ ٣٥٢، البداية والنهاية ١١٥/١٠ ـ ١٢٠، الفكر السامي ٤٣٦/٢ ـ ٤٣٧.

وكان مع علمه رأساً في العمل كثير الاجتهاد في العبادة يحيي الليل صلاة وقرآنا وبكاء.

كان مجتهداً مستقلاً بآرائه صاحب مدرسة في الاجتهاد، وهو إلى أهل الأثر أميل منه إلى أهل الرأي، يردّ القياس ويعمل بالأثر، ويقول: عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإيّاك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسّنوه، ويقول: اصبر على السنّة وقف حيث يقف القوم، وقل ما قالوا وكفّ عمّا كفّوا، وليسعك ما وسعهم.

كان على قدر عظيم من الفصاحة، ما يتكلّم بكلمة إلاّ كان المتعيّن على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه من حسنها.

وكان مجتهداً مستقلاً بآرائه صاحب مدرسة في الاجتهاد، وهو إلى أهل الأثر أميل منه إلى أهل الرأي يردّ القياس ويعمل بالأثر، ويقول: عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإيّاك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسّنوه، ويقول: اصبر على السنّة وقف حيث يقف القوم، وقل ما قالوا وكفّ عمّا كفّوا، وليسعك ما وسعهم.

ذكر ابن النديم أنّ الأوزاعي صنّف كتاب السنن في الفقه وكتاب المسائل في الفقه[١]، وقد وصل إلينا منهما بعض المقتبسات في المصادر المتأخّرة، وأقدم مصدر معروف يضمّ هذه المقتبسات هو كتاب «الردّ على سير الأوزاعي» للقاضي أبي يوسف الذي ورد مع شرح الشافعي في كتاب الأمّ[٢].

كما احتفظ لنا ابن أبي حاتم في كتابه الجرح والتعديل ببعض الرسائل التي كتبها الأوزاعي إلى خلفاء بني العباس، وهي تتضمّن آراءه الفقهيّة في مسائل مختلفة، ومواعظ شتّى، وكانت رسائله حين ترد على المنصور

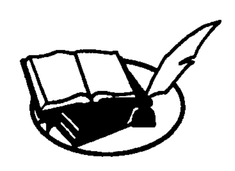
(١) الفهرست ص ٢٨٤.

(٢) تاريخ التراث العربي ٣/٢٤٤.

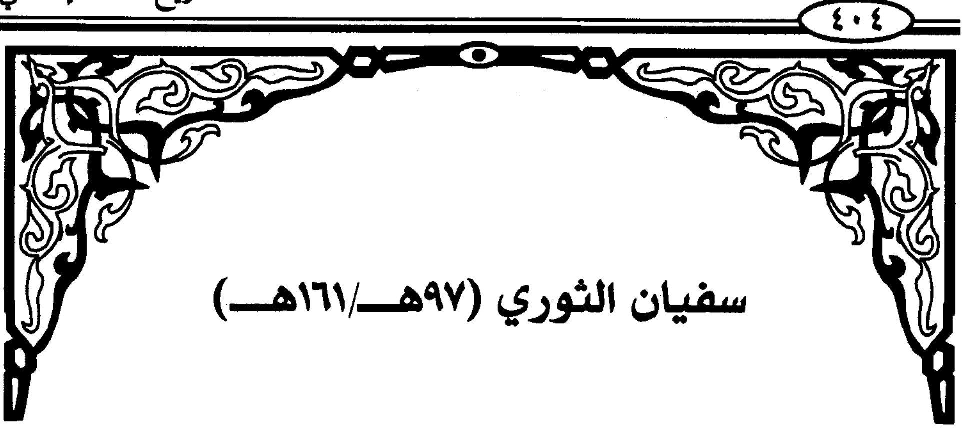
وينظر فيها ويتأمّلها يتعجّب من فصاحتها وحلاوة عبارتها.

جمع الدكتور عبدالله الملا محمد الجبوري فقه الأوزاعي في كتاب بعنوان «فقه الإمام الأوزاعي» نال به شهادة الدكتوراه من جامعة الأزهر الشريف، وطبع الكتاب في مجلّدين.

انتشر مذهبه انتشاراً واسعاً في الشام وبقي أهل دمشق وما حولها من البلاد على مذهبه نحواً من مائتين وعشرين سنة، وانقرض في أوائل القرن الثالث، وعلى مذهبه كان أهل الأندلس أوّل الأمر لكثرة الداخلين إليها من الشام، ولم يغلب عليها مذهب مالك إلاّ بعد المائتين زمن بني أميّة[1].



(١) تاريخ التراث العربي ٢٤٣/٣، الفكر السامي ٤٣٧/٢، البداية والنهاية ١١٥/١٠.



سفيان الثوري (٩٧هـ/١٦١هـ)

هو أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي[(١)] أحد الأئمّة المجتهدين وأحد أئمّة المذاهب المتبوعة في الفقه.

تلقّى العلم عن أعلام التابعين من أمثال: الأسود بن يزيد، وزيد بن أسلم والأعمش وغيرهم.

وسمع منه أقطاب عصره مثل الإمام مالك وعبدالله بن المبارك وسفيان بن عيينة والأوزاعي وابن جريج ومن في طبقتهم.

ساد الناس بالعلم والعمل والورع والزهد فكان أحد أئمّة الإسلام وعبّادهم والمقتدى بهم.

أراده أبو جعفر المنصور على قضاء الكوفة فأبى وخرج سنة ١٤٤هـ، وسكن مكّة، ثمّ طلبه الخليفة العباسي المهدي فتوارى، وانتقل إلى البصرة حتى مات فيها مستخفياً.

اتّفق العلماء على إمامته وتقدّمه في الفقه والحديث، وأثنى عليه أئمّة عصره فقال فيه غير واحد من أهل عصره: هو أمير المؤمنين في الحديث.

(١) طبقات الفقهاء ص ٨٤ ـ ٨٥، الفكر السامي ٤٣٨/٢ ـ ٤٣٩، شذرات الذهب ٤٠٥/١ ـ ٤٠٧، البداية والنهاية ١٣٣/١٠ ـ ١٣٤، مرآة الجنان ٣٦١/١ ـ ٣٦٣.

وقال عبدالرحمٰن بن مهدي: الأئمّة في الحديث أربعة: الأوزاعي ومالك والثوري وحمّاد بن زيد.

وقال يحيى بن معين: العلماء أربعة: الثوري وأبو حنيفة ومالك والأوزاعي.

وقال عبدالله بن المبارك: كتبت عن ألف ومائة شيخ ما كتبت عن أفضل من الثوري، وقال: لا أعلم على وجه الأرض أعلم من الثوري.

وقال سفيان بن عيينة: ما رأيت أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري.

وقال أصحاب المذاهب الثلاثة: ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه والثوري في زمانه.

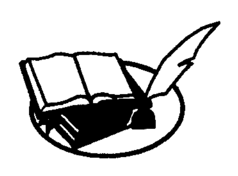
وكان أحمد ابن حنبل ينعته بالإمام.

كان مذهبه إلى الأثر أميل منه إلى الرأي.

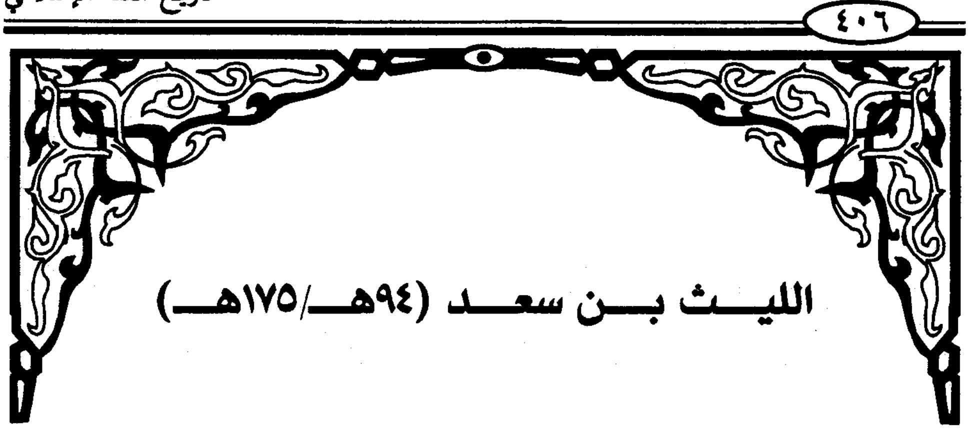
من آثاره[١]:

كتاب التفسير وكتاب الفرائض وكتاب الاعتقاد وكتاب الجامع الكبير في الحديث، إضافة إلى رسائل في الزهد ومواعظ ووصايا.

كان له أتباع يفتون بمذهبه، إلاّ أنّ مذهبه لم يطل تقليده بل انقطع عن قريب لقلّة أتباعه، وذكر ابن العماد الحنبلي أنّه وُجد في آخر القرن الرابع سفيانيون.



(١) تاريخ التراث العربي ٣/٢٤٨.



الليث بن سعد (٩٤هـ/١٧٥هـ)

هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبدالرحمٰن الفهمي المصري[1] إمام أهل عصره في مصر فقهاً وحديثاً، اشتغل بالفتوى في زمانه بمصر.

رحل إلى الحجاز ولم يتجاوز بعد العشرين من عمره فتفقّه بعطاء وقتادة ونافع والإمام مالك، وتفقّه على ابن شهاب الزهري، وفي ذلك يقول الليث: كتبت من علم ابن شهاب علماً كثيراً، ولقي ربيعة الرأي وناظره في بعض المسائل.

ثمّ كان بينه وبين الإمام مالك مراسلات علميّة ومشاورات كثيرة، حفظ لنا ابن قيّم الجوزيّة منها رسالة لليث ـ سبق عرضها ـ وهي تعتبر بحقّ أنموذجاً رائعاً لحبل التواصل بين أعلام هذا العصر، وصورة حيّة من مناقاشاتهم الاستدلاليّة، وكان الليث أتبع للأثر من مالك.

يروى أنّ ابن وهب كان يقرأ عليه مسائل الليث فمرّت به مسألة، فقال رجل: أحسن والله الليث كأنّه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب، فقال ابن وهب للرجل: بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب، والله الذي لا إله إلاّ هو ما رأينا أحداً قطّ أفقه من الليث.

ورغم إمامة الليث في الفقه وعلوّ مرتبته في الحديث إلاّ أنّ مذهبه سرعان ما انقطع منذ أواخر القرن الثاني لقلّة الأتباع وعدم تدوين آرائه،

---

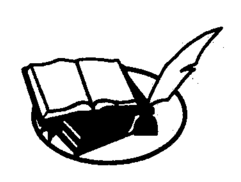
(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٨، الفهرست ص ٢٥٢، شذرات الذهب ١/٤٥٧ ـ ٤٥٨، البداية والنهاية ١٠/١٦٦.

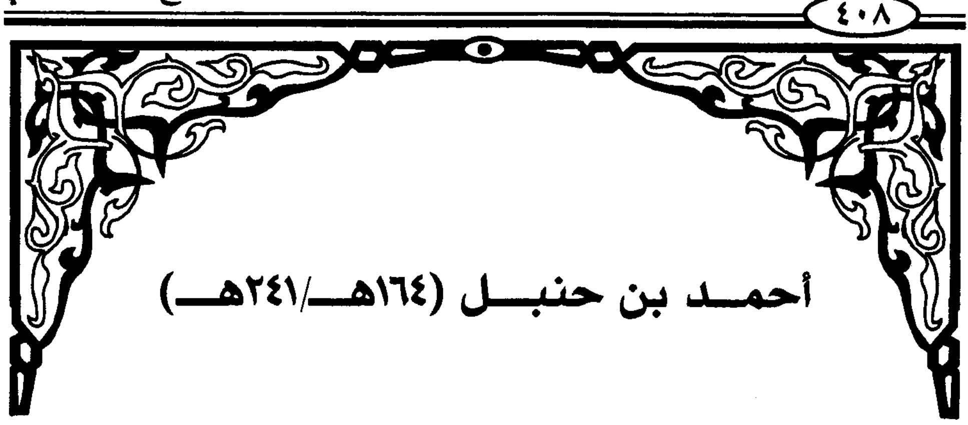
وفي ذلك يقول الشافعي: الليث أفقه من مالك إلاّ أنّ أصحابه لم يقوموا به، وقال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالك، لكن الحظوة لمالك.

وذكر ابن النديم أنّ له كتاب مسائل في الفقه، وأنّه قبل أن يختار لنفسه ويستقلّ بمذهبه كان من أصحاب مالك وعلى مذهبه، وكان يكاتب مالك ويسأله.

عرضت عليه ولاية مصر فرفض وأبى ذلك.

هؤلاء الأئمّة السبعة هم المجتهدون الذين حظيت مذاهبهم في هذه المرحلة من هذا الدور بالانتشار، وعرفت الأمصار اجتهاداتهم في الفقه، ثمّ شهدت المرحلة الثانية من هذا الدور ظهور تلاميذهم الذين قاموا على تلك المذاهب تفريعاً وتدويناً، غير أنّ مجتهدين آخرين ظهروا في المرحلة الثانية دوّنت مذاهب ثلاثة منهم رأينا مراعاة للسير المنهجي في التقسيم المرحلي لهذا الدور أن نلحقهم بهؤلاء السبعة.





أحمد بن حنبل (١٦٤هـ/٢٤١هـ)

هو أبو عبيدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني[١] كان في حداثته يختلف إلى مجلس القاضي أبي يوسف ثمّ ترك ذلك وأقبل على سماع الحديث وذلك سنة ١٨٧هـ.

طاف في البلاد والآفاق طلباً للعلم فرحل إلى الكوفة والبصرة ومكّة والمدينة واليمن والشام والجزيرة وسمع من مشائخ عصره، وتفقّه بسفيان بن عيينة وبالشافعي حين قدم بغداد ولازمه واستفاد منه، وسمع في صنعاء من عبدالرزّاق بن همام، وسمع من وكيع بن الجرّاح ويحيى بن سعيد القطّان وعبدالرحمٰن بن مهدي، وغيرهم.

كان أوّل الأمر متّبعاً لمذهب الإمام الشافعي ثمّ اختار لنفسه واجتهد.

وعنه أخذ الحديث البخاري ومسلم وشيخه الشافعي وأبو داود وأكثر عنه في كتابه السنن، وعليّ بن المديني ويحيى بن معين وولداه صالح وعبدالله وغيرهم.

كان إماماً في الحديث وضروبه، إماماً في الورع وغوامضه، إماماً في الزهد وحقائقه، إماماً في الفقه ودقائقه.

استكثر من الحديث وحفظه حتّى عدّ إمام أهل الحديث في عصره،

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩١ ـ ٩٢، البداية والنهاية ١٠/٣٢٥ ـ ٣٤٣، شذرات الذهب ٢/٢٢٤ ـ ٢٢٧، الفكر السامي ٣/٢٠ ـ ٢٨.

وكان الإمام الشافعي على جلالة قدره يعتمد على الإمام أحمد في النظر في صحّة الحديث ويقول له: يا أبا عبدالله إذا صحّ عندكم الحديث فأعلمني به أذهب إليه حجازيًا كان أو شاميًا أو عراقيًا أو يمنيًا.

وقول الشافعي له هذه المقالة تعظيم لشأن الإمام أحمد وإجلال له، وأنّه عنده بهذه المكانة إذا صحّح أو ضعّف يعود إليه ويعتمد على قوله.

وكان الشافعي يقول: خرجت من العراق فما تركت رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل.

وقال قتيبة بن سعيد: لو أدرك أحمد بن حنبل عصر الثوري ومالك والأوزاعي والليث بن سعد لكان هو المقدّم.

وكان أبو ثور معاصره وأحد أئمّة المذاهب في عصره يفضّله على الثوري ويقول: أحمد بن حنبل أعلم وأفقه من الثوري.

كان أحمد يحفظ ألف ألف حديث وكان يقول: إذا جاء الحديث في فضائل الأعمال وثوابها وترغيبها تساهلنا في إسناده، وإذا جاء الحديث في الحدود والكفّارات والفرائض تشدّدنا فيه.

وقف ابن حنبل وقفة مشهورة في محنة القول بخلق القرآن وابتلي ابتلاء شديدا في عهدي المعتصم وابنه محمد الواثق، حتّى ضرب بالسياط وجلد ظهره.

عرضت عليه ولاية اليمن فأبى ورفض.

ورغم اتّفاق أهل عصره على إمامته في الحديث إلاّ أنّ بعض العلماء لم يجعله في عداد أئمّة الفقه، مثل ابن جرير الطبري والطحاوي والدبوسي والنسفي والغزالي وابن قتيبة والمقدسي وابن عبدالبرّ.

وذكر ابن النديم الإمام أحمد في الفنّ السادس من المقالة السادسة

ضمن أخبار فقهاء المحدّثين وكتّاب الحديث، ولم يخصّص له ما خصّصه لمالك وأبي حنيفة والشافعي وداود وأصحابهم[١].

ولعلّ ذلك يعود إلى كون الإمام أحمد كان أميل لرواية الحديث منه إلى الإفتاء، فهو صاحب المسند الذي ضمّنه ثلاثين ألف حديث من غير المكرّر كان قد انتقاها من أكثر من ٧٥٠ ألف حديث ممّا حدا بالقاضي عياض القول بأنّ الإمام أحمد من العارفين بعلم الحديث ولا تنكر إمامته فيه، ولكن لا يسلّم له الإمامة في الفقه.

ولا جودة النظر في مأخذه، ولم يتكلّم في نوازل كثيرة كلام غيره وميله مع المفهوم من الحديث[٢] فجاءت مسائل الفقه المرويّة عنه قليلة مقارنة بغيره من أئمّة الفقه.

لكنّ أتباعه لم يسلّموا بذلك وانتصروا له واعتبروه في عداد المجتهدين في الفقه، وأنّ فتاويه ومسائله قد رويت وحدّث بها قرناً بعد قرن، وجمعت نصوصه فبلغت نحو عشرين سفراً أو أكثر، وأنّه صار إماماً وقدوة لأهل السنّة على اختلاف طبقاتهم حتّى إنّ المخالفين لمذهبه بالاجتهاد والمقلّدين لغيره ليعظّمون نصوصه وفتاويه[٣].

وكانت فتاوى ابن حنبل مبنيّة على خمسة أصول[٤]:

الأصل الأول: النصوص قرآناً وسنّة، فإذا وجد النصّ أفتى بموجبه ولم يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه كائناً من كان.

الأصل الثاني: فتاوى الصحابة: فإذا وجد لبعض الصحابة فتوى لا

(١) الفهرست ص ٢٨٥.
(٢) ترتيب المدارك ٩٣/١.
(٣) إعلام الموقّعين ٢٨/١.
(٤) المصدر السابق ٢٩/١ ـ ٣٣.

يعرف له مخالف منهم فيها لم يعدل بها إلى غيرها، ولم يقدّم عليها عملاً ولا رأياً ولا قياساً.

الأصل الثالث: الاختيار من أقوال الصحابة إذا اختلفوا: فيتخيّر من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنّة، ولم يخرج عن أقوالهم، فإن لم يتبيّن له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فيها ولم يجزم بقول.

الأصل الرابع: الأخذ بالحديث المرسل والضعيف ما لم يجد أثراً يدفعه ولا قول صاحب ولا إجماعا على خلافه، فيكون العمل بهذا الحديث أولى عنده من القياس.

الأصل الخامس: القياس للضرورة.

فهذه الأصول الخمسة من أصول فتاويه وعليها مدارها، وقد يتوقّف في الفتوى لتعارض الأدلّة عنده، أو لاختلاف الصحابة فيها، أو لعدم اطّلاعه فيها على أثر أو قول أحد من الصحابة والتابعين.

ومن أصول الإمام أحمد كذلك الاحتجاج بخبر الواحد من غير شرط ممّن صحّ سنده، والعمل بسدّ الذرائع التي ظهرت في فروع كثيرة نقلت عنه[١].

وبذلك يعتبر الإمام أحمد أوغل المذاهب الفقهيّة في الأثر، غير أنّ مذهبه لم يكتب له الانتشار بادىء الأمر كما كتب للمذاهب الأخرى، وكان أكثر أتباعه من البغداديين، وربّما ذلك يعود لسبقها في الظهور.

ومن المصنّفات التي تركها الإمام أحمد نذكر[٢]:

* المسند: وهو كتاب جليل، يعدّ أجمع كتب السنّة للحديث،

(١) إعلام الموقعين ١٣٥/٣ وما بعدها.

(٢) تاريخ التراث العربي ٢١٨/٣ - ٢٢٧.

اشتمل على أربعين ألف حديث بالمكرّر، وعلى ثلاثين ألف حديث من غير المكرّر، كان قد انتقاها الإمام أحمد من ٧٥٠ ألف حديث، وأضاف ابنه عبدالله إلى المسند بعض الزيادات.

* علل الحديث: وقد أظهر فيه الإمام أحمد قدرة كبيرة على الفهم والحفظ ومعرفة المشتبه من أسماء الرواة وألقابهم وأوطانهم وشيوخهم وأحاديثهم.

* المسائل: يحوي إجابات الإمام أحمد على أسئلة تلاميذه في مسائل مختلفة من الفروع والأصول، وهذه الإجابات دوّنها تلاميذه وجمعها أبو بكر الخلاّل (٣١١هـ) في كتاب بعنوان الجامع لعلوم الإمام أحمد.

* فضائل الصحابة: برواية ابنه عبدالله مع إضافات وزيادات.

* العقيدة: وقد نقّحه ورواه عدد من تلاميذه وأتباعه.

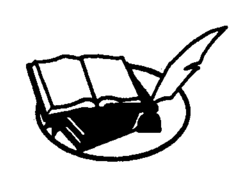
* كتاب فضائل عليّ.

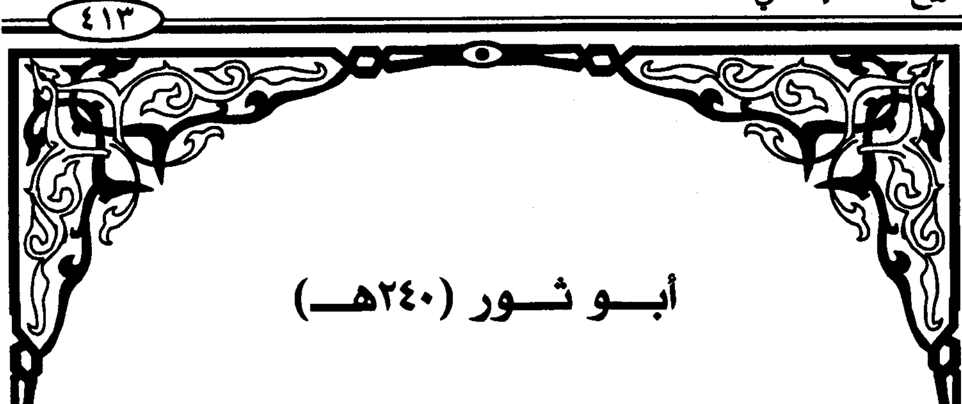
* كتاب الإيمان.

* كتاب الوقوف والوصايا.

* كتاب الترجّل: يبحث في العناية بالشعر من زاوية الفقه.

* كتاب أهل الملل والردّة والزنادقة وتارك الصلاة والفراض ونحو ذلك.





أبــو ثــور (٢٤٠هـ)

هو أبو ثور إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان البغدادي(١) أحد الفقهاء المشهورين، وأحد أئمّة الدنيا فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً.

كان أوّل أمره من أصحاب الرأي في بغداد ومن أتباع محمد بن الحسن الشيباني، فلمّا قدم الشافعي لازم دروسه للتعلّم منه وصار من أصحابه وعدل عن الرأي إلى الأثر، وقلّل من التردّد على دروس محمد ابن الحسن فقال له يوماً: يا أبا ثور أحسب هذا الحجازيّ قد غلبنا عليك، فقال أبو ثور: أجل.

كما سمع من سفيان بن عيينة وعبدالرحمٰن بن مهدي ووكيع بن الجرّاح وغيرهم.

نقل عن الإمام الشافعي الأقوال القديمة التي أفتى بها في بغداد وقلّده فيها، ثمّ صار يخالفه متى ظهر له الدليل، وبرع في الفقه حتّى كان أحمد بن حنبل إذا سئل عن مسألة، قال: سل الفقهاء، سل أبا ثور.

اختار أبو ثور لنفسه، وكان يعدّ من أئمّة الاجتهاد وأصحاب المذاهب المستقلّة، فأصبح له مذهب خاصّ به وأتباع ببغداد، وأكثر أهل أذربيجان

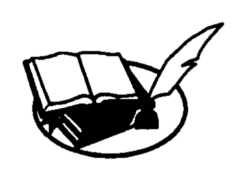
---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٢ و١٠١ ـ ١٠٢، شذرات الذهب ٢٢٠/٢، البداية والنهاية ٣٢٢/١٠، الفهرست ص ٢٦٥، ترتيب المدارك ٨٠/١، الديباج المذهب ص ٤٨، الفكر السامي ١٩/٣ ـ ٢٠.

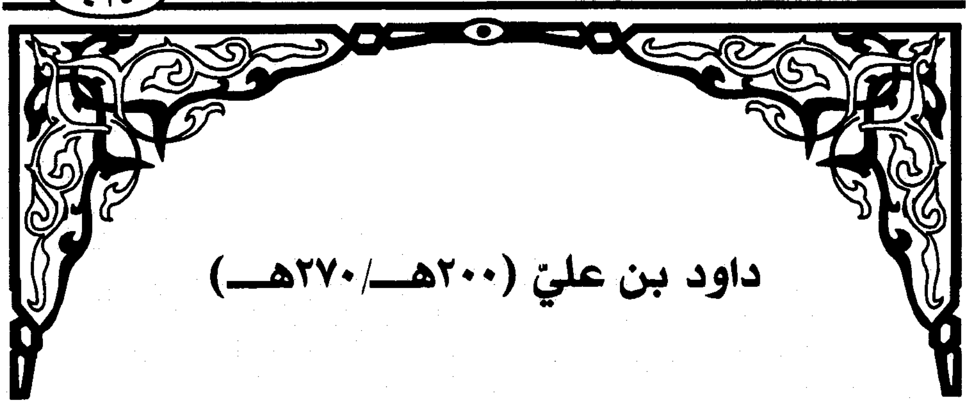
وأرمينيّة كانوا يتفقّهون على مذهبه، ولكنّ أصحابه وأتباعه لم يكثروا ولا طالت مدّتهم فلم يعمّر مذهبه كثيراً، وانقطع بعد ثلاثمائة.

صنّف الكتب فجمع في تصانيفه بين الفقه والحديث، وذكر ابن نديم له كتاب الطهارة وكتاب الصلاة وكتاب المناسك.

ومن المرجّح أنّ الإمام الطبري قد أفاد في كتاب اختلاف الفقهاء من كتاب أو عدّة كتب لأبي ثور، ويستفاد ذلك من استعمال الطبري لعبارة «قال أبو ثور» أي دون إجازة بروايته[١].



(١) تاريخ التراث العربي ٣/١٩٣.



داود بن عليّ (٢٠٠هـ/٢٧٠هـ)

هو أبو سليمان داود بن عليّ بن خلف الأصبهاني المعروف بالظاهري(١) أوّل من استعمل قول الظاهر وألغى ما سوى الكتاب والسنّة من الرأي والقياس.

نشأ ببغداد وبها توفّي، تلقّى العلم عن إسحاق بن راهويه وأبي ثور وغيرهما، وكان ناسكاً زاهداً متقلّلاً كثير الورع، وإليه انتهت رئاسة العلم ببغداد في عصره، وعنه تلقّى ابنه الفقيه أبو بكر بن داود وغيره.

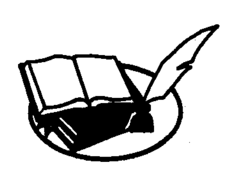
كان حافظاً مجتهداً، من أكثر الناس تعصّباً للشافعي وصنّف كتابين في فضائله والثناء عليه، ثمّ استقلّ بمذهب أساسه العمل بظواهر النصوص قرآناً وسنّة، فنهج اتّباع الظاهر واعتبر أنّ في عمومات النصوص ما يفي بكلّ جواب، وجعل المدارك الشرع كلّها منحصرة في النصوص وما أجمع عليه الصحابة، فقال: الأصول هي الكتاب والسنّة وإجماع الصحابة، ومنع أن يكون القياس أصلاً من الأصول ولم يجوّز الاحتجاج به، ولم ينظر إلى مقاصد النصوص وعللها، وقال أوّل من قاس إبليس، ونهى عن التقليد وجرّأ العامّة على استنباط الأحكام.

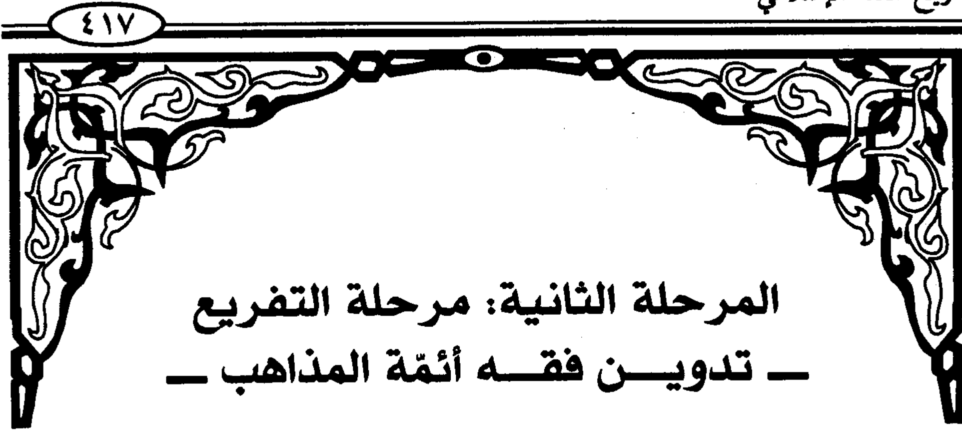
---

(١) طبقات الفقهاء ص ٩٢، طبقات الشافعية الكبرى ٢/٢٨٤، شذرات الذهب ٢/٣١٧، الفهرست ٢٧١، البداية والنهاية ١١/٤٧، المقدّمة ص ٤٢٨، تاريخ التراث العربي ٣/٢٥٣، الملل والنحل ٢/٤٥ ترتيب المدارك ١/٩٣، الديباج المذهب ص ٥٤، الفكر السامي ٣/٢٩.

انتشر مذهبه بادىء الأمر بالشرق ثمّ انتقل إلى الأندلس وبقي العمل به حتى القرن الخامس الهجري وظهر في القرن الرابع بالعراق وإيران وخراسان وعمان والسند، ثمّ قلّ أتباعه وترك مذهبه حتّى لم يعد له من يقوم عليه وينشره فدرس المذهب بدروس أئمّته واندثر ولم يبق له وجود إلاّ في بطون الكتب والموسوعات الفقهيّة كمذهب من مذاهب أهل السنّة.

تبنّته الدولة الموحّدية كمذهب رسميّ لها في عهد ثالث خلفائها يعقوب بن منصور (٥٨٠هـ ـ ٥٩٥هـ) صنّف كتباً عديدة تدلّ على غزارة علمه أوصلها ابن النديم إلى حوالي ١٥٧ مصنّفاً منها كتاب إبطال التقليد وكتاب إبطال القياس وكتاب خبر الواحد وكتاب الحجّة وغيرها.





المرحلة الثانية: مرحلة التفريع
ـ تدوين فقه أئمّة المذاهب ـ

إذا نظرنا إلى هذه المرحلة الثانية من هذا الدور، ومن ظهر فيها من أعلام الفقهاء الذين جاؤوا بعد هؤلاء الأئمّة من المجتهدين، تبيّن لنا أنّ هذه المرحلة قد اختصّت في الغالب بظهور الأعلام الذين كانوا يتّبعون في آرائهم واجتهاداتهم أقوال وفتاوى شيوخهم من المجتهدين.

لكنّ الملاحظ أنّهم لم يكونوا متّبعين ومقلّدين لهم التزاما، ولا مقيّدين بهم على معنى لا يقبل الخلاف فيما بين كلّ إمام وأتباعه، وإنّما كانوا مجتهدين كما كان أئمّتهم مجتهدين، إلاّ أنّ اجتهادهم كان اجتهادا مقيّدا، واجتهاد أئمّتهم كان اجتهادا مطلقا، ومعنى الإطلاق والتقييد هنا يرجع إلى معنيي الأصول والفروع[١].

فالذين اجتهدوا في وضع الأصول، والذين نظروا فيما ينبغي أن يكون حجّة، وما لا ينبغي أن يكون حجّة، وكوّنوا بذلك منهجا في الطريقة الاستدلاليّة هم أئمّة المذاهب، ثمّ جاء تلاميذهم مجتهدين متكوّنين تكوّن الأئمّة في الاجتهاد، ولكنّهم جعلوا الأصول التي وضعها أساتذتهم بالاستقراء ضابطة لحجيّة ما يمكن أن تستخرج منه الأحكام الشرعيّة التفصيليّة والعمليّة التشريعيّة فالتزموا ذلك، فكان ذلك مقيّدا لاجتهادهم

(١) محاضرات ص ٦٧ ـ ٦٨، بتصرف.

لأنّهم أصبحوا يجتهدون في الفروع ولا يجتهدون في الأصول، بينما كان أساتذتهم يجتهدون في الأصول والفروع[١].

وبهذا المعنى اشتهرت المذاهب بالإضافة إلى أسماء الأئمّة المجتهدين في الأصول والمناهج ـ من أعلام المرحلة السابقة ـ رغم أنّهم لم يكونوا مخترعين ولا مبتدعين لتلك الأصول، وإنّما كان الفقه يسير من قبل.

دون أن يقع الإفصاح والتعبير عنها أو التعريف بها، وكان هذا المعنى هو الذي جعل إمام كلّ مذهب واضعا لأصول مذهبه حتّى صحّ أن ينسب المذهب إليه، وصحّ أن يحسب فقهاء المذهب عليه مع أنّهم قد يوافقونه وقد يخالفونه[٢].

وهكذا فلمّا تكوّن بكلّ إمام أعلام من الفقهاء كما تكوّن الأئمّة بالفقهاء الذين قبلهم من التابعين، فإنّ هؤلاء الذين تكوّنوا بهم أصبحوا منتسبين إليهم، فأصبحوا يعتبرون حنفيّة ومالكيّة وشافعيّة وحنابلة وزيديّة وجعفريّة وأوزاعيين وسفيانيين ونحو ذلك أو أصحاب أبي حنيفة وأصحاب مالك وأصحاب الشافعي وأصحاب أحمد وأصحاب زيد وأصحاب جعفر وأصحاب الأوزاعي وأصحاب الثوري أو تلاميذهم.

فإذا قيل مثلاً في شأن أبي يوسف ومحمد بن الحسن وزفر إنّهم حنفيّة أو أصحاب أبي حنيفة أو تلامذته، فإنّهم حنفيّة في الأصول وحنفيّة في المنهج، ولكنّهم لم يكونوا مقيّدين كما يقيّد المستفتي مفتيه، لأنّهم كانوا ينظرون في الأدلّة ويستخرجون منها الفروع كغيرهم من أئمّة الاجتهاد، بدليل أنّهم قد اختلفوا عن أستاذهم أبي حنيفة اختلافاً واضحاً في مسائل كثيرة أصبحت قوام الدراسة الفقهيّة في المذهب الحنفي، حتّى إنّنا لنجد كتب الحنفيّة تورد أحياناً في المسألة الواحدة أقوالاً أربعة، قولاً لأبي حنيفة وقولاً لأبي يوسف وقولاً لمحمد بن الحسن وقولاً لزفر.

---

(١) انظر: محاضرات ص ٦٧ ـ ٦٨ بتصرّف.

(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٦٦ بتصرّف.

ومع ذلك فإنّهم فيما يعود إلى حجيّة الأصول التي يرجع إليها أبو حنيفة في استخراج الأحكام الفرعيّة قد كانوا متّبعين للطريقة الأصليّة المنهجيّة التي وضعها إمامهم استقراءً من سير الفقه على عهد الصحابة والتابعين[١].

وما قيل في شأن المذهب الحنفي يقال في شأن المذهب المالكي والشافعي والحنبلي والزيد والجعفري وغيرها من المذاهب.

وبهؤلاء التلاميذ الذين تكوّنوا بأئمّتهم وتخرّجوا بهم مجتهدين مقيّدين تكوّنت حركة جديدة في التشريع والفقه نستطيع أن نصطلح عليها بمرحلة التفريع.

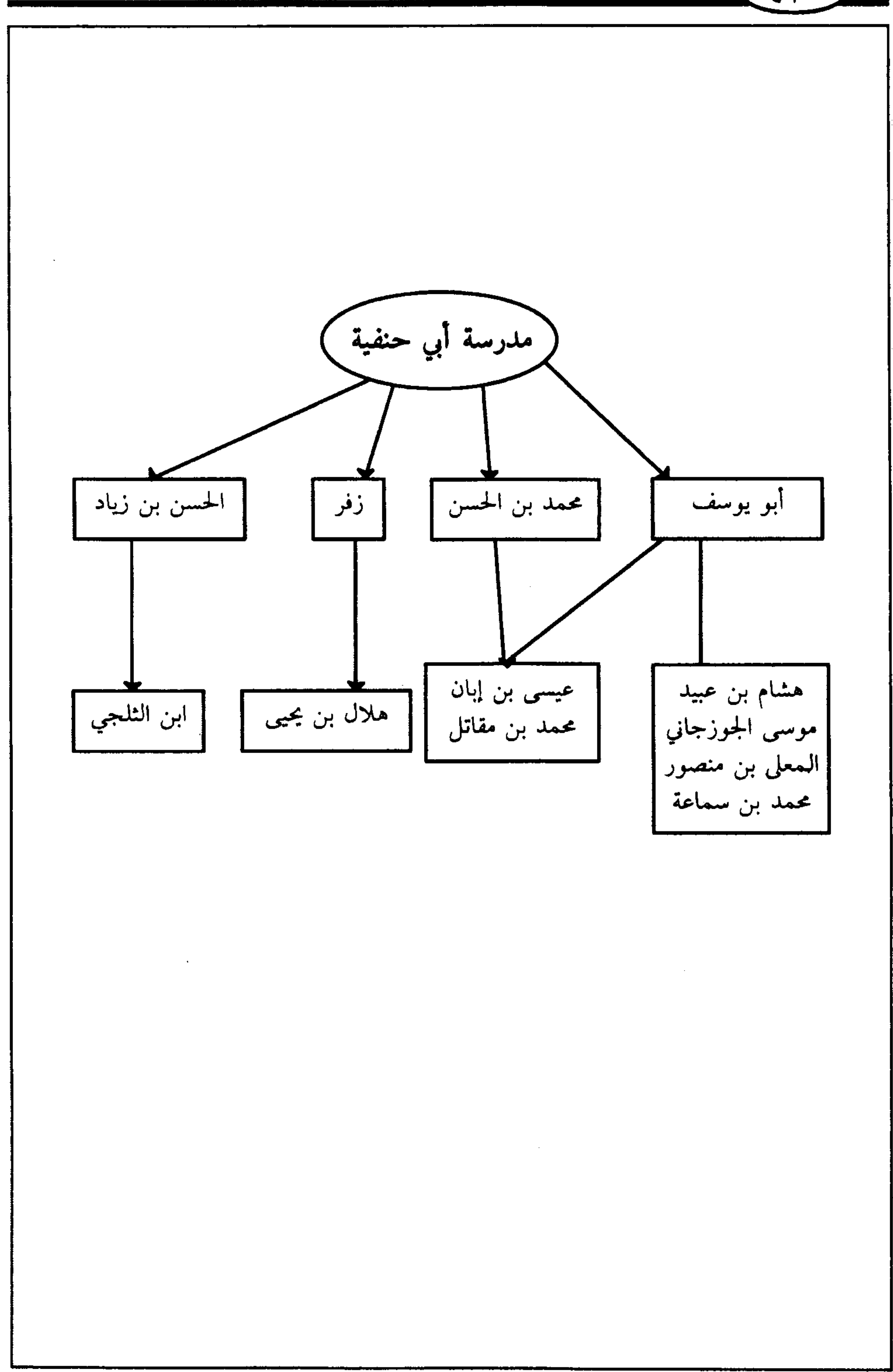
هذه المرحلة التي أصبحت فيها حركة الاجتهاد وتقرير الجزئيات في الأحكام العمليّة التفصيليّة تجري على أصول كلّ إمام من أئمّة المذاهب، وبرز فيها بوضوح القيام على تدوين فقه الأئمّة حيث اجتهد التلاميذ ـ الذين هم أعلام هذه المرحلة ـ اجتهادا تفريعيًّا على مقتضى أصول أئمّتهم وإن لم يلتزموا الفتاوى الجزئيّة في المسائل العمليّة التفصيليّة التي ابتدأها الأئمّة أنفسهم[٢].

فتوطّدت بذلك دعائم المدارس الفقهيّة بأعلامها وتصانيفهم.

---

(١) المرجع السابق ص ٦٧ ـ ٦٨ بتصرّف.

(٢) محاضرات ص ٦٨ بتصرّف.


مدرسة أبي حنيفة
الحسن بن زياد
زفر
محمد بن الحسن
أبو يوسف
ابن الثلجي
هلال بن يحيى
عيسى بن إبان
محمد بن مقاتل
هشام بن عبيد
موسى الجوزجاني
المعلى بن منصور
محمد بن سماعة

- ١ - أبو يوسف:

هو قاضي القضاة يعقوب بن إبراهيم الكوفي[١] كان حافظاً للحديث يحبّ أصحابه ويميل إليه جالس قاضي الكوفة - في عهد أبي جعفر المنصور - محمد بن عبدالرحمٰن بن أبي ليلى، وروى الحديث عن الأعمش وهمام بن عروة ومحمد بن إسحاق ويحيى بن سعيد وغيرهم.

كان يطلب العلم وهو فقير الحال يحتاج إلى الشغل، فأعانه أبو حنيفة على معاش الدنيا حتّى يلزم مجلسه ولا يتخلّف عن حلقة العلم، فلازمه وتفقّه عليه وصحبه سبع عشرة سنة حتّى غلب عليه الرأي وأصبح على مذهبه وأكبر أصحابه، فلم يكن بعد ذلك في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف، ولا أكثر حديثاً ولا أثبت منه، فكان أبو حنيفة يقول عنه: إنّه أعلم أصحابه.

ومع طول صحبته لأبي حنيفة فقد خالفه في مواضع كثيرة، اجتهد فيها واستقلّ بها عن إمامه، وحين تناظر هو والإمام مالك بالمدينة بحضرة الرشيد في مسألة الصاع وزكاة الخضروات، رجع عن رأيه إلى قول الإمام مالك، وقال: لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت.

يعتبر أبو يوسف أوّل من نشر علم أبي حنيفة وبثّه في أقطار الأرض، وممّا ساعده على ذلك تولّيه القضاء لثلاثة من خلفاء بني العبّاس: المهدي وابنيه الهادي وهارون الرشيد، وكان الرشيد يجلّه وكان عنده حظيًّا مكيناً، فكان أبو يوسف يولّي القضاة في أنحاء البلاد، وكان أغلب من ولّاهم على مذهب أبي حنيفة فانتشر العمل بفقهه، وكان أبو يوسف قد عاش بعد

---

(١) الفوائد البهية ٢٢٥، الجواهر المضية ٦١١/٣، تاج التراجم ٢٨٢، البداية والنهاية ١٨٠/١٠ - ١٨٢، مرآة الجنان ٣٩٥/١ - ٤٠٠، الفهرست ص ٢٥٦ - ٢٥٧، شذرات الذهب ٤٧٨/١ - ٤٨١ طبقات الفقهاء ص ١٣٤ وفيات الأعيان ٣٧٨/٦ - ٣٩٠، الأعلام ٢٥٢/٩ معجم المؤلفين ٢٤٠/١٣ كشف الظنون ٤١٧/٦ تذكرة الحفاظ ٢٩٢/١.

أبي حنيفة ٣٢ عاما، أمضى منها ١٢ سنة قاضي قضاة ـ من سنة ١٧٠هـ إلى ١٨٢هـ ـ.

وعن أبي يوسف تلقّى العلم محمد بن الحسن وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبو يعلى معلّى بن منصور الرازي، وقد روى عنه فقهه وأصوله وكتبه وغير هؤلاء كثير، وكان يحضر في مجلس قضائه العلماء على طبقاتهم حتّى إنّ الإمام أحمد بن حنبل كان شابًّا وكان يحضر مجلسه فيتناظرون ويتباحثون.

توفّي سنة ١٨٢هـ، وقد عاش قريبا من سبعين سنة، ولمّا حانت ساعة وفاته سمعه تلميذه محمد بن سماعة يقول: اللّهمّ إنّك تعلم أنّي لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك متعمّدا، ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنّة نبيّك ﷺ، وكلّما أشكل عليّ جعلت أبا حنيفة بيني وبينك وكان عندي والله من يعرف أمرك ولا يخرج عن الحقّ وهو يعلمه.

ويعتبر أبو يوسف أوّل من وضع التآليف في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، ووضع الكتب الجليلة، وقد جمع فقهه الأستاذ محمد مطلوب واختصّه بالدراسة في كتاب بعنوان «أبو يوسف وفقهه».

ـ ٢ ـ محمد بن الحسن:

هو أبو عبدالله محمد بن الحسن الشيبانيّ الكوفي(١) نشأ بالكوفة، لقي جماعة من أعلام الأئمّة وطلب الحديث ثمّ حضر مجلس أبي حنيفة فتلقّى عنه سنتين فقط ـ ومات أبو حنيفة ولمحمد بن الحسن ثمان عشرة سنة ـ

(١) الفوائد البهية ١٦٣، الجواهر المضية ١٢٢/٣، تاج التراجم ١٨٧، مرآة الجنان ٤٢٩/١ ـ ٤٣٠ البداية والنهاية ٢٠٢/١٠ ـ ٢٠٣، الفهرست ص ٢٥٧، شذرات الذهب ١٦/٢ ـ ١٩، طبقات الفقهاء ص ١٣٥ ـ ١٣٦، وفيات الأعيان ١٨٤/٤ ـ ١٨٥، الأعلام ٣٠٩/٦، معجم المؤلفين ٢٠٧/٩.

فتفقه على أبي يوسف وأتمّ على يديه ما كان قد بدأه مع أبي حنيفة حتّى نظر في الرأي وغلب عليه وعرف به.

كما أخذ عن الإمام مالك بن أنس خلال رحلته إلى الحجاز، وله رواية للموطّأ فيها زيادات كثيرة على غيرها من الروايات، ضمّنها آثار من غير طريق الإمام مالك احتجّ فيها لفقه العراقيين، وسمع كذلك من سفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم.

أنفق ماله في سبيل طلب العلم، فقد روى في ذلك عن نفسه أنّه قال: خلّف أبي ثلاثين ألف درهم فأنفقت نصفها على النحو والشعر، وأنفقت الباقي على الفقه، وكان يقول لأهله: لا تسألوني حاجة من حاجات الدنيا فتشغلوا قلبي، وخذوا ما شئتم من مالي فإنّه أقلّ لهمّي وأفرغ لقلبي.

استقرّ ببغداد، وبها حدّث ونشر علم أبي حنيفة، وكان أفصح الناس، قيل أنّه: إذا تكلّم خيّل إلى سامعه أنّ القرآن نزل بلغته، حتّى أنّ الشافعي كان يثني عليه ويقول: ما رأيت أعلم بكتاب الله من محمد بن الحسن، ولا أفصح منه، وما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام، والعلل والناسخ والمنسوخ منه، وما جالست فقيهاً قطّ أفقه ولا أفتق لسانه بالفقه منه، إنّه كان يحسن من الفقه وأسبابه أشياء تعجز عنها الأكابر.

ومن أشهر من أخذ عنه الإمام الشافعي حين التقى به في بغداد وجرت بينهما مجالس ومسائل، وحمل عنه الشافعي من العلم كما قال: «وقر بعير».

مات محمد بن الحسن سنة ١٨٩هـ هو والكسائي بالريّ في يوم واحد، فقال هارون الرشيد: دفنت الفقه والعربيّة بالريّ، وكان له من العمره ثمان وخمسون سنة.

يعتبر محمد بن الحسن محرّر المذهب الحنفي، وله كتب كثيرة في فروع المذهب الحنفي وأصوله، وهي تعتبر المرجع الأساسي لما حوته من كثرة التفريعات، ولما لاقته من عناية واهتمام شرحاً وتعليقاً.

ـ ٣ ـ زفر:

هو أبو الهذيل، زفر بن الهذيل بن قيس العنبري[١] كان من أصحاب الحديث ثمّ غلب عليه الرأي حتّى أصبح أقيس أصحاب أبي حنيفة، واشتهر بحسن استخدامه للعلل في كتاباته، ودقّته في ذلك.

وهو الذي أدخل مذهب أبي حنيفة إلى البصرة وبها توفّي سنة ١٥٨هـ وله من العمر ثمان وأربعون سنة وهو بذلك أقدم أصحاب أبي حنيفة موتاً، وقد جمع فقهه الدكتور أبو اليقظان عطيّة الجبوري ونشره في بغداد سنة ١٩٧٩م.

ـ ٤ ـ الحسن بن زياد:

هو الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي[٢] أحد تلاميذ أبي حنيفة، كتب عن ابن جريج عشر ألف حديث، غير أنّ أصحاب الكتب الستة لم يخرجوا له، وعلماء الحديث يطعنون في روايته.

كان رأسا في الفقه وقد ذكر له ابن النديم كتاب النفقات وكتاب الخراج وكتاب الفرائض وكتاب الوصايا غير أنّه لم يكن لآرائه ورواياته من الاعتبار ما كان لآراء محمد بن الحسن ورواياته، توفّي سنة ٢٠٤هـ وله من العمر نحو ثمان وثمانين سنة.

هؤلاء الأربعة هم الذين كانت لهم اليد الطولى والفضل الأكبر في نشر مذهب أبي حنيفة، غير أنّه لم يكن لزفر وللحسن بن زياد ما كان لأبي يوسف ومحمد بن الحسن من الفضل في ذلك.

---

(١) الفوائد البهية ٧٥، الجواهر المضية ٢/٢٠٧، تاج التراجم ١٠٢، طبقات الفقهاء ص ١٣٥ مرآة الجنان ١/٣٥٦، شذرات الذهب ١/٣٩٦ ـ ٣٩٧، وفيات الأعيان ٢/٣١٧ ـ ٣١٩.

(٢) الفوائد البهية ٦٠، الجواهر المضية ٢/٥٦، تاج التراجم ٨١، طبقات الفقهاء ص ١٣٦، الفهرست ص ٢٥٨، شذرات الذهب ٢/٨٤، البداية والنهاية ١٠/٢٥٥، الأعلام ٢/٢٠٥، معجم المؤلفين ٣/٢٢٦.

فأمّا زفر فلتقدّم وفاته، وأمّا الحسن بن زياد فلنزول درجته عند أهل الحديث، ولذلك كان أبو يوسف ومحمد بن الحسن هما القائمان على مذهب أبي حنيفة بلا منازع حتّى أطلق عليهما مصطلح «الصاحبان».

وممّن هم دون هؤلاء الأربعة:

*** هشام بن عبيدالله:**

هو هشام بن عبيدالله ـ أو عبدالله ـ الرازي، كان تلميذا لأبي يوسف ولمحمد بن الحسن، روى عن ابن أبي ذئب ومالك والليث بن سعد وطبقتهم، وكان كثير العلم واسع الرواية غير أنّه كان ليّنا في روايته، له كتاب النوادر في فروع الفقه الحنفي، توفّي سنة ٢٢١هـ[(١)].

*** موسى بن سليمان:**

هو أبو سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني[(٢)] أخذ عن أبي يوسف ومحمد بن الحسن وروى عنهما الكتب، عرض عليه المأمون العباسي القضاء فأبى ولم يتقلّده، له كتاب نوادر الفتاوى في الفقه، توفّي بعد سنة ٢٠٠هـ بقليل.

*** المعلّى بن منصور:**

هو أبو يعلى المعلّى بن منصور الرازي، كان تلميذا لأبي يوسف ومحمد بن الحسن، وروى عنهما الكتب، عرض عليه المأمون العباسي

---

(١) طبقات الفقهاء ص ١٣٨، تاريخ التراث العربي ٧٨/٣، شذرات الذهب ١٤٨/٢، البداية والنهاية ٢٨٣/١٠، تهذيب التهذيب ٤٧/١١ ـ ٤٨، الأعلام ٨٥/٩، معجم المؤلفين ١٤٩/١٣، كشف الظنون ٧٧٨/٢، تذكرة الحفاظ ٣٨٧/١ ـ ٣٨٨.

(٢) الفوائد البهية ٢١٦، الجواهر المضية ٥١٨/٣، تاج التراجم ٢٦٠، طبقات الفقهاء ص ١٣٧، الفهرست ص ٢٥٩، تاريخ التراث العربي ٧٩/٣، الأعلام ٢٧٢/٨، معجم المؤلفين ٣٩/١٣.

القضاء كما عرض على صديقه الجوزجاني، فأبى ولم يتقلّده، له كتاب النوادر في الفقه، توفّي سنة ٢١١هـ[١].

*** محمد بن سماعة:**

هو أبو عبدالله محمد بن سماعة التميمي الكوفي[٢] أخذ العلم عن أبي يوسف ومحمد بن الحسن، وكان فقيهاً كتب النوادر عن محمد وروى عن الليث بن سعد، ولّي قضاء بغداد للمأمون سنة ١٩٢هـ، له مصنّفات واختيارات في المذهب، صنّف كتبا في الفقه منها كتاب الاكتساب في الرزق المستطاب، صنّفه على أساس كتاب الكسب لمحمد بن الحسن، وله أيضاً كتاب النوادر عن أبي يوسف، وكتاب المحاضر والسجلات.

كان ورده في اليوم والليلة مائتي ركعة، جاوز المائة وهو في كامل القوّة، وتوفّي سنة ٢٣٣هـ وله من العمر مائة سنة وثلاث سنين.

*** عيسى بن أبان:**

هو القاضي أبو موسى عيسى بن أبان[٣] كان تلميذاً لمحمد بن الحسن، ولّي القضاء عشر سنين ووصف بالذكاء والسخاء وسعة العلم، توفّي سنة ٢٢٠هـ، له كتاب الحجّة.

---

(١) طبقات الفقهاء ص ١٣٧، تاريخ التراث العربي، ٨٠/٣ تهذيب التهذيب ٢٣٨/١٠ - ٢٤٠، طبقات ابن سعد ٣٧١/٧، الأعلام ١٩٨/٨، معجم المؤلفين ٣٠٩/١٢، كشف الظنون ٧٧٨/٢، تذكرة الحفاظ ٣٧٧/١.

(٢) الفوائد البهية ١٧٠، الجواهر المضية ١٦٨/٣، تاج التراجم ١٨٩، طبقات الفقهاء ص ١٣٨ الفهرست ص ٢٥٨ تاريخ التراث العربي ٨٢/٣، شذرات الذهب ١٩٤/٢، البداية والنهاية ٣١٢/١٠ تهذيب التهذيب ٢٠٤/٩، الأعلام ٢٣/٧، معجم المؤلفين ٥٧/١٠، كشف الظنون ٧٧٧/٢.

(٣) الفوائد البهية ١٥١، الجواهر المضية ٦٧٨/٢، تاج التراجم ١٧٠، الفهرست ص ٢٥٨، تاريخ التراث العربي ٨٠/٣ - ٨١، الأعلام ٢٨٣/٥، معجم المؤلفين ١٨/٨.

* **محمد بن مقاتل:**

هو محمد بن مقاتل الرازي[١] كان تلميذاً لمحمد بن الحسن، روى عن وكيع بن الجرّاح وغيره، وسمع منه الإمام البخاري، وكان فقيهاً ذا مكانة، توفّي سنة ٢٤٨هـ.

* **هلال بن يحيى:**

هو هلال بن يحيى بن مسلم البصري[٢] أخذ العلم عن أبي يوسف وزفر، لقّب بهلال الرأي لسعة علمه وكثرة أخذه بالقياس، صنّف كتاب أحكام الوقف، وكتاب الشروط، وهو أوّل من صنّف في علم الشروط[٣] توفي سنة ٢٤٥هـ.

* **محمد بن شجاع:**

هو أبو عبدالله محمد بن شجاع الثلجي، فقيه العراق وشيخ الحنفيّة في وقته، تفقّه بالحسن بن زياد اللؤلؤي، جمع بين الفقه والورع، وصنّف واشتغل حتّى قيل أنّه فتق فقه أبي حنيفة واحتجّ له وأظهر علله وقوّاه بالحديث وحلّاه في الصدور، ولكنّه كان متروك الحديث، توفّي سنة ٢٦٦هـ وهو ساجد في صلاة العصر وله نحو من تسعين سنة، له كتاب

---

(١) طبقات الفقهاء ص ١٣٩، تاريخ التراث العربي ٨٤/٣ ـ ٨٥، تهذيب التهذيب ٤٦٩/٩ ـ ٤٧٠.

(٢) الفوائد البهية ٢٢٣، الجواهر المضية ٥٧٢/٣، تاج التراجم ٢٧٨، طبقات الفقهاء ص ١٣٩، تاريخ التراث العربي ٨٤/٣ ـ ٨٥، كشف الظنون ٧٦/٢.

(٣) قال حاجي خليفة: علم الشروط والسجلّات هو علم باحث عن كيفيّة ثبت الأحكام الثابتة عند القاضي في الكتب والسجلّات على وجه يصحّ الاحتجاج به عند انقضاء شهود الحال، وموضوعه تلك الأحكام من حيث الكتابة، وبعض مبادئه مأخوذ من الفقه، وبعضها من علم الإنشاء، وبعضها من الرسوم والعادات والأمور الاستحسانيّة، وهو من فروع الفقه من حيث كون ترتيب معانيه موافقاً لقوانين الشرع، وقد يجعل من فروع الأدب باعتبار تحسين الألفاظ (كشف الظنون: ٧٦/٢).

النوادر في الفروع وكتاب المضاربة وكتاب الكفارات وكتاب المناسك وكتاب تصحيح الآثار(١).

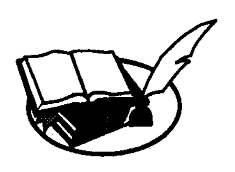
وقد صنّف أبو الليث السمرقندي (ـ ٣٧٣هـ) (كتابين جمع فيهما آراء ابن شجاع الثلجي، ومحمد بن مقاتل الرازي، أحدهما عيون المسائل والآخر النوازل، وذكر أنّ جمعه لأقوال هؤلاء الأعلام بسبب أنّهم قد وفّقوا النظر فيما وقع لهم من النوازل، فيسهل على الناظر فيها طريق الاجتهاد(٢).

وغير هؤلاء كثير من أعلام المذهب الحنفي، من أمثال(٣):

الحسن بن أبي مالك (ـ ٢٠٤هـ) وقاضي بغداد أبو الوليد بشر بن الوليد الكندي (ـ ٢٣٨هـ) وبشر بن غيّاث المريسي، وقاضي مصر إبراهيم بن الجرّاح (ـ ٢١٧هـ) وهؤلاء كان أخذهم للعلم عن أبي يوسف خاصّة.

وموسى بن نصر الرازي وعمرو بن أبي عمرو وسليمان بن شعيب الكيساني وعليّ بن معبد، وهؤلاء كان أخذهم للعلم عن محمد بن الحسن.

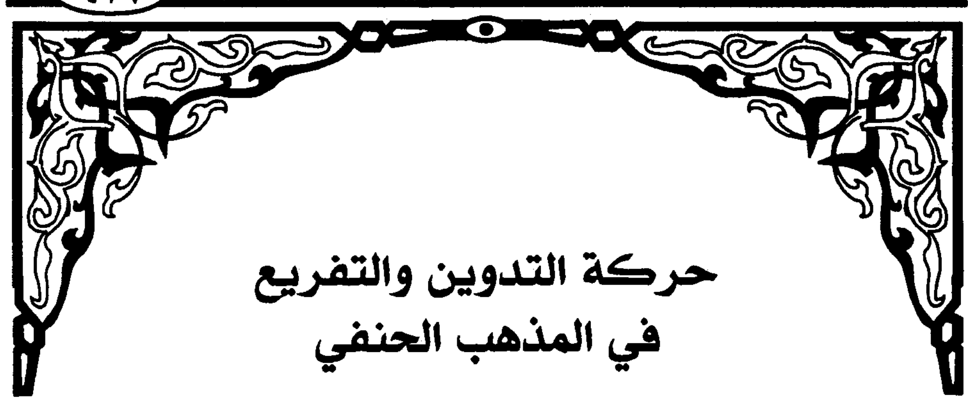
ومحمد بن عبدالله الأنصاري وعبيدالله بن عبدالحميد وهما من أصحاب زفر.



(١) الفوائد البهية ١٧١، الجواهر المضية ١٧٣/٣، تاج التراجم ١٩١، طبقات الفقهاء ص ١٤٠، الفهرست ص ٢٥٩، تاريخ التراث العربي ٨٥/٣، شذرات الذهب ٣٠٨/٢، ـ تهذيب التهذيب ٢٢٠/٩، الأعلام ٢٨/٧، معجم المؤلفين ٦٤/١٠، كشف الظنون ٣٤٢/١، و٣٨٦/٢، ٣٩١، و١٥/٦.

(٢) كشف الظنون ٧٧٨/٢.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٣٨ ـ ١٣٩.



حركة التدوين والتفريع في المذهب الحنفي

تعتبر مؤلّفات أبي يوسف ومحمد بن الحسن المراجع الأصليّة لمذهب شيخهما أبي حنيفة، ففي مصنّفاتهما دوّنت آراء أبي حنيفة ورواياته، وعن طريقهما وصلت إلينا أصول مذهبه.

كتب أبي يوسف:

لأبي يوسف مصنّفات كثيرة منها:

ـ ١ ـ كتاب الخراج:

هو أوّل تأليف ظهر في العالم الإسلامي يبحث في تنظيم أصول الثروة وضبط أموال الدولة ومواردها الدوريّة منها ـ الزكاة والخراج والجزية والعشور ـ وغير الدوريّة ـ خمس الغنائم وخمس المعادن والركاز ـ على أساس قواعد عادلة تحقّق رعاية المصالح العامّة.

وهذا الكتاب وضعه أبو يوسف بطلب من الخليفة العبّاسي هارون الرشيد، حيث سأل هارون الرشيد أبا يوسف أن يضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات، وغير ذلك ممّا يجب النظر فيه والعمل به.

فأجاب أبو يوسف الخليفة العبّاسي برسالة مفصّلة سمّاها كتاب الخراج صدّرها بخطاب منه إلى الخليفة ضمّنه موعظة مطوّلة بقلم بليغ ولسان فصيح لا مداراة فيه ولا خوف إلاّ من الله.

وممّا جاء في هذا الخطاب قوله: «يا أمير المؤمنين، إنّ الله وله الحمد قد قلّدك أمرا عظيما ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشدّ العقاب... فلا تضيعنّ ما قلّدك الله من أمر هذه الأمّة والرعيّة... وأقم الحقّ فيما ولاّك الله... ولا تزغ فتزيغ رعيّتك، وإيّاك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب، وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة، والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا، فإنّ الآخرة تبقى والدنيا تفنى، وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد، ولا تخف في الله لومة لائم، واحذر فإنّ الحذر بالقلب وليس باللسان، واتّق الله فإنّما التقوى بالتوقّي، ومن يتّق الله يقه، واعمل لأجل مفضوض وسبيل مسلوك وطريق مأخوذ وعمل محفوظ ومنهل مورود، فإنّ ذلك المورد الحقّ والموقف الأعظم الذي تطير فيه القلوب وتنقطع فيه الحجج لعزّة ملك قهرهم جبروته، والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه ويخافون عقوبته وكأنّ ذلك قد كان، فكفى بالحسرة والندامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل، يوم تزلّ فيه الأقدام وتتغيّر فيه الألوان ويطول فيه القيام ويشتدّ فيه الحساب... فيالها من عثرة لا تقال، ويا لها من ندامة لا تنفع... فالله الله فإنّ البقاء قليل والخطب خطير والدنيا هالكة وهالك من فيها، والآخرة هي دار القرار، فلا تلق الله غدا وأنت سالك سبيل المعتدين فإنّ ديّان يوم الدين إنّما يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم، وقد حذّرك الله فاحذر فإنّك لم تخلق عبثا ولن تترك سدى، وإنّ الله سائلك عمّا أنت فيه وعمّا عملت به، فانظر ما الجواب... واحذر أن تضيّع رعيّتك فيستوفي ربّها حقّها منك ويضيعك ـ بما أضعت ـ أجرك... وإنّ جور الراعي هلاك للرعيّة، واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامّة... وليس شيء أحبّ إلى الله من الصلاح، ولا أبغض إليه من الفساد، والعمل بالمعاصي كفر النّعم، وقلّ من كفر من قوم قطّ النعمة ثمّ لم يفزعوا إلى التوبة إلاّ سلبوا عزّهم وسلّط الله عليهم عدوّهم... وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته لك وبيّنته، فتفقّهه وتدبّره وردّد قراءته حتّى تحفظه، فإنّي قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك

والمسلمين نصحاً، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه، وإنّي لأرجو ـ إن عملت فيه من البيان ـ أن يوفّر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد، ويصلح لك رعيّتك، فإنّ صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم».

وأعقب هذه الموعظة البليغة بأحاديث وآثار حسنة فيها ترغيب وتحضيض.

ثمّ فصّل بعد ذلك القول في المسائل المتعلّقة بمباحث النظام المالي وتوسّع في استقصاء الأخبار والآراء والاستدلال عليها بما يهتدى به إلى أقوم الطرق في تدبير شؤون الدولة الماليّة.

وقد استند في بناء أرائه وتقرير أقواله على روايات رواها عن بعض شيوخه الكوفيين، وأخرى رواها عن بعض شيوخه من أهل المدينة، كما روى أيضاً عن بعض الشيوخ من أهل الشام ومن علماء البصرة، وأكثر رواياته كانت عن شيخه أبي حنيفة، ثمّ عن الأعمش فالحجّاج بن أرطأة فالقاضي ابن أبي ليلى، ولم يحدّث عن الإمام مالك بن أنس إلاّ في موطن واحد.

وروى عن أهل الأثر وأصحاب الحديث من أمثال سفيان بن عيينة وعبدالملك ابن جريج والليث بن سعد وابن أبي نجيح وهشام بن عروة ويحيى بن سعيد وأمثالهم في مواضع عديدة من كتابه.

وقد فاق عدد شيوخه الذين روى عنهم ما في هذا الكتاب من تشريع وأحكام وأخبار، المائة شيخ، وذلك لأنّ أبا يوسف كان أتبع أصحاب أبي حنيفة للحديث، فكان يكثر من نقل الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين، واستحقّ بذلك ثناء يحيى بن معين عليه وتوثيقه له.

وعموماً يعتبر كتاب الخراج لأبي يوسف أفضل أساس لنظام ماليّ عادل، وقد سار عليه هارون الرشيد، وكان من سيره عليه أن زادت ثروة

البلاد في ذلك العهد للدولة والأفراد حتّى أنّ بعض أخبار الثراء في ذلك العهد لا تكاد تصدّق(١).

- ٢ - كتاب الأمالي:

ذكره ابن النديم في الفهرست، واعتمده السرخسي في كتابه الأصول(٢)، والكتاب هو أمال أملاها أبو يوسف حين كان يجلس لإلقاء دروس العلم وحوله تلاميذه، فيتكلّم أبو يوسف بما يفتح الله عليه من العلم ويكتب التلاميذ عنه ذلك، ويجمعون ما كتبوه فتصير كتبا ويسمّون ذلك الإملاء والأمالي، وكذلك كان السلف من الفقهاء والمحدّثين وأهل العربيّة وغيرها في علومهم.

وقد روى أمالي أبي يوسف، تلميذه القاضي بشر بن الوليد الكندي، وقد احتوى كتاب الأمالي على ستّة وثلاثين كتاباً ممّا فرّعه أبو يوسف.

- ٣ - كتاب اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى:

جمع فيه أبو يوسف مسائل الخلاف بين أبي حنيفة وابن أبي ليلى، وانتصر فيه لآراء شيخه، وروى الكتاب عن أبي يوسف محمد بن الحسن، وأورد هذا الكتاب الإمام الشافعي في الأمّ، حيث أورد آراء أبي حنيفة وابن أبي ليلى وأبي يوسف ثمّ يرجّح بعد ذلك ما ظهر له منها، وربّما ذهب إلى رأي مغاير لما ذهب إليه هؤلاء.

وإليك من هذا الكتاب مثالين(٣):

أوّلهما من باب بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها، قال: إذا اشترى الرجل أرضا فيها نخل فيها حمل، فلم يذكر النخل ولا الحمل، فإنّ أبا

---

(١) السياسة الشرعيّة لعبدالوهاب خلاّف ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) الفهرست ص ٢٥٦، أصول السرخسي ٣٣٣/١، تاريخ التراث العربي ٥٤/٣.

(٣) الأم ٩٣/٧ - ٩٤، و١٠١.

حنيفة رضي الله تعالى عنه كان يقول: النخل للمشتري تبعاً للأرض، والثمرة للبائع إلاّ أن يشترط المشتري، بلغنا عن رسول الله ﷺ أنّه قال: **«من اشترى نخلاً مؤبّراً فثمرته للبائع، إلاّ أن يستثنيه المشتري»**، وبه يأخذ ـ يعني أبا يوسف ـ، وكان ابن أبي ليلى يقول: الثمرة للمشتري.

قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: وإذا اشترى الرجل أرضاً فيها نخل، وفي النخل ثمرة، فالثمرة للبائع إذا كان قد أبّر، وإن لم يؤبّر فهو للمشتري، والأرض بالنخل للمشتري.

والمثال الثاني من باب المزارعة، قال الشافعي: إذا أعطى الرجل أرضاً مزارعة بالنصف أو الثلث أو الربع، أو أعطى نخلاً أو شجراً معاملة بالنصف أو أقلّ من ذلك أو أكثر، فإنّ أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه كان يقول: هذا كلّه باطل لأنّه استأجر شيئاً مجهولاً، يقول: أرأيت لو لم يخرج من ذلك شيء، أليس كان عمله ذلك بغير أجر ؟، وكان ابن أبي ليلى يقول: ذلك كلّه جائز، بلغنا عن رسول الله ﷺ أنّه أعطى خيبر بالنصف، فكانت كذلك حتّى قبض، وخلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وعامّة خلافة عمر، وبه يأخذ ـ يعني أبا يوسف ـ، وإنّما القياس هذا عندنا مع الأثر، ألا ترى أنّ الرجل يعطي الرجل مالاً مضاربة بالنصف، ولا بأس بذلك، وقد بلغنا عن عمر بن الخطّاب وعن عبدالله بن مسعود وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهم أنّهم أعطوا مالاً مضاربة، وبلغنا عن سعد بن أبي وقّاص وعن ابن مسعود أنّهما كانا يعطيان أرضهما بالربع والثلث.

ـ ٤ ـ كتاب الردّ على سير الأوزاعي:

بيّن أبو يوسف في هذا الكتاب ما اختلف فيه أبو حنيفة والأوزاعي في مسائل تتعلّق بالجهاد، وانتصر في أغلبها لرأي شيخه، وأورد الشافعي هذا الكتاب في الأمّ، واستدرك على كلّ مسألة برأيه، وكان غالباً ما ينتصر للأوزاعي.

وإليك مثالاً اقتبسناه من مسائل تحت عنوان: حال المسلمين يقاتلون العدوّ وفيهم أطفالهم[١].

قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إذا حصر المسلمون عدوّهم فقام العدوّ على سورهم معهم أطفال المسلمين يتترّسون بهم، قال: يرمونهم بالنبل والمنجنيق يعمدون بذلك أهل الحرب ولا يتعمّدون بذلك أطفال المسلمين، وقال الأوزاعي: يكفّ المسلمون عن رميهم، فإن برز أحد منهم رموه، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ...﴾ حتّى فرغ من الآية، فكيف يرمي المسلمون من لا يرونه من المشركين؟.

قال أبو يوسف: تأوّل الأوزاعي هذه الآية في غير موضعها، ولو كان يحرم رمي المشركين وقتالهم إذا كان معهم أطفال المسلمين لحرّم ذلك أيضاً منهم إذا كان معهم أطفالهم ونساؤهم، فقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والأطفال والصبيان، وقد حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف وأهل خيبر وقريظة والنضير، وأجلب المسلمون عليهم فيما بلغنا أشدّ ما قدروا عليه، وبلغنا أنّه نصب على أهل الطائف المنجنيق، فلو كان يجب على المسلمين الكفّ عن المشركين إذا كان في ميدانهم الأطفال لنهى رسول الله ﷺ عن قتلهم لم يقاتلوا، لأنّ مدائنهم وحصونهم لا تخلو من الأطفال والنساء والشيخ الكبير والصغير والأسير والتاجر، وهذا من أمر الطائف وغيرها محفوظ مشهور من سنّة رسول الله ﷺ وسيرته، ثمّ لم يزل المسلمون والسلف الصالح من أصحاب محمد ﷺ في حصون الأعاجم قبلنا على ذلك، لم يبلغنا عن أحد منهم أنّه كفّ عن حصن برمي ولا غيره من القوّة لمكان النساء والصبيان، ولمكان من لا يحلّ قتله لمن ظهر منهم.

والكتاب عموماً هو صورة معبّرة ومثال حيّ عن منهج هؤلاء الأئمّة

---

(١) الأمّ ٣١٧/٧ ـ ٣١٨.

الأعلام وطريقتهم في استنباط الأحكام واستقراء المسائل والتخريج عليها ونقد الخصم.

ولأبي يوسف كتبا أخرى، وهي: كتاب الآثار وكتاب الأصول وكتاب اختلاف الأمصار وكتاب الردّ على مالك بن أنس وكتاب الجوامع ألّفه ليحيى بن خالد البرمكي يحتوي على أربعين كتاباً - فصلا - ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به، وكتاب أدب القاضي وكتاب الصلاة وكتاب الزكاة وكتاب الصيام وكتاب الفرائض وكتاب البيوع وكتاب الحدود وكتاب الوكالة وكتاب الوصايا وكتاب الصيد وكتاب الذبائح وكتاب الغصب وكتاب الاستبراء[(١)].

كتب محمد بن الحسن:

صنّف محمّد بن الحسن الشيباني الكتب الكثيرة والمفيدة في المذهب، وقد لاقت كتبه من العناية شرحاً وتعليقا ونظما واختصارا ما لم تلقه كتب غيره من الأقران والتلاميذ.

وأشهر كتبه ستّة وهي: المبسوط والجامع الصغير والجامع الكبير والزيادات والسير الكبير والسير الصغير، وتسمّى بالأصول أو بكتب ظاهر الرواية لأنّها رويت عن محمد بن الحسن برواية الثقات، فهي إمّا متواترة أو مشهورة عنه.

ثمّ تأتي كتبه التي لم ترق إلى منزلة كتب الصنف الأوّل، وهي التي تعرف بكتب مسائل النوادر أو غير ظاهر الرواية، وسمّيت بذلك لأنّها لم ترو عن محمد بن الحسن بروايات ظاهرة صحيحة ثابتة كالكتب الأولى، وهذه الكتب هي: الكيسانيات والهارونيات والجرجانيات والرقيات[(٢)].

---

(١) الفهرست ص ٢٥٦ - ٢٥٧، وفيات الأعيان ٣٧٨/٦، كشف الظنون ٤١٧/٦، تاريخ التراث العربي ٥٤/٣.

(٢) كشف الظنون ١٤١/١، و٢٥٩/٢ - ٢٦١.

كتب ظاهر الرواية:

- ١ - المبسوط[١]:

ويعرف أيضاً بكتاب الأصل سمّي به لأنّه أوّل كتبه تصنيفا، وقد أملاه محمد بن الحسن على أصحابه فكانت نسخ المبسوط المرويّة عن محمد بن الحسن متعدّدة، غير أنّ أظهرها مبسوط أبي سليمان الجوزجاني.

ألّفه مفردا، فألّف في بداية الأمر مسائل الصلاة وسمّاه كتاب الصلاة، ومسائل البيوع وسمّاه كتاب البيوع، وهكذا الإيمان والإكراه، ثمّ جمعت فصارت مبسوطا.

وقد روي أنّ الإمام الشافعي استحسنه وحفظه.

والمبسوط من أجل كتبه وأكبرها وأبسطها بل هو أطول كتب محمد بن الحسن وأغزرها مادة، حيث احتوى آلاف المسائل في مختلف الأبواب الفقهيّة، فيذكر المسألة ويفرّع عليها فروعا كثيرة حتّى قيل إن العالم إذا طالع كتاب المبسوط لمحمد بن الحسن يتحيّر من تبحّر مؤلّفه وتغلغله وتخريج المسائل الكثيرة.

ومنهجه في المبسوط: البدء بذكر الآثار في بداية كلّ كتاب ثمّ عرض المسائل المتعلّقة بها، وغالبا ما يختم كلّ كتاب بالتعرّض للمسائل التي اختلف فيها أبو حنيفة مع ابن أبي ليلى.

- ٢ - الجامع الصغير:

يشتمل هذا الكتاب على ألف وخمسمائة واثنتين وثلاثين مسألة كما قال البزدوي، وقد ذكر الاختلاف فيه في مائة وسبعين مسألة، ولم يذكر القياس والاستحسان إلاّ في مسألتين.

وأكثر مسائل الجامع الصغير مذكورة في المبسوط، ذكرها محمد بن الحسن غير مرتّبة.

---

(١) المبسوط، مقدّمة المحقّق ص ٦، كشف الظنون ١٤١/١، و٢٦١/٢، ٤٨٣.

وسبب تأليف محمد بن الحسن للجامع الصغير كان بطلب من أبي يوسف، وذلك أنّ محمد بن الحسن حين فرغ من تصنيف المبسوط أمره أبو يوسف أن يصنّف كتاباً يجمع فيه ما حفظ عنه ممّا رواه له عن أبي حنيفة فجمع ثمّ عرضه عليه، فكان أبو يوسف على جلالة قدره لا يفارق هذا الكتاب في حضر ولا سفر.

وعلماء الحنفيّة يعظّمون هذا الكتاب، ويقولون: من فهم هذا الكتاب فهو أفهم أصحابنا، ومن حفظه كان أحفظ أصحابنا، وكان المتقدّمون من مشائخ الحنفيّة يرون أنّ المرء لا يصلح للفتوى ولا للقضاء إلاّ إذا علم مسائله، وكانوا لا يقلّدون أحداً القضاء حتّى يمتحنوه، فإن حفظه قلّدوه القضاء وإلاّ أمروه بالحفظ.

وعلى الكتاب شروح كثيرة ومنظومات عديدة[١].

ـ ٣ ـ الجامع الكبير:

وهذا الكتاب كاسمه جامع كبير لجلائل مسائل الفقه، قد اشتمل على عيون الروايات ومتون الدرايات بحيث كاد أن يكون معجزا، ولتمام لطائف الفقه منجزا، وقد امتدّت أعناق ذوي التحقيق نحو تحقيقه واشتدّت رغباتهم في الاعتناء بشرحه وواختصاره وشرح مختصراته ونظمه.

وقيل الجامع الكبير هو أحسن الكتب المؤلّفة في الفقه، وأحسن أبوابه كتاب الإيمان[٢].

ـ ٤ ـ الزيادات:

سمّي به لأنّ محمد بن الحسن كان يختلف إلى أبي يوسف وكان يكتب من أماليه، فجرى على لسان أبي يوسف أنّ محمدا يشقّ عليه

---

(١) كشف الظنون ٤٤٣/١ ـ ٤٤٥، تاريخ التراث العربي ٦٧/٣ ـ ٧٠.

(٢) كشف الظنون ٤٤٨/١، تاريخ التراث العربي ٥٩/٣ ـ ٦٦.

تخريج هذه المسائل، فبلغه فبناه مفرّعاً على كلّ مسألة باباً وسمّاه الزيادات، أي زيادات على ما أملاه أبو يوسف.

وقيل إنّما سمّي به لأنّه لمّا فرغ من تصنيف الجامع الكبير تذكّر فروعا لم يذكرها في الجامع الكبير فصنّف هذا الكتاب تفريعاً على التفريعات المذكورة واستدرك فيه ما فاته في الجامع الكبير من المسائل، ثمّ تذكّر فروعا أخرى فجمعها وجعلها في مصنّف آخر سمّاه زيادات الزيادات وجعله في سبعة أبواب[١].

ـ ٥ و٦ ـ السّير الصغير والكبير:

صنّف محمد بن الحسن أوّل الأمر كتاب السّير الصغير فوقع بيد الأوزاعي، فقال: لمن هذا الكتاب؟ فقيل لمحمد العراقي، فقال: ما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب، فإنّه لا علم لهم بالسّير، فبلغ ذلك محمداً فصنّف عند ذلك السّير الكبير، فلمّا نظر فيه الأوزاعي قال: لولا ما ضمّنه من الأحاديث لقلت: إنّه يضع العلم من نفسه.

والسير الكبير هو آخر مصنّفات محمد بن الحسن، ولم يذكر اسم أبي يوسف في شيء منه لأنّ محمد بن الحسن كان قد كتبه بعد أن استحكمت النفرة بينهما، فكان كلّما احتاج إلى رواية عنه قال: أخبرني الثقة.

وقد حمل هذا الكتاب إلى الخليفة العبّاسي هارون الرشيد، فنظر فيه فأعجبه وعدّه من مفاخر أيّامه ثمّ بعث بولديه الأمين والمأمون إلى مجلس محمد بن الحسن ليستمعوا منه، وكان إسماعيل بن توبة المؤدّب يحضر معهم[٢].

---

(١) كشف الظنون ٢/١٥ ـ ١٦، تاريخ التراث العربي ٣/٥٧ ـ ٥٩.

(٢) كشف الظنون ٢/٥٣، تاريخ التراث العربي ٣/٧١ ـ ٧٢.

كتب غير ظاهر الرواية:

ـ ١ ـ الكيسانيات:

تعرف أيضاً بأمالي محمد بن الحسن، وسمّيت بالكيسانيات نسبة إلى سليمان بن سعيد الكيساني وهو الذي رواها عن محمد بن الحسن[١].

ـ ٢ ـ الجرجانيات:

وهي مسائل رواها عليّ بن صالح الجرجاني عن محمد بنِ الحسن، فسمّيت نسبة إلى راويها[٢].

ـ ٣ ـ الرقيات:

وهي مسائل جمعها محمد بن الحسن وفرّعها عندما كان قاضيا بالرقّة، فسمّيت لذلك بالرقيّات، وقد رواها عنه تلميذه محمد بن سماعة[٣].

ـ ٤ ـ الهارونيات:

وهي مسائل جمعها محمد بن الحسن لرجل اسمه هارون، فسمّيت تبعاً لذلك بالهارونيات.

وذكر لمحمد بن الحسن من الكتب إضافة إلى ذلك: كتاب الاحتجاج على مالك[٤]، وكتاب الآثار: وهو مختصر على ترتيب الفقه، ذكر فيه ما روي عن أبي حنيفة من الآثار[٥]، وكتاب الكسب، ومنه مختصر لتلميذه محمد بن سماعة[٦]، وكتاب الحجّة في اختلاف أهل الكوفة وأهل المدينة وذكر له عنوان آخر وهو: الحجج المبينة على أهل المدينة، ولعلّه أن يكون هو ذات الكتاب الذي ذكره ابن النديم بعنوان: كتاب الردّ

---

(١) كشف الظنون ٢/٤٤١، الفهرست ص ٢٥٨.
(٢) كشف الظنون ١/٤٥٨.
(٣) كشف الظنون ١/٦٨٠.
(٤) كشف الظنون ١/٧٧.
(٥) كشف الظنون ٢/٣٣٧، تاريخ التراث العربي ٣/٧١.
(٦) كشف الظنون ٢/٣٨٦، تاريخ التراث العربي ٣/٧٥.

على أهل المدينة، ويعتبرهذا التأليف أقدم كتاب وصل إلينا في مسائل الخلاف الفقهي[١]، وذكر له ابن النديم من الكتب أيضاً: كتاب اجتهاد الرأي وكتاب الاستحسان وغيرها، وقد أوصل عدّتها إلى سبع وستّين كتاباً[٢].

وذكر له من الكتب أيضاً: كتاب المخارج في الحيل عن أبي حنيفة برواية أبي يوسف[٣] غير أنّ أبا سليمان الجوزجاني قال: كذبوا على محمد، ليس له كتاب الحيل[٤].

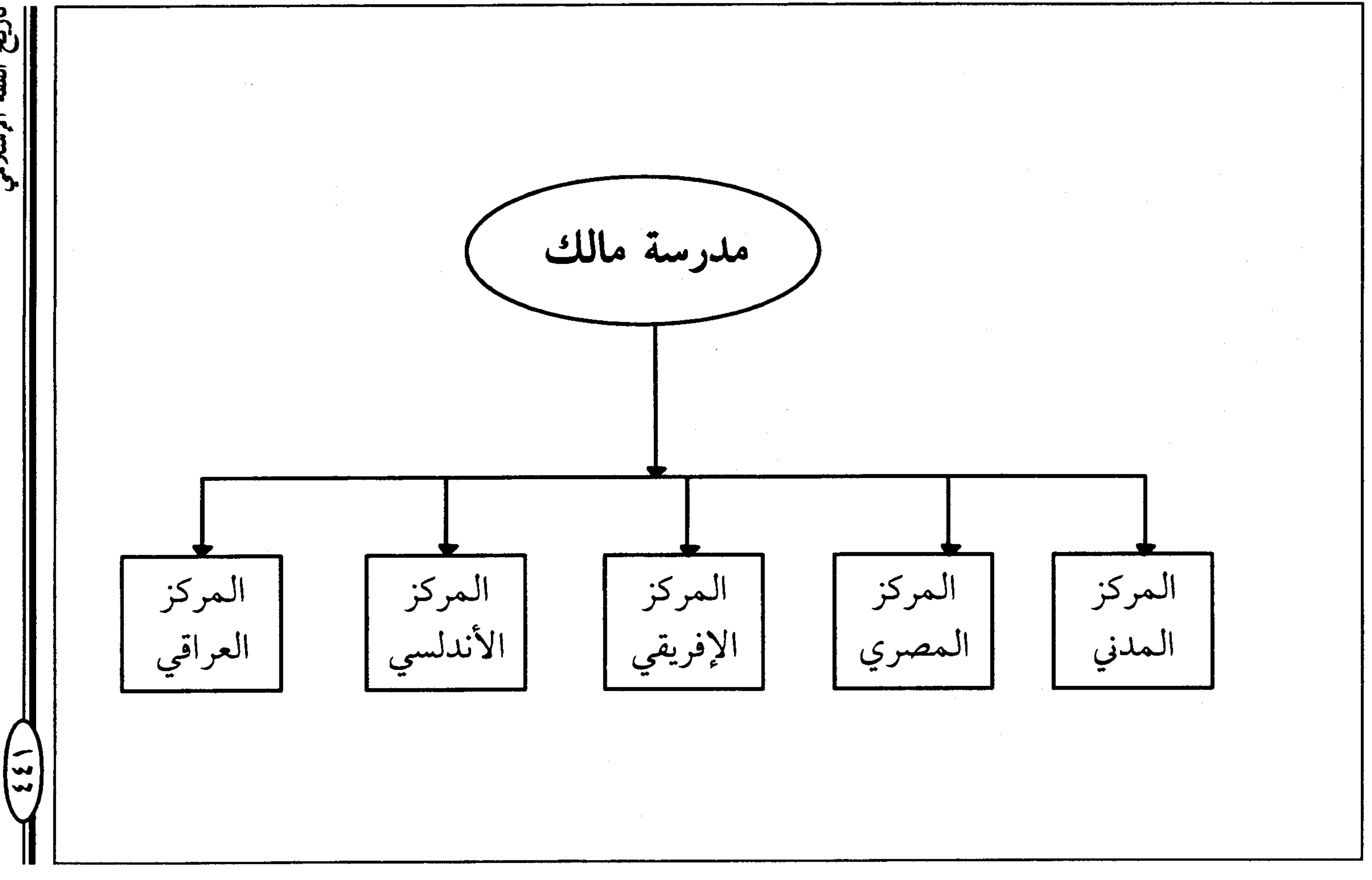
وأمّا زفر والحسن بن زياد فلم يكن لهما ما كان للصاحبين من الحظّ في ذلك، ولم تلق كتبهما من الاعتبار والاعتناء ما لاقته كتب أبي يوسف ومحمد بن الحسن.

ثمّ حذا أتباع هؤلاء وتلاميذهم حذوهم وشاركوهم التصنيف في المذهب وكتبوا في الفتاوى والواقعات وجمعوا المسائل التي استنبطوها ولم يجدوا فيها رواية عن أصحاب المذهب المتقدّمين عنهم، وربّما خالفوا شيوخهم من أصحاب المذهب كما خالف الأصحاب أبا حنيفة لدلائل ظهرت لهم.

فصنّف في النوادر كلّ من هشام بن عبيدالله ومحمد بن سماعة والمعلّى بن منصور وبشر بن الوليد ومحمد بن شجاع والجوزجاني[٥]، وصنّفوا في أبواب من الفقه مختلفة ـ كما مرّ أثناء ترجمتهم ـ.

---

(١) تاريخ التراث العربي ٣/٧٥، الفهرست ص ٢٥٨.
(٢) الفهرست ص ٢٥٨.
(٣) تاريخ التراث العربي ٣/٧٣.
(٤) كشف الظنون ٢/٣٥٩.
(٥) كشف الظنون ٢/٢٦٠ ـ ٢٦١.


مدرسة مالك
المركز المدني
المركز المصري
المركز الإفريقي
المركز الأندلسي
المركز العراقي

لقد كان المذهب المالكي مذهباً انتشاريًّا، تعددّت مراكزه بين مصر والعراق وإفريقية والأندلس إضافة إلى مركزه الأصلي الذي هو الحجاز، وكان في جميع تلك المراكز مهيمناً لا يكاد ينازعه غيره من المذاهب الموجودة آنذاك، إلاّ ما كان من المركز العراقي مهد المذهب الحنفي ومرتعه الأصلي.

وقد بدأ انتشار المذهب المالكي بادىء الأمر في حياة مؤسّسه، ثمّ توسّعت قاعدته توسّعاً كبيراً، عرفت خلالها مراكزه نوعاً من الاختلاف في الفتوى والاجتهاد داخل المذهب ـ بحكم ما عرف به الإمام مالك من مراجعة مستمرّة لأقواله وإعادة نظر متواصلة لاجتهاداته وفتاويه ـ.

فكان من أهل المدينة:

* المغيرة بن عبدالرحمٰن المخزومي (١٢٤هـ ـ ١٨٦هـ) فقيه المدينة بعد مالك، وقد كان للإمام مالك مجلس كالدكة يقعد فيه وإلى جانبه المخزوميّ لا يجلس فيه سواه(١).

* وعبدالعزيز بن أبي حازم (١٠٧هـ ـ ١٨٥هـ) وكان إمام الناس في العلم بعد مالك، ولم يكن بالمدينة بعد مالك أفقه منه، وكان يذهب مذهب مالك(٢).

* ومحمد بن إبراهيم بن دينار (١٨٢هـ) وكان له بالعلم رواية وعناية، وكان من فقهاء المدينة زمان مالك، وكان من قدماء أصحاب مالك وكبارهم، شركه في بعض رجاله ودرس معه على ابن هرمز، وما رئي في أصحاب مالك من المدنيين أفقه منه، وكان يفتي بما يعلم من مذهب

---

(١) ترتيب المدارك ١٨٢/١ ـ ١٨٣، الديباج المذهب ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٦.

(٢) ترتيب المدارك ٢٨٦/١ ـ ٢٨٨، الديباج ص ٢٥٩ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٦.

مالك، وكان هو والمغيرة أفقه أهل المدينة(١).

وكان مدار الفتوى في زمان مالك وبعده على هؤلاء الثلاثة.

* وسليمان بن بلال (١٧٦هـ) أحد ثقات أهل المدينة، شارك مالكاً في كثير من رجاله، وكان من أجلّ أصحابه وأخصّهم به، وهو أوّل من جلس مع الإمام مالك حين انعزل عن مجلس ربيعة وجعل لنفسه مجلساً(٢).

* عبدالعزيز بن محمد بن عبيد الدراوردي (١٨٦هـ) صحب مالكاً وغلب عليه الحديث، وكان يذهب مذهب مالك وعدّ من خير فقهاء المدينة بعد مالك(٣).

* وعثمان بن عيسى بن كنانة (١٨٦هـ) أخذ عن مالك وكان يجلس عن يمين مالك لا يفارقه، وغلب عليه الرأي، فكان مالك يحضره لمناظرة أبي يوسف عند الرشيد، وهو الذي جلس في حلقة مالك بعد وفاته، ولم يكن عند مالك أضبط ولا أدرس من ابن كنانة، وكان ممّن يخصّه مالك بالإذن عند اجتماع الناس على بابه(٤).

والملاحظ أنّ هؤلاء الأعلام كانوا يقاربون مالكاً في السنّ حتّى أنّ بعضهم قد شاركه في التلقّي عن بعض شيوخه، ورغم أنّ مدار الفتوى قد كانت عليهم منذ حياة مالك إلاّ أنّ الجميع كانوا يسلّمون لمالك بالزعامة والإمامة ويذهبون مذهبه، وممّا يروى في ذلك أنّ رجلاً جاء إلى مالك إثر صلاة الصبح، وكان مالك لا يتكلّم حتّى تطلع الشمس، فجلس الرجل ما شاء الله ثمّ قام ليذهب، فقال له ابن دينار: ما شأنك؟ فأخبره، فأفتاه ابن دينار، فلمّا فرغ مالك قال لابن دينار: يا محمد تفتي؟ فقال:

---

(١) ترتيب المدارك ٢٩١/١ ـ ٢٩٢ الديباج ص ٣٢٦ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٦.

(٢) ترتيب المدارك ٢٩٧/١ ـ ٢٩٨، الديباج المذهب ص ١٩٥.

(٣) ترتيب المدارك ٢٨٨/١ ـ ٢٩٠.

(٤) ترتيب المدارك ٢٩٢/١ ـ ٢٩٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

أصلحك الله لم يطمع الرجل فيك وقام ليذهب، فخشيت أن يذهب بحاله فأفتيته بما أعلم من مذهبك[١]، وحتّى من كانت بينه وبين مالك معارضة أوّل الأمر كما هو الحال بالنسبة للمغيرة المخزومي فقد سلّم له بعد ذلك بالرئاسة وجالسه[٢] فكانوا جميعاً يرجعون إلى قوله ويفتون برأيه، ويلتزمون مذهبه.

وقد غلب على بعضهم الحديث والرواية حتى قيل في شأن الدراوردي: هو صاحب حديث وليس صاحب فتوى.

والملاحظ أيضاً أنّ هؤلاء الأصحاب لم يعمّروا بعد شيخهم طويلاً فأغلبهم لم يبق بعد مالك سوى سبع سنوات على أقصى تقدير، فهيّأ الله للمدينة ثلّة من الأعلام قاموا مقامهم وكانوا قد تلقّوا عنهم، كما تلقّوا عن مالك ونظرائه، فكان تكوينهم مشتركاً بين الإمام وعلية أصحابه، وأشهر هؤلاء هم:

ـ ١ ـ عبدالله بن نافع الصائغ:

هو أبو محمد عبدالله بن نافع[٣]، وكان أبوه صائغا فعرف بالصائغ، صحب الإمام مالك أربعين سنة ولزمه لزوما شديدا وتفقّه به ونظرائه، وما كتب عنه شيئاً وإنّما كان يحفظ ما يسمعه منه، وفي ذلك يقول أشهب: ما حضرت لمالك مجلساً إلاّ وابن نافع حاضر، وما سمعت إلاّ وقد سمع، لكنّه كان لا يكتب.

وكان ابن نافع صاحب رأي مالك ومفتي أهل المدينة برأي مالك، وهو الذي سمع منه سحنون وكبار أتباع أصحاب مالك، والذي سماعه

(١) ترتيب المدارك ٢٩١/١ ـ ٢٩٢.

(٢) نفس المصدر ٢٨٣/١.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٧ ـ ترتيب المدارك ٣٥٦/١ ـ ٣٥٨ الديباج المذهب ص ٢١٣ شجرة النور الزكية ص ٥٥ ـ ٥٦، شذرات الذهب ٩١/٢، طبقات ابن سعد ٤٣٨/٥، تهذيب التهذيب ٥١/٦ ـ ٥٢.

مقرون بأشهب في العتبيّة، وروايته في المدوّنة نفيسة، وكان قد جلس مجلس مالك بعد عثمان بن عيسى بن كنانة، وعدّه ابن حبيب وابن حارث فيمن خلف مالكاً في الفقه بالمدينة، وكانت وفاته بالمدينة سنة ١٨٦هـ وذكره صاحب شذرات الذهب في وفيات سنة ٢٠٦هـ.

له تفسير في الموطّأ رواه عنه يحيى بن يحيى.

ـ ٢ ـ عبدالملك بن الماجشون:

هو أبو مروان عبدالملك بن عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون[1] تفقّه بأبيه عبدالعزيز وبمالك وابن أبي حازم وابن دينار والمغيرة وغيرهم.

كان من الفقهاء المبرزين ومفتي أهل المدينة في عصره وعليه دارت الفتيا في زمانه، وعلى أبيه من قبله، فهو فقيه ابن فقيه، وكان إذا ناظر الشافعي لم يعرف الناس كثيراً ممّا يقولون لفصاحتهما.

تفقّه به خلق كثير وأئمّة جلّة كابن المعذّل وابن حبيب وسحنون.

وكان صاحب اتّباع وأثر، فقد روي أنّ سحنونا كتب إليه يذكر ما حدث عندهم من الكلام في التشبيه والقرآن، ويسأله الجواب عليه، فكتب إليه عبدالملك: من عبدالله بن الماجشون إلى سحنون بن سعيد، سلام عليكم فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد وفّقنا الله وإيّاكم لطاعته، سألتني عن مسائل ليست من شأن أهل العلم والعمل بها جهل، فيكفيك من مضى من صدر هذه الأمّة أنّهم اتّبعوا بإحسان ولم يخوضوا في شيء منها، وقد خلص الدين إلى العذراء في خدرها، فما قيل لها كيف ولا من أين؟ فاتّبع لما اتّبعوا واعلم أنّه العلم الأعظم الذي لا يشاء الرجل أن يتكلّم في شيء من هذا، فيكبّ فيهوى في نار جهنّم.

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٨، الفهرست ص ٢٥١، ترتيب المدارك ٣٦٠/١ ـ ٣٦٥، الديباج المذهب ص ٢٥١ ـ ٢٥٢، شجرة النور الزكية ص ٥٦، وفيات الأعيان ١٦٦/٣ ـ ١٦٧.

وكانت وفاته سنة ٢١٢هـ وقيل ٢١٤هـ، وقد جاوز الستّين سنة.

له كتاب سماعاته، وكتب ألّفه في فروع الفقه المالكي يرويه عنه يحيى بن حمّاد السجلماني.

ـ ٣ ـ مطرف بن عبدالله:

هو أبو مصعب مطرف بن عبدالله بن مطرف بن سليمان بن يسار[(١)] ابن أخت مالك، تفقّه بمالك وعبدالعزيز بن الماجشون وابن أبي حازم وابن دينار وابن كنانة والمغيرة.

صحب الإمام مالك سبع عشرة سنة وكان مقدّماً على أصحابه، وكان ممّن امتحن في مسألة خلق القرآن أيّام المأمون العباسي.

توفّي بالمدينة سنة ٢٢٠هـ.

ـ ٤ ـ معن بن عيسى:

هو أبو يحيى معن ـ وقيل معين ـ بن عيسى بن يحيى بن دينار القزّاز[(٢)] ربيب مالك ومن كبار أصحابه وأوثقهم وأثبتهم فيه.

كان أشدّ الناس ملازمة لمالك، وكان مالك يتّكىء عليه عند خروجه إلى المسجد حتى قيل له عصيّة مالك، وهو الذي قرأ عليه الموطّأ للرشيد وابنيه، وكان يتوسّد عتبة مالك فلا يلفظ بشيء إلاّ كتبه، قال علي بن المديني: أخرج إلينا معن أربعين ألف مسألة سمعها من مالك.

وقد ذكر الترمذي في جامعه الصحيح كثيراً من سماعات معن بن عيسى وروايته عن مالك.

وكانت وفاته سنة ١٩٨هـ.

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٧ ترتيب المدارك ٣٥٨/١ ـ ٣٦٠، الديباج ص ٤٢٤.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٨، ترتيب المدارك ٣٦٧/١ ـ ٣٦٩، الديباج ص ٤٢٦، شذرات الذهب ٥٩/٢، تذكرة الحفاظ ٣٣٢/١.

ـ ٥ ـ عبدالله إسماعيل بن أويس:

هو أبو عبدالله عبدالله بن عبدالله بن أبي أويس بن أبي عامر الأصبحي[١] ابن عمّ مالك وابن أخته وزوج ابنته.

جالس خاله مالكاً ٢١ سنة، من سنة ١٥٨هـ إلى أن مات، وقد روى عن مالك حديثاً كثيراً وفقهاً غزيراً وسمع منه الناس بالحجاز والعراق، وكانت وفاته سنة ٢٢٦هـ.

ـ ٦ ـ حبيب بن أبي حبيب:

هو مدني انتقل إلى مصر، وقد عدّه البعض في أعلام المصريين لأنّه توفّي بها، كان كاتب مالك وقارئه، وبقراءته سمع الناس الموطّأ.

روى عن مالك الموطّأ والفقه وكثيراً من الحديث، وكانت وفاته بمصر سنة ٢١٨هـ[٢].

ـ ٧ ـ أبو مصعب أحمد بن أبي بكر:

هو أبو مصعب أحمد بن أبي بكر القاسم بن الحارث الزهري[٣] فقيه أهل المدينة غير مدافع وقاضيها، روى عن مالك وتفقّه بأصحابه المغيرة وابن دينار والدراوردي وغيرهم، وكان يميل إلى الرأي، ولّي قضاء الكوفة ثمّ ولّي قضاء المدينة.

روي أنّه قال لأهل المدينة: لا تزالون ظاهرين على أهل العراق ما دمت لكم حيًّا.

له كتاب المختصر في الفقه مشهور، وروايته لموطّأ مالك فيها زيادة

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٩ ترتيب المدارك ٣٦٩/١ ـ ٣٧٠.

(٢) ترتيب المدارك ٣٧٨/١ ـ ٣٧٩.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٩ ترتيب المدارك ٥١١/٢ ـ ٥١٣ الديباج المذهب ص ٨٣، شذرات الذهب ٢٢٩/٢، تهذيب التهذيب ٢٠/١، تذكرة الحفاظ ٤٨٢/٢.

مائة حديث على رواية يحيى بن بكير، وكانت وفاته بالمدينة سنة ٢٤٢هـ، وقد جاوز التسعين.

وكان من أهل مصر العدد الوفير من الذين نشروا مذهبه، من أشهرهم:

* **عثمان بن عبدالحكم الجذامي** (١٦٣هـ) كانت له روايات مشهورة عن مالك، وله عنه نحو سبعة عشر حديثاً، وهو أوّل من أدخل علم مالك إلى مصر[(١)].

* **وعبدالرحيم بن خالد الإسكندراني** (١١٠هـ - ١٦٣هـ) كان من أقران ابن أبي حازم ومن نظرائه، روى عن مالك الموطّأ، وكان مالك يعجب به، قدم مصر بمسائل مالك فتفقّه به عبدالرحمٰن بن القاسم قبل أن يرحل إلى مالك[(٢)].

* **وسعد بن عبدالله المعافري** (١٧٣هـ) من أقران عبدالرحيم ومن كبراء أصحاب مالك من المصريين به تفقّه عبدالله بن وهب وابن القاسم، حتّى قال ابن القاسم: ما خرجت إلى مالك إلاّ وأنا عالم بقوله، وكان سعد قد أعان ابن وهب على تآليفه[(٣)].

* **وطليب بن كامل اللخمي** (١٧٣هـ) من كبار أصحاب مالك وجلسائه، وبه وبعبدالرحيم وبسعد تفقّه ابن القاسم قبل رحلته إلى مالك، وكانوا عنده أوثق أصحاب مالك[(٤)].

والملاحظ أنّ جميع هؤلاء الأعلام قد ماتوا قبل مالك، ورغم تقدّم وفاتهم إلاّ أنّهم قد هيّؤوا المركز المصري تهيئة كاملة تامّة، حتّى أصبح

---

(١) ترتيب المدارك ٣٠٩/١ - ٣١٠ الديباج المذهب ص ٢٨٧.

(٢) ترتيب المدارك ٣١٠/١ - ٣١١ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٩.

(٣) ترتيب المدارك ٣١١/١ - ٣١٢ الديباج ص ٢٠٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٠.

(٤) ترتيب المدارك ٣١٤/١ الديباج المذهب ص ٢١١.

بعد وفاة مالك المركز الأهمّ للمذهب من حيث العدد الأوفر والأكبر قيمة من أصحاب مالك، وقد روي أنّ سعداً المعافري كان قد أعان ابن وهب على تآليفه، وأنّ ابن القاسم ما خرج من مصر قاصداً الإمام مالك إلاّ وهو عالم بقوله مستوعب لآرائه[1].

فنشأ بمصر أعلام قصدوا الرحلة إلى مالك واشتهروا بطول ملازمته وكثرة الرواية عنه حتّى عدّوا مشائخ المذهب وكبراء أهله، أشهرهم أربعة، وهم:

ـ ١ ـ عبدالرحمٰن بن القاسم:

هو أبو عبدالله عبدالرحمٰن بن القاسم العتقي[2]، ولد بمصر سنة ١٢٨هـ وقيل ١٣٢هـ، تفقّه بمالك وبنظرائه، فروى عن الليث بن سعد وعبدالعزيز بن الماجشون ومسلم بن خالد الزنجي وابن الدراوردي وابن أبي حازم وعثمان بن عبدالحكم الجذامي وعبدالرحيم بن خالد الإسكندراني وسعد بن عبدالله المعافري وغيرهم.

ولم يخرج لمالك حتى سمع من المصريين، وفي ذلك يقول ابن القاسم: ما خرجت إلى مالك إلاّ وأنا عالم بقوله.

أنفق أموالاً كثيرة في طلب العلم وصحب مالكاً عشرين سنة سأله فيها عن دقائق الفقه، حتى أصبح راوية المسائل عن مالك واشتهر بالاختصاص في فقهه وطول صحبته له وحسن العناية بمتابعته بحيث لم يخلط به غيره، مع ما كان فيه من الفهم والعلم والورع فكان أفقه الناس وأعلمهم بعلم مالك والتفريع على أصوله، ولم يرو عن مالك أحد الموطّأ

(١) ترتيب المدارك ٣١١/١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٠ كشف الظنون ٧٢٤/٢، ٤١٧/٥، الفهرست ص ٢٥١ ترتيب المدارك ٤٣٣/٢ ـ ٤٤٧، الديباج المذهب ص ٢٣٩ ـ ٢٤١، شذرات الذهب ٢٦/٢ شجرة النور الزكيّة ص ٥٨ تهذيب التهذيب ٢٥٢/٦ ـ ٢٥٤، وفيات الأعيان ١٢٩/٣، تذكرة الحفاظ ٣٥٦/١.

أثبت منه، يقول ابن القاسم: أنخت بباب مالك سبع عشرة سنة ما بعت فيها ولا اشتريت شيئاً.

وكان عنده ثلاثمائة جلد عن مالك من المسائل أو نحوها، سأله عنها أسد.

وكان على درجة كبيرة من الفضل والزهد وصحّة الرواية وحسن الدراية وحسن الحديث حتى قال فيه الإمام مالك: مثله كمثل جراب مملوء مسكا، وكانت وفاة ابن القاسم بمصر سنة ١٩١هـ.

ـ ٢ ـ عبدالله بن وهب:

هو أبو محمد عبدالله بن وهب بن مسلم الفهري القرشي(١)، ولد بمصر سنة ١٢٥هـ، طلب العلم وهو ابن ستّ عشرة سنة، وروى عن الإمام مالك والليث بن سعد وابن أبي ذئب وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وابن جريج وبلغ عدد من روى عنهم نحو أربعمائة شيخ من المصريين والحجازيين والعراقيين.

وتفقّه بمالك وعبدالملك بن الماجشون وابن أبي حازم ومحمد بن دينار والمغيرة بن عبدالرحمٰن المخزوميّ.

وسمع من مالك قبل ابن القاسم ببضع عشرة سنة، وكان أسنّ من ابن القاسم بثلاث سنين، ودرس على مالك منذ سنة ١٤٨هـ ولم يزل في صحبته إلى أن توفّي مالك، وروى عن مالك كتبه وسننه وموطّأه، وكان الإمام مالك حين يكتب إليه يلقّبه بفقيه مصر، ولم يكن يفعل ذلك لغيره، فكان يكتب إليه: «عبدالله بن وهب فقيه مصر» و: «إلى أبي محمد

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٠ الفهرست ص ٢٥١ ترتيب المدارك ٤٢١/٢ ـ ٤٣٣، الديباج المذهب ص ٢١٤ ـ ٢١٧ شذرات الذهب ٥٠/٢ ـ ٥١ تاريخ التراث العربي ١٤٤/٣ ـ ١٤٥ مرآة الجنان ٤٦١/١ شجرة النور الزكيّة ص ٥٨ ـ ٥٩ كشف الظنون ٧٢٤/٢، ٣٥٩/٥ ـ ٣٦٠ طبقات ابن سعد ٥٠٨/٧ تهذيب التهذيب ٧١/٦ وفيات الأعيان ٣٦/٣ ـ ٣٧ طبقات القرّاء ٤٦٣/١، تذكرة الحفاظ ٣٠٤/١ ـ ٣٠٦.

المفتي»، وكان مالك يشهد له بالعلم والإمامة فيقول: ابن وهب إمام عالم.

وكان ابن دينار والمغيرة المخزومي وكبار أصحاب مالك من أهل المدينة إذا شكّوا في شيء من رأي مالك ـ وذلك بعد موته ـ أو اختلفوا في قول من أقواله انتظروا قدوم ابن وهب فيصدرون عن رأيه، وربّما كتبوا إليه فيأتيهم جوابه.

كان مقدّماً في كثرة العلم والمسائل، ولم يكن مالك يتكلّم بشيء إلاّ كتبه ابن وهب، وكان أفقه من ابن القاسم وأثبت الناس في مالك، وأعلم أصحاب مالك بالسنن والآثار، غير أنّه كان يتساهل في المشائخ والأخذ عنهم تساهلا شديدا، ولأجل ذلك كان الإمام مالك يقول عنه: أيّ فتى ابن وهب لولا الإكثار.

جمع ابن وهب الفقه والرواية والعبادة فكان إماماً ورزق من العلماء محبّة وحظوة من مالك وغيره، وكان يسمّى ديوان العلم.

كان قد جمع مائة ألف حديث حتى صارمحدّث بلده في عصره، وكان علمه المناسك وعلم ابن القاسم البيوع، وكان كثير الحجّ، فقد روي أنّه حجّ أربعا وعشرين حجّة لقي فيها مالكاً.

طلب لقضاء مصر فاستخفى سنة وأشهرا، وقال في ذلك: بينما أنا أرجو أن أحشر في زمرة العلماء أحشر في زمرة القضاة ؟.

وكانت وفاته بمصر سنة ١٩٧هـ، وسبب موته أنّه قرىء عليه كتاب الأهوال من جامعه الذي كان يرويه، فأخذ في البكاء واستمرّ القارىء يقرأ وابن وهب ينشج رافعا صوته، فلم يزل كذلك حتى مال على الحائط الذي كان مستندا إليه ثمّ أغمي عليه فحمل إلى منزله ولم يعد يعقل شيئاً حتى قضى نحبه.

صنّف تآليف كثيرة حسنة عظيمة المنفعة، منها سماعه من مالك: ثلاثون كتاباً، والموطّأ الكبير الذي يكاد أن يكون أهمّ مصدر للمدوّنة، والموطّأ الصغير، وكتاب الجامع في الحديث، الذي وجد غير كامل حديثاً

بمدينة «إدفو» وهو مكتوب على ورق البردي، وكتاب التفسير برواية يونس بن عبدالعلاء وكتاب البيعة وكتاب المناسك وكتاب المغازي والمجالسات عن مالك.

ـ ٣ ـ أشهب بن عبدالعزيز:

هو أبو عمرو أشهب بن عبدالعزيز القيسي المعارفي[١] روى عن مالك والليث بن سعد وسليمان بن بلال وابن لهيعة والدراوردي، وتفقّه بمالك والمدنيين والمصريين وقرأ على نافع، وإليه انتهت الرئاسة بمصر بعد وفاة ابن القاسم.

كان أشهب فقيهاً نبيها حسن النظر من المالكيين المحقّقين، وكان مهيبا، وما كان أحد يناظر أشهب إلاّ اضطرّه بالحجّة حتى يرجع إلى قوله.

وكان أشهب والشافعي يتصاحبان بمصر ويتذاكران الفقه، وكان ما بينهما متقاربا، في حين كانت المنافسة بينه وبين ابن القاسم، فكانا ـ كما قال فيهما سحنون ـ كفرسي رهان ربّما وفّق هذا وخذل هذا، وربّما خذل هذا ووفّق هذا، ولقد كان يأتي حلقة ابن القاسم فيتكلّم في أصول العلم ويفسّر ويحتجّ، وابن القاسم ساكت ما يردّ عليه حرفاً.

وفي الوقت الذي كان ابن القاسم يعتدّ بآراء شيخه مالك ويجعلها أساسا لفتواه وأصلا لها، نرى أشهب يتحرّر من كلّ قيد عدا قيد الحجّة والبرهان، وممّا يروى في ذلك أنّ أشهبا جلس يوماً بمكّة إلى ابن القاسم فسأله رجل عن مسألة، فتكلّم فيها ابن القاسم فصعّر له أشهب وجهه، وقال: ليس هو كذلك، ثمّ أخذ يفسّرها ويحتجّ فيها، فقال له ابن القاسم:

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٠ ترتيب المدارك ٤٤٧/٢ ـ ٤٥٣ الديباج المذهب ص ١٦٢ ـ الفهرست ص ٢٥٢ تاريخ التراث العربي ١٤٥/٣ شذرات الذهب ٨٣/٢ شجرة النور الزكيّة ص ٥٩ وفيات الأعيان ٢٣٨/١ ـ ٢٣٩ تهذيب التهذيب ٣٥٩/١ ـ ٣٦٠.

الشيخ يقوله عفاك الله ـ يعني مالكاً ـ فقال أشهب: لو قاله ستّين مرّة، فلم يرادّه ابن القاسم.

ولمّا قرأ أسد بن الفرات على ابن القاسم الأسديّة وضع أشهب يده في مثلها فخالفه في جلّها، وهي المعروفة بمدوّنة أشهب، وبكتب أشهب ـ وقد صفها القاضي عياض بأنّها كتاب جليل كبير كثير العلم ـ فقيل لابن القاسم: يا أبا عبدالله لو أعدت نظرك في هذه الكتب فإنّ صاحبك قد خالفك، فما لاءمك عليه أقررته وما خالفك فيه أعدت النظر فيه، فقال: أفعل إن شاء الله، ثمّ بدا له غير ذلك وقال: لقد وجدت إجابتي يوم أجبت للّه وحده فرجوت أن أوفّق، وإجابتي اليوم إنّما تكون نقضا على صاحبي فأخاف أن لا أوفّق في الأمر فتركته.

ولأجل ما كان بين أشهب وابن القاسم من اختلاف في الرواية كان ابن القاسم يقول: كأنّي كنت أنا وأشهب نختلف إلى عالمين مختلفين.

وقد صنّف يحيى بن عمر (٢٨٩هـ) كتاباً سمّاه اختلاف ابن القاسم وأشهب جمع فيه ما اختلف فيه الفقيهان المصريان.

ويقال أنّ رجلين من أهل الأندلس قد مشيا بين ابن القاسم وأشهب حتى أفسدوا ما بينهما، فحلف أشهب بالمشي إلى مكّة أن لا يكلّم ابن القاسم، ثمّ ندم وأراد أن يمشي تكفيرا عن يمينه، فلمّا سمع بذلك ابن القاسم قال: هو يحنّث نفسه ويمشي وأمشي معه فمشيا جميعا وحجّا وعيسى بن دينار معهما.

ورغم ما كان بينهما في ظاهر الأمر من تباعد فإنّ ذلك لم يمنعهما من قول الحقّ والإنصاف، فقد ذكر سحنون أنّ ابن القاسم قد قال له: إن كنت مبتغيا هذا العلم بعدي فابتغه عند أشهب.

وبالمثل، فحين سئل أشهب عن ابن وهب وابن القاسم قال: لو قطعت رجل ابن القاسم لكانت أفقه من ابن وهب.

وممّا أثر عنه من أقوال، قوله: إنّما الورع في المشتبهات وأمّا الكبائر فكلّ أحد يتّقيها.

توفّي بمصر سنة ٢٠٤هـ بعد الشافعي بشهر، ودفن قبالة ابن القاسم.

عدد كتب سماعه عشرون كتاباً له كتاب في الفقه رواه عنه سعيد بن حسّان الصائغ، وله كتاب اختلاف في القسامة وكتاب الحجّ برواية سحنون، وقد انتشرت مؤلفات أشهب بالخصوص في قرطبة إذ أن أبا عثمان سعيد بن حسّان الصائغ مولى الأمير الحكم بن هشام كان من فقهاء قرطبة وكان راويا لكتب أشهب ودرس في رحلته المشرقيّة التي استمرّت من سنة ١٧٧هـ ـ تاريخ بداية الرحلة ـ إلى سنة ٢٠٤هـ ـ تاريخ عودته إلى الأندلس ـ درس بصفة خاصّة على أشهب وكان الأغلب على سعيد حفظ رأي أشهب وفقهه.

ـ ٤ ـ عبدالله بن عبدالحكم:

هو أبو محمد عبدالله بن عبدالحكم بن أعين[1] كان متحقّقاً بمذهب مالك، وممّن عقد على مذهبه وفرّع على أصوله، وهو أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله، أفضت إليه الرئاسة بعد أشهب.

سمع مالكاً والليث بن سعد وابن لهيعة وابن عيينة وغيرهم، وله سماع من مالك الموطّأ ونحو ثلاثة أجزاء، كما روى عن بن وهب وابن القاسم وأشهب كثيراً، صنّف كتاباً اختصر فيه أسمعته ثمّ اختصر منه كتاباً صغيراً وعلى هذين الكتابين مع غيرهما نقول المالكيين من البغداديين في المدارسة.

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥١ ترتيب المدارك ٥٢٣/٢ ـ ٥٢٨ الديباج المذهب ص ٢١٧ ـ ٢١٨، الفهرست ص ٢٥١ تاريخ التراث العربي ١٤٧/٣ شذرات الذهب ١٢٣/٢ شجرة النور الزكيّة ص ٥٩ البداية والنهاية ٢٦٩/١٠ كشف الظنون ٣٦٠/٥ تهذيب التهذيب ٢٨٩/٥ ـ ٢٩٠ وفيات الأعيان ٣٤/٣ ـ ٣٥ طبقات ابن السبكي ٢٨٣/٢.

وكان ابن عبدالحكم صديقا للشافعي وعليه نزل حين جاء من بغداد، فأكرم مثواه وبالغ الغاية في برّه، يقال: إنّه دفع للشافعي عند قدومه ألف دينار وأخذ له من تاجر ألفا، ومن رجلين آخرين ألفا، وعنده مات وقد روى عن الشافعي وكتب كتبه لنفسه وابنه.

وكان ابن عبدالحكم ممّن امتحن في مسألة خلق القرآن وضرب بالسياط في مسجد مصر أيّام المأمون العباسيّ، وكانت وفاته سنة ٢١٤هـ، ودفن إلى جانب الإمام الشافعي.

*** من مؤلّفاته:**

المختصر الكبير الذي يعتبر مصدرا من مصادر الفقه المالكي ومرجعا أساسيّا عند مالكيّة العراق، يقال إنّه نحا به اختصار كتب أشهب، وقد بلغت مسائله ١٨٠٠٠ مسألة، والمختصر الأوسط وهو صنفان، فالذي في رواية القراطيسي فيه زيادة الآثار خلاف الذي في رواية ابنه محمد وسعيد بن حسّان، وقد بلغت مسائله ٤٠٠٠ مسألة.

والمختصر الأصغر قصره على علم الموطّأ، وقد بلغت مسائله ١٢٠٠ مسألة، وقد اعتنى العلماء بمختصراته ما لم يعتن بكتاب من كتب المذهب بعد الموطّأ والمدوّنة، ومن أهمّ شروح المختصر الكبير شرح أبي بكر الأبهري الذي نقل مسائل المختصر نقلاً نصّيا وعقّب عليها بشرح تفصيلي.

ولابن عبدالحكم كذلك روايته لمسائل مالك وأجوبتها التي سمعها هو وعبدالله بن وهب وعبدالرحمٰن ابن القاسم، وله أيضاً كتاب الأهوال وكتاب القضاء في البنيان وكتاب المناسك.

وكان في زمن هؤلاء الأعلام الأربعة بمصر أيضاً:

- أبو نعيم إسحاق بن الفرات بن الجعد (٢٠٥هـ) من أكابر أصحاب مالك، وقد لقي أبا يوسف الحنفي وأخذ عنه، ولِّي سنة ١٨٤هـ قضاء مصر، وكان الإمام الشافعي يجلّه ويعرف فضله ويقول: ما رأيت بمصر أعلم باختلاف الناس من إسحاق بن الفرات، وهو الذي أشار على بعض

الولاة أن يولّيه القضاء وزكّاه عنده وقال فيه: إنّه يتخيّر وهو عالم باختلاف من مضى، توفي وهو على القضاء[١].

- وأبو عثمان سعيد بن كثير بن عفير (٢٢٦هـ) الذي سمع من مالك الموطّأ وصحبه وكان آخر مشائخ مصر في وقته، وقد بقي العلم في بيته زمانا طويلا[٢].

- وأبو الخيار فتيان بن أبي السمح (٢٣٢هـ) الذي كان يروي عن مالك، وكان من كبراء أصحابه المتعصّبين لمذهبه، وكان بينه وبين الشافعي مناظرة، ولعصبيته لمالك وإفراطه فيها نشأت العداوة بين المالكيّة والشافعيّة بمصر فثاروا بالإمام الشافعي وأرادوا نفيه، فضرب له الأمير أجلاً فمات فيه[٣].

- وأبو نصر يوسف بن عمرو بن يزيد الفارسي (٢٥٠هـ) الذي سمع من مالك وكان من فضلاء أصحابه وسمع من ابن وهب، وكان فقيهاً مفتياً أحد أوصياء الشافعي[٤].

- ويحيى بن عبدالله بن بكير المخزومي (٢٣٢هـ) الذي كان فقيه الفقهاء بمصر في زمانه، وكان قد سمع من مالك الموطّأ سبع عشرة مرّة، كما سمع من الليث بن سعد وابن لهيعة وابن وهب وغيرهم، وكان ابن عبدالحكم يعرف قدره ومنزلته ويقول فيه: هو شيخنا ومحدّث بلدنا، وعنه تلقّى جماعة من أهل الأندلس وإفريقية[٥].

- وعبدالرحمٰن بن أبي جعفر الدمياطي (٢٢٦هـ) الذي روى عن مالك وأسند عنه، وسمع من أعالي أصحابه كابن وهب وابن القاسم

(١) ترتيب المدارك ٤٥٩/٢ ـ ٤٦٠ الديباج المذهب ص ١٥٨.
(٢) ترتيب المدارك ٤٥٤/٢ ـ ٤٥٥ شجرة النور الزكية ص ٥٩.
(٣) ترتيب المدارك ٤٥٧/٢ ـ ٤٥٩.
(٤) المصدر السابق ٤٦١/٢ ـ ٤٦٢.
(٥) ترتيب المدارك ٥٢٨/٢ ـ ٥٢٩، الديباج المذهب ص ٤٣٥.

وأشهب، وله عنهم سماع مختصر، مؤلّف حسن يعرف بالدمياطيّة[1].

غير أنّه لم يكن لهؤلاء ولا لغيرهم ممّن عاصرهم من المصريين ما كان للأربعة المتقدّمين - أعني ابن القاسم وابن وهب وأشهب وابن عبدالحكم - من القيام على المذهب.

واستمرّ القيام على المذهب المالكي بمصر نشيطا بهؤلاء التلاميذ فنشأ من بعدهم جماعة انتهى إليهم فقه مالك والتزموا مذهبه ولم يكونوا قد رأوه ولا سمعوا منه وإنّما تلقّوا علمه عن أصحابه وأتباعه.

وكان من أشهرهم:

* أصبغ بن الفرج:

هو أبو عبدالله أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع[2] كان قد رحل إلى المدينة ليسمع من مالك، فدخلها يوم مات، فحضر جنازته.

صحب ابن القاسم وأشهب وابن وهب وسمع منهم وتفقّه بهم، وكان كاتب ابن وهب وأعلى أصحابه وأجلّهم وأخصّ الناس به، وكان حسن القياس من أفقه طبقته من أهل مصر، وكان ماهراً في الفقه نظّاراً.

كان يستفتى بمصر مع أشهب وغيره من شيوخه، وكان شيوخ أهل الأندلس يعظّمونه، وعند تلاميذهم هو أكبر أهل زمانه، وكانت بينه وبين عبدالله بن عبدالحكم منازعة ومباعدة.

تكلّم في أصول الفقه، وعليه تفقّه ابن الموّاز وابن حبيب، وكان ابن البّاد يقول: ما انفتح لي طريق الفقه إلاّ من أصول أصبغ.

---

(١) ترتيب المدارك ٥٣٢/٢ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٤ الديباج المذهب ص ٢٤٢ شجرة النور الزكية ص ٥٩.

(٢) ترتيب المدارك ٥٦١/٢ - ٥٦٥ الديباج المذهب ص ١٥٨ - ١٥٩ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٣ شذرات الذهب ١٦٠/٢ شجرة النور الزكية ص ٦٦ كشف الظنون ١٨٤/٥ تهذيب التهذيب ٣٦١/١ - ٣٦٢، وفيات الأعيان ٢٤٠/١ تذكرة الحفاظ ٤٥٧/٢، البداية والنهاية ٢٩٣/١٠.

قال ابن معين: كان أصبغ من أعلم خلق الله كلّهم برأي مالك، يعرفها مسألة مسألة، متى قالها ومن خالفه فيها.

ويروى عن أصبغ أنّ ابن القاسم أخذ يوماً بيده، وقال له: أنا وأنت في هذا الأمر سواء، فلا تسألني عن المسائل الصعبة بحضرة الناس، ولكن بيني وبينك حتّى أنظر وتنظر.

طلب أيّام المحنة في مسألة القول بخلق القرآن فاختفى واستتر عن أعين الناس حتى توفّي سنة ٢٢٥هـ.

صنّف كتاب الأصول وكتاب تفسير غريب الموطّأ وكتاب أدب الصائم وكتاب أدب القضاة وقيل آداب القضاء وكتاب المزارعة وكتب سماعه من ابن القاسم: اثنان وعشرون كتاباً.

* الحارث بن مسكين:

هو أبو عمرو الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف[1] سمع من ابن القاسم وأشهب وابن وهب ودوّن أسمعتهم وبوّبها، وبهم تفقّه وعدّ في أكابر أصحابهم، وله كتاب فيما اتّفق فيه رأيهم الثلاثة، ورأي مالك والليث بن سعد والمفضّل بن فضالة، وروى أيضاً عن سفيان بن عيينة وغيره.

حدّث ببغداد وبمصر وكان مفتياً فقيهاً على مذهب مالك، من علماء طبقته بمصر مع خيره وفضله وثقته في روايته.

حمل في أيّام المأمون العباسي إلى بغداد، وكان ذلك بسبب جرأته وإيثاره لكلمة الحقّ، وقوله للمأمون: أحضرت فسمعت وأطعت حين دعيت، ثمّ سئلت عن أمر فاستعفيت فلم أعف ثلاثاً، فلمّا رأيت أنّه لا بدّ

---

(١) ترتيب المدارك ٥٦٩/٢ ـ ٥٧٧ الديباج المذهب ص ١٧٧ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٤ شجرة النور الزكية ص ٦٧ شذرات الذهب ٢٦١/٢ ـ ٢٦٢ تهذيب التهذيب ١٥٦/٢ ـ ١٥٧ وفيات الأعيان ٥٦/٢ ـ ٥٧ طبقات ابن السبكي ١١٣/٢ ـ ١١٤ تذكرة الحفاظ ٥١٤/٢.

لي من الكلام كان الحقّ آثر عندي من غيره، فتخوّف المأمون من جرأته وقال: هذا رجل أراد أن يرفع له علم في بلده ثمّ أمر بإخراجه من مصر وحمله إلى العراق، فأقام بها ١٦ سنة حتى مات المأمون والمعتصم، فلمّا ولّي الواثق سمح له بالرجوع إلى مصر وذلك سنة ١٣٢هـ فلمّا ولّي جعفر المتوكّل ولاّه قضاءها سنة ٢٣٧هـ.

بعد أن سجنه على إبائه ذلك زماناً، فكان الحارث عدلاً في قضائه محمودا في سيرته، غير أنّه كان يمنع أصحاب الشافعي وأبي حنيفة من الجامع ويأمر بإخراجهم وفضّ مجالسهم.

ثمّ استعفي فأعفي، وكان ذلك بسبب أنّ الحارث قد حكم في حبس بإخراج أولاد البنات منه وذلك على مقتضى مذهبه الذي هو مذهب مالك، فشكوه إلى المتوكّل، فأفتى أهل العراق على مذهبهم وخطّأوا الحارث، ونقضت القضيّة فاستعفى الحارث على إثر هذه الحادثة، وذلك سنة ٢٤٥هـ فكانت مدّة تقلّده للقضاء ٧ سنوات و١١ شهراً.

وكانت وفاته سنة ٢٥٠هـ وقد قارب المائة سنة.

* بنو عبدالله بن عبدالحكم:

وهم أربعة إخوة كانوا بمصر فقهاء ومن علماء طبقتهم، وهم: عبدالحكم وعبدالرحمٰن وسعيد ومحمد غير أنّه قد اشتهر منهم بالخصوص عبدالحكم ومحمد.

فأمّا عبدالحكم بن عبدالله بن عبدالحكم[1] فهو أكبر بني عبدالله، له سماع كثير من أبيه وابن وهب وغيرهما من رواة مالك، وكان من أكابر أصحاب ابن وهب.

امتحن عبدالحكم مع سائر الفقهاء وأهل الفضل في مسألة خلق القرآن، وشدّد عليه وعلى إخوته واستصفيت أموالهم ونهبت منازلهم،

(١) ترتيب المدارك ٦٠/٣ ـ ٦٢ شجرة النور الزكية ص ٦٧ الديباج المذهب ص ٢٦٨.

وسجنوا وعذّب عبدالحكم في سجنه في عهد الواثق ودخّن عليه بالكبريت حتى مات من جرّاء ذلك سنة ٢٣٧هـ.

وأمّا محمد[١] فقد سمع من أبيه ومن ابن وهب وابن القاسم وأشهب وغيرهم، وصحب الشافعي وكتب كتبه وأخذ عنه، وكان ممّن يتعلّم منه، وكان أبوه قد ضمّه إليه وأمره أن يعوّل عليه وعلى أشهب.

فرسخ في مذهب الشافعي، وأصبح فقيه مصر في عصره على مذهب مالك، فكان يتخيّر قوله بحسب ظهور الحجّة له.

وقد روى محمد عن أبيه أنّه قال له: الزم هذا الرجل ـ يعني الشافعي ـ فإنّه كثير الحجج، فليس بينك وبين أن تقول: قال ابن القاسم فيضحك منك إلاّ أن تخرج من هذا البلد إلى غيره.

وكان محمد أفضل الناس فهما من العلماء الفقهاء، وكان من أهل النظر والمناظرة، وصاحب حجّة فيما يتكلّم ويتقلّده من مذهبه، حتى قيل إنّه كان أعرف أهل عصره بأقاويل الصحابة والتابعين، وإليه كانت الرحلة من المغرب في العلم والفقه من الأندلس، وهو أحد المحمدين الأربعة الذين اجتمعوا في عصر واحد من أئمّة المذهب المالكي.

إليه انتهت الرئاسة بمصر، فكان أهل مصر لا يعدلون به أحدا، يجلس في حلقته بجامع مصر خيار الفقهاء والعلماء.

له تآليف كثيرة في فنون العلم والردّ على المخالفين، مثل أحكام القرآن وكتاب الوثائق والشروط، وكتاب مجالسه وكتاب الردّ على الشافعي فيما خالف فيه الكتاب والسنّة وكتاب الردّ على أهل العراق وكتابه الذي زاد فيه على مختصر أبيه وكتاب أدب القضاة وكتاب اختصار كتب أشهب

---

(١) ترتيب المدارك ٦٢/٣ ـ ٦٩ شجرة النور الزكية ص ٦٧ ـ ٦٨ الديباج المذهب ص ٣٣٠ شذرات الذهب ٣١٣/٢ وفيات الأعيان ١٩٣/٤ ـ ١٩٤ طبقات القرّاء ١٧٩/٢ تهذيب التهذيب ٢٦٠/٩ ـ ٢٦٢ طبقات ابن السبكي ٦٧/٢ ـ ٧١ تذكرة الحفاظ ٥٤٦/٢.

وكتاب الصوم وكتاب الكفالة وكتاب الرجوع عن الشهادات وغيرها.

وقد ذكر من مناظرته للشافعي أنّه قال: قلت للشافعي: لأيّ شيء أخذتم أنّه إذا مسح الإنسان بعض رأسه وترك بعضه أنّه يجزيه، قال: بسبب الباء الزائدة، قال الله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾[1]، ولم يقل: رؤوسكم، قلت له: فأيّ شيء ترى في التيمّم إذا مسح الإنسان بعض وجهه وترك بعضاً، قال: لا يجزيه، فقلت له: لم، وقد قال الله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[2] فسكت الشافعي.

وقد ذكره الشيرازي في فقهاء الشافعية[3] رغم أنّ التزام محمد لمذهب مالك وإقامته فيه مشهورة وتآليفه على مذهبه والردّ على الشافعي وغير ذلك من أخباره معروفة، ودراسته لمذهب أبيه عليه وعلى أصحابه أكثر من دراسته لمذهب الشافعي، وكانت وفاته سنة ٢٦٨هـ.

*** محمد بن إبراهيم بن الموّاز:**

هو محمد بن إبراهيم بن رباح الإسكندراني، المعروف بابن المواز[4] تفقّه بابن الماجشون وابن عبدالحكم واعتمد على أصبغ وروى عن الحارث بن مسكين وغيره، وروى عن ابن القاسم وابن وهب وهو صغير، وكان راسخا في الفقه والفتيا علماً في ذلك، وكان المعوّل بمصر على قوله، وهو أحد المحمدين الأربعة الذين اجتمعوا في عصر واحد من أئمّة المذهب المالكي.

طلب في محنة القول بخلق القرآن فخرج هارباً إلى الشام، فلزم حصناً بها إلى أن مات سنة ٢٦٩هـ.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٣) الطبقات ص ٩٩.

(٤) ترتيب المدارك ٧٢/٣ ـ ٧٤، الديباج المذهب ص ٣٣١ ـ ٣٣٢، شجرة النور الزكية ص ٦٨.

له كتاب مشهور في فروع الفقه المالكي يعرف بالموازية أو بكتاب محمد، وهو من أجلّ كتب قدماء المالكية وأصحّها مسائل وأبسطها كلاما وأوعبها، وقد رجّحه أبو الحسن القابسي على سائر الأمّهات، لأنّ صاحبه لم يقتصر على جمع الروايات ونقل نصوص السماعات، وإنّما قصد إلى بناء فروع أصحاب المذهب على أصولهم في تصنيفه، كما بسط مسائل أوضح بها مواطن الخلاف مع الشافعي وأهل العراق.

وغير هؤلاء كثير من أعلام المالكيّة بمصر من أمثال: حرملة بن يحيى التجيبي (٢٤٣هـ) الذي روى عن ابن وهب والشافعي، وتفقّه بهما، وكان قد رسخ في مذهب الشافعي ثمّ ترك الفتيا به، فكان لا يفتي إلاّ بمذهب مالك، ولم يكن بمصر أكتب عن ابن وهب منه، وكان حافظاً للحديث، وقد صنّف المبسوط والمختصر[(١)].

وأبو حفص حرملة بن يحيى التجيبي (١٦٦هـ ـ ٢٤٣هـ) الذي روى عن عبدالله بن وهب مائة ألف حديث وروى عن الشافعي وبهما تفقّه، كما روى عن سفيان بن عيينة، ولم يكن بمصر أكتب عن ابن وهب منه، وكان أعلم الناس بابن وهب، ومن أملأ الناس بما روى ابن وهب، والسبب في كثرة سماعه منه، أنّ الخليفة العبّاسي كتب إلى ابن وهب يطلبه لقضاء مصر، فتظاهر ابن وهب بالجنون ولزم بيته ثمّ استخفى عند حرملة، فأخذ عنه حرملة حديثه كلّه إلاّ حديثين.

وكان حرملة إماماً جليل القدر رفيع الشأن في الحديث والفقه معاً، وخرّج له مسلم والنسائي، وهو شيخ مسلم.

عدّه القاضي عياض في أصحاب مالك المصريين وقال: ذكره ابن أبي دليم في فقهاء المالكيّة، وقال ـ ابن أبي دليم ـ : كان رسخ في مذهب الشافعي ثمّ ترك الفتيا به، فكان لا يفتي إلاّ بمذهب مالك، في حين عدّه أبو إسحاق الشيرازي في أصحاب الشافعي، وكان راوية كتبه الأخيرة.

(١) ترتيب المدارك ٧٦/٣ ـ ٧٧، شذرات الذهب ٢٣٤/٢ ـ ٢٣٥.

صنّف المبسوط والمختصر وغيرهما من الكتب(١).

ومحمد بن عبدالله بن عبدالرحيم بن أبي زرعة (٢٤٩هـ) الذي روى عن عبدالله بن عبدالحكم وأشهب وأصبغ بن الفرج، ولم يلق ابن وهب، وكان من أصحاب الحديث والفهم والرواية وصاحب تأليف في مختصر ابن عبدالحكم الصغير، وقد زاد فيه اختلاف فقهاء الأمصار(٢).

ويونس بن عبدالأعلى بن موسى الصدفي (١٧١هـ ـ ٢٦٤هـ) الذي سمع من الشافعي وابن وهب وأشهب والشافعي وسفيان بن عيينة ومعن بن عيسى وعبدالله بن نافع الصائغ وغيرهم، وكان من أجلّ أصحاب ابن وهب وأوثق أصحابه وأحد الرواة المشهورين، وقد رحل إليه الناس وسمعوا منه.

قرأ القرآن على رواية ورش، وتصدّر للإقراء والفقه وإليه انتهت مشيخة بلده، وكان ورعاً صالحاً عابداً كبير الشأن ركناً من أركان الإسلام.

وروي عن الشافعي أنّه قال: ما رأيت بمصر أحداً أعقل من يونس بن عبدالأعلى.

عدّه القاضي عياض في أصحاب مالك المصريين، في حين عدّه أبو إسحاق الشيرازي في أصحاب الشافعي، وترجم له السبكي في طبقاته تبعاً لغيره من الشافعيّة وذكر له فوائد ومسائل كثيرة(٣).

---

(١) ترتيب المدارك ٧٦/٣ ـ ٧٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٩، شذرات الذهب ٢٣٤/٢ ـ ٢٣٥، البداية والنهاية ٣٤٥/١٠، طبقات ابن السبكي ١٢٧/٢ ـ ١٣١، تهذيب التهذيب ٢٢٩/٢ ـ ٢٣١، وفيات الأعيان ٦٤/٢ ـ ٦٥.

(٢) ترتيب المدارك ٨٣/٣ ـ ٨٤، شذرات الذهب ٢٦٠/٢، الديباج المذهب ص ٣٣٢، تهذيب التهذيب ٢٦٣/٩.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٩، ترتيب المدارك ٧٨/٣ ـ ٨١ شذرات الذهب ٣٠٤/٢، وفيات الأعيان ٢٤٩/٤ ـ ٢٥٤ تهذيب التهذيب ٤٤٠/١١ ـ ٤٤١ طبقات الشافعيّة الكبرى ١٧٠/٢ ـ ١٨٠، طبقات القرّاء ٤٠٦/٢، البداية والنهاية ٣٧/١١ تذكرة الحفاظ ٥٢٧/٢.

وكان من أهل إفريقيّة:

* عبدالله بن فرّوخ الفارسي (١١٥هـ ـ ١٧٦هـ) من شيوخ أهل إفريقيّة، ولد بالأندلس ثمّ انتقل إلى إفريقيّة فسكن القيروان وأوطنها، ثمّ رحل إلى المشرق فلقي جماعة من العلماء والمحدّثين من أمثال سفيان الثوري ومالك بن أنس أبي حنيفة وغيرهم، فسمع منهم وتفقّه بهم، وكان اعتماده في الحديث والفقه على الإمام مالك، وبصحبته اشتهر، وكان يكاتب الإمام مالك فكان مالك يعرفه ويكاتبه بجواب مسائله، وكان الإمام مالك يكرمه ويعظّمه وقد أجلسه إلى جواره عندما زاره في رحلته الثانية للحجّ، وجعل الإمام مالك لا ترد عليه مسألة وابن فرّوخ حاضر إلاّ قال له: أجب يا أبا محمد، فيجيب، ثمّ يقول مالك: هذا كما قال، ثمّ التفت إلى أصحابه فقال: هذا فقيه المغرب.

وكان ابن فرّوخ يميل إلى النظر والاستدلال، فربّما مال إلى قول أهل العراق فيما تبيّن له منه الصواب فقد سمع من أبي حنيفة مسائل كثيرة، يقال أنّها نحو عشرة آلاف مسألة، ويروى أنّه ناظر زفر بن الهذيل في مجلس أبي حنيفة، فازدراه زفر للمغربيّة، فلم يزل به ابن فرّوخ حتّى قطعه، فقال أبو حنيفة لزفر: لا خفّف الله ما بك.

غير أنّ ابن فرّوخ ـ كما ذكر سحنون ـ كان لا ينصّ على الأصول، وإنّما حين كان يسأل في المسألة يجيب فيها بالأقاويل المختلفة، على خلاف ابن زياد الذي قال في شأنه أعلام أهل المدينة: ما طرأ علينا طارىء من بلد من البلدان كشف لنا مالك عن الأصول كشف عليّ بن زياد، ولذلك كان سحنون يشهد له بحسن معرفته للمعاني وخاصة عندما يجلس لإسماع كتابه خير من زنته.

رحل في آخر حياته إلى مصر فلقي تقديرا يليق بمقامه وعلمه، واعتقد الناس في إمامته بعد الليث بن سعد، غير أنّه ما لبث بها إلاّ يسيرا

حتّى مات، فكانت لوفاته بمصر فجعة عظيمة عند أهل العلم[١].

* وعليّ بن زياد التونسي (١٨٣هـ) ولد بطرابلس ثمّ انتقل إلى تونس فسكنها، رحل إلى الحجاز والعراق في طلب العلم، وسمع من مالك وسفيان الثوري والليث بن سعد وابن لهيعة وغيرهم، وروى عن الإمام مالك الموطّأ، وتفقّه به، وهو أوّل من أدخل الموطّأ وجامع سفيان الثوري في الحديث إلى إفريقية، وفسّر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه.

كان بارعاً في الفقه وكان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى عليّ بن زياد ليعلمهم بالصواب، وكان خير أهل إفريقية في الضبط للعلم وما أنجبت إفريقية مثله، وكان من نقّاد أصحاب مالك وله كتاب في فروع الفقه المالكي سمّاه «خير من زنته».

ويعتبر عليّ بن زياد أوّل من كتب مسائل الفقه والفتاوي التي تكلّم بها مالك بن أنس ـ غير ما اشتمل عليه الموطّأ ممّا يتّصل بالآثار ـ إذ لم يكن واحد من أصحاب مالك ـ حتّى ابن القاسم ـ قد دوّن الفقه والمسائل كتابة، وقد أقبل عليّ بن زياد على تصنيف المسائل وتبويبها وخرّجها كتباً كتباً على مواضيع الأحكام الفقهيّة، وسمّى جملة الكتاب بذلك الاسم الطريف «خير من زنته».

سمع منه البهلول بن راشد وسحنون وأسد بن الفرات وغيرهم، وكان البهلول يفزع إلى عليّ بن زياد في العلم ويكاتبه من القيروان إلى تونس فيستفتيه في أمور كثيرة، ولم يكن سحنون يعدل بعليّ بن زياد أحداً من علماء إفريقية[٢].

---

(١) طبقات أبي العرب ص ١٠٧ ـ ١١١، رياض النفوس ١/١٧٦ ـ ١٨٧، ترتيب المدارك ١/٣٣٩ ـ ٣٤٧ و١/٣٢٦ ـ ٣٢٧، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٣٠٤، معالم الإيمان ١/٢٣٨ ـ ٢٤٨.

(٢) رياض النفوس ١/٢٣٤ ـ ٢٣٧، ترتيب المدارك ١/٣٢٦ ـ ٣٢٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٢، الديباج المذهب ص ٢٩٢، ابن عاشور محمد الفاضل: أعلام الفكر الإسلامي ص ٢٦.

* والقاضي عبدالله بن عمر بن غانم الرعيني (١٢٨هـ - ١٩٠هـ) وكان فقيهاً مقدّما مع فصاحة لسان وحسن بيان، من أهل العلم والفضل والورع والتواضع، من نظراء ابن أبي حازم وأقرانه، روى بإفريقيّة عن عبدالرحمٰن بن زياد بن أنعم، ودخل إلى الحجاز فسمع من مالك، وكان عليه اعتماده، وقصد العراق فسمع من سفيان الثوري ومن أبي يوسف، وغيرهم.

ومن فصاحته وجزالته ما ورد عن عبدالله بن فرّوخ قال: دخلنا على سفيان الثوري، - أنا وابن غانم والبهلول بن راشد - فسألناه في السماع فأجاب إلى ذلك وقال: ليقرأ عليّ أفصحكم لسانا فإنّي أسمع اللحنة فيتغيّر لها قلبي، قال: فقرأ لنا عليه ابن غانم شهورا فما رأينا الثوري ردّ عليه في قراءته شيئاً ولا أخذ عليه لحنة واحدة.

وكان الإمام مالك إذا دخل عليه ابن غانم وقت سماعه أجلسه إلى جنبه ويقول لأصحابه: قال رسول الله ﷺ: **«إذا جاءكم كريم قومه فأكرموه»**(١) وهذا كريم في بلده، حتّى كان أصحاب مالك يقولون: شغله المغربيّ عنّا، وقد بلغ من حبّ الإمام مالك وتقديره له ما يروى من أنّه قد عرض عليه أن يزوّجه ابنته ويقيم عنده فامتنع ابن غانم من المقام وقال لمالك: إن أخرجتها معي إلى القيروان تزوّجتها.

ومع اعتماد ابن غانم على مالك وميله إلى فتاويه فقد كان يقرىء الناس كتب أبي حنيفة في الجمعة يوما.

ولي سنة ١٧١هـ قضاء إفريقيّة وهو ابن اثنتين وأربعين سنة، ولمّا بلغت مالكاً ولايته سرّ بها وأعلم بها أصحابه، وكان الخليفة العباسي هارون الرشيد يكاتبه، فكان يعدّ قضاؤه من قبله.

---

(١) أورده السيوطي في جامعه بلفظ: **«إذا جاءكم الزائر فأكرموه»**، وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس بن مالك، والخرائطي في كتاب مكارم الأخلاق (الجامع الصغير ١/٤٢٠).

وكان ابن غانم يوجّه بمسائله أيّام قضائه إلى مالك فيما ينزل به من نوازل الخصوم، فيكتب إلى عثمان ابن عيسى بن كنانة يسأل له مالكاً عن أحكامه، وكان يكتب أيضاً إلى أبي يوسف يسأله، ولم يزل الأمر يتراقى بابن غانم في الرفعة والسموّ في أحكامه وأموره يتراقى بابن غانم في الرفعة والسموّ في أحكامه وأموره.

وكان إذا أشرف على إنفاذ حكم لأحد يصلّي حزبه من الليل، فإذا جلس في آخر صلاته عرض من أراد أن يحكم له على الله عزّ وجلّ في مناجاته، فلا يزال يعرض الخصوم على ربّه عزّ وجلّ ويسأله التوفيق والتسديد حتى يطلع الفجر وقد فرغ منهم.

ولم يزل عبدالله بن غانم على القضاء إلى أن توفّي، فكانت ولايته نحوا من تسعة عشر عاما، ولمّا بلغت وفاته عبدالله بن وهب غمّه ذلك غمّا شديدا واسترجع وترحّم عليه وقال: لقد كان قائما بهذا الأمر - يريد الفقه والعلم[1].

* **والبهلول بن راشد** (١٢٨هـ - ١٨٣هـ) من أهل القيروان، وهو شيخ أهل المغرب وأحد الأعلام من أهل الفضل والعلم والورع والعبادة وكان مستجاب الدعوة مجتهداً صاحب علم كثير.

سمع من مالك وسفيان الثوري والليث بن سعد وغيرهم، وسمع الموطّأ من عليّ بن زياد وابن غانم، وسمع الجامعين الكبير والصغير لسفيان الثوري، ودوّن عنه الناس جامعا وقام بفتياهم.

كان وتدا من أوتاد المغرب، ومنه سمع وجوه مشائخ إفريقيّة، وكان الغالب عليه مذهب مالك، وربّما مال إلى قول سفيان الثوري، ولمّا نظر إليه مالك قال: هذا عابد بلده، ولمّا نظر إلى عبدالله بن غانم قال: هذا

---

(١) طبقات أبي العرب ص ١١٦ - ١١٧، قضاة قرطبة وعلماء إفريقيّة ص ٣٠٤، رياض النفوس ٢١٥/١ - ٢٢٩، ترتيب المدارك ٣١٦/١ - ٣٢٥، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥١، معالم الإيمان ٢١٣/١ - ٢٨٨.

قاضي بلده، ولمّا نظر إلى عبدالله بن فرّوخ قال: هذا فقيه بلده، فصدقت فراسة الإمام مالك في ثلاثتهم، حتّى إنّ البهلول قد غلبت عليه العبادة، فكان سحنون يقول على إثر ذلك: هذا البهلول كان رجلاً صالحاً ولم يكن عنده من الفقه ما عند غيره، فنفع الله تعالى به، وذكر رجلاً آخر فقال: إنّه بحر من البحور ما نفعه الله بعلمه.

وجاءت إلى مالك من عند ابن غانم أقضية فقال: ما قال فيها المصفر؟ - يعني البهلول - وما قال فيها الفارسي - يعني عبدالله بن فرّوخ، ولبهلول مناقب كثيرة في ورعه وتواضعه وسائر أخباره.

وكانت وفاته بعد عليّ بن زياد بخمسة وثلاثين يوماً[١].

*** أسد بن الفرات: (٢١٣هـ).**

هو أبو عبدالله أسد بن الفرات بن سنان، أصله من خراسان من نيسابور، قيل ولد بحرّان وقدم به أبوه وهو ابن سنتين مع جيش محمد بن الأشعث الذي دخل إفريقية سنة ١٤٤هـ، وقيل بل قدم أبوه مع الجيش وأمّه حامل به.

تعلّم أسد القرآن ببعض القرى وأقام بالقيروان خمس سنين ثمّ توجّه إلى مدينة تونس فأقام بها نحو تسع سنين، ولازم عليّ بن زياد التونسي صاحب الإمام مالك فتعلّم منه العلم وسمع منه موطّأ مالك وتفقّه بفقهه ودرس عليه كتابه الذي وضعه في الأحكام الفقهيّة.

ثمّ قصد المشرق اقتداء بشيخه ابن زياد، فكانت رحلته أوّلاً إلى الحجاز حيث التقى بإمام دار الهجرة مالك بن أنس فواظب عليه وأخذ منه العلم وحصل له منه سماع، وأقبل على مالك بالطريقة التي عهدها من عليّ ابن زياد: طريقة تحليل الصور وتسلسل المسائل والاستكشاف عن

(١) ترتيب المدارك ٣٣٠/١ - ٣٣٩، الديباج ص ١٦٦، رياض النفوس ٢٠٠/١ - ٢١٤، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٩٥، طبقات أبي العرب ص ١٢٦ - ١٣٨، معالم الإيمان ٢٦٤/١ - ٢٧٥.

الأصول يجدّد في دروس مالك عهداً كان قد انقضى منذ فارقها عليّ بن زياد، ـ وفي ذلك يقول أسد: قال لي المغيرة المخزومي وابن كنانة: ما طرأ علينا من بلد من البلدان كشف عن هذا الأمر، في رواية عن ابن كنانة، كشف لنا مالك عن الأصول كشف عليّ بن زياد ـ وقد كان مالك غير ميّال إلى تلك الطريقة، طريقة فرض الصور وتركيبها وتحليلها ـ وهي الطريقة التي يقوم عليها مذهب أهل العراق ـ ممّا حدا بأسد إلى التفكير بشدّ رحاله إلى العراق حيث التقى بأبي يوسف ومحمد بن الحسن فسمع منهما وواظب على دروسهما مدّة حتى انكشفت له طرائق العراقيين في البحث وظهرت له مذاهبهم، وتكوّنت عنده بهما ملكة التفصيل والتأصيل التي ابتدأها مع عليّ بن زياد بتون.

ولمّا بلغ مراده وأدرك هدفه من فقه العراقيين ونعي مالك، أجمع أمره على الانتقال إلى مصر حيث أتباع مالك الأعظم شأنا والأهمّ قيمة، فحمل أسد معه سماعاته من صاحبي أبي حنيفة وخاصة منها كتب محمد بن الحسن ودخل بها مصر، وأراد بذلك أن يخدم الفقه المالكي معهم خدمة جديدة، وذلك بأن يأخذ المنهج العراقي في تفصيل المسائل وتأصيلها ويدرج عليه من مسائل الأحكام على مذهب مالك، فيكون بذلك قد أدخل المذهب المالكي في دور جديد من التدوين الموصّل المرتّب هو الذي ابتدأ به عليّ بن زياد، فقصد ابن وهب وقال له: هذه كتب أبي حنيفة وسأله أن يجيب فيها على مذهب مالك محاولاً بذلك أن يجعل المنهاج منهاجاً عراقيًّا والمادة مادة حجازيّة، فتورّع ابن وهب وأبى، فذهب إلى ابن القاسم فأجابه إلى ما طلب وأجاب بما حفظ عن مالك بقوله، وفيما شكّ قال: أخال وأحسب وأظنّ، فكان يسأله أسئلة العراقيين على قياس قول مالك فيجيبه.

وهكذا وجد أسد بن الفرات من يلبّي له رغبته ويحقّق بغيته، فدوّن أسئلته لابن القاسم ومباحثاته معه وأجوبة ابن القاسم أحياناً بقول مالك وأحياناً بما رأى ابن القاسم من خلافه، وأخرج ذلك كتاباً كاملاً جامعاً قد

دوّن فيه المذهب المالكي لأوّل مرّة تدويناً وافياً: وهو الأسديّة التي اشتملت على ستّين كتاباً.

وبعد رحلة طويلة استغرقت من الزمان عشر سنين تقريباً ـ من سنة ١٧٢هـ إلى سنة ١٨١هـ ـ عاد أسد إلى إفريقية فدخل القيروان ونشر علمه بين الناس وشاع أمر ما دوّن في مصر فكتب عنه طلبة العلم وأصبحت له في القيروان رئاسة بفضل مصنّفه.

كان أسد بن الفرات أعلم العراقيين بالقيروان كافة، وبسبب أسد ظهر علم أبي حنيفة بإفريقية، ولمّا قدم القيروان سمع منه علماؤها ووجوهها مثل سحنون وعمرو بن وهب وسليمان بن عمران من أتباع مالك، كما سمع منه سائر أتباع أبي حنيفة، وكان أسد إذا سرد أقوال العراقيين يقول له مشائخ المدنيين: أوقد القنديل الثاني يا أبا عبدالله فيسرد أقوال المدنيين.

والمشهور عن أسد أنّه كان يلتزم من أقوال المدنيين والعراقيين ما وافق الحق عنده لاستبحاره في العلوم وبحثه عنها وكثرة من لقي من العلماء والمحدّثين.

فكان عبدالرحمٰن بن غانم على مكانته يشاور أسد فيجيبه فيقول: ما أحبّ أن أشاور في هذا البلد غير هذا الفتى.

ونظراً لمكانة أسد العلمية ولاّه الأمير الأغلبي زيادة الله القضاء شريكاً لأبي محرز الكناني سنة ثلاث وقيل أربع ومائتين، فاشتركا في هذه المهمّة فكان أسد أغزرهما علماً وفقهاً، وأبو محرز أسدّهما رأياً وأكثرهما صواباً، ولم يعرف بالقيروان قاضيان قبلهما في وقت واحد غيرهما، فكان أسد يقول: ضربنا في طلب العلم آباط الإبل واغتربنا في البلدان ولقينا العلماء وغيرنا إنّما طلب العلم خلف كانون أبيه ووراء منسج أمّه ويريدون أن يلحقوا بنا ـ ويقصد بذلك أبا محرز ـ.

قام أسد على القضاء لسنوات عديدة إلى أن خرج سنة اثنتي عشرة ومائتين على رأس جيش لفتح صقليّة وخرج معه وجوه أهل العلم والناس

يشيّعونه، وأمر الأمير أن لا يبقى أحد من رجاله إلاّ شيّعه في حفل عظيم وجمع كثير وعدّة كاملة، فلمّا نظر أسد إلى الناس حوله من كلّ جهة وقد صهلت الخيول وضربت الطبول وخفقت البنود، رفع صوته في الناس خطيباً وقال: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، والله يا معشر المسلمين ما ولِّي لي أب ولا جدّ ولا رأى أحد الناس من سلفي مثل هذا ولا بلغت ما ترون إلاّ بالأقلام فاجتهدوا أنفسكم فيها وثابروا على تدوين العلم تنالوا به الدنيا والآخرة.

توفّي شهيداً تحت سور مدينة سرقوسة(١).

وبالرغم ما كان لهؤلاء الأعلام من الأثر الواضح في نشر المذهب المالكي بإفريقية أيّام مؤسّسه مالك بن أنس ـ وبأخرة عنهم أسد بن الفرات ـ باعتبارهم الإشراقة الأولى على أوطانهم بهذه الأوضاع الجديدة، وبالرغم ما حظيوا به من ملاقاة للإمام مالك والتلقّي عنه والسماع منه مباشرة، وبالرغم ما درجوا عليه من فقه مالك حتّى أصبحوا ـ في نظر الناس إليهم ـ معدودين من المجتهدين المقيّدين في المذهب المالكي، السائرين على نهجه وطريقته، والقائمين بالاجتهاد على ضوء أصوله وقواعده.

إلاّ أنّ هذه العوامل مجتمعة لم تكن لتمنعهم يوماً ما من النظر والاستدلال ولو أدّى بهم الحال إلى مخالفة اجتهادات إمامهم.

فنجد عبدالله بن فرّوخ مع أخذه بمذهب مالك ومعرفته له كان

---

(١) ترتيب المدارك ٤٦٥/٢ ـ ٤٨٠ رياض النفوس ٢٥٤/١ ـ ٢٧٣ شذرات الذهب ١١٦/٢ ابن أبي دينار: المؤنس ص ٤٩ الديباج المذهب ص ١٦١ طبقات أبي العرب ص ١٦٣ ـ ١٦٦ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٥ ـ ١٥٦ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص٣٠٥ معالم الإيمان ٢٣/٢ ـ ٢٦ ابن الأبار: الحلة السيراء ٣٨٠/٢ ـ ٣٨١ معجم المؤلفين ٢٤٠/٢ المقّري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١٦٢/٣ محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين ١٧/٤ ـ ٢٤ شجرة النور الزكية ص ٦٢ السراج: الحلل السندسية ٧٤١/٣ ـ ٧٥٥ ابن عذارى: البيان المغرب ٩٧/١، ١٠٢، ١٠٤ حسن حسني عبدالوهاب: كتاب العمر ٨٩٦/٢ ـ ٨٩٨ الفاضل ابن عاشور: أعلام الفكر الإسلامي ص ٢٦.

صاحب نظر واستدلال فتراه يميل أحياناً إلى قول أهل العراق إذا تبيّن له أنّ الصواب في قولهم.

ونجد القاضي ابن غانم مع اعتماده على مذهب مالك وميله إلى فتاويه، فقد كان يقرىء الناس كتب أبي حنيفة يوماً في الأسبوع.

ونجد أسد بن الفرات يلتزم من أقوال المدنيين والعراقيين ما وافق الحق عنده، ويفتي أحياناً بمذهب أهل العراق، وبأسد ظهر علم أبي حنيفة بإفريقية.

وبهؤلاء ونظرائهم أصبحت إفريقيّة مستعدّة لتخريج أقطاب استقبلوا سير الحركة الاجتهاديّة وأقاموا صرح الفقه وعماده بهذه الأوطان حتى علا بهم مجد إفريقيّة، فنشأ أعلام وإن لم يكونوا قد رأوا مالكاً ولم يسمعوا منه إلاّ أنّهم كانوا فرسان رهان في هذه المرحلة.

وكان من أشهرهم:

ـ ١ ـ سحنون بن سعيد: (١٦٠هـ ـ ٢٤٠هـ).

هو أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنّوخي أصله من الشام، قدم أبوه سعيد في جند حمص، وسحنون لقب له واسمه عبدالسلام، سمّي سحنونا لحدّة ذهنه في المسائل.

نشأ بالقيروان وتلقّى العلم عن مشائخها من أصحاب مالك بن أنس مثل البهلول بن راشد الذي كان وتدا من أوتاد المغرب، وعبدالله بن عمر بن غانم الرعيني الطائر الصيت في الفضل والعلم والورع ومعاوية بن الفضل الصمادحي، كما تلقّى العلم عن أسد بن الفرات، ثمّ انتقل إلى مدينة تونس ليأخذ عن عليّ بن زياد التونسي صاحب مالك الذي لم يكن في عصره بإفريقية مثله، كما جلس إلى أبي مسعود بن أشرس الأنصاري.

ويبدو أنّ شهرة الفتى سحنون قد بدأت تظهر قبل رحلته إلى تونس إلى عليّ بن زياد بأنّه طالب جادّ وشاب ورع وصادق، فقد أورد القاضي عياض في مداركه أنّ سحنون حين عزم الذهاب إلى زياد بن علي كتب له

شيخه البهلول بن راشد كتاباً إلى ابن زيد يوصيه بالشاب سحنون خيرا، وممّا جاء في هذا الكتاب: إنّما كتبت إليك في رجل يطلب العلم للّه، فلمّا وصل كتاب التوصية إلى ابن زياد لم ينتظر حتى يأتيه سحنون ويجلس في حلقته بجامع الزيتونة الأعظم، وإنّما ذهب بنفسه إلى المكان الذي نزل فيه سحنون ليسمعه كتبه.

داوم سحنون على الرحلة إلى علي بن زياد بتونس فكان كلّما اجتمعت له نفقة سافر إليه يطلب عليه العلم.

وبعد أن أحسّ سحنون أنّه قد استوفى تكوّنه بإفريقية بين القيروان ومدينة تونس عزم على القيام برحلته المشرقية، فخرج إلى مصر أوّل سنة ١٧٨هـ في حياة الإمام مالك، قال سحنون: فكنت عند ابن القاسم وجوابات مالك ترد عليه، فقيل له: فما منعك من السماع منه؟ قال: قلّة الدراهم، لحى الله الفقر فلولاه لأدركت مالكاً.

رجع سحنون إلى القيروان بعد هذه الرحلة الأولى التي اقتصر فيها على مصر، ثمّ جدّد الغزم على الرحلة ثانية بعد عشر سنوات من سفرته الأولى، فقصد مصر ولم يعد إلى إفريقية إلى حين توفي عبدالرحمٰن بن القاسم سنة ١٩١هـ.

وفي مصر سمع من ابن القاسم وكان اعتماده عليه ولا يكاد يفارقه، كما سمع من عبدالله بن وهب ومن أشهب ومن عبدالله بن عبدالحكم وعبدالله بن طليب المرادي وشعيب بن الليث بن سعد وغيرهم.

وكانت لسحنون في مصر صداقة منسجمة ورفقة متّصلة مع ابن القاسم وأشهب وابن وهب توّجت برفقة مع هؤلاء الثلاثة إلى الحجّ، يقول سحنون: لمّا حججت كنت أزامل ابن وهب، وكان أشهب يزامله يتيمه وابن القاسم يزامله ابنه موسى، وكنت إذا نزلت سألت ابن القاسم، وكنّا نمشي بالنهار ونلقى المسائل فإذا كان الليل قام كلّ أحد إلى حزبه من الصلاة فيقول ابن وهب: ألا ترون هذا المغربي يلقى بالنهار ولا يدرس بالليل فيقول ابن القاسم: هو نور يجعله الله في القلوب.

لقي سحنون بمدينة الرسول الأكرم ﷺ جمهرة من العلماء أخذ عنهم، فسمع من عبدالله بن نافع الصائغ ومعن بن عيسى وأبي ضمرة أنس بن عياض وعبدالملك بن عبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون ومطرف بن عبدالله وغيرهم، كما لقي العدد الوافر من الأئمّة المجتهدين من غير أصحاب الإمام مالك أمثال: سفيان بن عيينة ووكيع بن الجرّاح وحفص بن غيّاث من العراقيين وكان عند سحنون ـ كما يقول هو عن نفسه ـ عندي في البيت سماع سنتين لسفيان بن عيينة.

وحين نزل مكّة لقي عبدالرحمٰن بن مهدي.

وبحلول سنة ١٩١هـ استكمل سحنون رحلته المشرقية وأضاف إلى ما كان عنده من روايات مغربية في تحقيق المذهب المالكي، الروايات المشرقية وحصل العلم في صدره كسورة في القرآن من حفظه.

عاد سحنون إلى إفريقية وقد بلغ من العمر ثلاثين سنة، وحفظ كتب العلم حتى صارت في صدره كأمّ القرآن ـ كما يقول هو عن نفسه ـ، وفي عودته هذه بدأ إنتاج سحنون العلمي بتخريج الأصحاب والتعليم حتّى كوّن الملكات الصحيحة في أصحابه بالمعنى الذي عبّر عنه أحد أصحابه وهو سليمان بن عمران بأنّه كان إذا سئل أوحى في جوابه إلى سائله معنى زد من سؤالك.

توافد على سحنون عدد لا يحصى من المتعلّمين من أنحاء إفريقية والأندلس وصارت حلقة العلم التي يعقدها سحنون من أكبر حلقات العلم فقيل إنّه كان يجلس فيها أربعمائة طالب علم وحصل له من الأصحاب ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك، وتخرّج على يديه مشاهير فقهاء إفريقية مثل يحيى بن عمر وابن مسكين وابن أبي سليمان وسعيد بن الحدّاد وحمديس وغيرهم كثير واعتبر أكثر الفقهاء أصحابا حتى قال ابن عجلان الأندلسي: ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله ﷺ ما بورك لسحنون في أصحابه إنّهم في كلّ بلد أئمّة، وقال ابن الحارث: سمعتهم يقولون كان سحنون من أيمن العلماء دخل المغرب، كأنّ أصحابه مصابيح في كلّ بلدة

عدّ له نحو سبعمائة رجل ظهروا بصحبته وانتفعوا بمجالسه.

وهكذا اجتمع لسحنون فضل الدين والعقل والورع والعفاف فبارك الله فيه للمسلمين ومالت إليه الوجوه وأحبّته القلوب وصار زمانه كأنّه مبتدئا قد امّحى ما قبله، وكان أصحابه سرج أهل القيروان.

وإلى جانب هذا الإنتاج في تخريج الأصحاب وبثّ العلم في صدور الرجال كان لسحنون إنتاجه في تدوين المدوّنة التي هي الأثر الخالد في الفقه المالكي.

ولّي سحنون القضاء سنة ٢٣٤هـ وسنّه إذ ذاك أربع وسبعون سنة وبقي سحنون على القضاء ستّ سنين - إلى أن توفّي سنة ٢٤٠هـ وهو على القضاء - أظهر فيها مقدرة منقطعة النظير ووضع الكثير من أصول المؤسسات الشرعية في إفريقية مثل وضعه لدستور في أحكام السوق ونظام قضاة الآفاق وكشف الشهود وكان له من قوّة شخصيّة ومركزه الاجتماعي أقوى حافز على التوسّع في وظيفة القضاء.

وحصل للناس بولاية سحنون على شريعة من الحقّ وكان عمله العظيم في القضاء باعتبار التوفيق فيه وبعد النظر في تطبيق الأحكام على محالها الأثر العظيم في حياته القضائية الذي أصبح هو بذاته مادّة للفقه ومرجعا لكتب الفقه فيما اشتملت عليه من الأقضية وخاصة الأقضية الإفريقية من بعده حيث أخذ القضاة بأعماله من بعده وجرى بها العمل مئات السنين[1].

---

(١) ترتيب المدارك ٥٨٥/٢ - ٦٢٦ معالم الإيمان ٢٧/٢ - ١٠٧ رياض النفوس ٣٤٥/١ - ٣٧٥ شذرات الذهب ٢٢١/٢ البيان المغرب ١٠٩/١ - ١١١ طبقات علماء إفريقية ص ١٨٤ - ١٨٧ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٩٦ و٣٠٥ الديباج المذهب ص ٢٦٣ - ٢٦٨ طبقات الفقهاء ص ١٥٦ - ١٥٧ شجرة النور الزكية ص ٦٩ تراجم المؤلفين التونسيين ١٢/٣ - ١٨ كتاب العمر ٥٨٥/٢ - ٥٨٧، محاضرات للفاضل ابن عاشور ص ٣٠٣ - ٣٠٩ الحلل السندسية ٧٦٩/٣ - ٨٠٧.

ـ ٢ ـ محمد بن سحنون: (٢٠٢هـ ـ ٢٥٦هـ).

هو أبو عبدالله محمد بن سحنون، وارث علم أبيه وخليفته في حلقته بالقيروان، نشأ بين يدي أبيه فتفقّه به واعتمد عليه، وسمع من أعلام عصره منهم موسى بن معاوية الصمادحي (٢٢١هـ) عالم الحديث والفقه الذي قال فيه سحنون: ما جلس في الجامع منذ ثلاثين سنة أحقّ بالفتوى منه[١]، وعبدالله بن أبي حسّان اليحصبي (٢٢٦هـ) الذي كان غاية في الفقه بمذهب مالك، قويّ الحجّة في المناظرة، الذي قال فيه ابن وهب: ما رأيت مالكاً أميل إلى أحد منه إليه[٢]، وغيرهما من الأعلام.

فنشأ ابن سحنون من أكثر الناس حجّة وأتقنهم بها حتّى إنّه كان يناظر أباه.

عزم ابن سحنون سنة خمس وثلاثين ومائتين على القيام برحلة إلى المشرق فلمّا وصل إلى مصر أقبل عليه علماؤها يسلّمون عليه لما بلغهم من علمه وفضله، وأتاه المزني صاحب الشافعي فيمن أتاه وجلس معه كثيراً وأطال ليقلّ الناس ويخلو معه فلمّا خرج قدّمت إليه دابته ليركب فقيل له كيف رأيته فقال: لم أر والله أعلم منه ولا أحدّ ذهناً على حداثة سنّه.

ولقي هناك جماعة من العلماء الأجلاء منهم أبو مصعب الزهري صاحب الإمام مالك.

تدرّج محمد بن سحنون في مسالك العلم حتى أصبح إماماً في الفقه عالماً بالآثار من الحفاظ المتقدّمين المناظرين المتصرّفين، وكان الغالب عليه الفقه والمناظرة وعلم الخلاف، فكان قويّ الحجّة سديداً في الذبّ عن مذهب مالك والردّ على أهل الأهواء، حتى قال تلميذه عيسى بن مسكين: ما رأيت بعد سحنون مثل ابنه، وقال حمديس القطّان: رأيت العلماء بمكّة

---

(١) ترتيب المدارك ٣/٦ ـ ٩.

(٢) المصدر السابق ٢/٤٨٠ ـ ٤٨٥.

والمدينة ومصر فما رأيت فيهم مثل سحنون ولا مثل ابنه محمد، ولذلك حقّ له أن يجلس مجلس أبيه من بعده واعترف له أهل عصره بالإمامة في مذهب مالك بالمغرب لما اجتمعت فيه من خصال قلّ أن تجتمع في غيره من الفقه البارع والعلم بالأثر والجدل والحديث حتى قال أبو العرب في طبقاته: لم يكن في عصره أحذق بفنون العلم منه فيما علمت.

فتح الله على محمد بن سحنون باب التأليف فتحا عظيما، فكان كثير الكتب غزير التصنيف، له نحو من مائتي كتاب في فنون العلم يفخر بها أهل إفريقية، حتّى أنّ القاضي إسماعيل بن إسحاق ذكر مرّة في مجلسه ما ألّفه أصحاب أبي حنيفة من الكتب، فقال القاضي إسماعيل: عندنا من ألّف في مسائل الاجتهاد عشرين جزءا وهو محمد بن سحنون يفخر بذلك على أتباع أبي حنيفة، وتصفّح محمد بن عبدالله بن عبدالحكم كتاباً من كتب ابن سحنون فقال هذا كتاب رجل يسبح في العلم سبحا.

ألّف ابن سحنون كتاباً في الحديث سمّاه المسند وكتاباً مشهوراً سمّاه الجامع، جمع فيه فنونا من العلم والفقه كثيرة، اعتمده عامّة من جاء بعده من المؤلفين في فقه المالكية، لا سيّما أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني في كتابه النوادر والزيادات، وكذلك عامّة من كتب تعليقا أو شرحاً على المدوّنة مثل ابن يونس وعبدالحميد بن الصائغ وأبي إسحاق التونسي وغيرهم، ولابن سحنون رسالة في أدب المناظرة، وكتاب تفسير الموطّأ وكتاب الحجّة على القدرية وكتاب الحجّة على النصارى وكتاب الردّ على أهل الشرك وكتاب الردّ على أهل البدع وكتاب الردّ على الإمام الشافعي وعلى أهل العراق وله كتاب بعنوان أجوبة ابن سحنون تضمّن إجابات عن أسئلة وجّهها إليه فقيه يدعى محمد بن سالم في مختلف أبواب الفقه - وقد وقع تحقيقه ونشره بدار سحنون التونسية - وله كتاب طبقات العلماء وكتاب الأشربة وكتاب التاريخ وكتاب السير وكتاب نوازل الصلاة وكتاب الزهد وكتاب في أحكام القرآن وكتاب آداب المعلّمين - وقد قام على تحقيقه وطبعه بتونس سنة ١٩٣١ المرحوم حسن حسني عبدالوهاب -

وكانت وفاته سنة ٢٥٦هـ وقد بلغ من العمر ٥٤ سنة(١).

- ٣ - محمد بن عبدوس (٢٦٠هـ).

هو أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن عبدوس بن بشير، أصله من العجم، وهو من موالي قريش، كان قرينا لمحمد بن سحنون وجارا له، نشأ معه بين يدي الإمام سحنون، وهو معدود من كبار أصحاب سحنون، ويروى أنّ ابن عبدوس أقام سبع سنين يدرس لا يخرج من داره إلاّ إلى الجمعة.

برع ابن عبدوس في دراسة العلم وتضلّع في الفقه حتى شهد له شيخه سحنون بذلك، فقد أورد القاضي عياض أنّ محمد بن عبدوس دخل يوماً على الإمام سحنون وعنده جماعة من كبار أصحابه وقد ألقى عليهم مسألة فبقي عليهم في الجواب فقال ابن عبدوس: فيم يتكلّمون ؟ فقال سحنون: أخبروه، فلمّا أخبروه بالمسألة ذكر لهم وجه الجواب والاختلاف فيها، فقال سحنون: نعم، انظروا من يدرس وأنتم تركتم الدرس.

أصبح ابن عبدوس بفضل حرصه واجتهاده من أئمّة وقته ورابع المحمّدين الأربعة اجتمعوا في عصره من أئمّة مذهب مالك لم يجتمع في زمان مثلهم: اثنان مصريان، محمد بن عبدالحكم ومحمد بن الموّاز، واثنان قرويان: محمد بن عبدوس ومحمد بن سحنون.

وكان ابن عبدوس حسن التقييد عالماً بما اختلف فيه أهل المدينة وما اجتمعوا عليه، حافظاً لمذهب مالك والرواة من أصحابه، إماماً فقيهاً غزير الاستنباط جيّد القريحة.

---

(١) ترتيب المدارك ١٠٤/٣ ـ ١١٨، رياض النفوس ٤٤٣/١ ـ ٤٥٨، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٧٨ و٢٥٦ و٢٩٦ معالم الإيمان ١٢٢/٢ ـ ١٢٤ طبقات الفقهاء ص ١٥٧ ـ ١٥٨ البيان المغرب ١١٥/١ الديباج المذهب ص ٣٣٣ ـ ٣٣٥ شذرات الذهب ٣٠٧/٢ شجرة النور الزكية ص ٧٠ تراجم المؤلفين التونسيين ١٩/٣ ـ ٢٤ كتاب العمر ٥٨٨/٢ ـ ٥٩٤ تاريخ التراث العربي ١٥٦/٣ ـ ١٥٧.

قال حبيب بن نصر ـ كاتب سحنون ـ كنت أسأل في المسائل النازلة سحنون فإن تعذّر فابن عبدوس.

وكان قاضي القيروان عبدالله بن طالب ـ من كبار أصحاب سحنون ـ شديد الإعظام لابن عبدوس عارفاً بحقّه، وكان يعتمد عليه في أحكامه ويطالبه بالمشاورة في كلّ وقت.

وكان سليمان بن عمران يقول لابن طالب: إن مات لك ابن عبدوس ما تصنع؟ فيقول ابن طالب: اللّهم أبقني ما أبقيت محمد بن عبدوس أقتدي به في ديني ودنياي، وكان يثني عليه.

وكان ابن عبدوس مع إمامته في الفقه صالحاً زاهداً ناسكاً عابداً ظاهر الخشوع، إذا رأيته يصلّي علمت أنّه ممّن يخشى الله تعالى.

وذكر ابن اللبّاد أنّ محمد بن عبدوس صلّى الصبح بوضوء العتمة ثلاثين سنة، خمس عشرة سنة من دراسة، وخمس عشرة سنة من عبادة، حتى قال حماس القاضي: ما رأيت مثل ابن عبدوس في الزهادة والفقه.

وكان من أشبه الناس بأخلاق الإمام سحنون في فقهه وزهادته وملبسه ومطعمه ذا ورع وتواضع.

قال تلميذه أحمد بن نصر: كنت إذا رحلت إلى محمد بن عبدوس وجدته قد جلس محتبياً متواضعاً زائلاً عن صدر مجلسه، فلا يعرفه أنّه صاحب المجلس إلاّ من يدريه.

وقال تلميذه محمد بن بسطام السوسي: كان مجلس ابن عبدوس في ركن المجلس، فإذا جاء السائل لم يعرفه حتى يقول من هو؟

وقال تلميذه حماس: كان ابن عبدوس يلقي علينا المسائل فإذا أشكلت شرحها فلا يزال يفسّرها حتى نفقهها، فيسرّ بذلك، وإن لم يرنا فهمناها غمّه.

ألّف ابن عبدوس كتاباً جليلاً سمّاه المجموعة على مذهب الإمام مالك، ولكنّه لم يتمّه، وله كذلك كتاب فسّر فيه أصولا من مسائل من

المدوّنة كتفسير كتاب المرابحة وتفسير المواضعة وتفسير كتاب الشفعة وكتاب الدور، وله كتاب التفاسير في أبواب من الفقه، وكتاب الورع وكتاب فضائل أصحاب مالك وكتاب مجالس مالك، وقد عدّت هذه الكتب مؤلفات أخرى، فتضاف بعض هذه الكتب إلى المجموعة.

وقد تصفّح محمد بن عبدالله بن عبدالحكم كتاباً لابن عبدوس فقال: هذا كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه، وقد كانت كتبه هذه معتمدة في عصره، ولم يكن في وقته أفقه منه.

ومن الأرجح أنّ المجموعة التي لم تكتمل وتتكوّن من خمسين جزءا هي مجموعة لكلّ مؤلفات ابن عبدوس، وقد أثنى ابن الحارث الخشني على الكتاب فوصفه بأنّه كتاب شريف على مذهب مالك وأصحابه، ويبدو أنّ عنوان الكتاب الكامل هو: المجموعة على مذهب مالك وأصحابه.

ولم تصلنا قطعة من هذا الكتاب، غير أنّه من الممكن البحث عن مضمونه أحياناً في كتاب النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني، إذ أنّ مجموعة ابن عبدوس هي من أهمّ مصادر كتاب النوادر ذلك أنّ حبيب بن نصر التميمي (٢٨٧هـ) قد عني بتوجيه مسائله الهامة في الفقه إلى أستاذه سحنون وإلى ابن عبدوس، ويبدو أنّ هذه الإجابات قد كانت فيما بعد تحت يد ابن أبي زيد.

كما أنّ الونشريسي قد أسند في معياره نقولاً عدّة وفتاوى عن ابن عبدوس في مواضع كثيرة منها نصّ بالنقل عن المجموعة[١].

وهكذا فبقدر ما كان للمركز المصري من أهميّة باعتبار كونه الذي

(١) ترتيب المدارك ١١٩/٣ ـ ١٢٤ رياض النفوس ٤٥٩/١ ـ ٤٦١ معالم الإيمان ١٣٧/٢ ـ ١٤٤ قضاة قرطبة وعلماء إفريقيّة ص ١٨٢ البيان المغرب ١١٦/١ الديباج المذهب ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٨ شجرة النور الزكية ص ٧٠ كتاب العمر٢/٥٩٥ ـ ٥٩٩ تراجم المؤلفين التونسيين ٣٤٥/٣ ـ ٣٤٧ دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ١٤٠، ١٤٨، ١٨٧.

آوى إليه العدد الأكثر والأهمّ قيمة من أصحاب مالك، وبقدر ما كان للمركز المدني من شأن أيضاً باعتبار كونه المركز الأصلي الذي كان منه الانتشار، فإنّ المذهب المالكي قد أصبح بأهميّة هذا المركز الإفريقي مذهباً إفريقيًّا باعتبار التدوين وباعتبار التطبيق(١).

وكان من أهل الأندلس:

* **أبو محمد الغازي بن قيس** (حدود ١٩٩هـ) من أهل قرطبة، كان مؤدّبا بقرطبة قبل رحلته إلى المشرق، وكان إمام الناس بها في القراءة، رحل فسمع من مالك الموطّأ وسمع من ابن أبي ذئب وابن جريج والأوزاعي، ثمّ عاد لى الأندلس بعلم عظيم نفع الله به أهلها، فكان يروي حديثاً كثيراً، وكان فقيها في المسائل رأساً في علم القرآن، وهو أوّل من أدخل موطّأ مالك وقراءة نافع الأندلس، وقيل: إنّه كان يستظهر الموطّأ من حفظه(٢).

* **زياد بن عبدالرحمٰن** (١٩٩هـ) أبو عبدالله الملقّب بشبطون، كانت له إلى مالك رحلتان، سمع منه الموطّأ، كما روى عن الليث بن سعد وسليمان بن بلال وسفيان بن عيينة وابن أبي حازم، وغيرهم من أهل العلم والفقه.

وعنه روى يحيى بن يحيى الليثي الموطّأ، وسماعه من مالك قبل رحلته من الأندلس، فأشار عليه زياد بالرحيل إلى مالك وأخذه عنه، ففعل.

وكان زياد أوّل من أدخل إلى الأندلس علم السنن ومسائل الحلال والحرام ووجوه الفقه والأحكام، وكان أهل المدينة يسمّون زياداً فقيه الأندلس.

---

(١) انظر: محاضرات للفاضل ابن عاشور ص ٣١١.

(٢) ترتيب المدارك ٣٤٧/١ ـ ٣٤٩ الديباج المذهب ص ٣١٤ جذوة المقتبس ص ٣٠٥ تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطيّة ٥٦/٢ تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ٥٧٨/٢ ـ ٥٧٩.

راوده الأمير هشام على القضاء فأبى عليه وخرج هارباً بنفسه، فقال هشام: ليت الناس كلّهم كزياد حتّى أكفي أهل الرغبة في الدنيا، ثمّ أمّنه فرجع إلى قرطبة.

له عن مالك في الفتاوى كتاب سماع معروف بسماع زياد، وله كتاب الجامع قيل إنّه كتاب غريب يشتمل على علم كثير(١).

* **أبو عثمان سعيد بن أبي هند** (٢٠٠هـ) أصله من طليطلة وسكن قرطبة، لقي مالكاً وسمع منه وكان له مكرما وكان يسمّيه حكيم الأندلس، فكان يقول لأهل الأندلس إذا قدموا عليه: ما فعل حكيمكم ابن أبي هند؟(٢).

* **أبو عبدالله محمد بن سعيد بن بشير** (١٩٨هـ) رحل إلى المشرق فلقي مالكاً وجالسه وسمع منه ثمّ عاد إلى الأندلس فاستدعي للقضاء بقرطبة، فكان خير القضاة بها وأعدلهم وأفضلهم، من عيون القضاة الهداة ومن أولي السداد والمذاهب الجميلة، وأصالة الرأي والسيرة العادلة، والذكر الجميل الخالد، وكانت له في قضائه مسالك رقاق ومذاهب لطاف لم تكن لقاض قبله بالأندلس، ولم يزل قاضياً إلى أن توفّي، وكان يشاور في قضائه عدّة من أعيان الفقهاء وأكابر العلماء كعبدالملك بن الحسن زونان من أوائل علماء أهل الأندلس علماً وفتيا (٢٣٢هـ) والغازي بن قيس، والحارث بن أبي سعد (٢٢٢هـ) الذي كان من أهل العلم والفتيا والذي عليه دارت الفتيا في عصره، وإسماعيل بن البشير التجيبي المفتي أيّام الأمير الحكم بن هشام، ومحمد بن يحيى السبائي المعروف بفطيس، فإذا اختلفوا

---

(١) ترتيب المدارك ٣٤٩/١ ـ ٣٥٣ الديباج المذهب ص ١٩٣ ـ ١٩٤ جذوة المقتبس ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٤ و٣٣ و٣٤ و٤٦ تاريخ علماء الأندلس ٢٧٩/١ ـ ٢٨٠.

(٢) ترتيب المدارك ٣٥٣/١ ـ ٣٥٥ جذوة المقتبس ص ٢١٨ تاريخ علماء الأندلس ٢٨٨/١ ـ ٢٨٩ بغية الملتمس ٤٠٣/٢.

عليه كتب إلى عبدالرحمٰن بن القاسم وعبدالله بن وهب بمصر[١].

* **أبو محمد عيسى بن دينار (٢١٢هـ)** سكن قرطبة، ورحل بعد موت مالك وأصحاب مالك متوافرون كابن القاسم وابن وهب وأشهب، غير أنّ عيسى بن دينار سمع ابن القاسم واقتصر عليه، وصحبه وعوّل عليه، فكان ابن القاسم يصفه بالفقه والورع، ووصّاه حين انصرافه وقال له: عليك بأعظم مدائن الأندلس فأنزلها ولا تنزل منزلا يضيع فيه ما حملت من العلم، فلمّا عاد عيسى إلى الأندلس كانت له بها رئاسة، وكانت الفتيا تدور عليه لا يتقدّمه في وقته أحد بقرطبة، وكان لا يعدّ في الأندلس أفقه منه في نظرائه.

وهو الذي علّم أهل الأندلس المسائل والفقه، وأوّل من أدخل الأندلس رأي ابن القاسم وكان أفقه من يحيى بن يحيى على جلالة قدر يحيى، وبه وبيحيى انتشر علم مالك بالأندلس.

وكان مع فقهه مشهور بالورع، على طريقة عالية من الزهد والعبادة، وكان إذا قرأ القارىء على عيسى ومرّ بذكر الجنّة والنّار لم ينتفع الطلبة به ذلك اليوم.

وكان ابن القاسم يجلّه ويثق في فقهه وعلمه، فقد روي أنّ سحنوناً لمّا أصلح الأسديّة على ابن القاسم ـ وكان لعيسى نسخة من الأسدية سجّلها حين حضر أسئلة أسد بن الفرات لابن القاسم ـ كتب عيسى إلى ابن القاسم يسأله عمّا رجع عنه من مسائل ويطلب منه إعلامه بها ـ وكان ابن دينار يعجبه ترك الرأي والأخذ بالحديث ـ فكتب إليه ابن القاسم: أعرضه على عقلك فما رأيت حسناً فأمضه، وما أنكرت فدعه.

ولعيسى سماع من ابن القاسم عشرون كتاباً، وله تأليف في الفقه

(١) ترتيب المدارك ٤٩٣/٢ ـ ٥٠٥ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٥٤ ـ ٥٥.

يسمّى الهدية قيل هو من أرفع الكتب وأجمعها في معناها على مذهب مالك[١].

* **أبو محمد يحيى بن يحيى الليثي (٢٣٤هـ)** طلب العلم أوّل الأمر على زياد بن عبدالرحمٰن المعروف بشبطون، وكان شيخه زياد هو الذي اجتهد في تعليمه حتى برع، ثمّ شجّعه على الرحلة إلى المشرق لملاقاة كبار الأئمّة، فحجّ يحيى وهو ابن ٢٨ سنة فسمع بالمدينة من مالك ومن نافع بن أبي نعيم القارىء وغيرهما، وكان مالك يعجبه سمت يحيى وعقله، وقد روي عنه أنّه كان يوماً جالساً في جملة أصحاب مالك، فإذا قائل يقول: قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلّهم لينظروا إلاّ يحيى فإنّه لم يخرج، فقال له مالك: لم لم تخرج فترى الفيل؟ فقال له يحيى: إنّما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلّم من علمك، لا أن أنظر إلى الفيل فأعجب به مالك وسمّاه عاقل الأندلس.

وسمع بمكّة من سفيان بن عيينة، وبمصر من الليث بن سعد وعبدالله بن وهب، ثمّ كانت له رحلة ثانية لقي فيها جملة من أصحاب مالك وسمع من ابن القاسم وبه تفقّه.

رجع إلى الأندلس بعلم كثير فعادت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينار إلى رأيه، وسمع منه رجال الأندلس في وقته، ولم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى، فكان إمام بلده المقتدى به المنظور إليه المعوّل عليه، وكان يفتي برأي مالك لا يدع ذلك إلاّ في مسائل معدودة، خالف فيها مالك وأخذ فيها برأي الليث بن سعد فكان لا يرى القنوت في الصبح ولا غيرها اقتداء بالليث بن سعد، وخالف مالكاً في الأخذ باليمين مع الشاهد، فلم ير القضاء به، وأوجب شهادة رجلين أو رجل وامرأتين كما هو رأي الليث، وقضى برأي أمينين إذا لم يوجد من أهل الزوجين حكمان، ورأى كراء

(١) ترتيب المدارك ١٦/٣ ـ ٢١ الديباج المذهب ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ جذوة المقتبس ص ٢٧٩ تاريخ علماء الأندلس ٥٥٦/٢ ـ ٥٥٧.

الأرض بجزء ممّا يخرج منها على مذهب الليث.

وكان يقال: فقيه الأندلس عيسى بن دينار وعالمها ابن حبيب وعاقلها يحيى بن يحيى.

وكان مع إمامته ودينه مكيناً عند الأمراء معظّماً، وعفيفاً عن الولايات متنزّها، جلّت درجته عن القضاء، فكان أعلى قدرا من القضاة عند ولاّة الأمر بالأندلس لزهده في القضاء وامتناعه منه.

وكانت وفاة يحيى سنة ٢٣٤هـ وقد بلغ من العمر ٨٢ سنة[١].

ثمّ نشأ بعد هؤلاء الأعلام من أهل الأندلس رجال تلقّوا عن أصحاب مالك وسمعوا منهم فتكوّنوا على طريقتهم ملتزمين مذهب مالك ناهجين في التفقّه نهجه ومسلكه، فكان من أشهرهم:

ـ ١ ـ سعيد بن حسّان الصائغ (٢٣٦هـ) رحل إلى المشرق سنة ١٩٧هـ فروى عن عبدالله بن عبدالحكم وأشهب ومنه استكثر، حتّى عدّ راوية أشهب، فسمع منه سماعه من مالك وكتب رأيه، ثمّ عاد إلى الأندلس سنة ٢٠٤هـ فكان فقيهاً في المسائل مشاوراً مع يحيى بن يحيى وطبقته، وكان منقطعا إلى مؤاخاة يحيى آخذا بهديه معظّما له، لم يخالفه في شيء يراه، وكان الأغلب عليه حفظ رأي أشهب وفقهه وروايته عن مالك[٢].

ـ ٢ ـ محمد بن عيسى المعافري (٢٢١هـ) أبو عبدالله المعروف بالأعشى، رحل في العام الذي مات فيه مالك، سمع من سفيان الثوري ووكيع بن الجرّاح وابن كنانة والمخزومي وغيرهم، وكان الغالب عليه الحديث والأثر، روى بمصر أربعين ألف مسألة عن ابن القاسم وابن وهب

(١) ترتيب المدارك ٢/٥٣٤ ـ ٥٤٧ الديباج المذهب ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ جذوة المقتبس ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ تاريخ علماء الأندلس ٢/٨٩٠ ـ ٨٩٨ بغية الملتمس ٢/٦٨٥ ـ ٦٨٧.

(٢) ترتيب المدارك ٣/٢١ ـ ٢٢ جذوة المقتبس ص ٢١٣ تاريخ علماء الأندلس ١/٤٧٠ بغية الملتمس ٢/٣٩٣.

وأشهب سوى ما روى عن أصحاب مالك المدنيين، وكان يذهب في الأشربة مذهب أهل العراق(١).

- ٣ - عبدالملك بن حبيب بن سليمان السلمي (٢٣٨هـ) أصله من طليطلة، انتقل جدّه سليمان إلى قرطبة، وانتقل أبوه حبيب إلى البيرة، روى ابن حبيب بالأندلس عن صعصعة بن سلام تلميذ الأوزاعي والغازي بن قيس وزياد بن عبدالرحمٰن، ورحل سنة ٢٠٨هـ فسمع ابن الماجشون ومطرف وابن أبي أويس وعبدالله بن عبدالحكم وأصبغ بن الفرج وجماعة سواهم، ثمّ عاد إلى الأندلس سنة ٢١٠هـ وقد جمع علماً عظيما، فنزل بلدة البيرة وقد انتشر علمه وروايته فنقله الأمير عبدالرحمٰن بن الحكم إلى قرطبة وجعله في المفتين بها، فأقام مع يحيى بن يحيى زعيمها في المشاورة والمناظرة.

انفرد عبدالملك بعد يحيى برئاسة الفقه بالأندلس، كان حافظاً للفقه على مذهب مالك نبيها فيه، جمّاعا للعلم كثير الكتب، حتى روي أنّه كان إذا خرج من الجامع تبعه نحو ثلاثمائة طالب بين حديث وفرائض وفقه وإعراب.

أثنى عليه ابن الموّاز بالعلم والفقه، وكانت وفاته سنة ٢٣٨هـ وقيل ٢٣٩هـ وقد بلغ ستّا وخمسين سنة، ولمّا نعي إلى سحنون، استرجع وقال: مات عالم الأندلس، بل والله عالم الدنيا.

ألّف ابن حبيب كتبا كثيرة منها الواضحة في السنن والفقه، وقد قال فيها العتبي: ما أعلم أحداً ألّف على مذهب أهل المدينة تأليفه، ولا لطالب أنفع من كتبه ولا أحسن من اختياره.

وله أيضاً كتاب الجوامع وكتاب فضائل الصحابة وكتاب غريب

---

(١) ترتيب المدارك ٢٣/٣ - ٢٥ جذوة المقتبس ص ٦٩ تاريخ علماء الأندلس ٦٣٣/٢ - ٦٣٤.

وله أيضاً كتاب الجوامع وكتاب فضائل الصحابة وكتاب غريب الحديث وكتاب إعراب القرآن وكتاب الفرائض وكتاب المواعظ وكتاب الفضائل وكتاب فضائل النبيّ والصحابة وفضائل مالك بن أنس وتفسير القرآن والناسخ والمنسوخ ورغائب القرآن وغير ذلك من كتب سماعاته في الحديث والفقه، وله تآليف في الطبّ وفي النجوم، حتى قيل إنّ بعض الفقهاء كانوا يحسدونه لتقدّمه عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها[1].

- ٤ - يحيى بن معمر بن عمران (٢٢٦هـ) من أهل إشبيلية، كان في ووقته فقيه إشبيلية وفارضها، له رحلة لقي فيها أشهب بن عبدالعزيز وأخذ عنه وعن غيره من أهل العلم، وكان ورعاً زاهداً عفيفاً مقبلاً على عمارة ضيعته فاستقدمه الأمير عبدالرحمٰن بن الحكم وولاّه قضاء قرطبة فكان من خير القضاة في قصد بصيرته وحسن هديه، وكان إذا أشكل عليه أمر من أحكامه واختلف عليه الفقهاء، كتب في المسألة إلى أصبغ بن الفرج وغيره من نظرائه بمصر يسألهم وجه الصواب في الأمر.

وكانت آفة يحيى بن معمر قلّة رضاه عن الفقهاء وقلّة مداراته لهم، فتفرّقوا عنه جميعا وكان أشدّهم عليه زعيم الجماعة يحيى بن يحيى، وسعوا عليه جهدهم حتّى عزل.

ولمّا عزل أزمع على الرجوع إلى إشبيلية فنظروا في بيته فإذا فيه حصير وخابية من دقيق وقصعة وقلّة الماء وقدح وفراش تبن وسريرة كان ينام عليها، فقال لخادمه فرّق الدقيق على من بالباب من الفقراء وادفع الحصير والآنية إلى ضعفاء الحومة وقال: والله المحمود على اليسير وركب منصرفاً إلى بلده.

---

(١) ترتيب المدارك ٣٠/٣ - ٤٨ الديباج المذهب ص ٢٥٢ - ٢٥٦ جذوة المقتبس ص ٢٦٣ - ٢٦٥ تاريخ علماء الأندلس ٢ - ٤٥٩ - ٤٦٣ تذكرة الحفاظ ٥٣٧/٢.

ثمّ ولّي على قضاء قرطبة ثانية، واختلفت الأخبار هل مات معزولاً أو قاضياً[١].

ـ ٥ ـ يحيى بن إبراهيم بن مزين (٢٥٩هـ) أصله من طليطلة، انتقل إلى قرطبة فسكنها، روى عن عيسى بن دينار ومحمد بن عيسى الأعشى ويحيى بن يحيى والغازي بن قيس ونظرائهم، ورحل إلى المشرق فلقي مطرف بن عبدالله وروى عنه الموطّأ ورواه أيضاً عن حبيب كاتب مالك، ودخل العراق وسمع من القعنبي، وسمع بمصر من أصبغ بن الفرج وغيره.

كان حافظاً للموطّأ فقيهاً فيه عارفاً بمذهب أهل المدينة، حتى قيل أنّه كان أفقه أهل زمانه في علم مالك وأصحابه.

له كتاب في تفسير الموطّأ وكتاب المستقصية استقصى فيه علل الموطّأ وكتاب فضائل العلم وكتاب فضائل القرآن[٢].

ـ ٦ ـ عبدالله بن محمد بن خالد بن مرتيل (٢٥٦هـ) سمع من عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى، ورحل فسمع من سحنون بالقيروان، وسمع بمصر من أصبغ بن الفرج، ثمّ عاد إلى الأندلس فكان رأس المالكية بها والقائم بها، وكان ورعاً مهيباً معظّماً للعلم ذا صلابة في الحقّ لا يرى التقيّة ولا يبالي ما دار عليه، وكان الناس في مجلسه كأنّ على رؤوسهم الطير من الإجلال[٣].

ـ ٧ ـ أبو وهب عبدالأعلى بن وهب (٢٦١هـ) سمع من يحيى بن

---

(١) ترتيب المدارك ٥١/٣ ـ ٥٥ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٧٠ ـ ٧٥ و٧٦ ـ ٧٨ جذوة المقتبس ص ٣٥٦ تاريخ علماء الأندلس ٨٩٧/٢ ـ ٨٩٨ تاريخ افتتاح الأندلس ٧٥/٢ بغية الملتمس ٦٨١/٢.

(٢) ترتيب المدارك ١٣٢/٣ ـ ١٣٤ جذوة المقتبس ص ٣٥٠ تاريخ علماء الأندلس ٩٠١/٢، بغية الملتمس ٦٩٩/٢ ـ ٦٧٠.

(٣) ترتيب المدارك ١٣٢/٣ ـ ١٣٤ الديباج المذهب ص ٢٢٨ جذوة المقتبس ص ٢٣٢ تاريخ علماء الأندلس ٣٦٩/١.

يحيى، ورحل فسمع من سحنون بالقيروان، وسمع بالمدينة من مطرف بن عبدالله ومن أصبغ، وسمع بمصر من أصبغ واستكثر منه، ثمّ عاد إلى الأندلس فأصبح من أهل الشورى بها مع شيوخها يحيى بن يحيى وسعيد بن حسّان وعبدالملك بن حبيب وأصبغ بن خليل[(١)].

ـ ٨ ـ أبو عبدالله محمد بن يوسف بن مطروح (٢٧١هـ) من أهل قرطبة، كان أعرجا وبذلك يعرف، روى بالأندلس عن الغازي بن قيس وعيسى بن دينار ويحيى بن يحيى وغيرهم، ورحل فسمع من سحنون بالقيروان، وأصبغ ومطرف بن عبدالله بالمدينة، وكانت رحلته برفقة ابن مزين وعبدالأعلى بن وهب وعبدالوهاب بن ناصح الجزيري.

كان فقيهاً حافظاً، وعالماً مبرّزاً، من أهل الشورى بقرطبة مع شيوخها يحيى بن يحيى وابن حسّان وابن حبيب، وكانت الفتيا تدور عليه مع أصبغ بن خليل وعبدالأعلى بن وهب[(٢)].

ـ ٩ ـ أبو القاسم أصبغ بن خليل (١٦٥هـ ـ ٢٧٣هـ) قرطبي، سمع بالأندلس من الغازي بن قيس ومحمد بن عيسى الأعشى ويحيى بن يحيى، ورحل فسمع من سحنون وأصبغ وغيرهما.

كان بصيراً بعلم الوثائق، وكان من أهل العلم والورع والرئاسة في الفقه، فطنا بالمسائل حسن القريحة والقياس، حافظاً للرأي على مذهب مالك وأصحابه.

دارت عليه الفتيا خمسين عاماً، وكان شديد التعصّب لرأي مالك وأصحابه وخاصّة منهم ابن القاسم، وبلغ به التعصّب أنّه اختلق حديثاً في إبطال رفع اليدين في الصلاة بعد تكبيرة الإحرام.

---

(١) ترتيب المدارك ١٣٨/٣ ـ ١٤٠ الديباج المذهب ص ٢٧٤ جذوة المقتبس ص ٢٧١ تاريخ علماء الأندلس ٤٧٤/١ ـ ٤٧٦.

(٢) ترتيب المدارك ١٤١/٣ ـ ١٤٢ الديباج المذهب ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ جذوة المقتبس ص ٩٠ تاريخ علماء الأندلس ٦٣٩/٢ ـ ٦٤٠ بغية الملتمس ١٨٢/١.

طال عمره، وكانت وفاته سنة ٢٧٣هـ وقد بلغ من العمر ٨٨ سنة[١].

- ١٠ - محمد بن أحمد بن عبدالعزيز العتبي(٢٥٥هـ) أبو عبدالله المعروف بالعتبي، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسّان وغيرهما، ورحل فسمع من سحنون وأصبغ بن الفرج.

كان حافظاً للمسائل جامعاً لها عالماً بالنوازل، ولم يكن بالأندلس في وقته من يتكلّم معه في الفقه، ولا يفهم فهمه إلاّ من تعلّم عليه.

وكان من أهل الخير والجهاد والمذاهب الحسنة، وكان لا يزول بعد صلاة الصبح من مصلاّه إلى طلوع الشمس، حتّى يصلّي الضحى، دارت عليه الأحكام والفتوى نحو ستّين عاماً.

جمع المستخرجة - مجموعة الأسمعة المسمّاة بالعتبيّة - وكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الشاذّة، وكان يأتي بالمسائل الغريبة فإذا أعجبته، قال: اجعلوها في المستخرجة.

وذكر ابن حزم الظاهري المستخرجة، فقال: لها بإفريقية القدر العالي والطيران الحثيث[٢].

واشتهر في هذه المرحلة من أهل الأندلس أيضاً أعلام سبعة كانوا في وقت واحد بالبيرة، رحلوا في طلب العلم إلى مختلف المراكز العلميّة واعتنوا اعتناءً خاصًّا بالتلقّي عن مدرسة القيروان وجمعوا الرواية عن سحنون حتّى عرفوا بروّاة سحنون، وهم: عمر بن موسى الكناني (٢٥٧هـ) فقيه البيرة بعد خروج ابن حبيب منها، وسليمان بن نصر بن المرّي (٢٦٠هـ) والفقيه الحافظ إبراهيم بن شعيب الباهلي (٢٦٥هـ) وإبراهيم بن خالد الفهري (٢٦٨هـ) وسعيد بن النمر (٢٦٩هـ) وقد كان ذا فقه وورع، ومن أجلّ أعلام هذه الطبقة وأشهرهم، ومن علية أصحاب الإمام سحنون

(١) ترتيب المدارك ١٤٢/٣ - ١٤٤ الديباج المذهب ص ١٥٩ جذوة المقتبس ص ١٦٤ تاريخ علماء الأندلس ١٥٠/١ - ١٥٢.

(٢) ترتيب المدارك ١٤٤/٣ - ١٤٦ جذوة المقتبس ص ٣٦ - ٣٧ بغية الملتمس ٧٠/١.

في الفضل والعلم، ومحمد بن عبدالله اللبدي (٢٦٥هـ) والحافظ الفقيه أحمد بن سليمان بن أبي الربيع (٢٨٧هـ) وقد تأخّرت وفاته عن أصحابه[١].

ونشير ونحن بصدد الحديث عن مدرسة الأندلس أنّ الفتيا كانت تدور بها على رأي الإمام الأوزاعي إلى زمن الحكم بن هشام (١٨٠هـ ـ ٢٠٦هـ) نظرا لكثرة القادمين إليها من أهل الشام، وكان أوّل من أدخل الأندلس مذهب الأوزاعي أبو عبدالله صعصعة بن سلام (١٩٢هـ) الدمشقي، الذي دخل مصر وتتلمذ على الأوزاعي، ثمّ دخل الأندلس فولي خطابة جامع قرطبة في زمن هشام الأوّل (١٧٢هـ ـ ١٨٠هـ) ولم يزل بها إلى أن توفّي[٢]، ثمّ غلب على الأندلس بعد ذلك مذهب مالك، حتّى أنّ بعض الذين كانوا يذهبون مذهب الأوزاعي مثل عبدالملك بن الحسن زونان ـ وهو من أوائل علماء أهل الأندلس علماً وفتياً ـ قد عدلوا عن مذهب الأوزاعي ومالوا إلى مذهب مالك، وعدّ القاضي عياض من أعلام الأندلسيين الملتزمين بالمذهب المالكي في هذه المرحلة التي نحن بصدد دراستها أكثر من تسعين فقيهاً.

بل إنّنا لنلاحظ أنّه بحكم الكثرة الكاثرة من الأندلسيين الآخذين على ابن القاسم قد أصبح أهل الأندلس أشدّ الناس التزاماً بالعمل بمقتضى فتاويه حتّى كان القضاة لا يخرجون في أحكامهم عن قول ابن القاسم إلى غيره من أصحاب مالك، وقد روي في ذلك أنّ عبدالملك بن حبيب أراد من قاضي قرطبة يحيى بن معمر أن ينفّذ حكماً أشار به عليه على قول أشهب خلافاً لقول ابن القاسم، فقال ابن معمر: والله لا أفعل، ولا أخالف ما وجدت عليه أهل البلد من العمل على قول ابن القاسم[٣].

---

(١) جذوة المقتبس ص ٢٢٧، تاريخ علماء الأندلس ٣٥٤/١.

(٢) ترتيب المدارك ١٥٥/٣ ـ ١٥٧، تاريخ علماء الأندلس ٦٣٤/٢ ـ ٦٣٦.

(٣) ترتيب المدارك ٥٤/٣، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٧٧.

ورغم هذا التوجّه العام والجديد الذي سارت عليه الأندلس في التزام المذهب المالكي، فإنّ ذلك لم يمنع بعض الفقهاء من أمثال يحيى بن يحيى الليثي الذي كان يفتي برأي مالك ولا يدع ذلك، أن يفتي في مسائل برأي الليث بن سعد مخالفاً فيها ما سار عليه مالك وأصحابه.

ومن خلال تتبّع تراجم أعلام أهل الأندلس في هذه المرحلة نلاحظ كذلك سمتين بارزتين تكاد الأولى تنسحب على جميع الأعلام، وهي على الرغم من اشتهار مالك بسعة علمه بالحديث ورجاله، إلى جانب اتّصافه بإتقان الفقه والتقدّم في مسائله، إلاّ أنّ هذه الصفة المتمثّلة في الجمع بين سعة الرواية والعلم بالحديث من ناحية، ومتانة الفقه في المسائل من ناحية ثانية قد أعوزت الكثير من أعلام الأندلس، فلم يظهر في كثير منهم العناية بالحديث عناية لازمة لزوم أهل عصرهم، حتّى وصف الكثير منهم بقلّة البضاعة في الحديث.

فنجد عبدالله بن نافع الصائغ رغم أنّه صحب مالكاً أربعين سنة ولزمه لزوماً شديداً وجلس مجلسه بعد ابن كنانة، فإنّه لم يكن صاحب حديث ولم يكن في الحديث بذاك وكان ضعيفاً فيه[1].

ونجد قرعوس بن العباس (٢٢٠هـ) من أهل قرطبة رغم أنّه سمع من مالك وسفيان الثوري وابن جريج والليث بن سعد وابن أبي حازم وغيرهم، وكان عالماً بالمسائل على مذهب مالك وأصحابه، كثير الفقه، إلاّ أنّه لم يكن له علم بالحديث[2].

ونجد عبدالملك بن زونان الذي كان يفتي في أيّام هشام بن عبدالرحمٰن مع يحيى بن يحيى، كان الأغلب عليه الفقه ولم يكن من أهل الحديث[3].

(١) ترتيب المدارك ٣٥٦/١ ـ ٣٥٧، الديباج المذهب ص ٢١٣.
(٢) ترتيب المدارك ٤٩٢/٢، الديباج المذهب ص ٣٢٥.
(٣) ترتيب المدارك ٢٠/٣، الديباج المذهب ص ٢٥٨.

ونجد محمد بن خالد بن مرتيل المعروف بالأشجّ (٢٢٠هـ) الذي سمع من ابن وهب وأشهب وابن نافع ونظرائهم من المدنيين والمصريين، قد غلب عليه الفقه ولم يكن له علم بالحديث(١)، وكذلك الشأن بالنسبة لابنه عبدالله الذي كان من أهل العلم وكان رأس المالكيّة بالأندلس والقائم بها، فعلى جلالة قدره وحفظه للفقه وتقدّمه على أصحابه، فلم يكن له علم بالحديث(٢).

ونجد قاسم بن هلال بن يزيد (٢٣٧هـ) الذي سمع من ابن القاسم وابن وهب وغيرهما، وتلقّى عن المصريين والمدنيين من أصحاب مالك، كان عالماً بالمسائل ولم يكن عنده علم بالحديث(٣).

وحتّى عبدالملك بن حبيب الذي كان زعيم قرطبة في المشاورة والمناظرة مع يحيى بن يحيى، فقد ذكر ابن الفرضي: أنّه لم يكن له علم بالحديث ولا معرفة بصحيحه من سقيمه(٤).

وكذلك الشأن بالنسبة ليحيى بن يحيى الذي قال فيه ابن عبدالبرّ: لم يكن له تبصّر بالحديث(٥).

ويحيى بن مزين الذي كان يحفظ الموطّأ وكتبه حفظا ويتقن ضبطها، والذي كان من أفقه الناس في علم مالك وأصحابه، فرغم مكانته العلميّة وإتقان الحفظ وجودة العقل فقد ورد بأنّه كان قليل الرواية وبأنّه لم يكن له علم بالحديث(٦).

وعبدالأعلى بن وهب، فرغم أنّه كان من شيوخ أهل الشورى

---

(١) ترتيب المدارك ٢٦/٣ الديباج المذهب ص ٣٣٠.
(٢) ترتيب المدارك ١٣٤/٣.
(٣) ترتيب المدارك ٢٧/٣.
(٤) ترتيب المدارك ٣٢/٣، ٣٧ الديباج المذهب ص ٢٥٣.
(٥) ترتيب المدارك ٥٣٧/٢ الديباج المذهب ص ٤٣١.
(٦) ترتيب المدارك ١٣٣/٣.

بقرطبة، فلم يكن هو الآخر له معرفة بالحديث(١).

وأصبغ بن خليل الذي كان حافظاً للرأي على مذهب مالك وأصحابه، فرغم أنّ الفتيا قد دارت عليه خمسين سنة فقد كان يعادي أهل الأثر ولم يكن له معرفة بالحديث ـ كما قال عياض ـ وبلغ به الحدّ فيما قاله ابن الفرضي وغيره أن اختلق حديثاً في إبطال رفع اليدين في الصلاة بعد الإحرام(٢).

وأمّا السمة الثانية فتتمثّل في التنازع والمهاجرة التي كانت مستحكمة بين علماء أهل الأندلس ولم يسلم من شرّها إلاّ القليل، حتى يكاد الدارس لهذه المرحلة أن يقتنع بأنّ المعاصرة بين العلماء تقتضي بالضرورة المنافرة.

فهذا قاضي قرطبة يحيى بن معمر(٣) الذي عدّ من خير القضاة في قصد بصيرته وحسن هديه، والذي كان لا يخالف الحقّ ولا يخاف في الله لومة لائم، كان فقهاء قرطبة يتّبعون عثراته، وكان أشدّهم عليه يحيى بن يحيى الليثي، الذي سعى في عزله، وكان يحيى بن معمر لا يحضر مجلسه ولا يشاوره.

وقد كانت آفة هذا القاضي قلّة رضاه عن الفقهاء وتتبّعه سقطاتهم وقلّة مداراته لهم، لا يلين لهم فيما يريدون، ولا يصغي إليهم فيما يحبّون، حتّى حمل سبعة عشر فقيهاً منهم السخط عليه، وتفرّقوا عنه بأجمعهم ورفعوا عليه من كلّ جانب وسعوا عليه جهدهم وشهدوا عليه شهادات أرسلوا بها إلى الأمير، فتصفّحها، ولمّا لم يجد فيها شهادة يحيى بن يحيى وجّه بالكتاب إليه لينظر فيه ويكتب له برأيه، فكتب يحيى بن يحيى: ما عندي من أخبار القاضي شيء لأنّه لم يكن يحضرني

(١) ترتيب المدارك ١٣٨/٣ الديباج ص ٢٧٤.

(٢) ترتيب المدارك ١٤٣/٣ ـ ١٤٤.

(٣) ترتيب المدارك ٥١/٣ ـ ٥٥ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٧٢ ـ ٧٤ و٧٦ ـ ٧٧.

مجلسه ولا يشاورني، وأمّا الشهادات الواقعة عليه فلو وقع مثلها على مالك والليث ما رفعا بعدها رأساً، فأمسى ابن معمر معزولاً.

ثمّ رأى الأمير بعد حين إعادة ابن معمر للقضاء ثانية وقال: والله ما أشكّ في فضل الرجل وورعه، وإنّي لأظنّ أنّ الواقعين قد تألّبوا عليه بالباطل، فلمّا عاد ابن معمر للقضاء حلف ألاّ يستبقي يحيى بن يحيى ولا عبدالملك بن زونان ولا سعيد بن حسّان وبقيت الأحكام معلّقة إلى حين، فأنكر الأمير ذلك، فقال له ابن معمر: قد أقسمت على ذلك، وفي البيرة عبدالملك بن حبيب رجل من أهل العلم والتقدّم ستغنى به عنهم، فأقدمه وانفرد بفتياه.

ويذكر عياض أنّ الفقهاء كانوا بعد ذلك يحسدون ابن حبيب لتقدّمه عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها ولا يشرعون فيها[1].

ثمّ ما لبث أن اختلف ابن معمر وابن حبيب في قضيّة أراد ابن معمر أن يحكم فيها بقول ابن القاسم، وأفتاه ابن حبيب بقول أشهب، وما زال التراجع بينهما حتّى قام ابن حبيب مغضباً، فقيل لابن معمر: هذا أبقه على أعدائك، كأنّي به قد صار في عددهم، فقال ابن معمر: بالعزل تخوّفونني، ليت بغلتي عجزت في سهلة الحدود منصرفاً إلى إشبيلية ـ مسقط رأس ابن معمر ـ[2].

ويبدو أن المنافرة بين ابن معمر ويحيى بن يحيى قد طالت إلى أن مات ابن معمر، فقد روي أنّه لمّا احتضر يحيى بن معمر بأشبيليّة، قال لمولى له من أهل الصلاح: أقسم بالله عليك أجلّ الأقسام إذا أنا متّ أن تذهب ليحيى وتقول له يقول لك ابن معمر: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾[3] ففعل ذلك، فبكى يحيى بن يحيى، وقال: إنّا للّه وإنّا إليه

---

(١) ترتيب المدارك ٣/٣٦.

(٢) ترتيب المدارك ٣/٥٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

راجعون، ما أظنّه إلاّ خدعنا في الشيخ وسيء بيننا وبينه، ثمّ استغفر الله مليًا ودعا له[١].

وهذا عبدالملك بن حبيب نفسه لمّا استحكم له الأمر بقرطبة قد أساء القول جدًا في جماعة من أهل العلم منهم إبراهيم بن حسين بن خالد وابن الحارث وعبدالأعلى بن وهب ـ ممّن رأوا تنفيذ حكم الإعدام على هارون بن حبيب أخي عبدالملك بن حبيب ـ وحتّى ممّن رأوا عدم قتل أخيه وأفتوا بحبسه وضربه كالقاضي سعيد بن سليمان البلوطي وإبراهيم بن حسن بن عاصم ـ في قصّة مشهورة ـ واتّهمهم بعداوته له وطلب من الأمير عبدالرحمٰن بن الحكم عدم قبول مشورتهم، وعرض بما يوجب إسقاط فتواهم واعتذر لأخيه برسالة طويلة تضمّنت حسن المخرج بكلام أخيه وإسقاط الحدّ عنه والعقوبة، فأخذ الأمير بقول ابن حبيب وأمر بإطلاق سراح أخيه هارون بن حبيب[٢].

ويذكر عياض أيضاً أنّ الذي كان بين عبدالملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثي يسيء جدًّا[٣].

ويذكر أنّ سبب تقديم عبدالأعلى بن وهب إلى الشورى تضافره مع يحيى بن يحيى وسعيد بن حسّان على عبدالملك بن حبيب، وذلك أنّ ابن حبيب كان يخالفهما كثيراً في الفتيا فاتّفق أن حضروا يوماً عند القاضي في المجلس مسألة أفتى فيها يحيى وسعيد بفتوى وخالفهما ابن حبيب وادّعى قوله في رواية عن أصبغ، وكان عبدالأعلى راوية أصبغ، لقيه واستكثر من الأخذ عنه، فاجتمع به سعيد بن حسّان وسأله عن المسألة، وهل يذكر فيها عن أصبغ شيئاً، فأخبره عن أصبغ بما وافق فتياه وفتيا يحيى، واستظهر بالقرطاس الذي سمع فيه من أصبغ، فاجتمع سعيد ويحيى على أن يسألا

(١) ترتيب المدارك ٥٥/٣ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٧٨.
(٢) ترتيب المدارك ٤٠/٣ ـ ٤٤.
(٣) ترتيب المدارك ٣١/٣.

القاضي إعادة الشورى وإحضار عبدالأعلى، ففعل ذلك، فأفتى ابن حبيب بمثل فتياه أوّلاً عن أصبغ، فقال له عبدالأعلى: كذبت وأخرج كتابه عن أصبغ، فأراه القاضي فعنّف ابن حبيب وقال له: إنّما تخالف أصحابك بالهوى، فرفع ابن حبيب بالأمر كتاباً إلى الأمير عبدالرحمٰن بن الحكم يشكو فيه تحامل يحيى وسعيد عليه، ويغري بالقاضي وأنّه شاور عبدالأعلى دون إذنك، فأنكر الأمير ذلك وأغلظ للقاضي ولحقت عبدالأعلى غضاضة، فرفع إلى الأمير كتاباً يذكر فيه ولاءه ويصف رحلته وما عنده من العلم ويستقيله من وكسه إيّاه ويستشهد بالشيخين ـ يحيى وابن حسّان ـ والقاضي فاستعطفه بذلك وأمر بإلحاقه مرتبة الشورى فتقلّدها إلى أن توفّي(١).

وحضر بإثر ذلك في مجلسهم عند الأمير عبدالرحمٰن، فسألهم الأمير عن مسألة فبدر عبدالملك بن حبيب، وقال فيها بسماعه عن أصبغ بن الفرج، فقال عبدالأعلى: صدق، سمعت أصبغ يقول مثله، فعاتبه يحيى وسعيد وغيرهما، وقالا له: رجوناك أن تكفناه فصرت حزباً معه، فقال لهم عبدالأعلى: لو أنّي بدأت بتكذيبه استجفاني الأمير، ولقد رأيت ترك ذلك حتّى يظهر منّي للأمير علم ثمّ لن يفوت هذا، فكان بعد ذلك يكذبه ويخالفه(٢).

ومن غريب ما يذكر أيضاً أنّ الذين أوقعا بين ابن القاسم وأشهب حتى أفسدوا ما بينهما وحلف أشهب بالمشي إلى مكّة أن لا يكلّم ابن القاسم ثمّ ندم وأراد أن يمشي تكفيراً عن يمينه، كانا من أهل الأندلس أحدهما هو موسى بن الفرج الذي روى عن أشهب وكان فقيهاً في المسائل على مذهب مالك، من أهل الفتيا، وقد دعا عليه ابن القاسم وقال: لأعرضنّه على الله بالبكور والأسحار(٣).

---

(١) ترتيب المدارك ١٣٩/٣.
(٢) ترتيب المدارك ١٣٩/٣ ـ ١٤٠.
(٣) ترتيب المدارك ٤٩/٣.

وأمّا العراق:

فقد بدأ المذهب المالكي يأخذ طريقه إليه عن طريق ثلّة من أصحاب مالك مثّلوا النواة الأولى للمالكيّة بالعراق، وتكوّنت بهم بيئة مالكيّة عراقيّة، وهم:

* **سليمان بن بلال**: الذي ولّي القضاء ببغداد للخليفة الرشيد وتوفّي وهو على القضاء قبل وفاة مالك بثلاث سنوات[١].

* **محمد بن عمر الواقدي**: أبو عبدالله المدني، وعداده في البغداديين، سكن بغداد وولّي القضاء بها للرشيد ثمّ للمأمون، روى عن مالك حديثاً كثيراً وفقها ومسائل، وكان واسع العلم كثير المعرفة عالماً بالحديث والسير والمغازي والفتوح والأخبار واختلاف الناس في الحديث والأحكام وإجماعهم، وكانت وفاته ببغداد وهو على القضاء سنة ٢٠٧هـ، وقد جاوز المائة[٢].

* **عبدالله بن مسلمة القعنبي**: المدني الأصل الذي سكن البصرة، واعتبر من عداد البصريين، وقد روى عن مالك ولزمه عشرين سنة حتى قرأ عليه الموطّأ، وروى عن ابن أبي ذئب والليث بن سعد والدراوردي وسليمان بن بلال وغيرهم، وكان مالك يجلّه وحين سمع بقدومه قال لمن حوله: قوموا بنا إلى خير أهل الأرض نسلّم عليه، وقام فسلّم عليه، وكانت وفاته بمكّة سنة ٢٢٠هـ[٣].

* **يحيى بن يحيى بن بكير النيسابوري**: روى عن مالك الموطّأ، ولازمه مدّة في الاقتداء به، وعدّه ابن عبدالبرّ في الفقهاء من أصحاب

---

(١) ترتيب المدارك ٢٩٨/١ الديباج المذهب ص ١٩٥.
(٢) ترتيب المدارك ٤٠٤/١ ـ ٤٠٧ الديباج المذهب ص ٣٢٩.
(٣) الفهرست ص ٢٥١ ترتيب المدارك ٣٩٨/١ ـ ٣٩٩ الديباج المذهب ص ٢١٤ تذكرة الحفاظ ٣٨٣/١.

مالك، وروى عن الليث بن سعد وابن لهيعة وسفيان بن عيينة وعبدالله بن المبارك وسليمان بن بلال وغيرهم، وكان أحمد بن حنبل يثني عليه ويقول: ما أخرجت خراسان بعد عبدالله بن المبارك مثله، ولم ير محدّث أورع منه، وكان قد أخذ تلك الشمائل من مالك بن أنس، أقام عليها لأخذها سنة كاملة بعد أن استكمل سماعه من مالك، وقال: إنّما أقمت مستفيداً لشمائله، فإنّها شمائل الصحابة والتابعين، وكانت وفاته سنة ٢٢٦هـ(١).

* **هارون بن عبدالله الزهري**: أبو يحيى المكّي، نزل بغداد، روى عن مالك وأسندوا له عنه أحاديث، وسمع من ابن وهب وابن أبي حازم، وهو أعلم من صنّف الكتب في مختلف قول مالك، وكان يقوم بنصرة مذهب أهل المدينة فيحسن.

ولاّه المأمون القضاء ثمّ صرفه عنه في مناسبات ثلاث، آخرها قضاء مصر سنة ٢١٧هـ وصرفه عنه سنة ٢٢٦هـ، فكان في قضائه محموداً عفيفاً عدلاً ذا قدر، وكانت وفاته سنة ٢٢٨هـ(٢).

ونشأ بعد هؤلاء جماعة من أئمّة المذهب المالكي لم يدركوا مالكاً فتفقّهوا على أصحابه وأدركوا القمّة في الفهم وبلغوا الغاية في النظر والاجتهاد، وكان من أشهرهم:

ـ ١ ـ أحمد بن المعذّل (٢٤٠هـ).

هو أحمد بن المعذل بن غيلان بن الحكم البصري، أصله من الكوفة، كان من أصحاب عبدالملك بن الماجشون، وسمع ابن أبي أويس وغيره.

كان مفوّهاً ورعاً متّبعاً للسنّة، من الفقهاء الأدباء الفصحاء النظّار، ومن المعدودين في زهّاد البصرة وعلمائها، وكان فقيهاً بقول مالك، ولم

(١) ترتيب المدارك ٤٠٧/١ ـ ٤٠٩ الديباج المذهب ص ٤٣٠.

(٢) ترتيب المدارك ٥١٥/٢ ـ ٥٢١ الديباج المذهب ص ٤٢٨.

يكن لمالك بالعراق أرفع منه ولا أعلى درجة ولا أبصر بمذهب أهل الحجاز منه، وكان أهل البصرة يسمّونه الراهب لفقهه ونسكه.

تفقّه عليه جماعة من كبار المالكيّة كالقاضي إسماعيل بن إسحاق وأخيه حمّاد ويعقوب بن شيبة.

توفّي وقد قارب الأربعين سنة.

صنّف كتاب الحجّة وكتاب الرسالة[١].

- ٢ - إسحاق بن إسماعيل بن حمّاد (٢٥٦هـ).

هو إسحاق بن إسماعيل بن حمّاد البصري، - والد إسماعيل القاضي - ولّي المظالم بمصر أيّام المأمون والخطابة، وولّي مظالم البصرة.

كان جدّه حمّاد بن زيد إمام البصرة، مشهوراً، كان أوّلاً بزّازاً، ثمّ لزم العلم فانتفع وانتفع به، وارتفع ولده به وتجرّدوا لمذهب مالك في أيّامه وتفقّهوا به، حتى قيل بلغوا مناصب القضاء والفتيا والتدريس، ولا يعلم بيت بلغ ما بلغه بيت آل حمّاد[٢].

- ٣ - يعقوب بن شيبة (٢٦٢هـ).

هو يعقوب بن شيبة بن الصلت السدوسي، كان من فقهاء البغداديين على قول مالك، وكان بارعاً في مذهب مالك، وألّف فيه تآليف جليلة، تلقّى العلم عن أحمد بن المعذّل وأصبغ بن الفرج والحارث بن مسكين، ولقي جماعة من أصحاب مالك.

كان من ذوي السند وكثرة الرواية، وأحد أعلام أهل الحديث المسندين، وقيل إنّه لم يتكلّم أحد عن علل الحديث بمثل كلام يعقوب وعلي بن المديني والدارقطني.

---

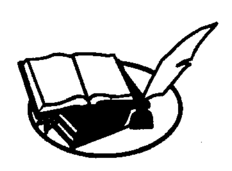
(١) ترتيب المدارك ٢/٥٥٠ - ٥٥٨ شذرات الذهب ٢/٢٢٣.

(٢) ترتيب المدارك ٢/٥٥٨ - ٥٥٩.

سكن بغداد وحدّث بها، وتوفّي وله من العمر ٨٠ سنة[١].

وهكذا توزّع المذهب المالكي على مراكز خمسة، هي المركز الأصلي الذي هو مركز المدينة المنوّرة وأربعة مراكز أخرى هي مصر وإفريقية والأندلس والعراق، فكان لكلّ مركز رجاله الذين قاموا على نشر المذهب، وكان أكثر المراكز عدداً وأسماهم قدراً المركز المصري الذي نشأ به عبدالرحمٰن بن القاسم أكثر أصحاب مالك شهرة وأتمّهم قياماً على فقهه.

واستمرّ نشاط رجال المذهب في هذه المراكز مع التلاميذ الذين دوّنوا أسمعة شيوخهم من أصحاب مالك فأنتج هذا النشاط الموسّع حركة تدوينيّة نشيطة داخل المذهب المالكي توّجت بظهور مصنّفات جامعة لفقه مالك ومسائله ولفتاوى وآراء كبار أصحابه وأكثرهم ملازمة له.



(١) ترتيب المدارك ٣/٥٦ ـ ٥٩ الديباج المذهب ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨.



حركة التدوين والتفريع في المذهب المالكي

إذا كان الإمام مالك قد دوّن الموطّأ الذي هو كتاب علم وفقه أو كتاب أثر ونظر، فإنّ ناحية الفقه باعتبار التفريع التي يعبّر عنها بالمسائل لم تدوّن من طرف مالك رضي الله عنه في حياته، وإنّما ابتدأ بعده أصحابه في تدوينها(١).

وقد عدّ أصحاب الطبقات من أصحاب مالك الذين أخذوا عنه الكثرة الكاثرة، وكان مالك إذا سئل عن مسألة كتبها أصحابه فيصير لكلّ واحد منهم سماع، غير أنّ الذين اشتهروا بتدوين سماعاتهم منه هم:

* عبدالرحمٰن بن القاسم المصري: وله سماعات من مالك بلغت عشرين كتاباً، وكتاب المسائل في بيوع الآجال، وكان عنده ثلاثمائة جلد عن مالك من المسائل أو نحوها(٢).

* عبدالله بن وهب المصري: وله سماعاته على مالك بلغت ثلاثين كتاباً(٣).

* أشهب بن عبدالعزيز المصري: وعدد كتب سماعه عشرون كتاباً(٤).

---

(١) محاضرات ص ٧٠.

(٢) ترتيب المدارك ٢/٤٣٤، ٤٣٩.

(٣) ترتيب المدارك ٢/٤٣٢ ـ ٤٣٣.

(٤) ترتيب المدارك ٢/٤٤٨.

* ومعن بن عيسى المدني: له سماع مشهور من مالك ذكره ابن عبدوس في المجموعة[١].

* عبدالله بن عبدالحكم المصري: له سماع من مالك، ونحو ثلاثة أجزاء ضمّنها في مختصره[٢].

* عبدالملك بن الماجشون المدني: له كتاب سماعاته وهي مشهورة[٣].

* عليّ بن زياد التونسي: له سماع من مالك ثلاثة كتب[٤].

* زياد بن عبدالرحمٰن: المعروف بشبطون القرطبي: وله عن مالك في الفتاوى كتاب سماع معروف بسماع زياد[٥].

هذا النشاط الذي ابتدأ بتدوين الأسمعة وتسجيل المسائل، قد أفرز في هذه المرحلة ميلاد مصنّفات في المذهب المالكي احتوت فقه الإمام وفتاوى الشيوخ من أصحابه، وكان الأسبق إلى ذلك عليّ بن زياد التونسي الذي أقبل على تصنيف المسائل وتبويبها، وخرّجها كتباً كتباً على مواضيع الأحكام الفقهيّة وسمّاها: خير من زنته[٦].

وبعليّ بن زياد تكوّن الفقيهان الجليلان اللذان قام عليهما دور تدوين المذهب المالكي، اشتراكا مع عليّ بن زياد، وهما: أسد بن الفرات،

---

(١) ترتيب المدارك ٣٦٨/١.
(٢) ترتيب المدارك ٥٢٤/٢.
(٣) ترتيب المدارك ٣٦٢/١.
(٤) ترتيب المدارك ٣٢٦/١.
(٥) ترتيب المدارك ٣٤٩/١.
(٦) وذكر القاضي عياض عن سحنون أنّه قال: كتاب خير من زنته، أصله لابن الأشرس - أبو مسعود عبدالرحيم بن أشرس - إلاّ أنّا سمعناه من ابن زياد، وكان يقرأه على المعنى، وكان أعرف من ابن الأشرس بالمعنى (ترتيب المدارك ٣٢٦/١).

والإمام سحنون، فكانا يتلقّيان عن ابن زياد ما تضمّنته كتابه من المسائل والأحكام، يفسّر لهم الأقوال ويقرّر لهم المعاني بما انفرد به في ذلك، فكان تكوّنهما ـ كما يقول الشيخ الفاضل ابن عاشور ـ موجّهاً لكلّ منهما إلى أن يدوّنا وإلى أن يكتبا الكتب الجامعة للمسائل الفقهيّة على قول مالك وأصحابه، فدوّن أسد بن الفرات «مدوّنة» وذهب سحنون يتدارك تلك المدوّنة مع أسد وقد تلقّياها معاً عن عليّ بن زياد(١).

وظهرت في هذه المرحلة كذلك الكتب الجامعة لمسائل الفقه المالكي في مختلف مراكز المذهب، فظهر مختصر ابن عبدالحكم بمصر ومن بعده الموّازية لابن الموّاز، وظهرت الواضحة لابن حبيب بالأندلس ومن بعدها المستخرجة من الأسمعة المعروفة بالعتبيّة للعتبي.

وبهذه الكتب الجامعة أصبح المذهب المالكي مدوّناً مضبوط الفروع والمسائل.

وفيما يلي لمحة عن هذه المصنّفات الجامعة في المذهب المالكي:

* الأسديّة والمدوّنة *:

الأسديّة نسبة لأسد بن الفرات الذي دوّن أسئلته لابن القاسم ومباحثاته معه وأجوبة ابن القاسم أحياناً بقول مالك، وأحياناً بما رأى ابن القاسم من خلافه، وأخرج ذلك في كتاب جامع دوّن فيه المذهب المالكي لأوّل مرّة تدويناً وافياً: وهو الأسدية التي اشتملت على ستّين كتاباً.

وقد كانت إجابات ابن القاسم لأسد على أربعة أقسام:

* فما حفظه عن مالك أجابه فيه بقوله.

* وما شكّ فيه قال أخال وأحسب وأظنّ.

---

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات ص ٧٠، وأعلام الفكر الإسلامي ص ٢٦، بتصرّف.

* وما كانت من مسائل مشابهة لما عند مالك قال فيها: سمعته يقول في مسألة كذا وكذا ومسألتك مثله.

* وما لم يكن لمالك فيها قول قال فيها باجتهاده على أصول مذهب مالك.

إلاّ أنّ هذا الأثر العظيم الذي أبرزه أسد قد بقي منقوصا ـ كما هو شأن كلّ عمل في ابتدائه ـ، وقد ظهر هذا النقص من جهتين:

الجهة الأولى: هو أنّه لما بنى أدراج مذهب على منهج مذهب آخر، فقد وقع فيه من الاختلاط في الأقوال والاختلال في عزوها أمور جاءت قادحة في ما يطلب في كتب الأحكام من الصحّة المطلقة.

الجهة الثانية: هي أنّ فقهاء المالكيّة اعتادوا بناء الفقه على الأحاديث والآثار كما هي طريقة مالك في الموطّأ، وقد سلك أسد في كتابه طريقة فقه خالص مبني على صريح الاجتهاد، فلذلك لقيت هذه الطريقة بعض ازورار منذ أن نشر كتاب أسد في مصر، ثمّ بعد أن عاد به إلى إفريقيّة، فكان الناس يقولون جئتنا بأخال وأظنّ وأحسب، وتركت الآثار وما عليه السلف.

وتلقّى سحنون الأسدية عن أسد على ما فيها من قلّة تحقيق الروايات وعلى ما فيها من اعتماد الفرض والتخريج والحسبان، وكان سحنون الذي تتلمذ لأسد بعد مقدمه من المشرق بالأسديّة أتمّ الناس شعورا بتينك الناحيتين من نواحي النقص، وهو الذي ساوى أسدا في الأخذ عن مؤسّس ذلك الصنيع عليّ بن زياد فانبرى سحنون ليسدّ الخلل ويرأب الصدع ورأى أن لا طريق إلى ذلك إلاّ بالعود بكتاب أسد إلى الأصل الذي أخذ عنه وهو ابن القاسم لتصحيح أقواله وضبط مشتبهه وبناء تلك المسائل على مسند الأخبار والآثار، من أجل تحقيق النقول وإتقان عزو المسائل والفتاوي والصور.

أو قل إنّ سحنونا قد لاحظ أنّ في الأسديّة اختلافات عمّا يظنّ أنّه سمعه من عليّ بن زياد، فحدا به ذلك إلى أن يرجع في تحقيق ما وقع له

فيه الشكّ، إلى الذي كان مسلّما له من بين أصحاب مالك جميعا بأنّه أتمّهم قياما على فقه مالك، فتوجّه إلى مصر في هذا السبيل سنة ١٨٨هـ وعرض على ابن القاسم - وهو أصلها - ما أخذه عن أسد راجياً منه أن يحقّق له نقولها وأن يتقن له عزو مسائلها ويزيل عنها أخال وأحسب وأظنّ، حتى يزول الشكّ ويندفع الاشتباه، فشافهه وكاشفه عن جميع مسائلها مكاشفة فقيه يفهم، واستدرك ابن القاسم أشياء كثيرة وأسقط منها ما كان يشكّ فيه من قول مالك وأجابه فيه على رأيه، فكان سحنون بهذا الصنيع قد ردّ الفقه المالكي إلى طريقته المدنيّة الأولى مع الحفاظ على ما أفاده أسد من لقاح جديد بطريقة أهل العراق، وكتب ابن القاسم لسحنون كتاباً إلى أسد يأمره فيه أن يردّ الأسدية على مدوّنة سحنون، فأنف أسد من ذلك وأبى الرجوع إلى المدوّنة فبلغ ذلك ابن القاسم فدعا أن لا يبارك الله له فيها وأن لا ينتفع بها، فأجيبت دعوته فلم يهتمّ الناس بالأسدية وأعرضوا عنها من وقتها[١]، وأفسح المجال أمام مدوّنة سحنون واقتصر الناس على التفقّه فيها وصارت أصل المذهب المرجّح روايته على غيره في إفريقية، وعوّل عليها الناس وغلب عليها اسم سحنون وانتشر ذكرها في الآفاق.

وكان تصنيف سحنون أوّلاً غير مبوّب على الأبواب، فكان يسمّى «المختلطة» لما كان فيه من اختلاط المسائل في الأبواب، ثمّ نظر فيها نظرا جديدا، فهذّبها وبوّبها ووسّع دائرتها بإيراد الأقوال المخالفة لقول مالك وقول ابن القاسم وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما اختار ذكره من بقيّة رجال التفريع في المذهب المالكي فروى عن عبدالله بن وهب وأشهب وعبدالرحمٰن بن مهدي وعليّ بن زياد، وذيّل أبوابها بالأحاديث

---

(١) ذكر القاضي عياض أنّه كان لمحمد بن عبدالحكم فيها اختصار، ولأبي زيد ابن أبي الغمر فيها اختصار، وكان راوية الأسديّة وهو الذي صحّحها على ابن القاسم بعد أسد بن الفرات، وقال: له كتب مؤلّفة حسنة في مختصر الأسديّة، وللبرقي فيها اختصار وهو الذي كان صحّحها على ابن القاسم، وعليها كان مدار أهل مصر، (ترتيب المدارك ٢/٤٧٢ و٥٦٦).

النبويّة والآثار التي أوردها بأسانيدها لتكون أصلا للفروع التي ذكرها ـ إلاّ كتبا منها مفرّقة بقيت.

على أصل اختلاطها في السماع ـ وأحياناً كان يورد مسائل بني فيها الحكم على عمل أهل المدينة، فاكتمل بذلك الصنيع وسمّي «المدوّنة».

وقد بلغت عدّة مسائل المدوّنة ٣٦٠٠٠ مسألة ـ كما ذكر عياض ـ وهكذا يمكن أن نعتبر أنّ المدوّنة قد قامت على ثلاثة من الرجال، هم:

* أسد بن الفرات باعتباره مخطّط المنهج، ومدوّن الأسديّة التي عرضها سحنون على ابن القاسم.

* وعبدالرحمٰن بن القاسم باعتباره مصيغ المادة، والرجل الذي صحّحت لديه مدوّنة أسد.

* وسحنون باعتباره المحقّق المهذّب الجامع للمدوّنة في صورتها الأولى التي هي المختلطة حيث لم تكن مبوّبة ولا مستدلّ لها بالأحاديث والآثار، ثمّ المدوّنة التي بوّبت واستدلّ لها بالأحاديث والآثار.

تلك هي قصّة المدوّنة التي أصبحت الأصل الثاني بعد الموطّأ، والمرجع الأخير للفقه المالكي، والتي أصبح عمود المذهب قائما بها من بعد سحنون، واعتبرت أمّ المذهب المرجّح روايتها على غيرها عند المغاربة، وإيّاها اختصر مختصروهم وشرح شارحوهم، وبها مناظرتهم ومذاكرتهم.

وقد رغّب الإمام سحنون نفسه في تناول المدوّنة ودراستها، فقال: عليكم بالمدوّنة فإنّها كلام رجل صالح وروايته، وكان يقول: إنّما المدوّنة من العلم بمنزلة أمّ القرآن من القرآن، تجزىء في الصلاة عن غيرها، ولا تجزىء غيرها عنها.

ونوّه ابن رشد الجدّ بالمدوّنة واعتبر أنّه ليس بعد موطّأ مالك ديوان في الفقه أفيد من المدوّنة، وأنّها عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو، وككتاب أقليدس عند أهل الحساب.

ولذلك اعتنى سائر علماء المذهب بحفظها واستظهارها حتّى روي أنّه

كان يحضر بعض مجالس العلماء أكثر من ألف فقيه معظمهم يستظهر المدوّنة من حفظه ويحفظها كما يحفظ القرآن.

وعلى المدوّنة مباشرة أو بواسطة وضعت التصانيف والتحارير والدراسات من مختصرات وشروح وتمهيدات وتعليقات وتقييدات وزيادات تواصلت بها حياة الفقه المالكي واستمرّ بها نشاط الحركة العلميّة في المذهب عبر قرون.

وأطلق علماء المالكيّة على كتاب المدوّنة مصطلح الكتاب أو الأمّ، وقدّموها على غيرها من كتب الأمّهات في المذهب[1].

*** العتبيّة أو المستخرجة *:**

العتبيّة نسبة لمحمد بن أحمد العتبي القرطبي، وتسمّى أيضاً بالمستخرجة من الأسمعة ممّا ليس في المدوّنة، وكان العتبي قد ضمّن كتابه هذا أسمعة تلاميذ مالك منه وأسمعة تلاميذهم منهم، وتوسّع في الرواية وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الشاذة، وكان يأتي بالمسائل الغريبة فإذا أعجبته قال: أدخلوها في المستخرجة.

وقد تضاربت آراء الفقهاء المعاصرين للعتبي في مستخرجته فانتقدها من أهل الأندلس محمد بن وضّاح القرطبي، وأورد في بيان ما اشتملت عليه من أخطاء حادثة وقعت له مع العتبي، قال ابن وضّاح: سألت عبدالأعلى بن وهب عن مسألة، فذكر لي فيها عن أصبغ رواية، فمررت بالعتبي، فسألته عنها فلم يحفظ فيها رواية، فأخبرته بما قال لي عبدالأعلى عن أصبغ، فدعا بالمستخرجة فكتبها فيها، ثمّ لقيت بعد ذلك عبدالأعلى، فقال لي: وهمت في المسألة عن أصبغ، ليست كذلك، ولذلك قال ابن

(١) أعلام الفكر الإسلامي ص ٢٧ ـ ٢٩ محاضرات ص ٧٠ و٣١١ ـ ٣١٩ شجرة النور الزكيّة ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ترتيب المدارك ٤٦٩/٢ ـ ٤٧٢، ٥٢٦ مقدّمة ابن خلدون ص ٤٣٢ الديباج المذهب ص ١٦١ و٢١٨ المقدّمات لبيان ما اقتضته المدوّنة من الأحكام ٤٤/١ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٦.

وضّاح: في المستخرجة خطأ كثير، وقال فيها محمد بن عبدالحكم المصري: رأيت جلّها مكذوبا ومسائل لا أصول لها.

في حين تقبّلها آخرون بقبول حسن لاستيعابها وشمولها، وما تضمّنته من حصر شامل لمسائل الفقه فكان ابن لبابة - تلميذ العتبي - الذي دارت عليه الأحكام والفتوى بقرطبة نحو ستّين سنة، قد تصدّر لإقراء المستخرجة، حتّى أخذها عنه خلق كثير وتبارى الناس في روايتها عنه وحفظها، وقد عاب عليه بسبب ذلك أحمد بن خالد - تلميذ ابن وضّاح - وقال لابن لبابة: أنت تقرأ هذه المستخرجة للناس وأنت تعلم من باطنها ما تعلم، فقال ابن لبابة: إنّما أقرأها لمن أعرف أنّه يعرف خطأها من صوابها، فكان أحمد بن خالد ينكر على ابن لبابة ذلك إنكارا شديدا.

وكان ممّن تقبّل المستخرجة أيضاً أبو زكرياء يحيى بن محمد بن عبدالعزيز المعروف بابن الموّاز الذي كان مشهورا في القيروان بأنّه راوي مستخرجة العتبي.

وكان كتاب المستخرجة أحد المصادر الرئيسيّة لابن أبي زيد القيرواني، اعتمده في كتابه النوادر والزيادات، وكان يقتبس منه بصورة مباشرة أحياناً.

واهتمّ عبدالله بن محمد بن أبي الوليد - تلميذ العتبي - بتقسيم المستخرجة إلى أبواب على غرار أبواب المدوّنة.

وذكر ابن حزم المستخرجة فنوّه بها، وقال: لها عند أهل العلم بإفريقيّة القدر العالي والطيران الحثيث.

وتؤيّد الروايات المتفرّقة للكتاب في دوائر الفقهاء الأندلسيين على أهميّة الكتاب في ميدان الفقه في القرنين الخامس والسادس الهجريين.

والواقع أنّ العتبي قد حفظ لنا في المستخرجة - فضلاً عن الروايات المشهورة - سماعات كثيرة من مالك وتلاميذه لولاه لضاعت، إلاّ أنّه لم

يتمكّن من تمحيصها وعرضها على أصول المذهب ومقارنتها بالروايات الأخرى حتّى جاء ابن رشد الجدّ فقام بعمليّة نقديّة فشرحها وحقّق رواياتها في كتابه الشهير البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة.

وقد وصلت إلينا المستخرجة برواية أبي زكرياء يحيى بن عبدالعزيز ـ المعروف بابن الخرّاز ـ عن العتبي، وقيل إنّ الذي روى المستخرجة عن العتبي هو أبو العباس أحمد بن مروان القرطبي المعروف بابن الرصافي، وقيل هو الذي أعان العتبي على تأليفها[١].

* المختصر الفقهي الكبير *:

هذا الكتاب الذي يعتبر واحداً من أقدم الكتب الفقهيّة التي وصلت إلينا ناقصة، من تأليف عبدالله بن عبدالحكم المصري، وهو يتناول مسائل فقهيّة متفرّقة بناء على آراء قدامى المالكيّة من بينهم مالك ومن خلفه مباشرة.

يقال إنّه نحا به اختصار كتب أشهب، وقد بلغت مسائله ١٨٠٠٠ مسألة، في حين بلغت مسائل المختصر الأوسط ٤٠٠٠ مسألة، وبلغت مسائل المختصر الأصغر ١٢٠٠ مسألة.

يتناول الكتاب مسائل فقهيّة متفرّقة مبنيّة على آراء مالك وأصحابه المصريّين مثل ابن القاسم وأشهب وعبدالله بن وهب، واعتمد كذلك على ابن الماجشون المدني.

ويفتتح المؤلّف الباب دائماً بعبارة: «أرأيت»، وهي عبارة متداولة كثيراً لدى أتباع الفقه المالكي.

---

(١) ترتيب المدارك ١٤٥/٣ ـ ١٤٦ شجرة النور الزكيّة ص ٧٦ ميكلوش موراني: دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ١١٠ ـ ١١٢ و١١٨ ـ ١٢٠، تاريخ التراث العربي ١٥٥/٣ الديباج المذهب ص ٣٣٧ البيان والتحصيل ٢٠/١ ـ ٢١ مقدّمة المحقّق.

ويعتبر المختصر الكبير مصدراً مصدراً من مصادر الفقه المالكي ومرجعاً أساسيًّا عند مالكيّة العراق، وعلى هذا الكتاب وسائر كتبه الأخرى نقول المالكيين من البغداديّين في المدارسة، وإيّاها شرح غير واحد من العراقيين وأهل المشرق.

اعتنى العلماء بمختصراته ما لم يعتن بكتاب من كتب المذهب بعد الموطّأ والمدوّنة، ومن أهمّ شروح المختصر الكبير شرح الشيخ أبي بكر الأبهري الذي نقل مسائل المختصر نقلاً نصّياً وعقّب عليها بشرح تفصيلي[1].

*** الواضحة في السنن والفقه *:**

تتناول الواضحة المسائل الفقهيّة المتضمّنة لسماعات ابن حبيب التي نقلها عن فقهاء مصر والمدينة وحلّاها بتعليقات إضافيّة وضعها شرحاً على المسائل.

وهي مصنّف فقهي شامل يضاهي المدوّنة في بنائه وتكوينه الداخلي، تناول فيه ابن حبيب بالدراسة المستفيضة روايات تلاميذ مالك والمعاصرين له من المصريين والمدنيين الذين لقيهم ابن حبيب وأخذ عنهم من أسلافه وشيوخه.

ويورد ابن حبيب بالخصوص استشارات فقهيّة لأصبغ بن الفرج ومطرف بن عبدالله، وكثيراً ما يرد أيضاً اسم شيخه عبدالملك بن الماجشون، فكان ابن حبيب ينقل عنه بصيغة: حدّثنا أو قال ابن الماجشون ثمّ يورد ابن حبيب بعد ذلك إمّا رأيه الفقهي أو رواية عن زميله الدراوردي الذي عدّه ابن حبيب خير فقهاء المدينة بعد مالك.

وتعتبر الواضحة من أهمّ الكتب الفقهيّة في القرنين الثالث والرابع

---

(١) ترتيب المدارك ٥٢٤/٢، ٥٢٦ الديباج المذهب ص ٢١٨ تاريخ التراث العربي ١٤٧/٣ دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ٢٨ ـ ٣١.

الهجريين، وقد حظي الكتاب بمكانة متميّزة بصفة خاصّة في بلاد الأندلس.

وقد نوّه العتبي ـ صاحب المستخرجة ـ بكتاب الواضحة وقال: رحم الله عبدالملك، ما أعلم أحداً ألّف على مذهب أهل المدينة تأليفه ولا لطالب أنفع من كتبه ولا أحسن من اختياره.

وقال القاضي عياض: ألّف ابن حبيب كتباً كثيرة حساناً، منها الكتب المسمّاة بالواضحة في السنن والفقه لم يؤلّف مثلها.

وتعتبر الواضحة من الكتب المعتمدة في الفتوى بالأندلس، وقد نالت شهرة كبيرة إلى جانب العتبيّة وعليهما عكف أهل الأندلس.

ويعزى للواضحة أهميّة فقهيّة تاريخيّة فاصلة على أنّه كتاب مادّة فقهيّة متأثّرة تأثير متعدّد الجوانب(١).

*** الموّازيّة *:**

الكتاب نسبة لمحمد بن إبراهيم بن الموّاز، ويعرف أيضاً بكتاب محمد، نوّه القاضي عياض بهذا الكتاب فقال: هو أجلّ كتاب ألّفه قدماء المالكيين وأصحّها مسائل وأبسطها كلاما وأوعبها.

رجّحه أبو الحسن القابسي على سائر الأمّهات، وقال: لأنّ صاحبه قصد إلى بناء فروع أصحاب المذهب على أصولهم في تصنيفه، وغيره إنّما قصد جمع الروايات ونقل نصوص السماعات، وفي هذا الكتاب جزء تكلّم فيه عن مسائل أوضح بها مواطن الخلاف مع الشافعي وأهل العراق، وهي مسائل من أحسن كلام وأجلّه.

وصل إلينا كتاب الموازية برواية درّاس بن إسماعيل الفاسي عن عليّ بن عبدالله بن أبي مطر، وكان درّاس قد سمع الموازية بالإسكندريّة، ولم يرو هذا الكتاب بالقيروان إلاّ من طريقه.

---

(١) دراسات في مصادر الفقه الإسلامي ص ٥٠ ـ ٥٣ و٥٩ ـ ٦٣ و٦٧ ترتيب المدارك ٣٤/٣ ـ ٣٥ الديباج المذهب ص ٢٥٤، المقدّمة ص ٤٣٢.

وأوّل من أدخل الموازية إلى إفريقية هو أبو القاسم زياد بن يونس اليحصبي، وقيل أبو جعفر أحمد بن نصر بن زياد الهواري.

وقد صارت في القرن الرابع الهجري أحد أشهر وأكبر كتب الفقه في شمال إفريقيا حيث ضمّت كلّ المسائل العويصة في الفقه المالكي.

واصطلح علماء المالكيّة على تسمية المدوّنة والواضحة والعتبيّة والموازية بالأمّهات لكونها احتلّت الصدارة على بقيّة الكتب في المذهب(١).

مقاربة نقديّة

لقد كان الاختلاف فيما بين أصحاب مالك وتلاميذه في نقل الروايات عنه من ناحية، والتفاوت فيما بينهم في مدى اعتماد الرأي أو الأثر من ناحية ثانية أهمّ الأسباب التي قضت باختلاف الاجتهاد داخل المدرسة المالكيّة حتّى أصبحنا نعدّ ضمن المذهب المالكي خمس مدارس مالكيّة.

فأمّا من حيث الاعتبار الأوّل: فإنّ الروايات المنقولة عن إمام المذهب والسماعات المدوّنة عنه قد اختلفت من راو إلى آخر ومن تلميذ إلى تلميذ، ذلك أنّ الإمام مالك كان دائم المراجعة للفتاوى التي يصدرها وللأحاديث والآثار التي يرويها حتّى قيل: كان علم الناس في الزيادة وعلم مالك في النقصان، ولو عاش مالك لأسقط علمه كلّه، وروي أنّ مالك قد وضع موطّأه أوّل الأمر على نحو من عشرة آلاف حديث فلم يزل ينظر فيه سنة ويسقط منه حتى بقي هذا، ولو بقي قليلاً لأسقطه كلّه(٢).

---

(١) ترتيب المدارك ٧٤/٣ الديباج المذهب ص ٣٣٢ شجرة النور الزكيّة ص ٦٨ دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ١٤٩ و١٥٢، أعلام الفكر الإسلامي ص ٣٦.

(٢) والروايات عن مالك مستفيضة في هذا الشأن، فممّا يروى أنّ مالكاً حين مات أخرجت كتبه فوجدوا فيها أحاديث كثيرة عن ابن عمر ليس في الموطّأ منها شيء إلاّ حديثين، وفتحوا صندوقاً أخرجوا منه اثني عشر ألف حديث للزهري ما حدّث بها أصحابه في حياته، وكان يقول: إذا حدّثت الناس بكلّ ما سمعت إنّي أريد أن أضلّهم إذا، ولقد خرجت منّي أحاديث لوددت أنّي ضربت بكلّ حديث منها سوطاً ولم أحدّث بها، ولذلك حين طلب منه أحد أصحابه أن يحدّثه بحديث، رفض مالك=

ثمّ إنّ أصحاب مالك وتلاميذه لم يكونوا على درجة واحدة من الملازمة له وكثرة حضور مجالسه، فبعضهم قد لازمه عشرات السنين حتى اشتهربانفراده بمالك وطول صحبته له، وأنّه لم يخلط به غيره إلاّ في شيء يسير كما هو الحال بالنسبة لابن القاسم[١]، وممّا يروى في ذلك أنّه لمّا كملت الأسديّة أخذها أشهب وأقامها لنفسه واحتجّ لبعضها، فلمّا بلغ ذلك ابن القاسم قال: أمة وكدّا، تفعل مثل هذا؟ ـ لأنّه وجد كتاباً تامّاً فبنى عليه ـ فأرسل إليه أشهب قائلاً: أنت إنّما غرفت من عين واحدة، وأنا من عيون كثيرة، فأجابه ابن القاسم: عيونك كدرة وعيني أنا صافية[٢].

وبعضهم قد لازم مالكاً في أوّل حياته وبعضهم قد لازمه في آخرها، فقد قيل لعبدالله بن وهب: ابن القاسم يخالفك في أشياء، فقال: جاء ابن القاسم إلى مالك وقد ضعف، وكنت أنا آتي مالك وهو شاب قويّ يأخذ كتابي فيقرأ منه، وربّما وجد فيه الخطأ فيأخذ خرقة بين يديه فيبلّها في الماء فيمحوه، ويكتب لي الصواب[٣].

واختلف ابن القاسم وأشهب في قول مالك في مسألة وحلف كلّ واحد على نفي قول الآخر فسألا ابن وهب فأخبرهما أنّ مالكاً قال القولين جميعاً[٤].

= وأبى، فقال له: إنّ سفيان الثوري يرويه عنك، قال مالك: صدق، ولو كنت حدّثت أحداً لحدّثتك، إنّ العمل ببلدنا ليس عليه وليس صاحبه بذلك، وكان إذا شكّ في الحديث طرحه كلّه، وقيل لمالك: لم لا تحدّث عن أهل العراق، فقال: لأنّني رأيتهم إذا جاؤونا يأخذون الحديث عن غير ثقة، فقلت إنّهم كذلك في بلادهم (ترتيب المدارك ١/١٤٨ ـ ١٥٠).

(١) ترتيب المدارك ٢/٤٢٥ الديباج المذهب ص ٢٤٠.

(٢) ترتيب المدارك ٢/٤٤٩.

(٣) المصدر السابق ٢/٤٢٧.

(٤) نفس المصدر ٢/٤٤٦.

ولمّا قرأ أسد بن الفرات على ابن القاسم الأسديّة وضع أشهب يده في مثلها فخالفه في جلّها، وهي المعروفة بمدوّنة أشهب، وبكتب أشهب[١].

ولأجل ما كان بين أشهب وابن القاسم من اختلاف في الرواية كان ابن القاسم يقول: كأنّي كنت أنا وأشهب نختلف إلى عالمين مختلفين[٢].

وقد صنّف يحيى بن عمر كتاباً سمّاه اختلاف ابن القاسم وأشهب جمع فيه ما اختلف فيه الفقيهان المصريان.

وإذا كان هذا الاختلاف في الرواية قائما بين تلاميذ مالك الأشدّ ملازمة له الذين عرفوا بطول الصحبة فما بالك بين الذين قد عرفوا بملازمة مجالس مالك لبضع سنوات أو أقلّ من ذلك أو أكثر بقليل ثمّ رحلوا بتلك السماعات إلى أوطانهم.

بل إنّنا لنجد الرواية تختلف أحياناً عن الراوي الواحد، من ذلك ما روي عن يحيى قال: حمّلني ابن بشير بمسائل أسأل عنها ابن القاسم فأجابني فيها، ثمّ قدم محمد بن خالد من المدينة فسأله أيضاً عنها، فخالفت روايتي روايته، فقدمت على ابن القاسم فقلت له: يا أبا عبدالله وفدنا إليك بمسائل أنا وصاحبي، وأهل بلدي ينظرون إلينا وقد اختلفت روايتنا عنك، فمتى سرنا إلى بلدنا عن رجل واحد بروايتين مختلفتين في شيء واحد أدخلنا عليهم فتنة، فتدارك النظر فيها، فقال: صدقت ونصحت، ثمّ أرسل إلى صاحبي فقال له: أوهمت عليك فردّ ما معك إلى ما مع صاحبك، ففعلنا[٣].

(١) نفس المصدر ٢/٤٤١.
(٢) نفس المصدر ٢ / ٤٣٩.
(٣) ترتيب المدارك ٣/٢٦ ـ ٢٧ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٥٦.

وهذا الموقف هو نفسه كان مع المدوّنة حين راجع سحنون ابن القاسم في الأسديّة فرجع عن كثير من الأقوال فيها.

وهو منهج في الحقيقة كان قد سار عليه مالك حين قال لأشهب: - وقد رآه يكتب جوابه في مسألة - فقال له: لا تكتبها فإنّي لا أدري أثبت عليها أم لا[١].

وعن طريق هذا الاختلاف الناشىء بين الأصحاب في نقل الروايات توسّعت دائرة الاختلاف داخل المذهب المالكي، وقد ظهر ذلك بالخصوص في تلك المصنّفات والكتب الجامعة التي احتوت أقوال الإمام وأصحابه وأصبحت المرجع الأساسي لرواياتهم.

وأمّا من حيث الاعتبار الثاني: فرغم أنّ جميع تلاميذ مالك وأصحابه من المنتسبين له في المذهب معدودون من المدرسة الحجازيّة المعروفة بتقديم الأثر على الرأي، رغم ذلك فقد كان التفاوت واضحا داخل المذهب في نسبة اعتماد كلّ واحد منهم على الأثر أو الرأي، فانقسموا باعتبار ذلك إلى اتجاهين:

اتّجاه غلبت عليه الرواية واعتماد الحديث النبوي، واتّجاه غلب عليه استعمال الرأي، وهذا التقسيم باعتبار النسبة التقديريّة في اعتماد الرواية أو الرأي لم يكن بحسب المراكز والبلدان، وإنّما كان أنصار كلّ من الاتّجاهين موجودين في نفس الوقت في المركز الواحد.

ففي المركز المصري: كان ابن وهب صاحب سنّة وآثار وكان محدّث بلده في عصره وشهد له أصبغ بأنّه أعلم أصحاب مالك بالسنن والآثار، فكان يمثّل الاتجاه المكثر من الرواية على حساب الرأي، وقد لاحظ فيه شيخه مالك هذا المنحى حين قال له وقد نظر إليه يوما: أيّ فتى لولا الإكثار[٢].

---

(١) ترتيب المدارك ١/١٥٠.

(٢) ترتيب المدارك ٢/٤٢٣ - ٤٢٨ الديباج المذهب ص ٢١٥.

واستمرّ هذا الاتجاه بعد ابن وهب مع تلاميذه من أمثال أبي طاهر أحمد بن عمرو(٢٥٠هـ) الفقيه الذي غلب عليه الحديث وكانت جلّ روايته عن ابن وهب(١)، ويونس بن عبدالأعلى (٢٦٤هـ) الذي كان من أجلّ أصحاب ابن وهب وأوثقهم، فكان أحد الرواة المشهورين ورحل إليه الناس فسمعوا منه(٢).

في حين كان أشهب يميل إلى التوسّع في استعمال الرأي وينظر ويجتهد في المسائل، فقد سأل أسد ذات مرّة أشهبا فأجابه، فقال أسد: من يقول هذا: أمالك أم أبو حنيفة ؟ فقال أشهب: هذا قولي عافاك الله، فقال له: إنّما سألتك عن قول مالك وأبي حنيفة، فتقول هذا قولي ؟ ودار بينهما كلام، فقال عبدالله بن عبدالحكم لأسد: ما لك ولهذا ؟ هذا رجل أجابك بجوابه، فإن شئت فاقبل، وإن شئت فاترك(٣).

وما كان أحد يناظر أشهبا إلاّ اضطرّه بالحجّة حتى يرجع إلى قوله، ولقد كان يأتي في حلقة ابن القاسم فيتكلّم في أصول العلم ويفسّر ويحتجّ، وابن القاسم ساكت ما يردّ عليه حرفا(٤).

وكان من بعده محمد بن عبدالله بن عبدالحكم من أهل النظر والمناظرة والحجّة فيما يتكلّم فيه ويتقلّده من مذهبه(٥).

أمّا ابن القاسم فكان بتوسّط بين تشدّد ابن وهب في تمسّكه بالرواية وبين توسّع أشهب في استعمال الرأي.

فأمّا مخالفته لمسلك ابن وهب فقد ورثه من شيخه مالك الذي كان يرى أنّ مدار قبول الحديث عنده ما كان عليه العمل، وقد روي في ذلك

---

(١) ترتيب المدارك ٧٧/٣ ـ ٧٨ الديباج المذهب ص ٩٤.
(٢) ترتيب المدارك ٧٨/٣ ـ ٧٩.
(٣) رياض النفوس ٢٦١/١.
(٤) ترتيب المدارك ٤٤٩/٢.
(٥) ترتيب المدارك ٦٣/٣ الديباج المذهب ص ٣٣١.

أنّ يحيى بن يحيى الليثي قال: كنت آتي عبدالرحمٰن بن القاسم فيقول لي من أين يا أبا محمد؟ فأقول له من عند عبدالله بن وهب، فيقول لي: اتّق الله فإنّ أكثر هذه الأحاديث ليس عليها العمل، ثمّ آتي عبدالله بن وهب، فيقول لي: من أين؟ فأقول له: من عند ابن القاسم فيقول لي: اتّق الله فإنّ أكثر هذه المسائل رأي، ثمّ يرجع يحيى فيقول: رحمهما الله فكلاهما قد أصاب في مقالته، نهاني ابن القاسم عن اتّباع ما ليس عليه العمل من الحديث وأصاب، ونهاني ابن وهب عن كلفة الرأي وكثرته وأمرني بالاتّباع وأصاب، ثمّ يقول يحيى: اتّباع ابن القاسم في رأيه رشد، واتّباع ابن وهب في أثره هدي[١].

وأمّا مخالفته لمسلك أشهب فقد تمثّل في التزامه بأقوال إمامه، فقد روي أنّ أشهبا جلس يوماً بمكّة إلى ابن القاسم فسأله رجل عن مسألة، فتكلّم فيها ابن القاسم فصعّر له أشهب وجهه، وقال: ليس هو كذلك، ثمّ أخذ يفسّرها ويحتجّ فيها، فقال له ابن القاسم: الشيخ يقوله عفاك الله - يعني مالكاً - فقال أشهب: لو قاله ستّين مرّة، فلم يرادّه ابن القاسم[٢].

ولقد صوّر لنا هذا الاختلاف في مدى اعتماد الرأي والأثر خير تصوير ما حدّث به أسد بن الفرات لمّا دخل مصر واجتمع بهؤلاء الأقطاب الثلاثة، وذلك أنّه التقى بعبدالله بن وهب، فسأله عن مسألة فأجابه بالرواية، فأراد أن يدخل عليه، فقال له ابن وهب حسبك إذ أدّينا إليك الرواية، ثمّ أتى إلى أشهب فأجابه، فقال له من يقول هذا، قال أشهب: هذا قولي، فدار بينهما كلام، فرجع إلى ابن القاسم فسأله فأجابه فأدخل عليه فأجابه حتى انقطع أسد في السؤال، فقام أسد في المسجد وقال: معاشر الناس إن كان مات مالك، فهذا مالك[٣].

---

(١) ترتيب المدارك ٥٤١/٢.
(٢) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.
(٣) ترتيب المدارك ٤٧٠/٢ رياض النفوس ٢٦١/١.

وفي المدينة المنوّرة: التي هي دار الحديث، نجد ابن أبي حازم الذي لم يكن بالمدينة بعد مالك أفقه منه، كان رجل فقه ولم يكن يعرف بطلب الحديث[١].

وعثمان بن عيسى الذي جلس في حلقة مالك بعد وفاته، قد غلب عليه الرأي ولم يكن له في الحديث ذكر، وكان مالك يحضره لمناظرة أبي يوسف عند الرشيد[٢].

والمغيرة المخزومي فقيه المدينة بعد مالك، كان يناظر أبا يوسف بحضور مالك في مجلس هارون الرشيد، وقد ناظره يوماً فقويت حجّة المغيرة على أبي يوسف وحيّره حتّى جعل بعض أصحاب أبي يوسف يتمنّى أن يؤذّن المؤذّن بالمغرب فيتفرّق المجلس لما لقي أبو يوسف منه[٣].

وعبدالله بن نافع الذي كان صاحب رأي مالك، وفقه أهل المدينة برأي مالك، ولم يكن صاحب حديث حتى قيل: لم يكن في الحديث بذاك وكان ضعيفاً فيه[٤].

ونجد في الاتّجاه المقابل عبدالعزيز بن الدراوردي الذي غلب عليه الحديث، فكان صاحب حديث وليس بصاحب فتوى[٥].

وسليمان بن بلال الذي كان من أجلّ أصحاب مالك وأخصّهم به، وكان أروى الناس عن يحيى بن سعيد وكان أحفظ من الدراوردي وخرّج عنه البخاري ومسلم[٦].

وداود بن سعيد بن أبي زنبر الذي كان كثير الحديث[٧].

---

(١) ترتيب المدارك ٢٨٦/١.
(٢) نفس المصدر ٢٩٢/١.
(٣) نفس المصدر ٢٨٣/١.
(٤) نفس المصدر ٣٥٦/١.
(٥) نفس المصدر ٢٨٨/١ ـ ٢٨٩.
(٦) المصدر السابق ٢٩٧/١ ـ ٢٩٨.
(٧) نفس المصدر ٣٧٢/١.

وفي المركز الإفريقي: نجد عبدالرحيم بن الأشرس الذي يمثّل اتّجاه الأصحاب المكثرين من الرواية(١).

وموسى بن معاوية الصمادحي (٢٢١هـ) العالم بالحديث والفقه، وكان الأغلب عليه الحديث والرواية حتى قيل: لم يكن في إفريقية محدّث إلاّ موسى بن معاوية(٢).

ونجد في الاتّجاه المقابل علي بن زياد الذي كان من نقاد أصحاب مالك، وكان أعرف من عبدالرحيم بن الأشرس بالمعنى(٣).

وعبدالله بن أبي حسان اليحصبي القيرواني (٣٣٦هـ) الذي كان مفوّها قويّا على المناظرة ذابًّا عن السنّة(٤).

وفي الوقت الذي يشتهر فيه المركز الأندلسي باعتباره مركزاً قائماً على الأثر لا نعدم فيه من أصحاب الرأي المشهورين بالنظر في عملهم الاجتهادي.

فهذا يحيى بن مضر القيسي من أهل قرطبة كان عالماً متقناً صاحب رأي(٥).

وما الفتيا التي أفتى بها يحيى بن يحيى الليثي الأمير عبدالرحمٰن بن الحكم حين وقع على جارية من جواريه في يوم من رمضان، حيث ألزمه بصيام شهرين متتابعين إلاّ عمل بمطلق الرأي، وعلّل فتواه تلك بقوله: لو فتحنا للأمير هذا الباب وطيء كلّ يوم وأعتق، فحمل على الأصعب عليه لئلاّ يعود، فما ذلك الفتوى(٦).

(١) ترتيب المدارك ٣٢٩/١.
(٢) نفس المصدر ٦/٣.
(٣) نفس المصدر ٣٢٧/١.
(٤) نفس المصدر ٤٨٢/٢.
(٥) ترتيب المدارك ٣٥٥/١.
(٦) نفس المصدر ٥٤٢/٢.

وهذا عيسى بن دينار يجمع في آخر حياته على ترك الفتيا بالرأي والاعتماد على مقتضى الأثر فأعجلته المنيّة[١].

وحاتم بن سليمان بن أبي يوسف بن أبي مسلم الزهري (٢٤٠هـ) الذي سمع من ابن كنانة وغيره من المدنيين والمصريين، كان فقيهاً في المسائل والرأي[٢].

وهشام بن حبيش الطليطلي الذي رحل فسمع من ابن القاسم وأشهب كان هو الآخر صاحب رأي ومسائل[٣].

وإبراهيم بن حسين بن خالد بن مرتيل كان بصيراً بطريق الحجّة وكان يناظر يحيى بن مزين، وكان يذهب إلى النظر وترك التقليد[٤].

وأصبغ بن خليل الذي كان فطناً بالمسائل والفقه حسن القريحة والقياس وكان حافظاً للرأي[٥].

ومحارب بن قطن (٢٥٦هـ) من أهل قرطبة فقد كان كذلك من أهل العناية بالرأي والحفظ للمسائل الفقهيّة[٦].

وعبدالرحمٰن بن عيسى بن دينار الذي سمع من سحنون وأصبغ ونظرائهما، فقد كان حافظاً للرأي معتنياً بالمسائل[٧].

وعبدالرحمٰن بن سعيد التميمي (٢٦٥هـ) فقد كان فقيهاً عالماً بالمسائل، وكان يقوم بالرأي قياماً حسناً[٨].

---

(١) نفس المصدر ٣/١٩.
(٢) نفس المصدر ٣/٢٣.
(٣) نفس المصدر ٣/٤٩.
(٤) نفس المصدر ٣/١٣٦.
(٥) ترتيب المدارك ٣/١٤٢.
(٦) المصدر السابق ٣/١٤٧.
(٧) نفس المصدر ٣/١٥٢.
(٨) نفس المصدر ٣/١٥٣ ـ ١٥٤.

وبالمقابل ففي الوقت الذي يشتهر فيه المركز العراقي باعتباره مركزا قائما على الرأي لا نعدم من وجود أقطاب الرواية به من أمثال يعقوب بن شيبة الذي كان من الفقهاء البغداديين على قول مالك، ومن ذوي السند وكثرة الرواية، وأعلام الحديث المسندين، وقد ورد أنّه لم يتكلّم على علل الحديث بمثل كلام يعقوب وعلي بن المديني والدارقطني(١).

ومن خلال ما تقدّم يتّضح لنا أنّ المذهب المالكي بقدر ما كان قائما على الرواية والحديث الأثر، فقد كان كذلك قائما على الدراية والنظر والعقل، وبقدر ما كان له من اعتماد على المنهج النظري فقد كان له كذلك اعتماد على المنهج الأثري.

وبهذا المعنى وجدنا من أعلام المالكيّة من جمع علم الرواية إلى فقه المسائل، كما وجدنا أيضاً منهم من انصرف إلى الرواية على حساب الرأي، ومنهم من اعتنى بالنظر على حساب الأثر، وفي كلّ ذلك كان المذهب المالكي يسير عبر هذه الثنائيّة بالفقه نحو مرحلة هامّة من مراحل تاريخ تطوّره.

تأصيل المسائل

بقيت مسألة من الأهميّة بمكان ارتأينا إدراجها في هذه المقاربة النقديّة لما لها من وثيق الارتباط بعنصر الاختلاف بين المدارس داخل المذهب المالكي، غير أنّ مردّ الاختلاف في هذه المسألة لا يعود إلى اختلاف الروايات والسماعات بقدر ما يعود إلى منهجيّة التصنيف وطريقة التأليف.

ونقصد بالتأصيل اهتمام مصنّفي هذه المرحلة بذكر أدلّة المسائل الفقهيّة والاحتجاج لها من الأصول الكليّة، وقد كان هذا العمل يتمّ إمّا بإيراد أقوال مالك فيما صرّح به من أصول وقواعد ترجع إليها بعض المسائل والفروع، أو باستقراء الفتاوى والمسائل بحيث يقع تقرير الأصل

(١) المصدر السابق ٣/٥٦.

وتثبيت القاعدة على مقتضى ما نقل إليهم من الفروع، وذلك بحسب ما غلب عليه ظنّهم أنّ تلك المسائل إنّما استخرجت من ذلك الأصل.

وهذا العمل التأصيلي إنّما كانت الغاية منه في هذه المرحلة إظهار الأصول وإبراز القواعد التي لم يصرّح بها الإمام وكان بها العمل جاريا على مقتضى مذهبه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى محاولة إدراج المسائل والفروع ضمن أصولها وقواعدها لانتقاء أصحّها تعبيراً عن أصول المذهب في ضوء اختلاف الروايات وتشعّب الآراء.

وقد برز هذا العمل بوضوح خلال هذه المرحلة في المركزين الإفريقي والعراقي:

فأمّا المركز الإفريقي: فقد تسنّى لأصحابه القيام بهذا العمل لما امتاز به تكوّنهم من مزج بين الآراء المرويّة عن أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن، وبين الآراء المرويّة عن مالك وأصحابه، فضلاً عمّا عرفته إفريقيّة من احتكاك بمذهب الاعتزال أيّام المأمون والمعتصم، في قضيّة خلق القرآن بالخصوص وما استتبع ذلك من استدراج علماء المالكيّة للإدلاء بدلوهم في هذه المسألة وقيام الجدل حولها.

فهذا علي بن زياد ـ معلّم سحنون الفقه ـ كان قد دخل الحجاز والعراق في طلب العلم[1] فمزج بين علم أهل الحجاز وعلم أهل العراق حتّى تكوّنت لديه ملكة أفسحت مجالاً لإعمال العقل بقدر ما أفسحت مجالاً لإعمال النقل، فكان يحسن التكلّم في المعاني والأصول ويتقن ذلك، وقد شهد له بذلك أصحاب مالك المدنيين، فقد روي عن أسد أنّه قال، قال لي المخزومي وابن كنانة ـ وذلك حين التقى بهما في رحلته إلى المدينة ـ: ما طرأ علينا طارىء من بلد من البلدان كشف عن هذا الأمر، وفي رواية عن ابن كنانة، كشف لنا مالك عن الأصول كشف علي بن زياد[2].

---

(١) ترتيب المدارك ٣٢٦/١.

(٢) ترتيب المدارك ٣٢٧/١ رياض النفوس ٢٣٥/١.

ثمّ أسد بن الفرات الذي اختلف إلى علي بن زياد بتونس فتعلّم منه وتفقّه بفقهه، ثمّ أقبل على الإمام مالك بالطريقة التي عهدها من عليّ بن زياد: طريقة تحليل الصور وتسلسل المسائل والاستكشاف عن الأصول يجدّد في دروس مالك عهداً كان قد انقضى منذ فارقها عليّ بن زياد، وبعد أن جمع من مالك موطّئه قصد العراق فلقي أبا يوسف ومحمد بن الحسن وواظب عليهما حتى انكشفت له طرائق العراقيين في البحث وظهرت له مذاهبهم، وتكوّنت عنده بهما ملكة التفصيل والتأصيل التي ابتدأها مع عليّ بن زياد بتونس، فكتب الأسئلة من أسئلة العراقيين على قياس قول مالك(١).

ثمّ انتقل إلى مصر حاملاً معه سماعاته من صاحبي أبي حنيفة وخاصة منها كتب محمد بن الحسن، وأراد بذلك أن يخدم الفقه المالكي خدمة جديدة، وذلك بأن يأخذ المنهج العراقي في تفصيل المسائل وتأصيلها ويدرج عليه من مسائل الأحكام على مذهب مالك، فيكون بذلك قد أدخل المذهب المالكي في دور جديد من التدوين الموصّل المرتّب هو الذي ابتدأ به عليّ بن زياد، في محاولة منه لجعل المنهاج منهاجاً عراقيّاً والمادة مادة حجازيّة(٢).

ثمّ سحنون الذي داوم على الرحلة إلى علي بن زياد بتونس، وتتلمذ لأسد بعد مقدمه من المشرق وكان من قبل قد ساوى أسداً في الأخذ عن عليّ بن زياد، قد تكوّن بهذا المنهج التأصيلي الذي جعله يثبّت في المدوّنة مجالاً فسيحاً للمسائل القائمة على الاستدلال بالرأي ويعضّد أبوبها بالأحاديث النبويّة والآثار التي أوردها بأسانيدها لتكون أصلاً للفروع التي ذكرها.

وورث عنه هذا النهج ابنه محمد بن سحنون الذي كان من أكثر

(١) أعلام الفكر الإسلامي للفاضل ابن عاشور ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧.

الناس حجّة وأتقنهم بها، حتّى إنّه كان يناظر أباه، وكان الغالب عليه الفقه والمناظرة وعلم الخلاف، فكان قويّ الحجّة سديداً في الذبّ عن مذهب مالك، وقد برز ذلك بالخصوص في تآليفه التي منها كتاب الحجّة على القدرية وكتاب الحجّة على النصارى وكتاب الردّ على أهل الشرك وكتاب الردّ على أهل البدع وكتاب الردّ على الإمام الشافعي وعلى أهل العراق، وقد دخل عليه أبوه سحنون وهو يؤلّف كتاب تحريم النبيذ فقال له: يا بنيّ إنّك تردّ على أهل العراق ولهم لطافة أذهان وألسنة حداد فإيّاك أن يسبقك قلمك لما تعتذر منه[١].

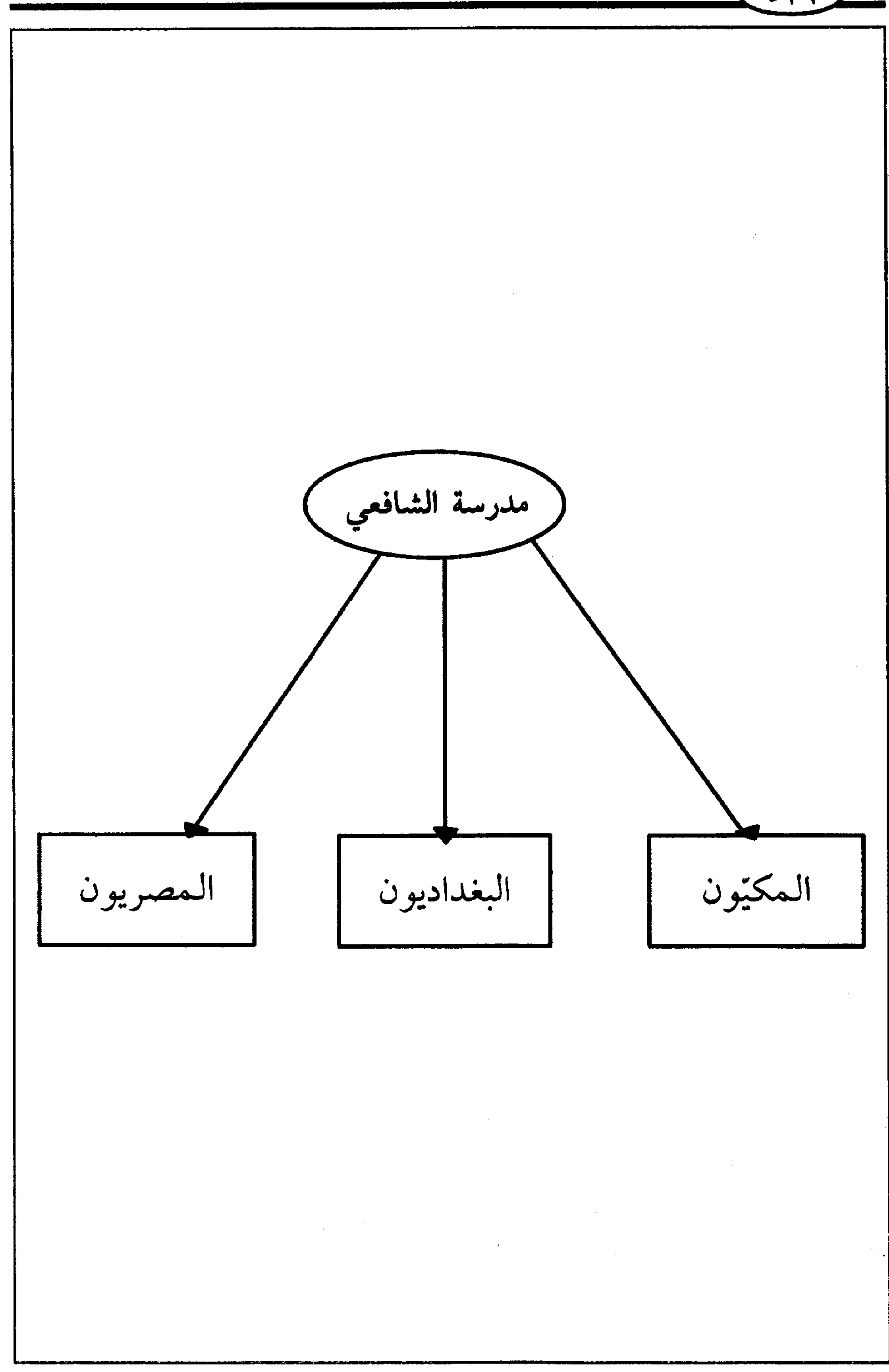
حتّى أنّ القاضي إسماعيل بن إسحاق كان يفخر على أتباع أبي حنيفة بتآليف ابن سحنون في مسائل الاجتهاد.

وأمّا في المركز العراقي: فقد تكوّن في أتباع مالك هذا النهج التأصيلي بحكم البيئة العراقيّة التي كانت منبع الفرق وملتقى التيّارات ومسرح الأحزاب سواء منها المنبثقة من الفكر الإسلامي أو الدخيلة عنه، وما يتطلّب ذلك من جدل يستدعي التأمّل والتفكير وإعمال الرأي وتأصيل المسائل، فكان طبيعيًّا أن يظهر هذا النهج التأصيلي في أتباع مالك العراقيين في وقت كانت الحاجّة ملحّة لظهوره.

وقد مثّل هذا النهج خير تمثيل في هذه المرحلة أحمد بن المعذّل الذي لم يكن لمالك بالعراق أرفع منه ولا أعلى درجة ولا أبصر بالمذهب منه[٢].

(١) ترتيب المدارك ١٠٧/٣ معالم الإيمان ١٢٤/٢.

(٢) ترتيب المدارك ٥٢٢/٢.


مدرسة الشافعي
المكيّون
البغداديون
المصريون

للشافعي أتباع كثيرون حملوا عنه مذهبه القديم بالعراق ورووا عنه الكتب التي دوّنها ببغداد، ولمّا انتقل إلى مصر نشأ له بها أتباع حملوا عنه مذهبه الجديد ورووا عنه كتبه الأخيرة، فأمّا روّاة مذهبه القديم فأشهرهم:

ـ ١ ـ الحسن بن محمد بن الصبّاح: أبو علي الزعفراني (٢٦٠هـ).

كان إماماً جليلاً وفقيهاً ومحدّثاً ومن أذكياء العلماء، تفقّه على سفيان بن عيينة ووكيع بن الجرّاح وطبقتهما، ولمّا قدم الشافعي بغداد أصبح الزعفراني من الملازمين له، وروى عنه كتب الرسالة والأمّ والمبسوط ودوّنها الزعفراني بإملاء الشافعي، وذلك قبل انتقاله إلى مصر سنة ١٩٩هـ، وكان الزعفراني حسن القراءة، فكان يقرأ للشافعي في مجلسه ببغداد، وهو أثبت رواة القديم، وفي ذلك يقول فيما رواه عن نفسه: قرأت على الشافعي الكتب كلّها إلاّ كتابين فإنّه قرأهما علينا كتاب المناسك وكتاب الصلاة(١).

ـ ٢ ـ أبو علي الحسين بن علي الكرابيسي (٢٤٥هـ).

كان إماماً جليلاً متكلّماً، وجامعاً متضلّعاً في الفقه والحديث والأصول ومعرفة الرجال، له تصانيف كثيرة في أصول الفقه وفروعه، تفقّه أوّلاً بمذهب العراقيين ثمّ تفقّه بالشافعي وأجازه(٢).

ـ ٣ ـ أبو جعفر أحمد بن خالد الخلاّل البغدادي (٢٤٧هـ).

روى عن الشافعي وسفيان بن عيينة ومعن بن عيسى وغيرهم، وكان من أهل الورع والحديث، ومن جلّة الفقهاء، وهو معدود من الطبقة الأولى من أصحاب الشافعي الذين جالسوه ورووا عنه(٣).

---

(١) الفهرست ص ٢٦٥ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٠ شذرات الذهب ٢/٢٩٠ البداية والنهاية ١١/٣٢ طبقات ابن السبكي ٢/١١٤ ـ ١١٦ وفيات الأعيان ٢/٧٣ ـ ٧٤ تهذيب التهذيب ٢/٣١٨ ـ ٣١٩ تذكرة الحفاظ ٢/٥٢٥.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٢ شذرات الذهب ٢/٢٥٥ ـ ٢٥٦ وفيات الأعيان ٢/١٣٢ ـ ١٣٣ تهذيب التهذيب ٢/٣٥٩ ـ ٣٦٢ طبقات ابن السبكي ٢/١١٧ ـ ١٢٦.

(٣) طبقات ابن السبكي ٢/٥ تهذيب التهذيب ١/٢٧.

وأمّا رواة مذهبه الجديد فأشهرهم ستّة[١] ثلاثة اشتهروا بالتمذهب بمذهبه والقيام على نشره، وثلاثة تنازع أصحاب الطبقات في عدّهم من المالكيّة أو الشافعيّة لاشتراكهم في الأخذ عن الشافعي وعن أصحاب مالك المصريين:

فأمّا الثلاثة الذين اشتهروا بالانتساب إلى مذهبه فهم:

ـ ١ ـ أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي (٢٣١هـ).

أكبر أصحاب الشافعي المصريين، كان إماماً جليلا فقيهاً عظيما ومناظرا، جبلا من جبال العلم والدين غالب أوقاته الذكر والاشتغال بالعلم، وكان مجتهداً كبير القدر، ولم يكن في أصحاب الشافعي أصلح منه.

تفقّه على الشافعي واختصّ بصحبته وحدّث عنه وعن ابن وهب وغيرهما، وكان الشافعي يعتدّ به في الفتيا، ويحيل عليه إذا جاءته مسألة، واستخلفه في حلقته في الدرس والإفتاء، وكان الشافعي يقول: ليس أحد أحقّ بمجلسي من يوسف بن يحيى، وليس أحد من أصحابي أعلم منه، وروي عنه أنّه قال: أبو يعقوب لساني، وقال الربيع بن سليمان: ما رأيت أحداً أنزع بحجّة من كتاب الله تعالى من أبي يعقوب البويطي، وقال: كان أبو يعقوب من الشافعي بمكان مكين.

حمل محنة القول بخلق القرآن من مصر إلى بغداد، وسجن حتى مات في سجنه والقيد في رجله.

صنّف المختصر المشهور الذي اختصره من كلام الشافعي، وصفه العبّادي الشافعي بأنّه في غاية الحسن على نظم أبواب كتاب المبسوط للشافعي، وله كتاب الفرائض.

تخرّج على يديه أئمّة تفرّقوا في البلاد ونشروا علم الشافعي في

(١) انظر: شذرات الذهب ٢/٢٩٠.

الآفاق، وذكر له السبكي في طبقاته فوائد وغرائب وقعت في مختصره[(١)].

ـ ٢ ـ أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني (١٧٥هـ ـ ٢٦٤هـ).

هو إمام الشافعيّة وأعرفهم بطرق المذهب وفتاويه، صاحب الشافعي وأحد روّاة الحديث عنه، وأخصّ تلاميذه، وناصر مذهبه، قال فيه الشافعي: المزني ناصر مذهبي.

كان عالماً مجتهداً مناظرا محجاجا غوّاصا في المعاني الدقيقة، قويّ الحجّة في المناظرة حتى قال عنه الشافعي: لو ناظر الشيطان لغلبه.

كان من أشدّ الناس تضييقا على نفسه في الورع وأوسعه في ذلك على الناس، وكان يقول: أنا خلق من أخلاق الشافعي.

صنّف كتبا كثيرة: الجامع الكبير والجامع الصغير والمنثور والسنن المأثورة التي رواها عن الشافعي والمسائل المعتبرة، وكتاب العقارب الذي قدّم فيه أربعين سؤالا، ومنه مقتبسات في طبقات الشافعيّة للسبكي والمختصر الصغير المشهور بمختصر المزني الذي عليه معوّل أصحاب الشافعي وقد كان المزني يصلّي لكلّ مسألة يسجّلها في مختصره ركعتين، فصار هذا المختصر أصل الكتب المصنّفة في المذهب الشافعي وعلى منواله رتّبوا ولكلامه فسّروا وشرحوا[(٢)].

ـ ٣ ـ أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبدالجبار المرادي (١٧٤هـ ـ ٢٧٠هـ).

كان مؤذّنا بالمسجد الجامع بفسطاط بمصر المعروف بجامع عمرو بن

---

(١) الفهرست ص ٢٦٦ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٨ تاريخ التراث العربي ١٩٢/٣ شذرات الذهب ١٨٥/٢ ـ ١٨٦ تهذيب التهذيب ٤٢٧/١١ ـ ٤٢٩ وفيات الأعيان ٦١/٧ ـ ٦٤ طبقات ابن السبكي ١٦٢/٢ ـ ١٧٠.

(٢) الفهرست ص ٢٦٦ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٧ شذرات الذهب ٣٠٢/٢ ـ ٣٠٣ البداية والنهاية ٣٦/١١ تاريخ التراث العربي ١٩٦/٣ ـ ١٩٧ طبقات ابن السبكي ٩٣/٢ ـ ١٠٧ وفيات الأعيان ٢١٧/١ ـ ٢١٨.

العاص، وهو راوي كتب الشافعي الجديدة ومذهبه الجديد بمصر، الثقة الثبت فيما يرويه.

كانت الرحلة إليه من الآفاق في طلب كتب الشافعي وكان صاحب حلقة بمصر، وهو آخر من روى عن الشافعي بمصر، وعنه قال الشافعي: الربيع راويتي وكان الشافعي يحبّه حتى قال له يوما: ما أحبّك إليّ، وقال له يوما: يا ربيع لو أمكنني أن أطعمك العلم لأطعمتك.

وعند الشافعيّة إذا تعارضت رواية الربيع ورواية المزني قدّمت رواية الربيع مع علوّ قدر المزني علماً وجلالة.

عمّر الربيع طويلا ـ نحو ست وتسعين سنة ـ حتى أدرك الدولة الطولونيّة وانتدبه مؤسّسها أحمد بن طولون ـ الذي كان يقرّب إليه العلماء ـ للتدريس بالجامع الذي بناه.

وقد ذكر له السبكي في طبقاته نخبا وفوائد كثيرة(١).

وأمّا الثلاثة الذين اختلف أصحاب الطبقات في عدّهم من أصحاب الشافعي أو من أتباع مالك فهم:

ـ ١ ـ أبو حفص حرملة بن يحيى التجيبي.

ـ ٢ ـ أبو حفص يونس بن عبدالأعلى الصدفي.

وقد تقدّمت ترجمتهما في أتباع مالك المصريين.

ـ ٣ ـ أبو محمد الربيع بن سليمان بن داود الجيزي (٢٥٦هـ).

روى عن ابن وهب ونظرائه من أصحاب مالك، وصاحب الشافعي،

---

(١) الفهرست ص ٢٦٤ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٨ شذرات الذهب ٣١٩/٢ البداية والنهاية ٤٨/١١ طبقات ابن السبكي ١٣٢/٢ ـ ١٣٩ وفيات الأعيان ٢٩١/٢ ـ ٢٩٢ تهذيب التهذيب ٢٤٥/٣ ـ ٢٤٦ تذكرة الحفاظ ٥٨٦/٢.

وروى عنه، وعدّه القاضي عياض في أصحاب مالك المصريين، وذكره الشافعيّة في طبقاتهم، ولعلّه الأشبه[١].

وأمّا أصحابه من المكّيين فقد اشتهر منهم:

ـ ١ ـ أبو بكر عبدالله بن الزبيّر الحميدي (٢١٩هـ).

مفتي أهل مكّة ومحدّثها وفقيهها، كان قد تلقّى العلم عن مسلم بن خالد الزنجي والدراوردي وسفيان بن عيينة شيوخ الشافعي، وكان يحفظ لابن عيينة عشرة آلاف حديث، وروى عن فضيل بن عياض وطبقته وكان إماماً حجّة.

كان أوّل الأمر نافرا عن الشافعي ثمّ صحبه ووالاه، ورحل معه إلى مصر ولزمه، فلمّا مات الشافعي رجع الحميدي إلى مكّة، وعدّه بعضهم لأهل الحجاز في السنّة كأحمد بن حنبل لأهل العراق[٢].

ـ ٢ ـ أبو الوليد موسى بن أبي الجارود:

راوى كتاب الأمالي عن الشافعي وأحد الثقات في أصحابه العلماء، روى عن يحيى بن معين والبويطي وروى عنه الزعفراني والربيع، وكان فقيهاً جليلا.

أقام بمكّة، وهو معدود من فقهائها، وكان يفتي بها على مذهب الشافعي[٣].

ـ ٣ ـ عبدالعزيز بن يحيى الكناني المكّي: (كان حيّا سنة ٢٤٠هـ).

---

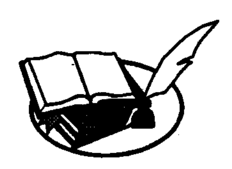
(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٩ شذرات الذهب ٣١٩/٢ البداية والنهاية ٤٨/١١ ترتيب المدارك ٨٦/٣ وفيات الأعيان ٢٩٢/٢ تهذيب التهذيب ٢٤٥/٣ طبقات ابن السبكي ١٣٢/٢.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٩ ـ ١٠٠ شذرات الذهب ١٤١/٢ ـ ١٤٢ البداية والنهاية ٢٨٢/١٠ طبقات ابن السبكي ١٤٠/٢ ـ ١٤١ طبقات ابن سعد ٥٠٢/٥ تهذيب التهذيب ٢١٥/٥ ـ ٢١٦.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٠ طبقات ابن السبكي ١٦١/٢ ـ ١٦٢ تهذيب التهذيب ٣٣٩/١٠.

كان من أهل العلم والفضل، وكان ممّن تفقّه على الشافعي واشتهر بصحبته، وهو معدود في أتباع الشافعي والمقتبسين عنه، طالت صحبته للشافعي واتّباعه له، وقد خرج معه إلى اليمن.

له مصنّفات عدّة وآثار الشافعي في كتبه ظاهرة[١].



(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٣ طبقات ابن السبكي ٢/١٤٤ ـ ١٤٥.



حركة التدوين والتفريع في المذهب الشافعي

سبق أن أشرنا إلى أنّ الإمام الشافعي قد نشر مذهبه بادىء الأمر بنفسه، بفضل ما ألّفه من كتب ورسائل بلغت نحو ١١٣ مصنّفاً بين قديم - ما وضعه في بغداد ومكّة - وجديد - ما وضعه بمصر - عمل على نشرها بالآفاق خلال تطوافه بالمدن والأقاليم.

دوّن في تصانيفه هذه أصول مذهبه، وتكلّم فيها عن أحكام القرآن وعلوم الحديث ومسائل الفقه، وعلوم شتّى.

فكان الشافعي بعمله هذا قد دفع بحركة التدوين في المذهب دفعاً قويًّا، فألّف أصحابه الكتب في المذهب مثل المختصر والمبسوط لحرملة بن يحيى، غير أنّ أشهر كتاب صنّف في هذه المرحلة ووقع التعويل عليه عند الشافعيّة هو مختصر المزني:

* مختصر المزني *:

صنّف المزني مختصرين، كبير لم يقع الاعتناء به، وصغير وهو الذي عليه التعويل عند الشافعيّة، وهو أوّل من صنّف في المذهب بعد الإمام الشافعي.

قال المزني في مقدّمة هذا المختصر: «اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، ومن معنى قوله لأقرّبه على من أراده

مع إعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه وبالله التوفيق».

والكتاب مرتّب على أبواب الفقه، قام المزني فيه بنقل أقوال شيخه الشافعي باختصار، مع ذكر الأدلّة والتعليل.

واعتبر الإمام النووي أنّ هذا المختصر هو أحد الكتب الخمسة المشهورة بين الشافعيّة التي يتداولونها أكثر تداول، وهي سائرة في كلّ الأمصار، كما ذكر ذلك في التهذيب.

ونقل حاجي خليفة عن ابن سريج قوله: تخرج مختصر المزني من الدنيا عذراء، وعلى منواله رتّبوا ولكلامه فسّروا وشرحوا، والشافعيّة عاكفون عليه ودارسون له ومطالعون به دهرا، ثمّ كانوا بين شارح مطوّل ومختصر معلّل، والجمع منهم معترف أنّه لم يدرك من حقائقه غير اليسير.

وذكر حاجي خليفة شروحا كثيرة وتعليقات عديدة وزيادات ونظما على هذا المختصر.

وقد طبع الكتاب بهامش الأجزاء الخمسة الأولى لكتاب الأمّ للشافعي.

وتجدر الإشارة ونحن بصدد الحديث عن حركة التدوين والتفريع في المذهب الشافعي أن نشير إلى أنّ المزني كان يختار لنفسه أحياناً آراء فقهيّة يخالف فيها الشافعي، وينحاز بها عن المذهب، ويستقلّ بها عنه، ضمّنها كتابه نهاية الاختصار.

وقد تطرّق السبكي في طبقاته إلى مسألة تخريجات المزني وآراءه، هل تلتحق بالمذهب ؟ فذكر أن الرافعي صرّح بأنّ تفردات المزني لا تعدّ من المذهب إذا لم يخرجها على مقتصى أصول الشافعي، غير أنّ السبكي رأى ـ كما هو رأي إمام الحرمين الجويني ـ أن يلحق آراء المزني في جميع المسائل بالمذهب لأنّه ما انحاز عن الشافعي في أصل يتعلّق الكلام فيه بقاطع، وإذا لم يفارق الشافعي في أصوله فتخريجاته مبنيّة على قاعدة

إمامه، وإن كان لتخريج مخرج إلحاق بالمذهب فأولاها تخريج المزني لعلوّ مكانته وتلقّيه أصول الشافعي.

وكان من صيغة تخريجه أن يقول قياس مذهب الشافعي كذا وكذا، فإذا انفرد بمذهب في المسألة استعمل لفظة تشعر بانحيازه، وذلك كأن يحكي مذهب الشافعي ثمّ يقول: ليس هذا عندي بشيء، ويندفع في توجيه مذهبه.

ويرى الشافعية أنّ ما ذكره المزني في مختصره من مسائل تلتحق بالمذهب لأنّه بناها على أصول المذهب، وقد أشار إلى ذلك بقوله في مقدّمة الكتاب «اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله ومن معنى قوله».

وأمّا ما ليس في المختصر وذكره في تصانيفه الأخرى - كنهاية الاختصار والعقارب - فما اختاره المزني وصرّح فيه بمخالفة الشافعي في مواضع فلا يعدّ عند الشافعيّة من المذهب قطعا.

من ذلك: نقل المزني في كتاب العقارب إجماع العلماء أنّ من حلف ليقضينّ فلانا حقّه غدا، واجتهد فعجز أنّه حانث، واستشهد به للردّ على الشافعي وأبي حنيفة ومالك، فإنّه نقل عنهم فيمن قال لامرأته: إن لم أطأك الليلة فأنت طالق، فوجدها حائضا أو محرمة أو صائمة أو كان قد ظاهر منها ولم يكفّر، أنّه لا حنث عليه لأنّه لا سبيل له إلى وطئها.

وذكر المزني في كتابه نهاية الاختصار: أنّه لا حدّ لأقلّ الحيض، وقال في النفاس أكثره ستّون يوماً في رأي الشافعي، وفي رأيي أربعون يوما.

وذكر في باب الكتابة مذهب الشافعي في وجوب إتيان المكاتب ولم يوافقه[١].

(١) كشف الظنون ٢/٥٢٣ - ٥٢٥ مختصر المزني ١/٢ بهامش كتاب الأمّ، طبقات ابن السبكي ٢/١٠٢ - ١٠٧.

مدرسة الإمام أحمد

ابناه صالح وعبدالله
أبو بكر الأثرم
أبو إسحاق الكوسج
أبو بكر بن الحجّاج
أبو إسحاق الحربي

كان ظهور إمام مذهب أهل السنّة أحمد بن حنبل بأخرة عن المذاهب الآخرين، فقد ولد بعد وفاة أبي حنيفة بـ ١٤ سنة، وحين مات مالك كان لأحمد من العمر ١٥ سنة، لذلك لم يدرك إلاّ الشافعي الذي تتلمذ عليه ببغداد ولازمه حتى قال الزعفراني ـ صاحب الشافعي ـ ما قرأت على الشافعي حرفا إلاّ وأحمد حاضر، وما ذهبت إلى الشافعي مجلسا إلاّ وجدت أحمد فيه[(١)].

وتبعاً لذلك فقد تأخّرت حركة التدوين والتفريع في المذهب الحنبلي مقارنة بالمذاهب الأخرى، إذ أنّ أقدم مختصر فقهي وأشهره عند الحنابلة هو مختصر الخرقي (٣٣٤هـ) الذي يعود ظهوره إلى أواخر القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع الهجري.

وأمّا أعظم أتباع أحمد بن حنبل الذين عملوا على نشر مذهبه في هذه المرحلة فهم:

ـ ١ ـ أبو بكر أحمد بن محمد بن هانىء (٢٦١هـ) المعروف بالأثرم.

أحد الأئمّة المشاهير وصاحب التصانيف، نقل عن الإمام أحمد مسائل كثيرة وصنّفها ورتّبها أبوابا، كان جليل القدر من أذكياء الأمّة، ولشدّة ما كان معه من تيقّظ عجيب نسبه يحيى بن معين فقال: أحد أبوي الأثرم جنّي.

له كتاب السنن في الفقه على مذهب أحمد بن حنبل وشواهده من الحديث، وله أيضاً مسائل أحمد بن حنبل وكتاب ناسخ الحديث ومنسوخه[(٢)].

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٠.

(٢) طبقات الفقهاء الحنابلة ١٠٨/١ ـ ١١٦ الفهرست ص٢٨٥ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٠ شذرات الذهب ٢٩٣/٢ ـ ٢٩٣ تاريخ التراث العربي ٢٢٩/٣ تهذيب التهذيب ٧٨/١ ـ ٧٩ الأعلام ١٩٤/١ معجم المؤلفين ١٦٧/٢ تذكرة الحفاظ ٥٧٠/٢.

ـ ٢ ـ أبو يعقوب إسحاق بن منصور الكوسج (٢٥١هـ) الإمام الحافظ المروزي.

ولد بمرو ورحل إلى العراق والحجاز والشام، وسمع من سفيان بن عيينة وطبقته وتفقّه على أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وسجّل خلاصة دراسته عليهما في كتاب سمّاه مسائل أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، جمعه في حياة الإمام أحمد.

كان فقيهاً عالماً وأحد الأئمّة من أصحاب الحديث، وروى عنه البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث[(١)].

ـ ٣ ـ أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل (٢٠٣هـ ـ ٢٦٦هـ).

هو أكبر أولاد الإمام أحمد، اعتنى بجمع فقه أبيه وإجاباته على المسائل، ذلك أنّ أكثر المسائل الفقهيّة عند الإمام أحمد كانت في صيغة إجابات على أسئلة التلاميذ، وقد نشر صالح علم أبيه عن طريق المراسلات، إذ كانت ترسل إليه الأسئلة فيجيب عليها بما حفظ من رأي أبيه وفقهه.

تولّى القضاء بإصبهان فسهّل له ذلك نشر الفقه الحنبلي[(٢)].

ويبدو أنّ ما لاقاه الإمام أحمد من شدائد وتنكيل وتعذيب أثناء محنة القول بخلق القرآن قد تركت بصماتها في أكبر أولاده سنّا الذي لم يصنّف خلال مسيرته العلميّة كتاباً في فقه أبيه رغم اعتنائه بنشر ذلك عبر مراسلاته، وإنّما ترك لنا شهادة منه على ما كان قد عاينه من أبيه خلال

---

(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ١/١٧١ ـ ١٧٣ شذرات الذهب ٢/٢٦٥ تاريخ التراث العربي ٣/٢٢٨ تهذيب التهذيب ١/٢٤٩ الأعلام ١/٢٨٩ معجم المؤلفين ٢/٢٣٩ تذكرة الحفاظ ٢/٥٢٤.

(٢) طبقات الفقهاء الحنابلة ١/٢٥٠ ـ ٢٥٣ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٩ تاريخ التراث العربي ٣/٢٣٠ البداية والنهاية ١١/٤٠ شذرات الذهب ٢/٣٠٥.

المحنة التي مرّ بها، فجاد علينا بكتابين هما: سيرة أحمد بن حنبل ومحنة أحمد بن حنبل.

ـ ٤ ـ أبو عبدالرحمٰن عبدالله بن أحمد (٢١٣هـ ـ ٢٩٠هـ).

كان إماماً خبيراً بالحديث وعلله، مقدّماً فيه، وكان من أروى الناس عن أبيه، وقد سمع من صغار شيوخ أبيه، وهو الذي رتّب مسند والده.

يقال إنّ والده حفظه خمسة عشر ألف حديث عن ظهر قلب ثمّ قال له: لم يقل النبيّ ﷺ شيئاً من هذا، فقال: ولم أذهبت أيّامي في حفظ الكذب؟ قال: لتعلم الصحيح، فمن الآن احفظ الصحيح وذكر ابن كثير عن ابن المنادى قوله: لم يكن أحد أروى عن الإمام أحمد من ابنه عبدالله، وما زلنا نرى أكابر شيوخنا يشهدون له بمعرفة الرجال وعلل الحديث والأسماء والكنى والمواظبة على طلب الحديث في العراق وغيرها، ويذكرون عن أسلافهم الإقرار له بذلك، حتّى أنّ بعضهم أسرف في تقريظه له بالمعرفة وزيادة السماع للحديث عن أبيه، من آثاره كتاب السنّة ومسند الأنصار وتنقيح مسائل والده[1].

ـ ٥ ـ أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروذي (٢٧٥هـ).

هو من أجلّ أصحاب الإمام أحمد وأخصّهم بخدمته، وكان يأنس به وينبسط إليه ويبعثه في حوائجه، وهو المقدّم من أصحابه لفضله وورعه، وكان الإمام أحمد يقول له: كلّ ما قلت فهو على لساني وأنا قلته.

روى عن الإمام أحمد مسائل كثيرة، وكان إماماً في الفقه والحديث، كثير التصانيف.

خرج إلى الجهاد فشيّعه نحو خمسين ألفاً من أهل بغداد إلى سامرّاء، فقيل له يا أبا بكر: هذا علم قد نشر لك، فبكى ثمّ قال: ليس هذا العلم

---

(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢٦٠/١ ـ ٢٧٠ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٩ شذرات الذهب ٣٧٥/٢ ـ ٣٧٦ البداية والنهاية ٩٦/١١ ـ ٩٧ تاريخ التراث العربي ٢٣٢/٣ ـ ٢٣٣ تهذيب التهذيب ١٤١/٥ ـ ١٤٣.

لي إنّما هو علم أحمد بن حنبل، وكان يقول: قليل تقوى يهزم كثير الجيوش.

من مصنّفاته كتاب السنن بشواهد الحديث[١].

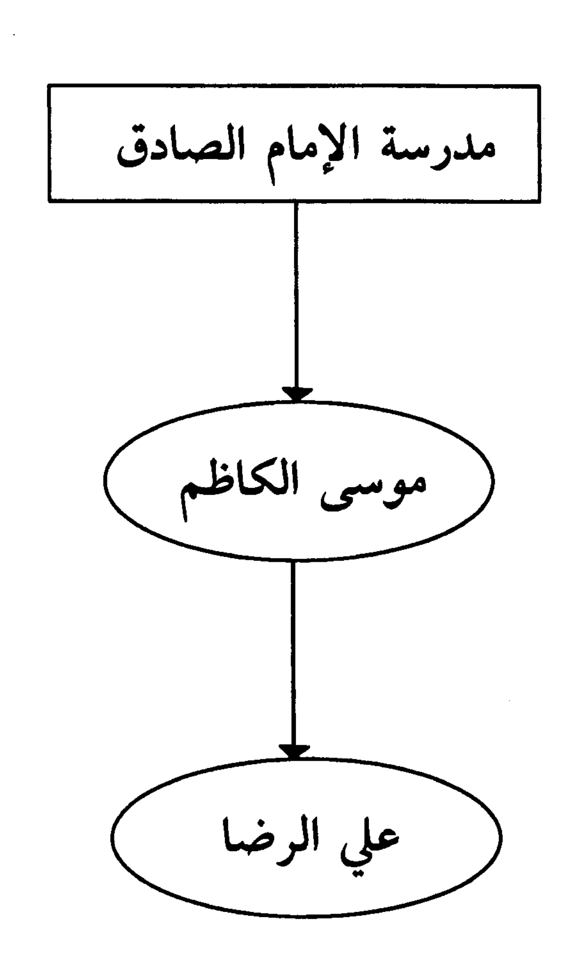
- ٦ - أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن بشير الحربي (١٩٨هـ - ٢٨٥هـ) .

أحد الأئمّة الأعلام ببغداد، تفقّه على أحمد بن حنبل وروى عنه كثيراً، وبرع في العلم والعمل، فكان إماماً في العلم رأسا في الزهد عارفاً بالفقه بصيراً بالأحكام حافظاً للحديث، وكان يشبّه بأحمد بن حنبل في زهده وورعه وعلمه.

نقل عن الإمام أحمد مسائل كثيرة جدّا، وصفها ابن العماد الحنبلي نقلاً عن المرداوي في الإنصاف بأنّها مسائل حسان جياد، وله مصنّفات كثيرة[٢].

(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ٩٦/١ - ١٠٤ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٠ شذرات الذهب ٣٣٠/٢ تهذيب التهذيب ٦٢/١.

(٢) طبقات الفقهاء الحنابلة ١٣٤/١ - ١٤٣ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧١ شذرات الذهب ٣٦٠/٢ البداية والنهاية ٧٩/١١، طبقات ابن السبكي ٢٥٦/٢ - ٢٥٧ فوات الوفيات ١٤/١ - ١٧ تذكرة الحفاظ ٥٨٤/٢.


مدرسة الإمام الصادق
موسى الكاظم
علي الرضا

أشهر أعلام المذهب الجعفري في هذه المرحلة: موسى الكاظم وابنه عليّ الرضا:

فأمّا موسى الكاظم: فهو أبو الحسن بن جعفر الصادق (١٢٨هـ ـ ١٨٣هـ).

الإمام السابع عند أئمّة الشيعة الإماميّة، كان أحد أئمّة المسلمين، وكان صالحاً عابداً جوّاداً حليماً كبير القدر، كان يدعى العبد الصالح لعبادته واجتهاده.

روى عن أبيه وعن عبدالله بن دينار وغيرهما، وعنه روى أخواه عليّ ومحمد وأولاده إبراهيم وحسين وإسماعيل وعليّ الرضا، وغيرهم.

استدعاه المهدي إلى بغداد فحبسه ثمّ أمر بإطلاق سراحه وردّه إلى المدينة المنوّرة، ثمّ استدعاه هارون الرشيد سنة ١٦٩هـ فسجنه وأطال سجنه حتى مات في حبسه.

صنّف كتاباً في الفقه يضمّ إجابات عن أسئلة وجّهت إليه من أخيه عليّ بن جعفر (٢١٠هـ)[١].

ومن أشهر أصحابه الذين تلقّوا عنه[٢]:

ـ ١ ـ يونس بن عبدالرحمٰن علاّمة زمانه، وكان كثير التصنيف والتأليف على مذهب الشيعة.

ـ ٢ ـ أحمد بن محمد البزنطي.

ـ ٣ ـ ظريف بن ناصح الكوفي البغدادي.

---

(١) شذرات الذهب ٤٨٥/٢ ـ ٤٨٦ البداية والنهاية ١٨٣/١٠ تاريخ التراث العربي ٢٧٩/٣ ـ ٢٨٠ وفيات الأعيان ٣٠٨/٥ ـ ٣١٠ تهذيب التهذيب ٣٣٩/١٠ ـ ٣٤٠ مروج الذهب للمسعودي ٣٥٦/٣ الأعلام ٢٧٠/٨.

(٢) الفهرست ص ٢٧٦ تاريخ التراث العربي ٢٨٤/٣.

* وأمّا عليّ الرضا: فهو أبو الحسن ابن موسى الكاظم (١٥٣هـ - ٢٠٣هـ).

الإمام الثامن في اعتقاد أئمّة الشيعة الإماميّة، روى عن أبيه موسى الكاظم عن جدّه جعفر الصادق، وسمع عمومته إسماعيل وعبدالله وإسحاق وغيرهم من أهل الحجاز، وروى عنه ابنه محمد وكثير من أئمّة الحديث.

كان يفتي في مسجد رسول الله ﷺ وهو ابن نيف وعشرين سنة، وكان المأمون العباسي قد همّ بالتنازل له عن الخلافة فأبى عليه ذلك، فجعله وليّ العهد من بعده، فحدث بسبب ذلك ثورات واضطرابات، وأعلن إبراهيم بن المهدي خليفة، ولم تخمد الفتن إلاّ بعد موت عليّ الرضا، حيث عاد الأمر إلى المأمون وطاوعه الجند على السمع والطاعة.

كان عليّ الرضا عالماً مشاركا في علوم مختلفة، كالفقه وأصوله، والحديث وعلومه، والطبّ وفروعه له إجابات على أسئلة فقهيّة وجّهها إليه المأمون العباسي، وله صحيفة الرضا وهي مجموعة أحاديث وصلت إلينا برواية الفضل بن الحسن الطبرسي، وينسب إليه فقه الرضا الذي يعتبر أهمّ مصنّف في الفقه الجعفري، ويرى البعض أنّ نسبة هذا الكتاب إلى عليّ الرضا هو موضع شكّ، وأنّ من المحتمل أن يكون مؤلّفه هو عليّ بن بابويه، وهذا الكتاب قد طبع بإيران[1].

ومن أشهر أصحابه الذين تلقّوا عنه[2]:

- ١ - أبو عبدالله محمد بن خالد البرقي القمّي، وكان عالماً شيعيًّا كثير المصنّفات، وقد ذكر له نحو مائة كتاب.

---

(١) انظر: شذرات الذهب ٧٥/٢ - ٧٦ البداية والنهاية ٢٥٠/١٠ تاريخ التراث العربي ٢٨١/٣ - ٢٨٤ تهذيب التهذيب ٣٨٧/٧ - ٣٨٩ وفيات الأعيان ٢٦٩/٣ - ٢٧١ الأعلام ١٧٨/٥.

(٢) انظر: الفهرست ص ٢٧٦ - ٢٧٨ تاريخ التراث العربي ٢٨٥/٣ - ٢٨٦.

- ٢ - أبو محمد الفضل بن شاذان بن الخليل الأزدي النيسابوري، وكان متكلّماً فقيهاً كثير التصانيف، ويقال أنّه صنّف نحو ١٨٠ كتاباً.

- ٣ - أبو الحسن عليّ بن أسباط بن سالم الكوفي، وكان فقيهاً وقارئاً ومفسّراً.

- ٤ - الحسن والحسين ابنا سعيد بن حمّاد الأهوازيين، من أهل الكوفة، وكانا أوسع أهل زمانهما علماً بالفقه والآثار والمناقب وغير ذلك من علوم الشيعة.

- ٥ - أبو علي الحسن بن علي بن فضال، وكان من خاصّة أصحابه.

وأمّا أشهر أعلام المذهب الزيدي في هذه المرحلة، فمنهم:

- ١ - أبو محمد القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل العلوي (١٦٩هـ - ٢٤٦هـ).

كان من أعلام الزيديّة في عصره، صنّف أكثر من ٣٠ مصنّفاً في علوم مختلفة ومواضيع شتّى، منها الناسخ والمنسوخ وتفسير القرآن، وكتاب المسائل ممّا سأل عنه الحسن، ويضمّ هذا الكتاب إجابات على أسئلة لابنه الحسن، وتلك كتاب المسائل المنثورة، ويضمّ إجابات على أسئلة لابنه محمّد، وكتاب الأصول الخمسة، ويعدّ أقدم كتاب معروف يضمّ أصول الزيديّة، وله كذلك كتباً عديدة في الردّ على الخوارج وعلى المجبرة وعلى الروافض من أصحاب الغلوّ، وفي أصول العدل والتوحيد ونفي الجبر والتشبيه، وقضايا أخرى من أصول الدين[1].

٢ - - أبو عبدالله أحمد بن عيسى بن زيد بن عليّ البغدادي (١٥٧هـ - ٢٤٧هـ).

هو إمام الزيديّة في عصره، وكان عند أهل الكوفة عالماً حجّة، أحضره هارون الرشيد إلى بغداد وسجنه، فهرب من السجن وأمضى بقيّة

(١) تاريخ التراث العربي ٣/٣٢٨ - ٣٣٣ الأعلام ٥/٦ معجم المؤلفين ٨/٩١.

حياته مختفياً بالبصرة حتى سنة وفاته[١].

صنّف كتاب الأمالي رواه عنه تلميذه أبو جعفر محمد بن منصور بن يزيد المرادي، المفسّر، والمحدّث والفقيه والمؤرّخ، الزيدي المذهب[٢].

وقد قام أبو عبدالله محمد بن علي الحسني (٤٤٥هـ) في كتابه «الجامع الكافي في فقه الزيديّة» بجمع كتب أبي جعفر محمد بن منصور، مع كتب أحمد بن عيسى، والقاسم بن إبراهيم، والحسن بن يحيى، وهذه الكتب هي[٣]:

زيادات إلى أمالي أحمد بن عيسى، كتاب المجموع وكتاب المسائل وكتب الطهارة والنهي عن المسح على الخفّين والصلاة والجنائز والزكاة والخمس والصوم والحجّ ومناسك الحجّ والنكاح وإبطال المتعة والطلاق وإيقاع الطلاق والرضاع والبيوع والأيمان والكفّارات والحدود والديات والفرائض والقضاء والسيرة والصيد والذبائح والعصير والطلاء ومعرفة الأوزان وتحريم الأشربة والملاهي.

٣ ـ أبو الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم (٢٢٠هـ ـ ٢٩٨هـ) الملقّب بالهادي إلى الحقّ.

نشأ بالحجاز وتعلّم الفقه وسائر العلوم، وكان عالماً ورعاً، فيه شجاعة وبطولة، لقّب في عهد المعتضد بالخليفة، ودانت له صنعاء بالولاء، ودعي له في الخطبة بالحرم المكّي.

صنّف كتباً كثيرة في مواضيع مختلفة، له تفسير القرآن، وهذا الكتاب تتمّة للكتاب الذي كان قد بدأه جدّه القاسم وعمّه محمد، ثمّ أكمله من بعده ابناه المرتضى والناصر، وله الجامع المسمّى بالإحكام في الحلال والحرام والسنن والأحكام الذي بدأ تأليفه حين كان بالمدينة ولكنّه لم

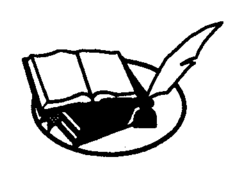
---

(١) تاريخ التراث العربي ٣/٣٢٧ المعارف لابن قتيبة ص ١١١.
(٢) تاريخ التراث العربي ٣/٣٢٨، ٣٣٣.
(٣) تاريخ التراث العربي ٣/٣٣٤ ـ ٣٣٥.

يكمله، وله كتاب الرضاع، وكتاب المنتخب من الفقه وفيه إجاباته إلى أبي جعفر محمد بن سليمان الكوفي الذي قام بجمعها، وله في أصول الفقه كتاب تفسير معاني السنّة، وكتاب القياس، كما له كتاب الأحاديث النبويّة، وهذا الكتاب مبوّب على أبواب الفقه، فضلاً عن المصنّفات الأخرى في مجال العقيدة وأصول الدين، وله رسائل كثيرة[1].

هذه فكرة عامّة عن نشاط المذاهب الفقهيّة في هذه المرحلة من هذا الدور حاولنا إظهارها، ولم يكن من غايتنا أن نستقصي جميع الأعلام، ولا هو بوسعنا في هذا الكتاب، ذلك أنّ الذين انتسبوا إلى تلك المذاهب في هذه المرحلة وقاموا بنشر آراء شيوخهم كثرة كاثرة، اقتصرنا على من رأيناهم قد حازوا الشهرة في ذلك بعلمهم وفقههم، واقتفوا آثار أئمّتهم واختاروا مناهجهم وطرائقهم، فكان لهم الفضل في تكوين الأتباع وبثّ العلم ونشره في صدور الرجال، كما كان لهم الفضل في إنتاج المصنّفات بالتخريج والاجتهاد على مقتضى أصول مذاهبهم، وتقرير الأحكام وفق قواعد أئمّتهم، والتصرّف فيما رووا ونقلوا عن شيوخهم توجيهاً واستنباطاً.

وإتماماً للفائدة رأينا من المناسب بعد هذا العرض لنشاط الفقه والتشريع في هذه الدور أن نختم الفصل بجملة من النتائج كما فعلنا في الفصل الذي قبله.



(١) تاريخ التراث العربي ٣/٣٣٥ ـ ٣٤١ الأعلام ٩/١٧١ معجم المؤلفين ١٣/١٩١ ـ ١٩٢.



استخلاص ونتائج

في نهاية هذا الدور نصل إلى تقرير جملة من النتائج التالية:

- ١ - إنّ أئمّة المذاهب رغم تمام إدراكهم بأنّ ما يأمر به كتاب الله وسنّة رسوله، بعضه مطلوب القيام به على سبيل الوجوب والحتم، وبعضه دون ذلك، وأنّ ما ينهى عنه كتاب الله وسنّة رسوله، بعضه مطلوب تركه على سبيل الوجوب والحتم، وبعضه دون ذلك، رغم إدراكهم ذلك تمام الإدراك، فقد كانوا مع ذلك يتورّعون عن إطلاق لفظ التحريم ويتحرّون في تخيّر الألفاظ واستعمال المصطلحات، وقد كان هذا الاحتياط والتحرّي منهم تأسّيا بمن سبقهم من أعلام التابعين، فعن عبدالله بن وهب قال: سمعت مالكاً يقول: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحداً أقتدي به يقول في شيء، هذا حلال وهذا حرام، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنّما كانوا يقولون: نكره كذا، ونرى هذا حسنا، فينبغي هذا، ولا نرى هذا، وأمّا حلال وحرام فهذا الافتراء على الله، أما سمعت قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة يونس - الآية ٥٩]، لأنّ الحلال ما أحلّه الله ورسوله، والحرام ما حرّماه[1].

لذلك كان أئمّة المذاهب أكثر ما يستعملون ألفاظ: لا يعجبني، ولا

(١) ترتيب المدارك ١٤٥/١ إعلام الموقّعين ٣٩/١ مناقب الإمام مالك للزواوي ص ٣٩.

ينبغي، ولا أراه، ولا أحبّه، ولا أجيز، ولا يجوز، ومكروه ولا خير فيه، للتعبير عن التحريم، ويستعملون ألفاظ لا بأس بذلك، وأرجو أن لا يكون به بأس، للتعبير عن الحلّية، وغير ذلك من الألفاظ الدالة على شدّة تحرّيهم في الفتيا وورعهم في تخيّر الألفاظ أدباً مع الله ورسوله، وتأسّيا بمن سبقهم من السلف الصالح(١).

وهذا يدلّ على أنّ الحاجة في بداية هذا الدور لم تكن بعد ملحّة لإضفاء تعبيرات دقيقة لمفهوم التحريم والتحليل بالمعنى الاصطلاحي المحدّد للفظ، لذلك نرى الأئمّة يستعملون ألفاظ متعدّدة للتعبير عن هذا المعنى أو ذاك، ويعبّرون عن الكراهة بمعنى التحريم، ويقصدون بذلك حرمة الفعل لا كراهته.

وقد نبّه على ذلك ابن قيم الجوزية حين قال: وقد غلط كثير من المتأخّرين من أتباع الأئمّة على أئمّتهم بسبب ذلك، حيث تورّع الأئمّة عن إطلاق لفظ التحريم، وأطلقوا لفظ الكراهة، فنفى المتأخّرون عمّا أطلق عليه الأئمّة الكراهة، ثمّ سهل عليهم لفظ الكراهة وخفّت مؤنته عليهم، فحمله بعضهم على التنزيه، وتجاوز به آخرون إلى كراهة ترك الأولى، وهذا كثير جدًّا في تصرّفاتهم، فحصل بسببه غلط عظيم على الشريعة وعلى الأئمّة(٢).

ـ ٢ ـ أنّ هذا الدور قد مثّل البدايات الأولى لظهور ما يسمّى بالفروض الفقهية ـ أو الفقه الافتراضي ـ القائم على أساس تصوّر مسائل نظريّة تفنى الأعمار ولا يتصوّر حدوث واقعة منها، وكان أوّل من ابتدع هذا الفقه الافتراضي، الإمام أبو حنيفة الذي كان يرى ضرورة الاستعداد للبلايا قبل وقوعها، ثمّ تأثّر بهذا المنهج الافتراضي بعد ذلك بعض المالكيّة مثل الإمام سحنون الذي فرّع في مدوّنته فروعاً كثيرة على كلّ مسألة فقهيّة

(١) انظر على سبيل المثال: الموطأ ٦٨١/٢، ٦٨٤، ٦٨٦، ٦٨٨، ٦٩٠، الأمّ ٢٠/٣، ٢٢، ٧٠، إعلام الموقّعين ٤٠/١، ٤٢.

(٢) إعلام الموقعين ٢٩/١ ـ ٣٠.

ممّا جعل بعض هذه الفروع لا تعدو أن تكون احتمالاً نظريًّا بعيداً عن الواقع.

وهذا المنهج الافتراضي الذي أدّى إلى اتّساع مسائل الفقه شيئاً فشيئاً لا شكّ أنّ تداعياته ستكون أعمق أثرا في الدور القادم.

ـ ٣ ـ يلاحظ في المرحلة الثانية من هذا الدور اتّساع المسائل وكثرة التفريع واختلاف الأقوال في المذهب الواحد، واختلاف الطرائق التي بسببها اختلفت الأقوال، مع أنّ الأصول التي أرجع إليها في ذلك هي أصول مسلّمة متّحدة، وهي الأصول التي بها تكوّن تلاميذ وأتباع كلّ مذهب من المذاهب الفقهيّة، ولكنّ طريقة التفريع وصورة التطبيق وتقدير الواقعة والرجوع إلى الدليل الإجمالي الذي ينطبق عليها، والتصرّف فيما نقل عن أئمّة المذاهب من أقوال بالتوجيه والاستنباط، هو الذي قضى باختلاف الأنظار في الفتاوي، ممّا اختلفت به المسائل، فكوّنت هذه المرحلة التي هي مرحلة التفريع دوراً جديداً من بعدها نستطيع أن نصطلح على تسميته دور التطبيق(١).

ـ ٤ ـ أنّ مرحلة التفريع تعتبر مرحلة متمّمة ومكمّلة لمرحلة التأصيل في حركة الاجتهاد وبناء صرح الفقه، ذلك أنّ أقطاب هذه المرحلة ـ وهم تلاميذ أئمّة المذاهب ـ الذين كانوا يجتهدون في تطبيق الأحكام على الوقائع باختيار ما يناسب من أقوال أئمّتهم، وكانوا كذلك يجتهدون في استنباط الأحكام والنظر في نصوص الوحي مباشرة، إلاّ أنّهم كانوا في كلّ ذلك يلتزمون أصول أئمّتهم ولا يخرجون عن مناهجهم الاستدلاليّة، وإن كانوا يخالفونهم أحياناً في كثير من المسائل الفقهيّة العمليّة التفصيليّة.

ـ ٥ ـ أنّ مساندة الحكّام والأمراء لبعض المذاهب الفقهيّة ممثّلة في بعض أعلامها على حساب البعض الآخر، قد كان له الدور الفعّال في توفير الظروف الملائمة لنموّ هذه المذاهب وانتشارها بفضل ما نال أنصارها

(١) محاضرات مغاربية ص ٧٨.

من احترام وإجلال وتقدير وتشجيع لم ينله غيرهم، كما هو الحال بالنسبة لبني العباس الذين آثروا تعيين قضاتهم من أتباع المذهب الحنفي أخذا بقرار أبي يوسف قاضي القضاة الذي كان لا يولّي قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال إفريقية إلاّ أصحابه والمنتمين إلى مذهبه، وكما هو الحال بالنسبة للمذهب المالكي في الأندلس حيث كان يحيى بن يحيى مكيناً عند أمراء بني أميّة، مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاض في الأندلس إلاّ بمشورته واختياره وكان لا يشير إلاّ بأصحابه ومن كان على مذهبه(١).

في حين كان بعض أنصار المذاهب الأخرى قد ابتلوا بالتتبّع وبالمطاردة والملاحقة، وربّما وصل الأمر إلى التعذيب والتنكيل، كما هو الحال بالنسبة لموسى الكاظم - أحد أئمة المذهب الجعفري - الذي أطال هارون الرشيد حبسه حتى مات في سجنه، وكذلك أحمد بن عيسى - أحد أعلام المذهب الزيدي - الذي هرب من سجنه وأمضى بقيّة حياته مختفياً بالبصرة حتى سنة وفاته، ولا شكّ أنّه إزاء هذا الضغط السياسي فإنّه لم يتيسّر لأنصار المذهب الشيعي نشر آرائهم وفقههم بسهولة ويسر.

- ٦ - أنّ كلّ مركز من مراكز البلاد الإسلاميّة قد حظي في هذا الدور بنشاط فقهي خصب قام بادىء الأمر على أئمّة اشتهرت المذاهب بالإضافة إلى أسمائهم رغم أنّهم لم يكونوا منشئين ولا مخترعين ولا مبتدعين للأصول التي بنوا عليها مذاهبهم، وإنّما كانت تلك الأصول يسير عليها الفقه من قبل دون أن يقع التعبير عنها أو التعريف بها(٢).

ثمّ قام هذا النشاط بعد ذلك على الذين تكوّنوا بهؤلاء الأئمّة وتخرّجوا عليهم مجتهدين على مقتضى الأصول التي بنوها والمناهج التي ارتاؤوها.

فكنّا نرى أحياناً مذهباً يسود مركزا من المراكز ولا ينافسه في زعامته

(١) جذوة المقتبس ص ٣٦٠ - ٣٦١ بغية الملتمس للضبّي ٦٨٦/٢.

(٢) محاضرات مغاربية ص ٦٨.

أيّ مذهب آخر، كما هو الشأن بالنسبة للمذهب المالكي الذي استقلّ في هذا الدور بالمدينة المنوّرة.

وربّما ساد مذهب من المذاهب إحدى المراكز، واختصّ به أهلها واقتصروا عليه، ثمّ تحوّلوا عنه واعتنقوا غيره، كما هو الشأن بالنسبة للمذهب الأوزاعي الذي سار عليه أهل الأندلس ثمّ انصرفوا عنه إلى المذهب المالكي.

وغالباً ما كان يتجمّع في المركز الواحد أنصار مذاهب عديدة يترسّم الناس خطاهم ويعملون بمقتضى آرائهم، فيحدث نتيجة ذلك تنافس بين أنصار المذاهب في تنازع الزعامة، كما هو الشأن بالنسبة للمركز العراقي الذي ظهر به أوّل الأمر المذهب الحنفي، ثمّ انتشر به المذهب الشافعي والمالكي، ثمّ المذهب الحنبلي، فالمذهب الظاهري.

وربّما ساد مذهب على حساب آخر واستقلّ بزعامة المركز وريادته، كما هو الشأن بالنسبة للمركز الإفريقيّ الذي تنافس عليه الأحناف والمالكيّة وسادا بها، غير أنّه اختصّ في نهاية المطاف بالمذهب المالكي حيث كانت الغالبية تميل إلى المالكية.

وربّما تزعّم المركز الواحد مذهبان، وتنافسا عليه كفرسي رهان، كما هو الشأن بالنسبة للمركز المصري الذي تربّع عليه أكبر أصحاب مالك وأسماهم قدرا وأكثرهم عدداً، وبقي المذهب المالكي هو المذهب الأوّل بمصر، ثمّ دخل عليهم الشافعي في آخر حياته ـ سنة ١٩٩هـ ـ وأنشأ لنفسه أتباع نافسوا المالكيّة، حتى صارا المذهبان الغالبان في مصر، في حين تأخّر ظهور المذهب الحنفي بها إلى أن نزلها قضاة بغداد الأحناف.

ـ ٧ ـ أنّ الكثير من الأعلام كانوا يتفقّهون في أكثر من مذهب، وقد برز ذلك بالخصوص في المركز الإفريقي مع عبدالله بن فرّوخ وعليّ بن زياد وأسد بن الفرات، الذين تلقّوا عن الإمام مالك وعن أصحاب أبي حنيفة، كما ظهر هذا الأمر بوضوح أيضاً في المركز المصري مع محمد بن عبدالحكم وحرملة بن يحيى التجيبي ويونس بن عبدالأعلى والربيع الجيزي الذين تلقّوا عن عبدالله بن وهب ونظرائه من أصحاب مالك المصريين وصاحبوا الشافعي ورووا عنه، حتّى تنازع أصحاب الطبقات في عدّهم من

أصحاب الشافعي أو من أتباع مالك المصريين.

ـ ٨ ـ أنّ المرأة المسلمة لم تعدم نشاطاً ومشاركة في سير الحركة الفقهيّة والتشريعيّة في هذا الدور من تاريخ الفقه الإسلامي، بل إنّنا لنجد أعلام من النساء العالمات، والفقيهات الفاضلات اللائي ساهمن مساهمة فعّالة في بناء صرح الفقه وتطوّر حركة التشريع في هذا الدور، نذكر منهنّ(١):

فاطمة بنت الإمام مالك التي روت عن أبيها الموطّأ، وقد ذكرها الحافظ أبو بكر البغدادي في الرواة عن مالك، وذكرها القاضي عياض في من روى الموطّأ من الجلّة والأعلام المشاهير والثقات عن مالك.

ونفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب (١٥٠هـ ـ ٢٠٨هـ) وزوجة إسحاق بن جعفر الصادق، التي كانت من النساء الصالحات، ويروى أنّ الإمام الشافعي لمّا دخل مصر حضر إليها وسمع عليها الحديث، وكان ربّما صلّى بها في شهر رمضان، ولمّا توفّي أمرت بجنازته فأدخلت إليها فصلّت عليه، ولا شكّ أنّ سلسلتها في النسب، وسماع الشافعي منها وعليها، وحمله ميتا إلى بيتها، أعظم منقبة، فلم يكن ذلك إلاّ عن قبول وإقبال وصيت وإجلال.

وكانت خديجة بنت الإمام سحنون عالمة من أحسن النساء وأعقلهنّ.

وكانت خديجة أمّ محمّد تتردّد على الإمام أحمد بن حنبل، ويحدّثها فروت الحديث وأخذ الأعلام عنها، وكانت أمّ عيسى بنت إبراهيم بن إسحاق الحربي، فاضلة عالمة تستفتى فتفتي في مسائل الفقه.

وقد حفظ لنا الإمام النسائي نصّا فريدا ووثيقة هامّة في فنّ الشروط تبرز بوضوح كيف أنّ النساء كنّ يشاركن الرجال في صنعة التوثيق المعروفة بعقد الشروط، وفي ذلك دلالة على أنّ النساء كنّ يعقدن العقود بأنفسهنّ، ويشاركن في تحريرها بأيديهنّ، ولا يتأتّى لهنّ ذلك إلاّ إذا كنّ يفقهن الأحكام وما يجري عليه العمل في وقتهنّ.

(١) تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك ص ٣٥ ترتيب المدارك ٢٠٢/١، ١١٩/٣ وفيات الأعيان ٤٢٣/٥ شذرات الذهب ١٠١/٢ ـ ١٠٢ البداية والنهاية ٢٦٢/١٠.

وهذا نصّ الوثيقة: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾[١].

هذا كتاب كتبته فلانة بنت فلان بن فلان في صحّة منها وجواز أمر لفلان بن فلان بن فلان، إنّي كنت زوجة لك وكنت دخلت بي فأفضيت إليّ، ثمّ إنّي كرهت صحبتك وأحببت مفارقتك عن غير إضرار منك بي ولا منعي لحقّ واجب لي عليك، وإنّي سألتك عند ما خفنا أن لا نقيم حدود الله أن تخلعني فتبينني منك بتطليقة بجميع مالي عليك من صداق، وهو كذا وكذا دينارا جيادا مثاقيل، وبكذا وكذا دينارا جيادا مثاقيل أعطيتكها على ذلك سوى ما في صداقي، ففعلت الذي سألتك منه فطلّقتني تطليقة بائنة بجميع ما كان بقي لي عليك من صداقي المسمّى مبلغه في هذا الكتاب وبالدنانير المسمّاة فيه سوى ذلك، فقبلت ذلك منك مشافهة لك عند مخاطبتك إيّاي به ومجاوبة على قولك من قبل تصادرنا عن منطقنا ذلك، ودفعت إليك جميع هذه الدنانير المسمّى مبلغها في هذا الكتاب الذي خالعتني عليها وافية سوى ما في صداقي، فصرت بائنة منك مالكة لأمري بهذا الخلع الموصوف أمره في هذا الكتاب، فلا سبيل لك عليّ ولا مطالبة ولا رجعة، وقد قبضت منك جميع ما يجب لمثلي ما دمت في عدّة منك وجميع ما أحتاج إليه بتمام ما يجب للمطلّقة التي تكون في مثل حالي على زوجها الذي يكون في مثل حالك، فلم يبق لواحد منّا قبل صاحبه حقّ ولا دعوى ولا طلبة، فكلّ ما ادّعى واحد منّا قبل صاحبه من حقّ ومن دعوى ومن طلبة بوجه من الوجوه فهو في جميع دعواه مبطل وصاحبه من ذلك أجمع بريء، وقد قبل كلّ واحد منّا كلّ ما أقرّ له به صاحبه وكلّ ما أبرأه منه ممّا وصف في هذا الكتاب مشافهة عند مخاطبته إيّاه قبل تصادرنا عن منطقنا وافتراقنا عن مجلسنا الذي جرى بيننا فيه، أقرّت فلانة وفلان[٢].

(١) سورة البقرة - من الآية ٢٢٩.

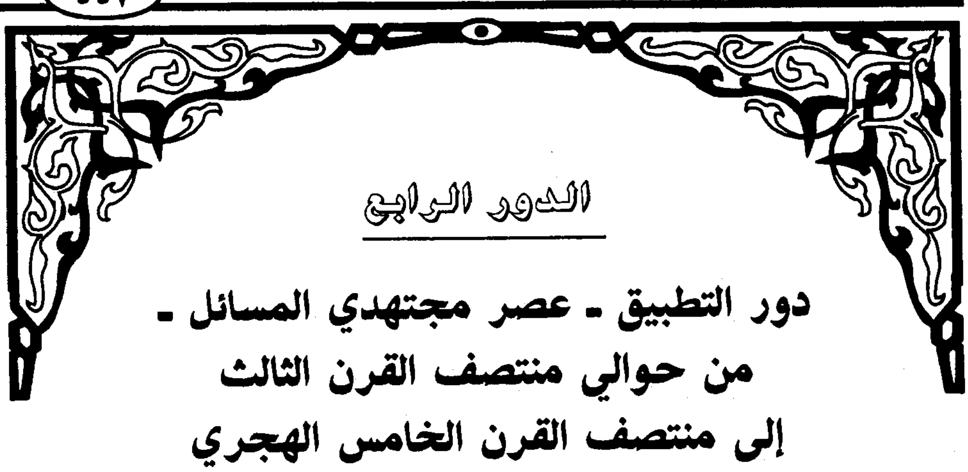
(٢) سنن النسائي، كتاب المزارعة، باب تفرّق الزوجين عن مزاوجتهما.




الجزء الثاني

يشمل الأدوار الثلاثة اللاحقة من تاريخ الفقه وهي الفترة التاريخيّة الممتدّة من منتصف القرن الثالث الهجري إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري.



الدور الرابع

دور التطبيق ـ عصر مجتهدي المسائل ـ من حوالي منتصف القرن الثالث إلى منتصف القرن الخامس الهجري

تمهيد:

اتّسمت الحياة السيّاسيّة في هذا الدور بثلاثة مظاهر كان لها الأثر البالغ في تاريخ المسلمين[1]:

أوّلها: انتشار الثورات وتتابع الفتن الداخليّة التي كانت تقوم من حين لآخر، ونذكر منها بالخصوص ثورتي الزنج والقرامطة، فأمّا ثورة الزنج فقد استطاع الموفّق لعهد أخيه المعتمد (٢٥٦هـ ـ ٢٧٩هـ) أن يقضي بعد جهاد عنيف عليها قضاء مبرما، وأمّا القرامطة فقد ظلّوا حتى منتصف القرن الرابع الهجري ينزلون ببني العبّاس خسائر فادحة في الجنود والعتاد، حتّى استولوا على مكّة وارتكبوا بها أبشع الجرائم، ونهبوا الحجّاج ونكّلوا بهم أشنع تنكيل، وقتلوا منهم في سنة ٣١٢هـ ثلاثة آلاف، واقتلعوا الحجر الأسود من موضعه، وبقي في إحدى زوايا «الإحساء» إلى سنة ٣٣٩هـ حيث أرجعه القرامطة بأمر من المنصور الفاطمي.

---

(١) تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن ٣/١ ـ ١٩١ و٣٣٢ وما بعدها تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة ٤٧ ـ ٦٧.

كما تحرّكت الخوارج في الموصل وخراسان، وكثر الثائرون من العلويين، وقويت دعوة الشيعة في المشرق، ولم يهفت لهم بال حتى نهضوا بالدولة الفاطميّة في بلاد المغرب ومصر.

ثانيها: اتّساع نفوذ الأتراك الذين سيطروا على أداة الحكم، وغلبوا خلفاء بني العبّاس على أمرهم حتّى أصبح الخليفة أسير نفوذهم، إن شاؤوا أبقوه وإن شاؤوا خلعوه وقتلوه أو سملوا عينيه وسجنوه حتّى يموت صبراً، فتردّت الدولة في هوّة بعيدة القرار، وكلّما تقدّمنا خلال هذه الفترة اتّسع الخرق ولم يعد بالإمكان رتقه.

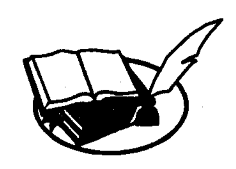
ثالثها: اقتطاع الخلافة العبّاسيّة وانقسام البلاد الإسلاميّة: حيث استقلّت الكثير من الولايات عن الدولة المركزيّة بعد أن عجز أصحاب النفوذ والسلطة عن جمع أطراف الدولة، فبعد أن قامت الدولة الأمويّة بالأندلس (١٣٨هـ ـ ٤٢٢هـ) وتأسّست دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (١٧٢هـ ـ ٣٧٥هـ)، استأثر الطولونيون (٢٥٤هـ ـ ٢٩٢هـ) فالإخشيديون (٣٢٣هـ ـ ٣٥٨هـ) ثمّ الفاطميون (٣٥٨هـ ـ ٥٦٧هـ) بمصر.

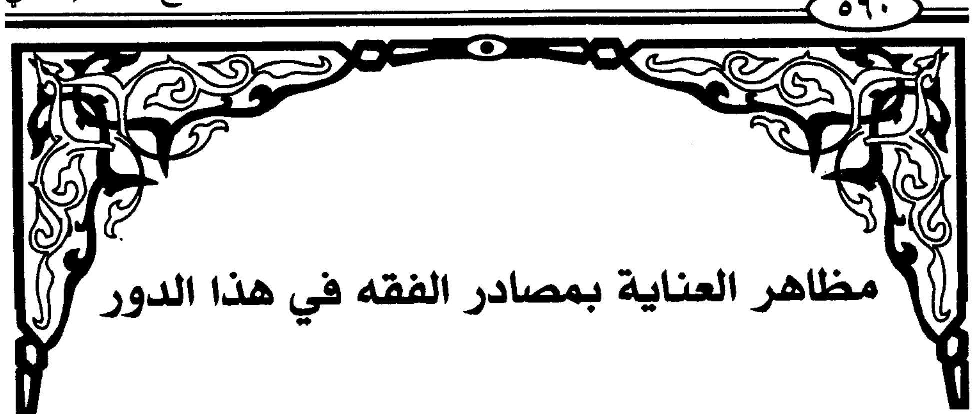
وقامت الدولة الصفّاريّة (٢٥٤هـ ـ ٢٩٠هـ) والسامانيّة (٢٦٦هـ ـ ٣٨٩هـ) التي تفرّعت عنها الدولة الغزنويّة (٣٥١هـ ـ ٥٨٢هـ) في خراسان وما جاورها، وساد الحمدانيون (٣١٧هـ ـ ٣٩٤هـ) في الموصل وحلب.

وهكذا لم يبق تحت نفوذ الخليفة العبّاسي سوى بغداد التي استولى عليها البويهيون (٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ) وأصبحوا هم أصحاب الشأن في تولية الوزراء والقضاة والولاة وأصحاب الشرطة والحسبة، ولم يعد للخليفة سوى سلطان اسمي وأن يدعى له على المنابر.

وعلى الرغم من كلّ هذا الفساد الذي ساد نظام الحكم، وعلى الرغم ممّا اكتنف هذا العصر من اضطرابات ومآسي، فإنّ من أغرب ما نلاحظه هو امتزاج ذلك الاختلال في المجال السياسي بالرقيّ في الميدان الثقافي،

وذلك بسبب ظهور التنافس في المجد العلمي بين تلك الدول والإمارات العديدة التي قامت في مختلف أنحاء البلاد الإسلاميّة، فتعدّدت بذلك عواصم العلم التي استقطبت العلماء، وراجت الثقافة، وتنقّل أهل العلم طلبة وشيوخا بين تلك العواصم، وتنافس الأمراء في التقرّب إليهم واستمالتهم للاستقرار تحت ظلّ دولتهم.





مظاهر العناية بمصادر الفقه في هذا الدور

ـ ١ ـ القرآن الكريم:

زاد الاعتناء بتفسير كتاب الله باعتباره أمّ العلوم القرآنيّة، فنما تفسير القرآن الكريم نموّا سريعا، وخطا خطوة حاسمة انفصل بها عن الحديث، فأصبح علماً قائما بنفسه، ووضع التفسير لكلّ آية من القرآن، ورتّب ذلك على ترتيب المصحف، واتّضح في تفسير القرآن اتّجاهان رئيسيان[1]:

اتّجاه التفسير بالمأثور: وكان من أشهر المتصدّين له في هذا الدور، المجتهد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(٢٢٤هـ ـ ٣١٠هـ) الذي صنّف جامع البيان في تفسير القرآن، وجمع فيه عن طريق الروايات المسندة كلّ ما أثر عن الصحابة والتابعين في تفسير آيات القرآن، وقد اعتبر تفسيره أجلّ التفاسير وأعظمها، لأنّه أوّل من عرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، كما عرض للإعراب والاستنباط، وشهد العارفون بأنّه لا نظير له في التفاسير، وكذلك أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي الحنفي (٣٧٥هـ) صاحب التفسير المسمّى ببحر العلوم والمعروف بتفسير أبي الليث، وأبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (٤٢٧هـ) صاحب كتاب الكشف والبيان عن تفسير القرآن.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١٩٠/٢ ـ ١٩١ كشف الظنون ٣٦٠/١ و٣٦٣ و٣٦٧، التفسير والمفسّرون ١٤١/١ و٢٠٤ ـ ٢٣٤ و٣٨٧ ـ ٤٠٢ و٢/ ٤٢ و٢٨٢ و٤٣٥، مناهل العرفان ٢٤/١ ـ ٢٥ و٤٩٧.

اتّجاه التفسير بالمعقول: وأشهر من مثّل هذا الاتّجاه هم المعتزلة والشيعة الذين نظروا إلى القرآن من خلال عقائدهم، وأخضعوا عباراته لخدمة آرائهم وأوّلوها تأويلات تتّفق وأصول مذاهبهم.

وكان من أشهر تفاسير المعتزلة: تفسير أبو عليّ الجبّائي (٣٠٣هـ) وتفسير أبي الحسن علي بن عيسى الرمّاني (٣٨٤هـ) وتفسير القاضي عبدالجبّار (٤١٥هـ) المسمّى بتنزيه القرآن عن المطاعن.

وكان من أشهر تفاسير الشيعة: تفسير محمد بن مسعود الكوفي المعروف بالعياشي، من علماء القرن الثالث الهجري، وتفسير علي بن إبراهيم القمي، من علماء أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري وتفسير أبي جعفر الطوسي (٤٦٠هـ) المسمّى بالتبيان، وتلك كتب التفسير عند الإماميّة الاثني عشريّة.

ومن أشهر كتب التفسير عند الزيديّة في هذا الدور: تفسير إسماعيل بن علي الزيدي (حدود ٤٢٠هـ) وظلّ القرآن الكريم مصدر علوم عديدة ازداد اهتمام العلماء بها في هذا الدور، ونشأت علوم جديدة للقرآن وظهرت مصنّفات في كلّ نوع منها.

وتبارت الهمم في الاشتغال بعلومه، فعلماء اللغة شرحوا مفردات ألفاظه ومدلولاتها بحسب الوضع، واتّجهت عنايتهم لمعرفة خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، ومعرفة وجوه تحسين الكلام ومراعاة ما يقتضيه الإعجاز.

والفقهاء استندوا إلى القرآن لاستنباط الأحكام منه باعتباره المصدر الأوّل للتشريع الإسلامي، وبعد أن كان الإنتاج التفسيري للفقهاء قبل هذا الدور عبارة عن متفرّقات تؤثر عن فقهاء الصحابة والتابعين يرويها عنهم أصحاب التفاسير المختلفة، يطالعنا أبو بكر الرازي الحنفي (٣٧٠هـ) المعروف بالجصّاص في هذا الدور بكتاب أحكام القرآن الذي يعدّ من أهمّ التفسير الفقهي خصوصاً عند الحنفيّة.

وأصحاب الفرق العقائديّة توجّهوا إلى القرآن لتأويله تأويلات ترضي

عقيدتهم وتتمشّى مع مذاهبهم، حتى يجعلوا من آيات القرآن شاهدا لهم.

وأخذت القراءات مكانها من التدوين في خاتمة القرن الثالث، حيث نهض ببغداد ابن مجاهد أحمد بن موسى ابن عبّاس فجمع قراءات سبعة من القرّاء، وكان عدد القرّاء لا يحصون كثرة، وأخذ على نفسه ألاّ يروي إلاّ عمّن اشتهر بالضبط والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة، واتّفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقّي منه، فجاء اقتصاره على القرّاء السبعة مصادفة واتّفاقا من غير قصد ولا عمد(١).

ـ ٢ ـ السنّة النبويّة:

ازدادت في هذا الدور حركة جمع الحديث، وتناولت مختلف طرق العمل لجمعه وترتيبه، فظهرت كتب السنن الأربعة ـ سنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجة ـ وكان لكلّ كتاب منها ميزته التي يمتاز بها، واشتهر كثير من كبار المحدّثين وجهابذة السنّة وحذّاق الناقدين ومهرة المصنّفين الذين كانت لهم أياد بيضاء في خدمة الحديث ومعرفة رجاله والبحث عن علله، من أمثال ابن جرير الطبري الذي صنّف كتاب تهذيب الآثار ـ إلاّ أنّه لم يتمّه ـ تكلّم فيه على كلّ حديث وعلّته وطرقه وما فيه من الفقه واختلاف العلماء وحججه واللغة، وهو كتاب قد تفرّد في بابه بلا مشارك.

وما كانت شمس القرن الثالث الهجري تؤذن بمغيب حتّى كانت الموسوعات الحديثية تزخر بالحديث وعلومه، وصار العلماء في القرن الرابع وما بعده يجمعون ما تفرّق في كتب الأوّلين أو يختصرونها بحذف الأسانيد، أو يقومون بشيء من التهذيب والترتيب لكتب السابقين، ونحو ذلك من طرق العناية، حتّى لفظت الرواية الشفاهيّة عند أغلب المحدّثين أنفاسها، وذهب من بين الرواة ريحها، وطغى عليها التدوين الذي بلغ أشدّه في النصف الثاني من هذا الدور.

---

(١) النشر في القراءات العشر ٣٤/١، مناهل العرفان ٤٠٩/١ ـ ٤١٠.

وكان من بين أعلامه مجموعة كبيرة من أبرزهم: الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ) الذي بلغت كتبه ألفاً وخمسمائة جزء، والحافظ الدارقطني (٣٨٥هـ) إمام عصره في صناعة الجرح والتعديل واتّساع الرواية والحافظ ابن حبّان (٣٥٤هـ) والإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني (٣٦٠هـ) صاحب المعاجم الثلاثة في الحديث ـ الكبير والأوسط والصغير ـ، وأبو جعفر الطحاوي (٣٢١هـ) صاحب معاني الآثار، وهو كتاب في الأحكام جعله أبواباً، وذكر في كلّ باب ما فيه من الناسخ والمنسوخ، وتأويل العلماء، وإقامة الحجّة على الصحيح، وإمام المحدّثين الحافظ البيهقي (٤٥٨هـ) صاحب السنن الكبرى.

وتواصلت جهودهم في توسيع ما كان قد ابتكره أسلافهم ـ من أعلام الدور السابق ـ في خدمة علوم السنّة فصنّفوا في الجرح والتعديل، وفي بيان أحوال الرواة، وفي غريب الحديث، وفي علل الحديث، وفي مختلف الحديث، وفي ناسخ الحديث ومنسوخه، وغيرها من العلوم التي كانت قد نشأت حول دراسة الحديث النبوي الشريف[١].

وكان للشيعة الإماميّة الاثني عشريّة كتب حديث كثيرة يعتمدون عليها في رواية الأحاديث، وينزلونها من أنفسهم منزلة سامية، من أهمّها: كتاب الكافي لأبي جعفر الكليني (٣٢٨هـ) الذي يعتبر عند أهل الشيعة بمقام صحيح البخاري عند أهل السنّة[٢].

ـ ٣ ـ الاجتهاد:

هذا الدور الذي ظهر نشيطاً من منتصف القرن الثالث إلى منتصف القرن الخامس الهجري، اعتمد على دراسة المسائل التي جمعت في

(١) الحديث والمحدّثون ص ٣٤٧ و٣٦٧ و٤٢٣ ـ ٤٢٨ و٤٥٧ ـ ٤٥٨ و٤٦٢ و٤٦٦.
أصول الحديث ص ٢٧٨ و٢٨٦ و٢٨٩ و٢٩٦.

(٢) التفسير والمفسرون ٢/٣٩.

المصادر الأولى للدور السابق، على معنى تفكيك الصور وبيان الأركان والشروط التي تتميّز بها صورة عن أخرى، أو يتميّز بها باب عن باب آخر، ويضبط مواقع الاتّفاق والاختلاف بين تلك الأقوال العديدة المأثورة على الأئمّة ممّا قد يتبادر أنّه مختلف مع كونه لا اختلاف فيه أو ممّا قد يظنّ أنّه متّفق مع أنّه في حقيقته يؤول إلى الاختلاف، ثمّ على النظر في الصور الحادثة التي حدثت فيما بعد انقراض هؤلاء الأئمّة، وإدراجها تحت المسائل التي قرّروها وتطبيقها على تلك الأحداث بصورة أصبح العمل الاجتهادي بها كما يعبّر عنه عند الفقهاء اجتهادا في المسائل، أي اجتهادا في تطبيق الأقوال على المحال التي تنطبق عليها.

وظهرت في هذا الدور كتب التهاذيب التي هذبت بها كتب الدور السابق، والمختصرات التي لخّصت فيها، والشروح التي شرحت بها، ودقّق النظر في المسائل لأجل بيان ما بينها من الاتّفاق والاختلاف، ثمّ صور النوازل والفتاوي التي تشتمل على بيان الوقائع الحادثة، وعلى بيان ما يرى الفقهاء المتأخّرون من رجال دور التطبيق من انطباق أو عدم انطباق لقول من الأقوال المأثورة من المصادر القديمة من مرحلة التفريع على تلك الجزئيّة الحادثة[1].

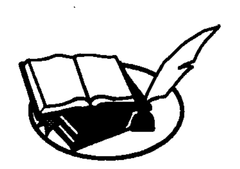
وهكذا عرف هذا العصر تحوّلاً واضحاً ومنعرجاً حاسماً في مسيرة تاريخ التشريع تحوّل الفقه فيها من طور الاجتهاد واستنباط الأحكام مباشرة من كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، إلى طور التطبيق القائم على التهذيب والاختصار أو الشرح والتحليل مع التحقيق في المضامين والتعليل وتفصيل الدلائل وتتبّع الاختلاف بين الأقوال وتحرير أوجه الخلاف والترجيح بينها.

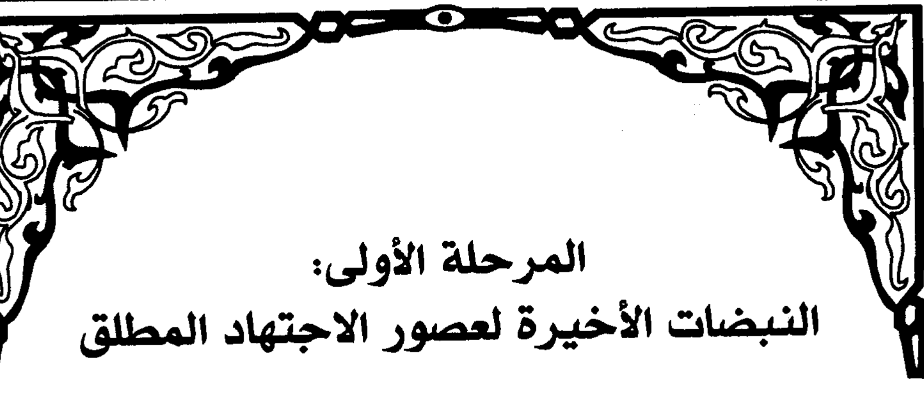
إلاّ أنّ هذه المسحة الغالبة على النشاط الفقهي في هذا الدور لم تمنع من ظهور مجتهدين كوّنوا لأنفسهم مذاهب اجتهاديّة ساروا عليها، وإن كان لم يكتب لها الاستمرار بعد ذلك طويلاً.

---

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات مغاربيّة ص ٧٨.

لذلك ارتأينا أن نقسّم هذا الدور إلى مرحلتين: مرحلة أولى هي عبارة عن نبضات أخيرة لعصر الابتكار والاجتهاد، ومرحلة ثانية: جنح فيها الفقهاء إلى التقليد، وأعلنوا فيها غلق باب الاجتهاد.





المرحلة الأولى: النبضات الأخيرة لعصور الاجتهاد المطلق

رغم التفكّك السياسي الذي عرفته البلاد الإسلاميّة وتعدّد العواصم السياسيّة، فإنّ ذلك لم يمنع المجتمع الإسلامي من التواصل عبر الرحلات والمراسلات التي كانت تمثّل أهمّ مظاهر الحركة العلميّة في هذه المرحلة، الأمر الذي جعل من البلاد الإسلاميّة من مشرقها إلى مغربها وطناً واحداً في نظر العلماء رغم تعدّد حكوماتها وملوكها.

ذلك أنّ العالم كلّه في نظر الفقهاء إمّا دار حرب أو دار إسلام، ودار الإسلام وطن واحد، لذلك لم يعبأ العلماء يوماً بالحدود التي رسمتها السياسة.

فلم يكن نشاط العلماء ليحدّ بحدود ويقدّر بمسافات، لذلك وثّق الاتّصال بين سائر المراكز الفقهيّة، وما كان يظهر امتياز في مركز إلاّ استمدّته المراكز الأخرى وحذقته واستغلّته(١).

فكان ذلك سبباً مباشراً في نموّ وازدهار الحركة العلميّة مهّدت إلى نوع آخر غير مباشر هو المراسلات التي كانت من الوسائل المنتشرة لمدّ الجسور والتبادل العلمي بين المراكز الفقهيّة.

في هذا الجوّ العلمي كنّا نشهد من حين لآخر ظهور مجتهدين برعوا

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٣١٥/١ و٢٨/٣ بتصرّف.

في كلّ علم وفنّ وتكوّنوا تكوينا مستقلاّ مبنيّا على الاجتهاد المطلق والرجوع المباشر إلى القرآن والسنّة، وكان من أشهرهم:

ـ ١ ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ ـ ٣١٠هـ).

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب(١) تلقّى فقه الشافعي عن الربيع بن سليمان بمصر، وعن الزعفراني ببغداد، وأخذ فقه مالك عن بني عبدالحكم محمد وعبدالرحمٰن، ويونس بن عبدالأعلى، وأخذ فقه أهل العراق عن أبي مقاتل بالريّ، وأدرك الأسانيد العالية بمصر والشام والعراق والكوفة والبصرة والريّ.

كان من أكابر أئمّة العلماء، ومن كبار الصالحين، يحكم بقوله ويرجع إلى معرفته وفضله.

كان ذا زهد وقناعة وعبادة وقيام في الحقّ لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات كلّها، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في الأحكام عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وتفسيره الكبير المسمّى بجامع البيان في تفسير القرآن ـ وقد أشرنا إليه سابقاً ـ خير شاهد على ذلك.

وكان عارفاً بأيّام الناس وأخبارهم وبأحوال الأمم وأوضاعها، وموسوعته التاريخيّة المشهورة في تاريخ الأمم والملوك خير شاهد على ذلك.

وكان أحد المحدّثين الكبار، وكتابه تهذيب الآثار ـ لم يتمّه ـ الذي

(١) الفهرست ص ٢٩١ طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٣ البداية والنهاية ١١/١٤٥ ـ ١٤٧ شذرات الذهب ٢/٤٥٠ الديباج المذهب ص ٤٨ الفكر السامي ٣/٤٥ ـ ٤٧ كشف الظنون ١/٩٠ طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٠ ـ ١٢٨ وفيات الأعيان ٤/١٩١ ـ ١٩٢ تذكرة الحفاظ ٢/٧١٠ معجم الأدباء لياقوت الحموي ٦/٢٤٤١ ـ ٢٤٦٩ طبقات المفسّرين للداوودي ص ٣٧٤ ـ ٣٧٩.

تكلّم فيه على كلّ حديث وعلّته وطرقه وما فيه من الفقه واختلاف العلماء وحججه واللغة، خير شاهد على ذلك، إذ بانت به براعته وحذقه وتفوّقه، حتّى أنّ الخليفة المقتدر حين أراد أن يكتب كتاب وقف تكون شروطه متّفقاً عليها بين العلماء، قيل له: لا يقدر على استحضار ذلك إلاّ محمد بن جرير الطبري، فطلب منه ذلك، فكتب له.

وله كتاب اختلاف الفقهاء، قصد به إلى ذكر أقوال العلماء: مالك بروايتين، والشافعي ما حدّث به الربيع عنه، وأبو حنيفة والصاحبان وأبو يوسف ومحمد بن الحسن، وأبو ثور إبراهيم بن خالد والأوزاعي، وذكر بعض فقهاء الصحابة والتابعين وأتباعهم إلى حدود المائة الثانية، ولكنّه لم يذكر أحمد بن حنبل، ولمّا سئل عن أسباب ذلك قال: لم يكن فقيهاً، إنّما كان محدّثاً.

وله كتاب لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام وهو عبارة عن مجموع مذهبه الذي يعوّل عليه جميع أصحابه، ويعتبر هذا الكتاب من أنفس كتب الفقهاء، وأفضل أمّهات كتب المذاهب، وأسدّها تصنيفاً.

وكان الإمام الطبري يفتخر بهذين الكتابين ويقول: لي كتابان لا يستغني عنهما فقيه الاختلاف واللطيف.

اختصر اللطيف في كتاب سمّاه الخفيف، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيارات من أقوال الفقهاء تدلّ على غزارة علمه وسعة فهمه، غير أنّ معظم كتبه قد فقدت وبقي منها القليل وهي تفسيره، وتاريخه، وتهذيب الآثار وتبصير أولي النهى معالم الهدى، واختلاف الفقهاء، إلاّ أنّ الكتابين الأخيرين قد ضاع أغلبهما ووجد منهما النزر القليل.

تفرّد بمسائل حفظت عنه، ثمّ انتحى لنفسه مذهباً بعد أن جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، حتّى قال العلماء من بعده: لم ير بعد أبي جعفر أجمع للعلم وكتب العلماء ومعرفة اختلاف الفقهاء وتمكّنه من العلوم، منه.

وقد كان له أتباع، غير أنّ انتشار مذهبه كان محدوداً بحدود بغداد،

واختفى مذهبه مع نهاية هذا الدور وفي ذلك يقول ابن فرحون: وانقطع أتباع الطبري بعد أربعمائة.

استوطن بغداد وأقام بها، وحين توفّي اجتمع الناس من سائر أنحاء بغداد وصلّوا عليه بداره ودفن بها، ومن أشهر أصحابه المتفقّهين على مذهبه[1]:

* علي بن عبدالعزيز الدولابي صاحب كتاب الردّ على ابن المغلّس - أحد أتباع المذهب الظاهري -.

* وأبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أبي الثلج الكاتب.

* وأبو الحسن أحمد بن يحيى بن عليّ بن أبي منصور صاحب كتاب المدخل إلى مذهب الطبري ونصرة مذهبه.

وأبو الحسن الدقيقي الحلواني الطبري وأبو الحسين بن يونس وأبو إسحاق إبراهيم بن حبيب من أهل البصرة.

ومن المتفقّهين على مذهبه أيضاً:

* القاضي أبو الفرج المعافى بن زكرياء النهرواني (٣٩٠هـ) المعروف بابن طرارا الجريري، نسبة إلى مذهب ابن جرير الطبري، وهو معدود في أشهر أتباعه، وكان في سنّ أبي جعفر.

سمع فأوعى وجمع فأكثر وبرع في عدّة علوم، فكان عالماً في القرآن والحديث والفقه، ومتقناً للشعر والنحو، وأصناف الآداب، وكان أبو الفرج علّامة زمانه وأوحد عصره في مذهب أبي جعفر وحفظ كتبه وكان في نهاية الذكاء وحسن الحفظ وسرعة الخاطر في الجوابات، حتّى قيل: إذا حضر القاضي أبو الفرج فقد حضرت العلوم كلّها، ولو أوصى رجل بشيء أن يدفع إلى أعلم الناس، لوجب أن يدفع إليه.

صنّف أكثر من خمسين كتاباً، منها التفسير الكبير وكتاب الجليس

(١) الفهرست ص ٢٩٢.

الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي والحدود والعقود في أصول الفقه والمرشد في الفقه(١).

* أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة البغدادي (٢٦٠هـ - ٣٥٠هـ) كان تلميذا للطبري، ولّي قضاء الكوفة، كان من العلماء بالأحكام وعلوم القرآن، له مصنفات في أغلب العلوم، ناهز التسعين من عمره، وبعد أن كان جريري المذهب خرج عن مذهب شيخه، وأصبح يختار لنفسه، ولا يقلّد أحداً(٢).

- ٢ - أبو حاتم محمد بن حبّان السمرقندي (٣٥٤هـ).

هو القاضي أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان البستي التميمي السمرقندي(٣) أحد الحفاظ الكبار المصنّفين المجتهدين، رحل إلى البلدان وسمع الكثير من المشائخ وكتب عن أكثر من ألفي شيخ، رحل إلى الآفـاق وغاب دهراً عن وطنه واشتغل بخراسان والشام والعراق ومصر والجزيرة، ثمّ رجع إلى وطنه «بست» وانتصب بها لسماع مصنّفاته إلى أن توفّي.

كان من أوعية العلم في الحديث والفقه واللغة والوعظ وعلم الكلام والنجوم، ولّي قضاء سمرقند مدّة وتفقّه به الناس، ثمّ ولّي قضاء غيرها من البلاد.

اشتهر بالمسند الصحيح المسمّى بسنن ابن حبّان، وقد قال فيه: لعلّنا

---

(١) الفهرست ص ٢٩٢ - ٢٩٣، تاريخ التراث العربي ٢٥٥/٣ - ٢٥٧، شذرات الذهب ٢٦٥/٣ - ٢٦٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٣، البداية والنهاية ٣٢٨/١١، تذكرة الحفّاظ ١٠١٠/٣ - ١٠١٢، هديّة العارفين ٤٦٤/٢ - ٤٦٥، معجم الأدباء ٢٧٠٢/٦ - ٢٧٠٣، طبقات المفسرين ص ٥١٦ - ٥١٧.

(٢) غاية النهاية ٩٨/١، معجم الأدباء ٤٢٠/١ - ٤٢١، تاريخ التراث العربي ٢٥٧/٣ - ٢٥٨.

(٣) شذرات الذهب ١١٣/٣ - ١١٤ البداية والنهاية ٢٥٩/١١، تذكرة الحفاظ ٩٢٠/٣ - ٩٢٤ طبقات الشافعية الكبرى ١٣١/٣ - ١٣٥، هدية العارفين ٤٤/٢ - ٤٥.

كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشاش ـ طشقند ـ والإسكندريّة، وكتابه هذا على طريقة جديدة في الترتيب، فلا هو على ترتيب الأبواب الفقهيّة، ولا هو على المسانيد، وإنّما رتّبه على خمسة أقسام، وهي: الأوامر والنواهي والأخبار والإباحات وأفعال النبيّ ﷺ.

ـ ٣ ـ محمد بن إسحاق بن خزيمة: (٢٢٢هـ ـ ٣١١هـ).

هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة السلمي النيسابوري[١] الملقّب بإمام الأئمّة، كان إمام زمانه أهل بخراسان، وبحرا من بحور العلم.

رحلت إليه الطلبة من الآفاق، وقصده الناس من كلّ ناحية، وكان قبلة العلم والعلماء، حتى قال الدارقطني في شأنه: كان إماماً معدوم النظير.

طاف البلاد ورحل إلى الآفاق في الحديث وطلب العلم، فدخل الشام والحجاز والعراق ومصر، وتفقّه على المزني وغيره، جمع بين الفقه والحديث، وكان يحفظ الفقهيات من حديثه كما يحفظ القارىء السورة.

كتب الكثير وصنّف وجمع، ومصنّفاته تزيد على مائة وأربعين كتاباً سوى المسائل، وكتابه الصحيح من أنفع كتب الحديث وأجلّها، يتلو صحيح مسلم حسب ما ذكره السيوطي في ألفيته، غير أنّ أغلبه قد ضاع.

وكان المزني يقول: إذا جاء الحديث فابن خزيمة يناظر لأنّه أعلم بالحديث منّي، وأنا أتكلّم.

وقال شيخه الربيع: استفدنا من ابن خزيمة أكثر ممّا استفاد منّا.

وروي عن ابن خزيمة أنّه كان يقول: ليس لأحد مع رسول الله ﷺ قول إذا صحّ الخبر عنه وهو معدود من المجتهدين في الإسلام، وقد حكى

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٥ ـ ١٠٦، شذرات الذهب ٤٥٣/٢ ـ ٤٥٤، البداية والنهاية ١٤٩/١١، معرفة علوم الحديث ص ٨٣، طبقات الشافعية الكبرى ١٠٩/٣ ـ ١١٩، غاية النهاية ٩٧/٢ ـ ٩٨.

الشيرازي في طبقاته عن ابن خزيمة أنّه قال: ما قلّدت أحداً في مسألة منذ بلغت ستّ عشرة سنة.

وكان أبو محمد دعلج بن أحمد بن دعلج (٢٦٠هـ ـ ٣٥١هـ) السجستاني ثمّ البغدادي، وهو أحد أوعية العلم وبحور الرواية، يفتي بمذهب ابن خزيمة[١].

ـ ٤ ـ محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (٣٠٩هـ).

هو الحافظ الأوحد العلامة شيخ الحرم ومفتيه أبو بكر ابن المنذر المجتهد الأصولي[٢] أحد علماء الخلاف والفقه المقارن، وأحد الذين يقتدى بهم في الحلال والحرام، كان مجتهداً لا يقلّد أحداً.

ذكره السبكي في من بلغ درجة الاجتهاد المطلق، ولكنّه لم يخرجه عن كونه من أصحاب الشافعي المخرجين على أصوله المتمذهبين بمذهبه، حيث قال: المحمّدون أربعة: محمد بن نصر، ومحمد بن جرير الطبري، وابن خزيمة، وابن المنذر، من أصحابنا، وقد بلغوا درجة الاجتهاد المطلق ولم يخرجهم ذلك عن كونهم من أصحاب الشافعي المخرّجين على أصوله المتمذهبين بمذهبه، لوفاق اجتهادهم اجتهاده.

ثمّ قال: فإنّ هؤلاء الأربعة وإن خرجوا عن رأي الإمام الأعظم ـ أي الشافعي ـ في كثير من المسائل فإنّهم لم يخرجوا في الأغلب، فاعرف ذلك واعلم أنّهم في أحزاب الشافعية معدودون، وعلى أصوله في الأغلب مخرّجون، وبطريقته متهذّبون، وبمذهبه متمذهبون[٣].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢٩١/٣ ـ ٢٩٣، تذكرة الحفاظ ٨٨١/٣ ـ ٨٨٢، وفيات الأعيان ٢٧١/٢ ـ ٢٧٢، شذرات الذهب ١٠٢/٣.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٨، شذرات الذهب ٤٧٨/٢، كشف الظنون ١٣٨/١، تاريخ التراث العربي ٢٠٠/٣ ـ ٢٠٢، طبقات الشافعية الكبرى ١٠٢/٣ ـ ١٠٨، تذكرة الحفاظ ٧٨٢/٣ ـ ٧٨٣، وفيات الأعيان ٢٠٧/٤، طبقات المفسرين ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١٠٢/٣ ـ ١٠٣.

غير أنّ الإمام الذهبي وغيره ذكروا أنّه كان مجتهداً لا يقلّد أحداً، ذلك أنّ نسبة هؤلاء لتقليد المذهب الشافعي غير ثابتة ثبوتا قطعيًّا، إذ أنّهم قد بلغوا درجة الاجتهاد، وتقليدهم للإمام الشافعي في بعض المسائل إنّما كان من باب الاتّفاق في الاجتهاد، والموافقة في الاستنباط ولم يكن من باب التقليد والاتّباع في الأحكام.

هذا، وقد صنّف ابن المنذر في اختلاف العلماء كتباً لم يصنّف أحد مثلها، واحتاج إلى كتبه الموافق والمخالف، ومن بين تآليفه: الإشراف على مذاهب الأشراف، وكتاب الإجماع، وكتاب الأوسط من السنن والإجماع والاختلاف وغيرها، توفّي بمكّة، وفي تاريخ وفاته خلاف كثير.

ـ ٥ ـ بقيّ بن مخلد: (٢٠١هـ ـ ٢٧٦هـ).

هو أبو عبدالرحمٰن الأندلسي[١] أحد الحفّاظ المحدّثين، وأحد الأئمّة الأعلام، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى الليثي، ورحل إلى المشرق فروى عن الأئمّة وأعلام السنّة، منهم الإمام أحمد وابن أبي شيبة وجماعة أعلام يزيدون على المائتين بأربعة وثمانين شيخاً، سائرهم أعلام مشاهير.

كان ذا خاصّة من أحمد بن حنبل، وجاريا في مضمار أبي عبدالله البخاري، وأبي الحسين مسلم بن الحجّاج النيسابوري، وأبي عبدالرحمٰن النّسائي.

بالغ في الجمع والرواية، ورجع إلى الأندلس فملأها علماً جمًّا، وألّف كتباً حساناً تدلّ على استكثاره.

صنّف كتاباً في تفسير القرآن، قال عنه ابن حزم: أقطع قطعاً لا

---

(١) البداية والنهاية ٥٦/١١، شذرات الذهب ٣٣٣/٢، جذوة المقتبس ص ١٦٧ ـ ١٦٩ معجم البلدان ٧٤٦/٢ ـ ٧٤٩، علماء الأندلس مج ٣، ج ١٦٩/١ ـ ١٧٢، الصلة لابن بشكوال مج ١١، ج ١٩٥/١ ـ ١٩٨، معجم الأدباء ٧٤٦/٢ ـ ٧٤٩، تذكرة الحفاظ ٦٢٩/٢، نفح الطيب ٤٧/٢.

أستثني فيه أنّه لم يؤلّف في الإسلام مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره.

وله في الحديث المسند الكبير الذي رتّبه على أسماء الصحابة رضي الله عنهم، فروى فيه عن أكثر من ألف وثلاث مائة صاحب، ثمّ رتّب حديث كلّ صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام، فهو مصنّف ومسند، وقد فضّله ابن حزم على مسند الإمام أحمد بن حنبل، غير أنّ ابن كثير: اعتبر أنّ مسند أحمد أجود منه وأجمع.

وله مصنّف في فتاوى الصحابة والتابعين ومن دونهم، انتظم علماً عظيما لم ينتظم في غيره من الكتب.

كان بقيّ بن مخلد متخيّراً لا يقلّد أحداً، وإنّما كان يعود إلى القرآن والسنّة مباشرة ليستنبط منهما فقهه وآراءه، فأنكر عليه معاصروه من علماء أهل الأندلس ذلك، وكان أكبر خصومه أصبغ بن خليل ومحمد بن الحارث وابن مرتنيل شيخ المالكيّة في عصره، وفي تاريخ وفاته خلاف، والراجح أنّه توفّي سنة ٢٧٦هـ.

ـ ٦ ـ سعيد بن محمد الغسّاني: (٢١٩هـ ـ ٣٠٢هـ).

هو أبو عثمان سعيد بن محمد بن صبيح الغساني المعروف بابن الحدّاد(١) نشأ نشأة إفريقية صرفة لم يرحل إلى المشرق، ولم يتخرّج على غير شيوخ إفريقية بالقيروان وتونس وطرابلس.

صحب في أوّل أمره الإمام سحنون وسمع منه واختصّ به، ثمّ صار إلى مذهب الشافعي فدرسه ومال إليه من غير تقليد له، بل كان كثيراً ما يخالفه، ولا يعتقد مسألة إلاّ بنظر وحجّة، إذ كان مذهبه النظر والقياس والاجتهاد، لا يتحلّى بتقليد أحد من العلماء، ويقول: إنّما أدخل كثيراً من

(١) قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٠١ ـ ٢٠٤ و٢٥٨ ـ ٢٧٥، أعلام الفكر الإسلامي ص ٤٢ ـ ٤٣، رياض النفوس ٥٧/٢ ـ ١١٥، البيان المغرب ١٧٢/١، شذرات الذهب ٤١٩/٢، معالم الإيمان ٢٩٥/٢ ـ ٣١٥.

الناس إلى التقليد نقص العقول ودناءة الهمم، وكان يقول: كيف يسع مثلي ممّن آتاه الله فهما أن يقلّد أحداً من العلماء بلا حجّة ظاهرة ؟.

كان آنس الفقهاء مجلسا، وأغزرهم خبرا، وكان قليل الاشتغال بجمع الكتب وبالرواية، وكان يقول: إنّما هو النظر والخبر، فلو دخلت المشرق ما كانت لي فيه حاجة غير الخبر.

وكان غزير التأليف في مختلف العلوم الشرعيّة، له كتب مؤلّفة في فنّ الكلام والجدل، وله كتب في الفقه والمسائل، وله كتب في النظر، درس كلّ المذاهب ونقدها في كتاب سمّاه المقالات ردّ فيه على المذاهب كلّها وانتقد مدوّنة سحنون فكان يسمّيها المدوّدة، فهجره المالكيّة ثمّ أحبّوه لمّا قام على أبي عبدالله الشيعي وناظره ونصر السنّة.

وله كتاب ردّ به على الشافعي، بعث به إلى أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني، جاء في أوّله: أمّا بعد فإنّه لمّا بعدت داري عن أندية العلماء، ولم أجد بالمحلّ الذي أنا به مفيدا أستمدّ منه معونة، ولا إنسيّا يشاركني في فكرة، وأعرض عليه ما يفرق لي من تدبير مسألة، وكثر أشياع الباطل، وقامت دولة الجهل، حاولت النهوض لأداء ما افترض الله عليّ من حجّ بيته الحرام، وأن أضرب إلى كلّ أفق فيه عليم بالحقّ أناصحه وأسترشده، فحالت العوائق دون مرامي، وحبستني دون سؤلي. «. . . وإنّي تعقّبت ديوان محمد بن إدريس الشافعي، فاطّلعت على ما ذكرته. . .» فلمّا ورد الكتاب على المزني قرأه وسكت، وجعل فتى من البغداديين يحرّكه في جوابه، والمزني يعرض عنه، فلمّا أكثر عليه، رمى إليه الكتاب، وقال: أمّا أنا فقد قرأت وسكتّ، فمن كان عنده علم فليتكلّم.

كان شديد الاعتداد بنفسه، فقد ألقيت عليه يوماً مسألة معضلة معقّدة من كتاب أشهب بن عبدالعزيز، فبدأ بتنزيلها وبالنظر فيها، فلم يزل يلخّصها شيئاً فشيئاً حتّى بلغ فيها إلى ما بلغ أشهب، فقيل له: أصبت أبا عثمان، هكذا قال أشهب في كتابه، فقال ابن الحدّاد: لعلّ أشهب ما

وضعها حتى تدبّرها أيّاما، ونظر فيها حينا، وقد أتينا نحن بجوابها بنظر ساعة واحدة.

وكان يقول: ما من شيء أحبّ إليّ من دفع الضلال بالحقّ، ولو أنّ ضلالة ألقاها إبليس اللعين بالصين ثمّ وردت عليّ لكشفت عن باطلها وأظهرت حقّ الله سبحانه وتعالى فيها.

وكان يقول: ليس الفقه حمل الفقه، وإنّما الفقه معرفة الفقه والفطنة فيه والفهم بمعانيه.

كانت له مجالس كثيرة مع أتباع أبي حنيفة من أهل القيروان، وكان كثير الردّ على أبي حنيفة، وكان يقول: تذكرت بقلبي مسائل لأبي حنيفة ركب فيها المحال اضطرارا نحوا من أربعمائة مسألة.

وكانت له كذلك مجالس مع الذين ينتحلون مذهب المعتزلة، ذكر منها المالكي مجلسا واحداً يستبين للناظر فيه موضع ابن الحدّاد من العلم وقيامه بالحجّة لأهل الحقّ.

ناظر الشيعة عند دخولهم إفريقيّة، وردّ عليهم في ابتداء حكمهم وعنفوان أمرهم، وكانت له مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدفاع عن الإسلام والذبّ عن السنّة، ناظر فيها أبا العبّاس، أخا أبي عبيدالله الشيعي، بملىء فمه ومنى نفسه، ناظره مناظرة القرين المساوي، لا بل مناظرة المعتزّ المتعالي لم يتلعثم لفظاعة المقام، ولا أحجم لهيبة السلطان، ولا خاف ما خيف عليه من سطوة الحدثان، ولقد قال له ابنه محمد يوما: اتّق الله في نفسك ولا تبالغ في مناظرة الرجل، فقال: حسبي من له غضبت، وعن دينه ذببت.

وقد حفظ لنا ابن حارث الخشني من ذلك أربعة مجالس، مع أبي العباس الشيعي، كما حفظ لنا المالكي من بعده مجالس أيضاً لأبي عثمان مع أبي عبدالله الشيعي، وقد اجتمع لأبي عثمان جهارة الصوت وفخامة

المنطق وفصاحة اللسان وصواب المعاني، ما جعل لسانه سيف الله وصدره خزانة الله كما شهد له بذلك قرناؤه.

فهؤلاء ستة من المجتهدين في الإسلام، من الذين بلغوا درجة الاجتهاد، ومن الذين عرفوا بالاستقلال في الرأي واستنباط الأحكام من كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ مباشرة، ومن الذين كان مذهبهم النظر والقياس والاجتهاد، فلم يتحلّوا بتقليد أحد من المجتهدين، وكان اتّفاقهم مع بعض الأئمّة في بعض المسائل من باب الاتّفاق في الاجتهاد، ولم يكن من باب الاتّباع والتقليد، ووجد في هذه المرحلة غيرهم، مثل[١]:

* **أبو القاسم عبدالعزيز بن عبدالله الداركي** الذي كان يتخيّر ولا يلتزم مذهباً بعينه، وقد انتهى التدريس إليه في بغداد، وكان يستفتى في المسألة فيتفكّر طويلا ثمّ يفتي فيها، وربّما كانت فتواه خلاف مذهب الشافعي وأبي حنيفة، فيقال له في ذلك، فيقول: الأخذ عن رسول الله أولى من الأخذ بقول الشافعي وأبي حنيفة إذا خالفاه.

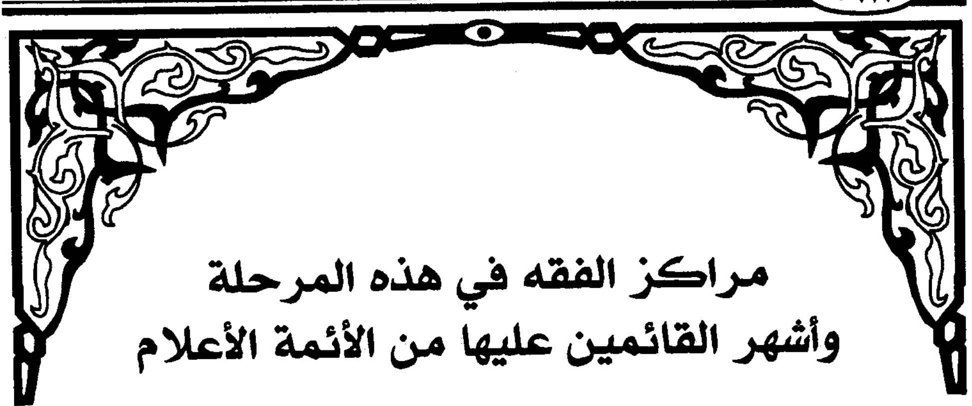
* **أحمد بن ميسر بن محمد بن إسماعيل القرطبي ت ٣٢٨هـ** الذي كان يميل إلى النظر والحجّة، وكان إذا استفتي ربّما يقول: أمّا مذهب بلدنا فكذا، وأمّا الذي أراه فكذا.

وهؤلاء قد كان ظهورهم وانتصابهم للتعليم وتصدّيهم للاجتهاد من منتصف القرن الثالث إلى منتصف القرن الرابع، ولذلك اعتبرنا هذه الفترة عبارة عن نبضات أخيرة لحركة الاجتهاد.

وقد تزامن بروز هؤلاء المجتهدين مع ظهور نخبة من الأعلام من أتباع أصحاب المذاهب المشهورة، تصدّروا مراكز الفقه، وكانوا من أبرز القائمين عليها لنصرة مذاهبهم، وفيما يلي لمحة عن هذه المراكز وأشهر القائمين عليها في هذه المرحلة:

---

(١) الفكر السامي ٣/١٠.



مراكز الفقه في هذه المرحلة وأشهر القائمين عليها من الأئمة الأعلام

- ١ - مصر:

انتشر بهذا المركز ثلاثة مذاهب في هذه المرحلة:

* المذهب المالكي الذي غلب في الدور السابق على هذا الإقليم وانتشر فيه عن طريق تلاميذ مالك الأهمّ قيمة والأكثر عددا، وتواصل نموّه في هذا الدور تبعاً لسنّة التطوّر.

* والمذهب الحنفي الذي لم يكن له مدخل في هذه البلاد أوّل الأمر، وتأخّر ظهوره إلى أن نزلها قضاة بغداد الأحناف تبعاً للأمر الذي كان قد جرى به العمل أيّام أبي يوسف الذي لم يكن يعيّن في الغالب إلاّ من كان على مذهب أبي حنيفة.

* والمذهب الشافعي الذي كان أوّل ظهوره بمصر، حيث انتشر أتباعه وظهر مذهبه ظهور مذهبي مالك وأبي حنيفة قبله، وكثر أصحابه بها مع المالكيّة[1] حتّى أصبح هذا الإقليم يعدّ مركز ملك الشافعيّة، لا يكون القضاء والخطابة في غيرهم، ومنذ انتشر مذهب الشافعي لم يتولّ أحد على قضاء الديار المصريّة إلاّ على مذهب الشافعي، إلاّ ما كان من القاضي الحنفي بكّار بن قتيبة الذي ولّي قضاء مصر سنة ٢٤٦هـ وبقي قاضياً حتى

(١) ترتيب المدارك ١/٨٠، الديباج المذهب ص ٤٨.

سنة ٢٧٠هـ تاريخ وفاته، وأمّا قبل ظهور مذهب الشافعي بالديار المصريّة فلم يكن يلي القضاء والخطابة إلاّ من هو على مذهب مالك[(١)].

ويذكر أنّه في هذه المرحلة كان للمالكيّة في المسجد الجامع خمس عشر حلقة، وللشافعيّة مثلها، وللأحناف ثلاث حلقات فقط.

* أمّا المذهب الحنبلي فقد ظلّ غائباً عن مصر طيلة هذا الدور، ويعلّل السيوطي هذا الغياب في كتابه حسن المحاضرة ـ فصل ذكر من كان بمصر من أئمّة الفقهاء الحنابلة ـ بقوله: هم بالديار المصريّة قليل جدًّا ولم أسمع بخبرهم فيها إلاّ في القرن السابع وما بعده، وذلك لأنّ الإمام أحمد رضي الله عنه كان في القرن الثالث ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلاّ في القرن الرابع[(٢)].

* وأمّا مذهب الليث بن سعد ـ إمام أهل عصره في مصر ـ، فقد انقطع مذهبه منذ أواخر القرن الثاني لقلّة الأتباع وعدم تدوين آرائه ـ كما بيّنا سابقاً ـ.

ومن أشهر القائمين على هذا المركز من أتباع المذاهب الثلاثة المنتشرة نذكر من أئمّة الحنفيّة:

* **أبو جعفر أحمد بن أبي عمران موسى بن عيسى البغدادي : (٢٨٠هـ)** شيخ الطحاوي وأستاذه، ومن أكابر الحنفيّة، تفقّه على محمد بن سماعة وبشر بن الوليد وغيرهما.

قدم مصر فحدّث بها وروى الكثير من حفظه لأنّه عمي بها، وتولّى قضاء ديارها، وكان شيخ أصحاب أبي حنيفة بمصر في وقته[(٣)].

---

(١) طبقات الشافعيّة الكبرى ٣٢٦/١ ـ ٣٢٧.

(٢) حسن المحاضرة ٢٢٢/١.

(٣) الفوائد البهية ١٤، الجواهر المضية ٣٣٧/١، تاج التراجم ٥٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٠، حسن المحاضرة ٢١٣/١، شذرات الذهب ٣٤٣/٢، البداية والنهاية ٦٩/١١.

* **أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (٢٣٩هـ - ٣٢١هـ)** الأزدي الحجري المصري[(١)] برع في الفقه والحديث وفاق أهل عصره حتّى انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر.

تعلّم بادىء الأمر مذهب الشافعي على خاله إسماعيل المزني - صاحب الشافعي - فقال له يوماً: والله لا جاء منك شيء، فغضب أبو جعفر من ذلك وانتقل إلى أبي جعفر أحمد بن أبي عمران موسى بن عيسى الفقيه الحنفي، ولمّا بلغ من العمر ٢٩ سنة رحل إلى دمشق، وهناك لقي شيخ القضاة أبا حازم عبدالحميد بن عبدالعزيز، وأخذ عنه، ثمّ عاد إلى مصر.

صنّف الكتب المعتبرة في المذهب الحنفي من أهمّها المختصر الفقهي الذي رتّبه كترتيب مختصر المزني، وقال في مقدمته: «جمعت في كتابي هذا أصناف الفقه التي لا يسع الإنسان جهلها، وبيّنت الجوابات عنها من قول أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد» وقد اعتنى الأحناف بشرحه، وحين أكمل تصنيفه قال: رحم الله أبا إبراهيم - يعني خاله إسماعيل المزني - لو كان حيًّا لكفّر عن يمينه.

وصنّف كذلك معاني الآثار، وقد ذكر فيه أنّه سأله بعض أصحابه تأليفه في الآثار المأثورة عن رسول الله ﷺ في الأحكام التي يتوهّم أهل الإلحاد والضعفة أنّ بعضها ينقض بعضاً لقلّة علمهم بناسخها ومنسوخها، وجعل أبواباً، فذكر في كلّ منها ما فيه من الناسخ والمنسوخ وتأويل

---

(١) الفوائد البهية ٣١، الجواهر المضية ٢٧١/١، تاج التراجم ٢١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٢، تاريخ التراث العربي ٩١/٣ - ٩٦، الفهرست ص ٢٦٠ شذرات الذهب ٤٨٩/٢ - ٤٩٠، البداية والنهاية ١٧٤/١١، كشف الظنون ٧٦/١ و٨٠ و٩٠ و٥١٧/٢ و٥٩١، وفيات الأعيان ٧١/١ - ٧٢، تذكرة الحفاظ ٨٠٨/٣ - ٨١١، طبقات المفسّرين ص ٥٥ - ٥٧.

العلماء وإقامة الحجّة على الصحيح، وقد اهتمّ العلماء بشرحه واختصاره.

وله كتاب اختلاف العلماء، ويقال له اختلاف الروايات وهو في أكثر من مائة وثلاثين جزءا.

وله كتاب الشروط وكتاب أحكام القرآن.

وكان من أشهر فقهاء المالكيّة بهذا المركز:

* **أبو الزنباع روح بن الفرج بن عبدالرحمٰن الزبيري: (٢٠٤هـ ـ ٢٨٢هـ)** وكان عالماً فقيهاً بمذهب مالك، وكان أوثق الناس في زمانه، وفّقه الله بالعلم ورفعه[١].

* **القاضي أبو بكر أحمد بن الحارث بن مسكين: (٢٣٩هـ ـ ٣١١هـ)** الذي جلس مجلس أبيه بعده بجامع الفسطاط المعروف بجامع عمرو بن العاص، وأخذ الناس عنه[٢].

* **أحمد بن محمد بن خالد بن ميسّر الإسكندراني: (٣٣٩هـ)** الذي انتهت إليه الرئاسة في الفقه المالكي بمصر بعد ابن الموّاز[٣].

* **أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان: (٣٥٥هـ)** المعروف بابن القرطي[٤] كان شيخ الفتوى وحافظ البلد ورأس الفقهاء المالكيّين بمصر في وقته، وأحفظهم لمذهب مالك، مع التفنّن في سائر العلوم من الخبر والتاريخ والأدب إلى التديّن والورع، وكان واسع الرواية كثير الحديث مليح التأليف، وإليه انتهت رئاسة المالكيين بمصر.

وأمّا كتبه ففيها غرائب من قول مالك وأقوال شاذّة عن قوم لم يشتهروا بصحبته، ليست ممّا رواه ثقات أصحابه واستقرّ من مذهبه.

---

(١) ترتيب المدارك ١٩١/٣، حسن المحاضرة ٢٠٦/١، الديباج المذهب ص ١٩١.

(٢) الديباج المذهب ص ٨٩ حسن المحاضرة ٢٠٦/١.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٤، حسن المحاضرة ٢٠٦/١ ـ ٢٠٧.

(٤) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٥، ترتيب المدارك ٢٩٣/٣ ـ ٢٩٤.

صنّف كتابه الزاهي المشهور في الفقه والمعروف بالشعباني نسبة إليه، وله كتاب في أحكام القرآن، وكتاب مختصر ما ليس في المختصر، وكتاب مناقب مالك، وكتاب شيوخ مالك، وكتاب الرواة عن مالك، وغيرها.

توفّي سنة ٣٥٥هـ وقيل سنة ٣٥٦هـ وقد جاوز سنّه الثمانين وصلّى عليه خلق عظيم.

وغير هؤلاء كثير، وقد عدّ القاضي عياض في مداركه ممّن اشتهر بمصر من أعلام المالكيّة أكثر من عشرين فقيهاً من أقران روح بن الفرج، وذكر ثلاثة عشر من مشاهير فقهاء المالكيّة من طبقة ابن شعبان.

وعدّ السيوطي في حسن المحاضرة من تلاميذ ابن وهب وابن القاسم وابن عبدالحكم خمسة عشر من كبار فقهاء المالكيّة بمصر في هذه المرحلة.

وأمّا الشافعيّة فكان من أشهر أعلامهم:

* **أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر: (٣٠٦هـ)** التميمي المصري[1] أحد أئمّة الشافعيّة، كان فقيهاً متصرّفا في علوم كثيرة، ولم يكن في زمانه في مصر مثله، أخذ الفقه عن أصحاب الشافعي وأصحاب أصحابه، له مصنّفات عديدة في المذهب أهمّها كتاب الهداية في الفروع، والمسافر أو زاد المسافر.

* **القاضي أبو عبيد علي بن الحسين بن حرب بن عيسى : (٣١٩هـ)** المعروف بابن حربويه[2] تفقّه على مذهب أبي ثور ثمّ انتقل إلى المذهب

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ص ١٠٧ ـ ١٠٨، كشف الظنون ٥٤٢/٢ و٨١٦، حسن المحاضرة ١٨٢/١، البداية والنهاية ١٣٠/١١، شذرات الذهب ٤٣٥/٢ ـ ٤٣٦، طبقات الشافعيّة الكبرى ٤٧٨/٣ ـ ٤٨٣، وفيات الأعيان ٢٨٩/٥ ـ ٢٩٢، معجم الأدباء ٢٧٢٣/٦ ـ ٢٧٢٦.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٠، حسن المحاضرة ١٨٢/١، شذرات الذهب ٤٨١/١ ـ ٤٨٢ البداية والنهاية ١٦٧/١١، طبقات الشافعيّة الكبرى ٤٤٦/٣ ـ ٤٥٥، تهذيب التهذيب ٣٠٣/٧ ـ ٣٠٤.

الشافعي، تقلّد قضاء مصر مدّة طويلة جدًا، وكان ثقة عالماً من خيار القضاة وأعدلهم، وهو من أصحاب الوجوه فكان يختار في أحكامه، وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه، فلم ينكر عليه أحد لأنّه كان لا يطعن عليه في علم ولا تلحقه تهمة في رشده.

وكان ابن حربويه آخر من ركب إليه الأمراء، وكان لا يقوم للأمير إذا أتاه.

* **أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي: (٣٤٠هـ)** الذي انتهت إليه رئاسة مذهب الشافعي ببغداد[١] شيخ الشافعية وصاحب ابن سريج، أخذ عنه الأئمّة، وانتشر الفقه عن أصحابه حيث تخرّج من مجلسه إلى البلاد سبعون إماماً.

انتقل إلى مصر واستقرّ بها، وجلس مجلس الشافعي، فاجتمع الناس عليه وضربوا إليه أكباد الإبل.

كان إماماً جليلاً غوّاصاً في المعاني، صنّف كتباً في الأصول وفي الفروع، من أهمّها شرح مختصر المزني، توفّي بمصر ودفن عند ضريح الإمام الشافعي رضي الله عنهما.

* **أبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد المصري: (٢٦٤هـ - ٣٤٤هـ)** شيخ الشافعية[٢]، ولد يوم وفاة المزني سمع من النسائي وغيره.

كان فقيهاً محقّقاً وفروعيّاً مدقّقاً، إليه غاية التحقيق ونهاية التدقيق، وكان صاحب وجه في المذهب متبحّراً في الفقه متفنّناً في العلوم معظّماً في النفوس، له الإمامة في علوم كثيرة وخصوصاً في الفقه.

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٢، شذرات الذهب ٦٢/٣، الفهرست ص ٢٦٦، وفيات الأعيان٢٦/١ - ٢٧.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٤، شذرات الذهب ٧٥/٣ - ٧٦، البداية والنهاية ٢٢٩/١١ - ٢٣٠، كشف الظنون ١٠٠/١ و٢٢٠، طبقات الشافعية الكبرى ٧٩/٣ - ٩٨، وفيات الأعيان ١٩٧/٤ - ١٩٨، تذكرة الحفاظ ٨٩٩/٣ - ٩٠٠.

ولي قضاء الأقاليم، وتولّى بمصر القضاء نيابة عن أبي عبيد بن حربويه، كما تولّى التدريس بها، فافتخرت به على سائر الأمصار وكاثرت بعلمه بحرها بل جميع البحار، وكان الناس يقصدونه في الفتاوى والحوادث، وكان يقال في زمنه: عجائب الدنيا ثلاث: غضب الجلّاد، ونظافة السماد، والردّ على ابن الحدّاد، اعترافاً له بالدقّة في الفقه والتحقيق فيه.

كان كثير العبادة، يصوم صوم داود، ويختم في اليوم والليلة، وكان جدّا كلّه.

صنّف في الفقه كتاب الفروع المولدات المبتكرة الغريبة، وقد اعتنى الأئمّة بشرحه، وكتاب الباهر وكتاب جامع الفقه وكتاب أدب القاضي أو أدب القضاء وكتاب الفرائض.

مرض في طريق عودته من الحجّ، وتوفّي يوم دخل الحجّاج مصر سنة ٣٤٤هـ وقيل سنة ٣٤٥هـ.

* **أبو بكر محمد بن عبدالله الصيرفي**: (٣٣٠هـ) صاحب المصنّفات في المذهب، وهو صاحب وجه كان إماماً في الفقه والأصول، وكان أعلم الناس بالأصول بعد الشافعي، تفقّه على أبي العباس ابن سريج له شرح الرسالة وكتاب في الشروط أحسن فيه كلّ الإحسان، توفّي بمصر(١).

ـ ٢ ـ الشام:

انتشر بهذا المركز من المذاهب في هذه المرحلة:

* مذهب الأوزاعي الذي ظلّ منتشراً بالشام طويلاً إلى جانب بعض المذاهب الأخرى، ولم يكن يلي القضاء بها والخطابة والإمامة إلاّ أوزاعيّ على مذهب الإمام الأوزاعي، وذلك قبل ظهور مذهب الشافعي في

(١) شذرات الذهب ٢٥/٣ ـ ٢٦، الفهرست ٢٦٦، كشف الظنون ٦٥٥/١.

دمشق[١]، ويذكر ابن تغري بردي أنّه توفّي لسنة ٣٤٧هـ قاضي دمشق أحمد بن سليمان بن حذلم الأوزاعي المذهب، ويذكر أنّه كان له حلقة بالجامع الأموي[٢]، وهذا يعني أنّ مذهب الأوزاعي قد ظلّ قائما في هذا المركز وثبت على مذهبه بقايا كثيرون لم يفارقوه إلى نهاية هذه المرحلة من هذا الدور.

* المذهب الشافعي الذي كان له الصيت العالي واليد الغالبة في هذه البلاد، وكان القاضي أبو زرعة محمد ابن عثمان (٣٠٢هـ) أوّل من أدخل مذهب الشافعي إلى الشام وحكم به وأشاعه بها، بعد أن كان أهل الشام على مذهب الأوزاعي[٣]، وقد ولّي أبو زرعة قضاء الشام ما يزيد على عشرة سنين[٤]، ولم يل بعد أبي زرعة قضاء الشام إلاّ شافعيّ المذهب، غير ابن خديم - وقيل ابن حذلم - فإنّه كان أوزاعيّ المذهب ثمّ لم يزل القضاة من بعده يحكمون الشام بمذهب الشافعي بعد أن كان الغالب عليهم مذهب الأوزاعي[٥].

* والمذهب الحنفي الذي كان أغلب أعلامه من قضاة الأحناف النزلاء ببلاد الشام.

* وأمّا المذهب الحنبلي فكان الأقلّ أتباعاً في هذه الديار، ولم ينتشر في الشام انتشارا واسعا إلاّ في نهاية هذا الدور وبداية الدور القادم.

* وأمّا المذهب المالكي فلم يكن له وجود يذكر في هذه الديار خلال هذا الدور، ولم يبدأ نشاطه إلاّ مع مجيء الدولة الأيّوبيّة لاحقا.

---

(١) طبقات الشافعيّة الكبرى ٣٢٦/١.
(٢) النجوم الزاهرة ٣٢٠/٣.
(٣) البداية والنهاية ١٢٢/١١.
(٤) شذرات الذهب ٤٢٠/٢.
(٥) حسن المحاضرة ١٨٢/١، طبقات الشافعية الكبرى ١٩٦/٣.

ومن أشهر القائمين على هذا المركز من أتباع المذاهب، نذكر من فقهاء الشافعيّة:

* **أبو زرعة محمد بن عثمان: (٣٠٢هـ).**

* **عبدالله بن محمد القزويني: (٣١٥هـ) قاضي الرملة**[١].

* **الحسين بن أبي زرعة محمد بن عثمان: (٣٢٧هـ)** قاضي دمشق[٢]، وسليل قاضيها، ولّي القضاء هو وابن حدّاد في عهد الأخشيديين الذين حكموا مصر والشام من سنة ٣٢٣هـ إلى سنة ٣٥٨هـ.

كان عارفاً بالأحكام منفّذاً، وكان ابن حدّاد ينوب عنه.

* وأبو يحيى زكرياء بن أحمد بن يحيى بن موسى البلخي (٣٣٠هـ) قاضي دمشق، وهو صاحب وجه فارق وطنه ومسح عرض الأرض وسافر إلى أقاصي الدنيا في طلب الفقه، وكان حسن البيان في النظر، عذب اللسان في الجدل، ولّي قضاء الشام أيّام المقتدر بالله، وتوفّي بدمشق[٣].

* **أبو علي الحصائري الحسن بن حبيب الدمشقي** (٣٣٨هـ) الفقيه الشافعي الذي روى عن الربيع بن سليمان وابن عبدالحكم، وحدّث بكتاب الأمّ للشافعي، وكان حافظاً لمذهب الشافعي[٤].

ومن أشهر فقهاء الحنفيّة نذكر:

* **أبو خازم عبدالحميد بن عبدالعزيز القاضي** من أهل البصرة، كان من خيار القضاة وأعيان الفقهاء ومن أئمّة العلماء، كثير الورع والنزاهة والديانة والأمانة، أخذ العلم عن شيوخ البصريين، وولّي القضاء بالشام

---

(١) البداية والنهاية ١٥٧/١١، طبقات الشافعية الكبرى ٣٢٠/٣ ـ ٣٢٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٢٨١/٣.

(٣) شذرات الذهب ٢٧/٣.

(٤) شذرات الذهب ٥٢/٣، طبقات الشافعية الكبرى ٢٥٥/٣ ـ ٢٥٦، النجوم الزاهرة ٣٠٠/٣.

والكوفة والكرخ من بغداد[١].

* أبو طاهر محمد بن محمد بن سفيان الذي كان أكثر أخذه عن القاضي أبي خازم، وقد ولِّي القضاء بالديار الشاميّة[٢].

* عليّ بن محمد بن الحسن أبو القاسم المعروف بابن كاس (٣٢٥هـ) النخعي الكوفي، كان إماماً في الفقه كبير القدر[٣].

* **ابن أبي الفهم التنوخي الأنطاكي** (٢٧٨هـ ـ ٣٤٢هـ) وكان فقيهاً بارعا في الأصول والفروع[٤].

* وأمّا المذهب الحنبلي فمن أوائل من أدخلوه إلى دمشق:

* **أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبدالله الخرقي** (٣٣٤هـ) أحد سادات الفقهاء والعبّاد[٥] قرأ العلم على صالح وعبدالله ابني الإمام أحمد بن حنبل وغيرهما، له المصنّفات الكثيرة في المذهب الحنبلي.

خرج من بغداد لمّا ظهر فيها سبّ الصحابة رضوان الله عليهم، وأودع فيها كتبه فاحترقت الدار التي كانت فيها الكتب وعدمت مصنّفاته.

قصد الخرقي الشام فأقام بها واستقرّ بقيّة حياته، وكانت له تخريجات على المذهب.

لم ينتشر من كتبه إلاّ المختصر في الفقه الذي كان عليه الاعتماد في

---

(١) الفوائد البهية ٨٦، الجواهر المضية ٣٦٦/٢، تاج التراجم ١٢٠، طبقات الفقهاء للشيرازي ص١٤١، شذرات الذهب ٣٨٤/٢، البداية والنهاية ٩٩/١١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٢.

(٣) الجواهر المضية ٥٩٣/٢، النجوم الزاهرة ٢٦٠/٣.

(٤) النجوم الزاهرة ٣١٠/٣.

(٥) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٢، شذرات الذهب ٤٠/٣، البداية والنهاية ٢١٤/١١، كشف الظنون ٥١٦/٢، تاريخ التراث العربي ٢٣٥/٣ ـ ٢٣٦، طبقات الفقهاء الحنابلة ١٠٤/٢ ـ ١٥٢ وفيات الأعيان ٤٤١/٣، النجوم الزاهرة ٢٨٩/٣.

المذهب، وتبلغ مسائله ٢٣٠٠ مسألة، وقد اعتنى علماء الحنابلة بشرحه، وأشهر شروحه كتاب المغني لابن قدامة.

وساق له ابن أبي يعلى في ثنايا ترجمته ثماني وتسعين مسألة في الفقه.

وأمّا عن المذهب الأوزاعي فإنّ أبا الحسين بن حذلم، وهو أحمد بن سليمان بن أيّوب الأسدي الدمشقي الذي ناب في قضاء بلده، فهو آخر من كانت له حلقة بجامع دمشق يدرّس فيها مذهب الأوزاعي(١).

- ٣ - العـراق:

رغم ما بلي به هذا الإقليم الذي هو مركز الخلافة العبّاسيّة، من وقائع مؤلمة وحوادث مفجعة، فلم يمنع ذلك من استمرار نشاطه العلمي، إذ بقي رغم توالي الأحداث عليه موطنا لاستقطاب العلماء ودار الدنيا وحاضرة الربع العامر.

ويكاد ينفرد هذا المركز على جميع المراكز الأخرى بتواجد جميع أنماط الأفكار الاجتهاديّة وسائر أنواع المذاهب الفقهيّة، إذ نجد في رحابه مشاهير الأعلام من المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والظاهري والجريري والشيعي.

* فأمّا المذهب الحنفي فقد كان المذهب الغالب في هذا المركز لكونه مستقرّ أبي حنيفة، ثمّ لإيثاره في القضاء على ما سواه من المذاهب.

* وأمّا المذهب المالكي فقد ظهر ببغداد ظهورا كثيراً، ثمّ ضعف فيها في نهاية هذا الدور.

* وأمّا مذهب الشافعي فقد انتشر بالعراق لأنّه موطن نشر مذهبه القديم.

---

(١) شذرات الذهب ٥٨/٣، النجوم الزاهرة ٣٢٠/٣.

* وأمّا المذهب الحنبلي فقد كان له القول النافذ والسلطان الأكبر خلال هذه المرحلة في هذه البلاد، وعظم أمر أتباعه وقويت شوكتهم، ووصل بهم الأمر إلى منع الناس من الجلوس إلى ابن جرير الطبري لأنّه صنّف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه الإمام أحمد.

* وأمّا ابن جرير الطبري فقد كان له ببغداد خلال هذه المرحلة أتباع كثيرون تقلدوا مذهبه أتينا على ذكرهم.

* وأمّا المذهب الظاهري فقد كثر أتباعه بهذه البلاد لأنّها كانت مستقرّ داود بن عليّ الأصبهاني مؤسّس المذهب الظاهري، ومستقرّ ابنه محمد الذي تولّى رئاسة المذهب من بعد أبيه، فانتشر بهما المذهب الظاهري.

* وأمّا المذهب الشيعي ـ الإماميّة على وجه التحديد ـ فقد شكّل نشاطاً فقهيّاً مستقلاً سواء تعلّق ذلك بمقالاته في مواضيع الفقه وأصوله، أو تعلّق بالمسائل الاعتقاديّة المرتبطة بأصول الدين، وقد عكس ذلك.

بجلاء مدى الاختلاف الواضح بين المذهب الشيعي والمذاهب السنّية الأخرى في طرق اعتماد الأسانيد والمقاييس في التعديل والتجريح من ناحية، وفي اعتماده على أصول اجتهاديّة على غير الصورة التي ظهرت بها في المذاهب السنيّة من ناحية أخرى.

وفيما يلي لمحة عن أعلام الفقه بهذا المركز:

فمن أشهر أتباع المذهب الحنفي نذكر:

* أبو سعيد أحمد بن الحسين البردعي (٣٣٤هـ) شيخ الحنفيّة ببغداد، وهو أستاذ أبي الحسن الكرخي وأبي طاهر الدبّاس وأبي عمرو الطبري[(١)].

* أبو الحسن عبيدالله بن الحسين الكرخي (٢٦٠هـ ـ ٣٤٠هـ) وهو

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤١، الفهرست ص ٢٦١، النجوم الزاهرة ٢٢٦/٣.

أحد أئمّة الحنفيّة المشهورين، انتهت إليه رئاسة العلم في أصحاب أبي حنيفة بعد القاضي أبي سعيد البردعي، سكن بغداد ودرّس فقه أبي حنيفة، وكان أوحد عصره غير مدافع ولا منازع، وعليه قرأ المبرّزون من فقهاء الحنفيّة، وممّن تفقّه عليه أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصّاص وأبو بكر الدامغاني وأبو علي الشاشي وأبو عبدالله البصري وأبو القاسم علي بن محمد التنوخي.

كان معدودا من المجتهدين القادرين على حلّ المسائل التي لا نصّ فيها على مقتضى أصول وقواعد المذهب الحنفي، وكان قانعا متعفّفا صبورا على الفقر، عزوفا عمّا في أيدي الناس صوّاما قوّاما كبير القدر.

أصابه الفالج في آخر عمره، فاجتمع عنده بعض أصحابه وتشاوروا فيما بينهم أن يكتبوا إلى سيف الدولة ابن حمدان ليساعده بمال يستعين به في مرضه، فلمّا علم بذلك بكى ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهمّ لا تجعل رزقي إلاّ من حيث عوّدتني، فمات قبل أن تصل إليه صلة سيف الدولة - وهي عشرة آلاف درهم - فتصدّقوا بها بعد وفاته.

صنّف المختصر في الفقه الذي يعدّ من أمّهات الكتب في فقه الحنفيّة، وعليه شروح من أهمّها شرح القدّوري - من أعلام المرحلة الثانية من هذا الدور - وشرح الجامعين الكبير والصغير لمحمد بن الحسن، وقال في مختصره الفقهي: من أراد مجاوزة ما في هذا الكتاب - يعني المختصر - فلينظر في الجامع الصغير الذي ألّفناه، وإن أراد أكثر من ذلك فالكبير يستغرق ذلك كلّه.

وله رسالة في الأصول التي عليها مدار فروع الحنفيّة، شرحها أبو حفص عمر النسفي فذكر أمثلتها ونظائرها وشواهدها[١].

---

(١) الفهرست ص ٢٦١، الفوائد البهية ١٠٨، الجواهر المضية ٤٩٣/٢، تاج التراجم ١٣٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٢، شذرات الذهب ٦٤/٣، كشف الظنون ٤٥٠/١ و٥٢٣/٢، تاريخ التراث العربي ١٠١/٣ - ١٠٢، رسالة الكرخي في الأصول، البداية والنهاية ٢٢٤/١١ - ٢٢٥، النجوم الزاهرة ٣٠٦/٣.

*** أبو عمرو أحمد بن محمد بن عبدالرحمٰن الطبري (٣٤٠هـ)** الملقب بابن دانكا، تفقه على أبي سعيد البردعي، وكان يدرّس ببغداد في حياة أبي الحسن الكرخي، وله شرح الجامعين الكبير والصغير لمحمد بن الحسن(١).

*** أبو عليّ أحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي (٣٤٤هـ)** وكان أبو الحسن الكرخي جعل التدريس إليه حين أصابه الفالج، والفتوى إلى أبي بكر الدامغاني(٢).

*** أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصّاص (٣٠٥هـ ـ ٣٧٠هـ)** صاحب أبي الحسن الكرخي، وإليه انتهت رئاسة العلم لأصحاب أبي حنيفة ببغداد، وعنه أخذ فقهاؤها، ورحل إليه الطلبة من الآفاق.

كان عابداً ورعاً زاهداً، حاله يزيد على حال الرهبان من كثرة التقشّف، له من المصنّفات المفيدة كتاب أحكام القرآن وكتاب أصول الفقه وشرح مختصر الطحاوي واختصر كتاب اختلاف الفقهاء للطحاوي وشرح الجامع الكبير لمحمد بن الحسن(٣).

ومن أشهر أتباع المذهب المالكي بالعراق نذكر: «آل حمّاد» الذين تجرّدوا لمذهب مالك وتفقّهوا فيه حتّى أصبح بيتهم على كثرة رجاله وشهرة أعلامه من أجلّ بيوت العلم بالعراق، وأرفع مراتب السؤدد في الدين والدنيا، وكان فيهم رجال أجلّة من أهل الفقه والسنّة، ومن أهل الصدق والخير، وأئمّة الورع والعلم والفضل، روي عنهم في أقطار الأرض،

---

(١) الفوائد البهية ٣٥، الجواهر المضية ٢٩١/١، تاج التراجم ٥١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٣، كشف الظنون ٤٤٤/١ و٤٤٩.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٣.

(٣) الفهرست ص ٢٦١، الفوائد البهية ١٧، الجواهر المضية ٢٢٠/١، تاج التراجم ١٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٤، شذرات الذهب ١٨٤/٣، البداية والنهاية ٢٩٧/١١، النجوم الزاهرة ١٣٨/٤، تاريخ التراث العربي ١٠٢/٣ ـ ١٠٣، كشف الظنون ٨١/١ و٩٠ و١٤٤ و٤٤٩/٢ و٥١٧، طبقات المفسّرين ص ٤٤.

وانتشر ذكرهم ما بين المشرق والمغرب، وتردّد العلم في بيتهم نحو ثلاثمائة عام - من زمن جدّهم الإمام حمّاد بن زيد وأخيه سعيد ومولدهما نحو المائة، إلى وفاة آخر من وصف منهم بعلم، المعروف بابن أبي يعلى، ووفاته قرب عام أربعمائة(١).

وكان أشهر أئمّة الفقه والمشيخة منهم في هذه المرحلة:

- ١ - القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حمّاد بن زيد: (١٩٩هـ - ٢٨٢هـ) أصله من البصرة وبها نشأ واستوطن بغداد، سمع من أبي مصعب وابن أبي أويس وغيرهما، وتفقّه بأعلام مشيخة العراق كأبي الفضل أحمد بن المعذّل الذي لم يكن للمالكيّة بالعراق أرفع منه ولا أعلى درجة ولا أبصر بالمذهب منه، وكان يقول: أفخر على الناس برجلين بالبصرة: أحمد بن المعذّل يعلّمني الفقه، وعليّ بن المديني يعلّمني الحديث.

أخذ القراءة عن الإمام قالون، وله فيه حرف، وروى عن ابن مجاهد وابن الأنباري وغيرهما.

وممّن تفقّه عليه وروى عنه وسمع منه كثير من الأعلام المغاربة والأندلسيين مثل يحيى بن عمر وقاسم ابن أصبغ، ومن المشارقة خلق عظيم.

كان إسماعيل عالماً متفنّناً، تقدّم في العلم حتّى صار علماً، ونشر من مذهب مالك وفضله ما لم يكن بالعراق في وقت من الأوقات، فشرح المذهب المالكي ولخّصه واحتجّ له، ما صار لأهل هذا المذهب معالم يحتذونه وطريقا يسلكونه.

يعتبر القاضي إسماعيل أوّل من بسّط قول مالك وأظهره بالعراق، وردّ على المخالفين من أصحاب الشافعي وأبي حنيفة حتى أنّ أبا حازم القاضي

(١) ترتيب المدارك ١٦٦/٣ - ١٦٧، الديباج المذهب ص ١٥١.

الحنفي كان يقول: لبث إسماعيل أربعين سنة يميت ذكر أبي حنيفة من العراق.

انفرد بالإمامة في وقته ولم ينازعه أحد في عصره، وكان ابن أبي زيد القيرواني يقول: القاضي إسماعيل شيخ المالكيين في وقته، وإمام تام الإمامة، يقتدى به.

جمع علوم القرآن والحديث وآثار العلماء والفقه والكلام والمعرفة بعلم اللسان، حتى أنّ المبرّد ـ عالم النحو ـ كان يقول: لولا شغله برئاسة العلم والقضاء لذهب برئاسة النحو والأدب.

بلغ من العمر ما صار واحد عصره في علوم الإسناد، فحمل الناس عنه من الحديث الحسن ما لم يحمل عن كثير، وكان كثير من الناس يصيرون إليه، فيقتبس منه كلّ فريق علماً لا يشاركه فيه الآخرون.

وقال القاضي أبو الوليد الباجي ـ وقد ذكر من بلغ درجة الاجتهاد، وجمع إليه من العلوم ـ: ولم تحصل هذه الدرجة بعد مالك إلاّ لإسماعيل القاضي.

ولي القضاء اثنتين وثلاثين سنة، وصنّف مصنّفات في القراءات والحديث والفقه وأحكام القرآن والتفسير والأصول، ولم يسبقه أحد من أصحابه إلى مثلها، وذكر له القاضي عياض أكثر من عشرين عنوان منها كتاب أحكام القرآن وكتاب معاني القرآن وإعرابه الذي شهد المبرّد بتفضيله فيه، وكتاب الردّ على أبي حنيفة وكتاب الردّ على الشافعي، وكتاب الردّ على محمد بن الحسن، وكتاب المبسوط في الفقه ومختصره وغيرها من المؤلفات المفيدة التي هي أصول في فنونها[1].

(١) ترتيب المدارك ١٦٨/٣ ـ ١٨١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٤ ـ ١٦٥، الديباج المذهب ص ١٥١ ـ ١٥٤، الفهرست ص ٢٥٢، شذرات الذهب ٣٤٦/٢، البداية والنهاية ٧٢/١١، كشف الظنون ٨٠/١، غاية النهاية ١٦٢/١، معجم الأدباء ٦٤٧/٢ ـ ٦٥١، طبقات المفسّرين ص ٧٦ ـ ٧٧.

ـ ٢ ـ يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حمّاد: (٢٩٧هـ) ابن عمّ القاضي إسماعيل، سمع الحديث ودرس الفقه، وكان أكثر تفقّهه مع ابن عمّه إسماعيل.

كان رجلاً صالحاً عفيفاً خيّراً، ذا جلالة وقدر عظيم ببغداد، وكان فقيهاً متفنّناً، من أكابر العلماء وأعيانهم، سمع منه الناس قراءة وإملاءا، وكتبوا وحملوا عنه علماً كثيراً.

وكان حسن العلم بصناعة القضاء، شديداً في الحكم، وكان ثقة أمينا، فلمّا ولّي القضاء حمدت مذاهبه وحسن حكمه واستقامت طريقته وكثر الشاكر له[1].

ـ ٣ ـ قاضي القضاة أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل (٢٤٣هـ ـ ٣٢٠هـ) وهو ابن صاحب الترجمة السابقة ـ القاضي ببغداد ومعاملاتها في سائر البلاد، كان من خيار القضاة حلماً وعقلاً وجلالة وذكاء، وكان من أئمّة الإسلام علماً ومعرفة وفصاحة وعقلا، بحيث كان يضرب بعقله المثل.

روى الكثير عن المشائخ وحدّث عنه الإمام الدارقطني وغيره من الحفّاظ، وحمل الناس عنه علماً كثيراً من الفقه والحديث.

ولي قضاء مدينة المنصور في عهد المعتضد، ثمّ ولّي قضاء الجانب الشرقي في عهد المقتدر، ثمّ جمع قضاء القضاة سنة ٣١٧هـ، ولم ينتقد عليه حكم من أحكامه أخطأ فيه قطّ.

وذكر أبو إسحاق الشيرازي أنّ الناس كانوا ببغداد إلى عهده إذا رأوا إنساناً له أبّهة وجمال هيئة ووقار قالوا: كأنّه أبو عمر القاضي.

---

(١) ترتيب المدارك ١٨٢/٣ ـ ١٨٦، الديباج المذهب ص ٤٤٣، شذرات الذهب ٤٠٤/٢، النجوم الزاهرة ١٧١/٩ البداية والنهاية ١١٢/١١.

كان له مجلس علم في غاية الحسن، كان يعقد للإملاء، وله مصنّفات كثيرة وجمع مسندا حافلا[(١)].

- ٤ - قاضي القضاة أبو الحسين عمر بن قاضي القضاة أبي عمر محمد بن القاضي يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حمّاد: (٢٨٩هـ - ٣٢٨هـ) - وهو ابن صاحب الترجمة السابقة - كان من أحذق أحداث المالكيين في وقته، ذكيّا فطنا حاذقا بالمذهب، أخذ من كلّ علم بنصيب.

كان نظير أبيه في الفضل وتاليه في العقل، سلك مسلك سلفه وجرى على مذاهب أوّله، بلغ في العلوم مبلغا عظيما قلّما اجتمعت في مثله من أهل زمانه، ولا يعرف قاض في سنّه ولا أعلى منه، يشتغل بالعلوم التي يشتغل بها، من حفظ الحديث وعلم به، واستبحار في الفقه واحتجاج له، وتقدّم في النحو واللغة، وحظّ جزيل من البلاغة نظما ونثرا، وغير ذلك.

رزق قوّة الفهم وجودة القريحة وشرف الأخلاق وكان يخلف أباه في قضائه وهو صغير السنّ، ثمّ ولّي قضاء مدينة المنصور سنة ٣٢٠هـ، ولمّا توفّي أبوه من هذه السنة قلّد جميع ما كان يتقلّده أبوه من أعمال القضاء إلاّ قضاء القضاة، التي ولّيها بعد ذلك بخمس سنوات.

تلقّى الفقه عن أبيه، ولم يدرك عمّه القاضي إسماعيل بن إسحاق فأخذ عن كبار أصحابه، وعن القاضي أبي الحسين وأبيه أبي عمر أخذ الشيخ أبو بكر الأبهري وغيره.

توفّي أبو الحسين ببغداد وهو يتولّى قضاء القضاة، وقد اخترمته المنيّة قبل استيفاء أقرانه وطبقته وسنّه يوم مات تسع وثلاثون سنة، وصلّى عليه ابنه أبو نصر وولّي بعده القضاء.

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٥، شذرات الذهب ٤٨٧/٢، البداية والنهاية ١٧١/١١ - ١٧٢ النجوم الزاهرة ٢٣٥/٣.

له كتاب في الردّ على من أنكر إجماع أهل المدينة، وله كتاب الفرج بعد الشدّة[١].

- ٥ - أبو نصر يوسف بن عمر بن محمد بن يوسف : (٣٠٥هـ - ٣٥٦هـ) - وهو ابن صاحب الترجمة السابقة - نشأ نبيلا حاذقا بصناعة القضاء، بارعا في الأدب والكتابة، حسن الفصاحة، واسع العلم باللغة والشعر، وكان فقيهاً فاضلا، وهو آخر من ولِّي القضاء ببغداد من آل حمّاد.

اقتدر على أمره بالنزاهة والتصاون والعفّة حتّى وصفه الناس من ذلك بما لم يصفوا به أباه وجدّه مع حداثة سنّه، ولا يوجد قاض تقلّد قضاء بغداد أعرق في القضاء منه ومن أخيه الحسين، لأنّ أباه أبا الحسين وجدّه أبا عمر، ووالد أبي عمر يوسف بن يعقوب، وأباه يعقوب، كلّهم ولّوا القضاء ببغداد ما عدا يعقوب فإنّه ولّي قضاء المدينة ثمّ قضاء فارس.

وزعم بعضهم أنّ أبا نصر انتقل من مذهب مالك إلى مذهب داود الظاهري وتقدّم فيه، وتمّم كتاب الإيجاز لمحمد بن داود[٢].

واشتهر من أعلام الشافعيّة:

*** القاضي أبو العبّاس أحمد بن عمر بن سريج : (٢٤٩هـ - ٣٠٦هـ)** كان من عظماء الشافعيّة وأئمّة المسلمين، وكان يقال له الباز الأشهب.

ولي القضاء بشيراز، قام بنصرة المذهب الشافعي وردّ على المخالفين، وفرّع على كتب محمد بن الحسن وكان يفضل على جميع أصحاب الشافعي حتى على المزني، وكان الشيخ أبو حامد الإسفراييني -

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٦، ترتيب المدارك ٢٧٨/٣ - ٢٨١، الديباج المذهب ص ٢٨٤ - ٢٨٥، شذرات الذهب ٣٢٨/٣، البداية والنهاية ١٩٤/١١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٦ و١٧٩، ترتيب المدارك ٢٨٢/٣ - ٢٨٤.

على جلالة قدره ـ يقول: نحن نجري مع أبي العبّاس في ظواهر الفقه دون الدقائق.

أخذ عنه فقهاء الإسلام، وعنه انتشر فقه الشافعي في أكثر الآفاق، وكان يناظر محمد بن داود الظاهري.

صنّف نحو أربعمائة كتاب(١).

* **أبو إسحاق المروزي:** (٣٤٠هـ) تقدّمت ترجمته ضمن أعلام مصر ـ وهو معدود أيضاً من أعلام العراق، إذ إليه انتهت رئاسة الشافعيّة ببغداد بعد شيخه ابن سريج، وقد أقام مدّة طويلة بالعراق، قبل أن ينتقل إلى مصر، حتى انتشر عنه المذهب الشافعي(٢).

* **أبو سعيد الحسن بن أحمد بن يزيد بن عيسى الإصطخري (٢٤٤هـ ـ ٣٢٨هـ)** شيخ الشافعيّة بالعراق، كان موصوفا بالزهد والقناعة، وهو أحد الرفعاء من أصحاب الوجوه، ومن شيوخ الفقهاء الشافعيين.

كان هو وابن سريج من شيوخ الشافعيّة ببغداد، صنّف كتبا كثيرة منها كتاب آداب القضاة، لم يصنّف في الباب مثله، وقد استحسنه الأئمّة، كما صنّف كتاب الشروط والوثائق والمحاضر والسجلّات(٣).

* **القاضي أبو عليّ الحسن بن الحسين بن أبي هريرة البغدادي: (٣٤٥هـ)** أحد أئمّة الشافعية، تفقّه بابن سريج ثمّ بأبي إسحاق المروزي، درّس ببغداد وتخرّج به خلق كثير، وإليه انتهت إمامة العراقيين.

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٩، البداية والنهاية ١٢٩/١١، النجوم الزاهرة ١٩٤/٣ شذرات الذهب ٤٣٢/٢ ـ ٤٣٣، طبقات الشافعية الكبرى ٢١/٣ ـ ٣٩، الفهرست ص ٢٦٦، تذكرة الحفاظ ٨١١/٣ ـ ٨١٣، وفيات الأعيان ٦٦/١ ـ ٦٧.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٢، شذرات الذهب ٦٢/٣.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١١، شذرات الذهب ١٢/٣، البداية والنهاية ١٩٣/١١، النجوم الزاهرة ٢٦٧/٣، كشف الظنون ١٠٠/١، الفهرست ص ٢٦٧، وفيات الأعيان ٧٤/٢ ـ ٧٥، طبقات الشافعية الكبرى ٢٣٠/٣ ـ ٢٥٣.

له اختيارات كثيرة غريبة في المذهب[١].

واشتهر من أعلام الحنابلة:

* **أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلّال:** (٣١١هـ) تلقى العلم عن صالح وعبدالله ابني الإمام أحمد وعن أبي بكر المروزي.

كان فقيهاً حبراً، أنفق عمره في جمع مذهب الإمام وتصنيفه، وكان واسع العلم شديد الاعتناء بالآثار، له مصنّفات الكثيرة في الفقه منها كتاب الجامع لعلوم الإمام أحمد، ويشتمل على مجموعة من نصوص ورسائل ومسائل الإمام أحمد التي تتألّف من عشرين جزءاً أو أكثر، قيل إنّه لم يصنّف في مذهب الإمام أحمد مثل هذا الكتاب[٢].

* **أبو القاسم الخرقي:** صاحب المختصر المشهور في الفقه، وقد تقدّمت ترجمته في أعلام الشام، وقد كان يقيم ببغداد، فلمّا ظهر بها سبّ السلف، خرج منها واستقرّ بدمشق.

* **أبو محمد الحسن بن عليّ بن خلف البربهاري البغدادي:** (٢٣٣هـ ـ ٣٢٩هـ) شيخ الحنابلة بالعراق في وقته، ومتقدّمها في الإنكار على أهل البدع، كان له صيت عظيم عند السلطان، وقدم عند الأصحاب، وكان أحد الأئمّة العارفين الحفّاظ للأصول المتقنين والثقات المأمونين.

كان عالماً فقيهاً زاهداً واعظاً شديداً على أهل البدع والمعاصي، وكان كبير القدر معظّماً عند العامّة والخاصّة.

كانت له مجاهدات ومقامات في الدين كثيرة، وقد نجح أعداؤه من أهل البدع والأهواء في إيغار قلب السلطان عليه، حتّى قبض على جماعة

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٢ ـ ١١٣، شذرات الذهب ٧٨/٣ ـ ٧٩، البداية والنهاية ٣٠٤/١١، وفيات الأعيان ٧٥/٢.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ١٧١، شذرات الذهب ٤٥٢/٢، البداية والنهاية ١٤٨/١١، النجوم الزاهرة ٢٠٩/٣، تاريخ التراث العربي ٢٣٣/٣ ـ ٢٣٤، أعلام الموقعين ٢٨/١، طبقات الفقهاء الحنابلة ١٩/٢ ـ ٢٢، تذكرة الحفاظ ٧٨٥/٣ ـ ٧٨٦.

من أصحابه واستتر البربهاري وذلك سنة ٣٢١هـ، ثمّ تغيّرت الأحوال فظهر البربهاري وعلت كلمته وزاد قدره علوًّا وشأناً، ونشط أصحابه في الإنكار على أهل البدع غير أنّ المبتدعة استطاعوا للمرّة الثانية أن يوغروا قلب الحاكم العبّاسي حتّى نودي في بغداد أن لا يجتمع من أصحاب البربهاري نفسان، فاستتر وتوفّي وهو مستخف(١).

*** أبو بكر أحمد بن سلمان بن الحسن النجّاد البغدادي (٢٥٣هـ ـ ٣٤٨هـ)** الفقيه الحافظ، شيخ الحنابلة بالعراق، وصاحب التصانيف، تلقّى العلم عن أبي داود السجستاني وإبراهيم الحربي وعبدالله ابن الإمام أحمد وطبقتهم.

كان رأساً في الفقه، رأساً في الحديث، ولقد كانت له حلقتان في جامع المنصور، حلقة قبل الصلاة للفتوى على مذهب الإمام أحمد، وحلقة بعد الصلاة لإملاء الحديث، واتّسعت رواياته وانتشرت أحاديثه ومصنّفاته.

توفّي النجّاد وقد كفّ بصره وله من العمر خمساً وتسعين سنة(٢).

*** أبو بكر عبدالعزيز بن جعفر بن أحمد المعروف بغلام الخلاّل : (٢٨٥هـ ـ ٣٦٣هـ)** شيخ الحنابلة وعالمهم المشهور.

كان أحد أهل الفهم، موثوقاً به في العلم، متّسع الرواية مشهوراً بالديانة، موصوفاً بالأمانة، مذكوراً بالعبادة، وكان صاحب مصنّفات في علوم مختلفة، ممّن صنّف وجمع وناظر.

من أشهر مصنّفاته الشافي والمقنع وتفسير القرآن والخلاف مع الشافعي وكتاب القولين وزاد المسافر والتنبيه ومختصر السنّة وغير ذلك(٣).

---

(١) شذرات الذهب ١٩/٣ ـ ٢٣، البداية والنهاية ٢٠١/١١، طبقات الفقهاء الحنابلة ٢٧/١ ـ ٥٩.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٢، شذرات الذهب ٨٨/٣ ـ ٨٩، البداية والنهاية ٢٣٤/١١، طبقات الفقهاء الحنابلة ١٣/٢ ـ ١٩، تذكرة الحفاظ ٨٦٨/٣ ـ ٨٦٩.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٢، شذرات الذهب ١٥١/٣ ـ ١٥٢، البداية والنهاية ٢٧٨/١١ النجوم الزاهرة ١٠٥/٤، طبقات الفقهاء الحنابلة ١٥٤/٢ ـ ١٦٤، هدية العارفين ٥٧٧/١.

وأمّا الظاهريّة الذين كثر أتباعهم بهذا المركز فقد اشتهر منهم:

* **أبو بكر محمد بن أبي سليمان داود الظاهري:** (٢٥٥هـ ـ ٢٩٧هـ)
ابن مؤسّس المذهب الظاهري، كان فقيهاً ماهرا، تبع أباه في مذهبه ومسلكه وما اختاره من الطرائق وارتضاه، وكان أديباً شاعراً إخباريّاً، فاضلاً بارعاً ظريفاً، وأحد أذكياء زمانه، خلف أباه في حلقته وتصدّر للفتوى ببغداد وهو ابن خمسة عشر عاماً، فلمّا جلس يفتي استصغره الناس، فبعثوا إليه رجلاً يسأله وقالوا له: سله عن حدّ السكر ما هو ؟ فأتاه الرجل فسأله عن حدّ السكر ومتى يكون الإنسان سكرانا، فقال محمد بن داود: إذا عزبت عنه الهموم وباح بسرّه المكتوم، فاستحسن الحاضرون منه ذلك وعظم في أعين الناس، وعلم موضعه من أهل العلم.

وجاءته امرأة يوماً فقالت له: ما تقول في رجل له زوجة لا هو ممسكها ولا هو مطلّقها ؟ فقال لها: اختلف في ذلك أهل العلم، فقال قائلون: تؤمر بالصبر والاحتساب ويبعث على التطلّب والاكتساب، وقال قائلون: يؤمر بالإنفاق وإلاّ يحمل على الطلاق، فلم تفهم المرأة قوله، فأعادت مسألتها، فقال لها: يا هذه قد أجبتك عن مسألتك وأرشدتك إلى طلبك، ولست بسلطان فأمضي، ولا قاض فأقضي، ولا زوج فأرضي، فانصرفت المرأة ولم تفهم جوابه.

وكان يناظر أبا العبّاس بن سريج شيخ الشافعيّة في عصره، بحضور القاضي أبي عمر محمد بن يوسف المالكي فيعجب الحاضرون من مناظرتهما وحسنها، وله مصنّفات في المذهب منها: كتاب الإنذار وكتاب الإعذار وكتاب الإيجاز وكتاب اختلاف مسائل الصحابة وغيرها.

كان يبيح العشق بشرط العفاف، وهو ممّن قتله الهوى وله نيف وأربعون سنة[١].

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٥ ـ ١٧٦، الفهرست ص ٢٧٢، شذرات الذهب ٤٠٣/٢، البداية والنهاية ١١٠/١١ ـ ١١١، وفيات الأعيان ٢٥٩/٤ ـ ٢٦١.

* **أبو إسحاق إبراهيم بن جابر**، وكان من علماء الظاهريّة وكبارئهم، له كتاب الاختلاف، وأصحابه يستحسنونه[١].

* **أبو الحسن عبدالله بن أحمد بن محمد بن المغلس: (٣٢٤هـ)** أخذ العلم عن محمد بن داود، وإليه انتهت رئاسة المذهب الظاهري في وقته، كان مقيماً ببغداد، وعنه انتشر علم داود الظاهري فيها.

كان مقدّماً عند جميع الناس، يقصده العلماء من جميع البلدان، له تصانيف عديدة[٢].

* **أبو نصر يوسف بن عمر بن محمد بن يوسف: (٣٠٥هـ - ٣٥٦هـ)** الذي ولّي قضاء بغداد، وكان آخر من ولّي بها القضاء من آل حمّاد - وقد تقدّم ذكره في أعلام المالكيّة -.

وذكر الشيرازي أنّ أبا نصر يوسف قد انتقل من مذهب مالك إلى مذهب داود الظاهري وتقدّم فيه، وتمّم كتاب الإيجاز لمحمد بن داود[٣].

* **أبو الحسن حيدرة بن عمر الزندوردي: (٣٥٨هـ)** كان من العلماء الأخيار وفقيهاً، وعنه أخذ البغداديون مذهب داود، وقال ابن النديم: ورأيته وكان لي صديقاً[٤].

وأمّا المذهب الشيعي فقد نشط خاصّة بالكوفة وكان من أبرز أعلامه:

* **أبو محمد الحسين بن سعيد بن حمّاد بن سعيد بن مهران** الأهوازي الكوفي، كان هو وأخوه الحسن يعدّان من أوسع أهل زمانهما علماً بالفقه والآثار والمناقب وغير ذلك من العلوم، وكانا من كبار علماء

---

(١) الفهرست ص ٢٧٢.
(٢) الفهرست ص ٢٧٢ - ٢٧٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٧.
(٣) انظر: طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٦ و١٧٩، ترتيب المدارك ٢٨٢/٣ - ٢٨٤.
(٤) الفهرست ص ٢٧٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٧.

الشيعة الإماميّة، وكان أبو محمد الحسين على قيد الحياة نحو سنة ٣٠٠هـ[١].

* **فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي (٣١٠هـ)** روى عن أبي محمد الحسين بن سعيد الكوفي، وروى عنه أبو الحسن علي بن الحسين بن بابويه (٣٢٩هـ)[٢].

* **أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني (٣٢٨هـ)** أكبر علماء الشيعة الإمامية وشيخ مذهبهم في وقته ببغداد، كان معتبراً أحد المجدّدين واشتهر بذلك بين أهل عصره من علماء الشيعة.

صنّف كتاب الكافي في علم الدين، الذي يعتبر من أهمّ الكتب المعوّل عليها عند الشيعة الإماميّة، وعلى هذا الكتاب شروح كثيرة[٣].

* **أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي (٣٥٢هـ)** كان أوّل الأمر إماميًّا، ثمّ أصبح من غلاة الشيعة، وقد صنّف كتباً عديدة في موضوعات الفقه والعقائد[٤].

* **أبو غالب أحمد بن محمد بن سليمان الزراري (٢٨٥هـ ـ ٣٦٨هـ)** سكن بغداد وكان شيخاً للإماميّة في وقته[٥].

ـ ٤ ـ بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر:

أمّا البلاد التي عرفت ببلاد فارس، فهي جمهوريّة إيران اليوم، وهي مدائن كثيرة منها: أصبهان أو أصفهان وقم وكرمان وإصطخر ونهاوند وهمذان وغيرها من المدن، غير أنّ أهمّ قواعدها هي شيراز في جنوب

(١) الفهرست ص ٢٧٧، تاريخ التراث العربي ٢٨٨/٣، معجم المؤلفين ١٠/٤.
(٢) تاريخ التراث العربي ٢٨٩/٣.
(٣) تاريخ التراث العربي ٢٩١/٣ ـ ٢٩٥، معجم المؤلفين ١٢/ ١١٦، الأعلام ١٧/٨.
(٤) الفهرست ص ٢٧٨، تاريخ التراث العربي ٢٩٦/٣، معجم المؤلفين ٢٤/٧، الأعلام ٥٧/٥، هدية العارفين ٦٨٠/١ ـ ٦٨١.
(٥) تاريخ التراث العربي ٢٩٩/٣، معجم المؤلفين ١٠٨/٢، الأعلام ٢٠٢/١.

غربي إيران والريّ في الشمال بضاحية طهران، وإلى هذه المدائن ينسب علماء كثيرون.

وأمّا خراسان فمن أعظم مدنها التي وصفت بأنّها ديار العلم مع اختلاف فنونه: نيسابور التي قيل عنها أنّه لم يكن بعد بغداد مثلها، وهراة وبلخ ومرو التي قيل عنها إنّها المدينة الكبرى والدار العظمى ومربع العلماء، وأنّها واسطة العقد وخلاصة النقد.

وأمّا ما وراء النهر: فهو اسم أطلقه العرب قديما على البلاد الواقعة شمالي نهر جيحون أو آمودريا بتركستان وأهمّ مدنها بخارى وسمرقند حيث ضريح الصحابي الفاتح قثم بن العباس بن عبد المطلب ابن عمّ الرسول وطشقند - بلاد الشاش قديماً - وخوارزم.

وقد انتشر بهذه البقاع من المذاهب في هذه المرحلة الشافعيّة وهم الأكثر أتباعا والحنفيّة والظاهريّة من أهل السنّة، والإماميّة من الشيعة.

أمّا المذهب الحنبلي فلم يكن منتشراً في أيّ إقليم من أقاليم هذه البلاد، ومع ذلك فلا نعدم أن نجد بعض الحنابلة في هراة وهمذان من مثل أبي سليمان عبدالله بن محمد الأنصاري.

في حين أنّ المذهب المالكي كان أقلّ المذاهب أتباعاً في هذا المركز حتّى أنّ أبا الحسن أحمد بن فارس الرازي الفقيه اللغوي المشهور، كان يقيم بهمذان ثمّ حمل منها إلى مدينة الريّ ليقرأ عليه أبو طالب بن فخر الدولة فسكنها، وكان شافعيًّا على مذهب أبيه فصار مالكيًّا، ولمّا سئل عن ذلك؟ قال: أخذتني الحميّة لهذا الإمام المقبول القول على جميع الألسنة أن يخلو مثل هذا البلد - يعني الريّ - عن مذهبه[1].

وممّن نبغ من أعلام الشافعيّة في هذه البلاد:

* **أبو عبدالله محمد بن نصر المروزي (٢٩٤هـ)** ولد ببغداد ونشأ

---

(١) معجم الأدباء ٤١١/١، طبقات المفسّرين ص ٤٧.

بنيسابور وتفقّه بمصر على أصحاب الشافعي واستوطن سمرقند إلى أن توفّي بها.

كان أعلم الناس في وقته، رأساً في الفقه، رأساً في الحديث، رأساً في العبادة، إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة، إذ كان أجمع أهل عصره للسنن وأضبطهم لها وأذكرهم لمعانيها وأدراهم بصحّتها وبما أجمع الناس عليه ممّا اختلفوا فيه، ومن أعلم الناس باختلاف الصحابة ومن بعدهم في الأحكام بحيث لم يكن للشافعية في وقته مثله.

صنّف كتباً ضمّنها الآثار والفقه، وصنّف كتاباً فيما خالف أبو حنيفة عليًّا وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما[١].

* **أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج (٣٠٦هـ)** وقد تقدمت ترجمته في أعلام العراق، وعنه انتشر فقه الشافعي في شيراز حين ولّي قضاءها، كما انتشر فقهه في أكثر الآفاق.

* **أبو سعيد الحسن بن أحمد الإصطخري (٢٤٤هـ ـ ٣٢٨هـ)** أحد الرفعاء من أصحاب الشافعيّة، ومن شيوخ فقهائهم، ولّي قضاء مدينة قم الإيرانيّة، كما ولّي قضاء سجستان، وقد تقدمت ترجمته في أعلام العراق، وكان قد ولّي الحسبة بها.

* **أبو العبّاس أحمد بن أبي أحمد الطبراني (٣٣٥هـ)** المعروف بابن القاص[٢] صاحب ابن سريج، من أئمّة الشافعيّة ومن أصحاب الوجوه المتقدّمين، صنّف الكتب الكثيرة منها التلخيص وهو مختصر مشهور في

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٦ ـ ١٠٧، شذرات الذهب ٣٩٣/٢ ـ ٣٩٤، النجوم الزاهرة ١٦١/٣، البداية والنهاية ١٠٢/١١ ـ ١٠٣، طبقات الشافعيّة الكبرى ٢٤٦/٢ ـ ٢٥٥، تهذيب التهذيب ٤٨٩/٩ ـ ٤٩٠.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١١، طبقات الشافعية الكبرى ٥٩/٣ ـ ٦٢، النجوم الزاهرة ٢٩٤/٣، شذرات الذهب ٤٣/٣، البداية والنهاية ٢١٩/١١، وفيات الأعيان ٦٨/١ ـ ٦٩.

فروع الفقه الشافعي، اعتنى بشرحه علماء الشافعيّة، وكتاب المفتاح، وأدب القاضي، وغيرها.

كان شيخ الشافعية بطبرستان، وعنه أخذ أهلها الفقه، تولّى قضاء طرسوس وكان يعظ الناس بها فحصل له مرّة خشوع فسقط مغشيّا عليه فمات.

وفيه قال شارح كتاب التلخيص أبو عبدالله ختن الإسماعيلي: تمثلت فيه بقول الشاعر.

عقم النساء فما يلدن شبيهه   إنّ النساء بمثله عقم

*** أبو بكر محمد بن عليّ بن إسماعيل القفّال الشاشي (٣٦٥هـ)** المعروف بالقفّال الكبير[١] درس على أبي العباس ابن سريج، وسمع من أبي بكر بن خزيمة وابن جرير الطبري وطبقتهما.

كان إمام عصره، فقيهاً محدّثا، مفسّرا، أصوليّا متقنا، ذا طريقة حميدة، وكان لغويّا، شاعرا، وله مصنّفات كثيرة، وكان أعلم أهل ما وراء النهر بالأصول وأكثرهم رحلة في طلب الحديث، ولم يكن للشافعية بتلك البقاع مثله في وقته، وعنه انتشر فقه الشافعي هناك، وهو صاحب وجه في المذهب.

رحل إلى خراسان والعراق والشام وسار ذكره في الآفاق واشتهر اسمه في سائر البلاد.

له مصنّفات كثيرة، صنّف التفسير الكبير ودلائل النبوّة ومحاسن الشريعة وأدب القضاء، وهو أوّل من صنّف الجدل الحسن من الفقهاء، وله كتاب في أصول الفقه.

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٢، طبقات الشافعية الكبرى ٢٠٠/٣ ـ ٢٠٣، هديّة العارفين ٤٨/٢، شذرات الذهب ١٦٠/٣ ـ ١٦١، طبقات المفسّرين ص ٤٣٢ ـ ٤٣٤، النجوم الزاهرة ١١١/٤، وفيات الأعيان ٢٠٠/٤ ـ ٢٠١، الفهرست ٢٦٨.

وفي تاريخ وفاته خلاف، فقيل سنة ٣٣٦هـ، وقيل سنة ٣٦٥هـ، وقيل سنة ٣٦٦هـ.

* **أبو زيد محمد بن أحمد بن عبدالله بن المروزي (٣٧١هـ)** شيخ الشافعية في زمانه، وإمام أهل عصره في الفقه والزهد والورع، كان من أحفظ الناس لمذهب الشافعي وأحسنهم نظراً، وعنه أخذ فقهاء مرو.

قال البزّار: عادلت الفقيه أبا زيد من نيسابور إلى مكّة، فما أرى أنّ الملائكة قد كتبت عليه خطيئة.

جاور بمكّة سبع سنين ثمّ عاد إلى مرو وبها مات وله تسعون سنة.

له مصنّفات كثيرة، منها التفسير الكبير ودلائل النبوّة ومحاسن الشريعة وأدب القضاء[١].

* **أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجرجاني (٢٧٧هـ ـ ٣٧١هـ)** الحبر الإمام الجامع الحافظ الفقيه الشافعي، ذو التصانيف المفيدة في الحديث والفقه بجرجان.

كان أوّل سماعه وعمره ١٢ سنة، ولمّا بلغ ١٧ سنة رحل في طلب العلم وسماع الحديث، فجمع بين الفقه والحديث حتّى صار أوحد عصره وشيخ المحدّثين والفقهاء، وإمام أهل جرجان المرجوع إليه في الفقه والحديث، وجمع بين رئاسة الدين والدنيا، وكان أجلّ الناس مروءة وسخاء، وعنه أخذ فقهاء جرجان.

توفّي سنة ٣٧١هـ وله من العمر ٩٤ سنة، وقيل توفّي سنة ٣٦٩هـ[٢].

---

(١) شذرات الذهب ٣/١٩١ ـ ١٩٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٥، البداية والنهاية ١١/٢٩٩، طبقات الشافعيّة الكبرى ٣/٧١ ـ ٧٧، وفيات الأعيان ٤/٢٠٨ ـ ٢٠٩، هديّة العارفين ٢/٥٠.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٦، طبقات الشافعية الكبرى ٣/٧ ـ ٨، شذرات الذهب ٣/١٩٠.

* **أبو سهل محمد بن سليمان الصعلوكي (٢٩٦هـ ـ ٣٦٩هـ)** صاحب أبي إسحاق المروزي، شيخ عصره وقدوة أهل زمانه وإمام وقته في الفقه والتفسير واللغة والنحو والشعر والعروض والكلام والتصوّف وأصناف العلوم.

طلب العلم وتبحّر فيه ثمّ خرج إلى العراق سنة ٣٢٢هـ وهو إذ ذاك أوحد بين أصحابه وعمره ٢٦ سنة، ثمّ دخل البصرة ودرّس بها سنين، ثمّ ورد نيسابور سنة ٣٣٧هـ وعقد له هناك مجالس للتدريس والإفتاء فاستقرّت به المقام، ولم يبق في البلد موافق ولا مخالف إلاّ وهو مقرّ له بالفضل والتقدّم، فدرّس وأفتى ورأس أصحابه بنيسابور اثنتين وثلاثين سنة، وعنه أخذ فقهاء نيسابور العلم(١).

والقائمة بأعلام الشافعيّة في هذه الأصقاع طويلة جدّا، وحيثما قرأت في كتب طبقات الفقهاء أو المحدّثين أو المفسّرين يشدّ انتباهك كثرة المنتمين إلى المذهب الشافعي من أبناء هذه البلاد.

وأمّا الحنفيّة فقد نبغ من أعلامهم:

* **أبو الفضل محمد بن محمد بن أحمد المروزي (٣٣٤هـ)** الشهير بالحاكم الشهيد، كان عالم مرو وإمام الحنفيّة في عصره، ولّي قضاء بخارى، ثمّ ولاّه صاحب خراسان الوزارة.

من مصنّفاته الكافي، وقد اعتمد في تأليفه على كتاب محمد بن الحسن، وله المنتقى، وهما أصلان من أصول المذهب الحنفي بعد كتب محمد بن الحسن(٢).

* **أبو الحسين أحمد بن محمد بن عبدالله النيسابوري (٣٥١هـ)** قاضي

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٥، طبقات الشافعيّة الكبرى ٣/١٦٧ ـ ١٧٣، طبقات المفسّرين ص ٤٠١ ـ ٤٠٣.

(٢) هديّة العارفين ٢/٣٧، الأعلام ٧/٢٤٢، معجم المؤلفين ١١/١٨٥، تاريخ التراث العربي ٣/٩٩ ـ ١٠١.

الحرمين، وشيخ الحنفيّة في عصره، ولّي قضاء الحجاز مدّة، ثمّ قدم نيسابور وولّي قضاءها واستقرّ بها إلى حين وفاته، تفقّه على أبي الحسن الكرخي ثمّ انتقل إلى أبي طاهر الدبّاس وبرع في الفقه، وبه وبأبي سهل الزجاجي تفقّه فقهاء نيسابور من أصحاب أبي حنيفة[١].

* **القاضي أبو الهيثم محمد بن جعفر بن إسماعيل** ، فقيه نيسابور، الذي تتلمذ على أبي الحسين قاضي الحرمين[٢].

* **أبو جعفر محمد بن عبدالله بن محمد البلخي (٣٦٢هـ)** المعروف بأبي حنيفة الصغير لبراعته في الفقه ، شيخ الحنفيّة ببخارى وإمام عصره بلا مدافعة[٣].

* **أبو الحسن عليّ بن موسى بن يزداد القمّي (٣٥٠هـ)** الفقيه الحنفي، أحد العلماء الفضلاء، وإمام أهل الرأي في عصره بلا مدافعة، سمع من محمد بن شجاع الثلجي وعنه تلقّى الفقيه البخاري أبو بكر بن سعيد بن نصر، وتخرّج به جماعة من كبار العلماء.

عدّه ابن النديم ضمن أعلام الفقهاء العراقيين المشهورين، غير أنّ أبا الحسن القمّي قد أملى بنيسابور كما ذكر الداوودي.

له مصنّفات جليلة منها أحكام القرآن، وكتاب نقض ما خالف فيه الشافعي العراقيين في أحكام القرآن، وكتاب إثبات القياس والاجتهاد وخبر الواحد[٤].

---

(١) الفوائد البهية ٣٦، الجواهر المضية ٢٤٨/١، تاج التراجم ٤٨، شذرات الذهب ١٠١/٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٤.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٤.

(٣) الفوائد البهية ١٧٩، الجواهر المضية ١٩٢/٣، تاج التراجم ٢٢٠، هديّة العارفين ٤٧/٢، النجوم الزاهرة ٦٩/٤، شذرات الذهب ١٤٧/٣.

(٤) الجواهر المضية ٦١٨/٢، تاج التراجم ١٤٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ١٤١، الفهرست ص ٢٦٠، طبقات المفسّرين للداوودي ص ٣٠١.

وأمّا عن أعلام الظاهريّة فمن أشهرهم في هذه الأصقاع:

* **أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل الشيباني (٢٨٧هـ)** البصري، الذي ورد أصبهان وسكنها وولّي قضاء ها بعد وفاة صالح بن أحمد بن حنبل.

طاف البلاد في طلب الحديث، وكان إماماً فقيهاً ظاهريّا صالحا ورعا كبير القدر صاحب مناقب، وكان من الصيانة والعفّة بمحلّ عجيب، جمع بين العلم والفهم والحفظ والزهد والعبادة والفقه.

صنّف كتبا عديدة منها كتاب الديّات وكتاب الجهاد وكتاب الأوائل وكتاب المذكّر والتذكير والذكر وكتاب عوالي الأحاديث والأعالي وفوائد الخرائد واللآلي، جمع فيه الأحاديث التي أفاد منها الإمام الشافعي في بناء مذهبه الفقهي[(١)].

قاضي القضاة أبو سعيد بشر بن الحسين، وكان إماماً في أصحاب داود، تلقّى العلم عن عليّ بن محمد البغدادي صاحب ابن المغلّس، خرج إلى بلاد فارس ـ إيران ـ فأخذ عنه بشر بن الحسين[(٢)].

وقد حفل كتاب الفهرست لابن نديم بسرد مجموعة هائلة من أعلام الظاهريّة في هذا الدور الفقهي[(٣)]، وكان المذهب الظاهري أكثر أتباعا في بلاد فارس ـ إيران ـ منه في خراسان وما وراء النهر، إلاّ أنّه ما لبث أن تراجع وقلّ أتباعه أمام مذهبي الشافعي وأبي حنيفة من أهل السنّة، وأمام مذهب الإماميّة من الشيعة.

وكان للشيعة بإيران أعلام وأتباع كثيرون منهم:

---

(١) شذرات الذهب ٣٦٦/٢ ـ ٣٦٧، البداية والنهاية ٨٤/١١، تذكرة الحفاظ ٦٤٠/٢ ـ ٦٤١، الأعلام ١٨١/١ ـ ١٨٢، معجم المؤلفين ٣٦/٢، تاريخ التراث العربي ٢٥٤/٣ ـ ٢٥٥.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٣) الفهرست ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

* **أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفّار الأعرج القمّي (٢٩٠هـ)** وكان أحد العلماء المشهورين في فقه الشيعة الإماميّة، من مصنّفاته بصائر الدرجات في علوم آل محمد وما خصّهم الله به[١].

* **أبو القاسم سعد بن عبدالله بن أبي خلف الأشعري القمّي (٣٠١هـ)** وكان فقيهاً ومحدّثا صنّف كتاب المقالات والفرق وكتاب بصائر الدرجات، له ٣٧ مصنّفا[٢].

* **أبو محمد جعفر بن أحمد بن عليّ ـ وقيل جعفر بن عليّ بن أحمد ـ القمّي** الشهير بابن الرازي، نزيل الريّ وأحد شيوخ أبي جعفر محمد بن عليّ بن بابويه القمّي، ويقال إنّه ألّف ٢٢٠ كتاباً[٣].

* **أبو القاسم جعفر بن محمد بن جعفر بن موسى بن قولويه القمّي (٣٦٩هـ)** كان محدّثا وفقيها[٤].

ونلقى في آخر هذه المرحلة:

* **أبو جعفر محمد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي (٣٨١هـ)** ويعرف بالشيخ الصدوق، من أهل خراسان وبها ارتفع شأنه، ورد بغداد ونزل بالريّ، كان أبوه إمام الشيعة بمدينة قم، ويعتبر ابن بابويه أحد مشاهير المؤلّفين عند الشيعة الإماميّة، ولم ير في القمّين مثله.

صنّف كتاب معاني الآثار ويشتمل على مجموعة من الأحاديث، وله مجالس المواعظ أو الأمالي، وعيون أخبار الرضا ويشمل حياة عليّ بن موسى الرضا وأقواله، وكتاب من لا يحضره الفقيه في تطبيق أحكام الفقه وهو أحد الكتب الأربعة المعتمدة عند الشيعة الإماميّة، وقد ألّفه صاحبه

---

(١) معجم المؤلفين ٢٠٨/٩، هديّة العارفين ٢٤/٢، تاريخ التراث العربي ٢٨٧/٣.

(٢) تاريخ التراث العربي ٢٨٨/٣، الأعلام ١٣٥/٣ ـ ١٣٦، معجم المؤلفين ٢١١/٤ ـ ٢١٢.

(٣) تاريخ التراث العربي ٢٩٧/٣ ـ ٢٩٨، معجم المؤلفين ١٣٢/٣ ـ ١٣٣.

(٤) تاريخ التراث العربي ٣٠٠/٣، معجم المؤلفين ١٤٦/٣.

تلبية لرغبة محمد بن الحسن بن إسحاق بن الحسين الذي قابله في بلخ، وقد اعتنى أعلام الشيعة بهذا الكتاب فتناولوه بالشرح والتعليق، وله كذلك علل الشرائع والأحكام والأسباب وله المقنع في الفقه وكتاب الهداية في الأصول والفروع، وغيرها من الكتب، وقد ذكروا له ٣٠٠ مصنّفاً، وكانت وفاته بالريّ[١].

تلك فكرة إجماليّة عن انتشار المذاهب الفقهيّة بهذه الأصقاع من البلاد الإسلاميّة، ومدى مساهمة أبناء هذا المركز الإسلامي في تطوّر حركة الفقه في هذه المرحلة، سواء منهم الذين استقرّوا واستوطنوا بهذا المركز، أو الذين طافوا البلاد شرقاً وغرباً وأسهموا في تنشيط الحركة الفكريّة بالمراكز الأخرى، من الذين تدلّ نسبتهم عليهم، كالأصفهاني والقمّي والإصطخري والنيسابوري والمروزي والهروي والقاشاني والشاشي والخوارزمي والسمرقندي والبلخي والجرجاني وغيرها من الألقاب.

ـ ٥ ـ بلاد المغرب:

بلي هذا المركز الإفريقي في هذه المرحلة من هذا الدور بظهور بني عبيد الفاطميين الذين بسطوا سلطانهم على هذه البلاد واستحكم أمرهم بها من سنة ٢٩٦هـ إلى سنة ٣٦٢هـ، تاريخ انتقال الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله الفاطمي من بلاد المغرب إلى مصر.

وقد حرص بنو عبيد من ساعة قيامهم على محاولة القضاء على المذهب المالكي الذي كان يسود في هذه البلاد، وأحدثوا المدارس بالمساجد لتكوين الدعاة لنشر المذهب الشيعي، وأسكتوا بقوّة السلطان أصوات علماء المذهب المالكي المعارضين لسياستهم، وقاموا بحملات اضطهاديّة واسعة عرف خلالها الفقهاء والعلماء شتّى أنواع التنكيل، إلاّ أنّه بحكم ما كان يتمتّع به بعض العلماء من شهرة واسعة لدى جمهور الناس وبحكم ما عرف به بعض الفقهاء من رأي نافذ وإرادة صلبة، اضطرّت

---

(١) الأعلام ١٥٩/٧، معجم المؤلفين ٣/١١، تاريخ التراث العربي ٣٠١/٣ ـ ٣٠٩.

الدولة الشيعيّة أن تتوخّى أحياناً الحيطة، وربّما اتّخذت أحياناً أخرى مبدأ المداراة(١).

ورغم تلك الأحداث التي دارت بهذه البلاد، والمعاناة التي لاقاها كثير من أعلامها، فإنّ حبل العلم بها لم ينقطع، واستمرّ على الرغم من كلّ ذلك أعلام هذا المركز على العطاء دون انقطاع في محاولة منهم للمحافظة على خصوصياتهم.

وأمّا المذاهب الفقهيّة التي عرف لها أتباع في هذه البلاد فهي:

* المذهب المالكي الذي مال إليه أغلب فقهاء هذه البلاد، فكان غالبيّة الناس يلتزمون بالمالكيّة(٢).

* والمذهب الحنفي الذي ظهر هو الآخر بإفريقيّة التونسيّة، فقد استمرّ وجوده بها إلى نهاية هذه المرحلة من هذا الدور، ودخل منه شيء بمدينة فاس(٣).

* المذهب الشيعي الذي ظهر له أتباع بظهور الدولة العبيديّة التي حاولت أن تمكّن له بهذه البلاد.

وذكر القاضي عياض أنّه كان بالقيروان قلّة قد أخذوا بمذهب الشافعي وأنّه قد دخلها شيء من مذهب أهل الظاهر(٤).

---

(١) انظر كتابنا: سوسة من قيام الدولة الأغلبية إلى انتصاب الحماية الفرنسيّة ص ٧٧.
(٢) وقد جانب ابن تغري بردي الحقيقة والواقع حين قال: «كان الغرب يوم ذاك ـ أيّام الدولة العبيديّة ـ غالبه حنفيّة إلى أن حمل الناس على مذهب مالك فقط المعزّ بن باديس» والواقع أنّ الظهور لمذهب الكوفيين في تلك المدّة إنّما كان في القضاء والرئاسة، أمّا على مستوى القاعدة الشعبيّة فقد كان المالكيّة هم الغالبيّة، وعامة الناس يقتدون بهم، إلى أن ضعفت دولة بني عبيد، فأصبحت سائر بلاد المغرب مطبقة على هذا المذهب مجمعة عليه لا يعرف لغيره قائم (النجوم الزاهرة ٥/٤١٥، وانظر: ترتيب المدارك ١/٥٤ ـ ٥٥).
(٣) ترتيب المدارك ١/٨٠، الديباج المذهب ص ٤٧.
(٤) ترتيب المدارك ١/٥٤.

ومن أشهر أعلام المالكيّة في هذه المرحلة:

*** القاضي أبو العباس عبدالله بن أحمد بن طالب الأغلبي التميمي: (٢١٧هـ ـ ٢٧٥هـ)** ـ ابن عمّ بني الأغلب أمراء القيروان ـ تفقّه بسحنون وكان من كبار أصحابه، ولقي أصحاب مالك المصريين مثل محمد بن عبدالحكم ويونس بن عبدالأعلى، وعنه أخذ أبو بكر بن اللبّاد.

ولي قضاء القيروان مرّتين، فكان عدلا في قضائه، صارما في جميع أمره، ورعا في حكمه، قليل الهيبة في الحقّ للسلطان، فمال الناس إليه وأحبّوه لعدله وسماحته وعقله وحسن سيرته وعلمه.

كان فطنا جيّد النظر، يتكلّم في الفقه فيحسن، وكان إذا تكلّم أجاد وأبان حتى يودّ السامع ألاّ يسكت، وكان حريصا على المناظرة فيجمع في مجلسه بين أهل المناظرة في الفقه، ويغري بينهم لتظهر الفائدة.

لم يكن شيء أحبّ إليه من المذاكرة في العلم، وقد قال ابن البّاد: ما رأيت بعيني أفقه من ابن طالب إلاّ يحيى ابن عمر، امتحن وسجن، فكان يقول: إنّما العزيز من كان معه القرآن والعلم، وأمّا من كان معه السلطان فليس بعزيز، سقي سمّا، وتوفّي وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

له كتاب في الردّ على من خالف مالكاً، وتأليف في الردّ على المخالفين من الكوفيين، وعلى الشافعي، وثلاثة أجزاء من أماليه(١).

*** القاضي عيسى بن مسكين بن منظور الإفريقي: (٢١٤هـ ـ ٢٧٥هـ)** كان ابتداء طلبه للعلم سنة ٢٢٤هـ حيث سمع من شيوخ إفريقيّة مثل سحنون وابنه، ثمّ رحل إلى الشام ومصر، وبمصر سمع من الحارث بن

(١) ترتيب المدارك ١٩٤/٣ ـ ٢١٢، الديباج المذهب ص ٢١٨ ـ ٢١٩، رياض النفوس ٤٧٤/١ ـ ٤٧٩، قضاة قرطبة وعلماء إفريقيّة ص ١٨٦ ـ ١٨٨ و٢٥٧ و٢٩٧ و٣٠٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٨، معالم الإيمان ١٥٩/٢ ـ ١٧٤، شجرة النور الزكية ص ٧١.

مسكين والربيع وابن المواز ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم وغيرهم.

كان فقيهاً عالماً فصيحا ورعا مهيبا وقورا ثقة مأمونا صالحا، متفنّنا في علوم كثيرة: الحديث ورواته والفقه وأحكامه، واللغة والشعر، وكان كثير الكتب في الفقه وكان ذا سمت وخشوع، دائم الحمد رقيق القلب غزير الدمعة.

كانت ولايته للقضاء ثمان سنين وأحد عشر شهرا، وقرية مسجد عيسى بالساحل التونسي معروفة به إلى هذا الوقت(١).

* **أبو زكرياء يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني : (٢١٣هـ ـ ٢٨٩هـ)** ولد بالأندلس وبها نشأ، وأخذ العلم عن جماعة من علمائها منهم عبدالملك بن حبيب عالم الأندلس ومفتي قرطبة وزعيمها في المشاورة والمناظرة، ثمّ شدّ رحاله إلى الحجاز لآداء فريضة الحجّ، وهناك طلب العلم عند قاضي المدينة أبي مصعب الزهري (٢٤٢هـ) وعند نصر بن مرزوق وابن كاسب (٢٤٠هـ) المدني وغيرهما.

ومن أرض الحجاز توجّه إلى مصر حيث تلامذة عبدالله بن وهب فقيه مصر، وحيث أتباع عبدالرحمٰن بن القاسم أعلم العلماء بعلم مالك وآمنهم عليه، وحيث أصحاب أشهب صاحب الرئاسة في الفقه المالكي بمصر بعد ابن القاسم.

قصد يحيى مصر وهو لم يتجاوز بعد الثانية عشر من عمره، وسنّ أخيه مرافقه العاشرة، فأقام هناك مدّة أخذ فيها العلم عن أئمّة محدّثيها وجلّة فقهائها من المالكية من أمثال يحيى بن بكير(٢٣١هـ) أحد أصحاب الرواية المشهورة للموطّأ، وابن رمح (٢٤٢هـ) وحرملة بن يحيى (٢٤٣هـ) صاحب الشافعي، والحارث بن مسكين (٢٥٠هـ) قاضي مصر وأحد الراوين عن ابن القاسم، وغيرهم من أصحاب ابن وهب وابن القاسم

---

(١) ترتيب المدارك ٢١٢/٣ ـ ٢٢٨، الديباج ص ٢٨٠ ـ ٢٨١، قضاة قرطبة وعلماء إفريقيّة ص ١٩٣ ـ ١٩٥ و٣٠٨، شجرة النور الزكية ص ٧٢ ـ ٧٣.

وأشهب، وقد بلغ عدد شيوخه بمصر حسب ما ورد في كتب الطبقات ستّة عشر شيخا.

وبعد أن اتّصل يحيى بالمركز المدني وارتوى من معين المركز المصري، حطّ رحاله بإفريقية وصحب سحنون وبه تفقّه وصار من روّاده وعدّ في كبراء أصحابه، وتلقّى أيضاً علمي الفرائض والحساب عن أبي زكرياء الحضرمي (٢٣٧هـ).

كان يحيى بن عمر فقيهاً حافظاً للرأي، ثقة ضابطا لكتبه متقدّماً في الحفظ، وكان من أهل الوقار والسكينة على ما يجب لمثله، تأدّب في ذلك بآداب مالك.

قال تلميذه عبدالله الأبياني: ما رأيت مثل يحيى في علمه وورعه وكثرة دعائه وبكائه، وكان حريصاً على أهل العلم يحرّض طالبه ويشرّفه، والوصف والله يقصر عن يحيى وفضله، وما يجهل أمره إلاّ جاهل.

انتهت إلى يحيى بن عمر الرحلة في وقته، وسكن باديء الأمر القيروان فشرفت بها منزلته عند العامة والخاصة ورحل الناس إليه لا يروون مدوّنة سحنون وموطّأ مالك إلاّ عنه.

وكان يجلس في جامع القيروان ويجلس القاريء على كرسي يسمع من بعد من الناس لكثرة من يحضره، وكان يحيى جليلاً في قلوب الناس عظيما في أعينهم ما رأى الناس أحفظ منه ولا رأوا مثله في علمه وورعه.

سمع عليه خلق عظيم من أهل القيروان في جامع عقبة، وكان إذا انصرف من الجامع تبعه الناس.

ولم تقتصر مجالس العلم التي كان يعقدها يحيى بن عمر على القيروان وجامعها، بل شملت كذلك مدينة سوسة وجامعها الكبير، فقد قال أبو الحسن اللّواتي: كان عندنا يحيى بن عمر بسوسة يسمع الناس في المسجد الجامع فيمتلىء المسجد وما حوله فسألوه الانتقال منه لما هو أوسع فلم يفعل.

تفقّه بيحيى خلق كثير وتخرّج على يديه علماء أفذاذ نذكر منهم أخوه محمد بن عمر (٣١٠هـ) وأبو العرب التميمي (٣٣٣هـ) مؤرخ إفريقية وأبو العباس الأبياني التونسي (٣٥٢هـ) وأشهر تلاميذه على الإطلاق أبو بكر محمد بن اللبّاد (٣٣٣هـ) رئيس المالكية بإفريقية وشيخ ابن أبي زيد القيرواني، وغير هؤلاء كثير أوصلهم أصحاب الطبقات إلى خمسة وثلاثين عالماً قد أصبحوا فيما بعد أصحاب شأن.

كان يحيى بن عمر من أشدّ العلماء مقاومة للبدع المخالفة للكتاب والسنّة، ولقد ألّف كتاباً خاصًّا في الردّ على أهل البدع، وهو كتاب النهي عن حضور «مسجد السبت» بربض المتبتّلين بالقيروان، حيث كان يجتمع فيه كلّ سبت بعض أهل التصوّف للذكر والعبادة وينشدون الأشعار بتطريب فرادى وجماعة، وهم يمثّلون بذلك لوناً من الحياة تميل إلى الزهد والنسك.

ألّف يحيى نحو أربعين مصنّفاً في الحديث والفقه وفي الردّ على أهل البدع والأهواء وفي مسائل من العلم متفرّقة أهمّها: كتاب الردّ على الشافعي وكتاب المنتخبة، وهو اختصار للمستخرجة التي تسمّى بالعتبية المنسوبة إلى محمد بن أحمد العتبي، وقد كان لها بإفريقية القدر العالي والصيت الرفيع، وكتاب اختلاف ابن القاسم وأشهب وكتاب أحكام السوق، وهو أوّل تأليف ظهر في العالم الإسلامي يبحث في شؤون الأسواق ويضبط أحوالها، وينزّل الأحكام الفقهيّة عليها بما صيّر لها مادة متميّزة عن عموم الفقه[1].

* **أبو بكر محمد بن اللباد (٣٣٣هـ)** من أصحاب يحيى بن عمر وبه

(١) ترتيب المدارك ٢٣٤/٣ ـ ٢٤١، رياض النفوس ٤٩٠/١ ـ ٥٠٤، معالم الإيمان ١٥٦/٢ ـ ١٦٥ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٨٤ و٢٩٧، جذوة المقتبس ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥، الديباج المذهب ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣، تاريخ العلماء والرواة ٢/ ١٨١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٣، تراجم المؤلفين التونسيين ٤٢٥/٣ ـ ٤٢٦، كتاب العمر ٦٠٩/٢ ـ ٦١٣.

تفقّه وأخذ عن أخيه محمد بن عمر وابن طالب وسمع من الشيوخ الذين كانوا في وقته، وبه تفقّه أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني وروى عنه درّاس بن إسماعيل.

كان فقيهاً جليل القدر عالماً باختلاف أهل المدينة واجتماعهم مهيباً مطاعاً، له حظّ وافر من الفقه والحفظ فكان من الحفّاظ المعدودين والفقهاء المبرّزين.

كان رئيس المالكية في وقته بالقيروان، وكان من أعظم المناهضين لحكم بني عبيد ومذهبهم، فسجنوه مدة ثم أطلقوا سراحه ومنعوه من الإفتاء وإسماع التلاميذ، ومنعوا الطلبة من الاجتماع حوله، فكان أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني وأبو محمد بن التبّان الفقيهان وغيرهما يأتون إليه خفية، وكانوا ربّما جعلوا الكتب في أوساطهم وحجرهم حتّى تبتلّ بعرقهم خوفاً منهم على أنفسهم من بني عبيد أن ينالوهم بمكروه[(١)].

*** أبو سليمان ربيع بن سليمان بن عطاء الله القرشي: (٢٨٨هـ - ٣٣٤هـ)** المعروف بالقطّان، من الفقهاء المعدودين والعبّاد المجتهدين والنسّاك أهل الورع والدين، كان عالماً بالقرآن وقراءته وتفسيره ومعانيه، حافظاً للحديث عالماً بمعانيه وعلله ورجاله وغريبه، معتنياً بالمسائل والفقه، فقيهاً مفتياً حسن التصرّف، عالماً بالوثائق.

اشتهر ربيع القطان بجودة الذهن والفقه الجيّد والضبط، وكانت له حلقة بجامع القيروان إذ كان لسان إفريقية في زمانه في الزهد والرقائق، لا يفوته في ذلك أحد في وقته.

وبعد أن رجع من الحجّ سنة **٣٢٤هـ** لزم الانقباض والاشتغال بنفسه

---

(١) ترتيب المدارك ٣/٣٠٤ - ٣١١، الديباج المذهب ص ٣٤٦ - ٣٤٧، رياض النفوس ٢/٢٨٣ - ٢٩٢، معالم الإيمان ٣/٢٣ - ٣١، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٣٠٠، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٠.

والتزم للإقراء في دكّانه الذي يبيع فيه القطن، وفيه كان يأتيه من يدرس عليه من الطلبة أم من يسأله ويستفتيه.

كان ربيع ممّن عقد الخروج لمحاربة بني عبيد في حصار المهديّة، وكان قد جعل على نفسه عهداً ألاّ يشبع من طعام ولا نوم حتى يقطع الله عزّ وجلّ دولة بني عبيد، فكانت رغبة بين عبيد ورجالهم أن يأخذوا ربيع حيًّا ليشفوا منه نفوسهم، فلمّا لقوه في القتال أقبل وهو يطعن فيهم ويضرب وهم يتوقّفون عنه رجاء القبض عليه حيًّا فلمّا أثخنهم بالضرب حملوا عليه فقتلوه وأخذوا رأسه فطيف به(١).

* أبو العباس عبدالله بن أحمد بن إبراهيم الأبياني: (٣٥٢هـ) تفقه بيحيى بن عمر وبغيره من أصحاب سحنون وبه تفقّه أهل مدينة تونس.

كان أبو العباس من شيوخ أهل العلم، وحافظ مذهب مالك، وله ميل إلى مذهب الشافعي، وكان عالم إفريقية غير مدافع، حسن الضبط جيّد الاستنباط، وكان ابن أبي زيد القيرواني إذا نزلت به نازلة مشكلة كتب إليه يبيّنها له.

لمّا ذهب إلى مصر تلقّاه نحو أربعين فقيهاً لم يكن فيهم أفقه منه، وقال أبو إسحاق ابن شعبان: ما يزال بالمغرب عالم ما دام بين أظهرهم، وما عدى النّيل منذ خمسين سنة أعلم منه(٢).

وفي أقصى المغرب نلقى:

* أبو ميمونة درّاس بن إسماعيل: (٣٥٧هـ) من أهل مدينة فاس، سمع من شيوخ بلده، وسمع بإفريقية من أبي بكر ابن اللباد وغيره، وسمع كذلك من شيوخ الأندلس وفقهائها، وبالإسكندريّة سمع الموّازية ـ كتاب محمد ابن المواز ـ حدّث بها بالقيروان وسمعها منه ابن أبي زيد القيرواني

---

(١) ترتيب المدارك ٣/٣٢٣ ـ ٣٣١، معالم الإيمان ٣/٣٥ ـ ٤٢، رياض النفوس ٢/٣٢٣ ـ ٣٤٦ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٣٤.

(٢) ترتيب المدارك ٣/٣٤٧ ـ ٣٥٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٠.

وأبو الحسن القابسي وغيرهما من أهل العلم.

كان أبو ميمونة من الحفّاظ المعدودين والأئمّة المبرّزين من أهل الفضل والدين، حافظاً للرأي على مذهب مالك، ولمّا نزل القيروان أطلع الناس من حفظه على أمر عظيم، حتى كان يقال: ليس في وقته أحفظ منه وقيل إنّه كان أحفظ أهل زمانه بمذهب مالك وأصحابه، وكان نزوله عند ابن أبي زيد.

رجع إلى فاس واستقرّ بها إلى أن توفّي سنة ٣٥٧هـ وقيل سنة ٣٥٨هـ، وهو أوّل من أدخل مدوّنة سحنون مدينة فاس وبه اشتهر مذهب مالك هنالك[(١)].

وبدرّاس تأسّس هذا الفرع الجديد من المركز الإفريقي الذي هو الفرع الفاسي، هذا الفرع الذي لم يتكوّن إلاّ في أوائل القرن الرابع الهجري، بهذا الفقيه الفاسي الذي افتتح به القاضي عياض سلسلة فرع المغرب الأقصى من فقهاء المالكيّة.

فكان درّاس الحلقة الأولى في سلسلة الفقهاء التي امتدّت ألف سنة، فتقوّم بها مركز نابه من مراكز التوجيه الإسلامي، اعتزّت به فاس بين عدوتيها: عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين[(٢)].

ومن مشاهير فقهاء فاس ومتقدّميهم كذلك خير الله بن القاسم الفاسي[(٣)].

وفي مدينة سبتة نلتقي بأبي الأصبغ عيسى بن علاء ابن نذير بن أيمن (٢٥٠هـ - ٣٣٦هـ) الذي سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ وطبقته من سنة ٣١٧هـ إلى سنة ٣٢٤هـ، ثمّ عاد إلى مسقط رأسه سبتة وولّي بها الصلاة

---

(١) ترتيب المدارك ٣٩٥/٤ - ٣٩٧، شجرة النور الزكيّة ص ١٠٣، تاريخ علماء الأندلس مج ٣، ج ٢٦٤/١.

(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: أعلام الفكر الإسلامي ص ٣٦.

(٣) ترتيب المدارك ٣٩٧/٤.

والقضاء، وكان فقيهاً عالماً ومحدّثا ضابطا، فسمع منه الكثير من أعلام أهل سبتة[١].

ونلتقي بمدينة سبتة أيضاً بأبي موسى عيسى بن سعادة السجلماسي (٣٥٥) الذي وشحّه عياض بقوله: «من فقهاء بلدنا ومشاهير المغرب»، وكان قد تلقّى العلم عن خير الله بن قاسم.

رحل في طلب العلم سنة ٣٠٣هـ، فطلب بالقيروان ومصر والأندلس، وحفظ الحديث وفاق فيه غيره، وكان في الحفظ عجبا.

ولمّا مات تنازع الفقهاء والمحدّثون كلّهم يدّعيه، ويقول: أنا أحقّ بالصلاة عليه[٢].

وفي **ليبيا** التي كان جميع أهلها على مذهب مالك حيث نشره فيهم الإمام سحنون الذي حطّ رحاله في مدينة إجدابيّة الليبيّة سنة ١٩١هـ عند عودته من رحلته المشرقيّة، فسمع منه أهلها، كما صرّح بذلك الإمام سحنون نفسه[٣] ثمّ توقّف بطرابلس ومكث بها مدّة لتعلّيم أهلها وإسماعهم المدوّنة[٤].

في هذه المنطقة من بلاد الغرب الإسلامي نلتقي بالكثير من أعلام المالكيّة في هذه المرحلة من هذا الدور، فنلقى منهم بمدينة **سرت**: **أبو حفص عبدالجبّار بن خالد السرتي (٢٨١هـ)** أحد عقلاء شيوخ إفريقيّة، وكان من أكابر أصحاب الإمام سحنون وعليه اعتماده، وكان سحنون إذا اجتمع إليه الناس للسماع منه لا يبدأ درسه حتى يحضر عبدالجبّار.

كان صاحبا لحمديس القطّان، وبهما يضرب المثل في الفضل والدين، إلاّ أنّ عبدالجبّار كان أنبه وأفهم لمعاني العلم والفقه من حمديس.

---

(١) المصدر السابق ٥٣٩/٤.

(٢) نفس المصدر ٥٣٩/٤ ـ ٥٤٠.

(٣) طبقات أبي العرب ص ١٨٦، ترتيب المدارك ٥٨٧/٢.

(٤) ترتيب المدارك ٥٩١/٢.

كان ذا رئاسة في العلم ونظر تام، عالماً واسع العلم، درّس العلم حتّى كاد يبلغ مبلغ سحنون، وعنه أخذ أبو بكر ابن اللبّاد وغيره من أعلام إفريقيّة[١].

وفي **برقة** نلقى الفقيه أبو محمد عبدالله بن إسماعيل البرقي (٣١٧هـ) وكان من أهل الفقه والأدب، صاحب مناظرة حسنة وحفظ جيّد، غلب عليه في آخر عمره الورع والزهد وأشرب قلبه الخوف من الله، فكان دائم البكاء ولسانه يلهج بتعظيم الله وتحميده، وكان يختم القرآن في كلّ يوم ختمة.

وفي سنة وفاته خلاف كبير، فحكى ابن حارث الخشني أنّه توفي سنة ٣١٠هـ، وذكره المالكي في وفيات سنة ٣٢٢هـ، ونقل عن القاضي عياض في إحدى روايتين أنّ وفاته كانت سنة ٣١٧هـ[٢].

وفي مدينة **تاهرت** الجزائريّة ـ وكان قد خرّبها الفاطميون ـ نلقى أبو العبّاس فضل بن نصر التاهرتي المعروف بابن الرايس، كان فقيهاً صالحاً عالماً بمذهب الشافعي، وكان له حظّ من قيام الليل، فكان يصلّي كلّ ليلة بثلث القرآن، وكانت وفاته سنة ٣٤٤هـ، وقيل سنة ٣٤٥هـ، وصحّح ابن ناجي القول الأول[٣].

وكذلك الأمر في سائر مدن ومناطق هذا المركز الفقهي، ففي كلّ موقع تجد عالماً ينشر علماً، وفي كلّ بقعة تجد فقيهاً يملي درساً، وفي كلّ مسجد تجد طلبة يستفرغون الوسع ويبذلون الجهد في جمع أنواع العلوم واستيعاب شتّى الفنون.

وهكذا فرغم سياسة بني عبيد الفاطميين القائمة على اضطهاد أعلام

---

(١) رياض النفوس ٤٦٣/١ ـ ٤٧٠، فقهاء قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٩٧، معالم الإيمان ١٨٥/٢ ـ ١٩٢، ترتيب المدارك ٢٦٠/٣ ـ ٢٦٣.

(٢) قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٣٣، ترتيب المدارك ٣٦٢/٣، رياض النفوس ٢٠٠/٢ ـ ٢٠١.

(٣) رياض النفوس ٢/ ٤١٩ ـ ٤٢١، معالم الإيمان ٦٨/٣ ـ ٧٠.

المالكية ومحاولة إخماد أصواتهم والقضاء على مذهبهم، فلم يمنع ذلك من ظهور أفذاذ من أتباع المذهب المالكي بهذه البلاد خلال هذه المرحلة من تاريخ الفقه الإسلامي، وبذل عدد كبير منهم كلّ ما في وسعهم من أجل حماية وجودهم وإثبات جذورهم باعتبارهم أتباع أعظم مذهب من حيث الانتشار والقبول بهذه البلاد، فنبغ الرجال الذين ازدحمت بهم تراجم أصحاب الطبقات كما ازدحمت بهم مساجد وجوامع هذا المركز المغربي.

ولم يقتصر نشاط حركة الفقه على الرجال فقط بل شملت كذلك النساء الفقيهات من أمثال خديجة بنت سحنون التي كانت من أحسن النساء وأعقلهنّ[١]، وغيرها من المتفقّهات في هذه المرحلة من أمثال بنت القاضي عيسى بن مسكين وبنات أخيه اللائي كنّ يتعلّمن القرآن والعلم عليه[٢]، وغيرهنّ كثيرات.

أمّا **صقليّة** فقد كان ظهور المذهب المالكي بها في بدايات هذه المرحلة عن طريق قضاة صقليّة الذين كانوا يفقهون الناس على مقتضى المذهب المالكي، أو عن طريق بعض أعلام المالكيّة الذين كانوا يخرجون إلى صقليّة ويستقرّون بها ونذكر من هؤلاء:

القاضي أبو الربيع سليمان بن سالم القطان: (٢٨٩هـ) المعروف بابن الكحالة، من أصحاب سحنون ومن مشائخ إفريقية، وكان الغالب عليه الرواية والتقييد، وله تأليف في الفقه يعرف بكتاب السليمانية، ولاّه عبدالله بن طالب قضاء باجة ثمّ ولّي قضاء صقليّة سنة ٢٨١هـ، فنشر بها علماً كثيراً، وعنه انتشر الفقه المالكي بصقليّة، ولم يزل عليها قاضيا إلى أن مات سنة ٢٨٩هـ[٣].

---

(١) ترتيب المدارك ١١٩/٣.

(٢) ترتيب المدارك ٢٢٧/٣.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٨، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٠٠ ـ ٢٠١، ترتيب المدارك ٢٣٣/٣ ـ ٢٣٤ الديباج المذهب ص ١٩٥، شجرة النور الزكية ص ٧١.

ولقمان بن يوسف (٣١٩هـ) الذي كان حافظاً لمذهب مالك حسن القريحة فيه، وكان قد تتلمذ على يحيى بن عمر وعيسى بن مسكين وغيرهما من أهل إفريقية، ورحل حاجّاً فسمع بمصر حديثاً كثيراً، ثمّ سكن جزيرة صقليّة أعواماً[١].

وأمّا أشهر أعلام الحنفيّة بإفريقية فمنهم:

عبدالله بن محمد بن الأشجّ: وقد كان مذهبه مذهب الكوفيين ـ كما ذكر ابن حارث الخشني ـ وكان من أهل الجدل والكلام على مذهبه[٢].

أحمد بن بحر: الذي قال عنه ابن حارث الخشني: «وكان قد جنح إلى مذهب العراقيين» وقد ولّي مظالم القيروان ثمّ ولّي قضاء طرابلس، ثمّ نقل إلى قضاء القيروان[٣].

القاضي أبو العباس محمد بن عبدون بن أبي ثور: **(٢٩٧هـ)** الذي كان من أعلام الحنفيّة بإفريقية، تلقّى علمه على القاضي سليمان بن أبي عمران **(٢٦٩هـ)**.

تولّى القضاء سنة ٢٧٥هـ، وكان ابن عبدون من كبار الكوفيين المتعصّبين لمذهب أبي حنيفة، فامتحن على يديه خلال فترة قضائه جماعة من فقهاء المالكيّة، ودارت عليهم منه محنة نتيجة للجدل المذهبي الذي كان على أشدّه بين فقهاء الحنفيّة الذين تحالفوا مع التيّار المعتزلي وبين فقهاء المالكية الذين وقفوا سدّا منيعا ضدّ القول بخلق القرآن، فما كان من ابن عبدون إلاّ أن أغرى الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي بأعلام المالكيّة، وأخافهم ونكّل بهم حتى توارى واختفى بعضهم، وفرّ البعض الآخر، ومازال ابن عبدون يطلب مخالفيه ويلاحقهم حتى كثرت اعتداءاته وفشا

(١) قضاة قرطبة وعلماء إفريقيّة ص ٢٢٤.
(٢) قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٥٠.
(٣) قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٩٣.

ظلمه، فعزله الأمير الأغلبي بعد ثلاثين شهراً من توليته، وقال: لو تركته لأحدثت له مقبرة(١).

ورغم ميل الكثرة الكاثرة من الفقهاء في هذه البلاد إلى مذهب مالك، والتزام البعض الآخر بمذهب أبي حنيفة، لم نعدم في هذه الديار خلال هذه المرحلة من الظفر ببعض الأتباع من أصحاب المذاهب السنيّة الأخرى، فقد ذكر القاضي عياض أنّه كان بالقيروان قوم قلّة أخذوا بمذهب الشافعي ودخلها شيء من مذهب داود(٢).

وأمّا أشهر أعلام الشيعة الإسماعليّة الذين نشطوا بهذه البلاد تحت رعاية الدولة العبيديّة فنذكر منهم:

القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي القيرواني: (٣٦٣هـ) المعروف بأبي حنيفة المغربي، كان مالكيّ المذهب ثمّ انتحل المذهب الإسماعيلي الشيعي وأخلص له حتّى عيّن قاضياً في عهد المهدي (٢٩٦هـ ـ ٣٢٢هـ) أوّل خلفاء بني عبيد الفاطميين، وتولّى قضاء طرابلس في عهد القائم (٣٢٢هـ ـ ٣٣٤هـ) ثاني خلفائهم، ثمّ جعله المنصور بالله (٣٣٤هـ ـ ٣٤١هـ) قاضي قضاة الدولة العبيديّة، وبقي على هذه الخطّة إلى حين وفاته بمصر في عهد المعزّ الفاطمي (٣٤١هـ ـ ٣٦٥هـ).

ألّف أكثر من عشرين مصنّفا من بينها: كتاب دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله، وهذا الكتاب عبارة عن موسوعة في الفقه وعلم الكلام عند الإسماعيليّة، وهو عمدة كتب الإسماعيليّة في الفقه، وله مختصر الآثار فيما روي عن الأئمة الأطهار، ألّفه بأمر من المعزّ لدين الله، وله الاقتصار والينبوع والإيضاح كلّها في فروع الفقه الإسماعيلي، وله افتتاح الدعوة وابتداء الدولة الذي ألّفه

---

(١) الجواهر المضية ١٨٩/٣، ترتيب المدارك ٢٣٣/٣، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٣٠٧، رياض النفوس ٥٠٠/١ و٤٣/٢ ـ ٤٤ و٦٧ و٣١٤.

(٢) ترتيب المدارك ٥٤/١.

سنة ٣٤٦هـ وموضوعه بداية الخلافة الفاطميّة، وله ردود على المخالفين، له ردّ على أبي حنيفة وعلى مالك وعلى الشافعي وعلى ابن سريج[(١)].

وبخروج الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦٢هـ عاد للمذهب المالكي نشاطه المعهود بهذه الديار، وأفشى شيوخه علمهم، وقام منهم جلّة بالاعتناء بالمذهب تصنيفا وتدريسا حتّى طار ذكرهم بجميع أقطار البلاد[(٢)].

فرجحت كفّة المذهب المالكي على كفّة أصحاب أبي حنيفة، حتى إذا كان عهد المعز ابن باديس الصنهاجي الذي حمل الناس والفقهاء على التزام مذهب مالك قلّ الاعتناء بالمذهب الحنفي وبدأ أتباعه في الانقراض بهذا المركز العلمي مع نهاية المرحلة الثانية من هذا الدور.

ـ ٦ ـ الأندلس:

كان رأي أهل الأندلس ـ كما سبق وأن بيّنا ـ منذ فتحت على رأي الإمام الأوزاعي، إلى أن رحل إلى الإمام مالك زياد بن عبدالرحمٰن اللخمي والغازي بن قيس وغيرهما من أهل طبقتهما، فحملوا عنه علمه، ثمّ تصدّروا عند عودتهم لتدريس مذهبه، إلى أن كان عهد هشام بن عبدالرحمٰن الداخل (١٧٢هـ ـ ١٨٠هـ) الذي حمل الناس جميعا على التزام مذهب مالك وصيّر القضاء والفتيا عليه، وشيخ المفتين يومئذ صعصعة ابن سلام إمام الأوزاعيّة وراويته[(٣)]، ومنذ ذلك الوقت غلب مذهب مالك على بلاد الأندلس.

وعرفت الأندلس كذلك المذهب الشافعي الذي يعزى انتشاره بها إلى

---

(١) تاريخ التراث العربي ٣٦٣/٣ ـ ٣٦٧، شذرات الذهب ١٥٣/٣ ـ ١٥٤، كشف الظنون ٥٧٧/١، هديّة العارفين ٤٩٥/٢، النجوم الزاهرة ١٠٦/٤ ـ ١٠٧، وفيات الأعيان ٤١٥/٥ وما بعدها تاريخ الدولة الفاطميّة لحسن إبراهيم ص ٤٧٤ ـ ٤٧٨.

(٢) ترتيب المدارك ٥٥/١.

(٣) ترتيب المدارك ٥٥/١.

ابن سيّار القرطبي، والمذهب الظاهري وكان أوّل من نشره بها عبدالله بن محمد بن قاسم بن هلال.

كما عرفت كذلك المذاهب الثلاثة السنيّة الأخرى: الحنفية والحنبلية والظاهرية، أدخلها قوم من الرحّالين والغرباء، غير أنّهم لم يتمكّنوا من نشرها فاندثرت تلك المذاهب بموتهم على اختلاف أزمانهم[(١)].

ومن أشهر أعلام المالكيّة بهذا القطر نذكر:

* **أبو عبدالله محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة (٣٣٠هـ)** الملقّب بالبربري، كان جلّ سماعه من عمّه محمد بن عمر بن لبابة، ثمّ رحل فسمع بالقيروان من حماس بن مروان.

كان فقيهاً مقدّما، من أحفظ أهل زمانه للمذهب، وله اختيارات في الفتوى والفقه خارجة عن المذهب، وله في الفقه كتب مؤلفة منها: المنتخبة الذي ألّفه على مقاصد الشرح لمسائل المدوّنة، جمع فيه روايات المذهب وشرح مستغلقها وفرّع وجوهها، وقد أثنى عليه ابن حزم الفارسي بقوله: ليس لأصحابنا مثله.

ولي قضاء البيرة والشورى بقرطبة، ثمّ أسقطت منزلته من الشورى والعدالة وألزم بيته ومنع من الإفتاء، فأقام على ذلك وقتا، ثمّ أعيد لخطّة الشورى وبقي بها إلى أن مات[(٢)].

* **أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن يحيى بن يحيى بن يحيى (٢٨٤هـ ـ ٣٣٩هـ)** المعروف بابن أبي عيسى من بيت يحيى بن يحيى منتهى النباهة والرئاسة في العلم، سمع بقرطبة من عمّ أبيه عبيدالله، ومن محمد بن لبابة وغيرهما.

---

(١) ترتيب المدارك ٥٥/١.

(٢) ترتيب المدارك ٣٩٨/٤ ـ ٤٠٣، الديباج ص ٣٤٨، جذوة المقتبس ص ٥٩ و٩١، تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٧٠٦ ـ ٧٠٧، بغية الملتمس مج ١٤، ج ١، ص ١٨٦.

رحل سنة ٣١٢هـ فحجّ وسمع من ابن المنذر وغيره، والتقى بجماعة من العلماء عند مروره بإفريقية ومصر.

كان حافظاً للرأي معتنيا بالآثار جامعا للسنن، ولم يزل في حداثة سنّه مشهوراً بضل، ظاهر السؤدد، طالباً للعلم، مجمعاً على تفضيله حتّى تقلّد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٢٦هـ، فالتزم الصرامة في قضائه في تنفيذ الحقوق وإقامة الحدود والكشف عن أحوال الشهود والصدع بالحقّ في السرّ والجهر، ولم يداهن ذا قدر ولا أغضى لأحد من أصحاب السلطان عن هنة حتى تحاموا جانبه، فلم يكونوا يطمعون فيه، وله في التقصّي عن إخراج الحقوق من أكابر الناس أخبار كثيرة.

كان يذهب أحسن المذاهب، بسط الحقّ وأحي العدل ونصر المظلوم وقمع الظالم، ولم يطمع شريف في حيفه ولا ييئس وضيع من عدله، ولم يكن الضعفاء قطّ أقوى قلوبا ولا ألسنة منهم في أيّامه مع لطافة برّه وكثرة بشره.

توفّي وله من العمر ٥٤ سنة ودفن بطليطلة[1].

* **أبو محمد قاسم بن أصبغ بن محمد (٢٤٧هـ - ٣٤٠هـ)** ويعرف بالبيّاني، نسبة إلى بيانة من أعمال قرطبة، سمع من بقيّ بن مخلد وأصبغ بن خليل وغيرهما من أعلام الأندلس، ورحل إلى المشرق مع محمد ابن عبدالملك بن أيمن (٣٣٠هـ) فسمع بمكّة من ابن الصائغ، وبالعراق من القاضي إسماعيل وعبدالله بن أحمد بن حنبل وآخرين من طبقتهما، وبمصر من أبي الزنباع روح بن الفرج وغيره، ثمّ عاد إلى الأندلس بعلم كثير وسكن قرطبة فكان له بها قدر عظيم وسمع منه الناس ومالوا إليه.

كان بصيراً بالحديث والرجال، وغلبت عليه الرواية والسماع، وطال

(١) ترتيب المدارك ٤/٤٠٥ - ٤١٢، الديباج ص ٣٦١، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٧٢ - ١٧٥، تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٧١٨ - ٧١٩.

عمره فلحق الأصاغر فيه الأكابر، وشارك الآباء فيه الأبناء، وكانت الرحلة إليه بالأندلس، وهو مذكور في أئمة المالكيّة.

صنّف في الحديث مصنّفات كثيرة، وله كتاب في أحكام القرآن صنّفه على منوال كتاب القاضي إسماعيل، وله كتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن، وغيرها من الكتب.

تغيّر ذهنه قبل ثلاث سنوات من وفاته، وتوفّي وله من العمر اثنتان وتسعون سنة(١).

*** أبو عيسى يحيى بن عبدالله بن يحيى بن يحيى الليثي (٢٦١هـ - ٣٤٦هـ)** سمع من عمّ أبيه عبيدالله بن يحيى ومحمد بن لبابة وطبقتهما، وعمّر إلى أن كان آخر من حدّث عن عبيدالله.

رحل إليه الناس من جميع الأندلس لرواية الموطّأ وحديث الليث وكتاب سماع ابن القاسم وتفسير عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم وعشرة جدّه يحيى الليثي، وهي كتب عشرة تلقّاها يحيى بن يحيى الليثي عن زياد بن عبدالرحمٰن المعروف بشبطون، وكان يحضر إليه لسماع الموطّأ أكثر من خمسمائة تلميذ.

تفرّد بالقضاء والنظر في الأحباس فأدنى الضعيف وثبت في الحكم وتحفّظ من شهود زمانه وتواضع في أمره وتعفّف، وكان جليل القدر عالي الدرجة في الحديث حمد الناس أحكامه وجميع أحواله.

وفي تاريخ ميلاده ووفاته خلاف كبير(٢).

---

(١) جذوة المقتبس ص ٣١١ - ٣١٢، الديباج ص ٣٢١ - ٣٢٤، طبقات المفسّرين ص ٣٢٤ - ٣٢٥، كشف الظنون ٦٥٨/٥، نفح الطيب ٤٧/٢ - ٤٩، معجم الأدباء ٢١٩٨/٥، تذكرة الحفاظ ٨٥٣/٣ - ٨٥٥، تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٦١١ - ٦١٣.

(٢) ترتيب المدارك ٤١٢/٤ - ٤١٤، الديباج ص ٤٣٤، شذرات الذهب ١٧٥/٣.

* **محمد بن أحمد بن عبدالله ـ ويقال أحمد بن عبدالله ـ بن أحمد الأموي (٣٥٠هـ)** القرطبي المعروف باللؤلؤي ـ صناعة أبيه ـ كان أفقه أهل زمانه بعد موت ابن أيمن، ومن أحفظهم لمذهب مالك، وكان قد برع في علم السنن وتقدّم في الفتيا وأخذ من جميع العلوم بنصيب وافر.

كان كثير الرواية جيّد القياس صحيح الفطنة عالماً بالاختلاف، وكان من أهل الحدس الصادق والرأي المصيب(١).

* **أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن مسرة التجيبي (٣٥٢هـ)** طليطلي الأصل، سكن قرطبة لطلب العلم ثمّ استوطنها، وسمع بها من ابن لبابة وابن أيمن وقاسم بن أصبغ وغيرهم، وكان أكثر أخذه عن ابن لبابة وبه تفقه.

كان مجتهداً، من أهل العلم والفهم والعقل والدين المتين والزهد والتقشّف والبعد عن السلطان، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان متصرّفا مع الحقّ حيث ما تصرّف.

كان من الراسخين في العلم، حافظاً للفقه على مذهب مالك وأصحابه، متقدّماً فيه، صدراً في الفتوى، وكان يناظر عليه في الفقه.

لم يكن في عصره أبين منه خيرا، ولا أكمل ورعا، من المشاهير في الجمع والعلم والحفظ، من مصنّفاته: معالم الطهارة، والصلاة، والنصائح.

كانت وفاته بطليطلة سنة ٣٥٢هـ، وقيل سنة ٣٥٤هـ، وسنّه خمس وسبعون سنة، ولمّا ورد خبر موته على أمير الأندلس الحكم الثاني المستنصر قال: الحمد لله الذي كفانا شرّه وخلّصنا منه، لخوفه منه وطوع العامّة له(٢).

---

(١) ترتيب المدارك ٤/٤١٤ ـ ٤١٨، الديباج ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠، شجرة النور الزكية ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) ترتيب المدارك ٤/٤٢٤ ـ ٤٢٩، الديباج ص ١٥٧ ـ ١٥٨، جذوة المقتبس ص ١٥٨، شجرة النور الزكيّة ص ٩٠.

هذا، وقد حفل كتاب المدارك لعياض بترجمة جمع وافر لأعلام الفقه بالأندلس خلال هذه المرحلة، فذكر أكثر من تسعين ترجمة من أصحاب الطبقة الخامسة[١]، وأكثر من سبعين ترجمة من أصحاب الطبقة السادسة[٢] من أبناء قرطبة وطليطلة ومالقة وإشبيليّة وبطليوس ومرسيه وبلنسية وغيرها من عواصم الحضارة الإسلاميّة بالأندلس.

وكان أغلبهم من أهل العلم والعناية، ومن أحفظ أهل زمانهم لمذهب مالك، ومن أصحاب التصرّف في الفقه والتوسّع في الرواية، ممّن تقدّموا في الفتيا، وأخذوا منها بنصيب كبير وحظّ وافر، حتّى سارت بأنحاء الأندلس أخبارهم، وعرفت بها آراؤهم وأفكارهم، وحمدت في ذات الله مآثرهم وآثارهم.

ولولا خوف الإطالة لأتينا منهم بجمع غفير.

وأمّا المذهب الشافعي فيعزى انتشاره في الأندلس إلى:

* **قاسم بن محمد بن قاسم بن سيّار الأموي (٢٧٦هـ)** القرطبي، له رحلتان إلى المشرق أقام في إحداهما اثني عشر عاما، وفي الأخرى ستّة أعوام، تفقّه على الحارث بن مسكين ومحمد عبدالله بن عبدالحكم والقاضي إسماعيل بن إسحاق وغيرهم، ولزم ابن عبدالحكم والمزني للتفقّه والمناظرة، حتّى برع في الفقه، ومال إلى قول الشافعي وتحقّق بمذهبه دون تقليد له.

لمّا عاد إلى الأندلس اعتنى بنشر المذهب الشافعي، وكان يفتي بمذهب مالك ويتحفّظ كثيراً من مخالفة المالكيّة، فقال له تلميذه أحمد بن خالد: أراك تفتي الناس بما لا تعتقد؟ وهذا لا يحلّ لك، فقال: إنّما يسألونني عن مذهب جرى في البلد يعرف فأفتيهم به، ولو سألوني عن مذهبي أخبرتهم.

(١) ترتيب المدارك ٣٩٧/٤ ـ ٤٦٣.

(٢) المصدر السابق ٥٤١/٤ ـ ٥٨٤.

صنّف كتاب الإيضاح في الردّ على ابن مزين والعتبي المالكيين وسمّاه الإيضاح في الردّ على المقلّدين، وكان يميل إلى النظر والاجتهاد وترك التقليد.

سأله ابنه أن يوصيه فقال: أوصيك بكتاب الله، فلا تنس حظّك منه، واقرأ منه كلّ يوم جزءا، واجعل ذلك عليك واجباً، وإن أردت أن تأخذ من هذا الأمر بحظّ - يعني الفقه - فعليك برأي الشافعي فإنّي رأيته أقلّ خطأ.

روى عنه ابنه محمد، ومحمد بن عمر بن لبابة، وأسلم بن عبدالعزيز، وأحمد بن خالد وابن أيمن وغيرهم وفي تاريخ وفاته خلاف، فقيل سنة ٢٧٦هـ وقيل سنة ٢٧٨هـ وقيل سنة ٢٧٧هـ[(١)].

* **أبو زكرياء يحيى بن عبدالعزيز (٢٩٥هـ)** المعروف بابن الخرّاز، سمع من العتبي ونظرائه بالأندلس ثمّ رحل إلى مصر فتلقّى عن المزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم وغيرهم.

عاد إلى قرطبة فنشر بها مختصر المزني ورسالة الشافعي، وكان يميل في فقهه إلى مذهب الإمام الشافعي وأخذ الناس عنه بالقيروان العتبيّة[(٢)].

* **أبو الخيار هارون بن نصر القرطبي (٣٠٢هـ)** لازم بقيّ بن مخلد نحوا من أربع عشرة سنة وأكثر الرواية عنه، وتتلمذ كذلك على قاسم بن محمد، كان من أهل النظر والحجّة، وكان يميل إلى كتب الإمام الشافعي فاعتنى بها وحفظها وتفقّه فيها، وكان محمد بن عمر بن لبابة يثني على أبي الخيار[(٣)].

---

(١) جذوة المقتبس ص ٣١٠، شذرات الذهب ٢/٣٣٥، الديباج ص ٣٢٠ - ٣٢١، طبقات الشافعية الكبرى ٢/٣٤٤ - ٣٤٥، تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٥٩٧ - ٦٠٠، نفح الطيب ٢/٥٠ - ٥١، بغية الملتمس مج ١٥، ج ٢، ص ٥٨٧.

(٢) تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٩٠٧ - ٩٠٩.

(٣) جذوة المقتبس ص ٣٤١، تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص.

* **أبو الجعد أسلم بن عبدالعزيز بن هاشم (٣١٧هـ)** تتلمذ بالأندلس على بقيّ بن مخلد وصحبه طويلا، وتتلمذ أيضاً على قاسم بن محمد، وغيرهما من رجال الأندلس، وكانت له رحلة سنة ٢٦٠هـ روى فيها بمصر عن الربيع بن سليمان وإسماعيل بن يحيى المزني صاحبي الشافعي، وسمع يونس بن عبدالأعلى ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم، وكان أسلم إذا أتى مجلس ابن عبدالحكم وقد كثر الناس فيه، يقول له: خلّف إلى ها هنا، فيدنيه ويكرمه، ولقي سليمان بن عمران بالقيروان.

ولمّا قضى أسلم بالمشرق حجّه وسماعه عاد إلى الأندلس فنال بها الوجاهة العظيمة والمنزلة الشريفة، وكان يميل إلى مذهب الشافعي.

كان عظيم القدر شريف البيت معروف النصيحة، مع الجلالة في العلم والإدراك في الرواية، والرحلة في الطلب، والصحّة في الديانة.

ولي قضاء الجماعة بالأندلس مرّتين في أيّام عبدالرحمٰن الناصر، كانت الأولى من سنة ٣٠٠هـ إلى سنة ٣٠٩هـ، فكان شديد المباينة في الحقّ قليل المداراة فيه، لا هوادة عنده لظالم، ولا مداهنة مع مبطل، من عيون القضاة في إيثار الحقّ ونفوذه، محمود السيرة، مشكور الحال.

ألحّ أسلم على الأمير في الاستعفاء من القضاء فعافاه منه، ثمّ ولاّه ثانية سنة ٣١٢هـ، فكان أسلم قد أدركه الوهن وأخذت منه السنّ فانكسر بعض الانكسار، غير أنّه باقي الفطنة مجتمع الفهم يقرأ عليه العلم وتعرض عليه الكتب من فنون الحديث وأبواب الفقه ما يشذّ على مثله من أهل السنّ، فكان على تلك الحال حتّى كفّ بصره وضعف بدنه وعجز عن التصرّف فعزله الأمير عن القضاء سنة ٣١٤هـ.

وكان رغم ميله لمذهب الشافعي يقضي بما عليه أمر الناس في قرطبة من مذهب مالك، وعدّه ابن فرحون من أعلام المالكيّة، وفي تاريخ وفاته

خلاف، فقيل توفّي سنة ٣١٧هـ، وقيل سنة ٣١٩هـ[١].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الأمير عبدالله (٣٣٩هـ) ابن عبدالرحمٰن الناصر صاحب الأندلس، كان فقيهاً شافعيّا وأديبا متنسّكا، وقد سمت نفسه إلى طلب الخلافة في حياة أبيه، وتابعه قوم وأخفوا أمرهم وبيّتوا على اغتيال والده وأخيه المستنصر وليّ عهد أبيه، فبلغ أباه الخبر فقتله ومن معه ممّن ناصره[٢]، ولو كتب لهذا الأمير أن يعتلي عرش الأندلس لربّما كان للمذهب الشافعي بتلك البلاد شأوا عظيما.

ومن أعلام الشافعيّة الذين وفدوا على الأندلس في هذه المرحلة:

* **أبو الطيّب محمد بن أبي أحمد بن إبراهيم بن أبي بردة البغدادي (٣٧٢هـ)** الذي دخل الأندلس سنة ٣٦١هـ فأكرمه الأمير المستنصر، وكان أبو الطيّب من أعلم الناس بمذهب الشافعي وأحسنهم قياما به، ولم يصل إلى الأندلس أفهم منه بالمذهب، غير أنّه قد أخرج منها بسبب آرائه التي تميل إلى الاعتزال[٣].

* **أبو القاسم عبدالله ـ وقيل عبيدالله ـ بن عمر بن أحمد بن محمد بن جعفر القيسي (٢٩٥هـ ـ ٣٦٠هـ)** الذي قدم الأندلس سنة ٣٤٧هـ، وكان فقيهاً على مذهب الشافعي إماماً فيه بصيراً به، عالماً بالأصول والفروع حسن النظر والقياس، وصنّف كتبا كثيرة في الفقه والحجّة والردّ والقراءات والفرائض، وقد استقرّ بقرطبة حتى توفّي بها[٤].

أمّا المذهب الظاهري فقد عرف بالأندلس في هذه المرحلة عن طريق:

---

(١) جذوة المقتبس ص ١٦٣، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٥٥ ـ ١٦٠ و١٦٢ ـ ١٦٣، الديباج ص ١٦٢ ـ ١٦٣، شذرات الذهب ٤٨٠/٢ ـ ٤٨١، تاريخ علماء الأندلس مج ٣، ج ١، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) طبقات الشافعيّة الكبرى ٣٠٩/٣ ـ ٣١٠.

(٣) تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٨٠٤ ـ ٨٠٥.

(٤) تاريخ علماء الأندلس مج ٣، ج ١، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٥.

* **أبو محمد عبدالله بن محمد بن قاسم بن هلال (٢٧٢هـ)** من أهل قرطبة، وقد كان أوّل من نشر المذهب الظاهري بالأندلس بعد أن تتلمذ على مؤسّسه داود الظاهري ببغداد ـ وكان من الدفعة الأولى المتخرّجين على هذا المذهب ـ وكتب عن داود الظاهري كتبه كلّها ودخل بها إلى الأندلس.

وكان عبدالله بن محمد بن قاسم قد نظر في علم الإمام مالك نظراً حسناً، ولقي المزني صاحب الشافعي وحدّث عنه، غير أنّه كان يميل إلى علم داود، فكان الأغلب عليه، وتقدّم فيه واجتهد في نشره.

حدّث عنه محمد بن عبدالملك بن أيمن وقاسم بن أصبغ ومحمد بن قاسم وغيرهم من الأندلسيين[1].

* **أبو الحكم منذر بن سعيد بن عبدالله البلوطي (٢٦٥هـ ـ ٣٥٥هـ)** الذي كانت له رحلة سنة ٣٠٨هـ دامت ثلاث سنوات وأربعة أشهر، أخذ خلالها بمكّة عن ابن المنذر كتابه في الاختلاف المسمّى كتاب الإشراف، وأخذ عن غيره من أعلام عصره، ولمّا عاد إلى قرطبة تولّى القضاء بعض أعمال الأندلس، ثمّ ولّاه عبدالرحمٰن الناصر سنة ٣٣٩هـ، قضاء الجماعة والصلاة فكان صارما غير هيوب ولا جبان، وبقي على القضاء إلى أن مات الأمير عبدالرحمٰن سنة ٣٥٠هـ، فلمّا ولّي الحكم المستنصر بالله، أقرّه على خطّتيه، فلم يزل قاضيا وصاحب صلاة، وكانت صلاته في جامع الزهراء طول فترة قضائه، فلم تحفظ له قضيّة جور ولا جرّبت عليه في أحكامه زلّة.

كان عالماً فقيهاً وأديباً بليغاً، وخطيباً على المنابر وفي المحافل مصقعا، قوّالاً للحقّ ناصحاً للخلق، فطناً مناظراً، ذكيًّا، بصيراً بالجدل، لهجا بالاحتجاج، مذهبه في الفقه مذهب النظّار والاحتجاج وترك التقليد، وكان عالماً باختلاف العلماء، يميل إلى رأي داود ويحتجّ له وكان قويًّا

---

(١) تاريخ علماء الأندلس مج ٣، ج ١، ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

على الانتصار لذلك، كثير التصانيف فمنها: كتاب الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله، وكتاب الإبانة عن حقائق أصول الديانة.

توفّي وله من العمر ٨٢ سنة، وقيل ٨٤ سنة[1].

وقد لقي مذهب أهل الظاهر معارضة شديدة من قبل أعلام المذهب المالكي بالأندلس، فهل سيكتب له النجاح بهذه البلاد، أم لا؟ ذلك ما يمكن أن نعرفه خلال الأدوار اللاحقة.

ـ ٧ ـ اليمن وبلاد الحجاز:

عرفت هذه الناحية من بلاد الإسلام خلال هذه المرحلة نكبات متتالية وأزمات متلاحقة، حيث اكتسحها الخوارج وعاث فيها القرامطة فسادا وإفسادا وصل بهم الأمر إلى انتزاع الحجر الأسود من موضعه بالكعبة المشرّفة، وحمله إلى إحدى زوايا «الإحساء» إلى سنة ٣٣٩هـ.

وكنتيجة طبيعيّة للأحداث الشنيعة التي عرفتها هذه المنطقة من العالم الإسلامي، هاجر الكثير من العلماء وذوي الشأن إلى المراكز الأخرى من بلاد الإسلام بحثا عن الأمن والاستقرار اللذان هما شرطان أساسيان من شروط تحقيق البناء الحضاري، وبفقدهما تصرف الطاقات العلميّة الخلاّقة عن غايات البناء الفكري، وتفتر الهمم وتضطرب العقول عن مراقي الإنتاج الخصب، ويعمّ البلاد الكساد والإهمال، ويبتلى الناس بخصم عنيد اسمه الفقر، فالسعيد منهم حينئذ من يتمكّن من مهاجرة دياره.

وهذا ما يفسّر لنا شحّ كتب الطبقات والتراجم التي جفّت مادتها عن مدّنا بأسماء أعلام هذا المركز خلال هذه المرحلة، وقصرت عن أن تشفي غليلنا في هذا المجال.

---

(١) جذوة المقتبس ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٧٥ ـ ١٧٦، شذرات الذهب ١١٦/٣ ـ ١١٧، تاريخ علماء الأندلس مج ٤، ج ٢، ص ٨٤٥ ـ ٨٤٧، معجم الأدباء ٢٧١٧/٦ ـ ٢٧٢٢، نفح الطيب ٣٧٢/١، هديّة العارفين ٤٧٢٩/٢.

ناهيك أنّ أعلام المذهب المالكي الذين سادوا الديار الحجازيّة منذ ظهور الإمام مالك، قد انقطع ذكرهم خلال هذه المرحلة، حتّى أنّ القاضي عياض بعد أن ترجم لعدد وافرمن أصحاب مالك المدنييّن ممّن كان لهم ظهور في العلم مدّة حياته وقاربت وفاتهم وفاته، ثمّ من بعدهم ممّن عرفوا بطول ملازمته وصحبته وشهروا بعده بتفقّههم عليه، ثمّ من صحبوه صغار السنّ وقاربوا أتباع أتباعه وفضلوا بشرف مجالسته وسماعه.

فبعد وفرة هؤلاء الأعلام، نراه يقتصر في الطبقات الموالية على ترجمة أربعة أعلام[١]، أو ترجمة علمين[٢]، وربّما اقتصر على ترجمة وحيدة يتيمة لم يتجاوز بها أربعة أسطر[٣].

ومن هؤلاء نذكر:

* **أبو القاسم محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالمؤمن**[٤] الذي سكن مكّة وكان يذهب مذهب مالك، روى عنه جملة من الناس من الراحلين وغيرهم منهم أبو الحسن القابسي.

* **أبو القاسم عبدالرحمٰن بن عبدالمؤمن**[٥] الذي هاجر مكّة ودخل العراق ثمّ سكن آخر أمره القيروان وصحب أبا محمد ابن أبي زيد وغيره من أئمّتها وناظرهم وذاكروه وأثنوا عليه وأخذوا عنه.

* **أبو إسحاق بن إبراهيم بن محمد الدينوري**[٦] الذي نزل مكّة ولزمها وكان فقيهاً مالكيّا، من جلّة العلماء، وكان حيّا بمكّة سنة **٣٧٢هـ** وقد نيف على الثمانين سنة.

(١) ترتيب المدارك ٤٦٤/٣ ـ ٤٦٥.
(٢) المصدر السابق ١٦٦/٣.
(٣) نفس المصدر ٥٥/٣.
(٤) ترتيب المدارك ٤٦٥/٤.
(٥) المصدر السابق.
(٦) نفس المصدر٤٦٤/٤.

* **أبو القاسم سليمان بن عليّ بن سليمان الجبلي**[١] من جبلة الحجاز، وكان مقيما بمكّة رأس الثلاثمائة، وكان فقيهاً مالكيّا من أهل العلم.

وهذا يعني أنّ نشاط الفقه المالكي بعد أن كان الغالب على هذه البقاع حتى بداية هذه المرحلة قد قارب الانقطاع في نهايتها ليفسح المجال للمذاهب الأخرى وخاصّة منها الشافعيّة والزيديّة.

فأمّا الشافعيّة فقد أخذ أعلامه يعنون بنشر مذهبهم، وكان في مقدّمتهم موسى بن عمران المعافري، وآل زرقان الذين كان من بينهم علماء عديدون عنوا بالفقه الشافعي، حتّى استغرق مكّة والمدينة.

ولم تبرح خطط القضاء والخطابة والإمامة بمكّة والمدينة منذ ظهور مذهب الشافعي بهذا المركز في أيدي الشافعيّة[٢].

وأمّا اليمن فكان الغالب على أهلها أيضاً مذهب الشافعي، لا يوجد بها غير شافعي إلاّ بعض زيديّة[٣] غير أنّ مذهب الزيديّة قد عمّ اليمن بعد ذلك واشتهر منهم بالخصوص:

* **أبو الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم (٢٩٨هـ)** الملقّب بالهادي إلى الحقّ، الذي نشأ بالحجاز ودانت له صنعاء بالولاء، ودعي له في الخطبة بالحرم المكّي، ولقّب بالخليفة، وكان صاحب تصانيف منها: تفسير القرآن، والجامع في الحلال والحرام والسنن والأحكام، والمنتخب في الفقه، وتفسير معاني السنّة، وكتاب السنّة، والقياس، وغيرها من المصنّفات الأخرى في العقيدة وأصول الدين[٤].

---

(١) نفس المصدر ٥٨٥/٤.

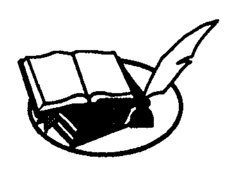
(٢) طبقات الشافعيّة الكبرى ٣٢٧/١.

(٣) طبقات الشافعيّة الكبرى ٣٢٧/١.

(٤) تاريخ التراث العربي ٣٣٥/٣ ـ ٣٤١، الأعلام ١٧١/٩، معجم المؤلفين ١٩١/١٣ ـ ١٩٢.

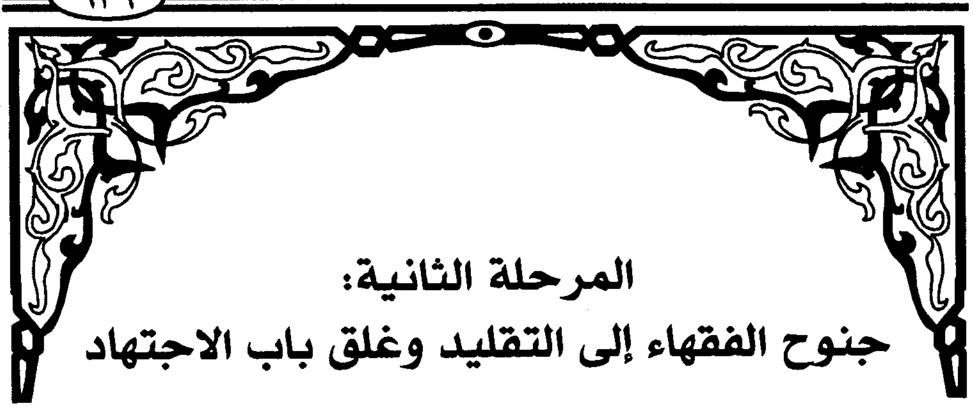
*** أبو القاسم محمد بن يحيى بن الحسين المرتضى لدين الله (٢٧٨هـ - ٣١٠هـ)** الذي ولد في صعدة ولزم أباه الهادي إلى الحقّ في اليمن[١].

*** أحمد بن يحيى بن القاسم الحسني الناصر لدين الله (٣٢٥هـ)** ابن الهادي إلى الحقّ[٢].



(١) تاريخ التراث العربي ٣٤٣/٣، الأعلام ٣/٨، معجم المؤلفين ١٠١/١٢.

(٢) تاريخ التراث العربي ٣٤٥/٣، الأعلام ٢٥٣/١، معجم المؤلفين ٢٠٢/٢.



المرحلة الثانية:
جنوح الفقهاء إلى التقليد وغلق باب الاجتهاد

بداية من منتصف القرن الرابع الهجري تقريبا توقّفت النبضات الأخيرة لعصر الاجتهاد، وعرف تاريخ التشريع الإسلامي نقطة فاصلة تمثّلت في توقّف التكوّن المستقلّ المبني على الاجتهاد والرجوع المباشر إلى القرآن والسنّة لاستنباط الأحكام والآراء الفقهيّة، كما كنّا نلحظه في بداية هذا الدور عند بقيّ بن مخلد وابن ميسر بالأندلس، وعند ابن الحدّاد بالقيروان، وعند ابن جرير الطبري وابن شجرة وأبي القاسم الداركي ببغداد، وعند ابن حبّان السمرقندي وابن خزيمة وابن المنذر النيسابوريين ببلاد خراسان وما وراء النهر، وعند غيرهم من أمثالهم، وأصبح نظر الفقهاء مقتصرا على مذهب معيّن لا يتعدّوه، ويبذلون ما في وسعهم في سبيل تأييد أفكاره، ونصرة آرائه، ولا يجيزون لأنفسهم بأيّ حال من الأحوال أن يخرجوا عن أراء المذهب الذي يتّبعونه، ويؤلّفون التآليف في ذكر مناقب أئمّتهم وتفضيلهم عمّن سواهم من أئمّة المذاهب الأخرى، وأصبح مدّعي الاجتهاد - كما قال ابن خلدون - مردود منكوص على عقبه مهجور تقليده[1]، وربّما شنّعوا على من ادّعى التخيّر لنفسه وعدم التقليد، وأنكروا عليه منهجه وتجديده، كما فعل أصبغ بن خليل ومحمد بن الحارث وابن مرتنيل - شيوخ

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٣٠.

المالكيّة بالأندلس - مع بقيّ بن مخلد[١].

وهكذا انصرف أغلب الفقهاء عن طلب الاجتهاد، وضعفت نفوسهم عن التعلّق به، وقصرت هممهم عن إدراكه، وسدّ الناس باب الخلاف وطرقه وصرّحوا بالعجز والإعواز، وأجري الخلاف بين المتمسّكين بالمذاهب الفقهيّة والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعيّة والأصول الفقهيّة[٢].

ناهيك أنّ قطبا من أقطاب الحنفيّة وأحد كبار أعلامها في هذه المرحلة، ممّن كانت الفتيا تدور عليه في وقته، قد صرّح بأنّ: «الأصل أنّ كلّ آية تخالف قول أصحابنا فإنّها تحمل على النسخ أو على الترجيح، والأولى أن تحمل على التأويل من جهة التوفيق»[٣]، وأنّ: «الأصل إنّ كلّ خبر يجيء بخلاف قول أصحابنا فإنّه يحمل على النسخ أو على معارض بمثله، ثمّ صار إلى دليل آخر أو ترجيح فيه بما يحتجّ به أصحابنا من وجوه الترجيح، أو يحمل على التوفيق، وإنّما يفعل ذلك على حسب قيام الدليل، فإن قامت دلالة النسخ يحمل عليه، وإن قامت الدلالة على غيره صرنا إليه»[٤].

وكان الأجدر والأنسب بإمام كالكرخي أن يردّ قول أصحابه إلى كتاب الله، وذلك هو الأولى به، لا أن يردّ الآية إلى قول أصحابه، فكأنّ قول أصحابه هو الأصل والآية فرع.

*** تدخّل السلطة السياسيّة لحصر العمل بالمذاهب الأربعة السنّية رسميّا:**

لمّا كثر تشعّب الاصطلاحات في العلوم، ولمّا عاق عن الوصول إلى

---

(١) انظر: ما تقدّم من ترجمة بقيّ بن مخلد.

(٢) المقدمة ص ٤٣٠ و٤٣٨.

(٣) أصول الكرخي ص ١٦٩.

(٤) المصدر السابق ص ١٦٩ - ١٧٠.

رتبة الاجتهاد، ولمّا خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه[١] لم يجد المخلصون ممّن أشربت قلوبهم حبّ هذا الدين وملأ الإخلاص جوانحهم، طريقة للتخلّص من ادّعاءات الاجتهاد الصادرة عن غير أهلها ممّن كانوا يتجرّؤون على الإفتاء بما لا يتّفق وأحكام الشريعة ومقاصدها، إلاّ بإلزام العامّة والخاصّة بالتقليد.

وبلغت هذه الحركة ذروتها في عهد الخليفة العبّاسي القادر بالله (٣٨١هـ - ٤٢٢هـ) الذي تقدّم إلى أربعة من أئمّة المسلمين في أيّامه في المذاهب الأربعة، وأمرهم أن يصنّف له كلّ واحد منهم مختصرا على مذهبه، فصنّف له أبو الحسن الماوردي (٤٥٠هـ) كتاب الإقناع - على مذهب الشافعي - وصنّف له أبو الحسن القدّوري (٤٢٨هـ) مختصره المعروف على مذهب أبي حنيفة، وصنّف له أبو محمد عبدالوهاب بن نصر المالكي (٤٢٢هـ) مختصرا آخر، ولم يعرف من صنّف له على مذهب أحمد، وعرضت تلك الكتب المصنّفة على الخليفة، فقبلها واستحسنها، وقال لقاضيه الماوردي: حفظ الله عليك دينك كما حفظت علينا ديننا[٢].

ولا يستبعد أن يكون القاضي الماوردي الشافعي هو صاحب الفكرة في ردّ الناس إلى تقليد المذاهب الأربعة، وتوجيه الناس إلى تقليدهم دون سواهم كما يفهم من كلام الخليفة له بعد أن عرضت عليه الكتب الأربعة، أو ربّما يكون قد هال القاضي ما عليه أمر الناس من ادّعاء بعضهم الاجتهاد دون مسوّغ شرعي، فرفع الأمر إلى الخليفة العبّاسي وبيّن له خطورة التصدّي للاجتهاد وصعوبة ادّعائه لتشعّب العلوم التي هي موّاده، وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة، فكلّفه الخليفة بانتخاب أربعة علماء يصنّفون في المذاهب الأربعة ليقتصر الناس على تقليدها ويمنع من تقليد سواهم.

(١) المقدّمة ص ٤٣٠.

(٢) معجم الأدباء ١٩٥٦/٥.

غير أنّ البعض يرى أنّ القول بسدّ باب الاجتهاد لم يكن بناء على مجلس عقده الفقهاء، أو قرار اتّخذه أحد الخلفاء، بقدر ما كان شعورا عامّا بالضعف والنقص، واتّفاقا ضمنيّا لصدّ دعاوي الاجتهادات الباطلة[(١)].

وأيّ كان الأمر، فقد وقف التقليد في أغلب الأمصار عند المذاهب الأربعة السنّية، وعمل كلّ مقلّد بمذهب من قلّده منهم بعد تصحيح الأصول واتّصال سندها بالرواية[(٢)].

غير أنّ الشيعة ومنها الإماميّة الإثنا عشريّة والزيديّة لم يعترفوا بهذا الإجراء الخطير في حياة تاريخ التشريع الإسلامي، واعتبروا أنّ الاجتهاد قائم في أئمّتهم، وأنّ الأرض لا تخلو طرفة عين من حجّة قائم بدين الله، يحلّ حلال الله ويحرّم حرام الله ويقيم حدود الله.

*** تشخيص أحد المعاصرين لهذه الفترة من تاريخ الإسلام للحال الذي آل إليه أمر العلماء:**

صوّر لنا ابن عبدالبرّ (٤٦٣هـ) ما آل إليه أمر العلماء في هذه الفترة من تاريخ الإسلام التي نحن بصددها، وهي المرحلة الثانية من هذا الدور، وما أصبح عليه حالهم من العزوف عن الاستنباط من القرآن والسنّة مباشرة، والتورّع والتهيّب من مخالفة من سبقهم من الأئمّة فقال[(٣)]: «اعلم رحمك الله أنّ طلب العلم في زماننا هذا، وفي بلدنا هذا، قد حاد أهله عن طريق سلفهم، وسلكوا في ذلك ما لم يعرفه أئمّتهم، وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم. . .، فلم يعنوا بحفظ السنّة ولا الوقوف على معانيها، ولا بأصل من القرآن، ولا اعتنوا بكتاب الله عزّ وجلّ، فحفظوا تنزيله وعرفوا ما للعلماء في تأويله، ولا وقفوا على أحكامه، ولا تفقّهوا في حلاله وحرامه، قد طرحوا علم السنن

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٦/٢.
(٢) المقدّمة ص ٤٣٠.
(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢٠٧/٢ ـ ٢٠٩.

والآثار وزهدوا فيهما وأضربوا عنهما فلم يعرفوا الإجماع من الاختلاف، ولا فرّقوا بين التنازع والائتلاف، **بل عوّلوا على حفظ ما دوّن لهم من** الرأي والاستحسان الذي كان عند العلماء آخر العلم والبيان...، ومن حجّتهم أنّهم يقصرون وينزلون عن مراتب من له القول في الدين لجهلهم بأصوله، وإنّهم مع الحاجة إليهم لا يستغنون عن أجوبة الناس في مسائلهم وأحكامهم، **فلذلك اعتمدوا على ما قد كفاهم الجواب فيه غيرهم**، **فهم** يقيسون على ما حفظوا من تلك المسائل ويفرضون الأحكام فيها، **ويستدلّون منه ويتركون طريق الاستدلال من حيث استدلّ الأئمّة وعلماء الأمّة**.

واعلم يا أخي أنّ المفرّط في حفظ المولّدات لا يؤمن عليه الجهل بكثير من السنن إذا لم يكن تقدّم علمه بها، وإنّ المفرّط في حفظ طريق الآثار دون الوقوف على معانيها، وما قال الفقهاء فيها، لصفر من العلم، وكلاهما قانع بالشمّ من المطعم.

واعلم يا أخي أنّ الفروع لا حدّ لها تنتهي إليه أبدا ولذلك تشعّبت، فمن رام أن يحيط بآراء الرجال فقد رام ما لا سبيل له، ولا لغيره إليه، لأنّه لا يزال يردّ عليه ما لم يسمع، ولعلّه أن ينسى أوّل ذلك بآخره لكثرته، فيحتاج أن يرجع إلى الاستنباط الذي كان يفزع منه ويجبن عنه تورّعا، **بزعمه أنّ غيره كان أدرى بطريق الاستنباط منه، فلذلك عوّل على حفظ قوله**».

ولكن رغم هذا التوجّه العام الذي ارتضاه الناس علماء وعامّة، وأقرّه الساسة، من دعوة عامّة إلى تقليد المذاهب المشهورة، لم نعدم في نفس الوقت وجود بقايا من أنصار الاجتهاد من العلماء المحقّقين العارفين بكتاب الله وسنّة رسوله، الداعون إلى الاشتغال بعلوم الاجتهاد، والعودة إلى المنابع الأصليّة وعدم الاستمرار على نقل الأقوال والاعتداد بها وتقعيدها، والجدل فيها والتفريع عليها، أو التخريج منها في أفضل الأحوال.

وهكذا لا نعدم كليّا في هذه المرحلة، كما هو الشأن في المرحلة السابقة من هذا الدور، وجود من يناصر الدعوة إلى الاشتغال بعلوم الاجتهاد، حتّى يوجد من يتأهّل من الأمّة للنظر والاجتهاد، ولا يكتفي بالوقوف تحت ربقة التقليد.

وهاك قول ابن عبدالبرّ دليل على ذلك، إذ يقول في جامعه[١]: «فعليك يا أخي بحفظ الأصول والعناية بها، واعلم أنّ من عني بحفظ السنن والأحكام المنصوصة في القرآن، ونظر في أقاويل الفقهاء فجعله عونا له على اجتهاده، ومفتاحاً لطرائق النظر، وتفسيراً لمجمل السنن المحتملة للمعاني **ولم يقلّد أحداً منهم تقليد السنن التي يجب الانقياد إليها** على كلّ حال دون نظر، ولم يرح نفسه ممّا أخذ العلماء به أنفسهم من حفظ السنن وتدبّرها، واقتدى بهم في البحث والتفهّم والنظر، وشكر لهم سعيهم فيما أفادوا ونبّهوا عليه، **وحمدهم على صوابهم الذي هو أكثر أقوالهم ولم يبرّئهم من الزلل كما لم يبرّؤوا أنفسهم منه**، فهذا هو الطالب المتمسّك بما عليه السلف الصالح، وهو المصيب لحظّه والمعاين لرشده، والمتبّع لسنّة نبيّه ﷺ، وهدي صحابته رضي الله عنهم، ومن أعف نفسه من النظر وأضرب عمّا ذكرنا وعارض السنن برأيه ورام أن يردّها إلى مبلغ نظره، فهو ضال مضلّ، ومن جهل ذلك كلّه أيضاً، وتقحّم في الفتوى بلا علم فهو أشدّ عمى وأضلّ سبيلا».

ولكنّ ابن عبدالبرّ لم ينكر التقليد على البعض، إذ يستحيل أن يجتمع الاجتهاد إلاّ في العلماء المحقّقين، وفي ذلك يقول[٢]: «ومن اقتصر على علم إمام واحد، وحفظ ما كان عنده من السنن ووقف على غرضه ومقصده في الفتوى، حصل على نصيب من العلم وافر وحظّ منه حسن صالح، فمن قنع بهذا اكتفى، والكفاية غير الغنى. . . ، ومن طلب الإمامة

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/٢١١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/٢٠٧.

في الدين وأحبّ أن يسلك سبيل الذين جاز لهم الفتيا نظر في أقاويل الصحابة والتابعين والأئمّة في الفقه إن قدر على ذلك، نأمره بذلك كما أمرناه بالنظر في أقاويلهم في تفسير القرآن، ومن أحبّ الاقتصار على أقاويل علماء الحجاز اكتفى واهتدى إن شاء الله، وإن أحبّ الإشراف على مذاهب الفقهاء متقدّميهم ومتأخّريهم بالحجاز والعراق، وأحبّ الوقوف على ما أخذوا وما تركوا من السنن، وما اختلفوا في تثبيته وتأويله من الكتاب والسنّة، كان ذلك مباحاً ووجهاً محموداً إن فهم وضبط ما علم، أو سلم من التخليط نال درجة رفيعة، ووصل إلى جسيم من العلم واتّسع ونبل إذا فهم ما اطّلع، وبهذا يحصل الرسوخ لمن وفّقه الله وصبر على هذا الشأن واستحلى مرارته واحتمل ضيق المعيشة فيه».

فلا مانع إذن من التقليد في حقّ من لم يتأهّل للنظر الاجتهادي، فوقف تحت ربقة التقليد ضرورة لا اختيارا وإنّما العيب كلّ العيب في أن يرزأ العالم الإسلامي بأكمله تحت ربقة التقليد، ويجبن من يأنس في نفسه القدرة على التصدّي للاجتهاد بعد أن امتلك وسائله وحصّل علومه، ويعزف عن الاستنباط، ويخلد إلى الأرض، وينسى أنّ الاجتهاد فرض.

*** جهود العلماء وعملهم في هذه المرحلة:**

نتيجة للوضع العام والتوجّه الغالب الذي ساد هذه المرحلة من هذا الدور، أصبح العمل الاجتهادي محصورا في النظر في الصور الحادثة المستجدّة فيما بعد عصر الأئمّة، وإدراجها تحت المسائل التي قرّروها وتطبيقها على تلك الأحداث بصورة أصبح عملهم يتمثّل في تطبيق الأقوال على المحال التي تنطبق عليها، وانصبّ اهتمامهم على تهذيب مصنّفات من سبقهم، واختصارها، أو شرحها مع التحليل والتعليل والترجيح.

وهكذا لم يقتصر نشاطهم في هذه المرحلة على استيعاب المصنّفات المشهورة ومعرفة ما هم مقلّدين فيه، وإنّما كان لهم من فضائل الأعمال ومحاسن الأفكار ما سما بمكانتهم وأعلى شأوهم.

وقد تجلّى ذلك بالخصوص في الأمور التالية:

- ١ - تعليل ما استنبط أئمّتهم من أحكام:

كان الأئمّة المجتهدون من أعلام الدور السابق قد جمعوا في مصنّفاتهم أحكاما كثيرة لم يذكروا عللها، فقام فقهاء هذه المرحلة بدراسة تلك المسائل ودقّقوا النظر فيها وعملوا على ضبط مواقع الاتّفاق والاختلاف بين تلك الأقوال العديدة، ممّا قد يتبادر أنّه مختلف مع كونه لا اختلاف فيه، أو قد يظنّ أنّه متّفق مع أنّه في حقيقته يؤول إلى الاختلاف، فردّوا الأشباه بعضها إلى بعض، وحدّدوا وجوه الفرق بين المختلف منها، وصوّروا النوازل والفتاوى التي تشتمل على بيان الوقائع الحادثة، وعلى بيان ما يراه الفقهاء المتأخّرون من رجال دور التطبيق من انطباق أو عدم انطباق لقول من الأقوال المأثورة من المصنّفات القديمة من دور التفريع على تلك الجزئيّة الحادثة[١].

وقاموا بتخريج مناط الأحكام واستخراج عللها ليتمكّنوا من القياس، وقد يختلفون في استنباط العلّة، فتختلف الأحكام المبنيّة على مقتضى الاستنباط، وقرّر بعضهم القواعد الأصوليّة على مقتضى ما نقل إليهم من الفروع الفقهيّة، كما هو الشأن عند الحنفيّة الذين كثرت عندهم المسائل المقدّرة والمفترضة، في حين لم يلتفت غيرهم إلى الفروع أوّلا، وإنّما اهتمّوا بتحقيق القواعد وتقريرها وإقامة الأدلّة عليها مجرّدة بصرف النظر عن كون هذه القواعد متّفقة مع فروع المذهب أو مخالفة لها، كما هو الشأن عند الشافعيّة ومن نهج نهجهم من المالكيّة والحنابلة.

- ٢ - الترجيح بين الآراء المتعدّدة في المذهب:

إنّ تعدّد الآراء واختلاف النقول والروايات عن الأئمّة إنّما نشأ بالأساس نتيجة مراجعة الأئمة لفتاويهم باستمرار، والرجوع عمّا كانوا قد أفتوا به إذا ظهر لهم الحقّ على خلاف ما قالوا، وليس في ذلك ما يعيب المجتهد أو يشينه، بل هو دليل على شدّة ورعه وحسن تديّنه، وكذلك

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٧٨، بتصرّف.

لاختلاف التلاميذ في ملازمة أئمّتهم والمواظبة على حضور مجالس شيوخهم من ناحية أخرى.

فكان ترجيح العلماء بين تلك الأقوال والنقول باعتبارين:

*** الأول: باعتبار الاختلاف في النقل عن إمام المذهب: ذلك أنّ الروايات المنقولة عن أئمّة المذاهب والسماعات المدوّنة عنهم قد اختلفت من راو إلى آخر، ومن تلميذ إلى تلميذ.**

وعن طريق هذا الاختلاف الناشىء بين الرواة في النقل توسّعت دائرة الاختلاف داخل كلّ مذهب من المذاهب، وظهر ذلك خصوصا في المصنّفات والكتب الجامعة التي ضمّت أقوال الأئمّة وروايات أصحابهم عنهم، فكان جهد العلماء في هذه المرحلة من هذا الدور منصبًا على النظر في تلك النقول والعمل على الترجيح بينها، فرجّح الحنفيّة مثلاً كتب ظاهر الرواية المسمّات بالأصول، لأنّها رويت عن محمد بن الحسن برواية الثقات، فهي إمّا متواترة أو مشهورة، ولم يكن لزفر وللحسن بن زياد ما كان لأبي يوسف ومحمد بن الحسن من جهة الرواية، ورجّح المالكيّة رواية ابن القاسم، ونوّهوا بالمدوّنة المرويّة عن سحنون عن ابن القاسم، ورجّح الشافعيّة رواية الربيع المرادي على رواية المزني مع علوّ قدر المزني علماً وجلالة.

*** الثاني: باعتبار تعارض الأقوال في المسألة الواحدة عن المجتهد الواحد: وذلك بأن ينقل عن إمام المذهب الواحد في حكم مسألة قولان متنافيان، فلا يخلو إمّا أن يكون القولان قد صدرا عنه في مجلس واحد أو في مجلسين.**

فإن كان قد صدر عنه القولان في مجلس واحد واقترن بأحدهما ما يرجّحه أو فرّع على أحد القولين ولم يفرّع على القول الآخر، كان القول الذي فرّع عليه واقترن به ما يرجّحه هو مذهب الإمام واعتبر القول الآخر مرجوحا عنه.

وأمّا إن صدر القولان عنه في مجلسين مختلفين، فإن علم تقدّم

أحدهما بخصوصه، كان القول المتأخّر مذهباً له، واعتبر القول المتقدّم مرفوعا عنه، وإن لم يعلم تقدّم أحدهما حكي القولان عنه في المسألة(١).

ـ ٣ ـ الانتصار للمذهب:

وقد أخذ هذا الانتصار أشكالاً مختلفة:

* **أوّلها: التأليف في مناقب أئمة المذاهب**(٢): حيث قال أصحاب المناقب ينبغي لكلّ مقلّد إمام أن يعرف حال إمامه الذي قلّده، ولا يحصل ذلك إلاّ بمعرفة مناقبه وشمائله وفضائله وسيرته في أحواله وصحّة أقواله، ثمّ إنّه لا بدّ من معرفة اسمه وكنيته، ونسبه وعصره وبلده، ثمّ معرفة أصحابه وتلامذته، فألّف كلّ من علماء المذاهب كتبا في مناقب إمامه، وربّما ذكر بعضهم مناقب إمامه في أوائل كتبهم أو أواخرها.

فصنّف جماعة عن الحنفيّة في مناقب إمامهم أبي حنيفة، منها تأليف أبي عبدالله حسين بن عليّ الصيرمي (٤٣٦هـ) وكان قد فرغ منه سنة ٤٠٤هـ، ومختصر أبي الحسين أحمد القدّوري، حيث ذكر مناقب أبي حنيفة في أوّل شرحه لمختصر الكرخي.

وكذلك فعل المالكيّة مثل ابن عبدالبرّ في كتابه الانتقاء، وأبو عمر أحمد الطلمنكي (٤٢٩هـ) والقاضي أبو الوليد الباجي (٤٧٤هـ).

وذكر حاجي خليفة في مناقب الإمام الشافعي تصانيف كثيرة، منها في هذه المرحلة من هذا الدور، كتاب لأبي الحسين محمد بن عبدالله الرازي (٤٥٤هـ) وكتاب لأبي عبدالله ابن شاكر القطّان (٤٠٧هـ) الذي جمع ما انتهى إليه من فضائل الشافعي، وكتاب للإمام أحمد بن حسين البيهقي (٤٧٨هـ) وكتاب لأبي محمد بن الفرات إسماعيل بن أحمد الهروي

(١) التعارض والترجيح عند الأصوليين وأثرهما في الفقه الإسلامي ص ٨٢.

(٢) كشف الظنون ٢/٦٧٢ ـ ٦٧٥.

السرخسي (٤١٤هـ) وكتاب لأبي عليّ الحسن بن الحسين بن حمكاه الهمداني(٤٠٥هـ) وكتاب لأبي عبدالله محمد بن عبدالله (٤٠٥هـ) المعروف بالحاكم النيسابوري، وصنّف في مناقب الإمام أحمد بن حنبل في هذه المرحلة، أحمد البيهقي (٤٥٨هـ).

وبدون شكّ فإنّ الكثير من الأعلام قد وضعوا المصنّفات في هذا المجال، قبل هذه المرحلة من هذا الدور، كما أنّ الكثير منهم قد صنّف في الأدوار الموالية، إلاّ أنّه حسب ما جاء في القائمة التي أوردها حاجي خليفة يبدو أنّ هذا الدور هو أكثر الأدوار غزارة في هذا الفنّ.

وممّا يظهر الروح العلميّة المنصفة، المتّسمة بالموضوعيّة أنّ بعض العلماء المحقّقين الذين كانوا ينتمون إلى هذا المذهب أو ذاك، قد ألّفوا في فضائل جمع من الأئمّة، كما فعل ابن عبدالبرّ في كتابه الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمّة الفقهاء: مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم[١]، وكما فعل القاضي أبو بكر الباقلاني (٤٠٣هـ) في كتابه مناقب الأئمّة[٢].

* **ثانيها: التأليف في مواطن الخلاف بين أئمّة المذاهب**: قال ابن خلدون في تعريف هذا العلم وبيان أسباب ظهوره «وأمّا الخلافيات، فاعلم أنّ هذا الفقه المستنبط من الأدلّة الشرعيّة كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم...، واتّسع ذلك في الملّة اتّساعا عظيما، وكان للمقلّدين أن يقلّدوا من شاؤوا منهم، ثمّ لمّا انتهى ذلك إلى الأئمّة الأربعة من علماء الأمصار، وكانوا بمكان من حسن الظنّ بهم، اقتصر الناس على تقليدهم، ومنعوا من تقليد سواهم لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعّب العلوم التي هي موادّه باتّصال الزمان وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة، فأقيمت هذه المذاهب الأربعة على أصول الملّة،

(١) ترتيب المدارك ٨٠٩/٤.
(٢) كشف الظنون ٦٧٥/٢.

وأجري الخلاف بين المتمسّكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعيّة والأصول الفقهيّة[١].

وصنّفوا الكتب في الردّ والانتقاد على من انتقد مذهبهم، أو خالف آراءهم من أئمّة المذاهب، وأحصوا عليهم المسائل التي يرون أنّهم خالفوا فيها الأدلّة الشرعيّة من القرآن والسنّة النبويّة، ككتاب الردّ على الشافعي فيما خالف فيه القرآن للحسن بن أحمد المقّري، وكتاب الردّ على من ردّ على أبي حنيفة للحافظ أبي بكر بن أبي شيبة[٢]، وصنّف أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر البغدادي (٤٢٩هـ) مختصرا ردّ فيه على الجرجاني الحنفي الذي انتقد الإمام الشافعي[٣].

ولإمام الحرمين الجويني (٤٧٨هـ) كتاب يختصّ بمسألة ترجيح مذهبه على سائر المذاهب، بيّن فيه أنّه الذي يجب على كلّ مخلوق الاعتزاء إليه وتقليده ما لم يكن مجتهداً[٤].

واشتهر أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني (٣٨٦هـ) بالذبّ عن مذهب مالك والقيام بالحجّة له، فهو الذي لخّص المذهب وضمّ كسره وذبّ عنه، وصنّف كتاب الذبّ عن مذهب مالك[٥]، وأبو بكر محمد بن عبدالله بن صالح الأبهري (٣٩٥هـ) صاحب التصانيف في الاحتجاج لمذهب مالك والردّ على من خالفه، منها كتاب الردّ على المزني، وكتاب إجماع أهل المدينة[٦]، والقاضي أبو محمد عبدالوهاب بن نصر صاحب كتاب النصرة لمذهب إمام دار الهجرة، وكتاب المعونة لدرس مذهب عالم المدينة وكتاب

---

(١) المقدّمة ص ٤٣٨.
(٢) كشف الظنون ٦٣٢/١ ـ ٦٣٣.
(٣) المصدر السابق ٦٧٤/٢.
(٤) طبقات الشافعيّة الكبرى ١٨٥/١.
(٥) ترتيب المدارك ٤٩٢/٤ ـ ٤٩٧.
(٦) الديباج المذهب ص ٣٥١ ـ ٣٥٣.

أوائل الأدلّة في مسائل الخلاف وكتاب الردّ على المزني[١].

وهكذا بذل كلّ فريق منهم الوسع، واستنفذ الجهد في المنافحة عن إمامه وترجيح مذهبه والانتصار له، واستحثّ كلّ طرف منهم الناس ورغّبوهم في تقليد مذهب ما، وذكروا أنّ الاختيار أن يجعل المقلّد إمامه في ذلك إمامهم، وأنّ من قلّد هذا المذهب أو ذاك كان أحوط له وأحفظ لدينه.

ولا عيب في الانتصار للمذهب واطلاع الناس على قوّة حججه وبراهينه طالما كان ذلك في حسن أدب، ومن أجل طلب الحقّ وإظهاره، وهذا أمر مطلوب، بل هو شيء محبّذ مرغوب، إلاّ أنّ العيب كلّ العيب أن يتعصّب البعض لإمام مذهبه، فيعتقد أنّ الحقّ لا يخرج عن نظره، وأنّ الصواب لا يعدم جانبه، فيرمي خصومه بالجهل وينعت الأئمّة الكرام بالضلال، ويحطّ من قدرهم، ويضع من شأنهم.

وربّما أقدم على إتلاف كتب غيره من أتباع المذاهب الأخرى، كما فعل أحد قضاة الشافعيّة بمصر حين وقع بين يديه كتاب النصرة لمذهب إمام دار الهجرة للقاضي عبدالوهاب بن نصر البغدادي المالكي، فغرّقه في النيل[٢].

ولو كان عالماً منصفاً لكان الأولى به أن ينازع الدليل بالدليل، ويقارع الحجّة بالحجّة، ولصنّف ـ كما قال الراعي الأندلسي ـ كتاباً في الردّ على القاضي عبدالوهاب، وسمّاه النصرتين، وأوقفهما معا حتّى ينتفع بهما أرباب المذاهب من أهل العلم، ويزداد المؤمن بنظرهما إيماناً وتسليماً[٣].

وقد فات هؤلاء الذين أعمى التعصّب أبصارهم أنّه من غير المعقول أن يؤخذ الناس كلّهم بمذهب واحد، وأنه من المستحيل أن تنتظم حياة

---

(١) ترتيب المدارك ٦٩٢/٤.
(٢) نفح الطيب ٥٢١/٢.
(٣) انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك ص ٢٩٠.

المسلمين أجمعين تحت اجتهاد عالم واحد، فذلك ممّا لا يسعه عقل مجتهد، ولا يكاد يطاله جهد عالم.

*** ثالثها: عقد مجالس المناظرات الفقهيّة:**

انتشرت في هذه المرحلة المناظرات الفقهيّة، وعلم المناظرة هو: من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا لأنّه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحقّ من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجّة ولا اتّضحت محجّة، ولا علم الصحيح من السقيم ولا المعوجّ من المستقيم[1].

وقد جرت هذه المناظرات ـ كما يقول ابن خلدون ـ على أصول صحيحة وطرائق قويمة، يحتجّ بها كلّ على صحّة مذهبه الذي قلّده وتمسّك به، وأجريت في مسائل الشريعة كلّها، وفي كلّ باب من أبواب الفقه، وكان في هذه المناظرات بيان مآخذ هؤلاء الأئمّة، ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم، وكان لا بدّ لمن يتصدّى.

لذلك من معرفة القواعد التي يتوصّل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد، إلاّ أنّ المجتهد يحتاج إليها للاستنباط، والمناظر يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلّته، وهذا لعمري علم جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمّة وأدلّتهم، ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه[2].

غير أنّنا في بعض الأحيان نلمس من خلال بعض المناظرات خروجا عن المقصد الذي من أجله وجدت تلك المناظرات، وانحرافا عن الغاية التي من أجلها انعقدت، وابتعادا عمّا عهدناه من مناظرات استدلاليّة بين الأئمّة المجتهدين التي كانت تنعقد تحت شعار: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب، أو مقولة: ما جادلت أحداً قطّ إلاّ وددت أن يظهر الله الحقّ على يديه.

---

(١) المنهاج في ترتيب الحجاج ص ٨.
(٢) المقدّمة ص ٤٣٩.

ولعلّ أصدق مثال نسوقه في هذا المجال، ما ورد عن علي بن محمد بن العبّاس المعروف بأبي حيّان التوحيدي (حدود ٤٠٠هـ) قال[١]: سمعت الشيخ أبا حامد - يعني المروروذي - يقول لطاهر العباءاني: لا تعلّق كثيراً لما تسمع منّي في مجالس الجدل، فإنّ الكلام يجري على ختل الخصم ومغالطته ودفعه ومغالبته، فلسنا نتكلّم لوجه الله خالصا، ولو أردنا ذلك لكان خطونا إلى الصمت أسرع من تطاولنا في الكلام، وإن كنّا في كثير من هذا نبوء بغضب الله تعالى، فإنّا مع ذلك نطمع في سعة رحمة الله.

ولمّا كان باب المناظرة في الردّ والقبول متّسعا، وكلّ واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج أعلام هذا العصر إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الردّ والقبول، وكيف يكون حال المستدلّ والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاّ، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً، ومحلّ اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت لخصمه الكلام والاستدلال، ولذلك قيل فيه إنّه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصّل بها إلى حفظ رأي أو هدمه[٢].

وهكذا بدأت تظهر المصنّفات في قواعد الجدل والمناظرة التي وضعت الشروط الواجب على المناظر اتّباعها، والقواعد التي بفضلها تستقيم المناظرة وتجري على أصول سليمة ومبادىء صحيحة.

وقد عقد ابن عبدالبرّ في كتابه جامع بيان العلم وفضله، بابا ذكر فيه ما يكره فيه المناظرة والجدال والمراء[٣]، وأوصى بتجنّب المراء، إذ هو

(١) معجم الأدباء ١٩٢٣/٥.

(٢) المقدّمة ص ٤٣٩.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١١٣/٢ - ١٢١.

يفسد الصداقة القديمة ويحلّ العقدة الوثيقة، وأقلّ ما فيه أن تكون المغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة.

وتلاه بباب إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجّة[١] ذكر فيه من مناظرات الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وتجادلهم في مسائل الأحكام، ما يقيم الدليل على أنّ الاحتجاج بالعلم مباح سائغ.

واعتبر أنّ من شروط المناظرة: أن يراد بها وجه الله عزّ وجلّ، وأن يقبل منها ما تبيّن، وأن يكون المتناظران متقاربين أو متساويين في مرتبة واحدة من الدين والفهم والعقل والإنصاف حتّى تصحّ المناظرة ويظهر الحقّ، وإلاّ فهو مراء ومكابرة.

وعقد الإمام الباجي (٤٧٤هـ) في مقدّمة كتابه المنهاج في ترتيب الحجاج بابا ذكر فيه ما يتأدّب به المناظر، حتّى ينتفع بجدله، ويبارك له الله في نظره، فقال: «ينبغي للمناظر أن يقدّم على جدله تقوى الله عزّ وجلّ ليزكو نظره...، ويقصد بنظره طلب الحقّ والوكالة عليه ليدرك مقصوده ويحوز أجره، ولا يقصد به المباهاة والمفاخرة فيذهب مقصوده ويكتسب إثمه ووزره...، ويتوقّر في جلوسه ولا ينزعج من مكانه فينسب إلى الركّة والخرق...، ولا يشغف بكلامه ولا يعجب بجداله فإنّ ذلك يدعو إلى المقت، ويقبل على خصمه فإنّه أحسن في الأدب ويحسن الاستماع إلى كلامه...، ويجتنب إظهار العجب من كلام خصمه والتشنّع عليه في جداله، فإنّ ذلك يفعله الضعفاء ومن لا إنصاف عنده...، ولا يتكلّم على ما لم يقع له العلم به من جهته... ولا يستدلّ إلاّ بدليل قد وقف عليه وخبره وامتحنه قبل ذلك وعرف صحّته وسلامته»[٢].

ومن أعلام هذه المرحلة الذين ألّفوا في فنّ الجدل والمناظرة: أبو

---

(١) المصدر السابق ٢/١٢٢ ـ ١٣٢.

(٢) المنهاج ص ٩ ـ ١٠.

عبدالله الصيرمي الحنفي (٤٣٦هـ) في كتابه مسائل الخلاف، وابن حزم الظاهري (٤٥٦هـ) في التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العاميّة والأمثلة الفقهيّة، وأبو إسحاق الشيرازي (٤٧٦هـ) في كتابه المعونة في الجدل، والقائمة تطول كما هو حال أسلافنا، في كلّ علم وفنّ يصولون ويجولون.

وقد شاعت المناظرات في هذا العصر وانتشرت أيّما انتشار، فكانت تعقد في المساجد، وفي مختلف المناسبات بحضور الوزراء وذوي الشأن، وحتّى في مجالس العزاء، من ذلك ما جرت به العادة ببغداد أنّ من أصيب بوفاة أحد ممّن يكرم عليه، قعد أيّاماً في مسجد ربضه[١] يجالس فيها جيرانه وإخوانه، فإذا مضت أيّام عزوه وعزموا عليه في التسلّي والعودة إلى عادته من تصرّفه، فتلك الأيّام التي يقعد فيها في مسجده للعزاء مع إخوانه وجيرانه، لا تقطع في الأغلب إلاّ بقراءة القرآن، أو بمناظرة الفقهاء في المسائل[٢].

ومن أمثلة هذه المناظرات التي كانت تعقد بين العلماء ما نقله ابن السبكي في طبقاته، حيث ذكر أربع مناظرات، اثنتان منهما اتّفقتا بمدينة نيسابور، بين إمام الحرمين الجويني (٤٧٨هـ) والشيخ أبي إسحاق الشيرازي، الشافعيين، عند دخول الشيرازي رسولاً إليها[٣]، ومناظرتان وقعتا بين الشيخ أبي إسحاق والقاضي أبي عبدالله الدامغاني، وكانا قد اجتمعا في عزاء ببغداد[٤].

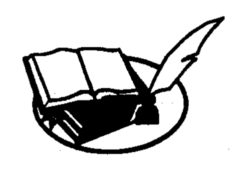
وقد شاهد أبو الوليد الباجي مناظرة بينهما وحضرها[٥]، وذلك حين

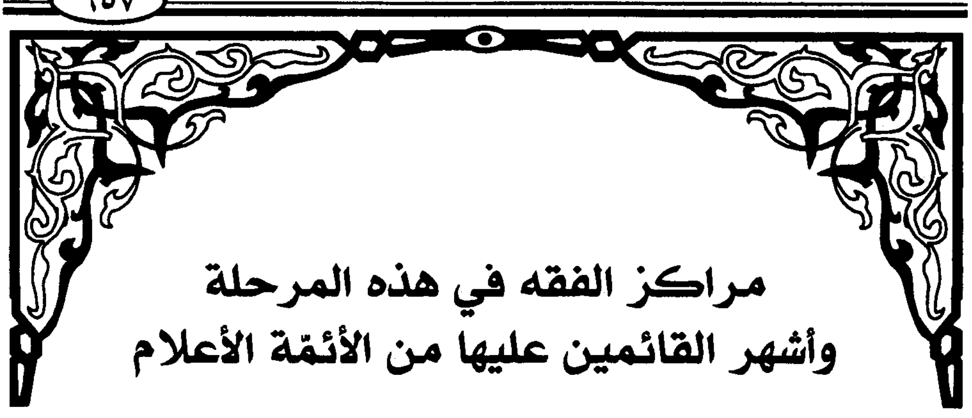
---

(١) الربض: ما حول المدينة، وقيل هو الفضاء حول المدينة (لسان العرب، مادة: ربض).
(٢) طبقات الشافعيّة الكبرى ٤/٢٤٥.
(٣) طبقات الشافعيّة الكبرى ٤/٢٥٢ ـ ٢٥٦ و٥/ ٢٠٩ ـ ٢١٨.
(٤) طبقات الشافعيّة الكبرى ٤/٢٣٧ ـ ٢٥٢.
(٥) المصدر السابق ٤/٢٤٥ ـ ٢٥٢.

توفّيت زوجة القاضي أبي الطيّب الطبري (٤٥٠هـ) شيخ الفقهاء في ذلك الوقت ببغداد وكبيرهم، فاحتفل الناس بمجالسته، ولم يكد يبقى أحد منتم إلى علم إلاّ حضر ذلك المجلس، وكان ممّن حضر ذلك المجلس القاضي أبو عبدالله الصيرمي وكان زعيم الحنفيّة وشيخهم، وهو الذي كان يوازي أبا الطيّب في العلم والشيخوخة والتقدّم، فرغب جماعة من الطلبة إلى القاضيين أن يتكلّما في مسألة من الفقه، تسمعها الجماعة منهما، وتنقلها عنهما فأمّا القاضي أبو الطيّب فأظهر الإسعاف والإجابة، وأمّا القاضي أبو عبدالله - أي الصيرمي - فامتنع عن ذلك، وقال: من كان له تلميذ مثل أبي عبدالله - يريد الدامغاني - لا يخرج إلى الكلام، وها هو حاضر، من أراد أن يكلّمه فليفعل، فقال القاضي أبو الطيّب عند ذلك، وهذا أبو إسحاق - أي الشيرازي - من تلامذتي ينوب عنّي فلمّا تقرّر الأمر على ذلك، ابتدأت المناظرة بينهما.

كما كانت الأندلس كذلك مسرحا لمجالس مناظرات مشهورة بين الإمام الباجي وابن حزم الظاهري، عقدت في هذه المرحلة، إثر رجوع الإمام الباجي من رحلته المشرقيّة سنة ٤٣٩هـ.





مراكز الفقه في هذه المرحلة وأشهر القائمين عليها من الأئمّة الأعلام

تواصل نشاط المذاهب الفقهيّة في هذه المرحلة في المراكز السبعة التي كنّا قد ذكرناها دون أيّ تغيير يذكر من حيث الجهات التي انتشر فيها كلّ مذهب من المذاهب، ومراكز التأثير بالنسبة لكلّ واحد منها، إلاّ ما كان من مركزي مصر والشام حيث سيطر عليها بنو عبيد الفاطميين بعد تحوّلهم من المهديّة إلى مصر سنة ٣٦٢هـ واستمرّ نفوذهم عليها إلى غاية سنة ٥٦٧هـ.

وفي المقابل عرف المركز المغربي انبعاث جديد للمذهب المالكي بعد كبت تواصل أكثر من ستّة عقود، واستمرّ طيلة المرحلة السابقة من هذا الدور.

ـ ١ ـ مصر والشام:

حرص الفاطميّون من ساعة أن استقرّت أيديهم على دمشق سنة ٣٥٨هـ، ثمّ امتلاكهم لمصر سنة ٣٦٢هـ، على محاولة نشر المذهب الإسماعيلي الذي هو المذهب الرسميّ للدولة، واتّبعوا لتحقيق هدفهم ذاك نفس المنهج الذي كانوا قد نهجوه في المغرب من قبل، والذي كان يقوم على:

ـ ١ ـ **استعمال الوسائل والطرق الدعائية**: حيث أحدثوا المدارس بالمساجد لتكوين الدعاة لنشر المذهب الإسماعيلي، وأطلقوا عليها مدارس

الدعوة ومدارس الحكمة، وأنشؤوا الجامع الأزهر لهذا الغرض، ووضعوا بين أيدي طلّاب العلم الذين يريدون الاطّلاع على المذهب الإسماعيلي جميع الإمكانيات، ووفّروا لهم مواد الكتابة لنسخ المصنّفات، بل وجعلوا مالا لكلّ من يحفظ كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان، وأمر الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١هـ ـ ٤٢٨هـ) الدعاة والوعاظ بتدريس هذا الكتاب[١].

وكان من أبرز دعاتهم بمصر:

* **حميد الدين أحمد بن عبدالله الكرماني (٤١١هـ)** الملقّب بحجّة العراقين، وكان أكبر داعية للإسماعيليّة في العراقين، فدعاه الإمام الفاطمي الحاكم بأمر الله إلى مصر وعهد إليه بالإشراف على تعاليم الإسمياعيليّة، وكان من أعظم مصنّفي الإسماعيليّة ذكاء ومعرفة[٢].

* **أبو عبدالله محمد ابن القاضي النعمان بن محمد (٣٤٠هـ ـ ٣٨٩هـ)** الذي ورث عن أبيه منصب قاضي القضاة، ولم تشهد مصر قاض نال من الرئاسة والرفعة ما بلغه ابن النعمان، وقد وافق ذلك استحقاقاً لما كان فيه من العلم والصيانة والهيبة وإقامة الحقّ[٣].

* **أبو الحسن عليّ ابن القاضي النعمان بن محمد (٣٩٤هـ)** الذي ولّي قاضي القضاة بالديار المصريّة بعد أخيه، وقال له الحاكم الفاطمي العزيز: «إنّ القضاء لك من بعد أخيك، ولا تخرجه عن هذا البيت»[٤].

* **عبدالعزيز بن أبي عبدالله محمد بن النعمان بن محمد (٤٠١هـ)** قاضي قضاة العبيديين، وابن قاضيهم وحفيد قاضيهم[٥].

وهكذا بقي أبناء هذه الأسرة يتداولون على القضاء والفتوى والتدريس

(١) كشف الظنون ١/٥٧٧.
(٢) تاريخ التراث العربي ٣/٣٧٢ ـ ٣٧٦.
(٣) شذرات الذهب ٣/٢٦٢.
(٤) شذرات الذهب ٣/٢٠١، طبقات الشافعية الكبرى ٥/٤١٧ ـ ٤١٩.
(٥) شذرات الذهب ٣/٣٠٠.

وفق المذهب الشيعي لزمن، يسند القضاء للابن من بعد أبيه، وللأخ من بعد أخيه لا يخرج عن هذا البيت.

ومن دعاتهم بالشام:

* أبو الفوارس أحمد بن يعقوب (٤١١هـ) أحد الدعاة في عهد الإمام الفاطمي الحاكم بأمر الله، ألّف «رسالة في الإمامة» تضمّ إجابات على ستّين سؤالاً، كانت قد طرحت عليه أثناء اشتغاله بالدعوة الفاطميّة ببلاد الشام[(١)].

- ٢ - **اتّباع سياسة الإجراءات القمعيّة**: إذ حاولوا في أكثر الأحيان أن يلجموا أصوات علماء المذاهب السنّية المعارضين لسياستهم، فأفنوا رجالاً وأبادوا أعلاماً، ووصل بهم الأمر إلى قطع لسان من احتجّ على منع صلاة التراويح بالمساجد، وضرب رجل من أهل مصر سنة ٣٨١هـ وطيف به في المدينة لأنّهم وجدوا في حوزته موطّأ الإمام مالك[(٢)]، وحبسوا الفقيه المالكي أبو عبدالله بن الوشاء مع السباع[(٣)]، وضربوا الفقيه محمد بن عبدالله بن عتاب المعروف بابن المقري، من أهل الإسكندريّة وآذوه وأحرقوا كتبه[(٤)].

ووصل الأمر بالحاكم الفاطمي الملقّب بالظاهر لإعزاز دين الله، أن أصدر أمراً سنة ٤١٦هـ بإخراج من بمصر من الفقهاء المالكيين[(٥)].

ولكنّ حكّام بني عبيد كانوا أحياناً يسلكون سبيل الحذر والحيطة في

(١) تاريخ التراث العربي ٣/٣٧٠.
(٢) الخطط للمقريزي ٢/٣٤١.
(٣) ترتيب المدارك ٤/٦١٣.
(٤) ترتيب المدارك ٤/٦١٥.
(٥) كشف الظنون ١/٥٧٧.

المواجهة إزاء المعارضة الواسعة من طرف علماء أهل السنّة، فنجد حلقة أبي بكر النعالي المالكي في جامع الفسطاط المعروف بجامع عمرو بن العاص، كانت تدور أيّام بني عبيد على سبعة عشر عمودا من كثرة من يحضرها[(١)].

وكانوا أحياناً يأمرون بأن يكتب لعنة الشيخين أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب على أبواب الجوامع، وأحياناً ينهون عن ذلك، وتارة يمنعون صلاة التراويح بالمساجد، ومرّة يجيزون ذلك.

فكانت سياستهم تتأرجح بين الترهيب والتهديد والتنكيل أحياناً وبين الحيطة والحذر والمداراة أحياناً أخرى.

ولا شكّ أنّه في ظلّ هذا الصراع قد عرف فقه أهل السنّة تراجعا، يقول السيوطي: «وفي هذا القرن ـ القرن الرابع ـ ملكت العبيديون مصر وأفنوا من كان بها من أئمّة المذاهب الثلاثة ـ المالكيّة والشافعيّة والحنفيّة ـ قتلاً ونفياً وتشريداً وأقاموا مذهب الرفض والشيعة ولم يزولوا منها إلى أواخر القرن السادس، فتراجعت إليها الأئمّة من سائر المذاهب»[(٢)].

ولكن من يتتبّع كتب الطبقات والتراجم يدرك أنّ تلك السياسة القمعيّة التي انتهجها بنو عبيد في أغلب الأحيان، لم تمنع المذاهب السنّيّة التي كانت قد استحكمت بمصر والشام، كما هو الشأن بسائر المراكز الأخرى، وتمكّنت من قلوب الأمّة وحلّت بها محلّ القلب من الجسد، من الثبات والإستمرار حتّى ولو تضاءلت أيّام نفوذ الفاطميين وقتلهم العظيم وطغيانهم المستمرّ.

وكان من أشهر أعلام المالكيّة في هذه المرحلة بمصر:

---

(١) حسن المحاضرة ١/٢٠٧.

(٢) حسن المحاضرة ١/٢٢٢.

* **أبو بكر محمد بن سليمان النعالي (٣٨٠هـ)** إمام المالكيّة بمصر في وقته، تلقّى عن ابن شعبان، عظم شأنه وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر، وكانت حلقته في جامع الفسطاط تدور على سبعة عشر عمودا من كثرة من يحضرها[(١)].

* **أبو القاسم عبدالرحمٰن بن عبدالله بن محمد الغافقي الجوهري (٣٨٥هـ)** كان فقيهاً ورعا خيّرا، كثير الحديث من شيوخ الفسطاط، ومن كبار فقهاء المالكيّة وشيوخ السنّة، سمع من ابن شعبان وغيره من أعلام مصر، روى عنه ثلّة من أعلام القرويين والمصريين والأندلسيين، وفي تاريخ وفاته خلاف، فقيل سنة ٣٨٥هـ، وقيل سنة ٣٨١هـ[(٢)].

* **أبو العباس رجاء بن عيسى بن محمد الأنصناوي (٣١٠هـ - ٤٠٧هـ)** - وقيل الأنصاوني - كان فقيهاً مالكيّاً، ثقة في الحديث متحرّياً في الرواية، دخل بغداد فحدّث بها وسمع منه الحفّاظ ثمّ عاد إلى بلده، وبها توفّي، وفي تاريخ وفاته خلاف كبير، فقيل ما بين سنة ٤٠٥هـ و٤١٠هـ، وقيل غير ذلك[(٣)].

* **أبو عبدالله بن الوشاء: محمد بن أحمد بن محمد بن عبيد بن موسى (٣٩٧هـ)** أخذ عن ابن شعبان، وكان عالماً بالحديث واسع الرواية فقيها، رحل إليه الناس وسمعوا منه، وكان شديد المباينة لبني عبيد، فحبسوه مع السباع، فلم تضرّه بإذن الله[(٤)].

* **عبدالجليل بن مخلوف الصقلّي (٤٥٩هـ)** وقد أفتى بمصر أربعين سنة، وبها مات[(٥)].

---

(١) حسن المحاضرة ٢٠٧/١، شجرة النور الزكيّة ص ٩٣.
(٢) ترتيب المدارك ٤٨٢/٤ - ٤٨٣، حسن المحاضرة ٢٠٧/١، الديباج المذهب ص ٢٤١ - ٢٤٢، شذرات الذهب ٢٢٣/٣، شجرة النور الزكيّة ص ٩٣ - ٩٤.
(٣) ترتيب المدارك ٦١٣/٤ - ٦١٤، حسن المحاضرة ٢٠٧/١.
(٤) ترتيب المدارك ٦١٢/٤ - ٦١٣.
(٥) حسن المحاضرة ٢٠٧/١ - ٢٠٨.

*** أبو محمد عبدالله بن الوليد بن سعيد الأنصاري (٤٤٨هـ)** الأندلسي، أخذ عن أبي محمد ابن أبي زيد وغيره، سكن مصر ومات بالشام عن ثمان وثمانين سنة[١].

ولا غرابة أن ينقطع نشاط المذهب المالكي بمصر في آخر هذا الدور لحين من الزمن، ويستمرّ غيابه عن هذا المركز لأكثر من ثلاثة عقود، بعد ما لاقاه أتباعه بالخصوص من حكّام بني عبيد.

ولم يأخذ المذهب في الرجوع إلاّ في أواخر القرن الخامس الهجري.

وأمّا في ما يخصّ المذهب الشافعي، فقد أحصى السيوطي من أصحابه بمصر في هذه المرحلة عددا، من أبرزهم:

*** القاضي أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى البغدادي (٤٤١هـ)** تفقّه على الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وروى عن جماعة كثيرة بالعراق والشام ومصر، سكن مصر وأملى وأفاد، وبها مات[٢].

*** أبو الحسن عبدالملك بن عبدالله بن محمود بن صهيب بن مسكين (٤٤٧هـ)** المصري، المعروف بالزجاج، كان من فقهاء مصر[٣].

*** أبو عبدالله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي (٤٥٤هـ)** المصري، تولّى القضاء بالديار المصريّة، وكان فقيهاً شافعيّا متفنّنا في عدّة علوم، ولم ير في مصر من يجري مجراه، سمع منه الخطيب البغدادي الحديث وروى عنه، حين لقيه بالحجّ سنة ٤٤٥هـ، صنّف كتاب الشهاب، وكتاب مناقب الإمام الشافعي وأخباره، والإنباء عن الأنبياء، وتواريخ الخلفاء، وخطط مصر[٤].

---

(١) حسن المحاضرة ٢٠٨/١.

(٢) حسن المحاضرة ١٨٣/١، شذرات الذهب ٤٣٥/٣.

(٣) حسن المحاضرة ١٨٣/١.

(٤) حسن المحاضرة ١٨٣/١ ـ ١٨٤، هديّ العارفين ٧١/٢، شذرات الذهب ٤٧٣/٣ ـ ٤٧٤، وفيات الأعيان ٢١٢/٤ ـ ٢١٣، طبقات الشافعيّة الكبرى ١٥٠/٤ ـ ١٥١.

وبرز من أعلام الشافعيّة بالشام:

* **القاضي أبو الحسن عليّ بن محمد بن إسحاق (٣٩٦هـ)** أصله من حلب، رحل إلى العراق ونزل مصر وسكنها[(١)].

* **القاضي أبو بكر يوسف بن القاسم الشافعي الميانجي (٣٧٥هـ)** نسبة إلى ميانج موضع بالشام، نزيل دمشق، ناب في القضاء مدّة عن قاضي بني عبيد أبي الحسن عليّ بن القاضي النعمان.

رحل إلى الشام والجزيرة وخراسان والعراق، توفّي وقد قارب التسعين[(٢)].

* **أبو الخير جعفر بن محمد بن عثمان المروزي (٤٤٧هـ)** الذي استوطن معرّة النعمان سنة ٤١٨هـ، ودرّس بها حتّى وفاته، وحمل عنه أهلها الفقه، صنّف الذخيرة في فقه الشافعيّة، وأخذه عنه تلاميذه[(٣)].

أمّا الحنفيّة فنلتقي بهم بالخصوص في الشام، وقد كان من أشهر أعلامهم:

* **أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعود التنوخي المعرى (٤٤٤هـ)** تلميذ الإمام أبي الحسين القدوري الحنفي، برع في فنون عديدة، وناب عن القضاء في دمشق، ووُلِّي قضاء بعلبك، ومات بدمشق ولم يخلف بعده مثله[(٤)].

وكان المذهب الحنبلي أقلّ المذاهب أتباعا، إذ لم يظهر هذا المذهب خارج العراق إلاّ في القرن الرابع الهجري كما ذكر السيوطي.

---

(١) حسن المحاضرة ١٨٣/١، شذرات الذهب ٢٨٣/٣، غاية النهاية في طبقات القرّاء ٥٦٤/١.

(٢) شذرات الذهب ٢٠٤/٣، هديّة العارفين ٥٤٩/٢، النجوم الزاهرة ١٤٨/٤، طبقات الشافعية الكبرى ٤٨٨/٣ ـ ٤٨٩.

(٣) طبقات الشافعيّة الكبرى ٢٩٩/٤.

(٤) النجوم الزاهرة ٥٢/٥.

ولم يعرف انطلاقته بهذه الديار إلاّ مع أبي الفرج **عبدالواحد بن محمد بن عليّ بن أحمد** (٤٨٦هـ) الشيرازي، ثمّ المقدسي، ثمّ الدمشقي، الفقيه القدوة الزاهد الأنصاري السعدي الخزرجي، شيخ الشام في وقته، الذي سكن بيت المقدس ونشر مذهب الإمام أحمد فيما حوله، ثمّ أقام بدمشق فنشر المذهب وتخرّج به الأصحاب، ووعظ واشتهر أمره وحصل له القبول التام، وكان إماماً وافر العلم عارفاً بالفقه والأصول، وله تصانيف عدّة فيهما[١].

وهكذا نشط أصحاب المذاهب السنيّة بهذه الديار، واجتهدوا في نشر الفقه السنّي ووضعوا المصنّفات، وكان الاحتكاك بينهم وبين الشيعة من الدوافع القويّة لبذل ما في الوسع من أجل الثبات والاستمرار.

ـ ٢ ـ العراق:

لم يزل نجم بني بويه (٣٢١هـ ـ ٤٤٧هـ) يتألّق، ولم يزل أفراد هذه الأسرة يترقّون في مراقي الدنيا حتّى آل بهم الحال إلى أن ملكوا بغداد من أيدي العبّاسيين وصار لهم فيها القطع والوصل، والولاية والعزل، وإليهم تأتي الأموال، ويرجع إليهم في سائر الأمور والأحوال، وبسطوا نفوذهم على العراق وجنوبي بلاد فارس: الريّ وهمذان وأصبهان، وكانوا أوّل أمرهم قوّة متّحدة متماسكة، ثمّ انقسم أفراد هذا البيت بعضهم على بعض، فاستغلّ العبّاسيون ضعف بني بويه واستعانوا بمنافسيهم السلاجقة الذين تمكّنوا من الاستيلاء على أملاك بني بويه في بلاد فارس والعراق، وتخليص العبّاسيين من استبدادهم[٢].

ورغم هذه الصراعات السياسيّة فإنّ الحركة الفقهيّة بهذه المناطق من البلاد الإسلاميّة لم تتوقّف، وإنّما استمرّ عطاء الفقهاء ببلاد الرافدين،

---

(١) شذرات الذهب ٨٢/٤ ـ ٨٣، طبقات المفسّرين ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣، طبقات الفقهاء الحنابلة ٣٣٣/٢ ـ ٣٣٤، تذكرة الحفاظ ١١٩٩/٣.

(٢) البداية والنهاية ١٧٤/١١، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ١٠٣/٣ ـ ١١٣.

وتواصل نشاطهم، حتّى لمع في سماء الحركة الفقهيّة أعلام أفذاذ من سائر أتباع المذاهب المختلفة.

فمن أعظم فقهاء الحنفيّة الذين نقف عندهم في هذه المرحلة بالعراق، نذكر:

* **أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي (٤٠٣هـ)** فقيه بغداد وشيخ الحنفيّة، ومن انتهت إليه رئاسة المذهب ببغداد وفي الآفاق، كان حسن الفتوى، وعنه أخذ القاضي أبو عبدالله الصيرمي وقال: ما شاهد الناس مثله في حسن الفتوى والإصابة فيها، وكان فصيحا حسن التدريس، دعي إلى ولاية القضاء أكثر من مرّة فلم يقبل(١).

* **أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان القدوري البغدادي (٣٦٢هـ - ٤٢٨هـ)** شيخ الحنفيّة بالعراق، انتهت إليه رئاسة المذهب ببغداد، وكان يناظر الشيخ أبا حامد الإسفراييني الشافعي ويبالغ في تعظيمه بحيث حكى عنه ابن خلكان أنّه كان يفضّل الإسفراييني على الشافعي.

صنّف في المذهب المختصر المشهور الذي اعتنى أعلام الحنفيّة بشرحه، وصنّف مختصر الكرخي، وأدب القاضي على مذهب أبي حنيفة، والتجريد في الفروع، وقد أفرد فيه ما خالف فيه الإمام الشافعي من المسائل بإيجاز الألفاظ وأورد بالترجيح ليشترك المبتدي والمتوسّط في فهمه، وشرع في إملائه سنة ٤٠٥هـ، وله التقريب في مسائل الخلاف مجرّدا عن الدلائل ثمّ صنّف ثانيا فذكر المسائل بأدلّتها(٢).

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٥، شذرات الذهب ٣١٢/٣، البداية والنهاية ٣٥١/١١، النجوم الزاهرة ٢٣٤/٤.

(٢) الفوائد البهية ٣٠، الجواهر المضية ٢٤٧/١، تاج التراجم ١٩، شذرات الذهب ٣٩٢/٣ - ٣٩٣، النجوم الزاهرة ٢٤/٥ - ٢٥، هديّة العارفين ٧٣/١، البداية والنهاية ٤٠/١٢، تاريخ التراث العربي ١١٥/٣ - ١٢٣، كشف الظنون ٩٩/١، ٢٩٩، ٣٧٩ و٥٢٠/٢ - ٥٢٣ و٦٣/٥ - ٦٤، وفيات الأعيان ٧٨/١ - ٧٩، تذكرة الحفاظ ١٠٨٦/٣.

*** أبو عبدالله الحسين بن علي الصيرمي (٤٣٦هـ)** إمام الحنفيّة ببغداد، تتلمذ على أبي بكر الخوارزمي، كان وافر العقل، جميل المعاشرة، حسن العبادة، عارفاً بحقوق العلماء، له شرح على مختصر الطحاوي، توفّي ببغداد عن ٨٥ سنة(١)، وقد اعتبره القاضي عياض رئيس الحنفيّة ببغداد(٢).

*** أبو عبدالله محمد بن عليّ بن محمد الدامغاني (٣٩٨هـ ـ ٤٧٨هـ)** قاضي القضاة، تفقّه بمسقط رأسه دامغان وهي مدينة إيرانيّة جنوبي بحر القزوين، وتفقّه بخراسان، ثمّ قدم بغداد سنة ٤١٨هـ فتفقّه على أبي الحسين القدّوري وأبي عبدالله الصيرمي، وسمع الحديث منهما ومن غيرهما، برع في الفقه وإليه انتهت رئاسة الفقهاء، وكان نظير أبي يوسف في الجاه والسؤدد.

باشر القضاء ثلاثين سنة في أحسن سيرة وغاية الأمانة والديانة، وتوفّي وقد ناهز الثمانين(٣).

صنّف المختصرات لطلبة عصره، واشتهر بمناظراته في الفقه التي تحدّث عنها ابن عقيل الحنبلي بعد أن حضرها من سنة ٤٥٠هـ إلى سنة وفاة الدامغاني(٤).

وقد أشرنا إلى أنّ ابن السبكي قد ذكر في طبقاته مناظرتين وقعتا بين أبي عبدالله الدامغاني وبين أبي إسحاق الشيرازي، وكانا قد اجتمعا في عزاء ببغداد(٥)، وكان أبو الوليد الباجي قد شاهد إحدى هاتين المناظرتين

---

(١) الفوائد البهية ٦٧، الجواهر المضية ١١٦/٢، تاج التراجم ٩٣، كشف الظنون ٥١٧/٢، شذرات الذهب ٤١٩/٣، هديّة العارفين ٣٠٩/١، النجوم الزاهرة ٣٨/٥، البداية والنهاية ٥٢/١٢، تذكرة الحفاظ ١١٠٩/٣.

(٢) انظر: ترتيب المدارك ٨٠٢/٤.

(٣) البداية والنهاية ١٢٩/١٢، شذرات الذهب ٥٩/٤، النجوم الزاهرة ١٢١/٥.

(٤) مقدّمة محقّق كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج ص ١٥.

(٥) طبقات الشافعيّة الكبرى ٢٣٧/٤ ـ ٢٥٢.

وحضرها[١]، وذلك حين توفّيت زوجة القاضي أبي الطيّب الطبري.

وقد عدّ المؤرّخ المعاصر جورج مقدسي أصحاب التراجم الثلاثة الأخيرة - أعني القدوري والصيرمي والدامغاني - المفتين الثلاثة الذين كانوا يهيمنون على مذهبهم في القرن الخامس الهجري[٢].

أمّا المذهب المالكي فقد عرف خلال هذه المرحلة جيلا من عبقريات المذهب اختتم به العراق حياة باهرة، فكان ظهور هذا الجيل، نفثة أخيرة من نفثات المذهب المالكي القويّة التي لم تلبث أن خبت بعد ذلك بالعراق وكان من أعظم هؤلاء الأعلام:

* **أبو بكر محمد بن عبدالله الأبهري (٣٩٥هـ)** سكن بغداد وحدّث بها ، جمع بين علوّ الإسناد في الحديث والفقه الجيّد، وكان أحد أئمّة أهل القرآن والمتصدّرين لذلك العارفين بوجوه القرآن وتحرير التلاوة، وكان إمام أصحابه في وقته، والقيّم برأي مالك، وإليه انتهت الرئاسة في مذهب مالك بالعراق.

كان معظّما عند علماء سائر وقته، ولا يشهد محضرا إلاّ كان هو المقدّم فيه، وبضله اعترف الموافق والمخالف، وما كان ببغداد أجلّ منه، ولم يعط أحد من العلم والرئاسة فيه ما أعطي الأبهري في عصره من الموافقين والمخالفين.

كان يحفظ أقوال الفقهاء حفظا جيّدا، حتّى أنّ أصحاب الشافعي وأبي حنيفة كانوا إذا اختلفوا في أقوال أئمّتهم رجعوا إلى قوله.

لم يكن له شغل في حياته إلاّ العلم، فقد روي أنّه قرأ مختصر ابن عبدالحكم خمسمائة مرّة، والأسديّة خمسا وسبعين مرّة، والموطّأ خمسا وأربعين مرّة، ومكث ستّون سنة يدرّس ويفتي في جامع المنصور ببغداد.

---

(١) المصدر السابق ٢٤٥/٤ ـ ٢٥٢.

(٢) مقدّمة محقّق كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج ص ١٤.

تفقّه عليه عدد كثير وخرج له جملة الأئمّة بأقطار الأرض من العراق وخراسان والحجاز ومصر وإفريقيّة وكان أكثر الأعلام أصحابا وأفضلهم أتباعاً وأنجبهم طلّاباً، ولم ينجب أحد من الأصحاب بعد إسماعيل القاضي ما أنجب أبو بكر الأبهري، كما أنّه لا قرين لهما في المذهب بقطر من الأقطار إلاّ الإمام سحنون في طبقته.

سئل الأبهري أن يلي القضاء ببغداد فامتنع فاستشير فيمن يصلح لذلك، فأشار بأبي بكر الرازي الحنفي، وكان حال الرازي يزيد على حال الرهبان في العبادة، فامتنع هو كذلك وأشار بالأبهري، فلمّا لم يجب واحد منهما إلى القضاء ولّي غيرهما.

له تصانيف في شرح مذهب مالك والاحتجاج له والردّ على من خالفه، منها المختصر الصغير والكبير لابن عبدالحكم، وفيهما نحو عشرين ألف ٢٠٠٠٠ مسألة، وله كتاب الردّ على المزني، وكتاب أصول الفقه وكتاب إجماع أهل المدينة، وغيرها.

توفّي وسنّه نيف وثمانون سنة[١].

وكان بالعراق من طبقة أبي بكر الأبهري، **ابن علويه الأبهري** صاحب كتاب مسائل الخلاف، أحد الفقهاء النظّار المحقّقين، ومن جلّة أئمّة المالكيين[٢] **وأبو الحسن محمد بن صالح بن أمّ شيبان** - وقيل ابن الشيبان - الذي ولّي قضاء الكوفة من سنة ٣٣٤هـ إلى سنة ٣٤١هـ، ثمّ ولّي قضاء القضاة ببغداد، وعنده كان يجتمع المالكيّة، أصحاب أبي بكر الأبهري، ببغداد للنظر[٣].

---

(١) ترتيب المدارك ٤/٤٦٦ - ٤٧٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٧، الفهرست ص ٢٥٣، الديباج المذهب ص ٣٥١، شذرات الذهب ٣/٢٠٤، هديّة العارفين ٢/٥٠، النجوم الزاهرة ٤/١٤٧، البداية والنهاية ١١/٣٠٤ - ٣٠٥.

(٢) انظر: ترتيب المدارك ٤/٤٧٣ - ٤٧٤، الديباج المذهب ص ١٦٦.

(٣) المصدر السابق ٤/٤٧٤ - ٤٧٥، الديباج المذهب ص ٤٠٩.

* **وأبو عبدالله محمد بن أحمد بن مجاهد** من أهل البصرة، الذي سكن بغداد، وكان إماماً في مذهب مالك مقدّماً فيه(١)، **وأبو العلاء عبدالعزيز بن محمد البصري وأبو عبدالله محمد بن عطيّة البصري** اللذان كانت عليهما تدور الفتوى على مذهب مالك بالبصرة في وقتهما(٢).

ومن كبراء أصحاب أبي بكر الأبهري بالعراق نذكر:

* **أبو القاسم عبيدالله بن الحسن - ويقال ابن الحسين بن الحسن - المعروف بابن الجلّاب (٣٧٨هـ)** البصري، كان من أحفظ أصحاب الأبهري وأنبلهم وله كتاب في مسائل الخلاف، وكتاب التفريع في المذهب مشهور، وله شرح للمدوّنة، وبه تفقّه القاضي عبدالوهاب بن نصر - الآتي ذكره -(٣).

* **أبو الحسن عليّ بن عمر بن أحمد المعروف بابن القصّار (٣٩٨هـ)** البغدادي، كان أصوليّا نظّارا، ولّي قضاء بغداد، له كتاب في مسائل الخلاف بعنوان عيون الأدلّة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار، قال عنه الشيرازي: لا أعرف للمالكيين كتاباً في الخلاف أحسن منه، وقال تلميذه أبو ذرّ الهراوي: ابن القصّار أفقه من لقيت من المالكيّة، وبه تفقّه أيضاً القاضي عبدالوهاب بن نصر وابن عمروس - الآتي ذكرهما - وجماعة غيرهما، وقيل توفّي سنة ٣٩٧هـ(٤).

* **أبو بكر محمد بن الطيّب بن محمد المشهور بالقاضي الباقلّاني (٤٠٣هـ)** الملقّب بشيخ السنّة ولسان الأمّة، المتكلّم على مذهب أهل السنّة، شيخ وقته وعالم عصره، الذي انتهت إليه رئاسة المالكيين في وقته.

كان حسن الفقه عظيم الجدل، يدرس نهاره وأكثر ليله، وكانت له

(١) ترتيب المدارك ٤/٤٧٦.
(٢) المصدر السابق ٤/٤٧٨ - ٤٧٩.
(٣) ترتيب المدارك ٤/٦٠٥، الديباج المذهب ص ٢٣٧، هديّة العارفين ١/٤٤٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٨، شذرات الذهب ٣/٢١٣، كشف الظنون ١/٣٥٣.
(٤) ترتيب المدارك ٤/٦٠٢، الديباج المذهب ص ٢٩٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٨، هديّة العارفين ١/٦٨٤، شذرات الذهب ٣/٢٨٤.

بجامع المنصور ببغداد حلقة عظيمة، وكان فاضلا متورّعا ممّن لم تحفظ له زلّة ولا نسبت إليه نقيصة، وكان على درجة عظيمة من الصلاح، حتّى قيل: ما نفع الله هذه الأمّة بكتبه وبثّها فيهم، إلاّ بحسن نيّته واحتسابه بذلك.

كان يقال: إنّ الله تعالى تعاهد أمّته في رأس كلّ مائة عام بربّانيّ من علمائها، يحيي لها دينها ويجدّد شريعتها، فكان إمام رأس أربعمائة، أبو بكر بن الطيّب.

صنّف الأصول الكبير في الفقه والإرشاد والمقنع في أصول الفقه وله شرح أدب الجدل، وله كتباً عديدة في أصول الدين والعقيدة، وتصانيف واسعة في الردّ على الفئة الضّالة[1].

وكان ثمرة هؤلاء الثلاثة ـ أعني ابن الجلاّب وابن القصّار والقاضي الباقلاّني ـ:

* **أبو محمد عبدالوهاب بن عليّ بن نصر (٤٢٢هـ)** البغدادي، أحد أئمّة المذهب، الذين انتهت إليهم رئاسة المذهب بالعراق، فريد عصره وناصر المذهب، ولّي قضاء أماكن عديدة بالعراق، تفقّه على كبار أصحاب أبي بكر الأبهري مثل أبي الحسن ابن القصّار، وأبي القاسم ابن الجلاّب، ودرس الفقه والأصول والكلام على القاضي أبي بكر الباقلاّني وصحبه، وقيل أنّه قد رأى أبا بكر الأبهري إلاّ أنّه لم يسمع منه شيئاً، والصحيح عند أهل التحقيق أنّه حدّث عنه وأجازه، وقد قيل له: مع من تفقهت؟ قال: صحبت الأبهري، وتفقهت مع أبي الحسن ابن القصّار، وأبي القاسم بن الجلاّب، والذي أفتح أفواهنا وجعلنا نتكلّم القاضي أبو بكر بن الطيّب.

---

(١) ترتيب المدارك ٥٨٥/٤ ـ ٦٠٢، الديباج المذهب ص ٣٦٣، شذرات الذهب ٣١٠/٣ ـ ٣١٢، البداية والنهاية ٣٥٠/١١ ـ ٣٥١، النجوم الزاهرة ٢٣٤/٤، هديّة العارفين ٥٩/٢، وفيات الأعيان ٢٦٩/٤ ـ ٢٧٠.

كان القاضي عبدالوهاب بقيّة الناس ولسان أصحاب القياس بالعراق، ولكنّه خلع أهلها وودّع ماءها وظلّها فخرج في آخر حياته إلى مصر، واستقرّ بها إلى وفاته، وقد ورد أنّه لمّا خرج من بغداد تبعه الفقهاء والأشراف من أهلها، وقالوا له: والله لقد يعزّ علينا فراقك، فقال لهم: والله لو وجدت في بلدكم كبجلتين من ذرة ما خرجت منها، ولقد ترك أبي جملة دنانير وداراً أنفقتها كلّها على صعاليك من كان ينهض بالطلب عندي، فنكس كلّ واحد منهم رأسه، ثمّ أمرهم بالانصراف فانصرفوا، وأنشد يقول:

لا تطلبنّ إلى المجبوب أولادا ... ولا السّراب لتسقي منه ورّادا
ومن يروم من الأنذال مكرمة ... كمن يوتّد في الأتبان أوتادا

ويقال إنّ سبب خروجه من بغداد قصّة جرّت له الكلام مع شافعيّ، فخاف على نفسه، وطلب فخرج فارًّا منها، وأنشد في خروجه[(١)]:

سلام على بغداد في كلّ موطن ... وحقّ لها منّي السلام المضاعف
لعمرك ما فارقتها عن ملالة ... وإنّي بشطي جانبيها لعارف
ولكنّها ضاقت عليّ برحبها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
فكانت كخلّ كنت أهوى دنوّه ... وأخلاقه تنأى به وتجانف

واجتاز في طريقه معرّة النعمان، بلدة أبي العلاء المعرّي، فاستضافه، وله في الإشادة بفقهه وبشعره:

والمالكي ابن نصر زار في سفر ... بلادنا فحمدنا النأى والسفرا
إذا تفقّه أحيا مالكـا جدلا ... وينشر الملك الضّليل[(٢)] إن شعرا

---

(١) وقال عياض: قرأت في بعض الأخبار أنّ الشعر ليس من قوله (ترتيب المدارك ٦٩٣/٤).

(٢) هو امرؤ القيس.

وفي مصر حصل له حال من الدنيا، فولي القضاء بها إلى أن مات، وحمل لواء العلم فيها وانثالت في يديه الرغائب، واتّسع حاله بها بعد ضيقه بالعراق، ولكن لم يلبث أن ألمّ به مرض الموت بعد قليل، وزعموا أنّه قال وهو يتقلّب ونفسه تتصعّد وتتصوّب: لا إله إلاّ الله، لمّا عشنا متنا.

ألّف في المذهب والخلاف والأصول تآليف بديعة مفيدة مثل كتاب التلقين، وكتاب الإشراف على نكت مسائل الخلاف، وكتاب النصرة لمذهب إمام دار الهجرة، وكتاب المعونة على مذهب عالم المدينة، وكتاب أوائل الأدلّة في مسائل الخلاف، وكتاب الردّ على المزني، والإفادة والتلخيص كلاهما في أصول الفقه وكتاب عيون المسائل، وشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وشرح المدوّنة[١].

وفي المذهب قول مشهور: لولا الشيخان والمحمّدان والقاضيان لذهب المذهب، فالشيخان: ابن أبي زيد القيرواني، وأبو بكر الأبهري، والمحمّدان: محمّد بن سحنون، ومحمّد بن الموّاز، والقاضيان: القاضي عبدالوهاب، والقاضي ابن القصّار البغداديان[٢].

ومن فقهاء العراق المالكيين الذين درسوا على أبي بكر الأبهري نذكر:

أبو جعفر محمد بن عبدالمنعم بن أبي حمّاد الأسدي ، وكان باهرا ومالكيّا مشهورا بالعلم والحديث ومكارم الأخلاق[٣]، **وأبو سعيد أحمد بن محمد بن زيد القزويني (حدود ٣٩٠هـ)** وكان زاهدا عالماً بالحديث،

---

(١) ترتيب المدارك ٦٩١/٤ ـ ٦٩٥، الديباج المذهب ص ٢٦١ ـ ٢٦٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٨ ـ ١٦٩، النجوم الزاهرة ٢٧٦/٤، هديّة العارفين ٦٣٧/١، شذرات الذهب ٣٧٧/٣ ـ ٣٧٩، البداية والنهاية ٣٢/١٢ ـ ٣٣، وفيات الأعيان ٢١٩/٣ ـ ٢٢٢، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق ٤/مج ٥١٥/٢ ـ ٥٢٩.
(٢) شجرة النور الزكية ص ٩٢.
(٣) ترتيب المدارك ٦٠٣/٤.

وصنّف في المذهب والخلاف، وله كتاب المعتمد في الخلاف من أهذب كتب المالكيّة، وله أيضاً الإلحاق في مسائل الخلاف[١]، **وأبو تمّام عليّ بن محمد بن أحمد البصري**، وكان جيّد النظر، حاذقاً بالأصول، صنّف في مسائل الخلاف وفي أصول الفقه[٢]، **وأبو بكر محمد بن أحمد بن عبدالله بن خويز منداد**، الذي صنّف في الخلاف وفي أصول الفقه وفي أحكام القرآن، وكانت له اختيارات وتأويلات على المذهب في الفقه والأصول لم يرجع عليها حذّاق المذهب[٣]، **ومحمد بن عبدالله البصري** وكان يعرف بالشهرة بالعبادة وطلب العلم وكان الأبهري يحبّه ويجلّه[٤].

وغير هؤلاء من أصحاب أبي بكر الأبهري الذين حملوا لواء المذهب المالكي بالعراق طوال هذا الدور، وملؤوا أرضها وسماءها، وتفوّقوا على كافّة المذاهب الأخرى، ونبت بهم العراق كعادة البلاد بذوي فضلها، وعلى حكم الأيّام في محسني أهلها، حتّى كان لهم الحظّ الأوفى من الولاية فيها، فقد روي أنّ أبا بكر الأبهري قال يوماً لأصحابه: إنّ الله رضيكم لولاية، فجمع لكم بها شرف الدنيا والآخرة، لا يعزلكم عنها أمر ما طلبتم هذا العلم، ونفرتم به عن السلطان فإذا كنتم كذلك تمّت لكم الولاية في الدنيا والآخرة، ونلتم بها سرورهما[٥].

ولكن بعد موت الأبهري وكبار أصحابه لتلاحقهم، وخروج القضاء عنهم إلى غيرهم من مذهب الشافعي وأبي حنيفة، ضعف مذهب مالك بالعراق، وقلّ طلبه لاتّباع الناس أهل الرئاسة والظهور[٦].

---

(١) ترتيب المدارك ٦٠٤/٤، الديباج المذهب ص ٩٣ ـ ٩٤.
(٢) ترتيب المدارك ٦٠٥/٤.
(٣) ترتيب المدارك ٦٠٦/٤، الديباج المذهب ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤، شجرة النور الزكية ١٠٣.
(٤) ترتيب المدارك ٦١١/٤.
(٥) ترتيب المدارك ٤٧٣/٤.
(٦) ترتيب المدارك ٤٧٠/٤ ـ ٤٧١.

ويبدو أنّ الشافعيّة قد قويت شوكتهم في أواخر هذه المرحلة من هذا الدور، بسبب قربهم إلى الخليفة بواسطة رئيسهم أبي حامد الإسفراييني، فكأنّي بهم قد عملوا على استبعاد منافسيهم من أعلام المالكيّة، كما يتّضح من إحدى الروايتين في سبب خروج القاضي عبدالوهاب، أي خوفا على نفسه لمّا طلب لقصّة جرّت له الكلام مع شافعيّ، فخرج فارًّا.

وبخروج القاضي عبدالوهاب انقطع المذهب المالكي من العراق أو كاد، وعدّت طبقته الطبقة المالكيّة الأخيرة بالعراق، ولم يعد للمذهب المالكي بعده ذكر إلاّ حين يظهر أحد فقهائه.

وذكر له من تلاميذه بالعراق: **أبو الفضل محمد بن عبدالله بن أحمد عمروس البزّار (٣٧٢هـ ـ ٤٥٢هـ)** البغدادي، الفقيه الأصوليّ، من حفّاظ القرآن ومدرّسيه، وإليه انتهت الفتوى في الفقه بمذهب مالك ببغداد، وكانت له حلقة المالكيين بجامع المنصور، له تعليق حسن كبير مشهور في المذهب، والخلاف، ومقدّمة حسنة في أصول الفقه[1].

ثمّ لم نعد نجد في الطبقة الموالية إلاّ فقيهاً واحداً هو **أبو يعلى أحمد بن محمد العبدي (٤٨٩هـ)**[2]، وكان آخر الأعلام قياماً بلواء مذهب مالك بالعراق: **القاضي شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمٰن بن عسكر (٧٠١هـ ـ ٧٦٧هـ)** البغداديّ، العلاّمة المتقن، الذي ولِّي القضاء ببغداد[3].

وهكذا غاب المذهب المالكي عن العراق خاصّة، وعن الشام والمشرق عامّة، بعد أن اكتسح المغرب والأندلس جميعاً.

وأمّا في خصوص نشاط المذهب الشافعي فقد كان من أبرز أعلامه خلال هذه المرحلة بالعراق:

(١) ترتيب المدارك ٧٦٢/٤، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٩، الديباج المذهب ٣٦٨.
(٢) شجرة النور الزكيّة ص ١١٦.
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٢.

*** أبو القاسم عبدالعزيز بن عبدالله بن محمد الداركي (٣٧٥هـ)** أحد أئمّة الشافعيّة في زمانه، درس بنيسابور مدّة ثمّ سكن بغداد إلى أن مات بها، انتهى إليه التدريس ببغداد، وكانت له حلقة للفتوى، وانتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي ببغداد، وعنه أخذ عامّة شيوخها وغيرهم من أهل الآفاق، ومنهم الشيخ أبو حامد الإسفراييني بعد موت أستاذه أبي الحسن ابن المرزبان، فقال: ما رأيت أفقه منه.

له في المذهب وجوه جيّدة تدلّ على متانة علمه، وكان يسأل عن الفتوى فيجيب بعد تفكّر طويل، وربّما كانت فتواه مخالفة لمذهب الشافعي وأبي حنيفة، فيقال له في ذلك، فيقول الأخذ بما روي عن رسول الله ﷺ أولى من الأخذ بمذهب الشافعي وأبي حنيفة، ومخالفتهما أسهل من مخالفة الحديث[١].

*** أبو القاسم عبدالواحد بن الحسين الصيمريّ (٣٨٦هـ)** سكن البصرة، فارتحل إليه الناس للأخذ عنه، تفقّه به الإمام الماوردي ـ الآتي ترجمته ـ.

كان حافظاً للمذهب حسن التصنيف، من مصنّفاته الكفاية في فروع الفقه الشافعي وله عليه شرح[٢].

*** أبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الإسفراييني (٣٤٤هـ ـ ٤٠٦هـ)** شيخ العراق وإمام الشافعيّة في زمانه، قدم بغداد في سنّ العشرين، فدرس الفقه على أبي الحسن ابن المرزبان، ثمّ على أبي القاسم الداركي، ولم يزل تترقّى به الأحوال حتّى انتهت إليه رئاسة الشافعيّة ببغداد، وطبق الأرض بالأصحاب، وكان مجلسه يجمع سبعمائة متفقّه.

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٧ ـ ١١٨، البداية والنهاية ٣٠٤/١١، شذرات الذهب ٢٠٣/٣ النجوم الزاهرة ١٤٨/٤، وفيات الأعيان ١٨٨/٣ ـ ١٨٩، طبقات الشافعيّة الكبرى ٣٣٠/٣ ـ ٣٣٣.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٥، طبقات الشافعيّة الكبرى ٣٣٩/٣.

اتّفق الموافق والمخالف على تفضيله وتقديمه في جودة الفقه وحسن النظر، وكان أبو الحسين القدّوري إمام أصحاب أبي حنيفة في عصره، يعظّمه ويفضّله على كلّ أحد.

صنّف الرونق في فروع الشافعيّة المعروف أيضاً بالمختصر، وله كتاب في أصول الفقه، والتعليقة الكبرى في شرح المزني، ذكر فيها خلاف العلماء وأقوالهم ومآخذهم ومناظراتهم حتّى كان يقال له الشافعي الثاني، وكان الناس في وقته يقولون: لو رآه الشافعي لفرح به[1].

* **أبو الحسن أحمد بن محمد بن أحمد بن القاسم الضبّي (٣٦٨هـ ـ ٤١٥هـ)** شيخ الشافعيّة، المشهور **بـابن المحاملي** ، تفقّه على الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وبرع فيه حتّى إنّ الشيخ كان يقول: هو اليوم أحفظ للفقه منّي.

كان عديم النظير في الذكاء والفطنة، ورزق من حسن الفهم ما أربى فيه على أقرانه، درّس ببغداد، وصنّف مصنّفات كثيرة في المذهب والخلاف، منها اللباب، والمقنع: اشتمل على فروع كثيرة بعبارة مختصرة، والمجموع: اشتمل على نصوص كثيرة للإمام الشافعي، ورؤوس المسائل: يذكر فيه أصول المسائل ويستدلّ عليها، والتجريد: وغالبه فروع عارية عن الاستدلال، وغيرها من المصنّفات[2].

* **أبو الحسن عليّ بن محمد الماوردي البصري (٤٥٠هـ)** أحد أئمّة أصحاب الوجوه، كان عالماً بارعا متفنّنا، من وجوه الفقهاء الشافعيين.

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٣ ـ ١٢٤، البداية والنهاية ٢/١٢ ـ ٣، طبقات الشافعيّة الكبرى ٦٥/٤ ـ ٧٤، كشف الظنون ٦٩٦/٢، شذرات الذهب ٣٢٢/٣، النجوم الزاهرة ٢٣٩/٤، وفيات الأعيان ٧٢/١ ـ ٧٤.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٩، طبقات الشاقعية الكبرى ٤٨/٤ ـ ٥٦، البداية والنهاية ١٨/١٢، شذرات الذهب ٣٥٢/٣، هديّة العارفين ٧٢/١، النجوم الزاهرة ٢٦٢/٤، كشف الظنون ٣٠٤/١ ٦٨٣، و٤٥٤/٢، ٥٠١، ٦٥٢، وفيات الأعيان ٧٤/١ ـ ٧٥.

تفقّه على أبي القاسم الصيرمي بالبصرة، وارتحل إلى أبي حامد الإسفراييني، ودرس بالبصرة وبغداد سنين كثيرة، ولّي قضاء بلدان شتّى ثمّ سكن بغداد.

كان الإمام الماوردي قد سلك طريقة في ذوي الأرحام يورّث القريب والبعيد على السويّة، وهو مذهب بعض المتقدّمين، فجاءه يوماً السينيزي مع أصحاب له، فصعد إلى المسجد وصلّى ركعتين ثمّ التفت إليه فقال له: أيّها الشيخ اتّبع ولا تبتدع، فقال: بل أجتهد ولا أقلّد.

وكان ذا منزلة من ملوك بني بويه، عظيم القدر مقدّما عندهم، يرسلونه في التوسّطات بينهم وبين من يناوئهم، ويرتضون بوسطاته ويقنعون بتقريراته، لقّب بأقضى القضاة منذ سنة ٤٢٩هـ، وجرى من الفقهاء كأبي الطيّب الطبري والصيرميّ إنكار لهذه التسمية.

قال: بسطت الفقه في أربعة آلاف ورقة - يعني في كتاب الحاوي - واختصرته في أربعين - يعني في الإقناع المختصر - صنّف تصانيف عديدة في أصول الفقه وفروعه، وفي تفسير القرآن، وفي الأحكام السلطانيّة، ولم يبرز شيئاً من مصنّفاته في حياته، وإنّما أوصى رجلاً من أصحابه إذا حضره الموت أن يضع يده في يده، فإن رآه قبض على يده فلا يخرج من مصنّفاته شيئاً، وإن رآه بسط يده فهي علامة قبولها فليخرجها، فبسطها[1].

*** أبو الطيّب طاهر بن عبدالله بن طاهر الطبري (٣٤٨هـ - ٤٥٠هـ)**

تفقّه على أعلام الفقهاء بجرجان، ثمّ ارتحل إلى نيسابور فبقي بها أربع سنين يتفقّه على أعلامها، ثمّ ارتحل إلى بغداد، وهناك تولّى سنة ٤٣٦هـ قضاء ربع الكرخ ببغداد بعد الصيمريّ، وبقي على القضاء إلى أن مات

(١) معجم الأدباء ١٩٥٥/٥ - ١٩٥٧، طبقات الشافعية الكبرى ٢٦٧/٥ - ٢٨٥، البداية والنهاية ٨٠/١٢، طبقات المفسّرين للداوودي ٢٩٢ - ٢٩٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ١٢٩، النجوم الزاهرة ٦٤/٥، شذرات الذهب ٤٦٣/٣ - ٤٦٤، هديّة العارفين ٦٨٩/١، كشف الظنون ٨٠/١، ٩٩، ١٦٥، ٤٩٠، و٥٥٢/٥، وفيات الأعيان ٢٨٢/٣ - ٢٨٤.

وهو ابن مائة وسنتين، وكان يفتي إلى آخر حياته مع الفقهاء ويستدرك عليهم الخطأ ويقضي ويشهد ويحضر المواكب في دار الخلافة، ولم يختلّ عقله ولا تغيّر فهمه، ولا ضعف جسده، حتّى روي أنّه اجتاز يوماً بنهر فوثب وثبة عظيمة، وقال: عظام حفظها الله في صغرها فقوّاها في كبرها.

وروي عنه أنّه رأى النبيّ ﷺ في المنام، وقال له: يا فقيه، فكان يفرح بذلك ويقول: سمّاني رسول الله ﷺ فقيهاً.

كان عارفاً بالأصول والفروع محقّقا صحيح المذهب، له مناظرات مع أبي الحسين القدوري وأبي الحسين الطالقاني الحنفيين، وفيه قال تلميذه أبو إسحاق الشيرازي: لم أر فيمن رأيت أكمل اجتهاداً وأشدّ تحقيقاً وأجود نظراً منه.

شرح مختصر المزني وصنّف في الخلاف والمذهب والأصول والجدل كتباً كثيرة.

قال أبو إسحاق الشيرازي: لازمت مجلسه بضع عشرة سنة، ودرّست أصحابه في مسجده بإذنه، ورتّبني في حلقته، وسألني أن أجلس في مجلسه للتدريس ففعلت ذلك في سنة ٤٣٠هـ.

وإذا أطلق أبو إسحاق الشيرازي وأمثاله من العراقيين لفظ القاضي مطلقاً في فنّ الفقه فإيّاه يعنون(١).

وهكذا كان الشيوخ ينهجون الطرق التطبيقيّة في حلقات التعليم والتدريس، فكانوا يعوّدون تلاميذهم ممّن يأنسون فيهم قدرة ونباهة، وممّن يلمسون فيهم حسن فهم وشدّة ذكاء، على جلوس مجلسهم، والتدريس

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٧ ـ ١٢٨، البداية والنهاية ٧٩/١٢، طبقات الشافعيّة الكبرى ١٧٦/٣ ـ ١٩٧، شذرات الذهب ٤٦١/٣ ـ ٤٦٢، كشف الظنون ٥٢٤/٢، وفيات الأعيان ٥١٢/٢ ـ ٥١٥، طبقات الشافعيّة الكبرى ١٢/٥ ـ ٥٠.

بحضرتهم، وكذلك كان يفعل كلّ جيل من الشيوخ مع تلاميذه، فشباب هذه المرحلة هم شيوخ المرحلة القادمة كما كان شيوخ هذه المرحلة شباب المرحلة السابقة.

وكان إلى جانب هؤلاء الأعلام البارزين جمع من الفقهاء من أصحاب أبي القاسم الداركي شاركوا نظراءهم في التدريس والتصنيف على المذهب الشافعي، من أمثال **أبي محمد عبدالله بن محمد الخوارزمي البافي** الذي درّس ببغداد بعد الداركي[(١)]، **وأبي أحمد عبدالوهاب بن محمد بن رامين البغدادي** الذي سكن البصرة ودرّس بها[(٢)]، **وأبي عبدالله محمد بن عبدالله البيضاوي** الذي سكن بغداد وكان حافظاً للمذهب والخلاف موفّقا في الفتاوى[(٣)].

ومن أصحاب أبي حامد الإسفراييني: **القاضي أبو العبّاس الأبيوردي** الذي ولّي القضاء ببغداد[(٤)]، **وأبو القاسم منصور بن عمر الكرخي** ، **وأبو نصر أحمد بن عبدالله الثابتي البخاري** اللذان درّسا ببغداد، وصنّفا في المذهب، وكان لكلّ منهما تعليقة عن شيخهما أبي حامد الإسفراييني[(٥)]، وغير هؤلاء كثيرون.

وأمّا المذهب الحنبلي فمن نبغائه الذين أسهموا في نشاط الحركة الفقهيّة ونشر المذهب بالعراق، نذكر:

* **أبو عبدالله عبيدالله بن محمد بن حمدان العكبري (٣٨٦هـ)** المعروف **بابن بطة** أحد علماء الحنابلة، سمع من أعلام لا يحصون، أفتى

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٣.
(٢) المصدر السابق ص ١٢٥.
(٣) نفس المصدر ص ١٢٦.
(٤) نفس المصدر ص ١٢٩.
(٥) نفس المصدر ص ١٣٠.

وهو ابن خمس عشرة سنة، وأثنى عليه غير واحد من الأئمّة، له تصانيف كثيرة حافلة تزيد على مائة في فنون من العلم، وقيل إنّه توفّي سنة ٣٨٧هـ[(١)].

*** أبو عبدالله الحسن بن حامد بن علي بن مروان البغدادي (٤٠٣هـ)** إمام الحنابلة وفقيههم في زمانه ومدرّسهم ومفتيهم، وعليه تفقّه أبو يعلى الفرّاء ـ الآتي ترجمته ـ كان معظّماً في النفوس مقدّماً عند السلطان، ولا يأكل إلاّ من كسب يديه من النسج.

ناظر أبا حامد الإسفراييني في وجوب الصيام ليلة الغمام في منزل الخليفة القادر بالله، فأعطاه الخليفة الجائزة السنيّة، فردّها ابن حامد مع حاجته إلى بعضها فضلاً عن جميعها تعفّفا وتنزّها.

له مصنّفات مشهورة في علوم مختلفة منها كتاب الجامع في اختلاف العلماء وله مصنّفات في أصول الفقه وأصول الدين وشرح الخرقي[(٢)].

*** أبو عليّ محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشمي البغدادي (٣٤٥هـ ـ ٤٢٨هـ)** صاحب التصانيف، وإليه انتهت رئاسة المذهب، كان رفيع القدر بعيد الصيت سامي الذكر، له القدم العالي والحظّ الوافر عند الخليفتين القادر بالله والقائم بأمر الله، وكانت له حلقة بجامع المنصور للإفتاء والتدريس.

قال أبو إسحاق الشيرازي: كان حسن الفتيا معظّماً لأهل العلم، حضرت حلقته وانتفعت به كثيراً.

---

(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ١٨٥/٢ ـ ١٩٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٣، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٦، ٢٧، البداية والنهاية ٣٢١/١١ ـ ٣٢٢، شذرات الذهب ٢٥١/٣ ـ ٢٥٢.

(٢) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢٢٢/٢ ـ ٢٣١، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٢، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٤٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٣، النجوم الزاهرة ٢٣٢/٤، البداية والنهاية ٣٤٩/١١، شذرات الذهب ٣٠٧/٣ ـ ٣٠٨.

صنّف الإرشاد في فروع المذهب وشرح كتاب الخرقي[١].

* **القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفرّاء البغدادي (٣٨٠هـ ـ ٤٥٨هـ)** فقيه عصره وعلّامة زمانه، شيخ الحنابلة ومجتهد المذهب، وممهّد مذهبهم في الفروع، كان إماماً لا يدرك له قرار، ولا يشقّ له غبار، جميع الحنابلة يعترفون بفضله ويغترفون من بحره.

حدّث عن أبي الحسن عليّ بن محمد الحربي وطبقته، وتفقّه على أبي عبدالله بن حامد وغيره من علماء عصره، وصنّف التصانيف الكثيرة في المذهب منها مسائل الخلاف وعيون المسائل والأحكام السلطانيّة، والمجرّد في الأصول، والمجرّد في فضائل الإمام أحمد، وغيرها.

درّس وأفتى سنين، وإليه انتهت رئاسة المذهب بالعراق.

جمع الإمامة والفقه والصدق، وحسن الخلق، والتعبّد والزهد والخشوع، وحسن السمت والصمت عمّا لا يعنيه[٢].

ومن العلماء الفقهاء أمثال هؤلاء:

* **الحسن بن أحمد بن عبدالله بن البناء البغدادي (٣٩٦هـ ـ ٤٧١هـ)** الفقيه المقرىء المحدّث، أحد تلاميذ القاضي أبي يعلى ومن قدماء أصحابه، قرأ القراءات السبع، وسمع الحديث، ودرس الفقه كثيراً وأفتى زمانا طويلا، وكان محبّا لأهل العلم، صنّف تصانيف كثيرة في علوم القرآن والحديث والفقه والفرائض والأصول والفروع، وفي علوم عدّة، حتّى بلغت تصانيفه خمسمائة مصنّف.

---

(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢/٢٤٠ ـ ٢٤٥، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٣ ـ ١٧٤، شذرات الذهب ٣/٣٩٧ ـ ٤٠٠، كشف الظنون ١/١١٥.

(٢) طبقات الحنابلة ٢/٢٥٩ ـ ٣٠٧، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٧، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٨ ـ ٢٩ و٥٠ ـ ٥١، البداية والنهاية ١٢/٩٤ ـ ٩٥ هديّة العارفين ٢/٧٢، كشف الظنون ١/٨٠ و٢/٤٩١ ـ ٤٩٢، ٥٤٨.

وهو أحد شرّاح مختصر الخرقي، ومن كتبه المشهورة: المجرّد في المذهب[١].

وغير هؤلاء من نظرائهم، مثل: **أبي طاهر محمد بن أحمد بن محمد الغباري (٤٣٢هـ)** الذي كانت له حلقتان إحداهما بجامع المنصور، والأخرى بجامع الخليفة[٢]، ومثل: **أبي طالب أحمد بن عبدالله بن سهل (٤٤٠) المعروف بابن البقال**، صاحب الفتيا والنظر، الذي كانت له حلقة هو الآخر بجامع المنصور[٣].

وإلى جانب هؤلاء العلماء، اشتهرت أسر علميّة نشطت في نشر المذهب الحنبلي بالعراق وحافظت على وجوده وانتشاره الواسع، فخلّد الدهر ذكراها وحفظ التاريخ أسماءها وألقابها، وأشهر هذه الأسر:

* أسرة العكبري: ـ نسبة إلى بلدة عكبرا قرب بغداد ـ التي ورثت العلم في المذهب الحنبلي لأدوار عديدة، فكان منهم من أصحاب الأدوار السابقة: جهم العكبري الذي روى عن الإمام أحمد رأيه في عدم جواز قراءة القرآن بالألحان[٤]، وعصمة ابن أبي عصمة العكبري الذي روى عن الإمام أحمد مسائل كثيرة، ومحمد بن روح العكبري صديق الإمام أحمد، حيث كان الإمام إذا نزل عكبرا ينزل عنده، وعمر بن محمد بن رجاء العكبري تلميذ عبدالله بن أحمد[٥].

وبرز منهم في هذا الدور بالخصوص: أبو عبدالله بن بطّة العكبري ـ

---

(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ٣٢٦/٢ ـ ٣٢٧، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٢، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٤٩ و٥١ ـ ٥٢، شذرات الذهب ٣١/٤، تذكرة الحفاظ ١١٧٦/٣ ـ ١١٧٧، النجوم الزاهرة ١٠٧/٥، هديّة العارفين ٢٧٦/١، معجم البلدان ٨٢٣/٢ ـ ٨٢٤، غاية النهاية ٢٠٦/١.

(٢) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢٤٩/٢، شذرات الذهب ٤١١/٣.

(٣) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢٥٠/٢ ـ ٢٥١، شذرات الذهب ٤٣٢/٣.

(٤) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٥.

(٥) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٦.

وقد مرّت ترجمته ـ، وأبو حفص عمر بن إبراهيم أبو حفص العكبري (٣٨٧هـ) المعروف بابن المسلم، تلميذ الخلال، وصاحب المقنع شرح الخرقي[١]، وأبو عليّ الحسن بن شهاب العكبري (٤٢٨هـ) الفقيه الشاعر[٢]، وأبو الحسن علي ابن الحسن العكبري (٤٦٨هـ) المعروف بابن جدا[٣].

ويبقى نشاط هذه الأسرة في المذهب الحنبلي يتوارث إلى الدور القادم، حيث يبرز منهم: أبو ياسر محمد ابن عبدالله العكبري (٤٩٦هـ) الذي سمع من القاضي أبي يعلى[٤]، وكذلك أبو المواهب الحسن بن محمد العكبري من أصحاب القاضي أبي يعلى وصاحب رؤوس المسائل في الفقه[٥]، وأهل عكبرا كثر في تاريخ المذهب الحنبلي.

* **أسرة أبي يعلى**: التي كان منها في هذا الدور القاضي أبي يعلى ـ وقد تقدّمت ترجمته ـ ثمّ ابنه أبو القاسم عبيدالله بن الحسين الفرّاء (٤٤٣هـ ـ ٤٦٩هـ) الذي كان كثير الدرس، وكان يتكلّم مع شيوخ عصره رغم صغر سنّه، فقد مات وله ستّ وعشرون سنة[٦].

ويستمرّ نشاط هذه الأسرة في الدور القادم مع محمد بن محمد بن الحسن (٤٥١هـ ـ ٥٢٦هـ) ابن شيخ المذهب القاضي أبي يعلى، وكذلك مع محمد بن محمد بن الحسن ابن أبي يعلى، صاحب التبصرة في الخلاف ومختصر الخرقي[٧].

---

(١) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢/٢١١ ـ ٢١٥، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٣، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٧.
(٢) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢/٢٤٥ ـ ٢٤٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٤، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٧، شذرات الذهب ٣/٤٠٠ ـ ٤٠١.
(٣) طبقات الفقهاء الحنابلة ٢/٣١٥، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٧.
(٤) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٧.
(٥) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٧.
(٦) شذرات الذهب ٤/٢٥، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٨.
(٧) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٨.

* **أسرة الأزجي**: التي قامت بنفس الدور في الحفاظ على المذهب ونشره، وكان أفرادها قد عاشوا في القرنين الرابع والخامس، وتنقّل أفرادها بين العراق وإيران، وكان منهم المحدّث والفقيه والواعظ(١).

* **أسرة الجيلي**: وقد نبغ أفراد هذه الأسرة خصوصا في الدور القادم، وكان منهم عبدالصمد بن بديل الجيلي (٥٧١هـ) تلميذ القاضي أبي يعلى، وقد كان من القرّاء مع فقه وإفتاء، وكذلك أحمد بن صالح بن شافع الجيلي الذي أخذ الحديث عن علماء عصره، وكذلك ابن أبي طاهر بن محمد الجيلي (٥٨٩هـ) الفقيه المقرىء(٢).

وأمّا أهل الظاهر فقد ذكر أبو إسحاق الشيرازي أنّ مذهبهم قد انقرض لهذا الحين(٣)، ومن وجد منهم في بغداد فإنّما كان يقدم من شيراز، كما هو الحال بالنسبة **لأبي الحسن عبدالعزيز بن أحمد (٣٩١هـ) الجزري** إمام أهل الظاهر في عصره، ومن أفاضل أصحابه ومصنّفيهم، قدم من شيراز في صحبة الملك عضد الدولة، فاشتغل عليه فقهاء بغداد، وكان على القضاء سنة ٣٧٧هـ، وكان من نظراء أبي حامد الإسفراييني الشافعي، وله من الكتب كتاب مسائل الخلاف(٤).

وممّن أخذ عنه ابن له، يقول عنه الشيرازي: رأيته وكان يناظر(٥)، وأخذ عنه **القاضي أبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن إسماعيل بن عبيدالله بن الأخضر**، وكان من أجلاء شهود قاضي القضاة ببغداد(٦).

---

(١) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٢٩.
(٢) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٣٠.
(٣) طبقات الفقهاء ص ١٧٩.
(٤) طبقات الفقهاء ص ١٧٨، شذرات الذهب ٢٦٩/٣، البداية والنهاية ٣٣٠/١١، الفهرست ص ٢٧٣.
(٥) طبقات الفقهاء ص ١٧٨.
(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

وأمّا الشيعة فقد كان لهم بالعراق أنصار كثيرون، وغالبا ما كانت تحدث بينهم وبين أهل السنّة ببغداد سخف لا تنحصر ولا تنضبط، وتجري بينهم الفتن العظيمة، التي تصل أحياناً إلى ما يزيد على الحدّ من الجرح والقتل وحرق الدور، حتى كان يستعصي على أولي الأمر الحجز بين الفريقين[(١)].

ومن أشهر أعلام الشيعة ببغداد الذين نلتقي بهم في هذه المرحلة نذكر:

* **أبو عبدالله أحمد بن محمد بن عبيدالله بن الحسن الجوهري (٤٠١هـ)** البغدادي، وكان عالماً في الفقه ومحدّثا، صنّف مقتضب الأثر في الأئمّة الاثني عشر[(٢)].

* **المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان البغدادي (٣٣٣هـ - ٤١٣هـ)** المعروف **بابن المعلّم**، عالم الشيعة ولسان الإماميّة، ورئيس الكلام والفقه والجدل، كان يناظر أهل كلّ عقيدة مع الجلالة العظيمة في الدولة البويهيّة، وكان كثير الصدقات عظيم الخشوع كثير الصلاة والصوم، وصنّف تصانيف كثيرة، بلغت أكثر من مائتي مصنّف منها: كتاب المقنعة، وكتاب المجالس، وقد يكون هو نفسه كتاب الأمالي الذي طبع في النجف، ويعرف أيضاً بكتاب الاختصاص، وله أيضاً كتاب الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، وهو يبحث في تاريخ الأئمة الاثني عشر[(٣)].

* **أبو طالب عليّ بن الحسين الموسوي الملقّب بالشريف المرتضى (٣٥٥هـ - ٤٣٦هـ)** نقيب الطالبيين، وشيخ الشيعة، وعالم الإماميّة ورئيسهم بالعراق، كان إمام أئمّة العراق على الاختلاف والاتّفاق، إليه فزع علماؤها،

---

(١) البداية والنهاية ٢/١٢، ٦، ٥٩، ٦٢، ٦٤، ٦٦، شذرات الذهب ٢٦٠/٣، ٢٨٦.

(٢) تاريخ التراث العربي ٣٠٩/٣ - ٣١٠، معجم المؤلفين ١٢٦/٢.

(٣) شذرات الذهب ٣٤٨/٣، النجوم الزاهرة ٢٥٨/٤، هديّة العارفين ٦١/٢، الأعلام ٢٤٥/٧، معجم المؤلفين ٣٠٦/١١، تاريخ التراث العربي ٣١٠/٣ - ٣١١.

وعنه أخذ عظماؤها، كان متبحّرا في فنون العلم، يناظر عنده في كلّ المذاهب، وكان كثير التصانيف على مذهب الشيعة في الأصول والفروع، وله كتاب سمّاه الدرر والغرر، في مجالس أملاها تشتمل على فنون في معاني الأدب، وهو كتاب يدلّ على فضل كثير وتوسّع في الاطّلاع على العلوم[١].

* **أبو جعفر محمد بن الحسن بن عليّ الطّوسي (٤٦١هـ)** فقيه الشيعة ومصنّفهم، قدم بغداد وتفقّه على مذهب الشافعي، ثمّ انتقل إلى المذهب الشيعي، وقرأ الأصول والكلام على فقيه الإماميّة أبي عبدالله المفيد، صنّف مصنّفات كثيرة على مذهب الإماميّة وجمع تفسير القرآن وأملى أحاديث وحكايات كثيرة، وقد أحرقت كتبه عدّة مرّات بمحضر من الناس في رحبة جامع القصر ببغداد، وأحرقت داره، واستتر هو خوفا على نفسه بسبب ما كان يظهره من انتقاص السلف، وجاور مشهد الإمام عليّ بن أبي طالب بالكوفة من سنة ٤٤٨هـ إلى أن توفّي بها ودفن هناك[٢].

ـ ٣ ـ بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر:

حمل الشافعيّة لواء العلم في هذه المرحلة بهذه البلاد، وعمّ أتباعهم سائر أنحائها، وملأ تلاميذهم مساجدها وجوامعها، وكان لمذهب أهل الظاهر نوعا من المشاركة في هذا النشاط خاصّة بشيراز، وأمّا الحنفيّة فقد كان نشاطهم ببعض مناطق هذا المراكز يوازي نشاط الشافعيّة أو يكاد.

إيران:

فأمّا في إيران فنلقى من أعلام الشافعيّة: **أسـرة الإسمـاعيلي** التـي

---

(١) شذرات الذهب ٣/٤٢٠ ـ ٤٢٢، البداية والنهاية ١٢/٥٣، هديّة العارفين ١/٦٨٨، وفيات الأعيان ٣/٣١٣ ـ ٣١٧، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق ٤/مج ٢/٤٦٥ ـ ٤٧٥، تذكرة الحفاظ ٣/١١٠٩، معجم الأدباء ٤/١٧٢٨ ـ ١٧٣٣.

(٢) طبقات المفسّرين ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨، النجوم الزاهرة ٥/٨٢، البداية والنهاية ١٢/٩٧.

قامت على نشر المذهب بجرجان ـ مدينة إيرانيّة شرقيّ بحر قزوين ـ واستمرّ نشاط هذه الأسرة لأربعة قرون، من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الثامن، وكان من أشهر أبنائها في هذه المرحلة:

* **أبو سعد إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي (٣٣٣هـ ـ ٣٩٦هـ)** شيخ الشافعيّة بجرجان وابن شيخهم أبي بكر الإسماعيلي، كان إمام زمانه، مقدّما في الفقه والأصول والعربيّة والشروط والكلام، وغيرها من العلوم.

جمع بين رئاسة الدين والدنيا بجرجان، وعلى يديه تخرّج جماعة من أهل العلم والفقه، وكان سخيّا على أهل العلم.

ورد أبو سعد بغداد فعقد له الفقهاء مجلسين، تولّى أحدهما أبو حامد الإسفراييني، وتولّى المجلس الثاني أبو محمد الباني.

قال ابن كثير: وله ورع ورئاسة إلى اليوم في بلده إلى ولده[1].

توفّي فجأة وهو قائم يصلّي في المحراب، في صلاة المغرب، فلمّا قرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فاضت نفسه، وله ثلاث وستّون سنة[2].

وفيه وفي أخيه أبي نصر وأبيهما أبي بكر، قال الصاحب بن عبّاد في رسالته: «وأمّا الفقيه أبو نصر فإذا جاء حدّثنا وأخبرنا فصادع وصادق ونقد ناطق، وأمّا أنت أيّها الفقيه أبا سعد، فمن يراك كيف تدرّس وتفتي وتحاضر وتروي وتكتب وتملي، علم أنّك الحبر ابن الحبر، والبحر ابن البحر، والضياء ابن الفجر، وأبو سعد ابن أبي بكر، فرحم الله شيخكم

---

(١) البداية والنهاية ٣٣٦/١١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢١، شذرات الذهب ٢٨٢/٣، البداية والنهاية ٣٣٦/١١.

الأكبر، فإنّ الثناء عليه غنم، والنساء بمثله عقم، فليفخر به أهل جرجان ما سال واديها وأذّن مناديها(١).

* **أبو معمر المفضل بن إسماعيل بن أبي بكر، أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي (٤٣١هـ)** مفتي جرجان وعالمها وابن عالمها، ورئيسها وابن رئيسها، ومسندها، حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، كان أحد أذكياء زمانه، روى عن جدّه وجماعة كثيرة، ورحل به والده فورد بغداد ومكّة وغيرها من المراكز، وبيته بيت علم ودين وسؤدد(٢).

* **ومنهم أبو عبدالله ـ وقيل أبو عبدالرحمٰن ـ محمد بن الحسن بن إبراهيم (٣٨٦هـ)** المعروف بالختن لأنّه كان ختن أبي بكر الإسماعيلي، كان فقيهاً فاضلا، مقدّما في الأدب ومعاني القرآن والقراءات، ومن العلماء المبرّزين في النظر والجدل، وصاحب وجه، وله وجوه حسنة في المذهب، شرح التلخيص لأبي العباس بن القاص(٣).

ومن أعلام جرجان لهذه المرحلة:

* **قاضي القضاة أبو عبدالله الحسين بن عليّ بن جعفر (٣٦٨هـ ـ ٤٤٧هـ) المعروف بابن ماكولا** الجرباذقاني ـ نسبة إلى جرباذقان قرب جرجان، وقيل قرب أصبهان ـ، سمع بأصبهان، وكان عارفاً بمذهب الشافعي.

يعدّ ابن ماكولا من بين الأعلام الذين انتفع بهم المركز العراقي، إذ أنّه قد تولّى قضاء القضاة ببغداد منذ سنة ٤٢٠هـ، وكان قد ولِّي قبلها

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢١.
(٢) شذرات الذهب ٤١٠/٣، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣١/٥ ـ ٣٣٢.
(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢١، شذرات الذهب ٢٤٧/٣، النجوم الزاهرة ١٧٥/٤، طبقات المفسّرين ص ٣٨١.

قضاء البصرة، واستمرّ على قضائه إلى حين وفاته، ولم ير في زمانه قاض أعظم نزاهة منه(١).

وهذا يعني أنّه قد أمضى ببغداد ٢٧ سنة على خطّة القضاء، فضلاً عن فترة قضائه بالبصرة، فيكون نشاطه العلمي بذلك قد انقسم إلى فترتين اثنتين، فترة أولى، قضّاها بإيران لمع فيها اسمه، وذاع فيها صيته، وفترة ثانية: تحوّل فيها إلى العراق فأظهر علماً وافرا، ومعرفة بشؤون الحكم ونزاهة، حتّى قال الخطيب البغدادي: ولم نر قاضيا أعظم نزاهة منه.

ومن أعلام الدينور ـ مدينة قديمة في الجبال بإيران ـ:

*** القاضي أبو القاسم يوسف بن أحمد بن كجّ الدينوري (٤٠٥هـ)**

أحد أئمّة الشافعيّة، وصاحب الإمام أبي الحسين بن القطّان، حضر مجلس أبي القاسم الدّاركي، ومجلس أبي حامد المروزي.

انتهت إليه رئاسة المذهب ببلده، ووُلِّي القضاء بها، ورحل الناس إليه رغبة في علمه، وكان يضرب به المثل في حفظ المذهب.

وروي أنّ عالم خراسان الشيخ أبا عليّ السنجي ـ تأتي ترجمته لاحقا ـ لمّا انصرف من عند الشيخ أبي حامد الإسفراييني ببغداد، اجتاز بالقاضي ابن الكجّ الدينوري، فلمّا رأى علمه وفضله، قال له: يا أستاذ، الاسم لأبي حامد، والعلم لك، فقال له ابن الكجّ: ذاك رفعته بغداد، وحطتني الدينور.

من مصنّفات: كتاب التجريد، ويعدّ ابن الكجّ صاحب وجه، وله في المذهب وجوه غريبة(٢).

وذكر أبو إسحاق الشيرازي في طبقاته، طائفة من أعلام الشافعيّة

---

(١) شذرات الذهب ٤٤٩/٣، طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٩/٤.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٨، شذرات الذهب ٣٢٠/٣ ـ ٣٢١، هديّة العارفين ٥٥٠/٢، البداية والنهاية ٣٥٥/١١، وفيات الأعيان ٦٥/٧، طبقات الشافعيّة الكبرى ٣٥٩/٥ ـ ٣٦١.

بإيران لهذه المرحلة، فقال: «وبفارس خلق كثير من أصحابنا: منهم أبو الفتح ابن فارس، ومنهم شيخنا القاضي أبو عبدالله الجلاّب خطيب شيراز وفقيهها، وكان نظّارا فصيحا أديبا، قال: درست عليه بشيراز، ومنهم أبو القاسم الطبقي، ومنهم أبو عبدالله البويطي الشيرازي، وأبو عبدالله الغضائري الفسوي صاحب أبي محمد الاصطخري، ومنهم شيخي أبو عبدالله محمد بن عمر الشيرازي من أصحاب أبي حامد، ومنهم شيخي أبو أحمد عبدالرحمٰن بن الحسين الغندجاني من أصحاب أبي حامد الإسفراييني[(١)].

وأخذ فقهاء شيراز الفقه عن **أبي نصر ابن الحناط** الفقيه الأصولي الشيرازي، وكان **أبو الحسين أحمد بن الحسين الفناكي (٤٤٨هـ)** يدرّس ببروجرد ـ مدينة إيرانيّة في لورستان غرب إيران على الحدود العراقيّة ـ، وكان قد تفقّه على الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وعلى أبي عبدالله الحليمي، وأبي طاهر الزيادي وسهل الصعلوكي، وكان الفقيه الحافظ الصالح **أبو عليّ الحسن بن محمد بن إبراهيم الكواري** ـ نسبة إلى بلدة إيرانيّة قرب شيراز ـ صاحب الشيخ أبي حامد الإسفراييني قد ولّي القضاء بالأهواز ـ جنوب غربي إيران على نهر كارون في إقليم خوزستان على حدود العراق ـ ودرّس بها سنين، وكان الفقيه العالم بالحديث **أبو الحسن عليّ بن أحمد النعيمي (٤٢٣هـ)** يدرّس بالأهواز، وكان **أبو حاتم محمود بن الحسن الطبري المعروف بالقزويني** قد تفقّه بآمل ـ مدينة إيرانيّة في سهل مازندران جنوبي بحر القزوين ـ على شيوخ البلد، ثمّ قدم بغداد ودرس الفرائض وأصول الفقه، ثمّ عاد إلى آمل ليدرّس بها، بعد أن درّس مدّة ببغداد، وأصبح حافظاً للمذهب والخلاف، وصنّف كتبا كثيرة في الأصول والفروع والجدل والخلاف، وفيه قال أبو إسحاق الشيرازي: لم أنتفع بأحد في الرحلة كما انتفعت به وبالقاضي أبي الطيّب الطبري[(٢)].

---

(١) طبقات الفقهاء ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٢، ١٢٨، ١٣٠، ١٣١.

وأمّا أهل الظاهر فكان منهم[١]:

* **القاضي أبو عليّ الداودي** قاضي فيروزآباد - بلدة من إيران جنوبي شيراز - الذي أخذ عن أبي الحسن عبدالعزيز بن أحمد الجزري.

* **القاضي أبو الفرج الفامي الشيرازي**، الذي أخذ العلم عن أبي سعيد بشر بن الحسين، وكان إماماً في المذهب، وعنه أخذ فقهاء شيراز مذهب داود، قال أبو إسحاق: وكنت أناظره بشيراز وأنا صبيّ.

وبقي مذهب أهل الظاهر بعد ذلك بشيراز في جماعة من أصحاب أبي الفرج الفامي.

خراسان وما وراء النهر:

نال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة العبّاسي المأمون، فولاّهم ولاية خراسان وما وراء النهر، فساد حكمهم لهذه البلاد من منتصف القرن الثالث إلى أواخر القرن الرابع، ولمّا اضطرب حبل الأمور بإمارتهم وجد الغزنويون الفرصة سانحة فاستولوا على نيسابور وبخارى واستقرّت إمارتهم بخراسان، ووسّعوا سيادتهم في ناحية الهند، وضمّوا إليهم بلاد البنجاب نهائيّا وفارس، واستولوا على الريّ وإصبهان وغيرهما من البوهيين، وضمّوا إليهم خوارزم وطبرستان، حتّى امتدّ سلطانهم من لاهور إلى سمرقند وأصفهان وبقيت سيادتهم قائمة على هذه المناطق إلى منتصف القرن السادس[٢].

وكان الغزنويون سنّيين، ولذلك حاربوا أهل البدع والأهواء، وتتبّعوا الرافضة والإسماعليّة والقرامطة وغيرهم من الفرق، وصلبوهم ونفوهم

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٧٩.

(٢) شذرات الذهب ٣٧٤/٣، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ١٠٢/٣.

وشرّدوهم عن ديارهم، وكان بعضهم - كمحمود بن سبكتكين - كلفا بدراسة الحديث وغيره من علوم الدين[١].

وفي ظلّ هذه الدولة وجد فقهاء الحنفيّة والشافعيّة الأجواء الملائمة لانتشار مذهبيهما حيث لا منافس لهم من الحنابلة والمالكيّة من أهل السنّة، ولا معارض لهم من الشيعة الإماميّة أو غيرها من المذاهب.

فاشتهر من الحنفيّة:

* **القاضي أبو زيد عبدالله بن عمر بن عيسى (٤٣٠هـ) الدبّوسي** - نسبة إلى قرية واقعة بين بخارى وسمرقند - شيخ تلك الديار وأحد من يضرب به المثل في النظر واستخراج الحجج، ومن أجلّ كبار فقهاء الحنفيّة، وهو أوّل من وضع علم الخلاف وأبرزه إلى الوجود، كما قال ابن خلكان.

إليه انتهت رئاسة المذهب ببخارى وسمرقند وما والاهما، وكان له بها مناظرات، وقد روي أنّه ناظر فقيهاً فكان كلّما ألزمه أبو زيد حجّة تبسّم أو ضحك، فأنشد أبو زيد في ذلك:

ما لي إذا ألزمته حجّة قابلني بالضحك والقهقهة
إن ضحك المرء من فقهه فالدبّ بالصحراء ما أفقهه

له مصنّفات مفيدة منها كتاب الأسرار في الأصول والفروع، وكتاب تقويم الأدلّة في الأصول وكتاب الأمد الأقصى ويشتمل على حكم ونصائح في أحد عشر كتاباً، وكتاب تأسيس النظر، والنظم في الفتاوى[٢].

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ٣/٨٩، ١٠٢.

(٢) الفوائد البهية ١٠٩، الجواهر المضية ٢/٣١٩، و٣٩٩، تاج التراجم ١٣١، البداية والنهاية ١٢/٤٦ - ٤٧، كشف الظنون ١/١٢٥، ١٨٥، ٢٩١، ٣٨٠، وفيات الأعيان ٣/٤٨، النجوم الزاهرة ٥/٧٦ - ٧٧، وذكره في وفيات سنة ٤٥٧هـ.

*** أبو محمد شمس الأئمّة عبدالعزيز بن أحمد بن نصر الحلواني البخاري (٤٤٨هـ)** إمام أهل بخارى، تخرّج على يديه أئمّة كبار من أمثال الإمام السرخسي، وفخر الإسلام البزدوي.

من مصنّفاته: البسيط في علم الشروط، والمبسوط في الفقه، والفتاوى، وشرح أدب القاضي لأبي يوسف وشرح الجامع الكبير والسير الكبير كلاهما لمحمد بن الحسن الشيباني، وشرح الحيل الشرعيّة للخصاف، وكتاب النوادر، وغيرها.

ونقل حاجي خليفة في سنة وفات شمس الأئمّة تواريخ مختلفة، فمرّة سنة ٤٤٨هـ، ومرّة سنة ٤٤٩هـ، ومرّة سنة ٤٥٦هـ[(١)].

ونبغ من عظماء الشافعيّة جمع غفير انتفع بهم أهل خراسان ونيسابور وبخارى وهراة ونسا وخوارزم ومرو وسائر مدن وقرى هذه الأصقاع: ملأوا أنحاء هذه البلاد علماً، وعمّ نفعهم القاصي والداني، ومن هؤلاء:

*** أبو الحسن محمد بن عليّ بن سهل الماسرجسى (٣٨٤هـ) النيسابوري،** شيخ الشافعيّة، رحل بعد الثلاثين وكتب الكثير بالعراق والحجاز ومصر، وأخذ عن أبي إسحاق المروزي وصحبه إلى مصر، ولازمه إلى أن توفّي، فانصرف إلى بغداد ودرّس بها، ثمّ رجع إلى خراسان سنة ٣٤٤هـ، وبها توفّي.

كان أعرف الأصحاب بالمذهب وترتيبه، متقناً للمذهب، وعنه أخذ فقهاء نيسابور، وعليه تفقّه القاضي أبو الطيّب الطبري[(٢)].

*** أبو الطيّب سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي (٤٠٤هـ) النيسابوري،** مفتي خراسان ومجدّد القرن الرابع على قول، ومفتي نيسابور

---

(١) الفوائد البهية ٩٤، الجواهر المضية ٤٢٨/٢، تاج التراجم ١٢٧، كشف الظنون ٢١٦/٢، ٤٨٢، ٤٦٦/٥.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١١٦، شذرات الذهب ٢٣٥/٣، وفيات الأعيان ٢٠٢/٤.

وابن مفتيها، أخذ الفقه عن أبيه أبي سهل الصعلوكي، وكان في وقته يقال له الإمام، وكان عديم المثل في علمه وديانته، وكان فقيهاً أديباً متكلّماً.

وضع له في المجلس أكثر من خمسمائة محبرة، وجمع رئاسة الدنيا والدين، وعنه أخذ فقهاء نيسابور.

نقل عنه وعن والده أنّهما قالا: إنّ طلاق السكران لا يقع، وسئل سهل عن الشطرنج فقال: إذا سلم من الخسران، والصلاة من النسيان، فذلك أنس بين الإخوان(١).

* **أبو عمر محمد بن الحسين بن محمد بن الهيثم البسطامي (٤٠٨هـ)** قاضي نيسابور وشيخ الشافعية بها رحل وسمع الكثير بالعراق والأهواز وأصبهان وسجستان، ثمّ أملى وحدّث ودرّس المذهب.

كان في ابتداء أمره يعقد مجلس الوعظ والتذكير، ثمّ تركه وأقبل على التدريس والمناظرة والفتوى، وكان نظير أبي الطيّب سهل بن محمد الصعلوكي علماً وجاهاً.

ولي قضاء نيسابور سنة ٣٨٨هـ فأظهر أهل الحديث الفرح والاستبشار(٢).

* **أبو بكر محمد بن الحسن ابن فورك الأصبهاني (٤٠٦هـ)** تصدّر للإفادة بنيسابور، أقام بالعراق مدّة يدرّس، ثمّ توجّه إلى الريّ، وراسله أهل نيسابور والتمسوا منه التوجّه إليهم فلبّى طلبهم وورد نيسابور، فبني له بها مدرسة ودار، فأحيا الله تعالى به أنواعا من العلوم وظهرت بركته على جماعة المتفقّهة، وبلغت مصنّفاته في أصول الفقه والدين ومعاني القرآن قريباً من مائة مصنّف.

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٠، شذرات الذهب ٣/٣١٤ ـ ٣١٥، البداية والنهاية ١١/٣٤٧ وفيات الأعيان ٢/٤٣٥، طبقات الشافعية الكبرى ٤/٣٩٣ ـ ٤٠٤.

(٢) شذرات الذهب ٣/٣٣٣.

دعي إلى الهند وجرت له بها مناظرات عظيمة، فلمّا رجع إلى نيسابور سمّ في الطريق، فمات، ونقل إلى نيسابور فدفن بها[١].

*** أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيّادي (٣١٧هـ ـ ٤١٠هـ)** إمام المحدّثين والفقهاء بخراسان وفقيههم ومفتيهم بلا مدافعة، وعالم نيسابور ومسندها في زمانه بالاتّفاق، سلّم إليه الفقهاء الفتيا، وكانت له يد طولى في معرفة الشروط.

ابتدأ طلب العلم سنة ٣٢٨هـ، وعمره ١١ سنة، صنّف في علوم الشروط، وأملى ودرّس، وكان قانعا متعفّفا[٢].

*** أبو بكر عبدالله بن أحمد المعروف بالقفّال المروزي والقفّال الصغير (٤١٧هـ)** شيخ الشافعيّة بخراسان، وأحد أئمّة الشافعية الكبار علماً وزهدا وحفظا وتصنيفا، كان أوّل أمره يمتهن عمل الأقفال، وبرع في صناعتها، ولمّا بلغ سنّ الثلاثين آنس في نفسه ذكاء فأقبل على الفقه واشتغل به على أبي زيد الدبّوسي وغيره، حتى صار وحيد زمانه فقها وحفظا وورعا وزهدا وإماماً يقتدى به، وصار له في المذهب من الآثار ما ليس لغيره من أهل عصره.

رحل إليه الفقهاء من سائر البلاد، وعليه تفقّه أهل خراسان، وصار إمامهم وشيخ طريقة خراسان المهذّبة في مذهب الشافعي التي حملها عنه أصحابه[٣].

والقفّال الصغير هو غير القفّال الشاشي الكبير ـ الذي تقدّمت ترجمته

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٢٧/٤ ـ ١٣٥، وفيات الأعيان ٢٧٢/٤ ـ ٢٧٣، شذرات الذهب ٣٢٥/٣ ـ ٣٢٦، النجوم الزاهرة ٢٤٠/٤، هديّة العارفين ٦٠/٢.

(٢) شذرات الذهب ٣٣٨/٣، هديّة العارفين ٥٩/٢، طبقات الشافعيّة الكبرى ١٩٨/٤ ـ ٢٠١.

(٣) شذرات الذهب ٣٥٩/٣ ـ ٣٦٠، هديّة العارفين ٤٥٠/١، البداية والنهاية ٢١/١٢ ـ ٢٢، وفيات الأعيان ٤٦/٣، النجوم الزاهرة ٢٥٦/٤، طبقات الشافعية الكبرى ٥٣/٥ ـ ٦٢.

في علماء أهل خراسان وما وراء النهر خلال المرحلة السابقة من هذا الدور - وطريقة أصحاب المذهب في التفريق بينهما هو: أنّ القفّال الصغير لا يذكر غالبا إلاّ مطلقا، وهو شيخ الشافعيّة بخراسان، والقفّال الكبير إذا أطلق قيّد بالشاشي، وربّما أطلق في طريقة العراقيين لقلّة ذكرهم للقفّال الصغير، والمروزي أكثر ذكرا في كتب الفقه، والشاشي أكثر ذكرا فيما عدا الفقه من الأصول والتفسير وغيرهما(١).

والقفّال المروزي الصغير بخراسان نظير أبي حامد الإسفراييني بالعراق، قال ابن السبكي: معتمد المذهب على طريقة العراق وحامل لوائها أبو حامد الإسفراييني، وطريقة خراسان والقائم بأعبائها القفّال المروزي الصغير، هما شيخا الطريقتين إليهما المرجع وعليهما المعوّل(٢).

*** أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني (٤١٨هـ)** الفقيه المتكلّم الأصولي، شيخ خراسان في زمانه، أقرّ له العلماء بالتقدّم، وبني له مدرسة لم يبن مثلها فدرّس بها، وبه تفقّه القاضي أبو الطيّب الطبري، والإمام البيهقي، وعنه أخذ عامّة شيوخ نيسابور.

ويبدو أنّ صلة الودّ بينه وبين أهلها قد كانت مستحكمة غاية الاستحكام، حتّى أنّه كان يقول: أشتهي أن أموت بنيسابور ليصلّي عليّ جميع أهلها، فتوفّي بها ثمّ نقل إلى بلده إسفرايين، فدفن في مشهده.

يقال: إنّه بلغ رتبة الاجتهاد، وصنّف مصنّفات كثيرة، منها الجامع في أصول الدين، وتعليقة في أصول الفقه، وغيرها(٣).

*** أبو علي الحسن بن محمد بن شعيب المروزي السنجي (٤٣٠هـ)** شيخ الشافعية في زمانه وعالم خراسان، تفقّه على شيخ العراقيين أبي حامد

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/٢٠٠ - ٢٠٣ و٥/٥٣.

(٢) المصدر السابق ٥/٥٤.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٦ - ١٢٧، طبقات الشافعية الكبرى ٤/٢٥٦ - ٢٦٢، البداية والنهاية ١٢/٢٤، هديّة العارفين ١/٨، وفيات الأعيان ١/٢٨.

الإسفراييني، وعلى شيخ الخراسانيين القفّال الصغير، وأبو عليّ السنجي هو أوّل من جمع بين طريقتي أهل العراق وأهل خراسان[١].

صنّف شرح المختصر ويسمّيه إمام الحرمين المذهب الكبير، كما شرح كتاب التلخيص لابن القاص شرحاً كبيراً، قيل توفّي سنة بعد سنة ٤٣٠هـ وقيل سنة ٤٣٩هـ[٢].

* **أبو محمد عبدالله بن يوسف الجويني (٤٣٨هـ)** - نسبة إلى جوين ناحية كبيرة من نواحي نيسابور - شيخ الشافعية ووالد إمام الحرمين، كان يلقّب بركن الدولة، تفقّه ببلده، خرج إلى نيسابور فلازم أبا الطيّب الصعلوكي، ورحل إلى مرو فلازم القفّال حتّى برع عليه خلافاً ومذهباً، وأتقن طريقته، ثمّ عاد إلى نيسابور سنة ٤٠٧هـ وجلس للتدريس والفتوى ومجلس المناظرة وتعليم العام والخاصّ، وكان ماهراً في إلقاء الدروس.

كان أوحد زمانه علماً وزهداً وتقشّفاً زائداً وتحرّياً في العبادات، حتى إنّه كان يحتاط في أداء الزكاة، فيؤدّي في سنة واحدة مرّتين، حذراً من نسيان النيّة، أو دفعها إلى غير المستحقّ، ومن ورعه أنّه كان لا يدقّ في الجدار المشترك بينه وبين جاره وتداً ولا غيره.

كان إماماً له المعرفة التامّة بالتفسير والفقه والأصول والنحو والأدب، مجتهداً في العبادة، صاحب جدّ ووقار، لا يجري بين يديه إلاّ الجدّ صنّف تفسيراً كبيراً، وله تعليقة في الفقه، وكتاب المختصر، وصنّف مختصراً على مختصر المزني، وشرح رسالة الشافعي، وله التبصرة في الفقه.

---

(١) طريقة العراق في فقه الشافعي تمتاز بالنقل والحكاية لأقوال المتقدّمين، وطريقة علماء خراسان تمتاز بالبحث والتفريع والتصرّف والترتيب، وهي أمتن طريقة وأكثرها تحقيقاً (شذرات الذهب ٣٦٠/٣، الشافعي: حياته وعصره لأبي زهرة ص ٣٨٥).

(٢) طبقات الشافعيّة الكبرى ٣٤٤/٤ - ٣٤٨، البداية والنهاية ٥٧/١٢ وذكره في وفيات سنة ٤٣٩هـ، وفيات الأعيان ١٣٥/٢ - ١٣٦.

وكانت وفاته بنيسابور، قيل سنة ٤٣٤هـ، وهو في سنّ الكهولة[1].

* **أبو نصر زهيّر بن الحسن بن عليّ السرخسي (٤٥٤هـ)** مفتي خراسان، ولد بعد سنة ٣٧٠هـ، ورد بغداد وتفقّه على أبي حامد الإسفراييني، وبرع في الفقه، وكان رئيس المحدّثين بسرخس، وإليه يرجع في الفتاوى وحلّ المشكلات، توفّي بسرخس[2].

* **أبو بكر أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقي (٣٨٤هـ ـ ٤٥٨هـ)** شيخ خراسان، وأوحد زمانه، وفرد أقرانه حفظاً وإتقاناً، وفقهاً وتصنيفاً، كان على سيرة العلماء قانعا من الدنيا باليسير، متجمّلاً في زهده وورعه، نفع الله به المسلمين شرقاً وغرباً.

كان من أكثر الناس نصراً لمذهب الشافعي، حتّى قال إمام الحرمين الجويني: ما من شافعي إلاّ وللشافعي عليه منّة إلاّ البيهقي، فإنّ له على الشافعي منّة لتصانيفه في نصرة مذهبه.

له تصنيف لا تسامى ولا تدانى، سارت بها الركبان إلى سائر الأمصار، من بين هذه التصانيف: المبسوط في جمع نصوص الشافعي وهو من أعظم كتبه قدرا وأبسطها علماً، وكتاب الخلاف، ومناقب الشافعي، والسنن الكبرى، وغيرها من المصنّفات الجامعة المفيدة.

طلب إلى نيسابور لنشر العلم، فأجاب وانتقل إليها حتّى توفّي بها، ثمّ نقل تابوته إلى بيهق[3].

---

(١) طبقات الشافعيّة الكبرى ٧٣/٥ ـ ٩٤، البداية والنهاية ٥٥/١٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٣٣، النجوم الزاهرة ٤٢/٥، هديّة العارفين ٤٥١/١، طبقات المفسّرين ص ١٨٠ ـ ١٨٢، وفيات الأعيان ٤٧/٣ ـ ٤٨.

(٢) شذرات الذهب ٤٧٢/٣ ـ ٤٧٣، البداية والنهاية ٩٠/١٢، هديّة العارفين ٣٧٥/١، كشف الظنون ١٨٧/١ و٣٠٩/٥، طبقات الشافعية الكبرى ٣٧٩/٤ ـ ٣٨٠.

(٣) شذرات الذهب ٤٨٧/٣ ـ ٤٨٨، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٤ ـ ١٦، البداية والنهاية ٩٤/١٢ النجوم الزاهرة ٧٧/٥ ـ ٧٨، هديّة العارفين ٧٨/١، كشف الظنون ٤٨/١، ٤٨٤، ٦٧٤، وفيات الأعيان ٧٥/١ ـ ٧٦، تذكرة الحفاظ ١١٣٢/٣ ـ ١١٣٥.

* **القاضي أبو عاصم محمد بن أحمد بن محمد بن عبّاد الهروي (٤٥٨هـ)** شيخ الشافعيّة وصاحب التصانيف، تفقّه على القاضي أبي منصور الأزدي، وبنيسابور على أبي عمر البسطامي.

كان إماماً واسع العلم، دقيق النظر، صنّف كتبا في الفقه مفيدة، منها: المبسوط، الزيادات، وزيادات الزيادات، وأدب القاضي، وغيرها[١].

* **القاضي أبو عليّ حسين بن محمد بن أحمد المرورّوذي (٤٦٢هـ)** شيخ الشافعيّة في زمانه، وفقيه خراسان، وأحد أصحاب الوجوه، تفقّه على أبي بكر القفّال.

كان غوّاصا في الدقائق، يلقّب بحبر الأمّة، وكان عصره تاريخاً به، صنّف التعليق الكبير، والفتاوى، وأسرار الفقه، وغيرها.

ومتى أطلق القاضي في فروع الشافعيّة فهو المقصود[٢].

وفي مدينة **بخارى** الأوزبكستانيّة نلقى: **القاضي أبو عبدالله الحسين بن الحسن (٣٣٨هـ - ٤٠٣هـ) الحليمي** أحد مشائخ الشافعيّة، وأوحد الشافعيين بما وراء النهر، وأنظرهم بعد شيخه أبو بكر القفّال، وهو صاحب وجه في المذهب، وله وجوه حسنة.

ولد بجرجان وحمل إلى بخاري، وسمع الحديث الكثير حتى انتهت إليه رئاسة المحدّثين في عصره، ولّي قضاء بخارى، وكان عظيم القدر متفنّنا فاضلا، صاحب تصانيف مفيدة نقل منها أبو بكر البيهقي كثيراً، من بينها شعب الإيمان وسمّاه المنهاج، وهو كتاب جليل فيه أحكام كثيرة

---

(١) شذرات الذهب ٤٨٩/٣ - ٤٩٠، هديّة العارفين ٧١/٢ - ٧٢، البداية والنهاية ٩٤/١٢، طبقات الشافعية الكبرى ١٠٤/٤ - ١١٢.

(٢) طبقات الشافعيّة الكبرى ٣٥٦/٤ - ٣٦٥، شذرات الذهب ٤٩٥/٣ - ٤٩٦، كشف الظنون ١٢٥/١، وفيات الأعيان ١٣٤/٢ - ١٣٥.

ومسائل فقهيّة وغيرها ممّا يتعلّق بأصول الإيمان وآيات الساعة وأحوال القيامة(١).

وفي **هراة** ـ شمال غربي أفغانستان قرب حدود إيران ـ نلقى **القاضي أبو منصور محمد بن محمد بن عبدالله الأزدي (٤١٠هـ)** شيخ الشافعيّة بهراة ومسند البلد(٢).

وفي مدينة **مرو** التركمانستانيّة ـ وتسمّى الآن ماري ـ نلقى **أبو الفتح ناصر بن الحسين العمري المروزي القرشي (٤٤٥هـ)** الشافعي، مفتي أهل مرو، الذي تفقّه على أبي بكر القفّال، وأبي الطيّب الصعلوكي، وعليه تفقّه الإمام البيهقي.

كان عليه مدار الفتوى والتدريس والمناظرة بتلك البقاع، صنّف كتباً كثيرة، وتوفّي بنيسابور(٣).

ونلقى أيضاً: **أبو القاسم عبدالرحمٰن بن محمد بن محمد بن فوران المروزي الفوراني (٤٦١هـ)** الذي تفقّه على أبي بكر القفّال، وكان من كبار تلاميذه، وبرع حتّى صار شيخ الشافعيّة بمدينة مرو، صنّف تصانيف كثيرة، منها: الإبانة في الفقه، وهو كتاب مشهور بين الشافعيّة، فيه من النقول الغريبة والأقوال والأوجه التي لا توجد إلاّ فيه، إذ كان صاحبه بصيراً بالأصول والفروع، وصنّف أيضاً كتاب أسرار الفقه، وكتاب العمدة في الفقه، توفّي بمرو عن ثلاث وسبعين سنة(٤).

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٣/٤ ـ ٣٤٣، شذرات الذهب ٤٠٣/٣، هديّة العارفين ٣٠٨/١، البداية والنهاية ٣٤٩/١١، كشف الظنون ٧٧/٢، وفيات الأعيان ١٣٧/٢ ـ ١٣٨، تذكرة الحفاظ ١٠٣٠/٣ ـ ١٠٣١.

(٢) شذرات الذهب ٣٣٨/٣، طبقات الشافعية الكبرى ١٩٦/٤ ـ ١٩٧.

(٣) شذرات الذهب ٤٤٤/٣، هدية العارفين ٤٨٧/٢ ـ ٤٨٨.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ١٠٩/٥ ـ ١١٥، شذرات الذهب ٤٩٣/٣، هديّة العارفين ٥١٧/١، وفيات الأعيان ١٣٢/٣، البداية والنهاية ٩٨/١٢، كشف الظنون ٦٧/١، ١٢٥ و٤٢٠/٥ ـ ٤٢١.

وفي **نسا** ـ بلدة قديمة في خراسان بين سرخس ومرو ـ نلقى إمام البلد وخطيبها **أبو بكر محمد بن زهيّر بن أخطل النسائي (٤١٨هـ)** شيخ الشافعيّة بنسا، وإمامها وخطيبها، الذي رحل الناس إليه للأخذ عنه والتفقّه عليه(١).

وذكر أبو إسحاق الشيرازي في طبقاته من أعلام الشافعيّة، فضلاً عمّن تقدّم ذكرهم، جمعا غفيرا، نذكر منهم من لم نتعرّض إلى ترجمته، فقال: «وبخراسان وما وراء النهر من أصحابنا خلق كثير كالأودني وأبي يعقوب الأبيوردي وأبي بكر الفارسي البلخي وأبي بكر الطوسي وأبي عبدالرحمٰن النيلي وأبي سليمان الشاشي وأبي سهل أحمد بن عليّ الأبيوردي وأبي الحسن عليّ بن أحمد الحاكم بسمرقند، وغيرهم»(٢).

وبهؤلاء وأمثالهم استطاع المذهب الشافعي أن يعمّ تلك البقاع بحيث لم يلحق شأوه أيّ مذهب من المذاهب الفقهيّة الأخرى السنيّة منها أو الشيعيّة، ولا حاموا حوله بتلك الديار.

وأمّا المذهب الحنفي فإنّه وإن كانت له مع المذهب الشافعي شبه مشاركة في هذه الديار، وخاصّة بسجستان التي كان أغلب أهلها على مذهب أبي حنيفة، إلاّ أنّه لم يدرك بتلك البقاع ما أدركه المذهب الشافعي من التسامي، ذلك أنّ المذهب الشافعي قد حقّق في هذه الأصقاع انتشارا وتوسّعا لم يسبق إلى مثلها غيره من المذاهب، ولم يدانيه فيها أيّ منافس.

وقد ازداد سلطان الشافعيّة على هذه الديار واتّسع بالخصوص بعد أن انتقل الأمير الغزنوي محمود بن سبكتكين (٣٦١هـ ـ ٤٢١هـ) ـ مالك الممالك الكبار وفاتح بلاد الهند ـ من مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الإمام

---

(١) شذرات الذهب ٣/٣٦٣، طبقات الشافعية الكبرى ٤/١٤٩.
(٢) طبقات الفقهاء ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

الشافعي، وقد حكم هذا الأمير مملكته المتّسعة **٣٣** سنة، وكان يسير في المسلمين سيرة عادلة، يحبّ أهل الخير والدين والصلاح، ويحسن إليهم، ويحبّ العلماء والمحدّثين ويكرمهم ويجالسهم، إذ كان مولعا بعلم الحديث، وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه وهو يسمع، وكان يستفسر الأحاديث، فوجد أكثرها موافقا لمذهب الشافعي رضي الله عنه، فوقع في خلده حكمة، فجمع الفقهاء من الفريقين في مرو، والتمس منهم الكلام في ترجيح أحد المذهبين على الآخر، فوقع الاتّفاق على أن يصلّوا بين يديه ركعتين على مذهب الإمام الشافعي، وعلى مذهب أبي حنيفة، لينظر فيه السلطان ويتفكّر ويختار ما هو أحسنها، فصلّى القفّال المروزي بطهارة مسبغة وشرائط معتبرة من الطهارة والسترة واستقبال القبلة، وأتى بالأركان والهيئات والسنن والآداب والفرائض على وجه الكمال والتمام، وقال: هذه صلاة لا يجوّز الإمام الشافعي دونها رضي الله عنه، ثمّ صلّى ركعتين على ما يجوّز أبو حنيفة رضي الله عنه، فلبس جلد كلب مدبوغاً وتوضّأ بنبيذ التمر، وكان وضوءه منكّسا منعكسا ثمّ استقبل القبلة وأحرم بالصلاة من غير نيّة، وكبّر بالفارسيّة «دوبركك سبز» ثمّ نقر نقرتين كنقرات الديك من غير فصل، وقال: أيّها السلطان هذه صلاة أبي حنيفة[1].

فقرّر عند ذلك السلطان ابن سبكتكين الانتقال إلى مذهب الإمام الشافعي، وقد كان انتقاله ذاك من العوامل المساعدة على انتشار المذهب في تلك الأصقاع.

وقد حاول الفاطميون استمالة الأمير محمود بن سبكتكين، وكانت رسلهم من مصر تفد إليه بالكتب والهدايا لعلّه يعتنق مذهبهم، ووجّهوا إليه «التاهرتي» الداعي، فلمّا وقف الأمير على سرّ ما دعاه إليه، وعلم بطلان ما ندب إليه، أمر بقتل التاهرتي، وأهدى بغلته التي كان يركبها إلى القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزدي، شيخ هراة، وقال: كان يركبها رأس

(١) وفيات الأعيان ١٨٠/٥ ـ ١٨١ شذرات الذهب ٣٧٥/٣، البداية والنهاية ٣٠/١٢.

الملحدين فليركبها رأس الموحّدين[١].

فلم تقم بذلك للمذهب الإسماعيلي بتلك الديار قائمة، ولا فكّر أحد بعد ذلك أن يوجد له بتلك الأصقاع أشياع وطائفة.

ـ ٤ ـ بلاد المغرب:

رغم أنّ بلاد المغرب قد خضعت لحكم الدولة العبيديّة خلال المرحلة الأولى من هذا الدور، إلاّ أنّ شعوب هذه البلاد لم تتقبّل مبادئها، وبقيت على ولائها للمذهب المالكي، متمسّكة بالعقيدة السنيّة، وبقي الفقهاء من أعلام المالكيّة منظورا إليهم بعين السخط، معرّضين إلى الاضطهاد وشتّى أنواع التنكيل من طرف حكّام الدولة الفاطميّة ومن يقومون بأمرهم من ولاّة الأقاليم.

وكانت الطبقة التي أدركها أوّل العهد العبيدي من هؤلاء العلماء: هي طبقة تلامذة سحنون وتلامذتهم، فكانوا هم الذين نشبت الحرب الفكريّة بينهم وبين أتباع العبيديين.

وكان الذين تولّوا كبر هذه الفتنة من شيعة العبيديين: أبا عبدالله الشيعي، الداعي الأوّل الذي أقام الدولة، وأخاه أبا العبّاس، وبعض قضاة الأحناف الذين تواطؤوا معهم من أمثال القاضي ابن عبدون، وكان الذين يقابلونهم من المالكيّة السنّيين: أمثال أبي بكر بن اللبّاد أعظم المناهضين لحكم بني عبيد، وأبي سليمان ربيع الذي جعل على نفسه عهدا ألاّ يشبع من طعام ولا نوم حتّى يقطع الله عزّ وجلّ دولة بني عبيد، وغيرهما ممّن ترجم لهم القاضي عياض في المدارك، وذكر ما امتحن به كلّ.

وفي ظلّ هذا الاضطراب الفكري والصراع الاعتقادي، برزت النزعات الانفصاليّة، ونشأ التنابذ بين الفرق، والتناحر بين العصبيات، حتّى تزعزعت

(١) طبقات الشافعيّة الكبرى ٣١٩/٥ ـ ٣٢٠، البداية والنهاية ٢٩/١٢.

أسس المجتمع، وتساقطت جوانبه بعضها على بعض ركاما، وأصبحت الكلمة العليا للتخريب والتمرّد كما في ثورة أبي يزيد صاحب الحمار، فانتهى الأمر بأن وقعت الدولة العبيديّة نفسها فريسة لتلك الفوضى الاجتماعيّة.

هنالك أيقن حكّام بني عبيد أنّ المغرب ليس لهم، ولا لأعقابهم بدار، فولّوا وجوههم نحو المشرق الذي أتى منه أصولهم، وانتصبوا في تخت ملكهم الجديد: مدينة القاهرة(١).

وفي هذا الفراغ الذي أحدثه انتقال العبيديين إلى مصر قام الحكم الصنهاجي تحت عنوان تبعيّة اسميّة للسلطنة الفاطميّة، واتّجه أوّلا نحو الاستقلال التام والانسجام المحكم بين عناصر المجتمع، فكان هذا الاستقلال الذي مثّله الصنهاجيون، والحكم الذاتي الناشىء من صميم الشعب المغربي الذي اضطلعوا به موقضا لشعور المجتمع المغربي بوحدته وموجّها به نحو الاطمئنان إلى معاودة أمنه وهنائه في ظلّ العقيدة السنيّة والمذهب المالكي الذين بقيا قياما للروح الاجتماعيّة للشعب المغربي على ما نالت منهما أحكام العبيديين(٢).

وإذا كانت المظاهر الرسميّة الأولى لحكم الصنهاجيين لم تتماش التماشي الكامل مع ما أخلد إليه الشعب من معاودة المذاهب السنّيّة، فإنّ روح الدولة قد كانت متماشية معه في ذلك، وإنّ ما انفتح أمامه من ميادين لحريّة الدعوة وحريّة العمل بتحوّل العبيديين وعصبيتهم من كتامة إلى الشرق، لم يبق لمراسم الدولة التي بقي الصنهاجيون متقلّدين بها من أثر في تعطيل الحركة السنيّة المالكيّة، فامتدّت تلك الحركة وانتشرت وازدهرت حتّى أصبحت هي ذات الأثر في تطوّر نظم الحكم وتبدّل مظاهره(٣) خاصّة

(١) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٠ ـ ٤١، ٤٤، بتصرّف.
(٢) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٤.
(٣) المرجع السابق ص ٤٥.

بعد أن حمل المعز بن باديس الناس على مذهب مالك[١]، وترك ما عداه، وذلك سنة ٤٠٧هـ.

وأمّا مذهب أبي حنيفة فقد كان ظهوره في المرحلة السابقة أيّام دولة بني عبيد لموافقتهم إيّاهم في مسألة التفضيل، فكان فيهم القضاء والرئاسة، ولمّا زالت الدولة العبيديّة من المغرب وانتقلت إلى مصر، تشرّق قوم من الأحناف لمسرّتهم واصطياداً لدنياهم، وقلّ أتباعهم بالمغرب، ثمّ لم يعد لهم بعد ذلك ذكر، وبذلك أصبحت سائر بلاد المغرب مطبقة على المذهب المالكي، مجمعة عليه لا يعرف لغيره قائم[٢].

ولئن كانت القيروان هي الاسم البارز والرمز الخالد في تاريخ بلاد المغرب، باعتبارها إحدى عواصم أعظم المراكز الفقهيّة المؤثرة في سير النشاط الفقهي التي نافست بغداد والقاهرة وخراسان وغيرها، فإنّ الكثير من المدن الأخرى التابعة للغرب الإسلامي، قد شاركت القيروان في استقطاب العلماء وإنجاب الفقهاء وبلغت شهرتها الآفاق حين زوّدت حواضر العالم الإسلامي بمئات بل بآلاف من الأعلام.

ومن بين تلك المدن التي شاركت القيروان في إنعاش الحياة الفقهيّة وازدهارها، وكان لها الأثر البالغ ببلاد المغرب، نذكر:

فأمّا القيروان، فأعظم من اشتهر بها من أعلام المالكيّة في هذه المرحلة، هم:

*** أبو محمد عبدالله بن أبي زيد النفزي القيرواني (٣١٠هـ ـ ٣٨٦هـ)** إمام المالكيّة في عصره وقدوتهم.

عقد ابن أبي زيد صِلاته الفكريّة منذ نشأته الأولى بمختلف مراكز الثقافة الفقهيّة وارتوى من منابعها، فكانت صلات أخذه وتخرّجه على شيوخ إفريقية وأخصّهم به أبو بكر ابن اللبّاد، وشيوخ الأندلس وأخصّهم

(١) النجوم الزاهرة ٤١٥/٥.

(٢) ترتيب المدارك ٥٤/١ ـ ٥٥.

الأصيلي، وشيوخ فاس وأخصّهم درّاس بن إسماعيل، وشيوخ مصر وأخصّهم ابن شعبان، وشيوخ العراق وأخصّهم أبو بكر الأبهري، والقاضي أحمد بن إبراهيم من آل حمّاد، فاجتمعت لديه بذلك نفائس الآثار، وتلاقى في كنفه متباعد الأنظار[١] فاستحق لقب مالك الصغير.

كان واسع العلم كثير الحفظ والرواية، وكتبه تشهد له بذلك، وكان ذابًا عن مذهب مالك، قائما بالحجّة عليه فصيح القلم، يقول الشعر ويجيده، ويجمع إلى ذلك صلاحاً تامّاً وورعاً وعفّة.

حاز رئاسة الدين والدنيا، وإليه كانت الرحلة من الأقطار، ونجب أصحابه، وكثر الآخذون عنه، وتفقّه عنده جلّة من القرويين، ومن أهل الأندلس ومن أهل سبتة، ومن أهل المغرب، وهو الذي لخّص المذهب وضمّ نشره، وذبّ عنه وملأت البلاد تآليفه.

يعتبر ابن أبي زيد جامع مذهب مالك وشارح أقواله، فقد عدّ له مترجموه نيفا وثلاثين كتاباً، على سبيل الاختصار والتمثيل لا على سبيل الاستقصاء.

وأعلى كتبه منزلة في علم الفقه هما: مختصر المدوّنة وفيه نحو خمسين ألف مسألة، وكتاب النوادر والزيادات، وصنّف أثره الخالد المسمّى بالرسالة والمعروف برسالة ابن أبي زيد القيرواني، فاشتهر في عصره وأقبل عليه الناس من المغرب ومن الشرق فجعلوه عمدتهم في تنشئة الأطفال على أدب الدين وأحكام الشريعة، وله أيضاً كتاب الذبّ عن مذهب مالك، وكتاب الإقتداء بأهل المدينة، وغيرها[٢].

*** أبو محمد عبدالله بن إسحاق القيرواني (٣٧١هـ) المعروف بابن التبّان**

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي ص ٤٧.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٠، ترتيب المدارك ٤/٤٩٢ - ٤٩٧، الديباج المذهب ص ٢٢٢ - ٢٢٣، النجوم الزاهرة ٤/٢٠٠، هديّة العارفين ١/٤٤٧، أعلام الفكر الإسلامي ص ٤٩، كشف الظنون ٥/٣٦٧، الفهرست ص ٢٥٣، كتاب العمر في المصنّفات والمؤلفين التونسيين ٢/٦٤٣ - ٦٤٨.

شيخ المالكية بالمغرب، تفقّه على جلّة العلماء كأبي بكر بن اللبّاد القيرواني وغيره.

تتبّع العلم وواظب على العلماء حتى أصبح من أحفظ الناس بالقرآن، متفنّنا في علومه وعلوم الكلام مع فصاحة اللسان، عالماً بالاحتجاج لمذهبه، وكان يكثر من دراسة العلم، حتى ذكر أنّه درس المدوّنة ألف مرّة.

روى عن نفسه حادثة فريدة تبرز لنا مدى حرصه على طلب العلم، فقال: كنت أوّل ابتدائي أدرس الليل كلّه، فكانت أمّي تنهاني عن القراءة بالليل، فكنت آخذ المصباح فأجعله تحت الجفنة وأتعمّد النوم، فإذا رقدت أخرجت المصباح وأقبلت على الدرس.

وكان يكثر من دراسة العلم حتى قال له أبوه ذات يوم: يا بنيّ ما يكون منك؟ لا تعرف صنعة واشتغلت بالعلم ولا شيء عندك، فلمّا كان ذات ليلة سمع ابن التبّان أباه يقول لوالدته: عرفت أنّي عرّفت اليوم بابني، وذلك أنّي حضرت أملاكاً في المسجد فوجدته ممتلئاً بالناس ولم أجد مجلساً فقام لي رجل من موضعه وأجلسني فيه، فسأله صديقه عنّي، فقال له: هذا والد الشيخ أبي محمد، فرجع الوالد وحرّض ابنه على طلب العلم والتزم من وقتها القيام بشأنه.

أصبح ابن التبّان من العلماء الراسخين والفقهاء المبرّزين ومن الحفاظ المتقنين عالماً بالفقه والحساب والنحو حتى ضربت له أكباد الإبل من الأمصار لعلمه بالذبّ عن مذهب أهل المدينة، وكان يغار على مذهب الإمام مالك ويذبّ عن الشريعة.

وكان مع إتقانه للعلم غزير الدمعة رقيق القلب يميل إلى الرقّة وحكايات الصالحين، كريم الأخلاق، بعيداً عن الرياء والتصنّع، من أرقّ أهل زمانه طبعاً وألطفهم عبارة.

ألّف كتب في النوارل، ولمّا توفّي خرج الناس لجنازته من ثلث الليل حتى ضاقت بهم الشوارع[١].

* **أبو القاسم عبدالخالق بن أبي سعيد خلف بن شبلون (٣٩١هـ)** كان الاعتماد عليه في القيروان في الفتوى والتدريس بعد أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، صنّف كتاب المقصد، وكان يفتي في الأيمان اللازمة بطلقة واحدة، وقيل توفّي سنة ٣٩٠هـ[٢].

* **أبو الأزهر عبدالوارث بن حسن بن أحمد بن معتب (٣٩٢هـ)** من الأئمّة الراسخين، ومن أهل العقل والوجاهة، وكانت له قريحة حسنة وفهم جيّد في الفقه وعناية بالوثائق، وكان ذا فقه بارع وعلم بأصول الفقه والقضاء والنوازل، وبيت بني معتب بيت علم بالقيروان.

صحب أبا بكر بن اللبّاد، وكان ممّن يتحلّق بجامع القيروان مع ابن أبي زيد، وكان ابن أبي زيد يقول: ما بإفريقية أفقه من أبي الأزهر، وقيل توفّي سنة ٣٩١هـ[٣].

* **أبو الحسن عليّ بن محمد بن خلف المعافري (٣٢٤هـ ـ ٤٠٣هـ) المعروف بابن القابسي**، سمع من شيوخ إفريقيّة، ورحل سنة ٣٥٢هـ، فحجّ وسمع بمصر ومكّة، وهو أوّل من أدخل رواية البخاري إلى إفريقيّة، وسنده وسند أبي ذرّ الهروي وسند من أخذ عنهما مذكور في أوائل فتح الباري بشرح صحيح البخاري.

كان واسع الرواية عالماً بالحديث وعلله ورجاله، فقيهاً عالماً

---

(١) ترتيب المدارك ٣١٠/٣ و٥١٧/٤ ـ ٥٢٤، معالم الإيمان ١٠٩/٣ ـ ١١٩، شذرات الذهب ١١٩/٣، الديباج المذهب ص ٢٣٤، كتاب العمر ٦٤١/٢ ـ ٦٤٢.

(٢) ترتيب المدارك ٥٢٨/٤، الديباج ص ٢٥٩، شجرة النور الزكيّة ص ٩٧، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٠ ـ ١٦١، معالم الإيمان ١٢٣/٣ ـ ١٢٥، .

(٣) ترتيب المدارك ٥٢٩/٤ ـ ٥٣٠، الديباج ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠، شجرة النور الزكيّة ص ٩٥.

بالأصول والفروع، وغير ذلك من العلوم، من أصحّ الناس كتبا وأجودها ضبطا وتقييدا، من ذوي الاجتهاد.

روي أنّ الناس قد عزموا عليه في الفتوى وكلّموه في الجلوس لها، فأبى وغلق بابه دونهم، فقال لهم أبو القاسم ابن شبلون: اكسروا عليه بابه فإنّه قد وجب عليه فرض الفتيا، هو أعلم من بقي بالقيروان، فلمّا رأى ذلك خرج إليهم، وقبل الإفتاء على كره، وأنشدهم شعرا فبكى وأبكى، وجلس مجلس ابن شبلون بعد وفاته.

كان أبو الحسن من الصالحين المتّقين الزاهدين الخائفين الورعين المشتهرين بإجابة الدعوة، حتّى أنّ بعض أصحابه قال: كان أبو الحسن إذا دخل محرابه وانتفخت عيناه واحمرّت، ولجأ إلى الله عزّ وجلّ ورأينا ذلك منه انتظرنا إجابة دعائه، وكانت إلى ثلاثة أيّام.

صنّف تآليف بديعة مفيدة مثل: الممهّد في الفقه، قيل إنّه بلغ فيه إلى ستّين جزءا ومات ولم يكمله، والرسالة المفصّلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين، جمع فيها مبادىء التربية الإسلاميّة الواجب اتّباعها في الكتاتيب، على منوال كتاب آداب المعلّمين لمحمد بن سحنون، إلاّ أنّ كتاب ابن القابسي أكثر تفصيلاً وأشمل.

ويذكر القاضي عياض أنّ أبا الحسن لم يكن قابسيّاً، وإنّما كان له عمّ يشدّ عمامته مثل القابسيين فسمّي بذلك، وهو قيروانيّ الأصل[1].

*** أبو بكر أحمد بن عبدالرحمٰن بن عبدالله الخولاني (٤٣٢هـ)** من

---

(١) ترتيب المدارك ٦١٦/٤ ـ ٦٢١، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦١، الديباج ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧، شذرات الذهب ٣١٠/٣، شجرة النور الزكيّة ص ٩٧، وفيات الأعيان ٣٢٠/٣ ـ ٣٢٢، معالم الإيمان ١٣٤/٣ ـ ١٤٣، تذكرة الحفّاظ ١٠٧٩/٣ ـ ١٠٨٠، البداية والنهاية ٣٥١/١١، النجوم الزاهرة ٢٣٣/٤ ـ ٢٣٤، هديّة العارفين ٦٨٥/٢، غاية النهاية في طبقات القرّاء ٥٦٧/١.

أهل القيروان، وشيخ فقهاء المغرب في وقته مع صاحبه أبي عمران الفاسي.

كان أبو بكر فقيهاً حافظاً، تفقّه بأبي محمد ابن أبي زيد القيرواني وبأبي الحسن القابسي وسمع منهما ومن غيرهما من شيوخ إفريقية، وسمع بمصر.

تفقّه عليه خلق كثير، وكان أصحابه نحو المائة والعشرين، كلّهم يقتدى بهم، كأبي القاسم بن محرز ابن خالة ابن أبي زيد القيرواني، وأبي إسحاق التونسي، وأبي القاسم السيوري، وابن بنت خلدون، وغيرهم، وكان يواظب على الدرس بجامع القيروان أيّام الإثنين والأربعاء والجمعة، يدرّس المدوّنة، والموّازيّة.

حاز الذكر ورئاسة الدين في وقته مع صاحبه في المغرب بأسره، حتّى لم يكن لأحد معهما اسم يعرف، وقيل توفّي سنة ٤٣٥هـ[١].

* **أبو القاسم عبدالرحمٰن بن عليّ بن محمد الكناني**، من فقهاء القيروان المشاهير وحذّاقهم، كان موصوفا بالعلم والفقه والنظر، وكان قويًّا في المناظرة.

كانت بينه وبين أبي عمران الفاسي مراجعات في مسائل مشهورة نقلت عنهما، ويروى أنّ أبا عمران على جلالته وعلوّ منزلته في الفقه، حين ناظره، علاه العرق وبلّ قميصه ورداءه وصار كمن غمس في ماء، وذلك لكثرة تفقّه أبي القاسم في المسائل المشتبهة من المذهب[٢].

* **أبو القاسم عبدالرحمٰن بن محمد الحضرمي المعروف باللبيدي (٣٥٤هـ ـ ٤٤٠هـ)** من مشاهير علماء إفريقية ومؤلّفيها، حاز رئاسة العلم والتشييخ فيه بالقيروان.

---

(١) ترتيب المدارك ٧٠٠/٤ ـ ٧٠٢، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦١، شذرات الذهب ١٠١/٣، شجرة النور الزكيّة ص ١٠٧.

(٢) ترتيب المدارك ٧٠٦/٤ ـ ٧٠٧.

تفقّه بأبي محمد ابن أبي زيد وأبي الحسن القابسي وسمع منهما ومن غيرهما من شيوخ إفريقية، ووجّهه أبو الحسن القابسي لتفقيه أهل المهديّة.

امتدّ عمره بعد أقرانه، فكان آخر طبقته وفاة، وألّف كتاباً جامعاً في المذهب في مسائل المدوّنة وبسطها والتفريع عليها، وزيادات الأمّهات، ونوادر الروايات، وكتاباً في اختصار المدوّنة سمّاه الملخّص[١].

جلس ابنه أبو بكر مجلسه، وكان من أهل العلم والأدب والفهم الحسن، معظّماً في الناس، وتمادت الرئاسة بالعلم والقضاء في بيته إلى منتصف القرن السادس[٢].

*** أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن يحيى المعافري التونسي (٤٤٣هـ)** كان إماماً جليلاً فاضلاً صالحاً، تفقّه به جماعة جلّة من الإفريقيين، له شروح حسنة في المذهب وتعاليق مستحسنة مستعملة على الموّازيّة وعلى المدوّنة.

كان مدرّسا بالقيروان مستشاراً فيها مع بقيّة المشيخة، امتحن مع فقهاء القيروان بمحنة عظيمة سنة ٤٣٧هـ بسبب فتوى كان فيها على الحقّ، فلم ينقص قدره عند أهل النظر والتحقيق، ولا غضّ من مقامه عند أهل الفهم والتوفيق، فخرج على إثر ذلك إلى المنستير، ثمّ رجع إلى القيروان وتوفّي بها[٣].

*** أبو طيّب عبدالمنعم بن إبراهيم الكندي المعروف بابن بنت خلدون (٤٣٥هـ)** قيرواني، هو ابن أخت الشيخ أبي عليّ ابن خلدون من نبلاء هذه

(١) ترتيب المدارك ٧٠٧/٤ ـ ٧٠٨، الديباج المذهب ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩، هديّة العارفين ٥١٦/١، شجرة النور الزكيّة ص ١٠٩ ـ ١١٠، وفيه أنّ وفاته كانت سنة ٤٤٦هـ.

(٢) ترتيب المدارك ٧٧٣/٤.

(٣) ترتيب المدارك ٧٦٦/٤ ـ ٧٦٩، الديباج المذهب ص ١٤٤، شجرة النور الزكيّة ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

الطبقة ومتفنّنيها، كان له علم بالأصول، وحذق بالفقه والنظر، وكان قدوة في العلم والدين.

تفقّه به الإمام اللخمي وأبو إسحاق ابن منصور القفصي وغيرهما من الأعلام، وكان أهل قفصة يقولون له: إنّ الله تعالى منّ علينا معشر المسلمين بأن جعلك إماماً يقتدى به، راسخا في العلم، نفزع إليه.

له على المدوّنة تعليق مفيد، وإلى جانب العلوم الشرعيّة كان له حظّ من علوم الهندسة والحساب، ويقال إنّه أبدع طريقة لجلب مياه البحر من ساحل تونس إلى القيروان وسوقه خليجا، غير أنّ المنيّة قد عاجلته قبل تنفيذ نظره الهندسي[(١)].

* **أبو القاسم عبدالخالق بن عبدالوارث التميمي المعروف بالسيوري (٤٦٠هـ)** قيرواني، وخاتمة أئمّتهم، كان من ذوي الشأن البديع في الحفظ والقيام بالمذهب والمعرفة بخلاف العلماء، آية في الدرس والصبر عليه.

كان يحفظ دواوين المذهب حفظا جيّدا، ويحفظ غيرها من أمّهات كتب الخلاف، ويقال أنّه مال في آخر الأمر إلى مذهب الشافعي.

له تعليق على نكت من المدوّنة، وعليه تفقّه الإمام اللخمي، وعبدالحميد المهدوي[(٢)].

* **أبو محمد بن سبحان،** من أصحاب القابسي، أحد الذين كانوا يعرفون بالفقه في هذه المرحلة، وممّن كان يدرّس بالقيروان ويجتمع إليه الناس في حلقة علمه[(٣)].

ونجد من الأعلام من اختار الهجرة من القيروان، غير أنّها عادة ما تكون هجرة اضطراريّة، كما هو الحال بالنسبة إلى:

(١) ترتيب المدارك ٧٧١/٤، شجرة النور الزكيّة ص ١٠٧.
(٢) ترتيب المدارك ٧٧٠/٤ ـ ٧٧١، شجرة النور الزكيّة ص ١١٦.
(٣) ترتيب المدارك ٧٧٨/٤.

*** أبو القاسم خلف ابن أبي القاسم الأسدي المعروف بالبرادعي (بعد ٣٨٦هـ)** من كبار أصحاب أبي محمد ابن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي، ومن حفّاظ المذهب المؤلّفين فيه.

صنّف كتاب التهذيب واختصار المدوّنة، وظهرت بركة هذا الكتاب على طلبة الفقه وتيمّنوا بدرسه وحفظه وكان عليه معوّل أكثرهم بالمغرب والأندلس، وله أيضاً كتاب التمهيد لمسائل المدوّنة على منوال اختصار ابن أبي زيد وزياداته، وله أيضاً اختصار الواضحة، وكتاب الشرح والتمامات لمسائل المدوّنة.

لم ينل رئاسة العلم بالقيروان، وكان مبغضا عند أصحابه لصحبته لسلاطين بني عبيد الذين كان علماء المالكيّة يتبرّؤون منهم، وقيل إنّ هجرانهم له كان بسبب تأليف كتاباً في إثبات نسب بني عبيد إلى فاطمة الزهراء، فكان بسبب ذلك مرفوض القول لدى أقرانه، ثقيل المكان عليهم، ويقال أنّ فقهاء القيروان أفتوا برفض كتبه وعدم قراءتها لتهمته لديهم، ورخّصوا في التهذيب لاشتهار مسائله.

ويقال: بل لحقه في هذا دعاء الشيخ ابن أبي زيد القيرواني، إذ كان البرادعي أيّام دراسته عليه، يتسبّب في الاعتراض عليه والتنبيه على أوهامه، والإزراء ببعض كلامه، فعزّ ذلك على الشيخ أبي محمد، وتفرّغ عند خروجه للدعاء عليه، فلفظته القيروان، ولم يستقرّ بها، فخرج إلى صقليّة في حوالي سنة ٣٧٥هـ، وقصد أميرها، فحصلت له هناك مكانة وشهرة، وبصقليّة ألّف أغلب كتبه المذكورة، وذاع صيتها حتّى ذكر أنّ المناظرة في جميع حلق بلدانها إنّما كانت بكتاب التهذيب للبرادعي وكانت وفاته أواخر القرن الرابع، بعد سنة ٣٨٦هـ[1].

أو كما هو الحال بالنسبة لأحد أبناء أجدابية الليبيّة الذي استقرّ

---

(١) ترتيب المدارك ٧٠٨/٤ ـ ٧٠٩، الديباج المذهب ص ١٨٢ ـ ١٨٣، معالم الإيمان ١٤٦/٣ ـ ١٥٠، شجرة النور الزكيّة ص ١٠٥، كشف الظنون ٥٣١/٢.

بالقيروان ثمّ هاجرها حين اشتعلت نيران الفتنة بها، وهو:

* **أبو عبدالله محمد بن سعيد بن شرف الأجدابي القيرواني (٤٦٠هـ)** الفقيه المتفنّن في العلوم، روى عن أبي الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي وغيرهما، وذكره أبو الوليد الباجي ووصفه بالعلم والذكاء.

رحل إلى صقليّة ثمّ إلى الأندلس عند ابتداء الفتنة بالقيروان سنة ٤٤٧هـ[١].

ومن أعلام إفريقية التونسيّة بشكل عام، لهذه المرحلة:

* **أبو عليّ ابن خلدون** من فقهاء إفريقية وعلمائها وصلحائها، من أصحاب أبي الحسن القابسي، كان قد نشأ بإفريقيّة، وكان جليل القدر في فقهائها مطاعا[٢].

* **أبو إسحاق ابن منصور القفصي**، أصله من قفصة وسكن طرابلس، كان من فقهاء إفريقية وفضلائها ومن أصحاب أبي بكر ابن عبدالرحمٰن الخولاني وطبقته، صحب أبا الطيّب عبدالمنعم الخلدوني، وأبا إسحاق التونسي، وغيرهم.

أثنى عليه شيوخه وكانوا يقولون: ما اجتمع لأحد من أهل إفريقية، ما اجتمع لأبي إسحاق[٣].

* **أبو الحسن بن سليمان**، تتلمذ على أبي إسحاق إبراهيم بن حسن التونسي، وسكن المهديّة، وكان خير فقهائها في هذه الطبقة[٤].

---

(١) أعلام ليبيا ص ٢٧٥.

(٢) ترتيب المدارك ٦٢٤/٤.

(٣) ترتيب المدارك ٧٧٢/٤.

(٤) ترتيب المدارك ٧٧٤/٤.

* **أبو الحسن بن المقلوب السوسي**، عظيم بلده، وشيخ فقهائهم، من أصحاب القابسي، انتقل إلى المهديّة وأخذ عنه أهلها[١].

* **أبو عمر أحمد بن محمد بن سعدي**، أصله أندلسي إشبيلي نزل المهديّة وعليه دارت الفتيا بها، وكان فقيهاً صالحاً، وله رحلة قبل سنة ٤٠٠هـ بمدّة، دخل فيها العراق، ولزم أبا بكر الأبهري وحمل عنه كتبه وتفقّه عليه، ولقي أبا بكر الباقلاني، ورجع إلى القيروان، ثمّ عاد إلى المشرق سنة ٤٠٩هـ ودخل مصر وسمع من جماعة بها، وكانت وفاته بالمدينة[٢].

* **أبو حفص عمرون بن محمد بن عمرون السوسي (٢٩١هـ ـ ٣٩٥هـ)** شيخ أبي القاسم اللبيدي، وأحد الفقهاء الفضلاء، وكان طيّب المكسب متوقّفاً عن الشبهات، وبسوسة استقرّ وعمّر، وتوفي وقد بلغ من العمر أربع سنين بعد المائة[٣].

وإذا انتقلنا إلى الطرف الغربي من بلاد المغرب نلتقي بأسماء مدن لا تقلّ أهميّة عن أسماء المدن في الطرف الشرقي الإفريقي.

ففي المغرب الأقصى يعلو نجم فاس وسبتة، ويبرز منهم:

* **أبو هارون ـ وقيل أبو عمران ـ موسى بن يحيى الصديني (٣٨٨هـ)** من أهل فاس، كبير فقهاء بلده، وشيخهم الشهير في وقته، كان فقيهاً عالماً بالرأي حافظاً للمسائل[٤].

وكان **ابنه أحمد (٤٠٨هـ)** كذلك فقيها، وبقي سؤدد العلم في بيته إلى منتصف القرن السادس[٥].

---

(١) ترتيب المدارك ٧٧٧/٤.

(٢) ترتيب المدارك ٦٢٢/٤، جذوة المقتبس ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(٣) رياض النفوس ٤٨٦/١، ترتيب المدارك ٥٣٧/٤.

(٤) ترتيب المدارك ٥٤٠/٤ ـ ٥٤١.

(٥) ترتيب المدارك ٥٤١/٤، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ٢٩٩/٢، .

* **أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي (٣٦٣هـ - ٤٣٠هـ)** أصله من فاس، وبيته به مشهور ويعرفون ببني أبي الحاج، ولهم عقب وفيهم نباهة، تفقّه بالقيروان عند أبي الحسن القابسي وغيره من أعلام طبقته، ورحل إلى قرطبة فتفقّه بها عند أبي محمد الأصيلي وغيره، ثمّ رحل إلى المشرق فحجّ ودخل العراق فسمع من جلّة أعلامها، ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني، وسمع بمكّة من أبي ذرّ الهروي، كما سمع بالحجاز وبمصر، ثمّ رجع إلى القيروان فاستوطنها، وحصلت له بها رئاسة العلم.

كان إماماً في كلّ علم، نافذاً في علم الأصول مقطوعا بفضله وإمامته، من أعلم الناس وأحفظهم، حتّى أنّ القاضي أبا بكر الباقلاني قد أعجب بحفظه وقال له يوما: لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبدالوهاب بن نصر - وكان إذ ذاك بالموصل - لاجتمع فيها علم مالك، أنت تحفظه، وهو ينصره، ولو رآكما مالك لسرّ بكما.

جمع حفظ المذهب المالكي إلى حفظ حديث النبيّ ﷺ ومعرفة معانيه، ومعرفة رجاله جرحا وتعديلا، وكان يقرىء القرآن بالقراءات السبعة، ويجوّده.

كان يجلس للمذاكرة والسماع في داره من غدوة إلى الظهر، وعنه أخذ الناس من أقطار المغرب والأندلس، وتفقّه عليه جماعة كثيرة من القرويين والفاسيين والسبتيين والأندلسيين، وأشهرهم أبو إسحاق التونسي، وأبو القاسم السيوري، حتّى طارت فتاويه في المشرق والمغرب واعتنى الناس بقوله[1].

---

(١) ترتيب المدارك ٧٠٢/٤ - ٧٠٦، الديباج ص ٤٢٢ - ٤٢٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦١، النجوم الزاهرة ٣٠/٥، هديّة العارفين ٤٨٠/٢، شذرات الذهب ٤٠٨/٣، جذوة المقتبس ص ٣١٧، غاية النهاية في طبقات القرّاء ٣٢١/٢ - ٣٢٢، بغية الملتمس ٦٠٦/٢ - ٦٠٧، الصلة لابن بشكوال ٨٨١/٣ - ٨٨٢.

* **الحسن القرشي** من فقهاء فاس وصاحب التصنيف، وحمزة بن يوسف ابن الحوراء (٤٣٨هـ) من فقهاء فاس، وعبدالرحمٰن بن الباز اليحصبي (٤٣٨هـ) قاضي فاس وكان من جلّتها وفضلائها ونبهائها(١).

* **عثمان بن مالك (٤٤٤هـ)** فقيه فاس وزعيم فقهاء المغرب في وقته، تفقّه بفقهاء بلده، وعنه أخذ فقهاء فاس وتفقّهوا به(٢).

وبسبتة نجد:

* **أبو عبدالرحمٰن عبدالرحيم بن أحمد الكتامي المعروف بابن العجوز (٣٤٠هـ ـ ٤١٣هـ)** من أهل سبتة كان كبير قومه كتامة، ذا ذكر شهير في بلاد المغرب، من حفّاظ المذهب القائمين به، وكانت له ولأبيه في المغرب رئاسة بالعلم، وإليه كانت الرحلة في جهة المغرب في وقته، وعليه مدار الفتوى، وله عقب نجباء في العلم بلغوا إلى خمسة أئمّة، فضلاء في عصرهم، وهم الفقيه أبو القاسم عبدالرحمٰن، ابن أبي عبدالله محمد، ابن أبي القاسم عبدالرحمٰن، ابن أبي عبدالرحمٰن عبدالرحيم، ابن أحمد الكتامي(٣).

طلب أبو عبدالرحمٰن عبدالرحيم بن أحمد العلم ورحل فيه إلى الأندلس وإفريقية ولزم أبا محمد ابن أبي زيد فقيه القيروان نحو خمسة أعوام، وسمع منه كتبه، النوادر والمختصر، وحمل معه نسخة منهما إلى سبتة وكانت رحلته إلى القيروان سنة ٣٨٠هـ.

أخذ عنه فقهاء السبتيين والفاسيين وسواهم من غيرهم علماً كثيراً، وتفقّهوا عليه وسمعوا منه(٤).

---

(١) ترتيب المدارك ٧٧٩/٤.
(٢) ترتيب المدارك ٧٧٩/٤.
(٣) الديباج المذهب ص ٢٤٥، شجرة النور الزكيّة ص ١٢٤.
(٤) ترتيب المدارك ٧٢٠/٤ ـ ٧٢١، الديباج المذهب ص ٢٥١، شجرة النور الزكيّة ص ١١٥.

وكان له ثلاثة أولاد عبدالعزيز وعبدالرحمٰن وعبدالكريم، فأمّا **عبدالعزيز (نحو ٤٣٠هـ)** فكان فقيهاً فاضلاً خيّراً ديّناً، وكان صديقاً لابن أبي مسلم القاضي، وعلى طريقته في الخير، وعليه كان اعتماد ابن أبي مسلم في الفتيا بعد أبيه[١].

وأمّا **عبدالرحمٰن (٤٤٩هـ)** فكان من أهل الفقه والصلاح، وذو بيت شهير في العلم بسبتة، سمع من أبيه وطبقته، ولقي بالقيروان أبا إسحاق التونسي وأخذ عنه.

حجّ مع ابنه القاضي أبي عبدالله محمد ـ من رجال الدور القادم ـ، وكان أبو القاسم من رؤوس فقهاء سبتة في وقته ومفتيهم، وعليه دارت الشورى أيّام قضاء محمد بن عتاب بعد موت المشيخة قبله[٢].

وهكذا حاز الأخوان عبدالعزيز وعبدالرحمٰن الرئاسة بعد أبيهما وسدّا مكانه، وأمّا عبدالكريم فطلب العلم وكان أكثر مدّته في قومه بكتامة، رأساً فيهم وهم له طاعة، وخالط السلطان، وطالت حياته، ثمّ مات مقتولاً[٣].

ومن أهل سبتة كذلك:

* **القاضي أبو الحجاج يوسف بن حمّود بن خلف بن أبي مسلم (حدود ٤٣٠هـ)** سبتي شهير البيت بها في العلم، كان فقيهاً خيّراً فاضلاً، وأديباً شاعراً، سمع من شيوخ بلده، ورحل إلى الأندلس فسمع من أبي محمد الأصيلي وطبقته.

ولي قضاء سبتة، فكان من أجلّ قضاتها طريقة وأحمدهم سيرة وأشدّهم على أصحاب السلطان شكيمة، وكان يرغب في الاستقالة عن خطّة القضاء، ولكنّه لا يسعف بذلك.

---

(١) ترتيب المدارك ٧٨٢/٤.

(٢) ترتيب المدارك ٧٨٢/٤، شجرة النور الزكيّة ص ١١٥، وذكر أنّه توفّي سنة ٤١٧هـ

(٣) ترتيب المدارك ٧٢١/٤، الديباج المذهب ص ٢٥١.

رحل إلى المشرق سنة ٤١٣هـ وهو كبير السنّ، بعد ولايته القضاء، فحجّ وسمع من أبي ذرّ الهروي، ثمّ عاد إلى القضاء، وبقي على خطّته تلك بضعا وعشرين سنة.

كان على جلالة مكانته، كثير التواضع، يخدم فلاحة أرضه بنفسه، ويعتني بها في بعض شؤون غرسها حتّى يظنّ من يرى هيئته حين يكون في بستانه أنّه من خدمة الحقول(١).

* **أبو زيد عبدالرحمٰن بن مسعود الكتامي المعروف بابن أبي عامر (بعد ٣٩٠هـ)** من أهل سبتة، سمع وتفقّه ببلده، ثمّ رحل فسمع من أعلام المصريين، ولقي أئمّة المالكيين.

وعنه تلقّى العلم مشيخة أهل سبتة(٢).

* **أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن زويع (بعد ٤٠٠هـ)** من أهل سبتة، من أهل العلم والأدب وأجلّ قضاة سبتة، أصله من البصرة، وله رحلة إلى الأندلس، دخل العراق وحجّ ولقي علماء البلاد، ثمّ رجع إلى قرطبة.

كان حسن السيرة في قضائه، عالماً متفنّنا في علمه نظّارا، صاحب حجّة وجدل، عالماً بالحديث، وكانت له منزلة عالية عند سلطان الأندلس، متمكّن الأسباب لديه، وهو آخر قضاة بني أميّة بسبتة(٣).

* **أبو محمد عبدالله بن غالب بن تمام الهمداني (٤٣٤هـ)** مفتي أهل سبتة وزاهدهم وعالمهم، حمل العلم عن شيوخ سبتة، ورحل إلى الأندلس فأخذ عن أبي بكر الزبيدي وأبي محمد الأصيلي، ورحل في حدود سنة ٣٨٠هـ إلى القيروان وروى عن أبي محمد ابن أبي زيد القيرواني كتبه، كما رحل إلى مصر، وقيل دخل العراق.

---

(١) ترتيب المدارك ٧٢١/٤ ـ ٧٢٣.

(٢) ترتيب المدارك ٥٣٨/٤ ـ ٥٣٩.

(٣) ترتيب المدارك ٦٢٩/٤.

كان علاّمة متيقّظاً ذكيّاً متبحّراً في العلوم فصيحاً مفوّهاً، واحد عصره علماً وتقى وجلالة وديناً وفضلاً من بيت علم وجلالة، وكان متفنّناً في علوم كثيرة، قائماً بمذهب المالكيّة نظّاراً حافظاً.

أخذ عنه جماعة من أهل سبتة منهم: ابنه القاضي أبو عبدالله، وأبو محمد المسيلي، والقاضي ابن حجاج، وغيرهم.

كان الاعتماد في الشورى عليه إلى أن مات، وقيل إنّ رجلاً من أهل سبتة رفع مسألة إلى القيروان، فقيل له: أليس ابن غالب حيًّا؟، قال: نعم، فقيل له: ما ينبغي لبلد فيه مثله أن يرفع منه سؤال[١].

وبالمغرب نلقى أيضاً:

* **القاضي عبدالله بن الزويزي**، قاضي أصيلا من بلد المغرب، مشهور الاسم بعيد الصيت في الفتيا والذكر بالعلم، قال القاضي عياض: وبه يضرب المثل إلى الآن ـ القرن السادس الهجري ـ بالمغرب، فيقال: لا أفعل كذا ولو أفتاك به ابن الزويزي[٢].

وبالمغرب الأوسط ـ الجزائر ـ نقف على قلعة بني حمّاد تلك المدينة التي أسّسها حمّاد بن بلكين عاصمة لدولته سنة ٣٩٨هـ، ونلقى من فقهائها:

* **أبو عثمان ابن أبي سوار** الذي تفقّه بشيوخ جهته، وأخذ عن ابن العجوز السبتي، كما نلقي **أبو حفص عمر ابن أبي الحسين ابن الصابوني**، زعيم فقهاء قلعة بني حمّاد في وقته، الذي انفرد برئاسة جهته، وكان فقيهاً نظّاراً محقّقاً، حسن الفهم جيّد الكلام في الفقه[٣].

---

(١) شذرات الذهب ٤١٦/٣، الصلة لابن بشكوال مج ١٢، ج ٢، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣.
(٢) ترتيب المدارك ٦٢٨/٤.
(٣) ترتيب المدارك ٧٧٨/٤.

ويبرز من أعلام المسيلة، تلك المدينة التي تقع بولاية سطيف الجزائريّة:

*** أبو جعفر أحمد بن خلف المسيلي المعروف بالخيّاط (٣٩٣هـ)** كان فقيهاً عالماً بالمسائل، حافظاً لها، حسن التكلّم في الفقه على مذهب الإمام مالك، وكان ورعاً زاهداً فاضلاً، دخل الأندلس فاستوطنها وتوفّي بقرطبة(١).

*** أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي (٤٠٢هـ)** من أئمّة المالكيّة بالمغرب، والمتسمّين في العلم، المجيدين للتأليف، أصله من المسيلة، وقيل من بسكرة ـ مدينة بولاية أوراس الجزائريّة ـ، كان بطرابلس وبها أملى كتابه في شرح الموطّأ، ثمّ انتقل إلى تلمسان بالجزائر.

كان فقيهاً فاضلاً متفنّناً، ولكنّه لم يتفقّه في علمه على إمام مشهور، وإنّما وصل إلى ما وصل إليه بإدراكه، صنّف كتاب الأموال نشر المرحوم حسن حسني عبدالوهاب قسماً منه يختصّ بإفريقيّة والأندلس وصقليّة، وترجمه إلى الفرنسيّة، وصنّف كذلك الأسئلة والأجوبة في الفقه، وغيرها، وكانت وفاته بتلمسان(٢).

*** أبو حسين ابن سلمون المسيلي (٤٣١هـ)** دخل إلى الأندلس فقطن قرطبة بعهد الجماعة، فلم يرمها، وشهر بها علمه وفضله وولّي الشورى، فكان أحد جلّة مفتيها إلى أن مات.

كان عفيفاً متواضعاً حافظاً للمسائل، واقفاً على الأصول(٣).

وفي **ليبيا** يشعّ نجم طرابلس وأجدابية، ونلقى من أعلامها:

*** أبو الحسن عليّ بن محمد المعروف بابن المنمّر (٣٤٨هـ ـ**

---

(١) ترتيب المدارك ٤/٦٢٧ ـ ٦٢٨.

(٢) ترتيب المدارك ٤/٦٢٣، الديباج المذهب ص ٩٤، تاريخ التراث العربي ٣/١٧٥، أعلام ليبيا ص ٤٩.

(٣) ترتيب المدارك ٤/٧١٦.

٤٣٢هـ) من أهل طرابلس، تفقّه ببلده، رحل سنة ٣٨٩هـ إلى المشرق لطلب العلم، وحجّ، والتقى بأعلام الفقهاء بمصر، وبمكّة وبالقيروان، وأخذ فيها عن القابسي.

كان علم وقته وشيخ زمنه ورائد قومه، بارعاً في الحديث وما يتعلّق به، عارفاً بالفقه والأصول، فقيهاً فرضيًا، وعنه تلقّى ابن محرز.

كان ابن المنمّر أوّل من ثار في طرابلس على بدع الشيعيين سنة ٤٠٧هـ، ونادى بإبطال حيّ على خير العمل من الأذان، وأمر الناس بصلاة ركعتي الضحى، وندب الناس لإقامة صلاة التراويح في رمضان، وكان العبيديون يقتلون من صلاّهما.

له في الفرائض كتاب مشهور مفيد سمّاه الكافي الذي عدّ عمدة في فنّه، ومرجعاً في بابه، ودرسه علماء المشارقة وعلماء المغاربة وأشار إليه ابن خلدون[١].

* **أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبدالله اللواتي الأجدابي**، من أهل طرابلس، وأحد أهل أجدابية المبرّزين في العلم، ومن أعلم أهل زمانه في الفقه والكلام والنحو واللغة والنظم والنثر.

كانت له عناية بلقاء الوفود وركبان الحجّ وإكرامهم، يأخذ عنهم ما يحملونه من علم، ولم تكن له رحلة في طلب العلم، ولمّا سئل: أنّى لك هذا العلم ولم ترتحل؟ قال: اكتسبته من بابي هوّارة وزناتة، يريد أنّه استفاد علمه ممّن يفد على طرابلس من المغرب ومن المشرق من أهل العلم.

وكانت وفاته منتصف القرن الخامس الهجري، ما بين سنة ٤٤٤هـ وسنة ٤٧٦هـ[٢].

(١) ترتيب المدارك ٧١٨/٤، أعلام من طرابلس للمصراتي ص ٢٨ ـ ٤٢، مقدّمة ابن خلدون ص ٤٣٤، أعلام ليبيا ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٢) أعلام ليبيا ص ٤ ـ ٥.

* **موسى بن فرج الهواري الطرابلسي (٤٤٢هـ)** كان فقيهاً يقرىء الدروس في مسجده المشهور به، لأنّه كان يلازم قراءة الدروس فيه فسمّي بمسجد ابن فرج(١).

وأمّا صقليّة فقد تواصل نشاط المذهب المالكي بها في نموّ مطّرد بعد أن ظهر في بدايات المرحلة السابقة من هذا الدور، عن طريق القضاة والمهاجرين إليها، وكان من أبرزهم في هذه المرحلة:

* **أبو بكر محمد بن عبدالله بن يونس التميمي الصقلّي (٤٥١هـ)** أحد العلماء وأئمّة الترجيح والاختيار، أخذ عن علماء صقليّة وشيوخ القيروان، وأكثر من النقل عن أبي عمران الفاسي، وحدّث عن أبي الحسن القابسي، صنّف كتاباً في الفرائض وكتاباً حافلاً للمدوّنة أضاف إليها غيرها من الأمّهات، وكان عليه اعتماد طلبة العلم، دفن بالمنستير حذو باب القصر الكبير(٢).

* **أبو العباس أحمد بن محمد الجزّار**، صقليّ مشهور، مقدّم ببلده، انفرد فيه برئاسة الفتيا، وكان قرين عبدالحقّ في رئاسة العلم بصقليّة، من أهل التحقيق بالفقه والأصول، وبه تفقّه متأخّرو الصقليين، ولقيه أبو الوليد الباجي وغيره من الأندلسيين(٣).

* **أبو محمد عبدالحقّ بن محمد بن هارون السهمي القرشي (٤٦٦هـ)** من أهل صقليّة، تفقه بشيوخ القرويين كالتونسي والسيوري وابن بنت ابن خلدون وغيرهم، وتفقّه بشيوخ الصقليين، وحجّ مرّتين فلقي في الأولى أبا محمد عبدالوهاب بن نصر، وأبا ذر الهروي، ولقي في الثانية ـ بعد أن أسنّ وكبر وبعد صيته ـ إمام الحرمين الجويني، فباحثه وسأله عن مسائل مشهورة بين الناس نقلها الونشريسي في معياره.

---

(١) أعلام ليبيا ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

(٢) شجرة النور الزكيّة ص ١١١.

(٣) ترتيب المدارك ٧٧٦/٤ ـ ٧٧٧.

كان إماماً مشهوراً بكلّ علم، فقيهاً فهماً صالحاً ديّناً مقدّماً، بعيد الصيت، شهير الخير، من الصالحين المتّقين، مدرّساً للأصول والفروع، مليح التأليف.

ألّف كتاب النكت والفروق لمسائل المدوّنة، وهو أوّل تآليفه، ثمّ رجع عن كثير من اختياراته وتعليلاته فيه واستدرك كثيراً من كلامه فيه، وألّف كذلك كتابه الكبير في شرح المدوّنة المسمّى بتهذيب الطالب، نبّه فيه على ما استدركه، على كتاب النكت، وله أيضاً استدراك على مختصر البرادعي.

بقي يتردّد على مصر كثيراً حتّى وافاه الأجل بالإسكندريّة[١].

ولا يمكن أن ننسى ما كان لأبي القاسم خلف ابن أبي القاسم الأسدي المعروف بالبرادعي من فضل على أهل صقليّة، حين دخلها في حدود سنة ٣٧٥هـ، وحصلت له هناك مكانة وشهرة، وبصقليّة ألّف أغلب كتبه في مذهب الإمام مالك، تلك الكتب التي ذاع صيتها، حتّى قيل إنّ المناظرة في جميع حلق بلدان صقليّة إنّما كانت بكتاب التهذيب للبرادعي[٢].

وكان أبو عبدالله محمد بن سعيد بن شرف الأجدابي القيرواني الموصوف بالعلم والذكاء، والفقه والتفنّن في العلوم، قد رحل هو الآخر إلى صقليّة عند ابتداء الفتنة بالقيروان سنة ٤٤٧هـ[٣].

وبهؤلاء الجمع الغفير من العلماء الأعلام أصبحت البلاد المغربيّة بشقّيها الشرقيّ والغربيّ، أكبر حصون المالكيّة تفرّداً، في الوقت الذي تقلّص فيه انتشار هذا المذاهب بالمشرق إلى الحدّ الذي انقطع فيه حبل

---

(١) ترتيب المدارك ٧٧٤/٤ ـ ٧٧٦، الديباج المذهب ص ٢٧٥، شجرة النور الزكيّة ص ١١٦.

(٢) الديباج المذهب ص ١٨٣.

(٣) أعلام ليبيا ص ٢٧٥.

السلسلة العلميّة كما هو الشأن بالعراق والحجاز.

ـ ٥ الأندلس:

استمرّ حكم الأمويين على بلاد الأندلس من سنة ١٣٨هـ إلى سنة ٤٢٢هـ، عرفت البلاد في بدايتها، انتعاشة وازدهاراً، فثباتاً واستقراراً، ثمّ شهدت بداية انحدار، ثمّ سقوطاً وانهياراً، من جرّاء الاضطرابات المتتالية فاستقلّ كلّ أمير من أمراء الأطراف بناحية من البلاد، وانفرد بحكمها، حتّى غدت الأندلس أندلسيات، ودخلت البلاد عصر ما سمّي بملوك الطوائف، فاستقلّ ابن عبّاد بإشبيليّة، وابن الأفطس ببطليوس، وابن ذي النون بطليطلة، وابن أبي عامر ببلنسية، وابن هود بسرقسطة، وابن باديس بغرناطة، وابن صمادح بالمريّة، وغيرهم.

وتصارع أصحاب تلك المقاطعات فيما بينهم حتّى أدّى بهم الأمر إلى الاستنجاد بالمسيحيين على منافسيهم وأرغم بعضهم على دفع الجزية لملك قشتالة، ورغم محاولات الإمام الباجي لتدارك الشرّ قبل استفحاله، وسعيه بين أمراء الأندلس للمّ شملهم وجمع كلمتهم، وإصلاح ما فسد بينهم، وتأليف قلوبهم على نصرة الإسلام، إلاّ أنّه لم يجد بينهم من له أذن صاغية، أو عين واعية، وتوفّي دون تحقيق غرضه.

وفي ظلّ هذا التمزّق واستفحال الصراع تعلّقت آمال العلماء بالمرابطين، فاستنجدوا بيوسف بن تاشفين الذي لبّى طلبهم وقضى على حكم الطوائف.

وعلى الرغم من هذا التفكّك الذي استفحل بالبلاد، وعلى الرغم من ذلك الصراع الذي نخر في جسم المسلمين بأندلسهم، على الرغم من كلّ ذلك فإنّ الأندلس بقيت سوقا نافقة للفقهاء، وبلاداً عامرة بالعلماء على اختلاف أصنافهم ومشاربهم، وكان للمذهب المالكي النصيب الأكبر والقسط الأوفر في نشاط الحركة الفقهيّة.

وقد اشتهر من أعلامه خلال هذه المرحلة من هذا الدور مجموعة هائلة كانت لهم رئاسة جليلة ببلدهم، ومكانة كبيرة من الفقه، ذكر منهم

القاضي عياض في مداركه أكثر من مائة وستّين فقيهاً، من أصحاب الطبقات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة، التي اختتم بها عياض كتابه المدارك[1].

ومن هؤلاء الأعلام نذكر:

* **القاضي أبو بكر محمد بن يبقى بن محمد بن زرب (٣١٧هـ - ٣٨١هـ)** سمع من قاسم بن أصبغ وطبقته، وعني بالرأي وتقدّم فيه، وكان من أحفظ أهل زمانه لمسائل مذهب مالك وأفقههم به، وعليه مدار طلبه في المناظرة، وكان الفقه جلّ علمه، ولم تكن له رحلة ولا رواية.

شوور في الأحكام سنة ٣٦٠هـ، ثمّ ولّي قضاء الجماعة سنة ٣٦٧هـ إلى أن توفّي، فكانت ولايته في القضاء أربعة عشر عاما.

كان ابن زرب مع علمه، ورعاً عفيفاً كثير الصلاة والتلاوة، بصيراً بالعربيّة والحساب، حسن الخطابة، قريب الدمعة، دقيق التفقّه مستبحراً في المسائل، حافظاً للأصول، حاذقا بالفنون، وإليه كانت الخطبة والصلاة، وكان آخر حاله قد عكف على العبادة وأكثر من الذكر والتلاوة حتّى كان يختم القرآن كلّ ليلة.

صنّف كتاب الخصال في الفقه على مذهب مالك، عارض به كتاب الخصال لابن كابس الحنفي، وله غير ذلك من المصنّفات[2].

* **أبو محمد عبدالله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي (٣٩٢هـ)** كان من أجلّ العلماء فقها وأثبتهم نقلاً وأصحّهم ضبطا وأرفعهم حالا وأعدلهم قولا، فردا لا نظير له في الفهم والنباهة.

تفقّه بقرطبة عن مشائخها منذ صباه، ثمّ طلب العلم بالآفاق، فقصد إفريقيّة سنة ٣٥١هـ ولقي شيوخها كأبي العباس الأبياني التونسي،

---

(١) ترتيب المدارك ٦٣٠/٤ - ٦٩١ و٧٢٣/٤ - ٧٦٢ و٧٨٤/٤ - ٧٩٠ و٨٠٢/٤ - ٨٣٠.

(٢) ترتيب المدارك ٦٣٠/٤ - ٦٣٣، جذوة المقتبس ص ٩٣، شذرات الذهب ٢٢٤/٣، الديباج المذهب ص ٣٦٤، تاريخ علماء الأندلس ٧٧٥/٢ - ٧٧٦.

وعبدالله بن أبي زيد، وغيرهما، ثمّ رحل إلى المشرق سنة ٣٥٢هـ، فدخل مصر والتقى بشوخها، وحجّ سنة ٣٥٣هـ ولقي أعلام الحجاز، ثمّ سار إلى العراق فلقي أبو بكر الأبهري.

أقام بالمشرق نحو ثلاثة عشر عاما، ثمّ عاد إلى قرطبة ولا نظير له في حفظ الحديث ومعرفة رجاله وعلله وإتقان النقل وحذق النقد وحفظ الأصول والقيام بمذهب مالك والجدل فيه على أصول البغداديين، فنشر بها علمه حتّى سار ذكره، وشرق به فقهاء البلد وسمع منه عالم كثير، وبه تفقّه أبو عمران الفاسي وغيره.

تفنّن في الرأي ونقد الحديث وعلله وألّف كتباً نافعة، وجمع كتاباً في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة سمّاه الآثار والدلائل، وله غيره من المصنّفات، وإليه انتهت رئاسة المالكيّة بالأندلس في وقته، وكان بالأندلس نظير ابن أبي زيد بالقيروان، وكانت بين الأصيلي والقاضي ابن زرب وأصحابه مشاحنة، أثارتها النفاسة وعلوّ كعب الأصيلي في العلم، وإزراؤه عليهم(١).

*** أبو عمر أحمد بن عبدالملك الإشبيلي المعروف بابن المكوى (٣٢٤هـ ـ ٤٠١هـ)** شيخ فقهاء الأندلس في وقته، كان أوّل أمره ضعيف الحفظ، قليل العلم، فلم يزل أبوه يدرّبه ويحرّضه على المطالعة وإقامة الدرس حتّى فتح الله عليه، وشهر في الناس حذقه، واحتاجوا إلى فتاويه، فقلّد الشورى.

كان قد حبّب إليه الدرس مدّة عمره، لا يفتر عنه ليله ونهاره، وكان يقول: والله ما لي راحة، ولا لذّة في غير المطالعة والقراءة، وكان أفقه أهل زمانه وأتقنهم للرأي، وأحفظ الفقهاء لمذهب مالك، واختلاف

---

(١) ترتيب المدارك ٦٤٢/٤ ـ ٦٤٨، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٤، شذرات الذهب ٢٧٢/٣، تذكرة الحفاظ ١٠٢٤/٣ ـ ١٠٢٥، جذوة المقتبس ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠، الديباج المذهب ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥، تاريخ علماء الأندلس ٤٢٦/١ ـ ٤٢٧.

أصحابه، لا يلحقه أحد من المتقدّمين في عصره، ولا يقوم به أحد من طبقته.

انتهت إليه رئاسة العلم بالأندلس، وبعد صيته بها، واعتلى على جميع الفقهاء، ونفّذت الأحكام برأيه، وعليه دارت الفتيا بالأندلس أجمع إلى أن توفّي، وصار معتمدا لجميع قضاتها وحكّلمها فيما اختلفوا فيه.

لم يكن في عصره من هو أحفظ منه للسنّة، وكان ابن زرب على تقدّمه يعترف له بذلك، وكان لكثرة حفظه وقوّة درايته لا يبطىء بالفتاوى، ولا يطيل على السائل، بل يجيب لوقته، أو ليومه.

وكان مع حفظه يمتاز بالفهم الثاقب، مع الذكاء والفطنة وحدّة الذهن، حتّى كان يشبّه بإيّاس بن معاوية ونظرائه، وله في ذلك حكايات ومسائل تدلّ على غرائب ذكائه وتلطّفه.

وكان من ذوي المتانة في دينه، والصلابة في رأيه، والبعد عن هوى نفسه، لا يداهن سلطانا ولا يدع صدعه بالحقّ، البعيد والقريب عنده في الحقّ سواء.

دعاه ابن أبي عامر إلى تقلّد قضاء الجماعة مرّتين، فأبى أشدّ الإباء، وأغلظ القسم ألاّ يلي القضاء، ولا شيئاً من الأحكام أبداً[١].

* **أبو العبّاس أحمد بن عبدالله بن عرفة بن ذكوان (٤١٣هـ)** قاضي القضاة، كان محمود الطريقة، ذا عفاف ونزاهة وبعد همّة وفرط هيبة، حاد بالناس إجلاله عن مذاكرته، فلاذوا من مناظراته بالتسليم والموافقة.

كان الناس والخصوم يلتزمون في مجلسه من الوقار وغضّ الصوت الغاية، وكانوا يتقدّمون إليه الأوّل فالأوّل بأسمائهم، قد قيّد ذلك في جريدة، فمن ضاق عنه أوّل يوم الوصول، دفعت إليه رقعة ترتّبه للغد،

---

(١) ترتيب المدارك ٦٣٥/٤ ـ ٦٤٢، جذوة المقتبس ص ١٢٣ ـ ١٢٤، شذرات الذهب ٤٠١/٣، الديباج المذهب ص ١٠٠ ـ ١٠١، هديّة العارفين ٧١/١، الصلة لابن بشكوال ٥٣/١ ـ ٥٤.

على الرسم القديم للقضاء.

كان القاضي ابن ذكوان ضابطاً للحقّ، صليباً فيه، لا تأخذه لومة لائم، يروى أنّه فسخ شراء ضيعة اشتراها وزير الدولة عيسى بن سعيد من سفيه، فقضى ابن ذكوان بردّها، وفسخ البيع، فالتحمت بسبب ذلك بينهما العداوة، حتّى صرف ابن ذكوان عن القضاء والصلاة، فأسف الناس على فقده، وحنّ القضاء إلى استقامته واستقلاله، فأعيد ابن ذكوان إلى خطّته بعد تسعة أشهر من عزله، بعد إلزام ورغبة، فازداد رفعة إلى رفعته، ولم يجر شيء في أمر المملكة بعد ذلك إلاّ عن مشورة ابن ذكوان.

ثمّ جرت عليه محنة ثانية أطرد بسببها من الأندلس، هو وأفراد عائلته، وذلك سنة ٤٠١هـ، فقامت لنكبتهم بقرطبة القيامة، وعظم على الخاصّة والعامّة ما جرى عليهم، وهال جماعة من الأعيان ما حدث لآل ابن ذكوان، لجلالتهم في القلوب، حتّى حسن رأي أولي الأمر فيهم، ووجّه في استدعائهم وعادوا إلى وطنهم بالأندلس إلاّ أنّهم لم يتقلّدوا خطّة، إلى أن توفّي ابن ذكوان، وكانت مدّة عمله على القضاء في المرّتين سبعة أعوام ونصفا[1].

* **أبو بكر يحيى بن عبدالرحمٰن بن وافد اليحصبي (٤٠٤هـ)** كان أحد من حاز كمال القضاة بالأندلس علماً وهديا ورجاحة ودينا، تقلّد الشورى، فكان مبرزا في أهلها.

كان ابن وافد مستبحراً في المذهب، حاذقاً بحفظ المسائل والأجوبة، حاضر العلم في مجالسته، كثير الإفادة، فصيح اللهجة، من أكمل قضاة الأندلس، ولِّي القضاء والخطبة عند صرف ابن ذكوان ونكبته في الفتنة، ولقّب بقاضي القضاة.

دارت عليه الفتنة واشتدّ الطلب فيه حتى عثر عليه، فأمر المستعين

(١) ترتيب المدارك ٦٦٢/٤ ـ ٦٦٧، جذوة المقتبس ص ١٢١، الصلة لابن بشكوال ٦٧/١ ـ ٦٨.

سليمان بن الحكم بصلبه، فاضطرب البلد له، ووردت عليه شفاعات الفقهاء والصالحين، وقبّحوا للأمير ما أمر به في شأن القاضي، فرفع عنه الصلب والمثلة، وأمر بحبسه، فكان ابن وافد شديد الصبر في حبسه، كثير التبسّم والحديث متعاهدا لصلاح نفسه وجسمه من الاغتسال والاستياك والاستحداد حتّى وافاه أجله وهو محبوس[١].

* **أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى ابن أبي زمنين (٣٢٤هـ - ٣٩٩هـ)** البيري، من كبار المحدّثين والفقهاء الراسخين في العلم، عارفاً بمذهب مالك، بصيراً به، من أجلّ أهل وقته حفظا للرأي ومعرفة بالحديث واختلاف العلماء، متفنّنا في الأدب والأخبار وقرض الشعر، مع زهد وورع واقتفاء لآثار السلف، وكثرة العمل والصلاة والبكاء والصدقة.

قدم قرطبة فسمع منه بها سنة ٣٧٨هـ.

وكان حسن التأليف مفيد الكتب في كلّ فنّ، من مصنّفاته: المغرب في اختصار المدوّنة وشرح مشكلها، والتفقّه في نكت منها مع تحرير للفظها، وضبط لروايتها، ليس في مختصراتها مثله باتّفاق، وهو أفضل مختصرات المدوّنة وأقربها ألفاظا ومعاني لها، وله أيضاً المنتخب في الأحكام الذي ذاع بالمشرق والمغرب ذكره، وغير ذلك كثير في الحديث والتفسير، وغيرها من الفنون[٢].

* **أبو عبدالله محمد بن عمر المعروف بابن الفخار (٤١٩هـ)** أحد أئمّة المالكيّة بقرطبة، وأحفظ الناس وأحضرهم علماً وأسرعهم جواباً وأوقفهم على اختلاف العلماء.

كان حافظاً للحديث والأثر، يميل إلى الحجّة والنظر، وكان أوّل أمره

(١) ترتيب المدارك ٦٦٨/٤ - ٦٧١، الصلة لابن بشكوال ٩٥٣/٣ - ٩٥٤.

(٢) ترتيب المدارك ٦٧٢/٤ - ٦٧٤، طبقات المفسّرين ص ٤١٠ - ٤١١، شذرات الذهب ٢٩٤/٣، هديّة العارفين ٥٨/٢، جذوة المقتبس ص ٥٣، الديباج المذهب ص ٣٦٥ - ٣٦٦، الصلة ٧٠٧/٢ - ٧٠٩.

يميل إلى مذهب الشافعي ثمّ تركه، وكان يقول في بعض الأحكام بقول أهل الظاهر، وله آراء يأخذ بها في خاصّة نفسه، خالف فيها أهل قطره.

كان واحد عصره ورئيس وقته، ذا منزلة عظيمة في العلم والفقه والمشاورة في الأحكام، وكذلك في النّسك والعبادة، وله أعمال من البرّ صالحة، وانتفع المسلمون بوعظه وإرشاده.

رحل إلى المشرق فحجّ، وجاور وسكن المدينة، وشوور بها، ثمّ عاد إلى قرطبة، وفرّ منها أيّام الفتنة، فاضطرب بجهات الغرب والشرق، ثمّ ألقى عصاه ببلنسية، حيث أقام بها مطاعا إلى أن توفّي وقد ناهز الثمانين.

من مصنّفاته: اختصار في كتاب نوادر ابن أبي زيد، ردّ عليه في بعض مسائله، واختصار المبسوط للقاضي إسماعيل[١].

*** أبو المطرف عبدالرحمٰن بن هارون الأنصاري المعروف بالقنازعي (٣٤١هـ - ٤١٣هـ)** قرطبيّ فقيه زاهد ورع، تفقّه بأبي محمد الأصيلي وأبي عمر المكوى وطبقتهما بالأندلس، ثمّ رحل إلى القيروان فلقي ابن أبي زيد، وأخذ عنه، ثمّ قصد الحجّ وسمع بمصر، وذكر أنّه دخل مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط، فوجد فيه من مجالس المالكيّة في الفقه والحديث نحو عشرين حلقة، وأهله يشكون لقياه والنقص بانتقال الدولة للشيعة على السنّة.

كان من أهل العلم والتفقّه في الحديث وعلوم القرآن، ومن أحسن الناس تثبّتا لرواية يحيى بن يحيى الليثي، وعناية بها، وهو أحد من تناهت فيه خلال الصلاح بقرطبة، وعظمت به المنفعة.

سلك سبيل السلف المتقدّمين في الزهد في الدنيا والبعد عن الأمراء والقناعة باليسير والحرص على التعليم.

---

(١) ترتيب المدارك ٧٢٤/٤ - ٧٢٦، شذرات الذهب ٣٦٧/٣، النجوم الزاهرة ٢٦٨/٤، نفح الطيب ٦٠/٢ - ٦١، الصلة لابن بشكوال ٧٤٦/٢ - ٧٤٨.

كان ممّن امتحن أيّام الفتنة بالأندلس، محنة أودت بحاله، وقدحت في خاطره، فعراه طيف خيال خفيف، يغشاه فلا يؤذيه، واضطرّ إلى مؤاجرة نفسه في الإمامة والتعليم على حدّ من التحرّي، وتفرّغ في يومي الخميس والجمعة من كلّ أسبوع إلى الإسماع والتفقّه[١].

*** أبو محمد عبدالله بن يحيى بن دحون (٣٤٢هـ ـ ٤٣١هـ)** أحد شيوخ المفتين، وبقيّة علماء وقته بقرطبة.

كان من كبار أصحاب ابن مكوى وابن زرب، صحبهما وتفقّه بهما وبغيرهما، ولم يكن في أصحاب ابن مكوى بإجماع أفقه منه، ولا أقدر على الفتوى، ولا أضبط للروايات منه.

عاش بعد قرنائه، فانفرد بالرئاسة، بقيّة مدّته، وكان جمّ الإفادة، شديد التواضع مع رفعة حاله، وتقديم الناس له، وتوفّي وسنّه تسع وثمانون[٢].

ثمّ كان بعد هؤلاء:

*** أبو عبدالله محمد بن عتاب بن محسن (٣٨٣هـ ـ ٤٦٢هـ)** شيخ المفتين بقرطبة في طبقته، تفقّه بأبي عمر ابن الفخار، وصحب القاضي ابن بشير أكثر من اثني عشر عاما، وروى عن القنازعي وابن وافد وغيرهما.

كان إماماً جليلا متصرّفا في كلّ باب من أبواب العلم، من جلّة الفقهاء بالأندلس وأحد العلماء الأثبات، حافظاً نظّارا مستنبطا بصيراً بالأحكام متقدّما فيها، عارفاً بالعقود والشروط وعللها، وفاق في ذلك أقرانه.

أريد على القضاء أكثر من مرّة فأبى، وأغروه بالمال الكثير والرزق

---

(١) ترتيب المدارك ٧٢٦/٤ ـ ٧٢٨، شذرات الذهب ٣٤٦/٣ ـ ٣٤٧، جذوة المقتبس ص ٢٦٠، هديّة العارفين ١٦/١، طبقات المفسّرين ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤، الديباج المذهب ص ٢٤٩، غاية النهاية ٣٨٠/١، الصلة لابن بشكوال ٤٨١/٢ ـ ٤٨٣.

(٢) ترتيب المدارك ٧٢٩/٤ ـ ٧٣٠، شجرة النور الزكيّة ص ١١٤.

الواسع فامتنع، وحلف ألاّ يلي من الأمر شيئاً، فلم يقدر على إرغامه أحد، ويحكى أنّه كان قد خلّف صندوقاً مقفلاً، قد أوصى ألاّ يفتح إلاّ بعد موته، فلمّا مات فتح، فإذا فيه أربعة رسائل من أربعة أمراء: ابن عبّاد صاحب إشبيليّة، وابن الأفطس صاحب بطليوس، وابن صمادح صاحب مريّة، وابن هود صاحب سرقسطة، كلّ منهم يدعوه إلى تقلّد القضاء ببلده، فكتب على كلّ كتاب منها: تركت هذا لله(١).

*** أبو عمر أحمد بن محمد بن عيسى بن هلال ابن القطّان (٤٦٠هـ)** قرطبي بعيد الصيت في فقهائها، كان من أحفظ الناس للمدوّنة والمستخرجة ـ العتبيّة ـ، وأبصر الناس إلى الاهتداء إلى مكنونهما، وبه تفقّه القرطبيون، وكانت عليه وعلى أبي عبدالله ابن عتاب تدور الفتيا بقرطبة، إلى أن فرّق الموت بينهما.

وكان لا يزال الذي بينهما متباعدا، ولا يزال يخالف ابن عتاب، إذ كان متقدّما عليه لسنّه، وكان ابن عتاب مع سنّه يفوقه بتفنّنه وثبوت معرفته، في حين كان ابن قطّان متقدّما على ابن عتاب بقوّة حافظته وجودة استنباطه(٢).

*** أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبرّ النمري (٣٦٨هـ ـ ٤٦٣هـ)** شيخ علماء الأندلس، وكبير محدّثيها في وقته، وأحفظ من كان بها للسنّة، طلب الفقه بقرطبة عند ابن المكوى وغيره من أعلام عصره، وصبر على الطلب ودأب فيه، ودرس وبرع براعة فاق فيها من تقدّمه من رجال الأندلس، غير أنّه لم تكن له رحلة.

كان مع تقدّمه في علم الأثر وبصره بالفقه والفرائض ومعاني

---

(١) ترتيب المدارك ٨١٠/٤ ـ ٨١٣، الديباج المذهب ص ٣٧٠، شذرات الذهب ٤٩٦/٣، النجوم الزاهرة ٨٦/٥، الصلة لابن بشكوال ٧٩٨/٣ ـ ٨٠٠.

(٢) ترتيب المدارك ٨١٣/٤، شذرات الذهب ٤٩٢/٣، النجوم الزاهرة ٨٢/٥، الديباج المذهب ص ١٠٢ ـ ١٠٣، شجرة النور الزكيّة ص ١١٩.

الحديث، قائما بعلم القرآن، وله اطّلاع واسع في علم النسب والأخبار.

عظم شأنه بالأندلس، وعلا ذكره في الأقطار، ورحل إليه الناس، وسمع منه الكثير من كبراء أهل العلم المشاهير.

رحل عن مسقط رأسه قرطبة أيّام الفتنة، فكان بغرب الأندلس، ثمّ تحوّل منها إلى شرق الأندلس فتردّد ما بين دانية وبلنسية وشاطبة، وتوفّي بشاطبة عن خمس وتسعين سنة، وفي جذوة المقتبس أنّه توفّي سنة ٤٦٠هـ.

صنّف تآليف مفيدة ذاعت في الآفاق، فاقت العشرين مصنّفاً، منها كتاب التمهيد لما في الموطّأ من المعاني والأسانيد، وكتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمّنه الموطّأ من معاني الرأي والآثار، وكتاب الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة، وكتاب الكافي في الفقه في الاختلاف وأقوال مالك وأصحابه، وغيرها[1].

* **القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعدون الباجي (٤٠٣هـ - ٤٧٤هـ)** أصلهم من بطليوس، ثمّ انتقلوا إلى باجة الأندلس، ثمّ سكنوا قرطبة، واستقرّ أبو الوليد بشرق الأندلس، وبها تلقّى العلم.

رحل سنة ٤٢٦هـ، فأقام بالحجاز مع أبي ذرّ الهروي ثلاثة أعوام، يحجّ في كلّ سنة، ثمّ رحل إلى بغداد فأقام بها ثلاثة أعوام يدرس الفقه ويسمع الحديث عن أئمّتها، فلقي بها جلّة من الفقهاء كأبي الفضل ابن عمروس إمام المالكيّة، وأبي الطيّب الطبري أكمل الشافعيّة اجتهاداً وأشدّهم تحقيقاً في المذهب، وأبي عبدالله الدامغاني الحنفي الشهير بمناظراته، وأبي عبدالله الصيمري رئيس الحنفيّة في وقته، وغيرهم.

واستأجر نفسه مدّة إقامته ببغداد لحراسة درب، فكان يستعين بإجارته

(١) ترتيب المدارك ٨٠٨/٤ - ٨١٠، شذرات الذهب ٥٠١/٣ - ٥٠٢، جذوة المقتبس ص ٣٤٤ - ٣٤٦، تذكرة الحفاظ ١١٢٨/٣ - ١١٣٢، البداية والنهاية ١٠٤/١٢ - ١٠٥، هديّة العارفين ٥٥٠/٢، الديباج المذهب ص ٤٤٠ - ٤٤٢، وفيات الأعيان ٦٦/٧ - ٧٢، الصلة لابن بشكوال ٩٧٣/٣ - ٩٧٤.

على نفقته، وبضوئه على مطالعته، ودخل الشام ومصر وسمع من غير واحد، ثمّ دخل الموصل فأقام بها عاما يدرس الأصول، وكان مقامه بالمشرق نحو ثلاثة عشر عاما حاز خلالها علماً كثيراً.

عاد إلى الأندلس، وكان أكثر تردّده بشرقها ما بين سرقسطة وبلنسية ومرسية ودانية، فأخذ عنه بها علم كثير، وسمع منه جماعة، وتفقّه عليه خلق، ولم يكن بها أتقن منه للمذهب.

كان أبو الوليد فقيهاً نظّاراً محقّقاً، وراوية محدّثاً، ومتكلّما أصوليّاً فصيحاً، وشاعرا مطبوعا، حسن التأليف، له تصانيف مشهورة جليلة، وأبلغ ما كان فيها في الفقه وإتقانه على طريقة النظّار من البغداديين وحذّاق القرويين.

وكان مقلاّ من دنياه فكان يخرج إلى تلامذته إذا جاؤوا للقراءة عليه، وفي يديه أثر المطرقة وصدأ العمل، فلمّا فشا علمه وعرف واشتهرت تآليفه، عرف حقّه وجاءته الدنيا وعظم جاهه وقدّر حقّ قدره.

من مصنّفاته كتاب المنتقى في شرح الموطّأ ثمّ اختصره في كتاب سمّاه الإيماء، وله المهذّب في اختصار المدوّنة، وله إحكام الفصول في أحكام الأصول، والإشارات في أصول الفقه، وكتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، وتآليف أخرى كثيرة ومفيدة[(١)].

وذكر القاضي عياض أنّه لم يكن الذي بين أبي الوليد الباجي وابن عبدالبرّ، بالحسن لتجاذبهما سؤدد العلم في وقتهما[(٢)].

وكان لغير المالكيّة بالأندلس نشاط باهت، لا يكاد يذكر مع نشاط

---

(١) ترتيب المدارك ٨٠٢/٤ ـ ٨٠٨، شذرات الذهب ٣٩/٤ ـ ٤٠، تذكرة الحفاظ ١١٧٨/٣ ـ ١١٨٣، البداية والنهاية ١٢٢/١٢ ـ ١٢٣، النجوم الزاهرة ١١٤/٥، هديّة العارفين ٣٩٧/١، طبقات المفسّرين ص ١٤٥ ـ ١٤٨، الديباج المذهب ص ١٩٧ ـ ٢٠٠، الصلة لابن بشكوال ٣١٧/١ ـ ٣٢٠، معجم الأدباء ١٣٨٧/٣ ـ ١٣٨٩، نفح الطيب ٦٧/٢ ـ ٨٥، وفيات الأعيان ٤٠٨/٢ ـ ٤٠٩، فوات الوفيات ٦٤/٢ ـ ٦٥.

(٢) ترتيب المدارك ٨٠٩/٤.

المالكيّة، فكنّا نلتقي من حين لآخر ببعض من كان له اعتناء بغير مذهب مالك من أمثال: **أبي عمر يوسف بن محمد بن سليمان الهمداني (٣٨٣هـ)** الذي تفقّه بالأندلس على محمد بن عبدالملك بن أيمن وعلى قاسم بن أصبغ وطبقتهما، ثمّ رحل إلى المشرق وأقام في رحلته عشرة أعوام وكان له اعتناء بكتب ابن جرير الطبري[1].

ومن أمثال: **أبي سليمان عبدالسلام بن السمح بن نابل بن عبدالله بن يحيون الهواري (٣٨٧هـ)** الذي رحل إلى المشرق وتردّد هناك مدّة طويلة وسكن اليمن، وسمع بمصر وبمكّة وبجدّة، وتفقّه بمصر على المذهب الشافعي، حتّى أصبح حافظاً له، حسن القيام به، ثمّ عاد إلى الأندلس[2].

غير أنّ المذهب الظاهري قد مثّل استثناءا فريدا من نوعه خلال هذه المرحلة من تاريخ الأندلس حيث برز بها مجدّد المذهب الظاهري، ومحي مجده **الإمام أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح الأموي المشهور بابن حزم الظاهري (٣٨٤هـ ـ ٤٥٦هـ)** الذي كان يتميّز بسعة العلم بالكتاب والسنّة وكثرة الاطّلاع على المذاهب والملل والنحل، وحسن المعرفة بالعربيّة والآداب والشعر، وغيرها من أصناف العلوم، مع حدّة في الذهن وذكاء وصدق وديانة وسؤدد.

كان من بيت وزارة ورئاسة، ووجاهة ومال وثروة، وكان أوّل سماعه سنة **٣٩٩هـ**، وكان في بداية أمره شافعي المذهب، دافع من أجله حتّى وسم به ونسب إليه، ثمّ انتقل بعد ذلك إلى مذهب أهل الظاهر فنقّحه ونهّجه وجادل عنه ووضع الكتب في بسطه، وثبت عليه ونافح من أجله إلى أن مضى لسبيله.

كان لابن حزم الظاهري بالأندلس صيتا عاليا، وكان لكلامه طلاوة، قد أخذت قلوب الناس، إذ كانت له تصرّفات في فنون قد قصرت عنها

---

(١) تاريخ علماء الأندلس ٢/٩٤٢ ـ ٩٤٣.

(٢) المصدر السابق ٢/٤٩٢ ـ ٤٩٣.

ألسنة فقهاء الأندلس في ذلك الوقت لقلّة استعمالهم النظر وعدم اشتغالهم به فلم يكن يقدر أحد على مناظرة ابن حزم، فعلا بذلك شأنه، وسلّموا الكلام له رغم يقينهم بتخليطه، فلذلك حادوا عن مناظرته.

استدعاه سنة ٤٣٠هـ ابن رشيق أمير جزيرة ميورقة ـ شرقي الأندلس ـ لينشر بها مذهبه، فعقد مجالس نظر بقصر الأمير استطاع ابن حزم أن يفحم فيها فقهاء المالكيّة، من أمثال أبي الوليد ابن البارية الذي كان من الفقهاء المشهورين بها والمتقدّمين، ويذكر عياض أنّ ابن حزم قد تعصّب فيها على ابن البارية حتّى حمل الوالي على سجنه وإذلاله[(١)].

ونتيجة للحظوة التي كان يلقاها ابن حزم بجزيرة ميورقة، استطاع أن ينشر مذهبه فاتّبعه أكثر أهلها.

ولـمّا ورد أبو الوليد الباجي الأندلس سنة ٤٣٩هـ، وكان عنده من الإتقان والتحقيق والمعرفة بطرق الجدل والمناظرة ما كان قد حصّله في رحلته، أمّله الناس عند ذلك، فكان عند حسن ظنّهم به، حيث جرت بينه وبين ابن حزم الظاهري مجالس ومناظرات كثيرة، كانت سبب انكسار ابن حزم وخروجه من ميورقة بعد أن كان رأس أهلها، وذكر أبو الوليد الباجي مجالساته تلك في كتابه الفرق، ما يكتفي به من وقف عليه[(٢)].

وكان ابن حزم يحمل علمه، ويجادل من خالفه فيه على استرسال في طباعه، ولكنّه رغم جمعه لعلوم الإسلام وسعة معرفته وتوسّعه في أنواع من الفنون، فقد كان كثير الوقوع في العلماء المتقدّمين، لا يكاد يسلم أحد من لسانه وقلمه، حتّى قيل: كان لسان ابن حزم وسيف الحجّاج شقيقين، فأورثه ذلك حقدا في قلوب أهل زمانه عليه، ونفر فقهاء وقته، وشنّعوا عليه وحذّروا العامّة من الجلوس إليه والأخذ عنه، ومازالوا به حتّى بغّضوه إلى ملوكهم، فأقصوه وشرّدوه عن بلاده.

---

(١) ترتيب المدارك ٨٢٦/٤.

(٢) ترتيب المدارك ٨٠٥/٤، الديباج المذهب ص ١٩٨، طبقات المفسّرين ص ١٤٧.

كان ذا تآليف جمّة، يقال إنّه ألّف أربعمائة مجلّد في ثمانين ألف ورقة، منها في فقه الحديث كتاباً سمّاه «الإيصال إلى فهم كتاب الخصال الجامعة نحل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام وسائر الأحكام على ما أوجبه القرآن والسنّة والإجماع» أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمّة المسلمين في مسائل الفقه، والحجّة لكلّ طائفة وعليها، والأحاديث الواردة في ذلك من الصحيح والسقيم بالأسانيد، وبيان ذلك كلّه، وتحقيق القول فيه، وكتاب «الإحكام في أصول الأحكام» في غاية التقصّي وإيراد الحجاج، إلى غير ذلك ممّا لا يحصى كثرة.

وكان ابن حزم مصاحبا لابن عبدالبرّ، إذ كانا على مذهب الشافعي أوّل أمرهما، إلاّ أنّه كان مناوئا لأبي الوليد الباجي، ورغم ذلك فقد كان يعترف له بمقدرته الجداليّة، وينصفه من نفسه، حيث كان يقول: لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد القاضي عبدالوهاب مثل أبي الوليد الباجي.

توفّي ابن حزم عن اثنتين وسبعين سنة بمسقط رأسه لبلة[1] بعد أن ترك أتباعا له منهم: **أبو القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي (٤٦٢هـ)** الذي ولّي قضاء بلده أيّام يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة .

وأبو النجاة سالم بن أحمد بن فتح القرطبي (٤٦١هـ) الذي بذل الوسع في نشر كتب ابن حزم، وغيرهما من أعلام الظاهريّة.

وسيكون لهذا المذهب في الدور القادم شأن آخر، إذ بعد أن كان قد توقّف انتشاره بالأندلس في بداية هذه المرحلة أيّام الحاجب المنصور بالله ابن أبي عامر على عهد هشام الثاني (٣٦٦هـ ـ ٣٩٩هـ) بسبب ما أبداه ابن أبي عامر من إنكار غير المالكيّة من المذاهب إرضاء لفقهاء المالكيّة.

(١) شذرات الذهب ٤٨٠/٣ ـ ٤٨٢، كشف الظنون ٥٥٣/٥، جذوة المقتبس ص ٢٩٠ ـ ٢٩٣، الذخيرة، مج ١، ق ١، ص ١٦٧ ـ ١٧٥، معجم الأدباء ١٦٥٠/٤ ـ ١٦٥٩، نفح الطيب ٧٧/٢ ـ ٨٤، وفيات الأعيان ٣٢٥/٣ ـ ٣٣٠، البداية والنهاية ٩١/١٢ ـ ٩٢، تذكرة الحفاظ ١١٤٦/٣ ـ ١١٥٥، النجوم الزاهرة ٧٥/٥، هديّة العارفين ٦٩٠/١ ـ ٦٩١.

وبعد أن شهدت الأندلس الحرب على مذهب أهل الظاهر في أواخر هذه المرحلة وإحراق كتب ابن حزم علانية في إشبيليّة بأمر من المعتمد بن عبّاد.

وبعد انكسار ابن حزم وخروجه من ميورقة مهزوماً، واستقراره بمسقط رأسه لبلة يدرّس أصاغر الطلبة حسب عبارة البعض ستشهد الأندلس في الدور القادم ما يعرف بردّة الفعل العكسيّة مع الموحّدين الذين انتحلوا مذهب أهل الظاهر، وحرّقوا كتب المالكيّة، وألزموا الناس الانتقال من تقليد مالك إلى تقليد أهل الظاهر.

ـ ٦ ـ اليمن وبلاد الحجاز:

استمرّ المذهب الشافعي في الانتشاره والتوسّع ببلاد الحجاز، وبقيت خطط القضاء والخطابة والإمامة بمكّة والمدينة حكراً على أعلامه، وبرز من أتباعه خلال هذه المرحلة: **أبو سعيد بن الأعرابي (٣٨٠هـ)** المكّي الذي أجاز ابن أبي زيد القيرواني، كما برز أيضاً: **إبراهيم بن محمد بن المنذر، وأبو عليّ بن أبي هلال**، **والقاضي أحمد بن إبراهيم بن حمّاد**، وكان ابن أبي زيد قد سمع منهم خلال رحلته وحجّه[1]، **وعبدالملك بن بحر الجلّاب** الذي سمع منه ومن أبي سعيد بن الأعرابي: الإمام أبو عبدالله محمد بن بطال بن وهب بن عبدالأعلى[2].

وشقّ المذهب الشافعي طريقه نحو اليمن، وكان إمام أئمّتهم في هذه المرحلة بصنعاء وعدن: **القاسم بن محمد الجمحي القرشي (٤٣٧هـ)** ومعاصره **أحمد بن عبدالله الصعبي** الذي شرح مختصر المزني في أربع سنوات وهو مقابل الكعبة المشرّفة، ومن أشهر تلامذته: **جعفر بن عبدالرحيم المخائي (٤٦٠هـ)** الذي درّس وأفتى باليمن.

(١) ترتيب المدارك ٤/٤٩٣.

(٢) الديباج المذهب ص ٤١٠.

وأمّا المذهب الشيعي فقد كان من أعظم زعمائه وأنصاره الزيديين باليمن:

* أبو الحسين القاسم بن عليّ بن عبدالله المنصور بالله العياني (٣٩٣هـ) الإمام الرابع في اليمن الذي شغل منصب الإمامة بين عامي ٣٨٩هـ و٣٩٣هـ، ويقال إنّه ألّف مائة كتاب، منها كتاب التفريع في الفروع الفقهيّة[١].

وخلفه من بعده ابنه:

* **الحسين بن القاسم بن عليّ بن عبدالله المهدي لدين الله (٤٠٤هـ)** إمام الزيديّة الخامس، وكان كثير التصنيف في أصول الدين، والردّ على المخالفين، وله أيضاً تفسير الغريب من كتاب الله، وكانت وفاته في شمالي صنعاء في إحدى المعارك[٢].

* **أبو الحسن عليّ بن بلال الآملي الزّيديّ (أوائل ق ٥هـ)** وهو الذي شرح جامع الأحكام في الحلال والحرام للإمام الهادي إلى الحقّ، وله أيضاً الوافي في فقه الهادي[٣].

وأمّا المذهب المالكي فقد انقطع أتباعه بالحجاز، حتّى أنّ القاضي عياض في المدارك اختتم الطبقة السابعة من أهل الحجاز بترجمة وحيدة كانت من نصيب أبي القاسم سليمان بن عليّ بن سليمان الجبلّي - من أعلام المرحلة السابقة من هذا الدور - ولا نكاد نعثر بعد ذلك على أيّ ترجمة من تراجم أهل الحجاز في الطبقات الموالية من كتاب المدارك.

وقد كان من آخر قضاة المالكيّة بالمدينة المنوّرة: **أبو مروان المالكي**

---

(١) تاريخ التراث العربي ٣٤٦/٣، الأعلام ١١/٦.
(٢) تاريخ التراث العربي ٣٤٦/٣ - ٣٤٩، الأعلام ٢٧٤/٢، هديّة العارفين ٣٠٧/١.
(٣) تاريخ التراث العربي ٣٥١/٣ - ٣٥٢.

الذي لقيه أبو محمد الأصيلي سنة ٣٥٣هـ في حجّه[١].

وما عدا ذلك، فنادراً ما نعثر خلال هذه المرحلة على من يتمذهب بمذهب مالك، وحتّى إن عثرنا فهو بكلّ تأكيد من الوافدين على بلاد الحجاز، ونجد مثالاً على ذلك:

* **أبو ذرّ عبدالله بن أحمد بن محمد الهروي (٣٥٦هـ ـ ٤٣٥هـ)** أصيل هراة، الذي تمذهب بمذهب مالك، ولقي جلة من أعلامه وأخذ عنهم كالقاضي أبي الحسن القصّار وأبي بكر الأبهري وغيرهما، واشتغل في الحديث وتقدّم في إمامته، وطوّف البلاد، حتّى سمع منه عالم لا يحصى من أهل الأقطار، ثمّ نزل مكّة فسكنها، وجاور الحرم أزيد من ثلاثين سنة إلى أن مات ناشراً للعلم[٢].

* **أبو عبدالله محمد بن عمر المعروف بابن الفخار** الذي جاور مكّة وسكن مدينة النبيّ ﷺ وشوور بها، قبل أن يعود إلى مسقط رأسه الأندلس[٣].

* **أبو محمد مكّي بن أبي طالب (٤٣٧هـ)** أصيل القيروان ونزيل قرطبة الذي دخل مكّة حاجًّا سنة ٣٧٧هـ ثمّ عاد إليها سنة ٣٨٧هـ، فأقام بها أربعة أعوام ثمّ انصرف إلى القيروان سنة ٣٩٢هـ[٤].

وأوّل رجوع للمذهب المالكي ببلاد الحجاز سيكون في بداية القرن السابع الهجري[٥].

---

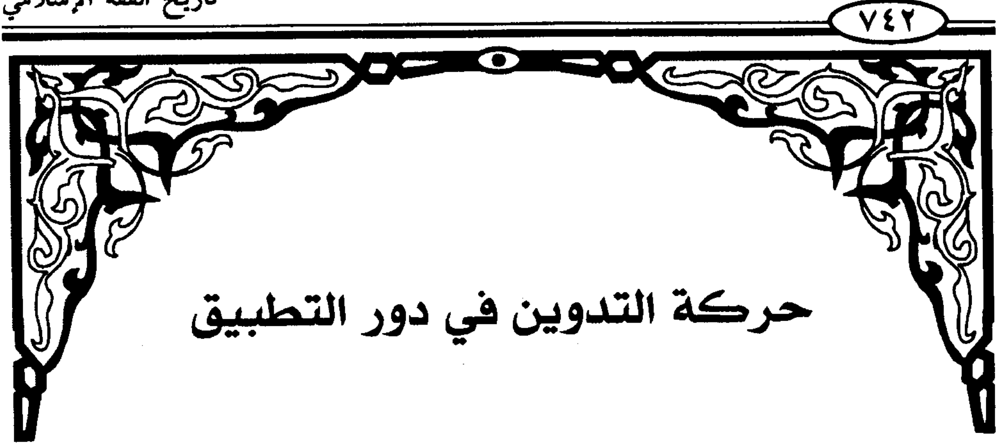
(١) ترتيب المدارك ٦٤٣/٤.

(٢) ترتيب المدارك ٦٩٦/٤ ـ ٦٩٨، نفح الطيب ٧٠/٢ ـ ٧١.

(٣) ترتيب المدارك ٧٢٥/٤، الديباج المذهب ٣٦٧.

(٤) ترتيب المدارك ٧٣٨/٤.

(٥) شجرة النور الزكيّة ص ٢٠٢.



حركة التدوين في دور التطبيق

كنّا قد بيّنا في الدور السابق كيف اتّسعت المسائل وكثرت التفريعات واختلفت الأقوال، واختلفت الطرق التي بسببها اختلفت الأقوال، مع أنّ الأصول التي يرجع إليها في ذلك هي أصول مسلّمة متّحدة ـ وهي الأصول التي بها تكوّن كلّ مذهب من المذاهب الفقهيّة ـ.

ولكنّ طريقة التفريع وصورة التطبيق وتقدير الواقعة والرجوع بها إلى الدليل الإجمالي الذي ينطبق عليها، على الطريقة التي هي منهج كلّ مذهب من المذاهب، هو الذي قضى باختلاف الأنظار في الفتاوى ممّا اختلفت به المسائل(١).

فصدرت الكتب الجامعة لمسائل الفقه الحنفي المتمثّلة في مصنّفات أبي يوسف وكتب محمد بن الحسن، وخاصّة منها ظاهر الرواية، وظهرت الكتب الجامعة لمسائل الفقه المالكي كالأسديّة والمدوّنة والواضحة والعتبيّة، وظهرت الكتب الجامعة لمسائل الفقه الشافعي كالأمّ ومختصر المزني، وكتب الجامعة لمسائل المذهب الحنبلي.

فمهّد هذا العمل الذي هو عمل دور التفريع لعمل جديد هو عمل دور التطبيق، وقام هذا العمل الأخير على دراسة المسائل التي جمعت في مصادر دور التفريع ودراسة الأقوال الفقهيّة وتحقيق الصور التي تتعلّق بها

---

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٧٨.

وتفكيكها، بحيث وقع ردّ الأشباه بعضها إلى بعض، والتعرّف على وجوه الفرق بين المختلفات من بين تلك الأقوال الكثيرة المأثورة عن الأئمّة، ثمّ الاجتهاد في تطبيق الأقوال على المحال التي تنطبق عليها، وذلك بتخريج مناط الأحكام وتعليل ما استنبط أئمّتهم من أحكام.

فكان رجال دور التطبيق بما توفّر لديهم من مادّة الأحكام الفقهيّة التي في مصادر دور التفريع، وبدقّة البحث وحسن النظر في الوقائع وحسن تصويرها، أن تمكّنوا من استخراج فتاوى لجميع القضايا التي عرضت عليهم، وصنّفوا الكتب الجامعة السائرة على نهج البحث في الصور من جهة، والبحث في الفتاوى المأثورة من جهة أخرى، فكان عملهم بذلك عمادا متينا لدور التطبيق[١].

وهكذا لم يخل عمل الفقهاء في هذا الدور من وجوه ثلاثة، هي:

ـ ١ ـ استيعاب ما وصل إليه علم الفقه من خلال دراسة مصادر دور التفريع والوقوف عليها، حتّى كنّا نسمع عن أعلام قد درسوا بعض مصنّفات دور التفريع لمذهبهم مئات المرّات بل أحياناً آلاف المرّات، وكان البعض الآخر يحفظها عن ظهر قلب.

ـ ٢ ـ التحقيق في الآراء والأقوال الفقهيّة المستقاة من مصادر دور التفريع، وتطبيقها على المسائل الفرعيّة التي أحصوها وقوعا وتصوّرا، الأمر الذي مكّنهم من استنباط فتاوى لجميع القضايا التي عرضت لهم.

ـ ٣ ـ التوسّع في استنباط الأحكام، والتصدّي للأوضاع التي لم يرد فيها حكم سابق من رجال دور التفريع، سعيا منهم إلى استيعاب جميع قضايا العصر ومسائله.

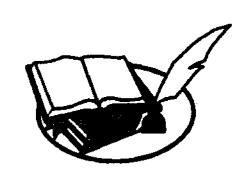
والحديث عن كلّ تلك المصنّفات التي دوّنت في هذا الدور هو ضرب من المحال، إذ لا يسع الباحث بأيّ حال من الأحوال أن يستقصي

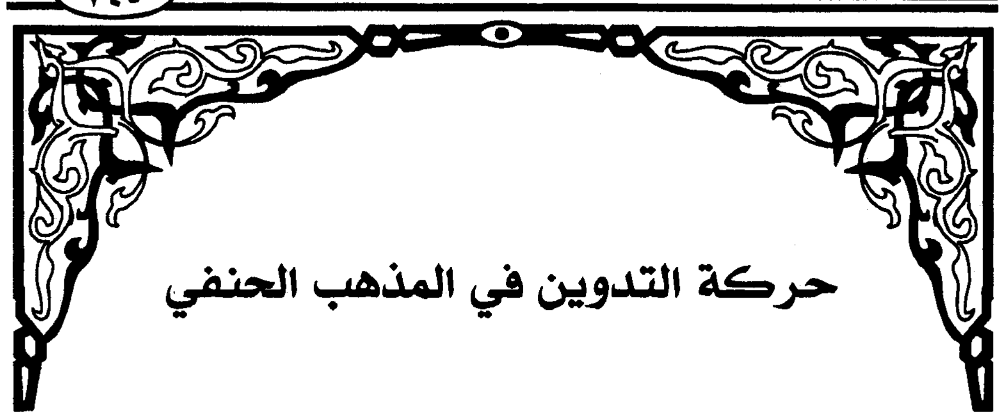
---

(١) محاضرات ص ٧٩ ـ ٨٠.

جميع الكتب المصنّفة في هذا المجال، ذلك أنّ الذين وضعوا المؤلّفات في فنّ الفقه، وصنّفوا فيه المصنّفات، لا يحصون عددا.

وقد تعرّضنا لذكر بعض تلك المصنّفات خلال الحديث عن مراكز الفقه ورجالها، ولهذا سوف نقتصر هنا، عن إعطاء لمحة عن أهمّ المصنّفات التي نعتبرها قد نالت في عصرها اهتماما كبيرا، وحظيت في الأدوار اللاحقة بعناية كبيرة شرحاً وتعليقا واختصارا وتهذيبا، فكانت من الكتب التي أثّرت في مسار التطوّر التاريخي الفقهي.





حركة التدوين في المذهب الحنفي

ـ ١ ـ مختصر الطحاوي

هذا المختصر لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (٣٢١هـ)، وجميع كتبه التي ألّفها تعتبر مراجع هامّة في المذهب الحنفي، ومن أهمّها هذا المختصر الذي رتّبه كترتيب مختصر المزني، وذكر في مقدّمته أنّه قد جمع فيه أصناف الفقه التي لا يسع الإنسان جهلها، وبيّن الإجابات عنها من قول أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن.

والطحاوي هو أوّل من جمع مختصراً في الفقه الشافعي بذكر أمّهات المسائل ورواياتها المعتبرة ومختاراته الظاهرة المعوّل عليها عند الفقهاء، حيث اشتمل على عامّة مسائل الخلاف في المذهب الحنفي، وعلى كثير من الفروع الفقهيّة التي لا يسع جهلها ولا التخلّف عن علمها فبيّن الجوابات عنها من قول أبي حنيفة ومن قول أبي يوسف ومن قول محمد بن الحسن.

فكان بذلك مختصره أبدع المختصرات عند الشافعية وأحسنها تهذيبا وأصحّها رواية عن أصحابهم وأقواها دراية وأرجحها فتوى، ذلك أنّ المسائل على وجهها معزوّة إلى من رواها عن أئمّة المذهب، فإن كانت في المسألة أقوال تراه يرجّح بعضها على بعض ويختار.

وقد أولع علماء الحنفيّة بشرحه، فشرحه من رجال هذا الدور أبو بكر أحمد بن عليّ المعروف بالجصّاص وأبو عبدالله حسين بن عليّ

الصيمري، ومن أشهر من شرحه من رجال الدور القادم: شمس الأئمّة محمد بن أحمد بن سهل السرخسي(١).

ـ ٢ ـ الكافي

هذا الكتاب لأبي الفضل محمد بن محمد المروزي الشهير بالحاكم الشهيد (٣٣٤هـ) جمع فيه صاحبه كتب محمد بن الحسن، المبسوط وما في جوامعه، فذكر الحاكم الشهيد ما في تلك الكتب وحذف ما تكرّر فيها من المسائل.

وهو كتاب معتمد في نقل المذهب، اعتنى بشرحه جماعة من مشائخ الحنفيّة أشهرهم: شمس الأئمّة السرخسي، في كتابه المبسوط، المعروف بمبسوط السرخسي، وهو المراد إذا أطلق المبسوط في شروح الهداية وغيرها(٢).

وللحاكم الشهيد أيضاً كتاب المنتقى الذي ضمّنه نوادر من المذهب، ونظر في ثلاثمائة مؤلف قبل تصنيفه، فحذف مكرّرها وذكر مقرّرها، وانتقى منها بكتابه الذي سمّاه المنتقى(٣).

ـ ٣ ـ مختصر القدوري

هذا المختصر لأبي الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي (٤٢٨هـ) ويطلق على هذا المختصر لفظ الكتاب في المذهب، وهو متن معتبر متداول بين أئمّة الحنفيّة الأعيان، قال عنه صاحبه: هذا كتاب يجمع من فروع الفقه ما لم يجمعه غيره، وكان أبو علي الشاشي يقول: من حفظ هذا الكتاب فهو أحفظ أصحابنا، ومن فهمه فهو أفهم أصحابنا، وشهرته

(١) مختصر الطحاوي ٣، و١٥، كشف الظنون ٢/٥١٧.

(٢) كشف الظنون ٢/٣٣٣.

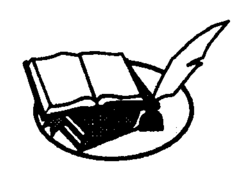
(٣) كشف الظنون ٢/٦٨٣.

عندهم تغني عن البيان، حتّى أنّ الحنفيّة يتبرّكون بقراءته في أيّام الوباء، ويقولون: هو كتاب مبارك من حفظه يكون آمنا من الفقر، بل وصل بهم الأمر إلى القول بأنّ من قرأه على أستاذ صالح ودعا له عند ختم الكتاب بالبركة، فإنّه يملك عدد مسائله دراهم.

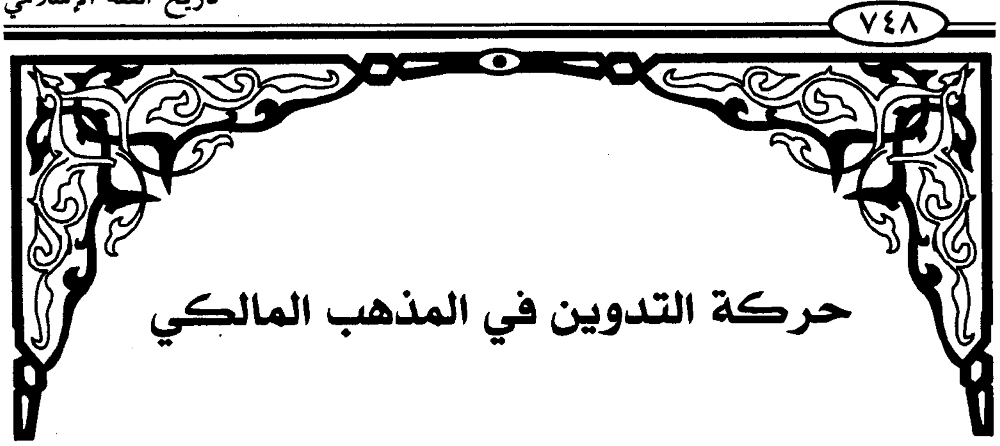
والحقيقة أنّه لا تلازم بين قراءة مختصر القدّوري وحصول إحدى الخصلتين المذكورتين ـ الأمان من الفقر أو امتلاك دراهم على عدد مسائله ـ وإنّما جرى هذا الكلام عندهم مجرى المبالغة.

يعتبر مختصر القدوري من أجمع الكتب في فقه أبي حنيفة، اشتمل على اثني عشر ألف مسألة، اعتمد فيه صاحبه بيان الفروع والروايات وأورد فيه من مسائل الخلاف بين أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن، وهو كتاب على غاية من الاختصار والإيجاز.

اعتنى الحنفيّة بشرحه والتعليق عليه ونظمه، فجاءت شروحا نفيسة، وتعاليق في حلّ مشكلاته مفيدة، وشروحه كثيرة جدّا[1].



(١) كشف الظنون ٢/٥٢٠ ـ ٥٢٣.



حركة التدوين في المذهب المالكي

مختصر المدوّنة والنوادر والرسالة:

هذه المؤلفات الثلاثة جميعها لأبي محمد ابن أبي زيد القيرواني (٣٨٦هـ) الفقيه الذي سلك في خدمة المذهب المالكي مسلكا فريدا، تمثّل في ضبط ما تناثر في مصادره من الأقوال ممّا قاله مالك وخالفه فيه أصحابه، أو ما وافقوه فيه، أو ما انفرد أصحاب مالك ومن بعدهم بتقريره من الأحكام(١).

ـ ١ ـ مختصر المدوّنة:

فأمّا كتابه مختصر المدوّنة فيحتوي على خمسين ألف مسألة، وقد كان معتمدا في المذهب ثمّ عدل عنه الفقهاء في ما بعد، ومالوا إلى اختصار المدوّنة المسمّى بالتهذيب لتلميذه أبي سعيد البرادعي، وقد كان هذا السبب في انقطاع مختصر ابن أبي زيد بحيث لم يشتهر ولم يذع ولم ينقل(٢).

---

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٧٩، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٧.

(٢) الفهرست ص ٢٥٣، مقدّمة ابن خلدون ص ٤٣٢، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٨.

ـ ٢ ـ النوادر والزيادات:

وأمّا كتابه النوادر والزيادات على ما في المدوّنة من غيرها من الأمّهات، فقد جمع فيه ابن أبي زيد جميع ما في الأمّهات من المسائل والخلاف والأقوال، فاشتمل بذلك على جميع الأقوال في المذهب، وفرّع الأمّهات كلّها في هذا الكتاب[(١)] فجمع صور الحوادث التي لم تنصّ أحكامها في المدوّنة، واهتمّ بأكثر الصور التي تعرض في عصره في القيروان، فبيّن أحكامها بحسب تنزيل النقول وتحقيق مناطها، أو بالجواب عنها ممّا يتخرّج من الأصول، أو من النقول على سنّة الاجتهاد في المسائل[(٢)].

فكان يأخذ من نصوص المدوّنة ما يطبّقه على الحوادث الجارية في عصره بصورة تتعلّق بدرس الحوادث وبدرس الأقوال ومواقعها ومحاملها، حتّى يتبيّن أنّ الصورة التي حمل عليها الحكم المدوّن في المدوّنة إنّما هي راجعة بالعينيّة إلى نفس ما ورد فيه ذلك الحكم بالمدوّنة[(٣)].

ولهذا يمكن أن نعتبر كتاب النوادر بمثابة كتاب جامع من الدرجة الأولى لجميع الكتب الفقهيّة الهامّة في المذهب المالكي حتّى ذلك الوقت، وأكبر موسوعة في فقه المالكيّة، حيث استوفى فيه صاحبه النقول عن الإمام مالك وفقهاء المذهب من أعلام تلامذة مالك، من المصادر الأصليّة للمذهب كالمستخرجة من السماعات، وكتب ابن الموّاز، والواضحة، وكتب ابن سحنون، ومختصر ابن عبدالحكم، وغيرها من مصادر الفقه المالكي في القرنين الثاني والثالث الهجريين التي ذهب الزمان بها إلاّ قليلاً ممّا لم يرد في المدوّنة على ما بيّنه المؤلّف في مقدّمة كتابه[(٤)].

---

(١) المقدّمة ص ٤٣٢.

(٢) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٨.

(٣) محاضرات مغاربية ص ٧٩.

(٤) دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ١٠٥ وما بعدها، ومقدّمة محقّق كتاب النوادر ص ٣٧.

وبهذا العمل عدّ كتاب النوادر لابن أبي زيد من أعظم الكتب الفقهيّة لهذا الدور، وأكثرها عونا على تكوين الملكة الفقهيّة الحقّ، والتخريج على حسن الفهم ودقّة التنزيل، وبراعة التعليل(١).

ويذكر ابن أبي زيد الهدف من تأليفه هذا الكتاب فيقول: «وذكرت وفّقنا الله وإيّاك إلى محابه ما كثر من الكتب مع ما قلّ من الحرص والرغبة وضعف من الطلب والعناية، والحاجة إلى ما افترق في كثرة الكتب من شرح وتفسير وزيادة معنى شديدة ورغبة في أن نستثير العزيمة، ونفتح بابا إلى شدّة الرغبة بما رغبت فيه من اختصار ما افترق من ذلك في أمّهات الدواوين من تأليف المتعقّبين، وذكرت أنّ ما في كتاب محمد بن إبراهيم بن المواز، والكتاب المستخرج من الأسمعة استخراج العتبي، والكتب المسمّاة المجموعة المنسوبة إلى ابن عبدوس، والكتب الفقهيّة من تأليف محمد بن سحنون، أنّ هذه الدواوين تشتمل على أكثر ما رغبت فيه من النوادر والزيادات، ورغبت في استخراج ذلك منها وجمعه باختصار من اللفظ في طلب المعنى، وتقصّي ذلك، وإن انبسط بعض البسط، والقناعة بما يذكر في أحدها عن تكراره، والزيادة إليه ما زاد في غيره، ليكون ذلك كتاباً جامعا لما افترق في هذه الدواوين من الفوائد وغرائب المسائل وزيادات المعاني على ما في المدوّنة، وليكون لمن جمعه مع المدوّنة أو مع مختصرها مقنع بهما، وغنيّ بالاقتصار عليهما لتجتمع بذلك رغبته وتستجمّ همّته وتعظم مع قلّة العناية بالجمع فائدته، وقد رغبت في العناية بذلك لما رجوت إن شاء الله من بركة ذلك، والنفع به لمن رسمه ولكلّ من تعلّمه، وأنا أفي لك إن شاء الله بنوادر هذه الدواوين المذكورة، وأذكر ما أمكنني وحضرني من غيرها، وبالله نستعين في ذلك، وإيّاه نستخير فيه ونستمدّ توفيقه وعصمته، ونسأله نفع ذلك وبركته، وصلّى الله على نبيّه محمد وعلى آله وسلّم»(٢).

(١) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٨.
(٢) دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

وفي الكتاب عرض لاختلاف الأقوال داخل المذهب، وبسط للآراء الفقهيّة المختلفة فيه، نقلها ابن أبي زيد كما هي من فقهاء المدينة، وفقهاء مصر، وفقهاء إفريقيّة وفقهاء الأندلس المالكيين، ممّن عاصروا الإمام مالك، ومن تلاميذه وتلاميذهم، مع ذكر دقيق لطريقة كلّ مصدر من مصادره، وفي ذلك يقول: «واعلم أنّ أسعد الناس بهذا الكتاب من تقدّمت له عناية واتّسعت له رواية، لأنّه يشتمل على كثير من اختلاف علماء المالكيين، ولا يسع الاختيار من الاختلاف للمتعلّم ولا للمقصّر ومن لم يكن فيه محمل الاختيار للقول لتقصيره، فله في اختيار المتعقّبين من أصحابنا من نقّادهم مقنع، مثل سحنون وأصبغ وعيسى بن دينار، ومن بعدهم مثل ابن الموّاز وابن عبدوس وابن سحنون، وابن الموّاز أكثرهم تكلّفا للاختيارات، وليس يبلغ ابن حبيب في اختياره قوّة رواياته مبلغ من ذكرنا، والله يهدي إلى سواء السبيل»[١].

وقد يسّر الله لهذا الكتاب العظيم أن ينشر بين يدي طلّاب العلم بتحقيق الدكتور عبدالفتّاح محمد الحلو.

ويعتبر هذان الكتابان ـ المختصر والنوادر ـ أعلى كتب ابن أبي زيد منزلة في علم الفقه[٢]، وعلى كتابيه هذين كان المعوّل بالمغرب في الفقه[٣].

ويذكر القاضي عياض أنّ أبا عبدالله محمد بن أحمد بن مجاهد قد استجاز الشيخ ابن أبي زيد القيرواني في كتابيه المختصر والنوادر، وبعث إليه في ذلك رسالة مؤرّخة بسنة ٣٦٨هـ يذكر فيها أنّه قد وقع بين يديه قطع من المختصر، فوجد صاحبه «قد أحسن في نظمه، وألطف في جمع

(١) دراسات في مصادر الفقه المالكي ص ١٠٤.

(٢) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٤٨.

(٣) ترتيب المدارك ٤/٤٩٤.

معانيه، وكشف ما كانت النفوس تتوق إليه، وأنّه قد كفى بذلك مؤونة الرحلة، وطلب المصنّفات بالكلام السهل والمعاني البيّنة التي تدلّ على حسن العناية وكثرة المعرفة، والحرص على منافع الراغبين في العلم والمتعلّقين به» وذكر له أنّه قد بلغه تصنيف كتاب النوادر، وذكر له الحاجة إلى هذين الكتابين، وتطلّعه وتطلّع من قبله من إخوانه الطالبين لها، والراغبين في مذهب الإمام مالك، وطلب منه أن يتفضّل بإنفاذ الكتابين إليه، وإجازتهما له ولغيره من أصحابه ممّن آثر ذلك وأحبّه، فأجابه الشيخ ابن أبي زيد إلى ما طلب ووعده أن يوجّه إليه ما رغبه من الكتابين، وأجازه[١].

ـ ٣ ـ الرسالة:

إلى جانب ما لابن أبي زيد القيرواني من التآليف المتّجهة إلى تحقيق الفقه في المجال العلمي الأعلى، فإنّ له الأثر الخالد الشهير في المجال العلمي الدارج، وهو كتاب الرسالة الذي انتشر في سائر بلاد المسلمين حتّى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وصقليّة وجميع بلاد إفريقيّة والأندلس والمغرب وبلاد السودان، وتنافس الناس في اقتنائها حتّى كتبت بماء الذهب[٢].

وقد جعل ابن أبي زيد من كتاب الرسالة تلخيصا مختصرا، بتركيزه على العبارة الدقيقة الحكيمة، حتّى أصبحت الرسالة عمدة الدراسة الفقهيّة في المذهب المالكي في جميع معاهد العلم بالبلاد الإسلاميّة بلا استثناء فابتدأ رواجها من حياة مؤلّفها واستمرّ تعاقب الشروح عليها من عصر مؤلّفها في القرن الرابع[٣].

---

(١) ترتيب المدارك ٤/٤٧٧ ـ ٤٧٨.
(٢) معالم الإيمان ٣/١٣٧ ـ ١٣٨.
(٣) أعلام الفكر ص ٤٩، محاضرات مغاربيّة ص ٧٩.

وكان الشيخ ابن أبي زيد لمّا فرغ من تأليفها كتب منها نسخة وبعث بها إلى أبي بكر الأبهري ببغداد، فوصلت إليه، فأظهر الفرح بها وأشاع خبرها بين الناس وأثنى عليها وعلى مؤلفها(١)، ونسخت منها أوّل نسخة وبيعت بحلقة أبي بكر الأبهري بعشرين ديناراً ذهباً(٢)، وقام الإمام الأبهري بتتبّع ألفاظها ومعانيها، فرفعها إلى النبيّ ﷺ أو إلى أصحابه رضي الله عنهم، في كتاب سمّاه «مسلك الجلالة في مسند الرسالة»(٣).

وشرحها القاضي عبدالوهاب بن نصر في نحو من ألف ورقة، وأوّل نسخة من هذا الشرح بيعت في بغداد بمائة مثقال ذهباً(٤).

وجزم ابن ناجي في معالم الإيمان بأنّ الرسالة هي أوّل تأليف ابن أبي زيد، ألّفها وسنّه سبعة عشر عامًّا وأنّ تأليفها إنّما كان كما هو مشهور بطلب من ابن خالته شيخ مدينة تونس ومؤدّبها محرز بن خلف بن أبي رزيق بن يربوع بن حنظلة بن إسماعيل بن عبدالرحمٰن بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه(٥)، وذلك هو الذي أشار إليه الشيخ ابن أبي زيد القيرواني في الرسالة بقوله: «فإنّك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة ممّا تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب وتعمله الجوارح، وما يتّصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكّدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه(٦)، وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته مع ما سهّل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقّهين، لما رغبت فيه من تعليم ذلك

(١) معالم الإيمان ١٣٩/٣.
(٢) معالم الإيمان ١٣٧/٣ ـ ١٣٨.
(٣) الرسالة الفقهيّة مع غرر المقالة في شرح غريب الرسالة ص ٤٣.
(٤) معالم الإيمان ١٤٠/٣.
(٥) معالم الإيمان ١٣٨/٣، أعلام الفكر الإسلامي ص ٤٩.
(٦) أراد بالأصول أمّهات المسائل التي هي أصل بالنسبة لما يخرج منها من فروع كثيرة، وفرع بالنسبة لما أخذت منه وهو الكتاب والسنّة (انظر: الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ص ٥ ـ ٦).

للولدان كما تعلّمهم حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته، فأجبتك إلى ذلك لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علّم دين الله أو دعا إليه[١].

ولمّا كانت الرسالة متّجهة بالأساس إلى الأطفال الناشئين والبراعم المبتدئين، لذلك نجدها خالية من التفريعات والافتراضات، ومن الخلافيات، وحتّى من الشواهد الاستدلاليّة، إلاّ في القليل النادر حيث ينصّ ابن أبي زيد على مشهور المذهب في المسألة، ثمّ يأتي بالقول الثاني.

وهكذا يعتبر ابن أبي زيد واضع الأسس الأولى لطريقة تعليم تعتمد على استيعاب العلوم الفقهيّة بطريقة سهلة ميسّرة، بعيدة كلّ البعد عن تفريعات المسائل الجزئيّة، وتفصيلات الفروع الفقهيّة التي تزخر بها مصنّفات ذلك الوقت.

وقد لاقى كتاب الرسالة من العناية ما لم يلقه غيره من الكتب الفقهيّة، فإضافة إلى شروحه العديدة التي لم تنقطع منذ عصر المؤلّف، فقد تداولت عليه أيدي المستشرقين بالترجمة، فترجمه إلى الأنجليزيّة: رسل وعبدالله المأمون السهروردي، في لندن، سنة ١٩٠٦، وترجمه فانيان إلى الفرنسيّة وشرحه وأعدّ له فهرسا تحليليّا، ونشره بباريس سنة ١٩١٤، ونشر نصّه العربي وترجمه إلى الفرنسيّة برشيه، بالجزائر سنة ١٩٤٥ وتوجد مخطوطات لكتاب الرسالة اليوم في أكثر مكتبات العالم[٢].

ـ ٤ ـ التفريع:

هذا الكتاب لأبي القاسم عبيدالله بن الحسين بن الحسن بن الجلاّب البصري (٣٧٨هـ) هو كتاب معتمد ومشهور في المذهب، غزير النفع في الفقه والمسائل، يهتدي به الطالب المبتدي ولا يستغني عنه الراغب

(١) الرسالة، مع شرحها الثمر الداني، ص ٥ ـ ٧.

(٢) تاريخ التراث العربي ١٦٧/٣ ـ ١٦٨.

المقتدي، سهل الألفاظ، قريب المرام، وضع الله عليه القبول شرقا وغربا، فاعتنى به الأوائل والأواخر، وانتفع به العامّة والخاصّة، وانكبّ العلماء على دراسته وشرحه واختصاره، ولم يزل الناس يدرسونه ويتناقلونه، والشرّاح يشرحونه على مرّ السنين والدهور في كلّ البلاد أكثر من ألف عام، وقد جعلوا منه مصدراً لمصنّفاتهم الفقهيّة، معوّلين على أقواله ومستشهدين بآرائه رواية - من حيث الإسناد - ودراية - من حيث اجتهاد صاحبه في القياس والاستنباط أو في الترجيح بين أراء كبار علماء المذهب - ويندر جدّا أن نجد مؤلّفا مالكيّا لم يعتمد كتاب التفريع أو لم يرجع إليه في بعض المسائل، ومن الكتب الفقهيّة التي احتوت على اقتباسات من كتاب التفريع نذكر: المقدّمات لابن رشد الجدّ، والذخيرة للقرافي، والقوانين الفقهيّة لابن جزي والكلّيات الفقهيّة للمقّري، والمختصر الفقهي لابن عرفة، وشرح الرسالة لابن ناجي، وشرحها للمنوفي، والمعيار المعرب للونشريسي، وشرح مختصر خليل للحطّاب المالكي، وشرح الزرقاني على مختصر خليل وحاشية البنّاني على شرح الزرقاني، والشرح الصغير للدردير، وغيرها.

وقد صرّح الإمام القرافي في كتابه الذخيرة بأنّ كتاب التفريع هو أحد الكتب الخمسة في المذهب - المدوّنة والجواهر والتلقين والتفريع والرسالة - التي عكف عليها المالكيون شرقا وغربا[١].

جمع فيه ثمانية عشر ألف مسألة، اثنتا عشر ألف مسألة موافقة لما في المدوّنة، وستّة آلاف ليست فيها.

وهذا الكتاب مثال رائع للمختصرات الجامعة التي تتناول عددا ضخما من المسائل المندرجة تحت أبواب الفقه كلّها بصورة شاملة، وبصيغة موجزة.

كما يعتبر الكتاب مثالا فريدا في منهجه وأسلوبه وطريقة عرضه

---

(١) الذخيرة ١/٣٤.

للمسائل، وقد توخّى فيه ابن الجلّاب منهجا يقوم على أربعة أركان هي:

* التفريع والتفصيل سعياً لتغطية أكثر ما يمكن من المسائل الحادثة أو المتوقّعة الحدوث: ذلك أنّه أراد أن يكون كتابه جامعاً لكلّ الأبواب، شاملا لكلّ المواضيع، مستوعباً لكلّ الحالات، مراعياً لكلّ الجزئيات، مستنبطا لكلّ المسائل أحكامها أو القواعد الدالة عليها، فأغرق في التفصيل والتفريع حتّى أطلق بعضهم على الكتاب عنوان: «تفريع الفروع».

* الإيجاز والاختصار تخفيفاً عن القارىء وتجنيبه الملل، فتميّز الكتاب باختصار التحرير وبتلخيص التعبير حتّى سمّي كتابه عند البعض: «مختصر التفريع» وعند آخرين: «مختصر ابن الجلّاب» ولتحقيق ذلك التزم ابن الجلّاب باجتناب الجدل، والسكوت عن الأدلّة من القرآن والسنّة، وسلاسل الإسناد الطويلة، ومناقشة الآراء المتباينة، وتبرير المواقف وتعليل الأحكام.

* تقرير الأحكام لمختلف المسائل: ولتحقيق هذا الغرض اتّخذ منهجا يقوم على التوسّع في الألفاظ، بحيث لم يقتصر على المصطلحات المعروفة للتعبير عن الأحكام الشرعيّة الخمسة التي هي الواجب والمحرّم والمندوب والمكروه والمباح، وإنّما أضاف إليها مصطلحات أخرى من باب التورّع والتوقّف وعدم الجرأة في القول بالحلال والحرام، كما هو ديدن أئمّة المذاهب الذين كانوا يتورّعون عن إطلاق لفظ الحلال والحرام.

* التبسيط والتوضيح مع الدقّة والضبط، تقريباً للفهم بالنسبة للمبتدئ، وتعميقاً للمعاني بالنسبة للمنتهي، حتّى يتيسّر الاستفادة منه على أوسع نطاق، وهذا ما يجعلنا نجزم بأنّ الكتاب كان كان موجّهاً إلى العامّة المتعلّمة من الناس شأنه في ذلك شأن رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وإن كان المؤلّف لم يصرّح بذلك.

والملاحظ أنّ ابن جلّاب قد التزم في ذلك كلّه أسلوب العرض المنطقي وما يقتضيه من تسلسل وتدرّج حتّى ينساق الفكر مع انسياب المعاني بكلّ لطف ويسر، واستعمل في ذلك الطريقة التحليليّة التي ينطلق

فيها من القاعدة العامّة ثمّ يأتي بتطبيقاتها على التفاصيل والفروع، كما استعمل أيضاً الطريقة الاستنتاجيّة أو الاستقرائيّة التي ينطلق فيها من الجزئيات إلى الكلّيات، ومن الأحكام الفرعيّة إلى القواعد الفقهيّة[١].

ونظرا لهذه الأهميّة التي هي لكتاب التفريع، فقد كان يدرّسه بعد مؤلّفه تلاميذه من أمثال القاضي عبدالوهاب بن نصر، ثمّ أصبح يدرّس بالمدرسة المستنصريّة ببغداد.

وفي القرن الثامن الهجري كان كتاب التفريع يدرّس بتونس في زمن الشيخ محمد بن عرفة، مع رسالة ابن أبي زيد القيرواني وتهذيب البراذعي والنوادر والذخيرة والوثائق المتيطيّة ومختصر ابن الحاجب ومختصر ابن عرفة، حسب ما أفاده الشيخ الطاهر بن عاشور[٢].

ـ ٥ ـ تهذيب المدوّنة والمختلطة:

هذا الكتاب لأبي سعيد البراذعي (٣٧٩هـ) اختصر به صاحبه مدوّنة الإمام سحنون، أتمّ البراذعي تهذيب المدوّنة سنة ٣٧٢هـ، فوقع عليه من الإقبال ما لم يقع على مختصر ابن أبي زيد، ونال شهرة كبيرة، واعتمده المشيخة من أهل إفريقيّة وأخذوا به وتركوا ما سواه[٣]، وكانت المناظرة في جميع الحلق بصقليّة بهذا الكتاب[٤].

قال القاضي عياض: وقد ظهرت بركة هذا الكتاب على طلبة الفقه وتيمّنوا بدرسه وحفظه وكان عليه معوّل أكثرهم بالمغرب والأندلس[٥]، وأضاف ابن ناجي بعد أن نقل كلام عياض، فقال: هذا في زمان عياض،

(١) مقدّمة تحقيق كتاب التفريع، للدكتور حسين بن سالم الدهماني، وما أحال عليه في مقدّمته من مصادر ومراجع، وقد أجاد الدكتور في تحقيقه لهذا الكتاب وأفاد، فجازاه الله خيرا.
(٢) ابن عاشور محمد الطاهر: أليس الصبح بقريب ص ٧٢.
(٣) مقدّمة ابن خلدون ص ٤٣٢.
(٤) الديباج المذهب ص ١٨٣.
(٥) ترتيب المدارك ٧٠٨/٤.

وأمّا في زماننا فما المعوّل إلاّ عليه شرقا وغربا، ومن ينظر مدوّنة سحنون الذي هو اختصارها يعلم فضيلة البراذعي في اختصاره[1].

وقد لاقى من العناية شرحاً وتهذيبا واختصارا ما يطول سرده وترداده، وقام بدراسته وتحقيقه محمد الأمين بن محمد بن سالم بن الشيخ، وطبع بدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي.

وللبراذعي كتاب آخر على المدوّنة، سمّاه تمهيد مسائل المدوّنة، وكتاب ثالث سمّاه الشرح والتمامات لمسائل المدوّنة، وهو كما يبدو متخصّص في مسائل المدوّنة ومباحثها، وكتبه الثلاثة تسير على نهج واحد هو اختصار المدوّنة والبحث في دقائقها ومضامينها.

ـ ٦ ـ ٧ ـ التلقين والمعونة على مذهب عالم المدينة:

كلاهما للقاضي أبي محمد عبدالوهاب عليّ بن نصر (٤٢٢هـ)، فأمّا كتاب التلقين فهو مختصر لخّص فيه صاحبه فروع المذهب المالكي وجرّده من ذكر الروايات المتعدّدة ومصادرها، واكتفى فيه بذكر القول الراجح في المذهب[2].

وأمّا كتاب المعونة فقد ذكر أنّه صنّفه بعد أن شرح رسالة ابن أبي زيد وما رآه منطيا عليه من بسط الأدلّة والحجاج وإشباع الكلام في مسائل الخلاف، وبعد أن وضع كتاب الممهّد وما حواه من المسائل والتفريعات واختلاف الوجوه والروايات.

ثمّ جدّد النيّة في وضع مختصر سهل المحمل قريب المأخذ يقتصر فيه على ما لا بدّ منه ولا عناء فيه، ليسهل على المتلقّن مأخذه ويقرب من

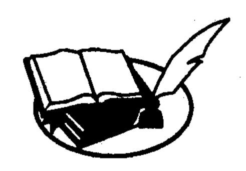
---

(١) معالم الإيمان ٣/١٨٤.

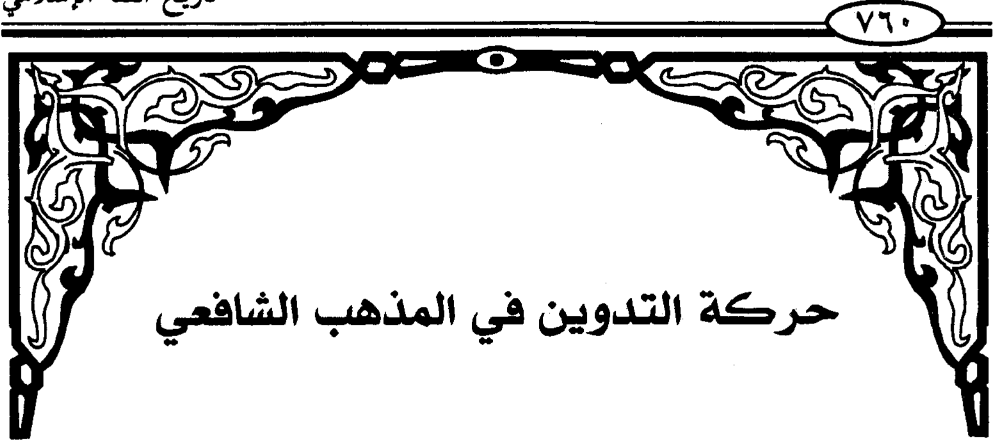
(٢) التلقين، تحقيق أبي أويس محمد بوخبزة وأبي الفضل بدر بن عبدالإله العمراني، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤ م، مقدّمة محقّق كتاب الإشراف على نكت مسائل الخلاف ص ٦١، دار ابن حزم بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

المبتدي تفقّهه وحفظه وليكون إلى ذينك الكتابين مدخلا.

فجاء الكتاب جامعا لفقه مالك مع شيء من التوسّع مقارنة بكتاب التلقين، فذكر الخلاف داخل المذهب وخارجه ودعّمه بالأدلّة دون التوسّع في ذلك توسّعا كبيرا[١].



(١) المعونة على مذهب عالم المدينة، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨ م، مقدّمة محقّق كتاب الإشراف على نكت مسائل الخلاف ص ٦٢.



حركة التدوين في المذهب الشافعي

ـ ١ ـ الفروع:

هذا الكتاب لأبي بكر محمد بن أحمد المعروف بابن الحدّاد المصري (٣٤٥هـ) وهو كتاب صغير الحجم كثير الفائدة دقّق في مسائله غاية التدقيق، وسمّاه بعضهم بكتاب المولّدات، لكونه هو المولّد لها والمبتكر.

واعتبر البعض أنّ هذا الكتاب من عجائب التأليف التي تحير العقول في تقريرها فضلاً عن اختراعها، وقد اعتنى به الأئمّة وتنافسوا في شرحه ووقف الكثير منهم عن الكلام فيه لدقّته وغموضه.

وأشهر شرّاحه لهذا الدور: أبو بكر محمد بن عليّ القفّال الشاشي (٣٦٥هـ) في مجلّد واحد، وتلميذه أبو عليّ حسن بن شعيب المعروف بابن السنجي (٤٢٠هـ) في شرح بسيط لم يقارنه أحد مع كثرة شروحه، والقاضي أبو الطيّب طاهر بن عبدالله الطبري (٤٥٩هـ) وأبو إسحاق الإسفراييني (٤١٨هـ) وأبو القاسم إبراهيم بن عبدالرحمٰن بن محمد المروزي الفوراني (٤٦١هـ)[1].

٢ ـ ٣ ـ التلخيص والمفتاح:

كلاهما لأبي العباس أحمد بن أبي أحمد الطبري الشهير بابن القاص

---

(١) كشف الظنون ٢/٢٤٠ و٢/٧٢٧.

(٣٣٥هـ)، فأمّا التلخيص[١] فهو مختصر مشهور في فروع الفقه الشافعي، قيل إنّه لم يصنّف قبله ولا بعده مثله في أسلوبه، وهو أجمع كتاب في فنّه لأصول المذهب وفروعه على صغر حجمه وخفّة محمله.

اعتنى بشرحه علماء الشافعيّة، ومن أبرز شرّاحه في هذا الدور: شيخ الخراسانيين أبو بكر عبدالله بن أحمد القفّال المروزي الصغير (٤١٧هـ)، ثمّ شرحه أبو عليّ السنجي، وكذلك أبو عبدالله محمد الأسترابادي المعروف بابن الختن (٣٨٦هـ).

وتمثّل فيه بقول الشاعر:

عقم النساء فما يلدن شبيهه إنّ النساء بمثله عقيم

ـ ٣ ـ المفتاح:

وأمّا كتاب المفتاح فهو كتاب لطيف، اعتنى الشافعية بشرحه فشرحه من أعلام القرن الخامس، أبو خلف محمد بن عبدالملك الطبري (حدود ٤٧٠هـ) في مجلّد، وأبو الخير سلامة بن إسماعيل بن جماعة المقدسي (٤٨٠هـ) في مجلّدين، وأبو منصور عبدالقاهر بن طاهر البغدادي (٤٢٩هـ)، وعليه زيادة لأبي علي حسن بن القاسم الطبري (٣٥٠هـ) أحد أصحاب ابن القاص، سمّاه التهذيب.

ومن غرائب ابن القاص فيه، ما أورده ابن السبكي من أنّ ابن القاص قال في المفتاح: في زكاة التجارة، إنّها تجب في الموروث والموهوب، واستدرك ابن السبكي على ذلك بقوله: ولا يعرف من قال في الموروث مطلقاً، ولا في الموهوب إلاّ إذا شرط الثواب أو كان مطلقاً[٢].

(١) كشف الظنون ٣٨٨/١ ـ ٣٨٩، طبقات الشافعيّة الكبرى ٥٩/٣ ـ ٦٢.
(٢) كشف الظنون ٦٢١/٢، طبقات الشافعيّة الكبرى ٦٢/٣.

ـ ٤ ـ اللباب:

لأبي الحسن أحمد الضبّي المعروف بالمحاملي (٤١٥هـ) اعتنى فقهاء الشافعية بهذا الكتاب فتناولوه بالشرح والتنقيح والاختصار، وضمّوا إليه الفوائد وبدّلوا غير المعتمد بالمعتمد، وحذفوا منه الخلاف وما عنه غنى[١].

ـ ٥ ـ الحاوي الكبير:

لأبي الحسن عليّ بن محمد بن حبيب الماوردي (٤٥٠هـ) شرح به مختصر المزني، وحاول ـ كما قال مصنّفه ـ استيعاب المذهب في شرحه واستيفاء اختلاف الفقهاء المغلق به، وإن كان ذلك خروجاً عن مقتضى الشرح الذي يقتضي الاقتصار على إبانة المشروح ليصحّ الاكتفاء به والاستغناء عن غيره.

والكتاب ليس شرحاً بالمعنى الدقيق للشروح على المتون، وإنّما تناوله في غالب مسائله وفروعه دون الوقوف على ألفاظه وغوامضه، وإن كان لا يخلو من تعريج على غامض فيه وتوضيحه.

يعرض الماوردي في هذا الكتاب الأحكام الفقهيّة على المذهب، ويذكر أدلّتها من الكتاب والسنّة وآثار الصحابة والتابعين والإجماع والقياس، ويحاول ترجيح مذهب الشافعي على وجه التفصيل في أوضح تقديم وأصحّ ترتيب وأسهل مأخذ.

وقد جاء الكتاب حاوياً على آراء كثيرة من المذاهب المختلفة كالحنفية والمالكية والحنابلة والظاهرية، واحتوى على أقوال عديدة لأصحاب المذاهب المندثرة نقلت عن سفيان الثوري والحسن البصري والإمام الأوزاعي وابن أبي ليلى وغيرهم.

وكتاب الحاوي من الكتب المعتبرة عند الشافعيّة يقال إنّه لم يؤلّف

(١) كشف الظنون ٢/٤٥٤.

في المذهب مثله، ونوّه به ابن السبكي فقال: وكتابه الحاوي شاهد معدّل بذلك.

وقال ابن خلكان: ولم يطالعه أحد إلاّ وشهد له بالتبحّر والمعرفة التامّة في المذهب[1].

ـ ٦ ـ الإبانة.

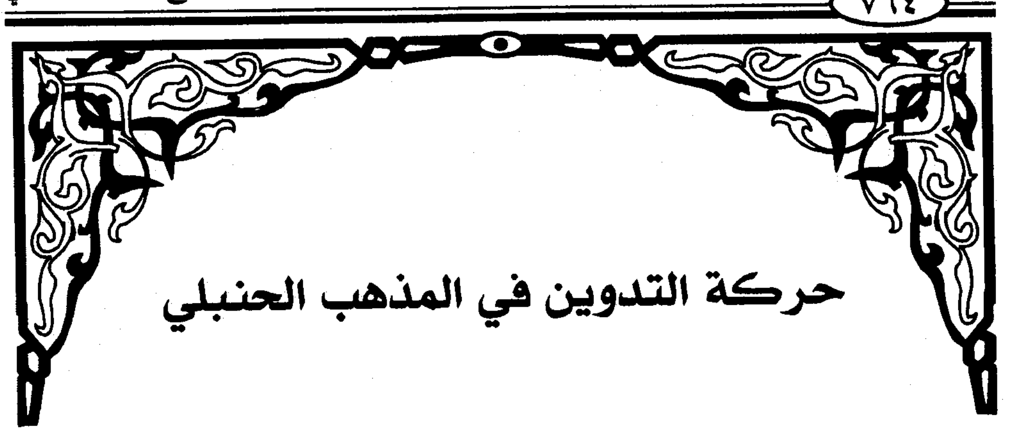
لأبي القاسم عبدالرحمٰن بن محمد الفوراني (٤٦١هـ) وهو كتاب مشهور بين الشافعيّة، وفيه من النقول الغريبة والأقوال والأوجه التي لا توجد إلاّ فيه.

ومن متعلّقاته تتمّة الإبانة لتلميذه أبي سعيد عبدالرحمٰن بن مأمون المعروف بالمتولّي (٤٧٨هـ) الذي برع في المذهب وبعد صيته وجمع في تتمته نوادر المسائل وغرائبها التي لا تكاد توجد في غير كتابه[2].

---

(١) الحاوي الكبير ٧/١، ومقدّمة المحقّق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤ م، كشف الظنون ٤٩٠/١، طبقات الشافعيّة الكبرى ٢٦٧/٥ و٢٧٧/٨ ـ ٢٧٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢٨٢/٣.

(٢) كشف الظنون ٦٧/١، طبقات الشافعية الكبرى ١٠٩/٥، البداية والنهاية ٩٨/١٢.



حركة التدوين في المذهب الحنبلي

مختصر الخرقي:

اشتهر في مذهب الإمام أحمد عند المتقدّمين والمتوسّطين المختصر المشهور بمختصر الخرقي، لأبي القاسم عمر بن الحسين بن عبدالله بن أحمد الخرقي (٣٣٤هـ) وهو مختصر بديع، ومتن موجز وجامع في المذهب الحنبلي، وأقدم وأشهر مختصر عند الحنابلة، بلغت مسائله: ألفان وثلاث مائة مسألة.

اعتنى الحنابلة بهذا المختصر شرحاً ونظما، وألّفوا في لغاته وشرح مفرداتها، ولم يخدم كتاب في مذهبهم مثل ما خدم هذا المختصر، ولا اعتني بكتاب مثل ما اعتني به، حتّى قال العلامة يوسف بن عبدالهادي في كتابه: «الدرّ النقيّ في شرح ألفاظ الخرقي»، قال شيخنا عزّ الدين المصري: ضبطت للخرقي ثلاث مائة شرح، وقد اطّلعنا له على ما يقرب من عشرين شرحاً.

وأعظم شروحه وأشهرها «المغني» لموفّق الدين المقدسي، ومن شروح مختصر الخرقي في هذا الدور، شرح القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن الفرّاء البغدادي (٤٥٨هـ).

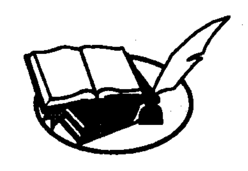
وطريقته أنّه يذكر المسألة من المختصر، ثمّ يذكر من خالف فيها، ثمّ يفيض في إقامة الدليل من الكتاب والسنّة والقياس على طريقة الجدل.

ولا يذكر أبو يعلى شيئاً زائداً على ما في المتن، ولكنّه يحقّق

مسائله، ويذكر أدلّتها ومذاهب المخالفين لها.

ومن المبالغات التي حفّت بهذا المختصر ما كان يتردّد على ألسنة بعض شيوخ الحنابلة أنّ من قرأ مختصر الخرقي حصل له إحدى ثلاث خصال: إمّا أن يملك مائة درهم، أو يلي القضاء، أو يصير صالحا[١].

وصنّف غلام الخلّال كتاباً في معارضاته لمختصر الخرقي، كما صنّفت في المذهب كتبا أخرى وقع الاعتناء بها كالجامع الصغير لأبي يعلى الفرّاء، والتنبيه والمقنع لأبي بكر المعروف بغلام الخلّال، وغيرها.



(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٢٤ ـ ٤٢٩، كشف الظنون ١/٤٤٦، و٢/٥١٦، تاريخ التراث العرب ٣/٢٣٥ ـ ٢٣٨.



استخلاص ونتائج

في نهاية هذا الدور نخلص إلى الاستنتاجات والنتائج التالية:

ـ ١ ـ أنّ الاجتهاد قد تتابع من الدور الأوّل الذي هو دور التأسيس، إلى الدور الثالث الذي هو دور التأصيل والتفريع، ثمّ بدأ مجال الاجتهاد منذ بداية الدور الرابع يتضايق، حيث عزّ وجود المجتهدين المطلقين في المرحلة الأولى من هذا الدور، وقصرت الهمم، وانتشر الاجتهاد المقيّد، ثمّ تنازل الاجتهاد في المرحلة الثانية عن مرتبة الاجتهاد المقيّد إلى مرتبة الاجتهاد في المسائل الذي هو عمل التطبيق.

ـ ٢ ـ أنّ المذاهب الفقهيّة المنتشرة في هذا الدور قد كثرت فيها التخريجات وتنوّعت فيها الاصطلاحات، وتعدّدت فيها الآراء، وتداخل فيها ما هو من أقوال أئمّة المذاهب، وما هو من تأويلات تلاميذهم الموافقة أو المخالفة لاجتهاداتهم، فانبرى أصحاب هذا الدور لضبط ذلك في مختصرات تفي بالغرض دون أن تخلّ بالعبارة أو بالمعنى، وعلى تلك المختصرات اعتمد أصحاب الدور القادم، وعلى لغاتها ومفرداتها وضعوا مصنّفاتهم وكتبهم.

ـ ٣ ـ أنّ انتشار بعض المذاهب الفقهيّة في بعض المناطق من البلاد الإسلاميّة قد بقي رهن قرارات الساسة والحكّام، الذين ساندوا مذهباً على حساب آخر، كما فعل محمود ابن سبكتكين صاحب الدولة الغزنويّة التي كانت من أهمّ ولاياتها سجستان، وكان غالب أهلها على مذهب أبي

حنيفة، فلمّا تحوّل حاكمها إلى المذهب الشافعي، انتشر به المذهب فيما وراء النهر وكرمان وهراة ونيسابور وغيرها من تلك الربوع.

وفرض المذهب المالكي رسميًا بفاس في أواخر شهر شوّال من سنة ٣٦٣هـ بقرار من الحكم المستنصر، وربّما أعلن الساسة الحرب على ما لا يرتضون من المذاهب، كما فعل الفاطميون مع المذهب المالكي في إفريقيّة، ومع المذاهب الثلاثة المالكيّة والحنفيّة والشافعيّة بمصر، وكما فعل الحاجب المنصور بالله ابن أبي عامر من إنكار غير المالكيّة من المذاهب، وكما فعل المعتمد بن عبّاد صاحب إشبيليّة حين أمر بإحراق كتب ابن حزم على الملأ.

ـ ٤ ـ أنّ هناك عائلات علميّة قد اشتهرت بالتربّع على عرش بعض الوظائف والخطط الدينيّة كالخطابة والقضاء والإفتاء، وتداول أبناؤها على رئاسة ميادين العلم لأجيال عديدة، وتسلسل العلم في أحفادها، حتّى حفظ لنا الدهر أسماءهم وألقابهم، كآل حمّاد المالكيين بالعراق، وبيت بني معتب المالكيين بالقيروان، وأسرة الإسماعيلي الشافعيّة بجرجان، وآل النعمان الإسماعليين بمصر، وأسر العكبري وأبي يعلى والأزجي والجيلي الحنابلة بالعراق، وغيرها.

ـ ٥ ـ شيوع الاستدلالات القائمة على الأصول الجدليّة وانتشار مجالس النظر، التي عادة ما كانت تنعقد بقصور الأمراء، أو حين يلتقي فقيهان ببلد من بلاد الإسلام، أو في مجالس العزاء، وأشدّ المناظرات في هذا الشأن ما كان بين المالكيّة والظاهريّة بالأندلس، وكذلك بين الشافعيّة والحنفيّة في خراسان وما وراء النهر، وقد انجرّ عن تلك المجالس أحياناً استطالة بعض الفقهاء على بعض دون وجه حقّ لامتلاكهم القدرة الفائقة على التلاعب بطرق الجدل وأساليب المناظرة، الأمر الذي دعا بعض المنصفين إلى وضع قواعد لهذا الفنّ وضوابط.

ـ ٦ ـ أنّ اعتماد الأصول الجدليّة في الاستدلال وانتهاج منهج التفصيل والتعليل قد كان له الأثر البالغ على علوم أخرى غير الفقه:

* كعلم أصول الفقه حيث اختلفت مناهجه، بين **منهج المتكلّمين** الذين اهتمّوا بتحرير المسائل وتحقيق القواعد الأصوليّة وتقريرها على المبادىء المنطقيّة وإقامة الأدلّة عليها مجرّدة بصرف النظر عن كون هذه القواعد متّفقة مع فروع المذهب أو مخالفة له، **ومنهج الفقهاء** الذين اهتمّوا بتقرير القواعد الأصوليّة على مقتضى ما نقل إليهم من الفروع الفقهيّة، وقد سمّي هذا المَنهج أيضاً بمنهج الأحناف لأنّهم هم الذين سلكوه خلافاً لغيرهم.

* وعلم الخلاف حيث ظهر منهج بيان أثر الأصول على الفروع، الذي أصبح فنّا خاصّا يعرف بفنّ تخريج الفروع على الأصول، ورائده في هذا الدور أبو زيد الدبوسي واضع البذرة الأولى لهذا المنهج.

* وقد مهّد ذلك كلّه لظهور علم الأصول القريبة المعروف بعلم القواعد الفقهيّة الذي كان عامل إثراء بما حوته مصادره من أحكام لفروع كثيرة مخرّجة على تلك القواعد.

- ٧ - أنّ الرحلات العلميّة قد تتابعت في هذا الدور على نفس الوتيرة التي كانت بها في الأدوار السابقة، وبقيت الرحلة حاجة علميّة ملحّة لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشائخ، ذلك أنّ حصول الملكات عن طريق لقاء أهل العلم والتلقين المباشر أشدّ استحكاما وأقوى رسوخا، ولذلك اعتبر كثير من العلماء أنّ الرحلة جزء من العلم.

وكان إذا اشتهر عالم في إحدى المراكز العلميّة رحلوا إليه سعيا لنيل فضيلة التلقّي المباشر منه، وغالباً ما كان طلّاب العلم لا يكتفون بالرحلة إلى مركز واحد، بل يسعون جاهدين في التردّد على مراكز عدّة، سعيا منهمْ للقاء أكثر ما يمكن من الشيوخ إذ على قدر الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها.

وكان بعض شيوخ العلم بقدرتهم العلميّة الفائقة كثيراً ما يتركون آثارهم في في عدّة مراكز فقهيّة، فيشتهرون بكلّ مركز وطأته أقدامهم من شرق البلاد الإسلاميّة إلى غربها، ممّا يؤكّد أنّ جميع المراكز العلميّة قد

كانت على مرّ الأدوار متّصلة بعلمائها، متواصلة بأعلامها الذين كانوا لا يقيمون للحدود السياسيّة أيّ اعتبار، فالقطيعة السياسيّة لم تتبعها بأيّ حال عزلة علميّة بين المراكز، وإنّما بقي الارتباط بينها وثيقا.

ـ ٨ ـ أنّه بالإضافة إلى الرحلات العلميّة، التي كانت توفّر اللقاء المباشر بين العلماء، كانت تجري بينهم كذلك المراسلات والاستفتاءات والمشاورات والمكاتبات، فكنّا نسمع عن بعض العلماء بعد أن يفرغوا من تأليف كتاب من كتبهم يبعثون بنسخة إلى بعض أقرانهم من أهل العلم، فيفرحون بها ويثنون عليها وعلى مؤلفها، ويشيعون خبرها بين الناس، وكانوا يبعثون إلى بعضهم البعض بالإجازات ويكتفون بها عن مؤونة الرحلة.

وهذا يؤكّد أنّ العلماء لم يكونوا بمعزل عن بعضهم البعض، وإنّما كانت الاتّصالات قائمة بينهم بكلّ الطرق الممكنة المباشرة منها وغير المباشرة، فكانت الحركة الفقهيّة في سائر المراكز العلميّة متكاملة البناء، متواصلة الأطراف لا يكاد يشعّ ضياء في مركز إلاّ أضاء سائر المراكز الأخرى.

ـ ٩ ـ أنّ المرأة المسلمة لم يغيّب نشاطها ولم تنعدم مشاركتها في سير الحركة الفقهيّة، وأنّ النشاط الفقهي لم يكن حكرا على الرجال دون النساء، بدليل أنّنا نلتقي في هذا الدور بأمثال:

أمّ السلامة بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شنخرة، أمّ الفتح(٢٩٨هـ ـ ٣٩٠هـ) التي أثنى عليها غير واحد في دينها وفضلها وسيادتها، وعنها تلقّى إمام الحنابلة في وقته وعلاّمة زمانه أبو يعلى الفرّاء، وغيره من أعلام عصره[١].

وبنت أبي عليّ الشنوبي، وكان زوجها أبو عبدالله محمد بن أحمد الخضري المروزي (٣٧٣هـ) شيخ الشافعيّة بمرو، قد سئل يوماً عن مسألة، فتوقّف، فأجابته بما سمعت عن أبيها، فقال الخضري: لو لم أستفد من

(١) البداية والنهاية ٣٢٨/١١، شذرات الذهب ٢٦٣/٣.

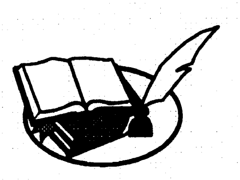
الاتّصال بأهل العلم إلاّ هذه المسألة لكانت كافية، وقرّر فتواها تلك كثير من العلماء[١].

وأمّ عبد الواحد ستيتة ابنة القاضي أبي عبدالله الحسين بن إسماعيل المحاملي التي حفظت القرآن والفقه والنحو والفرائض والحساب والعلوم، وبرعت في مذهب الشافعي، وكانت من أعلم الناس في وقتها بمذهب الشافعي وكانت تفتي بموجبه مع علماء عصرها، وكانت فاضلة في نفسها كثيرة الصدقة، مسارعة إلى فعل الخيرات وتوفّيت عن بضع وتسعين سنة[٢].

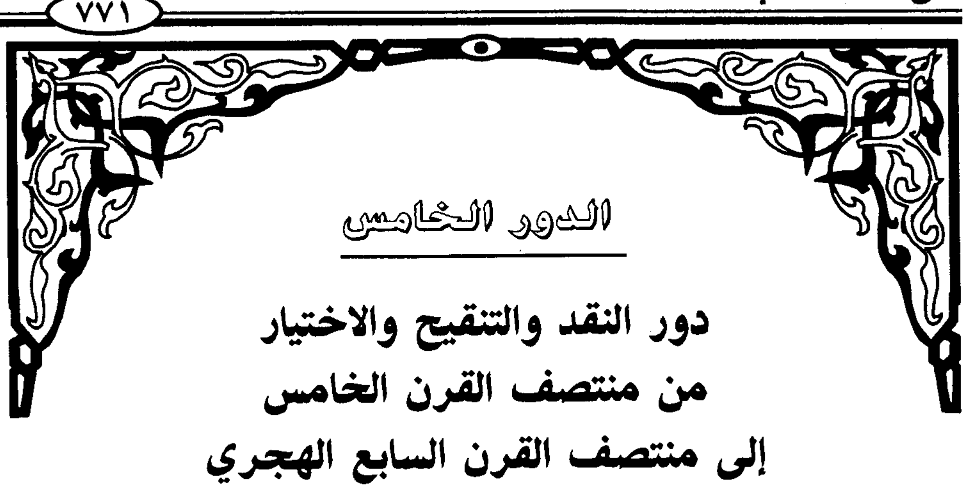
وعائشة بنت الحسن الوركانيّة الأصبهانيّة (٤٦٠هـ) التي روت عن أبي عبدالله بن مندة[٣].

وأمّ الكرام كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم (٤٦٣هـ) المروزيّة، المجاورة بمكّة، إحدى ذوات الفهم والنباهة، التي وروت صحيح البخاري عن أعلام عصرها، وكانت تضبط كتابها وتقابل بنسخها، وعدّت من حفّاظ وقتها، وعليها قرأ الأئمّة الأعلام كالخطيب البغدادي وأبي المظفر السمناني، وغيرهما[٤].

وخديجة بنت محمد بن عليّ الشاهجانيّة (٤٦٠) الواعظة ببغداد، التي كتبت بخطّها عن جماعة من أهل العلم في عصرها[٥]، والقائمة طويلة في هذا المجال لمن يتصفّح كتب التراجم والطبقات.



(١) شذرات الذهب ١٩٨/٣.
(٢) شذرات الذهب ٢٠٧/٣، البداية والنهاية ٣٠٦/١١.
(٣) شذرات الذهب ٤٩٢/٣.
(٤) شذرات الذهب ٥٠٠/٣، البداية والنهاية ١٠٥/١٢.
(٥) شذرات الذهب ٤٩٢/٣.



الدور الخامس

دور النقد والتنقيح والاختيار من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السابع الهجري

تمهيد:

اتّسع سلطان السلاجقة في النصف الأوّل من هذا الدور، وكان عصرهم (٤٢٩هـ ـ ٥٥٢هـ) مناسبة لإعادة توحيد الشرق الإسلامي، فاستولوا على خراسان وجرجان وطبرستان وخوارزم، وفي أثناء نموّ دولة السلاجقة بهذه الجهات كانت الفوضى عامّة في بغداد لقيام الفتن بين جنود بني بويه والجيوش التركيّة وما لبثت أن انقضت دولة بني بويه بعد أن استمرّ ملكهم ١١٣ سنة من تاريخ دخول معزّ بن بويه بغداد سنة ٣٣٤هـ، وابتدأت دولة آل سلجوق ببغداد وعظم أمرهم في الشرق وخطب باسمهم من بلاد الصين إلى الشام، ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى بلاد اليمن في الجنوب، وكان لفترة حكمهم أهميّة خاصّة في التاريخ لقيام الحروب الصليبيّة في أيّامهم.

ثمّ ما لبث أن تفرّق ملك السلجوقيين وثارت بينهم الحروب الداخليّة العائليّة، وسفكت خلالها دماء المسلمين فتوطّدت في أثنائها أقدام المسيحيين في جهات الشام وأسّسوا بها إمارات مسيحيّة.

وتقاسم ملك السلاجقة دول كثيرة تعرف بدول الأتابكة الذين بسطوا

نفوذهم على دمشق والموصل وحلب وأرمينيّة وأذربيجان وسوريا والعراق وبلاد فارس.

وفي هذه الظروف قيّض الله الملك الصالح نور الدين زنكي (٥٦٩هـ) الذي استخلص من المسيحيين أغلب بلاد الإسلام، ثمّ خلفه صلاح الدين الأيّوبي على الشام والجزيرة وجميع البلاد التي كانت تابعة له، واستمرّ على الفتح واسترجاع بلاد الإسلام إلى أن مات بدمشق سنة ٥٨٩هـ، وبموته تفرّقت البلاد بين أبنائه وانفرط عقد انتظامها إلى دويلات متعادية متنافرة حتّى أدركهم جيوش التتار والمغول الذين خرجوا من بلادهم الواقعة غرب بلاد الصين سنة ٦١٧هـ تحت قيادة زعيمهم جينكيز خان فقصدوا بلاد خوارزم فاستولوا عليها، ثمّ ملكوا بخارى وسمرقند وغزنة وتركستان، وغيرها من بلاد الإسلام، وكانوا أثناء ذلك يقتلون الرجال ويسبون النساء ويخرّبون الجوامع ويحرقون الكتب النفيسة، ويرتكبون أنواع المنكرات الشنيعة جهاراً، ووصل سلطانهم إلى بغداد، القلب النابض من بلاد الإسلام، سنة ٦٥٦هـ تحت إمرة هولاكو خان حفيد جنكيز خان، فقتل الخليفة المستعصم، وتتبّع من قدر عليه من بني العبّاس والأمراء والعلماء، وجعل من نصف أراضي العراق خراباً، فانتهت بذلك دولة العبّاسيين ببغداد بعد أن استمرّت ٥٢٤ سنة.

أمّا في الغرب، فقد كانت بلاد الإسلام آخذة أيضاً في الانحطاط حيث تفرّقت بلاد الأندلس طوائف، وضعف حال المسلمين بصقليّة وتفرّق أهلها واستحكم الشقاق بينهم حتّى استعانوا على بعضهم بملوك الإفرنج.

وفي المغرب الأقصى أنشأ المرابطون (٤٤٨هـ ـ ٥٤١هـ) دولتهم التي اكتسبت شرعيتها من الجهاد، وظلّت قائمة بالدفاع عن الإسلام في الأندلس، وعلى الرغم من مسؤولياتهم الجسيمة في المغربين الأقصى والأوسط، فإنّ الدفاع عن الإسلام في الأندلس كان عملهم الرئيسي، ففيه أنفقوا معظم أموالهم، وفيه جاهد واستشهد خيرة رجالهم، ثمّ تابع من بعدهم الموحّدون (٥٥٥هـ ـ ٦٢٨هـ) ذلك النهج الجهادي حيث تمكّن

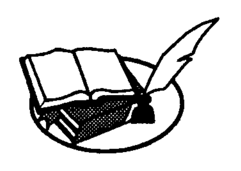
عبدالمؤمن بن عليّ الفاتح النشيط من توحيد معظم ما بقي من الأندلس تحت رايته، وكان صدًّا منيعا ضدّ أطماع الإسبان، كما دفع الموحّدون بقوّتهم البحريّة إلى السواحل التونسيّة لقطع أطماع النورمان عنها، ووحّدوا المغرب العربي الكبير في سنة الأخماس[١].

وعندما اضمحلّت دولة الموحّدين في منتصف القرن السابع الهجري قام على أنقاضها ثلاث عائلات متنافسة:

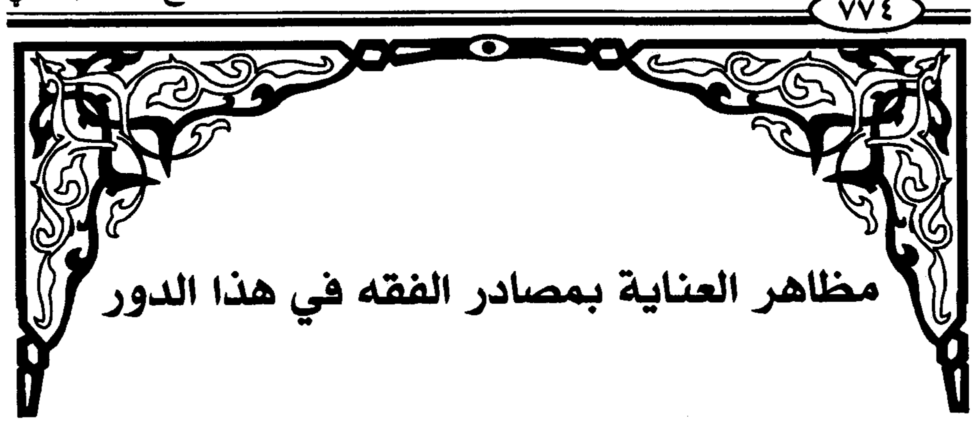
بنو حفص المنتسبون إلى قبيلة هنتاتة البربريّة الذين أسّسوا الدولة الحفصيّة في المغرب الأدنى ـ تونس ـ.

بنو زيّان الذين أسّسوا الدولة الزيّانيّة في المغرب الأوسط ـ الجزائر ـ.

بنو مرين الذين أسّسوا الدولة المرينيّة في المغرب الأقصى.



(١) تاريخ الدولة العليّة العثمانية ٦١ ـ ٨٤، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ١/٤ ـ ٣٤ و٦٠ ـ ١٣٦، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١٧١ ـ ١٧٥ و٣٧٦ ـ ٣٨٠.



مظاهر العناية بمصادر الفقه في هذا الدور

ـ ١ ـ القرآن الكريم:

ألّف في تفسير القرآن في هذا الدور عدد لا يحصى، اختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال تترى، فدخل من هذا الباب الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل، ثمّ صار كلّ من ينسخ له قول يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمده، ثمّ ينقل ذلك عنه من يأتي بعده ظانّاً أنّ له أصلاً، ملفت غيره إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح، ومن يرجع إليهم في التفسير.

ثمّ صنّف بعد ذلك قوم برعوا في علوم، فكان كلّ منهم يقتصر في تفسيره على الفنّ الذي يغلب عليه، فالنحوي ليس له همّ إلاّ الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه، ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كما فعل أبو الحسن الواحدي النيسابوري (٤٦٨هـ) في كتابه البسيط، وكان أوحد عصره في التفسير، والإخباريّ ليس له شغل إلاّ القصص والإخبار عمّن سلف، سواء كانت تلك الأخبار صحيحة أو باطلة.

والفقيه يكاد يسرد في تفسيره الفقه من باب الطهارة إلى سائر أبواب الفقه الأخرى، وربّما استطرد إلى إقامة أدلّة الفروع الفقهيّة التي لا تعلّق لها بالآية، والجواب عن أدلّة المخالفين كما فعل الإمام أبو عبدالله القرطبي (٦٨١هـ) الذي صنّف كتابه المسمّى «الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمّن من السنّة وآي القرآن» وأسقط منه القصص والتواريخ وأثبت مكانها أحكام القرآن واستنباط الأدلّة.

وصاحب العلوم العقليّة قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، كما فعل فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) المعروف بابن الخطيب الشافعي، الذي جمع في تفسيره الكبير المسمّى بمفاتيح الغيب كلّ غريب وغريبة وأكثر من الاستطراد إلى العلوم الرياضيّة والطبيعيّة والعلوم الفلكيّة والكونيّة، وتوسّع في ذلك توسّعا كبيرا، وجمع من ذلك أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير حتّى قال بعض العلماء: فيه كلّ شيء إلاّ التفسير[١].

وكان الإمام الغزالي أكثر من استوفى بيان هذا القول في تفسير القرآن، وعمل على نشره في الأوساط العلميّة، حيث عقد في الجزء الثالث من كتابه إحياء علوم الدين في الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن فصلا بعنوان فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل، ذكر فيه عن بعض العلماء أنّ: «لكلّ آية ستّون ألف فهم، وما بقي من فهمها أكثر» وأنّ: «القرآن يحوي سبع وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ كلّ كلمة علم، ثمّ يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكلّ كلمة ظاهر وباطن وحدّ ومطلع»[٢].

وبرز أعلام أثبات في فنّ علوم القرآن كابن الجوزي (٥٩٧هـ) صاحب كتابي: فنون الأفنان في علوم القرآن، والمجتبى في علوم تتعلّق بالقرآن، وعلم الدين السخاوي (٦٤١هـ) صاحب كتاب جمال القرّاء، وأبو شامة (٦٦٥هـ) صاحب كتاب المرشد الوجيز فيما يتعلّق بالقرآن العزيز، غير أنّ كتاباتهم في هذا المجال كانت عبارة عن طائفة يسيرة، ونبذ قصيرة، بالنسبة للمؤلّفات التي ألّفت بعد ذلك في هذا النوع[٣].

وواصل علماء القراءات عنايتهم في جمع القراءات والروايات والطرق، فرحل من المغرب أبو القاسم يوسف بن عليّ بن جبارة الهذلي (٤٦٥هـ) إلى المشرق، وطاف البلاد وروى عن أئمّة القراءة حتّى انتهى إلى

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١٩٠/٢ ـ ١٩١.
(٢) إحياء علوم الدين مج ١، ج ٣، ص ١٣٥.
(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ٣٦/١.

ما وراء النهر، وقرأ بغزنة وغيرها، وألّف كتابه الكامل جمع فيه خمسين قراءة عن الأئمّة، و١٤٥٩ ـ ألفا وأربعمائة وتسعة وخمسين ـ رواية وطريقا، قال فيه: فجملة من لقيت في هذا العلم ٣٦٥ ـ ثلاثمائة وخمسة وستّون ـ شيخا، من آخر المغرب إلى باب فرغانة يميناً وشمالاً وجبلاً وبحراً، وكان بمكّة معاصره أبو معشر عبدالكريم بن عبدالصمد الطبري (٤٧٨هـ) مؤلّف كتاب التلخيص في القراءات الثمان وسوق العروس فيه ١٥٥٠ ـ ألف وخمسمائة وخمسون ـ رواية وطريقا.

وهذان الرجلان أكثر من علمنا جمعا في القراءات ـ كما قال ابن الجزري ـ لا نعلم أحداً بعدهما جمع أكثر منهما إلاّ أبا القاسم عيسى بن عبدالعزيز الإسكندري (٦٢٩هـ) الذي ألّف كتاباً سمّاه الجامع الأكبر والبحر الأزخر، وقد احتوى سبعة آلاف رواية وطريق.

ولا زال الناس يؤلّفون في كثير القراءات وقليلها، ويروون شاذها وصحيحها بحسب ما وصل إليهم أو صحّ لديهم، ولا ينكر أحد عليهم، بل هم في ذلك متّبعون سبيل السلف حيث قالوا: القراءة سنّة متّبعة يأخذها الآخر عن الأوّل[1].

ـ ٢ ـ السنّة النبويّة:

بعد أن كان علماء السنّة في الدور السابق يدوّنون كتبهم من محفوظهم ومسموعاتهم عن شيوخهم، أصبح عمل العلماء في هذا الدور قاصرا على الجمع والترتيب، أو التهذيب لكتب السابقين.

وقد تمثّلت جملة أعمالهم التهذيبيّة في هذا الدور في النواحي التالية:

أوّلا: الجمع بين الصحيحين: حيث تناول كثير من العلماء الجمع بين أحاديث صحيحي البخاري ومسلم في مصنّف واحد، كما فعل أبو محمد حسين بن مسعود الفرّاء البغوي (٥١٦هـ) والإمام أبو محمد

(١) النشر في القراءات العشر ١/٣٥ ـ ٣٦.

عبدالحقّ بن عبدالرحمٰن الإشبيلي (٥٨٢هـ) وأبو جعفر أحمد بن محمد القرطبي (٦٤٢هـ) ابن أبي حجّة[١].

ثانيا: الجمع بين الكتب الستّة: والمراد بالكتب الستّة الصحيحان للبخاري ومسلم، وموطّأ مالك، وكتب السنن الثلاثة للنسائي وأبي داود والترمذي، وقد قام بالجمع بينها رزين بن معاوية العبدري(٥٣٥هـ) السرقسطي في كتابه تجريد الصحاح الستّة[٢] غير أنّه قد ترك بعضا من أحاديث الستّة، فاستدرك ذلك أبو السعادات مبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري (٦٠٦هـ) فهذّبه وعمد إلى كلّ كتاب من كتبه وفصّله إلى أبواب وفصول لاختلاف معنى الأحاديث، وجعل الكتب مرتّبة على حروف المعجم، فأودع مثلاً كتاب الإيمان وكتاب الإيلاء في حرف الألف، ثمّ عمد إلى آخر كلّ حرف فذكر فيه فصلا يستدلّ به على مواضع الأبواب من الكتاب، ورجّح اختيار الأبواب على المسانيد، وبنى الأبواب على المعاني، فكلّ حديث انفرد لمعنى أثبته في بابه، فإن اشتمل على أكثر أورده في آخر الكتاب في كتاب سمّاه كتاب اللواحق، ورقّم على اسم كلّ راو علامة من أخرج ذلك الحديث من أصحاب الكتب الستّة[٣]، وسمّاه: «جامع الأصول لأحاديث الرسول» وبيّن الغرض من جمع هذا الكتاب فقال: «لمّا وقفت على الكتب ورأيت كتاب رزين هو أكبرها وأعمّها حيث حوى الكتب الستّة التي هي أمّ كتب الحديث وأشهرها، فأحببت أن أشتغل بهذا الكتاب الجامع، فلمّا تتبّعته وجدته قد أودع أحاديث في أبواب غير تلك الأبواب أولى بها، وكرّر فيه أحاديث كثيرة، وترك أكثر منها، فجمعت بين كتابه وبين ما لم يذكره من الأصول الستّة، ورأيت في كتابه أحاديث كثيرة لم أجدها في الأصول لاختلاف النسخ والطرق وأنّه قد اعتمد في ترتيب كتابه على أبواب البخاري، فناجتني نفسي أن أهذّب كتابه وأرتّب أبوابه، وأضيف

(١) كشف الظنون ١/٤٧٠.
(٢) المصدر السابق ١/٢٩٩.
(٣) نفس المصدر ١/٤٢٤.

إليه ما أسقطه من الأصول، وأتبعه شرح ما في الأحاديث من الغريب والإعراب والمعنى، فشرعت، فحذفت الأسانيد، ولم أثبت إلاّ اسم الصحابي الذي روى الحديث إن كان خبرا، أو اسم من يرويه عن الصحابي إن كان أثراً، وما كان من أقوال التابعين والأئمّة فلم أذكره إلاّ نادرا»[١].

وجمع بين الكتب الستّة أيضاً عبدالحقّ بن عبدالرحمٰن الإشبيلي (٥٨٢هـ) المعروف بابن الخرّاط[٢].

ثالثاً: الجمع بين أحاديث من كتب مختلفة: ومنها كتاب مصابيح السنّة للإمام حسين بن مسعود الفراء البغوي (٥١٦هـ) الذي جمع ٤٧١٩ ـ أربعة آلاف وسبعمائة وتسعة عشر ـ حديثاً منها المختصّ بالبخاري ٣٢٥ حديثاً، والمختصّ بمسلم ٨٧٥ حديثاً، ومنها المتّفق عليه ١٠٥١ حديثاً، وباقي الأحاديث من سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارميّ، وترك في مصنّفه هذا ذكر الأسانيد اعتمادا على نقل الأئمّة، وقسّم أحاديث كلّ باب إلى صحاح وحسان، وعني بالصحاح ما أخرجه الشيخان، وبالحسان ما أورده أبو داود والترمذي وغيرهما ـ وفي كتب السنن الصحيح والحسن والضعيف والمنكر، ولكنّه اصطلاح اصطلح عليه المصنّف في كتابه، فلا مشاحاة فيه ـ وما كان فيها من ضعيف أو غريب أشار إليه، وأعرض عن ذكر ما كان منكرا ـ وهو ما رواه الضعيف مخالفاً الثقات ـ أو موضوعاً[٣].

واعتنى العلماء بشأن هذا الكتاب وتناولوه بالشرح والتهذيب والتعليق وتذييل أبوابه والاختصار[٤].

وجمع أبو الفرج عبدالرحمٰن بن عليّ الجوزي (٥٩٧هـ) بين

---

(١) كشف الظنون ١/٤٢٣ ـ ٤٢٤.
(٢) المصدر السابق ١/٤٧١.
(٣) نفس المصدر ٢/٥٦٩.
(٤) كشف الظنون ٢/٥٦٩ ـ ٥٧٣.

الصحيحين ومسند الإمام أحمد وسنن الترمذي في كتاب سمّاه جامع المسانيد والألقاب[١].

رابعاً: كتب منتقاة في أحاديث الأحكام والمواعظ: مثل كتاب الأحكام الصغرى للحافظ أبي محمد عبدالحقّ بن عبدالرحمٰن الإشبيلي (٥٨٢هـ) المعروف بابن خرّاط، قال فيه: «جمعت في هذا الكتاب متفرّقا من حديث رسول الله ﷺ في لوازم الشرع وأحكامه وحلاله وحرامه، وفي ضروب من الترغيب والترهيب، أخرجتها من كتب الأئمّة وهداة الأمّة، أبو عبيدالله مالك بن أنس، وأبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، وبقيّة الكتب الستّة، وفيها أحاديث من كتب أخرى[٢].

ومثل كتاب عمدة الأحكام للحافظ أبي محمد تقيّ الدين عبدالغنيّ بن عبدالواحد بن عليّ بن سرور الجماعيلي المقدسي الدمشقي (٦٠٠هـ) جمع أحاديث الأحكام التي اتّفق فيها البخاري ومسلم، جمعا عزّ نظيره، تناول فيه التعريف بمن ذكر من رواة الحديث إجمالا، وبيّن ما وقع في الأحاديث التي جمعها من مهمّات وضبط ألفاظها وأشار إلى بعض ما يستنبط منها، وشرحه العلماء من بعده[٣].

ومثل كتاب الترغيب والترهيب لأبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني (٥٣٥هـ) الذي جمعه من أصحاب الكتب المشهورة كالصحيحين والسنن الأربعة وبعض المسانيد، وقد أساغ التساهل في أنواع من أحاديث الترغيب والترهيب، ولم ينبّه على حالها ودرجة قبولها[٤].

---

(١) كشف الظنون ١/٤٥٢ ـ ٤٥٣.

(٢) كشف الظنون ١/٨٠، الحديث والمحدّثون ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

(٣) كشف الظنون ٢/١٦٩.

(٤) المصدر السابق ١/٣٣٦.

ومثل كتاب الترغيب والترهيب للحافظ زكيّ الدين أبي محمد عبدالعظيم بن عبدالقويّ بن عبدالله المنذري (٦٥٦هـ) وذكر أنّه ألّفه حاويا لما تفرّق في غيره من الكتب مقتصرا على ما ورد صريحا في الترغيب والترهيب، وذكر الحديث بعزوه إلى من رواه من أصحاب الكتب المشهورة كالصحيحين والسنن الأربعة وبعض المسانيد، ثمّ أشار إلى صحّة إسناده وحسنه أو ضعفه، وأفرد للراوي المختلف فيه بابا في آخر الكتاب ذكرهم على ترتيب حروف المعجم، وذكر الأحاديث في خمسة وعشرين كتاباً على ترتيب المصابيح، واستوعب جميع ما في كتاب الترغيب والترهيب لأبي القاسم الأصبهاني ممّا لم يكن في الكتب المذكورة، وهو قليل، وأضرب عن ذكر ما فيه من الأحاديث المتحقّقة الوضع[١].

ومثل كتاب المنتقى من الأخبار في الأحكام للحافظ مجد الدين أبي البركات عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم الحراني المعروف ابن تيميّة الحنبلي (٦٥٢هـ) انتقاه من صحيحي البخاري ومسلم، ومسند الإمام أحمد، وكتب السنن الأربعة للترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه[٢]، وهو كتاب قال في شأنه شارحه العلاّمة الشوكاني: «لم ينسج على بديع منواله ولا حرّر على شكله ومثاله أحد من الأئمّة الأعلام قد جمع من السنّة المطهّرة ما لم يجتمع في غيره من الأسفار، وبلغ إلى غاية في الإحاطة بأحاديث الأحكام»[٣].

ـ ٣ ـ الاجتهاد:

استمرّ هذا الدور لقرنين من الزمن عرف الفقه خلال هذه الفترة الطويلة نشاطا اتّسم بالنقد والتنقيح، وتنازل الاجتهاد فيها عن مرتبة الاجتهاد

(١) كشف الظنون ١/٣٣٥ ـ ٣٣٦.
(٢) كشف الظنون ٢/٦٨٢، الحديث والمحدّثون ص ٤٣٢.
(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ١/٢.

في المسائل إلى اجتهاد الترجيح والاختيار الذي هو تصرّف في الأقوال بفحص أدلّتها، أو فحص أساليب نقلها، أو فحص ملاءمتها للأحوال، حتّى يختار منها ما هو الراجح المأخوذ به، وما هو غير الراجح[١].

وهكذا أدخل فقهاء هذا الدور نزعة اجتهاديّة جديدة على المنهج الذي كان يسير عليه الفقهاء في دراسة الفقه خلال الدور السابق، هذه النزعة هي نزعة التصرّف، فكانوا يعتمدون أحياناً على نقد الأقوال من ناحية إسنادها، فيعتبرون أنّ أحد القولين أصحّ من القول الآخر، أي إسنادا، وأحياناً ينتقدون الأقوال من ناحية رشاقة استخراجها من الأصول التي استخرجت بها، وهو ما يعبّرون عنه بالأولى، أو ينظرون إلى أنّه الأقرب إلى تحقيق المصلحة المرعيّة من الشرع في تفريع ذلك الحكم[٢].

فسلك أعلام هذا الدور طريقة جديدة في خدمة الحكم هي الطريقة النقديّة، حيث صاروا في الفقه يتصرّفون تصرّف تنقيح، وينتصبون في مختلف الأقوال انتصاب الحكم الذي يقضي بأنّ هذا مقبول، وهذا ضعيف، وهذا غير مقبول، وهذا ضعيف السند في النقل، وهذا ضعيف النظر في الأصول، وهذا مغرق في النظر في الأصول، وهذا محرج للناس، أو مشدّد على الناس، إلى غير ذلك[٣]، وهي الطريقة التي درج عليها أقطاب فقهاء هذا الدور في سائر المذاهب، فتكوّنت بهم مذاهبهم تكوّنا جديدا، إذ دخل عليها عنصر النقد والتنقيح والاختيار، وأصبحت الأقوال مختلفة في كلّ مسألة مصنّفة تصنيفا تقديريّا، منها ما هو أولى، ومنها ما هو راجح، ومنها ما هو أصحّ، إلى غير ذلك من الاصطلاحات المتعلّقة بالترجيح، بحيث يمكن القول بأنّ المذاهب الفقهيّة قد وضعت وضعا جديدا، أو أنّها قد ظهرت في ثوب جديد، بأعلام هذا الدور الذين وضعوا هذه الطريقة النقديّة في خدمة مذاهبهم وأسّسوا منهجها، بناء

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: ومضات فكر: ١٤٤/١.
(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: محاضرات مغاربيّة ص ٨١، بتصرّف.
(٣) محاضرات مغاربيّة ص ٨١.

على أنّ ما عليه الفقهاء بعد هذا الدور من تصنيف تقديريّ للأقوال، ووضع لها في سلّم من التفاوت بحسب قيمتها، قد أصبح الفقهاء فيه فيما بعد، عالة على فقهاء هذا الدور، وعلى الأوضاع المهمّة التي ترجع إلى هؤلاء الأعلام الذين أسّسوا هذا المنهج الجديد المبنيّ على الطريقة النقديّة[١].

*** جهود العلماء وعملهم في هذا الدور.**

ـ ١ ـ وضع المصطلحات المتعلّقة بعلامات الإفتاء والترجيح في المذاهب:

أبدع فقهاء هذا الدور في وضع الاصطلاحات المتعلّقة بالترجيح والتضعيف، وبناء قواعد الترجيح بين الأقوال المختلفة داخل المذهب الواحد.

فظهرت في المذهب الحنفي اصطلاحات تتعلّق بعلامات الإفتاء[٢] كقولهم: عليه الفتوى، وبه يفتى، وهما اصطلاحان يستعملان عند تعدّد الأقوال في حكم مسألة معيّنة، فيأخذ الفقيه بقول منها لقوّة الدليل ويوشّحه بقوله: وعليه الفتوى ـ الذي يفيد معنى الصحّة ـ، أو وبه يفتى ـ الذي يفيد الحصر، فلا تكون الفتوى إلاّ به ـ، وكقولهم: وبه نأخذ، وعليه الاعتماد، وقولهم: وهو الصحيح ـ الذي يدلّ على أنّ بقيّة الأقوال ضعيفة ـ، أو وهو الأصحّ ـ الذي يشعر بأنّ بقيّة الأقوال صحيحة ـ، وكقولهم: وهو الأظهر والأوجه ـ وهما لفظان مترادفان من حيث المعنى الاصطلاحي، يفيدان بأنّ الاختيار الذي ارتآه الفقيه هو الأظهر وجها من حيث إنّ دلالة الدليل عليه متّجهة ظاهرة أكثر من غيره، وكقولهم: وهو المختار ـ للدلالة على اختيارهم لفتوى دون غيرها من بقيّة الفتاوى، لا لقوّة الدليل، وإنّما

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٨٢، بتصرّف.

(٢) الظفيري: مريم محمد صالح: مصطلحات المذاهب الفقهيّة ص ١١١ ـ ١٢١.

للضرورة أحياناً، أو لعموم البلوى، أو لتغيّر الزمان وفساده ـ وكقولهم: وهو الأشبه ـ أي الأقرب في معناه إلى النصّ المروي عن الإمام أو صاحبيه من جهة، والراجح على بقيّة الأقوال لمعرفة دليله من جهة أخرى، وهو معنى قولهم الراجح دراية ـ.

وظهرت كذلك هذه الاصطلاحات أو ما يقاربها في المذهب المالكي[١] كقولهم: وهو الراجح ـ أي ما قوي دليله ـ، وقولهم: وهو المشهور ـ أي ما كثر قائله ـ، وقولهم: الأشهر ـ وهو دليل على أنّ في المسألة قولين، المشهور منهما دون الآخر في الرتبة ـ وقولهم: الأصحّ والصحيح ـ حيث يكون كلّ واحد من القولين صحيحاً، وأدلّة كلّ واحد منهما قويّة، إلاّ أنّ الأصحّ مرجّح على الآخر بوجه من وجوه الترجيح ـ، وقولهم: الظاهر: ـ ويراد به الظاهر من الدليل، أو الظاهر من المذهب ـ وذلك أنّ المسألة التي لم يرد فيها نصّ على حكمها، ينظر في الدليل، أو فيما تدلّ عليه قواعد المذهب وأصوله، فما دلّ عليه ظاهر الدليل، أو ظاهر المذهب يكون حكمها حيث لا نصّ، وهذا يعني أنّ المسألة غير المنصوصة قد يدلّ المذهب أو الدليل على أكثر من معنى، فالمعنى الراجح هو الظاهر، وقولهم: وهو المعتمد ـ أي القويّ سواء كانت قوّته لرجحانه أو لشهرته، فالذي يعتمد عليه من الأقوال ويفتى به هو الراجح أو المشهور، فإن كان الحكم الفقهي قويّ الدليل أو كثر قائلوه، فهو المعتمد من الأقوال ـ، وقولهم: الذي جرى به العمل ـ وهو أن يصحّح أحد شيوخ المذهب المتأخّرين قولاً غير مشهور ولا راجح، فيفتي به ويعمل به وتجري الأحكام بناء على تصحيحه، وذلك مراعاة للعرف، أو للمصلحة العامّة، أو لأنّ في الأخذ به أرفق بالناس، أو لدرء مفسدة ـ وقولهم: الأشبه ـ أي أشبه بالأصول من القول المعارض له، وذلك كأن يكون في المسألة قولان قياسيان، إلاّ أنّ أحدهما أقرب شبها بالأصل المقاس عليه، فاستقام القياس على هذا الأصل ـ، وقولهم: المختار ـ

(١) مصطلحات المذاهب الفقهيّة ص ٢٠٢ ـ ٢١٩.

وهو ما اختاره بعض الأئمّة لدليل رجّحه به، وقد يكون ذلك المختار هو المشهور أو خلافه ـ، وقولهم الأصوب ـ للدلالة على وجود قولين كلاهما صوابا إلاّ أنّ أحدهما أصوب من الآخر ـ، وقولهم: الحقّ ـ وهذا اللفظ يطلق عند المتأخّرين على تحقيق صواب ما ذهب إليه من أقوال في المسألة أو تقييدها، فإذا كان في المسألة عدّة أقوال، فإنّ الفقيه يعبّر بلفظ الحقّ حين يتحقّق بنفسه حسب اجتهاده من صحّة أحد هذه الأقوال.

وليس من الخفيّ ما اشتهر به الإمام اللخمي من التصرّف في المذهب حتّى أنّ المتأخّرين جعلوا تصرّفات اللخمي في المذهب المالكي وما يأتي به من القول اختيارا، كما درج على ذلك الاصطلاح الذي بني عليه مختصر الشيخ خليل[1]، وعرف ابن يونس بأنّه أكثر المجتهدين ترجيحا لأقوال من قبله.

وجرى في المذهب الشافعي ما جرى في المذهبين الحنفي والمالكي من ظهور الاصطلاحات الخاصّة بالترجيح والتضعيف[2] كقولهم: الأظهر ـ للترجيح بين أقوال الشافعي المختلفة، ولفظ الأظهر يدلّ على ظهور مقابله، ولذلك لا يأتي به الإمام النووي إلاّ حينما تكون الأقوال المخالفة قويّة من حيث الدليل ويكون الأظهر هو الأقوى دليلاً منها ـ وقولهم: المشهور ـ للترجيح أيضاً بين أقوال الشافعي، إلاّ أنّه يأتي حيث يكون القول المقابل ضعيفا لضعف مدركه، ويستعمله الغزالي كذلك للترجيح بين الأقوال والأوجه وهو عنده: القول أو الوجه الذي اشتهر بحيث يكون مقابله رأيا غريبا ـ وقولهم: الأصحّ ـ للترجيح بين الأوجه للأصحاب، فما كان من الأوجه قويّ الدليل فهو الصحيح، وما كان أقوى دليلاً فهو الأصحّ ـ وقولهم: الصحيح

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٨١.

(٢) مصطلحات المذاهب الفقهيّة ص ٢٦٩ ـ ٢٧٦.

والصواب - للترجيح بين وجوه الأصحاب حين يكون المقابل وجها ضعيفا أو واهيا لضعف مدركه -، وقولهم: المذهب - للترجيح بين الطرق في حكاية أقوال الإمام، أو وجوه الأصحاب، فيقول أحدهم في المسألة الواحدة قولان أو وجهان، فما عبّر عنه النووي بالمذهب هو ما كان طريقه أصحّ، وقد يكون طريقه الخلاف، فيعبّر عن المسألتين بالمذهب للدلالة على الاختلاف - وقولهم: الظاهر - وهو القول أو الوجه الذي قوي دليله، وكان راجحا على مقابله، إلاّ أنّ الظاهر أقلّ رجحانا من الأظهر - وقولهم: الأرجح - وهو ما كان رجحانه أكثر من غيره، ومقابله الراجح الذي تعضّد بأحد أسباب الترجيح - وقولهم: الأشبه - الذي يستعمل حينما يكون للمسألة الواحدة حكمان قياسيان تكون العلّة في أحدهما أقوى شبها بالأصل - وقولهم: الأشهر - وهو القول الذي زادت شهرته على الآخر لشهرة ناقله أو مكانته عن المنقول عنه أو اتّفاق الكلّ على أنّه منقول منه - وقولهم: وهذا مجزوم به، أو: وهذا لا خلاف فيه - للدلالة على ترجيح الرأي باتّفاق أهل المذهب دون وجود مخالف بينهم - وقولهم: المختار - وهي من ألفاظ الترجيح عند النووي، حيث يكون في المسألة خلاف في المذهب، ويظهر له أنّ الدليل الصحيح مع الطائفة القليلة، تصريحاً منه بأنّه الراجح دليلاً، رغم أنّ الأكثر الأشهر في المذهب على خلافه -.

وتواضع كذلك فقهاء الحنابلة كما تواضع من قبلهم فقهاء المذاهب الأخرى، على ألفاظ تدلّ على الترجيح في المذهب[1] كقولهم: الأصحّ - ويعنون به أنّ حكم المسألة قد صحّت نسبته إلى الإمام أو إلى بعض أصحابه، سواء اشتهرت نسبته إليهم وظهرت، أو صحّ طريق النقل عنهم، أو كان الأصحّ دليلاً من الأقوال أو صحّ هذا الحكم عند القائل فقط، حسب ما دلّه عليه اجتهاده، فيطلق الأصحّ على جميع تلك المعاني، والقرينة هي التي تدلّ على المراد من تلك المعاني - وقولهم:

(١) مصطلحات المذاهب الفقهيّة ص ٣٦٣ - ٣٧٠.

في الصحيح من المذهب ـ ويستعمله ابن قدامة حين يكون في المسألة خلاف، للدلالة على تصحيحه هو واختياره دون غيره ـ، وقولهم: في الصحيح عنه ـ والمقصود بهذا اللفظ ما صحّ نسبته إلى الإمام، وهذا من ألفاظ ابن قدامة في المقنع ـ، وقولهم: الظاهر ـ وذلك حين يكون الدليل أو الرواية أو الوجه الذي يحتمل معنيين أحدهما أكثر وضوحاً، سواء تبادر إلى ذهن المجتهد أو لا ـ، وقولهم: الأظهر ـ وهو الأكثر ظهوراً من مقابله الظاهر، وقد يكون الأظهر شهرة أو نقلاً أو دليلاً، سواء كان عن الإمام أو بعض أصحابه ـ وقولهم: المشهور ـ وهو ما اشتهرت نسبته إلى الإمام أو إلى بعض أصحابه ـ ويقابل المشهور لفظ الأشهر الذي له استعمالات دقيقة عند الحنابلة بحسب اقترانه بحروف الجرّ، وقولهم: المذهب ـ للدلالة على أنّ حكم المسألة هو الذي يقتضيه مذهب الإمام أحمد سواء كان بنصّ من الإمام أو بتنبيهه وإيمائه، أو كان وجهاً للأصحاب، أو استنباطاً من أقواله ـ، وقولهم: الأولى والأقوى والأقيس ـ والترجيح بأحد هذه الألفاظ قد يكون بنصّ الإمام، أو بعض أصحابه، سواء كانت شهرة أو نقلاً أو دليلاً أو عند القائل، ويقدّم لفظ الأولى على غيره، وإن كانت الأقوال الأخرى أقوى وأصحّ منه دليلاً، ربّما لمناسبته لظروف الزمان والمكان، وكونه أرفق بالناس حيث روعي فيه عرفهم ـ

ـ ٢ ـ انتشار المختصرات الفقهيّة:

كان أعلام الدور السابق قد ضربوا المثل للاختصار وفتحوا الباب للمختصرات التي توالت على تجديد وضبط المصطلح، من أمثال الإمام الطحاوي والحاكم الشهيد والقدوري في المذهب الحنفي، ومن أمثال ابن أبي زيد وابن الجلّاب والبراذعي في المذهب المالكي، ومن أمثال ابن الحدّاد وابن القاص والمحاملي في المذهب الشافعي، ومن أمثال الخرقي في المذهب الحنبلي.

وكانت جميع مختصراتهم قد راجت ووقع الاعتماد عليها، وعلى

تعبيراتها تأسّست كتب المذاهب التي توالت في هذا الدور، وفي الذي بعده[١].

فلم تكن المختصرات الفقهيّة إذن بالأمر الجديد، وإنّما كانت موجودة في الدور السابق ـ كمّا وضحنا ـ بل إنّنا نجد نشأة لهذه المختصرات حتّى في أواخر القرن الثاني، ولكن الأمر الملفت للنظر في هذا الدور هو تطوّر هذا اللون من الكتابة بصفة غريبة، واقتصار الفقهاء على هذا النوع من التآليف، مع عنايتهم بجمع أكثر ما يمكن من المسائل واختصارها في أقلّ ما يمكن من الألفاظ، وما يعني ذلك من صعوبة معاناتها على الناس، فتحوّلت نتيجة ذلك الكتابة الفقهيّة إلى ما يشبه الألغاز بحيث لا تكاد تفهم عباراتها، حتّى وصل الأمر بابن الحاجب ـ رجل المختصرات ـ حين كان مشتغلا بوضع مختصره الفقهي، وجمع أمّهات كتب المهذب المالكي، وما اشتملت عليه من مسائل فقهيّة في كلام موجز، وصل به الأمر في بعض الأحيان بعد أن أكمل كتابه، إلى إعمال الفكر والتأمّل لفهم بعض العبارات التي كان قد أثبتها في مختصره الفقهي[٢].

هذا الاختصار الموغل في الإيجاز، الذي طغى على حساب المعاني وفهمها، هو الذي دفع بالإمام الشاطبي فيما بعد إلى القول بأنّ ابن بشير وابن شاس وابن الحاجب ـ من المالكيّة ـ قد أفسدوا الفقه[٣].

وهو الذي دفع كذلك ابن خلدون إلى إنكار هذا التوجّه بمسار الفقه الذي آل به إلى الجمود، وتبرّم به وشكا من الفقهاء الذين ذهبوا إلى اختصار الطرق والأنحاء في الفقه ـ وفي سائر العلوم ـ يولعون بها ويدوّنون منها برنامجا مختصراً يشتمل على حصر مسائله وأدلّتها، باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفنّ، حتّى صار ذلك

---

(١) ومضات فكر ٧٠/٢، بتصرّف.

(٢) الإفادات والإنشادات للشاطبي ص ١٦٣.

(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتي ٣٩/١ ـ ٤٠.

مخلاّ بالبلاغة وعسيراً على الفهم، وربّما عمدوا إلى الكتب الأمّهات المطوّلة فاختصروها تقريباً للحفظ، واعتبر ابن خلدون أنّ في ذلك النهج فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، لأنّ فيه تخليطاً على المبتدىء، ثمّ فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلّم بتتبّع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها[1].

ولفهم معاني تلك المختصرات تطلّب الأمر الاستنجاد بوضع الشروح التي احتاجت بدورها إلى حواشي وهكذا أصبحت الكتب التي يؤخذ منها الفقه ذات ألوان ثلاثة: المتن: وهو المختصر، والشرح: وهو شرح المتن، والحاشية: وهي شارحة الشرح، فضلاً عن التقريرات التي هي التعليقات على الحواشي، فأصبح يلتقي على الكتاب الواحد مجموعة من الفقهاء هم: المؤلّف، والمختصر، والشارح، والمحشّي، والمعلّق، وباتت العناية مركّزة على المناقشات اللفظيّة، والوقوف على أساليبها، والعمل على حلّ تراكيبها وعباراتها، في الوقت الذي بقيت فيه قواعد الفقه وأصوله جامدة غير متطوّرة.

فكان ذلك ممّا زاد في إلحاق الضرر بالمتعلّمين في تحصيل العلم والوقوف على غاياته لكثرة التآليف التي انتشرت بين أيديهم، ومطالبتهم باستحضار أكثرها وحفظ أغلبها، ولا يفي عمر المتعلّم بالإحاطة بهذه المختصرات الفقهيّة وما كتب عليها من الشروح والتنبيهات والمقدّمات والحواشي والتعليقات ولو تجرّد لها الطالب كامل حياته، فينقضي العمر دون مطلبه، ولا يطمع أحد في الغاية منه إلاّ في القليل النادر[2].

ـ ٣ ـ اتّساع التأليف في مسائل الأحكام وكتب النوازل:

إلى جانب اعتناء علماء هذا الدور في وضع المختصرات الفقهيّة، سيرا منهم وفق المنهج التقنيني المبني على الاقتصار والاختصار، كانت

(١) المقدّمة ص ٥٥١.

(٢) المقدّمة ص ٥٤٧.

عنايتهم كذلك متّجهة إلى التأليف في الأحكام وإجراءات النوازل المخصّصة لتسجيل القضايا وتثبيت الحوادث وإجراء الأجوبة المتعلّقة بتلك المسائل، وبيان فتاوى العلماء فيها.

وقد زاد اعتناؤهم هذا في توسيع المعاني الفقهيّة من حيث تطبيقها على الحياة العمليّة، وأحكم الوصل بين الوقائع المستجدّة حسب متغيّرات الأحوال، وبين مقتضيات الحكم الشرعي في إجراء النوازل وتنزيل الأحكام من حيث الوفاء بتحقيق المصالح الشرعيّة المنوطة بها على حسب مقتضيات تلك الأحوال.

وقد نشأ عن ذلك ازدهار التحقيق الفقهي في جزئيات المسائل العمليّة الذي طفحت به كتب الفتاوى والنوازل(١).

والكتب المؤلّفة في ميدان الفتاوى والنوازل لهذا الدور على أنواع:

* **فمنها: كتب النوازل التي يعتني فيها صاحبها بجمع فتاوى غيره من معاصريه أو من السابقين له**، مثل الفتاوى الكبرى للإمام الصدر الشهيد، حسام الدين عمر بن عبدالعزيز الحنفي (٥٣٦هـ) الذي جمع بين ما أودعه أبو الليث في نوازله، وبين ما أورده أبو العباس الناطفي في واقعاته، وبين فتاوى أبي بكر محمد بن الفضل، وفتاوى أهل سمرقند، ثمّ بوّبها نجم الدين يوسف بن أحمد الخاصي (٦٣٤هـ) المعروف بفطيس(٢)، ورتّب فيها المتفرّقات(٣)، ومثل الفتاوى الظهريّة، لظهير الدين أبي بكر محمد بن أحمد البخاري الحنفي (٦١٩هـ) الذي ذكر فيها أنّه جمع كتاباً من الواقعات والنوازل ممّا يشتدّ الافتقار إليه وفوائد غيره من كتب المتقدّمين التي لا يستغني عنها علماء المتأخّرين(٤)، ومثل البيان والتحصيل والشرح والتوجيه

(١) ومضات فكر ٧٢/٢.
(٢) كشف الظنون ٢١٩/٢.
(٣) كشف الظنون ٢١٤/٢ و٢١٦/٢.
(٤) كشف الظنون ٢١٧/٢.

والتعليل في مسائل المستخرجة لأبي الوليد محمد بن أحمد ابن رشد الجدّ (٥٢٠هـ) وقد جمع فيه أسئلة كثيرة وأجوبتها لأعلام المذهب المالكي وأسمعتهم، ووشّحها بشروحه وتوجيهاته وتعليلاته.

وقد يطنب الفقيه أحياناً ببيان الأحكام وزوائد الروايات، كما في فتاوى قاضي خان لفخر الدين حسن بن منصور الأوزجندي الفرغاني (٥٩٢هـ) الذي ذكر في كتابه جملة من المسائل التي يغلب وقوعها وتمسّ الحاجة إليها، وتدور عليها واقعات الأمّة، وبيّن لكلّ فرع أصلاً، وفيما كثرت فيه الأقاويل من المتأخّرين اقتصر منه على قول أو قولين، وقدّم ما هو الأظهر[١].

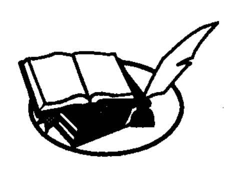
* ومنها: **كتب النوازل التي تجمع أجوبة فقيه واحد، سواء كان هذا الجمع له أو لأحد تلاميذه**، وربّما جمعت خلال فترة تولّيه خطّة القضاء أو الإفتاء، وهذا النوع من التآليف هو الغالب، مثل فتاوى أبي عمرو عثمان بن عبدالرحمٰن الشهرزوري الشافعي (٦٤٣هـ) المعروف بابن الصلاح، وقد جمع له هذه الفتاوى بعض طلبته، وهو الكمال إسحاق المعزي الشافعي[٢] أو الفتاوى النسفيّة لنجم الدين عمر بن محمد النسفي (٥٣٧هـ) وهي فتاواه التي أجاب بها عن جميع ما سئل عنه في أيّامه دون ما جمعه لغيره[٣] أو فتاوى ابن رشد الجدّ، التي تسمّى أيضاً بالنوازل والأجوبة، وقد جمعها تلميذه أبو الحسين ابن الوزّان، أو فتاوى محيي الدين بن يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ).

* ومنها: **كتب النوازل التي تنسب لمدينة ما**، حيث أنّ الفقيه قد سئل عن تلك المسائل والفتاوى بتلك المدينة فنسبت إليها، مثل فتاوى عزّ الدين عبدالعزيز الشافعي المعروف بابن عبدالسلام (٦٦٠هـ) التي سئل عنها

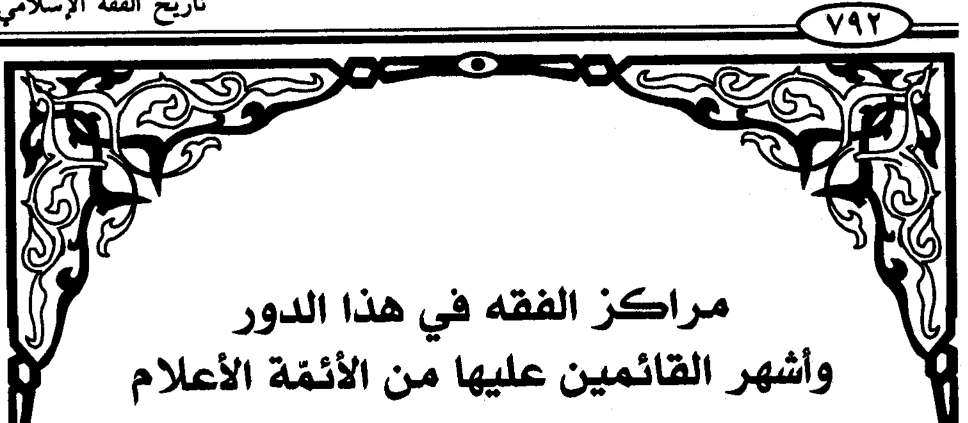
(١) كشف الظنون ٢/٢١٨.
(٢) كشف الظنون ٢/٢١٢.
(٣) كشف الظنون ٢/٢٢٠.

بالموصل، ولذلك يقال لها الفتاوى الموصليّة[١].

وتتابع التأليف في مسائل الأحكام والنوازل، فكان من الفقهاء من اقتصر على تفصيل ما أورده السابقون ممّا لا بدّ من معرفته لأهل الفتوى، واقتصر في تخريج المسائل على ما كان من نظائرها، وكان منهم من تصدّى للإفتاء بهمّة عالية، وأعطى حكمه لكلّ صورة من الوقائع الحادثة، ممّا لم تشتمل كتب الأقدمين على نصوص أحكامها.



(١) كشف الظنون ٢/٢١٢.



مراكز الفقه في هذا الدور
وأشهر القائمين عليها من الأئمّة الأعلام

- ١ - مصر:

تراجع فقه المذاهب الأربعة السنيّة بمصر خلال المرحلة الثانية من الدور السابق، وبداية هذا الدور، وذلك إلى منتصف القرن السادس الهجري، نظرا لسياسة بني عبيد القمعيّة، ولم تعرف المذاهب السنيّة الأربعة عودتها الحقيقيّة بالديار المصريّة إلاّ في ظلّ الدولة الأيّوبيّة التي عاد بقيامها فقه أهل السنّة والجماعة إلى الظهور.

وكان ملوك ووزراء الدولة الأيوبية يهتمون بإنشاء المدارس والمعاهد الدينيّة، ويقفون عليها الأوقاف الكثيرة[1]، ويرتّبون لها الفقهاء والعلماء، حيث يدرّس بها فقه المذاهب الأربعة السنيّة.

وقد عني صلاح الدين الأيّوبي عناية خاصّة ببناء المدارس، فبنى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي، وجعلها وقفا على الشافعيّة، كما جعل المدرسة المعروفة بزين التجار وقفا على الشافعيّة، وأنشأ سنة ٥٦٦هـ المدرسة القمحية لتدريس المذهب المالكي، ثمّ أنشأ لهم وللشافعيّة القاضي

---

(١) ستانلي لينبول: سيرة القاهرة ص ١٦٢ و٢٥٤، مصر في العصور الوسطى للدكتور علي إبراهيم حسن ص ٤٦٢، وفيات الأعيان ٢٠٦/٧ - ٢٠٧، تاريخ الإسلام ٤٢٥/٤ - ٤٢٦، تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ص ١٣٧ و١٤١ و١٤٥ و١٤٨.

الفاضل عبدالرحيم بن عليّ البيساني وزير صلاح الدين المدرسة الفاضليّة، وذلك سنة ٥٨٠هـ، وكان بهذه المدرسة مكتبة تشتمل على مائة ألف مجلّد.

وأنشأ صلاح الدين المدرسة السيوفية سنة ٥٧٢هـ لتدريس المذهب الحنفي، وهي أوّل مدرسة وقفت على المذهب الحنفي بمصر، ثمّ بنى ابنه الملك العزيز عماد الدين عثمان (٥٩٥هـ) المدرسة العزيزيّة.

وهذا الإجراء في بناء المدارس لم يكن معروفا لدى العرب وإنّما نقله صلاح الدين الأيوبي عن نور الدين محمود زنكي حاكم الشام الذي نقله بدوره عن الفرس في القرن السادس الهجري.

ومن المدارس التي أنشئت كذلك في عهد الأيوبيين المدرسة الكامليّة بناها السلطان الكامل بن العادل سنة ٦٢٢هـ، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوي، وعلى فقهاء الشافعيّة، وأنشأ الصالح أيّوب بن كامل المدرسة الصالحيّة سنة ٦٣٩هـ، وجعلها لتدريس المذاهب الأربعة، ثمّ أنشأ المدرسة الناصريّة، وهي ثاني مدرسة تخصّص لتدريس المذاهب الأربعة، وذلك سنة ٦٤١هـ. وشارك بعض الأثرياء من أصحاب الثروات العظيمة في هذا العمل الخيري، كما هو الحال بالنسبة للشجاع محمود الدماغ (٦١٤هـ) الذي وقف مدرسة للشافعيّة والحنفيّة، عرفت بالدماغيّة[1].

فكان طلبة العلم يؤمّون تلك المدارس لتلقّي العلم بانتظام، وكثرت المدارس وازداد الاهتمام بإنشائها، وعاد إلى مصر فقه أهل السنّة من المذاهب الأربعة إلى أحسن ما كان ونفقت سوقه.

فكان من أقطاب المذهب الحنفي في هذه البلاد:

* **عبدالله بن محمّد بن سعد الله الجريري (٥١٣هـ ـ ٥٨٤هـ) المعروف بابن الشاعر**: الذي برع في مذهب أبي حنيفة، وكان قد قدم

---

(١) شذرات الذهب ١٤٤/٥.

مصر صحبة صلاح الدين الأيّوبي، فأقام بها يفتي ويدرّس بالمدرسة السيوفيّة إلى أن توفّي[(١)].

*** أبو محمد عبدالوهاب بن النحاس (٥٩٩هـ) المعروف بالبدر بن المجن**: الذي برع في المذهب وأفتى ودرّس بالسيوفية، وكان مجيداً في مناظراته، فريداً في محاوراته، ناظر الفحول الواردين من وراء النهر وخراسان[(٢)].

*** أبو الحسن عليّ بن أحمد بن عود العماد بن الغزنوي (٥٥٧هـ ـ ٦٣٣هـ)**: وكان فقيهاً حنفيًّا فاضلاً.

درّس بالسيوفية وغيرها من المدارس[(٣)].

*** عبدالرحمٰن بن محمد بن عبدالعزيز اللخمي (٥٥٥هـ ـ ٦٤٣هـ) وجيه الدين أبو القاسم القوصي**: له تصانيف في علوم عديدة نظماً ونثراً، كان متبحّراً في مذهب أبي حنيفة، درّس وناظر، وعمّر[(٤)].

*** أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله الحلبي الصاحب كمال الدين بن العديم (٥٨٦هـ ـ ٦٦٠هـ)** الملقّب برئيس الأصحاب، برع وساد وصار أوحد عصره فضلاً ونبلاً ورئاسة، وكان عديم النظير رأياً وحزما وذكاء وبلاغة، درّس وأفتى وصنّف في الفقه والحديث والأدب والتاريخ[(٥)].

---

(١) حسن المحاضرة ٢١٣/١.

(٢) حسن المحاضرة ٢١٤/١، شذرات الذهب ٥٧/٥.

(٣) حسن المحاضرة ٢١٤/١.

(٤) الجواهر المضية ٣٩٤/٢، تاج التراجم ١٢٤، طبقات المفسرين للداوودي ٢٠١، حسن المحاضرة ٢١٤/١.

(٥) الفوائد البهية ١٤٧، الجواهر المضية ٦٤٣/٢، تاج التراجم ١٦٦، حسن المحاضرة ٢١٤/١، شذرات الذهب ٤٤٠/٥ ـ ٤٤١، النجوم الزاهرة ٢٠٨/٧، البداية والنهاية ٢٣٦/١٣، فوات الوفيات ١٢٦/٣ ـ ١٢٩، معجم الأدباء ٢٠٦٨/٥ ـ ٢٠٦٩.

ومن أعلام فقهاء المالكيّة بمصر:

*** أبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد الفهري (٤٥٠هـ ـ ٥٢٥هـ):** أصله من طرطوشة بشرق الأندلس نشأ أوّل أمره ببلده ثمّ طاف بلاد الأندلس وصحب الإمام الباجي بسرقسطة، وعنه أخذ مسائل الخلاف، وكان يميل إليها، وتفقّه عليه، ثمّ رحل إلى المشرق فدخل بغداد والبصرة وسكن الشام مدّة ودرّس بها، بعد أن تقدّم في الفقه مذهباً وخلافاً، فبعد صيته هناك، وأخذ عنه الناس علماً كثيراً.

نزل الإسكندريّة، بعد أن باشر العبيديون قتل علمائها، فوجد البلد عاطلاً عن العلم، فأقام بها وبثّ علماً جمّاً، وفتح داره للطلبة فجعلها مدرسة ولازم التدريس، وكان يقول: إن سألني الله تعالى عن المقام بالإسكندريّة، أقول له: وجدت قوما ضلّالا، فكنت سبب هدايتهم، ثمّ امتحن بدوره بالإخراج من الإسكندريّة، ومنع العبيديون الناس من الأخذ عنه، فلزم الفسطاط.

وكان الطرطوشي صاحب نزهة مع طلبته، يخرج معهم في أكثر الأوقات إلى البستان فيقيمون الأيّام المتوالية في فسحة ومذاكرة، وكان عدد الذين يخرجون معه من الطلبة يصل أحياناً إلى ثلاثمائة وستّين طالب علم، لكثرة الآخذين عنه، المحبّين لصحبته وخدمته.

شرح وألّف تآليف حساناً منها: تعليقه في مسائل الخلاف، وفي أصول الفقه، وغير ذلك من الكتب، وعنه أخذ القاضي عياض إجازة جميع رواياته ومصنّفاته.

وفي تاريخ وفاته خلاف، فقيل توفّي سنة ٥٢٠هـ، وقيل توفّي سنة ٥٢٥هـ[1].

---

(١) الديباج المذهب ص ٣٧١ ـ ٣٧٣، حسن المحاضرة ٢٠٨/١، النجوم الزاهرة ٢٣١/٥، هديّة العارفين ٨٥/٢، شذرات الذهب ٢٠٧/٤ ـ ٢٠٩، الصلة، مج ١٣، ج ٣ ص ٨٣٨ ـ ٨٣٩، وفيات الأعيان ٢٦٢/٤ ـ ٢٦٤، نفح الطيب ٨٥/٢ ـ ٩٠.

*** أبو عليّ سند بن عنان بن إبراهيم الأزدي (٥٤١هـ)**: تفقّه بالطرطوشي وجلس في حلقته لإلقاء الدرس بعده، وانتفع به الناس، صنّف الطراز في شرح المدوّنة، توفّي قبل إكماله، واعتمده الحطّاب وأكثر من النقل عنه في شرح مختصر خليل، وله تآليف في الجدل وغير ذلك.

وكان فقيهاً فاضلاً من أهل النظر، ومن زهّاد العلماء وكبار الصالحين(١).

*** صدر الإسلام أبو طاهر إسماعيل بن مكّي بن عوف الزهري (٤٨٥هـ - ٥٨١)**: الإسكندراني، ربيب الشيخ أبي بكر الطرطوشي، وقيل كان الطرطوشي زوج خالته، فتفقّه عليه أبو طاهر، وبه انتفع في علوم شتّى، حتّى برع في المذهب وتخرّج به الأصحاب، وقصده السلطان صلاح الدين الأيّوبي وسمع منه الموطّأ وكان بعد ذلك يعظّمه ويراسله ويستفتيه.

كان إمام عصره وفريد دهره في الفقه على مذهب مالك، وعليه مدار الفتوى مع الورع والزهد والتواضع ونزاهة النفس، وكان من العلماء الأعلام ومشائخ الإسلام.

كان بيته بالإسكندريّة بيت كبير شهير بالعلم، وكان فيه جماعة من الفقهاء، اجتمع منهم سبعة في وقت واحد، وكانوا إذا دخلوا على الفقيه أبي عليّ سند بن عنان يقول: أهلاً بالفقهاء السبعة، تشبيها لهم بالفقهاء السبعة أئمّة المدينة المنوّرة(٢).

وكان حفيده **أبو الحرم مكّي نفيس الدين** ألّف شرحاً عظيما على كتاب التهذيب للبراذعي، وكان يقيّده على دروسه التي كان يلقيها في المدرسة العوفيّة، وكان يحضر عنده فضلاء، ويتحرّر بينهم بحوث، فيكتبها

---

(١) الديباج المذهب ص ٢٠٧، حسن المحاضرة ٢٠٨/١، هديّة العارفين ٤١١/١، شجرة النور الزكيّة ص ١٢٥.

(٢) الديباج المذهب ص ١٥٥ - ١٥٧، حسن المحاضرة ٢٠٨/١، شجرة النور الزكيّة ص ١٤٤، شذرات الذهب ٤٥٥/٤، تذكرة الحفاظ ١٣٣٦/٤.

في الحواشي، حتى كمل الكتاب، وله كذلك شرح على كتاب التفريع لابن الجلّاب، اشتمل على فقه جيّد وتوجيه حسن[١].

* **أبو منصور ظافر بن الحسين الأزدي (٥٩٧هـ)**: شيخ المالكيّة الذي كان منتصبا للإفادة والفتيا، وانتفع به بشر كثير[٢].

* **أبو محمد جلال الدين عبدالله بن محمد - وقيل بن نجم - بن شاس (٦١٠هـ)**: شيخ المالكيّة، وأحد الأئمّة الكبار العاملين، كان فقيهاً فاضلا في المذهب، عارفاً بقواعده.

صنّف كتاباً نفيسا في المذهب سمّاه الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة الذي اختصر فيه المذهب المالكي، وضعه على منوال كتاب الوجيز للغزالي، والكتاب دليل على غزارة علم صاحبه، وقد اعتكف المالكيّة بمصر على دراسته لحسنه وكثرة فوائده.

كان يدرّس بمصر بالمدرسة المجاورة للجامع العتيق، ولمّا حجّ في آخر عمره ورجع إلى مصر، امتنع من الفتيا إلى أن مات بدمياط مجاهدا في سبيل الله سنة ٦١٠هـ، وقيل سنة ٦١٦هـ[٣].

* **أبو الحسن عليّ بن إسماعيل بن عليّ الأبياري (٥٥٧هـ - ٦١٨هـ)**: الملقّب شمس الدين، وشهرته بأبي الحسن الأبياري، أحد العلماء الأعلام وأئمّة الإسلام تفقّه بأبي طاهر بن عوف - صدر الإسلام -، برع في علوم شتّى، الفقه والأصول والكلام، حتّى إنّ بعض الأئمّة مثل شهاب الدين عبدالله المعروف بابن عقيل المصري الشافعي كان يفضّل الأبياري على الإمام الأصولي فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ).

---

(١) انظر: الديباج المذهب ص ١٥٦، حسن المحاضرة ص ٢٠٨.

(٢) حسن المحاضرة ٢٠٩/١، شذرات الذهب ٤٢/٥ - ٤٣.

(٣) الديباج المذهب ص ٢٢٩ - ٢٣٠، حسن المحاضرة ٢٠٩/١، شذرات الذهب ١٥٥/٥، هديّة العارفين ٤٥٩/١، البداية والنهاية ٨٦/١٣، شجرة النور الزكيّة ص ١٦٥، وفيات الأعيان ٦١/٣.

صنّف تصانيف حسنة منها كتاب سفينة النجاة على منوال إحياء علوم الدين للغزالي، وقيل إنّ كتابه أكثر إتقانا من كتاب الإحياء للغزالي، وأحسن منه، وله في الفقه كتبا تدلّ على قوّة باعه فيه.

درّس بالإسكندرية، وانتفع به الناس، وتخرّج به الفقيه ابن الحاجب، وفي تاريخ وفاته خلاف، فقيل سنة ٦١٦هـ وقيل سنة ٦١٨هـ[(١)].

*** أبو عليّ الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق الربعي المالكي (٥٤٩هـ ـ ٦٣٢هـ)** شيخ المالكية في وقته، الذي كان عليه مدار الفتيا في الفقه بالديار المصرية، تتلمذ على صدر الإسلام أبي الطاهر إسماعيل بن مكّي.

كان بيته بيت علم وقضاء وفتيا في الإسكندريّة، حيث كان صاحب الترجمة وأبناؤه الثلاثة والبعض من أحفاده ممّن تولّوا القضاء والفتيا بها.

وكان فقيهاً بمذهب مالك، عالماً بالأصلين ـ أصول الدين وأصول الفقه ـ وبالخلاف، درّس بمصر وأفتى وصنّف، وانتفع به الناس وتخرّجوا[(٢)].

*** جمال الدين ابن الصفراوي أبو القاسم عبدالرحمٰن بن عبدالمجيد الإسكندراني (٥٤٤هـ ـ ٦٣٦هـ)** الذي طال عمره وبعد صيته وانتهت إليه رئاسة الإقراء والإفتاء ببلده[(٣)].

*** جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر المعروف بابن الحاجب (٥٧٠هـ ـ ٦٤٦هـ)** : الذي برع في الفقه والأصول والقراءات وتحقيق علم العربيّة، وأتقنها غاية الإتقان، فكان علّامة زمانه ورئيس

---

(١) الديباج المذهب ص ٣٠٦، حسن المحاضرة ٢٠٩/١، شجرة النور الزكيّة ص ١٦٦.

(٢) الديباج المذهب ص ١٧٤ ـ ١٧٥، حسن المحاضرة ٢٠٩/١، شجرة النور الزكيّة ص ١٦٦.

(٣) حسن المحاضرة ٢٠٩/١ ـ ٢١٠، شذرات الذهب ٢٩٣/٥ ـ ٢٩٤، النجوم الزاهرة ٣١٦/٦ غاية النهاية في طبقات القرّاء ٣٧٣/١، تذكرة الحفاظ ١٤٢٤/٤.

أقرانه، بعد أن استخرج ما كمن من درر الفهم، ومزج نحو الألفاظ بنحو المعاني، وأسّس قواعد تلك المباني.

كان علم اهتداء في مذهب مالك، استوطن مصر ثمّ انتقل إلى الشام فدرّس بدمشق في زاوية المالكيّة، وأكبّ الناس على الاشتغال عليه، والتزم له الدرس هناك، ثمّ عاد إلى مصر فأقام بالقاهرة والناس ملازمون الاشتغال عليه، ثمّ انتقل إلى الإسكندريّة للإقامة بها فلم تطل مدّته هناك.

كان محبّا للشيخ عزّ الدين بن عبدالسلام، وحين حبس ابن عبدالسلام بسبب إنكاره على السلطان، ودخل ابن الحاجب معه السجن موافقة ومراعاة، ولعلّ انتقاله إلى مصر كان بسبب انتقال الشيخ ابن عبدالسلام.

صنّف المختصر الفقهي المسمّى بجامع الأمّهات، وقد بالغ الشيخ تقيّ الدين بن دقيق العيد الشافعي في مدح هذا الكتاب في أوّل شرحه له، وصنّف الكافية مقدّمة وجيزة في النحو، ونظّم لها نظما سمّاه الوافية في نظم الكافية، ومثلها في التصريف سمّاها الشافية، وصنّف مختصرا في أصول الفقه سمّاه منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل، ثمّ اختصره، وكلّ تصانيفه في نهاية الحسن والإفادة(١).

وكان يعاصره رفيقه:

* **رشيد الدين أبو محمد عبدالكريم بن عطاء الله الإسكندراني (٦١٢هـ)** وكان إماماً في الفقه والأصول والعربيّة، تتلمذ على أبي الحسن الأبياري رفقة ابن الحاجب، وتفقّها عليه معا في المذهب.

له تآليف غاية في التحرير والتحقيق، منها: البيان والتقريب في شرح التهذيب، جمع فيه علوما كثيرة وفوائد غزيرة، وأقوالاً غريبة، وله مختصر

(١) الديباج ص ٢٨٩ ـ ٢٩١، غاية النهاية ٥٠٨/١، النجوم الزاهرة ٣٦٠/٦، شذرات الذهب ٣٥٩/٥ ـ ٣٦٠، النجوم الزاهرة ٣٦٠/٦، هديّة العارفين ٦٥٤/١، وفيات الأعيان ٢٤٨/٣ ـ ٢٥٠.

التهذيب، اختصره اختصاراً حسناً، ومختصر المفصل للزمخشري[١].

*** قاضي القضاة شرف الدين أبو حفص عمر بن عبدالله بن صالح السبكي (٥٨٥هـ ـ ٦٦٩هـ)**: الذي تفقّه وأفتى ودرّس بالصالحيّة، وولّي الحسبة بالقاهرة، ثمّ قضاء الديار المصريّة حين وقع تولية قاض من كلّ مذهب[٢].

وعلى نحو انتشار أعلام المذهب المالكي بمصر، كذلك كان الحال بالنسبة لأعلام المذهب الشافعي، بل ربّما أنّ عدد فقهاء الشافعيّة كان يربو كثيراً على فقهاء المذهب المالكي، خاصّة وأنّ صلاح الدين الأيّوبي قد فوّض القضاء بمصر للشافعيّة.

واشتهر من فقهائهم لهذا الدور ممّن عاصروا دولة بني عبيد الفاطميين:

*** أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسي (٤٤٢هـ ـ ٥١٨هـ)**: الذي دخل مصر بعد سنة ٤٧٠هـ وبرع في المذهب فكان من أفقه الفقهاء بمصر، وعليه قرأ أكثرهم[٣].

*** القاضي أبو المعالي مجلى بن جميع بن نجا المخزومي (٥٥٠هـ)**: تفقّه على أبي الفتح سلطان، وبرع فصار من كبار الأئمّة، وأعيان الفقهاء المشار إليهم في وقته، والذي إليه ترجع الفتيا بمصر.

تفقّه عليه جماعة منهم العراقي شارح المهذّب، ولّي قضاء الديار المصريّة سنة ٥٤٧هـ.

صنّف كتاب الذخائر في الفقه، وهو من الكتب المعتبرة والمفيدة في

---

(١) الديباج المذهب ص ٢٦٩، شجرة النور الزكيّة ص ١٦٧، حسن المحاضرة ٢١٠/١.
(٢) حسن المحاضرة ص ٢١٠.
(٣) حسن المحاضرة ١٨٤/١، شذرات الذهب ٢٠١/٤.

المذهب، إلاّ أنّ ترتيبه غير معهود متعب لمن أراد استخراج المسائل منه، وهو كثير الفروع والغرائب[١].

*** أبو محمد عبدالله بن رفاعة بن غدير السعدي (٤٦٧هـ - ٥٦١هـ):** كان فقيهاً ماهراً في الفرائض، تتلمذ على القاضي أبي الحسن الخلعي (٤٩٢هـ) ولازمه، وولّي قضاء الجيزة - من ضواحي القاهرة على ضفّة النيل - ثمّ ترك القضاء واعتزل في القرافة مشتغلاً بالعبادة[٢].

ومن أعلام الشافعيّة الذين عاصروا دولة بني عبيد الفاطميين وطرفاً من الدولة الأيوبيّة:

*** أبو البركات نجم الدين محمد بن سعيد بن عليّ الخبوشاني (٥١٠هـ - ٥٨٧هـ):** وكان فقيهاً فاضلاً كثير الورع، تفقّه على محمد بن يحيى تلميذ الإمام الغزالي، وكان يستحضر كتابه المحيط في شرح الوسيط، وصنّف عليه كتاباً سمّاه تحقيق المحيط في شرح الوسيط.

كان صلاح الدين الأيّوبي يكرمه ويبالغ في احترامه، وله بنى المدرسة الصلاحيّة المجاورة لضريح الإمام الشافعي، فكان الفقيه أبو البركات نجم الدين شيخها وناظرها[٣].

*** أبو العبّاس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقي المعروف بابن زين التجار (٥٩١هـ):** وكان من أعيان الشافعية، تولّى التدريس بالمدرسة الناصرية وطالت مدّته فيها حتّى عرفت المدرسة به[٤].

*** أبو الفتح محمد بن محمود بن محمد بن شهاب الدين الطوسي (٥٢٢هـ - ٥٩٦هـ):** شيخ الفقهاء وصدر العلماء في عصره، تفقّه على

---

(١) حسن المحاضرة ١/١٨٤، كشف الظنون ١/٦٢٠، شذرات الذهب ٤/٣٢٩، هديّة العارفين ٢/٤، البداية والنهاية ١٢/٢٣٣، وفيات الأعيان ٤/١٥٤، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٢٧٧ - ٢٨٤.

(٢) حسن المحاضرة ١/١٨٤، شذرات الذهب ٤/٣٧٧.

(٣) حسن المحاضرة ١/١٨٥، البداية والنهاية ١٢/٣٤٧، شذرات الذهب ٤/٤٨٧.

(٤) حسن المحاضرة ١/١٨٥.

جماعة من أصحاب الشافعي منهم محمد بن يحيى، ثمّ دخل مصر فدرّس وأفتى ونشر العلم وانتفع به الناس، وتخرّج به الأصحاب، وكان معظّما عند العامّة والخاصّة، وكان عليه مدار الفتوى بمصر في مذهب الشافعي.

كان شيخ المدرسة المنسوبة إلى تقيّ الدين شاهنشاه بن أيّوب التي تعرف بمنازل العزّ(١).

* **أبو إسحاق إبراهيم بن منصور بن المسلم العراقي المصري (٥١٠هـ ـ ٥٩٦هـ)**: قيل له العراقي لأنّه سافر إلى بغداد وأقام بها مدّة وتفقّه بها على أبي بكر الأرموي تلميذ أبي إسحاق الشيرازي، وتتلمذ بمصر على القاضي أبي المعالي مجلى صاحب كتاب الذخائر، تولّى خطابة الجامع العتيق بمصر، وشرح كتاب المهذّب لأبي إسحاق الشيرازي شرحاً حسنا، وهو أوّل شرح للمهذّب(٢).

* **أبو القاسم عبدالملك بن عيسى بن درباس الماراني، المعروف بصدر الدين (٥١٦هـ ـ ٦٠٥هـ)**: قاضي القضاة بالديار المصريّة، رحل في طلب العلم إلى حلب ودمشق، ودخل مصر في أوائل الدولة الأيوبيّة فاختاره صلاح الدين للقضاء(٣).

* **ضياء الدين أبو عمرو عثمان بن عيسى بن درباس (٦٢٢هـ)**: أخو القاضي صدر الدين عبدالملك.

كان ضياء الدين أعلم الفقهاء في وقته بالمذهب الشافعي، عالماً بارعاً، ماهراً في أصول الفقه، شرح المهذّب في الفقه، وهو الشارح الثاني للمهذّب بعد العراقي، لكنّه لم يكمله ووصل فيه إلى كتاب الشهادة،

---

(١) حسن المحاضرة ١/١٨٥، شذرات الذهب ٥/٤٠، النجوم الزاهرة ٦/١٥٩، البداية والنهاية ١٣/٢٤، كشف الظنون ٢/٧٢٨، طبقات الشافعية الكبرى ٦/٣٩٦ ـ ٤٠٠.

(٢) حسن المحاضرة ١/١٨٥، الشذرات ٥/٣٥، طبقات السبكي ٧/٣٧ ـ ٣٩، الوفيات ١/ ٣٣ ـ ٣٦.

(٣) حسن المحاضرة ١/١٨٥ ـ ١٨٦، البداية والنهاية ١٣/٥٢، النجوم الزاهرة ٦/١٩٦.

وسمّاه الاستقصاء لمذاهب العلماء الفقهاء، وشرح أيضاً اللمّع في أصول الفقه لأبي إسحاق الشيرازي.

ناب عن أخيه صدر الدين في قضاء القاهرة، وتوفّي بمصر وقد قارب التسعين[(١)].

* **أبو الحسن صدر الدين محمد بن عماد الدين عمر بن عليّ الجويني (٥٤٤هـ ـ ٦١٧هـ)** : شيخ الشيوخ وابن شيخ الشيوخ، من بيت رئاسة وإمرة عند بني أيّوب، برع في المذهب وأفتى ودرّس بمصر المذهب الشافعي، وكان كبير القدر وله حرمة وافرة عند الملوك[(٢)].

* **قاضي القضاة عماد الدين عبدالرحمٰن بن عبدالعلي المعروف بابن السكرى (٥٥٣هـ ـ ٦٢٤هـ)**: تفقّه على الشهاب الطوسي، وبرع في المذهب وأفتى ودرّس وولّي قضاء القاهرة وخطابتها، وله حواشي مفيدة على كتاب الوسيط[(٣)].

ومن أعلام الشافعيّة الذين أمضوا حياتهم العلميّة في ظلّ الدولة الأيوبيّة:

* **شمس الدين عثمان بن سعيد بن كثير الصنهاجي (٥٦٥هـ ـ ٦٣٩هـ)**: الذي قدم في صباه مصر واستوطنها وتفقّه بها على الشهاب الطوسي، وبرع في المذهب ودرّس بالجامع الأقمر، وتولّى قضاء الأعمال القوصيّة[(٤)].

* **أبو المكارم شرف الدين محمد بن عبدالله الإسكندري المعروف بابن عين الدولة (٥٥١هـ ـ ٦٣٩هـ)**:

قدم القاهرة سنة ٥٧٣هـ بعد أن ولّى شبح الدولة الفاطميّة، فتفقّه

---

(١) حسن المحاضرة ١/١٨٦، البداية والنهاية ١٣/١١٠، شذرات الذهب ٥/٧٤، كشف الظنون ٢/٧٢٨، النجوم الزاهرة ٦/٢٥١، وفيات الأعيان ٣/٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٢) حسن المحاضرة ١/١٨٦، شذرات الذهب ٥/١٦٥، البداية والنهاية ١٣/٩٣.

(٣) حسن المحاضرة ١/١٨٧، شذرات الذهب ٥/٢١٠، كشف الظنون ٢/٧٩٨.

(٤) حسن المحاضرة ١/١٨٧.

بالعراقي شارح المهذّب، وحفظ المهذّب للشيرازي، وكان من بيت رئاسة وقضاء، تولّى الإسكندريّة من أعمامه وأخواله ثمانية أنفس، أمّا هو فقد ناب في القضاء سنة ٥٨٤هـ عن نصر الدين بن درباس، ثمّ ناب بعد ذلك عن غير واحد، ثمّ ولِّي قضاء القاهرة والوجه البحري سنة ٦١٣هـ، وجمع له العملان سنة ٦١٧هـ، ثمّ عزل عن قضاء مصر خاصّة قبل وفاته بشهر.

كان ذكيّاً كريماً متديّناً ورعاً قانعاً باليسير، وكان عارفاً بالأحكام، مطّلعاً على غوامضها، وعنه نقل المصريون كثيراً من النوادر، وفي تاريخ وفاته خلاف، فقيل توفّي سنة ٦٣٦، وقيل سنة ٦٣٩هـ[١].

* **شرف الدين عبدالله بن محمد بن علي الفهري المعروف بابن التلمساني (٦٤٤هـ)**: الذي ولد في السنة التي ذهبت فيها ريح الدولة الفاطميّة، وذلك سنة ٥٦٧هـ

كان إماماً عالماً بالفقه والأصلين، تصدّر للإقراء بمدينة مصر، وانتفع به الناس، وصنّف الكتب المفيدة منها شرح التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، وشرح المعالم في أصول الفقه لفخر الدين الرازي، وصنّف المجموع في الفقه، وناب في القضاء بالقاهرة[٢].

* **أبو الحسن بهاء الدين بن عليّ بن هبة الله بن سلامة اللخمي (٥٥٩هـ ـ ٦٤٩هـ)**: كان فقيهاً مقرئا ومحدّثا، قرأ على الإمام الشاطبي، وتفقّه بالعراقي والشهاب الطوسي وغيرهما، وسمع من الحافظ ابن عساكر والسلفي.

أتقن معرفة المذهب الشافعي حتّى تفرّد في زمانه على أقرانه، وتميّز

---

(١) حسن المحاضرة ١/١٨٧ ـ ١٨٨، شذرات الذهب ٥/٢٩٥ ـ ٢٩٦، و٥/٣٢٣، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٦٣ ـ ٦٦.

(٢) حسن المحاضرة ١/١٨٨، كشف الظنون ١/٣٩٧، و٢/٥٩٠.

عليهم بفقهه وعلمه، فرحل إليه الطلبة وانتهت إليه مشيخة العلم بالديار المصريّة(١).

ومن أعلام الشافعيّة الذين أدركوا طرفاً من دولة المماليك البحريّة:

*** صدر الدين موهوب بن عمر بن موهوب الجزري (٥٩٠هـ - ٦٦٥هـ)**: أخذ العلم عن الشيخ عزّ الدين ابن عبدالسلام الدمشقي الذي كان قد ولِّي قضاء مصر، ودرّس المذهب الشافعي بالمدرسة الصالحيّة.

تفقّه صدر الدين وبرع في الفروع والأصول، ودرّس وأفتى، وتخرّجت به الطلبة وجمعت عنه الفتاوى المشهورة، ولِّي نيابة القضاء بمصر عن الشيخ عزّ الدين بن عبدالسلام، فلمّا استقال الشيخ عزّ الدين، استقلّ بها الشيخ صدر الدين، وكان من فضلاء أهل زمانه(٢).

*** ابن بنت الأعزّ تاج الدين أبو محمد عبدالوهاب بن خلف (٦٠٤هـ ـ ٦٦٥هـ)**: قاضي قضاة الديار المصريّة كان عالماً فاضلاً، متبحّراً في العلوم، ذا ذهن ثاقب وحدس صائب وعقل ونزاهة وتثبّت في الأحكام، وتولية الأكفاء، وكانت له الحرمة الوافرة عند الملك الظاهر بيبرس ـ من المماليك الأتراك ـ.

ولي القضاء بتعيين الشيخ عزّ الدين بن عبدالسلام، ودرّس بالمدرسة الصالحيّة، وتولّى خطّة مشيخة الشيوخ والخطابة بمصر، وغيرها من الخطط، حتّى كان بيده خمسة عشر وظيفة، فاجتمع له ما لم يجتمع لأحد قبله من الوظائف الدينيّة.

وخلف من بعده ولدان صدر الدين عمر، وتقيّ الدين عبدالرحمٰن، وكانا من أهل العلم بالمذهب(٣).

---

(١) حسن المحاضرة ١/١٨٨، البداية والنهاية ١٣/١٨١.

(٢) حسن المحاضرة ١/١٨٩، شذرات الذهب ٥/٤٦٠ ـ ٤٦١، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٣٨٧.

(٣) شذرات الذهب ٥/٤٥٩ ـ ٤٦٠، حسن المحاضرة ١/١٨٩، النجوم الزاهرة ٧/٢٢٢ ـ ٢٢٣ البداية والنهاية ١٣/٢٤٩ ـ ٢٥٠، طبقات الشافعيّة الكبرى ٨/٣١٨ ـ ٣٢٣.

أمّا أعلام الحنابلة فهم بالديار المصريّة قليل جدّا، ولم يسمع بخبرهم فيها إلاّ في القرن السابع الهجري وما بعده، وأوّل إمام من الحنابلة حلّ بمصر - حسبما أفاده الإمام السيوطي -[١]، هو:

* **تقيّ الدين أبو محمد الحافظ عبدالغنيّ بن عبدالواحد المقدسي الجماعيلي (٥٤١هـ - ٦٠٠هـ)**: الذي هاجر إلى دمشق صغيرا، بعد سنة ٥٥٠هـ، ثمّ رحل في طلب العلم إلى بغداد والإسكندريّة وأصبهان، وأكثر من الإقامة بها بعد سنة ٥٧٠هـ، وكان - كما قيل - لو أراد أن يملكها لملكها من حبّ أهلها له.

كان أحد الأئمّة الأعلام المبرّزين، ومحدّث الإسلام في عصره، امتحن في مسألة خلق القرآن، وأفتى أصحاب الرأي والتأويل بإراقة دمه، فخرج إلى مصر وأقام بها، ولقي من أهلها حفاوة وتقديراً.

وكان محسودا لعلمه وجرأته، وأينما حلّ وجد من يعاديه ويحسده ويشاكسه، فكان في أصفهان في دروسه ومواعظه ينتقد أبا نعيم الأصفهاني، فأطرده الشافعيّة، وفي الموصل انتقد أبا حنيفة وشكّك في كفاءته في علم الحديث، فأطروه، فاستقرّ به المقام في مصر إلى أن مات.

من مصنّفاته كتاب عمدة الأحكام الكبرى، وقد اختصره في عمدة الأحكام الصغرى، وهو كتاب عزّ نظيره، اعتنى بشرحه العلماء من بعده[٢].

ولم يأخذ المذهب الحنبلي في الانتشار إلاّ بعد أن أنشأ الصالح أيّوب بن كامل المدرسة الصالحيّة سنة ٦٣٩هـ، التي وقفها على تدريس المذاهب الأربعة السنيّة، ثمّ أنشئت سنة ٦٤١هـ المدرسة الناصريّة، وهي ثاني مدرسة تخصّص لتدريس المذاهب الأربعة - كما مرّ بيانه -، وأوّل من

---

(١) حسن المحاضرة ٢٢٢/١.

(٢) حسن المحاضرة ٢٢٢/١، شذرات الذهب ٦٢/٥ - ٦٣، كشف الظنون ١٦٩/٢، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد لابن بدران ص ٤٦٨ - ٤٦٩، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٦٦ .

درّس بها من الحنابلة هو: **قاضي القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن العماد المقدسي الصالحي**.

وفي سنة ٦٦٣هـ جعلت القضاة بمصر أربعة[١] لكلّ مذهب من المذاهب الأربعة قاض، وبهذا عرف المذهب الحنبلي في أواخر هذا الدور بمصر بداية نشاط سيكون له ثمرته في الدور القادم.

ـ ٢ ـ الشام:

في الحقيقة أنّ نظام المدارس الذي أحدثه صلاح الدين الأيّوبي بمصر، إنّما كان اقتداء منه بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الذي بنى بدمشق وحلب وأعمالهما عدّة مدارس للشافعيّة والحنفيّة، فتأسّست في دمشق المدرسة الصادريّة سنة ٤٩١هـ، وعدّ ابن شدّاد من فقهائها حتّى سنة ٦٥٨هـ أحد عشر فقيهاً حنفيّا، وتأسّست بحلب المدرسة الزجاجيّة سنة ٥١٦هـ[٢].

وبعد وفاة السلطان نور الدين، أصبح صلاح الدين صاحب النفوذ بالشام فأنشأ بدمشق المدرسة الصلاحيّة، وعلى إثر تحريره لبيت المقدس سنة ٥٨٣هـ بنى مدرسة القدس.

وبنى مجاهد الدين ـ أمير الموصل ـ (٥٩٥هـ) عدّة مدارس بالموصل، وكان حنفيّ المذهب[٣].

وفي سنة ٦٦٢هـ كملت المدرسة الظاهريّة ـ نسبة إلى الظاهر بيبرس من المماليك الأتراك ـ ورتّب لتدريس الشافعيّة بها القاضي تقيّ الدين محمد بن الحسين بن رزين، ولتدريس الحنفيّة مجد الدين عبدالرحمٰن بن كمال الدين عمر بن العديم[٤].

---

(١) انظر: شذرات الذهب ٥/٤٦٠.
(٢) تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الشام، ص ١٠٤.
(٣) البداية والنهاية ١٢/٢٩٦.
(٤) المصدر السابق ١٣/٢٤٢.

وغير ذلك من المدارس التي تنافس السلاطين والأمراء في بنائها وتشييدها، فكان لها الأثر البالغ في إذكاء الحركة العلميّة في هذا الدور، وقد اشتهر من أعلام الحنفيّة بهذه الديار:

* **أبو بكر علاء الدين بن مسعود بن أحمد الكاساني ـ وقيل الكاشاني ـ (٥٨٧هـ) المعروف بملك العلماء**: من أهل حلب، تفقّه على علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي صاحب تحفة الفقهاء الذي زاد فيه على مختصر القدوري ورتّبه أحسن ترتيب، فقام أبو بكر الكاساني بشرح كتاب التحفة شرحاً عظيما وسمّاه بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ولمّا أتمّه عرضه على شيخه فاستحسنه وزوّجه ابنته فاطمة الفقيهة، حتى قال أهل عصره: «شرح تحفته وتزوّج ابنته» وكان الملك نور الدين زنكي قد فوّض إليه التدريس بالمدرسة الحلاوية بحلب[1].

وكان شيخ الحنفيّة الذي انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة طيلة الثلث الأوّل من القرن السابع الهجري:

* **جمال الدين الحصيري، أبو المحامد محمود بن أحمد بن عبدالسيّد البخاري (٥٤٦هـ ـ ٦٣٦هـ)**: الذي برع وناظر وحدّث ودرّس بالمدرسة النوريّة بدمشق، وكان أوّل درسه بها في سنة ٦١١هـ، واستمرّ على التدريس بها خمسا وعشرين سنة، إلى أن توفّي وله تسعون سنة.

صنّف الكتب المفيدة، منها: شرحان على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، **أحدهما المختصر** الذي زاد فيه زهاء ١٦٣٠ من المسائل، وكثيراً من القواعد الحسابيّة، وقد بالغ في الإيضاح بالنظائر والشواهد وإيراد الفروق وتصحيح الحسابيات بأوجز العبارات تسهيلا للحفظ، **وثانيهما المطوّل** الذي سمّاه «التحرير في شرح الجامع الكبير»،

---

(١) الفوائد البهيّة ٥٣، الجواهر المضية ٤/٢٥، تاج التراجم ٢٩٤، كشف الظنون ١/٣١٦ ـ ٣١٧.

وبلغ به في الجمع والتحقيق الغاية، وكان قد ألّفه حين قرأ عليه الملك عيسى بن أبي بكر الأيّوبي (٦٢٤هـ) حاكم بلاد الشام، الذي اختار لنفسه المذهب الحنفي وخالف ما جرى عليه ملوك الأيوبيين من اعتناق المذهب الشافعي، وكان من اعتناء هذا الملك بمذهب أبي حنيفة وحرصه على تفقيه الناس فيه أنه كان يعطي مائة دينار لمن يحفظ الجامع الكبير، وخمسين دينار لمن يحفظ الجامع الصغير(١)، ومن بقيّة أصحاب الشيخ جمال الدين الحصيري، نذكر:

* **قاضي القضاة صدر الدين سليمان بن أبي العزّ بن وهيب (٥٩٤هـ ـ ٦٧٧هـ)** الأذرعي ـ نسبة إلى أذرعات ناحية بالشام ـ شيخ الحنفيّة في زمانه، وعالمهم شرقا وغربا، وأحد من انتهت إليه رئاسة المذهب في زمانه، أقام بدمشق مدّة يفتي ويدرّس، ثمّ انتقل إلى الديار المصريّة يدرّس بالصالحيّة مدّة، ثمّ عاد إلى دمشق فدرّس بالظاهريّة، وولّي القضاء بعد مجد الدين بن العديم ثلاثة أشهر، ثمّ كانت وفاته وله ثلاث وثمانون سنة(٢).

واشتهرت أسر في الشام بتوارث المذهب الحنفي مثل أسرة بني العديم التي قدم بعض أفرادها من البصرة في تجارة إلى الشام واستوطنوا حلب(٣)، ومنهم:

* **أبو القاسم كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم (٥٨٦هـ ـ ٦٦٠هـ)**: الذي سمع الحديث ثمّ حدّث وتفقّه وأفتى ودرّس وصنّف، وكان إماماً في فنون كثيرة، أقام بدمشق في الدولة الناصريّة،

---

(١) الفوائد البهية ٢٠٥، الجواهر المضية ٤٣١/٣، تاج التراجم ٢٤٥ شذرات الذهب ٢٩٦/٥ ـ ٢٩٧، النجوم الزاهرة ٣١٣/٦، البداية والنهاية ١٥٢/١٣، الفوائد البهيّة ص ٢٠٥، وأرّخ وفاته بسنة ٦٣٧هـ، كشف الظنون ٤٤٨/١ ـ ٤٤٩.

(٢) البداية والنهاية ٢٨١/١٣، شذرات الذهب ١١/٦ ـ ١٢، النجوم الزاهرة ٢٨٥/٧.

(٣) شجرة هذه العائلة في: معجم الأدباء ٢٠٦٨/٥ ـ ٢٠٩١.

وتوفي بمصر - وقد قدمنا ترجمته في أعلامها -[١].

وابنه: * **محمد بن عمر بن أحمد بن هبة الله (٦٦٥هـ) جمال الدين أبو غانم الحلبي العقيلي**، كان عالماً بحرا بارعا من العاملين بعلمهم[٢].

* **وقاضي القضاة مجد الدين عبدالرحمٰن بن كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم (٦٧٧هـ)**: الذي كان عارفاً بالمذهب، ولّي قضاء الحنفيّة بدمشق بعد ابن عطاء، وكان رئيسا ابن رئيس الحنفيّة، له إحسان وكرم أخلاق، وقد ولّي الخطابة بجامع القاهرة الكبير، وهو أوّل حنفي وليه[٣].

وكان المذهب الشافعي هو المذهب المنافس للأحناف بهذه الديار، وقد نما وازدهر خاصّة بعد مجيء صلاح الدين إلى الشام ونشر نفوذه فيها، حيث أقرّ المذهب الشافعي مذهباً رسميّا للدولة، دون أن يتعسّف على المذاهب السنيّة الأخرى، وإنّما فسح المجال أمام جميعها، وأنشأ المدارس لتعليمها ونشرها جنبا إلى جنب مع المذهب الشافعي.

غير أنّ الانتشار الأكبر والازدهار الأعظم كان بلا شكّ للمذهب الشافعي، حيث عدّ ابن شدّاد حتّى أيّامه أربعين مدرسة من مدارس الشافعيّة بدمشق وحدها، ولو تتبعنا سائر مدن الشام الأخرى لتبيّن لنا مدى الإشعاع الذي كان يحظى به المذهب الشافعي خلال هذا الدور بالشام.

ومن هؤلاء الأعلام الشافعيين الذين ازدحمت بهم الشام في القرن السادس الهجري، نذكر:

* **أبو الحسن جمال الدين عليّ بن المسلم (٥٣٣هـ)**: الفقيه الفرضي، المدرّس بالمدرسة الغزاليّة، وأوّل من درّس بالمدرسة الأمينيّة -

---

(١) الفوائد البهية ١٤٧، الجواهر المضية ٦٣٤/٢، تاج التراجم ١٦٦، البداية والنهاية ٢٣٦/١٣، حسن المحاضرة ٢١٤/١، شذرات الذهب ٤٤٠/٥ - ٤٤١ النجوم الزاهرة ٢٠٨/٧.

(٢) الجواهر المضية ٢٧٩/٣، تاج التراجم ٢٢٨.

(٣) البداية والنهاية ١٣ ٢٨٢، شذرات الذهب ١٢/٦، النجوم الزاهرة ٢٨٥/٧.

المنسوبة لأمين الدولة ـ التي تأسّست سنة ٥١٤هـ.

كان عالماً بالمذهب والفرائض، ملازماً للتدريس والإفادة، موفّقاً في الفتاوى، وكان مفتي الشام في عصره، لزم الإمام الغزالي مدّة مقامه بدمشق، ودرس في حلقته بالجامع، وكان الغزالي يثني على علمه وفهمه، وصنّف في الفقه والتفسير(١).

* **أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبدالقويّ المصيصي اللاذقي (٥٤٢هـ)**: تفقّه بصور، ثمّ طاف البلاد في طلب العلم، فرحل إلى بغداد والأنبار وأصبهان، درّس بالغزاليّة وأفتى واشتغل بالعلم حتّى صار شيخ دمشق وأحد مشائخ الشام في وقته.

كان فقيهاً في الأصول والفروع، توفّي وله أربع وتسعون سنة(٢).

* **قاضي القضاة أبو الفضل كمال الدين محمد بن عبدالله بن القاسم الموصلي(٤٩١ هـ ـ ٥٧٢هـ)**: تفقّه بالموصل من جدّه لأمّه، ثمّ رحل إلى بغداد فتفقّه بعلمائها.

ولي قضاء بلده الموصل وبنى بها مدرسة، ثمّ وفد على نور الدين فبالغ في تبجيله، وولاّه قضاء دمشق سنة ٥٥٥هـ، ثمّ صار قاضيه ووزيره ومشيره، ولمّا أخذ صلاح الدين الأيّوبي دمشق ـ بعد أن تمنّعت عليه القلعة أيّاما ـ مشى إلى دار القاضي كمال الدين، وقال له: الأمر أمرك والبلد بلدك.

حكم البلاد الشاميّة واستناب ولده محيي الدين بحلب، وابن أخيه

(١) شذرات الذهب ٢٥٨/٤، طبقات المفسرين ص ٣٠٠ ـ ٣٠١، هديّة العارفين ٦٩٦/١ ـ ٦٩٧ طبقات الشافعيّة الكبرى ٢٣٥/٧ ـ ٢٣٧.

(٢) شذرات الذهب ٢٩٦/٤ ـ ٢٩٧، البداية والنهاية ٢٢٣/١٢، طبقات الشافعيّة الكبرى ٣٢٠/٧ ـ ٣٢١، تذكرة الحفاظ ١٢٩٤/٤.

أبي القاسم في قضاء حماة، وابن أخيه الآخر في قضاء حمص[(١)].

*** قاضي القضاة شرف الدين أبو سعد، عبدالله بن محمد بن هبة الله (٤٩٢هـ ـ ٥٨٥هـ) المعروف بابن أبي عصرون:** فقيه الشام، أصله من الموصل، تفقّه بالشام، ثمّ رحل في طلب العلم إلى بلدان كثيرة فذهب إلى بغداد وقرأ بها القراءات وتلقّى العلوم، ودخل واسط فتفقّه بها، ثمّ عاد إلى الموصل بعلوم كثيرة، فدرّس بها وأفتى، وأقبل عليه السلطان نور الدين فدخل معه دمشق حين افتتحها، وبنى له المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك فدرّس بها، وبنى هو لنفسه مدرسة بحلب وأخرى بدمشق.

قدم دمشق في أيّام صلاح الدين فولاّه خطّة قاضي القضاة في سنة ٥٧٣هـ، وبقي على خطّته تلك ١٢ سنة.

كان شيخ الحنابلة موفّق الدين بن قدامة يشهد له بالعلم والإمامة، ويقول: كان ابن أبي عصرون إمام أصحاب الشافعي، وشهد له ابن الصلاح بالتقدّم في الفقه والفتوى، فقال في طبقاته: كان ابن أبي عصرون من أفقه أهل عصره، وإليه المنتهى في الفتاوى والأحكام.

صنّف كتباً كثيرة، منها: الانتصار لمذهب الشافعي، وصفوة المذهب في نهاية المطلب، وهو اختصار لكتاب نهاية المطلب في دراية المذهب لإمام الحرمين الجويني، والذريعة في معرفة الشريعة، والمختصر في الفرائض، وغيرها[(٢)].

وكانت أسرة جهبل من الأسر التي توارثت الفقه في المذهب الشافعي ببلاد الشام فكان منهم:

---

(١) شذرات الذهب ٤/٤٢٦ ـ ٤٢٧، النجوم الزاهرة ٦/٧٩ ـ ٨٠، البداية والنهاية ١٢/٢٩٦ ـ ٢٩٧ وانظر في ترجمة ابنه محمد: شذرات الذهب ٤/٤٧٧، و٥/٥٧، البداية والنهاية ١٢/٣٤١، طبقات الشافعية الكبرى ٦/١١٧ ـ ١٢١.

(٢) شذرات الذهب ٤/٤٧٢ ـ ٤٧٣، البداية والنهاية ١٢/٣٣٣ ـ ٣٣٤، كشف الظنون ١/١٨٨.

* **مجد الدين طاهر بن نصر الله بن جهبل الحلبي (٥٣٢هـ - ٥٩٦هـ)**: مدرّس مدرسة صلاح الدين بالقدس وهو الذي صنّف للسلطان نور الدين كتاباً في فضل الجهاد، وهو والد بني جهبل الفقهاء الدمشقيون[١].

وكان من ذرّيته: حفيده محيي الدين بن إسماعيل بن طاهر بن جهبل قاضي طرابلس الشام[٢] ثمّ كان من بعده مفتي المسلمين، وأحد أعيان الفقهاء، شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن محيي الدين يحيى بن تاج الدين بن إسماعيل بن طاهر بن جهبل، الذي درّس بالصلاحيّة بالقدس، ثمّ تحوّل إلى دمشق فباشر بها مشيخة دار الحديث الظاهريّة مدّة[٣].

ثمّ ولّي مشيخة البادرائيّة وأقام بالتدريس بها إلى أن مات[٤].

وتوارثت عائلة ابن الزكي القضاء بدمشق لسنين عديدة، وكان منهم:

* **ابن زكي: محيي الدين أبو المعالي محمد بن عليّ بن محمد بن يحيى القرشي(٥٥٠ هـ - ٥٩٨هـ)**: قاضي قضاة دمشق، وكذلك أبوه زكيّ الدين أبو الحسن عليّ، وجدّه مجد الدين أبو المعالي منتجب الدين محمد بن يحيى، وجدّ أبيه زكيّ الدين يحيى بن عليّ، الذي كان أوّل من ولّي القضاء بدمشق.

اشتغل القاضي محيي الدين على القاضي شرف الدين ابن أبي عصرون، وناب عنه في القضاء، ثمّ تولّى قضاء دمشق، وولّي ولداه زكيّ الدين أبو العبّاس الطاهر، ومحيي الدين أبو الفضل يحيى فكانوا قضاتها من بعده.

---

(١) شذرات الذهب ٣٦/٥.
(٢) البداية والنهاية ١٧٤/١٤.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١٣٢/٧، تذكرة الحفاظ ١٣٥٧/٤ - ١٣٥٨.
(٤) انظر: البداية والنهاية ٦٧/١٤، و١٢٢، و١٢٤، و١٤٣، و١٦٣.

كان فقيهاً إماما، طويل الباع في البلاغة والخطابة، فصيحا مفوّها، وكانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة العالية، وحين فتح صلاح الدين حلب سنة ٥٧٩هـ، أنشده القاضي محيي الدين قصيدة بائيّة، وحين فتح القدس سنة ٥٨٣هـ، كان القاضي محيي الدين أوّل من خطب بها، وكانت خطبته من أبلغ الخطب وأشهرها[١].

ونلقى من أعلام الشافعيّة بالشام في هذا الدور كذلك:

* **أبو حامد عماد الدين محمد بن يونس الإربلي الموصلي (٥٣٥هـ ـ ٦٠٨هـ)**: الذي درّس في عدّة مدارس بالموصل منها النوريّة والعزيّة والزينبيّة والبقشيّة والعلائيّة، فاشتهر بين أهل العلم، وكان يتمتّع بصيت عظيم وشهرة كبيرة في زمانه، فقصده الطلبة من أنحاء البلاد.

كان رئيس الشافعيّة بالموصل وإمام وقته في المذهب والأصول وعلم الخلاف، صنّف كتاب المحيط، جمع فيه بين المهذّب للشيرازي والوسيط للغزالي، غير أنّه لم يرزق السعادة في تصانيفه[٢].

* **جمال الدين أبو القاسم عبدالصمد بن محمد (٥٢٠هـ ـ ٦١٤هـ)** المعروف بابن الحرستاني: قاضي القضاة، بدأ يطلب العلم وهو ابن خمس سنوات، ورحل إلى حلب وتفقّه بها، ثمّ درّس بالعزيزية، وأفتى وبرع في المذهب، وكان إماماً عارفاً به، وانتهى إليه علوّ الإسناد.

ناب في القضاء عن ابن أبي عصرون، ثمّ طلب للقضاء بالشام في آخر عمره، بعد عزل ابن الزكي، وذلك سنة ٦١٢هـ، فامتنع حتّى ألحّوا عليه فيها، وألزم ولايتها، فكان محمود الأحكام، حسن السيرة، عادلاً، من أعدل القضاة وأقومهم بالحقّ.

---

(١) شذرات الذهب ٥٢/٥، و٤٦٩، البداية والنهاية ٣٢/١٣ ـ ٣٣، النجوم الزاهرة ١٨١/٦ ـ ١٨٢، وفيات الأعيان ٢٢٩/٤ ـ ٢٣٧.

(٢) شذرات الذهب ١١٠/٥، البداية والنهاية ٦٢/١٣، وفيات الأعيان ٢٥٣/٤ ـ ٢٥٥.

وكان ورعا صالحا متعبّدا، ولم تفته صلاة الجماعة بجامع دمشق طول حياته، إلاّ في مرض[(١)].

*** فخر الدين أبو منصور عبدالرحمٰن بن محمد بن الحسن بن هبة الله (٥٥٠هـ ـ ٦٢٠هـ)**: الإمام المفتي، شيخ الشافعيّة بدمشق، اشتغل من صغره بالعلم على شيخه قطب الدين مسعود بن عروة النيسابوري، فتزوّج ابنته ودرّس مكانه، ثمّ تولّى التدريس بالصلاحيّة بالقدس الشريف ـ فكّ الله أسره وحرّر أقصاه ـ ثمّ درّس بالتقوية بدمشق، وكان يقيم بالقدس أشهرا، وبدمشق أشهرا.

كان لا يملّ أحد من رؤيته لحسن سمته واقتصاده في لباسه، ولطفه ونور وجهه، وكثرة ذكره لله تعالى وانقطاعه للعلم والعبادة، وكان الناس يفدون عليه من الأقطار، وعليه تفقّه جماعة من أعلام هذا العصر، أريد على القضاء فامتنع وأشار بتولية ابن الحرستاني، صنّف في الفقه والحديث مصنّفات كثيرة[(٢)].

*** أبو نصر شمس الدين محمد بن هبة الله بن محمد الشيرازي الدمشقي (٥٤٩هـ ـ ٦٣٥هـ)**: الذي درّس وأفتى، وناظر، وصار من كبار أهل دمشق في العلم والرواية والرئاسة.

ولي قضاء بيت المقدس، ثمّ ولّي تدريس الشافعيّة البرانيّة، ثمّ ولّي قضاء دمشق في سنة ٦٣١هـ، وكان فقيهاً فاضلا يصرف أكثر أوقاته في نشر العلم[(٣)].

(١) شذرات الذهب ١٤٢/٥ ـ ١٤٣، النجوم الزاهرة ٢٢٠/٦، البداية والنهاية ٧٧/١٣ ـ ٧٨.

(٢) شذرات الذهب ١٨٤/٥، البداية والنهاية ١٠١/١٣، النجوم الزاهرة ٢٥٦/٦، وفيات الأعيان ١٣٥/٣، طبقات الشافعية الكبرى ١٧٧/٨ ـ ١٧٨.

(٣) شذرات الذهب ٢٨٦/٥، البداية والنهاية ١٥١/١٣، طبقات الشافعية الكبرى ١٠٦/٨ ـ ١٠٧.

وفي أواخر هذا الدور ظهر من أعلام الشافعيّة بالشام ثلاثة رجال طال باعهم في تحرير المذهب الشافعي، وأدخلوا عليه روحا جديدة، حيث جنحوا إلى الاجتهاد وترك التقليد، وهم:

* **تقيّ الدين أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمٰن بن موسى الشهرزوري (٥٧٧هـ ـ ٦٤٣هـ)**: المشهور بابن الصلاح، شيخ الإسلام، ومفتي الشام ومحدّثها، قرأ الفقه أوّل الأمر على والده المفتي صلاح الدين الكردي، ثمّ انتقل إلى دمشق وحلب وحران والموصل واشتغل بها مدّة، ثمّ ارتحل إلى أقاصي البلاد، فدخل بغداد وهمذان ومرو ونيسابور وخراسان وأقام بها زمنا، وهناك حصّل علم الحديث.

تفقّه وبرع في المذهب وأصوله، وفي الحديث وعلومه، فكان من العلم والدين على قدر عظيم، وكان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه، وما يتعلّق بعلم الحديث واللغة، وإذا أطلق الشيخ عند علماء الحديث فالمراد به هو.

تولّى التدريس بالمدرسة الصلاحيّة بالقدس، وأقام بها مدّة، فاشتغل الناس عليه وانتفعوا به، ثمّ انتقل إلى دمشق وتولّى تدريس المدرسة الرواحيّة ـ التي أنشأها الزكي بن رواحة الحموي ـ ولمّا بنيت دار الحديث بدمشق فوّض تدريسها إليه، كما تولّى تدريس مدرسة ستّ الشام ـ أو الشاميّة الصغرى ـ.

كانت فتاواه مسدّدة، بالغ في الطلب حتّى صار يضرب به المثل، وبه تخرّج الأصحاب، ولم يزل أمره جارياً على السداد والصلاح والاجتهاد إلى أن توفّي.

صنّف التصانيف الكثيرة، منها: كتاب الفتاوى، وكتاب علوم الحديث المشهور بمقدّمة ابن الصلاح، وشرح مسلم وكتاب أدب المفتي والمستفتي، وله نكت على المهذّب، وإشكالات الوسيط وهي تعاليق حسنة على

الوسيط، وغيرها[١].

*** شهاب الدين أبو القاسم عبدالرحمٰن بن إسماعيل الدمشقي (٥٩٩هـ - ٦٦٥هـ)**: المعروف بأبي شامة - لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر - العلاّمة المجتهد، ختم القرآن وله دون عشر سنين، وأتقن فنّ القراءة وله ستّ عشرة سنة.

سمع الكثير حتّى عدّ من الحفاظ، وتفقّه على أعلام عصره: الفخر بن عساكر، والعزّ ابن عبدالسلام، وسيف الدين الآمدي، وموفّق الدين ابن قدامة، وكتب الكثير من العلوم، وأتقن الفقه، ودرّس وأفتى، وبرع في علوم العربيّة، فكان شيخ الإقراء، وحافظ العلماء.

ورغم تواضعه وبعده عن التكلّف فقد جرت له محنة سنة ٦٦٥هـ حيث دخل عليه داره رجلان في صورة مستفتيين، ثمّ ضرباه ضربا مبرّحا إلى أن عيل صبره ولم يغثه أحد، في تاسع رمضان من ذلك العام، ثمّ عادوا إليه ثانية فقتلوه ليلة تاسع عشر من رمضان.

ويذكر أهل العلم أنّه قد بلغ رتبة الاجتهاد، صنّف المصنّفات العديدة المفيدة، منها: المحقّق من علم الأصول فيما يتعلّق بأفعال الرسول[٢].

*** عزّ الدين أبو محمد عبدالعزيز بن عبدالسلام (٥٧٧هـ - ٦٦٠هـ)**: شيخ الإسلام، العلاّمة، وحيد عصره، سلطان العلماء، تفقّه على فخر الدين بن عساكر، وقرأ الأصول على سيف الدين الآمدي.

جمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه واختلاف أقوال

---

(١) شذرات الذهب ٣٤٣/٥ - ٣٤٤، البداية والنهاية ١٦٨/١٣ - ١٦٩، النجوم الزاهرة ٣٥٤/٦ طبقات المفسّرين ص ٢٦٢ - ٢٦٤، كشف الظنون ٧٩٨/٢، وفيات الأعيان ٢٤٣/٣ - ٢٤٥، طبقات الشافعية الكبرى ٣٢٦/٨ - ٣٣٦، تذكرة الحفاظ ١٤٣٠/٤ - ١٤٣٣.

(٢) شذرات الذهب ٤٥٨/٥ - ٤٥٩، البداية والنهاية ٢٥٠/١٣ - ٢٥١، كشف الظنون ٥٠٩/٢ طبقات الشافعية الكبرى ١٦٥/٨ - ١٦٨، غاية النهاية ٣٦٥/١ - ٣٦٦.

الناس ومآخذهم، وبرع في الفقه والأصول والعربيّة، وفاق الأقران.

بلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وعنه روى ابن دقيق العيد، وهو الذين لقّبه بسلطان العلماء.

درّس بعدّة مدارس بدمشق، وولّي خطابتها بالجامع الأموي فأزال كثيراً من بدع الخطباء، واجتنب الثناء على الملوك، بل كان يدعو لهم، وأبطل صلاة الرغائب والنصف، فوقع بينه وبين ابن الصلاح بسبب ذلك، ولم يكن يؤذن بين يديه يوم الجمعة إلاّ مؤذن واحد.

كان علم عصره في العلم جامعا لفنون عديدة، مشهور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصلابة في الدين، وله مواقف كثيرة في القيام على السلاطين وردع الظلمة منهم.

نال على المنبر من الملك الصالح إسماعيل لمّا سلّم قلعة الشقيف وصفد للعدوّ، فأمر السلطان بسجنه، ثمّ أطلق سراحه، فخرج إلى مصر حيث تلقّاه السلطان الصالح أيّوب بالكرم، وفوّض إليه قضاء مصر دون القاهرة والوجه القبلي، وأسندت إليه خطابة جامع عمرو بن العاص، فأقام بمهامه أتمّ قيام، وانتهت إليه رئاسة الشافعيّة، ثمّ استقال من القضاء، وعزله السلطان من الخطابة، وأقرّه على تدريس الصالحيّة.

لزم التدريس، وحلقات التفسير، وهو أوّل من استرسل في ذلك، ولمّا حضرته الوفاة أوصى بتدريس الصالحيّة بعده إلى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعزّ.

ولمّا بلغ السلطان خبر وفاته قال: لم يستقرّ ملكي إلاّ الساعة، لأنّه لو أمر الناس فيّ بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره.

صنّف التصانيف المفيدة، منها: الغاية في اختصار النهاية للإمام الجويني، والقواعد الكبرى والقواعد الصغرى، والإمام في أدلّة الأحكام،

وله الفتاوى الموصليّة والفتاوى المصريّة[١].

وأمّا المذهب الحنبلي فقد أخذ في هذه الفترة ينتقل شيئاً فشيئاً إلى الشام، حيث كثر اتّصال الشاميين بعلماء الحنابلة ببغداد وأكثروا من الأخذ عنهم، خاصّة وأنّ المذهب الحنبلي قد ظهر فيه علماء نوابغ في هذا العصر من تلامذة أبي يعلى الفرّاء، من أمثال: محمد بن الحسن البرداني (٤٩٤هـ) صاحب الاجتهادات والاختيارات في الفقه على مذهب أحمد، وأحمد بن محمد البرداني (٤٩٨هـ) الذي جلس في حلقة أبي يعلى سنين طويلة، وأبو الفتح محمد بن عليّ الحلواني (٥٠٥هـ) صاحب كتاب الكفاية في الفقه، وأبو العباس أحمد بن الحسين المخلطي (٥٠٨هـ) صاحب الكتب المفيدة التي اعتمدها شيخ الإسلام ابن تيميّة.

فكان من أبرز أعلام الحنابلة في هذا الدور بالشام:

شرف الإسلام عبدالوهاب بن عبدالواحد بن محمد بن عليّ (٥٣٦هـ): الشيرازي ثمّ الدمشقي، المعروف بابن الحنبلي، شيخ الحنابلة بالشام ورئيسهم في وقته، وباني المدرسة الحنبليّة بدمشق.

تفقّه وبرع وناظر وأفتى، ودرّس الفقه والتفسير، وكان فقيهاً بارعا وواعظا فصيحا، ذا حرمة وسؤدد ورئاسة، وكان له بجامع دمشق مجلس يعقده للوعظ، وناظر مع الفقهاء ببغداد في المسائل الخلافيات.

له تصانيف في الفقه والأصول، منها: المنتخب في الفقه[٢].

وكان بيت **ابن الحنبلي** بيت علم وفقه بالشام، وقد خلف عبدالوهاب من بعده ابنه:

---

(١) شذرات الذهب ٤٣٩/٥ ـ ٤٤٠، البداية والنهاية ٢٣٥/١٣ ـ ٢٣٦، كشف الظنون ١٨٣/١ و٣١٨/٢، طبقات الشافعية الكبرى ٢٠٩/٨ ـ ٢٥٥.

(٢) شذرات الذهب ٢٧٣/٤، طبقات المفسّرين ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤، كشف الظنون ٣٧٩/٤.

أبو العلاء نجم الدين بن عبدالوهاب (٤٩٨هـ ـ ٥٨٦هـ): شيخ الحنابلة بالشام بعد أبيه، الذي أفتى ودرّس وهو ابن نيف وعشرين سنة، وكان معظّما محترما.

وكان الشيخ موفّق الدين المقدسي وأخوه أبو عمر على جلالتهما إذا أشكل عليهما شيء سألا الشيخ نجم الدين.

ولمّا مرض مرض الموت، قال لولده وقد رآه يبكي: لا تحزن عليّ، فما تولّيت قضاء، ولا حبست ولا ضربت، ولا دخلت بين الناس، ولا ظلمت أحداً، وإن كانت لي ذنوب فبيني وبين الله عزّ وجلّ، ولي ستّون سنة أفتي الناس، والله ما حابيت في دين الله تعالى(١).

وخلف عبدالوهاب أبناء منهم: عبدالرحمٰن وشهاب الدين، فأمّا:

*** عبدالرحمٰن بن نجم الدين بن عبدالوهاب (٥٥٤هـ ـ ٦٣٤هـ)**: فهو أبو الفرج الناصح، حفيد شرف الإسلام، رحل إلى البلاد، فأقام ببغداد مدّة، وسمع بها وبأصبهان وبالموصل، ودخل بلاد كثيرة، واجتمع بفضلائها وصالحيها وأخذ عنهم، وقدم مصر مرّتين.

كانت له حرمة عند السلاطين، خصوصاً ملوك الشام بني أيّوب، وحضر فتح بيت المقدس مع صلاح الدين الأيّوبي، واجتمع به في المقدس بعد الفتح بسنتين فسأله عن أشياء كثيرة، درّس بمدارس كثيرة، منها مدرسة جدّه شرف الإسلام، ودرّس بالمسماريّة، ثمّ بنت له الصاحبة ربيعة خاتون مدرسة بالجبل، وهي المدرسة المعروفة بالصاحبيّة، فدرّس بها سنة ٦٢٨هـ.

انتهت إليه رئاسة المذهب بعد الشيخ موفّق الدين، وكان الشيخ الموفّق حين سمع بقدومه إلى دمشق، قال له: سررت بقدومك مخافة أن أموت وأنت غائب، فيقع وهن في المذهب، واختلاف بين أصحابنا.

---

(١) شذرات الذهب ٤/٤٧٦.

وكان الشيخ الناصح من بيت الحديث والفقه، حدّث هو وأبوه وجدّه، وجدّ أبيه، وجدّ جدّه(١).

وأمّا:

أبو الفضائل شهاب الدين عبدالكريم بن نجم الدين بن عبدالوهاب (٦١٩هـ): فهو أصغر من عبدالرحمٰن بتسع سنين، تفقّه وبرع وأفتى وناظر، ودرّس بمدرسة جدّه بدمشق، وهو أصغر إخوته، ولكنّه كان أبرعهم في الفقه والمناظرة والمحاكمات، بصيراً بما يجري عند القضاة في الدعاوي والبيّنات عارفاً بالمذهب والخلاف(٢).

وكان بيت **ابن عبدالواحد** كذلك من بيوت العلم بالشام الذين اشتهروا بتوارث المذهب الحنبلي، فمنهم:

* **تقيّ الدين أبو محمد الحافظ عبدالغنيّ بن عبدالواحد بن عليّ بن سرور (٥٤١هـ ـ ٦٠٠هـ)**: المقدسي الجماعيلي ـ وجماعيل قرب نابلس بفلسطين ـ وهو مقدسي الآباء والأجداد.

أخذ ببغداد عن علمائها ومحدّثيها، ثمّ دخل إلى دمشق فمصر والإسكندريّة، وقد تقدّمت ترجمته في أعلام مصر.

* **أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالواحد بن عليّ بن سرور (٥٤٣هـ ـ ٦١٤هـ)**: العلامة الشيخ العماد، أخو الحافظ عبدالغنيّ، وكان قد ولد بجماعيل، ثمّ هاجر سنة ٥٥١هـ مع أقاربه، وسمع بالموصل ودخل بغداد.

ألقى الدروس وناظر واشتغل، وكان فقيهاً مفتيا، متصدّيا لإقراء القرآن والفقه، عالماً بالنحو والفرائض، وغيرها من العلوم، ورعا تقيّا متواضعا سمحا، موصوفا بطول الصلاة.

---

(١) شذرات الذهب ٢٧٤/٥ ـ ٢٧٦، النجوم الزاهرة ٢٩٨/٦، البداية والنهاية ١٤٦/١٣.

(٢) شذرات الذهب ١٧٦/٥، البداية والنهاية ٩٩/١٣.

صنّف كتاب الفروق في المسائل الفقهيّة، وكان من كثرة اشتغاله بالإقراء والتعليم، لا يتفرّغ للتصنيف والكتابة، وكان يشغل بالجبل إذا كان الشيخ موفّق الدين في المدينة، فإذا صعد الموفّق نزل هو فاشتغل بالمدينة، وكان يشغل بجامع دمشق من الفجر إلى العشاء لا يخرج إلاّ لما لا بدّ له منه، فكان يقرىء القرآن والعلم، فإذا لم يبق له من يشتغل عليه اشتغل بالصلاة، وكان يحترز في الفتاوى احترازا كثيراً.

لمّا أخرجت جنازته إلى جامع دمشق، ما وسع الناس الجامع، وصلّى عليه موفّق الدين بحلقة الحنابلة بعد جهد جهيد[١].

وكان ابنه:

شمس الدين أبو بكر وأبو عبدالله محمد بن العماد إبراهيم بن عبدالواحد (٦٠٣هـ ـ ٦٧٦هـ) المقدسي الدمشقي، نزيل مصر، قد تفقّه في علوم شتّى حتّى صار شيخ المذهب علماً وصلاحا وديانة ورئاسة، وهو أوّل من درّس بالمدرسة الصالحيّة للحنابلة، وأوّل من ولّي قضاء قضاة الحنابلة بمصر[٢].

ثمّ كان من أبناء الحافظ عبدالغنيّ:

* **أبو سليمان عبدالرحمٰن بن أبي محمد عبدالغنيّ (٥٨٣هـ ـ ٦٤٣هـ)**: الذي سمع بدمشق، وتفقّه على الشيخ موفّق الدين حتّى برع، وكان يؤمّ معه في الجامع الأموي بمحراب الحنابلة، ثمّ دخل مصر وبغداد.

أفتى ودرّس، وكان إماماً عالماً فاضلا ورعا، حسن السمت، دائم البشر، كريم النفس، مشتغلا بنفسه وبإلقاء الدروس المفيدة[٣].

* **أبو العبّاس أحمد بن محمد بن عبدالغنيّ المقدسي (٥٩١هـ ـ**

---

(١) شذرات الذهب ٥/١٤٠ ـ ١٤٢، النجوم الزاهرة ٦/٢٢٠، البداية والنهاية ١٣/٧٧.

(٢) شذرات الذهب ٦/٧ ـ ٨، البداية والنهاية ١٣/٢٧٧.

(٣) شذرات الذهب ٥/٣٤١.

٦٤٣هـ): الذي سمع بدمشق، ثمّ رحل فسمع بأصبهان وبغداد، وتفقّه على الشيخ موفّق الدين - وهو جدّه لأمّه - وبرع، حتّى انتهت إليه مشيخة المذهب الحنبلي[1].

وكان للحافظ عبدالغنيّ عمّان عالمان وهو أسنّ منهما[2]، وهما:

موفّق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد (٥٤١هـ - ٦٢٠هـ): المشهور بابن قدامة المقدسي، شيخ الحنابلة، وأحد أئمّة الإسلام.

ولد بجماعيل وهاجر مع أخيه الشيخ أبي عمر - الآتي ترجمته - سنة ٥٥١هـ، وأهلهم من جماعيل إلى دمشق بعد أن استولى الفرنج على الأرض المقدّسة.

حفظ القرآن وتفقّه، ثمّ ارتحل إلى بغداد في مناسبتين، إحداهما سنة ٥٦١هـ، مع قريبه الحافظ عبدالغنيّ، فأقام بها أربع سنوات، والثانية سنة ٥٦٧هـ، وحجّ سنة ٥٧٤هـ ثمّ رجع مع وفد العراق إلى بغداد وأقام بها سنة، ثمّ رجع إلى دمشق.

برع وأفتى وناظر وتبحّر في فنون كثيرة، فكان إماماً في القرآن، إماماً في التفسير، إماماً في علم الحديث ومشكلاته، إماماً في الفقه وقد غلب عليه الاشتغال به، بل كان أوحد زمانه فيه، إماماً في علم الخلاف، أوحد زمانه في الفرائض، إماماً في أصول الفقه، إماماً في النحو، إماماً في الحساب، ففاق بذلك الأقران، وحاز قصب السبق، وإليه كان المنتهى في معرفة المذهب الحنبلي وأصوله.

وكان ابن الصلاح يقول: ما رأيت مثل الشيخ الموفّق، وكان أبو بكر بن غنيمة المفتي ببغداد يقول: ما أعرف أحداً في زماننا أدرك درجة الاجتهاد إلاّ الشيخ الموفّق، وكان بعض أهل العلم يقولون: ما دخل الشام بعد الإمام الأوزاعي أفقه من الشيخ الموفّق.

---

(١) شذرات الذهب ٣٣٩/٥.

(٢) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٧٦، البداية والنهاية ٥٩/١٣، و١٠٠.

اشتغل بتصنيف كتاب المغني في شرح الخرقي، فبلغ الأمل في إتمامه، وهو كتاب بليغ في المذهب، أجاد فيه وجمل به المذهب، وقرأه عليه جماعة من أهل العلم، وانتفع بعلمه طائفة كبيرة، وله كذلك في الفقه، الكافي والمقنع ومختصر الهداية والعمدة وفي أصول الفقه روضة الناظر وجنّة المناظر، وله فتاوى ومسائل منثورة ورسائل شتّى كثيرة.

انتفع بتصانيفه المسلمون عموما، وأهل المذهب خصوصا، وانتشرت واشتهرت بحسن قصده وإخلاصه، ولا سيّما كتاب المغني، الذي عظم النفع به، حتّى قال الشيخ العزّ بن عبدالسلام: ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل المحلّى والمغني في جودتهما وتحقيق ما فيهما، وقال: ما طابت نفسي بالفتيا حتّى صار عندي نسخة من المغني، مع أنّه كان قد أدرك زمان الشيخ[1].

*** أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة بن مقدام (٥٢٨هـ ـ ٦٠٧هـ):**
أخو موفّق الدين، حفظ القرآن وقرأه بحرف أبي عمرو، وحفظ مختصر الخرقي في الفقه، وحفظ الحديث، والفرائض والنحو، وكتب بخطّه كثيراً، وكان سريع الكتابة، مع الزهد والعمل وقضاء حوائج الناس.

كان يزور القبور كلّ جمعة بعد العصر، ولا ينام إلاّ على وضوء، وله أوراد كثيرة، وكان لا يترك غسل الجمعة، ولا يخرج إلى الجمعة إلاّ ومعه شيء يتصدّق به، وكان يؤثر بما عنده، وإذا جاءه شيء إلى بيته فرّقه على الخاص والعام، وكان لا يسمع بجنازة إلاّ حضرها، ولا مريض إلاّ عاده، ولا بجهاد إلاّ خرج فيه، وكان هو وأخوه موفّق الدين، والحافظ عبدالغنيّ وأخوه الشيخ العماد لا ينقطعون عن الجهاد، فكانوا يخرجون مع

---

(١) شذرات الذهب ١٧٩/٥ ـ ١٨٣، البداية والنهاية ٩٩/١٣ ـ ١٠٠، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٣، و٤٢٥ ـ ٤٢٦، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٧٨ ـ ٨١، فوات الوفيات ٣٥٠/٢ ـ ٣٥٢.

السلطان العادل صلاح الدين الأيّوبي، وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها من البلدان[١].

أمّا المذهب المالكي فكان أقلّ المذاهب الأربعة حظّا وأنصارا ببلاد الشام، ولم يعرف نشاطا مذكورا إلاّ عندما أنشأ السلطان صلاح الدين الأيّوبي المدرسة الصلاحيّة بدمشق، وكان من شيوخها أبو عمرو ابن الحاجب، وحين خرج الشيخ ابن الحاجب من دمشق خلفه:

* **الضياء عبدالرحمٰن الغماري (٦٤٤هـ)**: الذي ولّي وظائف الشيخ ابن الحاجب سنة ٦٣٨هـ، وجلس في حلقته ودرّس مكانه بزاوية المالكيّة[٢].

وكان خطيب القدس في بداية القرن السابع:

* **أبو الحسن المعافري عليّ بن محمد عليّ بن جميل المالقي المالكي (٦٠٥هـ)**: الذي سمع كتاب الأحكام من مصنّفه عبدالحقّ، وسمع بالشام، وكتب وحصّل العلم، ونال رئاسة مع الدين والخير[٣].

وكان أوّل من باشر قضاء المالكيّة بدمشق، هو:

* **أبو محمد زين الدين عبدالسلام بن عليّ بن عمر بن سيّد الناس الزواوي (٥٨٩هـ ـ ٦٨١هـ)**: قاضي قضاة المالكيّة بدمشق، وشيخ القرّاء، قرأ القراءات بالإسكندريّة، وتلقّى العلم على ابن الحاجب، وبدمشق على الإمام السخاوي، برع في الفقه وعلوم القرآن، وولّي مشيخة الإقراء بتربة أمّ الصالح اثنتين وعشرين سنة.

ولي القضاء تسعة أعوام، ثمّ عزل نفسه سنة ٦٧٣هـ، واستمرّ على

(١) شذرات الذهب ١٠١/٥ ـ ١٠٤، البداية والنهاية ٥٨/١٣ ـ ٦١، النجوم الزاهرة ٢٠١/٦.

(٢) البداية والنهاية ١٧٢/١٣ ـ ١٧٣.

(٣) شذرات الذهب ٨٦/٥، النجوم الزاهرة ١٩٧/٦.

التدريس والإقراء إلى أن توفّي بعد ثمان سنين من اعتزال القضاء[١].

ـ ٣ ـ **العراق:**

استفحل النزاع بين أصحاب المذاهب الفقهيّة في العراق منذ أواخر الدور السابق، وقويت شوكة الشافعيّة بسبب قربهم إلى الخليفة بواسطة رئيسهم أبي حامد الإسفراييني، وعملوا على استبعاد منافسيهم من أعلام المذاهب الفقهيّة الأخرى حتّى لا يكون في بغداد من ينافسهم، وقابلهم الحنابلة بالمثل حفاظاً منهم على وجودهم، إذ كانوا من أكثر المذاهب أتباعاً وأنصاراً في هذا الدور.

أمّا المالكيّة فقد أصبحوا بعد موت أبي بكر الأبهري وخروج القاضي عبدالوهاب بن نصر أقليّة لا يعار لها اهتمام، ولا يقام لها وزن.

وأمّا الحنفيّة فقد أوجدوا لأنفسهم موطن قدم خاصّة وأنّ العراق هي مسقط رأسهم، وممّا ساعدهم على تواصل نشاطهم واستمراره، قيام السلطان أبو الفتح جلال الدين والدولة ملكشاه (٤٨٥هـ) السلجوقي، ببناء مدرسة أبي حنيفة عند مشهد الإمام[٢] كما أنشأ الخليفة أبو جعفر المستنصر بالله (٦٤٠هـ) المدرسة المستنصريّة التي رتّب فيها الرواتب الحسنة لأهل العلم، وفوّض التدريس فيها لأربعة مدرّسين على المذاهب الأربعة، ورتّب لبيوتهم فيها ما لم يسبق إلى مثله[٣] فكان ذلك من العوامل المساعدة على استمرار المذهب الحنفي جنبا إلى جنب خاصّة مع المذهبين الشافعي والحنبلي.

وكان من أعظم القائمين بالمذهب الحنفي ببغداد خلال هذا الدور، أسرة الدامغاني، التي توارثت العلم جيلا بعد جيل، وكان **قاضي القضاة أبو عبدالله محمد بن عليّ الدامغاني (٤٧٨هـ)** ـ وقد تقدّمت ترجمته ـ الذي

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٣٠٠ ـ ٣٠١، شذرات الذهب ٦/٣٢، غاية النهاية ١/٣٨٦.

(٢) البداية والنهاية ١٢/١٤٢.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٦١.

ينحدر من دامغان الإيرانيّة، نواة هذه الأسرة العلميّة ببغداد، حين قدم إليها سنة ٤١٨هـ، وولِّي قضاءها سنة ٤٤٧هـ، بعد أن انتهت إليه رئاسة الحنفيّة.

وظهر من الأعلام من أهل بيته:

قاضي القضاة أبو الحسن عليّ بن أبي عبدالله الدامغاني (٤٤٦هـ - ٥١٣هـ): الذي ولِّي القضاء بضعا وعشرين سنة، وكان ذا حزم ورأي وسؤدد، وهيبة وافرة وديانة ظاهرة[١].

أبو منصور جعفر بن عبدالله بن أبي عبدالله محمد بن عليّ الدامغاني (٥٦٨هـ)[٢].

وأبو عليّ عبدالله بن محمد بن جعفر الدامغاني (٥١٩هـ)[٣].

وأبو الحسن عليّ بن أحمد بن أبي عبدالله محمد بن عليّ الدامغاني (٥١٣هـ - ٥٨٣هـ): الذي ولِّي القضاء في مناسبتين، وكانت ولايته الثانية من سنة ٥٧٠هـ إلى أن توفّي[٤].

أبو القاسم عبدالله بن الحسين بن أحمد بن عليّ بن أبي عبدالله الدامغاني (٦١٥هـ): العلاّمة عماد الدين، الذي ولِّي القضاء ببغداد مرّتين نحوا من أربع عشرة سنة، وكان مشكور السيرة، عارفاً بالحساب والفرائض وقسمة التركات[٥].

وكان المذهب الشافعي أكثر نشاطا بهذه البلاد، إذ كان معظم نوابغ الشافعيّة الذين تميّزوا في هذا الدور بالتصنيف والقيام على المذهب، كان معظمهم من أهل العراق وخراسان وما وراء النهر.

(١) شذرات الذهب ١٧٩/٤، البداية والنهاية ١٨٥/١٢.

(٢) شذرات ٤٠٩/٤.

(٣) البداية ١٩٤/١٢.

(٤) شذرات ٤٦٣/٤، البداية ٣٢٩/١٢.

(٥) شذرات ١٤٧/٥ البداية ٨٢/١٣.

وكان أشهر أعلام الشافعيّة بالعراق في بداية هذا الدور:

أبو إسحاق إبراهيم بن عليّ الفيروزابادي الشيرازي (٣٩٣هـ - ٤٧٦هـ): الذي دخل بغداد سنة **٤١٥هـ** فاستوطنها ولزم القاضي أبا الطيّب إلى أن صار معيده[1] في حلقته.

كان أنظر أهل زمانه، إماماً في الفقه والأصول والحديث، وفي فنون كثيرة، وإليه انتهت رئاسة المذهب الشافعي العراق، بل وفي العالم الإسلامي كلّه.

بنى له الوزير السلجوقي نظام الملك المدرسة النظاميّة سنة **٤٥٧هـ** - وكانت أوّل مدرسة تعليميّة بالمعنى المتعارف عليه اليوم للمدرسة في تاريخ الإسلام - فرحل إليه الفقهاء من الأقطار، وتخرّج به أئمّة كبار، ودرّس بها إلى حين وفاته، وكانت الطلبة ترحل من المشرق والمغرب إليه، والفتاوى تحمل من البرّ والبحر فتوضع بين يديه، حتّى إنّه حين خرج في رسالة الخليفة المقتدر إلى خراسان لم يدخل بلداً ولا قرية إلاّ وجد قاضيها أو خطيبها أو مفتيها من تلامذته، وتراكب الناس عليه في بلاد العجم حتّى تمسّحوا بأطراف ثيابه وتراب نعليه.

لم يحجّ ولا وجب عليه لأنّه كان فقيرا متعفّفا، لا يملك شيئاً من متاع الدنيا، وقد بلغ به الفقر حتّى كان لا يجد في بعض الأوقات قوت يومه، ومع هذا، فقد كان طلق الوجه، دائم البشر، كثير البسط، حسن المجالسة.

صنّف مؤلفات كثيرة شهيرة نافعة، منها: التنبيه في فروع الشافعيّة الذي بدأ في تصنيفه سنة **٤٥٢هـ**، والمهذّب في الفقه، والنكت في علم

(١) المعيد: هو المكلّف بإعادة إلقاء الدرس على الطلبة بعد أن يكون الشيخ المدرّس قد ألقاه عليهم، حتّى يتمكّن الطالب من استيعابه وفهم مسائلة.

الجدل، واللمّع والتبصرة في أصول الفقه، وغير ذلك[١].

ومن المعلوم أنّ أبا إسحاق الشيرازي قد أمضى ما يقرب من نصف قرن من حياته في الدور السابق، في حين لم يمض إلاّ نصف هذه الفترة في هذا الدور، ورغم ذلك فقد أدرجناه في أعلام هذا الدور لأنّ عطاءه العلمي وإنتاجه الكتابي إنّما تكثّف مع بداية هذا الدور، وخاصّة بعد أن تولّى التدريس بالمدرسة النظاميّة سنة ٤٥٧هـ.

وكان من نظرائه وأقرانه:

* **أبو نصر عبد السيّد بن محمد بن عبدالواحد (٤٠٠هـ ـ ٤٧٧هـ): المعروف بابن الصبّاغ**، أحد أئمّة الشافعيّة وكان يضاهي الشيخ أبي إسحاق.

تفقّه ببغداد على أبي الطيّب الطبري، حتّى فاق الشافعيّة بالعراق، وكانت الرحلة إليه، ومن الشافعيّة من يقدّمه على أبي إسحاق في نقل المذهب.

كان فقيهاً أصوليًّا محقّقاً، ولّي التدريس بالنظاميّة بعد أبي إسحاق، وكان من أكابر أصحاب الوجوه في المذهب الشافعي، حتّى قيل إنّه قد كملت له شرائط الاجتهاد المطلق.

من تصانيفه: الشامل، وهو من أجود كتب الشافعيّة وأصحّها نقلاً، وأتقنها أدلّة، والكامل في الخلاف بين الشافعيّة والحنفيّة، والطريق السالم، والعمدة في أصول الفقه، وغيرها[٢].

---

(١) طبقات الشافعيّة الكبرى ٢١٥/٤ ـ ٢٢٩، شذرات الذهب ٤٥/٤ ـ ٤٧، النجوم الزاهرة ١١٧/٥ ـ ١١٨، هديّة العارفين ٨/١، البداية والنهاية ١٢٤/١٢ ـ ١٢٥، كشف الظنون ٢٩٥/١، و٣٩٥، و٤٦٩/٢، و٧٢٨، و٧٧٥، وفيات الأعيان ٢٩/١ ـ ٣١.

(٢) شذرات الذهب ٥١/٤ ـ ٥٢، البداية والنهاية ١٢٦/١٢ ـ ١٢٧، النجوم الزاهرة ١٩٩/٥، هديّة العارفين ٥٧٣/١، كشف الظنون ٦١/٢، و١٢٩، و٣٣٥، طبقات الشافعيّة الكبرى ١٢٢/٥ ـ ١٣٤، وفيات الأعيان ٢١٧/٣ ـ ٢١٨.

ومن تلاميذ أبي إسحاق الشيرازي وابن الصبّاغ:

أبو بكر الشاشي فخر الإسلام محمد بن أحمد بن الحسين (٤٢٩هـ - ٥٠٧هـ): شيخ الشافعيّة، وأحد أئمّتهم في زمانه، لزم ببغداد الشيخ أبا إسحاق وابن الصبّاغ، وكان في حداثته يلقّب بين الطلبة بالجنيد لشدّة ورعه.

انتهت إليه رئاسة الشافعيّة ببغداد بعد انقراض مشائخه، فكان ينشد:

خلت الديار فسدت غير مسود ... ومن العناء تفرّدي بالسؤدد

وذكر هذا البيت في بعض دروسه، ثمّ وضع المنديل على عينيه وبكى بكاء شديدا.

صنّف وأفتى وولّي تدريس النظاميّة، ومن تصانيفه: حلية العلماء بمعرفة مذاهب الفقهاء، وفيه ذكر خلافاً كثيراً للعلماء، حيث ذكر في كلّ مسألة الاختلاف الواقع بين الأئمّة، ويسمّى هذا الكتاب كذلك بالمستظهري، لأنّ صاحبه قد صنّفه للخليفة المستظهر بالله، وصنّف أيضاً المعتمد وهو كالشرح لحلية العلماء، وله الشافي، والعمدة في الفروع، صنّفه لعمدة الدين المسترشد ابن المستظهر[(١)].

وعلى أبي بكر الشاشي تفقّه:

أبو الحسن محمد بن المبارك بن محمد المعروف بابن الخلّ (٥٥٢هـ): وكنيته أبو البقاء، كان قد تفقّه على أبي بكر الشاشي، وبرع في العلم، حتّى تفرّد بالفتوى ببغداد.

صنّف كتاباً سمّاه توجيه التنبيه شرح به كتاب التنبيه لأبي إسحاق

(١) شذرات الذهب ١٥١/٤، البداية والنهاية ١٧٧/١٢ - ١٧٨، النجوم الزاهرة ٢٠٦/٥، كشف الظنون ٥٣١/١، و١٧٣/٢، و٥٩٤، وفيات الأعيان ٢١٩/٤ - ٢٢١، الوافي بالوفيات ٧٣/٢، تذكرة الحفاظ ١٢٤١/٤، طبقات الشافعية الكبرى ٧٠/٦ - ٧٨.

الشيرازي، وعلّل مسائله بعبارة مختصرة، وهو أوّل شرح للتنبيه[١].

وأبو الفضل عبدالله بن أحمد بن محمد بن عبدالقاهر الطوسي ثمّ البغدادي (٤٨٧هـ ـ ٥٧٨هـ): الذي برع في الفقه والأصول، وكان قد تفقّه على إلكيا الهراسي وأبي بكر الشاشي، وتفرّد في الدنيا وقصده الرحالون[٢]، وكان خاتمة فقهائهم في القرن السادس:

المجير أبو القاسم محمود بن المبارك الواسطي ثمّ البغدادي (٥١٧هـ ـ ٥٩٢هـ): أحد الأذكياء والمناظرين الذي صار المشار إليه في زمانه، والمقدّم على أقرانه، وما رئي في زمانه أجمع لفنون العلم منه.

كان ذكيّا غوّاصا على المعاني، درّس بالمدرسة النظاميّة، وكان أينما حلّ بنيت له مدرسة، فحين دخل دمشق بنيت له مدرسة جاروخ، ولمّا توجّه إلى شيراز بنى له ملكها مدرسة[٣].

وممّن كان له الحظّ الأوفر في التدريس بالمدرستين النظاميّة والمستنصريّة:

أبو عبدالله محمد بن يحيى بن عليّ بن الفضل، محيي الدين بن فضلان (٦٣١هـ): الذي برع في الفقه والأصول والخلاف والنظر، وولّي القضاء في آخر عهد الناصر.

ولي تدريس النظاميّة ببغداد، ثمّ ولّي قضاء القضاة، ودرّس بالمستنصريّة عند كمال عمارتها في رجب سنة ٦٣١هـ، وهو أوّل من درّس بها، ثمّ توفّي بعد أشهر عن بضع وستّين سنة[٤].

وأمّا الحنابلة فقد كانوا من أكثر المذاهب انتشارا، وقد برز منهم في

---

(١) شذرات الذهب ٣٣٨/٤ ـ ٣٣٩، كشف الظنون ٣٩٥/١، وفيات الأعيان ٢٢٧/٤.

(٢) شذرات الذهب ٤٤٧/٤، النجوم الزاهرة ٩٤/٦، طبقات الشافعية الكبرى ١١٩/٧ ـ ١٢٠، تذكرة الحفاظ ١٣٤١/٤، طبقات الشافعية الكبرى ١١٩/٧ ـ ١٢٠.

(٣) شذرات الذهب ١٨/٥، النجوم الزاهرة ١٣٦/٦، البداية والنهاية ١٢/١٣.

(٤) شذرات الذهب ٢٥٣/٥، طبقات الشافعية الكبرى ١٠٧/٨ ـ ١٠٨.

بداية هذا الدور بالعراق نخبة من تلاميذ القاضي أبي يعلى الفرّاء، كان أشهرهم بلا منازع، علمان هما:

*** أبو الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن بن أحمد الكلوذاني (٤٣٢هـ - ٥١٠هـ)**: شيخ الحنابلة وأحد المجتهدين في المذهب، وصاحب التصانيف في الأصول والفروع.

كان إماماً علاّمة، غزير العلم، وافر العقل، حسن المحاضرة، جيّد النظم، وكان يفتي ويناظر في مذهبه وعليه تفقّه جماعة من أئمّة المذهب.

من تصانيفه: الهداية في الفقه، والتمهيد في أصول الفقه، والانتصار ويعرف بالخلاف الكبير، ورؤوس المسائل ويعرف بالخلاف الصغير(١).

*** وأبو الوفاء عليّ بن عقيل بن محمد بن عقيل (٤٣١هـ - ٥١٣هـ)**: شيخ الحنابلة، وصاحب التصانيف كان إماماً مبرّزاً، كثير العلوم، خارق الذكاء، مكبًّا على الاشتغال والتصنيف، عديم النظير في عصره وما كان أحد يستطيع أن يتكلّم معه لغزارة علمه، وقوّة حجّته.

اجتمع له من الشيوخ العدد الوافر من الرجال والنساء في علوم الحديث والأصول والفرائض والقراءات والتصوّف والوعظ وفي الشعر والترسّل، وقرأ الفقه على القاضي أبي يعلى سنة ٤٤٧هـ، وحظي من قربه بما لم يحظ به أحد من أصحابه رغم حداثة سنّه.

كان دائم الاشتغال بالعلم، بارعاً في الفقه وأصوله، له في ذلك استنباطات عظيمة حسنة، وتحريرات كثيرة مستحسنة، أفتى ودرّس وناظر الفحول من أهل وقته، ولقد تكلّم يوماً مع الشيخ أبي الحسن إلكيا الهراسي في مسألة، فقال له الشيخ: ليس هذا مذهبك، فقال له ابن عقيل: أنا لي اجتهاد، متى طالبني خصمي بحجّة، كان عندي ما أدفع عن نفسي، وأقول له بحجّتي.

---

(١) شذرات الذهب ١٦٤/٤ - ١٦٥، البداية والنهاية ١٨٠/١٢، النجوم الزاهرة ٢١٢/٥، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٩، تذكرة الحفاظ ١٢٦١/٤.

وكان يجتمع بجميع العلماء من كلّ مذهب، فربّما لامه بعض أصحابه، فلا يبالي، ولذلك برز على أقرانه وساد أهل زمانه، وكان أوحد المجتهدين في عصره.

من تصانيفه: كتاب الفصول في الفقه ويسمّى كفاية المفتي، وله التذكرة ورؤوس المسائل، وغير ذلك في الفقه(١).

وعلى الفقيهين أبي الخطاب الكلوذاني وابن عقيل تخرّج جمع غفير.

فأمّا تلاميذ الكلوذاني فأشهرهم:

*** أبو بكر أحمد بن أبي الفتح محمد بن أحمد الدينوري (٥٣٢هـ)**: أحد أئمّة الحنابلة ببغداد، تفقّه على أبي الخطاب الكلوذاني، وبرع في الفقه، وتقدّم في المناظرة على أقرانه، حتى قال أسعد الميهني ـ أحد شيوخ الشافعيّة ـ ما اعترض أبو بكر الدينوري على دليل أحد إلاّ ثلمه.

تخرّج به أئمّة كبار، وصنّف تصانيف في المذهب، منها: كتاب التحقيق في مسائل التعليق(٢).

*** أبو محمد عبدالرحمٰن بن أبي الفتح محمد بن عليّ الحلواني (٤٩٠هـ ـ ٥٤٦هـ)**: الذي تفقّه على أبيه وعلى أبي الخطاب الكلوذاني، وبرع في الفقه والأصول، وصنّف التصانيف فيهما، منها: كتاب التبصرة في الفقه وكتاب الهداية في أصول الفقه، وله تعليقة في مسائل الخلاف كبيرة.

كان فقيها، مناظرا، من شيوخ الحنابلة، يفتي وينتفع به جماعة أهل محلّته، وكان موصوفا بالخير والصلاح والفضل(٣).

---

(١) شذرات الذهب ١٧٤/٤ ـ ١٧٧، طبقات الحنابلة ٣٤٦/٢، البداية والنهاية ١٨٤/١٢، غاية النهاية ٥٦٦/١، النجوم الزاهرة ٢١٩/٥، هديّة العارفين ٦٩٥/١، المدخل إلى مذهب أحمد ص ٤١٦.

(٢) شذرات الذهب ٢٥٣/٤ ـ ٢٥٤، البداية والنهاية ٢١٣/١٢.

(٣) شذرات الذهب ٣١٢/٤، طبقات المفسّرين ص ١٩٥.

*** أحمد بن معالي - ويسمّى عبدالله أيضاً - بن بركة الحربي (٥٥٤هـ)**: تفقّه على أبي الخطاب الكلوذاني، وكان فقيهاً مناظرا عارفا، له فهم حسن وبراعة وفطنة في المناظرة[(١)].

*** أبو الحسن سعد الله بن نصر بن سعيد، ويلقب مهذّب الدين (٤٨٢هـ - ٥٦٤هـ)**: المعروف بابن الدجاجي، وبابن الحيواني، تفقّه على أبي الخطّاب الكلوذاني وقرأ عليه بالروايات، ودرّس وناظر، وكان ملازما لمطالعة العلم إلى أن مات[(٢)].

وأمّا تلاميذ ابن عقيل، فأشهرهم:

*** أبو بكر عبدالله بن عبدالباقي بن التبان (٥٤٥هـ)**: ويسمّى محمد وأحمد أيضاً، تفقّه على ابن عقيل وناظر وأفتى ودرّس، وكان مذهبيّا جيّدا، وخلافيّا مناظرا، ومن أهل القرآن، بقي على حفظه لعلومه إلى أن مات[(٣)].

*** صدقة بن الحسين بن بختيار بن الحداد (٥٧٣هـ)** تفقّه على ابن عقيل وعلى أبي الحسن ابن الزعفراني (٥٢٧هـ) وبرع في الفقه وفروعه وأصوله والحساب ومتعلّقاته من الفرائض، وبرع في الفلسفة والمنطق والكلام.

كان شيخا عالماً فاضلا، أفتى، وتردّد إليه الطلبة في فنون العلم، وصنّف مصنّفات حسنة[(٤)].

ومن أسرة أبي يعلى العالمة بالعراق، نلقى في هذا الدور:

القاضي أبو الحسين بن الفرّاء محمد بن القاضي أبي يعلى (٤٥١هـ

(١) شذرات الذهب ٣٤٥/٤ - ٣٤٦.

(٢) شذرات الذهب ٣٩٢/٤ - ٣٩٣، البداية والنهاية ٢٥٨/١٢ - ٢٥٩.

(٣) شذرات الذهب ٣٠٥/٤ - ٣٠٦.

(٤) شذرات الذهب ٤٢٨/٤ - ٤٢٩، البداية والنهاية ٢٩٨/١٢ - ٢٩٩.

ـ ٥٢٦هـ): ابن القاضي أبي يعلى، كان مفتيا مناظرا، عارفاً بالمذهب ودقائقه، أفتى وناظر ودرّس، له تآليف كثيرة في الفروع والأصول كالمجموع، ورؤوس المسائل، والمفردات، والمفتاح في الفقه، والمفردات في أصول الفقه(١).

وأبو خازم محمد بن محمد بن الحسين بن محمد بن أحمد (٤٥٧هـ ـ ٥٢٧هـ): ابن القاضي أبي يعلى، وأخو القاضي أبي الحسين، ولد قبل موت والده بسنة.

برع في معرفة المذهب والخلاف والأصول، وكان من الفقهاء الزاهدين والأخيار الصالحين.

صنّف تصانيف مفيدة منها: التبصرة في الخلاف، ورؤوس المسائل، وشرح مختصر الخرقي(٢).

القاضي أبو يعلى الصغير محمد بن أبي خازم (٤٩٤هـ ـ ٥٦٠هـ): شيخ المذهب، تفقّه على أبيه وعمّه أبي الحسين، درّس وناظر في شبابه، وكان مناظرا فصيحا مفوّها، ذا ذكاء مفرط وذهن ثاقب.

ظهر علمه في الآفاق وتفقّه عليه في المذهب جماعة كثيرة من أهل العلم والفضل، ورأى من تلاميذه من ناظر ودرّس وأفتى في حياته.

صنّف مصنّفات كثيرة، منها: المفردات والتعليقة في مسائل الخلاف، وشرح المهذّب وكتاب النكت والإشارات(٣).

ونلتقي في النصف الثاني من القرن السادس بثلاثة من أعلام الحنابلة، كان لهم السؤدد بالعراق دهرا، وحازوا فيها رئاسة الفقه عمرا، وهم:

أبو الفتح بن المنى ناصح الإسلام نصر بن فتيان بن مطر (٥٠١هـ ـ

(١) شذرات الذهب ٢٢٩/٤، البداية والنهاية ٢٠٤/١٢.

(٢) شذرات الذهب ٢٣٣/٤ ـ ٢٣٤، غاية النهاية ١٣١/٢، النجوم الزاهرة ٢٥١/٥.

(٣) شذرات الذهب ٣٦٩/٤.

٥٨٣هـ): فقيه العراق وشيخ الحنابلة على الإطلاق، تتلمذ على أبي الحسن الزعفراني، وعلى أبي بكر الدينوري.

صرف همّته طول حياته إلى الفقه أصولا وفروعا، ومذهباً وخلافاً، ومناظرة، وتصدّر للدرس والاشتغال والإفادة، وكان مسجده بالفقهاء والقرّاء معمورا، وكلّ فقيه عنده من فضله وأفضاله مغمورا.

طال عمره وبعد صيته وقصده الطلبة من البلاد، وشدّت إليه الرحال في طلب الفقه، وتخرّج به أئمّة كبار، وكان فقهاء الحنابلة من بعده في سائر البلاد يرجعون إليه وإلى أصحابه، لأنّ فقهاء الحنابلة كانوا يعوّلون في الفقه من جهة الشيوخ والكتب على الشيخين: موفّق الدين المقدسي، ومجد الدين بن تيميّة الحراني، فأمّا الشيخ موفّق الدين فهو تلميذ ابن المنى، وعنه أخذ الفقه، وأمّا ابن تيميّة، فهو تلميذ تلميذه أبي بكر بن الحلاوي[1].

* **أبو الفرج عبدالرحمٰن بن عليّ بن محمد بن الجوزي (٥١٠هـ ـ ٥٩٧هـ)**: بغدادي المولد والوفاة، أحد أفراد العلماء، سمع العلم من سبعة وثمانين شيخا حتّى فاق الأقران وحصل له من القبول والاحترام ما لا مزيد عليه، ووعظ وهو ابن عشرين سنة أو دونها، وكان يحضر مجلسه أكثر من مائة ألف، فربّما كان أكثرهم لا يسمعون مقالته.

نظر في جميع العلوم وألّف فيها، وكان له في كلّ علم مشاركة، فكان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفّاظ، وفي التاريخ من المتوسّعين، ولديه فقه كاف يدرّسه ويصنّف فيه.

سئل عن عدد تصانيفه، فقال: زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنّفا، وتصانيفه شهيرة في أنواع العلوم منها: التحقيق في مسائل الخلاف، والانتصار في مسائل الخلف، والدلائل في مشهور المسائل، والمنفعة في

(١) شذرات الذهب ٤/٤٦٤ ـ ٤٦٥، النجوم الزاهرة ٦/١٠٦، البداية والنهاية ١٢/٣٢٩.

المذاهب الأربعة(١).

أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الصقّال (٥٢٥هـ - ٥٩٩هـ): مفتي العراق، الملقّب بموفّق الدين، تتلمذ على القاضي أبي يعلى الصغير، وعلى أبي الفتح بن المنى وغيرهما، حتّى برع في الفقه مذهباً وخلافاً وجدلا، وأتقن علم الفرائض والحساب.

أفتى ودرّس وناظر، وكان من أعيان المفتين المعتمد على أقوالهم في المحافل والمجالس(٢).

وفي آخر هذا الدور نلتقي بفقيهين حنبليين ملآ العراق علماً وحازا بها رئاسة، هما:

قاضي القضاة نصر بن عبدالرزاق بن عبدالقادر الكيلاني، عماد الدين أبو صالح الجيلي (٦٣٣هـ) ثمّ البغدادي: الذي درّس وأفتى وناظر وبرع في المذهب، وكان محبّا للعلم، مكرما لأهله، ولاّه الخليفة الظاهر ابن الناصر قضاء القضاة بجميع مملكته، فكان أوّل من دعي بقاضي القضاة من الحنابلة، وردّ إليه النظر في جميع الأوقاف، فكان يولّي ويعزل من يشاء في جميع المدارس حتّى النظاميّة، ثمّ أقرّه الخليفة المستنصر ابن الظاهر فترة مديدة، فكان متحرّيا في قضائه، قويّ النفس في الحقّ، عديم المحاباة والتكلّف، متخلّقا بسيرة السلف.

صنّف في الفقه كتاباً سمّاه «إرشاد المبتدئين» وعليه تفقّه جماعة من الحنابلة وانتفعوا به(٣).

---

(١) شذرات الذهب ٤٣/٥ ـ ٤٥، البداية والنهاية ٢٨/١٣ ـ ٣٠، غاية النهاية ٣٧٥/١، طبقات المفسّرين ص ١٩١ ـ ١٩٥، النجوم الزاهرة ١٧٤/٦، وفيات الأعيان ١٤٠/٣ ـ ١٤٢، تذكرة الحفاظ ١٣٤٢/٤ ـ ١٣٤٨.

(٢) شذرات الذهب ٥٤/٥ ـ ٥٥.

(٣) شذرات الذهب ٢٦٩/٥ ـ ٢٧٠.

* **أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي السعادات الدباس (٦٤٨هـ):** أحد أعيان فقهاء بغداد وفضلائهم تفقّه على إسماعيل بن الحسين صاحب أبي الفتح بن المنى، وقرأ علم الخلاف والجدل والأصول، وبرع في ذلك، وتقدّم على أقرانه.

كان محبّا للعلم ونشره، صابرا على تعليمه والاشتغال به، إلى أن توفّي وقد ناهز الثمانين[١].

وهكذا ظلّ المذهب الحنبلي في العراق سائدا ظاهرا طوال هذا الدور، كالشمس إذا ظهرت خفيت الكواكب لظهورها.

وأمّا المذهب المالكي فقد ضعف شأنه بهذه الأنحاء، حتّى انقرض أتباعه، ولم يعد له ظهور ولا ذكر إلاّ من حين لآخر حين يظهر فقيهاً مالكيّا كبيرا.

وقد ذكر الشيخ مخلوف أنّ الطبقة التاسعة ـ التي هي طبقة أقران عبدالوهاب بن نصر ـ كانت آخر طبقات المالكيّة بالعراق، إذ أصبحت الطبقة العاشرة لا تعدّ إلاّ فقيهاً واحدا، هو:

أبو يعلى أحمد بن محمد العبدي (٤٨٩هـ) إمام المالكيّة بالبصرة وصاحب تدريسهم ومدار فتواهم، ذو التآليف مذهباً وخلافاً[٢].

وبه انتهى فرع فقهاء المالكيّة بالعراق، ولم يسجّل لهم عودة إلاّ في الطبقة الخامسة عشرة، أي بعد أكثر من قرنين من زمن انقطاعه[٣].

أمّا عن مذاهب الشيعة فقد كان:

* **أبو الحسن محمد بن الحسن أبو عليّ بن أبي جعفر الطوسي (٥٤٠هـ):** شيخ الرافضة وعالمهم وابن شيخهم وعالمهم، قد رحلت إليه

(١) شذرات الذهب ٣٦٨/٥.
(٢) شجرة النور الزكيّة ص ١١٦.
(٣) المرجع السابق ص ٢٠٣.

طوائف الشيعة من كلّ جانب إلى العراق وحملوا إليه، وكان عالماً كثير الزهد، حتّى أنّ الإمام السمعاني أثنى عليه(١).

ومن بعده:

* **محمد بن حيدرة بن أبي البركات عمر بن إبراهيم بن محمد أبو المعمر (٥٩٣هـ) الحسيني الزيدي الكوفي**: الذي سمع من جدّه، وكان آخر من حدّث عن أبي النرسي(٢).

ـ ٤ ـ بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر:

أصبح المذهب الشافعي هو المذهب السائد في هذه الأصقاع خاصّة بعد أن انتقل الأمير الغزنوي محمود بن سبكتكين من مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الإمام الشافعي، وأنفق الأموال الطائلة في تأسيس المدارس وتفقيه الناس في مذهب الشافعي، فبرز أعلام كثيرون كانت مجالسهم محطّ رحال العلماء، ومقصد الأئمّة والفقهاء في سائر أنحاء هذه البلاد.

فكان منهم **بطبرستان** ـ مقاطعة إيرانيّة على بحر قزوين تعرف بمازندران ـ :

* **أبو المحاسن عبدالواحد بن إسماعيل الروياني (٤١٥هـ ـ ٥٠٢هـ)**: فخر الإسلام، شيخ الشافعيّة وشافعيّ الوقت، رحل إلى الآفاق حتّى بلغ ما وراء النهر، وبرع في المذهب حتّى كان يقول: لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من حفظي، ولهذا كان يقال له: شافعي زمانه.

ولي قضاء طبرستان، وبنى مدرسة بآمل ـ مدينة إيرانيّة في سهل مازندران ـ وبجامع آمل هجم عليه الباطنيّة فقتلوه، فكان استشهاده عند

(١) شذرات الذهب ٢٤/٥، النجوم الزاهرة ١٤٣/٦.

(٢) شذرات الذهب ٢٩٠/٤.

ارتفاع النهار بعد فراغه من الإملاء من تصانيفه: كتاب البحر وهو كتاب حافل كامل شامل، وفي المثل: حدّث عن البحر ولا حرج، وله الكافي والحلية وفيه اختيارات كثيرة، وكثير منها يوافق مذهب مالك(١).

وظهر **بأصبهان**:

* **عبداللطيف بن صدر الدين أبي بكر محمد الخجندي (٥٨٠هـ)**: رئيس أصبهان في العلم، كان فقيهاً فاضلا، درّس وأفتى، توفّي وهو ابن ثمان وأربعين سنة (١٥٢).

وخلفه ولده: * **أبو بكر محمد (٥٩٢هـ)** الذي انتهت إليه رئاسة الشافعيّة بأصبهان بعد موت أبيه، وكان فقيهاً بارعا، ورئيسا كبيرا، عريقا في الفضل ورئاسة العلم(٢).

وبطالقان - مدينة في الديلم قرب قزوين - كان:

* **أبو الخير رضي الدين أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني (٥١٢هـ - ٥٩٠هـ)**: أحد الأعلام، ورئيس أصحاب الشافعي، كان إماماً في المذهب والخلاف والأصول والتفسير والوعظ، وله يد باسطة في النظر والاطلاع على العلوم، ومعرفة الحديث.

درّس ببلده، ثمّ دخل بغداد في حدود سنة ٥٦٠هـ ودرّس بها، ثمّ رجع إليها في حدود سنة ٥٧٠هـ، ودرّس بالمدرسة النظاميّة، وفي سنة ٥٨٠هـ رجع إلى قزوين واستقرّ بها إلى أن مات.

كان كثير العبادة، دائم الذكر، دائم الصوم، له كلّ يوم ختمة.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٩/٤ - ٣٥٦، شذرات الذهب ١٣٥/٤، البداية والنهاية ١٧٠/١٢ - ١٧١، النجوم الزاهرة ١٩٧/٥، هديّة العارفين ٦٣٤/١، وفيات الأعيان ١٩٨/٣ - ١٩٩.

(٢) شذرات الذهب ٣٣٧/٤.

صنّف مصنّفات كثيرة في التفسير والحديث والفقه مطوّلا ومختصرا، وانتفع بعلمه أهل العلم[١].

وبمدينة الريّ:

* **عماد الدين محمد بن أبي سعد عبدالكريم، ابن الوزان الرازي (٥٩٨هـ)**: شيخ الشافعيّة بالريّ وصاحب شرح الوجيز، كان عالماً محقّقا مدقّقا[٢].

وبقزوين ـ مدينة إيرانيّة جنوبيّ بحر قزوين ـ:

* **أبو الفضل ركن الدين عزيز بن محمد بن العراقي القزويني (٦٠٠هـ)**: كان إماماً مناظرا، قيّما في علم الخلاف، ماهرا فيه، اشتغل فيه على الشيخ رضيّ الدين النيسابوري الحنفي حتّى برز فيه، وصنّف تعاليق ثلاث، الأولى مختصرة، والثانية والثالثة مبسوطة.

اشتهر صيته في البلاد، واجتمع عليه الطلبة بمدينة همذان، وقصدوه من البلاد البعيدة، وعلّقوا تعاليقه، وبنى له الحاجب جمال الدين بهمذان مدرسة تعرف بالحاجبيّة[٣].

* **أبو القاسم عبدالكريم بن محمد بن الفضل القزويني الرافعي (٦٢٣هـ)**: مجتهد زمانه في المذهب الشافعي، الذي إليه انتهت معرفة المذهب ودقائقه، وفريد وقته في التفسير.

برز في الفقه على كثير ممّن تقدّمه، وحاز قصب السبق، وكان أوحد عصره في علوم الدين، أصولاً وفروعا، وإليه كان يرجع عامّة فقهاء الشافعيّة في غالب الأقاليم والأمصار في عصره، وكان مع براعته في العلم، صالحا زاهدا ذا أحوال وكرامات ونسك وتواضع.

---

(١) شذرات الذهب ٧/٥ ـ ٨، طبقات المفسّرين ص ٢٨ ـ ٢٩، البداية والنهاية ٩/١٣، النجوم الزاهرة ١٣٤/٦، غاية النهاية ٣٩/١، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٦ ـ ١٣.

(٢) شذرات الذهب ٥١/٥ ـ ٥٢.

(٣) شذرات الذهب ٦٣/٥ ـ ٦٤، وفيات الأعيان ٢٥٨/٣ ـ ٢٥٩.

صنّف الشرح المشهور الكبير على كتاب الوجيز للغزالي، وسمّاه العزيز في شرح الوجيز، وعنه يقول النووي بعد وصفه: واعلم أنّه لم يصنّف في مذهب الشافعي ما يحصل لك مجموع ما ذكرته أكمل من كتاب الرافعي ذي التحقيقات، بل اعتقادي واعتقاد كلّ مصنّف أنّه لم يوجد مثله في الكتب السابقات ولا المتأخّرات فيما ذكرته من المقاصد المهمّات، ثمّ صنّف أوجز منه، وهو الشرح الصغير[1].

واشتهر منهم بخراسان وبنيسابور:

* **أبو المعالي عبدالملك بن أبي محمد عبدالله بن يوسف الجويني (٤١٩هـ ـ ٤٧٨هـ)**: المعروف بإمام الحرمين لمجاورته بمكّة أربع سنين، تفقّه على والده في صباه واشتغل به مدّته، فلمّا توفّي والده وكان هو دون العشرين سنة، تردّد على المشائخ في أنواع العلوم، حتّى ظهرت براعته، ثمّ جلس مكان أبيه في التدريس، وأخذ في تحقيق المذهب والخلاف وسلك طريق المباحثة والمناظرة، وجمع الطرق بالمطالعة، فظهرت فطنته وشاع ذكره، حتّى أربى على المتقدّمين، وأنسى مصنّفات الأوّلين.

خرج إلى بغداد وتولّى تدريس النظاميّة والخطابة والإمامة، وهجرت له المجالس، فكان يقعد بين يديه كلّ يوم نحو ثلاثمائة طالب، وكان المقبول منهم من يجلس بين يديه ويقرأ عليه، ثمّ عاد إلى نيسابور فسلّم إليه بها التدريس والخطابة والوعظ، وكان مع رفعة قدره وجلالته له حظّ وافر من التواضع، بحيث لا يستصغر أحداً حتّى يسمع كلامه، ولا يستنكف أن يعزو الفائدة إلى قائلها.

وحين توفّي، وكان دون الستّين من عمره، كسّر تلاميذه أقلامهم ومحابرهم من شدّة الوجد عليه، ومكثوا سنة على تلك الحالة.

---

(١) طبقات الشافعيّة الكبرى ٨/٢٨١ ـ ٢٩٣، شذرات الذهب ٥/٢٠٣ ـ ٢٠٤، النجوم الزاهرة ٦/٢٦٦، فوات الوفيات ٢/٣٧٦ ـ ٣٧٧.

ورغم أنّ إمام الحرمين قد انقطع نسله ظاهرا، فإنّ آثاره في الدين كانت باقية، إذ أنّ نشر علمه يقوم مقام كلّ نسب، وقد أثنى عليه علماء وقته بما يطول ذكره، حتّى كان أبو إسحاق الشيرازي يصفه بمفيد أهل المشرق والمغرب وينعته بإمام الأئمّة.

صنّف تصانيف كثيرة في كلّ علم وفنّ، منها: نهاية المطلب في دراية المذهب، أودعه من التدقيق والتحقيق ما تعلم به مكانته من العلم والفهم، واعترف أهل وقته بأنّه لم يصنّف في المذهب مثله، واختصره بنفسه في كتاب سمّاه مختصر النهاية، وله تلخيص التقريب والإرشاد والبرهان في أصول الفقه[١].

*** حجّة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي (٤٥٠هـ ـ ٥٠٥هـ)**: أحد الأعلام، تعلّم بمسقط رأسه طوس ـ مدينة قديمة في خراسان قرب نيسابور ـ ثمّ ارتحل إلى جرجان ومنها إلى نيسابور حيث أخذ عن إمام الحرمين ولازمه، حتّى صار أنظر أهل زمانه، فندب للتدريس بالمدرسة النظاميّة ببغداد سنة ٤٨٤هـ، وشدّت إليه الرحال، وصار إمام أهل العراق بعد إمامة أهل خراسان، ثمّ خرج إلى الحجاز سنة ٤٨٨هـ فحجّ، ودخل دمشق واستوطنها عشر سنين، ثمّ صار إلى القدس والإسكندريّة، ومنها عاد إلى وطنه طوس مقبلا على التصنيف والعبادة وملازمة التلاوة ونشر العلم، ثمّ ألحّ عليه الوزير فخر الدين بن نظام الدين في التدريس بالنظامية بنيسابور، فأجابه إلى طلبه وأقام هناك مدّة، ثمّ عاد إلى وطنه.

صنّف تصانيف كثيرة، منها: البسيط، والوسيط لخّصه من البسيط مع زيادات، والوجيز وهو مختصر مستفاد من الكتابين السابقين، اقتصر فيه على أخذ القول الراجح، وقد أبدع في تحريره وأتقن في ضبطه، ودقّق في

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٦٥/٥ ـ ٢٢٢، شذرات الذهب ٥٦/٤ ـ ٥٩، وفيات الأعيان ١٦٧/٣ ـ ١٧٠، البداية والنهاية ١٢٨/١٢، النجوم الزاهرة ١٢١/٥، هديّة العارفين ٦٢٦/١، شرف الطالب في أسنى المطالب لابن القنفد ص ٥٨.

اختصاره، وهو كتاب جليل عمدة في المذهب الشافعي اعتنى به الأئمّة، وقيل إنّ له سبعون شرحاً.

وله الخلاصة الفتاوى المشتمل على مائة وتسعين مسألة، وله في الخلاف كتاب المآخذ وكتاب تحصيل المآخذ، وله المستصفى في أصول الفقه، وغير ذلك، وتوفّي وله من العمر خمس وخمسون سنة[١].

* **أبو محمد عبدالجبّار بن محمد بن أحمد الخواري (٤٤٥هـ ـ ٥٣٦هـ)**: نسبة إلى خوار بالريّ، تفقّه على إمام الحرمين وسمع البيهقي، وكان إمام جامع نيسابور ومفتيها[٢].

* **أبو سعد محيي الدين محمد بن يحيى النيسابوري (٥٤٨هـ)**: شيخ الشافعيّة، وصاحب الغزالي انتهت إليه رئاسة المذهب بخراسان، وقصده الفقهاء، وصنّف التصانيف، منها: المحيط في شرح الوسيط[٣].

* **معين الدين أبو حامد محمد بن إبراهيم الجاجرمي (٦١٣هـ)**: ـ نسبة إلى جاجرم بلدة بين نيسابور وجرجان ـ الإمام الفاضل المتقن المبرّز، الذي سكن نيسابور ودرّس بها، واشتغل عليه الناس وانتفعوا به وبكتبه.

صنّف في الفقه كتاب الكفاية، في غاية الإيجاز، مع اشتماله على أكثر المسائل التي تقع في الفتاوى، وله كتاب إيضاح الوجيز، وله كتاب القواعد الذي أكبّ الناس على الاشتغال به من بعده.

وكانت وفاته بنيسابور[٤].

---

(١) شذرات الذهب ١٤٣/٤ ـ ١٤٦، البداية والنهاية ١٧٣/١٢ ـ ١٧٤، النجوم الزاهرة ٢٠٣/٥، هديّة العارفين ٧٩/٢ ـ ٨١، وفيات الأعيان ٢١٦/٤ ـ ٢١٩، طبقات الشافعية الكبرى ١٩١/٦ ـ ٣٨٩، شرف الطالب ص ٥٩.

(٢) شذرات الذهب ٢٦٢/٤، و٢٧٢.

(٣) شذرات الذهب ٣٢١/٤ ـ ٣٢٢، النجوم الزاهرة ٣٠٥/٥، هديّة العارفين ٩١/٢، طبقات الشافعية الكبرى ٢٥/٧ ـ ٢٨، وفيات الأعيان ٢٢٣/٤ ـ ٢٢٤.

(٤) شذرات الذهب ١٣٨/٥، طبقات الشافعية الكبرى ٤٤/٨ ـ ٤٥، وفيات الأعيان ٢٥٦/٤.

واشتهرت **بنيسابور** أسرة السمعاني التي كانت بسماعهم تخشع الأصوات وتخضع الرؤوس، وبأسمائهم تنشرح الصدور وتنشط العقول، وكان منهم:

* **أبو بكر السمعاني تاج الدين محمد بن أبي المظفر منصور بن محمد التميمي (٤٦٦هـ - ٥١١هـ)** المروزي، الإمام ابن الإمام ابن الإمام، ووالد الإمام الحافظ أبي سعد، وجدّ الإمام فخر الدين، نشأ في عبادة الله، وفي تحصيل العلم من صباه، إلى أن أرضى أباه، ثمّ برع في الفقه مستدرّا خلافة من أبيه، بالغا في المذهب والخلاف أقصى مراميه، وزاد على أقرانه وأهل عصره بالتبحّر في علم الحديث ومعرفة الرجال والأسانيد وما يتعلّق به من الجرح والتعديل وحفظ المتون.

خلف أباه في مجالس التدريس والنظر، وسخّر وقته وحياته للإفادة ونشر العلم بجامع مرو[١].

ثمّ حفيده: * **أبو المظفر فخر الدين عبدالرحيم بن عبدالكريم بن أبي بكر محمد (٥٣٧هـ - ٦١٧هـ)**: الذي كان مفتيا عارفاً بالمذهب، وقد رحل الناس إليه، وعنه حدّث الأئمّة: ابن الصلاح والضياء المقدسي وغيرهما، وإليه انتهت رئاسة الشافعيّة ببلده، وبه ختم البيت السمعاني[٢].

وبهراة، نلقى: * **أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (٥١٦هـ)**: نسبة إلى بغ قرية بقرب هراة، يعرف بابن الفراء، ويلقّب محيي السنّة، وركن الدين، عالم أهل خراسان، تفقّه بالقاضي الحسين ولازمه، وهو أخصّ تلاميذه، برع في علوم القرآن والسنّة والفقه، وصنّف التصانيف النافعة، منها: التهذيب في الفقه، وقلّ ما كان يختار لنفسه فيه، وله كتاب الفتاوى مشهور، وهو غير كتاب فتاوى القاضي

---

(١) شذرات الذهب ١٦٦/٤، طبقات المفسّرين ص ٤٧٢ - ٤٧٥، البداية والنهاية ١٨٠/١٢، طبقات الشافعية الكبرى ٥/٧ - ١١، تذكرة الحفاظ ١٢٦٦/٤ - ١٢٦٩.

(٢) شذرات الذهب ١٦٣/٥ - ١٦٤.

حسين الذي علّق هو عنه، وقد بورك في تصانيفه، ورزق فيها القبول الحسن.

كان قانعا يأكل الخبز وحده، فلمّا عذل في ذلك صار يأكله بزيت، توفّي وقد جاوز الثمانين ولم يحجّ، وكانت وفاته بمرو، وبها كانت إقامته(١).

وفي بخارى نلقى:

* **أبو الخطاب محمد بن أحمد بن أبي سعد (٦٠٦هـ)**: رئيس الشافعيّة ببخارى هو، وأبوه، وجدّه، وجدّ جدّه، كان عالم تلك البلاد وإمامها ومحقّقها وزاهدها وعابدها، وكان مجتهد زمانه وعلّامة أقرانه.

صنّف الملخّص والمصباح في الفقه(٢).

وبالكرج - جورجيا اليوم - نلقى:

* **أبو الحسن محمد بن عبدالملك الكرجي (٤٥٨هـ - ٥٣٢هـ)**: شيخ الكرج وعالمها ومفتيها، كان إماماً ورعا، وعالماً عاقلا، وفقيهاً مفتيا، ومحدّثا وشاعرا وأديبا، أفنى عمره في طلب العلم ونشره.

كان شافعيّ المذهب إلاّ أنّه كان لا يقنت في صلاة الفجر، ويقول: لم يصحّ في ذلك حديث، وقد قال إمامنا الشافعي: إذا صحّ الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي الحائط.

صنّف في المذهب والتفسير، وله في الفقه كتاب الذرائع في علم الشرائع، ذكر فيه أنّه أخذ الفقه عن أبي منصور محمد بن أحمد بن محمد

---

(١) شذرات الذهب ١٨٩/٤ - ١٩٠، طبقات المفسّرين ص ١١٣ - ١١٤، البداية والنهاية ١٩٣/١٢، النجوم الزاهرة ٢٢٣/٥، تذكرة الحفاظ ١٢٥٧/٤ - ١٢٥٩، طبقات الشافعية الكبرى ٧٥/٧ - ٨٠، وفيات الأعيان ١٣٦/٢ - ١٣٧.

(٢) شذرات الذهب ٨٨/٥، طبقات الشافعية الكبرى ٤٣/٨.

الأصبهاني، عن الإمام أبي بكر عبيدالله بن أحمد الزاذقاني، عن الشيخ أبي حامد الإسفراييني[١].

فهؤلاء هم أشهر أعلام هذا الدور ممّن حصل لهم قبول، حتّى أصبحوا من مذكوري الزمان ومشهوري المذهب الشافعي بهذه الديار.

أمّا المذهب الحنفي فرغم أنّه لم يكن له من الانتشار بهذه الديار ما كان للمذهب الشافعي في هذا الدور، فقد برز له أعلام كانوا أئمّة الدنيا وأقطاب الفقه وفرسان المناظرة ورؤوس العلم في عصرهم، افتخرت برسمهم المحابر، واهتزّت بعلمهم المحافل.

وكان من أشهر من ظهر منهم بإيران:

* **أبو الفضل الحسين بن أحمد بن الحسين بن سعيد بن علي بن بندار الهمذاني اليزدي (٥٩١هـ)**: نسبة إلى يزد ـ مدينة إيرانيّة جنوب شرقيّ أصبهان ـ وكان تحت يده في بلاده ـ حسب ما ذكر السيوطي ـ اثنا عشر مدرسة فيها من الطلبة ألف ومائتا طالب[٢].

وظهر بخراسان:

* **أبو نصر أحمد بن محمد بن صاعد بن محمد (٤٨٢هـ)** : رئيس الحنفيّة بنيسابور وقاضيها وكبيرها وكان يقال له شيخ الإسلام، غير أنّه كان مبالغا في التعصّب في المذهب[٣].

* **أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل شمس الأئمّة السرخسي (٤٨٣هـ)**: من أهل سرخس بخراسان، كان فقيهاً مجتهداً، وإماماً من أئمّة الحنفيّة في عصره، وكان جريئا في قول الحقّ لا يخاف في الله لومة لائم،

---

(١) شذرات الذهب ٢٥٥/٤، طبقات المفسّرين ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨، البداية والنهاية ٢١٣/١٢، النجوم الزاهرة ٢٦٢/٥، طبقات الشافعية الكبرى ١٣٧/٦ ـ ١٤٧.

(٢) حسن المحاضرة ٢١٣/١ ـ ٢١٤.

(٣) شذرات الذهب ٦٨/٤، النجوم الزاهرة ١٢٩/٥، الفوائد البهيّة ص ٣٤ ـ ٣٥، .

سجنه الخاقان بسبب كلمة حقّ كان فيها من الناصحين، ولمّا خرج من السجن توجّه إلى فرغانة فالتفّ عليه الطلبة وذاع صيته واشتهر.

من مصنّفاته: المبسوط الذي أملاه من خاطره من غير مطالعة أيّ كتاب، وهو في السجن، بأوزجندة بفرغانة، وشرح مختصر الطحاوي، وشرح كتاب الكسب لمحمد بن الحسن، في الفقه، وله أصول السرخسي في أصول الفقه، وغيرها(١).

وكان أكثر أعلامهم **في ما وراء النهر**، واشتهر منهم:

* **أبو بكر محمد بن الحسين البخاري القديدي المعروف ببكر خواهر زادة الحنفي (٤٨٣هـ)**: شيخ الطائفة بما وراء النهر الذي برع في المذهب وفاق الأقران، وصنّف شرح المبسوط لمحمد بن الحسن، ويسمّى مبسوط البكري، وكانت وفاته ببخارى(٢).

* **طاهر بن برهان الدين محمود بن تاج الدين أحمد (٤٤٢هـ ـ ٥٠٤هـ)**: المعروف بصدر الإسلام البخاري، صنّف فتاوى البخاريّة، والفوائد في الفقه(٣).

* **أبو محمد عمر بن عبدالعزيز بن عمر بن مازة (٤٨٣هـ ـ ٥٣٦هـ)**: المعروف بحسام الدين الشهيد، أحد أعيان الفقهاء، وأوحد أهل زمانه فيما وراء النهر.

صنّف كتاب الأجناس المعروف بالواقعات في الفروع، والجامع

---

(١) الفوائد البهيّة ١٥٨، الجواهر المضية ٧٨/٣، تاج التراجم ١٨٢، كشف الظنون ٤٨٣/٢، و٥١٨، هدية العارفين ٧٦/٢، النجوم الزاهرة ١٢٩/٥.

(٢) شذرات الذهب ٧٠/٤، الفوائد البهيّة ص ١٦٣، الجواهر المضية ١٤١/٣، تاج التراجم ٢١٣ كشف الظنون ٤٨٢/٢ ـ ٤٨٣.

(٣) تاج التراجم ١١٠، كشف الظنون ٢١٣/٢، و٣٥٢/٥ ـ ٣٥٣.

الصغير في الفروع كذلك، وله الفتاوى الكبرى والفتاوى الصغرى وعمدة المفتي والمستفتي وغيرها[١].

* **طاهر بن أحمد بن عبدالرشيد بن الحسن (٥٤٢هـ)**: المعروف بافتخار الدين البخاري، شيخ الحنفيّة بما وراء النهر، صنّف خزانة الواقعات ونصاب الفقيه ومنهما لخّص كتابه المسمّى بخلاصة الفتاوى، وقال فيه: كلّ مسألة أذكرها من الفتاوى أو في فتاوى الأصل، فهي من مسائل الواقعات المنسوب تأليفها للصدر الشهيد حسام الدين[٢].

* **أبو نصر ـ وقيل أبو القاسم ـ زين الدين أحمد بن محمد بن عمر العتّابي البخاري (٥٨٦هـ)**: أحد من سار ذكره في الآفاق، كان الإمام الكردريّ ملازما له، صنّف كتاب جوامع الفقه وشرح الجامع الصغير وشرح الزيادات، أوجز فيه العبارات واجتهد في بسط ما صعب منها، وقد اشتهر هذا الشرح ورواه عنه جماعة منهم شمس الأئمّة الكردري، والعتّابي: نسبة إلى «دار عتّاب» ببخارى[٣].

وبمدينة **سمرقند** ظهر:

* **أبو الحسن عليّ بن محمد بن الحسين بن عبدالكريم البزدوي (٤٨٢هـ)**: من أهل سمرقند، ينسب إلى بزدة قلعة بالقرب من نسف ـ المعروف بفخر الإسلام، كان فقيهاً أصوليًّا من أكابر الحنفيّة، صنّف:

المبسوط في الفقه، وكنز الوصول المعروف بأصول البزدوي وشرح الجامع الصغير[٤].

---

(١) الفوائد البهيّة ١٤٩، الجواهر المضية ٢/٦٤٩، تاج التراجم ١٦١، كشف الظنون ٢/٢١٦، و٥/٦٢٤.

(٢) الفوائد البهية ٨٤، الجواهر المضية ٢/٢٧٦، تاج التراجم ١٠٩، كشف الظنون ١/٥٤٠، و٢/٧٥٨ ـ ٧٥٩، و٥/٣٥٣.

(٣) الفوائد البهيّة ٣٦، الجواهر المضية ١/٢٩٨، تاج التراجم ٢٥، طبقات المفسّرين ص ٦٢، كشف الظنون ١/٤٧٨، و٢/١٥.

(٤) الفوائد البهيّة ١٢٤، الجواهر المضية ٢/٥٩٤، تاج التراجم ١٤٦، كشف الظنون ٢/٤٨٣، و٤/٢٥٩.

* **أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد النسفي السمرقندي (٤٦٢هـ ـ ٥٣٧هـ)**: كان فقيهاً فاضلا، وإماماً مبرّزا متفنّنا، وعارفاً بالمذهب والأدب، صنّف التصانيف في الفقه والحديث والتفسير والشروط، ونظّم الجامع الصغير لمحمد بن الحسن، وبلغت تصانيفه المائة مصنّف، وكانت وفاته بسمرقند[١].

* **أبو منصور علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي** : من أهل سمرقند، شيخ الإمام الكاساني، كان شيخاً فاضلاً جليل القدر، صنّف كتاب تحفة الفقهاء، زاد فيه على مختصر القدوري ورتّبه أحسن ترتيب وشرحه تلميذه أبو بكر الكاساني شرحاً عظيماً وسمّاه بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ولمّا أتمّه عرضه على شيخه فاستحسنه وزوّجه ابنته فاطمة ـ وكانت فقيهة ـ قيل توفي سنة ٥٣٩ وقيل ٥٤٠، وقيل بعد ذلك[٢].

* **ركن الدين أبو حامد محمد العميدي السمرقندي (٦١٥هـ)** الإمام في علم الخلاف، وصاحب التصانيف في المذهب، منها الإرشاد في علم الخلاف والجدل، وكتاب النفائس، وكانت وفاته ببخارى[٣].

وبمدينة فرغانة الأوزبكستانيّة لمع نجم:

* **فخر الدين الحسن بن منصور بن محمود بن عبدالعزيز الأوزجندي الفرغاني (٥٩٢هـ)**: المعروف بقاضي خان، مفتي الشرق وبقيّة السلف، من طبقة المجتهدين في المسائل وعليه تفقّه شمس الأئمّة الكردري.

صنّف الفتاوى المعروفة بفتاوى قاضيخان، وهي فتاوى مشهورة مقبولة

---

(١) شذرات الذهب ٢٧٦/٤، طبقات المفسّرين ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧، الفوائد البهيّة ١٤٩، الجواهر المضية ٦٥٧/٢، تاج التراجم ١٦٢، هديّة العارفين ٧٨٣/١، معجم الأدباء ٢٠٩٨/٥ ـ ٢٠٩٩.

(٢) الفوائد البهيّة ١٥٨، الجواهر المضية ١٨/٣، تاج التراجم ٢٠٦،، كشف الظنون ٣١٦/١ ـ ٣١٧.

(٣) الفوائد البهية ٢٠٠، الجواهر المضية ٣٥٥/٣، تاج التراجم ١٩٩، شذرات الذهب ١٤٩/٥، كشف الظنون ١١٥/١، وفيات الأعيان ٢٥٧/٤.

معمول بها متداولة بين أيدي العلماء والفقهاء، كانت هي نصب عين من تصدّر للحكم والإفتاء، وشرح الجامع الصغير والزيادات[(١)].

*** أبو الحسن عليّ بن أبي بكر برهان الدين المرغيناني (٥٩٣هـ)**: نسبة إلى مرغيلان في أوزبكستان، بلغ رتبة الاجتهاد في المذهب وصنّف المصنّفات المعتبرة في فروع الفقه الحنفي كبداية المبتدي وهو مختصر ذكر فيه أنّه جمع بين مختصر القدوري والجامع الصغير، واختار ترتيب الجامع الصغير تبرّكا بما اختاره محمد بن الحسن وشرحه في كتاب سمّاه الهداية أمضى في تأليفه ثلاث عشرة سنة، وكان قد أمضى حياته بفرغانة[(٢)].

وبخوارزم ظهر خاتمة أئمّة الحنفيّة في هذا الدور: *** شمس الأئمّة محمد بن عبدالغفار بن محمد العلماوي الكردري (٦٤٣هـ)**: ـ نسبة إلى كردر ناحية بخوارزم ـ كان أستاذ الأئمّة على الإطلاق، والموفود إليه من الآفاق، برع في معرفة المذهب، ورفع علم أصول الفقه بعد اندراسه من زمن القاضي أبي زيد الدبوسي وشمس الأئمة السرخسي، وعنه تفقّه كثير من الفقهاء، وكانت وفاته ببخارى[(٣)].

واختصّت **حرّان** ـ مدينة قديمة في تركيا ما بين النهرين ـ بالمذهب الحنبلي وأقبلت عليه، واشتهر أعلام من أهلها بالتقيّد به والتزامه، وكان من أشهر القائمين عليه:

*** أبو الكرم فتيان بن مباح بن حمد الحراني (٥٦٦هـ)**: الذي دخل بغداد وتفقّه بها على مذهب الإمام أحمد، ثمّ عاد إلى بلده حران، فأفتى به ودرّس إلى أن مات، وكان فهما في الأحكام، ومواقع الحلال والحرام،

---

(١) الفوائد البهية ٦٤، الجواهر المضية ٩٣/٢، تاج التراجم ٨٢، شذرات الذهب ١٥/٥ ـ ١٦، الأعلام ١٣٣/١، كشف الظنون ١٤٤/١ و٢ /١٥ و٢١٨/٢.

(٢) الفوائد البهيّة ١٤١، الجواهر المضية ٦٢٧/٢، تاج التراجم ١٤٨، كشف الظنون ٢٢٥/١ و٨١٦/٢.

(٣) شذرات الذهب ٣٣٨/٥.

وعنه تلقّى أهلها منهم: فخر الدين بن تيميّة(١).

* **أبو الفضل حامد بن محمود بن حامد بن أبي عمرو الحراني (٥١٣هـ ـ ٥٧٠هـ)** : المعروف بابن أبي الحجر، ويلقّب تقيّ الدين: شيخ حران في وقته وخطيبها ومدرسها ومفتيها.

رحل إلى بغداد وتفقّه بها، وبرع وناظر، ثمّ عاد إلى حران فأفتى ودرّس، وعنه أخذ العلم جماعة من أهل حران منهم: الخطيب فخر الدين بن تيميّة(٢).

* **أبو محمد عبدالمحسن بن يعيش بن إبراهيم بن يحيى الحراني (٦١١هـ)** : سمع بحران، ثمّ رحل إلى بغداد فأقام بها مدّة حيث قرأ المذهب والخلاف حتّى تميّز ، ثمّ عاد إلى حران فأقام بها(٣).

* **أبو الخير موفّق الدين سلامة بن صدقة الحراني (٦٢٧هـ)**: الذي تفقّه ببغداد، وكان من أهل الفتوى مشهورا بعلم الفرائض والحساب والجبر، وكانت وفاته ببلده حران(٤).

* **ناصح الدين عبدالقادر بن عبدالظاهر بن عبدالمنعم الحراني (٥٦٤هـ ـ ٦٣٤هـ)**: شيخ حران ومفتيها، سمع ببلده، ثمّ بدمشق، ثمّ ببغداد، وكان معروفا بالفتوى في مذهب أحمد، طلب للقضاء فأبى، ودرّس في آخر حياته بمدرسة بني العطار، من تصانيفه: المذهب المنضد في مذهب أحمد(٥).

ومن أبناء حران وفقهائها:

* **أبو الفتوح وأبو الخطاب شمس الدين عمر بن أسعد بن المنجي**

---

(١) شذرات الذهب ٣٩٩/٤.
(٢) شذرات الذهب ٤١٩/٤ ـ ٤٢٠.
(٣) شذرات الذهب ١٢٦/٥.
(٤) شذرات الذهب ٢٢٤/٥.
(٥) شذرات الذهب ٢٧٦/٥ ـ ٢٧٧.

الحراني (٥٥٧هـ ـ ٦٤١هـ): ولد بحران حين كان أبوه قاضيها في عهد نور الدين، وبها نشأ وتفقّه، ثمّ خرج إلى دمشق، ثمّ العراق وخراسان.

كان عارفاً بالقضاء بصيراً بالشروط، ولّي قضاء حران ثمّ استوطن دمشق وبها توفّي(١).

وممّن نزل مدينة حران واستوطنها من أعلام المذهب الحنبلي:

* **أبو الفتح أحمد بن أبي الوفاء عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالصمد (٤٩٠هـ ـ ٥٧٥هـ)**: البغدادي نزيل حران، الذي ولد ببغداد ولزم أبا الخطاب الكلوذاني وتفقّه عليه، ثمّ سافر إلى حلب وسكنها ثمّ استوطن حران إلى حين وفاته، وكان هو المفتي والمدرّس بها، وقرأ عليه الفقه جماعة من أهلها منهم: الشيخ فخر الدين بن تيميّة(٢).

وكانت أعظم أسرة اشتهرت بحران، هي أسرة ابن تيميّة التي تربّعت على عرش المذهب الحنبلي تدريسا وتعليما، وخطابة ووعظا، وإرشادا وتوجيها، وكان أشهر أفرادها في هذا الدور:

* **فخر الدين بن تيميّة أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد الحراني (٥٤٢هـ ـ ٦٢٢هـ)**: شيخ حران وعالمها وخطيبها وواعظها، اشتغل بالعلم منذ الصغر، وتردّد على فتيان بن مياح وغيره، ثمّ ارتحل إلى بغداد وتفقّه بها على أبي الفتح بن المنى ولازم ابن الجوزي، ثمّ عاد إلى حران وجدّ في الاشتغال والبحث وأخذ في التدريس والوعظ والتصنيف وإلقاء التفسير بجامع حران، وواظب على ذلك حتّى فسّر القرآن خمس مرّات، له تصانيف كثيرة، منها: ثلاث مصنّفات في المذهب والموضح في الفرائض(٣).

---

(١) شذرات الذهب ٣٣٠/٥، النجوم الزاهرة ٣٤٩/٦، تذكرة الحفاظ ١٤٣٥/٤.
(٢) شذرات الذهب ٤٣٣/٤.
(٣) شذرات الذهب ١٩٦/٥، البداية والنهاية ١٠٩/١٣، النجوم الزاهرة ٣٦٢/٦ ـ ٣٦٣، وفيات الأعيان ٣٨٦/٤ ـ ٣٨٨.

وقام مقامه من بعده ابنه:

*** أبو محمد سيف الدين عبدالغنيّ بن فخر الدين بن تيميّة الحراني (٥٨١هـ - ٦٣٩هـ)**: خطيب حران وابن خطيبها الفخر، سمع ببلده حران من والده، ثمّ رحل إلى بغداد فتفقّه بها، ثمّ عاد إلى حران وقام مقام أبيه بعد وفاته، فكان يخطب ويعظ ويدرّس ويلقي التفسير في الجامع[(١)].

ثمّ قام من بعده ابن عمّه وزوج أخته:

*** أبو البركات عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم الخضر بن محمد الحراني (٥٩٠هـ - ٦٥٢هـ)**: **مجد الدين ابن تيميّة**، شيخ الإسلام وأحد الحفاظ الأعلام، فقيه الوقت من أعيان العلماء وأكابر الفضلاء وفرد زمانه في معرفة المذهب الذي إليه المرجع في الفقه الحنبلي وعليه المعوّل، وهو جدّ شيخ الإسلام ابن تيميّة.

حفظ القرآن ببلده حران، وسمع من عمّه، ثمّ ارتحل إلى بغداد سنة ٦٠٣هـ مع ابن عمّه سيف الدين عبدالغنيّ، وأقام بها ستّ سنين يشتغل بأنواع العلوم، ثمّ رجع إلى حران فولي بها التفسير والتدريس بعد ابن عمّه، وكان عجباً في حفظ الأحاديث وسردها، وحفظ مذاهب العلماء بلا كلفة، رأسا في الفقه وأصوله، فرد زمانه في معرفة المذهب، بارعا في الحديث ومعانيه، له اليد الطولى في القراءات والتفسير، وكان يقال: أُلين للشيخ المجد الفقه كما أُلين لداود الحديد.

صنّف التصانيف الكثيرة، منها: المنتقى في الأحكام وهو الكتاب المشهور، وله المحرّر في الفقه، ومنتهى الغاية في شرح البداية[(٢)].

وأمّا المذهب المالكي فلم يكن له بهذه البلاد موطن قدم، ولم يعرف له بهذه الأصقاع ذكر ولا خبر.

---

(١) شذرات الذهب ٣٢٢/٥.

(٢) شذرات الذهب ٣٨٧/٥، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ٤١٥ و٤٣٣.

ـ ٥ ـ بلاد المغرب:

انحصر عمل أهل المغرب على الفقه المالكي، واقتصروا على اعتناق مذهبه دون سواه من المذاهب الفقهيّة الأخرى، والذين ذاع صيتهم في هذا الدور وتحدّثت بمؤلّفاتهم النفيسة الأجيال تلو الأجيال كثيرون لا يسعنا أن نستقصي جميع أسمائهم الكريمة، ولا أن نعرّف بجميع من قام منهم على دفع الحركة الفقهيّة في بلاد المغرب وأسهم في ازدهارها وتنشيطها.

وحسبنا من ذلك أن نلقي الأضواء على من كان منهم في طليعة الركب، ممّن ذاعت أسماؤهم عبر الأقطار، وامتدّت أصواتهم عبر الأعصار.

ونفتتح بأعلاهم مجدا وأسماهم قدرا ذاك الذي ظهر بالمغرب الأدنى ـ القطر التونسي ـ وابتدأ يجنح إلى اللحاق برجال دور التفريع في منزلتهم من الاجتهاد المقيّد، ألا وهو:

*** أبو الحسن عليّ بن محمد الربعي (٤٧٨هـ): المعروف باللخمي،** أصيل القيروان، ونزيل مدينة صفاقس، ومن أعيان فقهائها وأفاضلها المشهورين.

تفقّه بأعلام الدور السابق من أمثال: ابن محرز، وابن بنت خلدون، والتونسيّ والسيّوري وغيرهم، حتّى ظهر في أيّامه، وطارت فتاويه عبر الأقطار، كان فقيه وقته وأبعد الناس صيتا في بلده، وبقي بعد أصحابه، حتّى حاز رئاسة بلاد إفريقيّة جملة[1].

كان الإمام اللخمي قد أدخل على المنهج الذي كان يسير عليه الفقه من منتصف القرن الثالث إلى منتصف القرن الخامس، نزعة جديدة، هي نزعة التصرّف في المذهب، حيث كان في شرحه على المدوّنة الذي سمّاه

---

(١) ترتيب المدارك ٧٩٧/٤، الديباج المذهب ص ٢٩٨، معالم الإيمان ٢٤٦/٣، نزهة الأنظار المشهورة بدائرة مقديش ٢٧٦/٢ ـ ٢٧٧، كشف الظنون ٥٥٥/٥، تراجم المؤلفين التونسيين ٢١٤/٤ ـ ٢١٩، شجرة النور الزكيّة ص ١١٧، هديّة العارفين ٦٩٢/١، معجم المؤلفين ١٩/٧، كتاب العمر ٦٨٢/٢ ـ ٦٨٤.

بالتبصرة يعتمد أحياناً على نقد الأقوال من ناحية إسنادها، وأحياناً ينتقدها من ناحية رشاقة استخراجها من الأصول التي استخرجت بها، حتّى أنّ المتأخّرين جعلوا تصرّفات الإمام اللخمي في المذهب المالكي وما يأتي به من القول اختيارا[١].

وهكذا كان اللخمي مقدّما بتخريج الخلاف في المذهب واستقراء الأقوال، بحيث كان يتّبع أحياناً ما ظهر له فيخالف المذهب فيما ترجّح عنده، فكانت اختياراته بذلك تخرج في الكثير من المسائل عن قواعد المذهب.

توفّي بمدينة صفاقس، ومسجده هناك مشهور، وقبره خارج سور المدينة يعرفه الخاص والعام[٢].

وكان أبرز من تكوّن بالإمام اللخمي، وسلك طريقته النقديّة الجديدة، ثلاثة من أعلام بلاد المغرب، اثنان تونسيان، وواحد من المغرب الأقصى، فأمّا التونسيان فهما:

*** أبو عبدالله محمد بن عليّ بن عمر التميمي المازري (٥٣٦هـ):**
أصيل مدينة مازر ـ على الساحل الجنوبي من جزيرة صقليّة، تقابل شمال البلاد التونسيّة ـ ونزيل مدينة المهديّة وحامل لواء الفقه فيها وفي إفريقيّة وما وراءها من المغرب.

كان الإمام المازري آخر المشتغلين من شيوخ إفريقيّة بتحقيق الفقه، ورتبة الاجتهاد، ودقّة النظر، خاتمة العلماء المحقّقين والأئمّة الأعلام المجتهدين، قد بلغ رتبة الاجتهاد، وكان الإمام لقبا له، فلا يعرف بغير الإمام المازري.

اطّلع على علوم كثيرة من الطبّ والحساب والأدب، وغير ذلك،

---

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٨١.

(٢) انظر: المصادر السابقة في ترجمته.

ودرّس الفقه وأصوله، وتقدّم في ذلك حتّى كان أحد رجال الكمال في العلم في وقته، ولم يكن في عصره للمالكيّة في أقطار الأرض في وقته أفقه منه، ولا أقوم لمذهبهم، وكان يفزع إليه في الفتوى في الطبّ في بلده، كما يفزع إليه في الفتوى في الفقه.

صنّف في الفقه شرح التلقين للقاضي عبدالوهاب، يقال: ليس للمالكيّة مثله، وتعليق على مدوّنة الإمام سحنون، وكشف الغطا عن لمس الخطا، وهي رسالة في مسألة فقهيّة استفتي فيها فأجاب عنها بإيضاح وعلم وتحقيق، وله جامع مسائل الأحكام ممّا نزل بالمفتين والحكّام، وصنّف في أصول الفقه شرح البرهان للجويني، وسمّاه إيضاح المحصول من برهان الأصول، وله شرح على صحيح مسلم.

توفّي بالمهديّة، عن نيف وثمانين سنة، ودفن بمدينة المنستير، وقبره بها مشهور معروف[1].

*** أبو طاهر إبراهيم بن عبدالصمد بن بشير التنوخي المهدوي (كان حيًا سنة ٥٢٦هـ)**: كان إماماً عالماً، مفتياً جليلاً فاضلاً، ضابطاً متقناً، حافظاً للمذهب، إماماً في أصول الفقه والعربيّة والحديث، من العلماء المبرّزين في المذهب، المترفّعين عن درجة التقليد إلى رتبة الاختيار والترجيح.

صنّف كتاب الأنوار البديعة إلى أسرار الشريعة، وهو كتاب جامع من أمّهات الفقه المالكي، وله التنبيه على مسائل التوجيه، وهو شرح على المدوّنة مشى فيه على استنباط أحكام الفروع من قواعد أصول الفقه، وسار فيه على منهجه في الاختيار والترجيح، وذكر أنّ من أحاط به علماً ترقّى

---

(١) شجرة النور الزكيّة ص ١٢٧ ـ ١٢٨، الديباج المذهب ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥، شذرات الذهب ٢٧٣/٤ ـ ٢٧٤، تراجم المؤلفين التونسيين ٢٣٢/٤ ـ ٢٣٨، معجم المؤلفين ٣٢/١١، النجوم الزاهرة ٢٦٩/٥، هديّة العارفين ٨٨/٢، كتاب العمر ٦٩٦/٢ ـ ٧٠٤، وفيات الأعيان ٢٨٥/٤، شرف الطالب ص ٦٢.

عن درجة التقليد، وتعقّب في كتابه هذا على أبي الحسن اللخمي في كثير من المسائل، وردّ عليه اختياراته الواقعة في كتاب التبصرة، وتحامل عليه في كثير منها، وله أيضاً التهذيب لمسائل التهذيب، وهو كالشرح لتهذيب البراذعي، وكتاب التحرير وهو مختصر يحفظه المبتدئون فرغ من تأليفه سنة ٥٢٦هـ.

لم أقف على تاريخ وفاته، والثابت أنّه توفّي بعد سنة ٥٢٦هـ، حيث ذكر ابن بشير في كتابه المختصر أنّه أكمله في سنة ٥٢٦هـ[(١)]، وأكّد محمد العروسي المطوي وبشير البكوش في مراجعتهما لكتاب العمر أنّ ابن بشير عاش بعد سنة ٥٧٣هـ[(٢)].

وأمّا الذي هو من المغرب الأقصى، فهو:

* **القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي (٤٩٦هـ ـ ٥٤٤هـ)**: الأندلسي الأصل، السبتي الدار والميلاد، المراكشي الوفاة، كان إمام وقته في الحديث وعلومه، عالماً بالتفسير وجميع علومه، فقيهاً أصوليّا، بصيرا بالأحكام، حافظاً لمذهب مالك، إمام وقته في علوم شتّى، عديم النظير، حسنة من حسنات الأيّام.

رحل إلى الأندلس سنة ٥٠٧هـ في طلب العلم، ثمّ إلى المشرق، وكان معتنيا بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم، وقد اجتمع له من الشيوخ بين من سمع منه وأجاز له، نحو مائة شيخ، ألّف فيهم فهرسة سمّاها الغنية.

ومن أشهر شيوخه: أبو الوليد ابن رشد وأبو بكر ابن العربي وأبو بكر ابن عطيّة، فكان ابن رشد أجلّ شيوخه في نفسه، وأقواهم تأثيرا عليه، وكانت طريقة ابن رشد في الفقه قد تأثرت بالمنهاج الذي خطّه أبو الوليد الباجي، في خدمة الفقه بالأنظار والأصول، وتأسيس المسائل وتفريعها،

---

(١) الديباج المذهب ص ١٤٢ ـ ١٤٣، شجرة النور الزكيّة ص ١٢٦، معجم المؤلفين ٤٨/١، تراجم المؤلفين التونسيين ١٤٣/١، كتاب العمر ٦٩٣/٢ ـ ٦٩٥.

(٢) كتاب العمر ٦٩٤/٢.

وهي الطريقة التي امتاز بها الكتاب الشهير لابن رشد: كتاب المقدّمات الممهّدات، فتخرّج عياض على تلك الطريقة في فقهه.

ثمّ كان لابن العربي ولابن عطيّة يد في إكمال تخريجه وتحلية تحصيله، وكلاهما ممّن تخرّج في المشرق على الأصول الأشعريّة والحكمة الغزاليّة، فكانا له علمين على طريقة الاتجاه، وبهما أشرب قلبه أسلوب الفقه المبني على الكلام والأصول، وهي طريقة إمام الحرمين، التي وصلها بالفقه المالكي أبو عبدالله المازري، فاتّصل عياض بالمازري بالمكاتبة ووردت عليه من المهديّة كتبه وإجازته.

أجلسه أهل سبتة للمناظرة عليه في المدوّنة، وهو ابن ثلاثين سنة، ثمّ أجلس للشورى، ثمّ ولّي قضاء بلده مدّة طويلة، ثمّ نقل إلى قضاء غرناطة في سنة ٥٣١هـ، ثمّ عاد إلى قضاء سبتة ثانية.

صنّف تصانيف مفيدة، منها: التنبيهات المستنبطة على الكتب المدوّنة، جمع فيه غرائب من ضبط الألفاظ وتحرير المسائل، وله مختصر وجيز لخّص فيه مسائل العقائد والعبادات، وأبدع في تأسيسه على قواعد الإسلام، وأحسن تصنيفه وسبكه وتزيينه، وهو المعروف بكتاب القواعد، وقد كتبت عليه شروح.

وصنّف كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، أبدع فيه كلّ الإبداع، وانفرد به في موضوعه، وكان له مزيّة السبق إليه، حتّى تشوّف أكفاؤه للوقوف عليه، وأنصفوا في الاستفادة منه، وطارت نسخه شرقا وغربا، وتعاقب عليه الشراح والمختصرون والمعلّقون والمخرّجون، من صدر القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر، وله كذلك في الأدب والتاريخ آثار كثيرة[١].

---

(١) الديباج المذهب ص ٢٧٠ ـ ٢٧٣، النجوم الزاهرة ٢٨٦/٥، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٥٦ ـ ٦٢، شذرات الذهب ٣٠٤/٤ ـ ٣٠٥، البداية والنهاية ٢٢٥/١٢، النجوم الزاهرة ٢٨٥/٥، هديّة العارفين ٨٠٥/١، شجرة النور الزكيّة ص ١٤٠ ـ ١٤١، وفيات الأعيان ٤٨٣/٣ ـ ٤٨٥، تذكرة الحفاظ ١٣٠٤/٤ ـ ١٣٠٧، شرف الطالب ص ٦٢.

ومن أقران الإمام اللخمي ومعاصريه:

*** أبو محمد عبدالحميد بن محمد المعروف بابن الصائغ (٤٨٦هـ):** الذي أدرك جماعة من كبار فقهاء الدور السابق كأبي إسحاق التونسي صاحب التعليقة على المدوّنة وأبي القاسم التونسي وعبدالخالق السيّوري، وعليه كان اعتماده، وتضلّع في العلوم الشرعية وأصبح فقيهاً نبيلاً فهما فاضلا وأصوليّا نظّاراً جيّد الفقه قويّ العارضة محقّقا.

لزم المهديّة ودارت عليه فتواها في زمن الأمير الصنهاجي المعز بن باديس، ثمّ حدث أن ثارت مدينة سوسة على تميم بن المعزّ الصنهاجي، قبض على جماعة منهم ولد الشيخ عبدالحميد وضربه وأغرمه ستمائة دينار، فاضطرّ الشيخ عبدالحميد إلى بيع كتبه لدفع الغرامة، ومن ذلك الحين انقبض على الفتوى والتزم داره وأظهر التجافي، فلم يعد يجالس أحداً ولا ينتفع به في شيء.

وحاول السلطان تميم بن المعزّ إرضاءه فلم يفلح، وبقي الشيخ على حالته تلك ستّة أعوام، ثمّ تحيّل في الخروج إلى سوسة متعلّلا بحسن هوائها، فخرج إليها سنة ٤٨٠هـ، وفي سوسة عاد الشيخ عبدالحميد إلى نشاطه المعهود في الإفتاء والتدريس وانتفع به ناس كثيرون إلى أن وافاه الأجل المحتوم، ودفن بالمكان الذي اشتهر باسمه، وعرف إلى يوم الناس هذا، بسيدي عبدالحميد.

صنّف تعليقا مهمّا على المدوّنة مشهور أكمل به الكتب التي بقيت على التونسي، ودرس عليه أبو عبدالله المازري وأبو علي حسّان البربري وأبو الحسن الحوفي، وأخذ عنه من أهل الأندلس أبو بكر ابن عطيّة، وكان أصحابه يفضّلونه على أبي الحسن اللخمي قرينه تفضيلا كثيراً[1].

(١) ترتيب المدارك ٧٩٤/٤ ـ ٧٩٦ ، معالم الإيمان ٢٤٨/٣ ـ ٢٤٩ ، الديباج المذهب ص ٢٦٠، نزهة الأنظار ٣٨١/١ ـ ٣٨٢ ، شجرة النور الزكية ص ١١٧ ، تراجم المؤلفين التونسيين ٢٢٥/٣ ـ ٢٢٦ ، كتاب العمر ٦٨٥/٢ ـ ٦٨٧.

ونلقى بالمغرب الأدنى في آخر هذا الدور:

*** أبو عبدالله محمد بن عبدالجبّار الرعيني السوسي (٥٨٧هـ - ٦٦٢هـ)** الفقيه المتقن، الذي تلقّى العلم عن قاضي المهديّة المحدّث أبو يحيى زكرياء بن الحدّاد من أكابر تلامذة الإمام المازري، وإذا علمنا أنّ الإمام المازري قد أخذ بدوره عن الإمام اللخمي وعبدالحميد الصائغ، وأنّ هذين الأخيرين قد أخذا عمّن سبقهما كابن بنت خلدون وعبدالخالق السيّوري ومن في طبقتهما الذين تلقّوا بدورهم عن ابن أبي زيد وأبي الحسن القابسي، وأنّ هذا السند العلمي في تلقّي الفقه المالكي بقي يتسلسل بسند متّصل إلى أن وصل إلى الإمام سحنون فعبدالرحمٰن بن القاسم فإمام المذهب ومؤسّسه مالك بن أنس.

إذا تبيّن هذا اتّضح أنّ ابن عبدالجبّار الرعيني يعتبر واسطة كبيرة وعقدا فريدا في انتقال سند الفقه المالكي من القيروان والمهديّة إلى مدينة تونس التي أصبحت في نهاية هذا الدور عاصمة الدولة الحفصيّة.

وقد وصفه ابن الأبار معاصره بالأستاذ، وكان كثيراً ما يوجد خطّه بالإجازات على ظهور الكتب وفي أواخرها بتصحيح المقابلة.

كان يقرىء في كلّ علم من العلوم ويبتدىء القارىء عليه من التجويد إلى حيث قضيت قسمته من العلوم وقد أقرأ بجامع الزيتونة الأمير أبي زكرياء يحيى بن عبدالواحد الحفصي (٦٤٧هـ) وتتلمذ عليه أقطاب العلم في عصره من أمثال قاضي الجماعة والخطيب والمدرّس بالجامع الأعظم أبو إسحاق إبراهيم ابن حسن بن عبدالرفيع الربعي التونسي (٧٣٣هـ) وأبو محمد عبدالعزيز بن إبراهيم التونسي (٦٦٣هـ) المعروف بابن بزيزة من أئمّة المذهب المالكي المعتمد عليهم، والذين بلغوا رتبة الاجتهاد[١].

ويقول المرحوم الشيخ محمد الشاذلي النيفر: ونجزم جزما يقينا أنّه ترك مدرسة من طلبته بمدينة سوسة لكثرة من أنجبهم من الأشياخ.

---

(١) نيل الابتهاج ٢٩٥/١.

طال عمره حتى أصبح يسمّى ملحق الآباء بالأبناء، فأقرأ الحفيد والأب والجدّ حتى وافاه الأجل بتونس وقد بلغ من العمر خمس وتسعون سنة[١].

وفي **المغرب الأوسط ـ الجزائر ـ** اشتهرت مدينتان بحمل لواء العلم والفقه، لمعتا في سماء الجزائر وعلت منزلتهما واشتهرتا بتخريج العلماء، هاتان المدينتان هما: قلعة بني حمّاد وبجاية.

فأمّا قلعة بني حمّاد فقد تأسّست سنة ٣٩٨هـ، وكانت حاضرة علم، استمرّ نشاطها خلال هذا الدور طوال مائة عام إلى أن خرّبها الموحّدون سنة ٥٤٧هـ، ونبغ خلال هذه الفترة من أشهر أعلامها:

*** أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي (٥١٣هـ)** : ناظم المنفرجة، توزريّ الأصل، من قلعة بني حمّاد، صحب الإمام اللخمي، وأخذ عنه صحيح البخاري، وتتلمذ عليه مع الإمام المازري، ثمّ أخذ بعد ذلك عن المازري.

كان من العلماء العاملين، ومن أهل العلم والفضل، عارفاً بالأصول والفقه، يميل إلى النظر والاجتهاد، قد حصلت له المزيّة في الفقه والنظر، وأخذ عنه من الأئمّة الأعلام النظّار كالفقيه أبي عبدالله محمد بن الرمانة مفتي فاس، وغيره.

ورد مدينة فاس سنة ٤٩٤هـ، ثمّ سافر إلى قلعة بني حمّاد واستقرّ بها للإقراء والتدريس إلى أن توفّي عن ثمانين سنة[٢].

---

(١) الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية لابن قنفذ ص ١٢٦، الحلة السيراء لابن الأبار ٢٣٥/٢، رحلة التجاني ص ٥٢ ـ ٥٣، الحلل السندسية في الأخبار التونسيّة للوزير السراج ٣١٦/٢ ـ ٣١٧، نزهة الأنظار ١٩٢/٢، شجرة النور الزكية ص ١٩٠، محاضرة بعنوان علماء سوسة ودورهم في بناء الحضارة للمرحوم الشيخ محمد الشاذلي النيفر ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٢) توشيح الديباج لبدر الدين القرافي ص ٢٦٥، نيل الابتهاج للتنبكتي ٣١٩/٢ ـ ٣٢٣، شرف الطالب ص ٦٠.

وأمّا **بجاية** ـ عاصمة بني حمّاد الثانية ـ التي تأسّست سنة ٤٦١هـ، فقد كانت اسماً خالداً في تاريخ بلاد المغرب بشكل عام، والجزائر بشكل خاص، على مدى أربعة قرون ونصف، ولم تعرف تراجعا في مسيرتها العلميّة إلاّ حين نالت منها أيدي العابثين من المستعمرين الأسبان سنة ٩١٥هـ بالتخريب والتدمير.

وقد ترجم الشيخ أبو العباس أحمد الغبريني (٧٠٤هـ) في كتابه «عنوان الدراية» لمن اشتهر ذكره، ونبل قدره، وظهرت جلالته، وعرفت مرتبته في العلم ومكانته، من علماء المائة السابعة ببجاية، التي تعدّ من أعظم الفترات نشاطاً بالنسبة لهذه المدينة، ووصلهم بذكر ثلاثة أعلام كانوا في أعقاب المائة السادسة لانتشار فخرهم.

وهؤلاء الأعلام الثلاثة هم:

* **أبو مدين شعيب بن الحسين (٥٩٤هـ) الأندلسي البجائي**: الذي اشتهر بشيخ المشائخ، رحل إلى المشرق وأخذ عن العلماء، ثمّ رجع إلى بجاية واشتهر بها أمره، وكانت الفتاوى ترد إليه في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت، وقصده الناس من جميع الأقطار، وتخرّج عليه أكثر من ألف شيخ.

كان رجلاً زاهداً فاضلاً عارفاً بالله تعالى، قد جمع بين الشريعة والحقيقة، من أعلام العلماء، استوطن بجاية وكان يفضّلها على كثير من المدن، ويقول: إنّها تعين على طلب الحلال، وكانت وفاته ببجاية عن نحو ٥٨ سنة، ودفن بتلمسان(١).

* **القاضي أبو عليّ حسن بن عليّ بن محمد المسيلي**: الفقيه المجتهد، المسمّى بأبي حامد الصغير، ولّي قضاء بجاية، وبقي على دراسة العلم والاشتغال به حتّى احتاج إليه الناس في أمر دينهم وعوّلوا عليه.

(١) نيل الابتهاج ٢٠٧/١ ـ ٢١٢، عنوان الدراية للغبريني ص ٥٥ ـ ٦٥، شجرة النور ص ١٦٤.

كان حين يشار إليه بالتفرّد في العلم والتوحّد في الفهم، يقول: أدركت ببجاية سبعين مفتياً ما منهم من يعرف الحسن بن عليّ المسيلي، وهذا من فضله وتواضعه.

صنّف مصنّفات حسنة تدلّ على إحاطته بعلم المعقول والمنقول(١).

*** القاضي أبو محمد عبدالحقّ بن عبدالرحمـٰن الأزدي الإشبيلي (٥١٠هـ - ٥٨٢هـ)**: الذي رحل إلى بجاية وتخيّرها وطنا، وكمل بها خبرة، وظهر بها حالاً وتأليفاً، وولّي خطابتها وصلاة الجماعة بجامعها الأعظم، ونشر بها علمه.

كان فقيهاً حافظاً، عالماً بالحديث، جليل العلم، كامل الفهم، وكان قانعاً متعفّفاً موصوفاً بالصلاح والورع ولزوم السنّة، وكان يقسّم ليله ثلاثة أثلاث، ثلثاً للقراءة، وثلثاً للعبادة، وثلثاً للنوم.

صنّف تصانيف جليلة نبل قدرها واشتهر أمرها وتداولها رواية وقراءة وشرحاً وتبييناً، واشتهرت بالمشرق ووقع النقل منها(٢).

وكان من بعدهم من عرف بالحفظ والإتقان:

*** أبو الحسن عليّ بن أحمد بن الحسن الحرالي التجيبي (٦٣٧هـ)** الذي حصل من العلم ما سبق به أبناء وقته، وجمع فنون العلم بجملتها واستولى على كلّيتها، وما من علم إلاّ وله فيه تصنيف وتأليف وكان أعلم الناس بأصول الفقه، وله في علم الفرائض كتاب الوافي لم يسبق إليه، وحيث تكلّم في علم يعتقد الناظر فيه أنّه لا يعرف غيره(٣).

---

(١) عنوان الدراية ص ٦٦ - ٧٢، نيل الابتهاج ١٦٧/١ - ١٦٩.
(٢) الديباج المذهب ص ٢٧٦ - ٢٧٨، عنوان الدراية ص ٧٣ - ٧٥، شذرات الذهب ٤٥٧/٤، تذكرة الحفاظ ١٣٥٠/٤، فوات الوفيات ٢٥٦/٢.
(٣) عنوان الدراية ص ١٤٥ - ١٥٧، نيل الابتهاج ٣٥٧/١ - ٣٥٩.

* **أبو العبّاس أحمد بن عثمان بن عبد المتوسي المليانى (٦٤٤هـ)** الشيخ المتقن المجتهد، الذي كان له في كتاب التلقين للمازري تقدّم ونظر لم يكن لغيره، ولم يكن له مثل في غيره من الكتب، وإن كان الرجل إماماً في الفقه ولكنّه في هذا الكتاب أجلّ من غيره من الكتب، وله عليه تقييد فيه تنبيهات خفيفة، وقد كمّل بعض ما فات المازري على التلقين[1].

* **عليّ بن أبي نصر فتح بن عبدالله (٦٠٦هـ ـ ٦٥٢هـ)** الذي استقرّ قراره ببجاية، وكان أهلها يتفقّهون عليه[2].

* **أبو بكر محمد بن أحمد الزهري المعروف بابن محرز البلنسي (٦٥٥هـ)**: الذي رحل إلى بجاية في حدود سنة ٦٤٠هـ واستوطنها فكان معظّماً عند أهلها محترماً، واشتغل عليه الكثير منهم.

لم يكن يخلو له وقت عن الاشتغال بالعلم، إمّا الرواية وإمّا التدريس وإمّا المقابلة وإمّا عرض المسائل على سبيل المذاكرة، وكان رأس الجماعة الأندلسيّة ببجاية، له تقييد على التلقين، وله على بعض الكتب الفقهيّة الأخرى تقييدات وتطريرات في غاية الجودة[3].

* **أبو الحسن عليّ الشهير بابن الزيّات**: الحافظ لمذهب مالك، المحصّل له، وقد كان ممّن يقرأ عليه ويجتمع إليه، استوطن بجاية وأقرأ بها وانتفع به، وكانت تقرأ عليه سائر كتب المذهب، كتهذيب البراذعي والتلقين للقاضي عبدالوهاب والتفريع لابن الجلّاب والرسالة لابن أبي زيد، وكان يحفظ تنبيه ابن بشير ومنتقى الباجي وغيرهما من أمّهات المذهب المالكي[4].

ولم يكن طلب العلم وقفاً على رجال مدينة بجاية دون نسائها، إذ

---

(١) عنوان الدراية ص ١٧١.
(٢) عنوان الدراية ص ١٤٢ ـ ١٤٤.
(٣) عنوان الدراية ص ٢٤١ ـ ٢٤٤.
(٤) عنوان الدراية ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

كانت هناك أكثر من ألف امرأة تحفظ المدوّنة عن ظهر قلب، فضلاً عن حفظ القرآن الكريم.

وكانت هناك مراكز أخرى بالمغرب الأوسط، وإن لم تبلغ شأو بجاية في الازدهار العلمي، إلاّ أنها كانت تطلّ علينا من حين لآخر بأسماء أعلام طبّقت شهرتهم بلاد المغرب كمدينة تلمسان، وورجلان بجنوب الجزائر، وغيرها من مدن المغرب الأوسط.

وأمّا **المغرب الأقصى** فقد كان كذلك ساحة واسعة للنشاط الفقهي، وظهر من أعلامه في هذا الدور مجموعة صالحة ترجم الشيخ مخلوف في طبقاته لأكثر من ثلاثين منهم، وكان على رأسهم:

*** قاضي سبتة أبو عبدالله محمد بن عيسى التميمي السبتي (٤٢٩هـ - ٥٠٥هـ)**: الفقيه المحدّث الحافظ شيخ القاضي عياض، وإمام أهل المغرب في وقته[(١)].

وكان أشهرهم مهارة في الشروط والوثائق:

*** القاضي أبو الحسن عليّ بن عبدالله بن إبراهيم الأنصاري المعروف بالمتيطي (٥٧٠هـ)**: السبتي الفاسي العارف بالشروط وتحرير النوازل.

لازم بفاس خاله أبا الحجاج المتيطي وبه تفقّه وبين يديه تعلّم عقد الشروط، واستوطن مدينة سبتة ولازم بها مجلس القاضي أبي محمد بن أبي عبدالله التميمي للمناظرة والتفقّه.

مهر في كتابة الشروط واستقلّ حتّى لم يكن في وقته أقدر منه عليها، ناب عن القاضي أبي موسى عمران بن عمران في الأحكام بإشبيلية، وولّي قضاء شريش بجنوب الأندلس - وهي اليوم خريس بإقليم قادس في إسبانيا -.

صنّف في الوثائق كتاب النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام،

---

(١) شجرة النور الزكيّة ص ١٢٤.

اعتمده المفتون والحكّام(١).

وأمّا **القطر الليبي** فقد كان هو الآخر محطّ الأنظار ومنبعا للعلماء الأخيار، الذين نافسوا أقرانهم في سائر الأقطار، وكان خاتمتهم، العلمان:

* **أبو موسى عمران بن موسى بن معمر الطرابلسي (٦٦٠هـ)**: الفقيه الحافظ للمذهب، العارف بالمسائل، البصير بالأحكام.

ولي قضاء طرابلس ، والإمامة والخطابة بجامعها، واشتهر بالتوفيق في أقضيته؛ فطلبه السلطان الحفصي المستنصر، وولاّه قضاء الحاضرة تونس سنة ٦٥٧هـ، واستمرّ على القضاء إلى أن توفّي(٢).

وعبدالحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي (٦٠٦هـ ـ ٦٨٤هـ): الذي اشتهر ذكره، فوجّه إليه السلطان الحفصي واستدعاه للسكنى بتونس، حيث تولّى الخطط النبيهة بها، منها قضاء الأنكحة، ثمّ قلّد قضاء الجماعة(٣).

ـ ٦ ـ الأندلس:

أظهر المرابطون في عهد يوسف بن تاشفين (٤٨٠هـ ـ ٥٠٠هـ) وابنه عليّ (٥٠٠هـ ـ ٥٣٧هـ) المذهب المالكي، وقوي نفوذ هذا المذهب، لا سيّما في الأندلس، حتّى أنّه لم يكن يحظى فقيه بالقبول عند أمير المسلمين إلاّ إذا كان عالماً في فروع المذهب المالكي، فنفقت كتب فروع المذهب، ووقع الاعتناء بها أيّما اعتناء، وجرى العمل بمقتضاها، ونبذ ما سواها.

غير أنّ هذا النفوذ قد اضمحلّ بمجيء الموحّدين وخاصّة في عهد يعقوب المنصور (٥٨٠هـ ـ ٥٩٥هـ) الذي ألزم الفقهاء ترك الاشتغال بكتب الفروع، وأمرهم بالتخلّي عن تقليد المذهب المالكي، وأوجب عليهم

(١) نيل الابتهاج ٣٥٢/١، شجرة النور الزكيّة ص ١٦٣، كشف الظنون ٤٦٣/٤.
(٢) أعلام ليبيا ص ٢٤٠.
(٣) الديباج المذهب ص ٢٦١، عنوان الدراية ص ١٢٢ ـ ١٢٣، شجرة النور الزكيّة ص ١٩٢.

الاجتهاد والرجوع مباشرة إلى القرآن والسنّة، بحيث تكون أحكامهم بما ينتهي إليه اجتهادهم.

واتّخذ إجراءات عمليّة في ذلك حيث أمر بأمّهات كتب الفقه المالكي فحرّقها، فكانت الكتب تؤتى بالأحمال فتوضع في الشوارع ويطلق فيها النار.

وتوعّد بالعقوبة الشديدة كلّ من يخالف أمره، وألزم المشتغلين بكتب الفقه، الأيمان المغلّظة من عتق وطلاق على أن لا يتمسّكوا بشيء من تلك الفروع، وأوقع بكلّ من تمسّك بمذهب مالك المحن، حتّى خافه الفقهاء، وتركوا الفقه والرأي، واشتغلوا بالحديث والأثر، وأدرك جماعة من أهل عصره هذا النهج مثل: أبي الخطّاب بن دحية وأخيه أبي عمرو، ومحي الدين بن عربي الطائي، وغيرهم[(١)].

غير أنّه بمجرّد أن مات المنصور الموحّدي سنة **٥٩٥هـ** انطفأت جذوة دعوته، وعاد الناس إلى ما كانوا عليه من الاشتغال بكتب فروع المذهب المالكي.

وهكذا عرف أعلام المذهب المالكي بالأندلس خلال هذا الدور الفقهي امتحانات وابتلاءات لا تقلّ خطورة عن تلك التي عرفها أعلامه بإفريقيّة التونسيّة خلال قيام الدولة الفاطميّة، غير أنّ هذه المحن فيما يبدو قد زادت المذهب المالكي تجذّرا ببلاد المغرب عامّة وبالأندلس على وجه الخصوص.

ومن أبرز من نلتقي بهم في هذا الدور بمركز الأندلس:

*** أبو عبدالله محمد بن فرج المعروف بابن الطلّاع (٤٠٤هـ - ٤٩٧هـ)**: من أهل قرطبة، بقيّة الشيوخ الأكابر في وقته، وزعيم المفتين بحضرته.

---

(١) شذرات الذهب ٥/٣٣ - ٣٤، القوانين الفقهيّة لابن جزي ص ٤١٣، الفكر السامي ٣/١٩١، و١٩٦ - ٢٠٠.

كان فقيهاً عالماً حافظاً للفقه على مذهب مالك وأصحابه، حاذقا بالفتوى، مقدّما في الشورى، ولِّي الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة وأسمع الناس به وأفتاهم فيه.

عمّر وأسنّ حتّى سمع منه الكبار والصغار والآباء والأبناء، وكانت الرحلة في وقته إليه لسماع الموطّأ والمدوّنة[١].

ومن تلاميذه:

* **أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (٤٥٠هـ ـ ٥٢٠هـ)**: ـ ابن رشد الجدّ ـ قاضي الجماعة بقرطبة، وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع، وزعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب ومقدّمهم، المعترف له بصحّة النظر وجودة التأليف ودقّة الفقه.

كان عالماً حافظاً للفقه، مقدّما فيه على جميع أهل عصره، عارفاً بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه، بصيراً بأقوالهم واتّفاقهم واختلافهم، نافذا في علم الفرائض والأصول، وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية.

ولي قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٥١١هـ، ثمّ استعفى منها سنة ٥١٥هـ.

من مصنّفاته: المقدّمات لأوائل كتب المدوّنة، المعروف بمقدّمات ابن رشد، والبيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل، وكتاب النوازل المسمّى أيضاً بالفتاوى والأجوبة، وقد جمعه تلميذه أبو الحسن محمد بن عبدالرحمٰن المعروف بابن الوزّان (٥٤٣هـ)، وله اختصار المبسوطة ليحيى بن إسحاق بن يحيى الليثي، وكتاب المسائل الخلافيّة، وغير ذلك[٢].

---

(١) الصلة لابن بشكوال ٨٢٣/٣ ـ ٨٢٤، بغية الملتمس ١٦٠/١ ـ ١٦١، شذرات الذهب ١٢٣/٤، هديّة العارفين ٧٨/٢، شجرة النور الزكيّة ص ١٢٣.

(٢) بغية الملتمس ٧٤/١، الصلة ٨٣٩/٣ ـ ٨٤٠، الديباج المذهب ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤، هديّة العارفين ٥٨/٢، شذرات الذهب ٢٠٧/٤، شرف الطالب ص ٦٠، شجرة النور الزكيّة ص ١٢٩.

وكان يعاصره: *** أبو عبدالله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم بن لبّ بن بطيّر (٤٥٨هـ ـ ٥٢٩هـ) التجيبي: المعروف بابن الحاج**، قاضي الجماعة بقرطبة.

كان من جلّة الفقهاء وكبار العلماء، بصيراً بالفتوى، رأساً في الشورى، وكانت الفتوى في وقته تدور عليه، وكان له مجلس بالمسجد الجامع بقرطبة يسمع الناس فيه، ولم يكن في زمانه أطلب للعلم منه.

تقلّد قضاء قرطبة مرّتين، ولم يزل آخر مدّته يتولّى القضاء إلى أن قتل ظلماً بالمسجد الجامع يوم الجمعة وهو ساجد(١).

*** أبو عبدالله محمد بن أصبغ بن محمد بن محمد بن أصبغ الأزدي (٥٣٦هـ)**: قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع بها، وخاتمة الأعيان بحضرتها.

تولّى خطّة أحكام المظالم بقرطبة مع شيخه ابن رشد، وكان يستحضره عنده مع مشيخة الشورى في وقته، ثمّ تقلّد قضاء الجماعة بقرطبة مدّة طويلة، ثمّ صرف عن ذلك وأقبل على التدريس والإسماع.

تولّى الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة فأنسى من قبله لحسن قراءته وتمكين صلاته واستمرّ على ذلك إلى أن توفّي وهو من أبناء الستّين(٢).

*** أبو بكر محمد بن عبدالله المعافري الإشبيلي (٤٦٨هـ ـ ٥٤٣هـ) المعروف بابن العربي**: عالم أهل الأندلس ومسندهم، وختام علمائها.

رحل إلى المشرق رحلة طويلة التقى فيها بكثير من الأعلام، مثل: الغزالي وأبي بكر الشاشي والطرطوشي، ثمّ عاد إلى إشبيلية بعلم كثير لم يدخل به أحد قبله ممّن كانت له رحلة إلى المشرق.

---

(١) بغية الملتمس ٧٥/١، الصلة ٨٤٤/٣ ـ ٨٤٥، شذرات الذهب ٢٤٦/٤، شجرة النور ص ١٣٢.

(٢) الصلة ٨٥٠/٣ ـ ٨٥١، بغية الملتمس ٧٨/١ ـ ٧٩.

كان من أهل التفنّن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، مقدّما في المعارف كلّها، نافذا في جميعها، حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها.

سكن بلده وشوور فيه، وسمع، ودرّس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفسير، ورحل إليه للسماع.

استقضي ببلده إشبيلية فنفع الله به أهله، ثمّ صرف عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبثّه.

صنّف تصانيف كثيرة مفيدة، منها: أحكام القرآن، والمحصول في أصول الفقه، والإنصاف في مسائل الخلاف، وغيرها، وذكر في كتابه القبس على موطّأ مالك بن أنس أنّه ألّف كتاب «أنوار الفجر في تفسير القرآن» في ثمانين ألف ورقة تفرّقت بأيدي الناس وأنّه أمضى في تأليفه عشرين سنة[1].

*** أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد (٥٢٠هـ ـ ٥٩٥هـ)** ـ ابن رشد الحفيد ـ من أهل قرطبة، وقاضي الجماعة بها، وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع.

أدرك من حياة جدّه شهراً واحداً، وتفقّه على أبيه واستظهر عليه الموطّأ حفظاً، وتفقّه على علماء عصره كالمازري وغيره، حتّى برع، وسمع الحديث وأتقن الطبّ، وكان يفزع إلى فتياه في الطبّ كما يفزع إلى فتياه في الفقه، وأقبل على علم الكلام والفلسفة، حتّى صار يضرب به المثل فيها.

---

(١) بغية الملتمس ١/١٢٥ ـ ١٣١، الصلة ٣/٨٥٥ ـ ٨٥٧، الديباج المذهب ص ٣٧٦ ـ ٣٧٨، تذكرة الحفاظ ٤/١٢٩٤ ـ ١٢٩٨ وفيات الأعيان ٤/٢٩٦ ـ ٢٩٧، نفح الطيب ٢/٢٥ ـ ٤٣، شرف الطالب ص ٦٢، شذرات الذهب ٤/٣٠٨ ـ ٣٠٩، البداية والنهاية ١٢/٢٢٨ ـ ٢٢٩، النجوم الزاهرة ٥/٣٠٢، هديّة العارفين ٢/٩٠، شجرة النور ص ١٣٦ ـ ١٣٨، طبقات المفسّرين ص ٤١١ ـ ٤١٤.

مال إلى علوم الأوائل، وكانت له فيها الإمامة، ولم ينشأ بالأندلس مثله: كمالا وعلماً وفضلا.

حمدت سيرته في القضاء، وتأثّلت له عند الملوك وجاهة عظيمة، ولم يصرّفها في ترفيع حال، ولا جمع أموال، وإنّما قصرها على مصالح أهل بلده خاصّة، ومنافع أهل الأندلس عامّة.

كان مفرط الذكاء، ملازما للاشتغال بالعلم ليلا ونهارا، منذ صغره، لم يدع النظر في الكتب منذ عقل إلاّ ليلة وفاة أبيه، وليلة بنائه على أهله، وسوّد فيما صنّف وقيّد وهذّب واختصر نحوا من عشرة آلاف ورقة.

صنّف تآليف كثيرة نافعة، تنيف على ستّين تأليفا، منها: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لا يعلم في فنّه أنفع منه، ولا أحسن سياقا، ذكر فيه مؤلّفه أسباب الخلاف بين الفقهاء، وعلّل ووجّه، فأفاد وأمتع به[1].

وقد أهلت شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة بعدد كبير من أعلام المركز الأندلسي على مدى هذا الدور، فاقت في كثرتها وعدّها أعلام المالكيّة بسائر المراكز الأخرى ـ التي هي مصر وإفريقيّة وفاس ـ بأضعاف أضعافها، حيث أربت تراجم أعلام الأندلس في الطبقات الثلاث ـ الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة ـ عن مائة وخمسين ترجمة، في حين لم يتجاوز عدد من ترجم لهم من أعلام المراكز الأخرى جميعا سوى الستّين ترجمة.

وهذا الفارق الهائل بين أعلام المركز الأندلسي، وبين أعلام مراكز الفقه المالكي الأخرى جميعا، يعكس بوضوح مدى الازدهار الذي عرفه الفقه المالكي ببلاد الأندلس.

غير أنّه والحقّ يقال، أنّنا لا نكاد نجد في تلك المجموعة الهائلة من تراجم المركز الأندلسي طوال هذا الدور من هو في منزلة الإمام اللخمي

(١) بغية الملتمس ٧٩/١، النجوم الزاهرة ١٥٤/٦، الديباج المذهب ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩، شذرات الذهب ٣١/٥.

في الاجتهاد والتصرّف في المذهب، أو من هو في مكانة الإمام المازري في الاشتغال بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد، أومن هو من طراز ابن بشير في الترفّع عن درجة التقليد والتعلّق برتبة الاختيار والترجيح، أومن هو في درجة القاضي عياض في اعتماد أسلوب الفقه المبني على الكلام والأصول، إلاّ إذا استثنينا ثلاثة من تلك المجموعة الهائلة من الأندلسيين، وهم: ابن رشد الجدّ المعترف له بصحّة النظر وجودة الفقه، واعتماد طريقة خدمة الفقه بالأنظار والأصول، وابن العربي الذي كان من أهل التفنّن في العلوم والاستبحار فيها والنفاذ في جميعها، وابن رشد الحفيد الذي كان ختام علماء الأندلس في هذا الدور الفقهي، وآخر أئمّتها وفقهائها، بحيث لم تخرج بعده الأندلس فقيهاً مالكيّا كبير القدر عظيم الشأن طيلة العقود الخمسة المتبقيّة من هذا الدور.

هذه ملاحظة أردنا الإشارة إليها، ولكن عموما كانت الأندلس طيلة هذا الدور الفقهي تعجّ بأعلام المالكيّة، وحتّى فترة حكم يعقوب المنصور الموحّدي، التي عرفت التمكين لمذهب أهل الظاهر على حساب مذهب مالك، فقد كانت مجرّد جذوة عابرة سرعان ما انطفأت بموت المنصور، وعاد الناس إلى ما كانوا عليه من الاعتناء بالمذهب المالكي.

ومن الأسماء البارزة التي نلتقي بها من فقهاء الظاهريّة:

* **أبو عامر العبدري محمد بن سعدون بن مرجى الميورقي (٥٢٤هـ)**: - نسبة إلى ميورقة - وكان فقيهاً جليلا، من أعيان علماء الإسلام، ومن أعيان الحفّاظ، متصرّفا في فنون من العلوم، يميل إلى الاجتهاد في نظره، ويغلّب طريقة الظاهريّة على مذهب داود، وفيه قال القاضي أبو بكر بن العربي: هو أنبل من لقيته[1].

* **أبو محمد عبدالله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري**

(١) شذرات الذهب ٢١٨/٤ - ٢١٩، تذكرة الحفاظ ١٢٧٢/٤ - ١٢٧٥، البداية والنهاية ٢٠١/١٢ - ٢٠٢.

الأندلسي (٥٤٩هـ ـ ٦١٢هـ): وكان موصوفا بالإتقان، ولّي قضاء إشبيلية وقرطبة، وأدّب أولاد المنصور[(١)].

* **أبو خطاب عمر بن حسن بن محمد الجميل بن فرح بن خلف الداني ثمّ السبتي (٥٤٦هـ ـ ٦٣٣هـ) المعروف بابن دحية**: الذي جال في مدن الأندلس ومدن العدوة، وكان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء، لكنّه كان يثلب علماء المسلمين ويقع في أئمّة الدين بدعاوي مدحضة وعبارات مبغضة، فترك الناس كلامه، وكذّبوه[(٢)].

ـ ٧ ـ اليمن وبلاد الحجاز:

نشط باليمن وبالجزيرة خلال هذا الدور الفقهي المذهبان الشافعي والزيدي نشاطا واسعا، وكان أشهر علماء اليمن من الشافعيّة:

* **محمد بن عبدويه (٥٢٥هـ)**: الذي تفقّه بأبي إسحاق الشيرازي ببغداد، وقرأ عليه كتابه المهذّب، ونكته في الأصول والجدل، وهو أوّل من دخل بكتاب المهذّب إلى اليمن.

سكن عدن، ثمّ انتقل إلى زبيد، ثمّ خرج إلى كرمان وأقام بها إلى أن توفّي، وكان الله قد رزقه مالا واسعا فكان ينفق منه على طلبة العلم.

صنّف الإرشاد في أصول الفقه، وكان له ولد عالم في الأصول والفقه، تفقّه بأبيه، ومات قبله[(٣)].

* **أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم بن سعيد العمراني اليمني (٤٨٩هـ ـ ٥٥٨هـ)**: شيخ الشافعيين بإقليم اليمن، تفقّه على أعلام

---

(١) شذرات الذهب ١٢٩/٥، تذكرة الحفاظ ١٣٩٧/٤ ـ ١٣٩٩، الديباج المذهب ص ٢٣١، شجرة النور الزكيّة ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٢) شذرات الذهب ٢٦٨/٥ ـ ٢٦٩، وفيات الأعيان ٤٤٨/٣ ـ ٤٥٠، تذكرة الحفاظ ١٤٢٠/٤ ـ ١٤٢٢، البداية والنهاية ١٤٤/١٣ ـ ١٤٥، النجوم الزاهرة ٢٩٥/٦ ـ ٢٩٦.

(٣) شذرات الذهب ٢٢٥/٤.

اليمن مثل: أبي الفتوح بن عثمان العمراني، وزيد بن عبدالله اليفاعي.

كان عالماً خيّراً، مشهور الاسم، بعيد الصيت، عارفاً بالفقه وأصوله، وأعرف أهل الأرض بتصانيف أبي إسحاق الشيرازي، ويحفظ المهذّب عن ظهر قلب.

ناظر بمكّة الشريف محمد بن أحمد العثماني في مسائل علمي الفقه والكلام، وفي اليمن أقام بذي أشرق يدرّس المذهب وينشر العلم إلى سنة ٥٤٩هـ.

كان من أحسن العلماء تعليماً، وكانت طريقته في ذلك أن يقرّر للطالب الفصل من كتاب المهذّب، ويقرأه هو على الطالب حفظاً ثمّ ينبّهه على مواطن الخلاف مع مالك وأبي حنيفة خاصّة، وقد يذكر أحياناً معهما غيرهما، ثمّ يذكر احترازات المهذّب، ثمّ يتطرّق إلى بيان الأدلّة، ويقرّر الأقيسة بأوضح عبارة، ويكرّرها بعبارات مختلفة إلى أن ترسخ في ذهن الطالب.

ومنذ آخر سنة ٥٤٩هـ انتقل إلى سير بسبب الفتن والحروب، ثمّ خرج منها إلى ذي سفال بسبب التباغض والتحاسد بين الفقهاء، وبقي بها إلى حين وفاته.

صنّف كتاب الزوائد ابتدأه سنة ٥١٧هـ، ومكث فيه قرابة أربع سنين، ثمّ صنّف كتاب البيان ابتدأه سنة ٥٢٨هـ، وفرغ منه سنة ٥٣٣هـ، وله السؤال عمّا في المهذب من الإشكال، كما صنّف كتاب الاحترازات وغرائب الوسيط[١].

وكان ممّن صحبه في الطلب:

* **عمر بن إسماعيل بن يوسف اليمني (٥٥٣هـ)**: الفقيه الإمام

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٦/٧ ـ ٣٣٨، شذرات الذهب ٣٦٣/٤ ـ ٣٦٤.

الورع، الذي أخذ عن الإمام زيد بن الحسن الفايشي المهذّب وأصول الفقه[١].

* **القاضي أبو بكر بن محمد بن عبدالله اليافعي (٥٥٢هـ)**: الذي روى عن أبيه وجدّه كتاب الرسالة للشافعي، ومختصر المزني، وولِّي قضاء اليمن[٢].

وأمّا المذهب الزيدي فاشتهر منهم:

إسحاق بن يوسف بن يعقوب الصردفي (٥٠٠هـ): ـ نسبة إلى صردف باليمن ـ وكان له ابنتان، زوّج إحداهما الفقيه زيد بن عبدالله اليفاعي، فأنجبت منه هندة أمّ محمد بن سالم الإمام بجامع ذي أشرق، ولذلك صارت كتب زيد اليافعي بأيديهم، إذ لم ترثه غير هندة، وتزوّج الأخرى إمام مسجد الجند حسّان بن محمد، فأنجبت له ولدا، الذي ورث بعض كتب جدّه إسحاق.

صنّف كتاب الكافي في الفرائض لم يسبق إلى تدريجه للمبتدىء[٣].

زيد بن عبدالله بن جعفر اليفاعي اليمني (٥١٤هـ): ـ نسبة إلى يفاعة مكان باليمن ـ تفقّه على الشيخ أبي بكر بن جعفر المخائي ـ نسبة إلى مخا من سواحل اليمن ـ، وتفقّه كذلك على أبي إسحاق الصردفي ـ المتقدّمة ترجمته ـ الذي زوّجه ابنته.

ورحل زيد بعد ذلك إلى مكّة فقرأ على الحسين بن عليّ الشاشي تلميذ أبي إسحاق الشيرازي، ثمّ عاد إلى نجد فاجتمع عليه الموافق والمخالف من أهل اليمن، وقرأ عليه يحيى بن أبي الخير[٤].

---

(١) شذرات الذهب ٣٤٢/٤.
(٢) شذرات الذهب ٣٣٤/٤ ـ ٣٣٥.
(٣) شذرات الذهب ١٢٨/٤ ـ ١٢٩.
(٤) شذرات الذهب ١٨٣/٤ ـ ١٨٤.

أمّا **بالحرمين،** فقد ذكر ابن السبكي في طبقاته: أنّ الناس منذ سنة **٥٦٣هـ** كانوا يخطبون في مسجد رسول الله ﷺ ويصلّون على مذهب الإمام الشافعي[١] غير أنّه قلّما كنّا نجد علماء من غير الوافدين، الذين كانوا يتردّدون على مكّة والمدينة في موسم الحجّ أو يدخلون مكّة للعمرة، ويمكثون هناك ينشرون علومهم.

ومن أمثال هؤلاء:

الفقيه الشافعي: أبو عبدالله محمد بن الفضل بن أحمد الفراوي النيسابوري (٤٤١هـ - ٥٣٠هـ): مسند خراسان، الملقّب كمال الدين والمعروف بفقيه الحرم لأنّه أقام بالحرمين مدّة طويلة ينشر العلم ويسمع الحديث ويعظ الناس.

كان فقيهاً شافعيّا، محدّثا متفنّنا، ومناظرا واعظا، وإماماً مفتيا، بارعا في الفقه والأصول حافظاً للقواعد أظهر العلم بالحرمين، حتّى كان له فيهما ذكر وصيت، ثمّ عاد إلى بلده نيسابور[٢].

والفقيه الحنبلي: أبو محمد المبارك بن عليّ الطبّاخ البغدادي (٥٧٥هـ): نزيل مكّة، وإمام الحنابلة بالحرم، الذي سمع الكثير ببغداد، وتفقّه بالقاضي أبي الحسين، ثمّ وفد على مكّة، فكان حافظ مكّة في زمانه والمشار إليه بالعلم بها، واستقرّ بمكّة إلى حين وفاته بها[٣].

والفقيه المالكي: أبو العبّاس أحمد بن عليّ القسطلاني، ثمّ المصري (٦٣٦هـ): تلميذ الشيخ أبي عبدالله القرشي، درس بمصر وأفتى، ثمّ جاور بمكّة مدّة.

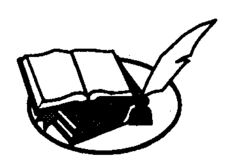
---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٣٢٧/١.

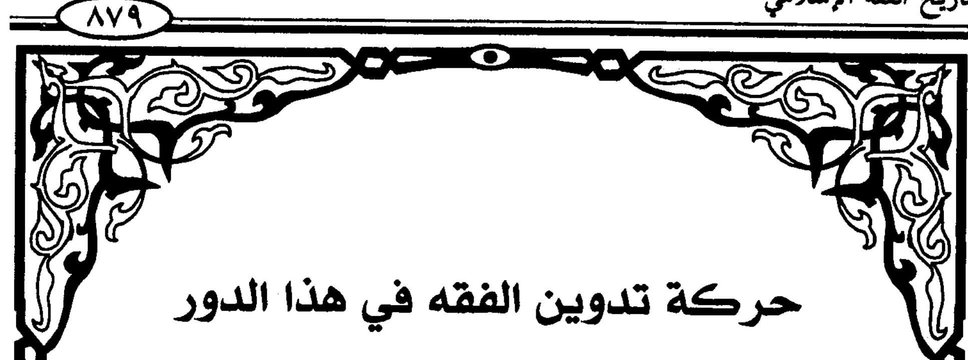
(٢) وفيات الأعيان ٢٩٠/٤ - ٢٩١، طبقات الشافعيّة الكبرى ١٦٦/٦ - ١٧٠، شذرات الذهب ٢٤٩/٤، البداية والنهاية ٢١١/١٢، هديّة العارفين ٨٧/٢.

(٣) شذرات الذهب ٤٣٧/٤.

يحكى أنّ أهل المدينة أجدبوا، فاتّفق رأيهم أن يستسقوا يوماً والغرباء يوما، فاستسقى أهل المدينة يومهم فلم يسقوا، ثمّ عمل هو طعاما للضعفاء واستسقى مع المجاورين فسقوا، وكانت وفاته بمكّة[١].



(١) شذرات الذهب ٢٩٢/٥، النجوم الزاهرة ٣١٤/٦.



حركة تدوين الفقه في هذا الدور

رغم أنّ المظهر العام الذي اتّسم به هذا الدور، هو انتشار روح التقليد، والاعتكاف على دراسة كتب الأئمّة السابقين، شرحاً أو اختصاراً أو جمعاً، فإنّ ثلّة من بين فقهاء هذا الدور استطاعوا أن يدخلوا روحاً جديدة على تلك الطريقة التي كان يسير عليها أقرانهم في دراسة الفقه.

تمثّلت هذه الروح الجديدة في إدخال عنصر النقد والتنقيح والاختيار في دراسة المسائل الفقهية، بحيث أصبحت الأقوال المختلفة في كلّ مسألة مصنّفة تصنيفا تقديريّا، منها ما هو أولى، ومنها ما هو راجح، ومنها ما هو أصحّ، إلى غير ذلك.

وبهذا الوضع الجديد للفقه في هذا الدور، تعتبر المذاهب الفقهيّة قد تكوّنت تكوّناً جديداً، بناء على أنّ ما عليه الفقهاء من بعد هذا التصنيف التقديري للأقوال، قد أصبحوا فيما بعد هذا الدور عالة على هذا الوضع الفقهي، وعلى الأوضاع المهمّة التي ترجع إلى فقهاء هذا الدور(١).

وبناء على ما تقدّم فإنّ حركة تدوين الفقه في هذا الدور قد سارت في اتّجاهين اثنين:

اتّجاه محافظ: ركّز جهده على دراسة المصنّفات القديمة شرحاً وتعليقاً وتنبيهاً، أو اختصاراً ونظماً، أو جمعاً وترتيباً.

---

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٨١ ـ ٨٢، بتصرّف.

واتّجاه تجديديّ: ظهر في ثوب جديد، وركّز عمله في دراسة الفقه على عنصر النقد والتنقيح والاختيار.

أمّا الاتّجاه الأوّل: فقد ملأ أعلامه صدر هذا الدور، وكانت مصنّفاتهم من الكثرة بحيث لا يلحقها حصر ولا يستوعبها عدّ، وكان همّهم منصبًّا على مناقشة وتفسير الألفاظ، والإيغال في ضبط الحروف على مقتضى القواعد النحويّة، وتتبّع الأقوال والاكتفاء بجمعها والإحاطة بها في حلقة مفرغة من المدّ والجزر، وأكثر أعمالهم هي تصرّفات على الأصل بنوع من التغيير أو الترتيب أو الزيادة كما هو دأب أغلب الفقهاء في هذا الدور، دون التجرّؤ على النقد والمقارنة، أو الاختيار والترجيح من خلال تلمّس العلل ومقاصد الشريعة.

وفي ما يلي عرض سريع لنماذج من هذه التصانيف:

ففي المذهب الحنفي[1]: صنّف أبو الحسن عليّ بن أبي بكر المرغيناني (٥٩٣هـ) كتاب بداية المبتدي وهو مختصر فقهي جمع فيه بين مختصر القدوري والجامع الصغير لمحمد بن الحسن، واختار ترتيب الجامع، ثمّ شرح مختصره في كتاب سمّاه كفاية المنتهي.

وصنّف ركن الدين عبدالرحمٰن بن محمد المعروف بابن أميرويه الكرماني (٥٤٣هـ) كتاب التجريد في الفقه، ثمّ شرحه وسمّاه الإيضاح، وقام بشرحه أيضاً تاج الدين عبدالغفار بن لقمان الكردري(٥٦٢هـ) وسمّاه المفيد والمزيد.

وصنّف ناصر الدين أبو القاسم محمد بن يوسف الحسيني السمرقندي (٥٥٦هـ) كتاب الملتقط في فتاوى الحنفيّة، ثمّ شاكله وجنّسه جلال الدين محمود الأسروشني من غير زيادة عليه ولا نقصان في سنة ٦٠٣هـ وأملاه تماماً سنة ٦١٦هـ بسمرقند.

---

(١) كشف الظنون ١/٢٢٥، و١/٢٩٩، ١/٣٣١، و٢/٦٥٥.

ومن الكتب المجرّدة في هذا الدور كتاب التذكرة المشهور بالتذكرة المعظميّة، نسبة إلى سلطان الشام الملك المعظّم عيسى بن أيّوب، الذي أمر فقهاء الحنفيّة أن يجرّدوا له مذهب أبي حنيفة دون صاحبيه، فصنّفوا له كتاب التذكرة في عشر مجلّدات.

واعتنى الحنفيّة بالجامعين الصغير والكبير لمحمد بن الحسن أيّما اعتناء، فأمّا الجامع الصغير[1] فشرحه فخر الإسلام علي بن محمد البزدوي (٤٨٢هـ) شمس الأئمّة أبو بكر السرخسي (٤٩٠هـ) وأبو الأزهر الخجندي (حدود ٥٠٠هـ) والحسن بن منصور الأوزجندي الفرغاني (٥٩٢هـ) المشهور بقاضي خان وأبو بكر أحمد بن عليّ المعروف بالظهير البلخي (٥٥٣هـ) وحسين بن محمد المعروف بالنجم (٥٨٠هـ) وتاج الدين عبدالغفار بن لقمان الكردري (٥٦٢هـ) وأبو سعيد مطهر بن حسن اليزدي، وسمّاه التهذيب، وفرغ من تأليفه في سنة ٥٥٩هـ، والقاضي مسعود بن حسين اليزدي (٥٧١هـ)، سمّاه التقسيم والتشجير في شرح الجامع الصغير، وأبو نصر أحمد بن محمد العتابي البخاري (٥٨٦هـ).

وقام الصدر الشهيد حسام الدين عمر بن عبدالعزيز بن مازة (٥٣٦هـ) بترتيب مسائل الجامع الصغير، وعرف كتابه بجامع الصدر الشهيد، ثمّ قام الحنفيّة بالاعتناء بهذا الجامع وصنّفوا عليه شروحاً كثيرة، كشرح بدر الدين عمر بن عبدالكريم الورسكي (٥٩٤هـ) وأبي نصر أحمد بن منصور الأسبيجابي (٥٠٠هـ) وجمال الدين محمود بن عبدالسيّد الحصيري (٦٣٦هـ) ومرتّب لأبي المعين ميمون بن محمد (٥٠٨هـ) النسفي، وصدر الإسلام أبي يسر البزدوي (٤٩٣هـ).

كما وقع الاعتناء بنظم الجامع الصغير، مثل: نظم نجم الدين أبي حفص عمر بن محمد النسفي (٥٣٧هـ) ونظم شمس الدين أحمد بن محمد بن أحمد العقيلي البخاري (٦٥٧هـ) ونظم بدر الدين أبي نصر

---

(١) كشف الظنون ١/٤٤٣ ـ ٤٤٦.

محمود - وقيل مسعود - بن أبي بكر الفراهي الذي أتمّه في سنة ٦١٧هـ، وسمّاه لمعة البدر.

وأمّا الجامع الكبير، فقد اعتنى به من أعلام هذا الدور(١): جمال الدين محمود بن أحمد (٦٣٦هـ) البخاري الذي شرحه في مناسبتين، أحدهما: مختصره الذي زاد فيه على ما في الجامع زهاء ١٦٣٠ من المسائل، وبالغ في الإيضاح بالنظائر والشواهد وإيراد الفروق، بأوجز العبارات تسهيلا للحفظ، وثانيهما: المطوّل الذي بلغ في الجمع والتحقيق الغاية، وهو المسمّى بالتحرير في شرح الجامع الكبير.

كما شرح الجامع الكبير أيضاً، أبو نصر أحمد بن محمد بن عمر العتابي البخاري (٥٨٦هـ) وافتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي الحلبي (٦١٦هـ) وأبو بكر أحمد بن منصور (حدود ٥٠٠هـ) الأسبيجابي، وأبو بكر محمد بن حسين المعروف بخواهر زادة البخاري (٤٨٣هـ) وعلاء الدين محمد بن عبدالحميد (٥٥٢هـ) السمرقندي، وفخر الدين حسن بن منصور الشهير بقاضي خان (٥٩٢هـ) وركن الدين أبو الفضل عبدالرحمٰن بن محمد الكرماني (٥٤٣هـ) وبرهان الدين عليّ بن أبي بكر المرغيناني (٥٩٣هـ) والقاضي محمد بن الحسين الأرسابندي (٥١٢هـ) وأبو المظفر يوسف بن قزاوغلي المعروف بسبط ابن الجوزي (٦٥٤هـ) والصدر الشهيد حسام الدين عمر بن عبدالعزيز بن مازة (٥٣٦هـ) وله تلخيصه، وممّن لخّص الجامع الكبير أيضاً كمال الدين بن عبّاد الخلاطي (٦٥٢هـ).

وعلى الجامع الكبير منظومات منها: نظم أحمد المحمودي النسفي الذي أحكم نظمه، ثمّ بنى عليه النثر، ثمّ لخّص للنظم نسخة، وطرح النثر، وأورد في كلّ باب قصيدة، وأتمّه في سنة ٥١٥هـ وعدد أبياته ٥٥٥٥ بيتاً وشرح هذا المنظوم أبو القاسم محمود بن عبيدالله بن صاعد

(١) كشف الظنون ١/٤٤٨ - ٤٥٠.

الحارثي (٦٠٦هـ) وسمّاه تفهيم التحرير، ومنها: نظم أبي الحسن عليّ بن خليل الدمشقي (٦٥١هـ).

وصنّف علماء الحنفيّة في هذا الدور مصنّفات حاولوا فيها استيعاب أهمّ كتب الفقه الحنفي، والإحاطة بجلّ مصنّفات أصحابهم[(١)] كالجامع الكبير لفخر الإسلام البزدوي، والجامع الكبير لقطب الدين أبي الحسن عليّ بن محمد الأسبيجابي، والجامع الكبير لعلاء الدين السمرقندي والجامع الكبير لفخر الدين قاضي خان والجامع الكبير في الفتاوى لناصر الدين أبي القاسم محمد بن يوسف السمرقندي (٥٥٦هـ) وكان قد أتمّه في سنة ٥٤٨هـ، وخزانة الأكمل لأبي يعقوب يوسف بن عليّ بن محمد الجرجاني الذي ذكر أنّ كتابه هذا قد أحاط بأغلب تآليف الأصحاب، واستوعب الكافي للحاكم والجامعين والزيادات لمحمد بن الحسن والمجرّد لابن زياد والمنتقى والكرخي وشرح الطحاوي، وأنّه قد اتّفق بدايته يوم عيد الأضحى سنة ٥٢٢هـ.

وفي **المذهب المالكي** كان الاعتناء موجّهاً بالخصوص إلى المصادر التي كان عليها الاعتماد في المذهب فعكف عليها المالكيّون شرقاً وغرباً، منها:

رسالة ابن أبي زيد القيرواني: التي تداول الفقهاء عبر الأدوار على شرحها بتحقيق مبانيها وتحرير معانيها، وأشهر الذين اعتنوا بها في هذا الدور[(٢)]: أبو محمد صالح بن جنون (٦٥٣هـ) الفاسي، وأبو عبدالله محمد بن قاسم الفاسي (٦٥٣هـ) في تقييديهما على الرسالة، وممّن شرحها أيضاً: عبدالله بن أحمد بن سعيد العبدري البلنسي المعروف بابن أبي الرجال (٥٦٦هـ) وأبو بكر محمد بن عبدالله المعافري (٥٤٣هـ)، وأبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (٥٢٠هـ) وأبو بكر بن عبدالله

(١) كشف الظنون ١/٤٥١ و٥٣٩.

(٢) مقالة بعنوان دراسة بيبليوغرافيّة لأهمّ شروح الرسالة، للدكتور الزين الفيلالي (ملتقى ابن أبي زيد بالقيروان ١٤١٣/١٩٩٣).

اليابري الإشبيلي (٥١٩هـ).

واعتنوا بمدوّنة الإمام سحنون، فصنّف عبدالحميد ابن الصائغ (٤٨٦هـ) تكميلا لتعليق أبي إسحاق التونسي على المدوّنة، وشرحها أبو طاهر إبراهيم بن عبدالصمد القيرواني (كان حيّا سنة ٥٢٦هـ) المعروف بابن بشير، في كتابه المسمّى التنبيه على مبادىء التوجيه، وصنّف القاضي عياض كتاب التنبيهات المستنبطة في شرح مشكلات المدوّنة والمختلطة، وكان اعتناؤه موجّها إلى شرح الكلمات المشكلة ممّا اشتملت عليه كتب المدوّنة والمختلطة، وأبو الحسن عليّ بن سعيد الرجراجي (كان حيّا سنة ٦٣٣هـ) صاحب مناهل التحصيل ونتائج لطائف التأويل على كشف أسرار المدوّنة، وهو شرح لخّص فيه ما وقع للأئمّة من التأويلات، واعتمد في ذلك على القاضي ابن رشد والقاضي عياض وتخريجات أبي الحسن اللخمي، وعاشر بن محمد بن عاشر بن خلف بن حكم الأنصاري (٥٦٧هـ) في كتابه الجامع البسيط وبغية الطالب النشيط، الذي شرح به المدوّنة مسألة مسألة وحشد فيه أقوال العلماء، وأبو عبدالله محمد بن أبي الخيار العبدري (٥٢٩هـ) في كتابه التنبيه على المدوّنة، واختصرها عبدالله بن عبدالرحمٰن بن عمر المعرّي (٦٦٩هـ) على وجه غريب وأسلوب عجيب من النظم والترتيب[١].

وأقبلوا على كتاب التفريع لابن الجلاب، فشرحه من أعلام هذا الدور[٢]: عبدالله بن محمد بن طريف السرقسطي الأندلسي المعروف بحفيد هاشم (ق ٥هـ) وإبراهيم بن عبدالصمد بن بشير المهدوي (كان حيّا سنة ٥٢٦هـ) ونفيس الدين مكّي بن عوف بن أبي طاهر(ق ٦هـ) وعليّ ابن أحمد بن محمد الغساني (٦٠٩هـ) وسمّاه الترصيع في شرح مسائل التفريع، ومحمد بن إبراهيم بن عبدالرحمٰن التلمساني (٦٥٦هـ) وعبدالله بن

(١) مقالة بعنوان: حضور المدوّنة الكبرى في المؤلفات والحلقات الدراسيّة المالكيّة للأستاذ محمد المنوبي (ملتقى الإمام سحنون ١٤١٢هـ/١٩٩١).

(٢) التفريع لابن الجلاّب، دراسة المحقّق ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

عبدالرحمٰن بن عمر المعري (٦٦٩هـ) وسمّاه البديع.

وصنّف رجل المختصرات جمال الدين بن عمر المعروف بابن الحاجب (٦٤٦هـ) كتابه جامع الأمّهات المشهور بمختصر ابن الحاجب، أو المختصر الفرعي ـ في مقابلة المختصر الأصلي ـ، وهو كتاب جليل اختصره من ستّين مصدرا من مصادر الفقه المالكي، وجمع فيه أكثر من ستّين ألف مسألة في مقدار وجيز من الكلام، أتى فيه بعج العجاب، واعتنى علماء الدور القادم بشرحه شرقا وغربا(١).

وفي **المذهب الشافعي**(٢): صنّف أبو سعيد عبدالرحمٰن بن مأمون المتولّي (٤٧٨هـ) التتمّة على إبانة شيخه الفوراني وصل فيها إلى كتاب الحدود، وجمع فيها نوادر المسائل وغرائبها ممّا لا تكاد توجد في غيرها، ثمّ صنّف أبو الفتوح أسعد بن محمد العجلي (٦٠٠هـ) تتمّة التتمّة، وكان عليها الاعتماد في الفتوى بأصفهان، ولتتمّة المتولّي تتمّات أخر لجماعة من العلماء لم يأتوا فيها بالمقصود.

وصنّف حسين بن سعود البغوي (٥١٦هـ) التهذيب في الفقه، وهو كتاب مجرّد عن الأدلّة غالبا، لخّصه من تعليق شيخه القاضي حسين، وزاد فيه وأنقص، ثمّ لخّصه حسين بن محمد المروزي الهروي في كتاب سمّاه لباب التهذيب واشتمل على مزيد التنقيح والترتيب، واختصره كذلك الشهاب أحمد بن محمد الإسكندراني (٦٨٣هـ) المعروف بابن المنيّر.

ولكتاب الشامل لابن الصبّاغ (٤٧٧هـ) الذي يعتبر من أجود كتب الشافعيّة وأصحّها نقلاً، شروح وتعليقات عديدة، ولكتاب العمدة لأبي بكر الشاشي (٥٠٧هـ) كذلك شروح عديدة.

وشرح الكافي للزبيري (٣١٧هـ) جماعة من أعلام الشافعيّة، منهم: نصر بن إبراهيم (٤٩٠هـ) المقدسي، وأبو المحاسن الروياني (٥٠٢هـ)

---

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٨٤ ـ ٨٥، الديباج المذهب ص ٢٩٠.

(٢) كشف الظنون ١/٦٧، و١/٤١٥، و٢/٦١، و١٧٣، و٣٣٣، و٥٢٤ ـ ٥٢٥.

ومعين الدين بن إبراهيم السهيلي الجاجرمي (٦١٣هـ) وهي شروح خالية من الاستدلال على طريقة البغوي في تهذيبه.

واعتنى أعلام الشافعيّة في هذا الدور بمختصر الإمام المزني ووضعوا عليه الشروح العديدة، كما وضع الذين من قبلهم، وكان من أشهرهم: أبو بكر الشاشي (٥٠٧هـ) في كتابه الشافي، وشمس الدين محمد بن أحمد (٦٤٩هـ) وعبدالجبار بن عبدالغنيّ بن عليّ بن أبي الفضل (٦٢٤هـ) الأنصاري.

وفي **المذهب الحنبلي**[١]: صنّف عبدالوهاب بن عبدالواحد بن محمد بن عليّ الشيرازي، ثمّ الدمشقي (٥٣٦هـ) المنتخب والمفردات، وصنّف عليّ بن عبدالله بن نصر بن السري الزعفراني البغدادي (٥٢٧هـ) الإقناع والواضح والمفردات والتلخيص، وصنّف محمد بن الخضر بن محمد بن تيميّة الحراني (٦٢٢هـ) كتاب البلغة والتلخيص وشرح الهداية لأبي الخطاب الكلوذاني، وصنّف محمد بن عبدالله بن الحسين السامري (٦١٠هـ) كتاب المستوعب، وصنّف محمد بن عليّ بن محمد بن عثمان بن مراق الحلواني (٥٠٥هـ) كتاب كفاية المبتدي، وصنّف يحيى بن يحيى الأزجي (حدود ٦٠٠هـ) نهاية المطلب في علم المذهب، حذا فيه حذو نهاية المطلب لإمام الحرمين، وأكثر استمداده من المجرّد للقاضي أبي يعلى، والفصول لابن عقيل، وفيه أشياء ساقطة لا تحقيق فيها.

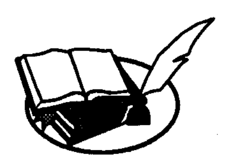
وهكذا شحنت هذه المصنّفات المطوّلة بآلاف المسائل الفقهيّة، وأغلب هذه الحصيلة العظيمة من التصانيف تصرّفات على الأصل بنوع من التغيير أو الترتيب أو الزيادة كما هو دأب أغلب الفقهاء في هذا الدور.

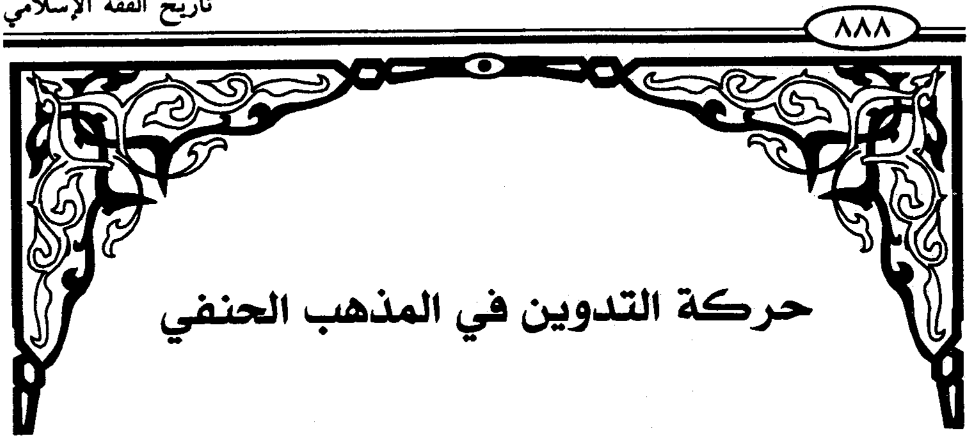
وأمّا أصحاب **الاتّجاه الثاني**: فقد عوّلوا على دراسة الأقوال وتمحيصها، وتفصيل الأدلّة على طريقة أهل النظر والاختيار والترجيح، وقد

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٥ ـ ٤٢٠.

تصدّى لهذا العمل كلّ من وصف بالاجتهاد والتجديد في المذهب، وعرف بدقّة النظر والتحقيق، واشتهر بالبراعة في سبك الخلاف وتحريره.

وفيما يلي لمحة عن حركة التدوين في المذاهب الأربعة عند أصحاب هذا الاتّجاه.





حركة التدوين في المذهب الحنفي

ـ ١ ـ المبسوط:

هذا الكتاب لشمس الأئمّة محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (٤٨٣هـ) من أعظم الكتب المطبوعة في المذهب الحنفي، شرح به كتاب الكافي للحاكم الشهيد محمد بن محمد المروزي (٣٣٤هـ) إمام الحنفيّة في وقته.

والكافي كتاب معتمد في نقل المذهب، جمع فيه صاحبه كتب محمد بن الحسن الشيباني وما في جوامعه.

وقد قام جماعة من مشائخ الحنفيّة بشرحه، منهم الإمام السرخسي في كتابه المشهور بالمبسوط، الذي أملاه من ذاكرته وهو في السجن بأوزجندة بفرغانة، وفي مقدّمة كتابه يقول السرخسي: «فرأيت الصواب في تأليف شرح المختصر، لا أزيد على المعنى المؤثر في بيان كلّ مسألة، اكتفاءاً بما هو المعتمد في كلّ باب، وقد أضمّ إلى ذلك سؤال بعض الخواص من أصحابي زمن حبسي حين ساعدوني لأنسى، أن أملي عليهم ذلك فأجبتهم».

ومنهج السرخسي في مبسوطه يتمثّل في ذكر المسألة الفقهيّة وإقامة الأدلّة عليها والانتصار لمذهب الأحناف فيها، ثمّ يبسط أقوال بعض المذاهب الأخرى وخاصّة منهم الشافعيّة والمالكيّة، وأحياناً قد يتطرّق إلى

الحنابلة والظاهريّة، ويعرض أدلّتهم في المسألة، ثمّ يعمد إلى مناقشتها ودحضها.

ومع ذلك فقد نلمس فيه أحياناً ميلا إلى أقوال غير الحنفيّة، بما يستدلّ عليه من حجج قويّة، ولا غرابة في ذلك إذ هو معدود من أئمّة الاجتهاد في عصره.

وإذا أطلق المبسوط في شروح الهداية وغيرها أريد به مبسوط السرخسي[١].

ـ ٢ ـ تحفة الفقهاء:

هذا الكتاب لعلاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي، زاد فيه صاحبه على مختصر القدوري، ولكنّه جاء دون مبسوط السرخسي في الطول، فهو وسط بين مختصر القدوري ذلك المتن المتين، وبين مبسوط السرخسي المشهور بالتطويل.

رتّب السمرقندي كتابه على أحسن ترتيب، واستوعب فيه أقوال أئمّة الحنفيّة، وقارن بينها وبين أقوال الشافعيّة، وانتصر لمذهبه وعماده في ذلك الاحتجاج والاستدلال.

والكتاب مطبوع بتحقيق الدكتور زكيّ عبدالبرّ في ثلاثة أجزاء، ثمّ أعيد طبعه في أجزاء أربعة بعد أن قام بتخريج أحاديثه كلّ من الشيخ السيّد محمد المنتصر الكتاني، والدكتور وهبة الزحيلي[٢].

ـ ٣ ـ بدائع الصنائع:

لأبي بكر بن مسعود الكاساني (٥٨٧هـ)، وعنوان الكتاب كاملا:

---

(١) كشف الظنون ٢/٣٣٣، و٤٨٣، المبسوط، ط ٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان.

(٢) كشف الظنون ١/٣١٦، تحفة الفقهاء ١/٢٢، الطبعة ٢، سنة ١٩٦٤، دمشق.

بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، صنّفه صاحبه شرحاً على تحفة الفقهاء لشيخه السمرقندي، ولمّا أتمّ الشرح عرضه عليه، فاستحسنه الشيخ وزوّجه ابنته، فقيل شرح تحفته وتزوّج ابنته.

وهذا الشرح ـ كما قال حاجي خليفة ـ تأليف يطابق اسمه معناه، ذكر فيه أنّ المشائخ لم يصرفوا هممهم إلى الترتيب سوى أستاذه، والغرض الأصليّ من التصنيف في كلّ فنّ، تيسير سبيل الوصول إلى المطلوب، ولا يلتئم هذا المرام إلاّ بترتيب تقتضيه الصناعة، وهو التصفّح عن أقسام المسائل وفصولها وتخريجها على قواعد أصولها ليكون أسرع فهما.

ولذلك نرى الكاساني قد رتّب المسائل في الكتب والأبواب ترتيبا جديدا يرتضيه أرباب الصنعة، إلاّ أنّه أدمج الشرح بالمتن حتّى أنّه لم يعد القارىء يستطيع التمييز والفصل بينهما.

ومنهج الكاساني يعتمد على عرض المسألة الفقهيّة على ضوء المذهب الحنفي، ثمّ يذكر أدلّة المعارضين له وخاصّة المذهب الشافعي، ويبسط أدلّتهم في المسألة، وينتصر للمذهب الحنفي.

وقد يعرض أحياناً لأقوال بعض التابعين، كقوله: «قال عامّة أهل التأويل: إنّ الحقّ المذكور في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [من سورة الأنعام الآية ١٤١] هو الزكاة، قاله الحسن ـ أي البصري ـ وقتادة وجابر بن زيد ـ تلميذ ابن عبّاس ـ وغيرهم»[1].

ـ ٤ ـ الهداية:

لبرهان الدين أبي الحسن عليّ بن أبي بكر المرغيناني (٥٩٣هـ) والكتاب شرح على متن مختصر له سمّاه بداية المبتدىء، وقد جمع في مختصره بين مختصر القدوري والجامع الصغير، وشرحه شرحاً مطوّلا سمّاه

(١) كشف الظنون ٣١٦/١ ـ ٣١٧، بدائع الصنائع ٩٢٥/٢، نشر زكرياء عليّ يوسف، مطبعة العاصمة، القاهرة.

كفاية المنتهي، وحين كاد يتّكىء عنه اتّكاء الفراغ تبيّن فيه نبذا من الإطناب، فصرف العنان والعناية إلى شرح آخر موسوم بالهداية جمع فيه بين عيون الرواية ومتون الدراية تاركاً للزوائد في كلّ باب معرضاً عن هذا النوع من الإسهاب مع ما يشتمل على أصول ينسحب عليها فصول.

وقد شرح المرغيناني في كتابه الهداية مسائل الجامع الصغير ومختصر القدوري، ورتّبه كترتيب الجامع الصغير لمحمد ابن الحسن تبرّكا بما اختاره صاحب أبي حنيفة، ومتى خالف روايته رواية القدوري صرّح بلفظ الجامع الصغير، وإذا قال: قال في الكتاب، أراد القدوري.

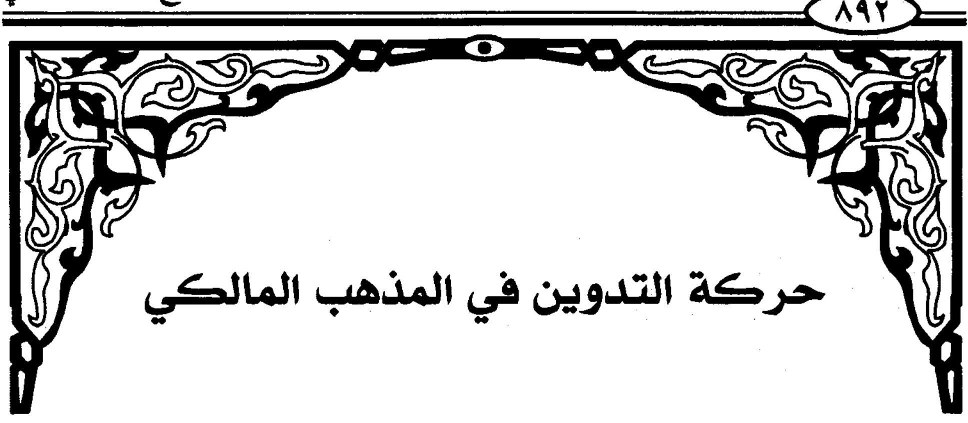
وكتاب الهداية من الكتب المعتبرة في المذهب الحنفي، بلغ فيه صاحبه رتبة الاجتهاد في المذهب، إذ أنّ من عادته في هذا الكتاب أن يحرّر كلام الإمامين من المدّعي والدليل، ثمّ يحرّر مدّعي الإمام الأعظم ويبسط دليله، بحيث يخرج الجواب من أدلّتهما، فإذا كان تحريره مخالفا لهذه العادة، يفهم منه الميل إلى ما ادّعى الإمامان أبو يوسف ومحمد بن الحسن.

وقد روي أنّه بقي في تصنيف كتاب الهداية ثلاث عشرة سنة، وكان خلال تلك المدّة دائم الصيام، يجتهد أن لا يطّلع على صومه أحد، فكان كتابه مقبولا بين العلماء ببركة زهده وورعه، حتّى قيل في شأنه:

إنّ الهداية كالقرآن قد نسخت ... ما صنّفوا قبلها في الشرع من كتب
فاحفظ قواعدها واسلك مسالكها ... يسلم مقالك من زيغ ومن كذب

وللمرغيناني آداب واختيارات نبّه عليها الشراح، وقد اعتنى بشرحه الفقهاء، وأوّل من شرحه هو: حميد الدين عليّ بن محمد بن عليّ الضرير البخاري (٦٦٧هـ) وسمّاه الفوائد[1].

(١) الهداية شرح بداية المبتدي ١١/١، كشف الظنون ٢٢٥/١، و٨١٦/٢ ـ ٨١٧.



حركة التدوين في المذهب المالكي

ـ ١ ـ التبصرة:

لعليّ بن محمد الربعي القيرواني الصفاقسي (٤٧٨هـ) وكتابه التبصرة تعليق كبير على المدوّنة مشهور معتمد في المذهب، حاذى به المدوّنة نفسها، فيه علم غزير، وتقييد المطلقات، وتخصيص العمومات.

وقد اعتمد الإمام اللخمي في التبصرة على نقد الأقوال من ناحية إسنادها، حيث يعتبر أنّ أحد القولين أصحّ من القول الآخر ـ أي إسنادا ـ، وأحياناً ينتقدها من ناحية رشاقة استخراجها من الأصول التي استخرجت بها وهو ما يعبّر عنه بالأولى، فيقول أحياناً: وهذا أولى، أو ينظر إلى أنّه الأقرب إلى تحقيق المصلحة المرعيّة من الشرع في تفريع ذلك الحكم، وهو ما يقول فيه أحياناً: وهذا أرفع.

واشتهر اللخمي في هذا المعنى من التصرّف في المذهب، حتّى أنّ المتأخّرين جعلوا تصرّفات اللخمي في المذهب المالكي، وما يأتي به من القول: اختيارا، فكان مقدّما بتخريج الخلاف داخل المذهب المالكي، واستقراء الأقوال، ولكثرة اختياراته ربّما خرج ببعضها عن المذهب، واتّبع نظره فيما ترجّح عنده من أدلّة.

ولهذا السبب كان شيخه السيّوري يسيء الرأي فيه كثيراً، ويطعن في هذا الكتاب، وانتقده أيضاً القاضي عياض، كما انتقده المقري الكبير من وجه آخر، ودافع عنه الهلالي أحمد بن عبدالعزيز فيما شرحه من المختصر

الخليلي: «بأنّ المحقّقين من المتأخّرين أكثروا من النقل لنصوص التبصرة وما لوحظ عليها نادر بالنسبة لغالبيّة الكتاب»[١].

ـ ٢ ـ التنبيه على مسائل التوجيه:

لأبي الطاهر إبراهيم بن عبدالصمد المعروف بابن بشير (كان حيّا سنة ٥٢٦هـ) وكتابه هذا، شرح على المدوّنة مشى فيه على استنباط أحكام الفروع من قواعد أصول الفقه، وسار فيه على منهج الاختيار والترجيح وذكر أنّ من أحاط به علماً ترقّى عن درجة التقليد.

وقد درج ابن بشير في كتابه هذا، على نفس الطريقة النقديّة التي كان قد أسّس منهجها الإمام اللخمي، حيث كان يتصرّف في الفقه تصرّف تنقيح، وانتصب في مختلف الأقوال انتصاب الحكم الذي يقضي بأنّ هذا مقبول، وهذا ضعيف، وهذا غير مقبول، وهذا ضعيف السند في النقل، وهذا ضعيف النظر في الأصول، وهذا مغرق في النظر في الأصول، وهذا محرج للناس أو مشدّد على الناس، إلى غير ذلك.

والجدير بالملاحظة أنّ ابن بشير قد تعقّب في كتابه هذا على أبي الحسن اللخمي في كثير من المسائل، وردّ عليه اختياراته الواقعة في كتاب التبصرة، وتحامل عليه في كثير منها، ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أنّ ابن بشير كان من المترفّعين عن درجة التقليد إلى رتبة الاختيار والترجيح[٢].

ـ ٣ ـ و ـ ٤ ـ البيان والتحصيل، والمقدّمات الممهّدات:

كلاهما لأبي الوليد ابن رشد ـ الجدّ ـ (٥٢٠هـ)، فأمّا الكتاب الأوّل

---

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٨١، ترتيب المدارك ٧٩٧/٤، الديباج المذهب ص ٢٩٨، نزهة الأنظار ٢٧٦/٢، مقالة بعنوان: حضور المدوّنة الكبرى في المؤلفات والحلقات الدراسيّة المالكيّة للدكتور محمد المنوني (محاضرات ملتقى الإمام سحنون ١٤١٢هـ/١٩٩١).

(٢) كتاب العمر ٦٩٤/٢، محاضرات مغاربيّة ص ٨١، بتصرّف.

فعنوانه الكامل: **البيان والتحصيل والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة**، وهو كتاب حافل من أمّهات الفقه المالكي، يطابق اسمه مسمّاه بياناً وتحصيلاً وشرحاً وتوجيهاً وتعليلاً لمسائل كتاب المستخرجة لمحمد العتبي المعروفة بالعتبيّة.

استغرق تأليف كتاب البيان والتحصيل اثنتي عشرة سنة، ابتدأها سنة ٥٠٦هـ، وأكمل نصفه بحلول عام ٥١١هـ، تاريخ تولّيه القضاء، واشتغل من وقتها بأمور المسلمين عن التأليف، ولم يعد يتفرّغ إلى التأليف إلاّ يوماً واحداً في الأسبوع، طيلة فترة قضائه التي امتدّت من سنة ٥١١هـ إلى سنة ٥١٥هـ، ثمّ تدارك ابن رشد ما فاته بهمّة عالية حتّى أتمّه في مستهلّ شهر ربيع الآخر سنة ٥١٧هـ.

وقد جاء في مقدّمة البيان والتحصيل أنّ جماعة من الفقهاء طلبوا من ابن رشد في صدر سنة ٥٠٦هـ أن يستخرج لهم المسائل المشكلات من العتبيّة ويشرحها لهم، فبيّن لهم أنّ كلّ مسألة منها وإن كانت جليّة في ظاهرها، إلاّ وهي مفتقرة إلى التكلّم على ما يخفى من باطنها، وأنّه لا تكون الفائدة التامّة التي يعظم النفع بها ويستسهل العناء فيها، إلاّ أن يتكلّم على جميع الديوان كلّه مسألة مسألة، فلمّا سمعوا ذلك من قوله تنبّهوا له وشرهوا إليه وحرصوا عليه ورغبوا إليه فيه في غير ما موطن.

فلم يجد ابن رشد بدًّا من إسعافهم والشروع في تحرير كتاب البيان والتحصيل مسألة مسألة، يذكر المسألة على نصّها، ثمّ يشرح من ألفاظها ما يفتقر إلى شرحه، ويبيّن من معانيها بالبسط لها ما يحتاج إلى بيانه وبسطه، ويحصّل من أقوال العلماء فيها ما يحتاج إلى تحصيله.

وإذا تكرّرت المسألة في موضع آخر دون زيادة عليها ذكرها في موضعها على نصّها، وأحال على التكلّم عليها في الموضع الأوّل.

وقد احتوى الكتاب مع استيعاب شرح مسائله على شرح عامّة مسائل المدوّنة، وتحصيل كثير من أمّهاتها لتعلّقها بها بما لا مزيد عليه ولا غاية

وراءه، ذلك أنّ ابن رشد قد اعتمد في كلّ مسألة تكلّم فيها على بيان كلّ ما تحتاج إليه المسألة، بكلام مبسوط واضح موجز يسبق إلى الفهم بأيسر تأمّل وأدنى تدبّر.

وبهذا استوعب كتاب البيان والتحصيل مسائل مستخرجة الأندلسيين، ومدوّنة القرويين اللتين كان فقهاء الغرب الإسلامي في القرون الأولى يحفظونهما عن ظهر قلب، ويقطعون أعمارهم في تدارس ما كتب حولهما، أو حول المدوّنة بالخصوص من شروح وتعليقات وتنبيهات وزيادات وتفريعات واختصارات.

وقد تمكّن ابن رشد بما أوتي من عبقريّة نادرة أن يطّلع على كلّ ما كتب قبله وينقده نقد الفقيه المجتهد في نطاق المذهب المالكي، ويحرّره بأسلوب واضح يستوي في إدراكه المبتدي والشادي، حيث أودعه جميع معارفه الفقهيّة التي اكتسبها من دراساته الواعية المستوعبة للمدوّنة، وما كتبه عليها أئمّة المذهب في نحو سبعة أجيال من شروح واختصارات وتعليقات، ومن تأمّلاته وتجاربه الشخصيّة في التدريس والإفتاء والقضاء، فجاء الكتاب خلاصة وافية محيطة بالفقه المالكي في أسلوب جزل سلس مشرق.

وجلس ابن رشد لإسماع كتابه البيان والتحصيل في مجلس حافل بملأ من الفقهاء من أوّل شهر محرّم سنة ٥١٨هـ، واستمرّ بانتظام طوال عشرين شهرا أقرأ خلالها ٩٨ كتاباً من مجموع ١١٠ كتاباً من البيان والتحصيل[١].

ـ ٤ ـ المقدّمات الممهّدات:

وأمّا الكتاب الثاني المعروف بمقدّمات ابن رشد، فعنوانه الكامل هو: **المقدّمات الممهّدات لبيان ما اقتضته رسوم المدوّنة من الأحكام الشرعيات**

(١) مقدّمة البيان والتحصيل ٢٦ ـ ٣٢، ومقدّمة المحقّق ص ٥ ـ ١٨، دار الغرب الإسلامي، ط ١٤٠٤هـ/١٩٨٤ م، مقدّمات ابن رشد، مع المدونة الكبرى، دار الفكر لبنان، ط، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

والتحصيلات المحكمات لأمّهات مسائلها المشكلات.

وقد كان بعض أصحاب ابن رشد طلبوا منه أن يمهّد في أوّل كلّ كتاب من البيان والتحصيل بمقدّمة تنبىء عن مسائله من القرآن والسنّة، وتردّ إليها بالقياس عليها، فرأى ابن رشد أن يكتفي بالمقدمات الممهّدات التي كان يوردها أثناء تدريسه للمدوّنة، وضمّنها جملا وافرة ممّا كان يورده في كلّ كتاب منها.

وهذا الكتاب مبني على مقدّمات من الاعتقادات في أصول الديانات، وأصول الفقه في الأحكام الشرعيات، ممّا لا يسع جهلها، ولا يستقيم التفقّه في حكم من أحكام الشرع قبلها.

ويرى ابن رشد أنّ طالب العلم إذا جمع كتاب المقدّمات إلى كتاب البيان والتحصيل حصل على معرفة ما لا يسع جهله من أصول الديانات وأصول الفقه، وعرف العلم من طريقه، وأخذه من بابه وسبيله، وأحكم ردّ الفرع إلى أصله، واستغنى بمعرفة ذلك كلّه عن الشيوخ في المشكلات، وحصل في درجة من يجب تقليده في النوازل المعضلات، ودخل في زمرة العلماء الذين أثنى الله تعالى عليهم في غيرما آية من كتابه، ووعدهم فيه بترفيع الدرجات.

وجلس ابن رشد لإسماع كتابه المقدّمات في مستهلّ جمادى الآخرة سنة ٥٢٠هـ، وأكمل في اثنتين وعشرين يوماً قراءة تسعة عشر كتاباً ـ وعدّة كتب المقدّمات ٢٧ كتاباً ـ ثمّ مرض ولزم الفراش أربعة أشهر وأيّاما، ثمّ توفّي.

وكلّ من يطّلع على هذين الكتابين ـ البيان والتحصيل والمقدّمات ـ يلمس بوضوح طريقة ابن رشد في خدمة الفقه بالأنظار والأصول، وتأسيس المسائل وتفريعها، وهي عين الطريقة التي كان قد خطّها أبو الوليد الباجي بالأندلس، وأسّس منهجها أبو الحسن اللخمي بإفريقية[1].

---

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٨١، وأعلام الفكر الإسلامي ص ٥٧.

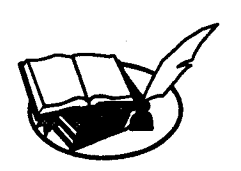
ـ ٥ ـ التنبيهات:

لعياض بن موسى اليحصبي السبتي (٥٤٤هـ) وعنوانه الكامل هو: التنبيهات المستنبطة في شرح مشكلات المدوّنة والمختلطة، وورد في بعض المخطوطات بعنوان: التنبيهات المستنبطة على كتب المدوّنة والمختلطة، وتقييد مهملاتها، وشرح غريب كلماتها، وبيان اختلاف رواياتها، وإصلاح الغلط والوهم الواقع في بعض رواياتها.

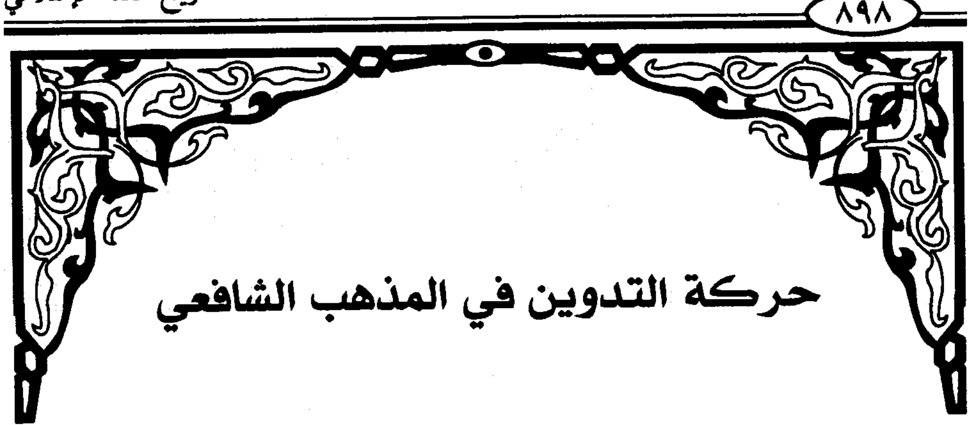
وهو شرح على المدوّنة متين الوضع، بديع المنزع، جمع فيه عياض بين طريقة العراقيين التي تعتمد القياس والتأصيل، وتحقيق المسائل وتقرير الدلائل، وبين طريقة القرويين التي تعتمد الضبط والتصحيح وتحليل المسائل والمباحث واختلاف التخاريج والمحامل.

وقد امتاز هذا الشرح بمتانة التقرير، ووضوح العبارة وإحكامها، درج فيه عياض على الطريقة النقديّة في تناول الأحكام الشرعيّة، التي تأثّر بها عن طريق ابن رشد، أجلّ شيوخه في نفسه وأقواهم تأثيراً عليه.

فأشرب قلب عياض أسلوب الفقه المبني على الأصول، وهي طريقة إمام الحرمين التي وصلها بالفقه المالكي الإمام المازري، إذ كان قد اتّصل به عياض عن طريق المكاتبة ووردت عليه من المهديّة كتبه وإجازاته[1].



(١) أعلام الفكر الإسلامي ص ٥٨ ـ ٦١، محاضرات مغاربيّة ص ٨١ ـ ٨٢، مقالة بعنوان: حضور المدوّنة الكبرى في المؤلفات والحلقات الدراسيّة المالكيّة للدكتور محمد المنوني (محاضرات ملتقى الإمام سحنون ١٤١٢هـ/١٩٩١).



حركة التدوين في المذهب الشافعي

ـ ١ ـ المهذّب:

لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الشيرازي (٤٧٦هـ) وهو كتاب جليل القدر، بدأ صاحبه في تصنيفه سنة ٤٥٥هـ، وفرغ منه سنة ٤٦٩هـ، جمع فيه أقوال أئمة المذهب الشافعي، واتّبع فيه منهج تنقيح المسائل وتحرير الأدلّة مستقصيا فيه كلّ الفروع الفقهيّة المعروفة، وواضعا أسس الاستنباط والاستخراج لما يجدّ ويحدث.

وكان المنهج الذي اتّبعه: أنّه يذكر المسألة الفقهيّة ثمّ يردفها بدليلها من القرآن والسنّة النبويّة، ويتطرّق إلى عرض الأقوال في المذهب، مستحضرا الأدلّة الشرعيّة، ولا يرجّح إلاّ نادرا، وإذا رجّح بانت قدرته على التعليل وتجلّت موهبته في النقد والتحقيق.

ويعتبر كتاب المهذّب أحد الكتب المشهورة والمتداولة بين الشافعيّة، لكثرة أقواله ومسائله وأصوله، ولذلك اعتنى بشأنه الفقهاء فشرحوا غريبه ومشكلات ألفاظه، وصنّفوا في الكلام على أحاديثه، واختصروا عباراته وكتبوا في احترازاته، وأوّل من شرحه أبو إسحاق إبراهيم بن منصور العراقي (٥٩٦هـ).

وقد صرّح النووي في كتاب المجموع بأنّ كتاب المهذّب ـ والوسيط للغزالي ـ فيهما دروس المدرّسين وبحث المحصّلين المحقّقين وحفظ

الطلّاب المعتنين فيما مضى وفي هذه الأعصار - أي عصر النووي - في جميع النواحي والأمصار.

ويروى في سبب تصنيف الشيرازي للمهذّب أنّه بلغه أنّ ابن الصبّاغ قال: «إذا اصطلح الشافعي وأبو حنيفة ذهب علم أبي إسحاق الشيرازي» يعني أنّ علمه هو مسائل الخلاف بينهما، فإذا اتّفق الإمام الشافعي وأبو حنيفة، ارتفع علم الشيرازي، فصنّف الشيخ حينئذ المهذّب.

ويروى أنّ الشيرازي قد صنّف المهذّب مراراً، فلمّا لم يوافق مقصوده رمى به في دجلة، وأجمع رأيه على هذه النسخة المجمع عليها[1].

- ٢ - نهاية المطلب في دراية المذهب:

لعبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني (٤٧٨هـ) المشهور بإمام الحرمين، وكتابه نهاية المطلب شرح موسّع لمختصر المزني، جمعه بمكّة المكرّمة وأتمّه بنيسابور، وحرّره وأملاه وأتى فيه من البحث والتقرير، والتدقيق والتحقيق بما شفى الغليل وأوضح السبيل.

وكان منهجه يتمثّل في ذكر المسألة الفقهيّة بدليلها، ثمّ يذكر الأقوال الأخرى في المذهب، ثمّ يجري مقارنتها مع آراء المذاهب الأخرى في المسألة عارضاً أدلّتهم ومناقشاً لهم بطريقة جدليّة راقية، بحيث يسلّم له المنصف، ويقرّ له بعلوّ مكانته، ووفور عقله في استنباط الغوامض، وتحقيق المسائل، وترتيب الدلائل.

ونظرا للمكانة السامية التي حازها كتاب النهاية في المذهب الشافعي، فقد أطلق عليه بعضهم اسم المذهب الكبير، وفي ذلك يقول ابن السبكي

---

(١) كشف الظنون ٧٢٨/٢، طبقات الشافعيّة الكبرى ٢٢٢/٤، المهذّب، طبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، مصر، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، ووضع بأسفل صفحاته كتاب: النظم المستعذب في شرح غريب المهذّب لمحمد بن أحمد بن بطال اليمني (٦٣٠هـ)، المجموع شرح المهذّب ١٦/١، الإمام الشيرازي، حياته وآراؤه الأصوليّة للدكتور محمد حسن هيتو ص ١٦٣ - ١٦٧.

في طبقاته: «وصار أكثر عنايته - أي إمام الحرمين - مصروفا إلى تصنيف المذهب الكبير المسمّى بنهاية المطلب في دراية المذهب » ومدحه قائلا: «النهاية في الفقه لم يصنّف في المذهب مثلها فيما أجزم به».

ونظرا لكون كتاب النهاية من المطوّلات، فقد لخّصه إمام الحرمين بنفسه، لكنّه لم يتمّه، واختصره أيضاً أبو سعيد عبدالله بن محمد اليمني المعروف بابن أبي عصرون (٥٨٥هـ) وسمّاه صفوة المذهب من نهاية المطلب[١].

- ٣ - حلية العلماء:

لمحمد بن أحمد بن القفّال الشاشي (٥٠٧هـ)، والعنوان الكامل للكتاب، هو: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، ويسمّى كذلك بالمستظهري، لأنّ صاحبه قد صنّفه للخليفة المستظهر بالله.

وفيه ذكر خلاف كثير للعلماء، حيث ذكر في كلّ مسألة الاختلاف الواقع بين الأئمّة، فعدّد الأقوال في المسألة الواحدة عند جميع الأئمّة وأتى بأقوال العلماء في المذهب الواحد وبيّن ما فيها من الوجهين أو القولين.

وكان في أثناء عرضه للأقوال منصفا لأئمّة المذاهب يأتي بأقوى الآراء عندهم لا بأضعفها[٢].

- ٤ - ٥ - ٦ - البسيط والوسيط والوجيز:

جميعها لحجّة الإسلام أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ) وكان الإمام الغزالي قد صنّف أوّل الأمر كتاباً كبيرا يستدعي همّة عالية سمّاه البسيط جمع فيه - كما قال - بين حسن الترتيب وغزارة الفوائد والنقاء من الحشو والتزويق واشتمل على محض المهمّ وعين التحقيق، ثمّ اختصره في كتاب

(١) كشف الظنون ٧٨٤/٢، طبقات الشافعيّة الكبرى ١٧١/٥، و١٧٧.

(٢) شذرات الذهب ١٥١/٤، كشف الظنون ٥٣١/١، حلية العلماء، ط، مؤسسة الرسالة، ودار القلم، مقدّمة المحقّق الدكتور ياسين أحمد درادكة ٣٤/١.

الوسيط ابتعد فيه عن داعية الإملال وترقّى فيه عن الإيجاز القاضي بالإخلال، فحذف منه بعض الأقوال والوجوه الضعيفة وتكلّف فيه مزيد تأنّق في تحسين الترتيب وزيادة تحذّق في التنقيح والتهذيب حتّى أصبح أحد الكتب الخمسة المتداولة بين الشافعية، ثمّ اختصر الوسيط في كتاب سمّاه الوجيز، ثمّ اختصر الوجيز في كتاب سمّاه الخلاصة.

وقد سجّل بعضهم عمل الغزالي في تهذيب المذهب الشافعي بقوله:

هذّب المذهب حَبْر أحسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط ووجيز وخُلاصه

وقد راعى الغزالي في البسيط سهولة العبارة مع الاهتمام بالتعريفات والحدود وتفريع الأحكام على الأصول والقواعد الكليّة، وخلا الكتاب من الحشو والإطالة.

وذكر النووي في مقدّمة شرحه للوسيط المسمّى بالتنقيح بأنّ العلماء من الشافعية قد أكثروا في تصنيف الفروع من المبسوطات والمختصرات وأودعوا فيها من الأحكام والقواعد والنفائس الجليلة ما هو معلوم مشهور لأهل العنايات، وصرّح بأنّ من أحسنها جمعا وترتيبا وإيجازا وتلخيصا وضبطا وتقعيدا وتأصيلا وتمهيدا، كتاب الوسيط للغزالي.

وذكر أنّ متأخّري الشافعية من زمن الغزالي إلى زمن النووي قد اشتغلوا بهذا الكتاب في جميع البلدان، ففيه تدريس المدرّسين وحفظ الطلاّب المعتنين وبحث الفضلاء والمبرّزين، لما جمعه من المحاسن والنفائس والمقاصد.

وذكر ابن العماد أنّ الغزالي قد زاد في الوسيط أمورا من كتاب الإبانة للفوراني، ومنها أخذ هذا الترتيب الحسن الواقع في متبه، وتعليق القاضي حسين والمهذّب للشيرازي واستمداده منه كثير.

وحاول أن يستوعب المذهب وفروعه، وصاغ أحكامه وأورد فروعه مبيّنا علّة كلّ حكم متتبّعا قاعدة كلّ فرع، واعتنى عناية تامّة بذكر الأدلّة.

وذكر أقوال المذاهب الأخرى كأبي حنيفة ومالك وأحمد وداود الظاهري وأوضح في بعض المواضع آراء الشيعة، وعرض في كثير من الأحيان آراءهم وأدلّتهم دون تعقيب بتضعيف أو تجريح، وإن عقّب ببيان ضعف دليل أو رأي فإنّه يعقب بطريقة مؤدّبة لا تكاد تشعر معها بأنّه يضعف دليل صاحب مذهب مخالف.

ونظراً لما لهذا الكتاب من أهميّة في مذهب الشافعي فقد اعتنى به العلماء عناية كبيرة بين شروح ومختصرات وتعليقات وعلى رأسها التنقيح للإمام النووي[1].

وأمّا الوجيز فقد أبدع في تحريره وأتقن في ضبطه ودقّق في اختصاره وامتاز فيه بحسن الترتيب ووضوح العبارة، وقال في مقدّمته: وقد مخّضت لك فيه جملة الفقه فاستخرجت زبدته، وتصفحت تفاصيل الشرع فانتقيت صفوته وعمدته وأوجزت لك المذهب البسيط الطويل وخفّفت عن حفظك ذلك العبء الثقيل وأدمجت جميع مسائله بأصولها وفروعها بألفاظ محرّرة لطيفة في أوراق معدودة خفيفة، وعبّيت فيها الفروع الشوارد تحت معاقد القواعد ونبّهت فيها بالرموز على الكنوز، واكتفيت عن نقل المذاهب والوجوه البعيدة بنقل الظاهر من مذهب الإمام الشافعي، ثمّ عرّفتك مذهب مالك وأبي حنيفة والمزني والوجوه البعيدة للأصحاب... فتحرّر الكتاب مع صغر حجمه وجزالة نظمه وبديع ترتيبه وحسن ترصيعه وتهذيبه حاوياً لقواعد المذهب مع فروع غريبة، خلا عن معظمها المجموعات البسيطة.

فجاء الكتاب على طريقة الفقه المقارن في إشاراته إلى آراء أبي حنيفة ومالك والمزني وأقوال في المذهب لفقهاء شافعية.

وقد نوّه الرافعي بقيمة كتاب الوجيز في مقدّمة شرحه عليه، فقال: هو كتاب غزير الفوائد جمّ العوائد وله القدح المعلّى والحظّ الأوفى من

(١) كشف الظنون ٢/٧٩٧ ـ ٧٩٨، الوسيط ١/١٠٣ ـ ١٠٤، ومقدّمة المحقّق ١/١١ ـ ١٩، والتنقيح في شرح الوسيط ١/٧٧ ـ ٧٨، دار السلام، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، شذرات الذهب ١/١٤٥.

استيفاء أقسام الحسن والكمال واستحقاق صرف الهمّة إليه والاعتناء بالإكباب عليه... لما فيه من حسن النظم وصغر الحجم.

وعوّل على الوجيز أئمّة الشافعيّة واعتنوا بشرحه واختصاره وتخريج أحاديثه، فبلغت شروحه أكثر من سبعين شرحاً[١].

ـ ٧ ـ العزيز شرح الوجيز:

لعبدالكريم بن محمد القزويني الرافعي (٦٢٣هـ)، وكتابه شرح كبير لكتاب الوجيز للإمام الغزالي، وقد تورّع بعضهم عن إطلاق لفظ العزيز مجرّدا على غير كتاب الله، فقال فتح العزيز.

وكان عمل الرافعي في شرحه ـ كما بيّنه في مقدّمته ـ: توضيح فقه مسائل الوجيز وتوجيهها، والكشف عمّا انغلق من الألفاظ، ودقّ من المعاني، وقد اشتهر هذا الكتاب حتّى قيل لم يصنّف في المذاهب مثله، لما حواه من المسائل الغزيرة، والأدلّة الكثيرة، والتحقيقات الجمّة الدقيقة.

وذكر ابن السبكي أنّه قد اشتهر على لسان طلبة العلم أنّ الإمام الرافعي لا يصحّح إلاّ ما كان عليه أكثر الأصحاب، وقد عقّب على هذا بأنّ والده قد بيّن خطأ هذا القول في كتابه الطوالع المشرقة، ولخّص ابن السبكي ـ الابن ـ كلامه فيه في كتاب التوشيح، وذكر أماكن رجّح الرافعي فيها ما يعرف على أنّ أكثر الشافعيّة على خلافه[٢].

ويعتبر هذا الكتاب حلقة هامّة من حلقات سلسلة الفقه الشافعي، والواسطة المهمّة في انتقال فقه المذهب، إذ أنّ الرافعي قد شرح بكتابه هذا وجيز الغزالي، الذي اختصره من الوسيط والبسيط، وهذا الأخير قد

---

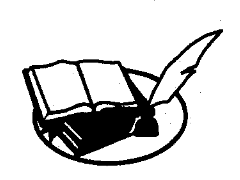
(١) الوجيز ص ٩، المكتبة العصرية بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦ م، العزيز شرح الوجيز ٣/١، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق علي محمد معوّض وعادل أحمد عبدالموجود، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧ م، كشف الظنون ٧٩٣/٢.

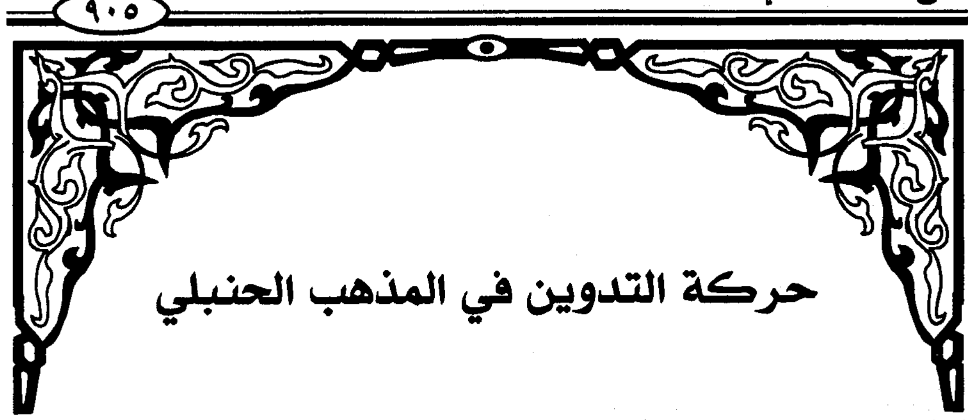
(٢) العزيز شرح الوجيز ٣/١، كشف الظنون ٧٩٣/٢، طبقات الشافعيّة الكبرى ٢٨١/٨، و٢٩٢.

تفقّه عن إمام الحرمين ولازمه، وتلقّى إمام الحرمين بدوره عمّن سبقه من أئمّة المذهب الشافعي، في سلسلة مترابطة محكمة إلى الإمام المزني، فإمام المذهب محمد بن إدريس الشافعي.

ويأتي من بعد الرافعي الإمام النووي الذي يعمل على اختصار وترتيب وتنقيح كتاب فتح العزيز، ليلتقي عمله مع عمل الرافعي في تحقيق أقوال المذهب، وتنقيح الآراء فيه، وتحرير مواطن الخلاف، ويتلقّى علماء الشافعيّة أعماله بالقبول والاعتماد، ويعوّلون عليه.

وهكذا تجتمع جهود محقّقي المذهب الرافعي والنووي، ويكون الرافعي بذلك حلقة مهمّة من حلقات تسلسل التصنيف الفقهي داخل المذهب الشافعي من عهد مؤسّس المذهب إلى الأدوار الفقهيّة اللاحقة.





حركة التدوين في المذهب الحنبلي

ـ ١ ـ الهداية:

لأبي الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني (٥١٠هـ) أحد المجتهدين في المذهب الحنبلي، وطريقته في كتابه الهداية أنّه يذكر المسائل الفقهيّة، والروايات عن الإمام أحمد بها، فتارة يجعلها مرسلة، وتارة يبيّن اختياره، وإذا قال فيه: قال شيخنا، أو عند شيخنا، فمراده به القاضي أبو يعلى الفرّاء.

حذا في كتاب الهداية حذو المجتهدين في المذهب، المصحّحين لروايات الإمام[1].

٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ المغني والكافي والمقنع والعمدة:

جميعها لموفّق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ)، فأمّا **المغني** فهو شرح لمختصر الخرقي وهو كتاب بليغ في المذهب أجاد فيه صاحبه، وبلغ به الأمل في إنهائه، حتّى قال معاصره الشيخ عزّ الدين بن عبدالسلام: «ما رأيت في كتب الإسلام مثل المحلّى ـ لابن حزم ـ والمغني ـ للشيخ موفّق الدين ـ في جودتهما وتحقيق ما فيهما، ونقل عنه أنّه قال: لم تطب نفسي بالإفتاء حتّى صارت عندي نسخة المغني.

---

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٩، و٤٣٢، كشف الظنون ٨١٦/٢.

وطريقة ابن قدامة في هذا الشرح أن يكتب المسألة من مختصر الخرقي، ثمّ يأتي على شرحها وتبيينها، وبيان ما دلّت عليه بمنطوقها ومفهومها ومضمونها، ثمّ يتبع ذلك ما يشبهها ممّا ليس بمذكور في المختصر.

ويبيّن في كثير من المسائل ما اختلف فيه ممّا أجمع عليه، ويذكر لكلّ إمام ما ذهب إليه، ويشير إلى دليل بعض أقوالهم، ويعزو الأخبار إلى كتب الأئمّة من أهل الحديث، ليحصل التفقّه بمدلولها، والتمييز بين صحيحها ومعلولها، فيعتمد الناظر على معروفها، ويعرض عن مجهولها.

والحاصل أنّه يذكر المسألة من مختصر الخرقي، ويبيّن غالبا روايات الإمام بها، ويتّصل البيان بذكر الأئمّة من أصحاب المذاهب الأربعة، وغيرهم من مجتهدي الصحابة والتابعين وتابعيهم، وما لهم من الدليل والتعليل، ثمّ يرجّح قولاً من تلك الأقوال على طريقة فنّ الخلاف والجدل.

وممّا يلاحظ في كتاب المغني أنّ صاحبه قد يتوسّع في ذكر فروع المسائل زيادة على ما في المتن، حتّى صار كتاباً جامعا لمسائل المذهب الحنبلي.

وفي المغني يطّلع القارىء فضلاً على خلاف الأئمّة، وأدلّتهم، على الروايات الحديثيّة، وما لها وما عليها من الأخذ والردّ.

فمن كان فقيه النفس حينئذ مرّن نفسه على السموّ إلى الاجتهاد، إن كان أهلا لذلك.

ولهذا كان كتاب المغني كتاباً مفيدا للعلماء كافّة على اختلاف مذاهبهم، ومن يطّلع عليه يحصل له علم بمواطن الإجماع والوفاق، ومواطن الخلاف والمذاهب المتروكة، بحيث تتّضح له مسالك الاجتهاد، فيرتفع من حضيض التقليد ويمرح في روضة التحقيق[١].

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٢٤ ـ ٤٢٧، كشف الظنون ٥١٦/٢، المغني ٥/١، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي وعبدالفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب الرياض، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

وأمّا **الكافي** فيذكر فيه الفروع الفقهيّة، ولا يخلو من ذكر الأدلّة والروايات، وقد توسّط فيه ابن قدامة بين الإطالة والاختصار، وأومأ إلى أدلّة مسائله مع الاقتصار، وعزا أحاديثه إلى كتب أئمّة الأمصار ليكون الكتاب كافيا في فنّه عمّا سواه، مقنعا لقارئه بما حواه، وافيا بالغرض من غير تطويل، جامعا بين الحكم والدليل[١].

ولم يجعل ابن قدامة في كتابه الكافي مسائل الأحكام قضايا مسلّمة، وإنّما ضمّنه كثيراً من الأدلّة، لتسمو نفس قارئه إلى الاجتهاد، وترتفع نفسه إلى مناقشتها.

وأمّا **المقنع** فذكر في كثير من مسائله روايتين في المذهب، ليتدرّب القارىء على ترجيح الروايات ويتربّى فيه الميل إلى الدليل، وقد قال ابن قدامة في مقدّمته: «اجتهدت في جمعه وترتيبه، وإيجازه وتقريبه، وسطا بين القصير والطويل، وجامعا لأكثر الأحكام عريّة عن الدليل والتعليل.

ويعتبر المقنع من أعظم الكتب نفعا في مذهب الإمام أحمد وأكثرها جمعا وأوضحها إشارة وأسلسها عبارة وأوسطها حجما وأحسنها تفصيلا وتفريعا وأجمعها تقسيما وتنويعا وأكملها ترتيبا، حوى على غالب أمّهات المسائل في المذهب، إلاّ أنّه أطلق في بعض مسائله الخلاف من غير ترجيح بحيث يشتبه على الناظر فيه الضعيف من الصحيح.

وقد اشتهر هذا المختصر عند علماء المذهب قريبا من اشتهار مختصر الخرقي إلى عصر التسع مائة، وعكف الناس عليه وهجروا ما سواه من كتب المتقدّمين، وأوّل شارح له هو عبدالرحمٰن بن محمد بن أحمد (٦٨٢هـ) حيث شرحه شرحاً وافيا سمّاه الشافي، وقال في مقدّمته: «اعتمدت في جمعه على كتاب المغني، وذكرت فيه من غيره ما لم أجده

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٣٠ وص ٤٣٤، الكافي ٤/١، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

فيه من الفروع والوجوه والروايات، ولم أترك من كتاب المغني إلاّ شيئاً يسيرا من الأدلّة، وعزوت من الأحاديث ما لم يعز ممّا أمكنني عزوه»[١].

وأمّا **العمدة** فهو كتاب مختصر جرى فيه على قول واحد ممّا اختاره، وهو سهل العبارة، يصلح للمبتدئين وطريقته فيه أنّه يصدر الباب بحديث من الصحاح، ثمّ يذكر من الفروع ما إذا دقّقت النظر وجدتها مستنبطة من ذلك الحديث، فترتقي همّة مطالعه إلى طلب الحديث، ولنفاسته ولطف مسلكه شرحه معاصره وقرينه بهاء الدين عبدالرحمٰن بن إبراهيم المقدسي (٦٢٤هـ) في كتاب العدّة شرح العمدة، كما شرحه شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة، فزيّنه بمسالكه المعروفة، وأفرغ عليه من لباس الإجادة صنوفه، وكساه حلل الدليل، وحلاّه بحليّ جواهر الخلاف، وزيّنه بالحقّ والإنصاف، وغيرهما[٢].

والحاصل أنّ ابن قدامة المقدسي قد راعى في مؤلّفاته الفقهيّة الأربعة، طبقات أربع:

صنّف **العمدة** للمبتدئين، ثمّ **المقنع** لمن ارتقى عن درجتهم، ولم يصل إلى درجة المتوسّطين، فلذلك جعله عريّا عن الدليل والتعليل، غير أنّه يذكر الروايات عن الإمام ليجعل لقارئه مجالا إلى كدّ ذهنه، حتّى يتمرّن على التصحيح، ثمّ صنّف **الكافي** للمتوسّطين، وذكر فيه كثيراً من الأدلّة لتسمو نفس قارئه إلى درجة الاجتهاد في المذهب حينما يرى الأدلّة، وترتفع نفسه إلى مناقشتها، ولم يجعلها قضيّة مسلّمة، ثمّ صنّف **المغني** لمن ارتقى درجة عن المتوسّطين، وهناك يطّلع قارئه على الروايات، وعلى

---

(١) المقنع ١/٣ ـ ٤، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي ١٣/١، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٣٣ ـ ٤٣٥، كشف الظنون ٦٥٢/٢، الشرح الكبير على متن المقنع ٣/١، ط ٢، مطبعة المنار مصر.

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٣١، عمدة الفقه ١١/١، تحقيق أحمد محمد عزوز، المكتبة العصرية، ط ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ومقدّمة المحقق ص ٥ و٧، العدة شرح العمدة ١١/١، دار الحديث، مصر، ط ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

خلاف الأئمّة، وعلى كثير من أدلّتهم، فمن كان فقيه النفس حينئذ مرّن نفسه على السموّ إلى الاجتهاد، إن كان أهلا لذلك، وتوفّرت فيه شروطه، وإلاّ بقي على أخذه بالتقليد لمن لم يستطع إلى الاجتهاد سبيلا(١).

ـ ٦ ـ المحرّر:

لمجد الدين عبدالسلام بن تيميّة الحراني (٦٥٢هـ) الذي حذا فيه حذو كتاب الهداية لأبي الخطاب، حيث يذكر الروايات، فتارة يرسلها، وتارة يبيّن اختياره فيها، وهو كتاب مختصر قد حوى لأكثر أصول المسائل، خاليا من العلل والدلائل، اجتهد صاحبه في اختصار لفظه تيسيرا على طلّاب حفظه.

وقد شرحه عبدالمؤمن بن عبدالحقّ القطيعي البغدادي، الملقّب بصفيّ الدين، شرحاً سمّاه «تحرير المقرّر في شرح المحرّر» وطريقته فيه: أنّه يذكر المسألة من الكتاب، ثمّ يشرع في شرحها ببيان مقاصدها، ويبيّن منطوقها ومفهومها، وما تنطوي عليه من المباحث، ولا يخلّ مع ذلك بذكر الدليل والتعليل والتحقيق، فهو من الكتب التي يليق الاعتناء بها(٢).

ـ ٧ ـ المختصر:

لمحمد بن تميم الحراني (حدود ٦٧٥هـ)، وكتابه مشهور بمختصر ابن تميم، وطريقته فيه: أنّه يذكر الروايات عن الإمام أحمد وخلاف الأصحاب، ويذهب فيه تارة مذهب التفريع، وآونة إلى الترجيح، وهو كتاب نافع جدّا لمن يريد الاطّلاع على اختيارات الأصحاب، لكنّه لم يكمل، بل وصل فيه مؤلّفه إلى أثناء كتاب الزكاة(٣).

---

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

(٢) المحرر في الفقه ٢/١، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٦ و٤٣٣، كشف الظنون ٢/٥٠٦.

(٣) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٧، و٤٣١.



مقاربة نقديّة

* المذاهب الفقهيّة بين الاختصار والاختيار*

ـ ١ ـ مبادرة الغزالي إلى منهج الالتزام والاختصار:

ظهر الإمام الغزالي في بداية هذا الدور بنزعة جديدة، تميّزت بنقده المنهجيّ للطريقة التي كان يسير عليها الفقه ولا سيّما عند الشافعيّة، تلك الطريقة الجدليّة التي كانت روح الجدل فيها غالبة على روح الأصول، حيث بيّن في كتاب إحياء علوم الدين من خلال نقده لتلك الطريقة الجدليّة أنّ اختصار الفقه أولى من سعة النقل فيه، وأنّ الاقتصار على الأخذ بالقول الراجح أولى من تعبيد الأقوال، خاصّة وأنّ تلك الأقوال مرتّبة ترتيبا تقديريّا، وأنّ بعضها أولى من بعض في الأخذ والعمل بها، فالأجدر إذن ألاّ نأخذ إلاّ بالأولى، وأن نختصر الفقه اختصارا جديدا نقتصر فيه على أخذ القول الراجح، أو القول المصحّح من بين الأقوال المختلفة في كلّ مسألة.

وسار في هذا المنهج من خلال كتابه الوجيز الذي لخّصه من كتابيه البسيط والوسيط، حيث اقتصرفيه على قول واحد، ولم يشر إلى الأقوال الأخرى في المذاهب إلاّ بطريقة الإشارة، أو بطريقة الرمز، بحيث إنّه لا يذكر في كلّ مسألة إلاّ قولاً واحدا[1].

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٨٢، بتصرّف.

- ٢ - تشبّث ابن رشد بمنهج الاختيار والترجيح:

لقد كان هذا العمل الذي ظهر به الإمام الغزالي عملا أعجب به الناس، لأنّهم رأوا أنّه في حقيقته متجاوب مع متطلّع الحاجات العامّة إلى معرفة الأحكام الفقهيّة، وأنّ مجال النظر والنقد والشرح والتوجيه والتعليل إنّما ينبغي أن يقتصر فيه على الذين يريدون أن يصعدوا بأنفسهم إلى مراكز الفقهاء المجتهدين.

وعلى ما اصطبغ به كتاب الغزالي الوجيز من إبداع في التحرير وإتقان في الضبط ودقّة الاختصار، فإنّ كثيراً من الفقهاء نظروا بعيدا فرأوا أنّ هذا المنهج الذي سلكه الغزالي - وإن كان مقبولا بحسب ما رآه من الاعتبارات التي بيّنها في خطبة الوجيز، وبيّنها من جهة أخرى في كتاب إحياء علوم الدين - فإنّه سيكون خطرا في المستقبل لأنّه سيجعل الفقه ملتزما التزاما بصورة تنسي الناس الأقوال المختلفة، وتجعلهم في حرج من قول يطبّق بالتزام، مع أنّ لهم مندوحة عن ذلك القول إلى أقوال أخرى لو أرادوا.

ومن العجيب أنّ الوقفة في وجه هذا الأسلوب الجديد الذي طلع به الإمام الغزالي، قد أتت من قريعه في هذا الدور ابن رشد الحفيد، فإنّ ابن رشد كان يتتبّع الغزالي في كلّ مجال، وكلّ منهما كان مجاله الأصلي المجال الفقهي، قبل أن يكون المجال الحكمي أو الكلامي أو الفلسفي له مجالا، فتلاقيا في هذا المجال وليس في مجال الظرف، وجاء ابن رشد يلاحظ أنّ الطريقة التي درج عليها الغزالي من شأنها أن تؤدّي إلى تضييق المجال في تكوين الفقهاء حتّى تقتل فيهم ملكة النظر، ويضيق الأفق الفقهي أمام أنظارهم، فلا يتكوّن منهم الفقيه الذي يستطيع أن يعالج الحوادث بحقّ بصورة يمكن أن تأخذ من أقوال المتقدّمين، أو من التخريج على أصولهم ما يكون كفيلا بتحقيق الحكم الشرعيّ المناسب للمصالح التي أمر الله تعالى بمراعاتها في تلك الجزئيات.

ووضع ابن رشد في آخر القرن السادس - تحدّيا للغزالي - كتابه المشهور بداية المجتهد ونهاية المقتصد، وتوسّع فيه ما شاء له بسبر في

جمع الأقوال والمذاهب، فإذا كان الغزالي لم يرتض أن يجمع أقوال فقهاء مذهبه، فإنّ ابن رشد قد جمع أقوال فقهاء مذهبه وغير مذهبه من المذاهب المتّبعة يومئذ تقليدا، والمذاهب الغير المتّبعة، والمذاهب المدوّنة، والمذاهب غير المدوّنة، وأبرز على ذلك كتابه بداية المجتهد في مقابلة كتاب الوجيز للغزالي.

ولكنّ الحاجة التي نظر إليها ابن رشد من ذلك، إنّما كانت في حقيقة الأمر حاجة لا تدرك إلاّ بالنظر البعيد لأنّ الإعدام الذي أعدم به جانب كثير من الفقه على هذه الطريقة التقنينيّة الاختصاريّة التي مال إليها الغزالي، إنّما كان أمراً متلائماً مع حاجات الناس في ذلك العصر، وقد اطمأنّ الناس إليه اطمئناناً واضحاً، ووجدوا أن لا حرج في إلغاء تلك الأقوال، لأنّ الذي كانوا سائرين عليه قد كان صحيحاً قويّ الإسناد محقّقا للمصالح لا سيّما مع تشابه الظروف[1].

ـ ٣ ـ تأثّر المذاهب الفقهيّة بالطريقة التي درج عليها الغزالي:

لقد كان ترحال العلماء الدائم وكثرة الاتّصال بعضهم ببعض عاملا قويّا في تقريب الفوارق وتناقل الأفكار والآراء بين العلماء.

لذلك نرى أنّه كلّما ظهر امتياز في مركز لا يلبث بعد ظهوره أن يقلّد في سائر المراكز الأخرى حتّى تصبح تلك الميزة مظهرا عامّا للوحدة المشتركة بين سائر المراكز.

وبهذا نستطيع أن نجزم بأنّ نشأة منهج الالتزام والاختصار عموما في كلّ المراكز كانت متقاربة فما إن بدأ بالنموّ في مركزه الأصلي حتّى تعاهدته بقيّة المراكز الأخرى بالعناية، وتأثّرت جميع المذاهب الفقهيّة بالطريقة التي درج عليها الإمام الغزالي.

فهذا ابن عقيل البغدادي الحنبلي (٥١٣هـ) يصنّف كتابه التذكرة

---

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٨٢ ـ ٨٤.

ويجعله على قول واحد في المذهب ممّا صحّحه واختاره[(١)].

وهذا موفّق الدين المقدسي الحنبلي (٦٢٠هـ) يضع مختصره العمدة في الفقه ويجري فيه على قول واحد ممّا اختاره[(٢)].

وظنّ المالكيّة في مصر أنّ المذهب المالكي الذي بدأ شأنه يضعف في العراق إنّما كان ذلك لأنّه لم يفز بأوضاع محكمة مثل الذي ظهر بها الإمام الغزالي في كتابه الوجيز، وهذه النزعة التي جدّت بالفقهاء المالكيّة في القرن السابع ـ من المصريين على الخصوص ـ أن يتتبّعوا طريقة الاقتصار والاختصار[(٣)].

فابتدأ أبو محمد عبدالله بن محمد بن شاس (٦١٠هـ) بوضع كتابه الذي اختصر فيه المذهب المالكي اختصارا، وسمّاه «الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة » وأشار في مقدّمة الكتاب إلى هذا المعنى، وهو أنّ المذهب المالكي قد قلّ أتباعه نظرا لاتّساع الكتب التي يؤخذ منها الفقه، وصعوبة معاناتها على الناس، وأنّه لمّا رأى كتاب الوجيز أعجب به، فوضع كتابه على مثاله، وقد استحسنه المالكيّة بمصر واعتكفوا على دراسته[(٤)].

وكان الفقهاء يقولون: إنّ كثيراً من المسائل تسرّب فيها الحكم الشافعي لابن شاس لتأثّره بمجاراة وجيز الغزالي ومسايرته[(٥)].

ثمّ جاء ابن الحاجب، فقام بوظيفة الإيجاز، واختصر الفقه المالكي في كتابه جامع الأمّهات المشهور بالمختصر الذي جمع فيه أكثر من ستّين ألف مسألة في ذلك المقدار الوجيز من الكلام، وأتى فيه بعجب العجاب، فأظهر فيه مثلاً عجيبا من وفرة المعاني وكثرة المسائل مع قلّة الألفاظ ممّا

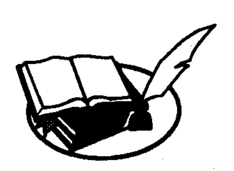
---

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٣٢.
(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٣١.
(٣) محاضرات مغاربيّة ص ٨٤.
(٤) محاضرات مغاربيّة ص ٨٤، شجرة النور الزكيّة ص ١٦٥، الديباج المذهب ص ٢٢٩.
(٥) محاضرات مغاربيّة ص ٨٤.

جعله الكتاب المعتمد في أواخر القرن السابع وطيلة القرن الثامن، ولا سيّما في المغرب، ذلك الالتزام والاعتماد الذي تبرّم به ابن خلدون وشكا منه[١].

وحدث في المذهب الحنفي ما حدث في المذهبين المالكي والحنبلي، من التأثّر بتلك الأوضاع الجديدة التي ظهرت في المذهب الشافعي، حتّى أنّ بعض أعلام الحنفيّة طلبوا من صاحب المختصرات في المذهب الشافعي، تاج الدين بن عبدالرحيم بن رضي الدين (٥٩٨هـ - ٦٧١هـ) - الذي صنّف التعجيز ومختصر الوجيز والنبيه في اختصار التنبيه ومختصر المحصول، وكان آية في القدرة على الاختصار، ومن أحسن مختصر له في الفقه كتاب سمّاه نهاية النفاسة - طلبوا منه أن يختصر لهم القدوري فاختصره اختصارا حسنا حتّى أنّ ابن السبكي قال في شأنه: قلّ أن رأيت مثله في عذوبة منطقه وكثرة المعنى وصغر الحجم[٢].

وهكذا دخلت المذاهب الفقهيّة في مذهب الالتزام الذي ضربه الإمام الغزالي على مذهب الشافعي، إلاّ أنّ وقفة جديدة في وجه هذا التيّار ستظهر في الدور القادم - في القرن الثامن - كما ظهرت وقفة ابن رشد في هذا الدور - في أواخر القرن السادس -[٣].



---

(١) محاضرات مغاربيّة ص ٨٤ - ٨٥، بتصرّف، والديباج المذهب ص ٢٩٠.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى ١٩١/٨ - ١٩٢.
(٣) محاضرات مغاربيّة ص ٨٥.



استخلاص ونتائج

إنّ أهمّ ما نخرج به من نتائج واستخلاصات من هذا الدور الفقهي الذي استمرّ على مدى قرنين من الزمن هو:

ـ ١ ـ أنّ فقهاء المذاهب في هذا الدور قد أبدعوا مصطلحات جديدة تتعلّق بعلامات الإفتاء والترجيح في المذهب تحرّوا فيها أرقى أنواع الشفافيّة، وسلكوا بها نهج الأمانة العلميّة، حيث كانوا يتخيّرون أدقّ الألفاظ التي يوسمون بها الفتاوى، وكانت هذه الاصطلاحات مختلفة باختلاف المذهب الواحد.

ـ ٢ ـ أنّ المذاهب الفقهيّة في مختلف المراكز قد تفاعلت فيما بينها لتصبح الميزة التي يختصّ بها علم من أعلامها مظهراً عامّاً للوحدة المشتركة بين المذاهب الأخرى في سائر المراكز، فابن العربي الأندلسي المالكي كان ممّن تخرّج في المشرق على الأصول الأشعريّة والحكمة الغزاليّة، وعياض المالكي كان يسير على أسلوب الفقه المبني على الكلام والأصول، وهي طريقة إمام الحرمين، التي وصلها بالفقه المالكي الإمام اللخمي، وسار عليها من بعده المازري وابن بشير المغربيين، وابن رشد الأندلسي، ثمّ ظهر بها الإمام الكاساني الحنفي.

ـ ٣ ـ أنّ قيام الأسر على بعض المذاهب قد أصبحت عادة جارية في كلّ عصر من العصور، فكان في هذا الدور من بيوت العلم بالشام، بيت ابن الحنبلي وابن عبدالواحد في الفقه الحنبلي، وأسرة بني العديم في

المذهب الحنفي، وأسرة جهبل في الفقه الشافعي، وتوارثت أسرة ابن الزكي القضاء بدمشق لسنين عديدة، وفي العراق توارثت أسرة الدامغاني الحنفيّة العلم جيلا بعد جيل، وفي نيسابور اشتهرت أسرة السمعاني الشافعية، وفي حران اشتهرت أسرة ابن تيميّة، وكان بيت ابن رشيق المالكي بيت علم وقضاء وفتوى في الإسكندريّة.

ـ ٤ ـ أنّ اعتناء الفقهاء ببعض المصنّفات الفقهيّة على وجه التحديد، والاعتكاف عليها شرحاً واختصارا وتعليقا وتحشية، إنّما يعود إلى أسباب عديدة أهمّها: ما يتميّز به المؤلّف من تكوين علمي عميق وإبداع في منهجيّة التأليف من ناحية، وإلى قدرته وبراعته على جمع مسائل المذهب وتهذيبها من مصادر الفقه المعتمدة من ناحية ثانية.

ـ ٥ ـ أنّ عمل الاختصار والإيجاز الذي طغى على حركة الإنتاج الفقهي في هذا الدور، قد كان في كثير من الأحيان على حساب وضوح المعاني ودقّة الفهم، الأمر الذي جعل تلك المختصرات مستعصية الفهم حتّى على واضعيها أحياناً، كما حدث مع ابن حاجب في مختصره الفرعي.

ـ ٦ ـ أنّ هذا الدور قد حفل بلون خاص من التصنيفات الفقهيّة، وهي: كتب الفتاوى والنوازل والأجوبة، التي أصبحت مكمّلة لكتب الفقه.

ـ ٧ ـ أنّ ظاهرة التقليد التي سيطرت على اهتمامات أغلب فقهاء هذا الدور قد ولّدت فيهم عزوفا عن الاجتهاد، وأقنعتهم بالقيام على أقوال أئمّتهم دون استقصاء الدليل، حتّى أصبحوا أسارى مذاهبهم يتعصّبون له وينتصرون لأقواله وأحياناً يحمّلون النصوص فوق ما تطيقه، ويحاولون في المقابل تضعيف أدلّة المخالف دون التزام الحقّ في مناقشاتهم الاستدلاليّة.

وكان منهم في المقابل من اتّصف بأسلوب الحوار الرصين، فربّما ظهر له قوّة دليل المذهب المخالف، فيخالف مذهبه فيما ترجّح عنده، وكانوا لا يحصرون جهودهم العلميّة في مذهب واحد ويشيحون عمّا سواه، بل كانوا يعتنون بكتب المذاهب المخالفة ويقومون عليها شرحاً وتعليقا، أو اختصاراً وتجريداً، أو مقارنة وتحقيقاً، ويذكرون خلافاً كثيراً للعلماء،

معتبرين أنّ من شأن المجتهد أن يكون عارفاً بمذاهب العلماء.

وقد طال باع هؤلاء في تحرير المذاهب الفقهيّة، وجنحوا إلى الاجتهاد وترك التقليد كالمرغيناني والكاساني في المذهب الحنفي، واللخمي والمازري وابن بشير وابن رشد في المذهب المالكي، وأبي بكر الشاشي وأبي شامة وعزّ الدين بن عبدالسلام والرافعي في المذهب الشافعي، وأبي الخطاب الكلوذاني وابن عقيل وابن قدامة في المذهب الحنبلي، وظهر البعض منهم بطريقة حديثة في الفقه، أدخلت عليه روحا جديدة وأصبغت عليه أوضاعا جديدة، مثل الإمام الغزالي الذي انتصب في المذهب الشافعي يتصرّف فيه بالإلغاء والإقصاء، أو بالإبقاء والإثبات، ومثل ابن رشد الحفيد الذي انتصب شارحا ومفسّرا في المذهب المالكي يتصرّف بالترجيح والتوجيه والتعليل، ومثل ملك العلماء الإمام الكاساني الذي صاغ الفقه الحنفي صياغة جديدة صارفا همّته إلى الترتيب والتنظيم بتخريج المسائل على قواعد أصولها، وغير هؤلاء كثيرون.

ولكن رغم ذلك كلّه فلم يحدث أن ظهر مذهب فقهي جديد، رغم وجود أمثال هؤلاء الفقهاء الذين ترقّوا في مراتب الاجتهاد، ولم تكن تعوزهم قدرة، ولا يقلّون عن سابقيهم نظرا.

ـ ٨ ـ أنّ قرار المنصور الموحّدي في إلزام الفقهاء ـ بالغرب الإسلامي ـ بترك كتب الفروع وتحريضهم على الاشتغال بالسنّة النبويّة والاهتمام بحفظ الأحاديث، رغم ما صاحبه من سلبيات تمثّلت في تلك الإجراءات القمعيّة والاضطهادات، فإنّ جوانب إيجابيّة قد رافقت ذلك كلّه، حيث وجدنا لهذا العهد من الفقهاء من كان يستظهر آلاف الأحاديث بأسانيدها، يسندها إلى أن ينتهي إلى النبيّ ﷺ، ويعتني بلغة الحديث وغريبه وفقهه والخلاف العالي ودقائقه ورقائقه والمستفادات منه[1].

ـ ٩ ـ أنّ المركز الأندلسي بعد القرن السادس الهجري لم يعد له

---

(١) توشيح الديباج ص ٢٤١، عنوان الدراية ص ٢٤٧.

إشعاع فقهي يوازي ما كان عليه حاله قبل ذلك الحين، ولم نعد نسمع فيه باسم فقيه بارز كابن رشد أو ابن العربي، لا سيّما في مجال الإنتاج والتدوين.

ـ ١٠ ـ أنّ المرأة المسلمة قد حافظت على نشاطها الفقهي في هذا الدور التشريعي، حتّى كان طلبة العلم يتفقّهون على جماعة من النساء كما يتفقّهون على الرجال[١]، وقد خلّدت لنا كتب الطبقات أسماء نساء بلغن مكانة عالية ودرجة سامية، طبقت شهرتهنّ الآفاق، وذاع أسماء الكثيرات منهنّ وامتد صوتهنّ رغم تباعد المراكز وتعاقب الأدوار، وكان من أشهرهنّ:

أمّ الخير فاطمة (٥٣٢هـ) بنت عليّ بن المظفر بن زعبل البغدادية الأصل، النيسابوريّة، المقرئة، التي روت صحيح مسلم، وكانت تلقّن النساء، وتوفّيت عن سبع وتسعين سنة[٢].

وأمّ البهاء فاطمة (٥٣٩هـ) بنت محمد بن أبي سعد البغدادية مسندة أصبهان التي روت عن أعلام عصرها وسمعت صحيح البخاري من سعيد العيار، وتوفّيت عن أربع وتسعين سنة[٣].

وشهدة (٥٧٤هـ) بنت أبي نصر أحمد بن الفرج بن عمر الإبري، فخر النساء الدينوريّة الأصل، البغداديّة المولد والوفاة، وكانت من العالمات، تفقّهت على أبي بكر الشاشي وطبقته، وسمّعها أبوها الكثير وصارت مسندة العراق، وروى عنها ابن الجوزي، وسمع منها عليّ بن هبة الله الشافعي، وعبدالرحمٰن بن عبدالوهاب الحنبلي الجزء الرابع من كتاب الأمالي للمحاملي، واشتهر ذكرها وبعد صيتها وسمع عليها خلق كثير، ونيفت على تسعين سنة من عمرها[٤].

---

(١) شذرات ١٧٤/٤ ـ ١٧٥.
(٢) شذرات ٢٥٥/٤.
(٣) شذرات ٢٨٥/٤ ـ ٢٨٦.
(٤) وفيات الأعيان ٤٧٧/٢ ـ ٤٧٨، شذرات الذهب ٤٣١/٤ ـ ٤٣٢.

وكانت **فاطمة** ابنة الشيخ علاء الدين السمرقندي، وزوجة الإمام الكاساني، فقيهة عالمة(١).

وفاطمة (٥٢٢هـ ـ ٦٠٠هـ) بنت سعد الخير بن محمد بن عبدالكريم، وزوجة أبي الحسن بن نجا، التي سمعت حضوراً من فاطمة الجوزدانية ومن غيرها، وسمع منها القاضي الأشرف أبو العباس أحمد بن الفاضل البيساني المصري(٢).

وستّ الكتبة نعمة (٦٠٤هـ) بنت عليّ بن يحيى بن الطراح التي روت الكثير بدمشق عن جدّها(٣).

وعفيفة (٥١٠هـ ـ ٦٠٦هـ) بنت أحمد بن عبدالله بن محمد بن أمّ هانىء الفارفانية الأصبهانية التي سمعت من فاطمة المعجمين الكبير والصغير للطبراني ولها إجازة من أبي عليّ الحداد وجماعة، وسمع عليها بأصبهان الإمامان تقيّ الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبدالغنيّ المقدسي(٤).

وتقيّة (٦٠٧هـ) بنت محمد بن آموسان التي روت عن أبي عبدالله الخلال وغانم بن خالد، وكان أخوها أبو محمد جعفر الأصبهاني قد سمع من فاطمة بنت البغدادي(٥).

وأمّ حبيبة عائشة (٦٠٧هـ) بنت معمر بن الفاخر الأصبهانية التي حضرت فاطمة الجوزدانية، وسمعت من أهل عصرها، وسمع منها مسند أبي يعلى رجال كثيرون(٦).

وعين شمس (٦١٠هـ) بنت أحمد بن أبي الفرج الأصبهانية الفقيهة التي سمعت حضوراً في سنة ٥٢٤هـ من إسماعيل بن الإخشيد، وسمعت

---

(١) كشف الظنون ٣١٦/١ ـ ٣١٧.
(٢) شذرات ٦٤/٥، و٣٣٩، النجوم الزاهرة ١٨٧/٦، تذكرة الحفاظ ١٣٦٩/٤.
(٣) شذرات ٨١/٥، النجوم الزاهرة ١٩٥/٦.
(٤) شذرات ٥ /٩٠ ـ ٩١، و٣٣٩، النجوم الزاهرة ٦ /٢٠٠.
(٥) شذرات ٩٨/٥.
(٦) شذرات ٩٨/٥ ـ ٩٩، النجوم الزاهرة ٢٠٢/٦.

من أبي ذر الصالحاني، وكانت آخر من حدّث عنهما[١].

وشيخة العالمات بدمشق دهن اللوز (٦١٤هـ) بنت نورنجان، الصالحة العابدة الزاهدة[٢].

وتجنى الوهابية التي سمع عليها الفقيه الحنفي قاضي القضاة أبو عبدالله الدامغاني[٣].

وأمّ المؤيد زينب الشعرية (٥٢٤هـ ـ ٦١٥هـ) بنت أبي القاسم عبدالرحمٰن بن الحسين بن أحمد بن سهل الجرجاني النيسابوري التي سمعت من أعلام عصرها وانقطع بموتها إسناد عال[٤].

وآسية (٦٤٠هـ) بنت عبدالواحد المقدسية، والدة ابن المجد وأخت الشيخ ضياء الدين، التي لم يكن في زمانها مثلها[٥].

وجمال النساء (٦٤٠هـ) بنت أحمد بن أبي سعد الغراف البغدادية التي سمعت من عشرة شيوخ من أعلام عصرها[٦].

وسعيدة (٦٤٠هـ) بنت عبدالملك بن يوسف بن محمد بن قدامة التي روت بالإجازة عن العثماني[٧].

وعائشة (٦٤١هـ) بنت محمد بن عليّ بن البل البغدادي، التي أجاز لها أبو الحسن ابن غبرة والشيخ عبدالقادر[٨].

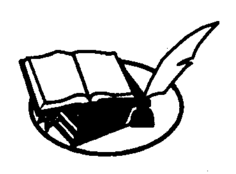
وأمّ الفضل كريمة (٦٤١هـ) بنت عبدالوهاب بن علي بن الخضر

(١) شذرات ١٢٠/٥ ـ ١٢١، النجوم الزاهرة ٢٠٩/٦.
(٢) البداية والنهاية ٧٨/١٣.
(٣) شذرات ١٤٧/٥.
(٤) شذرات ١٤٧/٥، وفيات الأعيان ٣٤٤/٢ ـ ٣٤٥، النجوم الزاهرة ٢٢٦/٦.
(٥) شذرات ٣٢٥/٥.
(٦) شذرات ٣٢٥/٥.
(٧) شذرات ٣٢٦/٥.
(٨) شذرات ٣٣١/٥.

القرشية الزبيرية، المعروفة ببنت الحبقبق، مسندة الشام، التي روت عن حسان الزيات وغيره شيئاً كثيراً، وأجاز لها علماء عصرها[١].

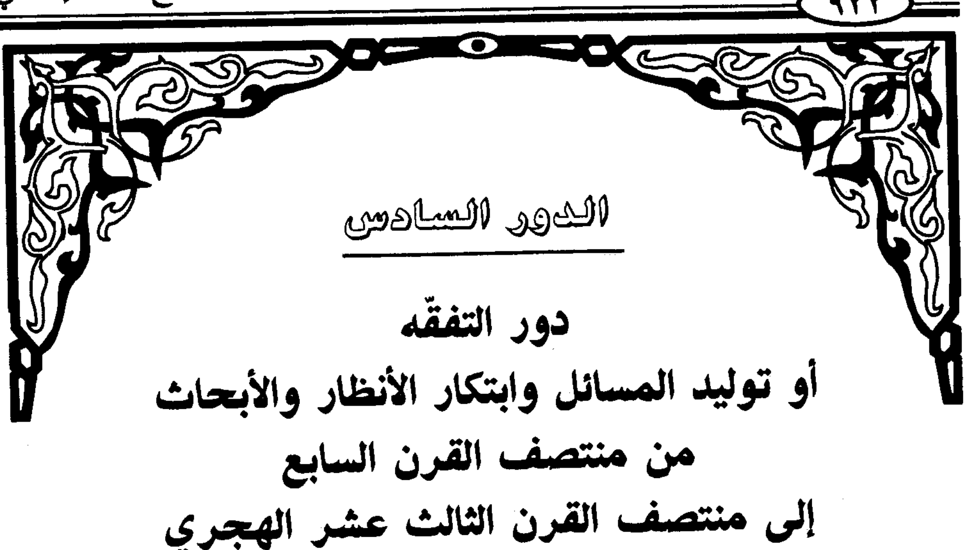
وأمّ البدر بدرة (٦٥٢هـ) بنت فخر الدين بن تيمية، وابنة عمّ مجد الدين بن تيميّة وزوجته، التي روت بالإجازة عن أعلام عصرها[٢].

وغيرهنّ ممّن شاركن أخواتهنّ في نشر العلم وكنّ رائدات في هذا المضمار.



(١) شذرات ٥/٣٣٢، النجوم الزاهرة ٦/٣٤٩.

(٢) شذرات ٥/٣٨٩.



دور التفقّه
أو توليد المسائل وابتكار الأنظار والأبحاث
من منتصف القرن السابع
إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري

تمهيد:

أخذت الدولة العباسيّة في الدور السابق تتقهقر شيئاً فشيئاً تبعاً لناموس الحياة الطبيعية القاضي بالهرم بعد الشبيبة، واستمرّ الانحلال ينخر عظامها حتّى وقعت بغداد في قبضة التتار سنة ٦٥٦هـ.

ومن ثمّ لم يكن للإسلام بعدها دولة عظيمة تحمي بيضته وتضمّ أشتاته، بل ضاعت وحدته الملكيّة، واستقلّ كلّ حاكم بما وكّل إليه أمره من الأقاليم[١].

وما كاد القرن السابع الهجري يتمّ حتّى أصبح الأتراك العثمانيون يسيطرون على أغلب البلاد الإسلاميّة، ما عدا البلاد المغربيّة التي كانت تخضع لحكم الحفصيين والمرينيين.

وكانت هذه الدول تتقلّب بين الاستقرار حينا، والاضطراب أحياناً

(١) تاريخ الدولة العليّة العثمانية ص ١١٣ ـ ١١٤.

أخرى، فتحظى خلال استقرارها بالازدهار والتطوّر، ويختلّ توازن الحياة بها أيّام النكبات والثورات، ثمّ تحاول بعدها أن تسترجع توازنها لتتجدّد الحياة بها، وتتماسك الدولة فيها، ومضى الأمر على تلك الحال خلال القرون الثلاثة الأولى من هذا الدور.

وفي القرن التاسع الهجري ظهرت أزمات اجتماعيّة في بلاد المغرب بصورة خاصّة، تسبّبت عن سقوط دولة الأندلس بعد نحو ثمانية قرون من دخول الإسلام إليها، وعجزت الدول القويّة التي كانت قائمة يومئذ مثل الدولة المرينيّة والدولة الحفصيّة من إغاثة الأندلس(١).

ثمّ شهدت المنطقة المغربية في القرن العاشر الهجري نزاعا بين الدول القائمة، وبين البرتغاليين والإسبانيين، حيث أخضع البرتغاليون مدنا كثيرة وسيطروا على الساحل الغربي من المغرب الأقصى، واحتلّ الأسبان المغرب الأدنى ـ تونس ـ ومدنا كثيرة من المغرب الأوسط ـ الجزائر ـ.

وكان من جرّاء ذلك أن أصاب الخراب العمراني والاقتصادي البلاد العربيّة بصورة عامّة، والبلاد المغربيّة بصورة أخصّ.

والنشاط العلمي قد تأثّر بلا شكّ بتلك الأوضاع السياسيّة وتقلباتها، حيث كان ينبعث وينتشر أيّام الأمن والاستقرار، ويكاد يتوقّف أيّام الاضطرابات والفتن، حتّى أمسى في بعض البلاد كشمس على مغيب.

وما كاد القرن العاشر يأذن بالمغيب حتّى كانت الدولة العثمانية قد بسطت نفوذها على جميع البلاد العربية شرقها وغربها، وتلك هي ملامح المرحلة الأولى من هذا الدور.

غير أنّنا إذا نظرنا إلى ما تتابع خلال المرحلة الثانية من هذا الدور ـ منذ القرن الحادي عشر تحديدا ـ يتبيّن لنا أنّ عاملا ليس داخلا في صميم الحياة التشريعيّة، ولكنّه مسيطر عليها بأنواع من العوامل التي هي داخلة في

---

(١) انظر: نفح الطيب ٥٠٧/٤، ومضات فكر ١٤٦/١، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

صميمها، هو الذي كان له العمل في إبداء المشكلة الواضحة التي تعلّقت بالتشريع الإسلامي فيما بعد القرن الحادي عشر(١).

هذا العامل يرجع في الحقيقة إلى أمر نفساني اجتماعي أصاب المجتمع الإسلامي، وتمثّل في ما نستطيع أن نعبّر عنه بالوازع الديني، هذا الوازع الذي أصبح فاترا ضعيفا بسبب أنّ صور الحياة الواقعيّة التي تصوّرت بها حياة المجتمع شرقا وغربا منذ القرن الحادي عشر قد أصبحت مختلفة في أشكالها، أو في جواهرها، أو في أسمائها، عن الصور التي هي مصوّرة في كتب الدين من كتب السنّة وكتب الفقه(٢).

فبدأ الناس يسيرون على صور الحياة وطرائقها ـ غير آبهين للأحكام الدينيّة ـ باعتبار أنّها أمور يكادون يتظاهرون أو يعتقدون بأن لا تعلّق للأحكام الشرعيّة بها، والذي أعان على ذلك هو ضعف الدول الإسلاميّة وتضعضع قوّتها الحاكمة أمام القوّات الطاغية عليها في عقر دارها بسبب الامتيازات القنصليّة التي ظهرت في نظام الدولة العثمانيّة، والتي مكّنت لغير المسلمين شوكة قائمة ذات شأن في المجتمع الإسلامي(٣).

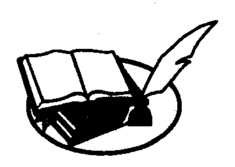
فاضطرّت الدول إلى تعطيل الأحكام الشرعيّة، وإلى هجر إقامة الحدود، وإلى التحاشي من إقامة ما هو راجع إلى إظهار الشوكة الإسلاميّة وإعلاء كلمة الله وإظهار عزّة الدين ممّا زاد على فتور الوازع الديني(٤).

هذا الفساد السياسي كان قد زيّن لحكّام البلاد الإسلاميّة أن يفرّوا من العدالة الشرعيّة، فكانوا يعبّرون على كلّ معنى من المعاني يضعف نفوذ الحكم الشرعي ويغلّ من سلطة القضاة الشرعييّن، ويقيم حكما يستند إلى الشهوات، لأنّهم في حقيقة الأمر يريدون أن يفرّوا من العدالة الاجتماعيّة، فأصبح بعضهم يقومون بما استطاعوا من شعائره، ولكنّهم لا يلتفتون إلى

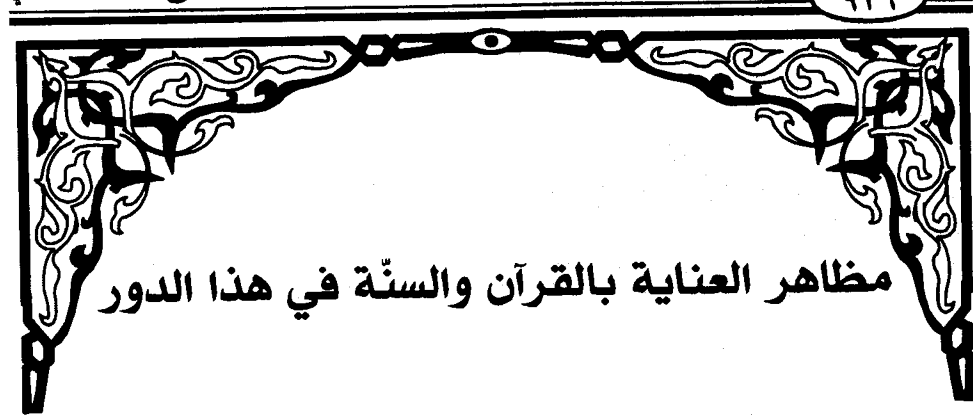
(١) ومضات فكر ص ١٤٨.
(٢) المرجع السابق ص ١٤٨ ـ ١٤٩، بتصرّف.
(٣) نفس المرجع ص ١٤٩، بتصرّف.
(٤) ومضات فكر ص ١٤٩.

أحكامه، بل لا يكادون يظهرون شعورهم بأنّ لتلك الأحكام المعطّل منها، والمقام على غير وجهه ارتباطا بالدين.

وعلى ذلك تلاحقت القرون الثلاثة: الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر[١].



(١) المرجع السابق ص ١٤٩ ـ ١٥٠، بتصرّف.



مظاهر العناية بالقرآن والسنّة في هذا الدور

ـ ١ ـ القرآن الكريم:

بقي التفسير في هذا الدور[١] يسير على النهج الذي كان قد خطّه أعلام الدور السابق، واشتهر أعلام بالتفسير المأثور، وكانت من أشهر الكتب اعتماداً لهذا اللون من التفسير: كتاب تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير البصري ثمّ الدمشقي، الشافعي (٧٧٤هـ) وكتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن لأبي زيد عبدالرحمٰن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المغربي المالكي (٨٧٦هـ) وكان مختصًا في التفسير حيث صنّف في مجاله كتبا كثيرة نافعة ككتاب الذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز، وتحفة الإخوان في إعراب بعض آيات القرآن وغيرها، ثمّ صنّف الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي (٩١١هـ) كتاب الدرّ المنثور في التفسير المأثور.

وظفر التفسير بالرأي الجائز بكثرة زاخرة من الكتب المؤلفة، بعضها قد غلبت عليه الصناعة النحويّة وبعضها قد غلبت عليه النزعة الفلسفية والكلاميّة، وبعضها قد طغت عليه الناحية القصصية والإسرائيليّة، ومنها غير ذلك، ولكن الجميع ينضمّ تحت شيء واحد هو التفسير بالرأي الجائز، وأشهرها: أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي الخير ناصر الدين البيضاوي

---

(١) التفسير والمفسرون ٢٤٢/١، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٩٦، ٣٠٤، ٣١٠، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٨، ٣٤٥، و١٤٥/٢، ١٨٦، ٢٨٥، ٤٣٦ ـ ٤٣٧، ٤٧٧، ٤٨٥، ٤٩٥.

الشافعي (٦٨٥هـ) ومدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات عبدالله بن أحمد النسفي الحنفي (٧١٠هـ) ولباب التأويل في معاني التنزيل لأبي الحسن علاء الدين عليّ بن محمد الشيحي الشافعي المعروف بالخازن (٧٤١هـ) والبحر المحيط لأبي عبدالله أثير الدين محمد بن يوسف الأندلسي الشهير بأبي حيّانْ (٧٤٥هـ) وغرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين بن الحسن الخراساني النيسابوري، من علماء رأس المائة التاسعة، والسراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربّنا الحكيم الخبير لشمس الدين محمد بن محمد الشربيني القاهري الشافعي (٩٧٧هـ).

وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي (٩٨٢هـ).

ومن كتب التفسير للإماميّة: كتاب الصافي في تفسير القرآن الكريم لمحمد بن الشاه مرتضى المعروف بملا محسن وبالفيض الكاشي (بعد الألف بنيف يلحق تمام التسعين) وتفسير القرآن للسيّد عبدالله بن محمد رضا العلوي الحسيني الشهير بشبّر (١٢٤٢هـ).

ومن كتب التفسير للزيديّة: كتاب فتح القدير لمحمد بن عليّ بن عبدالله الشوكاني (١٢٥٠هـ).

وأمّا التفسير الفقهي فقد ألّف فيه كثير من علماء هذا الدور على اختلاف مذاهبهم، ومنازعهم، فمن الحنفيّة أحمد بن أبي سعيد المدعو بملا جيون، من علماء القرن الحادي عشر الهجري صاحب التفسيرات الأحمديّة في بيان الآيات الشرعيّة.

ومن المالكيّة أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) صاحب كتاب الجامع لأحكام القرآن.

ومن الشافعيّة أبو العباس أحمد بن يوسف بن محمد الحلبي المعروف بالسمين (٧٥٦هـ) صاحب كتاب القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز، وعليّ بن عبدالله محمود الشنفكي، من علماء القرن التاسع الهجري صاحب

كتاب أحكام الكتاب المبين، وجلال الدين السيوطي (٩١١هـ) صاحب كتاب الإكليل في استنباط التنزيل.

ومن الزيديّة حسين بن أحمد النجري، من أهل القرن الثامن الهجري صاحب شرح الخمسمائة آية، وشمس الدين بن يوسف بن أحمد (٨٣٢هـ) صاحب كتاب الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة، ومحمد بن الحسين بن القاسم من علماء القرن الحادي عشر الهجري صاحب كتاب منتهى المرام في شرح آيات الأحكام.

ومن الإماميّة الإثني عشريّة مقداد بن عبدالله السيوري، من أهل القرن الثامن الهجري، صاحب كتاب كنز الفرقان في فقه القرآن.

ونجد جلال الدين السيوطي ينحو في هذا الدور المنحى الذي كان قد نهجه كلّ من الغزالي والرازي في جعل التفسير مشتملا على جميع العلوم الكونيّة، ويقرّر السيوطي هذا اللون من التفسير بوضوح ويتوسّع في كتابه الإتقان في النوع الخامس والستّين منه، ويسوق من الأدلّة ما به يستدلّ على أنّ القرآن يشتمل على كلّ العلوم.

هذا المنهج الذي كان قد لاقى معارضة من بعض أقطاب هذا الدور مثل أبي إسحاق الشاطبي (٧٩٠هـ) حيث نجده في كتاب الموافقات يعقد بحثا خاصّا لمقاصد الشارع، وينوّع هذه المقاصد إلى أنواع تولّى شرحها وبيانها، وتطرّق في النوع الثاني منها ـ وهو بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للأفهام ـ وفي المسألة الثالثة من مسائل هذا النوع، توجّه باللوم إلى من حاولوا أن يضيفوا للقرآن كلّ علوم الأوّلين والآخرين، وفنّد زعمهم هذا ـ في المسألة الرابعة من مسائل النوع الثاني من المقاصد ـ واعتبر أنّهم باعتقادهم هذا قد تجاوزوا به الحدّ في دعواهم على القرآن.

وهكذا سعى علماء التفسير في هذا الدور إلى محاولة الكشف عن معاني القرآن ومراميه وسلكوا في ذلك مناهج مختلفة وفّوا بها حقّ القرآن من البحث والتحقيق، والتفسير والتحليل، من جميع النواحي، اللغوية منها والبلاغية، والأدبية والنحوية، والفقهية، والمذهبية، والكونية الفلسفية.

كلّ هذه النواحي وغيرها، تناولها المفسّرون ـ من أعلام هذا الدور والذي قبله ـ بتوسّع ظاهر ملموس، بحيث لم يتركوا لمن جاء بعدهم من أصحاب هذا الدور من عمل جديد، أو أثر مبتكر يقومون به في تفاسيرهم التي ألّفوها، اللهمّ إلاّ عملا ضئيلا لا يعدو أن يكون جمعا لأقوال المتقدّمين، أو شرحاً لغوامضها، أو نقداً وتفنيداً لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحاً لرأي على آخر، ممّا جعل التفسير يقف في هذا الدور وقفة طويلة مليئة بالركود، خالية من التجديد والابتكار.

وفي مجال علوم أخرى للقرآن[١]: برز في القرن الثامن الإمام بدر الدين الزركشي (٧٩٤هـ) أحد جهابذة أهل النظر وأرباب الاجتهاد، الذي صنّف فيما صنّف كتاب البرهان في علوم القرآن جمع فيه عصارة أقوال المتقدّمين، وصفوة آراء العلماء المحقّقين حول القرآن الكريم، جعله في سبعة وأربعين نوعا كلّ نوع يدور حول موضوع خاصّ من علوم القرآن ومباحثه، يستحقّ كلّ نوع أن يكون موضوعا لمؤلّف خاص، حاول في كلّ موضوع أن يؤرّخ له، ويحصي الكتب التي ألّفت فيه، ويشير إلى العلماء الذين تدارسوه، فأشبع الفصول وجمع أشتات المسائل، وضمّ أقوال المفسّرين والمحدّثين، إلى مباحث الفقهاء والأصوليين، إلى قضايا المتكلّمين وأصحاب الجدل، إلى مسائل العربيّة وآراء أرباب الفصاحة والبيان.

وفي مطلع القرن التاسع صنّف محمد بن سليمان الكافيجي (٨٧٣هـ) كتاباً في علوم القرآن اشتمل على بابين، الأوّل في ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية، والثاني في شروط القول في القرآن بالرأي، ثمّ وضع جلال الدين البلقيني كتاب مواقع العلوم من مواقع النجوم، رتّبه على ستّة مباحث اشتملت على خمسين نوعا.

ثمّ وضع السيوطي كتاب التحبير في علوم التفسير، الذي فرغ من

(١) مناهل العرفان ٣٦/١ ـ ٣٧، البرهان في علوم القرآن، مقدّمة المحقّق ١٤/١.

تأليفه سنة ٨٧٢هـ، وضمّنه ما ذكره البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها، حتّى أوفى الكتاب ١٠٢ من الأنواع، غير أنّ نفسه الكبيرة لم تقنع بهذا المجهود العظيم، بل طمح إلى التبحّر والتوسّع والترتيب، فوضع كتابه الإتقان في علوم القرآن، الذي ذكر فيه ثمانين نوعا من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والإدماج، وقال: «ولو نوّعت باعتبار ما أدمجته فيها لزادت على الثلاثمائة».

وقد تأسّى فيه السيوطي بطريقة الزركشي، وسار في الدرب الذي رسمه، ونقل كثيراً من فصوله اقتضاباً واختصاراً.

ويمكن أن نعتبر أنّ نهاية الإمام السيوطي في بداية القرن العاشر الهجري، نهاية لنهضة التأليف في علوم القرآن، إذ لم نر من سار في هذا المضمار مثله بعده.

ـ ٢ ـ السنّة النبويّة:

في هذا الدور[1] تقاعدت همم العلماء عن الرحلة إلى الأقطار، فانقرضت الرواية الشفاهيّة، وحلّ محلّها الإجازة والمكاتبة، وصار الإسناد في الحديث يقصد للتبرّك، اللهمّ إلاّ في أفراد تبعث بهم الأقدار الإلهيّة من وقت لآخر، يجدّدون ما خلق ويحيون ما اندثر.

وقد اشتهر من هؤلاء الأعلام طائفة كانوا يرحلون إلى الأقطار ويجلسون للإملاء، ويكتب عنهم أتباعهم الأمالي، ومن أمثال هؤلاء: الحافظ الكبير أبو الفضل زين الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي(٨٠٦هـ) الذي شرع في إملاء الحديث من سنة ٧٩٧هـ فأحيا الله به السنّة، ومنهم: تلميذه شهاب الدين أبو الفضل أحمد ابن عليّ بن حجر (٨٥٢هـ) العسقلاني الأصل، ثمّ المصري مولداً ومنشأً وداراً ووفاةً، ثمّ الحافظ السخاوي تلميذ ابن حجر.

(١) الحديث والمحدثون ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨، المرجع السابق ص ٤٤٣ وما بعدها.

إلاّ أنّ هذه الطريقة كانت غير منتشرة انتشارها في العصور الأولى، بل كان جلّ علماء الحديث في هذا الدور عاكفين على كتب الأوّلين بالجمع والاختصار والشرح والتخريج، والترتيب والتهذيب، وما إلى ذلك وقد تمثّلت جملة أعمالهم في هذا الدور في النواحي التالية:

* **أوّلاً: وضع كتب الزوائد**: حيث أخرجوا الأحاديث الزائدة في كتاب على آخر في مصنّفات خاصّة لهم، فوضع الحافظ شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري (٨٤٠هـ) ثلاثة مصنّفات في هذا المجال هي:

كتاب زوائد سنن ابن ماجة على الكتب الخمسة، وكتاب إتحاف المهرة بزوائد المسانيد العشرة ـ أي على الكتب الستّة ـ وكتاب زوائد السنن الكبرى للبيهقي على الكتب الستّة، ويسمّى فوائد المنتقى لزوائد البيهقي.

ووضع ابن حجر العسقلاني كتاب المطالب العالية في زوائد المسانيد الثمانية ـ على الكتب الستّة ـ كما وضع الحافظ نور الدين أبو الحسين الهيثمي (٨٠٧هـ) كتاب مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، وهو كتاب عظيم جمع فيه كتبا كثيرة في الزوائد، وغير ذلك كثير في هذا الدور.

* **ثانياً: الجوامع العامّة**: حيث يعملون على جمع مجموعة من الكتب في مصنّف واحد، مثل كتاب جامع المسانيد والسنن للحافظ ابن كثير (٧٧٤هـ) الذي جمع فيه بين الصحيحين وسنن النسائي وأبي داود والترمذي وابن ماجة، ومسانيد أحمد والبزّار وأبي يعلى والمعجم الكبير للطبراني، ومثل كتاب جمع الجوامع للإمام السيوطي الذي جمع فيه بين الكتب الستّة وغيرها، وقد قصد في كتابه هذا جمع الأحاديث النبويّة بأسرها، غير أنّه توفّي قبل أن يتمّه.

* **ثالثاً: الكتب الجامعة لأحاديث الأحكام**: مثل: كتاب الإلمام في أحاديث الأحكام لابن دقيق العيد (٧٠٢هـ) الذي جمع فيه متون الأحكام مع حذف الأسانيد، وشرحه في كتابه الإمام.

ومثل: كتاب تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد للحافظ زين الدين العراقي (٨٠٦هـ) الذي جمع فيه أحاديث الأحكام لابنه أبي زرعة.

وكتاب بلوغ المرام من أحاديث الأحكام لابن حجر العسقلاني، وقد اشتمل على ١٤٠٠ حديثاً في الأحكام، وقد شرحه علماء كثيرون منهم محمد بن إسماعيل الصنعاني (١١٨٢هـ) في كتابه سبل السلام.

* **رابعاً: تخريج الأحاديث التي جاءت في بعض الكتب العلمية:** حيث تجرّد بعض حفّاظ الحديث وخرّج الأحاديث وكشف عن مواقعها من كتب الحديث، وجمع ذلك في كتاب على حدة، فخرّج الحافظ العراقي أحاديث كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وخرّج جمال الدين الزيلعي أحاديث كتاب الكشاف، وأحاديث كتاب الهداية في فقه الحنفيّة وسمّاه نصب الراية لأحاديث الهداية، وخرّج السيوطي أحاديث كتاب الشفا للقاضي عياض في كتاب سمّاه مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا، وغيرها من كتب التخاريج الكثيرة.

* **خامساً: تخريج الأحاديث التي اشتهرت على الألسن:** ممّا يروج على ألسنة العامّة، ومن لا علم له من الخاصّة، وقد أظهرت هذه الكتب الناس على حقيقة الحال، وبيّنت لهم الحقّ من الضلال، مثل كتاب المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للحافظ شمس الدين السخاوي، ومثل كتاب تسهيل السبل إلى كشف الالتباس عمّا دار من الأحاديث بين الناس، لعزّ الدين محمد بن أحمد الخليلي (١٠٥٧هـ) وكتاب كشف الخفاء ومزيل الألباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للحافظ إسماعيل بن محمد العجلوني (١١٦٢هـ) وهو كتاب كثير الفوائد، لخّص فيه المقاصد الحسنة للسخاوي، وضمّ إليه كثيراً ممّا في الكتب الأخرى.

* **سادساً: كتب الأطراف:** حيث يذكرون طرفاً من الحديث يدلّ على بقيّته، مثل كتاب إتحاف المهرة بأطراف العشرة لابن حجر العسقلاني، وله أيضاً، أطراف مسند الإمام أحمد، ومثل كتاب أطراف المسانيد العشرة لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن أبي بكر الكناني البوصيري (٨٤٠هـ).

وكما اعتنى حفّاظ الحديث في هذا الدور بجمع الحديث وترتيبه،

فقد اعتنوا كذلك بعلومه المتعلّقة بقوانين الرواية وقواعد الجرح والتعديل، وغير ذلك من علوم الحديث.

ففي مجال الجرح والتعديل، صنّفوا مؤلّفات في الثقات والضعفاء، مثل كتاب الثقات لزين الدين قاسم بن قطلوبغا (٨٧٩هـ) الذي جمع فيه الثقات ممّن ليس في الكتب الستّة، ومثل كتاب ميزان الاعتدال في نقد الرجال للحافظ شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ) وقد رتّبه على حروف المعجم.

وفي مجال معرفة الصحابة، صنّف ابن حجر العسقلاني كتاب الإصابة في تمييز الصحابة، جمع فيه ما في كتاب الاستيعاب لابن عبدالبرّ، وأسد الغابة لابن الأثير، واستدرك عليهما كثيراً.

وفي مجال تاريخ الرواة، وضعوا المصنّفات في رجال الحديث عامّة، وأفردوا بالتصنيف رجال بعض كتب الحديث، ووضعوا الكتب في أسامي من يعرف بكنيته، وكشفوا النقاب عن الألقاب، وعنوا عناية فائقة ببيان المتّفق والمفترق من الأسماء ـ وهو أن يتّفق اثنان فأكثر من الرواة في الاسم لفظاً وخطّاً ـ وبيان المؤتلف والمختلف منها ـ وهو أن يتّفق اسماً راويين فأكثر خطّاً فقط ويختلفا بالنطق ـ والمتشابه منها.

وغير ذلك من أنواع علوم الحديث التي كانت وليدة أدوار متلاحقة، وجهود أمّة بأسرها.

*** جهود الفقهاء في هذا الدور:**

من خلال تتبّع عمل الفقهاء في هذا الدور يمكن أن نلمح في نشاطهم الجهود التالية:

ـ ١ ـ متابعة التلخيص والتحرير والتهذيب لمسائل الأحكام الموضوعة على الأسلوب الذي تركناه في الدور السابق:

وقد ظهر على هذا المنهج في القرن السابع على التعاقب الفقهاء المصريون الذين طال باعهم في تحرير المذهب المالكي واختصاره: ابن

شاس ثمّ ابن الحاجب ثمّ القرافي ومن بعدهم[١].

وظهر الإمام يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) بكتابه منهاج الطالبين، وهو مختصر دقيق في فقه المذهب الشافعي، والنسفي بكتابه الكنز في المذهب الحنفي، وابن قدامة في المذهب الحنبلي، وغيرهم، حتّى تميّز القرن السابع بكونه قرن التزام للمنهج التقنيني الذي هو مبني على الاقتصار والاختصار[٢].

- ٢ - تسليط الأنظار المجرّدة على الأقوال، وإحياء الأقوال المتروكة والاستدلال لها:

إذا كان القرن السابع قد تميّز بكونه قرن التزام للمنهج التقنيني الذي هو مبني على الاقتصار والاختصار فإنّ القرن الثامن كان مثاراً لحركة جديدة اتّجهت بعض الاتّجاه إلى معارضة هذا الالتزام في طريقة التفقّه، وهي طريقة بنيت على إحياء لأقوال متروكة، واستدلال لها، وبيان لضعف الأوجه التي رجّحت منها أقوال أخرى على تلك الأقوال حتّى أخذ بها[٣]، وكانت هذه الطريقة مستمدّة من أساليب فخر الدين الرازي في البحث والمناقشة والميل إلى الاجتهاد في الفروع.

وقد سار أصحاب هذه الطريقة على منهج في دراسة الفقه بني على مناقشة الأنظار المختلفة، والاختيار بينها حسب ما يرى من أدلّتها قوّة وضعفا، وهو منهج اتّسم بالتعمّق في البحث وإثارة وجوه الخلاف، فانتهى ذلك بالكثير منهم إلى الخروج في بعض اختياراتهم عمّا اختاره شيوخهم من أصحاب المختصرات الذين كانوا قبلهم[٤].

وعلى ذلك انبنى النقد المنهجي الذي وضعه العلامة ابن خلدون

(١) ومضات فكر ٧١/٢ - ٧٢.
(٢) المرجع السابق ١٤٥/١.
(٣) نفس المرجع، نفس الجزء والصفحة.
(٤) ومضات ٧٣/٢، بتصرّف.

للطريقة التي كان يسير عليها تدريس الفقه في عصره، وهي طريقة التزام مختصر ابن الحاجب، ومال إلى اختيار طريقة أخرى تكون موفية بسعة الاطّلاع وبالتأمّل في الأدلّة وبالوقوف على أسانيد الأقوال في عزوها إلى أصحابها[١].

ـ ٣ ـ فتح باب العمل القضائي، أو منهج التفاصيل في الصور العمليّة لمسائل الأحكام والتوثيق ودراستها من حيث الوفاء بتحقيق المصالح الشرعيّة المنوطة بها على حسب مقتضيات الأحوال:

كان ابن عرفة من شيوخ المنهج الجديد في دراسة الفقه، وكان تلاميذه من التونسيين والجزائريين والمغاربة والأندلسيين والليبيين قد تأثّروا بالمنهج الذي وضعه شيخهم وأيقنوا بأنّ الأنظار المجرّدة التي كان قد سلّطها شيخهم على الأقوال، والتي ترجع من ناحية إلى ملاءمة الأقوال للأحوال قد آن الأوان لأن يؤخذ بها بصورة عمليّة تطبيقيّة، فبدأوا ينظرون إلى الأقوال على قاعدة «ملاءمة الأقوال للأحوال»، وبدأوا يرجعون إلى القاعدة الأصليّة، وهي: «العادة محكّمة»، فأخذوا يعالجون الأقوال الفقهيّة لتمحيص ما هو مبني منها على عرف راحل، وما هو مبني على حقيقة ثابتة، ورجعوا إلى أنّ من الأحكام ما بناه المجتهد على ما كان في عرف زمانه، كما صرّح بذلك فقيه الديار الشاميّة وإمام الحنفيّة في عصره الشيخ محمد أمين الدمشقي المعروف بابن عابدين[٢] في رسالته في العرف: نشر العرف في بناء بعض الأحكام على العرف، وهي الرسالة التاسعة من مجموعة رسائله المشهورة برسائل ابن عابدين[٣].

وبهذه الاعتبارات فتح باب جديد من التصرّف في الترجيح، وهو الباب الذي سمّوه باب العمل القضائي، وانتصب الفقهاء يبيّنون معنى

---

(١) ومضات ١/١٤٦.

(٢) ومضات ١/١٤٦ ـ ١٤٧.

(٣) مجموعة رسائل ابن عابدين، الرسالة التاسعة ص ١١٤ ـ ١٦٥.

الشيء الحادث الذي هو المذموم، والحادث الذي ليس بمذموم، والبدعة التي ليست بمذمومة، والبدعة المذمومة على الطريقة التي أصّلها وفصّلها الشيخ أبو الفتح تقيّ الدين ابن دقيق العيد الشافعي (٧٠٢هـ) باعتبار أنّ المحدث المذموم هو الذي لا مستند له شرعاً، وأنّ المحدث الذي له مستند شرعي لا يعتبر محدثاً بدعيّاً، ولا مذموماً، وإنّما يعتبر محدثاً شرعيّاً[١].

وقد نشأت من هذا الاتّجاه القضائي التوثيقي أن انفتحت للقضاة أبواب واسعة للاجتهاد، في الأخذ بالأحكام المنصوص عليها في كتب المذاهب على وجه قد يحملهم على مخالفة المنصوص أو المشهور من الأقوال، إذ يرون ذلك أدعى إلى تحقيق مقصد الشرع من صلاح الناس، فيصبح جريان العمل القضائي مخالفا في جزئيات لما هو مأخوذ به في كتب الفقه.

وذهب القضاة منهم ينتهجون نهج ذلك الاختيار في أقضيتهم، وأكّدت عليهم الاضطرابات الاجتماعيّة لزوم اتّباع ذلك المنهج قطعا لما فشا من الفساد والحيل، فبدأ يتقرّر بذلك عمل قضائيّ جار على خلاف المعروف من دواوين المذاهب[٢].

وعلى هذه الطريقة درج الذين ولّوا مناصب القضاء في الأقطار المغربيّة من أصحاب ابن عرفة، وفي مقدمتهم قاضي القيروان في القرن التاسع الهجري الشيخ أبي القاسم ابن ناجي، فقد أظهر من الاختيارات أخذه لأقوال مصرّح بأن لا عمل عليها، وأنّها غير مشهورة ولا راجحة، واستند في أحكامه إليها حتّى أصبح استناده إليها مستندا جديدا للتطوّر في الترجيح، وهو دأب العمل القضائي الذي أصبح مثلاً متّبعا في التصرّف في الأقوال بناء على النظر في الأسباب التي من أجلها رجّحت، ومن أجلها

---

(١) ومضات ١٤٧/١.

(٢) المرجع السابق ٧٣/٢.

اشتهرت تلك الأقوال[١].

واندفع العلامة الزقاق في فاس في القرن التاسع يستدلّ لهذا المنهج، ويبيّن أنّ العمل القضائي في فاس قد جرى على أمور مخالفة لمشهور المذهب ولراجحه.

واستمرّت هذه الطريقة تشمل أيضاً المذهب الحنفي الذي هو المذهب القضائي يومئذ في أكثر بلاد المشرق الإسلامي، كما شملت المذهب المالكي في البلاد المغربيّة.

وظهر في القرن العاشر رجال في البلاد الشرقيّة من دانيها وقاصيها حاولوا محاولات للتحلّل من التزامات سابقة، للنظر في ترجيحات، وللأخذ باعتبارات في مباني الأحكام، لم يكن أخذ بها من قبل، كما ظهر ذلك في عمل قاضي السلطنة العثمانيّة، شيخ الإسلام الحنفي محمد بن فرامرز بن عليّ (٨٨٥هـ) المعروف بمنلاّ خسرو، صاحب كتاب «درر الحكام في شرح غرر الأحكام»، وما ظهر من المفتي شيخ الإسلام أبي السعود العمادي (٩٨٢هـ) في معروضاته المشهورة، وما ظهر من سلطان الهند أبي المظفر محيي الدين محمد أورنك زيب (١١١٩هـ) الملقب باسم عالمكير - أي فاتح الهند - في شأن الفتاوى الهنديّة التي نقّحها له وحرّرها وشهرها نخبة رجال فقهاء المذهب الحنفي[٢].

وهكذا ظهرت على هذا النهج كتب الأحكام والتوثيق، وتبعها ازدهار التحقيق الفقهي في جزئيات المسائل العمليّة الذي طفحت به الفتاوى والرسائل في مسائل الالتزام وصيغ الأحباس وعقود المغارسة وبيع الصفقة ومسائل الأبنية والجدران وحقوق الجوار والإنزال والخلو وبيع الهواء وحقوق الطريق، إلى غير ذلك ممّا برزت به أنظار فقهيّة جديدة وقوالب تعبيريّة مبتكرة حقّقت مواضيع تلك الأنظار، وأضافت في كلّ موضوع شيئاً

---

(١) نفس المرجع ١٤٧/١.

(٢) ومضات ١٤٧/١ - ١٤٨.

جديدا إلى المصطلح الفقهي مأخوذا ممّا تطلع به الحوادث وتنزل به صور الأقضية.

فاهتمّ المعتنون بفقه القضاء بجمع تلك الأقضية ونظّموا فيها أراجيز عرفت باسم «كتب العمليات» وألّفت عليها شروح، فأصبحت العمليات مادّة لأسماء ومصطلحات كثيرة لا توجد إلاّ في القرون والأقطار التي جرى فيها العمل بتلك الأحكام(١).

تلك هي الملامح العامّة لنشاط الفقهاء في هذا الدور، أمّا عن مراحل هذا النشاط فيمكن أن نفصل خلال هذا الدور الطويل الأمد بين مرحلتين مختلفتين:

*** المرحلة الأولى: من منتصف القرن السابع إلى منتصف القرن العاشر.**

تميّزت هذه المرحلة بظهور نوابغ من العلماء انقطعوا عن القرناء والمماثل، استطاعوا أن يمدّوا في مدارك العلم باعاً وأن يتوّغلوا في مسائله علماً وطباعاً، فكانوا فقهاء عصرهم في سائر الأقطار، قد كملت عند بعضهم أدوات الاجتهاد وحصّلوا علومه وتبحّروا في فنونه.

ترد عليهم الأسئلة والاستفسارات من سائر الأمصار والأقطار فيكتبون عليها أجوبة على طريقة الاجتهاد محرّرة أحسن تحرير بأدلّتها ومداركها، متقنة غاية الإتقان.

غير أنّ هؤلاء العظماء عوضا أن يصرفوا قدراتهم الفقهيّة وملكاتهم الاستنباطيّة في الاجتهاد الصرف القائم على الأخذ المباشر من القرآن والسنّة النبويّة، وغيرها من الأدلّة الشرعيّة، فإنّا نراهم يوجّهون تلك الطاقات والقدرات إلى الاعتناء بكتب المتقدّمين بحفظ الوجوه والأقوال فيها،

(١) نفس المرجع ٧٢/٢ ـ ٧٣.

والاعتناء بجمعها وتحريرها، أو تهذيبها وتلخيصها، معرضين عن الاجتهاد المباشر، ضرورة لا اختيارا.

هذه الضرورة نجد لها ما يبرّرها، من خلال نموذجين: الأوّل لجلال الدين السيوطي، الإمام الكبير الذي برز في جميع الفنون، ورزق التبحّر في أغلب العلوم، والذي نهل من الفقه والنقول التي اطّلع عليها ممّا لم يصل إليه، ولا وقف عليه أحد من شيوخه، فضلاً عمّن دونهم، ولو أراد ـ كما يقول هو عن نفسه ـ أن يكتب في كلّ مسألة تصنيفا بأقوالها وأدلّتها النقليّة والقياسيّة ومداركها، ونقوضها وأجوبتها، والمقارنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدر على ذلك.

فهذا العالم الجليل الذي فاق الأقران، وسارت تصانيفه في الأقطار مسير النهار، بمجرّد أن صرّح بأنّ أدوات الاجتهاد عنده قد كملت، وأفرد مصنّفا في تيسير الاجتهاد لتقرير دعواه في نفسه، تألّب عليه بعض معاصريه وشكّكوا في قدراته وإمكانياته العلميّة، ولم يسلم من الحاسدين لفضله، والجاحدين لمناقبه، إلى حدّ الثلب الفظيع والسبّ الشنيع، فلا عجب بعد ذلك أن يتأثّر الإمام السيوطي، فيقرّر وهو في الأربعين من عمره لزوم العزلة والانفراد والانقطاع عن العباد والإعراض عن الدنيا وأهلها، تاركا الإفتاء والتدريس، ويعتذر عن ذلك في مؤلف بعنوان «التنفيس في الاعتذار من ترك الإفتاء والتدريس» مقيما ببيته بروضة المقياس لم يتحوّل منه لأكثر من عشرين سنة، بل ويذكر صاحب الكواكب السائرة بأنّه لم يفتح طاقات بيته التي على النيل من سكناه إلى أن مات وهو في الثانية والستّين من عمره[(١)].

والثاني لأبي زرعة الذي يقول: قلت مرّة لشيخنا البلقيني: ما تقصير الشيخ تقيّ الدين السبكي عن الاجتهاد وقد استكمل آلاته؟ وكيف يقلّد؟ قال: ولم أذكره هو ـ أي شيخه البلقيني ـ استحياء منه، لما أردت أن

(١) الكواكب السائرة ١/٢٢٨.

أرتّب على ذلك، فسكت البلقيني، فقلت: فما عندي أنّ الامتناع من ذلك إلاّ للوظائف التي قدّرت للفقهاء على المذاهب الأربعة، وأنّ من خرج عن ذلك واجتهد لم ينله شيء من ذلك، وحرم ولاية القضاء، وامتنع الناس من إفتائه ونسب إليه البدعة، فتبسّم - أي البلقيني - ووافقني على ذلك.

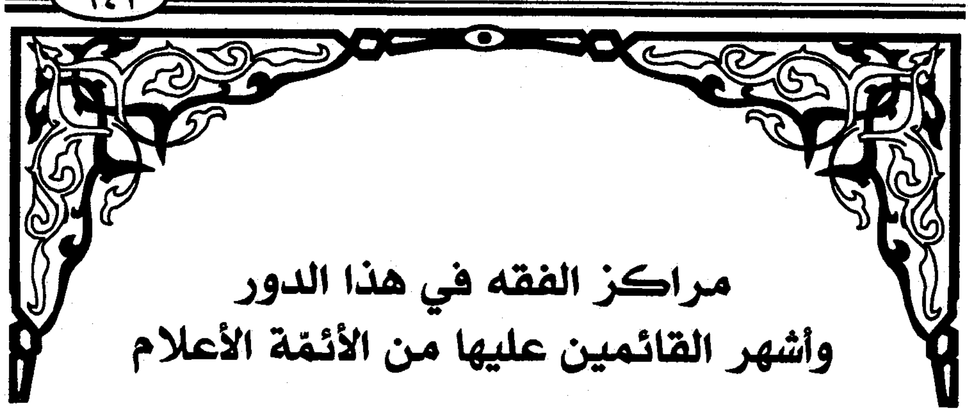
وهكذا أصبح كلّ من يشتغل بعلوم الاجتهاد، ويأنس في نفسه الاجتهاد من العلماء المحقّقين، العارفين بكتاب الله وسنّة رسوله غير قادر على التصريح بالوصول إلى هذه الرتبة، لأنّ في ذلك مجلبة للقلاقل بينه وبين أهل عصره.

ولو ألقينا نظرة على قائمة الأعلام في هذه المرحلة لوجدناها مليئة بالعلماء البارزين الجامعين لعلوم الاجتهاد في عصرهم، غير أنّهم لو صرّحوا بذلك لقام عليهم أكثر أهل عصرهم وأنزلوا بهم من الإهانات والثلب الفظيع، ما فيه توفير أجورهم.

*** المرحلة الثانية: من منتصف القرن العاشر إلى منتصف القرن الثالث عشر:**

أصبح في هذه المرحلة قصارى جهد العلماء النقل عمّن سبقهم، وإفناء العمر في الاقتصار على النظر في كتب كتبها المتأخّرون، لا طمع في النظر في غيرها، أو حتّى في استبدالها وتغييرها، وكأنّ علم الأوّلين والآخرين قد انحصر في تلك المصنّفات دون غيرها من مئات المصنّفات، حتّى روي عن ناصر الدين اللقاني أنّه كان كلّما عورض بمسائل قد استخرجت من غير مختصر خليل، أنّه كان يقول: «نحن ناس خليليون إن ضلّ ضللنا» مبالغة منه في الحرص على متابعة خليل لكمال الاعتقاد في فضله وتحريره[١].

(١) توشيح الديباج ص ٩٥ - ٩٦.



مراكز الفقه في هذا الدور وأشهر القائمين عليها من الأئمّة الأعلام

ـ ١ ـ مصر:

تنامى نشاط المذاهب السنيّة الأربعة بمصر خلال هذا الدور الفقهي بشكل واضح بعد أن صار القضاء بها بين أصحاب المذاهب الأربعة، حيث جعل لكلّ مذهب قاضيه بداية من سنة ٦٦٣هـ[١].

فأمّا المذهب الحنفي، فقد استهلّ هذا الدور ببقيّة من شيوخ أعلام الدور السابق الذين درّسوا وأفتوا ونشروا الفقه وانتفع بهم الناس، وكان من أشهرهم علمان، هما:

* **مجد الدين عبدالرحمٰن بن كمال الدين عمر بن العديم (٦٧٧هـ)**: الذي كان أوّل من درّس بالمدرسة الظاهريّة حين بناها الظاهر بيبرس بالقاهرة، وقد انتهت إليه رئاسة الحنفيّة بمصر والشام.

وقرينه الذي عمّر ومات عن سنّ ثلاث وثمانين سنة، وهو:

* **قاضي القضاة صدر الدين سليمان بن أبي العزّ بن وهيب بن عطاء الأذرعي (٦٧٧هـ)** أحد من انتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي في زمانه،

(١) شذرات الذهب ٥/٤٦٠.

الذي ولِّي القضاء بالديار المصريّة والشاميّة، وأذن له في الحكم حيث حلّ من البلاد الإسلاميّة، وكان من كبار العلماء إماماً عالماً متبحّرا، عارفاً بدقائق الفقه وغوامضه(١).

ونشأ بعد هؤلاء رجال نهلوا من رياض العلم حتّى فاضت بهم ينابيعه، وفاحت أزهاره، وتنوّعت أفنانه برعوا في مذهب أبي حنيفة وغوامضه، واشتهروا في فقهه ومسائله، وبه حكموا وأفتوا، وله درّسوا وناظروا، وعلى أيديهم تخرّج الناس وبهم انتفعوا، فكانوا أفذاذ زمانهم وفرسان عصرهم.

وكان من أشهرهم في هذا الدور:

* **عثمان بن إبراهيم بن مصطفى المارديني فخر الدين أبو عمرو (٦٥٠هـ - ٧٣١هـ)**: المعروف بابن التركماني، شيخ الأصحاب في وقته، الإمام المقدّم المتصدّي للإفتاء والتدريس بالديار المصريّة، وتخرّج به خلق كثير، شرح الجامع الكبير وأظهر أسراره بالتحرير والتحبير، ثمّ ألقاه دروسا بمدرسة الملك منصور واستمرّ على ما هو بصدده إلى أن توفّي(٢).

* **فخر الدين عثمان بن علي بن محجن البارعي الزيلعي (٧٤٣هـ)**: الذي دخل القاهرة سنة ٧٠٥هـ، فدرّس بها وأفتى ونشر الفقه، وشرح كتاب كنز الدقائق فأجاد وأفاد وحرّر وانتقد وصحّح ما اعتمد(٣).

* **أكمل الدين محمد بن محمد بن محمود البابرتي (٧٨٦هـ)** علّامة

---

(١) وقد تقدمت ترجمتهما.

(٢) الفوائد البهية ١١٥، الجواهر المضية ٥٢١/٢، تاج التراجم ١٤٣، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤٣٥/٢، حسن المحاضرة ٢١٦/١.

(٣) الفوائد البهية ١١٥، الجواهر المضية ٥١٩/٢، تاج التراجم ١٤٤، الدرر الكامنة ٤٤٦/٢ - ٤٤٧، حسن المحاضرة ٢١٦/١.

المتأخّرين وخاتمة المحقّقين، الذي برع وساد ودرّس وأفاد وصنّف فأجاد(١).

وخلفه في السيادة والإفادة تلميذه، شيخ الإسلام وعالم زمانه:

* **أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن فارس المعروف بقارىء الهداية (٨٢٩هـ)**: كان في أوّل أمره خيّاطاً، ثمّ طلب العلم وجدّ ودأب وأكثَرَ المطالعة حتّى مهر في الفقه وفي غيره من العلوم، وتقدّم في الفقه إلى أن صار إمام عصره ووحيد دهره، والمشار إليه في مذهب الحنفيّة.

تصدّى للإقراء والتدريس والفتوى عدّة سنين، وإليه انتهت رئاسة السادة الحنفيّة في زمانه غير مدافع، وانتفع به غالب الطلبة، وصار المعوّل عليه في الفتوى بالديار المصريّة، بل لم يكن المعوّل إلاّ على فتياه لجلالته في نفوس الناس، وشاع ذكره وبعد صيته، وكثر تلاميذه والآخذون عنه، وانتفع به الأئمّة وصار الأعيان في المذهب من تلامذته، وكان بعضهم يرجّحه على شيخه أكمل الدين، وكان بعضهم يقول: هو أبو حنيفة زمانه، مات وقد نيف على الثمانين، ولم يخلف مثله في إتقان فقه الحنفيّة واستحضار مسائله(٢).

وساد من بعده:

* **كمال الدين محمد بن عبدالواحد بن عبدالحميد بن مسعود المعروف بابن الهمام (٧٩٠هـ ـ ٨٦١هـ)**: تفقّه على سراج الدين قارىء الهداية، في سنتي ٨١٨هـ ـ ٨١٩هـ، وبه انتفع، وتقدّم على أقرانه وبرع في أنواع العلوم، وتصدّى لنشر العلم فانتفع به كثير من الناس.

كان علاّمة محقّقاً، وجدليّاً نظّاراً، وكان يقول: أنا لا أقلّد في

(١) الفوائد البهيّة ١٩٥، تاج التراجم ٢٣٥، حسن المحاضرة ٢١٧/١، شذرات الذهب ٧/ ٣٧، النجوم الزاهرة ٣٠٢/١١، طبقات المفسرين للداوودي ٤٦٩.

(٢) حسن المحاضرة ٢١٨/١، شذرات الذهب ٣٢١/٧، الضوء اللامع ١٠٩/٦ ـ ١١٠.

المعقولات أحدا، ولم يبرح عن الاشتغال بالمعقول والمنقول حتى فاق أقرانه في زمن يسير، وأشير إليه بالفضل التام حتّى قال بعضهم في حقّه: لو طلبت حجج الدين، ما كان في بلدنا من يقوم بها غيره.

درّس وأفتى وأفاد، وعكف الناس عليه وأقرّوا بسعة علمه وأذعنوا له، واشتهر أمره وعظم ذكره، واستمرّ يترقّى في درج الكمال حتّى صار ـ كما قال السخاوي ـ عالم أهل الأرض ومحقّق أولي العصر، كان عالماً متفنّناً، علّامة متقناً حجّة، أعجوبة، ذا حجج باهرة، واختيارات كثيرة، وترجيحات قويّة، دقيق الذهن عميق الفكر، يدقّق المباحث حتّى يحيّر شيوخه، وفضّله كثير من شيوخه على أنفسهم، وكان يصرّح بأنّه لولا العوارض البدنيّة من طول الضعف والأسقام وتراكمها في طول المدد لبلغ رتبة الاجتهاد.

جاور بالحرمين مدّة فنشر فيهما علماً جمًّا، ثمّ عاد سنة ٨٦٠هـ إلى مصر وهو متوعّك، فعكف عليه من شاء الله من طلبته أيّاما في الأسبوع إلى أن توفّي في يوم الجمعة سابع رمضان سنة ٨٦١هـ.

من مصنّفاته: تحرير الأصول، وزاد الفقير في الفروع، وشرح بديع النظام لابن الساعاتي، وفتح القدير للعاجز الفقير من شروح الهداية للمرغيناني في الفروع كذلك[1].

*** أبو العباس تقيّ الدين أحمد بن كمال الدين الشمني (٨٠١هـ ـ ٨٧٢هـ)**: شيخ العلماء وفخر المدرّسين ومفيد الطالبين ومفتي المسلمين في زمانه، اعتنى به والده في صغره حتّى برع في الفقه والكلام والتفسير والحديث والعربية والبيان والمعاني، وغيرها من أنواع الفنون، فكان إماماً علّامة متفنّناً، قويّ الحافظة.

(١) حسن المحاضرة ٢١٨/١، شذرات الذهب ٤٣٥/٧ ـ ٤٣٧، النجوم الزاهرة ١٨٧/١٦، الضوء اللامع ١٢٧/٨ ـ ١٣٢، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ص ٧١٨ ـ ٧١٩، كشف الظنون ١٦٠/٥.

طلب للقضاء فامتنع، فقيل له: فإذا سألك الله عن امتناعك مع تعيينه عليك، فقال: يفتح الله حينئذ بالجواب عمّ النفع به، فانتفع به الجمّ الغفير واشتدتّ الرغبة في الأخذ عنه، وتزاحموا عليه وافتخروا بالأخذ عنه، حتّى بقي جلّ الفضلاء من سائر المذاهب من أهل مصر، بل ومن غيرها من تلامذته.

كان مالكيّا على مذهب والده وجدّه، ثمّ تحوّل سنة ٨٣٤هـ إلى مذهب الحنفيّة.

ابتلي بكثرة الأسقام من قبل الثلاثين في الأعضاء الباطنة، وبحبس البول بالحصاة، وكثرة الرعاف، فكان قلّ أن يصحّ، لكنّ ذلك لم يمنعه عن الاشتغال في نشر العلم[١]، وكان يعاصره:

* **أبو العدل زين الدين قاسم بن قطلوبغا السودوني (٨٠٢هـ - ٨٧٩هـ)**: المعروف بقاسم الحنفي، نشأ يتيما وتكسّب بالخياطة فترة وبرع فيها، ثمّ أقبل على الاشتغال بالعلوم، فتعلّم تجويد القرآن، وتلقّى علوم الحديث وأصول الدين، والفقه وأصوله، والعربية والمنطق، واشتدّت عنايته بملازمة ابن الهمام من سنة ٨٢٥هـ إلى سنة ٨٦١هـ، بحيث أخذ عنه غالب ما كان يقرأ عنده من تلك العلوم وغيرها.

عرف بقوّة الحافظة والذكاء وأشير إليه بالعلم، وأذن له غير واحد بالإفتاء والتدريس، فتصدّى للتدريس والإفتاء، وعنه أخذ الفضلاء في علوم كثيرة.

كان إماماً علاّمة، قويّ المشاركة في علوم كثيرة، واسع الباع في استحضار مذهبه، متقدّما في الفقه، قادرا على المناظرة وإفحام الخصم.

كانت لديه رغبة في مذاكرة العلم والبحث عن الفائدة والاستفادة ولو

---

(١) شذرات الذهب ٤٥٥/٧ - ٤٥٧، حسن المحاضرة ٢١٨/١ - ٢١٩، الضوء اللامع ١٧٤/٢ - ١٧٨، حسن المحاضرة ٢١٨/١ - ٢١٩، درّة الحجال ص ٩٥ - ٩٨.

ممّن دونه ممّا لعلّه لم يكن أتقنه، حتّى انفرد عن علماء مذهبه بالتقدّم، وقصد بالفتاوى في النوازل والمهمّات، واشتهر بذلك.

أقبل على التأليف فكتب مصنّفات عديدة نافعة(١).

ولمّا استحكم النفوذ العثماني على سائر البلاد الإسلاميّة، جعلوا المذهب الحنفي مذهباً رسميّا للدولة، وحصروا العمل القضائي في أحكامه ومسائله، فازداد بذلك المذهب نشاطا واتّساعا وانتشارا.

وكان من أعظم أعلام الحنفيّة الذين اشتهروا بنشر العلوم، وارتوى من بحار فقههم الضمآن والصادي، وشهد لهم بذلك العاكف والبادي:

*** زين الدين بن إبراهيم بن محمد الشهير بابن نجيم (٩٢٦هـ - ٩٧٠هـ)**: وحيد دهره وفريد عصره، عمدة العلماء العاملين، وختام المحقّقين والمفتين.

تفقّه على قاسم بن قطلوبغا وغيره من أعلام عصره، وأجازه الكثير منهم بالإفتاء والتدريس، وكان علم الفقه قد ملأ عينيه نورا، وقلبه سرورا، وصدره انشراحا، فكان كما قال عن نفسه في مقدّمة كتابه «الأشباه والنظائر»: «إنّ الفقه أوّل فنوني، طالما أسهرت فيه عيوني، وأعملت بدني إعمال الجدّ ما بين بصري ويدي وظنوني، ولم أزل منذ زمن الطلب أعتني بكتبه قديما وحديثاً، وأسعى في تحصيل ما هجر منها سعيا حثيثا إلى أن وقفت منها على الجمّ الغفير، وأحطت بغالب الموجود في بلدنا القاهرة مطالعة وتأمّلا بحيث لم يفتني إلاّ النزر اليسير».

من مصنّفاته: الأشباه والنظائر في القواعد الفقهيّة، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق في الفروع، والرسائل الزينية في مذهب الحنفيّة وهي أربعون رسالة في الفقه، والفتاوى الزينية في فقه الحنفيّة التي رتّبها على

(١) الضوء اللامع ١٨٤/٦ - ١٦٠، البدر الطالع ص ٥٦٤ - ٥٦٦، شذرات الذهب ٤٧٠/٧ - ٤٧١، فهرس الفهارس ٩٧٢/٢ - ٩٧٣.

كتب الفقه، وعدّتها نحو ٤٠٠ سؤال وجواب، وقد جمعها بعد وفاته ابنه أحمد، وغير ذلك من الرسائل والمسائل في الفروع والأصول[١].

* **أبو السعود محمد بن مصطفى العمادي (٨٩٨هـ ـ ٩٨٢هـ)**: قرأ على والده كثيراً، وتنقّل في المدارس، ثمّ قلّد القضاء بأماكن كثيرة، وفي سنة ٩٥٢هـ تولّى الفتيا، فقام بأعبائها أتمّ قيام، واستمرّ على خطّته تلك إلى حين وفاته.

سارت أجوبته في جميع العلوم وجميع الآفاق مسير النجوم، وجعلت رشحات أقلامه تميمة نحر لكونها يتيمة بحر، يا له من بحر.

برع في جميع العلوم، وفاق أقرانه، وصار المرجع في جميع ما يتعلّق بالعلم، وقد عاقه التدريس والإفتاء عن التفرّغ للتصنيف، سوى أنّه اختلس فرصا أتى فيها بما لم تسمح به الأذهان، ولم تقرع بمثله الآذان في تفسيره الشريف المسمّى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، والمشهور بتفسير أبي السعود، وله كتاب الفتاوى المعروف بفتاوى أبي السعود[٢].

ونلقى في المرحلة الثانية من هذا الدور:

* **شمس الدين محمد بن عبدالله بن أحمد التمرتاشي الغزّي (١٠٠٤هـ)**: صاحب الكتب العديدة في فروع الفقه الحنفي منها: تحفة الأقران ـ أرجوزة في الفقه ـ ثمّ شرحها في كتاب سمّاه مواهب المنّان شرح تحفة الأقران، وله تنوير الأبصار وجامع البحار في الفروع، جمع فيه مسائل المتون المعتمدة عونا لمن ابتلي بالقضاء والفتوى، وقد فرغ من

---

(١) شذرات الذهب ٤٢١/٨ ـ ٤٢٢، كشف الظنون ٢١٥/٢ و٣١٠/٥ ـ ٣١١، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ١٥٤/٣، هديّة العارفين ٣٧٨/١، الأشباه والنظائر ص ١١، الأعلام ٦٤/٣ معجم المؤلفين ١٩٢/٤، الطبقات الصغرى للشعراني ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٢) البدر الطالع ص ٢٧٣، شذرات الذهب ٤٦٧/٨ ـ ٤٦٨، كشف الظنون ٢١٢/٢، الأعلام ٥٩/٧ معجم المؤلفين ٣٠١/١١.

تأليفه سنة ٩٩٥هـ، ثمّ شرحه في كتاب سمّاه منح الغفّار، وشرح الوقاية في الفروع كذلك، ومسعف الحكام على الأحكام، ومعين المفتي على جواب المستفتي، وغيرها من الرسائل والكتب في الفروع والأصول[(١)].

وكان يعاصره:

* **نور الدين عليّ بن محمد بن خليل المعروف بابن غانم المقدسي (٩٢٠هـ ـ ١٠٠٤هـ)**: نزيل القاهرة، وصاحب التصانيف المختلفة في الفقه الحنفي، منها: كنز الدقائق في الفروع، وشرح منظومة ابن وهبان، وتعليقة على الأشباه والنظائر لابن نجيم، وغيرها[(٢)].

* **أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يونس السعودي المعروف بالشلبي (١٠٢١هـ)**: صاحب الفتاوى[(٣)].

* **علي بن محمد الأستانبولي المتخلص برضائي الرومي (١٠٣٩هـ)**: القاضي بمصر، وصاحب نقد السائل في جواب المسائل من الفتوى[(٤)].

* **أبو الإخلاص حسن بن عمّار بن يوسف الوقائي الشرنبلالي (٩٩٤هـ ـ ١٠٦٩هـ)**: المدرّس بالأزهر، وكان صاحب مصنّفات كثيرة منها: غنية ذوي الأحكام وبغية درر الحكام، وشرح غرر الأحكام لمنلا خسرو ونور الإيضاح ونجاة الأرواح مقدّمة في الفروع، ثمّ شرحها في كتاب سمّاه مراقي الفلاح بإمداد الفتاح شرح نور الإيضاح، وتيسير المقاصد من عقد الفرائد في شرح منظومة ابن وهبان في الفروع، وله كتاب التحقيقات القدسية والنفحات الرحمانية الحسنية في مذهب السادة الحنفية، وهو عبارة عن ستّين رسالة في مسائل من الفقه متفرّقة[(٥)].

---

(١) كشف الظنون ١/٤٠٤، و٦/٢٠٧.
(٢) كشف الظنون ٥/٥٩٩.
(٣) كشف الظنون ٥/١٢٧.
(٤) كشف الظنون ٥/٦٠٣.
(٥) كشف الظنون ٥/٢٤١ ـ ٢٤٢.

وكان يعاصره:

* **نوح بن مصطفى القونوي (١٠٧٠هـ)**: نزيل القاهرة، المفتي الحنفي، الذي صنّف من الكتب: أشرف المسالك في المناسك، والقول الأظهر في بيان الحجّ الأكبر، ونتائج النظر في حواشي الدرر لمنلا خسرو، وغيرها من المسائل الدينيّة(١).

* **بدر الدين حسن بن برهان الدين إبراهيم الزيلعي الجبرتي العقيلي (١١٨٨هـ)**: صاحب المصنّفات، منها: الأقوال المعربة عن أحوال الأشربة، وبلوغ الآمال في كيفيّة الاستقبال، والقول الصائب في الحكم على الغائب، وغيرها من الشروح والحواشي(٢).

* **شهاب الدين أحمد بن السيد محمد مكي الحسيني الحموي (١٠٩٨هـ)** : المدرّس بالمدرسة السليمانية والحسنية بمصر، وصاحب المصنّفات المختلفة، منها: بغية الأحلة بتحرير مسألة الأهلّة، وحاشية على الدرر والغرر لمنلا خسرو، وشرح كنز الدقائق في الفروع، وغمز عيون البصائر على محاسن الأشباه والنظائر لابن نجيم(٣).

* **أحمد بن محمد بن إسماعيل الطهطاوي (١٢٣١هـ)** : مفتي الحنفيّة بالقاهرة، صنّف حاشية على الدرّ المختار شرح تنوير الأبصار، وهو كتاب مطبوع، ومقبول بين العلماء، وله حاشية على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح(٤).

وإذا مضينا نلقي الضوء على المذهب المالكي بهذه الديار، التقينا بجمهرة زاخرة من بحار العلوم، وبأعلام محقّقين من أوطاد الفهوم، ينشرون في مركزهم العلمي من جواهر معارفهم عجائب، ويبعثون لسائر

---

(١) كشف الظنون ٣٨٦/٥.

(٢) كشف الظنون ٢٤٧/٥.

(٣) كشف الظنون ١٣٦/٥.

(٤) كشف الظنون ١٥٢/٥، فهرس الفهارس ٤٦٧/١ ـ ٤٦٨.

المراكز الأخرى من فضائلهم سحائب، طالما فتحوا بمفاتيح أنظارهم الدقيقة مغالق المعضلات، وحلّوا بأفكارهم العجيبة الشأن عقد المشكلات.

وكان في طليعة هذا الدور ظهورا علمان ضربت لهما نوبة الامتياز في مشارق الأرض ومغاربها، هما:

*** شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي العلاء: إدريس بن عبدالرحمٰن القرافي (٦٨٤هـ)**: أحد الأعلام المشهورين، الذي انتهت إليه رئاسة الفقه على مذهب مالك.

لازم الشيخ عزّ الدين بن عبدالسلام مدّة طويلة، وأخذ عن ابن الحاجب، وغيرهما من أعلام عصره.

كان إماماً بارعا في الفقه والأصول، والعلوم العقليّة، أحسن من ألقى الدروس، صنّف كتبا مفيدة انعقد على كمالها لسان الإجماع، وسارت بين أقطار الأرض مسير الشمس، ورزق فيها صاحبها الحظّ السامي، منها: كتاب الذخيرة في الفقه، وهو من أجلّ كتب المالكيّة، وكتاب الفروق الذي قال في شأنه ابن فرحون: لم يسبق إلى مثله ولا أتى أحد بعده بشبهه، وكتاب شرح التهذيب وكتاب شرح الجلّاب، وكتاب الإحكام في الفرق بين الفتاوى والأحكام، وغيرها من المصنّفات القيّمة المفيدة.

وذكر عن قاضي القضاة تقيّ الدين بن شكر، قال: أجمع الشافعيّة والمالكيّة على أنّ أفضل أهل عصرنا بالديار المصريّة ثلاثة: القرافي بمصر القديمة، والشيخ ناصر الدين بن منيّر بالإسكندريّة، والشيخ تقيّ الدين بن دقيق العيد بالقاهرة، وكلّهم مالكيّة خلا الشيخ تقيّ الدين، فإنّه جمع بين المذهبين(١).

*** أبو الحسن عليّ بن محمد بن منصور بن المنيّر الملقّب بزين الدين**

---

(١) الديباج المذهب ص ١٢٨ ـ ١٣٠، الأعلام ٩٤/١، شجرة النور الزكيّة ص ١٨٨ ـ ١٨٩، كشف الظنون ٦٢٣/١، درّة الحجال في أسماء الرجال ـ ذيل وفيات الأعيان ـ ص ٨ ـ ٩.

(٦٩٥هـ): أخو القاضي ناصر الدين بن المنيّر، ولّي القضاء بعد أخيه بالإسكندريّة، وقرأ الفقه على أخيه ناصر الدين وعلى أبي عمرو بن الحاجب.

كان متصرّفاً في العلم وفنونه، ومتحقّقاً بتمييز أبكاره وعونه، ومتسلّطاً بثاقب ذهنه على استنباط عيونه وكانت له أهليّة الترجيح والاجتهاد في مذهب مالك، وله اقتدار حسن على التأليف ومكنة في إجادته، شرح صحيح البخاري شرحاً مؤسس المباني، محقّق المعاني، حسن العبارة، تكلّم فيه على فقه الحديث ومذاهب العلماء، ثمّ كان يرجّح المذهب ويفرّع[1].

وكانت عائلة ابن المنيّر من العائلات العلميّة القائمة على مذهب مالك بمصر[2].

ثمّ كان من بعدهما، من أعلام المالكيّة:

* **عليّ بن مخلوف بن ناهض النويري (٦٣٤هـ ـ ٧١٨هـ)**: قاضي القضاة بالديار المصرية، ثلاثاً وثلاثين سنة، من بعد ابن شاس، ـ أي من سنة ٦٨٥هـ إلى أن مات سنة ٧١٨هـ ـ وكان مشكور السيرة، له دربة بالقضاء وبتّ الأحكام، اشتغل على مذهب مالك ومهر فيه[3].

* **أبو الروح عيسى بن مسعود بن المنصور الزواوي (٦٦٤هـ ـ ٧٤٣هـ)**: كان فقيهاً عالماً متفنّناً، انتفع به الناس، وانتهت إليه رئاسة المالكيّة بالديار المصريّة.

تفقّه أوّل الأمر ببجاية، ثمّ دخل الإسكندريّة وتفقّه بها، ثمّ رحل إلى

---

(١) الديباج المذهب ص ٣٠٧، نيل الابتهاج ٣٦٣/١ ـ ٣٦٤، هديّة العارفين ٧١٤/١، شجرة النور الزكيّة ص ١٨٨، معجم المؤلفين ٢٣٤/٧.

(٢) حسن المحاضرة ٢١١/١، شجرة النور الزكيّة ص ١٨٨.

(٣) حسن المحاضرة ٢١١/١، توشيح الديباج ص ١٦٢، نيل الابتهاج ٣٦٤/١ ـ ٣٦٥، الدرر الكامنة ١٢٨/٣.

قابس فأقام بها مدّة وولّي القضاء بها، ثمّ عاد إلى مصر وأقام بالقاهرة يدرّس بالجامع الأزهر.

كانت له اليد الطولى في علم الفقه والأصول والعربية والفرائض، وكان إماماً في الفقه.

اشتغل بالعلم والتصنيف فشرح مختصر ابن الحاجب، واختصر جامع ابن يونس في شرح المدوّنة[1].

* **خليل بن إسحاق بن موسى الجندي (٧٧٦هـ)**: أحد أئمّة المالكيّة بالقاهرة، المجمع على فضله، وحامل لواء المذهب بمصر، كان من أهل التحقيق والاجتهاد في العلم إلى الغاية، حتّى أنّه لا ينام في بعض الأوقات إلاّ زمناً يسيراً بعد طلوع الفجر ليريح النفس من جهد المطالعة والكتب، وكان ثاقب الذهن، أصيل البحث، صحيح النقل.

كان خليل مشتغلاً بما يعنيه حتّى يحكى أنّه أقام عشرين سنة لم ير النيل بمصر، وكان من جملة أجناد الحلقة المنصورة، يلبس زيّ الجند المتقشّفين، وله في الجهاد تاريخ مشرف، وأقبل مع ذلك على نشر العلم، فنفع الله به المسلمين، وكان مدرّس المالكيّة بالشيخونيّة، كبرى المدارس المصريّة في عصره.

صنّف في الفقه المختصر المشهور بمختصر خليل، قصد فيه إلى بيان القول المشهور في المذهب مجرّداً عن الخلاف، وجمع فيه فروعاً كثيرة، وشرح مختصر ابن الحاجب شرحاً حسناً، سمّاه التوضيح، وضع الله عليه القبول.

ولقد عكف الناس على قبول هذين الكتابين، ولكن إقبال أهل المغرب على التوضيح أكثر، وإقبال أهل مصر على المختصر أكثر.

---

(١) الديباج المذهب ص ٢٨٣، حسن المحاضرة ٢١١/١، الدرر الكاملة ٢١٠/٣ ـ ٢١١، شجرة النور الزكيّة ص ٢١٩، الأعلام ١٠٩/٥، البدر الطالع ص ٥٢١، هدية العارفين ٨٠٩/١، معجم المؤلفين ٣٣/٨.

وفي تاريخ وفاته اضطراب، فقيل سنة ٧٧٦هـ، وقيل سنة ٧٦٧، وقيل سنة ٧٦٩هـ[١].

ومن تلاميذه:

* **بهرام بن عبدالله بن عبدالعزيز بن عمر بن عوض (٧٣٤هـ - ٨٠٥هـ)**: قاضي القضاة بمصر، وحامل لواء المذهب المالكي على كاهله.

اشتغل بالعلم وأخذ عن شيوخ عصره، وكان فاضلا في مذهب مالك، محقّقا، ثبتا، صحيح النقل، برع فيه وتصدّر للإفتاء والتدريس سنين عديدة، ثمّ ولِّي قضاء المالكية سنة ٧٩١هـ، فحمدت سيرته، وانتفع به طلبة العلم سيّما بعد صرفه عن القضاء.

صنّف الشامل وهو مختصر في الفقه، ثمّ شرحه شرحاً حافلا، وصنّف على مختصر شيخه خليل ثلاثة شروح، صار بها غالب المختصر في غاية البيان والوضوح، واشتهر الأوسط منها غاية في جميع الأقطار مع أنّ الصغير أكثر تحقيقا، وهو أجلّ من تكلّم على مختصر خليل علماً ودينا وتأدّبا وتفنّنا، مستحضرا المدوّنة وشراحها[٢].

ومن تلاميذ بهرام:

* **أبو يوسف شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان البساطي (٧٦٠هـ - ٨٤٢هـ)**: شيخ الإسلام، وقاضي القضاة المالكيّة بالديار المصريّة من سنة ٨٢٣هـ، فأقام فيها عشرين سنة ورافقه من القضاة خمسة من الشافعية، وأربعة من الحنفيّة، وثلاثة من الحنفيّة.

كان في شبابه نابغة في الطلب، ولم يزل يدأب في العلوم ويتطلّب

---

(١) الديباج المذهب ص ١٨٦، توشيح الديباج ص ٩٢ - ٩٨، نيل الابتهاج ١٨٣/١ - ١٨٧، الدرر الكامنة ٨٦/٢، شجرة النور الزكيّة ص ٢٢٣، حسن المحاضرة ٢١٢/١، النجوم الزاهرة ٩٢/١١، درّة الحجال ص ٢٥٧ - ٢٥٨، الأعلام ٣١٥/٢.

(٢) حسن المحاضرة ٢١٢/١، نيل الابتهاج ١٦٠/١ - ١٦٣، توشيح الديباج ص ٨٣ - ٨٥، شذرات الذهب ١٧٥/٧، الضوء اللامع ١٩/٣ - ٢٠، النجوم الزاهرة ٢٩/١٣.

المنطوق منها والمفهوم حتّى تقدّم في الفقه والأصلين - أصول الفقه والكلام - واللغة والبيان والجبر والطب والهندسة، وغيرها من العلوم العقليّة والنقليّة، حتى اشتهر أمره وبعد صيته، وصار شيخ الفنون بلا مدافع، وتزاحم الأئمّة من سائر المذاهب في الأخذ عنه.

له شفاء الغليل في شرح مختصر الشيخ خليل، ومحاضرات خواص البرية في الألغاز الفقهيّة، وتوضيح المعقول وتحرير المنقول على المختصر الفقهي لابن الحاجب، وله المغني في الفروع متن جعله على تصحيح ابن الحاجب وشراحه[١].

وممّن لازم الإمام البساطي كثيراً، وانتفع به:

*** أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد، عرف بالقرافي (٨٠١هـ - ٨٦٧هـ)**: الذي كان يتوقّد ذكاء، مع الحفظ والإتقان، وكان غاية ما يكون من البراعة بحيث يروى أنّه كان يملي في المجلس الواحد على سبعة أنفس من إنشائه بأمور مختلفة.

برع في الفقه وأصوله والعربية وغيرها، وفاق أهل عصره في التدقيق، وناب عن شيخه البساطي في القضاء بعد سنة ٨٣٥هـ، فكان يبذل الجهد في إنفاذ الأحكام، وردع الجبابرة من العوام، حتّى حمدت سيرته.

تصدّر بجامع عمرو بن العاص، وأفتى وصار الاعتماد في الفتاوى عليه لمزيد إتقانه واختصاره وتحريره وحسن إدراكه لمقاصد السائلين.

وحين توفّي تأسف عليه الناس، إذ لم يخلف في مالكيّة مصر مثله[٢].

---

(١) الضوء اللامع ٥/٧ - ٨، نيل الابتهاج ١٨٦/٢ - ١٩١، توشيح الديباج ص ١٨٨ - ٢٠١، شجرة النور الزكية ص ٢٤١ - ٢٤٢، كشف الظنون ١٥٣/٦ - ١٥٤، حسن المحاضرة ٢١٣/١.

(٢) نيل الابتهاج ٢٢٧/٢ - ٢٢٩، الضوء اللامع ٢٧/٧ - ٢٨، توشيح الديباج ص ١٨١ - ١٨٣، شجرة النور الزكيّة ص ٢٥٦.

*** عليّ بن محمد أبو الحسن بن ناصر الدين المنوفي (٨٥٧هـ - ٩٣٩هـ)**: كان يكثر ملازمة خاتمة الحفاظ الجلال السيوطي، صنّف التصانيف النافعة في الفقه منها: عمدة السالك على مذهب الإمام مالك، ومختصرها، وتحفة المصلّي وشرحها، وشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ستّة شروح: الأوّل: سمّاه غاية الأماني، والثاني: تحقيق المباني، والثالث: توضيح الألفاظ والمعاني، والرابع: تلخيص التحقيق، والخامس: الفيض الرحماني، والسادس: كفاية الطالب الرباني، ومختصره، وأشهر شروحه الستّة على الرسالة هو كتاب التحقيق، وقد وضع عليه القبول فاعتنى به الناس وانتشر بينهم كثيراً، وله المقدمة العزية في فقه المالكية، وشرح مختصر خليل، وغيرها من المصنّفات في الحديث والقراءات وأصول الدين والتصوّف واللغة وعلم المعاني والبيان[1].

*** محمد بن إبراهيم بن خليل التتائي (٩٤٢هـ)**: الأزهري، تصدّر للتأليف والإقراء، وتخلّى عن القضاء، وكان ذا يد طولى في علم الفرائض، له شروح كثيرة - وهو رجل الشروح - منها: شرحان على مختصر خليل، شرح كبير بعنوان فتح الجليل في حلّ جواهر درر ألفاظ الشيخ خليل، وصغير بعنوان جواهر الدرر في حلّ ألفاظ المختصر، على أنّ شرحه الكبير فيه مواضع كثيرة جدّاً حصل له فيها الوهم نقلاً وتقريراً وبحثاً، وشرح مختصر ابن الحاجب الفقهي، وله شرح الإرشاد لابن عساكر والجلاب، وخطط السداد والرشد بشرح مقدّمة ابن رشد في الفروع، وغيرها من الشروح[2].

*** ناصر الدين محمد بن حسن اللقاني (٩٥٨هـ)**: جلس لإقراء

---

(١) توشيح الديباج ص ١٣٧ - ١٣٨، نيل الابتهاج ١/٣٨٨ - ٣٨٩، كشف الظنون ٥/٥٩٤، شجرة النور الزكية ص ٢٧٢.

(٢) توشيح الديباج ص ١٨٦ - ١٨٧، لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد لابن القاضي ص ٢٩٥، شجرة النور الزكية ص ٢٧٢، كشف الظنون ٦/١٨٧، فهرس الفهارس ١/٢٦٣. نيل الابتهاج ١/٢٧٩ - ٢٨٠.

العلوم على اختلاف أنواعها على وجه لم يساوه في ذلك أبناء عصره في تفكيك العبارات والنظر فيها وتحريرها، فأقرأ مختصر ابن الحاجب بمطالعة التوضيح، ومختصر خليل وغيرهما من كتب الفقه، كما أقرأ علوم التفسير والأصول واللغة وغيرها من العلوم بالجامع الأزهر نحوا من ستّين سنة.

كان لا يفتر عن الاشتغال بالتدريس طول نهاره، ولذا لم يتفرّغ للتأليف والكتابة، غير ما كتبه على طرر نسخته من التوضيح من فوائد وتقييدات بديعة.

دارت عليه الفتيا بمصر بعد أخيه شمس الدين اللقاني (٩٣٥هـ) وأرسل إليه من سائر الأقاليم الاستفتاء في العلوم العقليّة والنقليّة، وكان هو وأخوه من العلماء الأجلاء العاملين، عليهما مدار المذهب بمصر، وكان شمس الدين أكبر سنّا وأكثر فقها، في حين كان ناصر الدين أكثر تحريرا وتحقيقا في العلوم العقليّة، وقد زاد النفع به لطول عمره واشتغاله ليلا ونهارا بحيث كثرت تلاميذه وخلصت الفتيا له بعد أخيه، فكان آخر من انتهت إليه الرئاسة العلميّة بمصر، فلم يبق بمصر من ذوي المذاهب المخالفة وغيرهم إلاّ من هو بين طلبته أو طلبة طلبته، فشيوخ عصره كلّهم من طلبته، وكثر النفع به لطول حياته وجميل صبره على الطلبة من المذاهب الأربعة.

كان حافظاً لناموس العلم، فما دخل بيوت الأمراء، بل امتنع منهم والدخول في دنياهم، توفّي وقد جاوز التسعين[1]، وأمّا في المرحلة الثانية من هذا الدور فنجد:

*** بدر الدين محمد بن يحيى بن عمر القرافي (٩٣٩هـ ـ ١٠٠٨هـ):** قاضي مصر، ورئيس العلماء في عصره كان مشارا إليه بالعلم والصلاح.

تولّى قضاء المالكيّة بمصر، وكان على ما قيل أمثل قضاته، شرح

(١) توشيح الديباج ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤، نيل الابتهاج ٢/٢٨٢ ـ ٢٨٤ و٢٧٧ ـ ٢٧٨، لقط الفرائد ص ٣٠٢ الطبقات الصغرى للشعراني ص ٧٣ ـ ٧٤.

مختصر ابن الحاجب، وشرح مختصر خليل في كتاب سمّاه عطاء الله الجليل الجامع لما عليه من شرح جميل، وشرح التهذيب وقصد فيه تعيين المشهور خصوصاً ما ذكره أبو الحسن في التقييد من الخلاف، وله رسائل وشروح أخرى(١).

*** أبو الإمداد برهان الدين إبراهيم بن حسن اللقاني (١٠٤١هـ)**: أحد الأعلام وأئمّة الإسلام، المتبحّر في الأحكام، إليه المرجع في المشكلات والفتاوى.

كان كثير الفوائد في مجالسه، وعنه تلقّى العلم من لا يعدّ كثرة، وصنّف تآليف كثيرة نافعة، منها: حاشية على مختصر خليل، ومنار أصول الفتوى وقواعد الإفتاء بالأقوى، وله رسالة في تحريم الدخان بعنوان نصيحة الإخوان في شرب الدخان(٢).

*** أبو الإرشاد نور الدين عليّ بن زين العابدين بن عبدالرحمٰن الأجهوري (٩٧٥هـ ـ ١٠٦٦هـ)**: شيخ المالكيّة في عصره وإمام الأئمّة في مصره، طار صيته وعمّ نفعه وعظمت بركته، عمّر فألحق الأحفاد بالأجداد، تلقّى العلم عن أعلام يشقّ استقصاؤهم، وعنه أخذ من لا يعدّ كثرة.

صنّف تآليف كثيرة، منها: ثلاثة شروح على مختصر خليل، وحاشية على شرح التتائي على الرسالة، ورسالتان في شرب الدخان أثبت فيهما الحليّة ما لم يضرّ(٣).

*** أبو محمد عبدالباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني (١٠٢٠هـ ـ ١٠٩٩هـ)**: كان نظّارا عمدة، محقّقاً، شرف العلماء ومرجع المالكيّة، تلقّى عن الشيخ نور الدين الأجهوري ولازمه وشهد له بالعلم، كما تلقّى عن

---

(١) نيل الابتهاج ٢٩٨/٢ ـ ٢٩٩، كشف الظنون ٢٠٨/٦، شجرة النور الزكية ص ٢٨٨، فهرس الفهارس ٢١٥/١ ـ ٢١٦.

(٢) شجرة النور ص ٢٩١.

(٣) شجرة النور الزكية ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ وص ٢٩١، فهرس الفهارس ٧٨٢/٢ ـ ٧٨٤.

الشيخ برهان الدين اللقّاني، من مصنّفاته: شرح على مختصر خليل، يدلّ على فضل واطّلاع، تشدّ إليه الرحال، لخّص ما قبله من الشروح وبالغ في الاختصار، وجمع الفروع ولم ينقحه من كثير من الأخطاء، فاعتنى به المغاربة وتتبّعوه، وله مجموعة أجوبة على أسئلة رفعت إليه[(١)].

* **أبو عبدالله محمد بن عبدالله الخرشي (١٠١٠هـ - ١١٠١هـ)**: شيخ المالكيّة وخاتمة العلماء العاملين، انتهت إليه رئاسة المالكية بمصر، حتى لم يبق بها إلاّ تلاميذه، وهو أوّل من تولّى مشيخة الأزهر، له شرح كبير على مختصر خليل، وآخر صغير رزق فيه القبول، واعتنى العلماء غربا وشرقا بالتحشية عليه[(٢)].

* **أبو الحسن عليّ بن أحمد بن مكرم الله العدوي الشهير بالصعيدي (١١١٢هـ - ١١٨٩هـ)**: شيخ مشائخ الإسلام، وإمام المحقّقين، وصاحب التآليف العديدة، قدم مصر وحضر دروس المشائخ، ثمّ درّس بالأزهر، وعنه أخذ أعلام منهم البناني والدردير والدسوقي.

وضع حواش كثيرة على الخرشي، وعلى أبي الحسن المنوفي، تدلّ على فضله، وكان شديد الشكيمة في الدين يصدع بالحقّ، ولم يزل مواظبا على الإقراء والإفادة حتى توفّي[(٣)].

* **أبو البركات أحمد بن محمد بن أبي حامد العدوي الأزهري الشهير بالدردير (١١٢٧هـ - ١٢٠١هـ)**: شيخ الإسلام، وأحد المنسوب لهم التجديد على رأس المائة الثانية عشرة من المالكيّة، أخذ عن الشيخ الصعيدي ولازمه وانتفع به، وبه تفقّه وبغيره من أعلام عصره، وعنه أخذ الدسوقي والصاوي وغيرهما.

---

(١) شجرة النور الزكية ص ٣٠٤ - ٣٠٥، الفكر السامي ٣٣٧/٤.

(٢) شجرة النور ص ٣١٧ كشف الظنون ٢٣٧/٦ الفكر السامي ٣٣٧/٤ معجم المؤلفين ٢١٠/١٠ - ٢١١.

(٣) شجرة النور الزكية ص ٣٤١ - ٣٤٢، كشف الظنون ٦١٤/٥، الفكر السامي ٣٤٧/٤، فهرس الفهارس ٧١٢/٢ - ٧١٣.

أفتى في حياة شيوخه، وارتقى حتى تولّى الفتيا، وصار شيخ أهل مصر في وقته، وكان يصدع بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم.

له مؤلّفات غاية في التحرير، رزق في غالبها القبول، منها: أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك في شرح مختصر خليل[١]، ومن تلاميذ الشيخ الدردير:

* **محمد بن أحمد بن عرفة الشهير بالدسوقي (١٢٣٠هـ)**: الأزهري، لازم حضور دروس المشائخ كالصعيدي والدردير، ثمّ تصدّر للتدريس وأتى بكلّ نفيس فكثر الآخذون عليه والمتردّدون إليه، صنّف حواشي كثيرة رزق فيها القبول لوضوح عباراتها، منها: حاشية على شرح الدردير لمختصر الشيخ خليل.

أفاد وأجاد، وكان فريداً في تسهيل المعاني وتبيين المباني، ولم يزل على حالته في الإفتاء والتدريس والإفادة إلى أن توفّي[٢].

* **أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد السنباوي الشهير بالأمير (١١٥٤هـ ـ ١٢٣٢هـ)**: صاحب التحقيقات الرائقة والتآليف البارعة، الذي استخرج نفائس الدرر من نحور المنقول والمعقول.

حضر دروس أعيان عصره واجتهد في تحصيل العلم، وأخذ عن أعلام المذاهب الأربعة بمصر، ولازم أبا الحسن العدوي الشهير بالصعيدي أكثر من عشرين سنة وانتفع به حتّى انتهت إليه الرئاسة في العلوم بالديار المصريّة، وباهت مصر ما سواها بتحقيقاته البهيّة.

تصدّر لإلقاء الدروس في حياة شيوخه، واشتهر أمره وذاع ذكره وشاع

---

(١) شجرة النور الزكية ص ٣٥٩، كشف الظنون ١٤٩/٥، الفكر السامي ٣٤٨/٤، فهرس الفهارس ٣٩٣/١ ـ ٣٩٤، اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) كشف الظنون ٢٧٨/٦، شجرة النور الزكية ص ٣٦١ ـ ٣٦٢، الفكر السامي ٣٥٣/٤.

فضله في الآفاق وخصوصا ببلاد المغرب، ووفد عليه الطالبون، وأخذ عنه من لا يعدّ كثرة.

صنّف مؤلفات غاية في الإتقان والإجادة رزق فيها القبول، منها: حاشية على شرح عبدالباقي الزرقاني على المختصر، وعلى شرح العزيّة، وكان شيخه الصعيدي إذا توقّف في مسألة قال: هاتوا مختصر الأمير[١]، ومن تلاميذه:

* **أبو العباس أحمد بن محمد الصاوي الخلوتي (١٢٤١هـ)**: شيخ الشيوخ وعمدة أهل التحقيق والرسوخ أخذ عن شيوخ أهل عصره من أمثال الدردير والدسوقي، من مصنّفاته: بلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، على الشرح الصغير للدردير[٢].

وأمّا الشافعيّة فقد أحصى السيوطي من أعلامهم خلال المرحلة الأولى من هذا الدور، ما يقرب عن المائة ممّن تفرّدوا في ميدان العلم، وحصل لهم من المجد والإقبال والشرف والأفضال ما لا يمكن شرحه بالمقال.

وكان من أشهرهم:

* **أبو الفتح تقيّ الدين محمد بن عليّ بن وهب المعروف بابن دقيق العيد (٦٢٥هـ ـ ٧٠٢هـ)** : أحد علماء وقته، وأجلّهم وأكثرهم مداومة على العلم في ليله ونهاره، لا ينام من الليل إلاّ قليلا، يقطعه مطالعة وذكراً وتهجّداً.

كان إماماً محرّراً، فقيهاً مدقّقاً، أصوليّاً مدركاً، بصيراً بعلم المنقول والمعقول، غوّاصاً على المعاني، مكبّاً على المطالعة والجمع، له اليد الطولى في الفروع والأصول، حافظاً للحديث وعلومه.

تفقّه على والده مجد الدين شيخ المالكيّة، ثمّ تفقّه على الشيخ عزّ

---

(١) شجرة النور الزكية ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣، الفكر الإسلامي ٣٥٤/٤، فهرس الفهارس ١٣٣/١ ـ ١٣٤.

(٢) كشف الظنون ١٥٢/٥، شجرة النور الزكية ص ٣٦٤ اليواقيت الثمينة ص ٥٠ ـ ٥١.

الدين بن عبدالسلام، فحقّق المذهبين، وأفتى فيهما، واشتهر اسمه في حياة مشائخه، وشاع ذكره، وكان الشيخ ابن عبدالسلام يقول: ديار مصر تفتخر برجلين في طرفيها: ابن منيّر بالإسكندريّة وابن دقيق العيد بقوص.

ولي قضاء الديار المصرية من سنة ٦٩٥هـ، واستمرّ فيه إلى أن مات، فكان قاضي القضاة بمصر، وشيخها وعالمها، شيخ العصر، علاّمة في المذهبين المالكي والشافعي، يحقّقهما تحقيقا عظيما.

بسط السبكي ترجمته في «الطبقات الكبرى» ثمّ قال: «ولم ندرك أحداً من مشائخنا يختلف في أنّ ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة» ووصفه بالمجتهد المطلق.

برع في علوم كثيرة لا سيّما في علم الحديث، حيث فاق فيه على أقرانه وبرز على أهل زمانه، ورحلت إليه الطلبة من الآفاق، ووقع على علمه وورعه وزهده الاتّفاق.

صنّف التصانيف المشهورة، منها: شرح مختصر ابن الحاجب، لم يكمله، وشرح عمدة الأحكام للحافظ عبدالغنيّ، وله غير ذلك[(١)].

وكان يعاصره:

* **أبو العباس نجم الدين أحمد بن محمد الأنصاري الشهير بابن الرفعة (٦٤٥هـ - ٧١٠هـ)**: شيخ الإسلام وحامل لواء الشافعية في عصره، اشتهر بالفقه وبرع فيه إلى أن صار يضرب به المثل، ولقّب الفقيه لغلبة الفقه عليه، فكان إذا أطلق لفظ الفقيه انصرف إليه من غير مشارك.

كان أعجوبة في استحضار كلام الأصحاب، وفي معرفة نصوص

(١) حسن المحاضرة ١/١٩٢، شذرات الذهب ٦/١٣٩ - ١٤٠، الدرر الكامنة ٤/٩١ - ٩٦، البداية والنهاية ١٤/٢٧، تذكرة الحفاظ ٤/١٤٨١، طبقات الشافعية الكبرى ٩/٢٠٧ - ٢٤٩، وفيات الونشريسي ص ٩٧، البدر الطالع ص ٧٤٥ - ٧٤٨، الديباج المذهب ص ٤١١ - ٤١٢، النجوم الزاهرة ٨/٢٠٦، لقط الفرائد ص ١٦٢، هديّة العارفين ٢/١٤٠.

الشافعي، وفي قوّة التخريج، لم يخرج المركز المصري بعد ابن الحدّاد من يدانيه، ولا يعلم في الشافعيّة مطلعا بعد الرافعي من يساويه.

ندب لمناظرة ابن تيميّة، فسئل ابن تيميّة عنه، فقال: رأيت شيخاً تتقاطر فروع الشافعية من لحيته، صنّف التصنيفين المشهورين كفاية التنبيه في شرح التنبيه للشيرازي، فأجاد فيه، والمطلب العالي في شرح وسيط الغزالي، لم يكمله، وهو شرح حافل اشتمل على نقول كثيرة وتخريجات واعتراضات تشهد بغزارة مواده وسعة علمه وقوّة فهمه[1].

*** أبو محمد جمال الدين عبدالرحيم بن الحسن الإسنوي (٧٠٤هـ ـ ٧٧٢هـ)**: شيخ الشافعية ومفتيهم ومصنّفهم ومدرّسهم، ذو الفنون: الأصول والفقه والعربيّة، وكان بحراً في الفروع والأصول محقّقاً لما يقول من النقول.

كان فقيهاً ماهراً ومعلماً ناصحاً ومفيداً صالحاً، تقدّم في الفقه حتّى صار إمام زمانه، وانتهت إليه رئاسة الشافعيّة، وصار أوحد أهل زمانه، المشار إليه بالديار المصريّة في أوانه، وبه تخرّج خلق كثير من الفضلاء، وانتفع به أكثر علماء المركز المصري.

كان ملازماً للإفادة والتصنيف، ومن مصنّفاته: الفروع ومختصر الشرح الصغير للرافعي، والكوكب الدريّ في تخريج مسائل الفقه على النحو، وتصحيح التنبيه للشيرازي، وهو مختصر، قال: وجدت تصحيح التنبيه للنووي قد أهمل في كثير، فحسّنته وجردت المهملات، وجمعتها في تأليف سميّته التنقيح، وله أيضاً المهمّات شرح به كتاب الروضة الذي هو مختصر الشرح الكبير في شرح وجيز الغزالي، والتمهيد في تنزيل الفروع

(١) حسن المحاضرة ١٩٢/١، الدرر الكامنة ٢٨٤/١ ـ ٢٨٧، البداية والنهاية ٦٠/١٤، شذرات الذهب ١٦٣/٦ النجوم الزاهرة ٢١٣/٩ طبقات الشافعية الكبرى ٢٤/٩ ـ ٢٧ البدر الطالع ص ١٣٠ ـ ١٣٢.

على الأصول[١].

ومن تلاميذ الإمام الإسنوي:

* **بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي (٧٤٥هـ - ٧٩٤هـ)**: أخذ عن الشيخين جمال الدين الإسنوي وسراج الدين البلقيني، كان فقيهاً أصوليّا وأديبا فاضلا، عني بالفقه والأصول والحديث.

صنّف تآليف كثيرة في عدّة فنون منها في الفقه: تكملة شرح منهاج الطالبين للنووي، الذي شرحه الإسنوي ولم يكمله، فأكمله الزركشي، وله خادم الرافعي والروضة في الفروع، ويسمّى أيضاً خادم الشرح والروضة، وله خبايا الزوايا في الفروع، ذكر فيه ما ذكره الرافعي والنووي في غير مظنّته من الأبواب فردّ كلّ شكل إلى شكله، وكلّ فرع إلى أصله، وشرح التنبيه للشيرازي، وشرح الوجيز للغزالي، والقواعد في الفقه والبحر المحيط في أصول الفقه، وغير ذلك في علوم الحديث والقرآن والتفسير[٢].

* **أبو حفص سراج الدين عمر بن عليّ المعروف بابن الملقن (٧٢٣هـ - ٨٠٤هـ)**: أحد مشائخ الإسلام ومفتي المسلمين، وسيّد المناظرين.

اشتغل في كلّ فنّ حتّى قرأ في كلّ مذهب كتاباً، وأذن له بالإفتاء فيه، فأفتى ودرّس، وتصدّى لذلك دهرا طويلا، وأثنى عليه الأئمّة، ونوّه بذكره القاضي تاج الدين السبكي.

امتحن بسبب القضاء في سنة ٧٨٠هـ، فلزم بيته وأكبّ على التأليف حتّى صار أكثر أهل زمانه تصنيفا، وكان تصنيفه أحسن من تقريره، وقد بلغت مصنّفاته نحو ٣٠٠ كتاب، سارت في الأقطار مسير الشمس.

---

(١) حسن المحاضرة ١٩٨/١، النجوم الزاهرة ١١٤/١١، الدرر الكامنة ٣٥٤/٢ - ٣٥٦، شذرات الذهب ٤٢٢/٦ - ٤٢٣، لقط الفرائد ص ٢١٥.

(٢) حسن المحاضرة ٢٠١/١، شذرات الذهب ٨٥/٧، النجوم الزاهرة ١٣٤/١٢، الدرر الكامنة ٣٩٧/٣ - ٣٩٨.

كان جمّاعة للكتب وقد احترق غالبها قبل موته، وقد جمع في بعض تصانيفه بين نحو مائتي كتاب في المذهب، وسمّاه جمع الجوامع، حيث جمع فيه بين كلام الرافعي في شرحيه - على الوجيز للغزالي - ومحرره، والنووي في شرحه - على المهذب للشيرازي - ومنهاجه وروضته، وابن الرفعة في كفايته ومطلبه والقمولي في بحره وجواهره، وغير ذلك، ممّا أهملوه وأغفلوه ممّا وقف عليه من التصانيف في المذهب.

ومن تصانيفه الفقهية كذلك: إرشاد النبيه إلى تصحيح التنبيه للشيرازي، وغنية الفقيه في شرح التنبيه والتأديب في مختصر التدريب، وتذكرة الأخيار بما في البسط من الأخبار، وشرح الحاوي الصغير للقزويني.

وكان الناس يقولون: أعجوبة هذا العصر على رأس القرن العراقي والبلقيني وابن الملقن، الأوّل في معرفة الحديث وفنونه، والثاني في التوسع في معرفة مذهب الشافعي، والثالث في كثرة التصانيف، وقدّر أنّ كلّ واحد من الثلاثة ولد قبل الآخر بسنة، ومات قبله بسنة، فأوّلهم ابن الملقّن ثمّ البلقيني ثمّ العراقي[١].

*** عمر بن رسلان سراج الدين البلقيني (٧٢٤هـ - ٨٠٥هـ)**: شيخ الوقت وإمامه وحجّته، الذي نال في الفقه وأصوله الرتبة العليا، وانتهت إليه مشيخة الفقه في وقته.

كان أعجوبة زمانه حفظاً واستحضاراً، حفظ القرآن وصلّى به وهو ابن سبع سنين، ثمّ حفظ المحرر في الفقه والكافية لابن مالك في النحو، ومختصر ابن الحاجب في الأصول، والشاطبية في القراءات قبل الثانية

---

(١) حسن المحاضرة ٢٠١/١، شذرات الذهب ١٧٠/٧ - ١٧١، الضوء اللامع ١٠٠/٦ - ١٠٥، البدر الطالع ص ٥٠٩ - ٥١٢، كشف الظنون ٦٣٠/٥ - ٦٣١.

عشرة من عمره، ثمّ أكمل اشتغاله على علماء عصره حتّى فاق الأقران، وبهر شيوخه بذكائه وكثرة محفوظه وسرعة فهمه، فأذن له في الفتيا وهو ابن خمس عشرة سنة.

أكبّ على الاشتغال بالعلم والتصنيف حتّى انفرد برئاسة العلم، ولم يبق من يزاحمه، وكان كلّ من اجتمع به يخضع له لكثرة استحضاره، حتّى يكاد يقطع بأنّه يحفظ الفقه سردا من أوّل الأبواب إلى آخرها لا يخفى عليه منه كبير أمر، فبهر الناس بحفظه، وحسن عبارته، وجودة معرفته، وانتفع به عامّة الطلبة، وخضع له شيوخ وقته واعترفوا بفضله، وتصدّى للفتيا فكان معوّل الناس عليه في ذلك، واشتهر اسمه في الآفاق وبعد صيته حتّى أتته الفتاوى من الأقطار، ولم تعد تركن النفس إلاّ إلى فتواه.

اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها، فقيل: إنّه مجدّد القرن التاسع، وقال بعض معاصريه: لم تر العين أحفظ للفقه وللأحاديث الأحكام منه، كان يتكلّم على الحديث الواحد من بكرة إلى قرب الظهر، وربّما أذّن الظهر ولم يفرغ من الحديث الواحد، حتّى اعترف له علماء جميع الأقطار بالحفظ وكثرة الاستحضار.

وكان موفّقا في الفتوى يجلس لها من بعد صلاة العصر إلى الغروب، وكان لا يأنف إذا أشكل عليه شيء من مراجعة الكتب، ولا من تأخير الفتوى عنده إلى أن يحقّق أمرها[1].

وخلفه في علمه وفهمه ابنه:

* **علم الدين صالح البلقيني (٧٩١هـ ـ ٨٦٨هـ)**: إمام الفقهاء في عصره، نشأ في كنف والده فحفظ القرآن، وصلّى به للناس التراويح على العادة بمدرسة والده وهو دون سنّ الثامنة.

---

(١) حسن المحاضرة ٢٠١/١، شذرات الذهب ١٧٦/٧ ـ ١٧٧، الضوء اللامع ٨٥/٦ ـ ٩٠، البدر الطالع ص ٥٠٧ ـ ٥٠٩، كشف الظنون ٦٣١/٥.

كان غاية في الذكاء وسرعة الحفظ، لازم الاشتغال في الفقه وأصوله والعربية والحديث، وغيرها من العلوم، وتفرّد بالفقه ودرسه وهو شاب، وعنه أخذ الجمّ الغفير وألحق الأصاغر بالأكابر، والأحفاد بالأجداد.

كان عالماً فقيهاً قويّ الحافظة سريع الإدراك طلق العبارة فصيحا، تصدّر لنشر العلم والإفتاء، وطارت فتاويه في الآفاق، واشتهر اسمه وبعد صيته، وأصبح حامل لواء المذهب الشافعي في عراقه وحجازه وشامه مصره، وعنه أخذ الفضلاء من كلّ ناحية طبقة بعد أخرى.

استقرّ في قضاء الشافعية بالديار المصرية سنة ٨٢٦هـ، فأقام سنة، ثمّ صرف، وقد تكرّر عوده للقضاء وصرفه عنه سبع مرّات، كانت مدّة ولايته القضاء في مجموع تلك المرار: ثلاث عشرة سنة ونصف.

أفرد فتاوى أبيه السراج البلقيني في كتاب سمّاه التجرّد والاهتمام بجمع فتاوى الوالد شيخ الإسلام، ورتّبه على أبواب الفقه، وفرغ من جمعه وترتيبه سنة ٨٣٠هـ، وله في الفقه: التدريب، وترتيب الأقسام على مذهب الإمام، وتصحيح المنهاج للنووي، ومعرفة الملمات للأسنوي في الفروع، وغيرها[١].

ومن تلامذته:

*** جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمٰن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩هـ ـ ٩١١هـ)**: ختم القرآن العظيم وله من العمر دون ثمان سنين، ثمّ حفظ عمدة الأحكام للحافظ عبدالغني الحنبلي، ومنهاج النووي، وألفية ابن مالك ومنهاج البيضاوي، وعرض ذلك على علماء عصره فأجازوه.

---

(١) حسن المحاضرة ٢٠٥/١، الضوء اللامع ٣١٢/٣ ـ ٣١٤، شذرات الذهب ٤٤٧/٧، البدر الطالع ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨، نظم العقيان ص ١١٩، كشف الظنون ٢٩٩/١، و٣٤٥/٥، هدية العارفين ٤٢٣/١.

شرع في حضور دروس شيخه علم الدين البلقيني ابتداء من سنة ٨٦٤هـ، وهو في سنّ الخامسة عشرة من عمره، فقرأ عليه ما لا يحصى، كما لزم دروس أعلام عصره حتّى أجيز بالتدريس والإفتاء.

ولمّا حجّ شرب من ماء زمزم لأمور منها أن يصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلاني.

وقد ذكر تلميذه الداودي في ترجمته أسماء شيوخه إجازة وقراءة وسماعا، فبلغ عددهم واحداً وخمسين شيخا، واستقصى مؤلفاته الحافلة فنافت عدّتها على خمسمائة مؤلف، وشهرتها تغني عن ذكرها، وقد اشتهرت أكثرها في حياته في أقطار الأرض شرقا وغربا، وكان آية كبرى في سرعة التأليف مع حسن التحرير والتدقيق والإتقان.

كان أعلم أهل زمانه، قد رزق التبحّر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع، وقد صرّح بنفسه أنّه يعتقد بأنّ الذي وصل إليه من الفقه والنقول التي اطّلع عليها ممّا لم يصل إليه، ولا وقف عليه أحد من شيوخه فضلاً عمّن دونهم، وصرّح بأنّ أدوات الاجتهاد قد كملت عنده وأنّه لو شاء أن يكتب في كلّ مسألة تصنيفا بأقوالها وأدلّتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والمقارنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدر على ذلك.

لكنّه لم يسلم من حاسد لفضله، وجاحد لمناقبه، فإنّ السخاوي في الضوء اللامع وهو من أقرانه ترجمه ترجمة مظلمة غالبها ثلب فظيع وسبّ شنيع وانتقاص وغمط لمناقبه تصريحاً وتلويحاً، وهذا غير مقبول عليه لما عرفت من قول أئمّة الجرح والتعديل بعدم قبول الأقران في بعضهم بعضاً، مع ظهور أدنى منافسة، فكيف بمثل المنافسة.

ولمّا بلغ الأربعين من عمره شرع في تحرير مؤلفاته وترك الإفتاء

والتدريس، واعتذر عن ذلك في كتاب سمّاه «التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس»(١).

وقد ترجم السيوطي ترجمة له من إنشائه في باب الأئمّة المجتهدين من كتابه حسن المحاضرة، وذكر أنّه يقتدي في ذلك بالمحدثين من قبله كالإمام عبدالغافر الفارسي (٥٢٩هـ) في تاريخ نيسابور، وياقوت الحموي (٦٢٦هـ) في معجم الأدباء، ولسان الدين بن الخطيب (٧٧٦هـ) في تاريخ غرناطة، والحافظ تقيّ الدين الفاسي (٨٣٢هـ) في تاريخ مكّة، والحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) في قضاة مصر(٢).

ثمّ كان من بعده: عمدة العلماء الأعلام، حامل لواء المذهب الشافعي على كاهله، ومحرّر مشكلاته:

*** القاضي زكرياء بن محمد بن زكرياء الأنصاري (٨٢٦هـ - ٩٢٦هـ)**: شيخ الإسلام، قاضي القضاة زين الدين أبو يحيى السنيكي، ملحق الأحفاد بالأجداد، المتفرّد في زمنه بعلوّ الإسناد، الذي تلقّى العلم عمّن لا يحصى كثرة، ولم ينفكّ عن الاشتغال بالعلم حتى أذن له غير واحد من شيوخه في الإفتاء والإقراء، منهم شيخ الإسلام ابن حجر، فتصدّى للتدريس في حياة شيوخه، وانتفع به الفضلاء طبقة بعد طبقة، وقصد بالفتاوى، وزاحم كثيراً من شيوخه فيها.

كانت رويّته أحسن من بديهته، وكتابته أمتن من عباراته، وعدم مسارعته إلى الفتوى يعدّ من حسناته، وله باع طويل في كلّ فنّ.

ولّي تدريس عدّة مدارس، ثمّ ولّي منصب قاضي القضاة سنة ٨٨٦هـ

---

(١) شذرات الذهب ٨/٨٧ - ٩٠، البدر الطالع ص ٣٣٧ - ٣٤٣، الضوء اللامع ٤/٦٥ - ٧٠، الكواكب السائرة ١/٢٢٦ - ٢٣١، كشف الظنون ٥/٤٣٤ - ٤٤١، هديّة العارفين ١/٥٣٤ - ٥٤٤، الأعلام ٤/٧١، معجم المؤلفين ٥/١٢٨، لقط الفرائد ص ٢٧٩، الطبقات الصغرى للشعراني ص١٧ - ٣٢ فهرس الفهارس ٢/١٠١٠ - ١٠٢٢.

(٢) حسن المحاضرة ١/١٥٣.

بعد امتناع كثير، واستمرّ على القضاء، إلى أن كفّ بصره فعزل، ثمّ لم يزل ملازما للتدريس والإفتاء والتأليف إلى أن توفي، بعد أن عمّر المائة من عمره، فحاز به سعة التلاميذ والأتباع، وكثرة الآخذين عنه ودوام الانتفاع.

شرح مصنّفات عديدة، وألّف ما لا يحصى كثرة، منها: صاحب أدب القاضي على مذهب الشافعي، وبهجة الحاوي شرح حاوي الصغير للقزويني في فروع الفقه الشافعي، واختصر تنقيح اللباب لوليّ الدين العراقي وسمّاه تحرير تنقيح اللباب، وضمّ إليه الفوائد، وبدّل غير المعتمد بالمعتمد، وحذف منه الخلاف، وما عنه غنى، ثمّ شرحه في كتاب سمّاه تحفة الطلاب لشرح تحرير تنقيح اللباب، وشرح مختصر المزني في الفروع ومنهج الطلاب في شرح منهاج الطالبين للنووي، ونهاية الهداية في شرح الكفاية، وغيرها(١).

* **شمس الدين محمد بن الشربيني الخطيب (٩٧٧هـ)**: أخذ عن أعلام عصره، وأجيز بالإفتاء والتدريس، فدرّس وأفتى في حياة شيوخه الذين وصفوه بالعلم والعمل، والزهد والورع، وكثرة النسك والعبادة.

كان من عادته أن يعتكف من أوّل رمضان فلا يخرج من الجامع إلاّ بعد صلاة العيد، وكان إذا حجّ اشتغل بتعليم الناس المناسك وآداب السفر وكيفيّة التقصير والجمع.

من أشهر مصنّفاته الفقهيّة: شرح على كتاب المنهاج للنووي وشرح على كتاب التنبيه للشيرازي، وهما شرحان عظيمان جمع فيهما تحريرات شيوخه بعد القاضي زكرياء، وأقبل الناس على قراءتهما ونسخهما في حياته(٢).

---

(١) شذرات الذهب ١٧٤/٨ ـ ١٧٦، الكواكب السائرة ١٩٦/١، الضوء اللامع ٢٣٤/٣ ـ ٢٣٨، كشف الظنون ٤٥٤/٢ و٣٠٧/٥ ـ ٣٠٨، نظم العقيان ص ١١٣، الأعلام ٤٦/٣، الطبقات الصغرى ص ٣٢ ـ ٣٩، فهرس الفهارس ٤٥٧/١ ـ ٤٥٩.

(٢) شذرات الذهب ٤٥١/٨، الكواكب السائرة ٧٩/٣، معجم المؤلفين ٢٦٩/٨، الأعلام ٢٣٤/٦، كشف الظنون ٧٠١/٢.

ومن بين الذين سار ذكرهم في الأقطار بعد هؤلاء مسير النهار:

* **شمس الدين محمد بن أحمد بن حمزة الرملي (٩١٩هـ - ١٠٠٤هـ)**: الشهير بالشافعي الصغير، شيخ المصريين، علامة المحققين على الإطلاق، وعالم المدققين بالاتّفاق، فقيه مصر في وقته.

كان عجيب الفهم، غزير العلم، يوصف بفاتح أقفال مشكلات العلوم، ومحيي ما اندرس منها من الآثار والرسوم، ولّي إفتاء الشافعية بالديار المصريّة، وكان مرجع أهل مصر في تحرير الفتاوى، كما شهد له معاصره الشعراني.

وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنّه مجدّد القرن العاشر، وصرّح بعضهم بأنّه لم يشتهر الانتفاع بأحد في قرنه مثله.

من مصنّفاته الفقهيّة: شرح كتاب المنهاج للنووي، وكتاب التحرير لشيخ الإسلام زكرياء الأنصاري[١].

وظلّت مصر بعد القرن العاشر تكتظّ بفقهاء الشافعية الذين تسربلوا بسربال العلم، وتعلّقوا بأسباب الفقه وخاضوا مع العلماء فركبوا في فلكهم ولزموهم حتى انتظموا في سلكهم.

* **عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن عليّ بن زين العابدين المناوي الحدادي (٩٥٢هـ - ١٠٣١هـ)**: خاتمة الحفاظ المجتهدين، وأعلم معاصريه بالحديث، وأكثرهم فيه إجادة وتحريرا، من مصنّفاته المشهورة: فيض القدير في شرح الجامع الصغير للسيوطي، وصاحب إتحاف الطلاب بشرح كتاب العباب في الفقه، وإتحاف الناسك بأحكام المناسك، وإحسان التقرير بشرح التحرير للقاضي زكرياء في الفقه وغير ذلك[٢].

* **عبدالمعطي بن سالم بن عمر السملاوي (١١٢٧هـ)**: صاحب

---

(١) البدر الطالع ص ٦١٩، الفكر السامي ٤/٤٢٠ - ٤٢١، الأعلام ٦/٢٣٥.

(٢) كشف الظنون ٥/٤١٥، فهرس الفهارس ٢/٥٦٠ - ٥٦٢.

اقتطاف الزهر من جوانب أشجار النهر من مسائل الفتاوى، والمربع في حكم العقد على المذاهب الأربعة، وغيرها[١].

* **أحمد بن عمر أبو العباس الديربي (١١٥١هـ)**: صاحب غاية المقصود لمن يتعاطى العقود على المذاهب الأربعة، وفتح العزيز الغفار بالكلام على شرح الاختصار في الفروع، وفتح الكريم الوهاب بختم شرح تحرير تنقيح اللباب في الفقه، ومناسك الحج على مذهب الشافعي، وغير ذلك[٢].

* **محمد بن أحمد بن الحسن بن عبدالكريم الخالدي الشهير بابن الجوهري (١١٥١هـ ـ ١٢١٥هـ)**: صاحب حاشية على ابن قاسم العبادي إلى باب البيوع، ورسالة في أركان الحجّ، وحلية ذوي الأفهام بتحقيق دلالة العام، والروض الوسيم في المفتى به من المذهب القديم، ونهج الطالب في أشرف المطالب اختصره من منهج الطلاب، وله مجموعة رسائل فقهيّة منها: رسالة في ثبوت رمضان، ورسالة في زكاة النابت، وغير ذلك[٣].

* **أبو السعادات حسن بن عليّ العطار (١٢٥٠هـ)**: شيخ الجامع الأزهر، الذي أقرّ له علماء عصره بالانفراد.

كان آية في حدّة النظر وشدّة الذكاء، وقد بلغ من تحصيل العلوم في زمن قليل ما هيّأه للتدريس، كان إذا جلس للدرس ترك المشائخ حلقهم وقاموا إلى درسه.

وقد ظلّ حسن العطار مصدر إشعاع لمختلف العلوم إلى أن ولّي مشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦هـ فزانها وشرّفها وبقي شيخا للأزهر إلى أن توفّي.

---

(١) كشف الظنون ٥/٥٠١.

(٢) كشف الظنون ٥/١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) كشف الظنون ٥/٢٧٥ ـ ٢٧٦.

ترك مؤلفات قيّمة، شروحاً وحواش، في فنون مختلفة، وكان ينادي بضرورة الرجوع إلى الكتب المصادر وعدم الاكتفاء بالمتون والمختصرات(١).

وأمّا المذهب الحنبلي فقد برز منهم بالمركز المصري فقهاء كانوا أئمّة مصرهم بل سائر الأمصار، رفع الله لهم من الذكر الحسن والثناء الجميل حتّى سارت بذكرهم الركبان إلى الأنجاد والأغوار.

ومن بين هؤلاء، نذكر:

*** أبو عبدالله نجم الدين أحمد بن حمدان الحراني النميري (٦٩٥هـ)**: الفقيه الأصولي، شيخ الفقهاء وصاحب التصانيف منها الرعاية الصغرى والرعاية الكبرى في الفقه.

جالس ابن عمّه الشيخ مجد الدين بن تيميّة، وبرع في الفقه حتّى انتهت إليه معرفة المذهب بدقائقه وغوامضه.

كان عارفاً بالأصلين والخلاف والأدب، ولّي نيابة القضاء بالقاهرة، وتفقّه به وتخرّج عليه جماعة كثيرة بعد أن عمّر وأسنّ(٢).

*** محمد بن عبدالله بن محمد الزركشي (٧٤٤هـ)**: الذي شرح الخرقي شرحاً لم يسبق إلى مثله، وكان كلامه فيه يدلّ على فقه نفس وتصرّف في كلام الأصحاب(٣).

*** أبو محمد موفّق الدين عبدالله بن عبدالملك المقدسي (٧٦٩هـ)**: قاضي القضاة بالديار المصرية لأكثر من ثلاثين سنة ـ من سنة ٧٣٨هـ إلى

---

(١) كشف الظنون ٢٤٨/٥، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث لأحمد تيمور ص ٢٠ ـ ٣٨.

(٢) حسن المحاضرة ٢٢٢/١، شذرات الذهب ٩٨/٦.

(٣) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٩.

أن توفّي ـ، تفقّه وأفتى ودرّس حتى كانت له اليد الطولى في المذهب، وأثنى عليه الأئمّة.

حمدت سيرته في القضاء، وانتشر في أيّامه مذهب أحمد بالديار المصريّة، وكثر فقهاء الحنابلة بها[(١)].

*** أبو الفتح ناصر الدين نصر الله بن أحمد الكناني العسقلاني (٧١٨هـ ـ ٧٩٥هـ)**: قاضي قضاة الحنابلة، أقام في قضاء الديار المصرية ستّا وعشرين سنة، وكان مشكور السيرة.

اشتغل في العلوم وتفنّن وأفتى ودرّس، وناب في القضاء عن صهره قاضي القضاة موفّق الدين نحو عشرين سنة، ثمّ استقلّ بالقضاء بعد وفاته سنة ٧٦٩هـ[(٢)].

ومن ذريّته الذين نافسوا الأوائل والأواخر، ولده برهان الدين، وحفيده عزّ الدين، فأمّا:

*** برهان الدين إبراهيم بن ناصر الدين الكناني العسقلاني (٧٦٨هـ ـ ٨٠٢هـ)**: فهو الذي ولِّي القضاء بعد والده وعمره سبع وعشرون سنة، فسلك طريق أبيه في الفقه والتعفّف في الأحكام، حتى أحبّه الناس ومالوا إليه أكثر من والده، ثمّ لم يلبث أن مات وعمره أربع وثلاثون سنة[(٣)].

وأمّا عزّ الدين، فهو:

*** أبو البركات عزّ الدين أحمد بن إبراهيم الكناني العسقلاني (٨٠٠هـ**

---

(١) حسن المحاضرة ٢٢٢/١، شذرات الذهب ٤١٣/٦، النجوم الزاهرة ٩٩/١١.

(٢) حسن المحاضرة ٢٢٢/١، شذرات الذهب ٩٤/٧ ـ ٩٥، النجوم الزاهرة ١٣٧/١٢، الدرر الكامنة ٣٩٠/٤، الضوء اللامع ١٧٩/١، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١٠١.

(٣) حسن المحاضرة ٢٢٢/١، شذرات الذهب ١٣٧/٧، الضوء اللامع ١٧٩/١، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٩٩.

ـ ٨٧٦هـ): اشتغل بالعلم وبرع، ولقي المشائخ، ودأب في الصغر، وحصّل أنواعاً من العلوم.

مشى على طريقة السلف، وسعى إلى أن بلغ العلا، وخدم الفنون إلى أن بلغ منها المنى، وتفرّد بالمذهب.

درّس وأفتى وناظر، وولِّي القضاء فأحيا سنّة التواضع وطرح التكلّف، وسار في أحسن سبيل، ما بين تأليف ومطالعة، وإفتاء ومراجعة، وتدريس للحنابلة بغالب مدارس البلد.

ناب في القضاء وهو ابن سبع عشرة سنة، ثمّ ولِّي قضاء الحنابلة بالديار المصريّة فباشره بعفّة ونزاهة، وكان مرجع الحنابلة بهذا المركز إليه.

اشتهر ذكره وبعد صيته، وصار بيته مجمعا لكثير من الفضلاء، وأكثر من الجمع والتأليف والانتقاء والتصنيف في الفقه وأصوله وغيرها من العلوم، منها: مختصر المحرر في الفقه وتصحيحه ونظمه[(١)].

* **علاء الدين أبو الحسن عليّ بن سليمان المرداوي السعدي المعروف بالمرداوي (٨١٧هـ ـ ٨٨٥هـ)**: شيخ المذهب وإمامه ومصحّحه ومنقّحه، بل شيخ الإسلام على الإطلاق ومحرّر العلوم بالاتّفاق.

اشتغل بالعلم واجتمع بالمشائخ وجدّ في الاشتغال، حتى برع، وانتهت إليه رئاسة المذهب، وباشر نيابة القضاء دهراً طويلاً، فحسنت سيرته وعظم أمره.

كان فقيهاً حافظاً لفروع المذهب، مشاركا في الأصول، مديما للاشتغال، تصدّى للإقراء والإفتاء ببلده وغيرها، فانتفع به الطلبة، وحاز رئاسة المذهب في عصره.

صنّف كتبا كثيرة في أنواع من العلوم أعظمها: الإنصاف في معرفة

---

(١) حسن المحاضرة ٢٢٣/١ ـ ٢٢٤، شذرات الذهب ٤٦٥/٧ ـ ٤٦٦، الضوء اللامع ٢٠٥/١ ـ ٢٠٧، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١٠٠ و١٠٢ ـ ١٠٣.

الراجح من الخلاف، والتنقيح المشبع في تحريم المقنع وهو مختصر الإنصاف، والتحرير في أصول الفقه ذكر فيه المذاهب الأربعة وغيرها وشرحه في كتاب سمّاه التحبير في شرح التحرير، والجوهر المجموع في معرفة الراجح من الخلاف المطلق في الفروع لابن مفلح.

وقد أعانه على تصانيفه في المذهب ما اجتمع عنده من الكتب ممّا لعلّه انفرد به ملكا ووقفا.

وقد انتفع الناس بمصنفاته وانتشرت في حياته وبعد وفاته، وكانت كتابته على الفتوى غاية، وتنزّه عن مباشرة القضاء في آخر حياته.

صار قوله حجّة في المذهب يعوّل عليه في الفتوى والأحكام في جميع مملكة الإسلام[1].

*** تقيّ الدين محمد بن أحمد الفتوحي الشهير بابن النجار (٩٧٢هـ):** أخذ عن أبيه علوما جمّة، ثمّ سافر إلى الشام وأخذ عن شيوخها، ولمّا عاد إلى مصر ولّي قضاء الحنابلة، وصنّف منتهى الإرادات في جمع المقنع مع التنقيح وزيادات، فاشتغل به الطلبة في عصره واقتصروا عليه، ثمّ شرحه، وغالب استمداده فيه من كتاب الفروع لابن مفلح[2].

وكان والده:

*** شهاب الدين أحمد بن عبدالعزيز الفتوحي المعروف بابن النجار (٨٢٦هـ ـ ٩٤٩هـ):** مغربي الأصل، وقد انتهت إليه رئاسة المذهب الحنبلي بالديار المصرية، وهو القاضي الحنبلي الوحيد من أصل مغربي.

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أنّ تاريخ المذهب الحنبلي في مصر قد عرف تداخلا كثيراً مع تاريخه في سائر المراكز الأخرى، لأنّ

---

(١) شذرات الذهب ٤٨٧/٧ ـ ٤٨٨، الضوء اللامع ٢٢٥/٥ ـ ٢٢٧، البدر الطالع ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ كشف الظنون ٥٨٩/٥.

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٤٠، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٨٤.

أغلب الحنابلة الذين سادوا بمصر واشتهروا بها، وتولّوا مناصب القضاء بها، كانوا من الوافدين عليها.

ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال:

* **أبو محمد شرف الدين عبدالغني بن يحيى الحراني (٦٤٥هـ ـ ٧٠٩هـ)**: وهو من أقدم الحنابلة نزوحا إلى مصر[١].

* **برهان الدين بن نصر العسقلاني القاهري الكناني**، وابنه **عز الدين أحمد بن إبراهيم بن نصر الله العسقلاني**: الذي ولد بالقاهرة سنة ٨٠٠هـ، وكان أبوه وجدّه قاضيان من أسرة عسقلانيّة عملت على نشر المذهب بمصر[٢].

* **تقيّ الدين أحمد بن عمر بن عبدالله المقدسي (٦٦٢هـ ـ ٧٣٨هـ)**: وكان من علماء عصره في الحديث والفقه، ولِّي قضاء الحنابلة بمصر، وبقي ستة وعشرين سنة قاضياً[٣].

* **قاضي القضاة عبدالله بن محمد الربعي المقدسي موفق الدين (٦٩٠هـ ـ ٧٦٩هـ)**: الذي تعلّم بالقاهرة ودمشق ومكّة المكرّمة، وكان يعدّ من كبار شيوخ الحنابلة في عصره، وممّن نشر المذهب بمصر[٤].

* **نصر الله بن الكناني العسقلاني ناصر الدين (٧٩٥هـ)**: الذي تعلّم في نابلس ودمشق والقاهرة، وكان نائبا للقاضي مدة عشرين سنة، ثمّ سمّي قاضي قضاة الحنابلة، وكانت أسرته أسرة قضاة، وهو ابن نصر الله المذكور قريبا وأخو أحمد بن نصر الآتي ذكره، وكلهم قضاة[٥].

---

(١) البداية والنهاية ٥٦/١٤، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٩٩.
(٢) وقد سبقت ترجمتهما منذ قليل.
(٣) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١٠٠، الدرر الكامنة ٢٢٥/١.
(٤) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١٠١، الدرر الكامنة ٢٩٧/٢، شذرات الذهب.
(٥) الضوء اللامع ١٧٩/١، الدرر ٣٩٠/٤، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١٠١.

* **أحمد بن نصر الله بن أحمد موفّق الدين (٨٠٣هـ)**: العسقلاني الأصل، قاضي الحنابلة بمصر[(١)].

* **محبّ الدين التستري أحمد بن نصر الله بن أحمد (٧٦٥هـ ـ ٨٤٤هـ)**: شيخ المذهب، ومفتي الديار المصريّة، صاحب حواشي المحرر والفروع، البغدادي الأصل، ثمّ المصري، الذي رحل إلى الشام حيث تلقى العلم بدمشق وحلب وبعلبك والقدس، ثمّ القاهرة والإسكندرية، واستقرّ آخر الأمر بالقاهرة، وعيّن على قضائها فكان من القضاة المشهورين بالعلم والعفّة[(٢)].

* **سالم بن سالم المقدسي مجد الدين (٧٤٨هـ ـ ٨٢٦هـ)**: الذي تعلّم في صغره بالقدس ثمّ استقرّ بالقاهرة سنة ٧٦٤هـ، وكان من المجتهدين في تحصيل العلم، وكان نائب القاضي، ثمّ سمّي قاضي القضاة، وكان من المجتهدين في تحصيل العلم.

كان يدرّس الفقه الحنبلي قبل توليه القضاء وبعد إعفائه إلى وفاته، وقد باشر القضاء نيابة واستقلالاً أكثر من ثلاثين سنة[(٣)].

وهكذا فإنّ أكثر الحنابلة بمصر في القرنين السابع والثامن وحتى التاسع إنما كانوا من أصل عراقي أو مقدسي أو شامي، وحتى من ولد منهم في مصر، وصار مصريّا، إنما كانوا من أبناء الوافدين من المشرق العربي لنشر المذهب[(٤)].

ونمضي في المرحلة الثانية من هذا الدور، فنلتقي:

---

(١) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١٠٠.
(٢) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١٠٠، و١٠٢ الضوء اللامع ٢/٢٣٣ ـ ٢٣٥، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١١، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١٠١.
(٣) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١٠٢، شذرات ٧/٣٠٥.
(٤) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١٠٤.

* **محمد بن أحمد المرداوي (١٠٢٦هـ)**: نزيل مصر، وشيخ الحنابلة في عصره[(١)].

* **مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي (١٠٣٣هـ)** : أحد أكابر علماء المذهب الحنبلي بمصر، ومفتي رواق الحنابلة بها، وصاحب كتاب دليل الطالب، وهو متن مختصر مشهور، وله أيضاً غاية المنتهى جمع فيه بين الإقناع والمنتهى وسلك فيه مسالك المجتهدين[(٢)].

* **منصور بن يونس صلاح الدين البهوتي (١٠٥١هـ)**: شيخ الحنابلة بمصر وخاتمة علمائهم بها، ومؤسس عائلة البهوتي الحنبلية.

كان عالماً عاملا متبحّرا في الفروع الفقهيّة، قد انتهى إليه الإفتاء والتدريس، فكان الناس يرحلون إليه من الآفاق لانفراده في عصره بالفقه الحنبلي.

وعنه أخذ أكثر المتأخرين من الأصحاب الحنابلة، لا سيّما من أسرته، فمنهم: الجمال يوسف البهوتي، والشيخ عبدالرحمٰن البهوتي، والشيخ محمد بن أبي السرور البهوتي وهم الذين نقلوا المذهب إلى من بعدهم.

من تصانيفه: شرح الإقناع للحجاوي، وحاشية على الإقناع للحجاوي، وشرح على منتهى الإرادات في فقه الحنابلة لابن النجار، وعمدة الراغب، وقد عمّ الانتفاع بمؤلفاته[(٣)].

* **محمد بن أحمد بن علي البهوتي الخلوتي (١٠٨٨هـ)**: المفتي،

---

(١) الفكر السامي ٤٤٢/٤.

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٨٥ ـ ٩٦.

(٣) الفكر السامي ٤٤٢/٤، هدية العارفين ٤٧٦/٢، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٨٣ وص ٨٥ ـ ٨٦، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٤٤.

والمدرس، كتب كثيراً من التحريرات، منها: حاشية على الإقناع، وأخرى على المنتهى(١).

* **إبراهيم بن أبي بكر بن إسماعيل الدنابي العوفي (١٠٣٠هـ - ١٠٩٤هـ)**: من أعيان الأفاضل، كان متبحّرا في الفقه والحساب وغيرهما من العلوم، شرح منتهى الإرادات وألّف رسائل كثيرة في الفرائض والحساب، وكان يرجع إليه في الأمور الدينيّة والدنيوية(٢).

* **محمد بن أبي السرور محمد سلطان البهوتي (١١٠٠هـ)**: أحد جلّة الفقهاء، ذو اليد الطولى فيه، وفي العلوم المتداولة في عصره، انتفع به خلق كثير بمصر(٣).

* **أبو الهدى صالح بن الحسن بن أحمد بن علي البهوتي (١١٢١هـ)**: صاحب الألفيّة في الفقه، وعمدة كل فارض وهي ألفية في الفرائض، وله وسيلة الراغب لعمدة الطالب، وهي منظومة لكتاب عمدة الراغب للشيخ منصور البهوتي، أوّلها:

يقول راجي عفو ربّه العليّ   أبو الهدى صالح نجل الحنبلي

وغير ذلك من الرسائل والحواشي(٤).

- ٢ - الشام:

بعد أن أنشئت في الدور السابق المدارس التي أذكت الحركة العلميّة، وازدهر بها نشاط المذاهب الفقهيّة، جعل القضاة في الشام بداية من سنة ٦٦٤هـ أربعة، لكل مذهب من المذاهب السنّية الأربعة قاض(٥).

---

(١) الفكر السامي ٤/٤٤٣ - ٤٤٤.
(٢) الفكر السامي ٤/٤٤٤.
(٣) الفكر السامي ٤/٤٤٤.
(٤) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٤٤، كشف الظنون ٥/٣٤٦.
(٥) شذرات الذهب ٥/٤٦٠.

فأمّا المذهب الحنفي فتكاثر أسماء فقهائه بالشام، وسلّم لهم أهل عصرهم في علومهم الباهرة، وبحوثهم النيّرة الظاهرة، وكان من أبرزهم:

*** أبو عبدالله شمس الدين محمد بن شرف الدين الأذرعي (٧٢٢هـ)**: وهوأحد مشائخ الحنفيّة وأئمّتهم وفضلائهم في فنون من العلم متعدّدة، ولّي قضاء دمشق نحو عشرين سنة، فكان سديد الأحكام محمود السيرة جيّد الطريقة، ودرّس مدّة طويلة بمدارس الحنفيّة، وكان أقضى القضاة، فقيهاً بصيراً بالأحكام(١).

*** شمس الدين محمد بن يوسف بن إلياس القونوي (٧١٥هـ ـ ٧٨٨هـ)** : أحد الأفراد في العبادة، كان يعمل بنفسه وأولاده في البستان الذي فيه سكنه بما يقيم به رمقه ورمق عياله على سبيل الاقتصاد لشدّة ورعه ولكثرة تحرّيه.

اشتغل بالعلم، وبرع في الفقه والأصول وغير ذلك من العلوم، حتى صارت له اختيارات يخالف فيها المذاهب الأربعة لما يظهر له من دليل الحديث، وكان يبالغ في تعظيم نفسه في العلم، ويقول: أنا أعلم من النووي، وهو أزهد منّي.

وكان الشيخ تقيّ الدين السبكي يبالغ في تعظيمه، وقد روي عن الحافظ زين الدين العراقي أنّه كان بدمشق سنة ٧٥٤هـ عند تقيّ الدين السبكي، فدخل القونوي عليه، فأسرع التقيّ لملاقاته حافيا، قال العراقي: فسألته بعد انصرافه: من الرجل؟ فقال: الشيخ شمس الدين القونوي الحنفي من الدين والعلم بمكان عظيم.

صنّف كتبا تدلّ على غزارة علمه ودقيق فهمه، منها: كتاب درر البحار في فقه الأئمّة الأربعة(٢).

---

(١) شذرات الذهب ٢١٢/٦، البداية والنهاية ١٠٣/١٤.

(٢) الفوائد البهية ٢٠٢، تاج التراجم ٢٤١، شذرات الذهب ٥٠/٧ ـ ٥١، النجوم الزاهرة ٣٠٩/١١، الدرر الكامنة ٢٩٢/٤ ـ ٢٩٥.

*** شمس الدين محمد بن محمد بن الشهاب غازي الحلبي (٧٤٩هـ - ٨١٥هـ)** : المعروف بابن الشحنة الكبير، ولد بحلب ونشأ بها، وأخذ عن شيوخ بلده والقادمين إليها، رحل إلى دمشق والقاهرة فأخذ عن أعيانهما، فنبغ وتميّز في الفقه والفرائض والأدب، وكانت له اليد الطولى في جميع العلوم، وكان يتوقّد ذكاء وفطنة، ولمّا رجع من القاهرة أقام ملازما للاشتغال والتدريس ونشر العلم، فأفتى ودرّس، وكان قد أذن له بالإفتاء والتدريس قبل أن يلتحي.

ولي قضاء حلب ودمشق والقاهرة، ثمّ قضاء الشام، فكان منفردا بالرئاسة علماً وعملا في بلده وعصره، غرّة في جبهة دهره.

انتهى أمره إلى ترك التقليد، فكان يجتهد في مذهب إمامه، ويخرّج على أصوله وقواعده ويختار أقوالا يعمل بها، وناهيك بذلك من مثله في عصره ومصره، فإنّ هذا باب قد سدّ منذ دهر.

صنّف في الفقه مختصرا في غاية القصر، احتوى على ما لم تحتو عليه المطوّلات، وجعله ضوابط ومستثنيات، واختصر منظومة النسفي في ألف بيت مع زيادة مذهب أحمد، ونظّم ألف بيت في عشرة علوم، كما صنّف في الأصول والتفسير وعلوم شتى[١].

*** شمس الدين محمد بن محمد المعروف بابن أمير الحاج الحلبي (٨٢٥هـ - ٨٧٩هـ)**: عالم الحنفيّة بحلب وصدرهم، كان إماماً عالماً.

لازم ابن الهمام في الفقه والأصلين، وغيرها من العلوم حتّى برع، وأذن له بالإفتاء والتدريس، فتصدّى للإقراء والإفتاء، فانتفع به جماعة، وأخذ عنه أكابر العلماء وافتخروا بالانتساب إليه، وما سلم من معاند.

صنّف مصنّفات شهيرة، منها: التقرير والتحبير في الفروع، حلية المحلي وبغية المهتدي في شرح منية المصلّي وغنية المبتدي، شرح المختار

(١) شذرات الذهب ٩/٨، البدر الطالع ص ٧٨٠ - ٧٨١، الضوء اللامع ٣/١٠ - ٦.

للموصلي في الفروع، منية الناسك في خلاصة المناسك[١].

*** أبو الفضل تاج الدين عبدالوهاب بن أحمد المعروف بعرب شاه (٨١٣هـ - ٩٠١هـ)**: كان في ابتداء أمره شاهداً، وقد بلغ من صناعة الشهادة غاية الدهاء، وبرع في علم الفرائض وتميّز فيها ونظّم فيها أرجوزة سمّاها روضة الرائض في علم الفرائض.

ناب في قضاء دمشق والقاهرة مدّة، ثمّ استقلّ بقضاء دمشق سنة ٨٨٤هـ، ثمّ عزل في السنة التي بعدها، فسافر إلى مصر وباشر التدريس بمدارسها إلى أن توفي.

من مصنّفاته: نظم كبير في مذهب الحنفيّة يزيد على خمس وعشرين ألف بيت، سمّاه دلائل الإنصاف نظم مسائل طريقة الخلاف، والمنح المعظمة في نظم المسائل المقدمة لأبي الليث في الفقه، وغيرها[٢].

*** قطب الدين أبو عبدالله محمد بن محمد بن عمر بن سلطان (٨٧٠هـ - ٩٥٠هـ)** : شيخ الإسلام، ومفتي بلاد الشام، كان بيده تدريس القصاعية المختصّة بالحنفيّة، وتدريس الظاهرية التي هي مسكنه، والنظر عليها، كما كان له تدريس في الجامع الأموي.

كان معظما مهيبا نافذ الكلمة يرد إليه الأمراء في الفتوى، ماسكا زمام الفقهاء، وكان يملي الجواب على الأسئلة التي ترفع إليه، ويختم عليها خوفا من التلبيس عليه.

صنّف مؤلفا في الفقه، ورسالة في تحريم الأفيون[٣].

*** برهان الدين إبراهيم بن بخشى بن إبراهيم المشهور بدادة خليفة**

---

(١) شذرات الذهب ٤٧٣/٧، الضوء اللامع ٢١٠/٩ - ٢١١، البدر الطالع ص ٧٧١، كشف الظنون ١٦٥/٦، نظم العقيان ص ١٦١.

(٢) شذرات الذهب ٣٥/٨ - ٣٦، الكواكب السائرة ٢٥٧/١، الضوء اللامع ٩٧/٥ - ٩٨، كشف الظنون ٥١٥/٥.

(٣) شذرات الذهب ٣٣٥/٨ - ٣٣٦، الكواكب السائرة ١٢/٢، الأعلام ٥٧/٧.

(٩٦٦هـ) : مفتي حلب، كان في الأصل دبّاغا، فمنّ الله عليه بطلب العلم حتى كان أوّل من درّس بمدرسة خضر باشا بحلب، ولم يزل في حلب على جدّ في المطالعة وديانة في الفتوى، حتى ولّي منصب الإفتاء بأزنيق ـ في تركيا ـ[(١)].

* **أبو عبدالله شمس الدين محمد بن عليّ الشهير بابن طولون الدمشقي (٨٨٠هـ ـ ٩٥٣هـ)**: كان ماهراً في النحو، علّامة في الفقه، مشهوراً بالحديث، واسع الباع في غالب العلوم المشهورة في وقته، حتى في التعبير والطبّ، وكانت أوقاته كلّها معمورة بالتدريس والإفادة والتأليف.

ولي تدريس الحنفيّة بمدرسة شيخ الإسلام أبي عمر، وإمامة السليمية بالصالحية، فقصده الطلبة، ورغب الناس في السماع عنه، وأخذ عنه جماعة من الأعيان وبرعوا في حياته، كالشيخ إسماعيل النابلسي مفتي الشافعية، والشهاب بن أبي الوفاء مفتي الحنابلة، والقاضي أكمل بن مفلح[(٢)].

وفي المرحلة الثانية من هذا الدور نلقى:

* **عبداللطيف بن حسن الجالقي الدمشقي المعروف بالقزديري (٩٨٦هـ ـ ١٠٤٣هـ)**: صاحب منظومة في فقه العبادات، كانت متداولة بين أيدي الطلبة، واشتهرت باليمن والبركة[(٣)].

* **عليّ بن عبدالله البصير الحاكمي (١٠٩٠هـ)**: المفتي بطرابلس الشام، صاحب منظومة في الألغاز الفقهية، تشتمل على ألف سؤال وأجوبتها، سمّاها حور العين، وله أيضاً قلائد الأبحر شرح ملتقى الأبحر في الفروع، ونظم الغرر، وغيرها[(٤)].

---

(١) شذرات الذهب ٤٠٨/٨، الكواكب السائرة ٧٩/٢.

(٢) شذرات الذهب ٣٥١/٨ ـ ٣٥٢، الكواكب السائرة ٥٢/٢، الأعلام ٢٩١/٦.

(٣) كشف الظنون ٤٩٧/٥.

(٤) كشف الظنون ٦٠٨/٥.

* **محمد بن عبدالرحمن بن تاج الدين التاجي (١١١٤هـ)**: مفتي بعلبك الشام، وصاحب كتاب الفتاوى التاجية[١].

* **حامد بن عليّ بن إبراهيم بن عبدالرحيم العمادي (١٠٠٣هـ - ١١٧١هـ)**: المفتي الدمشقي الحنفي، صاحب التصانيف الكثيرة والمفيدة، منها: شرح الإيضاح في الفروع، وصلاح العالم بإفتاء العالم، والفتاوى الحامديّة، والمطالب السنيّة للفتاوى العليّة، ومغني المستفتي عن سؤال المفتي، وغير ذلك[٢].

* **محمد بن محمد الطيب التلافلاتي (١١٩١هـ)**: المغربي، مفتي الحنفيّة بالقدس الشريف، علّامة عصره وفائق أقرانه، ونادرة زمانه، كان فقيهاً كبيراً، درس بالمغرب ثمّ بمصر، وصنّف نحو ثمانين مؤلفا في فنون شتى[٣]، وكان يعاصره:

* **محمد بن يوسف بن يعقوب بن علي الشهير بالإسبيري (١١٣٣هـ - ١١٩٤هـ)**: المفتي الحنفي بحلب، صاحب تحفة الناسك فيما هو الأهمّ من المناسك، وتلخيص فتاوى الخيرية للرملي، وكثير من المصنفات في فنون مختلفة[٤].

وكان خاتمة المحقّقين في هذا الدور، من أعلام الحنفيّة بالشام: العلامة، عمدة الفقهاء والعلماء:

* **محمد أمين عابدين بن عمر عابدين بن عبدالعزيز الشهير بابن عابدين (١١٩٨هـ - ١٢٥٢هـ)**: فقيه الديار الشاميّة وإمام الحنفيّة في عصره، الذي نبغ في علوم عديدة حتّى أصبح علامة زمانه.

كان شافعيّاً، ولزم الشيخ شاكر العقّاد السالمي العمري المعروف بابن مقدم سعد الحنفي، فقرأ عليه الكثير من العلوم، وألزمه التحوّل إلى

---

(١) الفكر السامي ٤/٢٢٢.
(٢) كشف الظنون ٥/٢١٦، فهرس الفهارس ٢/٨٢٩ - ٨٣٠.
(٣) الفكر السامي ٤/٢٢٣.
(٤) كشف الظنون ٦/٢٦٧.

المذهب الحنفي، فقرأ عليه كثيراً من كتب المذهب.

بدأ التصنيف وله من العمر سبع عشرة سنة، وتابع التصنيف والتدريس والإفادة حتى أصبح مرجع الفتوى صنّف المؤلفات الكثيرة المفيدة، منها: ردّ المحتار على الدرّ المختار شرح تنوير الأبصار، وهي عمدة المذهب الحنفي، وأعظم مؤلفاته نفعا وأكثرها شهرة، وله حاشية منحة الخالق على البحر الرائق لابن نجيم شرح كنز الدقائق للنسفي في الفقه الحنفي، شرح فيها ابن عابدين ما انتهى إليه ابن نجيم من الإجارة الفاسدة، وله العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية، أو مغني المستفتي عن سؤال المفتي في الفقه الحنفي، وحاشية على شرح التقرير والتحبير لابن أمير الحاج، وحاشية رفع الأنظار عمّا أورده الحلبي على الدرّ المختار، وفتاوى في الفقه الحنفي تبلغ ما يقارب المائة، وغير ذلك من الكتب الغزيرة[١].

وكان للمذهب الشافعيّ نشاطه المعهود بهذه الديار، وظهر من أعلامه في هذا الدور ثلّة جمعوا بين العلوم النقلية والعقلية، وأتقنوا سائر الفنون، واشتهروا بسعة الاطّلاع، وجودة الفهم، ودقّة النظر، لازموا الإفتاء والتدريس، وتميّزوا بالتصدّي لحلّ المشكلات، والاستدراك على من سبقهم.

وكان واسطة العقد الفريد، الذي سارت بذكره الركبان في بداية هذا الدور، فقيه الأمّة، وعلم الأئمّة:

* **أبو زكرياء محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١هـ - ٦٧٦هـ)**: شيخ الإسلام، وكبير الفقهاء في زمانه الذي لزم الاشتغال بدراسة العلم ليلاً ونهاراً نحو عشرين سنة، وكان يقرأ في كلّ يوم اثنا عشر درساً على المشائخ، شرحاً وتصحيحاً، حتّى فاق الأقران وتقدّم على جميع الطلبة، وحاز قصب السبق في العلم والعمل.

---

(١) هدية العارفين ٣٦٧/٢، الأعلام ٢٦٧/٦، كشف الظنون ٢٨٦/٦ - ٢٨٧، فهرس الفهارس ٨٣٩/٢ - ٨٤١.

كان متبحّرا في سعة معرفته بالحديث والفقه واللغة، وغير ذلك من أنواع العلوم.

بدأ التصنيف من حدود سنة ٦٦٠هـ إلى أن مات، ومن تصانيفه الفقهيّة: تحرير ألفاظ التنبيه، والعمدة في تصحيح التنبيه، وهما من أوائل ما صنّف، والروضة والمنهاج وشرح المهذب، وصل فيه إلى أثناء الربا، وسمّاه المجموع، وغير ذلك من المصنّفات الحسنة في أنواع العلوم(١).

وكان يعاصره ويقاسمه في مشيخة الشافعية، فقيه الشام:

*** عبدالرحمٰن بن إبراهيم تاج الدين الفزاري المعروف بالفركاح (٦٢٤هـ ـ ٦٩٠هـ)**: تفقّه على الإمامين ابن الصلاح، وابن عبدالسلام، وبرع في المذهب وهو شاب، فجمع فنونا كثيرة من العلوم النافعة، وكان فقيه النفس، قويّ المناظرة، نافذ النظر، متّصفا بالاجتهاد، قد بلغ الرتبة فيه.

جلس للتدريس وله بضع وعشرون سنة، فدرّس وناظر، وكتب على الفتاوى وله ثلاثون سنة، وكانت الفتاوى تأتيه من الأقطار حتى انتهت إليه رئاسة المذهب في جميع المراكز الفقهيّة، كما انتهت إلى ولده برهان الدين من بعده، انتفع به أهل عصره ومعظم قضاة الشام وما حولها وكان قضاة الأطراف من تلاميذه.

رزق حسن التصنيف، ومن مصنفاته: الإقليد لذوي التقليد في شرح التنبيه للشيرازي، وشرح الوجيز في الفقه، وشرح الورقات لإمام الحرمين الجويني في أصول الفقه، وغيرها من التصانيف.

كان أكبر من الإمام النووي بسبع سنين، ويقال أنّه كان أفقه منه

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣٩٥/٨ ـ ٤٠٠، فوات الوفيات ٢٦٤/٤، شذرات الذهب ٨/٦ ـ ١٠، تذكرة الحفاظ ١٤٧٠/٤ ـ ١٤٧٤، البداية والنهاية ٢٧٨/١٣ ـ ٢٧٩، معجم المؤلفين ٢٠٢/١٣ ـ ٢٠٣.

نفسا، وأقوى مناظرة، وأكثر محفوظا منه وكان بينهما وحشة رحمهما الله[١].

ثمّ انتهت رئاسة المذهب بإقليمه من بعده إلى ولده:

* **برهان الدين، إبراهيم بن عبدالرحمٰن (٦٦٠هـ - ٧٢٩هـ)**: الذي اشتغل على والده وأعاد في حلقته حتى برع في المذهب، وفاق سائر أهل زمانه من أهل مذهبه في دراية المذهب ونقله وتحريره.

تصدّى للإقراء والتدريس، وكان فقيهاً أصوليّاً مشكور الدروس، وكانت فتاويه مسدّدة، له مسائل ينفرد بها مغمورة في بحر علمه.

عرض عليه قضاء قضاة الشام فامتنع، وألحّ نائب الشام عليه بنفسه وأعوانه من الدولة فلم يقبل، وامتنع أشدّ الامتناع، وزهد في المناصب إلى أن مضى على وجه جميل.

باشر الخطابة بالجامع الأموي بعد عمّه شرف الدين، وأشغل الطلبة به فانتفع به المسلمون، وكان مقبلاً على شأنه عارفاً بزمانه مستغرقا أوقاته في الاشتغال بالعلم والعبادة ليلاً ونهاراً، وكان مع مخالفته للشيخ ابن تيميّة لا يهجره.

من مصنفاته: التعليقة على التنبيه، فيه من الفوائد ما ليس في غيره، وله تعليق على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وله مصنفات في غير ذلك[٢].

وكان من أقرانه الذين تتلمذوا على أبيه:

* **كمال الدين أبو المعالي محمد بن عليّ المعروف بابن الزملكاني**

---

(١) البداية والنهاية ٣٢٥/١٣، النجوم الزاهرة ٢٠٨/٧، شذرات الذهب ٧٨/٦ - ٧٩، الأعلام ٦٤/٤.

(٢) الدرر الكامنة ٣٤/١ - ٣٥، البداية والنهاية ١٤٦/١٤، طبقات الشافعية الكبرى ٣١٢/٩، شذرات الذهب ٢٥٠/٦.

(٦٦٧هـ ـ ٧٢٧هـ): شيخ الشافعية بالشام الذي برع وساد أقرانه حتّى انتهت إليه رئاسة المذهب تدريسا وإفتاء ومناظرة.

كان من بقايا المجتهدين، ومن أذكياء زمانه، قد عرف بحسن تقريره، وجودة احترازاته، وقوّة قريحته وكان بصيراً بالمذهب الشافعي وأصوله، وكان يعدّ أحد المتقدمين في الفتوى والتدريس والمشاورين في المجالس والمرجوع إليه في المناظرة، يضرب بذكائه المثل.

أفتى وله نيف وعشرون سنة، وولّي قضاء حلب سنة ٧٢٤هـ بغير رضاه، ودرّس بعدّة مدارس بدمشق، وتخرّج به غالب علماء العصر.

وكانت بينه وبين ابن تيميّة وحشة، وله كتاب في الرد على ابن تيميّة في مسألتي الطلاق والزيارة، وله تعاليق مفيدة واختيارات حميدة سديدة، وممّا علّقه قطعة كبيرة من شرح المنهاج للنووي[1].

وبأخرة عنهما قليلاً:

* **قاضي القضاة تقيّ الدين أبو الحسن عليّ بن عبدالكافي السبكي (٦٨٣هـ ـ ٧٥٦هـ)**: الذي تفقّه على ابن الرفعة، وبرع في الفنون، حتى أصبح أنظر أهل العلم وأجمعهم للعلوم، محققا مدقّقا نظّارا، فتفقّه به جماعة من الأئمّة وانتشر صيته، وكانت له في الفقه وغيره الاستنباطات الجليلة، والقواعد المحرّرة التي لم يسبق إليها.

ولي قضاء الشام سنة ٧٣٩هـ، فباشره بعفّة ونزاهة، وبهمّة وصرامة، واستمرّ على القضاء نحوا من سبع عشرة سنة، وأضيفت إليه الخطابة بالجامع الأموي فباشرها مدّة، وبعد أن مرض نزل عن منصب القضاء لابنه تاج الدين.

صنّف نحو مائة وخمسين كتاباً، إذ كان كلّما استشكلت عليه مسألة

---

(١) شذرات الذهب ٢٣٨/٦ ـ ٢٣٩، النجوم الزاهرة ٢٧٠/٩، طبقات الشافعية الكبرى ١٩٠/٩، الدرر الكامنة ٧٤/٤ ـ ٧٦، البداية والنهاية ١٣١/١٣ ـ ١٣٢.

صنّف فيها تصنيفا جمع فيه شتاتها، وكان في مدّة قضائه يصنّف إلى حين وفاته، ومن مصنّفاته في الفقه: التحقيق والابتهاج في شرح المنهاج وتكملة شرح المنهاج الذي هو تكملة لشرح النووي على مهذب الشيرازي، وجمع له ولده تاج الدين فتاويه ورتّبها[١]، ثمّ كان من بعده، ابنه:

*** تاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي (٧٢٧هـ ـ ٧٧١هـ)**: الذي أمعن في طلب الحديث، ولازم الاشتغال بالفقه والأصول والعربية حتى مهر، وأجيز له بالإفتاء والتدريس وهو دون العشرين.

درّس في غالب مدارس دمشق، وولّي خطابة الجامع الأموي، وانتهت إليه رئاسة القضاء والمناصب بالشام، وحصلت له محنة بسبب القضاء، وأوذي فصبر، وسجن فثبت، وعقدت له مجالس فأبان عن شجاعة، وأفحم خصومه.

رزق السعادة في تصانيفه، فانتشرت في حياته، منها: رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، والترشيح في اختيارات والده، والتوشيح على كتاب التنبيه للشيرازي في الفقه[٢]، وكان في وقته بحلب:

*** علاء الدين حجي بن موسى بن أحمد بن سعد (٧٢١هـ ـ ٧٨٢هـ)**: فقيه الشام في عصره، وحافظ المذهب وأحد من اعتنى بالفقه وتحصيله وتقريره وحفظه وتحقيقه وتحريره.

كان كثير الاطّلاع، صحيح النقل، عارفاً بالدقائق والغوامض، معروفا بحلّ المشكلات، مع فهم صحيح، وسرعة إدراك، وقدرة على المناظرة،

(١) شذرات الذهب ٣٦٨/٦ ـ ٣٦٩، طبقات الشافعية الكبرى ١٣٩/١٠، النجوم الزاهرة ٣١٨/١٠ هدية العارفين ٧٢٠/١ ـ ٧٢٢، البداية والنهاية ٢٥٢/١٤، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٩ ـ ٤٠، الدرر الكامنة ٦٣/٣ ـ ٧١، البدر الطالع ص ٤٦٩ ـ ٤٧١، لقط الفرائد ص ٢٠٨، فهرس الفهارس ١٠٣٣/٢ ـ ١٠٣٧.

(٢) البدر الطالع ص ٤١٥ ـ ٤١٦، الدرر الكامنة ٤٢٥/٢ ـ ٤٢٨، البداية والنهاية ٣١٦/١٤، شذرات الذهب٤١٩/٦ ـ ٤٢١، هديّة العارفين٦٣٩/١، النجوم الزاهرة ١٠٨/١١، لقط الفرائد ص ٢١٤، فهرس الفهارس ١٠٣٧/٢ ـ ١٠٣٨.

حتى سلّم له بعض شيوخه وأقرانه بالعلم وصرّحوا له بأنّه فقيه الشام.

كان مقبلا على نفسه لا يفتر من الاشتغال بالعلم والمطالعة، حتى انتهت إليه رئاسة المذهب، وكان يقال: فقهاء المذهب ثلاثة، هو أحدهم وخاتمتهم[١].

ومعاصره:

*** شهاب الدين أحمد بن أحمد الأذرعي (٧٠٨هـ - ٧٨٣هـ)**: نسبة إلى أذرعات ناحية بالشام، ونزيل حلب.

أقبل على الاشتغال والتصنيف والفتوى والتدريس، وجمع الكتب حتى اجتمع عنده منها ما لم يحصل لأهل عصره، واشتهرت فتاويه بحلب، وانتهت إليه رئاسة العلم بها.

صنّف المؤلفات المفيدة، منها: جمع التوسط والفتح بين الروضة والشرح، وشرح المنهاج بشرحين، الأوّل سمّاه غنية المحتاج، والثاني سمّاه قوت المحتاج، وكان فقيه النفس، سريع الكتابة، شديد الخوف من الله، يقول الحقّ، وينكر المنكر[٢].

وكان مفتي المسلمين، وأقضى القضاة، في أواخر القرن الثامن:

*** شرف الدين أبو البقاء محمود بن جمال الدين المعروف بابن الشريشي (٧٢٩هـ - ٧٩٥هـ)**: الذي لازم الاشتغال والإفتاء، واشتهر بذلك، وصار المقصود بالفتاوى من سائر الجهات لحسن كتابته وإتقانها.

---

(١) شذرات الذهب ٧/١٣ - ١٤، النجوم الزاهرة ١١/٢٠٦، الدرر الكامنة ٢/٦ - ٧.

(٢) الدرر الكامنة ١/١٢٥ - ١٢٨، البدر الطالع ص ٥٤ - ٥٥، شذرات الذهب ٧/١٨ - ١٩.

انتهت إليه وإلى رفيقه شهاب الدين الزهري رئاسة الشافعية، وكان بعض فقهاء عصره يقولون: يقبح علينا أن نفتي مع وجود شرف الدين[١].

ومن تلاميذ الشريشي:

* **الشيخ تقي الدين أبو بكر بن محمد بن عبدالمؤمن الدمشقي (٧٥٢هـ - ٨٢٩هـ)**: ويعرف بالتقي الحصني، اشتهر بالتحرّي في أقواله وأفعاله، واظب على الاشتغال بالعلم والتصنيف، وكتب بخطّه مصنفات كثيرة في الفقه كشرح التنبيه والمنهاج والنهاية وقواعد الفقه وغيرها، وقد عُدم علم كثير من الناس بوفاته[٢].

ونلقى في القرن التاسع:

* **نور الدين أبو الثناء محمود بن أحمد بن محمد المعروف بابن خطيب الدهشة (٧٥٠هـ - ٨٣٤هـ)**: قاضي القضاة، أصله من الفيوم، وكان أبوه قد رحل إلى حماة واستوطنها، فنشأ بها نور الدين وتفقّه على جماعة من علمائها، ثمّ رحل إلى مصر والشام فأخذ عن أئمّتها إلى أن برع وتقدّم في الفقه وأصوله والعربية، وغير ذلك من العلوم.

ولي قضاء حماة، فحسنت سيرته، وأظهر في ولايته من العفّة والنزاهة ما هو مشهور عنه، ثمّ عزل سنة ٨٢٦هـ، فلزم منزله متصدّيا للإقراء والإفتاء والتدريس والتصنيف، فاشتهر ذكره، وعظم قدره، وانتفع به عامة أهل حماة، وإليه انتهت رئاسة المذهب بحماة.

من مصنفاته: لباب القوت مختصر القوت للأذرعي، وتكملة شرح منهاج النووي في الفقه للسبكي، سمّاه إغاثة المحتاج إلى شرح المنهاج، وغيرها[٣].

---

(١) شذرات الذهب ٩٣/٧ - ٩٤، الدرر الكامنة ٣٣٤/٤.

(٢) شذرات الذهب ٣١٩/٧ - ٣٢٠، الضوء اللامع ٨١/١١ - ٨٤.

(٣) شذرات الذهب ٣٤٢/٧ - ٣٤٣، الضوء اللامع ١٢٩/١٠ - ١٣١.

* **أبو بكر تقيّ الدين بن شهاب الدين أحمد بن محمد بن قاضي شهبة (٧٧٩هـ ـ ٨٥١هـ)**: فقيه الشام ورئيسها ومؤرخها، كان إماما، علّامة، سمع من أكابر أهل عصره، كالسراج البلقيني، ثمّ أفتى ودرّس وجمع وصنّف، وطار اسمه بالفقه حتى كان الأعيان من تلامذته.

من أشهر مصنّفاته الفقهيّة: كفاية المحتاج في شرح منهاج الطالبين للنووي، وشرح التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، ولباب التهذيب(١).

* **أبو نصر تاج الدين عبدالوهاب بن محمد بن حسن بن أبي الوفاء العلوي الحسيني (٨٧٥هـ)**: قاضي قضاة الشافعية بحلب، وصاحب إرشاد الماهر لنفائس الجواهر في الفقه، وأوضح المسالك إلى علم المناسك، وشرح فرائض المنهاج، وغير ذلك(٢).

وفي القرن العاشر نلقى أعجوبة زمانه وواسطة عقد أقرانه:

* **بدر الدين حسن بن علي الإربلي الأصل الحصكفي الحلبي الشهير بابن السيوفي (٩٢٥هـ)**: شيخ الإسلام، الذي تصدّر ببلده للإفادة، وانتفع الناس به، وصار شيخ بلده ومفتيها ومحقّقها ومدقّقها(٣).

ونلقى في عصر الدولة العثمانية، الشيخ الأوحد الذي استأنست به الخطط الشرعية السنيّة:

* **قاضي القضاة كمال الدين أبو اللطف محمد بن يوسف بن عبدالرحمٰن الربعي الحلبي(٨٦٤ هـ ـ ٩٥٦هـ)** : الذي أرسل له السلطان الغوري توقيعا بأن يكون شيخ الشيوخ بحلب، ثمّ ولّي قضاء الشافعية بطرابلس وبحلب، فكان صدرا في قضاة العدل والإحسان، ثمّ فوّض إليه قضاء القضاة بالممالك الإسلاميّة، ونيابة الحكم بالديار المصريّة.

---

(١) كشف الظنون ١٠٧/٥، شذرات الذهب ٤٠٥/٧، نظم العقيان ص ٩٤.

(٢) كشف الظنون ٥١٤/٥.

(٣) شذرات الذهب ١٧٣/٨ ـ ١٧٤، الكواكب السائرة ١٧٨/١، الضوء اللامع ١١٨/٣ ـ ١١٩.

وولي في الدولة العثمانية التدريس بعدّة مدارس، وولاه خير بك كافل الديار المصرية قضاء الشافعية بمكّة وجدّة وسائر أعمالهما، ونظر الحرمين، فكان أوّل قاض ولّي ذلك من غير أهل مكّة في الدولة العثمانية.

وبقي على القضاء إلى أن عزل سنة ٩٣١هـ[١].

ونسير في صدر المرحلة الثانية من هذا الدور، فنلقى:

* **أحمد بن شهاب الدين عبدالكريم بن سعودي بن نجم الدين الغزي (١١٤٣هـ)**: المفتي بدمشق[٢].

* **إسماعيل بن محمد بن عبدالهادي بن عبدالغني العجلوني الدمشقي (١٠٨٧هـ - ١١٦٢هـ)**: المعروف بالجراحي، صاحب الأجوبة المحققة عن أسئلة مفرقة وغيرها من المصنفات[٣]، وكان يعاصره:

* **محمد بن عبدالرحمٰن الغزي (١١٦٧هـ)**: مفتي دمشق وعالمها، وأحد من ازدهرت بفضائله وأكنافها، كان فقيهاً محدّثا، متضلّعا، درّس في الجامع الأموي وغيره، وأفاد[٤].

* **محمد صنع الله الخالدي (١١٤٠هـ ١٢٠٥هـ)** : أحد أجلاء شيوخ المتأخرين، الذي تلقّى عن صفوة من أعلام الأزهريين، وكان بارعاً في العلوم، خصوصا الفقه والعربية، وكان من تلاميذ الشيخ علي العدوي الصعيدي المالكي، كما تلقّى عن غيره من أعلام المالكية والشافعية والحنفيّة[٥].

---

(١) شذرات الذهب ٣٦٧/٨ - ٣٦٨.
(٢) كشف الظنون ١٤١/٥.
(٣) كشف الظنون ١٨١/٥.
(٤) الفكر السامي ٤٢٢/٤.
(٥) أحمد تيمور باشا: أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٢١٤ - ٢١٧.

*** خالد الكردي أبو الضياء خالد بن حسن الشهرزوري (١٢٤٢هـ)** : الذي دخل دمشق وسكنها، وتوفي بها وصنّف حاشية على نهاية الرملي في الفقه، وغير ذلك، وممّا يدلّ على عظمته كثرة من أفرد ترجمته بالتأليف، ناهيك أنّ منهم تلميذه الشهاب الآلوسي وغيره[١]، ونختم هذا الدور بـ:

*** أحمد الحجّار الحلبي (١١٩٠هـ ـ ١٢٧٠هـ)**: الذي أخذ عن طائفة من أجلاء العلماء في عصره، وغلب عليه الاشتهار بالعلم وتدريسه.

وقلّد فتوى السادة الشافعية بحلب، ووليّ التدريس بمدارسها، وانتفع به خلق كثير، وتكوّن على يديه رجال وأبطال[٢].

وإذا انتقلنا إلى المذهب الحنبلي، وجدناه أكثر المذاهب حظا بهذا المركز، خصوصا وأنّ دمشق كانت أكثر بلاد الإسلام مدارس، وكلّ مدرسة كان بها خزانة كتب تضمّ ما يحتاج إليه أهل المدرسة، وكان في مدارس الحنابلة ما يبهر العقول، وخصوصا المدرسة العمرية الشيخيّة التي بالصالحيّة، فقد كان بها من خزائن الكتب ما لا يوجد في غيرها[٣].

وسطع في سماء الشام في مطلع هذا الدور، علمان من أعلام الحنابلة، طارت مناقبهما كلّ مطار، وانتظمت أسلاك أصالتهما في أجياد الأسطار.

فأمّا الأوّل فكان بحرا لا ساحل له، وكنزا ليس له نظير، قد سمح به الزمان وهو بمثله بخيل، وألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد، وهو:

*** أبو العباس تقيّ الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيميّة (٦٦١هـ ـ ٧٢٨هـ)**: الحراني الدمشقي، شيخ الإسلام، وإمام الأئمة، المجتهد المطلق، الذي تفقّه وتمهّر وتقدّم وصنّف ودرّس وأفتى وفاق الأقران، وصار عجباً من سرعة الحفظ والاستحضار وقوّة الإدراك والفهم، والتوسّع في المنقول

---

(١) كشف الظنون ٢٨٢/٥، فهرس الفهارس ٣٧٣/١ ـ ٣٧٤.

(٢) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٢٢٨ ـ ٢٣٣.

(٣) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٢٤.

والمعقول، وسعة العلم والاطّلاع على مذاهب السلف والخلف.

برز في كلّ فنّ على أبناء عصره، فبرع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيّال، وخاطر وقّاد، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها، وبرع في الحديث وحفظه، وفاق أهل عصره في معرفة الفقه، واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين، بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب، بل بما يقوم دليله عنده، وأتقن العربية أصولا وفروعا، وتعليلا واختلافا، ونظر في العقليات، وعلم الكلام، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية، فكان إذا تكلّم في التفسير فهو حامل رايته، وإن أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، حتى قيل إنّه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه، أو ذاكر الحديث فهو صاحب علمه، وذو روايته، حتّى قيل: كلّ حديث لا يعرفه ابن تيميّة فليس بحديث، وإن تكلّم في الملل والنحل لم ير أوسع من نحلته، ولا أرفع من درايته.

وكان قد ناظر واستدلّ وهو دون البلوغ، وأفتى ودرّس وهو دون العشرين، وكان نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين، فضلاً عن المذاهب الأربعة، ليس له فيه نظير، وخالف الأئمّة الأربعة في عدّة مسائل، صنّف فيها واحتجّ لها بالكتاب والسنّة، بحيث اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها.

وقع له مع أهل عصره قلاقل، وجرت له فتن عديدة، وامتحن بالسجن مرات كثيرة، ولو أنّه سلم ممّا عرض له من المحن التي استغرقت أكثر أيّامه، لكان له من المؤلفات والاجتهادات ما لم يكن لغيره.

قد أعطي اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب، والتقسيم والتبيين، واشتهرت مصنّفاته، وبلغت فتاويه في الفنون مجلّدات كثيرة[1].

---

(١) البدر الطالع ص٨٢ ـ ٨٩، الدرر الكامنة ١/١٤٤ ـ ١٦٠، شذرات الذهب ٦/٢٤١ ـ ٢٤٧، النجوم الزاهرة ٩/٢٧١، فوات الوفيات ١/٣٥ ـ ٤٥، البداية والنهاية ١٤/١٣٥ ـ ١٣٩، درّة الحجال ص ٣٠.

وأمّا العلم الثاني الذي اشتهر في الآفاق وتبحّر في معرفة مذاهب السلف، فقد كان أحد من قام بنشر السنّة، وجعلها بينه وبين الآراء المحدثة أعظم جُنّة، وغلب عليه حبّ شيخه ابن تيميّة، فقام على نشر علمه، وهو:

* **أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي (٦٩١هـ - ٧٥١هـ)**: المعروف **بابن قيّم الجوزية**، المجتهد المطلق، الذي أخذ عن الشيخ ابن تيميّة ولازمه من سنة ٧١٢هـ إلى تاريخ وفاته ٧٢٨هـ، وتفقّه في المذهب حتى تفنّن في علوم الإسلام، وبرع وأفتى.

كان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، والعربية، وله فيها اليد الطولى، وغير ذلك من العلوم.

امتحن وأوذي مرات، وحبس مع شيخه ابن تيميّة في المرّة الأخيرة بالقلعة منفردا عنه، بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروبا بالدرّة، ولم يفرج عنه إلاّ بعد موت شيخه.

أخذ عنه العلم خلق كثير، وكان الفضلاء من أهل عصره من أمثال ابن عبدالهادي وغيره، يعظّمونه.

كان شديد المحبّة للعلم ومطالعته، واقتناء الكتب وجمعها، والكتابة التصنيف، فصنّف مصنّفات كثيرة جدّا في أنواع العلوم، وامتاز بحسن التصرّف، والتقيّد بالأدلّة الصحيحة، ليس له على غير الدليل معوّل في الغالب، وقد يميل نادرا إلى مذهبه الذي نشأ عليه، ولكنّه لا يتجاسر على الدفع في وجوه الأدلّة بالمحامل البادرة كما يفعل أحياناً غيره من المتعصّبين لمذاهبهم، بل لا بدّ له من مستند في ذلك، وغالب أبحاثه الإنصاف والميل مع الدليل حيث مال، وإذا استوعب الكلام في بحث وطوّل ذيوله

أتى بما لم يأت به غيره، وساق ما ينشرح له صدور الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الدليل(١).

ومن أتباع الشيخ ابن تيميّة لهذا العصر نذكر:

*** أبو عبدالله شمس الدين محمد بن مفلح المقدسي (٧٦٣هـ)**: أقضى القضاة، شيخ الإسلام، وأحد الأئمة الأعلام، المجتهدين في المذهب، تفقّه وبرع ودرّس وأفتى وناظر وحدّث وأفاد.

كان آية وغاية في نقل مذهب أحمد، ولم ير في زمانه في المذاهب الأربعة من له محفوظات أكثر منه، وكان متفنّنا في علوم كثيرة، لا سيّما في الفروع، فكان أخبر الناس بمسائله واختياراته، حتى أنّ معاصره ابن القيّم كان يراجعه في ذلك، ويقول في شأنه: ما تحت قبّة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح.

جمع مصنفات عديدة، منها على كتاب المقنع، وكتاب الفروع الذي أجاد فيه وأحسن إلى الغاية، وأورد فيه من الفروع الغريبة ما بهر به العلماء، حتى اشتهر في الآفاق(٢).

*** قاضي القضاة شرف الدين أبو العباس أحمد بن الحسن بن قدامة المقدسي الدمشقي (٦٩٣هـ - ٧٧١هـ)**: **المشهور بابن قاضي الجبل**: الذي قرأ على الشيخ ابن تيميّة عدّة مصنفات في علوم شتّى، وبرع في الفقه إلى الغاية، فأذن له في الإفتاء فأفتى في شبابه، ودرّس بعدّة مدارس.

طلب في آخر عمره ليدرس في مصر، فأقبل عليه أهلها وأخذوا عنه،

(١) البدر الطالع ص ٦٥٩ - ٦٦٢، الدرر الكامنة ٤٠٠/٣ - ٤٠٣، شذرات الذهب ٣٥٢/٦ - ٣٥٤ النجوم الزاهرة ٢٩٩/١٠، البداية والنهاية ٢٣٤/١٤ - ٢٣٥.

(٢) الدرر الكامنة ٢٦١/٤ - ٢٦٢، شذرات الذهب ٣٩١/٦ - ٣٩٢، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٩، وص ٤٣٧.

وأقام بها مدّة يدرّس ويفتي، إلى أن ولّي القضاء بدمشق سنة ٧٦٧هـ، وكانت له اختيارات في المذهب معروفة[(١)].

وكان شيخ الحنابلة ورئيسهم، وقاضي قضاة دمشق في أواخر القرن الثامن:

*** أبو إسحاق برهان الدين، تقيّ الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح (٧٤٩هـ - ٨٠٣هـ)**: الذي تلقّى العلم عن والده، وجدّه قاضي القضاة جمال الدين المرداوي، وكان بيته بيت علم.

أفتى ودرّس بمدارس دمشق، فأجاد وأفاد، وناظر وصنّف، وكان إماماً فقيهاً عالماً بمذهبه، بارعا فاضلا فشاع اسمه، واشتهر ذكره، وبعد صيته، وانتهت إليه رئاسة المعرفة بمذهبه.

كان له ميعاد في الجامع الأموي بمحراب الحنابلة بكرة نهار السبت، يحضر مجلسه الفقهاء من كلّ مذهب ولم يخلف بعده في مذهبه ببلده مثله[(٢)].

وفي القرن التاسع كان شيخ الحنابلة وإمامهم، ومصحّح مذهبهم ومنقّحه على الإطلاق، ومحرّر العلوم بالاتّفاق:

*** علاء الدين أبو الحسن عليّ بن سليمان بن أحمد المرداوي (٨١٧هـ - ٨٨٥هـ)**: الذي خرج من بلده مردا صغيرا، وأقام بمدينة الخليل - عليه السلام - ثمّ دخل دمشق واشتغل بالعلم واجتمع بمشائخ أهل عصره، وجدّ في الاشتغال حتّى برع وانتهت إليه رئاسة المذهب.

وقد تقدمت ترجمته في أعلام المصريين، إذ كان من العلماء الذين

---

(١) الدرر الكامنة ١/١٢٠ - ١٢١، شذرات الذهب ٦/٤١٨ - ٨١٩، النجوم الزاهرة ١١/١٠٨، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٠.

(٢) شذرات الذهب ٧/١٤٦ - ١٤٧، الضوء اللامع ١/١٦٧ - ١٦٨.

تركوا آثارهم في فضلاء مصر والشام وكان أكثر أتباعه من هذين المركزين.

وكان يعاصره مجتهد الأمّة، وشيخ عصره:

* **أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن مفلح المقدسي (٨١٥هـ ـ ٨٨٤هـ)**: الذي برع في الفقه وأصوله حتى أصبح فردا بين رفقائه، وسلم إليه القول والفعل من أرباب المذهب كلّها، وصار مرجع الفقهاء والناس، والمعوّل عليه في الأحكام، ولّي قضاء دمشق غير مرّة فحمدت سيرته.

من مصنّفاته الفقهية: المبدع في شرح المقنع، وهو شرح حافل، حذا فيه حذو المحلّي الشافعي في شرح المنهاج للنووي، وفيه من الفوائد والنقول ما لا يوجد في غيره، وصنّف في الأصول كتاباً سمّاه: مرقاة الوصول إلى علم الأصول، وغير ذلك[١].

وأشهر من تتلمذ عليه، وعلى الشيخ علاء الدين المرداوي:

* **أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن حسن بن أحمد بن عبدالهادي (٨٤٠هـ ـ ٩٠٩هـ)**: الشهير بابن المبرد الصالحي، الذي درّس وأفتى، وكان يغلب عليه علمي الحديث والفقه، مع مشاركته في التفسير واللغة.

وضع مصنّفات كثيرة كان قد غلب عليها الجمع[٢].

واختتمت المرحلة الأولى من هذا الدور ببقيّة المجتهدين والمعوّل عليه في مذهب أحمد بالديار الشاميّة، وهو العلاّمة:

* **موسى بن أحمد بن موسى الحجاوي المقدسي ثمّ الدمشقي الصالحي (٩٦٨هـ)**: مفتي الحنابلة بدمشق، وشيخ الإسلام بها، وأحد

---

(١) شذرات الذهب ٧/٤٨٥، الضوء اللامع ١/١٥٢، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٢١.

(٢) شذرات الذهب ٨/٧٦ ـ ٧٧، الكواكب السائرة ١/٣١٦، فهرس الفهارس ٢/١١٤١، الضوء اللامع ١٠/ ٣٠٨، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٣٨.

أساطين العلماء، كان إماماً، بارعاً، أصوليًّا، فقيهاً، محدّثاً، صنّف الإقناع لطلب الانتفاع، وهو كتاب كثير الفوائد، جمّ المنافع، وله أيضاً: زاد المستقنع في اختصار المقنع، وحاشية على الفروع، وغير ذلك[١].

وظلّ نشاط الحنابلة بالشام مستمرّا قائماً خلال المرحلة الثانية من هذا الدور، فكان منهم:

* **محمد بن بدر الدين بن بلبان البلباني الدمشقي الصالحي (١٠٨٣هـ)**: الذي كان يقرأ الفقه لطلاب المذاهب الأربعة، وصنّف في الفقه متوناً ثلاثة: كافي المبتدي، ثمّ اختصره وسمّاه: أخصر المختصرات، ومختصر الإفادات الذي صدّره بكلام بديع في العبادات، وجعل الكلام فيه وسطا بين الإسهاب والإيجاز، وقد اعتنى العلماء بمختصراته شرحاً وتعليقاً[٢]، ومن معاصريه:

* **أبو الفلاح محمد عبدالحيّ بن أحمد بن محمد الدمشقي الصالحي (١٠٣٢هـ - ١٠٨٩هـ)**: المعروف بابن العماد الحنبلي، أعرف من كان في عصره بالفنون المتكاثرة، الذي درّس، وتتلمذ عليه النجباء.

من تصانيفه الفقهية: بغية أولي النهى في شرح المنتهى - أي منتهى الإرادات لتقيّ الدين التنوخي - ومعطية الأمان من حنث الإيمان[٣].

وفي القرن الثاني عشر برز نجم:

* **أبو المواهب محمد بن تقي الدين عبدالباقي بن عبدالقادر الدمشقي (١١٢٦هـ)**: مفتي الحنابلة بدمشق العالم بالروايات والحديث والفقه[٤].

---

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٤١ - ٤٤٢، شذرات الذهب ٣٨٤/٨، وذكره في وفيات سنة ٩٦٠هـ.

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٣) كشف الظنون ٤١٤/٥، الفكر السامي ٤٤٣/٤.

(٤) فهرس الفهارس ٥٠٥/١ - ٥٠٦، الفكر السامي ٤٤٤/٤.

* **عبدالقادر بن عمر التغلبي الشيباني الدمشقي (١١٣٥هـ)**: الذي كان ملازماً لدروس العلم بالجامع الأموي، وانتفع به خلق كثير، وله شرح على دليل الطالب في المذهب[١].

* **أبو العون شمس الدين محمد بن أحمد السفاريني (١١٤٤هـ ـ ١١٨٨هـ)**: نسبة إلى سفارين من قرى نابلس، الذي درّس وأفتى وأفاد، ووضع الفتاوى الكثيرة، وصنّف تصانيف شهيرة منتشرة، منها: الأجوبة النجدية عن الأسئلة النجدية، والأجوبة الوهبية عن الأسئلة الزعية، ونظم الخصائص الواقعة في الإقناع، وشرح دليل الطالب، وشرح منظومة الكبائر الواقعة في الإقناع، وغيرها من التصانيف الكثيرة[٢].

* **عبدالرحمٰن بن عبدالله بن أحمد بن محمد البعلي الدمشقي (١١٩٢هـ)**: نزيل حلب، وكان فقيهاً متفنّناً صنّف كتاباً شرح به أخصر المختصرات لابن بلبان، وهو شرح محرّر منقّح، كثير النفع للمبتدئين[٣].

أمّا المذهب المالكي فكان حظّه من بلاد الشام حظًّا ضئيلاً، ولم يعرف نشاطاً يذكر إلاّ بعد إنشاء صلاح الدين الأيوبي، المدرسة الصلاحية بدمشق، ـ كما مرّ بيانه ـ.

فكان أن برز بعض أعلامه في القرن السابع، واستمرّ تواجد المذهب المالكي بالشام طوال المرحلة الأولى من هذا الدور، التي تمتدّ إلى منتصف القرن العاشر، غير أنّ أغلب الذين قاموا على المذهب لم يكونوا من أبناء الشام، ولا من أبناء المراكز القريبة من الشام، وإنّما كانوا من الوافدين المغاربة.

ومن أبرز هؤلاء الأعلام نذكر:

* **أبو محمد بن أبي عبدالله محمد بن عمران المعروف بالشريف**

---

(١) فهرس الفهارس ٢/، الفكر السامي ٤/٤٤٤.
(٢) كشف الظنون ٦/٢٦٥ ـ ٢٦٦، الفكر السامي ٤/٤٤٥.
(٣) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٤٥.

الكركي (٦٩٨هـ): الملقب بشرف الدين شيخ المالكية بالديار المصرية والشامية في وقته، يقال إنّه أتقن ثلاثين فنّا من العلوم.

قدم من المغرب فقيهاً بمذهب مالك، وصحب الشيخ العزّ بن عبدالسلام، وتفقّه عليه في مذهب الشافعي.

اشتغل عليه شبهاب الدين القرافي، وكان يقول فيه: إنّه تفرّد بمعرفة ثلاثين علماً وحده، وشارك الناس في علومهم(١).

* **أبو عبدالله الزواوي محمد بن سليمان بن سومر المنعوت بالجمال (٧١٧هـ)**: قاضي قضاة المالكية بالشام، وكان قد قدم من المغرب سنة ٦٤٥هـ واشتغل بالديار المصرية، وعيّن على قضاء القاهرة بعد وفاة ابن شاس، ثمّ ولّي قضاء دمشق سنة ٦٨٧هـ، واستمرّ على القضاء ثلاثين سنة، فظهرت في أيّامه ما لم يكن المالكيّة يعرفونه(٢).

* **أبو زيد ـ وقيل أبو القاسم ـ عبدالرحمٰن بن محمد السجلماسي (٧٨٩هـ)**: نسبة إلى سجلماسة في جنوب المغرب، المعروف بابن الحفيد.

كان بارعاً في مذهب مالك، كثير الاستحضار، غير أنّه كان يزعم أنّ ابن الحاجب لا يعرف مذهب مالك، وكان لا يرفع بمن تأخّر من أهل العلم رأساً، إلاّ الشيخ ابن عبدالسلام، وابن دقيق العيد.

ولي قضاء المالكية بحلب فباشره إلى أن عزل سنة ٧٨٧هـ، فسكن غزّة، ثمّ بيت المقدس(٣).

* **شهاب الدين أحمد بن عمر بن عليّ بن هلال الربعي (٧٩٥هـ)**: الإسكندري، ثمّ الدمشقي، كان عالماً متفنّناً، ماهراً في الفقه والأصول، وغيرها من العلوم، مفتياً بارعاً فاضلاً.

---

(١) الديباج المذهب ص ٤١٦.
(٢) الديباج المذهب ص ٤١٣، الدرر الكامنة ٤٤٨/٣.
(٣) شذرات الذهب ٥٣/٧، النجوم الزاهرة ٣١٣/١١، الدرر الكامنة ٣٤٣/٢، نيل الابتهاج ٢٧١/١.

غير أنّه مع فضله وعلمه كان خامل الذكر، كثير العزلة عن أهل المناصب، بل عن الناس ما عدا خواص طلبته.

ذكر طريق اتّصاله في الفقه إلى الإمام مالك بن أنس، عن قاضي القضاة فخر الدين بن مخلطة، عن جماعة منهم ابن فراج الإسكندري، عن جماعة منهم ابن عطاء الإسكندري، عن جماعة منهم أبو بكر الطرطوشي، عن جماعة منهم الإمام الباجي، عن جماعة منهم أبو طالب مكّي، عن جماعة منهم ابن أبي زيد القيرواني، عن جماعة منهم ابن اللبّاد، عن جماعة منهم يحيى بن عمر، عن جماعة منهم الإمام سحنون وتفقّه سحنون على ابن القاسم وأشهب، عن الإمام مالك، وروى مالك عن جماعة منهم نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ.

صنّف ابن هلال الربعي مصنفات عديدة، واعتنى بمختصرات ابن الحاجب، فشرح مختصره الفقهي شرحاً مطوّلا لم يكمله لطوله، ثمّ شرحه في ثمانية أسفار كبار، وشرح المختصر الأصلي شرحان، وله شرح على كافية ابن الحاجب لم يكمله، ورفع الإشكال عمّا في المختصر من الأشكال، وضعه على المختصر الأصلي[١].

* **برهان الدين إبراهيم بن عبدالله بن عمر الصنهاجي (٧١٧هـ - ٧٩٦هـ)**: الذي تفقّه بدمشق على القاضي بدر الدين الغماري المالكي، ولازمه، وتخرّج به، وتزوّج ابنته من بعده.

كان عالماً بالفقه والأصلين والعربية، سمّي لقضاء المالكيّة بدمشق غير مرّة، فكان في كلّ مرّة يمتنع، ثمّ وليها بعد ذلك[٢].

* **إسماعيل بن عبدالله المغربي (٨٠٣هـ)**: نزيل دمشق، كان بارعا في مذهبه، ناب في الحكم، وأفتى وتفقّه به الشاميون[٣].

---

(١) الديباج المذهب ص ١٣٩، الدرر الكامنة ٢٣٢/١، شذرات الذهب ٨٩/٧.

(٢) شذرات الذهب ٩٦/٧ - ٩٧، الدرر الكامنة ٣٠/١.

(٣) شذرات الذهب ١٥١/٧، الضوء اللامع ٣٠١/٢.

* **سالم بن إبراهيم الصنهاجي المغربي (٨٧٣هـ)**: قاضي القضاة بالشام والأندلس، ولد بالمغرب، وبه قرأ العلم، أسّره الكفار، ثمّ أنجاه الله، ولِّي قضاء الشام وسار بسيرة حسنة، وتوفي عن نحو مائة سنة[١].

* **عبد النبي المغربي (٩٢٣هـ)**: مفتي السادة المالكية بدمشق، والمدرس بالجامع الأموي، كانت له اليد الطولى في الفقه، وغيره من العلوم[٢].

* **عبدالرحمٰن بن موسى المغربي التادلي (٩٣٣هـ)**: نزيل دمشق[٣].

* **عبدالواحد المغربي (٩٤٤هـ)**: نزيل دمشق، الذي برع في فقه المالكية، وتخرّج فيه على أبي الفتح المالكي، ودرّس بالجامع الأموي حسبة[٤].

* **القاضي أبو الفتح محمد بن محمد بن عبدالسلام بن أحمد الربعي التونسي (٩٠١هـ ـ ٩٧٥هـ)**: نزيل دمشق الذي دخل دمشق وهو شاب، وأقام بإقليم الخروب بدمشق.

وكان فقيهاً أصوليًّا، علامة في النحو والصرف والبيان والبديع، وأكثر العلوم النقلية والعقلية، يفتي الناس على مذهبه، وحمل الناس عنه العلم وانتفعوا به، وكانت وفاته بغزّة[٥].

ثمّ تضاءل بعد ذلك وجود المذهب المالكي بالشام، فقلّما نسمع عن عالم ينتسب إلى المالكية بهذه الديار.

---

(١) الفكر السامي ٣٠٦/٤.
(٢) شذرات الذهب ١٦٦/٨، الكواكب السائرة ٢٥٦/١، اليواقيت الثمينة ص ١٧٧.
(٣) شذرات الذهب ٢٣٧/٨، الكواكب السائرة ٢٣٣/١.
(٤) شذرات الذهب ٣٠٦/٨، الكواكب السائرة ١٨٥/٢.
(٥) شذرات الذهب ٤٤٦/٨، الكواكب السائرة ٢١/٣.

ـ ٣ ـ العراق:

كان الصراع المذهبي بين أهل السنة من ناحية وبين الشيعة الروافض من ناحية أخرى قائما على أشدّه بالمركز العراقي، ومن يتتبّع تاريخ بغداد في هذه الحقبة الزمنيّة يلاحظ الفتن المتكرّرة بين الفينة والأخرى، والتي كانت في كلّ مرّة تتسبّب في إزهاق الأرواح، وربّما خروج الأمر عن سيطرة أولي الأمر.

ويعتبر نهاية الدور السابق، وبداية هذا الدور منعرجا حاسما وخطّا فاصلا بالنسبة للمركز العراقي، الذي شهد انتكاسة المذاهب السنيّة وريادة المذاهب الشيعية، حتى أصحبنا نلقى من أعلام السنّة من ينتحل قول الرافضة، مثل نجم الدين سليمان بن عبدالقويّ الصرصري ثمّ البغدادي (٦٥٧هـ ـ ٧١٦هـ) الحنبلي، الذي حفظ في أوّل نشأته مختصر الخرقي ببلده، ودخل بغداد سنة ٦٩١هـ فحفظ المحرر في الفقه، وجالس فضلاء بغداد في أنواع العلوم، وقصد دمشق سنة ٧٠٤هـ ولقي الشيخ ابن تيميّة، ثمّ اشتهر بعد ذلك بالرفض، ووجد له قصائد في ذلك، وكان يشير إلى اعتقاده في مذهب الرافضة في كثير من مصنفاته[1].

ولعلّ من العوامل التي ساعدت على بروز هذه المعادلة الجديدة، هو ما كان للشيعة من نفوذ في عهد المعتصم (٦٤٠هـ ـ ٦٥٦هـ) ـ آخر خلفاء بني العباس ـ الذي جعل على رأس وزارته أحد المعتقدين في مذهب الرفض، وهو مؤيد الدين محمد بن العلقمي الشيعي، هذا الوزير الذي يتّهم بأنّه ممّن تآمر مع التتار على الإطاحة بالخلافة العباسية والقضاء عليها سعيا منه لإقامة خلافة فاطميّة.

ولا شكّ أنّ الذي أصيبت به بغداد في مستهلّ هذا الدور من نكسة الغزو التتاري وما رافقه من إتلاف للثروة العلميّة وعبث بالكتب والمؤلفات، وتخريب المساجد، وتدمير المدارس، وإبادة العلماء والمفتين، وذبح الأئمة والخطباء، وحملة القرآن، وما قام به الوزير

(١) شذرات الذهب ١٨٦/٦، الدرر الكامنة ١٥٤/٢ ـ ١٥٧.

الرافضي من تعطيل المساجد والجماعات والجمعات والمدارس عن القيام بوظيفتها ـ وفي نيّته بناء مدرسة هائلة للرافضة ينشرون بها علمهم فقصف الله عمره قبل إنجاز مشروعه ـ.

كلّ تلك الأحداث والوقائع الهدميّة مجتمعة، قد أردت بهذا المركز العلمي إلى قرية مدمّرة خاوية على عروشها، قد اجتمع على من بقي بها من الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، وسحب الزمان على بغداد ذيل البلى، بعدما كانت عاصمة العلوم، وآنس المدن كلّها(١).

وقد طال شوط قلمي في مفتتح هذا المركز الفقهي، لأبيّن ما طرأ عليه من تحوّل مفاجىء أدّى إلى انحسار المذاهب الفقهيّة السنيّة، وما آل إليه أمرها مع الروافض الشيعيّة.

فأمّا المذهب الحنفي فكان نشاطه في غاية القلّة ونهايته، وكان بقيّة فقهائهم في القرن الثامن:

*** جلال الدين عبدالله بن أحمد بن عليّ الفقيه الحنفي النحوي العراقي الكوفي (٧٤٥هـ): المعروف بابن الفصيح(٢).**

وحين أقام سلاطين بني عثمان دولتهم، أسّسوا في كبرى مدنهم للعلم أساساً راسخاً، واتّخذوا من المذهب الحنفي مذهباً رسميًّا للدولة، واستجلبوا العلماء الكبار من أقصى المراكز والديار، وأظهروا لهم العطف والإحسان، فتدفّق علماء الحنفيّة على البلاد التركيّة، وصارت بهم مدنها معدن الفخار والعلياء، بما اجتمع فيها من الأعلام العلماء، وكان ذلك من جملة الأسباب في انقراض الأحناف من مركز بغداد.

ثمّ كان في أواخر هذا الدور، ثلّة من أعلام الحنفيّة، أحيوا ذكر

---

(١) البداية والنهاية ٢٠٠ ـ ٢٠٣.

(٢) شذرات الذهب ٦/٣٢٢، وفيات الأعيان ١/٤٨٠.

مذهبهم بعد اندراسه، وأوقدوا مصباح علمه بعد انطفاء نبراسه، من أشهرهم:

* **نائب بكتاش بن عمر البغدادي المعروف باسم بارودجي زادة (١١٠٧هـ - ١١٨٧هـ)**: وكان عالماً فاضلا، فقيهاً فرضيّا، وكان يلقّب بملتقى الأبحر لسعة علمه وغزارة اطّلاعه، اشتهر بالذكاء والتقوى والورع[(١)].

* **عبدالعزيز بن محمد الرحبي البغدادي (١٢٠٠هـ)**[(٢)].

* **المنلا مختار بن فتحي البغدادي (١١٦٠هـ ١٢٢٦هـ)**: خطيب جامع شهرابان - بلدة بشرقي بغداد - كان عالماً جليلا، وفقيهاً فاضلا، مولعا بالعلوم الرياضيّة، أمضى حياته في الفقه والدرس والتحصيل[(٣)].

* **نامي الأربيلي (١١٧١هـ - ١٢٤١هـ)**: نسبة إلى أربيل - شمال العراق - كان من العلماء المشهورين، وقد بلغ من العلم والفقه ما أهّله لتولّي قضاءها، ثمّ عيّن قاضياً في البصرة، واستقال من منصبه بعد سنة، وعاد إلى بغداد[(٤)].

* **علي السويدي البغدادي العباسي (١١٨٤هـ - ١٢٤٥هـ)**: من أكابر علماء العراق، ومن أشرف بيوت بغداد علماً وأدباً وفقهاً وتشريعاً[(٥)].

* **شهاب الدين محمود بن عبدالله بن محمود بن درويش أبو الثناء الآلوسي (١٢١٧هـ - ١٢٧٠هـ)**: البغدادي، مفتي الحنفية بها، وهو ممّن

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٣٢٠.

(٢) كشف الظنون ٤٧٢/٥.

(٣) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٣٢١.

(٤) المرجع السابق ص ٣٢٣.

(٥) نفس المرجع ص ٣٢٧.

خدم العلم خدمة تذكر، سافر إلى تركيا ولقي بها شيخ الإسلام بالدولة العثمانيّة، عارف حكمت بك، وجرت بينهما مباحثات، له مصنّفات كثيرة، منها: الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية، ورسالة صنّفها في بيان حاله ومذهبه وكيفيّة اشتغاله وإجازاته في العلوم العقليّة والنقليّة، وتراجم من أخذ عنهم العلم[(١)].

* **أمين الواعظ بن محمد أفندي الشهير بواعظ القادرية (١٢٢٣هـ ـ ١٢٧٤هـ)**: وكان عالماً تحريرا من بيت علم وفضل ببغداد وكان لاشتهاره بالتبحّر في علوم الشريعة وفقه الحنفيّة يدعى أبو يوسف الثاني[(٢)].

* **أحمد السويدي (١٢١٨هـ ـ ١٢٧٨هـ)**: وكان عالماً فاضلا، اشتهر بكثرة التحصيل وسعة الاطّلاع في علوم الفقه والتشريع، ولّي القضاء بالعراق مرارا[(٣)].

وأمّا المذهب الشافعي فكان أفضل من المذهب الحنفي حظّا، وأطول بقاءا، وأعظم ثباتا، إذ بقي من أنصاره بالعراق جمع من أهل الإسلام، ومجموعة وافرة من الأعلام، شمّروا عن ساعد الجدّ والاجتهاد، ولم تعدم بغداد عن قائم منهم بحفظ المذهب، يناظر في المسائل، ويعارض في الدلائل.

وكان من أشهرهم:

* **أبو إسحاق عزّ الدين إبراهيم بن أحمد بن عبدالمحسن الحسيني العراقي (٦٣٨هـ ـ ٧٢٨هـ)**: من ولد موسى الكاظم، سمع من والده ومن حليمة حفيدة جمال الإسلام سنة ٦٥٢هـ، وكان يحفظ الوجيز للغزالي، وتفرّد في عصره مع التقوى والعلم والورع[(٤)].

---

(١) كشف الظنون ٦/٣٢٥، فهرس الفهارس ١/١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٣٣١.

(٣) نفس المرجع ص ٣٢٩.

(٤) شذرات الذهب ٦/٢٤١، الدرر الكامنة ١/١٠.

*** أبو عبدالله الحسن بن سالار بن محمود الغزنوي ثمّ البغدادي (٧٨٠هـ)** : وكان فقيهاً شافعيا مشهورا، رحل إلى بعض بلاد الإسلام، فتفقّه ومهر، ثمّ رجع إلى بغداد، فأفتى ودرّس بها تلخيص المفتاح عن مصنّفه الجلال القزويني، واشتهر(١).

*** شمس الدين محمد بن يوسف بن عليّ الكرماني ثمّ البغدادي (٧١٧هـ - ٧٨٦هـ)**: تلقّى العلم عن جماعة ببلده، ثمّ ارتحل إلى شيراز، ولازم القاضي عضد الدين اثنتي عشرة سنة، حتى قرأ عليه تصانيفه، ثمّ استوطن بغداد وتصدّى لنشر العلم بها ثلاثين سنة، واشتهر في جميع الأقطار.

له شرح على مختصر ابن الحاجب سمّاه السبعة السيارة، لكونه جمع فيه سبعة شروح، والتزم استيفاءها، وذكر أنّه أردفها بسبعة أخرى من دون استيعاب، فجاء شرحاً حافلا مع ما فيه من التكرار الذي أوقعه فيه مراعاة نقل الألفاظ من تلك الشروح(٢).

*** غياث الدين أبو المكارم محمد بن صدر الدين الواسطي، ثمّ البغدادي (٧٣٣هـ - ٧٩٧هـ)**: المعروف بابن العاقولي، صدر العراق، ومدرّس بغداد وعالمها.

انتهت إليه رئاسة بغداد في مشيخة العلم والتدريس، وصار المشار إليه والمعوّل عليه، وكان متبحّرا في العلوم، غاية في الذكاء.

ولمّا زحف تيمورلنك إلى بغداد سنة ٧٩٥هـ، هرب منها ابن العاقولي مع السلطان أحمد بن أويس، وحين رجع السلطان إلى بغداد رجع معه(٣).

---

(١) شذرات الذهب ٤/٧ الدرر الكامنة ٥٥/٢.

(٢) البدر الطالع ص ٨١٠، الدرر الكامنة ٣١٠/٤ - ٣١١، شذرات الذهب ٣٨/٧، النجوم الزاهرة ٣٠٣/١١.

(٣) شذرات الذهب ١٠٤/٧ - ١٠٥، الدرر الكامنة ١٩٤/٤، وانظر: البدر الطالع ص ١٨٩.

*** وليّ الدين أبو زرعة أحمد بن عبدالرحيم العراقي (٧٦٢هـ - ٨٢٦هـ)**: شيخ الإسلام الشافعي، تتلمذ على جمال الدين الأسنوي، وطاف على شيوخ عصره، واشتغل في الحديث والفقه والعربية، وغيرها من العلوم ثمّ أقبل على التصنيف، فصنّف أشياء لطيفة في فنون الحديث، وصنّف في الفقه كتاب النكت على المختصرات الثلاثة، جمع فيه بين التوشيح للقاضي تاج الدين السبكي، وبين تصحيح الحاوي لابن الملقن، وزاد عليهما فوائد من حاشية الروضة للبلقيني، ومن المهمّات للأسنوي، فتلقى طلبة العلم كتابه بالقبول ونسخوه وقرأوه عليه، كما اختصر أيضاً كتاب المهمات وأضاف إليه حواشي البلقيني على الروضة[1].

وفي صدر المرحلة الثانية من هذا الدور، نلقى:

*** أبو البركات عبدالله بن الحسين بن مرعي بن ناصر الدين السويدي (١١٠٤هـ - ١١٧٤هـ)**: الفقيه البغدادي الشافعي، من مصنّفاته: الجمانات في حاشية المغني وشرحه، وإتحاف الحبيب على شرح مغني اللبيب[2].

*** المنلا عبدالرحمٰن بن أبي بكر البغدادي (١١٧٨هـ - ١٢٤٢هـ)**: وكان عالماً فاضلا، اشتهر بالتبحّر في الفقه الشافعي، وكان يعقد مجلسا للتدريس بمسجد الشواف في الكرخ - بضاحية بغداد -[3].

*** خالد بن أحمد بن حسين النقشبندي (١١٩٠هـ - ١٢٤٢هـ)**: أصله من بلاد شهرزور - بكردستان - هاجر إلى بغداد في صباه، وتلقّى العلم عن أعلامها، وصنّف تآليف عديدة، وكان شافعي المذهب، بارعا في العلوم العقلية والنقلية.

علا صيته، واشتهر علمه، ورحل إلى السليمانية - شمال شرقي العراق بكردستان الجنوبية - لبثّ العلوم ثمّ عاد إلى بغداد وأقام بها مدّة

---

(١) شذرات الذهب ٣٠٤/٧ - ٣٠٥.

(٢) كشف الظنون ٣٩٤/٥ - ٣٩٥.

(٣) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٣٢٥.

طويلة، ثمّ خرج إلى الشام، فتوفي بدمشق(١).

* **عبدالغفور البغدادي (١١٦١هـ ـ ١٢٥١هـ)**: وكان عالماً فاضلا، مشهورا بالتقوى والزهد والورع، من علماء الشافعية الأجلاء(٢).

وأمّا المذهب المالكي الذي كان قد انقطع أتباعه منذ القرن الخامس، فقد عرف في بداية هذا الدور ـ بعد غياب ما يقارب القرنين من الزمن ـ عودة من خلال بروز البعض من أعلامه، منهم:

* **قاضي القضاة عزّ الدين الحسين بن أبي القاسم البغدادي (٧١٢هـ)**: المعروف بالقاضي النيلي، كان مدرس المالكية بالمدرسة المستنصرية بعد سراج الدين عمر الشارمساحي، وكان إماماً في الفقه، صدرا في علومه، وصنّف كتاب الهداية في الفقه، واختصر تفريع ابن الجلاب اختصارا حسنا، وله تأليف في مسائل الخلاف، وغير ذلك(٣)، ومن تلاميذه:

* **شهاب الدين عبدالرحمٰن بن محمد بن عسكر البغدادي (٦٤٤هـ ـ ٧٣٢هـ)**: مدرّس المدرسة المستنصريّة، كان فقيهاً عالماً، له تصانيف حسنة مفيدة، منها: كتاب المعتمد في الفقه، وهو كتاب غزير الفائدة والعلم، ذكر فيه مشهور الأقوال، وله في الفقه أيضاً العمدة والإرشاد الذي أبدع فيه كلّ الإبداع، وجعله مختصراً، وضمّنه مسائل وفروع لم تحوها المطولات، مع إيجاز بليغ(٤).

وعنه أخذ ابناه القاضي أحمد، والقاضي محمد، فأمّا القاضي محمد، فهو:

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٣٢٨.
(٢) المرجع السابق ص ٣٢٢.
(٣) الديباج المذهب ص ١٧٥، شجرة النور الزكية ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٤) الديباج المذهب ص ٢٤٨، شجرة النور الزكية ص ٢٠٤، شذرات الذهب ٢٦٨/٦، الدرر الكامنة ٣٤٤/٢، لقط الفرائد ص ١٨٦.

*** شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمٰن بن عسكر (٧٠١هـ ـ ٧٦٧هـ)**: القائم بلواء مذهب مالك بالعراق، كان إماماً متفنّناً، جامعاً بين المنقول والمعقول، فاضلاً في الفقه، متقنا للأصول، والجدل والمنطق والعربية، إماماً في علومه لا يجارى، محطّ رحلة الطلاّب، ولِّي قضاء بغداد، وولِّي الحسبة بها، وكان مدرّس المدرسة المستنصرية.

شرح مختصر ابن الحاجب الأصلي والفرعي، وله شرح على إرشاد والده، وغير ذلك(١).

وأمّا القاضي أحمد، فهو:

*** شرف الدين أحمد بن عبدالرحمٰن بن عسكر(٦٩٧هـ ـ ٧٦٩هـ)** : إمام العلماء، وعالم الفقهاء الفضلاء، الذي تولى قضاء القضاة للمالكية بدمشق، ثمّ رحل إلى مصر، وعرضت عليه مدارس ومناصب كثيرة، فلم يقبل شيئاً من ذلك، ولزم بيته للإسماع والإفادة(٢).

وقد مثّل هؤلاء المالكية في هذا المركز نهاية العنقود، إذ كانوا آخر من حمل لواءه الذي لن يعود.

وأمّا المذهب الحنبلي فقد كان أكثر المذاهب السنية انتشارا في هذا الدور، أقام السنة وقمع البدعة بالعراق، ونافس المذهب الشيعي بما يشفي ويكفي، فكان من أعلامه الرجال في كلّ سبيل من لا نظير لهم في عصرهم، وكانوا الملجأ إذا نزلت المعضلات، والملاذ في شدائد الأوقات، وكان أشهرهم على الإطلاق:

*** تقيّ الدين أبو بكر عبدالله بن محمد الزريراتي ثمّ البغدادي (٦٦٨هـ ـ ٧٢٩هـ)** : فقيه الحنابلة بالعراق، ومفتي الآفاق، أتمّ حفظ القرآن في سنّ السابعة من عمره، ثمّ تفقّه ببغداد على جماعة من أعلامه، حتى برع

---

(١) الديباج المذهب ص ٤١٦ ـ ٤١٧، شجرة النور الزكية ص ٢٢٢، الفكر السامي ٢٩٣/٤.

(٢) الديباج المذهب ص ٤١٧، شجرة النور ص ٢٢٢، الدرر الكامنة ١٦٨/١ ـ ١٦٩.

في الفقه وأصوله، وفي معرفة المذهب والخلاف والفرائض ومتعلقاتها.

كان يحفظ الهداية ومختصر الخرقي، وذكر أنّه قرأ كتاب المغني للشيخ موفق الدين، ثلاثاً وعشرين مرّة، وكان يستحضر أكثره، وعلّق عليه حواشي وفوائد.

انتهت إليه رئاسة العلم ببغداد، ومعرفة الفقه بالعراق من غير مدافع، وأقرّ له الموافق والمخالف، وكان الفقهاء من سائر الطوائف يجتمعون به، ويستفيدون منه في مذاهبهم، ويرجعون إلى قوله، ويردّهم أحياناً عن فتاويهم فيذعنون له ويسلّمون بما يقرّره، حتّى ابن المطهر شيخ الشيعة، كان الشيخ تقي الدين الزريراتي يبيّن له خطأه في نقله لمذهب الشيعة فيذعن له.

وحين توفي قال الشيخ شهاب الدين عبدالرحمٰن بن عسكر شيخ المالكيّة: لم يبق ببغداد من يراجِع في علوم الدين مثله، قرأ عليه جماعة من الفقهاء، وأجاز لجماعة، وولِّي القضاء[١].

وتخرّج بالشيخ الزريراتي أئمّة، ساروا على نهجه، وحملوا اللواء من بعده، نذكر منهم:

*** سراج الدين أبو عبدالله الحسين بن يوسف البغدادي (٦٦٤هـ - ٧٣٢هـ)**: حفظ القرآن في فترة وجيزة، فيقال إنّه حفظ سورة البقرة في مجلسين، والحواميم في سبعة أيّام، ثمّ حفظ كتباً في العلوم، منها: المقنع في الفقه، وتفقّه على الزريراتي.

صنّف كتاب الوجيز في الفقه وعرضه على شيخه، وله غير ذلك من المصنفات[٢].

*** شمس الدين أبو عبدالله محمد بن البرزالي البغدادي (٧٣٥هـ)**:

---

(١) شذرات الذهب ٢٥١/٦ - ٢٥٢.

(٢) شذرات الذهب ٢٦٥/٦.

أحد فضلاء أهل بغداد، قرأ الفقه على الزريراتي، حتى أصبح إماماً متقنا، بارعا في الفقه والأصلين والعربية والتفسير، وفي علوم أخرى كثيرة، وكان يدرّس بالمستنصرية بعد شيخه(١).

ومن معاصريه وأقرانه:

* **نصير الدين أحمد بن عبدالسلام بن عكبر العمري البغدادي (٦٤٠هـ - ٧٣٥هـ)** : الذي تفقّه وأجاز له عدد كثير من أهل عصره، وأعاد بالمدرسة البشيرية للحنابلة(٢).

* **أبو الفضائل صفيّ الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادي (٦٥٨هـ - ٧٣٩هـ)**: عالم بغداد، وشيخ العراق على الإطلاق، الإمام الفرضي المتقن، أجاز له أعلام أهل عصره من الشام ومصر والعراق وغيرها من بلاد الإسلام.

تفقّه على أبي طالب عبدالرحمٰن بن عمر البصري ولازمه حتى برع وأفتى، ومهر في علم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة.

اشتغل في أوّل أمره بعد التفقّه بالكتابة والأعمال الدنيويّة مدّة، ثمّ ترك ذلك وأقبل على العلم فلازمه مطالعة وكتابة وتدريسا وتصنيفا وإفتاء إلى حين وفاته، فتخرج به الفضلاء من أهل عصره.

صنّف في علوم كثيرة، ومن مصنفاته الفقهية: شرح المحرّر، وشرح العمدة، وإدراك الغاية في اختصار الهداية، وشرحه(٣).

* **ركن الدين شافع بن عمر بن إسماعيل الجيلي (٧٤١هـ)**: نزيل

---

(١) شذرات الذهب ٦/٢٨٠.

(٢) شذرات الذهب ٦/٢٧٨، الدرر الكامنة ١/١٧١.

(٣) شذرات الذهب ٦/٢٩٥، الدرر الكامنة ٢/٤١٨ - ٤١٩، البدر الطالع ص ٤٠٩ - ٤١٠.

بغداد، تفقّه على الشيخ تقيّ الدين الزريراتي ، وصاهره على ابنته، وأعاد عنده بالمستنصرية.

كان عالماً فاضلا، عارفاً بالفقه والأصول والطبّ[١].

* **شرف الدين أبو محمد عبدالرحيم بن الشيخ تقيّ الدين أبي بكر الزريراتي (٧٤١هـ)** : اشتغل بطلب العلم ببغداد، ثمّ رحل إلى دمشق، فسمع من زينب بنت الكمال وجماعة من أصحاب أهل الشام، ثمّ رحل إلى مصر ولقي بها أعلام العصر، ثمّ رجع إلى بغداد بفضائل جمّة، ودرّس للحنابلة بالبشيرية بعد وفاة صفيّ الدين بن عبدالحقّ، ثمّ درّس بالمجاهدية بعد وفاة صهره شافع.

ناب في القضاء ببغداد واشتهرت فضائله، وصنّف مختصرات في فنون عديدة[٢].

وممّن سعى من الحنابلة إلى إقامة السنة وقمع البدعة ببغداد وإزالة المنكرات، حتى قتل شهيدا:

* **القاضي جمال الدين أبو حفص عمر بن إدريس الأنباري ثمّ البغدادي (٧٦٥هـ)**: الذي تفقّه حتى مهر في المذهب الحنبلي ونصره، حتى لم يكن ببغداد من يدانيه في ذلك، فتعصّب عليه جماعة من الرافضة فعاقبوه مدّة، فصبر إلى أن توفي شهيدا.

كان إماماً في الترسل والنظم، له نظم في مسائل الفرائض[٣].

وفي نهاية المرحلة الأولى من هذا الدور، نلقى:

* **جلال الدين أبو الفتح نصر الله بن أحمد التستري الأصل، ثمّ**

---

(١) شذرات الذهب ٣٠٧/٦، الدرر الكامنة ١٨٦/٢.

(٢) شذرات الذهب ٣٠٧/٦ ـ ٣٠٨.

(٣) شذرات الذهب ٣٩٩/٦، الدرر الكامنة ١٥٤/٣.

البغدادي (٧٣٠هـ - ٨١٢هـ): اشتغل بالفقه حتّى مهر فيه، وباشر عدّة مدارس ببغداد، وانتفع الطلبة بعلمه، ثمّ خرج منها في سنة ٧٨٩هـ حين شاع بين الناس أنّ تيمورلنك قد نوى الدخول إليها.

صنّف في الفقه وأصوله، ونظّم الوجيز في الفقه في ستّة آلاف بيت ونظّم أرجوزة في الفرائض مائة بيت، واختصر كتاب ابن الحاجب، وله غير ذلك[١].

* **برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن التاج عبدالوهاب البغدادي (٧٩٣هـ - ٨٦٨هـ)**: الذي قرأ على علماء عصره ببغداد، وجدّ واجتهد، حتّى صار إماماً عالماً، يشار إليه بالبنان[٢].

ثمّ غلب بعد ذلك المذهب الشيعي على سائر بلاد العراق إلى نهاية هذا الدور الفقهي، إذ هي مدرسة الشيعة الكبرى وجامعة فقهائهم، وفيها أولى العتبات المقدّسة عندهم.

وكان من أبرز أعلامهم:

* **الحسين - وقيل الحسن - بن يوسف بن المطهر جمال الدين الشيعي الإمامي (٧٢٥هـ)**: وكان رأس الشيعة بالحلّة - جنوبي بغداد -، اشتهرت تصانيفه، وتخرّج به جماعة في عدّة علوم، صنّف في فقه الإماميّة، وكان قيّما بذلك، داعية إليه، شرح مختصر المنتهى، وشرحه على مختصر ابن الحاجب في غاية الحسن في حلّ ألفاظه وتقريب معانيه، وله كتاب في الإمامة ردّ عليه فيه ابن تيميّة بكتابه المشهور المسمّى بالردّ على الرافضي، وإيّاه عني تقيّ الدين السبكي بقوله:

وابن المطهر لم تطهر خلائقه ... داع إلى الرفض غال في تعصّبه
ولابن تيمية ردّ عليه له ... أجاد في الردّ واستيفاء أضرّ به

(١) شذرات الذهب ٢٢٦/٧، الضوء اللامع ١٩٨/١٠.

(٢) شذرات الذهب ٤٤٦/٧، الضوء اللامع ٧٣/١.

ولمّا وصل إليه كتاب ابن تيميّة في الردّ عليه، كتب أبياتا أوّلها:

لو كنت تعلم كلّ ما علم الورى طرا لصرت صديق كلّ العالم

ولمّا حجّ ابن المطهر اجتمع هو وابن تيمية، وتذاكرا، فأعجب ابن تيمية كلامه، وقال له: من تكون يا هذا؟ فقال الذي تسمّيه ابن المنجس، فحصل بينهما أنس ومباسطة[١].

* **نجم الدين خضر بن شمس الدين أحمد بن علي الرازي الحبلرودي ثمّ النجفي (٨٥٠هـ)** : أخذ عن شمس الدين محمد بن السيد الشريف الجرجاني، من مصنفاته: التحقيق المبين شرح نهج المسترشدين، وغير ذلك من المصنفات[٢].

* **عبدالله بن شهاب الدين حسين اليزدي الشهابادي (١٠١٥هـ)**: نزيل بغداد، صاحب تحفة الشاهجانية في شرح تهذيب التفتازانية، وحاشية على حاشية الخطائي، وحاشية على مختصر التفتازاني، وشرح القواعد في فقه الشيعة، وحواشي أخرى كثيرة[٣].

* **فخر الدين طريح بن محمد بن علي بن أحمد بن طريح الرماحي المسهلي النجفي (١٠٨٥هـ)** : المعروف بالطريحي، من علماء الشيعة الإمامية، له من المصنفات: الاحتجاج في مسائل الاحتياج، وتحفة الوارد وعقال الشارد، وحاشية على المعتبر للحلي والضياء اللامع في شرح مختصر الشرائع وفخرية الكبرى الجامعة للفتاوى، وغير ذلك[٤].

* **مهدي بن حسن بن أحمد بن محمد الحلي الشهير بالقزويني (١٢١٢هـ ـ ١٣٠١هـ)**: من مجتهدي الشيعة الإمامية، سكن الحلّة ودفن

(١) الدرر الكامنة ٧١/٢ ـ ٧٢.

(٢) كشف الظنون ٢٨٣/٥.

(٣) كشف الظنون ٣٨٧/٥.

(٤) كشف الظنون ٣٥٤/٥ ـ ٣٥٥.

بالنجف، من مصنفاته: أساس الإيجاد في الاستعداد لملكة الاجتهاد، والبصائر في مختصر المواهب، وفلك النجاة في أحكام العبادات، وموارد الوصول إلى علم الأصول، وغير ذلك من المنظومات والرسائل(١).

وقد أورد الإمام الشوكاني أثناء ترجمته لمحمد الكردي، أنّ أحد طلبة العلم القادمين من بغداد إلى مدينة صنعاء، في أوائل القرن الثالث عشر، وكان قد خرج من بلاده لطلب العلم، وتنقّل في البلدان، ذكر له أنّ بغداد وما حولها من البلاد قد صار أكثر أهلها رافضة من روافض الإماميّة(٢).

ـ ٤ ـ بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر:

تواصل نشاط فقهاء هذا المركز الإسلامي، وقد غمر هذه البلاد في المرحلة الأولى من هذا الدور، المذهبان الشافعي والحنفي، كان فيها فقهاء المذهبين كفرسي رهان، فربّما ساد هذا المذهب، وربّما ساد ذاك حتّى وجدنا من كان يقرىء في المذهبين، ومنهم من صار إمام الناس فيهما يستحضر المذهبين ويفتي فيهما، ويقول: أنا حنفيّ الأصول، شافعيّ الفروع.

وظهر من أتباع الحنفيّة والشافعيّة على السواء، أعلام كانوا الملجأ في المعضلات، تعمل المطي إلى جوارهم، وتضرب البزل المهاري أكبادها في تبرح أو تبيد نحو ديارهم، صنفوا المصنفات الحسنة التي رحل الناس لأجلها وتلقوها وتداولوها، حتى طار في جميع المراكز الأخرى ذكرها وصداها.

وكان نشاطهم قد استوعب البلاد التي من حولهم من أقصاها إلى أدناها، فأمّا في بلاد **إيران** فقد برز **بشيراز**:

*** جمال الدين عبدالحميد بن عبدالرحمٰن بن عبدالحميد الجيلوني الشيرازي الشافعي (٧٣١هـ)**: كان فقيهاً كبيراً، ذا حظّ كثير من العلوم،

---

(١) كشف الظنون ٣٧٥/٦.

(٢) البدر الطالع ص ٧٤٤.

بحث الحاوي الصغير بقزوين على ابن المصنّف في أربعين يوما، ثمّ عاد إلى بلده، وصنّف كتابه البحر، وهو مختصر أوضح من الحاوي، متضمّن لزيادات، وكانت وفاته بشيراز[(١)].

* **فخر الدين أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن ممدود التميمي الشيرازي (٧٥٦هـ)**: الشافعي ولّي قضاء القضاة بفارس، وهو ابن خمس عشرة سنة، وعزل بعد مدّة بالقاضي ناصر الدين البيضاوي، ثمّ أعيد بعد ستّة أشهر، واستمرّ على القضاء خمسا وسبعين سنة.

كان مشهورا بالدين والخير، من مصنّفاته، شرح مختصر ابن الحاجب، ونظم كثير، وكانت وفاته بشيراز[(٢)].

وفي نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع، سطع نجم عالم شيراز ومحدثها وفاضلها:

* **الجنيد بن محمد البلياني الأصل (٧٤٦هـ ـ ٨١١هـ)**: نسبة لبليان من أعمال شيراز نزيل شيراز، وقيل توفي سنة ٨٠٩هـ[(٣)].

ومن أعلام الحنفيّة، ظهر:

* **حيدر بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الخوافي (٧٨٠هـ ـ ٨٥٤هـ)**: المعروف بالصدر الهروي، تلميذ التفتازاني، صاحب شرح فرائض السراجية[(٤)].

* **علي بن محيي الدين محمد علاء الدين الشيرازي (٩٤٥هـ)**[(٥)]:

* **حبيب الله بن عبدالله العلوي الدهلوي شمس الدين الشهير**

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٤٥/١٠، شذرات الذهب ٢٦٠/٦.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى، ١٣٩/١٠، شذرات الذهب ٣٦٨/٦.
(٣) الضوء اللامع ٧٩/٣، شذرات الذهب ٢١٧/٧.
(٤) كشف الظنون ٢٧٩/٥.
(٥) كشف الظنون ٥٩٥/٥.

بميرزاجان الشيرازي (٩٩٤هـ): له شروح وحواشي كثيرة في فنون مختلفة[1].

وبمدينة **كازون** الإيرانيّة، الواقعة في غربي شيراز، لمع:

* **نسيم الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد بن مسعود النيسابوري، ثمّ الكازوني (٧٣٥هـ ـ ٨٠١هـ)**: نشأ بكازون، وبها اشتغل بتحصيل العلم، وبرع في العربيّة، وشارك في الفقه وغيره مشاركة حسنة.

دخل مكّة حاجّا سنة ٧٨٢هـ، وأقام بها مدّة طويلة، فانتفع به أهلها، وكان حسن التعليم، ثمّ عاد إلى بلاده في سنة ٧٩٨هـ، فأقام بها على عادته في الإسماع والإقراء، ثمّ رجع متوجّها إلى مكّة فأدركه أجله[2].

وبـ**دوّان** ـ قرية من قرى كازون ـ ظهر الفقيه الشافعي، عالم أهل فارس:

* **محمد بن أسعد ـ وقيل أحمد ـ الصديقي البكري الملقب جلال الدين الدوّاني (٩٢٨هـ)**: قاضي القضاة المذكور بالعلم الكثير، أخذ عنه أهل تلك النواحي، وارتحل إليه أهل خراسان وما وراء النهر، له شهرة كبيرة وصيت عظيم حتى تكاثر تلاميذه، وولّي قضاء تلك الديار.

له مصنفات كثيرة، منها: شرح التهذيب، وحاشية على العضد، وحاشية على الأنوار لعمل الأبرار للأردبيلي في الفروع، وغير ذلك، وفي تاريخ وفاته خلاف، فقيل سنة ٩٢٨هـ، وقيل سنة ٩١٨هـ، وقيل سنة ٩٠٨هـ[3].

وإذا اتّجهنا إلى شمال غربي إيران، وجدنا **بتبريز**:

---

(١) كشف الظنون ٢١٧/٥.

(٢) شذرات الذهب ١٣٣/٧ ـ ١٣٤، الضوء اللامع ٢١/١٠ ـ ٢٢.

(٣) الضوء اللامع ١٣٣/٧، البدر الطالع ص ٦٤٦ ـ ٦٤٧، شذرات الذهب ٢٠٠/٨ ـ ٢٠١، كشف الظنون ١٧٨/٦.

* **عبدالله بن محمد الهاشمي الحسيني الملقب العبري (٧٤٢هـ)** : عالم كبير في وقته، وتصانيفه سائرة، كان أوّلا حنفيًا ثمّ صار شافعيًا، وكان يقرىء المذهبين، مشهورا في الآفاق، مشارا إليه في جميع الفنون.

سكن سلطانية، ثمّ تبريز، وكانت وفاته بها[١].

وبجرجان، نلقى فريد عصره ووحيد دهره، سلطان العلماء العاملين:

* **أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني الشهير بالسيد الشريف (٧٤٠هـ - ٨١٦هـ)**: المحقق الحنفي صاحب كتاب التعريفات، المعروف بتعريفات الجرجاني، وهو كتاب مطبوع مشهور.

كان إماماً في جميع العلوم، متفرّدا بها، مصنّفا في جميع أنواعها، متبحّرا في دقيقها وجليلها، عارفاً بطرق المناظرة والمباحثة والاحتجاج.

طار صيته في الآفاق، وانتفع الناس بمصنفاته في جميع البلاد، وهي مشهورة في كلّ فنّ، يحتجّ بها أكابر العلماء، وينقلون منها، ويوردون ويصدرون عنها، وكان أهل عصره يفتخرون بالأخذ عنه، ثمّ صار من بعدهم يفتخرون بالأخذ عن تلامذته.

تصدّى للإقراء والإفتاء، وبالغ في تعظيمه العلماء وجعلوه هو وسعد الدين التفتازاني حجّة في علومهما، وجرت بينهما مباحثات ومحاورات في مجلس تيمورلنك، واختلف الناس في عصرهما، وفيما بعده من العصور، من المحقّ منهما.

وضع مصنفات نافعة، تزيد على خمسين كتاب، كلّها غزيرة المعاني، واضحة الألفاظ، قليلة التكلّف والتعقيد، منها: حاشية على أوائل التلويح للتفتازاني، وله شرح كنز الدقائق في الفروع، وشرح منتهى السؤل والأمل لابن الحاجب في أصول الفقه، وشرح الهداية للمرغيناني في الفروع، وشرح فرائض الحنفية وله غير ذلك من الشروح والحواشي والرسائل في

(١) البدر الطالع ص ٤١٧.

الفروع والأصول ومختلف العلوم.

وكانت وفاته بشيراز[١].

وأمّا ببلاد خراسان فنلقى:

* **محمد بن محمد بن علي، صدر الدين بن شمس الدين الرواسي الإسفرايني الشافعي مذهباً (ق ٩هـ)**: ولد سنة ٧٩٨هـ، وكان على قيد الحياة سنة ٨٤٩هـ، تفقّه في المذهبين الشافعي والحنفي، وصنّف كتاب ضوابط العبادات، في فقه العبادات، وله حاشية على أوائل الحاوي في الفقه ورسائل في علوم شتّى[٢].

* **عبدالرحمٰن بن أحمد الجامي (٨٩٨هـ)**: نسبة إلى جام من قصبات خراسان، اشتغل بالعلوم العقلية والشرعية، فأتقنها.

كان أعجوبة دهره علماً وعملاً وأدباً وشعراً، بلغ صيت فضله الآفاق، وسارت بعلومه الركبان، له مؤلفات جمّة، وكلّ تصانيفه مقبولة، وكانت وفاته بهراة[٣].

* **نظام الدين عبدالحي بن عبدالوهاب بن علي الحسيني الأسترابادي الجرجاني (ق ١٠هـ)**: نزيل هراة، من علماء المسلمين، ولّي قضاء خراسان، وكان على قيد الحياة في حدود سنة ٩٥٩هـ[٤].

وبنيسابور:

* **سعد الدين فضل الله بن إبراهيم بن عبدالله الشامكاني (٧٨٧هـ)**: نسبة إلى شامكان، قرية بنيسابور، الفقيه الشافعي.

---

(١) الضوء اللامع ٣٢٨/٥ ـ ٣٣٠، البدر الطالع ص ٤٨٩ ـ ٤٩١، كشف الظنون ٥٨٣/٥.

(٢) طبقات المفسرين ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

(٣) شذرات الذهب ٢٣/٨ ـ ٢٤.

(٤) كشف الظنون ٤١٤/٥.

قرأ على القاضي عضد الدين، وغيره، وحدث عنه شرح مختصر ابن الحاجب[١].

وببسطام جمع بين رئاستي العلم والعمل، الفقيه:

*** علاء الدين عليّ بن محمود الهروي الرازي العمري الشاهروردي (٨٠٣هـ - ٨٧٥هـ)**: نسبة إلى قرية قريبة من بسطام، وبسطام بلدة من بلاد خراسان، الحنفي الشهير بمصنفك، لقب بذلك لاشتغاله بالتصنيف في حداثة سنّه.

سافر مع أخيه إلى هراة لتحصيل العلوم سنة ٨١٢هـ، وهو في سنّ التاسعة من عمره، فدرس فقه المذهبين الحنفي والشافعي.

كان إماماً عالماً، صنّف مصنّفات عديدة، منها: شرح اللباب، وشرح المطول، وشرح شرح المفتاح للتفتازاني، وحاشية على التلويح، وشرح البزدوي، وشرح الهداية[٢].

وبتفتازان: بنواحي **نسا** تفرّد بالعلوم في القرن الثامن:

*** مسعود - وقيل محمود - بن عمر المعروف بسعد الدين التفتازاني (٧١٢هـ - ٧٩٢هـ)**: نسبة إلى تفتازان أخذ عن أكابر أهل العلم في عصره كعضد الدين الإيجي وطبقته، فطار صيته واشتهر ذكره ورحل إليه الطلبة.

لم يكن له في أهله نظير فيها، وحصل له من الحظّ والشهرة والصيت في أهل عصره، ومن بعدهم ما لم يلحق به غيره.

جرت بينه وبين السيد الشريف الجرجاني مناظرات مشهورة.

اشتهرت مصنفاته في حياته، وانتشرت في جميع البلدان، فتنافس الطلبة في تحصيلها، من أشهرها كتاب التلويح في شرح التنقيح لصدر الشريعة في أصول فقه الحنفية، وهو من أجلّ مصنفاته.

---

(١) شذرات الذهب ٤٢/٧.

(٢) شذرات الذهب ٤٦٣/٧ - ٤٦٤.

شرع التفتازاني في التصنيف وهو في السادسة عشرة من عمره، فصنّف الزنجانية سنة ٧٣٨هـ، وأتمّ شرح التلخيص الكبير سنة ٧٤٨هـ بهراة، وفرغ من مختصره سنة ٧٥٦هـ، وبخوارزم أتمّ كتبه، شرح التلويح والتوضيح سنة ٧٥٨هـ بكلشان ـ بلدة من بلاد تركستان ـ وشرح العقائد سنة ٧٦٨هـ، وحاشية مختصر الأصول للعضد سنة ٧٧٠هـ، وشرع بهراة في تصنيف كتاب فتاوى الحنفية سنة ٧٦٩هـ، وفي سرخس أكمل تأليف مفتاح الفقه سنة ٧٧٢هـ، وبسمرقند أتمّ المقاصد وشرحه وتهذيب الكلام، كلّها سنة ٧٨٤هـ، وشرح المفتاح سنة ٧٨٩هـ، وغير ذلك من المصنّفات في أنواع العلوم التي تنافس الأئمّة في تحصيلها والاعتناء بها.

وكانت وفاته بسمرقند[١].

وبهراة:

*** محمد بن عطاء الله الرازي الأصل، الهروي الشافعي (٧٦٧هـ ـ ٨٢٩هـ)**: ولد بهراة، واشتغل بتحصيل العلم في بلاده، وأخذ عن سعد الدين التفتازاني، وطبقته.

كان حنفيّا، ثمّ تحوّل شافعيّا، وكان أتباعه يقولون: إنّه إمام الناس في المذهبين الشافعي والحنفي، وكان قد أدرك العلماء الكبار، مثل التفتازاني، والسيّد الشريف الجرجاني، وغيرهما.

كانت له حرمة وافرة ببلاد سمرقند وهراة وغيرهما، غير أنّ الفقهاء تعصّبوا عليه وبالغوا في التشنيع عليه ورموه بعظائم الظنّ، وبرّأه غيرهم عن أكثرها.

انتقصه الحافظ ابن حجر العسقلاني، ووصفه بالكذب، وكذلك قال السخاوي، في حين ذكر ابن قاضي شهبة: أنّه كان إماماً عالماً، غوّاصا

(١) الدرر الكامنة ٣٥٠/٤، البدر الطالع ص ٨٢١ ـ ٨٢٣، لقط الفرائد ص ٢٢٥.

على المعاني، يحفظ متوناً كثيرة[١].

وبالقرم نلتقي بـ:

* **ضياء الدين عبدالله بن سعد الله بن محمد بن عثمان القزويني القرمي (٧٨٠هـ)**: المعروف بقاضي القرم العفيفي الشافعي، أحد العلماء.

تفقّه ببلاده، فأخذ عن القاضي عضد الدين وغيره، وكان لا يملّ من الاشتغال بالعلم حتى في حال مشيه وركوبه، فتقدّم في العلم حتى إنّ السعد التفتازاني قرأ عليه.

كان يستحضر المذهبين الشافعي والحنفي، ويفتي فيهما، ويقول: أنا حنفيّ الأصول، شافعيّ الفروع، وكان يدرّس تلاميذه بغير مطالعة[٢].

* **ركن الدين أحمد بن محمد بن عبدالمؤمن الحنفي القرمي (٧٨٣هـ)**: ولّي قضاء قرم ثلاثين سنة، حتى أصبح يعرف بقاضي قرم[٣].

* **علي بن يحيى السمرقندي علاء الدين (٨٦٠هـ)**: نزيل لاندة من بلاد قرمان، الفقيه الحنفي، تلميذ علاء الدين البخاري[٤].

وأمّا في **بلاد ما وراء النهر**: فساد بالخصوص المذهب الحنفي، حيث نلقى **بسمرقند**:

* **محمد بن شهاب بن محمود بن يوسف بن الحسن الخافي الحنفي (٧٧٧هـ ـ ٨٥٢هـ)**: نزيل سمرقند، ولد بمدينة سلومد، وقرأ بها، وتلقّى عن آخرين في بلاد متفرّقة، منهم السيّد الشريف الجرجاني، وسمع منه بعض تصانيفه.

كان عالماً متقناً، محقّقاً، بحراً في جميع العلوم، موصوفاً بجودة

---

(١) البدر الطالع ص ٧٢٣ ـ ٧٢٤، الضوء اللامع ٨/١٥١ ـ ١٥٥.

(٢) شذرات الذهب ٧/٤، النجوم الزاهرة ١١/١٩٣.

(٣) شذرات الذهب ٧/١٩، النجوم الزاهرة ١١/٢١٧.

(٤) كشف الظنون ٥/٥٨٧.

الذهن، وقوّة الفهم، له مؤلفات، منها: حاشية لشرح المفتاح للتفتازاني، وحاشية للعضد، وغير ذلك[١].

وببخارى تصدّر:

* **ذو النون بن أحمد بن يوسف السرماري (٧٧٧هـ)**: نسبة إلى سرماري قرية ببخارى، الحنفي، يعرف بالفقيه، أخذ عن مشائخ أذربيجان، وديار بكر، وغيرهم، ونزل عنتاب في حدود الستين، فأقام بها يفقّه الطلبة، شرح مقدّمة أبي الليث، وتصدّر بجامع النجار بجوار ميدان عنتاب، إلى أن مات[٢].

وانثال الطلبة من كلّ مذهب على:

* **محمد بن محمد بن محمد العلاء البخاري الحنفي (٧٧٩هـ ـ ٨٤١هـ)**: الذي تتلمذ على السعد التفتازاني وآخرين من أهل عصره، ثمّ رحل إلى الأقطار لطلب العلم حتى تقدم في الفقه والأصلين واللغة والمنطق والجدل، فتوجه إلى بلاد الهند ونشر علمه هناك، ثمّ عاد إلى مكّة فجاور بها، ودخل مصر فأقام بها سنين، ثمّ خرج إلى دمشق، فتوفي بها[٣].

* **ومحمد بن شمس الدين التبريزي المعروف بمنلا حنفي (٩٠٠هـ)**[٤].

* **ومفتي بخارى قصير الحنفي (٩٣٧هـ)**[٥].

* **وشمس الدين محمد القهستاني الحنفي (٩٥٣هـ)**: نسبة إلى قهستان قصبة من قصبات خراسان، المفتي ببخارى، كان إماماً عالماً،

---

(١) البدر الطالع ص ٦٩٠، الضوء اللامع ٢٦٧/٧.
(٢) شذرات الذهب ٧٧٧/٦.
(٣) البدر الطالع ص ٧٧٨ ـ ٧٨٠.
(٤) كشف الظنون ١٧٣/٦.
(٥) شذرات الذهب ٢٦٩/٨، الكواكب السائرة ٢٤٤/٢.

وفقيهاً متبحّرا، جامعا، يقال: إنّه ما نسي قطّ ما طرق به سمعه، له شرح لطيف على الوقاية، ألّفه برسم الملك العالم المستنصر السلطان أبي المغازي عبيدالله السيبكي(١).

* **وعناية الله بن عبدالله الوابكني البخاري الحنفي الشهير بآخوند (١١٧٦هـ)** : كان عالماً فاضلا ومدرّسا له شروح كثيرة(٢).

وكان للشيعة الإمامية نوع مشاركة في هذه الديار، مع المذهبين الشافعي والحنفي، وكان من أشهر أعلامهم في بداية المرحلة الأولى من هذا الدور، من تشيّع به أهل السنّة، وتسنّن به أهل الرافضة، وهو:

* **محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم الهمذاني ثمّ الدمشقي (٦٣٥هـ - ٧٢١هـ)**: شيخ الشيعة وفاضلهم، أخذ عن جماعة من الإمامية، وكان لا يغلو ولم يحفظ له سبّا في الصحابة، بل له نظم في فضائلهم، حتى قال ابن تيمية: هو ممّن يتسنّن به الشيعي، ويتشيّع به السنّي(٣).

ومنهم:

* **مير غياث الدين منصور بن مير صدر الدين محمد بن منصور الشتكي الشيرازي الشيعي (٩٤٨هـ)**: صاحب المصنفات الكثيرة(٤).

ثمّ استغرق مذهب الشيعية الإماميّة في المرحلة الثانية من هذا الدور، غالب بلاد خراسان، وكان في أهل أصفهان رافضة من روافض الإمامية، يجري بينهم وبين غيرهم فتن عظيمة(٥).

ومن أعلام الشيعة وعلماء الإماميّة الذين سادوا في هذه المرحلة، نذكر:

---

(١) شذرات الذهب ٣٥٣/٧، معجم المؤلفين ١٧٩/٩، الأعلام ١١/٧.
(٢) كشف الظنون ٦٤٠/٥.
(٣) الدرر الكامنة ٤١٠/٣ ـ ٤١١، شذرات الذهب ٢٠٩/٦.
(٤) كشف الظنون ٣٦٨/٦.
(٥) البدر الطالع ص ٧٤٤.

*** ماجد بن هاشم بن علي بن علي بن مرتضى بن علي البحراني (١٠٢٨هـ)**: قاضي شيراز[١].

*** صدر الدين الثاني محمد بن إبراهيم القوامي الشيرازي (١٠٥٠هـ)**[٢].

*** حسين بن جمال الدين محمد الخوانساري (١٠٩٩هـ)**: نزيل أصبهان، من علماء الإماميّة، صنف حواشي كثيرة في علوم مختلفة[٣].

*** محمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي الأصبهاني الشهير بالمجالس (١٠٣٧هـ - ١١١١هـ)**: رئيس الشيعة الإمامية في عصره، صاحب كتاب الأحكام، وكتاب الطهارة والصلاة، وغيرها من المصنفات في السنن والآداب، والأوامر والنواهي، والفضائل والقصص، وأخبار الرسول ﷺ[٤].

*** بهاء الدين محمد بن محمد باقر النائيني السبزاوري (١١٣٣هـ)**: نزيل أصبهان، له حاشية على الأشباه والنظائر للسيوطي، ورسائل ثلاث في الفرائض، وشرح كتاب الهداية للعاملي[٥].

*** حسين بن محمد صالح بن عبدالواسع الحسيني الخاتون آبادي الأصبهاني (١١٥١هـ)**[٦].

*** علي أكبر بن محمد باقر الإيجي الأصبهاني (١٢٣٢هـ)**: من علماء الشيعة الإمامية صاحب رؤوس مسائل العبادات، والردّ على ميرزا محمد الإخباري في إنكاره لأساس الاجتهاد، وله رسائل عديدة في الفقه متفرّقة[٧].

---

(١) كشف الظنون ٦/٣.
(٢) كشف الظنون ٦/٢٢٠.
(٣) كشف الظنون ٥/٢٦٥.
(٤) كشف الظنون ٦/٢٤٠ - ٢٤١.
(٥) كشف الظنون ٦/٢٤٨.
(٦) كشف الظنون ٥/٢٦٥.
(٧) كشف الظنون ٥/٦١٧.

* **محمد تقي الكاشاني الشيعي (١٢٢٦هـ - ؟؟هـ)** : نزيل طهران، صاحب سفينة النجاة في الفقه، وإيضاح المشتبهات، وبحر الفوائد، وجامع المواعظ[١].

* **محمد صالح بن محمد إسماعيل البرغاني - من قرى طهران (١٢٨١هـ)**: فقيه الشيعة، وصاحب كتاب منهج الاجتهاد[٢].

- ٥ - بلاد المغرب:

لم تكن حركة الفقه ببلاد المغرب في هذا الدور أقلّ نشاطا من المراكز الأخرى، ولا أدنى عطاء في مجال التشريع، ولا أقلّ منها استهواء، إذ نجد في هذا الدور من أبناء المغرب الإسلامي من اعتنى بالفقه وتحصيله، وحفظه وتقريره، وتحقيقه وتحريره، حتّى ارتقى الكثير منهم إلى درجة الاجتهاد بالدليل والبرهان، وصاروا صدورا أكابر وبحورا زواخر، انبسطوا في العلم بنباهتهم، ونزلت بساحتهم متفرقات العلوم نزول الماء الثجاج فأوضحوا أشكالها وحلّوا أقفالها، وانتفع بهم خلق كثير.

والملاحظ أنّ هذا النبوغ قد عمّ جميع حواضر بلاد المغرب، الممتدّة من طنجة إلى إفريقية التونسيّة، وشمل كذلك الصحراء الليبية من حدود مصر إلى حدود الجزائر، واستغرق جميع الجهات التي كانت تزدان بفقهائها وعلمائها، بفضل ما كان بين تلك الحواضر من تواصل عبر الرحلات العلميّة، والهجرات الاختياريّة أحياناً أو الاضطراريّة أحياناً أخرى.

بحيث أنّ التلاقح بين جميع المراكز الفقهيّة بالمغرب العربي كان متواصلا مستمرّا، والوشائج العلميّة قائمة لم تنفصم، رغم الفتن السياسيّة التي كانت دائمة الحدوث بين هذه الأقطار.

(١) كشف الظنون ٦/٣٠٥.

(٢) كشف الظنون ٦/٢٩٤.

فأمّا القطر التونسي فحين زاره العبدري في بداية هذا الدور أبدى إعجابه بنشاطه العلمي، وقال: «وما من فنّ من فنون العلم إلاّ وجدت بتونس به قائما، ولا مورد من موارد المعارف إلاّ رأيت بها حوله واردا وحائما، وبها من أهل الرواية والدراية عدد وافر[(١)].

واستمرّ تأثير هذا الازدهار في القرنين الثامن والتاسع الهجريين حتّى إنّ أبا الحسن القلصادي الذي زار تونس في القرن التاسع الهجري، صرّح بأنّ: «سوق العلم حينئذ نافقة، وينابيع العلوم على اختلافها مغدقة، فلا عليك أن ترى مدرسة أو مسجدا إلاّ والعلم فيه يبثّ وينشر»[(٢)].

فكانت المدارس إضافة إلى المساجد والجوامع، هي منارات العلم في تونس منذ عهد الحفصيّين الذين كان لهم الفضل في إقامة مدارس العلم في العاصمة وفي المدن التونسيّة الكبيرة، وتسابق أمراؤهم وأميراتهم في إنشائها ونشرها.

ومن أبرز الأعلام التونسيين الذين مارسوا العلم في هذه المرحلة، بطول خدمته من لدن أن شبّوا إلى أن دبّوا، وزاولوه جمعا وفرقا، وطلبوه غربا وشرقا، حتى أحيا الله بهم سنّة الاجتهاد:

* **تقيّ الدين أبو القاسم ـ ويقال أبو أحمد ـ المعروف بابن زيتون (٦٢١هـ ـ ٦٩١هـ)**: مفتي إفريقية، وقاضي الجماعة بتونس، قطب أصولها وفروعها المرجوع إليه في أحكامها، المفزع إليه في الفتيا بتونس.

تفقّه بأبي عبدالله السوسي الرعيني وغيره، ورحل إلى المشرق مرتين، الأولى سنة ٦٤٨هـ أخذ فيها عن أعلام منهم العزّ ابن عبدالسلام وسراج الدين الأرموي وغيرهما، ورجع إلى تونس بعلم كثير، والثانية سنة ٦٥٦هـ فأقام بالقاهرة يدرّس بها بالمدرسة الفاضليّة، وبمدرسة الصاحب ابن شكر،

---

(١) رحلة العبدري ص ٣٧.
(٢) رحلة القلصادي ص ١١٥.

ثمّ رجع إلى تونس فولي بها قضاء القضاة، وعظم محلّه، ونبل قدره وانتفع الناس به، وكان مجلسه يغصّ بطلبة العلم[١].

*** أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن عبدالرفيع الربعي (٦٣٧هـ - ٧٣٣هـ)**: علامة زمانه وفريد عصره وأوانه العالم بالأحكام والنوازل.

تردّد في ولاية القضاء بين طبرسق وقابس نحوا من ثلاثين عاما، ثمّ تداول قضاء الجماعة بتونس خمس مرات، أوّلها سنة ٦٩٩هـ، وولّي الخطابة بجامع الزيتونة، ثمّ امتحن بالعزل والنفي للمهدية، والسجن بها.

صنّف تصانيف نافعة، منها: معين الحكام، وهو كتاب كثير الفائدة غزير العلم، واختصار أجوبة ابن رشد والبديع في شرح التفريع لابن الجلاب، وغيرها.

وقد كانت بينه وبين ابن راشد القفصي ضغائن غفر الله لهما، وفي تاريخ وفاته خلاف[٢].

*** أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن راشد القفصي (٧٣٦هـ)** : تلقى عن أئمة من أهل المشرق والمغرب وحين رحل إلى مصر لازم شهاب الدين القرافي وتفقّه عليه، حتى أجازه بالإمامة في أصول الفقه، وفي الفقه وأذن له في التدريس والإفادة، وقرأ على ابن دقيق العيد مختصر ابن الحاجب الفقهي، وغيرهما ممّن لا يحصون كثرة.

---

(١) الديباج المذهب ص ١٦٣ ـ ١٦٤، نيل الابتهاج ٩/٢ ـ ١٠، شجرة النور الزكية ص ١٩٣، عنوان الدراية ص ١١٤ ـ ١١٥، الحلل السندسية ٦٨٤/٣، تراجم المؤلفين التونسيين ٤٣٢/٢ ـ ٤٣٦، كتاب العمر ٧١٤/٢ ـ ٧١٧.

(٢) الديباج المذهب ص ١٤٥، توشيح الديباج ص ٧٩ ـ ٨٠، الدرر الكامنة ٢٣/١، درّة الحجال ص ١٧٧ ـ ١٧٨، وفيات ابن القنفد ـ المسمّاة شرف الطالب في أسنى المطالب ـ ص ٧٨، وفيات الونشريسي ص ١٠٧، لقط الفرائد ص ١٨٦، الحلل السندسية ٦٥٢/٣ ـ ٦٥٣، شجرة النور ص ٢٠٧، تراجم المؤلفين التونسيين ٣٢٢/٣ ـ ٣٢٤، كتاب العمر ٧٣٠/٢ ـ ٧٣٤، تاريخ معالم التوحيد ٥٦ ـ ٥٧.

ولمّا ظفر من العلوم بما أراد، رجع إلى وطنه، فشرع في التدريس، ومالت إليه النفوس.

تولّى قضاء قفصة، ثمّ صرف عنه، صنّف تآليف مفيدة تشهد بفضله، منها: الشهاب الثاقب في شرح مختصر ابن الحاجب الفقهي، شرح لفظه وحلّ مشكلاته وأوضح رموزه وإشاراته، وعزا مسائله وقرّر دلائله، وله أيضاً المذهب في ضبط قواعد المذهب،، يقال إنّه ليس للمالكية مثله، والنظم البديع في اختصار التفريع، والفائق في معرفة الأحكام والوثائق، وغير ذلك من الكتب النافعة.

وكان بينه وبين ابن عبدالرفيع فتور، وفي تاريخ وفاته اختلاف[1].

* **أبو عبدالله محمد بن عبدالسلام بن يوسف الهواري (٦٧٦هـ - ٧٤٩هـ)**: قاضي الجماعة بتونس وعلاّمتها وإمامها إمام الفقهاء والنحاة، صرف همّته لانتحال فنون العلم وفتح مختومها، فأوضح أشكالها وحلّ أقفالها.

كان عالماً بالحديث، وممّن أدرك رتبة مجتهد الفتوى، فكانت له قوّة الترجيح من الأقوال، اعتمد ترجيحه خليل معاصره وغيره.

انتشر ذكره، وعظم قدره، وانتفع به الناس، وتخرّج عليه جماعة من العلماء الأعلام، كابن عرفة وغيره.

تولّى التدريس والفتوى، وكانت ولايته للقضاء من سنة ٧٣٤هـ، إلى أن توفّي.

له تقاييد وشرح مختصر ابن الحاجب الفقهي شرحاً حسنا، وضع

---

(١) نيل الابتهاج ٤٤/٢ - ٤٦، الديباج المذهب ص ٤١٧ - ٤١٨، وفيات ابن القنفد ص ٧٨، وفيات الونشريسي ص ١٠٧، شجرة النور ص ٢٠٧ - ٢٠٨، هدية العارفين ١٣٤/٢، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار المعروفة بدائرة مقديش ٥٦٩/١، تراجم المؤلفين التونسيين ٣٢٩/٢ - ٣٣٤، كتاب العمر ٧٣٨/٢ - ٧٤٣.

عليه القبول، قيل هو بالنسبة للشروح الأخرى كالعين من الحاجب[١].

ومعاصره:

* **أبو عبدالله محمد بن هارون الكناني (٦٨٠هـ - ٧٥٠هـ)**: أحد مجتهدي المذهب، وصفه ابن عرفة ببلوغه درجة الاجتهاد المذهبي.

ولي القضاء بغير تونس، وازدحم عليه الناس واقتبسوا من أنواره، وأخذ عنه أئمّة كبار مثل: المقّري وابن مرزوق وابن عرفة وقع بينه وبين ابن عبدالسلام نزاع في مسائل.

له تآليف أحكم أصولها وأتقن فصولها مع توفية الأغراض باختصار وإيجاز، كان بها الاعتماد وعليها العمل، منها: شرح على مختصري ابن الحاجب الفرعي والأصلي، واختصر المتيطيّة أسقط وثائقها وتكرارها، وشرح المدوّنة[٢].

وممّن تخرّج على ابن هارون وابن عبدالسلام، شيخ الشيوخ وبقيّة أهل الرسوخ:

* **أبو عبدالله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي (٧١٦هـ - ٨٠٣هـ)**: شيخ الإسلام، وعمدة أهل التحقيق والرسوخ، ولّي إمامة جامع الزيتونة الأعظم سنة ٧٥٦هـ، وخطابته سنة ٧٧٢هـ، والفتيا سنة ٧٧٣هـ، فكان إمام تونس وخطيب جامعها الأعظم خمسين سنة.

---

(١) الديباج المذهب ص ٤١٨، نيل الابتهاج ٥٩/٢ - ٦٠، وفيات ابن القنفد ص ٨١، وفيات الونشريسي ص ١١٦، لقط الفرائد ص ٢٠١، شجرة النور الزكية ص ٢١٠، الفكر السامي ٢٨٣/٤، هدية العارفين ١٥٥/٢، الحلل السندسية في الأخبار التونسية ٥٩٤/٣ - ٥٩٨، تراجم المؤلفين التونسيين ٣٢٥/٣ - ٣٢٨، كتاب العمر ٧٤٦/٢ - ٧٤٨.

(٢) نيل الابتهاج ٦٠/٢ - ٦٢، وفيات ابن القنفد ص ٨١، وفيات الونشريسي ص ١١٦، لقط الفرائد ص ٢٠١، شجرة النور الزكية ص ٢١١، الحلل السندسية ٥٩٨/٣ - ٦٠٠، تراجم المؤلفين التونسيين ٩٦/٥ - ٩٨، كتاب العمر ٧٥١/٢ - ٧٥٤.

أخذ عن أعلام عصره، من أمثال محمد بن عبدالسلام الهواري علاّمة أهل تونس، وقاضي الجماعة بها ومحمد بن هارون الذي بلغ درجة الاجتهاد المذهبي، وعمر بن علي بن قداح الذي كانت عليه مدار الفتوى مع ابن عبدالرفيع والشريف التلمساني، وغيرهم.

كان ملازما للشغل بالعلم، لا يرى إلاّ في الجامع، أو في حلقة الدرس، وكان يقعد للتدريس بمدرسته بتونس من بعد صلاة الغداة إلى الزوال، وكان لا يغشى سوقا ولا مجتمعا ولا مجلس حكم إلاّ أن يستدعيه السلطان في الأمور الدينيّة، لا يملّ من التدريس وإسماع الحديث والفتوى، حافظاً للمذهب، ضابطا لقواعده إمام وقته بفقه مذهبه شرقا وغربا، حتّى أنّ شيخ الإسلام ابن حجر وصفه: بشيخ الإسلام في المغرب.

تبحّر في العلوم، وفاق في الأصلين - أصول الدين وأصول الفقه - وتقدّم في الفقه والنحو والتفسير، وأتقن المعقول والمنقول، وفاز من كلّ علم بأوفر نصيب، وحاز في الأصول والفروع السهم والتعصيب، إلى أن صار المرجوع إليه في الفتوى ببلاد المغرب، وانتهت إليه الرئاسة في التحقيق والفتوى والمشاورة، ولم يكن - كما حكى تلميذه أبو حامد بن ظهيرة المكّي - بالغرب من يجري مجراه في التحقيق، ولا من اجتمع له من العلوم ما اجتمع له، تأتي إليه الفتوى من مسيرة شهر.

وكلام ابن ظهيرة قد يحمل على خصوص بلاد إفريقية، وإلاّ فقد كان بالمغرب الأوسط والأقصى والأندلس من هو مثل ابن عرفة، ومن لا يتقاصر عن رتبته فيما ذكر من جمعه وتحقيقه، من أمثال الشريف التلمساني في تلمسان، وابن لبّ والشاطبي بغرناطة، والقبّاب بفاس، وغيرهم، بل صرّح ابن مرزوق في حقّ الشريف أنّه كان أعلم أهل وقته بإجماع.

وقد يحمل كلام ابن ظهيرة على عمومه بالنسبة لآخر حياة ابن عرفة، بعد أن مات أقرانه، حيث تأخّر ابن عرفة عن الشريف التلمساني بأزيد من ثلاثين عاما، وعن ابن لبّ بأزيد من عشرين عاما، وعن الشاطبي والقبّاب بأزيد من عشر سنين.

جرت بين ابن عرفة وابن لبّ، وكذلك بينه وبين الشاطبي مراجعات وأبحاث في عدّة مسائل، وحدثت بينه وبين شيخه ابن عبدالسلام الهواري وحشة، هجر مجلسه فيها، كما حكاه البرزلي في فتاواه.

امتاز الشيخ ابن عرفة بفتح مجال النقاش بينه وبين طلبته في الدروس، كما حكى ذلك عنه تلميذه البسيلي وقال: «ولذا كان الحذاق يفضّلون مجلسه على غيره من مجالس التدريس»، وكانت طريقته في التدريس القصد إلى توليد المسائل، وابتكار الأنظار والأبحاث، وعلى هذا المنهج صار في خدمة الفقه، فبلغ الشأو الذي ما بلغه أحد قبله، وخرج بالفقه عن نطاق الالتزام الذي ضرب عليه بمتابعة طريقة مختصر ابن الحاجب ثمّ مختصر خليل الذي طلع من مصر في حياة ابن عرفة، فكانت طريقة ابن عرفة الفقهيّة: جمع الأنظار ومقارنتها والاستخلاص منها على أسلوب الدراسة العلميّة المؤسسة على المنطق والأصول، المشاركة في استخدام عامّة الأدوات الثقافيّة، وعلى هذه الطريقة أخرج تأليفه المختصر الفقهي[١] الذي ابتدأ تصنيفه عام ٧٧٢هـ، وأتمّه عام ٧٨٦هـ فأفاد فيه وأبدع فلم يسبق في تهذيبه وجمعه وأبحاثه الرشيقة وحدوده الأنيقة، وسلم له الفوز عن غير نظير.

وصنّف تآليف أخرى في فنون من العلم بديعة، تدلّ على توسّعه في علوم عديدة، وإتقان وتحقيق، ورسوخ قدمه، منها الحدود الفقهية والتقييد الكبير في المذهب، أقبل الناس على تحصيله شرقا وغربا، ومختصر الحوفي في الفرائض، وغيرها من المصنفات الحسنة في أصول الدين والمنطق[٢].

---

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) الديباج المذهب ص ٤١٩ - ٤٢٠، توشيح الديباج ص ٢٥١ - ٢٥٥، نيل الابتهاج ١٢٧/٢ - ١٣٨، شجرة النور ص ٢٢٧ الضوء اللامع ٢٤٠/٩ - ٢٤٢، شذرات الذهب ١٦٣/٧، وفيات ابن القنفذ ص ٨٨ - ٨٩، هدية العارفين ١٧٧/٢، طبقات القراء ٢٤٣/٢، وفيات الونشريسي ص ١٣٤، طبقات المفسرين ص ٤٥٨ - ٤٥٩، =

وعن ابن عرفة أخذ من لا يعدّ كثرة من أهل المشرق والمغرب، منهم جماعة من العلماء الأعلام، وقضاة الإسلام، وقلّ بتونس من لم يأخذ عنه، ومن أبرز تلامذته المغربيين: عيسى الغبريني والأبّي وابن ناجي والبرزلي وابن مرزوق الحفيد.

فأمّا الغبريني، فهو:

* **أبو مهدي عيسى بن أحمد بن محمد بن محمد الغبريني (٨١٣هـ)**: قاضي الجماعة بتونس وعالمها وحافظها وخطيبها، بعد ابن عرفة.

استنابه شيخه ابن عرفة حين خرج للحجّ على إمامة جامع الزيتونة، والغبريني آنذاك قاضي الجماعة، ثمّ استقلّ بالإمامة بعد وفاة ابن عرفة، وبقي عليها حتّى توفي.

وصفه تلميذه ابن ناجي بأنّه ممّن يظنّ به حفظ المذهب بلا مطالعة، وحكى ذلك في شرحه لتهذيب البراذعي، وبالغ في الثناء عليه في غير موضع، وقال: ما رأيت أصحّ منه نقلا، ولا أحسن منه ذهنا، ولا أنصف منه، وقال تلميذه الأمير أبو عبدالله المدعو حسين بن السلطان أبي العباس الحفصي: كان شيخنا ابن عرفة، وشيخنا الغبريني، ممّن يجتهد في المذهب ولا يحتاج للدليل على ذلك، إذ العيان شاهد بذلك.

نقل عنه معاصره أبو القاسم البرزلي في فتاويه في غير موضع،

= البدر الطالع ص ٧٧٣، إتحاف أهل الزمان ٦١/٧، الحلل السندسية ٥٧٧/٣ ـ ٥٩٣، دائرة مقديش ٥٩٣/١ ـ ٥٩٤، عنوان الأريب ١٠٥/١ ـ ١٠٧، تراجم المؤلفين التونسيين ٣٦٣/٣ ـ ٣٧١، تاريخ معالم التوحيد ص ٥٨، طبقات القراء ٢٤٣/٢، كتاب العمر ٧٦٢/٢ ـ ٧٦٨، شرح حدود ابن عرفة الموسوم بالهداية لابن الرصّاع ٦١/١ ـ ٦٤.

ووصفه بصاحبنا، وعنه أخذ غالب تلاميذ ابن عرفة المتأخّرين[١].

وأمّا الأبّي، فهو:

*** محمد بن خلفة بن عمر التونسي الوشتاتي المشهور بالأبي (٨٢٨هـ)**: عالم المغرب بالمعقول ـ كما وصفه ابن حجر ـ اشتهر في حياته بالمهارة، وكان من العلماء المحقّقين، وقد غلب عليه ذكر التعريفات الفقهية، ولا سيّما المالكية.

شرح المدوّنة، وصنّف إكمال المعلم في شرح مسلم، جمع فيه بين المازري وعياض والقرطبي والنووي مع زيادات مفيدة من كلام شيخه ابن عرفة، وهو شرح جليل، مشحون بالفرائد والفوائد، والتحقيقات البارعة والزيادات الحسنة النافعة، قال فيه السخاوي: ويعجبني الأخذ عنه.

لازم ابن عرفة، وكان من أعيان أصحابه ومحققيهم، وقد كثر انتقاده لشيخه مشافهة، حتى كان ابن عرفة يقول: كيف أنام وأنا بين أسدين، الأبيّ بفهمه وعقله، والبرزلي بحفظه ونقله[٢].

وأمّا ابن ناجي، فهو:

*** أبو الفضل وأبو القاسم قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي**

---

(١) توشيح الديباج ص ١٣٨ ـ ١٣٩، نيل الابتهاج ٣٣٣/١ ـ ٣٣٤، الضوء اللامع ١٥١/٦، وفيات الونشريسي ص ١٣٧، إتحاف أهل الزمان ٦٢/٧، الحلل السندسية ٦١١/٣ ـ ٦١٢، دائرة مقديش ٥٨٧/١، شجرة النور الزكية ص ٢٤٣، تاريخ معالم التوحيد ص ٥٨.

(٢) توشيح الديباج ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥، نيل الابتهاج ١٥٧/٢ ـ ١٥٨، شجرة النور ص ٢٤٤، البدر الطالع ص ٦٨٥، الحلل السندسية ٦٨٦/٣ ـ ٦٨٧، الضوء اللامع ١١٣/١١، دائرة مقديش ٥٩٦/١ ـ ٥٩٧، عنوان الأريب ١١٤/١ ـ ١١٥، تراجم المؤلفين التونسيين ٥٠/١، كتاب العمر ٣٣٠/١ ـ ٣٣٥، وفيات الونشريسي ص ١٣٩ لقط الفرائد ص ٢٤٢، وذكره الونشريسي وابن القاضي في وفيات سنة ٨٢٣هـ.

القيرواني (٨٣٩هـ): الحافظ للمذهب، العارف بالأحكام والنوازل، تتلمذ على أبي القاسم البرزلي مدّة إقامته بالقيروان قبل رجوعه إلى تونس، ثمّ أدرك ابن عرفة بتونس، فأخذ عنه وعن أعلام أصحابه أعلام عصره مثل الأبّي، وتشرّب الطريقة الفقهيّة التجديدية لابن عرفة، ونبغ فيها، وأصبح محيطا بآرائه واجتهاداته، متمشّيا عليها في بحوثه وتقريراته.

ولي قضاء جهات كثيرة بإفريقية، منها: باجة وجربة وقابس والأربس وتبسة وسوسة والمنستير والقيروان وقد ذكر عن نفسه أنّه تغرّب في البلاد نحو سبعة عشر عاما، لا يستقرّ به المقام في القيروان إلاّ قليلا، فتكون حياته القضائية قد امتدّت من سنة ٧٩٩هـ - تاريخ تعيينه قاضيا على جربة - إلى سنة ٨١٦هـ، ثمّ انقطع للتدريس بالقيروان إلى أن توفّي، وكان معه تفقه عظيم، وقيام تام على المدوّنة واستحضار للفروع.

أقبل على تدريس الفقه بنظر تطبيقي سديد، وسّع بصره فيه النظريات المؤصّلة التي درج عليها بين يدي أساتذته، ولا سيّما البرزلي، حتى كانت دروسه الفقهية عديمة النظير[1].

صنّف شرحاً مفيدا على رسالة ابن أبي زيد، أثنى عليه العلماء، وله شرحان على تهذيب المدوّنة للبراذعي حكى فيهما عمل أهل إفريقية، الأوّل صغير يعرف بالصيفي، وسمّاه شرح التهذيب، والثاني كبير يعرف بالشتوي، وسمّاه نهاية التحصيل، وله شرح على تفريع ابن الجلاب، وتآليفه معوّل عليها في المذهب، حيث واظب البرزلي على التحقيق، وصرف جهوده لتحرير فقه القضاء، وتقرير ما جرت به الفتوى في إفريقية، حتى صارت مصنفاته مرجعا وثيقا لما جرى به العمل في البلاد التونسية.

قيل: توفّي سنة ٨٣٧هـ وقيل في التي بعدها، والأشهر أنّه توفي سنة

(١) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ١٠٤ - ١٠٥.

٨٣٩هـ[1].

وأمّا البرزلي، فهو:

* **أبو القاسم بن أحمد بن محمد البلوي القيرواني ثمّ التونسي الشهير بالبرزلي (٨٤٤هـ)**: مفتي تونس وفقيهها وحافظها وإمامها بالجامع الأعظم، عمدة أهل التحقيق المفزع إليه في الفتوى.

لازم ابن عرفة نحواً من أربعين سنة، فأخذ هديه وعلمه وطريقته، وأجازه إجازة عامّة، وجالس غيره في الفقه والرواية في الحديث حتى حصل له علماً كثيراً، وأجازه أغلب شيوخه، وعنه أخذ ابن ناجي والرصاع وحلولو ومحمد بن أحمد عظوم وابن مرزوق الحفيد.

كان علّامة بارعاً حافظاً للفقه، متفقّهاً فيه، بحاثاً نظّاراً، أحد أئمّة المالكية ببلاد المغرب، وصاحب الفتاوى المتداولة، وكان موصوفاً بشيخ الإسلام.

له ديوان كبير في الفقه جمع فأوعى، وله الحاوي في النوازل من كتب المذهب الأجلة، أجاد فيه ما شاء، وله فتاوى كثيرة في فنون من العلم، وفي تاريخ وفاته خلاف، فقيل سنة ٨٤١هـ، وقيل سنة ٨٤٢هـ، وقيل سنة ٨٤٣هـ، وقيل سنة ٨٤٤هـ.

عمّر حتى ألحق الصغار بالكبار وكانت وفاته عن مائة وثلاث

---

(١) توشيح الديباج ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧، نيل الابتهاج ١٢/٢، لقط الفرائد ص ٢٤٧، الحلل السندسية ٧٠٧/٣ ـ ٧٠٨، شجرة النور ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ١٠٠ ـ ١٠٥، مقدمة تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان للكناني، للمحقق محمد العنابي، تراجم المؤلفين التونسيين ٨/٥ ـ ١٤، تكميل الصلحاء والأعيان ص ٦ ـ ٩، كتاب العمر ٧٧٧/٢ ـ ٧٨٣، تاريخ قضاة القيروان للشيخ الجودي ص ١٣٣ ـ ١٣٥، الضوء اللامع ١٣٧/١١، ولم يذكر إلاّ اسمه وتاريخ وفاته.

سنين[١].

وأمّا ابن مرزوق، فهو إمام عصره وأعجوبة وقته، وستأتي ترجمته لاحقا في أهل الجزائر.

ثمّ انتقل العلم بعد هؤلاء إلى:

* **أبو العباس أحمد بن محمد بن عبدالله القلشاني (٨٦٣هـ)**: فقيه تونس وعالمها، أدرك ابن عرفة، وولِّي قضاء الجماعة بتونس بعد ابن عقاب، ولازم الإمامة بجامع الزيتونة.

قال عنه القلصادي لم أر أعرف بمذهب الإمام مالك ولا من يستحضر النوازل والأحكام مثله، له تآليف في المذهب معتبرة، منها: شرح الرسالة ومختصر ابن الحاجب الفرعي، وغيرهما[٢].

* **أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عيسى بن فندار القيرواني المعروف بعظّوم (٨٨٩هـ)**: من بيت به معروف بالفضل والتحلّي بالوقار، كان فقيهاً عالماً محصّلا، مؤلفا متقنا، من تلاميذ البرزلي.

برع في العلوم وتصدّى لعلم النوازل، من مصنفاته الفقهية: تذكير الغافل وتعليم الجاهل، معروف بين الفقهاء بكتاب الدكانة، جمع فيه من لباب الفقه أقوالا صريحة ونقولاً صحيحة، وله مواهب العرفان والمباني اليقينية في حكم المسألة العيدودية، تعقّب فيه رسم تسجيل على بيع دار جمع فيه مسائل عجيبة والتزامات غريبة، ومرشد الحكام، مختصر في الفقه قال عنه الكناني في تكميل الصلحاء: «بهيّ جدّا ضاهى به مختصر ابن

(١) توشيح الديباج ص ٢٦٦، نيل الابتهاج ١٧/٢ ـ ١٩، وفيات الونشريسي ص ١٤٢، لقط الفرائد ص ٢٤٩، إتحاف أهل الزمان ٦٢/٧، شجرة النور ص ٢٤٥، الضوء اللامع ١٣٣/١١، الحلل السندسية ٦١٣/٣ و٧٠١/٣ ـ ٧٠٣، دائرة مقديش ٦٠٢/١، تراجم المؤلفين التونسيين ١١٥/١ ـ ١١٨، كتاب العمر ٧٨٤/٢ ـ ٧٨٨، تكميل الصلحاء والأعيان ص ٩ ـ ١١ تاريخ معالم التوحيد ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) نيل الابتهاج ١١٩/١ ـ ١٢٠، رحلة القلصادي ص ١١٥ ـ ١١٦، الحلل السندسيّة ٦٢٥/٣ ـ ٦٢٦، الضوء اللامع. إتحاف أهل الزمان ٦٤/٧، شجرة النور الزكية.

عرفة، لكنّه مبسوط، سهل واضح»[١].

*** أبو عبدالله محمد بن قاسم الأنصاري التلمساني ثمّ التونسي المشهور بالرصّاع (٨٩٤هـ)**: قاضي الجماعة بتونس، وإمامها بجامعها الأعظم، ولّي قضاء المحلة، ثمّ الأنكحة، ثمّ الجماعة، ثمّ صرف نفسه، واقتصر على إمامة جامع الزيتونة الأعظم، والخطابة به، متصدّراً للإفتاء وإقراء الفقه وأصول الدين والعربية والمنطق، وغيرها من العلوم إلى أن توفّي.

تلقّى العلم عن جماعة من أصحاب ابن عرفة، من أشهرهم: البرزلي، وعنه أخذ أحمد زرّوق، شرح حدود ابن عرفة في الفقه، وله فتاوى بعضها في المعيار للونشريسي[٢].

*** أبو العباس أحمد بن عبدالرحمٰن الزليطني القروي المعروف بحلولو (٨٩٨هـ)**: أحد الأعلام الحافظين لفروع المذهب، تلقى عن البرزلي كما صرّح في اختصار فتاويه، وعن ابن ناجي وقاسم العقباني وغيرهم.

له شرحان على مختصر خليل، شرح كبير حسن مفيد سمّاه البيان والتكميل في مختصر خليل، فيه أبحاث وتحرير، اعتنى فيه بنقل الفقه المتين عن ابن عبدالسلام وابن عرفة، وشرح آخر صغير، وله التوضيح في شرح التنقيح للقرافي، والضياء اللامع في شرح جمع الجوامع للسبكي، وشرح الإشارات للباجي، واختصر نوازل شيخه البرزلي اختصاراً جيّداً.

ولي قضاء طرابلس، ثمّ عزل عنها ورجع إلى تونس، فتولّى مشيخة

(١) شجرة النور الزكية ص ٢٥٩، تراجم المؤلفين التونسيين ٤٠٧/٣ ـ ٤٠٧، تكميل الصلحاء والأعيان ص ٢٣، كتاب العمر ٧٩٩/٢ ـ ٨٠٢.

(٢) توشيح الديباج ص ٢١٦ ـ ٢١٧، نيل الابتهاج ٢٤٧/٢، وفيات الونشريسي ص ١٥٢، شجرة النور ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠، الضوء اللامع ٢٨٧/٨ ـ ٢٨٨، لقط الفرائد ص ٢٧٠، فهرس الفهارس ٤٣٠/١ ـ ٤٣١، إتحاف أهل الزمان ٦٤/٧ ـ ٦٥، تاريخ معالم التوحيد ص ٦٢، تراجم المؤلفين التونسيين ٣٥٨/٢ ـ ٣٦٢، كتاب العمر ٨٠٤/٢ ـ ٨٠٩.

مدارسها[١].

ثمّ جرت بعد ذلك فتن وحروب عطّلت سير العلم، كانت نهايتها الاحتلال الإسباني الذي سيطر على البلاد التونسية لمدّة أربعين سنة تقريبا، بدّد خلالها السكّان بالهجرة والقتل، وأهان المقدّسات حتّى ربطت الخيول بصحن جامع الزيتونة الأعظم، وألقي ما فيها من نفائس المخطوطات بالطرقات، ثمّ داسوها بخيولهم ومزّقوها بسيوفهم حتّى أنّ المارّ حول الجامع من جميع جهاته لا تكاد تقع قدمه على غير الكتب[٢].

ولم يكن بجامع الزيتونة بعد ذلك إلاّ نحو عشرين مجلّدا، بقيّة من خزائن سلاطين الحفصيين التي كانت تشتمل على أكثر من ثلاثين ألف مجلّد مخطوط باليد[٣].

وأصبحت سوق العلم بتونس في القرن العاشر خاملة، فلا نجد فيها ما وجدنا في القرون قبلها من الأعلام الذين يدلّ وجودهم في القطر على أنّ هناك علوما ساطعة وأنظارا واسعة، بحيث كادت المائة العاشرة تنقضي دون أن يكون هنالك رجال لهم في الفقه أقدام راسخة وأنظار ثاقبة[٤].

وممّا زاد الطين بلّة تعاقب الأوبئة حوالي القرن الحادي عشر، حتّى قال الوزير السراج: «إنّ العلم انقطع من تونس بذلك الفناء المتعاقب، وذلك من بقيّة الأسباب التي أتت على ما تركته أيدي الفتن والسرقة، لأنّ

---

(١) توشيح الديباج ص ٥٢، نيل الابتهاج ١/١٣٤ ـ ١٣٦، شجرة النور ص ٢٥٩، الضوء اللامع ٢/٢٦٠، أعلام ليبيا ص ٣٧ ـ ٣٨، تكميل الصلحاء والأعيان ص ١٣ ـ ١٤، الحلل السندسية ٣/٦٤٥ ـ ٦٤٧، تراجم المؤلفين التونسيين ٢/١٦٥ ـ ١٦٧، كتاب العمر ٢/٨١٠ ـ ٨١٢، دائرة مقديش ١/٦٠٢ ـ ٦٠٣، وذكر وفاته سنة ٨٤١هـ.

(٢) صفحات من تاريخ تونس ص ٢٩٨، إتحاف أهل الزمان ١/١٤، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد ص ٤٨، الحلل السندسية ٤/١١٠٤ ـ ١١٠٥، شجرة النور الزكية ـ التتمّة ـ ص ١٥٦.

(٣) صفحات من تاريخ تونس ص ٢٨٩.

(٤) محمد الخضر حسين: تونس وجامع الزيتونة ص ٩، وص ٢٠.

الكتب لا تعيش طويلاً بين غير أهل العلم»(١).

وهكذا أصيب النشاط العلمي بانتكاسة عظيمة، وخرج العلماء من البلاد فقصدوا مصر وفاس وتلمسان وغيرها من البلاد، خوفا من الفتن والحروب التي امتدّت خلال النصف الثاني من القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر، نتيجة سوء تصرّف السلاطين الأخيرين للدولة الحفصيّة، وتمكينهم للاحتلال الإسباني، ثمّ دخول الأتراك على إثر ذلك، حتّى قيل إنّ العلم لأوّل دولة الأتراك قد ارتفع من تونس بالمرّة(٢).

وبعد استقرار الأتراك العثمانيين بتونس اتّجهت الهمم لإحياء الحركة العلميّة، فأعادوا المدارس القديمة ـ التي كان الاحتلال الإسباني قد خرّبها ـ إلى سالف أنشطتها، وأسهموا في إقامة مدارس جديدة لتدريس المذهب الحنفي، الذي أصبح المذهب الرسمي للدولة، واستقدموا لذلك العلماء والقضاة الذين كانوا يعيّنون من الباب العالي.

فأصبح في المرحلة الثانية من هذا الدور، المذهبان المالكي ـ الذي هو مذهب غالبيّة التونسيين ـ والحنفي ـ الذي هو المذهب الرسمي للدولة ـ يسيران جنبا إلى جنب في إذكاء الحركة العلميّة.

فأمّا المالكيّة فقد برز منهم أعلام، وضعوا التآليف الحسان، فأحكموا أصولها وأتقنوا فصولها، وجاؤوا فيها بدقّة الاستنباطات، وجودة الاحترازات، وحسن الاعتراضات، من أشهرهم:

* **أبو الفضل قاسم بن زرّوق بن محمد عظّوم (١٠٠٩هـ)** : من بيت علم وفضل، كان فقيهاً محقّقا للفتيا والنوازل.

ولي الفتيا بتونس، وكان لا يأخذ أجراً على ذلك إلاّ قدر ما يكفيه ليومه، مع أنّه فقير ذو عيال.

---

(١) صفحات من تاريخ تونس ص ٢٩٩.

(٢) إتحاف أهل الزمان ١١/٧.

وضع تآليف مفيدة، منها: برنامج الشوارد على مسائل الشامل في الفقه المالكي لبهرام، اعتمده المفتون والقضاة من الحنفيّة والمالكيّة بتونس، وله أيضاً أجوبة على نوازل في الفقه، محرّرة مع إطناب، وكان قد سئل عنها ، وله غير ذلك[١].

*** أبو عبدالله عليّ ـ وقيل محمد ـ تاج العارفين بن أبي بكر العثماني التونسي (ق ١١هـ)**: من ذريّة الخليفة الثالث عثمان بن عفان، استمرّت إمامة جامع الزيتونة والخطابة في بيته بين بنيه مائة وثلاث وسبعين سنة، وكان أوّل الأئمّة من بيته، وليها بإشارة من شيخه أبي يحيى بن قاسم الرصاع (١٠٣٣هـ).

كان زينة لجامع الزيتونة بدروسه، له رسالة إعمال النظر الفكري في تحرير الصاع النبوي التونسي، لتؤدّى به زكاة الفطر، وله بينه وبين بعض أقرانه مراسلات تدلّ على فضل ونبل[٢].

ثمّ كان من بعده تلميذه:

*** أبو عبدالله محمد بن إبراهيم فتاتة التونسي (١١١٥هـ)**: أخذ عنه من لا يعدّ كثرة من أهل عصره، وحصل على ما كتبه من الفتاوى وجمعها في مجموع، ولمّا تولّى الفتيا كان يفتي منها.

في سنة ١٠٨٨هـ كانت الفتنة المشهورة في عهد محمد باي وأخيه علي وعمّهما، تسبّب عنها القبض على صاحب الترجمة وسجنه مع رفيقه مفتي الحنفية أبي المحاسن يوسف درغوث، وقتل هناك ونجا صاحب الترجمة لفراره ليلاً من بين العسس واختفائه، ثمّ فرّج الله عنه.

ولمّا تولّى الفتيا سنة ١٠٩٠هـ زانها بعلمه وعمله، أكمل شرح الدرّة

(١) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٨٣ ـ ١٨٤، شجرة النور الزكية ص ٢٩٢.

(٢) إتحاف أهل الزمان ٦٧/٧، ذيل بشائر أهل الإيمان ص١٨٥، شجرة النور الزكية ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

البيضاوي للشيخ الأخضري في الفرائض[١].

ومن تلاميذه، شيخ الإسلام:

أبو عبدالله محمد زيتونة الشريف المنستيري المنشأ والدار، التونسي القرار (١٠٨١هـ ـ ١١٣٨هـ): ولد بالمنستير، عالم تونس ومفتيها، وحافظ المغرب على الإطلاق، أقام بالقيروان نحو الثلاثة أعوام، فتفقّه على مشائخها كالشيخ محمد عظوم وطبقته، ثمّ سافر إلى تونس وأخذ عن أعلامها كالشيخ محمد فتاتة وابنه حمودة وغيرهما.

حجّ سنة ١١١٤هـ ثمّ توجّه إلى مصر فاستفاد وأفاد، وأخذ عن الشيخ محمد الزرقاني، ثمّ عاد إلى تونس فولي التدريس بالمدرسة المرادية فأفاد وأجاد وتخرّج به الكثير من الأعلام، مثل: محمد سعادة وغيره.

لازم التدريس والإفادة وتولى الإمامة والخطابة بجامع باب بحر ـ المعروف اليوم بجامع الزرارعيّة ـ وصنّف تصانيف عديدة[٢].

* **أبو عبدالله محمد بن محمد الخضراوي (١٠٨٧هـ ـ ١١٤٤هـ)**: عالم إفريقية على الإطلاق الذي تصدّر للتدريس بعدّة أماكن، ثمّ تولّى التدريس بجامع محمد باي المجاور لضريح الشيخ محرز بن خلف، وأفاد خلقاً كثيراً، ثمّ درّس بالمدرسة الحسينيّة الكبرى القريبة من الجامع الأعظم، وهي المدرسة التي أنشأها حسين باي وكان الشيخ الخضراوي أوّل مدرّس بها[٣].

* **أبو عبدالله محمد بن حسن بن عبدالرزّاق الهدّة السوسي**

(١) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٩٨ ـ ١٩٩، شجرة النور الزكية ص ٣٢٠ ـ ٣٢١، تراجم المؤلفين التونسيين ١٥/٤ ـ ١٦، كتاب العمر ٨٢٦/٢ ـ ٨٢٧.

(٢) بشائر أهل الإيمان ص ٢٢٤ ـ ٢٣٠، شجرة النور الزكية ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥، إتحاف أهل الزمان تاريخ معالم التوحيد ص ١٢٥، و٣٠١ ـ ٣٠٢، تراجم المؤلفين التونسيين ٤٣٧/٢ ـ ٤٤٢، هدية العارفين ٣١٢/٢، كتاب العمر ١٨٥/١ ـ ١٨٨.

(٣) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥، شجرة النور الزكية ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(١١٩٧هـ): نشأ في بيت علم وفضل بسوسة، قرأ على والده الشيخ حسن الهدّة عالم سوسة وفقيهها ومتولّي الفتيا والتدريس بها، ثمّ ارتحل في طلب العلم إلى مصر، فأخذ عن أعلامها مثل الشيخ الصعيدي، وغيره من أعلام الأزهر، ولمّا رجع تصدّر للتدريس بمسقط رأسه سوسة، فأفاد وعلا صيته.

دخل الحاضرة وسكنها، وتصدّر للتدريس بجامع الزيتونة الأعظم، فبثّ العلم في صدور الرجال، ثمّ عاد إلى مسقط رأسه.

كان محبّبا إلى الناس، معظّماً عنه الخاصّة والعامّة، وكان الشيخ أبو الفداء إسماعيل التميمي يجلّه، له مصنّفات مفيدة، منها ما بيّضه بنفسه، ومنه ما جمعه ابنه بعد وفاته[(١)].

ثمّ كان تلميذه، نادرة الدهر في الحفظ:

* **أبو الفلاح صالح بن حسين الكواش الكافي التونسي (١١٣٧هـ - ١٢١٨هـ)**: شيخ الشيوخ، وعمدة أهل التحقيق والرسوخ، أخذ عن أعلام تونس، واجتمع في طرابلس بالشيخ التاودي، انتفع به الكثير، وبقي أثره وشاع، وعلى يديه تخرّج ثلّة من أعلام تونس، منهم: الشيخ إبراهيم الرياحي، والشيخ حسن الهدّة السوسي، وأحمد زرّوق الكافي.

خرج من الحاضرة خفية فرارا من سطوة علي باشا باي، لأنّه توسّم فيه الميل لأبناء عمّه، فتوجّه إلى طرابلس، ومنها إلى أزمير، ثمّ إلى الآستانة، فنال بها حظوة وشهرة، ونزل بدار شيخ الإسلام، ورام الإقامة هناك، ثمّ كاتبه محمد باي بن حسين باي طالبا منه القدوم إلى تونس فقدمها، ونال إقبالا، ثمّ اتّهمه الباشا علي باي بمقال سوء في جانبه ونفاه إلى منزل تميم شهورا، ثمّ عفى عنه.

---

(١) إتحاف أهل الزمان ١٤/٧ - ١٥، فهرس الفهارس ١١٠٣/٢ - ١١٠٤، تراجم المؤلفين التونسيين ١٠٠/٥ - ١٠١، شجرة النور الزكية ص ٣٥١، صفحات من تاريخ تونس ص ١٧٤، كتاب العمر ٤٣٨/١ - ٤٣٩، الجواهر السنيّة في شعراء الديار التونسيّة ص ٣٤١ - ٣٤٦.

نال سنة ١١٧٥هـ مشيخة المدرسة المستنصريّة، وحين توفّي رثاه جماعة منهم تلميذه أحمد زرّوق الكافي، وقال فيها: يموت العلم إن مالت صالح[١].

* **أبو محمد حسن بن عبدالكبير الشريف المعروف بالشريف التونسي (١٢٣٤هـ)**: مفتي تونس وإمامها بالجامع الأعظم، نشأ في بيت شرفه ناسجا على منوال سلفه، فأخذ عن أبيه بسنده لجدّه الأكبر.

انتفع به خلق كثير، ومن أشهر من تلقّى عنه: الشيخان إبراهيم الرياحي، وابن ملوكة، وكان رحمه الله يتمتّع بسياسة تعليميّة عالية، وبمنهج تربويّ راق، فكان يفاكه تلاميذه في الدرس خشية سآمتهم، وإذا بحث أحدهم بحثا أحسن الإصغاء إليه وأعاده على الطلبة بأوضح عبارة، تدريبا لطلبته على المباحثة، واستئناسا بنجابتهم.

تولّى الإمامة بالجامع الأعظم فاهتزّ المنبر به سرورا، وامتلأ نورا، وخطب من إنشائه البديع بما يزري بالبديع، وقرع بالوعظ المسامع بما أجرى المدامع.

صنّف حاشية على ميّارة على لاميّة الزقّاق، ومعين المفتي وفتاوى، وغير ذلك، وكان قد ولّي الإفتاء سنة ١٢٣٠هـ بعد تمنّع، وتوفّي وهو على الإفتاء بعد أربع سنوات[٢].

* **أبو عبدالله محمد بن سليمان المناعي (١٢٤٧هـ)**: أخذ عن الشيخ

(١) إتحاف أهل الزمان ٤٤/٧ ـ ٤٦، شجرة النور الزكية ص ٣٦٥، اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة ص ١٢٦ ـ ١٢٧، تاريخ معالم التوحيد ص ٢٩٥، كتاب العمر ٥٤٦/٢ ـ ٥٤٨.

(٢) إتحاف أهل الزمان ٦٩/٧ ـ ٧٢، شجرة النور الزكية ص ٣٦٧، اليواقيت الثمينة ص ٩٤ ـ ٩٥ تراجم المؤلفين التونسيين ١٨٨/٣ ـ ١٨٩، تاريخ معالم التوحيد ص ٦٧ ـ ٦٨، صفحات من تاريخ تونس ص ١٦٩، كتاب العمر ٨٥٨/٢ ـ ٨٦٠.

صالح الكوّاش، وحسن الشريف وإسماعيل التميمي وإبراهيم الرياحي، وغيرهم.

رحل في طلب الفقه إلى حاضرة فاس، فأخذ عن الشيخ التاودي وغيره، وعاد إلى تونس فدرّس بالجامع الأعظم.

كان عالماً متبحّراً في الفقه وأصوله، طويل الباع في غيره من الفنون، حسن المحاضرة والمناظرة، آية في الوفاء والإعانة على نوائب الدهر، حتى روي أنّه حين مات كانت داره مرهونة في مال نفّس به على صديق له[١].

* **أبو الفداء إسماعيل التميمي التونسي (١٢٤٨هـ)**: قاضي تونس ومفتيها ثمّ رئيس المفتين بها، تلقّى عن أعلام عصره مثل الشيخ الكوّاش وانتفع به وأجازه، وعنه أخذ الشيخ إبراهيم الرياحي وشيخ الإسلام محمد بن أحمد بن الخوجة، والشيخ صالح الغنوشي السوسي، وغيرهم.

تولّى خطّة القضاء بالحاضرة سنة ١٢٢١هـ، ثمّ نقل لخطّة الفتوى سنة ١٢٣١هـ، ثمّ أعيد للقضاء في السنة نفسها، ثمّ امتحن سنة ١٢٣٥هـ بالعزل والنفي إلى ماطر، وسجن أتباعه، وبعد أربعة وثلاثين يوماً صدر الإذن بسراحه، فعاد إلى تونس يقرىء بداره، فاقتطف التلاميذ من رياض منظومه ومفهومه، وقابله العام والخاص بإجلال وتعظيم لم يعهد أيّام ولايته، فكان كما قيل:

إنّ الأميـــره والـــذي يـضـحـى أمـيـرا بـعـد عـزلـه
إن زال سلطان الولاية فـهـو فـي سـلـطـان فـضـلـه

وفي سنة ١٢٣٩هـ أعيد لخطّة الإفتاء، ثمّ صار سنة ١٢٤٣هـ رئيس الفتوى، وتوفّي على ذلك بعد خمس سنوات، ورثاه تلميذه إبراهيم الرياحي، وغيره.

كان آخذاً مآخذ المجتهدين الأخيار في تعليل المسائل الفقهيّة بمدارك

(١) إتحاف أهل الزمان ١٦٥/٧ ـ ١٦٦، شجرة النور الزكية ص ٣٧٠.

أصولها الشرعيّة، ويصرّح بأنّه من أهـل الترجيح، ولا ينكر عليـه أحد، بل إنّ الفقهـاء يعتمدون ترجيحـه عند تسليم الدليـل، ويفزعون إليه فـي الفتوى ومشكلات المسائل، يستفتونه من فاس ومن قسطنطينية ومن الجزائر ومن طرابلس، فيجيب كتابة.

وكان أحياناً يعارض شيخ الفقه وكبير أهل الشورى، أبا عبدالله محمد المحجوب، واختلفا مرّة في مسألة، فقال له الشيخ المحجوب: «أنا أفتي في دين الله ستّين سنة، وأعرف المسألة من حين روايتها عن مالك، وكلّ من تكلّم فيها، فقال له الشيخ إسماعيل: «لا غرابة في اتّصافك بذلك، فإنّك حافظ المذهب، لكنّي أعلم اعتماد كلّ متكلّم في المسألة على أيّ دليل»، صنّف رسائل وفتاوى كثيرة محرّرة مفيدة[١].

*** أبو محمد حسن بن محمد بن حسن الهدّة السوسي (١٢٤٨هـ):** رئيس المفتين بسوسة، أخذ عن والده وعن الشيخ صالح الكواش، وكان قويّ العارضة، بارعا في تحقيق المناط، وكان الشيخ إسماعيل التميمي يطيل الثناء عليه.

تصدّر للتدريس بتونس فأفاد وأجاد، ثمّ رجع إلى بلده سوسة فتدرّج في الخطط العلميّة حتّى صار رئيس المفتين بها، وله رسائل شتّى في مواضيع فقهيّة[٢].

*** أبو عبدالله محمد السنوسي بن عثمان بن محمد الكافي عرف ابن مهنيّة (١١٧٩هـ ـ ١٢٥٥هـ):** نشأ في طلب العلم وجدّ في تحصيله، وانتفع بأعلام عصره، ولازم الشيخ صالح الكوّاش.

---

(١) إتحاف أهل الزمان ١١/٨ ـ ١٤، شجرة النور الزكية ص ٣٧٠ ـ ٣٧١، اليواقيت الثمينة ص ٨٤ ـ ٨٥، تراجم المؤلفين التونسيين ٢٤٧/١ ـ ٢٤٨، صفحات من تاريخ تونس ٤٠٦ ـ ٤١٨، كتاب العمر ٨٦١/٢ ـ ٨٦٤.

(٢) إتحاف أهل الزمان ١٦٦/٧، شجرة النور الزكية ص ٣٧١، تراجم المؤلفين التونسيين ٩٩/٥، كتاب العمر ٨٦٥/٢ ـ ٨٦٦.

كان عالماً فقيها، واسع الاطّلاع، تقدّم للتدريس والخطط العلميّة، فولي القضاء ببنزرت، ثمّ قضاء باردو ثمّ قضاء الحاضرة سنة ١٢٥٤هـ، له رجز في الأحكام الجاري بها العمل بتونس سمّاه لقط الدرر، أطول من نظم ابن عاصم[1].

*** أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالقادر الرياحي (١١٨٠هـ - ١٢٦٦هـ):** الطرابلسي التستوري المنشأ التونسي القرار، شيخ الجماعة ورئيس المفتين بتونس وإمامها وخطيبها بالجامع الأعظم.

قدم الحاضرة أواخر القرن الثاني عشر، وأخذ عن أعلام عصره كالشيخ الكوّاش، والشيخ حسن الشريف والشيخ إسماعيل التميمي وغيرهم، وغالبهم أجازه إجازة عامّة متّصلة السند، واجتمع بأعلام العصر بالإسكندريّة ومصر وبالحرمين الشريفين.

تصدّى لبثّ العلوم وأجاد وأفاد وتخرّج عليه الكثير من الأعلام وأخذوا عنه، منهم: الشيخ محمد بن ملوكة والشيخ المناعي والشيخ ابن سلامة والشيخ الطاهر بن عاشور الجدّ والشيخ سالم بو حاجب وغيرهم كثير.

ولاّه الباي حمودة باشا خطّة القضاء سنة ١٢٢١هـ فامتنع وتعلّل بأنّه لا يسوغ له أن يتقدّم على شيخيه أبي الفداء إسماعيل التميمي، وأبي العباس أحمد بوخريص (١٢٣٥هـ) وأنّهما أصلح للخطّة منه، ولمّا لم ينفعه ذلك، خرج من الحاضرة هربا من ولاية القضاء، فقدّم الباي الشيخ إسماعيل التميمي للخطّة، فرجع عندها إبراهيم الرياحي إلى ما ألفه واعتاده من التدريس والإفادة.

غير أنّه ـ كما يقال ـ ليس في كلّ مرّة تسلم الجرّة، فقد قدّمه بعد

(١) إتحاف أهل الزمان ٤١/٨، شجرة النور الزكية ص ٣٨٦، تراجم المؤلفين التونسيين ٧٢/٣، صفحات من تاريخ تونس ص ١٧٤ وص ١٩٤، كتاب العمر ٨٦٧/٢ - ٨٦٨.

ذلك الباشا حسين باي لرئاسة أهل الشورى من المفتين بعد موت الشيخ إسماعيل التميمي، وقال له الحاضرون: «قد تعيّن الأمر عليك شرعا بعد وفاة الشيخ إسماعيل» فقبل الولاية.

له رسائل وأجوبة عن مسائل فقهيّة، ومنظومة في الصلوات التي تفسد على الإمام دون المأموم، ورسالة رفع اللجاج في نازلة ابن الحاج في شأن الحضانة، ورسائل كثيرة في مسائل متنوّعة[١].

* **أبو عبدالله محمد بن صالح بن ملوكة التونسي الشهير بابن ملوكة (١٢٧٦هـ)**: شيخ الجماعة، أخذ عن الشيخ حسن الشريف، والشيخ إبراهيم الرياحي، وغيرهما من أعلام عصره، وعنه أخذ من لا يعدّ كثرة منهم: الشيخ سالم بو حاجب، والشيخ محمد عليش المصري.

انتفع به غالب من يشار إليه من أهل تونس، خوطب في القضاء والفتوى فامتنع، وخوطب لإمامة الجامع فتعلّل بأنّه لا يغيّر زيّ لبسه إلى زيّ الأئمّة، وكان يلبس الخشن ولا يعتمّ بعمامة الفقهاء.

كان له قدم راسخ في علم الفرائض، ألّف فيه شرحاً على الدرّة، وله غير ذلك[٢].

* **أبو عبدالله محمد بن محمد الطيّب بن أحمد بن علي بن سلامة (١٢٦٦هـ)**: المحرّر للأحكام والنوازل، أخذ عن الشيخ إبراهيم الرياحي، والشيخ ابن ملوكة والشيخ محمد المناعي وغيرهم.

---

(١) إتحاف أهل الزمان ٧٣/٧ ـ ٨٢، شجرة النور الزكية ص ٣٨٦ ـ ٣٨٩، اليواقيت الثمينة ص ٦٨ ـ ٧١، الفكر السامي ٣٥٨/٤، فهرس الفهارس ٤٣٧/١ ـ ٤٣٩، تراجم المؤلفين التونسيين ٣٨٧/٢ ـ ٤٠٠، كتاب العمر ٨٦٩/٢ ـ ٨٧٤، تاريخ معالم التوحيد ص ٦٩ وما بعدها.

(٢) إتحاف أهل الزمان ١٠٩/٨ ـ ١١١، شجرة النور الزكية ص ٣٩٠، كشف الظنون ٢٩٣/٦، تراجم المؤلفين التونسيين ٣٧٦/٤ ـ ٣٧٩، هدية العارفين ٣٧٦/٢، كتاب العمر ٥٦٢/٢ ـ ٥٦٥.

ولي قضاء الحاضرة، ثمّ الإفتاء، وتقدّم على المفتين لذكائه الأصيل، ووِلِّي الخطابة بجامع سبحان الله.

له حاشية على شرح التاودي على التحفة(١).

* **أبو عبدالله محمد الطاهربن محمد بن الشاذلي بن عبدالقادر بن محمد بن عاشور(١٢٣٠ هـ ـ ١٢٨٤هـ)**: أخذ عن أبيه وأخيه، وعن الشيخ محمد بن ملوكة وأبي عبدالله محمد بن الخوجة وأبي إسحاق إبراهيم الرياحي وأبي عبدالله محمد بيرم الثالث وأبي عبدالله محمد معاوية، وحبس على طلب العلم شبابه، حتّى نال الغايات البعيدة وتصدّر للتدريس وجرى منه بالجامع الأعظم سيل الإفادة.

كانت له همّة عالية حملته على الانقطاع إلى الدواوين الفقهيّة، فعمّر بها أوقاته، حتى حذا في الفقه حذو أبي الفداء إسماعيل التميمي من مشاركة الأصول بالفروع، لا يذكر فقها وترجيحا إلاّ بحديث، وكان يقول: «لا يعجبني أن أقول هكذا قال الفقهاء، وما يمنعني أن أعلم الدليل مثل ما علموه؟».

ولّي سنة ١٢٦٧هـ خطّة القضاء في عهد المشير أحمد باي، ثمّ الفتوى سنة ١٢٧٧هـ، فصدرت منه الفتاوى التي سارت صداها في القطر التونسي، أظهر فيها من تطبيق الفقه على الأصول ما غفل عنه كثير من أهل العلوم، ثمّ أسندت له نقابة الأشراف والنظارة على بيت المال، في عهد المشير محمد الصادق باي.

كان يفتح لتلامذته أبواب التفكير في حصّة الدرس، ويجرئهم على مجاراة الكاتبين بأنظارهم، حتّى أخرج لهم خبايا العلوم بطريقته المبتكرة يومئذ بجامع الزيتونة، وهي نفوذ النظر من أوّل الأمر لباب المسائل، والتوسّع فيها بالنظر في أصولها ونتائجها.

وعلى هذه الطريقة تخرّج أعلام النهضة العلميّة التي حدثت بتونس في

---

(١) إتحاف أهل الزمان ٨/٧٧ ـ ٧٩، شجرة النور الزكية ص ٣٨٦.

أواسط القرن الثالث عشر، من أمثال: أحمد بن الخوجة، وسالم بو حاجب ومحمود بن الخوجة، ومحمد النجّار، وأحمد كريّم[١].

وأمّا مذهب السادة **الحنفيّة**، فقد انتشر في بداية الأمر بالأعلام الذين قدموا من دار الخلافة إلى البلاد التونسيّة، وكان من أشهرهم:

* **أحمد أفندي المشهور بمنلا أحمد** الذي قدم أيّام عثمان داي (١٠٠٧هـ - ١٠١٩هـ) فمكث بتونس مدّة، وقد وجدها خاوية من العلم، فأخذ عنه جماعة، من أعلام القرن الحادي عشر.

كان بارعا في الفقه والأصول والتفسير والنحو والبيان والمنطق، ومن رسوخه في الفهم، أنّ بعض طلبته أراد أن يسرد عليه تركيبا من كتاب، فقال له: «إنّي لست بقصّاص، ولكن عبّر لي من شدقك بعبارة تنبىء عن مراد المؤلف».

وكان يقول: «والله ما أبو السعود بأعلم منّي» وكان أبو السعود (٩٨٢هـ) تلميذا لوالده.

توجّه المنلا أحمد إلى المغرب الأقصى، فلمّا عاد كان يقول: «وجدت بجامع القرويين بمدينة فاس سبعة عشر كرسيّا يقرؤون التفسير، كلّهم عن التفسير بمعزل إلاّ أنّ ملكهم يفهم الخطاب[٢].

* **ورمضان أفندي**: وهو أوّل خطيب بجامع يوسف داي، وأوّل مدرّس بمدرسته، وأوّل من أفتى بمذهب الإمام أبي حنيفة بتونس، وكان سبب مجيئه إلى تونس لتولّي القضاء، وحين نزل بتونس ولّوه الخطابة والتدريس والإفتاء من أجل الانتفاع بعلمه، فاستقرّ بتونس إلى أن توفّي أيّام يوسف داي (١٠١٩ هـ - ١٠٤٧هـ) فتولّى جميع وظائفه من بعده تلميذه أحمد الشريف الحنفي[٣].

---

(١) إتحاف أهل الزمان ٨/١٦٥ - ١٦٧، تونس وجامع الزيتونة ص ١٠٨ - ١١١.
(٢) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٦٧ - ١٦٨، إتحاف أهل الزمان ٧/١١.
(٣) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٦٩.

* **عبدالله أفندي**: كان عالماً محقّقا، قد شهد له أبناء عصره بالعلم والفضل، وكان أحياناً يعمل بفتواه في نوازل وقتيّة.

كان حين يعظ الناس بجامع القصبة يصعد على كرسيّ، وكان يحضره داي وقته فمن دونه، ولِّي التدريس بالمدرسة الشماعية، وكان شديد النكير على من يخالف الشرع.

أطرد من تونس لكلام قيل فيه، فقصد مكّة واستوطن بها، فكان علماء مكّة يشهدون له بالتحقيق والفضيلة بعث إليه الداي أحمد شلبي في ولايته برسائل يطلب منه العودة إلى تونس، فامتنع واستقرّ بمكّة[1].

* **أحمد أفندي بن عبد النبيّ أفندي**: وكان قدومه إلى تونس بوظيفة القضاء، وحين نزل تونس منع من الرجوع إلى بلاده رغبة في الانتفاع بعلمه، وكان أوّل إمام خمس أمّ بجامع يوسف داي[2].

ثمّ نشأ بهؤلاء جيل من مواليد تونس درسوا مذهب أبي حنيفة، وتميّزوا بحسن التقرير فيه، وقوّة القريحة وحسن النظر، وغوصهم في استخراج المسائل الحوادث من أصولها، وردّها إلى القواعد، وكان أبرزهم:

* **أبو عبدالله محمد بن أحمد أفندي الشهير بالقصري (١٠٩٣هـ)**: وكان فقيهاً مشاركا، تولّى القضاء بتونس أيّاما، وتولّى التدريس بالمدرسة اليوسفيّة عوضا عن الشيخ مصطفى بن عبدالكريم لمّا عزل عنها، ودرّس أيضاً بالشمّاعية، وكان إماماً خطيبا بجامع يوسف داي، ثمّ ولِّي إمامة جامع القصر وخطابته، وبقي كذلك إلى أن توفّي[3].

تولّى ابنه عبد النبيّ وظائفه من بعده، فولي نيابة القضاء بتونس،

---

(١) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٨٢.
(٢) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٦٩.
(٣) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٨٠ ـ ١٨١.

وكان إماماً خطيباً بجامع القصر إلى أن توفّي سنة ١١١٦هـ[١].

* **أبو العباس أحمد الشريف** الذي ولد بتونس، وهو من أبناء الأتراك، فتفقّه أوّل الأمر على المالكيّة، وقرأ مختصر خليل، ولمّا قدم رمضان أفندي قرأ عليه درر الحكام في شرح غرر الأحكام لمنلا خسرو بالمدرسة اليوسفيّة، وحين توفّي شيخه رمضان باي، تولّى الشيخ الشريف وظائفه، الفتيا والخطابة والتدريس.

كان له شغف بقراءة الدرر، وكان يجلس للإقراء من بعد صلاة الصبح إلى قرب الزوال، ولا يقدر أحد أن يمشي في المدرسة بنعله خوفا من التشويش عليه، وعزل في آخر حياته عن الفتوى[٢].

* **محمد بن مصطفى الأزهري** : أصله من طرابلس بليبيا، كان من أبناء الأتراك، دخل الديار المصريّة، وأخذ عن علمائها أشهرهم إبراهيم اللقّاني، ثمّ دخل تونس فولي القضاء بها على مذهب أبي حنيفة، وكان يذكر في فتواه مذهب الحنفيّة والمالكيّة.

ولي الفتوى بعد عزل الشيخ أحمد الشريف[٣].

* **محمد برناز (١٠١٢هـ - ١٠٨٤هـ)**: درّس بالمدرسة الشماعية مرارا، وكان خطيبا بجامع القصبة إلى أن توفّي، وهو أوّل إمام صلّى الخمس بجامع محمد باشا، ولِّي القضاء بتونس، ثمّ تخلّى عنه، وهو أوّل قاض حنفيّ استقضي من علماء تونس، وكان منزله مقصودا للعامّة والخاصّة.

توفّي قتيلا بسبب فتنة وقعت، ونهب ما بداره من أثاث وكتب[٤].

* **أبو عبدالله محمد بن شعبان (١٠٢٠هـ - ١٠٩٧هـ)**: كان أبوه

---

(١) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٨٨.

(٢) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٧٠.

(٣) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٧١ - ١٧٢.

(٤) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٧٣ - ١٧٤.

إفرنجيّا فأسلم، ولد بتونس، وتفقّه بها على علمائها، وكان عمدته أحمد الشريف.

كان فقيهاً ماهرا في الفقه، عالماً بالصحيح والأصحّ من الأقوال المختلف فيها، حتى كان يقال له جوهرة في الفقه، قلّد إمامة جامع يوسف داي لأكثر من ثلاثين سنة، وكان أوّل خطيب خطب بجامع محمد باشا، وذلك سنة ١٠٦٦هـ[١].

* **مصطفى بن عبدالكريم (١٠٢٨هـ - ١١٠٦هـ)**: كان أبوه خطيبا بجامع القصبة، ولد مصطفى بتونس، وتفقّه بها على الشيخ أحمد الشريف وغيره حتّى أصبح رئيس الأحناف في زمانه، وما من فقيه بتونس إلاّ وأخذ عنه ممّن ليس في طبقته.

أقرأ كتاب الدرر كثيراً، وإصلاح الوقاية في فروع الحنفيّة، وشرحه الإيضاح كلاهما لشمس الدين أحمد بن سليمان الشهير بابن كمال باشا (٩٤٠هـ).

ولي الخطابة بجامع يوسف داي، والتدريس بالمدرسة اليوسفيّة، وولِّي الإفتاء بعد موت الشيخ محمد بن مصطفى الأزهري، فكان لا يفتي إلاّ كتابة، وولِّي خطابة جامع القصبة بعد وفاة الشيخ محمد برناز، ثمّ ولِّي التدريس بجامع محمد باشا، وأضيفت له إمامة الخمس به والخطابة.

كان إذا طالع كتاباً متنا أو شرحاً يسرده في درسه بلفظه، وكان إذا طالع لا يمارى ولا يبارى، وإذا سئل عن مسألة، فربّما يجيب عنها في حينها، وربّما يتراخى عن الجواب أيّاماً، أو أشهراً، لأنّه كان لا يجيب إلاّ عن تحقيق[٢].

* **أبو عبدالله محمد الشهير بابن المحجوبة (١١١٧هـ)**: كان أبوه روميّا فأسلم، اجتهد مع أبيه في طلب العلم، فأخذ عن الشيخ مصطفى بن

---

(١) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٧٤ - ١٧٧.

(٢) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٧٧ - ١٧٩.

عبدالكريم، وتزوّج بابنته، وأخذ كذلك عن محمد بن شعبان وغيره.

كان إمام الخمس بجامع يوسف داي، وهو أوّل خطيب بجامع محمد باي، كان متفنّنا في العربية والفقه، تولّى التدريس باليوسفيّة(١).

* **أحمد بن مصطفى بن محمد بن مصطفى برناز (١٠٧٤هـ - ١١٣٨هـ)**: ولد بتونس وبها نشأ، ودرس على أعلام عصره مثل: مصطفى بن عبدالكريم، ومحمد بن شعبان ومحمد ابن المحجوبة ومحمد فتاتة، وغيرهم ثمّ رحل إلى مصر وأخذ عن عبدالباقي الزرقاني، وإبراهيم الشبرخيتي، وغيرهما.

جاور بمكّة، ثمّ عاد إلى تونس، وتوجّه إلى الجزائر وتلقّى عن أعلام عنابة وقسنطينة، ثمّ رجع إلى تونس فتولّى التدريس بالمدرسة الشماعيّة، ونيابة تدريس اليوسفيّة، ثمّ تدريس المدرسة العنقيّة، ووُلّي الخطابة بالجامع الجديد، ثمّ إمامة جامع يوسف داي.

درّس بجامع الزيتونة، وعدّة أماكن بتونس، وكان غوّاصا في استخراج المسائل المستشكلة، صاحب تدقيق وتحقيق(٢).

* **محمد المحجوب (١١٩٨هـ)**: كان فقيهاً حنفيّا مشاركا في عدّة فنون، وأقرأ الفقه والنحو والبيان وعلم الكلام، ولّي التدريس بمدرسة علي باشا الحنفية، ثمّ الخطابة بالجامع الباشي، ثمّ الفتوى(٣).

* **أبو محمد حسين بن مصطفى برناز (١١٤٠هـ - ١٢٢٨هـ)**: كانت له ملكة حسنة في الفقه، ولّي الفتوى بالمنستير، وإمامة جامعها الحنفي وخطبته، ثمّ ولّي خطبة جامع القصر بتونس بعد موت أبي عبدالله محمد برتقيز، ثمّ إمامة الجامع اليوسفي، ثمّ القضاء(٤).

---

(١) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ١٨٢ - ١٨٣ .
(٢) ذيل بشائر أهل الإيمان ص ٢٣٠ - ٢٣٤.
(٣) إتحاف أهل الزمان ١٦/٧.
(٤) إتحاف أهل الزمان ٨٤/٧ - ٨٥.

* **أبو الحسن علي بن يوسف الدرويش (١٢٦٢هـ)**: نشأ في طلب العلم بجدّ واجتهاد، ثمّ قدمه الباشا محمود باي إمامه بمسجد بيت الباشا، ثمّ تقدّم لخطّة قاضي المذهب الحنفي، ثمّ انتقل لخطّة الفتوى[1].

* **أبو العباس أحمد بن أبي الثناء محمود الأبيّ (١١٨٠هـ - ١٢٧٤هـ)**: نشأ في حجر أبيه، وأخذ عن الشيخ صالح الكواش المالكي، ومحمد بيرم الثاني الحنفي، وغيرهما من أعلام المالكية والحنفية.

ألزمه شيخه الكواش للتدريس على شبابه فامتنع، ورأى نفسه قاصرا عن رتبة الإفادة، فقال له شيخه: «أنا أعلم بحالك منك» فتصدّر بالجامع الأعظم وأفاد، وعمّر الجامع بحلق التدريس، ثمّ انتخب إماماً ومدرّسا بجامع صاحب الطابع، فلم يزل في بثّ العلم إلى أن عيّنه أحمد باي مفتيا[2].

* **أبو النخبة مصطفى بوغازلي (١٢٧٩هـ)** : درّس بالجامع الأعظم وغالب دروسه الفقه الحنفي، وتولّى مشيخة مدرسة باردو[3].

واشتهرت في هذا الدور عائلات حنفيّة تسابقت في ميادين الكمال والنجابة، من قضاء وفتوى وتدريس وكتابة، كان أشهرها:

* **عائلة البارودي** *:

فمنهم: * **أبو عبدالله حسين بن إبراهيم البارودي (١١١٢هـ - ١١٨٦هـ)**: الذي تصدّر للتدريس الفتوى والخطابة بالجامع اليوسفي، وصنّف رسائل كثيرة في مسائل من الفقه الحنفي[4].

وابنه : * **المفتي أبو عبدالله محمد بن حسين البارودي (١٢١٦هـ)**:

---

(١) إتحاف أهل الزمان ٦٢/٨.

(٢) إتحاف أهل الزمان ١٠٤/٨ - ١٠٥.

(٣) إتحاف أهل الزمان ١٣١/٨.

(٤) إتحاف أهل الزمان ٣١/٧ (في ثنايا ترجمة بيرم الأوّل)، تراجم المؤلفين التونسيين ٩٥/١، كتاب العمر ٩٢٤/٢ - ٩٢٧.

المدرّس بالشماعية نيابة عن والده في حياته، واستقلالاً بها بعد وفاته، وتولّى رئاسة الإفتاء الحنفي سنة ١٢١٤هـ، بعد وفاة الشيخ بيرم الأوّل، وكان أوّل من لقّب الباش مفتي[(١)].

وحفيده المفتي: * **مصطفى بن محمد البارودي (١٢١٩هـ)** الذي ولّي جميع وظائف أبيه، بعد أن ولّي في حياته خطبة الجامع الباشي[(٢)].

والمفتي: * **أبو العباس أحمد بن حسين البارودي (١٢٢٩هـ)**: خطب في صغره بباردو نيابة عن والده ثمّ تدريس الدرس الحنفي بمدرسة الأمير أبي الحسن علي باي، ثمّ الفتوى وخطبة باردو، وسبب تأخّر ولايته الفتوى عنه امتناعه منها أوّلاً[(٣)].

* **أبو عبدالله محمد بن أبي النخبة مصطفى بن محمد بن الحاج حسين البارودي (١٢٦٦هـ)**: أخذ عن أعلام عصره كالشيخ إبراهيم الرياحي ومحمد بيرم الثالث، وغيرهما.

كان فقيها، وولّي إمامة جامع الطرّاز الذي بممرّ دريبة الداي[(٤)].

* **أبو عبدالله حسين البارودي الثاني (١٢٦٦هـ)**: حصل في الفقه الحنفي ملكة، وتقدّم لخطّة الفتوى، فباشرها بدين، وانقياد للحقّ، فقد حكى ابن أبي الضياف أنّه حضر يوماً بالمجلس الشرعي بباردو، وقد حكم الشيخ البارودي بين خصمين، وراجعه بعض الفقهاء، وبيّن مستنده، ووجه غلطه، فأشهد الشيخ البارودي المجلس الشرعي أنّه رجع[(٥)].

* **أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدالله الحاج حسين البارودي (١٢٧٣هـ)**: أخذ عن أبيه وعمّه، وحصلت له مشاركة في الفقه، لا سيّما

---

(١) إتحاف أهل الزمان ٤٠/٧، صفحات من تاريخ تونس ص ٢١٣، كتاب العمر ٩٣٠/٢ ـ ٩٣١، العلماء التونسيون لأرنولد هـ قرين ص ٣٤١.
(٢) إتحاف أهل الزمان ٤٧/٧، العلماء التونسيون ص ٣٤٢.
(٣) إتحاف أهل الزمان ٨٦/٧ ـ ٨٩.
(٤) إتحاف أهل الزمان ٧٣/٨ ـ ٧٤.
(٥) إتحاف أهل الزمان ٧٩/٨.

في العبادات، وتقدّم إماماً بمسجد بيت الباشا، وخطيباً بالجامع الحسيني المعروف بالجامع الجديد وتوابعه[١].

*** عائلة ابن الخوجة *: ومنهم:**

*** أبو العباس أحمد ويدعى حميدة بن الخوجة (١٢٤١هـ)** : مؤسّس لبيت ابن الخوجة العلمي، تضلّع في العلوم، وتصدّر للتدريس، وتدرّج في الولايات العلميّة، فكان إماماً مدرّساً خطيباً بجامع محمد باي المرادي وتقدّم لخطّة القضاء بالمذهب الحنفي، حين صار الشيخ برناز مفتياً، ثمّ انتقل بعد ذلك للفتوى[٢].

*** أبو عبدالله محمد بن حميدة بن الخوجة (١٢٧٩هـ)**: نشأ بين يدي أبيه، فأخذ عنه، وعن محمد بيرم الثاني وبيرم الثالث وغيرهم.

تصدّر للتدريس، وولّي خطّة قضاء المذهب الحنفي سنة ١٢٥١هـ، فبرع في تطبيق الأحكام على النوازل ثمّ انتقل إلى خطّة الفتوى سنة ١٢٥٩هـ، وتقدّم للقضاء أكبر بنيه، وفي سنة ١٢٧٨هـ أسند إليه منصب شيخ الإسلام.

صنّف المحررات الفقهيّة، وتعليقات على كتاب الدرر، وحاشية على شرح المكودي للخلاصة[٣].

*** عائلة بيرم *:**

وهي من أشهر الأسر العلميّة الحنفيّة بالديار التونسية، وكان أوّل هذا البيت رجل من الجند قدم متطوّعاً مع سنان باشا وزير السلطان العثماني

(١) إتحاف أهل الزمان ٨/١٠١.
(٢) إتحاف أهل الزمان ٧/١٤٢ ـ ١٤٣، تاريخ معالم التوحيد ص ١٩١، ٢٨٧، ٣٤١، كتاب العمر ٢/٩٣٣.
(٣) إتحاف أهل الزمان ٨/١٢٧ ـ ١٢٩، فهرس الفهارس ١/٣٨٢ ـ ٣٨٣، تونس وجامع الزيتونة ص ١١٩ ـ ١٢١، تراجم المؤلفين التونسيين ٢/٢٥٧ ـ ٢٥٨، كتاب العمر ٢/٩٤٢ ـ ٩٤٣.

سليم الثاني الذي حرّر البلاد التونسيّة من يد الإسبان سنة ٩٨١هـ[١].

وكانت بداية تداول هذا البيت للوظائف العلميّة مع:

* **الشيخ أبي عبدالله محمد بن حسين بيرم الأوّل (١١٣٠هـ - ١٢١٤هـ)**: الذي تحوّلت إليه الفتوى والخطابة بالجامع اليوسفي بعد أن كانت في بيت درغوث من سنة ١٠٧٥هـ إلى سنة ١١٦٩هـ[٢].

أخذ بيرم الأوّل الفقه الحنفي عن أبي محمد حسن البارودي، وهو عن شيخه عبدالكبير الصوفي، وهو عن شيخه أبي الحسن علي الصوفي وهو عن شيخه أبي النخبة مصطفى بن عبدالكريم، وهو عن صدر الحنفيّة وباثّ المذهب الحنفي بالديار التونسيّة أبي العباس أحمد الشريف الأندلسي.

وعنه أخذ جماعة من أعيان المذهبين، توفي بعد أن استكمل من العمر أربعاً وثمانين، وأقام في الفتوى خمساً وأربعين.

من مصنفاته: بغية السائل في اختصار أنفع الوسائل، والرسالة البيرميّة في السياسة الشرعيّة[٣].

* **أبو عبدالله محمد بن محمد بن حسين بيرم الثاني (١١٦٢هـ - ١٢٤٧هـ)**: خطيب جامع يوسف داي نيابة عن والده، ثمّ ولّي القضاء في مناسبتين الأولى سنة ١١٩٢هـ ثمّ سنة ١١٩٤هـ، وقلّد الفتوى سنة ١٢١٥هـ.

كان من قضاة العدل، متثبّتاً متحرّياً، قال لابنه لمّا تقدّم للفتوى: «تثبّت وارجع إلى الحقّ، ولا يغرنّك ثناء الناس عليك، وأنت تعلم رسالة ابن الخطّاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما، التي منها: الرجوع إلى الحقّ خير من التمادي على الباطل، وهذا خير الدين الرملي صاحب «الفتاوى الخيريّة» أفتى في نازلة وغلط، فكتب إلى مظنّة بلوغها من

---

(١) تونس وجامع الزيتونة ص ١٠١.
(٢) إتحاف أهل الزمان ٣١/٧ - ٣٣.
(٣) إتحاف أهل الزمان ٣٢/٧ - ٣٥، تراجم المؤلفين التونسيين ١٧٤/١ - ١٧٦، كتاب العمر ٩٢٨/٢ - ٩٢٩.

النواحي بغلطه، ودان الله بما رآه من الحقّ، ولا يغرنّك من يمسح ظهري بيده ويمسح بها وجهه تبرّكا، لو أتى ذلك المتبرّك إليّ في نازلة، وحكمت عليه بصميم الشرع، مزّق جلدي بلسانه، فاحذر يا بنيّ من الاستبداد بفهمك، وشاور فيه، وأنت تعلم ما في المشورة من الخير».

له مصنّفات عديدة ورسائل وفتاوى ومنظومات فقهيّة كثيرة، منها: منظومة في المفتين الحنفيين بتونس سمّاها اللآل في حكم رؤية الهلال في ٤٠٩ بيت، وشرحها ورسالة في بيع الوفاء، ورسالة في صحّة رجوع الموصي عن وصيّته بعد أن اشترط عدم الرجوع، جرى فيها على أصول مذهبه حيث لم يجدها منصوصة في فروعه، ونحا فيها منحى المجتهدين من أهل الترجيح، وأيّد مذهبه بما يطابقه من المذهب المالكي، وقرضها له أعيان علماء العصر، وتلقّوها بالقبول، وغير ذلك[١].

* **أبو عبدالله محمد بن محمد بن محمد بيرم الثالث (١٢٠١هـ - ١٢٥٩هـ)**: حصّل العلوم وتصدّر للتدريس نائبا عن أبيه في المدرسة الباشية، وفي الجامع الأعظم، وبالمدرسة العنقية، وتقدّم للخطبة بجامع يوسف صاحب الطابع في شبابه، ثمّ ولِّي الفتيا، وقام مقام والده في رئاسة المجلس الشرعي بعد وفاته.

له ولوع بالتدريس، حتى أنّه كان يقول: «إنّي في حال التدريس أخاطب قوما يفهمون مقاصدي، وأستفيد من أذكيائهم في البحث ما لا أستفيده من الخصوم».

أفتى على مذهب أبي حنيفة بالقطر الإفريقي ثلاثين سنة[٢].

* **محمد بيرم الرابع (١٢٢٠هـ - ١٢٧٨هـ)**: نشأ بين يدي أبيه،

---

(١) إتحاف أهل الزمان ١٥٨/٧ - ١٦٢، تونس وجامع الزيتونة ص ١٠٢ - ١٠٣، تراجم المؤلفين ١٧٧/١ - ١٨١، كتاب العمر ٩٣٤/٢ - ٩٣٩.

(٢) إتحاف أهل الزمان ٥٤/٨ - ٥٥، فهرس الفهارس ٢٤١/١ - ٢٤٢، تراجم المؤلفين التونسيين ١٨٢/١ - ١٨٣، كتاب العمر ٩٤٠/٢ - ٩٤١.

واستأثر به جدّه، وأخذ عنهما الفقه الحنفي وأصوله، كما أخذ عن أعلام المالكية إبراهيم الرياحي ومحمد ملوكة وغيرهما.

درّس بالجامع الأعظم والمدرسة العنقية والباشية، وتقدّم لخطّة الفتوى عند وفاة جدّه، مرؤوسا بأبيه وعارض أباه في مجالس الحكم بما أوتي من حدّة الفهم.

وتقدّم للخطبة بجامع صاحب الطابع، ثمّ انتقل لخطبة الجامع اليوسفي، كان له في الفقه باع وتبحّر واطّلاع وفي غيره من العلوم أوفر نصيب.

له رسالة في الشفعة، وغير ذلك[١].

* **أبو العباس حميدة بن محمد بن حميدة بن محمد بن حسين بيرم (١٢٨٠هـ)**: أقبل على طلب العلم كغالب آله وسلفه، فأخذ عن عمّ أبيه المفتي أبي النخبة مصطفى بن محمد بن حسين بيرم، وعلى عمّه بيرم الرابع، وغيرهما.

كان فقيهاً ذكيّا، اختير لمجلس الشورى، غير أنّ الأمراض قد عاقته عن غالب الأغراض[٢].

* **أبو النخبة مصطفى بن محمد بن حسين بيرم (١٢٨٦هـ)**: توفّي والده سنة ١٢١٤هـ وتركه صغيرا، فكفله أخوه محمد بيرم الثاني، وأخذ عن ابن أخيه محمد بيرم الثالث، كما أخذ عن شيوخ المالكيّة حسن الشريف وإبراهيم الرياحي وإسماعيل التميمي.

قدّمه أحمد باي لخطّة القضاء بالمذهب الحنفي سنة ١٢٦٢هـ، وكانت يومئذ هي قطب دائرة الخطط الشرعية، ثمّ انتقل لخطّة الفتوى سنة ١٢٧٧هـ، وكان على طول مقامه في خطّة القضاء، لم يتكلّم فيه عاقل ولا

---

(١) إتحاف أهل الزمان ٨/١٢٤ ـ ١٢٦، فهرس الفهارس ١/٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٢) إتحاف أهل الزمان ٨/١٣٥ ـ ١٣٦.

جاهل من الخاصّة والعامّة بما يخدش وجه الخطّة.

وكانت هذه خصوصيّة في آل هذا البيت البيرمي[١].

*** عائلة برتقيز *:**

فمنهم: *** يوسف بن محمد بن سليمان بن عبدالله الملقّب ببرتقيز (١٠٩٢هـ - ١١٤٨هـ)**: ولد بزغوان وبها نشأ ثمّ انتقل إلى باجة وطلب بها العلم، ورحل إلى مصر واستكمل دراسته على علماء الأزهر، ثمّ حجّ وجاور بالحرمين الشريفين، وكان قد صرف أيّامه كلّها خلال رحلته في طلب العلم وتحصيله.

اصطفاه الباي حسين بن علي لإمامته، وقدّمه للخطط العلميّة كالفتوى والخطبة، له من التآليف شرح القدوري في الفقه الحنفي، سمّاه المنن على مختصر القدوري أبي الحسن، ويعتبر هذا الشرح أولى ثمار المجهودات التي بذلها الأتراك لنشر المذهب الحنفي بالبلاد التونسيّة[٢].

وخلف في أولاده من بعده أعلام يعدّون من النجباء، منهم:

*** أبو عبدالله محمد بن حمودة بن يوسف برتقيز (١٢٢٤هـ)**: وكان قد نشأ في بيت مجد، فقرأ العلم واستفاد، وكان فقيهاً خيّرا، معدودا من الأعيان، قتله علي باشا بن محمد خنقا لما كان يعلم من مكانته عند عمّه[٣].

وابنه: *** أبو محمد حسن بن محمد برتقيز (١٢٥٠هـ)**: أصله من

---

(١) إتحاف أهل الزمان ١٧٤/٨ - ١٧٦.

(٢) إتحاف أهل الزمان ٥٨/٧، ذيل بشائر أهل الإيمان ص ٢٥٧ - ٢٥٩، تراجم المؤلفين التونسيين ١١٠/١ - ١١٢، الحلل السندسية ٥٢٢/٢ - ٥٢٣، كتاب العمر ٩٢١/٢ - ٩٢٣.

(٣) إتحاف أهل الزمان ٥٨/٧.

بيت علم وفقه، وحصل الملكة في الفقه والتوثيق، وتصدّر للشهادة، وله في فنونها باع[١].

وأمّا **المغرب الأقصى** الذي كان تحت سيادة المرينيين في بداية هذا الدور، فرغم الاضطرابات التي عرفها والتي كاد خلالها النشاط العلمي أن يتوقّف، فقد استطاع هذا القطر أن يسترجع بسرعة سمعته العلميّة المكينة، فكانت مدارسه قبلة العلماء، ومساجده تتدفّق علماً وفقها، ومكتباته تزخر بالتصانيف، وبيوت أسره العلميّة في نشاط متواصل، تأليفا وتدريسا.

وقد عمّ هذا النشاط العلمي أغلب مدن المغرب الأقصى، واستغرق جميع جهاته التي كانت تفتخر بأسماء فقهائه وألقاب أعلامه.

وكان من أشهرهم في هذا الدور:

*** أبو الحسن عليّ بن محمد بن عبدالحقّ الزرويلي المعروف بالصغيّر (٧١٩هـ)**: الشهير عند أهل إفريقيا بالمغربي، كان قيّما على تهذيب البراذعي في اختصار المدوّنة، حفظا وتفقّها، يشارك في شيء من أصول الفقه يطرز بذلك مجالسه، مغرما به بين أقرانه من المدرسين في ذلك الوقت لخمولهم من تلك الطريقة قيّدت عنه تقاييد على التهذيب، وعلى رسالة ابن أبي زيد، قيّدها عنه تلاميذه.

كان أحد الأقطاب الذين تدور عليهم الفتوى أيّام حياته، ترد عليه الأسئلة من جميع بلاد المغرب، فيحسن التوقيع على ذلك على طريقة من الاختصار، وترك فضول القول.

وسمه ابن مرزوق بقوله: شيخ الإسلام، الذي ما عاصره مثله، بل وما تقدّمه فيما قارب من الأمصار، جمع بين العلم والعمل، وبمقامه في التفقّه والتحصيل يضرب المثل.

---

(١) إتحاف أهل الزمان ١٨/٨ ـ ١٩.

ولي قضاء فاس فجرى في العدل على صراط مستقيم[١].

*** أبو زيد عبدالرحمٰن بن عفان الجزولي الفاسي داراً وقراراً (٧٤١هـ)**: حافظ المذهب وحجّته، شيخ الرسالة والمدوّنة، كان علاّمة في المذهب، أعلم أهل زمانه بمذهب مالك، وكان يحضر مجلسه أكثر من ألف فقيه، معظمهم يستظهر المدوّنة، وكان للناس احتفال بمجلسه للأخذ عنه، قيّدوا عنه تقاييد ثلاثة على الرسالة، إلاّ أنّ أهل المذهب حذّروا من النقل عنها لعدم تحريره لها بيده، وقالوا: إنّها تهدي ولا تعتمد.

عمّر طويلا وما قطع التدريس على ضعفه[٢].

وفي أواسط القرن الثامن برز بفاس، عالم تلمسان، وعلم فخرها:

*** قاضي القضاة أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد المقّري (حدود ٧١٠هـ ـ ٧٥٩هـ)**: ـ جدّ المقّري المتأخّر ـ قاضي الجماعة بفاس، وأحد مجتهدي المذهب ومحقّقيه الثقات، وكبير علماء المغرب.

أخذ عن كثير من شيوخ أهل تلمسان والوافدين عليها من الفقهاء والأدباء والحكماء، وأكبّ على النظر والدرس حتى أصبح المشار إليه بالعدوة الغربيّة اجتهادا وحفظا وعناية واضطلاعا ونقلاً ونزاهة.

رحل إلى تونس ولقي أعلامها مثل ابن عبدالسلام وابن هارون، وحضر دروسهم بجوامع تونس ومدارسها، ورحل إلى فاس وسبتة وغيرهما من بلاد المغرب حتى قال عن نفسه: «استوعبت بلاد المغرب ولقيت بكلّ بلد من لا بدّ من لقائه من علمائه وصلحائه».

ورحل إلى المشرق فلقي أعلاما بمصر والشام والحجاز، وكان أهمّ

---

(١) الديباج المذهب ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦، لقط الفرائد ص ١٧٦، شجرة النور الزكية ص ٢١٥، الفكر السامي ٢٧٨/٤ ـ ٢٧٩.

(٢) نيل الابتهاج ٢٦٥/١ ـ ٢٦٦، وفيات ابن القنفذ ص ٨٠، وذكره في وفيات سنة ٧٤٥، لقط الفرائد ص ١٩٣، شجرة النور الزكية ص ٢١٨ ـ ٢١٩، الفكر السامي ٢٨٢/٤.

من لقي ابن قيم الجوزية، لقيه بدمشق واتّصل في شخصه عن كثب بحركة ابن تيميّة.

وعنه أخذ أعلام عصره كالإمام الشاطبي ولسان الدين بن خطيب وابن خلدون وابن زمرك وابن جزي.

انتقل من تلمسان إلى فاس سنة ٧٤٩هـ، فعيّن قاضي الجماعة بها مدّة سبع سنين، ثمّ صرف سنة ٧٥٦هـ عن القضاء، وخرج إلى الأندلس في السنة الموالية، ثمّ عاد إلى فاس، فكان أن عمّت فائدة علومه ذينك القطرين، وتمّ فيها تخرّج الذين رفعوا من بعده لواء خلده في العالمين مثل أبي إسحاق الشاطبي، وأبي عبدالله ابن جزي خريجا فقهه في مدّة إقامته بالأندلس، ومثل ابن خلدون بفاس، الذي امتزج به امتزاجا قويّا حتى كان يصفه مرّة بقوله: شيخنا، وأخرى بقوله: صاحبنا[1].

بلغ المقّري درجة الاجتهاد في المذهب المالكي، فقد ذكر ابن مرزوق أنّ المقّري كان ممّن وصل إلى درجة الاجتهاد المذهبي، ودرجة التخيير والتزييف بين الأقوال.

وضع تآليف عظيمة أعلاها قيمة كتابه الفقهي، المسمّى بالقواعد، وهو كتاب فريد لخّص فيه قواعد الإمام القرافي، وطرزها بذكر خلاف أبي حنيفة وصاحبيه، وراعى فيها مشهور المذهب المالكي، وقد ذكر الونشريسي في المعيار بعض فتاويه.

واستوفى ابن مرزوق ترجمته في كتاب سمّاه: النور البدري في التعريف بالفقيه المقري[2].

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) نفح الطيب ٢٠٣/٥ و٢٥٤/٥ ـ ٣١٠، توشيح الديباج ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨، نيل الابتهاج ٧٥/٢ ـ ٨٤، وفيات الونشريسي ص ١٢٢، شذرات الذهب ٣٨٥/٦ ـ ٣٨٧، وذكره في وفيات سنة ٧٦١هـ، شجرة النور الزكية ص ٢٣٢، فهرس الفهارس ٦٨٢/٢ ـ ٦٨٣.

* **أحمد بن قاسم القبّاب (٧٧٨هـ)**: مفتي فاس، كان فقيهاً نبيلاً، جيّد النظر، شديد الفهم، من أكابر علماء المذهب حفظاً وتحقيقاً وتقدّماً وجلالة.

له مباحثات مشهورة وقعت له مع تلميذه الإمام الشاطبي في مسألة مراعاة الخلاف في المذهب، أحسن فيها غاية الإحسان، وله فتاوى مشهورة نقل بعضها البرزلي في ديوانه، والونشريسي في معياره، وهو أوّل من نقل الونشريسي عنه في المعيار.

وفي رحلته إلى الحجّ اجتمع في تونس بابن عرفة، فأوقفه ابن عرفة على ما كتب من مختصره الفقهي، وكان قد شرع في تأليفه، فقال له القبّاب: ما صنعت شيئاً، لأنّ تأليفك ـ المختصر الفقهي ـ لا ينتفع به المبتدي لصعوبته، ولا يحتاج إليه المنتهي، فتغيّر وجه ابن عرفة، ثمّ ألقى على القبّاب مسائل، فأجابه عنها في الحين، ويقال إنّ كلام القبّاب هو الذي حمل ابن عرفة على بسط العبارة في أواخر مختصره.

شرح مسائل ابن جماعة في البيوع شرحاً مفيدا، وشرح قواعد الإسلام للقاضي عياض شرحاً في غاية الإتقان، واختصر أحكام النظر لابن القطان، أسقط فيه الدلائل والاحتجاج، وناظر الإمام سعيد العقباني في مسائل جمعها العقباني، وسمّاها: لباب اللباب في مناظرة القبّاب، وفي تاريخ وفاته خلاف(١).

وفي بداية القرن التاسع شهد القطر المغربي هجمات خارجيّة كتلك التي عرفتها سبتة سنة ٨١٧هـ حيث عمد البرتغاليون إلى تخريب البلاد ونهب الأموال والذخائر والكتب العلميّة وتركوا المدينة قاعاً خراباً(٢).

---

(١) الديباج المذهب ص ١٠٥، توشيح الديباج ص ٥٥، نيل الابتهاج ١/١٠٠ ـ ١٠٢، وفيات ابن القنفذ ص ٨٥، شجرة النور الزكية ص ٢٣٥، الدرر الكامنة ١/٢٣٦، الحلل السندسية ٣/٦٥٥ ـ ٩٥٧.

(٢) انظر: شذرات الذهب ٧/٢٥٤، لقط الفرائد ص ٢٤٠.

ولكن رغم ما مني به هذا القطر من مصائب وانشقاقات وفتن، فقد استطاع أن يسترجع نشاطه بسرعة، بفضل ما كان بين أقطار المغرب الخمسة ـ الأندلس والمغرب الأقصى وتونس والجزائر وليبيا ـ من تواصل علمي مطّرد، من خلال الاشتراك في المشائخ، وتبادل الاستفادات، وتناقل التصانيف والروايات، وبفضل من عاد من أبناء هذا القطر إلى مسقط رأسه بعد أن كان قد فرّ وهاجر، وبفضل من وفد عليه من علماء الأقطار المجاورة، فارتفع لواء العلم بهذا القطر بهؤلاء الأبناء وبأولئك الوافدين عليه، وكان من أشهرهم:

*** أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الشهير بزرّوق (٨٤٦هـ ـ ٨٩٩هـ)**: والبرنسي نسبة إلى قبيلة بربريّة قرب فاس، أخذ عن أئمّة من أهل المشرق والمغرب، منهم: حلولو، والرصّاع.

له تآليف محرّرة تدلّ على مكانته وقدره في العلوم، منها: شرح مختصر خليل، وشرحان على الرسالة، وكان يميل إلى الاختصار مع التحرير، ولا يخلو شيء منها عن فوائد غزيرة، وتحقيقات مفيدة[١].

*** أبو الحسن علي بن قاسم بن محمد التجيبي الفاسي الشهير بالزقاق (٩١٢هـ)**: كان عارفاً بالفقه متقنا لمختصر الشيخ خليل، كثير الاعتناء به والتقييد والبحث عن مشكلاته، مع مشاركته في علوم أخرى.

صنّف لامية معروفة بلامية الزقاق، مشهورة في الأحكام الفقهيّة في مسائل جرى بها عمل أهل فاس ممّا يكثر حدوثها ويحتاج القضاة لمعرفتها، ومنظومة في القواعد، وتقييد على المختصر لخليل[٢].

*** أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني ثمّ**

---

(١) توشيح الديباج ص ٦٠ ـ ٦١، نيل الابتهاج ١/١٣٨ ـ ١٤٢، شجرة النور الزكية ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨، الضوء اللامع ١/٢٢٢، فهرس الفهارس ١/٤٥٥ ـ ٤٥٦.

(٢) نيل الابتهاج ١/٣٨٦ ـ ٣٨٧، وفيات الونشريسي ص ١٥٦، لقط الفرائد ص ٢٨٠، شجرة النور الزكية ص ٢٧٤، الفكر السامي ٤/٣١٢ ـ ٣١٣.

الفاسي (٩١٤هـ): مفتي فاس، وحامل لواء المذهب على رأس المائة التاسعة.

تفقّه بتلمسان على شيوخ بلده، كأبي الفضل العقباني، وغيره، ووليّ التدريس بها، ثمّ حصلت له حادثة من جهة السلطان سنة ٨٧٤هـ، فانتهبت داره وفرّ إلى فاس فاستوطنها إلى أن مات.

واظب على تدريس الفقه، وخاصّة المدوّنة، وفروع ابن الحاجب، وكان فصيح اللسان والقلم، حتى كان بعض من يحضر درسه يقول: لو حضر سيبويه لأخذ النحو من فيه، وبه تخرّج جماعة من الفقهاء ولازموه.

صنّف المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، جمع فأوعى، وحصّل فوعى، أتى فيه على كثير من فتاوى المتقدمين والمتأخرين، فأمّا فتاوى إفريقية وتلمسان فاعتمد فيها على نوازل البرزلي والمازوني، وأمّا فتاوى الأندلس وفاس فإنّما تيسّرت له من خزانة شيخه القاضي محمد ابن قاضي البلد الجديد الغرديس التغلبي، وله كذلك تعليق على ابن الحاجب الفرعي، وشرح على وثائق القشتالي سمّاه غنية المعاصر والتالي على وثائق القشتالي، وكتاب القواعد في الفقه سمّاه إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، والفائق في أحكام الوثائق لم يكمل، وتأليف في الفروق في مسائل الفقه، وغيرها[1].

* **أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن غازي العثماني المكناسي الفاسي (٨٤١هـ ـ ٩١٩هـ)** : الشهير بابن غازي، شيخ الجماعة بفاس، وخاتمة علمائهم وآخر محقّقيهم.

ولد بمكناسة الزيتون وأخذ العلم بها وبفاس، أنفق عمره في طلب العلم وإقرائه والعكوف على تقييده ونشره، وولّي خطابة مكناسة ثمّ فاس

---

(١) توشيح الديباج ص ٦٥، نيل الابتهاج ١/١٤٤ ـ ١٤٥، شجرة النور الزكية ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ فهرس الفهارس ٢/١١٢٢ ـ ١١٢٣، درة الحجال ص ٩٢ ـ ٩٣، لقط الفرائد ص ٢٨١، الحلل السندسية ٣/٦٥١.

الجديدة، ثمّ الخطابة والإمامة بجامع القرويين، ولم يكن في عصره أخطب منه.

تخرّج عليه عامّة طلبة فاس وغيرها، ورحل الناس للأخذ عنه وتنافسوا فيه، ولم يزل باذل النصيحة للمسلمين محرّضا لهم في خطبه ومجالس إقرائه على الجهاد، وحضر فيه بنفسه مواقف عديدة، وشارك في إنقاذ بلده من الاحتلال البرتغالي، فرابط مرّات كثيرة، وخرج في آخر عمره لقصر كتامة للحراسة فمرض، ورجع لفاس فاستمرّ به إلى أن توفّي.

صنّف في القراءات والحديث والفقه والعربية والفرائض والحساب والعروض وغيرها، تآليف نبيلة، منها في الفقه: تكميل التقييد وتحليل التعقيد من شروح المدوّنة، كمّل به تقييد أبي الحسن الزرويلي، وحلّ مشكل كلام ابن عرفة في مختصره، والجامع المستوفي بجداول الحوفي في المواريث وشفاء الغليل في حلّ مقفل مختصر خليل، تداول شرقاً وغرباً، بيّن فيه هفوات وقعت لبهرام، ومواضع مشكلة من المختصر أجادها وكلّيات ابن غازي[(١)].

وفي العصر العثماني برز:

* **أبو العباس أحمد بن عليّ المنجور الفاسي (٩٢٦هـ - ٩٩٥هـ):**
كان آية من آيات الله في المعقول والمنقول وأحفظ أهل زمانه، له عناية عظيمة بالمطالعة والإقراء لا يملّ ولا يضجر، ومع ذلك فقد كان أورع الناس في النقل، لا تكاد تفارق لسانه كلمة «لا أدري» أو «حتّى أنظر»، أو كلاما يقرب من هذا.

من مصنفاته: شرح المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب، لأبي الحسن عليّ الزقاق، والمختصر المذهب من شرح المنهج المنتخب،

---

(١) توشيح الديباج ص ١٧٦ - ١٧٨، نيل الابتهاج ٢٧١/٢ - ٢٧٣، لقط الفرائد ص ٢٨٤ شجرة النور الزكية ص ٢٧٦، كشف الظنون ١٨٠/٦، الفكر السامي ٣١٤/٤، فهرس الفهارس ٢٨٨/١ - ٢٩١ و٨٩٠/٢ - ٨٩١.

وشرح المختصر من ملتقط الدرر، وغير ذلك[١].

* **أبو مالك عبدالواحد بن أحمد بن عليّ بن عاشر الأنصاري (٩٩٠هـ - ١٠٤٠هـ)**: الأندلسي الأصل الفاسي المولد والمنشأ والقرار، عالم محقّق ومشارك، وفقيه أصوليّ متكلّم.

كان خاتمة العلماء العاملين، أخذ عن أعلام عصره، وعنه الشيخ ميّارة وغيره، وكان يغزو في سبيل الله.

صنّف تصانيف مفيدة، منها: نظمه المسمّى «المرشد المعين على الضروري من علم الدين»، رزق فيه القبول، وكان يحفظه أبناء المغرب، وله طرر على مختصر خليل، وشرحاً عليه، التزم نقل لفظ ابن الحاجب والتوضيح، ابتدأه من باب النكاح إلى باب السلم، وله حاشية على التتائي، وغير ذلك[٢].

* **أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد الفاسي المعروف بميّارة (٩٩٩هـ - ١٠٧٢هـ)**: كان متبحّراً في العلوم، أخذ عن ابن عاشر وشاركه في غالب شيوخه، صنّف الإتقان والإحكام في شرح تحفة الحكّام لابن عاصم، والدرّ الثمين في شرح منظومة المرشد المعين، وشرح لاميّة الزقّاق، وشرح مختصر خليل قصد به اختصار شرح الحطّاب، وتآليف محرّرة سهلة فصيحة مقبولة[٣].

* **أبو محمد عبدالقادر بن عليّ بن يوسف الفاسي (١٠٠٧هـ - ١٠٩١هـ)**: عالم فاس وإمامها ومسندها، بيته شهير بالعلم والفضل، استمرّ العلم به أزيد من ثلاثمائة سنة.

---

(١) درة الحجال ص ١٥٦ - ١٦٣، نيل الابتهاج ١/١٥٥ - ١٥٨، شجرة النور الزكية ص ٢٨٧، لقط الفرائد ص ٣٢١، فهرس الفهارس ٢/٥٦٦ - ٥٦٧.

(٢) شجرة النور الزكية ص ٢٩٩ - ٣٠٠، اليواقيت الثمينة ص ١٧٠ - ١٧١، الفكر السامي ٤/٣٢٧، كشف الظنون ٥/٥١١ .

(٣) شجرة النور الزكية ص ٣٠٩، كشف الظنون ٦/٢٢٨، الفكر السامي ٤/٣٣١ - ٣٣٢.

أخذ عن أبيه وأخيه أحمد وعمّ أبيه العراف الفاسي، وهو عمدته وبه تخرّج، وعنه أخذ من لا يعدّ كثرة، منهم الشيخ اليوسي.

انتهت إليه رئاسة العلم في هذه الديار، فلا قاض ولا مفت ولا راو إلاّ وهو ينسب إليه، ومع غزارة علمه لم يتصدّر لتأليف خاص، وإنّما ترك أجوبة عن مسائل سئل عنها، جمعها بعض أصحابه.

ترجم له ابنه عبدالرحمٰن - الآتي ذكره - ترجمة واسعة أفردها في مجلّد حافل سمّاه: تحفة الأكابر بمناقب الشيخ عبدالقادر(١).

*** أبو زيد عبدالرحمٰن بن عبدالقادر الفاسي (١٠٤٠هـ - ١٠٩٦هـ):** أخذ عن أهل بيته، وعن القاضي ابن سودة وميّارة الكبير، وغيرهما، وأجازه جماعة من أهل المشرق والمغرب.

كان لا يشقّ له غبار في ملكة الحفظ والاقتدار، حتّى كان والده يقول: إنّه سيوطي زمانه.

له تآليف منها: نظم العمل الفاسي، وشرح بعضه والباهر في اختصار الأشباه والنظائر، وألّف مؤلفات كثيرة في العلوم العقليّة والنقليّة، وتآليفه تزيد على المائة والسبعين(٢).

*** أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي (١١٠٢هـ):** نسبة إلى: آيت يوسي، قرية بربرية قرب فاس، شيخ مشائخ المغرب على الإطلاق، كان إماماً فقيهاً أصوليّا، وأديبا شاعرا لغويّا، نظّارا مشاركا ماهرا في الفنون انتهت إليه الرئاسة الكبرى في العلم في زمنه، وكانت له شهرة واسعة غربا وشرقا في عصره.

له فتاو فقهيّة كثيرة، وتآليف عديدة تعكس اتّساع فكره وسعة اطّلاعه،

---

(١) اليواقيت الثمينة ص ١٥٤ - ١٥٦، شجرة النور الزكية ص ٣١٤ - ٣١٠٥، فهرس الفهارس ٧٦٣/٢ - ٧٧١.

(٢) اليواقيت الثمينة ص ١٤٥، شجرة النور الزكية ص ٣١٥ - ٣١٦، فهرس الفهارس ٧٣٥/٢ - ٧٣٦.

وقد اعتبر مجدّدا على رأس المائة الحادية عشرة[١]، ومن تلاميذ الشيخ اليوسي:

* **أبو عبدالله محمد بن القاسم بن زاكور الفاسي (١١٢٠هـ)**: عمدة أهل التحقيق والرسوخ[٢].

* **أبو علي الحسن بن رحال المعداني (١١٤٠هـ)**: خاتمة العلماء المحقّقين أخذ عن القاضي ابن سودة، والشيخ اليوسي، وعنه تلقّى العلم الشيخ التادلي.

تفرّد في وقته بالرجوع إليه في مسائل الفقه، واستحضار نصوصه، وحفظ فروعه، وكثرة مطالعته واعتنائه.

له شرح حافل على مختصر خليل ابتدأه من النكاح كاد أن يحتوي على جميع نصوص المذهب، وله حاشية على شرح ميّارة على التحفة، واختصار شرح الأجهوري على مختصر خليل.

وفي تاريخ وفاته خلاف[٣].

* **أبو عبدالله محمد بن عبدالسلام البناني الأصل الفاسي المولد والدار (١١٦٣هـ)**: مفتي فاس ومدرّس القرويين، أخذ عن الشيخ ميارة الصغير والشيخ اليوسي وابن زاكور وغيرهم.

رحل إلى المشرق وأخذ عن أعلام، منهم: الشيخ الخرشي وعبدالباقي الزرقاني، وعنه تلقّى العلم من لا يعدّ كثرة، منهم: الشيخ التاودي ومحمد البناني والشيخ الصعيدي وغيرهم.

---

(١) اليواقيت الثمينة ص ١٠٠ ـ ١٠١، شجرة النورص ٣٢٨ ـ ٣٢٩، فهرس الفهارس ١١٥٤/٢ ـ ١١٦١ الفكر السامي ٣٣٧/٤ ـ ٣٣٨.

(٢) شجرة النور الزكية ص ٣٣٠ ـ ٣٣١، كشف الظنون ٢٤٣/٦، فهرس الفهارس ١٨٥/١ ـ ١٨٦.

(٣) شجرة النور الزكية ص ٣٣٤، اليواقيت الثمينة ص ١٠٢ ـ ١٠٣، الفكر السامي ٣٢٧/٤.

من مصنفاته: الأجوبة البنانيّة عن الأسئلة المصريّة، وشرح لاميّة الزقاق في الأحكام، وحاشية على مختصر خليل سمّاها: الفتح الرباني فيما ذهل عنه الزرقاني، وتكميل شرح حدود ابن عرفة[١].

* **شهاب الدين أحمد بن الحسن بن محمد المعروف بالورشان الملقّب بالمكودي (١١٦٩هـ)**: نشأ بفاس وبها قرأ، ثمّ حجّ ونزل تونس، واعتمده أهلها وإليه مرجع أسانيدهم.

تصدّر للتدريس بتونس، ووُلّي بها الفتيا، وبها توفّي، من تلاميذه الشيخ بيرم الثاني الذي حلاّه بقوله: حافظ المغرب في عصره، الشيخ الإمام مفتي الأنام»[٢].

* **أبو عبدالله محمد بن الحسن بن الطالب بن سودة المعروف بالبناني (١١٢٨هـ ـ ١١٩٤هـ)**: وقيل ولد ١١٣٣هـ، الفاسي أصلا ودارا، خطيب الضريح الإدريسي بها وإمامه، كان فقيهاً محقّقا مشاركا، من تصانيفه: الأجوبة البنانيّة عن أسئلة قدّمت له من علماء مصر في فنون مختلفة، والحاشية البديعة على شرح الزرقاني، وحاشية على شرح ابن جزي، وحلى المعاصم لبنتا فكر ابن عاصم في القضاء والأحكام، وطالع الأماني على شرح مختصر الشيخ خليل للزرقاني، والفجر المنير في فقه المالكيّة، وغيرها[٣].

* **أبو عبدالله محمد التاودي بن محمد الطالب بن سودة المري (١١١١هـ ـ ١٢٠٩هـ)** : الأندلسي أصلا، الفاسي دارا ومنشأ، شيخ الإسلام الذي انتهت إليه رئاسة العلم في المغرب إقراء وإفتاء.

---

(١) شجرة النور الزكية ص ٣٥٣، كشف الظنون ٢٥٦/٦، فهرس الفهارس ٢٢٤/١ ـ ٢٢٧.

(٢) فهرس الفهارس ٥٥٨/٢ ـ ٥٥٩، شجرة النور الزكية ص ٣٤٦.

(٣) كشف الظنون ٢٦٧/٦ ـ ٢٦٨، الفكر السامي ٣٤٧/٤، فهرس الفهارس ٢٢٧/١ ـ ٢٢٨.

قال الرهوني: ولا أعلم الآن ـ أي في عصره ـ ممّن ينتمي إلى العلم بالمغرب، إلاّ وله عليه منّة التعليم، إمّا بواسطة، أو بغير واسطة، أو بهما معا.

حجّ سنة ١١٨١هـ ومعه ولداه محمد وأبو بكر، وأقرأ الموطّأ بالأزهر، وحضرة غالب الموجودين من العلماء، وأجاد في تقريره وأفاد.

له حاشية على شرح الزرقاني على المختصر، سمّاها طالع الأماني، وشرح على تحفة الحكّام لخّصه من شرح ميّارة وغيره، وله شرح على لاميّة الزقاق، وشرح الجامع للشيخ خليل ومناسك الحجّ، وفتاوى كثيرة جمعها ولده أحمد، وغير ذلك[١].

* **أبو عبدالله محمد بن أحمد الرهوني (١١٥٩هـ ـ ١٢٣٠هـ)**: شيخ الجماعة وخاتمة المحققين والعلماء العاملين، حامل لواء المذهب، الذي دارت عليه الفتوى بالمغرب.

أخذ عن الشيخ التاودي، ومحمد البناني وغيرهما، له تآليف مفيدة رزق فيها القبول، منها: حاشية على شرح ميارة الكبير على المرشد المعين، لم يكمل، وحاشية على شرح الزرقاني على المختصر، لخّص فيها ما زادته حاشية التاودي على بناني، دلّت على طول باع وسعة اطّلاع، وتمكّن في علم الفقه[٢].

* **أبو عبدالله محمد بن محمد بن إبراهيم الدوكالي (١١٦٢هـ ـ ١٢٤١هـ)**: قاضي فاس ومفتيها، الذي إليه المرجع في الأحكام والنوازل.

كان بيته بفاس بيت علم وصلاح، أخذ عن والده وعن الشيخ التاودي، وعنه أخذ الشيخ التسولي ولازمه، وانتفع به، له فتاوى مشهورة جمعها تلميذه التسولي[٣].

---

(١) شجرة النور الزكية ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣، الفكر السامي ٣٥٠/٤، فهرس الفهارس ٢٥٦/١ ـ ٢٦٢.

(٢) شجرة النور الزكية ص ٣٧٨، الفكر السامي ٣٥٢/٤ ـ ٣٥٣.

(٣) شجرة النور الزكية ص ٣٨١.

* **أبو الحسن علي بن عبدالسلام التسولي المدعو مديدش (١٢٥٨هـ)**: الفقيه النوازلي الحامل لواء المذهب، له تآليف شاهدة بطول الباع وسعة الاطّلاع، منها: البهجة في شرح التحفة ـ تحفة الحكام ـ، وحاشية على شرح الشيخ التاودي على لاميّة الزقاق، وجمع كتاباً في الفتاوى ضمّنه فتاويه وفتاوى شيخه الدوكالي(١).

وأمّا **القطر الجزائري** الذي كان تحت سيادة بني عبدالواد الزيانيين في بداية هذا الدور، فإنّه لم ينعم بالاستقرار إلاّ في فترات قليلة من حكمهم، نتيجة حروبهم المتكرّرة مع الحفصيّين المتحكّمين بتونس من ناحية، ومع المرينيين المتحكّمين بالمغرب الأقصى من ناحية أخرى، وبالرغم من مساوىء الاضطرابات السياسيّة، فإنّ سير الحركة العلميّة بالجزائر لم تعرف تراجعا، ولا انقطاعا، بفضل الصلات العلميّة الوثيقة مع سائر المراكز الفقهيّة الأخرى، ناهيك أنّها شاركت القطر التونسي في ابن زيتون الذي ولّي قضاء تونس وقضاء بجاية، وشاركت المغرب الأقصى في الإمام المقّري ـ الجدّ ـ، والونشريسي التلمساني الذي استوطن فاس، وأصبح مفتيها وحامل لواء المذهب بها، ومحمد بن عمر بن فتّوح التلمساني الذي كان أوّل من أدخل مختصر خليل إلى مدينة فاس سنة ٨٠٥هـ وانتفع به أهلها(٢)، وابن الإمام التلمساني الذي كان أوّل من أدخل إلى المغرب كتاب الشامل لبهرام وشرحه للمختصر وحواشي التفتازاني على العضد وابن هلال على مختصر ابن الحاجب الفقهي(٣)، وشاركت القطر الليبي في أبي عبدالله محمد بن علي الخروبي الذي أخذ عن شيوخ عصره بطرابلس، ثمّ ارتحل إلى الجزائر وأقام بها.

وغير هؤلاء كثير، فضلاً عمّا اختصّت بهم الجزائر من أبنائها من أهل تلمسان وزواوة ومازونة وسجلماسة وبجاية وغيرها من المدن الجزائريّة،

---

(١) شجرة النور الزكية ص ٣٩٧، كشف الظنون ٦١٨/٥.
(٢) شجرة النور الزكيّة ص ٢٥١.
(٣) نيل الابتهاج ١٩٩/٢، شجرة النور الزكية ص ٢٥٤.

حتّى أنّ أبا الحسن القلصادي الذي زار تلمسان في القرن التاسع قد أعجب بكثرة علمائها وارتقاء هممهم في طلب العلم بجدّ واجتهاد، فقال: «تلمسان فيها كثير من العلماء وسوق العلم فيها نافقة وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة والهمم إلى تحصيله مشرفة وإلى الجدّ والاجتهاد فيه مرتقية»[١].

ومن أشهر أعلام **القطر الجزائري** في هذا الدور:

*** أبو عليّ ناصر الدين منصور بن أحمد بن عبدالحقّ الزواوي المشدالي (٦٣١هـ ـ ٧٣١هـ)**: المجتهد، جمع بين معرفة الفقه وأصوله، وأحكم حظّا وافرا في علوم كثيرة، وتكلّم في أنواعها، وناظر في جميعها.

رحل صغيرا مع أبيه إلى المشرق وأقام في رحلته نحوا من عشرين سنة، ولقي الأفاضل كالعزّ ابن عبدالسلام الشافعي ولازمه كثيراً، وروى عن ابن الحاجب المالكي، واطّلع على مذاهب الأئمّة وخصوصا مذهب مالك، وانفرد بمعرفته والقيام بتقريبه ونصرته، مع التحرير والتقرير والترجيح.

كان أوّل من أدخل المختصر الفقهي لشيخه ابن الحاجب إلى بجاية[٢]، والتزم هذا المختصر ونشره بين أصحابه ورغّبهم فيه فعمّ سائر الأقطار المغربيّة، وعكف الفقهاء بالمغرب عليه وهجروا لأجله المدوّنة والأمّهات الأولى، وصارت فتاوى أهل بجاية معتمدة متّبعة، ذات أثر واضح في التطوّر الفقهي، وأصبحت طريقتهم التدريسيّة في الفقه مأخوذا بها في عامّة مراكز الدراسة الفقهيّة في البلاد المغربيّة[٣].

*** أبو عبدالله محمد بن أحمد العلويني الشريف الحسني المعروف بالشريف التلمساني (٧١٠هـ ـ ٧٧١هـ)**: كان من أعلام العلماء، حتى كان ابن لبّ يعترف بفضله ويراجعه في المسائل.

---

(١) رحلة القلصادي ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) نيل الابتهاج ٢/٣٠٦ ـ ٣٠٨، شجرة النور الزكية ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٣) ومضات فكر ٢/٣٤٨.

اجتمع بابن عبدالسلام التونسي بمجلس درسه، ووقعت بينهما مذاكرات علميّة، فاعترف بفضله، وأخذ كلّ عن صاحبه.

أخذ عن ابني الإمام وبهما تفقّه، وعن ابن زيتون وغيرهم، وعنه الإمام الشاطبي وابن زمرك وابن خلدون وابن مرزوق الحفيد وغيرهم(١).

*** أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني الشهير بالخطيب (٧١٠هـ ـ ٧٨١هـ)**: بيته بيت علم ودراية، ودين وولاية، كعمّه وأبيه، وجدّه وجدّ أبيه، وولديه محمد وأحمد، وحفيده المعروف بابن مرزوق الحفيد، وولد حفيده المعروف بالكفيف، وحفيد حفيده المعروف بالخطيب.

أخذ عن نحو ألفي شيخ من أهل المشرق والمغرب، جمعهم في برنامج، منهم: ابن راشد وابن جابر الوادي آشي، وابن عبدالرفيع وابن عبدالسلام وابن هارون، وعنه أخذ من لا يعدّ كثرة، منهم: أبو إسحاق الشاطبي، وابن الخطيب، وكان ملازما للتدريس إلى أن توفّي.

له تصانيف بديعة مفيدة في علوم شتّى، منها شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي(٢).

*** عبدالله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني (٧٤٨هـ ـ ٧٩٢هـ)**: إمام وقته بلا مدافع، ومن أكابر علماء تلمسان ومحقّقيهم، اشتغل بكثير من العلوم مع طلبة أبيه، فظهرت نجابته، وجلس مجلس أبيه بعد موته، وجرى على مذهبه نظرا ونقلاً وتحقيقا، واعترف له أهل عصره بتقدّمه، حتى كان

---

(١) نفح الطيب ١٨٩/٥ ـ ١٩٨، شجرة النور الزكية ص ٢٣٤.

(٢) نفح الطيب ٣٩٠/٥ ـ ٣٩٦ و٤١٢ ـ ٤١٨، الديباج المذهب ص ٣٩٦ ـ ٣٩٩، نيل الابتهاج ١١١/٢ ـ ١١٧، الدرر الكامنة ٣٦٠/٣ ـ ٣٦٢ الحلل السندسية ١٠٦٧/٤ ـ ١٠٦٨، شجرة النور الزكية ص ٢٣٦ شذرات الذهب ١٠/٧، النجوم الزاهرة ١٩٦/١١.

القاضي عليّ أبو الحسن المغربي يقول: انتفعت به في أصول الفقه أكثر من أبيه لحسن تقريبه وبسطه.

كان حافظاً للمسائل بصيراً بالفتاوى والأحكام والنوازل، متثبّتاً في الفتوى، متحرّياً فيها، نحويًّا لغويًّا، مشاركاً في جميع العلوم.

جلس بالجامع الأعظم بفاس فأقرأ الفقه، وكان يكثر في إقرائه النقل من حفظه ويحقّق المسائل تحقيقاً بالغاً، يقطع نهاره كلّه في التدريس بلا فتور، حتى لم يكن بالمغرب أكثر اجتهاداً منه في الإقراء.

رحل إليه الطلبة من الآفاق، وكان يحضره طلبة فاس وشأنهم حفظ المسائل والنقل على عادتهم خلاف عادة التلمسانيين، فيحضره جميعا، فيوفي لكلّ طريقه.

وكان الفقيه أبو العباس أحمد بن موسى البجائي ـ ممّن رحل إليه وأخذ عنه علماً جمًّا ـ يقول: لا يوجد اليوم من يرحل إليه في هذا البلد مثل شيخنا أبي محمد في غزارة العلم وسهولة الإلقاء وخفض الجناح.

ونقل عنه الونشريسي في المعيار فتاوى كثيرة(١).

ومن النظار المجتهدين ممّن تتلمذ عليه، وعلى ابن عرفة:

* **أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق التلمساني (٧٦٦هـ ـ ٨٤٢هـ)**: المشهور بابن مرزوق الحفيد، والملقّب بشيخ الإسلام، الفقيه المجتهد، المفتي المعروف، وبيته بيت علم ودراية ودين وولاية.

أخذ عن جدّه ابن مرزوق بالإجازة، وأخذ عن أعلام عصره من أهل المشرق والمغرب، أشهرهم: أبو محمد الشريف التلمساني، وابن عرفة، وسراج الدين البلقيني، وسراج الدين ابن الملقن.

كان آية الله في الفهم والذكاء، وتحقيق العلوم، والاطّلاع المفرط

---

(١) نيل الابتهاج ١/٢٤١ ـ ٢٤٤.

على النقول، والقيام الأكمل على سائر الفنون، وقوّة الاجتهاد، حتّى أجمع الناس على فضله من المغرب إلى الديار المصريّة.

جنح في الفقه إلى منهج النظر في الفروع بقواعد الأصول، فنبغ في ذلك على يدي أستاذه بتلمسان أبي عبدالله الشريف التلمساني، ثمّ رحل إلى تونس فقصد زعيم تلك الطريقة، الإمام ابن عرفة، فتخرّج عليه، وأخذ طريقته في التفقّه وتمسّك بها، حتى اشتهر أمره بتونس، وعلا بها ذكره، فقصد بالطلب والمراسلة والأسئلة ثمّ رجع إلى تلمسان واستقرّ بها، وأقرأ الفقه على المذاهب الأربعة، كلّ مذهب بالمعتمد من كتبه، فكان يدرّس في الفقه المالكي كتب: التهذيب للبراذعي والتفريع لابن الجلاب، والتلقين للقاضي عبدالوهاب، والبيان والتحصيل لابن رشد الجدّ، ومختصر خليل، وفي كتب الشافعية يعتمد على التنبيه للشيرازي، والوجيز للغزالي، ومن كتب الحنفيّة مختصر القدوري، ومن كتب الحنابلة مختصر الخرقي، وكان يتبحّر في دراسة فقه الحديث والمذهب المالكي.

تأكّدت سمعة ابن مرزوق الذائعة بالكتب القيّمة التي صدرت عنه والرسائل المحرّرة والفتاوى المدقّقة التي حفلت بها كتب الفتاوى والنوازل، وقد ذكر منها المازوني في نوازله، والونشريسي في معياره، جملة وافرة.

وشاع وصف ابن مرزوق بالاجتهاد لأنّه جرى في مجال الاختيار وتدقيق الأنظار مع أئمّة الفقه المتقدّمين بله المتأخّرين[1].

من مصنفاته: اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة، تضمّن أجوبة على مسائل في الفقه والتفسير وأنواع من العلوم، وردت عليه من عالم قفصة، أبي يحيى ابن عقيبة، فأجابه عنها، وله المعراج إلى استمطار فوائد الأستاذ سراج، تضمّن أجوبة عن أسئلة كتب بها إليه قاضي الجماعة بغرناطة أبو القاسم ابن سراج الغرناطي وله مختصر الحاوي في الفتاوى لابن عبدالنور التونسي، وغيرها من المؤلفات، وله كذلك ممّا لم يكمل:

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٩٨ ـ ٩٩.

شرح الجامع الصحيح للبخاري، سمّاه «المتجر الربيح والسعي الرجيح والرحب الفسيح بشرح الجامع الصحيح» وهو شرح متقن مليء بتخريجات الفقه على المنازع الأصوليّة العالية، واستخدام عامة مسائل العلوم، وله شرح على مختصر خليل الفقهي، سمّاه المنزع النبيل في شرح مختصر خليل، وهو كتاب في غاية الإتقان والتحرير تقريراً ونقولاً، وشرح التهذيب وسمّاه: روضة الأديب ومنتهى أمل اللبيب في شرح التهذيب، وفي تاريخ وفاته خلاف، فقيل سنة ٨٤٢هـ، وقيل سنة ٨٤٤هـ[1].

*** أبو العباس أحمد بن عبدالرحمـٰن عرف بابن زاغو التلمساني (٧٨٢هـ ـ ٨٤٥هـ)**: شيخ أبي الحسن القلصادي، وقد ذكره في رحلته وأثنى عليه كثيراً، صنّف تآليف مفيدة، منها: منتهى التوضيح في الفرائض، وشرح مختصر خليل من الأقضية إلى آخره، وشرح مختصر ابن الحاجب الفرعي، وله فتاوى كثيرة في أنواع العلوم، نقل الونشريسي في المعيار الكثير منها، وكذا في المازونيّة، وله غير ذلك من المصنّفات[2].

*** أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني التلمساني (٧٦٨هـ ـ ٨٥٤هـ)**: شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، أحد الشيوخ المحقّقين، والجهابذة النقاد، المعمّر، ملحق الأحفاد بالأجداد.

انفرد بفنّي المعقول والمنقول، وحصّل من العلوم ما بلغه درجة الاجتهاد بالدليل والبرهان، كانت له اختيارات خارجة عن المذهب، نازعه

---

(١) نفح الطيب ٤٢٠/٥ ـ ٤٣٣، توشيح الديباج ص ١٧١ ـ ١٧٣، نيل الابتهاج ١٧١/٢ ـ ١٨٤، شجرة النور ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣، الضوء اللامع ٥٠/٧ ـ ٥١، رحلة القلصادي ص ٩٦ ـ ٩٨، فهرس الفهارس ٥٢٣/١ ـ ٥٢٥، لقط الفرائد ص ٢٤٨، وفيات الونشريسي ص ١٤١، وذكره في وفيات سنة ٨٤٠هـ، دائرة مقديش ٦٠٢/١، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٩٧ ـ ٩٩، ومضات فكر ٤٣٩/٢ ـ ٤٤٦.

(٢) درة الحجال ص ٦٣، لقط الفرائد ص ٢٥٠ شجرة النور الزكية ص ٢٥٤، رحلة القلصادي ص ١٠٢ ـ ١٠٦، نيل الابتهاج ١٢٢/١ ـ ١٢٤.

في كثير منها معاصره ابن مرزوق الحفيد.

عكف على تعليم العلوم، وعلى تدريس فنون شتّى، وصنّف تعليقا على مختصر ابن حاجب الفرعي، وبيته بيت علم ودراية، منهم: والده وولديه أحمد وإبراهيم، وحفيده القاضي محمد بن أحمد[(١)].

* **أبو زكرياء يحيى بن موسى المقيلي المازوني (٨٨٣هـ)**: قاضيها، الحافظ لمسائل المذهب، أخذ عن ابن مرزوق الحفيد، وقاسم العقباني، وغيرهما.

نجب وبرع، وصنّف النوازل المشهورة المفيدة في فتاوى المتأخرين من علماء تونس وبجاية وتلمسان والجزائر وغيرهم، ومنه استمدّ الونشريسي مع نوازل البرزلي فيما يظهر، وأضاف إليهما ما تيسّر من فتاوى أهل فاس والأندلس.

وكانت وفاته بتلمسان[(٢)].

* **أبو عبدالله محمد بن علي الخروبي (٩٦٣هـ)**: كان عالماً فقيها، محدّثا، مفسّرا، ولد بطرابلس، وبيته بيت علم، أخذ عن شيوخ عصره بطرابلس، وعن الشيخ أحمد زرّوق، ثمّ ارتحل إلى الجزائر وأقام بها وكان سفيرا بين ملوك المغرب الأوسط، والمغرب الأقصى، بقصد إصلاح ذات البين.

كان محقّقا واسع العلم المعرفة، صاحب مصنفات عديدة، وعنه أخذ كثير من أهل المغرب الأقصى والجزائر[(٣)].

وحين هاجم الإسبان الجزائر، ودخلوا مدينة تلمسان سنة ٩٤٩هـ

---

(١) توشيح الديباج ص ١٦٩ ـ ١٧٠، نيل الابتهاج ٢/١٢ ـ ١٤، شجرة النور ص ٢٥٥، الضوء اللامع ٦/١٨١، رحلة القلصادي ص ١٠٦ ـ ١٠٧، وفيات الونشريسي ص ١٤٤، لقط الفرائد ص ٢٥٣.

(٢) نيل الابتهاج ٢/٣٤٠، شجرة النور الزكية ص ٢٦٥.

(٣) أعلام ليبيا ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧، شجرة النور الزكية ص ٢٨٤.

بتواطؤ من أمراء الزيانيين[١] أصيبت الحركة العلميّة بالقطر الجزائري بنكسة، واعترى الروح العلميّة ذبول.

ثمّ استأنفت نشاطها منذ الأيّام الأولى لقدوم العثمانيين، وأصبحت حياتها العلميّة صورة من حياة الولايات العثمانيّة في الغرب الإسلامي بصفة عامّة، وبرز من أعلامها:

* **أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقّري التلمساني المولد (١٠٤١هـ)**: نزيل فاس ثمّ القاهرة، كان آية الله الباهرة في الحفظ والذكاء، متفنّناً في العلوم.

تولّى الخطابة والإمامة بجامع القرويين سنة ١٠٢٢هـ، ورحل إلى الشرق سنة ١٠٢٧هـ وتردّد على دمشق ومصر، وحجّ خمس حجج، ونال خلال ذلك من الحظوة فوق ما يذكر، وطار صيته.

وكان يحضر دروسه بدمشق غالب أعيان العلماء، وكانت جلسة الدرس من طلوع الشمس إلى قرب الظهر.

صنّف مؤلفات تدلّ على سعة علمه، منها في الفقه: حاشية على مختصر خليل، سمّاها: قطف المهتصر من أفنان المختصر، وكانت وفاته بمصر[٢].

* **أبو الحسن علي بن عبدالواحد بن محمد بن سراج الأنصاري السجلماسي ثمّ الجزائري (١٠٥٧هـ)**: أخذ عن أئمّة من أهل فاس، ودخل مصر سنة ١٠٤٣هـ وأخذ عن أعلامها.

صنّف التقييد الجليل على مختصر خليل، لم يكمل، والأشباه والنظائر في فقه عالم المدينة، وكفاية الطالب النبيل في حلّ ألفاظ مختصر خليل، ومنظومات عديدة في أنواع من العلوم[٣].

(١) لقط الفرائد ص ٢٩٧.

(٢) فهرس الفهارس ٥٧٤/٢ ـ ٥٧٦، شجرة النور الزكية ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٣) شجرة النور الزكية ص ٣٠٨، كشف الظنون ٦٠٤/٥.

* **علي بن عبدالقادر بن عبدالرحمٰن بن الأمين (١٢٣٦هـ)**: وبه عرف، العلوي النسب، الأندلسي الأصل، الجزائري الدار، مفتي المالكية بها ومسندها ومجدّد رونق العلم بها[١].

* **محمد أبو راس بن أحمد المعسكري الجزائري (١٢٣٩هـ)**: حافظ القطر الجزائري ورحالته، رحل إلى فاس وتونس ومصر والشام والحجاز، ولقي أعلام تلك البلاد وذاكرهم وناظرهم وساجلهم.

كان حافظاً متقنا لجميع العلوم، عارفاً بالمذاهب الأربعة، لا يسأل عن نازلة إلاّ أجاب عنها ببداهة كأنّها حاضرة بين شفتيه، وكان محقّقا لمذهب مالك غاية في ذلك، لا سيّما مختصر خليل، فله فيه الملكة التامّة، كان يلقيه على طلبته في أربعين يوما، والخلاصة في عشرة أيّام، حتّى وصفه بعض أهل عصره بشيخ الإسلام.

له مؤلفات تزيد على الخمسين في الفقه، وغيره من العلوم، منها: حاشية الخرشي، وحاشية المكودي، والحاوي الجامع بين التوحيد والتصوّف والفتاوى[٢].

* **أبو عبدالله محمد سعيد بن عبدالرحمٰن الزواوي (١٢٤٦هـ)**: صاحب زاوية أقبو من بلاد زواوة، وهي زاوية من أكبر زوايا القطر الجزائري، انتشر منها العلم لا سيّما الفقه المالكي، حتّى قال بعضهم: «هي أمّ الزوايا العلميّة في القرون الثلاثة الأخيرة، ومنها انتشر الفقه والنحو والفلك والحساب في بلاد زواوة، وما والاها إلى قسنطينة شرقا، وإلى الأغواط جنوبا، وإلى المدية غربا، والمدرّسون فيها هم آل محمد سعيد الزواوي، وبهم اشتهر ذكرها[٣]».

وإذا انتقلنا إلى **القطر الليبي** وجدنا أنّ حركة الفقه فيه كانت حركة

---

(١) فهرس الفهارس ٢/٧٨٤ ـ ٧٨٥.
(٢) فهرس الفهارس ١/١٥٠ ـ ١٥٢.
(٣) فهرس الفهارس ٢/١٠٠١.

دؤوبة، شملت أعظم مدنه، وعمّت طرابلس وزليطن والزاوية ومصراتة، وغيرها من البلاد، وبرز بها فقهاء مهرة، قد بعد العهد بوجود أمثالهم، أصبحوا في العلم رحلة لطلّابه، ونجعة لمرتاده، وكان من أشهرهم:

* **أبو فارس عبدالعزيز بن عبدالعظيم بن عبدالسلام الطرابلسي (٦٣٩هـ ـ ق ٨هـ)**: كان متضلّعاً في العلم ذاكرا للمذهب لا يجاريه فيه أحد، ولا تكاد مسألة من مسائله تشرد عنه، له اعتناء بحفظ كلام القرويين في المذهب من تعليل وتفسير أو تفريق وتخريج، واعتماده في الأصول الدينية والفقهية على كلام أبي المعالي الجويني، وكلام أبي حامد الغزالي.

كان على قيد الحياة سنة ٧٠٧هـ، وسمه التجاني بقوله: «القائم برسم العلم في هذه البلدة ـ أي طرابلس ـ في وقتنا هذا، شيخنا الإمام الحافظ، نال من المعارف ما اشتهى، وحاز فيما حاز من العلوم الأصولية والفرعية الغاية والمنتهى»[(١)].

* **أبو موسى بن عمران الهواري الطرابلسي (٧٦٠هـ)**: كان عالماً فقيها، تولّى القضاء بطرابلس نيفا وثلاثين سنة، وقد حمدت سيرته فيه كما حمدت أخلاقه، فأرسل إليه السلطان الحفصي إبراهيم المنتصر وولاّه قضاء تونس، فأقام أقلّ من سنتين، ثمّ توفّي[(٢)].

* **أبو عبدالله محمد بن أحمد الزليطني (٨٠٨هـ)**: رحل إلى تونس لطلب العلم، ولازم ابن عرفة حتى مات كان عالماً ورعا، حريصا على نفع الناس، ولّي الخطابة والإمامة بجامع الزيتونة الأعظم[(٣)].

ومن أقرانه:

* **أبو زيد عبدالرحمٰن الغرياني الطرابلسي** محشي المدوّنة، الذي

---

(١) رحلة التجاني ص ٢١٨ ـ ٢١٩، أعلام ليبيا ص ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٢) أعلام ليبيا ص ٢٨.
(٣) أعلام ليبيا ص ٢٦٤.

رحل إلى تونس وتلقّى عن ابن عرفة، ومدحه الشيخ حلولو بأنّه كان عارفاً بالفقه[١].

* **أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الشهير بزرّوق (٨٤٦هـ ـ ٨٩٩هـ)**: الفاسي الأصل الطرابلسي المصراتي المولد والنشأة والوفاة، واشتهر بالبرنسي نسبة إلى قبيلة البرانس البربرية المشهورة بالمغرب، وقد سرى إليه هذا اللقب من أجداده، أمّا هو فمن مواليد مصراتة بطرابلس.

أخذ عن أئمّة من أهل المشرق والمغرب، منهم: حلولو، والرصّاع، وعنه من لا يعدّ كثرة.

له تآليف محرّرة معروفة، من يقف عليها يعرف قدره في العلوم، منها: شرح مختصر خليل، وشرحان على الرسالة، وكان يميل إلى الاختصار مع التحرير، ولا يخلو شيء منها عن فوائد غزيرة، وتحقيقات مفيدة.

وهو معدود من آخر أئمّة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة[٢].

* **أبو حفص عمر بن عبدالرحمٰن بن عبدالعزيز السعيدي المخزومي (٩٠٦هـ ـ ٩٩٩هـ)**: من علماء طرابلس ورجالاتها، رحل إلى تونس لطلب العلم، وأخذ عن مشائخها، ثمّ رحل إلى الأزهر، وقرأ على شمس الدين اللقاني، وأخيه ناصر الدين، وعبدالرحمٰن الأجهوري، وغيرهم من أعلام مصر.

ولمّا رجع إلى طرابلس، درّس بها، فكان نافذ الرأي، ثمّ انتقل إلى

---

(١) أعلام ليبيا ص ١٦٧.

(٢) توشيح الديباج ص ٦٠ ـ ٦١، نيل الابتهاج ١/١٣٨ ـ ١٤٢، شجرة النور الزكية ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨، الضوء اللامع ١/٢٢٢، درّة الحجال ص ٩٠ ـ ٩١، أعلام ليبيا ص ٦٥ ـ ٦٧.

الصابرية من قرى مدينة الزاوية، حيث توفي بها[١].

* **محمد بن شعبان الطرابلسي (ق ١١هـ)** : كان عالماً فاضلا، ذهب إلى القسطنطينيّة سنة ١٠١٦هـ، وحصلت له مناظرة مع علمائها ظهر فيها فضل علمه ومكانته، فلمّا تهيّأ للعودة إلى وطنه، كافأه شيخ الإسلام صنع الله أفندي بن جعفر، فأسند إليه قضاء طرابلس وأضاف إليه وظيفتي الإفتاء والتدريس[٢].

* **محمد بن أحمد بن مساهل (١٠٧٧هـ)**: تفقه بطرابلس على مشائخ عصره، وكان حريصا على لقاء الوفود للأخذ عن أهل العلم منهم، ولم تكن له رحلة لطلب العلم.

تولّى الإفتاء في طرابلس سنة ١٠٣٧هـ، وبقي على الإفتاء نحو أربعين سنة، ثمّ أعفي، فلازم بيته والمسجد لإقراء العلم ونفع المسلمين[٣].

* **محمد بن محمد المكني (ق ١١هـ)**: كان فقيهاً فطنا، يتميّز بذكاء عقل، وزيادة نبل، مهر في فنون عديدة وكان بيته بيت علم من لدن أسلافه.

ولي الفتوى، فحمدت سيرته، وسدّد في فتواه، وولّي التدريس والإمامة والخطابة بالجامع الكبير، وكانت له خزانة كتب ببيته ليس لها مثيل عند أحد من أهل بلده.

وكان على قيد الحياة سنة ١٠٧٢هـ[٤].

* **أبو عثمان سعيد الشريف الطرابلسي (١١١٢هـ)**: شيخ القطر، أخذ عن أعلام تونس كالشيخ أحمد الشريف ومحمد فتاتة، علي الأندلسي ومحمد الغماد وعبدالقادر الجبالي وغيرهم.

---

(١) أعلام ليبيا ص ٢٢٧ .
(٢) أعلام ليبيا ص ٢٧٦.
(٣) أعلام ليبيا ص ٢٦٣.
(٤) أعلام ليبيا ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

انتهت إليه الرئاسة في المعقول والمنقول، وكان ممتازاً في الفقه والنحو والحديث، وقوله مقدّم على قول غيره، فرحل إليه الناس من الجهات، وأخذوا عنه منهم: الشيخ محمد زيتونة، والشيخ الخضراوي[١].

* **أبو عبدالله محمد بن خليل غلبون (ق ١٢هـ)**: ولد بمصراتة إحدى مدن طرابلس، نشأ محبًّا للعلم مشاركاً فيه، رحل إلى مصر لطلب العلم بالأزهر، ثمّ رجع إلى بلده سنة ١١٣٣هـ.

له قدم راسخة في الأمر بالمعروف، والجهر بالحقّ وله وقفات مشرّفة في إنكار المنكر بماله وجاهه، فكان ينكر على أرباب الطرق الصوفية ما أحدثوه من أعمال مخالفة للشريعة، وكانت له مناظرة في شأن الطرق مع الشيخ محمد النعاس التاجوري، فظهر عليه وألزمه الحجّة، فالتجأ النعاس إلى التعصّب بدعوى أنّ هذه الطريقة هي طريقة مشائخه لا يسعه تركها.

كان يعلم في مصراتة الفقه والتفسير والحديث، وغيرها من العلوم[٢].

* **أحمد بن عبدالمحسن بن فتح الله بن عبدالله بن موسى بن أحمد بن عبدالمحسن (١١٤٧هـ)**: من علماء زليطن، ولّي الفتيا سنة ١١٤٢هـ، وكان عالماً من العلماء الأخيار ومدرّساً فاضلاً[٣].

وكانت أسرة آل عبدالمحسن من الأسر المشهورة بالعلم في زليطن، توارثه أبناؤها خلفاً عن سلف، ومنذ أن عرفتها زليطن لم ينقطع منها العلم[٤].

* **أبو عبدالله محمد بن عبدالحفيظ النعاس التاجوري الطرابلسي (١١٧٩هـ)**: ولد بتاجورة ـ قرية شرقي مدينة طرابلس ـ حضر مجالس العلم، وأخذ عن أعلام عصره.

---

(١) أعلام ليبيا ص ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٢) أعلام ليبيا ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(٣) أعلام ليبيا ص ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٤) أعلام ليبيا ص ٤١ ـ ٤٢.

كان على جانب كبير في العلوم الشرعية كالفقه والحديث، وكان يجلس للدرس بالمدرسة التاجورية، وانتفع به خلق كثير[١].

* **محمد بن محمد الفطيسي (حدود ١٢١٠هـ)**: من علماء زليطن كان فقيهاً عالماً ولد ببلدة زليطن في أوائل المائة الثانية بعد الألف، وبيت آل الفطيسي بيت علم من قديم، وهم من الأسر الأندلسية التي هاجرت من الأندلس حين غزاها الإسبان في القرن السابع، ولهم ذكر في علماء الأندلس.

تلقى العلوم عن أهل بيته، ثمّ رحل إلى مدرسة تاجورة، وأخذ عن علماء بيت النعاس، وشارك في جميع العلوم، ثمّ رجع إلى زليطن، وتولّى التدريس في زاوية آل الفطيسي بزليطن.

له تآليف مفيدة، منها: منظومته الفقهية التي جمع فيها ما ذكره خليل في مختصره وزاد عليه فوائد كثيرة، وسمّاها: الضوء المنير المقتبس، في مذهب الإمام مالك بن أنس.

وقد نالت هذه المنظومة إعجاب أهل العلم بطرابلس، وشرحها المؤلف، وقد ضاع أكثره، وله منظومات أخرى في التوحيد والنحو، وتآليف أخرى تدلّ على غزارة علمه.

وتوفي عن سنّ تناهز المائة[٢].

* **أبو عبدالله محمد بن علي السنوسي (١٢٠٢هـ ـ ١٢٧٦هـ)**: العالم الجليل، والمصلح العظيم، الجزائري المولد، أخذ العلم عن فاس ومصر والحجاز.

---

(١) أعلام ليبيا ص ٢٧٧.

(٢) أعلام ليبيا ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

حمله حبّه للإصلاح على التجوّل في البلاد العربيّة، ليطّلع على أحوال المسلمين، ويشاهد ما سرى فيهم من علل اجتماعية، ليتخذ لأدوائها ما يناسبها من الأدوية.

ابتدأ نشاطه في برقة الليبية سنة ١٢٥٧هـ، واختارها مقرّا لنشر دعوته الإصلاحية، وبقي يتنقل بينها وبين طرابلس، ثمّ اتّخذ الجغبوب مقرّا رسميّا لإقامته، وبنى بها زاوية كبيرة لتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم العلم.

بثّ دعوته الإصلاحيّة بين سكّان البادية، وبذل الجهد في التعليم والإرشاد، حتّى تخرّج عليه أساتذة أصبحوا أعلام هداية وإرشاد من بعده، وأخذ عنه الناس طبقة بعد طبقة.

كان ينتدب جماعات من طلبته النجباء، فيوجّه كلّ واحد منهم أو أكثر لجهة بقصد جمع الكتب شراء واستنساخا.

صنّف في العمل بالسنّة والوقوف مع الأدلّة، كتاب بغية السول في الاجتهاد والعمل بحديث الرسول، وكتاب بغية المقاصد وخلاصة المراصد، وكتاب إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، وغير ذلك.

وذكر الكتّاني أنّ قاضي الديار التونسيّة محمد الطيّب النيفر، حين لقي الشيخ السنوسي في حجّته الأولى قدّم له نسخة من تهذيب البراذعي، كان وجّهها له معه أحد أحبّائه، فسأل الشيخ عمّا يريد منها مع ما يعرف عنه من ميلانه للاختيار والترجيح، فقال: لأجيب منها إذا سألني سائل عن المذهب المالكي.

عمّت دعوته الصحراء الليبية، من حدود مصر إلى حدود الجزائر، وكان أنصاره يسيرون إلى الجهات النائية لتحفيظ القرآن، وتعليم مبادىء العلوم الدينية والعربية، وبثّ الروح الإصلاحية في النفوس.

صنّف تصانيف كثيرة، وتوفي عن سنّ عالية[١].

---

(١) فهرس الفهارس ٢/١٠٤٠ ـ ١٠٤٩، أعلام ليبيا ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

وعموما فإنّ فقهاء المالكيّة في سائر البلاد المغربية يفوتون الحصر، ومذهبهم هو المذهب السائد في جميع المدن والأرياف بلا منافس، وفقههم هو الفقه المتداول في جميع الجهات بلا منازع.

غير أنّ في بداية المرحلة الثانية من هذا الدور - أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر - دخل على المذهب المالكي - كما مرّ بنا آنفا - عنصر آخر من عناصر المعرفة الإسلاميّة، ومن عناصر الهدي الإسلامي، ألا وهو المذهب الحنفي، الذي أصبح يدرّس إلى جانب المذهب المالكي[١].

وساد المذهبان المالكي والحنفي أقطار المغرب العربي إلاّ ما كان من جبل نفوسة في ليبيا، وجزيرة جربة في تونس، وبلاد ميزاب في الجزائر، فإنّها كانت تتبع المذهب الإباضي.

وبرز على ذلك الفقهاء الأحناف الذين درسوا على أعلام المالكيّة والحنفية، كما برز الفقهاء من المالكيّة الذين درسوا على أعلام المذهبين، وتواصلت في البلاد المغربيّة الأصول المالكيّة والحنفيّة كما لم تتواصل في قطر آخر، ناهيك أنّ الفقيه الحنفي أبو العباس أحمد الأبيّ[٢] كان الذي شجّعه على التصدّي للتدريس في شبابه وألزمه على ذلك - رغم ما كان يراه هذا الشاب في نفسه من قصور عن رتبة الإفادة - هو شيخه صالح الكواش المالكي، وقال له: «أنا أعلم بحالك منك» فإذا بهذا الشاب الحنفي يتصدّر بجامع الزيتونة الأعظم ويفيد، ويعمّر الجامع بحلق التدريس، ثمّ ينتخب بعد ذلك إماماً ومدرّسا بجامع صاحب الطابع، ولم يزل في بثّ العلم إلى أن عيّنه أحمد باي مفتيا.

ونتج عن هذا التواصل تأثّر الفقه المالكي بأساليب الدراسة ومناهج

(١) ومضات فكر ٣٠٧/٢ - ٣٠٨.

(٢) تقدمت ترجمته.

البحث التي كان يسير عليها الفقه الحنفي كما تأثّر الفقه الحنفي بمسائل القضاء التي كان يسير عليها المذهب المالكي من قبل دخول العثمانيين، غير أنّ هذا التجديد للعلم كان تجديدا لمعالمه وآثاره وأطلاله، ولكنّه لم يكن تجديدا لروحه(١).

وقبل أن نختم الحديث عن هذا المركز الفقهي، تجدر الإشارة إلى أنّ تجّار وفقهاء شمال إفريقيا قد كان لهم الدور الفعّال والتأثير القويّ في إيصال الإسلام ونشره في بلاد السودان الأوسط وخاصّة كانم ـ الواقعة في الشمال الشرقي من بحيرة تشاد ـ وبرنو ـ الواقعة في غربي البحيرة ـ كما حدث بالنسبة إلى وصول الإسلام إلى غانا ومالي عن طريق الجاليات من تجّار المسلمين وفقهائها في البلاد(٢).

وكان المذهب السائد بهذه الديارهو المذهب المالكي، وبحلول القرن التاسع الهجري ساد في برنو نظام التعليم الإسلامي وازداد عدد الطلبة وانتشرت المدارس واشتهرت منها مدرسة الشيخ أحمد فاطمي في القرن التاسع الهجري، كما ظهرت في أواخر القرن العاشر مدرسة كالومباردو شمال شرقي العاصمة جازاراجامو.

ومن أشهر علمائها في بداية تأسيسها العالم الطارقي الشيخ الوالي بن الجرمي الطارقي، والشيخ وال ديدي الفلاّتي الذي تلقّى العلم في تنبكتو وأجاديس، وقد أحيى مدرسة كالومباردو الشيخ عبدالله البرناوي في حدود عام ١٠٧٥هـ، وكان قد تلقّى العلم على يد العالم الطارقي أحمد الصادق ابن أبي محمد أويس(٣).

وكانت لهذه المدارس صلة بالجامع الأزهر الشريف، وقصدها علماء

---

(١) ومضات فكر ٢/٣٠٨.

(٢) وصول الإسلام وانتشاره في كانم ـ برنو بالسودان الأوسط، ضمن كتاب دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٧٩ ـ ٣٩١.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

أتراك وأندلسيون، وقد احتفظت إلى عهد قريب بجودة مستوى دراساتها الفقهيّة والقرآنيّة.

وهكذا تعزّز الإسلام في كانم وبرنو منذ أواخر القرن التاسع الهجري، وأصبح للفقهاء والعلماء مكانة مرموقة في البلاد.

وفي القرن الثاني عشر الهجري ظهرت مدارس أخرى في ماشينا وفي العاصمة جازارجامو، وكان العلماء والطلبة في هذه المدارس يتلقّون المساعدة والدعم من جانب السلطان، وغدت برنو مركزا علميّا اجتذب إليه الكثير من المسلمين من بقيّة السودان(١).

ـ ٦ ـ الأندلس:

هذا الدور هو نهاية العنقود من تاريخ نشاط الحركة الفقهيّة بأندلسنا المفقود، حيث خيّمت على هذه البقعة من بلاد الإسلام الحروب والانقسامات بين الدويلات القائمة على أطلال الدولة الموحديّة، تلك الحروب التي أثّرت في قوّة الإسلام ببلاد الأندلس، حتّى آلت البلاد إلى قلاع مقطّعة الأوصال ممزّقة الأطراف.

ورغم ما كان عليه حال الأندلس من اضطراب وانقسام، فإنّ جذوة الحركة الفقهية وقبس الاهتمام العلمي لم يطفأ نوره، والانحطاط الذي أصيب به جسم الأندلس لم يؤثر تأخّرا سريعا، بفعل توافر العلماء في بلاد الأندلس من سائر الفنون، حتّى كنّا نشهد في العصر الواحد طائفة من العلماء ما منهم إلاّ إمام يعنى إليه، ويعتمد في علمه عليه(٢).

ومن أعظم الفقهاء الذين ظهروا في هذا الدور:

* **أبو بكر محمد بن عليّ بن الفخار الجذامي الأندلسي (٦٣٠هـ - ٧٢٣هـ)**: الذي استوطن مالقة، وتصدّر للإقراء وكان كثير العكوف على

(١) وصول الإسلام وانتشاره في كانم - برنو بالسودان الأوسط، ضمن كتاب دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٧٩ ـ ٣٩١.

(٢) ابن عاشور محمد الطاهر: أليس الصبح بقريب ص ٦٩ ـ ٧٠.

العلم والملازمة، مستغرق الوقت في التدريس، فكان يدرّس من صلاة الصبح إلى الزوال، ويقرأ القرآن، ويفتي النساء بالمسجد إلى بعيد العصر، ثمّ يأتي الجامع الأعظم بعد المغرب يفتي إلى العشاء الآخرة.

وقد وقعت بينه وبين فقهاء بلده مشاحنات في أمور عدّوها عليه ممّا ارتكبها اجتهاده في مناط الفتوى، وعقدت له مجالس أجلى عن ظهوره فيها، فبالغ الناس في تعظيمه، وانتفعوا بعلمه واستفادوا منه.

ألّف نحو الثلاثين تأليفاً، منها: منظوم الدرر في شرح كتاب المختصر، ونصح المقالة في شرح الرسالة، والجواب المختصر المروم في تحريم سكنى المسلمين بلاد الروم، وكتاب تفضيل صلاة الصبح للجماعة في آخر وقتها المختار، على صلاة الصبح للمنفرد في أوّل وقتها بالابتدار[١].

*** أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (٦٩٣هـ - ٧٤١هـ):**
الغرناطي، كان على طريقة مثلى من العكوف على العلم، والاشتغال بالنظر والتقييد والتدوين، قائما على التدريس مستوعبا للأقوال.

تقدّم خطيبا بالجامع الأعظم ببلده على حداثة سنّه، فاتّفق على فضله.

من مصنّفاته: كتاب القوانين الفقهيّة في تلخيص مذهب المالكيّة، والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفيّة والحنبليّة، كما صنّف في علم الأصول والقراءات والعقائد[٢].

وكان الفقيه ابن جزي قد استشهد في واقعة طريف[٣]، ممّا يدلّ على

---

(١) الديباج المذهب ص ٣٩٥ - ٣٩٦، الدرر الكامنة ٨١/٤، طبقات المفسرين ص ٤٤١ - ٤٤٢، شجرة النور الزكية ص ٢١٢، هدية العارفين ١٥٩/٢.

(٢) نفح الطيب ٥١٤/٥ - ٥١٦ و٥٣٨/٥، الديباج المذهب ص ٣٨٨ - ٣٨٩، شجرة النور الزكية ص ٢١٣، الدرر الكامنة ٣٥٦/٣، الفكر السامي ٢٨٢/٤، هدية العارفين ١٦٠/٢.

(٣) وطريف: اسم لجزيرة خضراء بالأندلس جرت فيها واقعة مشهورة سنة ٧٤١هـ، كانت من الدواهي المعضلة الداء والأزراء، وتضعضع لها ركن الدين بالمغرب، حيث قتل=

أنّ العلماء لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التي كانت تجري ببلاد الأندلس، وإنّما كانوا يحملون الهمّ الأكبر والشغل الأعظم النابع من شعورهم القويّ بضرورة الدفاع عن بلاد الإسلام، ولذلك نرى الكثير منهم قد نال شرف الشهادة في سبيل الله في هذه الواقعة ذاتها، كأبي محمد عبدالله بن عليّ بن عبدالله بن سلمون الغرناطي (٦٦٩هـ - ٧٤١هـ): وكان إماماً في كثير من الفنون، صاحب علم وفضل[١]، وأبي عبدالله محمد بن يحيى الأشعري (٦٧٤هـ - ٧٤١هـ) المالقي المعروف بابن بكر، الذي توفّي شهيداً في نفس الواقعة مقبلاً غير مدبر، وهو يقول: هذا يوم الفرح، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[٢]، وكان من صدور العلماء قد ولّي القضاء والخطابة بغرناطة، وتصدّر لبثّ العلم بها[٣].

ونلقى بعد هؤلاء:

* **أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن محمد السياري ويعرف بالبياني (٧٥٣هـ)**: من أهل غرناطة، أقرأ الفقه ودرّسه طول حياته، وانتصب للفتيا، وكان مستشاراً في الأحكام، يقوم على الفقه أحسن قيام، عاكفاً على تدريسه، مكبًّا على تبيينه، سهل الألفاظ، حسن التعليم، وكان يدرّس بالمدرسة النصريّة[٤].

* **أبو عبدالله محمد بن عليّ بن أحمد بن الفخّار البيري (٧٥٤هـ)**: شيخ أبي إسحاق الشاطبي وأبي البركات ابن الحاج، وغيرهما[٥].

= فيها جمع من أهل الإسلام، وجملة وافرة من الأعلام (انظر: الديباج المذهب ص ٣٨٩، إحالة رقم ١).

(١) نيل الابتهاج ٢٣٣/١، شجرة النور الزكية ص ٢١٤، .

(٢) من الآية - ١٧٠ - من سورة آل عمران.

(٣) نيل الابتهاج ٤٨/٢ - ٥٠، شجرة النور الزكية ص ٢١٣ - ٢١٤.

(٤) الديباج المذهب ص ٣٨٩ - ٣٩٠، الدرر الكامنة ٢٩٥/٣.

(٥) نفح الطيب ٣٥٥/٥ - ٣٥٩، نيل الابتهاج ٢٥٠/٢، شجرة النور الزكية ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

وبعد النصف الثاني من القرن الثامن، نلقى جماعة من أكابر فقهاء الأندلس، جمعوا أشتات الفضائل، وكانوا محطّ الأنظار، وملتقى العلماء الأخيار، أشهرهم:

* **أبو البركات عماد الدين محمد بن محمد بن إبراهيم بن حزب الله البلفّيقي (٧٧١هـ)**: المعروف بابن الحاج قاضي الجماعة، وشيخ الفقهاء وسيّد أهل العلماء بالأندلس.

نشأ ببلده المرية، وأخذ عن علماء القطر المغربي وبجاية، واستقرّ بالأندلس، فتصرّف في الإقراء والقضاء والخطابة، وبلغ في ذلك درجة عالية.

من مصنّفاته: خطر فنظر على وثائق ابن فتّوح، وكتاب فيما كثر دوره في مجالس القضاة[1].

* **أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لبّ (٧٠١هـ ـ ٧٨٢هـ)**: إمام غرناطة وخطيبها ومفتيها وعالمها، جلس للتدريس ببلده على وفور الشيوخ، وأقرأ بالمدرسة النصريّة سنة ٧٥٤هـ.

كان من أكابر علماء المذهب ومحقّقيهم، وممّن بلغ درجة الاختيار في الفتوى، وكانت له اختيارات خارجة عن مشهور المذهب.

أخذ عن أبي محمد بن سلمون والناصر المشذالي وابن عبد الرفيع وغيرهم، ومن أشهر من تلقّى عنه: الإمام الشاطبي وأبو عبدالله الحفّار ومحمد بن عاصم وابنه أبو يحيى بن عاصم وأخوه القاضي أبو بكر بن عاصم وأبو القاسم بن سراج وأبو محمد محمد بن جزي وابن علاق وغيرهم كثير، وقلّ من لم يأخذ عنه في الأندلس في وقته.

---

(١) الديباج المذهب ص ٣٨٥ ـ ٣٨٧، نيل الابتهاج ٨٥/٢ ـ ٨٧، طبقات القرّاء ٢٣٥/٢، هدية العارفين ١٦٥/٢، شجرة النور الزكيّة ص ٢٢٩ ، الدرر الكامنة ١٥٥/٤.

برز بمزيّة إدراكه وحفظه حتّى أصبح حامل لواء التحصيل، وعليه مدار الشورى، وإليه مدار الفتوى ببلده لغزارة حفظه وقيامه على الفقه واضطلاعه بالمسائل.

أكثر الشيخ المواق من النقل عنه في شرح المختصر، وقال: نحن على فتاويه في الحلال والحرام.

صنّف في مسائل من العلم كمسألة الدعاء إثر الصلوات، ومسألة الإمامة بالأجرة، والردّ على ابن عرفة في القراءة بالشاذّ في الصلاة، وله فتاوى مشهورة[١].

*** أحمد بن أبي القاسم محمد بن جزي الكلبي (٧١٥هـ ـ ٧٨٥هـ):** قاضي غرناطة، والخطيب بجامعها، أخذ عن والده وانتفع به وببعض معاصري والده، وعنه تلقّى أبو بكر بن عاصم، صنّف الأنوار السنية شرح به كتاب القوانين الفقهية لوالده[٢].

*** أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي (٧٩٠هـ):** الإمام المجتهد، كانت له استنباطات جليلة وفوائد لطيفة وأبحاث شريفة، أخذ عن عظماء الفقهاء في عصره كابن الفخار ولازمه، وأبي سعيد ابن لبّ الغرناطي وأبي عبدالله الشريف التلمساني، وأبي عبدالله المقّري والخطيب ابن مرزوق، والأخيران تلمسانيان زارا غرناطة ودرسا فيها، وكانا من أهل الاجتهاد، وكان يكتب إلى إمام تونس ابن عرفة، وفقيه فاس أبو العبّاس القبّاب بما عنده من المشكلات، واطّرد ما بينه وبينهما من تبادل التحارير في كثير من المسائل.

---

(١) نفح الطيب ٥/٥٠٩ ـ ٥١٤، الديباج المذهب ص ٣١٦، نيل الابتهاج ٢/٤ ٧، شجرة النور الزكية ص ٢٣٠ ـ ٢٣١، لقط الفرائد ص ٢٢٠، هدية العارفين ٨١٦/١، الفكر السامي ٢٩١/٤، شذرات الذهب ٢١/٧.

(٢) نفح الطيب ٥/٥١٧ و٥/٥٢٥، الديباج المذهب ص ١٠٥، درة الحجال ص ١٣، الدرر الكامنة ٢٧٦/١ شجرة النور الزكية ص ٢٣١، وفيات الونشريسي ص ١٠١، وذكر وفاته سنة ٧١٠هـ، وهو خطأ.

وعنه أخذ أبو بكر بن عاصم، وأخوه أبو يحيى محمد صاحبه الذي انتفع به وورث طريقته.

اجتهد وبرع حتّى فاق أقرانه وبالغ في التحقيق، له أبحاث مفيدة في مشكلات المسائل، مع كثير من أئمّة عصره كأبي العباس أحمد القبّاب وأبي عبدالله محمد الفشتالي والإمام ابن عرفة وأبي عبدالله محمد بن عباد الرندي أجلت عن ظهوره فيها وقوّة عارضته وإمامته، منها: مسألة مراعاة الخلاف في المذهب.

صنّف تآليف نفيسة اشتملت على تحريرات للقواعد وتحقيقات لمهمّات الفوائد، منها: كتاب الموافقات الذي أبرز فيه مقاصد الشريعة، وبنى به ـ كما قال العلاّمة الشيخ الفاضل بن عاشور ـ هرما شامخا للثقافة الإسلاميّة، استطاع أن يشرف منه إلى مسالك وطرق لتحقيق خلود الدين وعصمته، قلّ من اهتدى إليها قبله وله كتاب الاعتصام الذي هو ثمرة كفاحه في تقويم الدين وقمع البدع، وله فتاوى كثيرة لم يجمعها في كتاب مستقلّ، وإنّما تناقلتها المصادر بعد عصر الشاطبي، وقد تتبّعها أستاذنا المحقّق الدكتور محمد أبو الأجفان، وجمعها من مظانها، وحقّقها وأصدرها في كتاب مستقلّ بعنوان فتاوى الإمام الشاطبي، مهّد له بدراسة قيّمة في التعريف بالإمام الشاطبي وعصره، وفي علم الإفتاء والمفتين(١).

*** أبو عبدالله محمد بن عليّ المعروف بابن علاق الغرناطي (٨٠٦هـ)**: مفتي غرناطة وإمامها وقاضي الجماعة بها، وهو سبط أبي القاسم بن جزي، تلقّى العلم عن ابن لبّ والمقّري والخطيب ابن مرزوق وغيرهم من أعلام عصره، وعنه أخذ ابن سراج وأبو بكر بن عاصم وغيرهما.

---

(١) نيل الابتهاج ٣٣/١ ـ ٤٠، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٧٠ ـ ٧٧، درّة الحجال ص ١٨٢، لقط الفرائد ص ٢٢٥، وفيات الونشريسي ص ١٣١، شجرة النور الزكية ص ٢٣١، الفكر السامي ٢٩١/٤، فهرس الفهارس ١٩١/١، فتاوى الإمام الشاطبي لأستاذنا الدكتور محمد أبو الأجفان.

له شرح على ابن الحاجب الفرعي وله فتاوى نقل بعضها الونشريسي في المعيار، ونقل عنه المواق في غير موضع[١].

*** أبو عبدالله محمد بن عليّ المشهور بالحفّار الغرناطي (٨١٠هـ)**: مفتي غرناطة وإمامها، أخذ عن ابن لبّ ولازمه وانتفع به وبغيره، وعنه أخذ ابن سراج والقاضي أبو بكر بن عاصم وغيرهما.

بقي أكثر من عامين يخرج للصلوات الخمس يهادي بين رجلين لشيء كان برجله، حتّى كان بعض أصحابه يقول: الحفّار حجّة الله على من لم يحضر الجماعة.

له فتاوى نقل بعضها الونشريسي في المعيار، توفّي عن سنّ عالية، وألحق الأحفاد بالأجداد[٢].

*** أبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي (٨١٣هـ)**: صحب أبا إسحاق الشاطبي وأخذ عنه وانتفع به، وورث طريقته، وأخذ عن ابن لبّ وغيرهما، وعنه أخذ ابن أخيه القاضي أبو يحيى وابن فتوح وغيرهما.

له تأليف كبير في الانتصار لشيخه أبي إسحاق الشاطبي، والردّ على شيخه أبي سعيد ابن لبّ في مسألة الدعاء بعد الصلاة، مات شهيداً في جهاد العدوّ، وهو مقبل عليه يدافعه بجهده والرماح تنهال عليه[٣].

*** أبو بكر محمد بن عاصم الغرناطي (٧٦٠هـ - ٨٢٩هـ)**: قاضي الجماعة، كان يرجع إليه في المشكلات وفي الفتوى، أخذ عن أعلام عصره منهم: الإمام أبو إسحاق الشاطبي وأبو عبدالله الشريف التلمساني وأبو إسحاق ابن الحاج وابن علاق وابن لبّ، وخالاه أبو بكر ومحمد ولدا أبي القاسم بن جزي.

---

(١) نيل الابتهاج ١٤٤/٢، شجرة النور الزكية ص ٢٤٧، الفكر السامي ٢٩٥/٤.

(٢) توشيح الديباج ص ٢٦٩، نيل الابتهاج ١٤٤/٢ - ١٤٥، الدرر الكامنة ٨٠/٤ - ٨١، شجرة النور الزكية ص ٢٤٧.

(٣) نيل الابتهاج ١٥٢/٢ - ١٥٣، شجرة النور الزكية ص ٢٤٧.

كان رجل الأراجيز، حيث وضع أراجيز في أصول الفقه والنحو والفرائض والقراءات، وله نيل المنى في اختصار الموافقات للشاطبي رجزا، واشتهر بالأرجوزة المسمّاة بتحفة الحكّام في نكت العقود والأحكام التي تقع في ١٦٩٨ بيتاً، وهي من أجلّ ما ألّف في علم الوثائق والإبرام، وقع عليها القبول واعتمدها العلماء وشرحها جماعة، منهم: أبو الحسن عليّ بن عبدالسلام التسولي في كتاب سمّاه البهجة في شرح التحفة، وأبو عبدالله محمد التاودي في كتاب سمّاه حلى المعاصم لبنت فكر ابن عاصم(١).

* **أبو القاسم محمد بن محمد بن سراج الغرناطي (٨٤٨هـ)**: مفتي غرناطة وقاضي الجماعة بها، وحامل راية الفقه والتحصيل بالأندلس، أخذ عن ابن لبّ والحفّار وابن علاق وغيرهم، وعنه أخذ أبو يحيى بن عاصم والمفتي أبو عبدالله السرقسطي وإبراهيم بن الفتوح والراعي والمواق وغيرهم.

ارتحل إلى تلمسان ولقي بها ابن مرزوق وجرت بينهما مناظرات، كما رحل إلى تونس وناظر جملة من علمائها.

له تآليف، منها: شرح المختصر الخليلي اعتمده المواق وأكثر من النقل عنه في تآليفه، وله فتاوى كثيرة نقل الونشريسي في معيارة جملة وافرة منها(٢).

* **شمس الدين أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الغرناطي، شهر الراعي (٧٨٢هـ ـ ٨٥٣هـ)**: أخذ عن شيوخ بلده كابن سراج والحفار وابن مرزوق الحفيد، ثمّ هاجر واستوطن مصر.

---

(١) توشيح الديباج ص ١٢٦ ـ ١٢٧، نيل الابتهاج ١٦١/٢ ـ ١٦٣، شجرة النور الزكية ص ٢٤٧، الفكر السامي ٢٩٧/٤، لقط الفرائد ص ٢٤٣، الأعلام ٢٧٤/٧، كشف الظنون ٣١٣/١ و١٤٨/٦.

(٢) نفح الطيب ٦٩٤/٢ ـ ٦٩٩، توشيح الديباج ص ٢٦٨، نيل الابتهاج ٢٠٤/٢ ـ ٢٠٥، وفيات الونشريسي ص ١٤٣، نظم العقيان ص ١٦٦ ـ ١٦٧، شجرة النور الزكية ص ٢٤٨، الفكر السامي ٣٠٣/٤.

من مصنّفاته: كتاب اختصر به شرح شيخه ابن مرزوق الحفيد على المختصر من باب القضاء إلى آخر الكتاب، وله انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك قام بتحقيقه والتقديم له أستاذنا المحقّق الدكتور محمد أبو الأجفان[١].

*** أبو يحيى محمد بن أبي بكر محمد بن عاصم (بعد ٨٥٧هـ):** قاضي الجماعة، أخذ عن والده وعمّه، وعن ابن سراج وغيرهم، تولّى اثنتي عشرة خطّة في وقت واحد منها القضاء والكتابة والوزارة والإمامة والخطابة.

وقع بينه وبين معاصره المفتي أبي عبدالله السرقسطي خلاف في مسائل ومراجعات، التزم كلّ منهما حسن الأدب في الاختلاف، شأن سادات العلماء.

ذكر في شرحه على تحفة والده أنّه تولّى القضاء سنة ٨٣٨هـ.

من مصنّفاته: شرح تحفة الحكّام لوالده، أظهر فيه فقها متينا وتصرّفا عجيبا، وله جنّة الرضى في التسليم لما قدّر الله وقضى، ألّفه يندب بلاد الأندلس ويحرّك عزائم الإسلام لنصرة الدين لمّا استولى العدوّ على غالب تلك البلاد، وله مصنّفات وتعاليق في مسائل كثيرة، وقد نقل عنه الونشريسي في مواضع من كتابه المعيار.

وكان على قيد الحياة سنة ٨٥٧هـ، وقيل توفّي ذبيحاً من طرف السلطان[٢].

*** أبو عبدالله محمد بن محمد الأنصاري السرقسطي الغرناطي (٧٨٤هـ**

---

(١) توشيح الديباج ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩، نيل الابتهاج ٢/٢١٠، شجرة النور الزكية ص ٢٤٨ وفيات الونشريسي ص ١٤٤، كشف الظنون ١٥٨/٦ الضوء اللامع ٢٠٣/٩، شذرات الذهب.

(٢) نيل الابتهاج ٢١٨/٢ ـ ٢١٩، شجرة النور الزكية ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩، كشف الظنون ١٥٩/٦.

ـ ٨٦٥هـ): عالم غرناطة ومفتيها أخذ عن ابن سراج وطبقته، وعنه أخذ ابن الأزرق والقلصادي ولازمه وانتفع به وأثنى عليه في رحلته، وقال: كان من أحفظ الناس لمذهب مالك، ولا كلفة عليه في كتب الفتيا، وكان فصيحاً في كتبه وجيز العبارة له مشاركة في علوم الشريعة واعتكافه على قراءة المذهب.

كان يقرىء كتباً متعدّدة، كصحيح مسلم والموطّأ وتفريع ابن الجلّاب وتلقين القاضي عبدالوهاب ورسالة ابن أبي زيد ومختصر ابن الحاجب الفرعي ومختصر خليل ومقدّمات ابن رشد والمدوّنة.

نقل عنه المواق في مواضع من كتابه سنن المهتدين.

ووقعت بينه وبين معاصره قاضي الجماعة أبي يحيى محمد بن عاصم مراجعات وحوار في بعض المسائل العلمية مع التزام كلّ منهما لجانب الأدب[١].

* **أبو إسحاق إبراهيم بن فتوح العقيلي (٨٦٧هـ)** مفتي غرناطة وعالمها وشيخ علماء الأندلس في وقته، أخذ عن ابن سراج وطبقته، وعنه أخذ ابن الأزرق والراعي والقلصادي وأثنى عليه في رحلته.

كان عالماً متفنناً نظاراً يتميّز بفكر نقاد وذهن منقاد انتفع به الجهابذة والنقاد، وتخرج على يديه أكثر علماء الأندلس.

طالت مدة إقرائه للعلوم حتى لحق الأصاغر بالأكابر، له فتاوى نقل بعضها الونشريسي في المعيار.

وفي أواخر القرن التاسع الهجري ازداد الضغط الإسباني على المسلمين وتمكّنوا من السيطرة على جنوب البلاد، فاستولوا على مرسية

(١) رحلة القلصادي ص ١٦٤ ـ ١٦٥، نيل الابتهاج ٢/٢٢١ ـ ٢٢٣ الشجرة ٢٤٩ وانظر: ص ٢٦٠.

سنة ٨٨٧هـ ورندة سنة ٨٨٩هـ، ومالقة سنة ٨٩٢هـ ووادي آش والمرية سنة ٨٩٥هـ[١].

وكان كلّما سقط معقل من معاقل الإسلام من بلاد الأندلس وأيس أهله من استرجاعه نزحوا إلى المعاقل الأخرى، حتّى لم يبق أواخر القرن التاسع الهجري غيرغرناطة التي أضحت مأوى اللاجئين من أطراف المعاقل المتساقطة بأيدي الإسبان.

وملك هذه الناحية من الجزيرة الباقية ملوك بني الأحمر، فكانوا في جهاد وجلاد في غالب أوقاتهم، ولم يزل ذلك شأنهم حتّى أدرك دولتهم الهرم الذي يلحق الدول[٢].

ورغم عوارض السقوط التي بدت واضحة على آخر معاقل الإسلام بالأندلس، فإنّ حركة الفكر على وجه العموم، والنشاط الفقهي على وجه الخصوص، لم تخب جذوته نهائيا، بفضل ما كان للجامع الأعظم بغرناطة وسنده المدرسة النصريّة ـ التي أنشئت في منتصف القرن الثامن ـ من إشعاع علمي، حتّى قال القلصادي في شأنها: «هي أنوه مواضع التدريس بغرناطة»[٣].

فظهر في هذه الفترة الأخيرة:

* **أبو الحسن علي القلصادي (حدود ٨١٥هـ ـ ٨٩١هـ)**: خاتمة علماء الأندلس، وآخر من له التآليف الكثيرة من أئمّة الأندلس، صنّف في الحساب والفقه والنحو والعروض والمنطق والقراءات والحديث والتراجم والتصوّف، وكانت أغلب مؤلفاته شروحاً لمتون، حيث كان الاعتناء بالشروح أمراً متداولاً ومنتشراً في عصره، من تلك المصنّفات ثلاثة عشر كتاباً في الحساب وعشرة كتب في علم الفرائض منها شرح فرائض ابن أبي

---

(١) انظر: نفح الطيب ٤/٤٤٦، لقط الفرائد ص ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١.

(٢) نفح الطيب ٤/٥١١.

(٣) رحلة القلصادي ص ١٦٧.

شريف وابن شاط، وشرح على فرائض مختصر خليل وفرائض التلقين وفرائض ابن الحاجب وشرح الغنية في الفرائض له، وصنف في الفقه أشرف المسالك إلى مذهب مالك وشرح مختصر خليل وشرح الرسالة وشرح التلقين وشرحان على تلخيص ابن البنا وهداية الأنام في شرح مختصر قواعد الإسلام، وشرح الأنوار السنيّة، وله النصيحة في السياسة العامّة والخاصّة، وكانت وفاته بباجة(١).

*** أبو عبدالله محمد بن عليّ المعروف بابن الأزرق الغرناطي (٨٩٥):** قاضي الجماعة بغرناطة، وعالمها ومفتيها، أخذ عن ابن فتوح وكان جلّ انتفاعه به، وأخذ عن أبي عبدالله السرقسطي وغيرهما، وعنه أخذ أحمد بن داود وغيره.

لمّا استولى الإسبان على بلاد الأندلس، انتقل إلى تلمسان، ثمّ إلى المشرق، وتولّى قضاء القضاة ببيت المقدس، وبها توفّي.

من مصنّفاته: شرح حافل على المختصر سمّاه شفاء الغليل في شرح مختصر الشيخ خليل، وله فتاوى بعضها منقول في المعيار(٢).

*** أبو عبدالله محمد بن يوسف العبدوسي الغرناطي المعروف بالمواق (٨٩٧هـ):** إمام غرناطة وعالمها ومفتيها، وخاتمة علماء الأندلس المفقود، أخذ عن ابن سراج وكان عمدته، وعن محمد بن عاصم، وغيرهما، وعنه أخذ جماعة منهم الشيخ الدقون وأبو الحسن الزقّاق وأحمد بن داود.

من مصنفاته: شرحان على مختصر خليل، كبير سمّاه التاج الإكليل، والشرحان في غاية الجودة في تحرير النقول مع الاختصار البالغ غايته، وله

---

(١) نفح الطيب ٦٩٢/٢ ـ ٦٩٤، توشيح الديباج ص ١٣٢ ـ ١٣٤، نيل الابتهاج، درة الحجال ٢٥١/٣ الفكر السامي ٩٦/٤، نظم العقيان ص ١٣١، لقط الفرائد ص ٢٧٠، فهرس الفهارس ٩٦٢/٢ ـ ٩٦٣، الحلل السندسية ٦٧١/٣ ـ ٦٧٣، شجرة النور الزكية ص ٢٦١، كشف الظنون ٥٩٠/٥.

(٢) نفح الطيب ٦٩٩/٢ ـ ٧٠٤، توشيح الديباج ص ٢١٦، نيل الابتهاج ٢٤٨/٢، شجرة النور الزكية ص ٢٦٢، الضوء اللامع ٢١/٩، كشف الظنون ١٧٢/٦.

سنن المهتدين في مقامات الدين، وهو كتاب جليل أبان فيه معرفة بالعلوم أصولا وفروعا، أرسله لمفتي تونس الإمام الرصّاع، فلمّا اطّلع عليه أثنى عليه كثيراً وشكره[(١)].

* **أبو جعفر أحمد بن عليّ بن أحمد بن داود البلوي (الأندلسي):** أخذ عن والده وعن القلصادي والمواق وغيرهم، وأجازه ابن غازي.

رحل مع إخوته من غرناطة بعد سنة ٨٩٠هـ إلى تلمسان وأخذ عن شيوخها، ثمّ رحل إلى المشرق[(٢)].

وممّا تجدر إليه في هذا المجال، أنّه رغم ما كان عليه أمر الأندلس طيلة هذا الدور، من اضطراب سياسي أدّى إلى اقتطاع البلاد، ثمّ الاجتياح الخارجي الذي أدّى إلى سقوط مدنها الواحدة تلوى الأخرى، فقد كانت الأندلس مقصد الكثير من المغاربة بغرض الإفادة والاستفادة العلمية، كما هو الحال بالنسبة للإمام المقّري الكبير الذي دخل الأندلس في سفارة للسلطان أبي عنان المريني سنة ٧٥٧هـ، فكان يدرّس بالجامع الأعظم، وحضر دروسه الإمام الشاطبي، وكأبي العباس أحمد القبّاب الذي دخل غرناطة سفيراً سنة ٧٦٢هـ، وابن مرزوق الخطيب التلمساني، والإمام الزقاق صاحب اللامية الشهيرة في الأحكام الذي كانت له رحلة إلى شيوخ غرناطة، وغيرهم ممّن لا يعدّون كثرة.

ثمّ كان عام ٨٩٧هـ تاريخ سقوط غرناطة، تاريخاً حاسماً للإسلام وللغرب الأوروبي، حيث احتفلت به بلاد النصرانيّة كلّها وأمرت البابوية بأن تقرع كنائس أوروبا كلّها احتفالاً بتلك المناسبة[(٣)].

ورغم أنّ معاهدة تسليم غرناطة نصّت على أن يحتفظ المسلمون بكلّ

(١) توشيح الديباج ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥، نيل الابتهاج ٢٤٨/٢ ـ ٢٥٠، شجرة النور الزكية ص ٢٦٢، الفكر السامي ٣١١/٤، الضوء اللامع ٩٨/١٠.

(٢) شجرة النور الزكية ص ٢٧٣.

(٣) معالم في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٩٢.

حقوقهم، إلاّ أنّ سياسة الاضطهاد والإذلال التي مارسها الإسبان في حقّ مسلمي غرناطة، وإعدام جميع آثار المسلمين وإحراق ثمانين ألف كتاب في ميادين الرحبات العامّة بغرناطة، دفع بالكثير من المسلمين إلى الخروج إلى بلاد المغرب.

وتواصلت هذه السياسة الاضطهاديّة لمسلمي غرناطة، واشتدّت وطأة الإسبان على بقايا المسلمين المقيمين بها، ووقع إكراههم على التنصّر أو الخروج، ثمّ صدر سنة ١٠١٦هـ قرار النفي من الحكومة الإسبانيّة في عهد فيليب الثالث، فانتهى الأمر بطرد من تبقّى من المسلمين بالأندلس سنة ١٠١٧هـ، فانتشروا في المغرب الأقصى والجزائر وتونس التي استقرّ بها جمهور الأندلسيين، وبذلك انتهت قصّة الإسلام في شبه الجزيرة وإن بقيت آثاره الحضاريّة ماثلة إلى اليوم(١).

ـ ٧ ـ اليمن وبلاد الحجاز:

ذكر الشوكاني أنّ ببلاد اليمن في هذا الدور من أئمّة الزيديّة عددا يجاوز الوصف يتقيّدون بالعمل بنصوص الأدلّة، ويعتمدون على ما صحّ في الأمّهات الحديثيّة، وما يلتحق بها من دواوين الإسلام، المشتملة على سنّة سيّد الأنام، ولا يرفعون إلى التقليد رأسا، وهم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدلّ عليه كتاب الله، وما صحّ من سنّة رسول الله، مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنّة(٢).

ومن هؤلاء الذين ظهرت فيهم هذه الفضائل العلميّة، وأحيوا الحركة الفقهيّة، نذكر:

*** محمد بن يحيى بن أحمد بن حنش الثماني الزيدي (٦٥٠هـ ـ**

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٩٢، شجرة النور الزكية، التتمّة ص١٥٠ ـ ١٥١ و١٥٧.

(٢) البدر الطالع ص ٦٠٢.

٧١٩هـ): قرأ على علماء عصره حتى برع في فنون عدّة، وبلغ رتبة الاجتهاد.

له مصنّفات منها في الفقه: التمهيد والتفسير لفوائد التحرير في الفقه[١].

*** يحيى بن حمزة بن عليّ المعروف بالمؤيد بالله (٦٦٩هـ ـ ٧٠٥هـ)**: من أكابر أئمّة الزيدية بالديار اليمنيّة، أخذ عن أكابر علماء الديار اليمنيّة، وتبحّر في العلوم، وفاق أقرانه، عرف بالإنصاف وسلامة الصدر، وكان كثير الذبّ عن أعراض الصحابة، صنّف تصانيف حافلة في مختلف العلوم، ومن مصنفاته الفقهيّة: الانتصار وهو أهمّ كتبه وأنفعها، والاختيارات[٢].

*** عبدالله بن الحسن الصعدي اليماني الزيدي (٧١٥هـ ـ ٨٠٠هـ)**: المعروف بسلطان العلماء، قرأ على علماء عصره، وتبحّر في غالب العلوم.

كان الطلبة يرحلون إليه، ويتنافسون في الأخذ عنه، ولم يكن لأحد من علماء عصره ما له من تلاميذ، وقبول الكلمة وارتفاع الذكر، حتّى كان الناس باليمن يتوقّفون عن مبايعة أئمّتهم حتى يحضر.

وما زال ينشر العلوم، مكبّا على التصانيف حتّى توفاه الله، ومن أشهر مصنّفاته: الديباج النضير، وهو كتاب في الفقه، وصفه الشوكاني بكونه كتاب حافل ممتع[٣].

*** السيد محمد بن إبراهيم بن عليّ بن المرتضى (٧٧٥هـ ـ ٨٤٠هـ)**: المعروف بابن الوزير، وسمه الشوكاني بالإمام الكبير المجتهد المطلق، قرأ على أكابر مشائخ صنعاء وصعدة، وسائر المدن اليمنيّة، وقرأ بمكّة على الشيخ ابن ظهيرة.

---

(١) البدر الطالع ص ٧٩٥.
(٢) البدر الطالع ص ٨٤٩ ـ ٨٥١.
(٣) البدر الطالع ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

تبحّر في جميع العلوم، وفاق الأقران واشتهر صيته وطار علمه في الأقطار، وارتفعت طبقته في العلم، وتكلّم في الحديث بكلام أئمّته المعتبرين مع إحاطته بحفظ غالب المتون، حتّى زاحم أئمّة المذاهب الأربعة فمن بعدهم من الأئمّة المجتهدين في اجتهاداتهم، ولمّا عرض عليه شيخه ابن ظهيرة الانتساب إلى مذهب من المذاهب الفقهيّة، وقال له: ما أحسن لو انتسبت إلى الإمام الشافعي أو أبي حنيفة، فغضب وقال: لو احتجت إلى هذا النسب والتقليدات ما اخترت غير الإمام القاسم بن إبراهيم أو حفيده الهادي.

مدحه الشوكاني، وقال: إنّه رجل عرفه الأكابر، وجهله الأصاغر، ولو قلت: إنّ اليمن لم ينجب مثله، لم أبعد عن الصواب.

ومصنّفاته شاهد عدل على علوّ طبقته، حيث يأتي في المسألة الواحدة من الوجوه ما يبهر عقل قارئه، ويعرّفه بقصر باعه بالنسبة إلى علم مصنّفه، ومن أشهر مصنّفاته كتاب العواصم والقواصم في الذبّ عن سنّة أبي القاسم، صنّفه في الردّ على الزيديّة، وقد أورد في هذا الكتاب ـ كما قال الشوكاني ـ من الحجج الكثيرة التي لا يجد العالم الكبير في قدرته استنباط البعض منها، وقد اعتبر الشوكاني هذا الكتاب من مفاخر اليمن وأهله، وله مؤلفات أخرى في التفسير وفي علوم الحديث، وله مسائل أفردها بالتصنيف، وكان من سعة علمه وتبحّره، إذا تكلّم في مسألة لم يحتج الناظر بعده إلى النظر في غيره، ولم يستطع أحد من أهل عصره أن يعارضه، لعلوّ منزلته العلميّة التي لم يدركها شيوخه فضلاً عن معارضيه من أهل طبقته، وقد صنّفه الشوكاني في مرتبة ابن حزم وابن تيميّة، وله شعر بعضه في تقييد الشوارد العلمية.

اشتغل بالتصنيف والتدريس ونشر العلوم الشرعيّة والذبّ عن السنّة وفضح أهل البدع، في أرض لم يألف أهلها ذلك، لا سيّما في أيّامه، حتّى امتحن من أهل عصره، وكانت له معهم قلاقل، فكانوا يثورون عليه مرّة بعد أخرى، حتّى انقطع عن الناس وأقبل على العبادة وساح في

الفلوات(١).

وكان من أهل القرن العاشر:

*** موسى بن أحمد بن موسى المعروف بابن الزين اليماني الزيدي (٨٤٢هـ - ٩٢٣هـ)**: حفظ المختصرات وبرع ولا سيّما في الفقه، وعليه دارت الفتيا ببلده، وعظّمه سلاطينها.

صنّف شرحاً لكتاب الإرشاد، سمّاه الكوكب الوقّاد(٢).

*** محمد بن يحيى بن محمد اليماني الصعدي المعروف ببهران الزيدي (٩٥٧هـ)**: أحد علماء اليمن المشاهير، كان في أوّل حياته يتنقّل في المدائن اليمنيّة للتجارة، ويطلب العلم في كلّ محلّ يتّجر فيه، حتّى برع في علوم عديدة، ثمّ تفرّد برئاسة العلوم في عصره، وصنّف التصانيف الكثيرة، منها في الفقه: شرح الأثمار للإمام شرف الدين، ذكر فيه من دقائق الفقه وحقائقه ما لم يوجد في غيره، وذكر الأدلّة على مسائله، ونقّحه أحسن تنقيح(٣).

ثمّ ظهر:

*** السيّد الحسن بن أحمد بن محمد المعروف بالجلال (١٠١٤هـ - ١٠٨٤هـ)**: أخذ عن أكابر علماء صعدة وصنعاء وما حواليهما من الجهات، وبرع في العلوم النقليّة والعقليّة، وصنّف تصانيف كثيرة منها: ضوء النهار في شرح الأزهار للإمام المهدي، حرّر فيه اجتهاداته على مقتضى الدليل، ولم يعبأ بمن يوافقه من العلماء أو يخالفه، وهو شرح قال فيه الشوكاني: «أنّه لم يشرح كتاب الأزهار بمثله، وأنّه لا نظير له في الكتب المدوّنة في الفقه» وقد ناقشه الإمام الشوكاني في كثير من ترجيحاته التي حرّرها في مؤلفاته.

---

(١) البدر الطالع ص ٥٩٩ - ٦١٠، الضوء اللامع ٦/٢٧٢.

(٢) البدر الطالع ص ٨٣١.

(٣) البدر الطالع ص ٧٩٦ - ٧٩٨.

حصلت له مع أبناء عصره قلاقل وزلازل كما جرت به عادة أهل اليمن من وضع جانب أكابر علمائهم المؤثرين لنصوص الأدلّة على أقوال الرجال(١).

*** إسماعيل بن القاسم بن محمد المعروف بالمتوكّل على الله (١٠١٩هـ - ١٠٨٧هـ)**: قرأ على جماعة من أعيان عصره في سائر العلوم، وشارك فيها مشاركة قويّة، وبرع في الفقه وفاق علماء عصره في ذلك، وأقرّ له الجميع بذلك، ورجعوا إليه في المعضلات.

دعا إلى نفسه بالبيعة سنة ١٠٥٤هـ بعد موت أخيه محمد بن القاسم المعروف بالمؤيّد بالله، لكونه قد رأى نفسه جامعا لشروط الإمامة المعتبرة في مذهبه التي منها الاجتهاد، وخاض حروبا حتّى صارت اليمن جميعها تحت طاعته، وأذعنت إليه السلاطين من يافع وحضر موت وعدن وظفار وغير هذه الديار، حتّى والاه وتابعه الشريف صاحب مكّة.

من مصنّفاته: أربعون حديثاً تتعلّق بمذهب الزيدية وشرحها، وفوائد المسائل المرتضاة فيما يعتمده القضاة ورسائل شتّى في مسائل من الفقه متنوّعة، وجوابات مسائل سأله عنها علماء عصره، وهي كثيرة جدّا متفرّقة، وللناس عليها اعتماد كبير ولا سيّما الحكّام(٢).

*** صالح بن مهدي بن عليّ المقبلي (١٠٤٧هـ - ١١٠٨هـ)**: نسبة إلى قرية المقبل من أعمال بلاد كوكبان باليمن، أخذ العلم عن جماعة من أكابر علماء اليمن، ثمّ دخل صنعاء وجرت بينه وبين علمائها مناظرات أوجبت المنافرة لما فيه من الحدّة والتصميم على ما تقتضيه الأدلّة وعدم الالتفات إلى التقليد.

برع في جميع علوم الكتاب والسنّة وحقّق الأصولين والعربية، والحديث والتفسير، وفاق في جميع ذلك، وكان يحطّ على الفقهاء في

---

(١) البدر الطالع ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٢) البدر الطالع ص ١٦٢ - ١٦٥.

كثير من تفريعاتهم، ولا يبالي إذا تمسّك بالدليل بمن يخالفه كائنا من كان.

ألزم نفسه عدم التعويل على تقليد أهل العلم في جميع الفنون، فوقعت له بمكّة امتحانات ونسبوه إلى الزندقة بسبب عدم التقليد والاعتراض على أسلافهم، ورفعوا أمره إلى السلطان العثماني، فأرسل بعض العلماء لاختباره، فلم يروا منه ما يعيب.

سلك مسلكه وأخذ عنه بعض أهل داغستان وعلمائها، ونقلوا بعض مؤلفاته، وكانوا يرحلون إلى صنعاء للأخذ عنه.

له مؤلفات مقبولة، سلك فيها مسلك الإنصاف، أعرض فيها عن القال والقيل، وقيّد فيها نفسه بالدليل، حتّى تنافس العلماء في الاعتناء بها والاحتجاج بترجيحاتها.

ارتحل إلى مكّة، واستقرّ بها إلى أن توفّي[١].

* **يحيى الأهدل الزبيدي (١٠٧٣هـ - ١١٤٧هـ)** : مفتي زبيد، وكان من الدعاة إلى الترغيب في الإقبال على علمي التفسير والحديث، وفهم معاني الكتاب والسنّة، والتفقّه في ذلك، والعمل بما صحّ به الدليل، حتّى أنّ بعض الفقهاء كانوا يقولون: إنّ يحيى بن عمر قد خرج عن مذهب الشافعي، فكان لا يصغي لقول قائل، ولا يرعوي لعذل عاذل[٢].

* **إبراهيم بن خالد بن أحمد بن قاسم العلفي الصنعاني (١١٠٦هـ - ١١٥٦)**: نشأ بصنعاء فطلب علم الفروع وحقّقه، ثمّ طلب بقيّة علوم الاجتهاد، فشارك فيها مشاركة قويّة واشتهر بصنعاء وبعد صيته وقصده طلبة علم الفروع، فأخذوا عنه وتنافسوا في ذلك، وكان يقصد بالفتاوى من العامّة والخاصّة، ويعارض باجتهاداته وصحيح أنظاره أنظار أكابر علماء عصره.

---

(١) البدر الطالع ص ٢٩٩ - ٣٠٢ .

(٢) فهرس الفهارس ٢/١١٣٥ - ١١٣٦.

وكان للناس بما يصدر عنه من الفتاوى اشتغال ورغبة عظيمة، وقد جمع فتاويه الشيخ حامد بن حسن بن شاكر[(١)].

*** محمد بن إسماعيل بن صلاح الكحلاني ثمّ الصنعاني (١٠٩٩هـ - ١١٨٢هـ)**: المعروف بابن الأمير، أحد الأئمة المجتهدين ومجدّدي الدين، وسمه الشوكاني بالإمام الكبير المجتهد المطلق.

قرأ على فضلاء أهل عصره من أعلام صنعاء، ثمّ رحل إلى مكّة وقرأ الحديث على أكابر علمائها وعلماء المدينة، حتّى برع في جميع العلوم وتفرّد برئاسة العلم في صنعاء، وولّي الخطابة بجامعها.

أقبل على الإفادة ونشر العلم تدريساً وإفتاءً وتصنيفاً، فانتفع به كثيرون وكثر أتباعه من الخاصّة والعامّة.

تظاهر بالاجتهاد، وعمل بالأدلّة، ونفر من التقليد وزيّف ما لا دليل عليه من الآراء والأقوال الفقهيّة، فكان لا ينسب إلى مذهب، بل مذهبه الحديث، فجرت له مع أهل عصره خطوب ومحن، حتّى تجمّع العوام لقتله في مناسبات عديدة.

وضع مصنّفات في غالب العلوم، وأفرد كثيراً من المسائل بالتصنيف، وله شعر فصيح جمعه ولده عبدالله وغالبه في المباحث العلميّة والتوجّع من أبناء عصره والردود عليهم[(٢)].

*** أحمد بن محمد بن عبدالهادي الجبائي الصنعاني (١١١٨هـ - ١١٩٩هـ)**: تكسّب بالتجارة في أوّل حياته مع اشتغاله بالعلم، ولّي القضاء ثمّ امتحن واعتقل، ثمّ أفرج عنه بعد أن ثقل سمعه، وضعفت قوّته، ورغم ذلك فقد كان يقرىء من يطلب القراءة عليه.

له عرفان تام بفنون الاجتهاد على اختلاف أنواعها، فكان يعمل

(١) البدر الطالع ص ٣٤.

(٢) فهرس الفهارس ٥١٣/١ - ٥١٤، البدر الطالع ص ٦٤٩ - ٦٥٤.

باجتهاد نفسه لا يقلّد أحدا، وإنّما يعمل بالأدلّة[١].

*** يحيى بن صالح بن يحيى الشجري الصنعاني المعروف بالسحولي (١١٣٤هـ - ١٢٠٩هـ)**: نشأ بصنعاء وأخذ عن والده وعن جماعة من العلماء في الفقه والحديث، برع في الفروع وشارك في غيرها.

ولي القضاء وهو دون العشرين، فباشر الخطّة بصرامة وشهامة، وعظمت هيبته في القلوب واشتهر صيته وطار ذكره، ثمّ امتحن بالسجن أعواما، وحين أفرج عنه لزم بيته، فكان الناس يتردّدون إليه لأخذ العلم عنه ويستفتونه في المعضلات، ثمّ أعيد إلى القضاء الأكبر فصار إليه المرجع من جميع قضاة الديار اليمنيّة، واستمرّ على ذلك إلى أن توفّي.

كان له اطّلاع تام على كتب الأئمّة، وسائر علماء الزيديّة[٢].

*** عليّ بن محمد الشوكاني (١١٣٠هـ - ١٢١١هـ)**: نسبة إلى شوكان قرية من قرى السحاميّة إحدى قبائل خولان القريبة من صنعاء، نشأ ببلدته فحفظ القرآن، ثمّ ارتحل إلى صنعاء لطلب العلم، فبرع في علمي الفقه والفرائض.

درّس وأفتى في صنعاء، وولّي القضاء مدّة أربعين سنة، وما ترك طلب العلم في أيّام قضائه، ولا رغب عن التدريس لطلبته، فكان يقرىء الفقه في مسجد صلاح الدين وفي مسجد الأبرز، ويقرىء الفرائض في الجامع الكبير في شهر رمضان.

وقبل وفاته بنحو سنتين تجرّد للاشتغال بالعبادة، وصرف نفسه عن مباشرة القضاء، وترك ولدين أكبرهما محمد بن عليّ الشوكاني، شيخ الإسلام المجتهد - الآتي ترجمته -، ويحي الذي كان مشتغلا بقراءة علوم الاجتهاد، قد انتفع في أنواع منها، مع كمال اشتغاله بعلم الفروع[٣].

---

(١) البدر الطالع ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) البدر الطالع ص ٨٥٢ - ٨٥٥.

(٣) البدر الطالع ص ٤٨٠ - ٤٨٦.

* **أحمد بن محمد بن أحمد بن مطهر القابلي (١١٥٨هـ - ١٢٢٧هـ)**: برز في علم الفقه وتفرّد فيه حتّى لم يبق له فيه نظير، فكان شيخ الفروع في عصره بلا مدافع، أقرأ الطلبة في جامع صنعاء، فتنافسوا في الأخذ عنه وعكفوا عليه وانتفعوا به حتّى صاروا شيوخا ومفتين وقضاة.

اعتمد الناس عليه في الفتوى وقصدوه بالمشكلات من كلّ مكان[1].

وكان خاتمة أعلام اليمن في هذا الدور:

* **محمد بن عليّ الشوكاني (١١٧٣هـ - ١٢٥٥هـ)**: نشأ بصنعاء فحفظ القرآن الكريم ثمّ حفظ المختصرات وقرأ على والده وعلى غيره من أعلام عصره وطالت ملازمته لشيخه أحمد بن محمد الحرازي نحو ثلاث عشرة سنة، وبه انتفع في الفقه وتخرّج عليه ولم تكن له رحلة خارج اليمن لعدم الإذن له من الأبوين.

جدّ واجتهد في الطلب، وتصدّى للتدريس والفتوى والتصنيف، وفرّغ نفسه لإفادة الطلبة، فكانوا يأخذون عنه في كلّ يوم ثلاثة عشر درساً في علوم مختلفة، وكان في أيّام قراءته على الشيوخ، وإقرائه لتلامذته يفتي أهل صنعاء، ومن وفد إليها، وترد عليه الفتاوى من ديار تهامة، وشيوخه إذ ذاك أحياء.

كانت الفتيا تدور عليه من عوام الناس وخواصّهم، واستمرّ يفتي من نحو العشرين من عمره، وكان لا يأخذ على الفتيا شيئاً تنزّها، فإذا عوتب في ذلك قال: أنا أخذت العلم بلا ثمن، فأريد إنفاقه كذلك.

كان منشغلا في جميع أوقاته بالعلم درسا وتدريسا وإفتاء وتصنيفا، وترك التقليد واجتهد رأيه اجتهادا مطلقا غير مقيّد، وهو قبل الثلاثين، وابتلي بالقضاء في مدينة صنعاء سنة ١٢٠٩هـ، وهو في السادسة والثلاثين من عمره، واستمرّ على تلك الخطة أكثر من أربعين سنة.

---

(١) البدر الطالع ص ١١١ - ١١٢.

كان يرى أنّ مذهب الظاهر هو العمل بظاهر الكتاب والسنّة بجميع الدلالات، وطرح التعويل على محض الرأي، الذي لا يرجع إليهما بوجه من وجوه الدلالة، وكان يقول: «وإذا أمعنت النظر في مقالات أكابر المجتهدين المشتغلين بالأدلّة وجدتها من مذهب الظاهر بعينه، بل إذا رزقت الإنصاف وعرفت العلوم الاجتهاديّة كما ينبغي، ونظرت في علوم الكتاب والسنّة حقّ النظر، كنت ظاهريّا، أي عاملا بظاهر الشرع منسوبا إليه، لا إلى داود الظاهري، فإنّ نسبتك ونسبته إلى الظاهر متّفقة، وهذه النسبة هي مساوية للنسبة إلى الإيمان والإسلام، وإلى خاتم الرسل عليه أفضل الصلوات والتسليم»(١).

اشتغل جماعة من أهل عصره بالحطّ عليه بما يقتضيه اجتهاده في كثير من المسائل كما هو دأب اليمن وأهله، بل دأب جميع المقصّرين مع من يمشي مع الدليل من العلماء.

صنّف تصانيف كثيرة مطوّلة ومختصرة، فمنها: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار في الأحكام، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول والقول المفيد في أدلّة الاجتهاد والتقليد، ورسائل في مسائل شتّى جمعها في كتاب سمّاه: الفتح الربّاني في فتاوى الشوكاني، وله حاشية على كتاب الأزهار سمّاها: السيل الجرّار على حدائق الأزهار، وهي مشتملة على تقرير ما دلّ عليه الدليل، ودفع ما خالفه والتعرّض لما ينبغي التعرّض له والاعتراض عليه من شرح الجلال وحاشيته(٢).

وأمّا المذهب الشافعي فكان من أشهر أعلامه الذين أحيوا لليمن معالمها، وأوضحوا مجاهلها، وجدّدوا مآثرها:

* **أحمد بن أبي بكر بن عبدالله الحضرمي الزبيدي (٧٨٧هـ)**: مفتي

---

(١) البدر الطالع ص ٨٠٨.

(٢) البدر الطالع للشوكاني ـ ترجمة له من إنشائه ـ ص ٧٣٢ ـ ٧٤١ وص ٤٦٧ وص ١٧٣ وص ١١٢، وص ١٣ مقدّمة المحقّق، فهرس الفهارس ١٠٨٢/٢ ـ ١٠٨٧، كشف الظنون ٢٨٤/٦ ـ ٢٨٦.

أهل اليمن في زمانه، الذي انتهت إليه الرئاسة في ذلك[١].

* **أبو بكر بن محمد بن صالح الجبلي اليمني المعروف بابن خياط (٧٤٢هـ ـ ٨١١هـ)**: نشأ بتعز، وتفقّه بجماعة من أئمّة بلده، ترقّى في العلوم ومهر في الفقه، درّس بالأشرفية وبالشمسية وبالمعينية وغيرها من مدارس تعز، وتخرّج به جماعة.

انتهت إليه رئاسة الفقه، ولم يزل متصدّيا لنشر العلم ببلده حتّى صار علماء اليمن تلامذته، ونفع الله به في الفقه والحديث، وفي أصول الفقه وأصول الدين، وغيرها من العلوم.

له أجوبة كثيرة على مسائل شتّى، وكان قد ولّي القضاء مكرها مدّة يسيرة ثمّ استعفي[٢].

* **شهاب الدين أحمد بن رضيّ الدين الناشري الزبيدي (٧٤٢هـ ـ ٨١٥)**: برع في الفقه، وكان غاية في الحفظ وجودة النظر في دقائق الفقه.

قصده الناس من الآفاق وازدحموا عليه وتخرّج به أهل بلده مدّة طويلة، ولّي قضاء زبيد وأعمالها، وإليه انتهت رئاسة الفتوى ببلده.

درّس بالصلاحية بزبيد، وغيرها من المدارس، وبذل همّته للطلبة سيّما الذين يأنس منهم الفائدة، حتّى كان يقصد أحياناً طالب العلم إلى موضعه بنفسه[٣].

* **إسماعيل بن أبي بكر بن عبدالله الشرجي اليماني الحسيني (٧٥٤هـ ـ ٨٣٧هـ)**: نسبة لأبيات حسين من بلاد اليمن، كان يعرف بالمقّري الزبيدي، نشأ ببلدته أبيات حسين وبها تفقّه، ثمّ انتقل إلى زبيد وأكمل تفقّهه على علمائها.

---

(١) شذرات الذهب ٣٩/٧ ـ ٤٠، الدرر الكامنة ١١١/١.
(٢) شذرات الذهب ٢١٧/٧، الضوء اللامع ٧٨/١١ ـ ٧٩.
(٣) شذرات الذهب ٢٥٧/٧ ـ ٢٥٨، الضوء اللامع ٢٥٧/١.

ولي تدريس المجاهدية بتعز، والنظاميّة بزبيد، فأفاد الطلبة وانتشر ذكره في سائر البلاد.

كان فقيهاً محقّقا، متفرّدا في الذكاء، واستخراج الدقائق، حتّى قيل إنّه لم يبلغ رتبته أحد من أبناء عصره، ولم ينجب اليمن مثله في فقهاء الشافعيّة.

من مصنفاته: عنوان الشرف الوافي في الفقه، وقد وقع هذا الكتاب عند سائر علماء عصره ببلده وغيرها موقعا عظيما، وله الروض مختصر الروضة للنووي، والإرشاد وهو كتاب في فقه الشافعية غاية في الإيجاز مع كثرة المعاني، انتشر في الآفاق واشتغل به علماء الشافعيّة في الأقطار، وشرحه جماعة منهم، وله مختصر الحاوي الصغير وشرحه، وغير ذلك من التصانيف(١).

وكان يعاصره ثلاثة من أقطاب زمانهم اشتهروا بمدينة تعز اليمنيّة، وبها درّسوا وأفتوا، وهم:

*** جمال الدين محمد بن رضيّ الدين ابن الخيّاط اليمني (٧٨٧هـ - ٨٣٩هـ)**: حافظ البلاد اليمنيّة، تفقّه بأبيه وغيره حتى مهر وأجيز بالإفتاء والتدريس.

كان من الفقهاء المعتبرين باليمن، درّس بتعز، وإليه انتهت رئاسة الفتوى بتعز بعد موت قاسم الدمني سنة ٨٣٢هـ، كما انتهت إليه رئاسة العلم بالحديث ببلاد اليمن، وكان بعض معاصريه يكاتبه، فيقول: إلى الليث ابن الليث، والماء ابن الغيث(٢).

*** وليّ الدين عبدالوليّ بن محمد بن الحسن الخولاني اليمني (٨٣٩هـ)**: ولد بقرب تعز، ولازم بها الإمام رضيّ الدين بن الخيّاط،

---

(١) البدر الطالع ص ١٥٨ - ١٦١، الضوء اللامع ٢/٢٩٢ - ٢٩٥، شذرات الذهب ٧/٣٥٤ - ٣٥٥.

(٢) شذرات الذهب ٧/٣٦٦، الضوء اللامع ٧/١٩٤ - ١٩٥.

وغيره من أعلام عصره، ومهر إلى أن صار مفتي تعز مع ابن الخياط.

تفرّغ للتدريس بالمؤديّة نيابة عن موفّق الدين الناشري، وظهرت بركته على تلاميذه(١).

*** موفّق الدين عليّ بن أبي بكر اليمني الشهير بالناشري (٧٥٤هـ - ٨٤٤هـ)**: قاضي القضاة، وعالم مدينة تعز باليمن، وقاضيها ومفتيها، ولد بزبيد، وبها نشأ وتفقّه بأبيه وعمّه وطبقتهما.

أكثر في شبيبته من الحجّ والزيارة، ووُلِّي القضاء بنواحي من اليمن، ثمّ استقرّ على قضاء زبيد، ووَلِّي تدريس الأشرفية بها.

كان ماهرا في الأحكام، وكتب بخطّه الكثير من المصنفات، منها: الزوائد والجواهر المثمنات المستخرج من الشرح والروضة والمهمّات، والثمر اليانع وتحفة النافع(٢).

ثمّ كان بعد هؤلاء:

*** عمر بن مجد السراج أبو حفص اليماني الزبيدي (٨٠١هـ - ٨٨٧هـ)**: نشأ بزبيد، وبها قرأ، ثمّ اشتغل بالتدريس والتصنيف، فرحل إليه الطلبة وقصدوه من الأماكن البعيدة، وانتفع به في الفقه أهل اليمن طبقة بعد طبقة حتّى صار غالبهم من تلامذته.

من مصنّفاته: مهمّات المهمّات، اختصر فيها مهمّات الأسنوي، والإبريز في تصحيح الوجيز للإمام الغزالي، والإلمام لما في الروضة من الأوهام للنووي، وأفرد زوائد الأنوار على الروضة وسمّاه: أنوار الأنوار لعمل الأبرار للأردبيلي، وكذلك فعل في جواهر القمولي، وتقريب المحتاج إلى زوائد شرح ابن الملقن على المنهاج للنووي لابن الملقّن، وغير ذلك(٣).

---

(١) شذرات الذهب ٣٦٦/٧، الضوء اللامع ٩٦/٥.

(٢) شذرات الذهب ٣٨٧/٧، الضوء اللامع ٢٠٥/٥.

(٣) البدر الطالع ص ٥١٤ ـ ٥١٥، كشف الظنون ٦٣٣/٥.

* **عمر بن محمد بن معيبد السراج أبو حفص الزبيدي (٨٠١هـ ـ ٨٨٨هـ)**: ويعرف بالفتى، فقيه اليمن الذي ولد بزبيد وبها نشأ وحفظ القرآن، وتفقّه على شيوخ عصره حتّى تميّز، ثمّ تنقّل في قرى زبيد فقرأ عليه أهل تلك الجهة، وقصده الطلبة من الأماكن النائية.

كان الناس يفزعون إليه في كلّ معضلة من ظلم ظالم، أو قهر حاكم، أو عناد مخاصم، فلا يقصر عن نفعهم جهده.

درّس بالنظاميّة وبغيرها من المدارس، وكان في إيصال المفاهيم الدقيقة وتقريبها إلى الأذهان لا يلحق، فانتفع به الطلبة، وتفقّه عليه من لا يحصى من بلاد شتّى، وكثرت تلاميذه، وقصد بالفتاوى من الأماكن البعيدة، وانتفع به في الفقه أهل اليمن طبقة بعد أخرى حتّى أصبح غالب فقهاء اليمن من تلامذته وأصحابه، وكان الطلبة يرجّحون فقهه على سائر المشهورين في عصره، حتّى صار فقيه اليمن قاطبة.

من مصنّفاته: مهمات المهمات اختصر فيه مهمات الأسنوي اختصارا حسنا اقتصر فيه على ما يتعلّق بالروضة خاصة، مع مباحثات مع الأسنوي، واستدراك كثير، وقرىء عليه مرات عديدة فكان في كلّ مرّة ينقّحه ويحرّره حتّى صار في نهاية الإفادة، وله الإبريز في تصحيح الوجيز، وأفرد زوائد الأنوار على الروضة وسمّاه أنوار الأنوار، وكذا فعل في جواهر القمولي وشرحي المنهاج والعمدة والعجالة كلاهما لابن الملقن، وكان يقول: من حصّلها مع الروضة استغنى عن تلك الكتب، سمّى أوّلها جواهر الجواهر، وثانيها: تقريب المحتاج في زوائد شرح ابن النحوي للمنهاج، وثالثها: الصفاوة في زوائد العجالة[1].

* **عبدالله بن أحمد بن عليّ الحضرمي العدني (٨٣٣هـ ـ ٩٠٣هـ)**: المعروف بأبي مخرمة، ولد بالهجرين وحفظ بها القرآن، ثمّ رحل إلى عدن وتفقّه بها، ودأب واجتهد، واشتغل بالعلم، وتقدّم في الفقه وأصوله

(١) شذرات الذهب ٨/٤، الضوء اللامع ٦/١٣٢ ـ ١٣٤.

والعربيّة والحديث والتفسير، حتّى ساد الأقران وصار عمدة يرجع إلى قوله، وأفتى في زمن مشائخه.

ولي قضاء عدن نحو أربعة أشهر، ثمّ ترك ذلك وتوجّه لنفع الطلبة خاصّة، وصنّف على جامع المختصرات نكتا لطيفة جمعها في كتاب، وله فتاوى جيّدة وعبارات محكمة(١).

وكان يعاصره أعلام سارت بفضلهم الركبان، ووقع على تقدّمهم في الفقه الإجماع، منهم:

*** جمال الدين محمد بن حسين القماط الزبيدي (٨٢٨هـ - ٩٠٣هـ)**: الذي ولد بزبيد، ونشأ بها واشتغل بالعلم ولازم القاضي الناشري، وبرع في الفقه وأفتى ودرّس، وكان لا يملّ الاشتغال والأشغال(٢).

*** جمال الدين محمد بن عبدالسلام الناشري (٩٠٦هـ)**: قاضي زبيد وإمامها وعالمها، وهو خاتم القضاة الناشريين بزبيد(٣).

ومنهم كذلك ابنه:

*** بامخرمة أحمد بن عبدالله بن أحمد اليمني (٨٦٦هـ - ٩١١هـ)**: الذي أخذ عن والده، وبرع في الفقه وغيره من العلوم، لاسيّما الفرائض والحساب، حيث لم يكن له فيهما نظير، حتّى إنّ والده مع تمكّنه من هذين العلمين، كان يقول: هو أمهر منّي فيهما.

وكان يحفظ جامع المختصرات في الفقه، وممّن أخذ عنه من الأئمّة الفقيه محمد بن عمر باقضام وانتفع به كثيراً(٤).

وفي القرن العاشر نلقى:

---

(١) شذرات الذهب ٥٢/٨ - ٥٣، الضوء اللامع ٨/٥، الأعلام ٦٨/٤.
(٢) شذرات الذهب ٥٣/٨.
(٣) شذرات الذهب ٦٥/٨.
(٤) شذرات الذهب ٨٤/٨.

* **كمال الدين موسى بن زين العابدين بن أحمد الرداد البكري (٩٢٣هـ)**: مفتي زبيد وعالمها، وشافعي زمانه، ورئيس أقرانه علماً وعملاً، كان له القدم الراسخة في المذهب، فأفتى ودرّس وانتشر صيته في جميع الآفاق، فرحل إليه الطلبة، ورغبوا في الأخذ عنه، واعترف له العلماء بالإمامة، وقصد للفتوى من كلّ نجد وتهامة.

روى فقه الإمام الشافعي من طريق العراقيين والمراوزة، ووضع الأجوبة الرائقة والبحوث الفائقة، والشروح المتداولة المنقولة، منها: الكوكب الوقاد شرح الإرشاد، وفتاوى جمعها ابنه المحقّق فخر الدين أبو بكر ورتّبها ترتيباً حسناً، وزاد عليها زيادات مفيدة[(١)].

* **حمزة بن عبدالله بن محمد الناشري اليمني (٨٣٣هـ ـ ٩٢٦هـ)**: كتب له بالإجازة علماء مصر مثل ابن حجر العسقلاني والشيخ زكرياء الأنصاري والسيوطي وغيرهم، اشتهر بالعلم وله مصنّفات كثيرة في مسائل من الفقه متفرّقة[(٢)].

* **عفيف الدين عبدالله بن أحمد سرومي الشحري (٩٤٣هـ)**: ولد بالشحر ونشأ بها، ثمّ رحل إلى زبيد وطلب العلم، ثمّ رجع إلى بلده الشحر وولّي قضاءها[(٣)].

* **باعلوي أحمد شريف بن عليّ (٩٠٥هـ ـ ٩٥٧هـ)**: القاضي، جدّ واجتهد حتّى برع وحاز الرئاسة والفتوى، ولّي قضاء وادي ابن راشد، الذي يشتمل على مدن متعدّدة من أرض حضرموت[(٤)].

* **باقشير عبدالله بن محمد اليمني الحضرمي (٩٥٨هـ)**: كان من الأئمة المحقّقين والعلماء العاملين والفقهاء البارعين، من مصنّفاته الفقهيّة:

---

(١) شذرات الذهب ١٦٧/٨ ـ ١٦٨.
(٢) شذرات الذهب ١٨٣/٨ ـ ١٨٤، الضوء اللامع ١٦٤/٣.
(٣) شذرات الذهب ٣٠١/٨.
(٤) شذرات الذهب ٣٦٩/٨ ـ ٣٧٠.

قلائد الخرائد وفرائد الفوائد، وصف بأنّه نافع جدًا[١].

* **شهاب الدين أحمد بن عثمان بن محمد اليمني (٩١٥هـ - ٩٦٥هـ)**: ولد بزبيد، واشتغل في العلوم، وكان يحفظ كتاب الإرشاد في الفقه، وبرع حتّى صار من كبار أهل الفتيا والتدريس، فكانت الفتاوى تأتيه من البلاد البعيدة فيجيب عنها[٢].

* **وجيه الدين عبدالرحمٰن بن حسين بن الصديق الأهدل اليمني (٨٩١هـ - ٩٧١هـ)**: ولد بزبيد، وبها نشأ وقرأ القرآن، فتح الله عليه فتوح العارفين حتّى نصّب للمشيخة وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فكثر أتباعه وأصحابه من المشائخ والعلماء والقضاة[٣].

* **عبدالله بن عمر بن عبدالله بن أحمد مخرمة (٩٧٢هـ)**: جدّ واجتهد حتّى برع وانتصب للفتوى والتدريس، وانتهت إليه رئاسة العلم والفتوى في جميع جهات اليمن، وقصد بالفتاوى من الجهات النازحة والأقاليم البعيدة، وصار عمدة يرجع إلى فتواه.

تدلّ أبحاثه وأجوبته على قوّة فطنته وغزارة علمه، من تصانيفه: الفتاوى[٤].

* **عزّ الدين أبو نصر عبدالسلام بن وجيه الدين بن زياد اليمني (٩٤٣هـ - ٩٧٥هـ)**: تلقى العلم عن أبيه، وتغذّى بعلومه وفوائده، حتّى قرّت به عين والده، ودرّس وأفتى في حياته.

صنّف مصنّفات لا يستغني عنها فقيه، وكتب معاصرو أبيه على فتاويه، وانفرد بعد والده بالإفتاء، مع اكتظاظ البلد بكثرة العلماء[٥].

ونلقى بعد القرن العاشر أمثال:

---

(١) شذرات الذهب ٣٧٦/٨ - ٣٧٧، معجم المؤلفين ١١٧/٦، الأعلام ١٢٨/٤.
(٢) شذرات الذهب ٤٠٥/٨.
(٣) شذرات الذهب ٤٢٦/٨ - ٤٢٧.
(٤) شذرات الذهب ٤٣١/٨ - ٤٣٢، معجم المؤلفين ٩٥/٦، الأعلام ١١٠/٤.
(٥) شذرات الذهب ٤٤٤/٨ - ٤٤٥، معجم المؤلفين ٢٢٥/٥.

* **إسحاق بن محمد بن إبراهيم بن جعمان الزبيدي (١٠٧٦هـ)**: صاحب الحاشية الأنيقة على مسائل المنهاج الدقيقة في الفقه الشافعي[١].

* **السيد سليمان بن يحيى بن عمر الأهدل الزبيدي (١١٩٧هـ)**: أخذ عن جماعة من أعيان بلده، وبرع في العلوم العقلية والنقلية، وعكف على التدريس، فأخذ عنه أهل بلده ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد.

كان المفتي في الجهات الزبيدية على مذهب السادة الشافعيّة، والمرجوع إليه في جميع المشكلات، ولمّا توفّي قام مقامه ابنه عبدالرحمٰن في وظيفة التدريس والإفتاء على حداثة سنّه، وفتاويه متقنة ينقل في كلّ ما يرد عليه من الأسئلة نصوص أئمة مذهبه من الشافعية[٢].

* **عبدالرحمٰن بن محمد بن الحسين بن عمر باعلوي الحضرمي (بعد ١٢٥١هـ)**: مفتي الديار الحضرميّة وصاحب كتاب بغية المسترشدين في تلخيص فتاوى بعض الأئمّة من العلماء المتأخّرين الذي فرغ من تأليفه سنة ١٢٥١هـ[٣].

وأمّا المذهب الحنفي، فكانت له نوع مشاركة في هذه البلاد، فكان من حين إلى آخر يظهر منهم من تبتهج برؤيتهم الأنظار، وتسعد بذكرهم الأسماع.

ومن هؤلاء نذكر:

* **أبو بكر بن علي بن موسى الهاملي سراج الدين (٧٦٩هـ)**: الفقيه الحنفي نزيل زبيد، من مصنفاته در المهتدي وذخر المقتدي في فروع الفقه الحنفي، ويعرف بالمنظومة الهاملية، وله شرح على مختصر القدوري[٤].

* **محمد بن عبدالله بن شوعان الزبيدي (٨٢٢هـ)**: انتهت إليه الرئاسة

---

(١) كشف الظنون ٥/١٦٦.
(٢) البدر الطالع ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٣) كشف الظنون ٥/٤٥١.
(٤) كشف الظنون ٥/١٩٣.

في مذهب أبي حنيفة بزبيد، ودرّس وأفاد(١).

* **جمال الدين محمد بن عليّ الطيّب اليمني (٩٠٨هـ)**: إمام الحنفيّة بجامع زبيد، وفقيهها(٢).

* **جمال الدين محمد بن الصديق الخاص الزبيدي (٩٩٧هـ)**: من كبار علماء زبيد وأعيان المدرسين بها والمفتين على مذهب الإمام أبي حنيفة، قيل إنّه لم يكن له نظير في زمانه(٣).

* **صدّيق بن علي المزجاجي الزبيدي الحنفي (١٢٠٩هـ)**: وكان محقّقا في فقه الحنفيّة، وقد جرت بينه وبين الإمام الشوكاني مذاكرات في عدّة علوم، ومراجعات في مسائل(٤).

وأمّا **بلاد الحجاز** فقد كانت تحت أيدي الشيعة، حيث كانت الخطابة والقضاء مع آل سنان بن عبدالوهاب الحسيني، وكانوا يؤذون أهل السنّة كثيراً لغلبة الرفض على أمراء البلد وإقامتهم الحكّام والقضاة من قبلهم، فكان سلطان مصر يرسل مع الموسم إماماً من أهل السنّة يؤمّ الناس إلى شهر رجب، ثمّ يرسل غيره، ولا يستطيع أحداً من الأئمّة أن يقيم أكثر من ذلك لكثرة الإذاية التي يتعرّضون إليها من أهل الرافضة، حتّى إنّه كان إذا خطب إمام أهل السنّة اصطفّ الأعوان أمامه يحمونه من الرجم.

ويفيدنا الإمام السخاوي أنّ أوّل من أوجد موطن قدم راسخة من أهل السنّة بهذه البلاد، هو الشيخ سراج الدين عمر بن أحمد بن طراد الخزرجي المصري الشافعي (٧٢٦هـ) الذي قدم المدينة سنة ٦٨٢هـ بأمر من السلطان المنصور قلاوون بولاية الخطابة، فاستطاع بفضل صبره على الأذى، أن ينتزعها من أيدي الرافضة الذين وصل بهم الأمر بادىء الأمر إلى مصادرة

---

(١) شذرات الذهب ٢٨٨/٧، الضوء اللامع ٩١/٨.

(٢) شذرات الذهب ٦٨/٨.

(٣) شذرات الذهب ٥١٠/٨.

(٤) البدر الطالع ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

أملاكه، فانتزع سلطان مصر عوض ما صودر به الشيخ من أقطاع أهل المدينة، فعند ذلك كفّوا عنه(١).

وكان الشيخ سراج الدين قد عرف بمداراته لهم، من ذلك أنّه صاهر بعض الإماميّة، وحين جاءه التقليد من السلطان الناصر بولاية القضاء، أخذ الخلعة وتوجّه بها إلى الأمير الرافضي منصور بن جمّاز، وقال له: جاءني مرسوم السلطان بولاية القضاء، وأنا لا أقبل حتّى تأذن، فقبل قضاءه بشرط عدم تعرّضه لهم، فبقي آل سنان يشرفون على أغلب الأمور التنفيذيّة حتّى الحبس والإشراف على الأعوان، وتمكّن الشيخ سراج الدين من الاستمرار في خطّة الخطابة أربعين سنة(٢).

ويفيدنا صاحب الديباج المذهب أنّ عبدالله بن محمد بن أبي القاسم بن فرحون (٧٦٩هـ) كان بهمّته وسياسته قد أعانه الله على إزالة أحكام الطائفة الإماميّة من المدينة، فعزل قضاتهم وانكسرت شوكتهم، وذلك أنّه لمّا باشر الأحكام في سنة ٧٤٦هـ سعى في عزل قضاة الإماميّة، فنودي في شوارع المدينة بتوقيف العمل بأحكامهم، والإعراض عن حكّامهم، فكان ذلك أوّل أسباب قوّة أهل السنّة وعلوّ أمرهم(٣).

ومن ذلك الوقت بدأ كثير من علماء أهل السنّة يوافون بلاد الحجاز، ويفدون عليها في المواسم وغيرها يجاورون المدينة المنوّرة ومكّة المشرّفة، فدخل البلاد كثير من محقّقي المذاهب السنيّة الأربعة، حتى أصبح لأهل العلم فيها رونق تام وبهجة وافرة.

فأمّا المذهب الشافعي الذي كان قد شقّ طريقه في هذه البلاد منذ الأدوار السابقة، فقد عزّز وجوده في هذا الدور.

وأمّا المذهب المالكي فبعد انقطاع طويل عن هذا المركز، استطاع أن

(١) الدرر الكامنة ٣/١٥٠.
(٢) شذرات الذهب ٦/٢٣٠، الدرر الكامنة ٣/١٤٩ ـ ١٥٠.
(٣) الديباج المذهب ص ٢٣٦.

يجدّد حضوره في هذا الدور، وخصوصا عن طريق أعلام أهل المغرب الذين وفدوا على الحرمين وجاوروا بهما، ونبغوا في الفقه وتولّوا خطّة القضاء.

وأمّا المذهب الحنفي فقد كانت له مشاركة مع سائر المذاهب السنيّة في القضاء، خاصّة وأنّه قد أصبح المذهب الرسمي للخلافة العثمانيّة التي سيطرت على كافّة البلاد العربيّة والإسلاميّة.

وأمّا المذهب الحنبلي فرغم أنّه لم يعرف أوّل الأمر انتشارا بهذا المركز، ورغم أنّ أوّل قاض ولّي قضاء الحنابلة بمكّة كان سنة ٨٠٩هـ[١]، فإنّ هذا المذهب قد كان له شأن أعظم في نهاية هذا الدور، حتّى أنّه قد استقلّ بهذا المركز الفقهي من دون المذاهب الأخرى وحلّ محلّا مقبولا في قلوب أهل نجد وأصبح المذهب السائد بلا منازع.

وفيما يلي لمحة عن أعلام بلاد الحجاز وفقهاء المذاهب السنيّة الذين ارتفع بذكرهم هذا المركز الفقهي:

فأمّا المذهب الحنفي، فاشتهر منهم:

* **ضياء الدين محمد بن محمد بن سعيد الهندي (٧٨٠هـ)**: نزيل المدينة ثمّ مكّة، ووالد شهاب الدين بن الضياء، وقاضي الحنفيّة بمكّة، كان عارفاً بالفقه، يدرّس بمكّة فقه الحنفيّة، غير أنّه كان شديد التعصّب لمذهبه، كثير الوقيعة في الشافعيّة[٢].

* **جمال الدين محمد بن عبداللطيف الزرندي المدني (٨٠٠هـ)**: الذي اعتنى بعلمي الفقه والحديث، وبرع في مذهب أبي حنيفة[٣].

وكان يعاصره:

---

(١) الضوء اللامع ٣٣٣/٤ ـ ٣٣٤، شذرات الذهب ٤٩٣/٧ ـ ٤٩٤.

(٢) شذرات الذهب ٧/٧، الدرر الكامنة ١٧٧/٤.

(٣) شذرات الذهب ١٢٣/٧.

*** أبو طاهر أحمد بن محمد الأخوي الخجندي (٧١٩هـ ـ ٨٠٢هـ)**: نزيل المدينة المنوّرة، طلب العلم ببلدته خجندة ثمّ ارتحل منها وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وأوّل ما حلّ بسمرقند ثمّ بخارا فأقام بها أكثر من سنة، ولقي بها صدر الشريعة واستفاد منه، ثمّ دخل خوارزم وأقام بها اثنتي عشرة سنة، ووافى بها من محققي العلماء شيوخا وكهولا وشبّانا عددا كثيراً، ثمّ دخل قرم وأقام بها نحو سنتين، ثمّ رحل إلى دمشق والعراق، وغيرها من بلاد الإسلام.

كان خلال تلك الرحلات الكثيرة مشتغلا بالمذاكرة وطلب العلم، وقد لاقى جمهرة من العلماء المحقّقين في كلّ بلد من بلاد المسلمين، وأدرك أفلاطون زمانه القطب الرازي، وحافظ الدين وسعد الدين التفتازانيان، وغيرهم من العلماء.

استوطن المدينة المنوّرة وهو ابن أربعين سنة، وأشغل الناس بها أكثر من أربعين سنة، يدرّس وينشر العلم ويفتي لأهلها وللواردين عليها، حتّى أصبح رأس المدرّسين في المدينة النبويّة، وانتفع بعلمه أهلها وغيرهم من الوافدين عليها.

وكان كلّ من أبيه وجدّه وجدّ أبيه علماء، وكان أبوه يكتب إليه من بلاده، وهو بالمدينة الشريفة[1].

*** شمس الدين محمد بن محمود بن بون الخوارزمي المعروف بالمعيد (٨١٣هـ)**: نزيل مكّة، جاور بها أكثر من أربعين سنة، وسمع الحديث وتفقّه وبرع وأفتى ودرّس واستقرّ معيدا بدرس الحنفيّة للأتابك يلبغا بمكّة، وأخذ عنه الكثير من فقهاء مكّة وغيرهم من غير أهلها.

ولي إمامة مقام الحنفيّة بمكّة سنة ٧٨٠هـ، واستمرّ على الإمامة بها أكثر من ثلاثين سنة، ثمّ تركها لولده قبل موته بأيّام.

كان بارعا في الفقه والأصول والعربية، وتصدّر للإقراء بالمسجد

---

(١) شذرات الذهب ١٣٩/٧، الضوء اللامع ١٩٤/٢ ـ ٢٠١.

الحرام عدّة سنوات، وانتفع الناس به، وحجّ خمسين حجّة، ومات وقد جاوز الثمانين[١].

*** زين الدين أبو الفرج عبدالرحمٰن بن عليّ بن يوسف بن الحسن بن محمود الزرندي (٧٤٦هـ ـ ٨١٧هـ)**: نسبة إلى زرند بلد بأصبهان، ولد بالمدينة المنوّرة، وبها تفقّه وبرع في الفقه وغيره من العلوم وتميّز.

ولي قضاء الحنفيّة بالمدينة النبويّة بعد أخيه أبي الفتح سنة ٧٨٣هـ، واستمرّ على قضائها نحوا من ثلاث وثلاثين سنة، وولّي حسبتها، فحمدت سيرته لعفّته[٢].

*** أبو البقاء محمد بن أحمد القرشي الصاغاني الأصل المكّي (٧٨٩هـ ـ ٨٥٤هـ)**: المعروف بابن الضياء، عالم مكّة ومفتيها على مذهبه، ولد بمكّة وبها نشأ فأخذ الفقه عن أبيه، وقرأ على كبار علمائها، ثمّ رحل إلى القاهرة في مناسبات كثيرة، فأخذ الفقه عن قارىء الهداية، وأخذ عن ابن حجر وطبقته، وأجاز له البلقيني وابن الملقن وغيرهما، ثمّ رحل وطوّف البلاد، ومع ذلك فلم تفته وقفة بعرفة منذ أن بلغ الحلم إلى أن مات.

كان متقدّما في الفقه والأصلين والعربية، وضرب في العلوم بنصيب وافر، وكان عظيم الرغبة في المطالعة والانتقاء، حتّى قال من عرفه: ما رئي أكثر من خمسين سنة إلاّ يطالع أو يكتب.

حدّث ودرّس وأفتى وصنّف، وناب في القضاء بمكّة عن أبيه، ثمّ استقلّ بقضائها بعده، ثمّ أضيف إليه نظر الحرم والحسبة، ثمّ انفصل عنهما خاصّة.

من مصنّفاته: البحر العميق في مناسك حجّ بيت الله العتيق، وتنزيه

---

(١) شذرات الذهب ٢٣٣/٧، الضوء اللامع ٤٥/١٠ ـ ٤٦.
(٢) شذرات الذهب ٢٥٥/٧، الضوء اللامع ١٠٥/٤ ـ ١٠٦.

المسجد الحرام عن بدع جهلة العوام، شرح الوافي للنسفي في الفروع، وغيرها[١].

وفي القرن العاشر برز:

* **شهاب الدين أحمد البخاري المكّي (٩٣٨هـ)**: إمام الحنفيّة بالمسجد الحرام[٢].

* **شهاب الدين أحمد بن شمس الدين بن السراج البخاري الأصل المكّي (٨٨٣هـ ـ ٩٤٨هـ)**: ولد بمكّة، واشتغل بالعلم، ثمّ دخل القاهرة مرارا وسمع فيها كثيراً من الفقه والحديث على جماعة من علمائها مثل جلال الدين السيوطي وغيره، وكان قد ولّي القضاء والإمامة والمشيخة[٣].

* **يحيى بن إبراهيم الخجندي المدني (٩٦٣هـ)**: قاضي الحنفيّة بالمدينة المنوّرة وإمامهم بها بالمحراب النبوي الشريف[٤].

* **قطب الدين محمد بن علاء الدين أحمد بن محمد بن قاضي خان الهندي ثمّ المكّي (٩١٧هـ ـ ٩٩٠هـ)**: أخذ العلم عن والده، وعن الشيخ محمد التونسي والشيخ ناصر الدين اللقاني، وغيرهم.

كان بارعا متفنّنا في الفقه والتفسير والعربيّة[٥].

وفي بداية القرن الحادي عشر، ظهر:

* **عليّ بن جار الله بن ظهيرة القرشي (١٠١٠هـ)**: قاضي المذهب الحنفي بمكّة، وصاحب الفتاوى الظهيريّة[٦].

---

(١) البدر الطالع ص ٦٣٧، الضوء اللامع ٨٤/٧ ـ ٨٥، كشف الظنون ١٥٧/٦.
(٢) شذرات الذهب ٢٧٤/٨، الكواكب السائرة ١١٧/٢.
(٣) شذرات الذهب ٣٢٤/٨.
(٤) شذرات الذهب ٤٠١/٨، الكواكب السائرة ٢٥٨/٢.
(٥) شذرات الذهب ٤٩٠/٨ ـ ٤٩٢، الكواكب السائرة ٤٤/٣، الأعلام ٦/٦، معجم المؤلفين ١٧/٩.
(٦) كشف الظنون ٦٠٠/٥.

* **منلا عليّ قاري بن سلطان بن محمد الهروي الحنفي (١٠١٤هـ)**: ولد بهراة ورحل إلى مكّة واستقرّ بها وأخذ عن جماعة من محقّقي عصره، وجمع بين العلوم النقلية والعقلية، وتضلّع في السنّة النبويّة.

كان يعترض على الأئمّة، ولا سيّما الإمام الشافعي وأصحابه، وله في ذلك كتاباً سمّاه: تشييع فقهاء الحنفيّة في تشنيع سفهاء الشافعيّة، واعترض على الإمام مالك في إرسال يديه وصنّف في ذلك كتاباً سمّاه: شفاء السالك في إرسال مالك.

وبسبب اعتراضه على الأئمّة نهى كثير من العلماء تلاميذهم عن مطالعة كتاباته، في حين اعتبر الإمام الشوكاني أنّ ما كان يقوم به الشيخ ملّا عليّ قاري من اعتراضات على الأئمّة، إنّما هو دليل على علوّ منزلته، لأنّ المجتهد شأنه أن يبيّن ما يخالف الأدلّة الصحيحة، ويعترضه سواء كان قائله عظيما أو حقيرا.

صنّف تصانيف كثيرة، في أنواع العلوم، وقد ذكر له حاجي خليفة أكثر من مائة مصنّف أغلبها في التفسير والحديث والفقه[(١)].

* **عبدالرحمٰن بن عيسى بن مرشد العمري (١٠٣٧هـ)**: المفتي الحنفي بمكّة المكرّمة، وصاحب التصانيف الكثيرة، منها: فتح مسالك الرمز في شرح مناسك الكنز، شرح فيه كتاب الحجّ من كنز الدقائق، وله براعة الاستهلال فيما يتعلّق بالشهر والهلال، وغير ذلك[(٢)].

* **حنيف الدين بن عبدالرحمٰن بن عيسى بن مرشد العمري المكّي (١٠١٤هـ - ١٠٦٧هـ)**: صاحب شرح المناسك الصغير والوسيط لمنلا عليّ القاري، وغيرها من المصنفات[(٣)].

---

(١) البدر الطالع ص ٤٤٩، كشف الظنون ٥/٦٠٠ - ٦٠١.

(٢) كشف الظنون ٥/٤٤٤.

(٣) كشف الظنون ٥/٢٧٧.

* **أسعد بن أبي بكر الأسكداري الرومي (١٠٥٠هـ - ١١١٦هـ)**: المدني المولد، مفتي الحنفيّة بها وصاحب الفتاوى الأسعدية[١].

* **عبدالكريم بن عبدالله العباسي المدني المعروف بالخليفتي (١١٣٣هـ)**: المفتي الحنفي، صاحب الفتاوى[٢].

* **محمد بن مصطفى حميد الكفوي (١١٧٤هـ)**: قاضي مكّة، وصاحب الرسائل والشروح الكثيرة في أنواع العلوم[٣].

* **عبدالله بن إبراهيم الحسيني عفيف الدين أبو السيادة المتقي المكّي الطائفي (١٢٠٧هـ)**: المعروف بالمحجوب، صاحب فرائض الدين وواجبات الإسلام لعامّة المؤمنين، والإيضاح المبين بشرح فرائض الدين، وغيرها من المصنّفات[٤].

* **أبو الفتح عثمان بن عبدالله الدمشقي (١٢١٤هـ)**: المجاور في المدينة المنوّرة يدرّس ويعلّم إلى أن توفي بها، وصاحب قوت القلوب في الفقه، ومنهج تحرير المطلوب في شرح قوت القلوب، وشرح الأشباه والنظائر لابن نجيم[٥].

* **عبدالملك بن عبدالمنعم بن تاج الدين القلعي (١٢٢٩هـ)**: نزيل مكّة، صاحب الكواكب الدريّة من الفتاوى القلعيّة، وقد جمعه ورتّبه تلميذه السيّد خليل طبيلة[٦].

* **جمال بن عمر المكّي (١٢٤٨هـ)**: المفتي الحنفي ورئيس المدرّسين بمكّة، وصاحب نور الجمال على جواب السؤال[٧].

---

(١) كشف الظنون ١٦٩/٥.
(٢) كشف الظنون ٤٩٣/٥.
(٣) المصدر السابق ٢٦٠/٦.
(٤) نفس المصدر ٣٩٧/٥.
(٥) نفس المصدر ٥٣٠/٥.
(٦) نفس المصدر ٥٠٦/٥.
(٧) نفس المصدر ٢١٢/٥.

وأمّا في المذهب الشافعي، فقد اشتهرت عائلات تربّعت على رئاسة العلم والقضاء بهذا المركز، وتداولت خطط التدريس والفتوى والقضاء والخطابة على مدى أجيال، كان أشهرها ألقابا، عائلات: الطبري وابن ظهيرة والنويري.

فأمّا **بيت آل الطبري**، فكان أشهر أفراده الذين تعاقبوا على ميدان الفقه والقضاء:

* **أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الطبري المكي (٦٣٦هـ - ٧٢٢هـ)**: شيخ الإسلام وإمام المقام أكثر من خمسين سنة، كان صاحب حديث وفقه ومعرفة بمذهب الشافعي، أفتى لمدّة طويلة[(١)].

* **أبو عليّ نجم الدين محمد بن محمد بن محبّ الدين الطبري (٦٥٨هـ - ٧٣١هـ)**: قاضي مكّة ومفتيها، ولّي القضاء بعد والده سنة ٦٩٤هـ واستمرّ بها إلى أن توفّي.

تفقّه على جدّه محبّ الدين، وعلى عمّ جدّه يعقوب بن أبي بكر الطبري، ومن غيرهما حتّى أصبح فقيهاً بارعا مشهورا، يقصد بالفتاوى من بلاد الحجاز واليمن، وإليه انتهت رئاسة الفتوى في بلده، وقيل إنّه لم يخلف في الحرمين مثله[(٢)].

ثمّ كان من بعده ابنه:

* **شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد الطبري (٧١٨هـ - ٧٦٠هـ)**: خطيب مكّة وقاضيها، ولّي قضاء مكّة بعد أبيه وهو شاب[(٣)].

(١) البداية والنهاية ١٠٣/١٤ النجوم الزاهرة ٢٥٥/٩ الدرر الكامنة ٥٥/١ شذرات الذهب ٢١٠/٦.

(٢) شذرات الذهب ٢٥٨/٦، الدرر الكامنة ١٦٢/٤ - ١٦٣.

(٣) شذرات الذهب ٣٧٩/٦، النجوم الزاهرة ٧٤/٨، الدرر الكامنة ٢٩٧/١ - ٢٩٨.

* **أبو اليمن محمد بن أحمد بن إبراهيم الطبري (٧٣٠هـ - ٨٠٩هـ)**: إمام المقام[١].

* **محيي الدين عبدالقادر بن يحيى بن مكرم بن محب الدين الطبري (٩٧٦هـ - ١٠٣٣هـ)**: الخطيب الإمام بالمقام والمفتي ببلده الحرام[٢].

وأمّا بيت ابن ظهيرة، فمن أشهر أفرادها الذين خلّد الدهر ذكراهم:

* **شهاب الدين أحمد بن ظهير الدين بن أحمد بن عطيّة بن ظهيرة المخزومي المكّي (٧١٨هـ - ٧٩٢هـ)**: هو عمّ جمال الدين محمد بن عبدالله بن ظهيرة قاضي مكّة، ووالد أبي البركات قاضي مكّة أيضاً، وجدّ أبي السعادات قاضي مكّة، الآتي ذكرهم.

ولد بمكّة وبها تفقّه، وأذن له بالإفتاء وتصدّر للاشتغال بالمسجد الحرام فانتفع به الناس، ولّي قضاء مكّة وخطابتها ثمّ عزل سنة ٧٨٨هـ، فلازم تدريس الطلبة بالحرم الشريف إلى أن توفي[٣].

* **عبدالله بن ظهيرة بن أحمد بن عطيّة بن ظهيرة المخزومي المكيّ (٧٢٨هـ - ٧٩٤هـ)**: أخو قاضي مكّة المتقدّم، ووالد قاضيها[٤].

* **أبو السعود محمد بن حسين بن عليّ بن أحمد بن عطيّة بن ظهيرة المخزومي المكّي (٧٤٥هـ - ٨٠٢هـ)**: اشتغل بالفقه والفرائض، ومهر فيها، وناب في الحكم عن صهره القاضي شهاب الدين[٥].

* **جمال الدين أبو حامد محمد بن عبدالله بن ظهيرة بن أحمد بن عبدالله بن عطيّة بن ظهيرة (٨١٧هـ)**: عني بالحديث ولزم العراقي، وبرع في الفقه بعد أن تفقّه بعمّه أبي الفضل النويري، والبلقيني وغيرهما، وانتفع

---

(١) شذرات الذهب ٢١١/٧، الضوء اللامع ٢٨٧/٦.
(٢) كشف الظنون ٤٨٣/٥.
(٣) الدرر الكامنة ١٤٣/١ - ١٤٤، شذرات الذهب ٧٠/٧.
(٤) شذرات الذهب ٨٣/٧.
(٥) شذرات الذهب ١٤١/٧.

الناس به بمكّة وأشغلهم نحوا من أربعين سنة.

له أسئلة تدلّ على باع واسع في العلم استدعى الجواب عنها من البلقيني، فأجابه عنها، وتعرف بالأسئلة المكيّة.

حدّث بكثير من مروياته بالمسجد الحرام، وسمع منه ابن حجر العسقلاني، وولّي قضاء مكّة وعزل وأعيد مرارا، وتوفّي قاضيا بمكّة[١].

*** محبّ الدين أحمد بن جمال الدين بن ظهيرة (٧٨٩هـ - ٨٢٧هـ)**: قاضي مكّة وابن قاضيها، ومفتيها وابن مفتيها، ولد بمكّة وبها نشأ في كنف أبيه فحفظ القرآن وصلّى به وهو ابن عشر سنين، تفقّه بوالده ولازم دروسه نحو خمس عشرة سنة، فانتفع به كثيراً.

تصدّى لنشر العلم بالمسجد الحرام سنة ٨٠٩هـ، بعد أن أجاز له أعلام عصره بالإفتاء والتدريس، وكان ماهرا في الفقه والفرائض والحساب.

حضر دروسه أهل مكّة والغرباء وأثنى الجميع عليه، وكان فصيحا مسدّدا في فتاويه كثير التحقيق في دروسه، جميل المحاضرة، وكانت ترد عليه الأسئلة الكثيرة من أهل الطائف وغيرها فيجيب عنها.

ولي القضاء من سنة ٨١٨هـ إلى أن توفي، فحمدت سيرته، وقيل إنّه لم يخلف بعده مثله، بل قيل إنّ مكّة قد خلت بعده ممّن يفتي فيها على مذهب الشافعي[٢].

*** برهان الدين إبراهيم بن عليّ بن محمد بن محمد بن حسين بن ظهيرة (٨٢٥هـ - ٨٩١هـ)**: عالم الحجاز، ولد بمكّة وبها نشأ وتفقّه ولازم في الفقه بالخصوص عمّه أبو السعادات ابن ظهيرة ثمّ هاجر في طلب العلم وجدّ في الطلب واجتهد، فأفاد وأجاد حتّى ذاع صيته وشهد له الأقران بالعلم وكمال أهليته وعلوّ مرتبته.

---

(١) شذرات الذهب ٢٥٥/٧ - ٢٥٦.

(٢) الضوء اللامع ١٣٤/٢، شذرات الذهب ٣٠٩/٧.

انتهت إليه رئاسة الحجاز، وتصدّى في حياة شيوخه للإقراء بالمسجد الحرام غير متقيّد بمحلّ يجلس فيه، واستقرّ في خطابة المسجد الحرام بداية من سنة ٨٥٥هـ، ثمّ انفصل عنها، وولّي نظر المسجد الحرام، وفي سنة ٨٦٢هـ ولّي قضاء الشافعية بمكّة عوضا عن ابن عمّه محبّ الدين ابن أبي السعادات، ثمّ فصل عنهما فتفرّغ لمزيد الإقبال على الاشتغال والتفّ حوله الطلبة للإقراء والسماع منه، فكان حسن التدريس والتقرير، يبدي من الأبحاث الصحيحة والآراء الراجحة ما سارت به الركبان، ولم يكن ينهض من الشيوخ معه إلاّ من كان في التحقيق وحسن النظر تام البصيرة، ثمّ أعيد لوظيفتي القضاء والنظر.

كان كثير الإنصاف مع صيانة ومعرفة بالأحكام ودربة في القضاء، واستحضار لجملة من المتون حتّى انفرد عن أقرانه بدون نزاع[١].

* **محمد بن أبي السعود بن إبراهيم ابن ظهيرة (٩٢٧هـ)**: قاضي قضاة مكّة المشرّفة[٢].

* **محبّ الدين محمد بن ظهيرة (٩٤٠هـ)**: قاضي مكّة[٣].

* **برهان الدين بن إبراهيم بن ظهيرة (٩١٥هـ - ٩٦٢هـ)**: قاضي قضاة الشافعية بمكّة المشرّفة[٤].

وأمّا **بيت النويري**، فمن أعظم أعلامها الذين حفظ التاريخ أسماءهم وألقابهم:

* **محبّ الدين أحمد بن أبي الفضل محمد بن أحمد بن عبدالعزيز النويري (٧٥١هـ - ٧٩٩هـ)**: قاضي مكّة وابن قاضيها، تفقّه بأبيه وغيره من أعلام عصره، ثمّ ناب عن أبيه وولّي قضاء المدينة في حياته، ثمّ

(١) الضوء اللامع ١/٨٨ - ٩٩، شذرات الذهب ٨/١٠، نظم العقيان ص ١٧ - ٢٣.
(٢) شذرات الذهب ٨/١٨٨.
(٣) شذرات الذهب ٨/٢٩١، الكواكب السائرة ٢/٧٠.
(٤) شذرات الذهب ٨/٣٩٠.

تحوّل إلى قضاء مكّة سنة ٧٨٧هـ، وكان عارفاً بالأحكام[١].

*** عزّ الدين محمد بن أحمد بن محمد النويري المكّي العقيلي (٧٧٥هـ - ٨٢٠هـ)**: ويعرف بابن القاضي محبّ الدين، ولد بطيبة حين كان أبوه قاضيها، فنشأ بها وعني بالفقه كثيراً وكان فيه نبيها، حفظ كتاب التنبيه وكتاب الحاوي، وكان يذاكر به.

ناب عن أبيه في الخطابة والحكم، واستقلّ بعد وفاته سنة ٧٩٩هـ، ثمّ صرف عن ذلك مرارا بشيخه جمال الدين ابن ظهيرة، ثمّ استقرّت بيده الخطابة ونظر الحرم والحسبة، وكان صارما في الأحكام عارفاً محتملا.

قدم مكّة سنة ٨٠١هـ فأذن له في الإفتاء والتدريس[٢].

*** محمد بن عليّ بن أحمد أبو الخير الخضر الهاشمي العقيلي النويري (٧٦٢هـ - ٨٣٢هـ)**: ولد بمكّة وبها نشأ وسمع على جدّته فاطمة ابنة أحمد بن قاسم الحرازي، وغيرها من أعلام عصرها.

أذن له في الإفتاء والتدريس وناب في الخطابة والقضاء بمكّة، ثمّ ولّي قضاء المدينة المنوّرة[٣].

وكان من بعده ابنه:

*** أمين الدين أبو اليمن محمد بن محمد بن عليّ النويري (٧٩٣هـ - ٨٥٣هـ)** : قاضي مكّة وخطيبها، نشأ بمكّة فحفظ القرآن وجوّده، وحفظ الرسالة لابن أبي زيد ثمّ تحوّل إلى مذهب الشافعي وحفظ المنهاج الفقهي للنووي وحضر دروس جمال الدين ابن ظهيرة وغيره من الأعلام.

باشر خطابة مكّة المكرّمة عدّة سنين، ثمّ ولّي قضاءها في سنة ٨٤٢هـ، ثمّ عزل، ثمّ أعيد ومات قاضيا وخطيبا[٤].

---

(١) شذرات الذهب ٧/١١٢ - ١١٣.

(٢) الضوء اللامع ٧/٤٤ - ٤٥، شذرات الذهب ٧/٢٧٦.

(٣) الضوء اللامع ٨/١٦١ - ١٦٢.

(٤) الضوء اللامع ٩/١٤٤، شذرات الذهب ٧/٤١٤.

وكان إضافة إلى أبناء تلك البيوت العلميّة، أفراد احتضنوا بعض الوظائف العلميّة، ونافسوا على ميادين العلم، سواء منهم من نشأ ببلاد الحجاز، أو من وفد عليها من المراكز الفقهيّة الأخرى، وكان أشهرهم:

* **سراج الدين عمر بن أحمد بن طراد الخزرجي المصري (٧٢٦هـ)**: قاضي المدينة المنوّرة وخطيبها.

برع في الفقه والأصول، وقدم المدينة سنة ٦٨٢هـ، فانتزع الخطابة من أيدي الرافضة واستمرّ بها نحو أربعين سنة[1].

* **تقيّ الدين أبو اليمن محمد بن أحمد بن قاسم اليافعي الحرازي المكّي (٧٠٦هـ - ٧٦٥هـ)**: ولد بمكّة، وسمع بها كثيراً على جدّه لأمّه الرضيّ الطبري، وتفقّه على والده.

رحل في طلب العلم وأجيز بالفتوى والتدريس، وصار إليه أمر الفتيا والتدريس بمكّة، ثمّ ولّي قضاءها بعد وفاة شهاب الدين الطبري - المتقدم ذكره - سنة ٧٦٠هـ، ثمّ أضيفت إليه الخطابة فباشرها نحو سنتين، ثمّ عزل عن كلّ ذلك بسبب حكم نقم عليه أنّه أخطأ فيه، فلزم بيته وكان لا يخرج منه إلاّ لحجّ أو صلاة غالبا، وبقي على ذلك إلى أن توفي[2].

* **عفيف الدين أبو محمد عبدالله بن أسعد اليافعي اليمني ثمّ المكّي (٧٢٨هـ)**: شيخ الحجاز، وعالم الأبطح، أرسله والده إلى عدن فاشتغل بطلب العلم وأخذ عن مشائخها مثل شرف الدين أحمد بن عليّ الحرازي قاضي عدن ومفتيها، وحفظ الحاوي الصغير.

جاور بمكّة سنة ٧١٨هـ، ولازم مشائخ العلم، وكان من شيوخه نجم الدين الطبري، وسمع الحديث من الرضيّ الطبري.

كان يتردّد بين الحرمين، ورحل إلى القدس ودمشق ومصر واليمن،

---

(١) شذرات الذهب ٦/٢٣٠، الدرر الكامنة ٣/١٤٩ - ١٥٠.

(٢) شذرات الذهب ٦/٣٩٩ - ٤٠٠، النجوم الزاهرة ١١/٨٥، الدرر الكامنة ٣/٣٤٨.

ثمّ رجع إلى مكّة فأقام بها، فاشتهر ذكره وبعد صيته.

كان كثير التصنيف، يسترشد بعلومه ويقتدى به(١).

* **نسيم الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد بن مسعود النيسابوري ثمّ الكازوني (٨٠١هـ)**: نسبة إلى كازون من بلاد فارس، نشأ بكازون وبها اشتغل بالعلم على أبيه وبرع في العربية، وشارك في الفقه وغيره من العلوم مشاركة حسنة.

حجّ وأقام بمكّة مدّة طويلة، ثمّ حجّ ثانية سنة ٧٨٢هـ وجاور بمكّة نحو ستّ عشرة سنة ولازم إفادة الطلبة، وكان حسن التعليم، فانتفع به أهل مكّة(٢).

* **تاج الدين عبدالوهاب بن عفيف الدين بن أسعد بن عليّ اليافعي اليمني ثمّ المكّي (٧٥٠هـ ـ ٨٠٥هـ)**: ولد بمكّة وسمع بها من أبيه وخالتيه أمّ الحسن وأمّ الحسين ابنتي أحمد بن رضيّ الدين الطبري، ومن مشيخة الفقه، وتميّز وأذن له بالإفتاء والتدريس سنة ٧٨١هـ، وتصدّى للاشتغال بالمسجد الحرام سنين وناب في الإمامة بالمقام أحياناً عن خاليه(٣).

* **زين الدين أبو بكر بن حسين بن عمر العثماني المراغي ثمّ المصري (٧٢٨هـ ـ ٨١٦هـ)**: نزيل المدينة نشأ بالقاهرة واشتغل بالعلم كثيراً عند تقيّ الدين السبكي، ولازم الإمام الأسنوي حتّى مهر وأذن له في الإفتاء.

تحوّل إلى الحجاز واستوطن المدينة المنوّرة نحو خمسين سنة، وتصدّر بالروضة الشريفة للتحديث والتدريس إلى أن صار شيخها المشار إليه ومفتي المسلمين.

ولي قضاء المدينة وخطابتها وإمامتها سنة ٨٠٩هـ، ثمّ صرف بعد سنة

---

(١) شذرات الذهب ٦/٤٠٧ ـ ٤٠٨، الدرر الكامنة ٢/٢٤٧ ـ ٢٤٨.
(٢) شذرات الذهب ٧/١٣٣ ـ ١٣٤، الضوء اللامع ١٠/٢١ ـ ٢٢.
(٣) الضوء اللامع ٥/١٠٢، شذرات الذهب ٧/١٧٦.

ونصف بزوج ابنته رضيّ الدين أبي حامد الطبري.

انتفع به أهل المدينة والوافدون إليها، كما انتفع به أهل مكّة ومنى والجعرانة حين جاور بها في سنتي ٨١٤ و٨١٥هـ، وقرأ عليه غير واحد من أهل العلم.

صنّف منسكا مفيدا جامعا سمّاه مرشد الناسك إلى معرفة المناسك، وأكمل شرح شيخه الأسنوي للمنهاج الفقهي سمّاه الوافي بتكملة الكافي، وله غير ذلك من المصنّفات[١].

* **أبو الفتح محمد بن أبي بكر القرشي العثماني المراغي القاهري الأصل المدني (٨٥٩هـ)**: المعروف بالمراغي، صاحب المنزع الروي في شرح المنهاج للنووي[٢].

* **عليّ بن محمد بن عيسى بن عمر العدني اليماني (٨١٢هـ - ٨٨٦هـ)**: نزيل مكّة، درس في صغره على قضاة عدن، ثمّ استقرّ بمكّة.

أذن له في الإفتاء والتدريس فتصدّى لإقراء الفقه والفتيا بمكّة، ثمّ بدا له سنة ٨٨٥هـ التوجّه إلى اليمن للزيارة، فاستغلّ عبدالوهاب بن طاهر فرصة زيارته، وعيّنه لتدريس الفقه بزبيد طيلة شهر رمضان.

عاد بعد شهر إلى مكّة واستناب في تدريس الفقه بمدرسة زبيد الشيخ موسى بن الرداد، وأقام بها إلى حين وفاته[٣].

* **نور الدين أبو الحسن عليّ بن عفيف الدين الحسني المعروف بالسمهودي (٨٤٤هـ - ٩١١هـ)**: نسبة إلى سمهود غربي النيل بمصر، نزيل المدينة المنوّرة وعالمها ومفتيها والمدرّس بها.

سكن المدينة المنوّرة من سنة ٨٧٣هـ، ولازم فيها طلب العلم

---

(١) الضوء اللامع ١١/٢٨ - ٣١، شذرات الذهب ٧/٢٤٩ - ٢٥٠.
(٢) كشف الظنون ٦/١٥٩.
(٣) الضوء اللامع ٦/٤ .

والجمع والتأليف وداوم على المباحثة والمناظرة وتميّز في الفقه والأصلين، وصار شيخها غير مدافع، ودخل القاهرة أكثر من مرّة واختصّ بالجلال المحلّي وبالإمام المناوي وأذن له بالتدريس والإفتاء.

سمع بمكّة من كمالية بنت النجم المرجاني وشقيقها الكمال وغيرهما، وانتفع به طلبة الحرمين، وقلّ من لم يقرأ عليه من أهل مكّة.

من مصنفاته: حاشية على الإيضاح في مناسك الحجّ للإمام النووي سمّاها الإفصاح، وحاشية على الروضة، سمّاها أمنية المعتنين بروضة الطالبين، وصل فيها إلى باب الربا، وجمع فتاويه في كتاب، وله عقد الفريد في أحكام التقليد(١).

*** عبدالعزيز بن عمر بن محمد أبو فارس وأبو الخير المعروف بابن فهد (٨٥٠هـ ـ ٩٢١هـ)**: ولد بمكّة وبها نشأ وتعلّم، ثمّ رحل إلى بلدان كثيرة وأكثر من الطلب بالديار المصريّة، وجدّ واجتهد، ثمّ عاد إلى بلده ولازم الاشتغال بالعلم.

قرأ على شيخ الإسلام زكرياء الأنصاري، ولازم عالم الحجاز برهان الدين ابن ظهيرة في الفقه والتفسير وأخاه الفخر، ونور الدين الفاكهي في الفقه وأصوله.

برع في علم الحديث طلبا وضبطا وتميّز فيه بالحجاز، وأذن له في تدريس الفقه والنحو والحديث(٢).

*** عبدالله بن أحمد باكثير الحضرمي ثمّ المكّي (٩٢٥هـ)**: ولد بحضرموت وبها نشأ، وحفظ القرآن في سنة واحدة وعمره ثمان سنين، ثمّ حفظ كتاب المنهاج للنووي وغيرها من الكتب.

---

(١) شذرات الذهب ٨/٨٥ ـ ٨٦، الضوء اللامع ٥/٢٤٥ ـ ٢٤٨، البدر الطالع ص ٤٧٣، كشف الظنون ٥/٥٩٢.

(٢) شذرات الذهب ٨/١٤١ ـ ١٤٢، الضوء اللامع ٤/٢٢٤ ـ ٢٢٦، فهرس الفهارس ٢/٧٥٤ ـ ٧٥٦.

رحل إلى مكّة وأقام بها إلى أن توفّي، ولقي جماعة من العلماء، وأجيز بالإفتاء والتدريس فتصدّى لذلك وانتفع الناس به.

كان كثير الفوائد عالماً عاملاً، عين المدرّسين بمكّة المكرّمة، من مصنفاته: الدرر اللوامع في نظم جمع الجوامع[١].

*** أحمد بن محمد بن عليّ بن حجر الوائلي السعدي الهيتمي (٩٠٩هـ ـ ٩٧٣هـ)**: المصري ثمّ المكّي، إمام الحرمين كما أجمع عليه الملأ، برع في جميع العلوم خصوصاً فقه الشافعي، أذن له بالإفتاء والتدريس وعمره دون العشرين.

أقام بمكّة يدرّس ويفتي ويؤلف منذ سنة ٩٤٠هـ، فأخذ عنه من لا يحصى كثرة، وافتخر الطلبة بالأخذ عنه والانتساب إليه.

صنّف التصانيف الحسنة، منها: الإمداد وفتح الجواد شرحاً على الإرشاد، الأوّل بسيط والثاني مختصر، وتحفة المحتاج شرح المنهاج، وشرح مختصر أبي الحسن البكري في الفقه[٢].

*** عليّ بن أبي بكر المعروف بابن الجمال المصري الخزرجي الأنصاري المكّي (١٠٠٢هـ ـ ١٠٧٢هـ)**: له رسالة في التقليد، وكافي المحتاج لفرائض المنهاج للنووي، ومجموع الوضاح على مناسك الإيضاح، والمذلّل في الفرائض، والانتصار النفيس لجناب محمد بن إدريس ـ أي الإمام الشافعي ـ وصلة المبتدي بشرح نظم الدر المهتدي في الفرائض على مذهب الحنفيّة[٣].

*** محمد بن السيّد عبد الرسول بن قلندر البرزنجي الشهرزوري ثمّ المدني (١٠٤٠هـ ـ ١١٠٣هـ)**: صاحب إيقاظ ذوي الانتباه لفهم الاشتباه

---

(١) شذرات الذهب ١٧٦/٨ .

(٢) شذرات الذهب ٤٣٥/٨ ـ ٤٣٦، الكواكب السائرة ١١١/٣، البدر الطالع ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٣) كشف الظنون ٦٠٦/٥ ـ ٦٠٧.

الواقع لابن نجيم في الأشباه وكتاب خالص التلخيص مختصر تلخيص المفتاح وغاية الاعتذار في الجمع في الحضر لذوي الأعذار وفتح البرّ بشرح المحرّر للرافعي[١].

وأمّا المذهب المالكي، فقد شهره في هذا الدور أهل بلاد المغرب بالخصوص، كبيت ابن فرحون التونسيّة الأصل، وبيت ابن أبي الخير الحسني المغربية الأصل، وبيت الحطاب الأندلسيّة الأصل التي صار أبناؤها من المفتين والمدرّسين بحرم الله الأمين.

وممّا يذكره أصحاب الطبقات أنّ برهان الدين بن فرحون الذي ولّي قضاء المالكيّة بالمدينة سنة ٧٩٣هـ كان قد أظهر مذهب مالك بها بعد خموله، وأنّه قد نبغ من هذا البيت المالكي أعلام كانوا أهل علم وقضاء.

ويذكر ابن العماد في شذراته أنّ تقيّ الدين الفاسي ثمّ المكّي (٨٣٢هـ) كان أوّل قاض مالكي يولّى قضاء مكّة استقلالا، وذلك سنة ٨٠٧هـ[٢].

وهكذا استطاع أعلام المالكيّة أن يعيدوا بناء صرح مذهبهم بهذه البلاد التي فيها نشأ أوّل أمره، ومنها انتشر إلى سائر المراكز الأخرى، ومن أشهر البيوت التي عرفت بحمل المذهب المالكي، نذكر:

بيت **ابن فرحون**، التي وصفها السخاوي بأنّها بيت رئاسة وقضاء وعلم[٣]، وكان من أبنائها:

* **أبو الحسن عليّ بن محمد بن أبي القاسم بن فرحون (٦٩٨هـ - ٧٤٦هـ)**: التونسي الأصل المدني المولد والمنشأ، والد برهان الدين إبراهيم صاحب الديباج المذهب.

أخذ علم الفقه والأصلين عن جماعة من العلماء، فلقي بتونس قاضي

(١) كشف الظنون ٢٣٧/٦ ـ ٢٣٨.
(٢) شذرات الذهب ٣٣٠/٧.
(٣) الضوء اللامع ٥٥/٥.

القضاة أبا إسحاق بن عبدالرفيع، وأخذ عن أبي عليّ عمر بن عليّ قداح الهروي، ولقي بفاس جماعة من العلماء الأعلام فأخذ عنهم، وأخذ عنه بالمغرب جماعة منهم أبو العباس القبّاب.

لزم الاشتغال بالفقه والعربية في المسجد النبوي الشريف، وصنّف تصانيف كثيرة، منها: حواشي على شرح ابن الحاجب لابن عبدالسلام، تكلّم فيها على ما لم يتكلّم عليه الشارح، وتعقّب عليه في مواضع كثيرة، بلغ فيه إلى أثناء الحجّ، وله الجواب الهادي على أسئلة الشيخ أبي هادي، وكان الشيخ أبو هادي أحد شيوخ القيروان في وقته، سأله عن أسئلة من القرآن والسنّة فأجاب عنها(١).

أخوه: * **أبو محمد عبدالله بن محمد بن أبي القاسم بن فرحون (٦٩٣هـ - ٧٦٩هـ)**: أحد أئمّة الإسلام، حدّث ودرّس وأفاد، وإليه انتهت الرئاسة بالمدينة المنوّرة، أقام مدرّسا للمالكية ومتصدّرا للاشتغال بالحرم النبوي أكثر من خمسين سنة، وانفرد في آخر حياته بعلوّ الإسناد، فلم يكن في المدينة أعلى سنّا وسندا منه.

كان درعا قويّا لأهل السنّة يذبّ عنهم، ويناضل الأمراء والأشراف، وانتهى به ذلك إلى أن امتحن ورصد في طريق الحرم، وطعن طعنة أريد بها قتله فعافاه الله منها.

كان عالماً بالفقه والتفسير وفقه الحديث ومعانيه، وكان عليه مدار أمور الناس بالمدينة المنوّرة، وعنه أخذ ابن أخيه برهان الدين.

ناب في القضاء نحو أربعة وعشرين سنة، وكان ممّن جمع الله تعالى له العلم والعمل، فكان مواظبا على الصلوات في الصفّ الأوّل من الروضة النبويّة نحو ستّين سنة، وما يفتح باب الحرم في السّحر إلاّ وهو على الباب، وحجّ نحو خمس وخمسين حجّة، ولم يخرج من المدينة إلاّ إلى مكّة للحجّ، إلى أن توفّي.

---

(١) الديباج المذهب ص ٣٠٧ - ٣٠٨ الدرر الكامنة ١١٥/٣ - ١١٦، شجرة النور الزكية ص ٢٠٣.

من مصنفاته الفقهيّة: شرح مختصر التفريع لابن الجلّاب سمّاه كفاية الطلّاب في شرح مختصر ابن الجلّاب، وله نهاية الغاية في شرح الآية، أسئلة وأجوبة على آيات من القرآن، وغير ذلك(١).

*** برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم بن علي بن فرحون (٧٩٩هـ):** التونسي الأصل، المدني المولد والمنشأ تفقّه وبرع حتّى صار من صدور المدرسين ومن أهل التحقيق.

كان من أهل بيت علم، أبوه وعمّه وجدّه، فنشأ في الاشتغال بالعلم وتدرّب بعمّه أبي محمد بن فرحون، ثمّ ولّي قضاء المالكيّة بالمدينة سنة ٧٩٣هـ فأظهر مذهب مالك بها بعد خموله، واستمرّ على القضاء إلى أن توفي.

من مصنفاته: تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، وصفه البدر القرافي بأنّه كتاب نفيس، تناول فيه فقه القضاء، ولم يلتزم فيه النصّ على مشهور المذهب، وكتاب درّة الغواص في محاضرة الخواص وموضوعه الألغاز الفقهيّة وله إرشاد السالك إلى أفعال المناسك، وشرح مختصر ابن الحاجب سمّاه كلام ابن عبدالسلام وابن راشد وابن هارون وخليل وغيرهم من الشرّاح، مع التنبيه على مواضع من كلامهم وإضافات من غيرهم، والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب جمع فيه أكثر من ستمائة وثلاثين من أعيان المالكية، وجميع تآليفه غاية في الإجادة لاتّساع علمه(٢).

*** محمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن أبي القاسم فرحون**

---

(١) الديباج المذهب ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦، الدرر الكامنة ٣٠٠/٢، شجرة النور الزكية ص ٢٠٣.

(٢) توشيح الديباج ص ٤٥ ـ ٤٦، الدرر الكامنة ٤٨/١، شذرات الذهب ١١٢/٧، درة الحجال ص ١٨٢ ـ ١٨٣، نيل الابتهاج ١٥/١ ـ ١٧، شجرة النور الزكية ص ٢٢٢، مقدّمة تحقيق إرشاد السالك إلى أفعال المناسك لأستاذنا المحقّق الدكتور محمد أبو الأجفان.

(٨٢٢هـ): قاضي المدينة، ولد بالمدينة وبها نشأ وسمع على أهلها، وأجيز له في سنة ٧٧٤هـ وما بعدها.

ولي قضاء المدينة بعد قريبه القاضي أبي اليمن محمد بن برهان الدين بن فرحون(١).

* **عبدالله بن محمد بن عبدالله ابن فرحون (٧٧٧هـ ـ ٨٥٩هـ)**: ولد بالمدينة المنوّرة، وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم والمختصرات والمتون المقرّرة، واشتغل على الشيخ برهان الدين بن فرحون وغيره من أقاربه.

ولي قضاء المدينة بعد أخيه ناصر الدين في سنة ٨٢٢هـ ثمّ عزل في سنة ٨٥٦، ثمّ أعيد في السنة التي بعدها واستمرّ على القضاء إلى أن توفي(٢).

وبرز في بداية القرن التاسع محمدون أربعة، هم أبناء عبدالرحمٰن بن أبي الخير محمد بن محمد الحسني الفاسي المكّي، درّسوا بمكّة بعد أبيهم، وعمّ بهم النفع، وهم:

* **محمد بن عبدالرحمٰن بن أبي الخير (٨٠٦هـ)**: الذي تفقّه بأبيه وخلفه في تصديره بالمسجد الحرام، فأفاد وأجاد، وعظمت الرزية بفقده، إذ أنّه لم يعش بعد أبيه إلاّ نحو سنة، وقد جاوز الأربعين(٣).

* **أبو عبدالله محمد محبّ الدين (٧٧٤هـ ـ ٨٢٤هـ)**: ولد بمكّة، وحفظ مختصر ابن الحاجب الفقهي، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وغيرهما من المختصرات، وحضر دروس أبيه ولازمه، وقرأ في الفقه بالقاهرة على بعض شيوخها، ثمّ درّس بمكّة(٤).

* **أبو حامد محمد رضيّ الدين (٧٨٥هـ ـ ٨٢٤هـ)**: ولد بمكّة،

---

(١) الضوء اللامع ١٢٧/٩.
(٢) الضوء اللامع ٥٥/٥ ـ ٥٦.
(٣) توشيح الديباج ص ٢٠٩، نيل الابتهاج ١٥١/٢، الضوء اللامع ٤٠/٨.
(٤) الضوء اللامع ٤٠/٨، شذرات الذهب ٢٩٩/٧.

وتفقّه بأبيه وبغيره وحفظ عدّة مختصرات، وكثرت عنايته بالفقه ومهر فيه حتّى أجاز له جماعة، وأذن له في التدريس والإفتاء، فتصدّر لذلك ودرّس وأفتى ووَلِّي القضاء سنة ٨١٧هـ.

كتب على مختصر خليل، وعلّق على مختصر ابن الحاجب مسائل بيّن فيها الراجح ممّا فيه خلاف، في كتاب سمّاه: أداء الواجب في تصحيح ابن الحاجب[١].

* **أبو السرور محمد (٧٧٨هـ ـ ٨٣٣هـ)**: تفقّه بأبيه وجلس بعد موت أخيه أبي حامد للتدريس[٢].

وبرز من بيت النويري من أتباع المذهب المالكي:

* **شهاب الدين أحمد بن عليّ بن أحمد النويري (٧٨٠هـ ـ ٨٢٧هـ)**: قاضي مكّة وإمام المالكيّة بحرمها الشريف، وابن إمامهم.

سمع على والده وحضر دروس الشريف عبدالرحمٰن بن أبي الخير الفاسي وتفقّه عليه وعلى غيره من أعلام عصره، وحفظ رسالة ابن أبي زيد، وأجاز له جماعة.

درّس وأفتى ووَلِّي بعد أبيه بمدّة إمامة مقام المالكيّة بالحرم، ثمّ ناب في القضاء، ثمّ وليه استقلالاً[٣].

* **محمد بن محمد بن عليّ بن أحمد النويري كمال الدين أبو القاسم (٨٠١هـ ـ ٨٥٧هـ)**: الخطيب بمكّة المكرّمة، وصاحب بغية الراغب في شرح مختصر ابن الحاجب في الفقه، والتوضيح على التنقيح للقرافي، وتكميل الشرح المختصر الفرعي لابن الحاجب، وغير ذلك[٤].

---

(١) توشيح الديباج ص ٢٠٩، الضوء اللامع ٤١/٨، نيل الابتهاج ١٦٥/٢ شذرات الذهب ٢٩٩/٧.

(٢) الضوء اللامع ٤١/٨ ـ ٤٢.

(٣) الضوء اللامع ٨/٢، شذرات الذهب ٣٠٨/٧.

(٤) كشف الظنون ١٥٩/٦.

* **علاء الدين عليّ بن محمد النويري (٨١٥هـ ـ ٨٨٢هـ)** : قاضي المالكية بمكّة، وابن قاضي الشافعية بها، ولد بمكّة وبها نشأ وحفظ القرآن، ثمّ حفظ مختصرات كثيرة في علوم مختلفة، منها في الفقه: رسالة ابن أبي زيد ومختصر ابن الحاجب، وعرض على عمّه التقيّ الفاسي، وهو الملتمس من أبيه أن يكون مالكيًا، وكان أبوه فمن فوقه شافعيّة.

ناب في القضاء عن أبي عبدالله النويري في سنة ٨٤٠هـ، ثمّ عن والده في سنة ٨٤٣هـ، وباشر الإمامة بمقام المالكيّة نيابة مدّة عشر سنين، ثمّ تخلّى عن ذلك وعاد للإقراء، وخطب لقضاء المالكية بمكّة فاستقرّ في سنة ٨٦٨هـ، ثمّ صرف، ثمّ أعيد واستمرّ على القضاء إلى أن توفي[(١)].

ونذكر من بيت ابن ظهيرة:

* **أبو الفرج ظهير الدين ظهيرة بن محمد بن ظهيرة القرشي المالكي (٨٤١هـ ـ ٨٦٨هـ)**: ولد بمكّة وبها نشأ، وحفظ القرآن ومختصر ابن الحاجب الأصلي والفرعي، ورسالة ابن أبي زيد، وكان بارعا في الفقه والعربيّة، وولّي قضاء المالكية بمكّة بعد ابن أبي اليمن سنة ٧٦٨هـ[(٢)].

واشتهر في القرن العاشر من بيت الحطاب:

* **أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمٰن الرعيني (٨٦١هـ ـ ٩٤٥هـ)**: المعروف بالحطاب الكبير، الأندلسي الأصل، الطرابلسي المولد، المكّي الدار والقرار.

تفقّه بطرابلس، ثمّ تحوّل سنة ٨٧٧هـ مع بقيّة أهله إلى مكّة وانتفع بعلمائها، ثمّ جلس للإقراء، فأفاد، وأخذ عنه جماعة[(٣)].

---

(١) الضوء اللامع ١٢/٦ ـ ١٣، شذرات الذهب ٤٨١/٧.

(٢) توشيح الديباج ص ١١٠، لقط الفرائد ص ٢٤٨، درة الحجال ص ٢٨٢، نيل الابتهاج ٢١٨/١، الضوء اللامع ١٥/٤.

(٣) توشيح الديباج ص ٢٠٧، الضوء اللامع ٢٨٨/٧، نيل الابتهاج ٢٨٠/٢ ـ ٢٨١، شجرة النور الزكية ص ٢٦٩، شذرات الذهب ٣٣٧/٨.

وممّن أخذ عنه العلم، ولداه محمد وبركات، فأمّا الأوّل فهو:

* **أبو عبدالله محمد بن محمد الحطّاب (٩٠٢هـ - ٩٥٤هـ)**: المكّي المولد والقرار، كان من سادات العلماء المحققين، جامعا فنون العلم، متقنا متفنّنا نقّادا، عارفاً بالتفسير ووجوهه، محقّقا في الفقه وأصوله، عارفاً بمسائله مقتدراً على استنباطه، حافظاً للحديث وعلومه، محيطا باللغة وغريبها، فرضيّا حسابيّا، معدّلا، محقّقا لها، له الإمامة المطلقة في ذلك.

وبالجملة فهو آخر الأئمّة المتصرّفين في الفنون التصرّف التام بالحجاز، وآخر أئمّة المالكيّة بها.

صنّف التصانيف المفيدة التي تدلّ على إمامته وسعة علمه، وسيلان ذهنه، وقوّة إدراكه، وجودة نظره، وحسن اطّلاعه، استدرك فيها على أعلام أئمّة الفقه والحديث كابن عرفة وابن عبدالسلام وخليل والسخاوي وابن حجر والسيوطي، منها: شرح مختصر خليل المسمّى: بمواهب الجليل شرح مختصر الشيخ خليل، فيه دليل على جودة تصرّفه وكثرة اطّلاعه وحسن فهمه، توفّي قبل تبييضه، وتركه مسودّة، فبيّضه ولده يحيى، وشرح مناسك الشيخ خليل شرحاً حسنا واستدرك فيه على خليل وشراحه، وشراح ابن الحاجب وابن عرفة، وشرح الورقات لإمام الحرمين في أصول الفقه وسمّاه قرّة العين، وله عدّة تآليف لم تكمل منها: تعليق على ابن الحاجب يتضمّن تصحيح ما أطلقه ابن الحاجب من الخلاف، والتنبيه على ما خالف فيه المشهور والمذهب، وتعليق في المسائل التي انفرد بها الإمام مالك، وتعليق في مسائل لم يقف فيها على نصّ في المذهب، وتعليق على ما في كلام الشيخ بهرام في شروحه ممّا فيه إشكال أو مخالفة للمنقول، وتعليق على ابن عرفة يتضمّن الكلام على تفريعاته والتنبيه على بعض اعتراضاته، وله تعليقات وشروح في اللغة، وغيرها[١].

---

(١) توشيح الديباج ص ٢٢٩ - ٢٣١، وذكر وفاته سنة ٩٥٣هـ، نيل الابتهاج ٢/٢٨٥ - ٢٨٨، شجرة النور الزكية ص ٢٧٠، الفكر السامي ٣١٩/٤، كشف الظنون ١٩٢/٦ وذكر أنّه طرابلسي المولد والوفاة أعلام ليبيا ص ٣١١ - ٣١٤ وذكر أنّه توفي بطرابلس ودفن بداخل المدينة.

وأمّا الآخر فهو:

* **بركات بن محمد بن عبدالرحمٰن الحطاب المكّي (بعد٩٨٠هـ)**: انتفع به الكثيرون، له شرح على المختصر سمّاه المنهج الجليل في شرح مختصر خليل(١).

وممّن انتفع بالشيخ بركات، ابن أخيه:

* **أبو زكرياء يحيى بن محمد بن محمد الحطاب المكي (بعد ٩٩٣هـ)**: فقيه مكّة وعالمها، وآخر فقهاء الحجاز من المالكيّة، أخذ عن والده محمد، وعمّه بركات، وعن غيرهما، وكانت له تآليف في الفقه والمناسك وغيرها(٢).

ومن البيوت التي وصفت بمكّة أنها من بيوت العلم والفضل: بيت السخاوي، ونذكر منهم:

* **أبو عبدالله محمد بن أحمد بن موسى السخاوي المدني (بعد ٨٨٠هـ)**: قاضي المدينة خمسين سنة، أخذ عن جماعة منهم أبو القاسم النويري، وعنه جلّة منهم: ابنه محمد والحطاب الكبير والإمام السيوطي(٣).

* **أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد السخاوي المدني (٩١٣هـ)**: أخذ عن والده والقرافي وغيرهما، وأذن له في التدريس، وناب في القضاء، ثمّ ولّي قضاء المدينة وأقام به نحوا من ثلاثين سنة، شرح مواضع من المختصر(٤).

---

(١) نيل الابتهاج ١٦٤/١، شجرة النور الزكية ص ٢٧٩.
(٢) نيل الابتهاج ٣٤٢/٢ ـ ٣٤٣، الفكر السامي ٣٢١/٤، شجرة النور الزكية ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٣) نيل الابتهاج ٢٤٦/٢، الضوء اللامع ١١٠/٧ ـ ١١١، شجرة النور الزكيّة ص ٢٥٥.
(٤) توشيح الديباج ص ٢٢٨، الضوء اللامع ٤٧/٩ ـ ٤٨، نيل الابتهاج ٢٦٩/٢، شجرة النور الزكية ص ٢٦٩.

* **أبو عبدالله محمد عبدالمعطي بن أحمد بن محمد السخاوي المدني (بعد سنة ٩٦٠هـ)**: من بيت علم وفضل، كان فقيهاً عالماً مصنّفاً محقّقاً عمدة.

أخذ عن أبي عبدالله محمد بن محمد السخاوي وغيره، وكان بالحياة قرب سنة ٩٦٠هـ[(١)].

وكان هناك أعلام آخرون ـ من غير تلك البيوت ـ شاركوا في إذكاء الحركة الفقهيّة طيلة هذا الدور بهذه البقاع، نذكر منهم:

* **أبو الفتح محمد بن أحمد الحسني الفاسي ثمّ المكّي (٧٣٢هـ ـ ٧٩٦هـ)**: ولد بمكّة وبها نشأ وأجاز له جماعة من العلماء من مصر والشام[(٢)].

* **عبدالله بن عبدالله الدكاري المغربي (٨٠٦هـ)**: نزيل المدينة، أقرأ بها وأفاد ودرّس وناب في الحكم عن بعض القضاة، وكان يتجرّأ على العلماء[(٣)].

* **عبدالقويّ بن محمد بن عبدالقويّ البجائي (٧٤٣هـ ـ ٨١٦هـ)**: نسبة إلى بجاية، المغربي الأصل والمولد والمنشأ، رحل إلى مصر وعمره ثمان عشرة سنة، وسكن الجامع الأزهر، ثمّ تحوّل إلى مكّة فقطنها أكثر من ثلاثين سنة.

درّس بالحرم الشريف وأفاد وأفتى، وكان عارفاً بالفقه مستحضراً لكثير من الأحاديث والقصص والأشعار المستحسنة[(٤)].

* **خلف بن أبي بكر التحريري (٨١٨هـ)**: أخذ عن الشيخ خليل في

---

(١) نيل الابتهاج ٣٢٠/١، شجرة النور الزكية ص ٢٧٩.
(٢) شذرات الذهب ٩٨/٧.
(٣) الضوء اللامع ٢٩/٥، شذرات الذهب ١٨١/٧ ـ ١٨٢.
(٤) توشيح الديباج ص ١٢٥ نيل الابتهاج ٣١٨/١، الضوء اللامع ٣٠٢/٤، شذرات الذهب ٢٥١/٧.

شرح ابن الحاجب، وبرع في الفقه، وناب في الحكم وأفتى ودرّس، ثمّ توجّه إلى المدينة فجاور بها معتنيا بالتدريس والإفادة إلى أن توفي(١).

*** شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عليّ بن محمد بن عبدالرحمٰن الحسني (٧٥٤هـ - ٨١٩هـ)**: الفاسي محتدًا، المكيّ مولدا ومنشأ ووفاة، سمع بمكّة على قاضيها شهاب الدين الطبري، وبمصر على الشيخ خليل، وعلى القاضي موفّق الدين قاضي الحنابلة بمصر، وغيرهم.

حفظ كتبا علميّة في صغره، واشتغل في الفقه والعربيّة وكان ذا معرفة تامّة بالأحكام والوثائق، أذن له بالإفتاء فأفتى ودرّس وولّي مباشرة الحرم بعد أبيه في سنة ٧٧١هـ، وناب في قضاء المالكيّة(٢).

وأمّا ابنه فهو:

*** أبو الطيّب تقيّ الدين محمد بن أحمد بن عليّ الفاسي ثمّ المكّي (٧٧٥هـ - ٨٣٢هـ)**: ويعرف بالتقيّ الفاسي، شيخ الحرم وصاحب يد طولى في الحديث والتاريخ والفقه وأصوله، مفيد البلاد الحجازيّة وعالمها، سمع بمكّة ونشأ بها وسمع بالمدينة من إبراهيم بن فرحون، وقرأ الفقه على ابن عمّ أبيه عبدالرحمٰن ابن أبي الخير، ورحل إلى القاهرة وقرأ على البلقيني وابن الملقن وغيرهما، ودخل كذلك دمشق وسافر إلى غزّة والرملة ونابلس والإسكندرية، ودخل اليمن مرارا وسمع بمشائخها، وبلغت عدّة شيوخه بالسماع والإجازة نحو خمسمائة.

وكان الشيخ ابن حجر العسقلاني يودّه ويعظّمه ويقوم معه في مهمّاته.

درّس وأفتى وحدّث بالحرمين والقاهرة ودمشق وباليمن، وأخذ الناس عنه وانتفعوا به، ولّي قضاء المالكية بمكة سنة ٨٠٧هـ، وهو أوّل مالكيّ ولّي القضاء بها استقلالا.

---

(١) الضوء اللامع ٣/١٨٢ - ١٨٣، شذرات الذهب ٧/٢٦٢.
(٢) توشيح الديباج ص ٥٤، الضوء اللامع ٢/٣٥ - ٣٦، نيل الابتهاج ١/١١٤، شذرات الذهب ٧/٢٦٤.

فقد بصره سنة ٨٢٨هـ فلم يمنعه ذلك من مواصلة التأليف، فكان لقوّة حافظته ومعرفته بالمظان يرشد من يطالع له وهو يملي على من يكتب.

صنّف مؤلفات عديدة في التاريخ والأخبار والأذكار، وله في الفقه كتاب المناسك على مذهبي الشافعي والإمام مالك(١).

وممن اشتهر في القرن التاسع بتمام الخبرة بالأحكام والدربة بأحوال القضاء:

*** محيي الدين عبدالقادر بن أبي القاسم بن أحمد الأنصاري العبادي (٨١٤هـ ـ ٨٨٠هـ)**: مالك زمانه وناصب أعلامه، ولد بمكّة وسمع بها من علمائها واختصّ بالتقيّ الفاسي فحضر دروسه الفقهيّة وكان يطالع له كثيراً، وانتفع بمجالسته وتهذّب بعبارته.

أجاز له كثيرون منهم عائشة بنت عبدالهادي ورقيّة ابنة ابن مزروع وغيرهما.

برع في الفقه والتفسير والعربيّة، وتصدّر بمكّة للإفتاء وتدريس الفقه والتفسير والعربية وغيرها من العلوم فأفاد وأجاد وانتفع به الفضلاء من أهل بلده والقادمين إليها لحسن إرشاده وتعليمه وتقريره وتفهيمه، منهم الإمام السيوطي، وصار شيخ بلده في مذهب مالك وفي العربيّة غير مدفوع فيهما حتّى أنّ تلميذه السيوطي قد بالغ في الثناء عليه في طبقات النحاة.

وولي قضاء المالكيّة بمكّة المكرّمة بعد موت أبي عبدالله النويري في سنة ٨٤٣هـ، وتوفي وهو على القضاء، وكان مسدّدا في قضائه(٢).

---

(١) الضوء اللامع ١٨/٧ ـ ٢٠، شذرات الذهب ٣٣٠/٧، البدر الطالع ص ٦٣٠ ـ ٦٣١، كشف الظنون ١٤٩/٦، نيل الابتهاج ١٩٤/٢ وذكر وفاته سنة ٨٤٢هـ.

(٢) توشيح الديباج ص ١٢٢ ـ ١٢٣، الضوء اللامع ٢٨٣/٤ ـ ٢٨٥، نيل الابتهاج ٣١٣/١ ـ ٣١٤ شذرات الذهب ٤٧٤/٧ ـ ٤٧٥، شجرة النور الزكية ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

وظهر بعد القرن العاشر:

* **تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري المدني المعروف بابن يعقوب (١٠٦٦هـ)**: صاحب تاج المجاميع في الفقه والفتاوى، والفواتح القدسيّة والفوائح العطرية لجمع الفتاوى الفقهيّة، ومنهاج الترجيح والتجريح إلى معرفة معنى الراجح وسقط الترجيح، وغير ذلك[١].

* **صالح بن محمد بن نوح الفلاني المسوفي العمري (١١٦٦هـ - ١٢١٨هـ)**: الفقيه المالكي، قدم المدينة المنوّرة، ودرّس بها وصنّف مؤلفات كثيرة منها: تحفة الأكياس بأجوبة أسئلة الإمام خير الدين إلياس، وقطف الثمار في رفع أسانيد مصنفات الفقه والآثار[٢].

وأمّا في خصوص المذهب الحنبلي، فقد كان سراج الدين عبداللطيف أوّل من ولّي قضاء الحنابلة بمكّة سنة ٨٠٩هـ، وأضيف إليه في سنة ٨٤٧هـ قضاء المدينة المنوّرة فأصبح قاضي الحرمين[٣].

غير أنّ هذا المذهب قد عرف في نهاية هذا الدور انتشاراً كبيراً عمّ بلاد الحجاز، فغدت به أبهى من الروض الأنف إذا تفتّح زهره وأرج، ومن أشهر أعلام هذه المدرسة في هذا الدور، نذكر:

* **شمس الدين أبو عبدالله محمد بن مسلم بن مالك الزيني الصالحي (٦٦٢هـ - ٧٢٦هـ)**: قاضي قضاة المدينة المنوّرة، اعتنى بالحديث وتفقّه وأفتى وبرع في مذهبه وفي العربيّة، وتصدّى للاشتغال والإفادة، ثمّ ولّي القضاء سنة ٧١٦هـ فتوقّف في القبول، ثمّ قبل بعد أن استخار الله تعالى.

وهو الذي حكم على ابن تيميّة بمنعه من الفتيا بمسائل الطلاق

---

(١) كشف الظنون ٢٠١/٥.

(٢) كشف الظنون ٣٤٧/٥.

(٣) انظر: الضوء اللامع ٣٣٣/٤ - ٣٣٤ النجوم الزاهرة ٥٤٦/١٥ شذرات الذهب ٤٩٣/٧ - ٤٩٤.

وغيرها من المسائل التي رأوها مخالفة للمذهب[١].

* **شمس الدين أبو عبدالله محمد بن محمد الآمدي ثمّ المكّي (٧٦٠هـ)**: إمام مقام الحنابلة بمكّة، ولِّي الإمامة بعد وفاة والده، واستمرّ بها نحو ثلاثين سنة[٢].

* **محيي الدين عبدالقادر بن محمد بن أحمد الشريف الحسني الفاسي الأصل(٧٩١هـ ـ ٨٢٧هـ)**: ابن عمّة التقيّ الفاسي، وابن عمّ أبيه، وشقيق قاضي القضاة سراج الدين عبداللطيف.

قرأ وتفقّه وحفظ العمدة في الفقه لموفّق الدين بن قدامة، ونظر في كتب المذهب حتّى تنبّه في الفقه وأفتى في وقائع كثيرة وناب بالمدرسة البنجاليّة وفي الحكم عن شقيقه سراج الدين عبداللطيف.

كان يثبت الحكم بالشهادة على خطّ الشاهد الميّت أو الغائب متمسّكا في ذلك بما وقع للإمام أحمد من نفوذ وصيّة الميّت إذا وجدت عند رأسه بخطّه، متوسّعا في ذلك إلى غير ذلك من الأحكام، ولم يوافقه على ذلك علماء عصره[٣].

وكان أوّل حنبلي قد ولِّي قضاء مكّة:

* **أبو المكارم سراج الدين عبداللطيف بن محمد بن أحمد الحسني الفاسي الأصل(٧٧٩هـ ـ ٨٥٣هـ)**: ولد بمكّة وبها نشأ وتفقّه، ولِّي إمامة مقام الحنابلة بمكّة بعد موت ابن عمّه نور الدين عليّ بن عبداللطيف بن أحمد، ثمّ ولِّي قضاء الحنابلة بمكّة سنة ٨٠٩هـ، فكان أوّل حنبلي ولِّي قضاء مكّة، واستمرّ على خطّة القضاء أكثر من أربعين سنة، ورغم كثرة أسفاره وغيبته عن مكّة فقد كان يستخلف من يختاره من أقربائه، وأضيف إليه في سنة ٨٤٧هـ قضاء المدينة المنوّرة فأصبح قاضي الحرمين.

---

(١) الدرر الكامنة ٢٥٨/٤ ـ ٢٥٩، شذرات الذهب ٢٣١/٦.
(٢) الدرر الكامنة ١٩٨/٤، شذرات الذهب ٣٧٨/٦.
(٣) الضوء اللامع ٢٨٧/٤، شذرات الذهب ٣١٠/٧.

كان أبوه مالكيًّا ولم يزل سلفه فقهاء مالكيّة، غير أنّه لمّا أحدث بمكّة قاض للحنفيّة وقاض للمالكيّة وصار بها ثلاثة قضاة، أحبّ أن يكون رابع الثلاثة، فتحوّل إلى المذهب الحنبلي، وكان أوّل من ولّي قضاء الحنابلة بالحرمين[١].

*** شمس الدين محمد بن أحمد بن سعيد المقدسي النابلسي (٧٧١هـ ـ ٨٥٥هـ)**: قاضي مكّة المكرّمة، نشأ بنابلس ثمّ انتقل سنة ٧٨٩هـ إلى دمشق فتفقّه بها، وسكن حلب سنة ٧٩١هـ وحفظ بها عمدة الأحكام ومختصر الخرقي، وناب بها في القضاء وفي الخطابة بجامعها الكبير، وفي سنة ٨١٢ انتقل إلى بيت المقدس وأقام بها إلى سنة ٨١٨هـ.

جاور بالحرمين الشريفين، وجلس للإقراء في الروضة واستجازه الأعيان، ثمّ استقرّ بمكّة وناب في إمامة المقام الحنبلي بها، وولّي قضاء الحنابلة فيها بعد وفاة سراج الدين عبداللطيف الفاسي.

كان كثير الاستحضار لفروع مذهبه، من مصنّفاته: المنتخب الشافي من كتاب الوافي اختصر فيه الكافي لموفق الدين[٢].

*** محيي الدين أبو صالح عبدالقادر بن سراج الدين أبي المكارم عبداللطيف الفاسي (٨٤٢هـ ـ ٨٩٨هـ)**: قاضي الحرمين، ولد بمكّة المشرفة، وبها نشأ وحفظ القرآن، ثمّ رحل في الطلب وجدّ واجتهد، وأخذ الفقه عن العزّ الكناني بالقاهرة والعلاء المرداوي واشتدت ملازمته له وقرأ عليه تصانيف كثير، واشتغل بالفقه والأصلين والقراءات والعربيّة، وأذن له في الإفتاء والتدريس، وسمع الحديث وأجاز له أعلامه من أهل مكّة والمدينة والقاهرة منهم عمّته لأمّ الهدى وزينب ابنة اليافعي وسارة بنت

(١) الضوء اللامع ٣٣٣/٤ ـ ٣٣٤، النجوم الزاهرة ٥٤٦/١٥، شذرات الذهب ٤٩٣/٧ ـ ٤٩٤.

(٢) الضوء اللامع ٣٠٩/٦، شذرات الذهب ٤٢١/٧ ـ ٤٢٢.

عمر بن جماعة، وابن حجر العسقلاني وغيرهم.

درّس بالمسجد الحرام وبغيره، وحدّث وأفتى، وولِّي قضاء الحنابلة بمكّة سنة ٨٦٣هـ، وأضيف إليه قضاء المدينة سنة ٨٦٥هـ، وبقي مباشرا للقضاء إلى أن توفي(١).

*** عليّ بن أحمد بن جمال الدين تقيّ بن صالح (٩١١هـ - ٩٧٥هـ)**: المعروف بابن حجّة المشهور عند الشيعة بالشهيد الثاني، كان يقيم بمكّة، ونظرا لانتحاله مذهب أهل الرفض جلب إلى الآستانة أيّام السلطان العثماني سايم خان العثماني، فتوفي بالطريق.

له مصنفات كثيرة في فقه الشيعة، منها: روض الجنان في شرح الإرشاد في الفقه، وشرح الألفيّة الفقهية ثلاثة شروح، وله فتاوى الإرشاد وفتاوى الشرائع، وغيرها(٢).

*** أبو السعادات محمد بن أحمد بن عليّ الفاكهي المكّي (٩٢٣هـ - ٩٩٢هـ)**: قرأ في المذاهب الأربعة فكانت له اليد الطولى في ذلك، وزاد شيوخه على التسعين، صنّف شرح مختصر الأنوار المسمّى نور الأبصار في الفقه الشافعي، وغير ذلك.

دخل الهند وأقام بها مدّة ثمّ رجع إلى مكّة سنة ٩٥٧هـ، ثمّ عاد إلى الهند واستقرّ بها إلى أن توفي(٣).

*** عبدالوهاب بن سليمان بن عليّ بن مشرف التميمي النجدي (١١٥٣هـ)**: والد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، كان من علماء البلاد، ولِّي

---

(١) الضوء اللامع ٤/٢٧٢ - ٢٧٥، شذرات الذهب ٨/٢٤ - ٢٥.

(٢) كشف الظنون ٥/٥٩٧.

(٣) الكواكب السائرة ٣/١٦٤، شذرات الذهب ٨/٤٩٨.

القضاء في عدّة جهات، وله في بعض المسائل الفقهية كتابة حسنة[١].

الإمام: * أبو عبدالله محمد بن عبدالوهاب (١١١٥هـ - ١٢٠٦هـ):
إمام الوهابية وقائدهم الأكبر، والمصلح المعروف، وأحد علماء الحنابلة النجديين المتأثّرين بفكر الإمام ابن تيميّة، تربّى بحجر والده فحفظ القرآن الكريم قبل سنّ العاشرة، ودرس عليه كتب الفقه الحنبلي، ثمّ انتقل إلى البصرة فأتمّ دراسته، وبرع في مذهب أحمد وفي سائر علوم الدين، وطاف بلاداً كثيرة.

تقلّد مذهب الإمام أحمد غير جامد على تقليده ولا تقليد سواه، بل أدّته ألمعيّته إلى الاجتهاد، وإلى تتبّع الدليل وترك أقوال المذهب إن بان له ما يقوّي خلافه، فصار يناظر أباه وعمّه إبراهيم بن سليمان في بعض المسائل بالدليل على بعض الروايات عن الإمام أحمد والوجوه عن الأصحاب.

أعلن الحرب على البدع الدخيلة في الفكر والعقيدة وفي السلوك والعمل فالتفّ حوله الناس بما أوتي من حجّة ووضوح محجّة، وكثر عدد أتباعه وقوي جانبهم، وأصهر إلى الأمير محمد بن سعود بابنته، وهي أمّ الأمير عبدالعزيز بن سعود الذي ظهر بمظهر الناشر لمذهبه، واتخذ من الرياض عاصمة لدولته، فجردت له تركيا الكتائب فكسرها واستطاع السيطرة على الحرمين الشريفين ونجد والحجاز، ومن يومها أصبح المذهب الحنبلي هو المذهب السائد ببلاد الحجاز.

ترك الشيخ محمد بن عبدالوهاب آثاراً علميّة كثيرة قدّرت باثني عشر مجلّداً في الفقه والعقيدة والتفسير والحديث والسيرة والآداب الإسلاميّة قامت على نشرها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة بالرياض.

---

(١) الفكر السامي ٤/٤٤٥، من مشاهير المجددين في الإسلام لابن فوزان ص ٥٦.

ومن آثاره الفقهيّة كتاب مختصر الشرح الكبير والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للعلاء المرداوي وطريقته في هذا المختصر: أنّه يصدر الباب منه بمسائل الشرح، ثمّ يزيد ذلك بكلام «الإنصاف»[١].

ومن تلاميذه ومؤيدي نهجه، نذكر:

* **حمد بن ناصر بن معمر التميمي النجدي (١٢٢٥هـ)**: من أهل العيينة، استوطن الدرعية، تصدّر للتدريس بالدرعية وعنه أخذ خلق كثير.

ولي قضاء الدرعية للإمام سعود بن عبدالعزيز، ثمّ بعثه إلى مكّة سنة ١٢٢١هـ، وبها توفّي[٢].

* **سليمان بن عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب (١٢٠٠هـ - ١٢٣٣هـ)**: ولد بالدرعية وبها أخذ عن علمائها، ثمّ أصبح يدرّس بمدارسها، له حاشية على المقنع في الفقه والتوضيح عن توحيد الخلاف في جواب أهل العراق، وغير ذلك[٣].

* **عبدالعزيز بن عبدالله بن محمد الناصري التميمي النجدي (١١٥٤هـ ـ ١٢٣٧هـ)**: ولّي القضاء في ناحية الوشم أيّام شيخه محمد بن عبدالوهاب[٤].

* **عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب (١١٦٥هـ ـ ١٢٤٢هـ)**: كان عالماً فقيها، وكانت الفتوى تدور عليه في أيّام عبدالعزيز بن محمد وابنه سعود وابنه عبدالله[٥].

---

(١) من مشاهير المجددين في الإسلام ص ٥٦ ـ ٨٢، الفكر السامي ٤/٤٤٥ ـ ٤٤٨، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧، إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ٨٧ ـ ٩٨، وانظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٤٠٤ وما بعدها.

(٢) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١٠٨.

(٣) نفس المرجع ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٤) المرجع السابق ص ١٠٩.

(٥) المرجع السابق ص ١٠٦.

* **عبدالعزيز بن حمد بن معمر (١٢٠٣هـ - ١٢٤٤هـ)**: ولد بالدرعية وبها تعلّم، وكان فقيهاً ذا يد طولى، لجأ إلى البحرين مدّة حرب الوهابيين مع إبراهيم باشا حاكم مصر، وبها توفي[1].

* **عبدالعزيز بن حمد بن إبراهيم (بعد ١٢٤١هـ)**: ولد بالدرعية وأخذ عن مشائخها، ووليّ قضاءها أيّام الإمام سعود، ولمّا خرج إلى الدرعيّة لحرب الجيش المصري، انتقل إلى عنيزة وتولّى قضاءها، ثمّ تحوّل إلى جنوب العراق ووليّ القضاء بها إلى أن توفي.

من مصنّفاته: الأجوبة والمسائل الشرعية إلى علماء الدرعية[2].

* **أحمد بن رشيد (١١٨٠هـ - ١٢٥٨هـ)**: ولد بالإحساء وبها تعلّم، ونزل المدينة المنوّرة ودرّس بها، ووليّ قضاءها أيّام الإمام سعود، جلس للتدريس بالدرعية، ثمّ أخذ إلى مصر فعذّب ومات منفيّا[3].

- ٨ - تركيا - بلاد الروم قديما -:

لئن تزامن نهاية الدور السابق مع سقوط الدولة العباسيّة التي استمرّ وجودها أكثر من خمسة قرون، فقد تزامن هذا الدور مع ظهور الدولة العثمانية التي ضمّت أطراف البلاد العربيّة والإسلاميّة، وفتحت مناطق أخرى لم تكن من بلاد الإسلام قبل ذلك، وأصبحت رمز وحدة المسلمين واتّصالهم بتاريخهم.

وقد أيّد سلاطينها دولتهم بفتوحات كثيرة وتنظيمات عديدة مكّنت لأركان ملكهم وثبّتت صروح مجدهم واتّخذ السلطان مراد خان الأوّل من مدينة أدرنة - التي فتحها سنة ١٣٦١م - عاصمة ملكه إلى أن دخل محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م/٨٥٧هـ القسطنطينية، التي سمّيت «إسلامبول» أي تخت

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٦.

(٢) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١٠٩.

(٣) المرجع السابق ص ١٠٦.

الإسلام أو مدينة الإسلام[١]، وعرفت أيضاً بالآستانة، وأصبحت هذه المدينة عاصمة الدولة العثمانية حتّى يوم ٣ مارس ١٩٢٤م تاريخ إعلان مصطفى كمال أتاتورك إلغاء هذا النظام.

وقد أضحى هذا المركز التركي، هذا المركز الفقهي الجديد الذي انضاف في هذا الدور إلى المراكز الفقهيّة الأخرى، مركزا عظيما من مراكز التوجيه الفقهي والتخريج فيه، حيث أسّس للعلم في العاصمة الإسلاميّة الجديدة أساسا راسخا، وبنيت بها المدارس، فاستقطبت العلماء الكبار من أقصى الديار، وصارت بهم اسطنبول أمّ الدنيا ومعدن الفخار والعلياء، واجتمع فيها أهل الكمال من كلّ علم وفنّ[٢].

وكان المذهب الحنفي هو المذهب الذي ساد هذا المركز الفقهي بلا منازع، لتبنّي الأتراك لهذا المذهب، ومن أشهر الأعلام الذين شهد لهم الأفاضل بوفرة العلم وغزارة الفضل، نذكر:

* **شمس الدين محمد بن محمد ـ وقيل بن حمزة ـ الفناري (٧٥١هـ ـ ٨٣٣هـ)**: الذي رحل في طلب العلم ثمّ رجع إلى تركيا فولي قضاء بروسّا ـ مدينة تركيّة في الأناضول ـ وانتفع بعلمه الطلبة مع اشتغاله بالقضاء، وارتفع قدره عند السلاطين العثمانيين، واشتهر ذكره وشاع فضله.

ومن شدّة احتياطه وتثبّته في القضاء أنّه ردّ شهادة السلطان بايزيد بن مراد في قضيّة، فسأله السلطان عن سبب ذلك فقال له: إنّك تارك للجماعة، فبنى السلطان أمام قصره جامعا وعيّن لنفسه فيه موضعا، ولم يترك الجماعة بعد ذلك.

من مصنّفاته: كتاب فصول البدائع في أصول الشرائع جمع فيه كتب المنار والبزدوي ومحصول الرازي ومختصر ابن الحاجب وغيرها، وعكف على تصنيفه ثلاثين سنة، ويعتبر من أجلّ الكتب الأصوليّة وأنفعها وأكثرها

---

(١) تاريخ الدولة العليّة العثمانية ص ١١٣ وما بعدها.

(٢) شذرات الذهب ٤٩١/٧.

فوائد كما صرّح بذلك الإمام الشوكاني، وله منظومة في عشرين علماً أتى في كلّ علم منها بمسألة، وغيّر أسماء تلك العلوم بطرق الألغاز ليمتحن فضلاء عصره، وشرح تلخيص الجامع الكبير في الفروع، وله غير ذلك من المصنّفات.

خلّف ثروة عظيمة فيها من الكتب نحو عشرة آلاف عنوان(١).

وكان يعاصره قاضي السلطنة العثمانيّة:

*** منلا خسرو محمد بن فرامرز بن عليّ المعروف بمنلا خسرو (٨٨٥هـ)**: شيخ الإسلام الحنفي الذي درّس بمدينة أدرنة بمدرسة شاه الملك، ثمّ صار قاضيا بالعسكر.

كان السلطان محمد الفاتح يجلّه كثيراً ويقول لوزرائه: هذا أبو حنيفة زمانه، وحين فتح القسطنطينيّة جعله قاضيا بها بعد وفاة المولى خضر بك، وضمّ إليه قضاء بعض النواحي الأخرى والتدريس بآيا صوفيا.

عظم أمره وشاع ذكره وعمّر عدّة مساجد بإسطنبول، ثمّ آل به الأمر إلى أن صار مفتيا بالتخت السلطاني، من مصنفاته التي اشتهرت وذاعت كتاب غرر الأحكام في الفروع وشرحه المسمّى بدرر الحكّام(٢).

*** أحمد بن إسماعيل بن عثمان شرف الدين التبريزي الكوراني (٨١٣هـ ـ ٨٩٣هـ)**: القاهري ثمّ الرومي الشافعي ثمّ الحنفي، وصف بأنّه عالم بلاد الروم لأنّه هاجر إلى تركيا واستقرّ بها.

كان على براعة كاملة ومعرفة تامة بعلوم الفقه والقراءات والعربية وغيرها من العلوم، وكان أوّل أمره شافعيّا فلمّا هاجر إلى تركيا تحوّل حنفيّا وعظم اختصاصه بالسلطان العثماني محمد بن مراد المعروف بمحمد

---

(١) البدر الطالع ص ٧٨٤ ـ ٧٨٦، كشف الظنون ١٥٠/٦ ـ ١٥١.
(٢) نظم العقيان ص ١٠٩، شذرات الذهب ٤٨٨/٧ ـ ٤٨٩، كشف الظنون ١٩٦/١ و١٦٨/٦.

الفاتح، ونال منصب الإفتاء وأنشأ بإسطنبول جامعا ومدرسة، وانتشر علمه وأخذ عليه الأكابر.

عرضت عليه الوزارة فلم يقبلها، وأتاه مرّة مرسوم من السلطان فيه مخالفة للوجه الشرعي فمزّقه، ومناقبه كثيرة تدلّ على أنّه من العلماء العاملين غير أنّ الإمام السخاوي كانت له عليه انتقادات كثيرة(١).

ومن أقرانه عالم تركيا المشهور بالتحقيق:

*** مصطفى بن يوسف بن صالح البروسوي الرومي المشهور بخواجة زادة (٨٩٣هـ)**: المشهور بخواجة زادة، كان والده من التجّار الأثرياء، فلمّا اشتغل ابنه بالعلم سخط عليه وأبعده عنه، ورغم ذلك فلم يزدد صاحب الترجمة في العلم إلاّ شغفا وتردّد على أكابر علماء تركيا، وبقي ستّ سنوات يشتغل بالعلم مع الفقر والحاجة حتّى صار لا يملك إلاّ قميصا واحدا.

ولمّا تولّى السلطنة السلطان محمد خان بن مراد خان وأظهر الرغبة إلى العلم وأهله لقي الشيخ خواجة زادة حظوة، وسمّي معلّم السلطان ثمّ ولّي قضاء العسكر، وهي بمرتبة قضاء الأقضية ببلاد المشرق، واشتهر الشيخ خواجة زادة في تركيا وانتشر ذكره وكثر تلامذته.

ولي التدريس ببروسّا وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ثمّ التدريس بإسطنبول، ثمّ ولّي قضاء أدرنة، ثمّ الإفتاء بإسطنبول، ثمّ قضاء إزنيق والتدريس بها بعد مؤامرة دبّرت ضدّه من وزير السلطان، وفي عهد السلطان بايزيد عيّن مفتيا لبروسّا، له حواشي كثيرة في علوم متنوّعة(٢).

وكان خاتمة القرن التاسع علاّمة دهره ونادرة زمانه:

*** محمد بن سليمان بن سعيد بن مسعود الرومي (٧٨٨ ـ ٨٩٩هـ)**:

(١) البدر الطالع ص ٥٨ ـ ٦١، الضوء اللامع ٢٤١/١ ـ ٢٤٣.

(٢) البدر الطالع ص ٨٢٣ ـ ٨٢٦، شذرات الذهب ١٥/٨ ـ ١٦.

عرف بالكافياجي لأنّه أكثر من قراءة الكافية لابن الحاجب وإقرائها حتّى نسب إليها.

ولد بتركيا وطاف البلاد في طلب العلم فدخل الشام ومصر وغيرها من البلاد، ثمّ تصدّى للتدريس والإفتاء والتأليف وعظم ذكره عند الناس وعند الملوك وخاصّة السلطان العثماني الذي كان دائم المكاتبة له والإهداء.

انتشر تلاميذه وشاعت فتاويه التي كان يسلك فيها منهج البسط والإسهاب والتوسّع في المعقول، وأخذ عنه الناس طبقة بعد طبقة، وتقدّم طلبته في حياته وصاروا أعيان الوقت وتزاحموا عنده من سائر المذاهب والعلوم، ولازمه الإمام السيوطي أربع عشرة سنة، وذكر أنّه ما جاءه مرّة إلاّ وسمع من التحقيقات والعجائب ما لم يسمعه قبل ذلك.

عرف بقوّة الاستنباط ومزيد الرغبة في إلقاء العلم وتقريره، وكانت له اليد الحسنة في الفقه والتفسير والنظر في علوم الحديث، وزادت تصانيفه على المائة مصنّف[١].

ومن العلماء العاملين الذين كانوا لا يفترون عن الاشتغال بالعلم والتدريس:

* **مصلح الدين مصطفى القسطلاني الرومي (٩٠١هـ)**: وكان السلطان العثماني محمد خان حين بنى مدارسه الثمانية بإسطنبول أعطاه الإشراف على واحدة منها، ثمّ ولّي القضاء ببروسّا ثمّ أدرنة كذلك وإسطنبول، ثمّ قضاء العسكر.

وكان المولى خواجة زادة إذا ذكر صاحب الترجمة صرّح بلفظ المولى، ولا يصرّح بذلك لأحد من أقرانه، وكان يشهد له بقدرته على حلّ المشكلات والإحاطة بالعلوم الكثيرة في مدّة يسيرة.

وقيل إنّه لم يهتمّ بأمر التصنيف لاشتغاله بالدرس والقضاء[٢].

---

(١) الضوء اللامع ٢٥٩/٧ ـ ٢٦١، البدر الطالع ص ٦٨٨ ـ ٦٨٩.

(٢) شذرات الذهب ٤٢/٨.

* **علاء الدين عليّ بن يوسف بن شمس الدين الفناري الرومي (٩٠٣هـ)**: سبط المولى شمس الدين الفناري، الذي رحل في طلب العلم فدخل هراة وسمرقند وبخارى وقرأ على علمائها، وبرع في العلوم ودرّس هناك، ثمّ عاد إلى تركيا في أوائل سلطنة محمد خان، فعيّنه السلطان مدرّسا بمدينة بروسّا ثمّ ولاّه قضاءها، ثمّ قضاء العسكر، ومكث فيه عشر سنوات ثمّ عزل، وكان قدر العلماء في زمن ولايته قد ارتفع إلى أوج الشرف، وفي عهد بايزيد أعيد على قضاء العسكر ومكث فيه ثمان سنين ثمّ عزل.

كان شديد الاهتمام بالعلم في جميع أوقاته لا ينام على فراش، وإذا غلبه النوم استند إلى الجدار والكتب بين يديه، فإذا استيقظ نظر فيها، واستمرّ يفيد الطلبة إلى أن توفي(١).

ومن العلماء الكبار لهذا العصر:

* **حميد الدين حمد الله بن أفضل الدين الحسيني (٩٠٨هـ)**: ولّي التدريس بمدرسة السلطان مراد خان ببروسّا، ثمّ عزل عنها، وفي عهد السلطان محمد أعطي الإشراف على إحدى المدارس الثمانية، ثمّ القضاء بإسطنبول، ثمّ الإفتاء بها في أيّام بايزيد واستمرّ على ذلك إلى حين وفاته.

ومن مبالغات تلميذه محيي الدين الفناري أنّه قال: لم يجد مسألة شرعية أو عقليّة إلاّ وهو يحفظها(٢).

ومن أقرانه:

* **علاء الدين عليّ البكائي الرومي (٩٠٩هـ)**: قرأ على علماء عصره، وصار مدرّسا فدرّس في بروسّا، ثمّ في إحدى المدارس الثمانية،

---

(١) البدر الطالع ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦، شذرات الذهب ٨/٥٠، الكواكب السائرة ١/٢٧٨.
(٢) شذرات الذهب ٨/٧٠ ـ ٧١.

ثمّ عيّن مفتيا ببروسّا، وكان عالماً سليم الطبع، انتفع به كثيرون[١].

ومن الأعلام الذين انتفع بهم الطلبة في الثلث الأوّل من القرن العاشر:

* **المولى الفاضل يخشى خليفة الأماسي الرومي (٩٣١هـ)**: اشتغل في العلم بأماسية على علمائها، ثمّ رحل إلى البلاد العربيّة فأخذ عن علمائها، حتّى صارت له يد طولى في الفقه والتفسير وكان يحفظ منه كثيراً.

وله مشاركة في سائر العلوم[٢].

* **عليّ بن أحمد بن محمد الملقب بعلاء الدين الرومي (٩٣٢هـ)**: قرأ على المولى علاء الدين بن حمزة القرماني وحفظ عنده مختصر القدوري ومنظومة النسفي، ثمّ دخل إسطنبول وقرأ على الملا خسرو ونظرا لاشتغاله بالفتوى بعث به إلى مصلح الدين بن حسام المدرّس ببروسّا، فأخذ عنه العلوم العقلية والشرعية، حتّى صار معيدا له بالمدرسة، وزوّجه ابنته.

لمّا ولّي بايزيد السلطنة عيّنه مدرّسا بإحدى المدارس الثمانية، ثمّ فوض إليه الفتوى بمدينة أماسيا التركية، ثمّ ولّي التدريس والإفتاء بإسطنبول.

كان يقضي جميع أوقاته في التلاوة والعبادة والتدريس والفتوى، وكان يجلس في بيته ويغلق باب داره وقد جعل للمستفتين زنبيلا معلّقا، يلقون فيه رقاع الفتاوى فيكتب عليها جوابه ثمّ يدليها إليهم، وكان يفعل ذلك حتّى لا ينتظر الناس ببابه للفتوى، ولا يراهم فربّما يميّز بينهم في الفتوى.

وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتدخّل في أمور السلطنة

(١) شذرات الذهب ٧٦/٨.

(٢) شذرات الذهب ٢٢١/٨، الكواكب السائرة ١٦٤/١.

وشؤون السلطان، ويرى أنّ وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان[١].

*** سعد الله بن عيسى بن أمير خان القسطموني (٩٤٥هـ)**: نسبة إلى مدينة قسطموني التركية جنوبيّ البحر الأسود، الشهير بسعدي جلبي القاضي بإسطنبول والمفتي بها، من مصنّفاته: منظومة فقهيّة وضعها باللغة التركيّة[٢].

ومن الذين غمروا صدر القرن العاشر بشهرتهم:

*** المولى نور الدين حمزة الشهير بأوج باشا (٩٤٥هـ)**: اشتغل بالعلم ثمّ درّس بمدارس كثيرة بأزنيق وأدرنة وأماسية ثمّ عيّن مفتي أماسية.

كان حريصا على جمع المال متقلّلاً في معاشه حتّى جمع أموالاً كثيرة، بنى بها في آخر حياته مسجداً بإسطنبول قريباً من داره وبيتاً لطلبة العلم، ووقف عليها أوقافاً كثيرة، فلمّا سئل عن صرف أمواله في الأوقاف وقد عرف بحبّه لجمعه، قال: من غاية محبّتي في المال أن يذهب معي إلى الآخرة[٣].

*** المولى سعد الدين عيسى بن أمير خان المعروف بسعدي جلبي (٩٤٥هـ)**: أحد المشهورين بالعلم والدين والرئاسة، أصله من مدينة قسطموني دخل إسطنبول مع والده ونشأ في طلب العلم وقرأ على علماء عصره.

عيّن مدرّساً بإسطنبول ثمّ ببروسّا، ثمّ قاضياً بإسطنبول، ثمّ عزل وأعيد مدرّساً بإحدى المدارس الثمانية، ثمّ صار مفتياً، وبقي على الإفتاء مدّة طويلة.

كان متفوّقاً على أقرانه في التدريس وفي القضاء، من الذين صرفوا

---

(١) البدر الطالع ص ٤٣٤ ـ ٤٣٦، شذرات الذهب ٢٢٨/٨ ـ ٢٢٩، الكواكب السائرة ٢٦٧/١.

(٢) كشف الظنون ٣١٧/٥.

(٣) شذرات الذهب ٣١١/٨، الكواكب السائرة ١٣٩/٢.

جميع أوقاتهم في الاشتغال بالعلم، وكان في إفتائه مقبول الجواب مهتديا إلى الصواب(١).

*** محمد بن مصلح الدين القوجوي الرومي محيي الدين المعروف بشيخ زادة (٩٥١هـ)** : قرأ على علماء عصره من أعلام المركز التركي، حتّى برع في العلوم ودرّس بمدارس تركيا وولّي القضاء بها.

من مصنّفاته شرح الوقاية في الفقه، وشرح للفرائض السراجيّة، وغيرها من المصنّفات(٢).

*** محيي الدين محمد إلياس الشهير بجوى زادة (٩٥٤هـ)**: قرأ على علماء عصره وتنقّل في المدارس حتى عيّن في إحدى المدارس الثمانية، ثمّ ولّي قضاء العساكر بالأناضول، ثمّ صار مفتي إسطنبول، ثمّ عزل عن الفتوى وعاد إلى التدريس والقضاء، وكان قد عزل عن الفتوى لتغيّر الملك عليه بسبب إنكاره على محيي الدين بن عربي.

كان مقبلا على الاشتغال بالعلم له يد طولى في الفقه والتفسير والأصول ومشاركة في سائر العلوم، سيفا من سيوف الحقّ قاطعا(٣).

*** المولى عبدالكريم الملقب بمفتي شيخ الرومي (٩٥٦هـ)**: مفتي التخت السلطاني، اشتغل على علماء عصره، ثمّ جلس بأيا صوفيا بإسطنبول مشتغلا بالإرشاد والفقه حتّى أتقن مسائله، وظهرت مهارته في الفقه فنصّبه السلطان العثماني سليمان خان الأوّل القانوني مفتي السلطنة.

ملك كتبا كثيرة، وكان يقضي أغلب أوقاته في مطالعتها(٤).

ومن الذين اشتغل عليهم طلبة العلم في النصف الثاني من القرن العاشر، نذكر:

---

(١) شذرات الذهب ٣١٢/٨ ـ ٣١٣، الكواكب السائرة ٢٣٦/٢.
(٢) البدر الطالع ص ٧٨٧ ـ ٧٨٨.
(٣) شذرات الذهب ٣٥٦/٨ ـ ٣٥٧، الكواكب السائرة ٢٨/٢.
(٤) شذرات الذهب ٣٦٤/٨ ـ ٣٦٥، الكواكب السائرة ١٧٩/٢.

* **المولى كمال الدين المعروف بدادة خليفة (٩٧٣هـ)**: نشأ بمدينة أماسية، وكان في بداية حياته يمتهن صنعة الدباغة حتى أناف عمره على العشرين، ثمّ توجّهت همّته إلى طلب العلم فأكبّ على الاشتغال حتّى برع وأصبحت له يد طولى في الفقه والتفسير وعيّن مدرّسا بعدّة مدارس ثمّ مفتيا ببعض الجهات التركيّة، من مصنّفاته: منظومة في الفقه ورسائل كثيرة في علوم عديدة[١].

* **المولى أبو السعود محمد بن مصطفى العمادي (٨٩٨هـ - ٩٨٢هـ)**: ولد بقرية قريبة من إسطنبول وقرأ على والده كثيراً حتّى برع، ثمّ تنقّل في المدارس، ثمّ قلّد قضاء بروسّا ثمّ إسطنبول ثمّ قضاء العسكر ودام على ذلك ثمان سنين، ثمّ الفتيا سنة ٩٥٢هـ فسارت أجوبته في جميع الآفاق مسير النجوم، وضربت له نوبة الامتياز في مشارق الأرض ومغاربها.

كان عالماً واسع التقرير، سائغ التحرير، وكان في عصره المرجع في جميع ما يتعلّق بالعلوم، عاقه الاشتغال بالتدريس والإفتاء عن التفرّغ للتأليف والتصنيف سوى أنّه اختلس فرصا صرفها للتفسير في كتاب سمّاه إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، واشتهر عند الناس بتفسير أبي السعود، ذكر الشوكاني أنّها من أجلّ التفاسير وأحسنها وأكثرها تحقيقا وتدقيقا، وله حاشية على كتاب العناية من أوّل كتاب البيع وبعض حواش على مواضع من تفسير الكشّاف جمعها حال إقرائه له، وتوفي بإسطنبول وهو على الإفتاء[٢].

* **المولى شمس الدين أحمد المعروف بقاضي زادة (٩٨٨هـ)** : قرأ على علماء عصره كجوى زادة وسعدي حلبي، وتنقّل في المدارس ثمّ قلّد قضاء حلب فأقام بها عدّة سنين ثمّ تولّى قضاء إسطنبول ثمّ قضاء العسكر ثمّ عزل بعد سبعة أشهر من ولايته، وفي عهد السلطان مراد خان أعيد

(١) شذرات الذهب ٤٣٩/٨.
(٢) شذرات الذهب ٤٦٧/٨، البدر الطالع ص ٢٧٣، لقط الفرائد ص ٣١٥، كشف الظنون ٢١٢/٢ - ٢١٣.

لقضاء العسكر ثمّ قلّد الفتوى بدار السلطنة.

كان كثير الاعتناء بدرسه، دائم الاشتغال في يومه وأمسه، من مصنّفاته: نتائج الأفكار في كشف الرموز والأسرار في الفقه، وشرح الهداية من أوّل كتاب الوكالة إلى آخر الكتاب، وله رسائل أخرى[(١)].

* **المولى محيي الدين محمد بن محمد بن إلياس المعروف بجوى زادة (٩٩٥هـ)**: أحسن قضاة الدولة العثمانية وأعفهم وأصلحهم سيرة.

ترقّى في المدارس على عادة موالي بلاد تركيا، ودرس الكتب الستّة في الحديث وحضر دروس الفقه والتفسير، ثمّ ولّي قضاء دمشق سنة ٩٧٧هـ، ثمّ ولّي قضاء مصر، ثمّ أصبح قاضياً بالعساكر، وفي آخر حياته عيّن مفتياً بالتخت السلطاني[(٢)].

ومن الذين اشتهر ذكرهم بعد القرن العاشر:

* **الحسين بن عبد النبي بن عمر بن الشعال (١٠٦٩هـ)**: الدمشقي الأصل الحلبي المولد والدار، الحنفي المذهب، دخل الآستانة وولّي الإمامة السلطانية[(٣)].

* **عليّ بن محمد حفيد سيّد عليّ زادة الشهير بباشماقجي زادة (١١٢٢هـ)**: مفتي الإسلام الحنفي بالبلاد التركية وصاحب المجموعة الفقهيّة[(٤)].

* **أبو إسحاق إسماعيل نعيم بن إبراهيم العلانية الرومي (١٠٥٥هـ - ١١٣٧هـ)**: مفتي الإسلام، وصاحب مجموع الفتاوى[(٥)].

* **عبدالعزيز بن حسام الدين حسين بن محمد الشهير بقرة جلبي زادة**

---

(١) شذرات الذهب ٤٨٥/٨، معجم المؤلفين ١٧١/٢.
(٢) شذرات الذهب ٥٠٨/٨ - ٥٠٩، الكواكب السائرة ٢٧/٣.
(٣) كشف الظنون ٢٦٤/٥.
(٤) كشف الظنون ٦١٠/٥.
(٥) كشف الظنون ١٨٠/٥.

(١٠٠٠ ـ ١٠٦٨هـ): مفتي الإسلام الحنفي بالبلاد التركيّة وصاحب كتاب الألغاز في فقه الحنفية[١].

* **إسماعيل وهبي بن محمد بن مصطفى القونوي أبو الفداء عصام الدين (١١٩٥هـ)**: رئيس العلماء بتركيا، وهو أوّل من درّس التفسير بحضور السلاطين[٢].

* **عمر بن حسين الآمدي (١٢٠٠هـ)** : نسبة إلى مدينة آمد وهي ديار بكر الواقعة على دجلة شرقيّ الأناضول بتركيا، المعروف ببوزجي زادة، انتهت إليه رئاسة التدريس والفتوى ببلده[٣].

* **عبدالسلام بن عمر بن محمد الماrديني (١٢٠٠هـ ـ ١٢٥٩هـ)**: نسبة إلى مدينة ماردين شرقيّ الأناضول قرب الحدود السورية، مفتي ماردين، وصاحب القيراطية الصغرى والكبيرى في الفرائض والرسائل والحواشي الكثيرة في مختلف العلوم[٤].

وغير هؤلاء كثيرون ممّن لم يشملهم العدّ.

وممّا تجدر الإشارة إليه من خلال تتبّع أعلام الفقه بالمركز التركي أنّ الكثير منهم قد سلكوا مسلك التصوّف ورغبوا فيه واتصّلوا بشيوخه وتربّوا على أقطابه، فكان لهم حظّ من علم التصوّف، ويد في الوعظ والتذكير.

ـ ٩ ـ بلاد الهند:

دخل الإسلام الهند منذ عهود الإسلام الأولى مع التجّار المسلمين العرب، وحين دخل محمد بن القاسم الثقفي بلاد السند ـ منطقة باكستان الغربيّة اليوم ـ الواقعة على شاطىء الهند الغربي الشمالي، فتح الطريق لسيطرة الدولة الأمويّة على مساحة واسعة من الهند.

---

(١) كشف الظنون ٥/٤٧١ ـ ٤٧٢.
(٢) كشف الظنون ٥/١٨٢.
(٣) كشف الظنون ٥/٦٣٧.
(٤) كشف الظنون ٥/٤٦٢.

وبقي الوضع كما هو في عهد الأمويين والعباسيين، واستغلّ بعض الأمراء ضعف الدولة العباسية، فاستقلّوا بحكم هذه البلاد، وبقي الأمر على تلك الحال حتّى أخضع محمود الغزنوي في القرن الرابع الهجري جزءا كبيرا من أرض الهند، ثمّ قامت الدولة الغورية على أنقاض الدولة الغزنوية، وتتابعت حملات الفتح الإسلامي بهذه البلاد حتّى أصبحت الهند بكاملها تخضع لحكم المسلمين الذين اتّخذوا دلهي عاصمة لها.

ولمّا قدمت الدولة التيموريّة أو المغوليّة سنة ٩٣٢هـ بلاد الهند، كان الأمر قد استقرّ وبلغ الحكم الإسلامي أوجه، واتّسع نطاق الدولة فانتظمت الهند كلّها وامتدّت من بكين إلى بولندا، ومن بغداد إلى غابات سيبيريا، وازدهرت فيها الحضارة، وبلغت من المجد والسيادة في أوائل القرن الحادي عشر الهجري إلى الحدّ الذي ظلّ فيه رسول جيمس الأوّل ملك إنجلترا أكثر من سنتين في الهند يحاول مقابلة الإمبراطور «جهانكير» فلم يتمّ له شرف هذه المقابلة، فتوسّل في ضراعة أن يأخذ كتاباً منه يحمله إلى إنكلترا، فردّ عليه الوزير الأوّل قائلا: «إنّ ممّا لا يناسب قدر ملك مغولي مسلم أن يكتب كتاباً إلى سيّد جزيرة صغيرة يسكنها صيّادون بائسون».

ثمّ أخذت الدولة بعد ذلك تضمر وظلّها يتقلّص شيئاً فشيئاً، وبدأ الأمراء يستقلّون بالولايات، وأتيحت الفرص لأمراء السيخ أن يحاربوا الدولة وينتقصوها من أطرافها ويقتطعوا لهم من جسمها الكبير ممالك وولايات، وما زال ذلك الضعف يسري في جسد الدولة، حتّى ذهب سلطانها وضاع نفوذها، ووجد الإنكليز الفرصة مواتية لبسط نفوذهم، ورغم محاولات المقاومة والثورات العاتية التي كانت آخرها سنة ١٢٧٤هـ، فقد استطاع الإنكليز السيطرة على البلاد وضمّها إلى المستعمرات البريطانيّة، ولم يخرجوا منها إلاّ بعد أن قسّموها إلى دولتين: الباكستان والهند.

ومع أنّ الإسلام قد لبث في الهند زهاء سبعة قرون، فإنّ الذي نراه اليوم من اسم الإسلام في هذه البلاد وارتفاع كلمته في بعض أقطارها، لم يكن من صنع ملوك المغول وسلاطين الترك الذين حكموا تلك البلاد باسم

الإسلام، وإنّما كان الفضل فيه يعود إلى العلماء والتجّار الذين دخلوا الهند دعاة مرشدين وخالطوا أهلها ولقّنوهم مبادىء الدين الحقّ، حتّى تأثّر سكّان البلاد بأخلاقهم الزكيّة وسجاياهم العالية[١].

وكان جلّ هؤلاء العلماء الذين وردوا الهند ونشروا فيها العلم من علماء ما وراء النهر الذين كان يعتمدون في فقههم على المذهب الحنفي، فلذلك انتشر هذا المذهب ببلاد الهند وساد أتباعه.

ومن أشهر الذين ذاع صيتهم بتلك الأصقاع نذكر:

* **عبدالحكيم بن شمس الدين محمد السيالكوتي (١٠٦٧هـ)**: البنجابي الهندي الفقيه الحنفي[٢].

* **عليّ أصغر بن عبدالصمد البكري القنوجي (١٠٥١هـ ـ ١١٤٠هـ)**: وهو من أعاظم فقهاء الحنفيّة ببلاد الهند[٣].

* **أحمد بن عبدالرحيم العمري المعروف بشاه وليّ الله الدهلوي (١١١٤هـ ـ ١١٨٠هـ)**: كان والده من وجوه مشائخ دلهي ومن أعيانهم ومن العلماء الممتازين الذين راجعوا الفتاوى الهنديّة المشهورة، وله حظّ وافر من العلوم، فدرس الشيخ وليّ الله على والده علوم زمانه وأتمّها قبل سنّ الخامسة عشرة، وكان قد حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز السابعة من عمره.

اشتغل بالتدريس والتأليف في بيت أبيه، فلمّا كثر طلّابه واشتهر أمره أعطاه السلطان محمد شاه الإشراف على دار العلوم.

---

(١) مقدّمة محقّق كتاب حجّة الله البالغة ص ٦ ـ ١٢، نقلا عن المراجع التالية: «تاريخ الإسلام في الهند للأستاذ عبدالمنعم النمر، والجزء السادس من «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» للشيخ عبدالحيّ بن فخر الدين الحسن، وكتاب «نظرة إجماليّة في تاريخ الدعوة الإسلاميّة في الهند وباكستان» للأستاذ مسعود الندوي.

(٢) كشف الظنون ٥/٤١١.

(٣) كشف الظنون ٥/٦١١.

اهتمّ بدراسة المذاهب الأربعة وأصولها، ونظر في الأحاديث التي يعتمد عليها أصحاب المذاهب في بناء الأحكام، وارتضى منها طريقة الفقهاء المحدّثين، وشرح أصول المذاهب المختلفة وجمعها، وردّ وجوه الاستنباط إلى عشرة، وأسّس قواعد الجمع بين مختلف الأدلّة وبين قوانين الترجيح، كما اهتمّ بعلوم اللغة والعقائد وغيرها من العلوم.

كان صاحب مدرسة عظيمة تركت أثرها في تطوّر الفكر في الهند، حتّى أنّ أولاده وتلاميذه قد ساروا على نهجه وانتسبوا إلى مدرسته.

من مصنّفاته: الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف بين الفقهاء والمجتهدين، حاول فيه التوفيق بين المذاهب فإنّ تعذّر ذلك أخذ بما يوافق الأحاديث الصحيحة ورجّحه على غيره، وله كتاب حجّة الله البالغة في علم أسرار الشريعة سلك فيه منهج تأصيل الأصول وتفريع الفروع وتمهيد المقدّمات والمبادىء واستنتاج المقاصد وله عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، وقد زادت مصنّفاته على الأربعين مؤلّفا في مختلف العلوم كالتفسير والحديث وأصول الدين والأدب وغير ذلك[١].

ومن منن الله ونعمه السابغة على الإمام وليّ الله ـ كما قال الشيخ مسعود الندوي ـ[٢] أن رزقه أنجالا بررة، كلّ منهم طود علم راسخ، أفادوا جمّا غفيرا من أهل الهند، وهؤلاء الأنجال هم:

عبدالعزيز (١١٥٩هـ ـ ١٢٣٩هـ) ورفيع الدين (١١٦٣هـ ـ ١٢٣٣هـ) وعبدالقادر (١٢٣٠هـ) وعبدالغنيّ (١٢٢٧هـ)، وسبطه محمد إسحاق (١٢٦٢هـ) وحفيده إسماعيل الهنيد (١٢٤٦هـ) الذي كان غرّة في جبين الإصلاح الديني في الهند ودرّة في تاج هذا البيت العظيم.

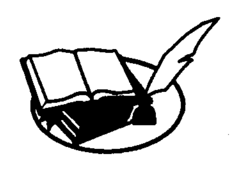
---

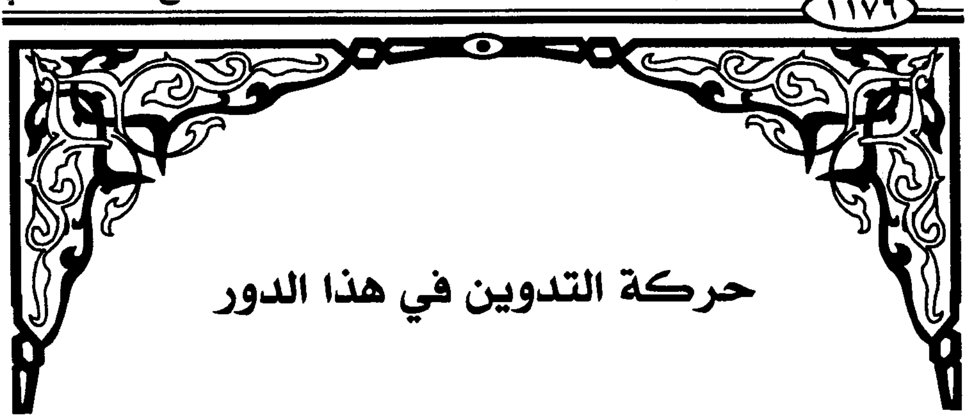
(١) مقدّمة محقّق كتاب حجّة الله البالغة ص ١٢ ـ ١٨، نقلا عن المراجع التي سبق الإشارة إليها، وكشف الظنون ١٤٦/٥، وفهرس الفهارس ٢٠٤/١ ـ ٢٠٥.

(٢) مقدّمة محقّق كتاب حجّة الله البالغة ص ١٩، نقلا عن كتاب «نظرة إجماليّة في تاريخ الدعوة الإسلاميّة في الهند وباكستان» للأستاذ مسعود الندوي.

ويعتبر أكبر الأنجال عبدالعزيز خليفة أبيه ووارث علومه، ولكلّ من هؤلاء مصنّفات سائرة في أنحاء البلاد.

وكذلك نبغ من تلاميذ أبناء الإمام وليّ الله وتلاميذهم من نوّروا أرجاء الهند المظلمة بأنوار الكتاب والسنّة، وأضاؤوا جوانبها بمصابيح العلم والتقى.



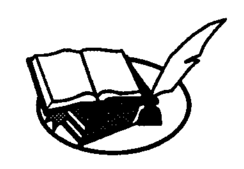


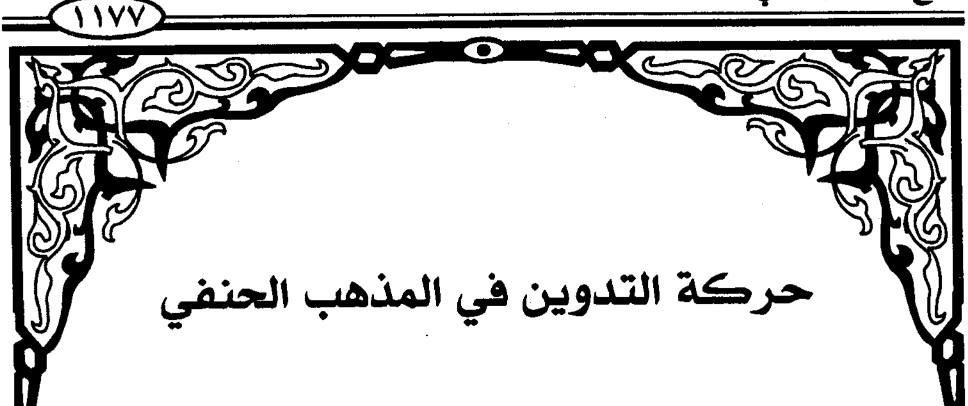
حركة التدوين في هذا الدور

حازت بعض المصنّفات الفقهية في هذا الدور شهرة عظيمة، وانتشرت مشرقا ومغربا، وعكف الفقهاء على دراستها وهجروا ما سواها من كتب المتقدّمين، فكان كلّما وضع علم من أعلام هذا العصر متنا أو مختصراً شمّر من جاء بعده عن ساعد الجدّ واعتنى بشرح ألفاظه وبيان مراميه، وربّما جعلوه نظماً مقتضباً، أو أرجوزة محكمة، وتتبّعوا الروايات المطلقة بالتصحيح، وقيّدوا ما أخلّ به المصنّف من الشروط، وفسّروا ما أبهم فيه من حكم أو لفظ، واستثنوا من عمومه وحملوا على بعض فروعه ما هو مرتبط بها، وزادوا في المسائل تحريرا وتصحيحاً حتى يصير الكتاب محور أكثر الشروح والحواشي والدراسات، ومدار أغلب البحوث والتعليقات والتقييدات.

وكانوا في أعمالهم تلك ربّما يجرّدون تآليفهم من الدليل ويقدّمون الراجح في المذهب بلا تعليل، وربّما يتوسّعون في ذكر المسائل المتّفق عليها والمختلف فيها بين الأئمّة، ويجعلون لأنفسهم اختيارات بعد التحقيق، سالكين بذلك مسالك المجتهدين.

ومن بين تلك المصنّفات التي اتّسمت بهذا المنهج أو ذاك، نذكر:





حركة التدوين في المذهب الحنفي

ـ ١ ـ المختار:

لأبي الفضل مجد الدين عبدالله بن محمود بن مودون الموصلي (٦٨٣هـ) ثمّ شرحه وسمّاه الاختيار، ذكر فيه أنّه جمع في شبابه مختصرا في الفقه سمّاه المختار للفتوى، اقتصر فيه على مذهب الإمام أبي حنيفة واعتمد فيه على فتواه، ولمّا حفظه جماعة من الفقهاء واشتهر وشاع ذكره بينهم وانتشر وتداولته الأيدي، طلب منه بعض أولاد بني أخيه أن يشرحه، فشرحه شرحاً أشار فيه إلى علل المسائل ومعانيها وذكر فروعاً يحتاج إليها ويعتمد في النقل عليها.

اختصره أبو العباس أحمد بن عليّ الدمشقي (٧٨٢هـ) وسمّاه التحرير ثمّ شرحه ولم يكمله، وشرحه أيضاً ابن أبي القاسم القره حصاري الرومي (٧٣٠هـ)، ومحمد بن الياس سمّاه الإيثار لحلّ المختار، وكذلك محمد بن إبراهيم بن أحمد المدعو بالإمام وسمّاه: فيض الغفّار، وللزيلعي شرح عليه أيضاً.

ونظّمه تاج الدين أبو عبدالله عبدالله بن عليّ البخاري (٧٩٩هـ) وشرحه ابن أمير الحاج (٨٧٩هـ) ذكره في شرحه للمنية، وشرحه شيخ الإسلام شمس الدين الشبرسي محمد بن الحسن الشاذلي (٨٤٧هـ) وشرح فرائضه زين الدين أبو محمد عبدالرحمٰن بن أبي بكر العيني (٨٩٣هـ)، وخرّج الشيخ قاسم بن قطلوبغا (٨٧٩هـ) أحاديث الاختيار وله شرح

المختار أيضاً[١].

- ٢ - مجمع البحرين وملتقى النهرين:

لمظفر الدين أحمد بن عليّ بن ثعلب المعروف بابن الساعاتي البغدادي (٦٩٤هـ) جمع فيه مسائل القدوري والمنظومة مع زيادات ورتّبه فأحسن ترتيبه وأبدع في اختصاره، وهو نهاية في الإيجاز وحلّ مسائله صعب لغاية الإعجاز.

ذكر في آخر كلّ كتاب منه ما شذّ عنه من المسائل المتعلّقة بذلك الكتاب، وكان الفراغ من تأليفه سنة ٦٩٠هـ.

شرحه شمس الدين أبو عبدالله محمد بن يوسف بن إلياس القونوي الدمشقي (٧٨٨هـ) في عشرة أجزاء ثمّ لخّصه في ستّة أجزاء وسمّاه درر البحار فجاء متناً مختصراً، ذكر فيه صاحبه أنّه جمع فيه بين مجمع البحرين وبين مذهب أحمد بن حنبل والشافعي ومالك.

وكان الفراغ من تأليفه سنة ٧٤٦هـ، ومدّة تأليفه شهر ونصف تقريباً، وعليه شروح منها: شرح زين الدين عبدالرحمٰن بن أبي بكر العيني (٨٩٣هـ) أحسن فيه وأجاد، وشرح عبدالوهاب بن أحمد الشهير بابن وهبان (٧٦٨هـ) صاحب المنظومة التي ضمّت غرائب المسائل، وهي نظم في أربعمائة بيت سمّاها قيد الشرائد ونظم الفرائد استقاها من ستّة وثلاثين كتاباً، وقد أحال في عدّة أماكن من شرحها المسمّى بعقد القلائد في حلّ قيد الشرائد على شرحه هذا، ولشمس الدين محمد بن محمد بن محمود البخاري شرح سمّاه: غرر الأذكار، ولشهاب الدين أحمد بن محمد بن خضر (٧٨٥هـ) شرح ألّفه في حياة صاحب المتن وسمّاه الغوص لاقتباس نفائس الأسرار المودعة في درر البحار، وشرح زين الدين قاسم بن قطلوبغا (٨٧٩هـ).

(١) كشف الظنون ٢/٥١٣ ـ ٥١٤، الاختيار لتعليل المختار ١/٢.

وشرح المجمع أيضاً بدر الدين محمود بن أحمد العيني (٨٥٥) وسمّاه المستجمع، وهو شرح بالقول حافل، اقتصر فيه صاحبه على ما لا بدّ منه من الحلّ والإيضاح وزاد الإشارة إلى أقوال الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل، ولوّح إلى الأصحّ من أقوالهم، وذكر في آخر الكتاب أنّه صنّفه وعمره ٢٤ سنة، وفرغ منه في شهر رمضان من سنة ٧٨٥هـ.

ومن شروحه قرّة العين بمجمع البحرين لأبي المواهب أحمد بن أبي الروح عيسى بن خلف، من ذريّة الشيخ مرزوق الرشيدي الإمام بجامع السلطان بايزيد، وكان الفراغ من تأليفه سنة ٩٤٤هـ[١].

ـ ٣ ـ وقاية الرواية في مسائل الهداية:

لبرهان الشريعة محمود بن صدر الشريعة الأوّل، عبيدالله المحبوبي، صنّفه لابن بنته صدر الشريعة الثاني والكتاب متن مشهور اعتنى به الفقهاء قراءة وحفظاً وتدريساً.

وأشهر شروحه: الوقاية شرح الإمام صدر الشريعة الثاني عبيدالله بن مسعود المحبوبي (٧٥٠هـ) الذي أتمّه في سنة ٧٤٣هـ، وقد غلب نعته على شرحه حتّى صار اسماً لشرحه، وقد وضعت على هذا الشرح المشهور حواشي كثيرة ذكر منها حاجي خليفة العشرات، أجمعها حاشية المولى بن جنيد المعروف بأخي لبي (٩٠٥هـ) المسمّاة بذخيرة العقبى، بدأ فيها سنة ٨٩١هـ وأتمّها بعد عشر سنوات، وقد كانت هذه الحاشية مقبولة معتمدة عند الحنفيّة في هذا الدور، وحاشية المولى يعقوب باشا بن خضر بيك (٨٩١هـ) أورد فيها دقائق وأسئلة مع الإيجاز في التحرير وأكثر ما ذكره مأخوذ من شروح الهداية والتلويح.

وشرح الوقاية أيضاً الشيخ جنيد بن سندل زين الدين سمّاه توفيق العناية في شرح الوقاية، وشرحه المولى علاء الدين علي بن عمر الأسود

---

(١) كشف الظنون ٥٧١/١ و٤٩٧/٢ ـ ٤٩٨ و٦٩٣/٢.

(٨٠٠هـ) وسمّاه العناية في شرح الوقاية، صنّفه حين كان مدرّسا بمدرسة أزنيق، والكتاب حافل كافل لحلّ مشكلات الوقاية، وأكثر ما فيه مأخوذ من شروح الهداية، وليس للشارح فيه تصرّفات كثيرة، ورغم ذلك فهو كتاب مفيد حاو لمسائل يعتدّ بها، وشرحه كذلك المولى يوسف بن حسين الكرماستي (حدود ٩٠٠هـ) وسمّاه الحماية عند الختم بالهداية ممّن له العناية في البداية والنهاية وأشهر شروحه شرح الإمام صدر الشريعة الثاني عبيدالله بن مسعود المحبوبي (٧٥٠هـ) الذي أتمّه سنة ٧٤٣هـ، وقد غلب نعته على شرحه حتّى صار اسما لشرحه، وعلى هذا الشرح المشهور وضعت حواشي كثيرة ذكر منها حاجي خليفة العشرات، وأجمعها حاشية المولى بن جنيد المعروف بأخي(٩٠٥هـ) المسمّاة بذخيرة العقبى، بدأ فيها سنة ٨٩١هـ وأتمّها بعد عشر سنوات، وقد كانت هذه الحاشية مقبولة معتمدة عند الحنفيّة في هذا الدور[1].

ومن أجلّ مختصرات الوقاية، كتاب النقاية لصدر الشريعة عبيدالله بن مسعود (٧٤٥هـ) حيث أجاد وبالغ في إيجازها، وصنّفت على هذا المختصر شروح كثيرة، منها: شرح تقيّ الدين أبو العباس أحمد بن محمد الشمني (٧٨٢هـ) وسمّاه: كمال الدراية في شرح النقاية، وشرحها زين الدين أبو محمد عبدالرحمٰن بن أبي بكر المعروف بابن العيني (٨٩٣هـ) وعبدالواجد محمد بن محمد المشهدي (٨٣٨هـ) وأهداه إلى السلطان مراد الثاني، وقال: رغبت في جمع مختصر فيه موسوم بالاختيارات يشتمل على المهمّات ويتضمّن كتاب النقاية الذي فيه من المسائل غرائبها، وفرغ منه سنة ٨٠٦هـ، وشرحه علاء الدين علي بن محمد المعروف بمصنفك (٨٧٥هـ) وقاسم بن قطلوبغا (٨٧٩هـ) وعبدالعلي البرجندي (٩٣٢هـ) ومحمود بن إلياس الرومي شرحه شرحاً مفيدا أتمّه في سنة ٨٥١هـ، ولشمس الدين محمد الخراساني ثمّ القهستاني (٩٦٢هـ) نزيل بخارى ومرجع الفتوى بها وبجميع ما وراء النهر شرح قيل هو من أعظم الشروح

(١) كشف الظنون ٢/٨٠٦ ـ ٨١٠.

نفعا وأدقّها إشارة ورمزا، سمّاه جامع الرموز وفرغ من تأليفه سنة ٩٤١هـ، ونقد بأنّه جمع في شرحه هذا بين الغثّ والسمين والصحيح والضعيف من غير تحقيق ولا تصحيح وتدقيق، وأنّه كحاطب ليل جمع بين الرطب واليابس.

ومن شروح النقاية شرح أبي المكارم بن عبدالله بن محمد أتمّه في سنة ٩٠٧هـ، وشرح المولى نور الدين علي بن سلطان محمد القاري الهروي (١٠١٤هـ) سمّاه: فتح باب العناية لشرح كتاب النقاية، قال فيه: أنّه لمّا كان كتاب النقاية من أوجز المتون قصدت أن أكتب عليه شرحاً غير مخلّ مشحونا بالأدلّة من الكتاب والسنّة والإجماع والاختلاف، وفرغ منه سنة ١٠٠٣هـ بمكّة المكرّمة[١].

ـ ٤ ـ كنز الدقائق:

لأبي البركات عبدالله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النسفي (٧١٠هـ) لخّص فيه كتابه الوافي بذكر ما عمّ وقوعه من مسائل الفتاوى والواقعات، واكتفى فيه بالعلامات، فجعل الحاء علامة لأبي حنيفة، والسين لأبي يوسف، والميم لمحمد بن الحسن، والزاي لزفر، والفاء للشافعي، والكاف لمالك، والواو لرواية الأصحاب من الأحناف.

وقد اشتمل هذا المختصر على ما يُحتاج إليه من الواقعات مع لطافة حجمه لاختصار نظمه، ولذلك اعتنى به الفقهاء وتناولوه بالشرح، وأهمّ هذه الشروح:

ـ شرح الإمام فخر الدين الزيلعي (٧٤٣هـ) في كتاب سمّاه: تبيين الحقائق لما فيه ما اكتنز من الدقائق، وهو شرح متوسّط حلّ ألفاظه وعلّل أحكامه وزاد عليه بعض الفروع.

---

(١) كشف الظنون ٢/٧٧٠ ـ ٧٧٢.

- شرح القاضي بدر الدين محمود بن أحمد العيني (٨٥٥هـ) شرحاً مختصرا، سمّاه: رمز الحقائق.

- شرح زين العابدين ابن نجيم (٩٧٠هـ) سمّاه البحر الرائق في شرح كنز الحقائق، وذكر أنّ كتاب كنز الحقائق هو أحسن مختصر صنّف في فقه الأئمّة الحنفيّة، وأنّ شرح الزيلعي هو أحسن شروحه غير أنّه قد أطال من ذكر الخلافيات، فقام ابن نجيم بشرح كنز الدقائق شرحاً أفصح به عن منطوقه ومفهومه، وردّ فروع الفتاوى والشروح إليهما مع تفاريع كثيرة، وذكر المآخذ من الشروح سبعا وعشرين، ومن الفتاوى إحدى وعشرين، وعرّف الفقه في أوّله تعريفاً شافياً.

- شرح سراج الدين عمر بن نجيم (١٠٠٥هـ) سمّاه: النهر الفائق بشرح كنز الدقائق، ذكر فيه أنّ كتاب كنز الدقائق قد جمع غرر فنّ الفقه وقواعده، فشرحه وأودع فيه حقائق لباب آراء المتقدّمين وفوائد أفكار المتأخّرين، قال: «لا سيّما شيخنا الأخ زين الدين ختام المتأخّرين»(١).

- ٥ و٦ - جامع الفصولين ولطائف الإشارات:

كلاهما لبدر الدين محمود الشهير بابن قاضي سماونة (٨٢٣) فأمّا جامع الفصولين فقد شرع في تأليفه في جمادى الأولى سنة ٨١٣هـ وختمه في صفر من سنة ٨١٤هـ.

وقد كان هذا الكتاب مشهوراً متداولاً في أيدي الحكّام والمفتين من المذهب الحنفي لكونه في المعاملات خاصّة والدعاوي والقضاء.

جمع فيه صاحبه بين كتابين، الأوّل: فصول العمادي لجمال الدين بن عماد الدين، الذي جعله في أربعين فصلاً في المعاملات فقط،

(١) كشف الظنون ٢/٤٣٤ - ٤٣٥ و٢/٧٨٩، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ١/٢، البحر الرائق شرح كنز الدقائق ١/٢.

والثاني: فصول الأسروشني لمجد الدين أبي الفتح محمد بن محمود بن حسين، الذي جعله في ثلاثين فصلا.

وذكر صاحب الفصولين أنّه جمع بين الكتابين ولم يترك شيئاً من مسائلهما إلاّ ما تكرّر منها، واستغنى عن فرائض العمادي بفرائض سراج الدين السجاوندي، وأوجز العبارة وجمع ما تيسّر له من مصادر الفقه الحنفي الأخرى كالخلاصة والكافي ولطائف الإشارات وغيرها، وأثبت ما سنح له من النكت والفوائد، وله فيه أسئلة واعتراضات على الفقهاء أجاب عنها يحيى الفقيه صاحب مشتمل الأحكام في أوّل تأليفه المسمّى بفرائد اللآلي.

وأجاب عنها أيضاً الشيخ سليمان بن علي القرماني (٩٢٤هـ) وعدّة الأجوبة ٣٨٠ جوابا، وكذلك الفقيه زين الدين بن نجيم في تعليقته عليه.

وقد قام المولى محمد بن أحمد المعروف بنشانجي زادة (١٠٣١هـ) بترتيب مسائل جامع الفصولين وتصرّف فيه بالزيادة والنقص والإبرام والنقض وسمّاه: نور العين في إصلاح جامع الفصولين، وذكر أنّه لمّا ابتلي بالقضاء وجده أنفع الكتب وأجمعها لمسائل الدعاوي، غير أنّه اشتمل على التكرار والإطناب فقام بتهذيبه، وغيّر ترتيبه، وزاد في أكثر المواضع مسائل، وأجاب بما لاح له عن اعتراضاته على السلف.

وأمّا لطائف الإشارات فله عليه شرح سمّاه التسهيل، وهو كتاب يغني عن أكثر ما في المطوّلات، جمع فيه الأصول والفروع بأوجز العبارات ضمن قواعد تدلّ على الخلافيات، ورتّبه كترتيب مجمع البحرين.

أورد فيه جميع مسائل المجمع والمختار وكنز الدقائق والوقاية، وفي أثناء كلّ فصل أورد المسائل التي لم تذكر في تلك الكتب، وكان قد ألّف هذا الكتاب حين كان محبوسا ببلدة أزنيق[١].

---

(١) كشف الظنون ١/٤٤٧ ـ ٤٤٨ و٢/٢٣٠، ٢٣٣، ٢٤٧، ٢٥١، ٤٦١.

ـ ٧ ـ البزازيّة في الفتاوى:

لحافظ الدين محمد بن محمد بن شهاب المعروف بابن البزاز الكردري (٨٢٧هـ) سمّاها الجامع الوجيز وهو مختصر جامع في بيان تفريعات الأحكام على وجه الإحكام، لخّص فيه زبدة مسائل الفتاوى والواقعات من الكتب المختلفة، ورجّح ما ساعده الدليل وذكر أئمّة المذهب أنّ عليه التعويل، وكان الفراغ من جمعه وتأليفه سنة ٨١٢هـ.

وذكر فيه صاحبه نوازل الأيّام ومختارات المشائخ الكرام على رأي أبي حنيفة النعمان وأصحابه الكرام، ليكون عونا لمن تصدّى للإفتاء.

قيل لأبي السعود المفتي، لم لم تجمع المسائل المهمّة ولم تؤلّف فيها كتاباً؟ فقال: أستحي من صاحب البزازية مع وجود كتابه لأنّه مجموعة شريفة جامعة للمهمّات كما ينبغي.

اختصره سراج الدين بن طبيب الصونيجه سنة ٨٩٣هـ، ولبعض الفقهاء منتخب من البزازية سمّاه الخلاصة[١].

ـ ٨ ـ غرر الأحكام:

وهو متن مختصر لمنلا خسرو (٨٨٥هـ) شرحه وسمّاه درر الحكّام، ومن الحواشي المشهورة عليه: حاشية المولى محمد بن مصطفى الواني الشهير بوانقولي (١٠٠٠هـ) سمّاه: نقد الدرر، فرغ من تأليفه في شهر محرم من سنة ٩٩٥هـ، ثمّ حاشية المولى حالتي مصطفى الشهير بعزمي زادة (١٠٤٠هـ).

ولإسماعيل بن عبدالغني بن إسماعيل النابلسي الأصل الدمشقي (١٠٦٢هـ) شرح الدرر المسمّى بالأحكام، وصفه الأميني في خلاصة الأثر بأنّه كتاب جليل المقدار مشتمل على حلّ فروع المذهب.

ولنوح بن مصطفى الرومي (١٠٧٠هـ) حواشي على الدرر سمّاها:

---

(١) الفتاوى البزازيّة بهامش الفتاوى الهنديّة ٢/٤، كشف الظنون ١/٢٣٥.

نتائج النظر، وللشيخ عليّ البصير الحموي (١٠٩٠هـ) مفتي طرابلس الشام نظم كتاب الغرر في ألفي بيت، ترجمها سليمان بن وليّ الأنقروي إلى التركيّة في عهد السلطان محمد بن مراد خان.

ومن الحواشي على الدرر حاشية أبي الإخلاص حسن بن عمّار بن عليّ الوفائي الشرنبلالي (١٠٦٩هـ) التي اشتهرت في حياته وانتفع الناس بها حين كان مدرّسا بالجامع الأزهر[1].

ـ ٩ ـ ملتقى الأبحر:

لإبراهيم بن محمد الحلبي (٩٥٦هـ) جعله مشتملا على مسائل القدوري والمختار وكنز الدقائق والوقاية بعبارة سهلة، وأضاف إليه بعض ما يحتاج إليه من مسائل مجمع البحرين ونبذة من الهداية، وقدّم من أقوالهم ما هو الأرجح وأخّر غيره، واجتهد في التنبيه على الأصحّ والأقوى وفي عدم ترك شيء من مسائل الكتب الأربعة، ولهذا بلغ صيته في الآفاق ووقع على قبوله بين الحنفيّة الاتّفاق.

شرحه تلميذه الحاج علي الحلبي (٩٦٧هـ) أورد فيه الاعتراض والجروح على شروح المتون الأربعة، كما شرحه محمد بن محمد المعروف بابن البهنسي (٩٨٧هـ) أحد مشائخ دمشق، ووصل فيه كتاب البيع، ثمّ شرحه نور الدين علي الباقلاني القادري، تلميذ البهنسي، بدأ في شرحه سنة ٩٩٠هـ وفرغ منه سنة ٩٩٥هـ، وذكر فيه أنّ ملتقى الأبحر أجلّ متون المذهب وأجمعها وأتمّها فائدة وأنفعها، فلذلك تصدّى لشرحه، وجمع فيه من كتب المذهب كالهداية وشروحها وغير ذلك وسمّاه مجرى الأنهر على ملتقى الأبحر.

ومن شروحه أيضاً نذكر: شرح شاه محمد بن أحمد بن أبي السعود الصديقي المسمّى بمنتهى الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ألّفه سنة ١٠٥٢هـ،

(١) كشف الظنون ٢/١٩٦ ـ ١٩٧.

وشرح قاضي القضاة بالعساكر الروميّة عبدالرحمٰن بن محمد بن سليمان المدعو بشيخ زادة (١٠٧٨هـ) المسمّى بمجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، وكان قد فرغم من تأليفه سنة ١٠٧٧هـ، وشرح محمد بن عليّ بن محمد بن عليّ المعروف بعلاء الدين الحصكفي (١٠٨٨هـ) المسمّى بالدرّ المنتقى في شرح الملتقى، وشرح الشيخ عبدالباقي بن أحمد الشهير بظريفي المسمّى بنور التقى في شرح الملتقى، أتمّه سنة ١١٠٨هـ.

وشرح مناسكه الشيخ محمد صالح المعروف بقاضي زادة المدني (١٠٧٨هـ) كما شرح فرائضه الشيخ علاء الدين عليّ بن محمد الطرابلسي (١٠٣٢هـ) وسمّاه سكب الأنهر على فرائض ملتقى الأبحر.

وغير ذلك من الشروح[١].

ـ ١٠ ـ شروح الهداية:

كما وقع الاعتناء في هذا الدور بكتاب الهداية ـ من المؤلفات التي أسهمت في إذكاء الحركة الفقهيّة في الدور السابق ـ لشيخ الإسلام الحنفي برهان الدين عليّ المرغيناني (٥٩٣هـ) فشرحه قوام الدين محمد بن محمد البخاري الكاكي (٧٤٩هـ) وسمّاه معراج الدراية إلى شرح الهداية، فرغ من تأليفه في سنة ٧٤٥هـ، ذكر فيه أنّه أراد بعد فقدان كتبه أن يجمع الفرائد من فوائد المشائخ والشارحين ليكون ذلك المجموع كالشرح، وبيّن فيه أقوال الأئمّة الأربعة من الصحيح والأصحّ والمختار والجديد والقديم ووجه تمسّكهم.

ومن شروح الهداية أيضاً شرح تاج الشريعة عمر بن صدر الشريعة الأوّل عبيدالله المحبوني (٦٧٢هـ) المسمّى بنهاية الكفاية في دراية الهداية، أتمّ تحريره في سنة ٦٧٣هـ.

ومن شروحه: شرح ابن عبدالحقّ إبراهيم بن عليّ الدمشقي (٧٤٤هـ)

---

(١) كشف الظنون ٢/٦٥٥ ـ ٦٥٦.

ضمّنه الآثار والحديث ومذاهب السلف، وشرح قوام الدين أمير كاتب بن أمير عمر الأتقاني (٧٨٥هـ) المسمّى بغاية البيان ونادرة الأقران، قام فيه بحلّ مشكلات الهداية لفظا ومعنى، وافتتح تأليفه سنة ٧١١هـ، وأكمله سنة ٧٤٧هـ، فكان مدّة شرحه ستّا وعشرين سنة.

وشرح الهداية أيضاً: كمال الدين ابن الهمام (٨٦١هـ) وسمّاه فتح القدير للعاجز الفقير ابتدأه سنة ٨٢٩هـ عند الشروع في إقرائه بعد قراءته تسع عشرة سنة على وجه الإتقان والتحقيق على الشيخ سراج الكتاني المعروف بقارىء الهداية (٨٢٩هـ) صاحب تعليقة على الهداية، ثمّ أكمله المولى شمس الدين أحمد المعروف بقاضي زادة (٩٨٨هـ) إلى آخر الكتاب وسمّاه نتائج الأفكار في كشف الرموز والأسرار.

وشرح الهداية كذلك الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي (٧٨٦هـ) في كتاب سمّاه العناية، احتوى على أكثر من ثلاثة آلاف مسألة، ذكر فيه كتاب النهاية وصعوبة استحضاره في الدرس لما فيه من الإطناب، فقام باختصاره على ما يحتاج إليه حلّ ألفاظ الهداية، وجمع فيه بين عيون الرواية ومتون الدراية تاركا للزوائد في كلّ باب ومعرضا عن هذا النوع من الإسهاب، واجتهد في تنقيحه وتهذيبه.

وعلى العناية تعليقة لسعد الله بن عيسى المفتي (٩٤٥هـ) سلك في تحرير أكثر مباحثها مسلك الإيجاز فأعجز الناظرين، غير أنّ المنيّة حالت دون إتمامها، فقام تلميذه المولى عبدالرحمٰن حين صار قاضيا بقسطنطينيّة بجمع هوامش الأصل ـ وهو كتاب الهداية ـ والشرح ـ وهو كتاب العناية ـ اللذين صرف أكثر عمره في تحشيتهما بحيث صارا نتيجة عمره، فجمع ما نثره شيخه آداء لحقّه من هوامش الهداية.

وخرّج الشيخ جمال الدين الزيلعي (٧٦٢هـ) أحاديثه وسمّاه نصب الراية لأحاديث الهداية، ولخّصه ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) وسمّاه الدراية في منتخب تخريج أحاديث الهداية، وذكر فيه أنّ الزيلعي استوعب

ما كره من الأحاديث والآثار، ثمّ اعتمد ذكر أدلّة المخالفين في كلّ باب، فكان كثير الإنصاف حتّى كثر الإقبال عليه.

ورتّب المولى كمال الدين محمد بن أحمد الشهير بطاش كبرى زادة الرومي (١٠٣٠هـ) مسائل الهداية وسمّاه عدّة أصحاب البداية والنهاية في تجريد مسائل الهداية، ذكر فيه أنّ كتاب الهداية أعظم ما صنّف في الفقه غير أنّ كثيراً من مسائله المهمّة مذكورة ضمن الدلائل بالتنظير والقياس، فصارت بسبب عدم إيرادها في مواضعها مظنّة الاشتباه، فقام بجمع جميع ما في كتاب الهداية من المسائل وجرّدها عن الدلائل إلاّ في بعض المواضع النادرة، مع الإشارة إلى المواضع التي ذكرها صاحب الهداية، وأورد نبذاً يسيرة من الشروح المحتاج إليها، وكان الفراغ من إتمامه في سنة ١٠٢٤هـ.

ومن التعليقات على شرح الهداية لابن كمال، ترغيب اللبيب وهي تعليقة قال فيها مصنّفها: «أردت أن أشرح كتاب الهداية فشرعت وجمعت أكثر شروحها وميّزت بينها وأشرت إلى ردّ ما وقع في شروح ذلك الكتاب، وبيّنت فيه وجوه الاختلال إلاّ أنّي قد شاهدت فيه التطويل والإطناب بسبب انضمام الكلام المتعلّق بشرح العلامة ابن الكمال، فأخرجت منه الاعتراضات المتعلّقة بشرحه مع الأجوبة الدافعة لجرحه، فصار المجموع حاشية مستقلّة وسمّيتها ترغيب اللبيب» وسعى فيها إلى تخليص شروح الهداية عن جروح العلامة ابن الكمال، فكشف مشكلات كلامه وحلّ مغلقات مرامه.

وغير ذلك من شروح وحواشي وتعليقات أهل التحقيق[1].

ـ ١١ ـ تنوير الأبصار وجامع البحار.

لشمس الدين محمد بن عبدالله بن أحمد بن تمرتاش الغزّي

(١) كشف الظنون ٢/٨١٦ ـ ٨٢٣.

(١٠٠٤هـ) جمع فيه مسائل المتون المعتمدة في المذهب الحنفي، عونا لمن ابتلي بالقضاء والفتوى.

فرغ من تأليفه في شهر محرّم من سنة ٩٩٥هـ، ثمّ شرحه المصنّف في كتاب سمّاه: منح الغفّار، ومن شروحه كذلك، شرح الشيخ علاء الدين الحصكفي (١٠٨٨هـ) في كتاب سمّاه: الدرّ المختار في شرح تنوير الأبصار، وهذا الشرح ـ كما وصفه ابن عابدين ـ : قد طار في الأقطار وسار في الأمصار وفاق في الاشتهار على الشمس في رابعة النهار حتّى أكبّ الناس عليه وصار مفزعهم إليه، وقد حوى من الفروع المنقّحة والمسائل المصحّحة ما لم يحوه غيره من كبار الأسفار، بيد أنّه لصغر حجمه ووفور عمله قد بلغ في الإيجاز إلى حدّ الإلغاز[1].

ووضعت على هذا الشرح حواشي أشهرها حاشية العلامة محمد أمين المعروف بابن عابدين سمّاها: ردّ المحتار على الدرّ المختار شرح تنوير الأبصار، التي أصبحت عمدة المذهب الحنفي، وأعظم مؤلفات ابن عابدين نفعا وأكثرها شهرة.

وفيما يلي لمحة عن هذا الكتاب:

ـ ١٢ ـ ردّ المحتار على الدرّ المختار.

لمحمد أمين المشهور بابن عابدين (١٢٥٢هـ) واشتهر الكتاب بحاشية ابن عابدين، والكتاب مرجع القضاة والحكّام، والفقهاء الأعلام والمفتين الكرام.

عمل ابن عابدين فيه على جمع الفوائد من متفرّقات الحواشي، وضمّ إليها ما حرّره العلامة الحلبيّ والعلامة الطحطاوي وغيرهما من محشّي هذا الكتاب.

والتزم فيما يقع في الشرح من المسائل والضوابط مراجعة أصله

(١) كشف الظنون ١/٤٠٤، حاشية ابن عابدين ١/٢.

المنقول عنه وغيره خوفاً من إسقاط بعض القيود والشروط، وزاد كثيراً من الفروع المهمّة والفوائد الجمّة، ومن الوقائع والحوادث على اختلاف البواعث والأبحاث الرائقة والنكت الفائقة.

وكشف المسائل المشكلة وبيّن الوقائع المعضلة ودفع الإيرادات الواهية من أصحاب الحواشي، وانتصر للشارح المحقّق علاء الدين الحصكفي بالحقّ.

وكان يعزو كلّ فرع إلى أصله ويعود بالحجج والدلائل وتعليلات المسائل إلى محالّها، وبذل الجهد في بيان ما هو الأقوى وما عليه الفتوى، وبيان الراجح من المرجوح ممّا أطلق في الفتاوى أو الشروح معتمدا في ذلك ما حرّره الأئمّة الأعلام من متأخّري الحنفيّة كابن الهمام وتلميذيه قاسم بن قطلوبغا وابن أمير الحاج والمصنّف والرملي وابن نجيم وابن الشلبيّ وغيرهم ممّن لازم علم الفتوى من أهل التقوى[١].

ـ ١٣ ـ الفتاوى الهنديّة:

ويعرف هذا التصنيف أيضاً بالفتاوى العالمكرية، نسبة إلى سلطان الهند أبي المظفر محيي الدين محمد أورنك زيب (١١١٩هـ) الملقب باسم عالمكير ـ أي فاتح الهند ـ الذي كلّف ثلّة من أعلام عصره برئاسة العلامة الشيخ نظام، بجمع الأحكام الشرعية التي تدور عليها أمور الرعيّة في كتاب واحد، حيث رأى أنّ الكتب في هذا المجال كثيرة جدًّا، فقام الرجال الذين اختارهم السلطان بجمع الفتاوى وتنقيحها له وتحريرها وترتيبها.

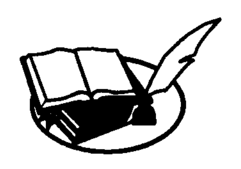
فجاء الكتاب عارياً عن الإطناب والإملال حاوياً لمعظم الروايات الصحيحة التي اتّفق عليها وأفتى بها فقهاء المذهب، جامعاً من النوادر ما تلقّتها العلماء بالقبول، كيلا يفوت الاحتياط في العمل والاجتناب عن الزلل، يميّز الضعيف من المتين.

---

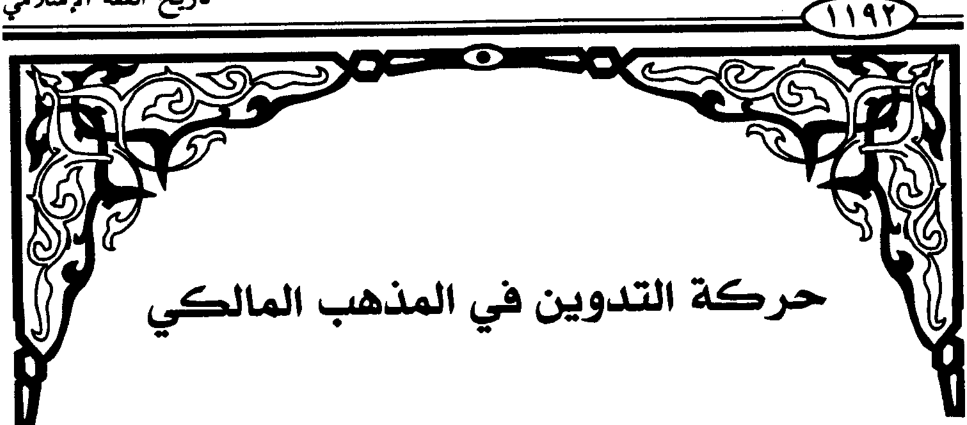
(١) حاشية ابن عابدين ١/٢ ـ ٣.

وقد اختار جامعوه في ترتيب كتبه ترتيب الهداية، وسلكوا في توضيحه وتنقيحه أقصى النهاية، تاركين لما تكرّر في الكتب من الروايات والزوائد، معرضين عن الدلائل والشواهد إلاّ دليل مسألة يوضّحها أو يتضمّن مسألة أخرى.

وقد اقتصروا في الأكثر على ظاهر الروايات ولم يلتفتوا إلاّ نادرا إلى النوادر والدرايات، حين لم يجدوا جواب المسألة في ظاهر الروايات، ونقلوا كلّ رواية من المعتبرات بعبارتها، ولم يغيّروا العبارة عن وجهها إلاّ لداعي ضرورة، وإذا وجدوا في المسألة جوابين مختلفين، كلّ منهما موسوم بعلامة الفتوى وسمة الرجحان، أو لم يكن واحد منهما معلّما بما يعلم به قوّة الدليل والبرهان، أثبتوهما في هذا الكتاب[1].



(١) الفتاوى الهنديّة وبهامشه فتاوى قاضيخان والفتاوى البزازيّة ٢/١ ـ ٣، و٤٧٩/٦.



حركة التدوين في المذهب المالكي

- ١ - الذخيرة:

لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (٦٨٤هـ)، وكتابه الذخيرة مبتكر في الفقه المالكي فروعه وأصوله، وهو من أهمّ المصنّفات في الفقه المالكي خلال القرن السابع الهجري، وآخر الأمّهات في هذا العلم، ومن أجلّ كتب المالكيّة كما صرّح بذلك ابن فرحون والشيخ مخلوف.

اعتمد القرافي في الذخيرة على نحو أربعين من تصانيف المذهب المالكي، وخصّ خمسة منها كمصادر أساسيّة يرجع إليها دائما ويقارن بينها، وهي: مدوّنة سحنون، ورسالة ابن أبي زيد، والتفريع لابن الجلّاب، والتلقين للقاضي عبدالوهاب، والجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة لابن شاس.

تميّزت الذخيرة بدقّة التعبير وسعة الأفق وجودة التقسيم والتبويب، الأمر الذي يضفي عليها طابع الجدّة والحداثة حتّى لكأنّها كتبت في عصرنا الحاضر بقلم أحد أعلام الفقه والقانون.

وضع المصنّف مصطلحات دقيقة ورموزا واضحة اختصر بها أسماء الأعلام والكتب التي يكثر ذكرها في الذخيرة تقليلا للحجم، وجعل ضمن أبواب الكتاب وفصوله ومباحثه عناوين فرعيّة تضبط المعلومات الإضافيّة وتبرزها، مثل: تمهيد وتفريع وتنقيح وتحرير وتذييل وقاعدة وفائدة وغير ذلك.

ومن ميزات هذا الكتاب عناية مؤلّفه بإبراز مسائل أصول الفقه المالكي وتتبّعها في مختلف الأبواب، وصرّح بذلك في المقدّمة، حين قال: وبيّنت مذهب مالك رضي الله عنه في أصول الفقه ليظهر علوّ شرفه في اختياره في الأصول، كما ظهر في الفروع، ويطّلع الفقيه على موافقته لأصله أو مخالفته له لمعارض أرجح منه فيطلبه حتّى يطّلع على مدركه ويمنع المخالفين في المناظرات على أصله.

وفي الكتاب دعوة صريحة إلى الاجتهاد ونبذ التقليد الأعمى في الأحكام الفقهيّة، وتظهر هذه الدعوة بوضوح في المقدّمة الثانية للكتاب التي جعلها المؤلف في أصول الفقه وقواعد الشرع وخصّ البابين التاسع عشر والعشرين منها للاجتهاد وصرّح في أثناء ذلك بأنّ مذهب مالك وجمهور العلماء رضي الله عنهم هو وجوب الاجتهاد وإبطال التقليد.

كما أنّ المؤلّف لا يكاد يأتي بمسألة فقهيّة في أبواب الكتاب من العبادات كانت أو المعاملات إلاّ أبان أصل حكمها وحجج المختلفين فيها من الأئمّة والفقهاء مبرزا أدلّة المالكيّة على وجه الخصوص بعد عبارة: «لنا» دون أن ينقل أدلّة المخالفين سيرا مع المنهج الذي كان قد قرّره في المقدّمة، حين قال: «وقد آثرت التنبيه على مذهب المخالفين لنا من الأئمّة الثلاثة ومآخذهم في كثير من المسائل تكميلا للفائدة ومزيدا من الاطّلاع، فإنّ الحقّ ليس محصورا في جهة، فيعلم الفقيه أيّ المذهبين أقرب للتقوى وأعلق بالسبب الأقوى».

وتكرّرت في الذخيرة عبارات: «ليكون الفقيه على بصيرة» و«ليستدلّ الفقيه» ونحو ذلك تحفيزاً للهمم على الاجتهاد والابتعاد عن أخذ المسائل أحكاما مسلّمة[١].

---

(١) مقدّمة محقّق الذخيرة ص ٥ ـ ٨، دار الغرب، ط ١٩٩٤/١، كشف الظنون ٦٢٣/١، الديباج المذهب ص ١٢٩، شجرة النور الزكية ص ١٨٨.

ـ ٢ ـ مختصر خليل:

لأبي الضياء خليل بن إسحاق الكردي المصري المعروف بالجندي (٧٧٦هـ) صنّفه في المذهب المالكي وقصد فيه إلى بيان المشهور واقتصر على ما به الفتوى من الأقوال مجرّدا عن الخلاف، وجمع فيه فروعا كثيرة جدّا مع الإيجاز البليغ، وأقبل عليه الطلبة ودرسوه.

وذكر التنبكتي أنّ الشيخ خليل إنّما لخّص من مختصره في حياته إلى باب النكاح ـ في حدود ثلث الكتاب ـ ووجد باقيه في تركته فجمعه أصحابه من مسودّته وأضافوه إلى ما كان قد لخّصه خليل في حياته، ومع ذلك فقد ذكر بعضهم أنّ خليلا بقي في تصنيف مختصره خمسا وعشرين سنة.

لقي هذا المختصر القبول، فعكف الناس عليه شرقا وغربا، حتّى آل حال أتباع المالكية في البلاد المغاربية بعد ذلك إلى الاقتصار عليه، فقلّ أن ترى فقيهاً يعتني بمختصر ابن الحاجب فضلاً عن المدوّنة، وإنّما قصاراهم رسالة ابن أبي زيد ومختصر خليل.

وأذعن علماء المغرب لفضله وجلالته حتّى أنّ الفقيه ابن ناجي في شرح التهذيب ساق في غير موضع كلام الشيخ خليل على طريق الاستدلال على ما صدرت المخالفة فيه بينه وبين مشائخه، حيث قال في بعض المواطن: «ولم يزل يختلف حتّى ورد علينا تأليف خليل».

وولع العلماء به واعتمده كلّ فقهاء هذا الدور، وعكفوا على الاعتناء به كتابة وقراءة وتحصيلا وتدريسا، حتّى قال في شأنه بدر الدين القرافي: «ولقد عمّ النفع بهذا المختصر إجابة لما سأل الله فيه بقوله في ديباجته والله أسأل أن ينفع به من كتبه أو قرأه أو حصّله أو سعى في شيء منه، وقد كتبته بخطّي وقرأته واتخذته وظيفة عمري».

وافتتن به الطلبة والفقهاء على حدّ سواء لكثرة ما فيه من الفروع التي لا تكاد توجد في غيره، حتّى حكي عن الشيخ ناصر الدين اللقاني أنّه كان كلّما عورض بكلام غير الشيخ خليل، قال: «نحن ناس خليليون إن ضلّ

ضللنا» مبالغة منه في الحرص على متابعته لكمال الاعتقاد في فضله وتحريره.

ومدح ابن غازي المختصر فقال: إنّه من أفضل نفائس الأعلاق وأحقّ ما رمق بالأحداق وصرفت له همم الحذّاق، عظيم الجدوى بليغ الفحوى مبيّن لما به الفتوى، جمع مع الاختصار شدّة الضبط والتهذيب، وأظهر الاقتدار على حسن المساق والترتيب، فما نعلم أحد نسج على منواله ولا سمحت قريحة بمثاله.

ولذلك تعدّدت الشروح والتعاليق على مختصر خليل، وبلغت الغاية في الكثرة، حتّى وضع عليه ـ كما قال ابن غازي ـ أكثر من ستّين تعليقاً ما بين شرح وحاشية، وهذا في عصرابن غازي فضلاً عمّن جاؤوا بعده.

وتنافست المراكز الفقهيّة في الاعتناء بهذا المختصر، فكان من أشهر شرّاحه: تلميذه بهرام الذي شرح المختصر شروحاً ثلاثة صار بها غالب المختصر في غاية البيان والوضوح، واشتهر الأوسط منها غاية الاشتهار، واشتغل الناس به في جميع الأقطار مع أنّ الشرح الأصغر أكثر تحقيقا، وهو أجلّ من تكلّم على مختصر خليل علماً وديناً وتأدّباً وتفنّناً، مستحضراً المدوّنة وشراحها.

وشرحه كذلك قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أحمد البساطي في كتاب سمّاه شفاء العليل في شرح مختصر الشيخ خليل، أكثر فيه من الأبحاث والمناقشة في عبارة المصنّف، كما شرحه السنهوري، وللتتائي شرحان على مختصر خليل، شرح كبير بعنوان فتح الجليل في حلّ جواهر درر ألفاظ الشيخ خليل، وصغير بعنوان جواهر الدرر في حلّ ألفاظ المختصر، على أنّ شرحه الكبير فيه مواضع كثيرة جدّا حصل له فيها الوهم نقلاً وتقريراً وبحثاً.

كما شرحه الحطاب وعليّ الأجهوري وتلاميذه عبدالباقي الزرقاني وشرحه يدلّ على فضل واطّلاع، تشدّ إليه الرحال، لخّص ما قبله من الشروح وبالغ في الاختصار، وجمع الفروع ولم ينقحه من كثير من

الأخطاء فاعتنى به المغاربة وتتبّعوه، ومحمد الخرشي له شرح كبير على مختصر خليل، وآخر صغير رزق فيه القبول، واعتنى العلماء غربا وشرقا بالتحشية عليه كحاشية الصعيدي العدوي.

وعلى شرح الزرقاني وضعت حواشي كثيرة اعتنت بتصحيح ما وقع فيه الشارح من أخطاء، فوضع البناني حاشية على مختصر خليل سمّاها: الفتح الرباني فيما ذهل عنه الزرقاني، ووضع التاودي حاشية على شرح الزرقاني على المختصر، سمّاها طالع الأماني، وكذلك الرهوني وضع حاشية على شرح الزرقاني على المختصر، لخّص فيها ما زادته حاشية التاودي على البناني، دلّت على طول باع وسعة اطّلاع وتمكّن في علم الفقه.

وصنّف الدردير - المعروف بمالك الصغير - على المختصر شرحان كبير وصغير، وسمّى الشرح الصغير: أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، اقتصر فيه صاحبه عند الاختلاف في حكم على القول الراجح داخل المذهب، ولم يذكر قولين إلاّ في القليل من المواضع حيث لم يظهر له ترجيح لأحدهما، وبدّل الأقوال غير المعتمدة في مختصر خليل بأقوال معتمدة.

ووضع الدسوقي على الشرح الكبير حاشية، رزق فيها القبول لوضوح عباراتها، كما وضع الصاوي على الشرح الصغير حاشية سمّاها: بلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، وقد صرّح الشيخ الصاوي أنّ كتاب أقرب المسالك هو أحسن ما ألّف في مذهب مالك من المختصرات متنا وشرحاً.

وممّن شرح المختصر من أهل فاس الشيخ ميارة قصد به اختصار شرح الحطّاب، وكذلك ابن غازي وابن عاشر وقد التزم فيه نقل لفظ ابن الحاجب والتوضيح للمصنّف، ابتدأه من باب النكاح إلى باب السلم، وابن رحال الذي وضع شرحاً حافلا على مختصر خليل ابتدأه من النكاح، وكاد

أن يحتوي على جميع نصوص المذهب وغيرهم، ومن أهل تلمسان ابن مرزوق ومن أهل الأندلس المواق[١].

ـ ٣ ـ مختصر ابن عرفة:

لمحمد بن محمد بن عرفة الورغمي (٨٠٣هـ) وهو مختصر محرّر النقول، شغل دوراً مهمًّا بعد ظهوره، ألّفه صاحبه في اثني عشر عاماً ـ ما بين ٧٧٢هـ و٧٨٦هـ ـ ودرّسه بنفسه في بلده وفي المشرق حين حجّ.

قال في شأنه الأبّي ما وضع في الإسلام مثله لضبطه فيه المذهب مع الزيادة المكمّلة وتنبيهه على المواضع المشكلة، وتعريف الحقائق الشرعية.

جمع ابن عرفة في مختصره الكثير من النوازل والفروع الغريبة، وضبط فيه مسائل وأقوالاً مع زوائد مكمّلة والتنبيه على مواضع مشكلة، فبعث الأنظار المهجورة والأقوال المتروكة منذ القرن السادس، ووضعها مع الأقوال المصطلح بين الفقهاء على الأخذ بها: ترجيحاً واختياراً، على بساط واحد من النقد والتحقيق والمقارنة والاستدلال والكشف عمّا ارتبطت به تلك الأقوال من اعتبارات باقية أو زائلة، وما ارتبط به اختيارها من اعتبار لظروف واقعية أو إعمال لأصول نظريّة قد يكون وجه ذلك الاختيار قائماً ومقبولاً، وقد يكون زائلاً ومحلّ نظر، وذلك معنى تحقيق المناط.

وكان عمله في هذا المختصر الفقهي الذي اهتمّ فيه على الخصوص بما سمّاه «تعريف ماهيات الحقائق الفقهيّة الكليّة» قد قصد به إلى ضبط المعاني الفقهيّة الفرعيّة بذاتها، بوضع حدود لأبواب العبادات وضروب المعاملات والعقود بطريقة التحديد المنطقي الجامع المانع، والتزم ذلك بصورة مطّردة في كلّ باب من أبواب الفقه التي اشتمل عليها مختصره.

---

(١) الديباج المذهب ص ١٨٦، توشيح الديباج ص ٩٤ ـ ٩٧، نيل الابتهاج ١٨٥/١ ـ ١٨٧، الفكر السامي ٢٨٦/٤ ـ ٢٨٧، كشف الظنون ٥١٨/٢، مواهب الجليل ٣/١، دار الفكر ط ١٣٩٨/٢هـ.

ولم تكن التعاريف التي تضمّنها هذا المختصر كلّها من وضع ابن عرفة، بل كان بعضها ممّا ارتضاه من تعاريف فقهاء المذهب السابقين له مثل: أبي الوليد الباجي وابن رشد والقاضي عياض.

وكان كلّما ارتضى رسما لغيره رسمه له وذلك من تورّعه، بحيث كان يعزو ما يقدّمه من حدود ومن أقوال إلى أصحابها.

وقد امتاز هذا المختصر بحسن سبك المسائل ومتانة جمعها وبراعة تفريعها وتفنينها، زيادة على ما امتاز به من ضبط الحقائق الشرعية بالتعريف والتحديد، حيث كان المصنّف نسيجا وحده في هذا المجال، ذلك أنّ الصناعة التأليفيّة والمنهج الدراسي قد بلغا في الفقه المالكي ذروتهما، ولا سيّما في تعاريف الأبواب والحقائق وتمييز مواهي العقود، وقد كان ابن عرفة عمدة على الإطلاق في ذلك عند أهل المشارق والمغارب، فأقبل الفقهاء على تحصيله شرقا وغربا، والتزم دارسو الفقه حدود ابن عرفة يقيمون عليها بحوثهم وتحاريرهم، حتّى أصبح ما من تأليف كلّي أو بحث فقهي في القرن التاسع الهجري وما بعده يأخذ في بسط باب من أبواب الفقه، إلاّ ويعتمد قبل كلّ شيء على إيراد تعريف ابن عرفة لتلك الحقيقة.

والكتاب مختصر موغل في الاختصار لا سيّما في نصفه الأوّل، فالتفقّه به وفهمه صعب، وقد بسط المصنّف عبارته في نصفه الأخير، ومن شدّة اختصاره أشكل فهمه مرّة على مصنّفه نفسه وعلى أهل مجلسه فافترق المجلس من غير جواب، حتّى اهتمّ ابن عرفة غاية الاهتمام وفكّر في ذلك طويلا ثمّ فتح الله عليه فبان له موطن الإشكال، ويبدو أنّ عباراته المستغلقة كانت من دواعي تركه بعد حين من الدهر وإقبال الناس على مختصر خليل(١).

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٦٧، ومضات فكر ٧٥/٢، نيل الابتهاج ١٣٠/٢ و١٣٣، الفكر السامي ٢٩٣/٤ ـ ٢٩٤، الديباج المذهب ص ٤٢٠، الضوء اللامع ٢٤٢/٩، الحلل السندسية ٥٧٨/١، مقدمة محقّق شرح حدود ابن عرفة ٣٩/١ ـ ٤١ ٥١٧/٢.

ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ شروح ابن ناجي على أمّهات الفقه المالكي:

مصنّفها أبو الفضل قاسم بن عيسى بن ناجي (٨٣٩هـ) الذي صرف جهوده لتحرير فقه القضاء والتبصّر في القضايا وتقرير ما جرت به الفتوى في إفريقيّة التونسيّة حتّى صارت كتبه مرجعا وثيقا لما جرى به العمل في البلاد التونسيّة.

وقد شدّ ساعده ممارسته الطويلة للقضاء، وخبرته باختلاف مقتضيات الترجيحات والاختيارات والتصرّفات بسبب اختلاف البلدان وتباين عوائدها وملاءماتها، فكانت أعماله بيانا للأحكام بأصولها وعللها.

وتقريرا لما فيها من مختلف الأنظار والتخاريج، وفحصا لما يحفّ بها من أحوال مكانيّة وزمانيّة لا تتحقّق فيها المصلحة المقصودة من الحكم إلاّ بالأخذ بوجهة نظر معيّنة، أو توليد وجهة نظر جديدة، وكان اعتناؤه في ذلك بالعامل الثالث من عوامل تكوين القانون الفقهي: وهو جريان العمل القضائي، حتّى أصبح فارس ذلك الميدان وأدخل مباحث العمل في عناصره الفقهيّة.

وبذلك الأسلوب امتازت شروح ابن ناجي، فأصبحت عمدة العمل القضائي في إفريقيّة، ووجّهت الفقه في فاس وتلمسان ومازونة وبجاية وقسنطينة، كما وجّهته في تونس، نحو الاعتناء بالعمل ضبطا ونظرا، بما أحدث في المذهب المالكي طورا جديدا امتاز بكثير من المبادىء والتفاصيل في الاجراءات وفي الأحكام الموضوعيّة، وكانت شروح ابن ناجي هي الأصل في هذا التوجيه، وهي المرجع لتحقيق ما جرى عليه.

العمل التونسي، فما من مؤلّف في العمل في القرن التاسع فما بعده إلاّ وهو عالة على ما قضى به ابن ناجي.

أو ما نصّ ابن ناجي على جريان العمل به ووجّهه.

وشروحه التي حفلت بهذه الطريقة العالية، هي ثلاثة: شرحان على تهذيب المدوّنة للبراذعي، شرح كبير ويعرف بالشتوي، وذكر بعضهم أنّ

اسمه: نهاية التحصيل وترك التعليل والتطويل، وأغلب المؤلفين يسمونه شرح المدوّنة، وقد وصفه بعضهم بأنّه من أنفس الكتب في الفقه المالكي لتحريره العمل التونسي، وشرح.

صغير على تهذيب المدوّنة ويعرف بالصيفي وسمّاه شرح التهذيب.

وقد ذكر الشيخ محمد الكناني في تكميل الصلحاء والأعيان: أنّ هذين الشرحين في غاية التحرير، والعمل عليهما عند فقهاء المغرب في الفتيا والأحكام خصوصا فقهاء إفريقية التونسيّة.

وذكر أنّ من التغالي فيهما: أنّه كان من ظفر ولو بجزء منهما يصير أعزّ شيء عنده، وكان لا يوجد إلاّ عند الخواص.

وقال البدر القرافي: وفهم في شرح ابن ناجي للمدوّنة أنّه إذا أطلق في كتبه لفظ: شيخنا فالمراد به البرزلي وإذا قال: وبعض شيوخنا فمراده ابن عرفة، وما عداه فيصرّح باسمه.

وأمّا الشرح الثالث فهو: شرح التفريع لابن الجلاّب ألّفه قبل شرحه الكبير على التهذيب لأنّه أحال فيه على هذا الشرح وسأل الله أن يتمّ عليه بإكماله.

وشرح كذلك رسالة ابن أبي زيد شرحاً قيّما، حين كان بتونس عند إقامته فيها طالبا في حدود سنة ٧٩٠هـ، وقد أطراه العلامة المغيلي فكان يسمّيه: «المهذّب» لشدّة إعجابه به، غير أنّ هذا الشرح لم يبلغ في قيمته مبلغ الكتب الأخرى لتقدّم عهد تأليفه قبل اكتمال عوامل التفوّق التي امتاز بها ابن ناجي(١).

(١) توشيح الديباج ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧، تكميل الصلحاء والأعيان ص ٨، ومقدّمة المحقّق، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ١٠٤ ـ ١٠٥، كتاب العمر ٧٧٨/٢ ـ ٧٨٠.

ـ ٧ ـ المنزع النبيل في شرح مختصر خليل:

لمحمد بن أحمد بن مرزوق (٨٤٤هـ) المعروف بابن مرزوق الحفيد، والكتاب شرح في غاية الإتقان والتحرير تقريراً ونقولاً، أراد صاحبه أن يعمد إلى مختصر خليل فيسلط على مسائله أنوارا من طريقة شيخه ابن عرفة المبنيّة على البحث والنظر والمقارنة والترجيح، ليخرج بها الفقه عن نطاق الالتزام ويكشف اللثام عن الترجيحات والاختيارات التي انفصل عليها خليل في مختصره ببيان ما فيها من الأنظار الأصوليّة والتحقيقات الفقهيّة، بجمع الأصول التي اعتمد عليها خليل وفحص ما فيها من الأقوال ووضعها على بساط التعليل والتأصيل، ثمّ عرضها في معرض التعليق على عبارة خليل والتحقيق لها بذلك.

وهي طريقة التحلّل من قيود الالتزام، وضيق نطاقه نتيجة الاقتصار على المختصرات، والرجوع إلى المجال الأوسع والنطاق الأرحب، مجال الأقوال العديدة والآراء المتباينة داخل المذهب.

وهي الطريقة التي سار عليها ابن عبدالسلام ثمّ اشتهر بها تلميذه ابن عرفة، ولذلك شاع وصف ابن مرزوق الحفيد بالاجتهاد لأنّه جرى في مجال الاختيار وتدقيق الأنظار مع أئمّة الفقه المتقدّمين بله المتأخرين.

غير أنّ هذا الشرح لم يتناول جميع المختصر، وإنّما حرّر منه جزءا في شرح أوّل الكتاب، ثمّ جزأين من كتاب الأقضية والشهادات إلى آخر المختصر.

وقد وقف الحطاب على هذا الشرح فاستحسنه وقال: لم أر أحسن من شرحه لما اشتمل عليه من تفكيك عبارة المصنّف وبيان منطوقها ومفهومها، والكلام على مقتضى ذلك من جهة النقل[١].

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٩٨ ـ ٩٩، ومضات فكر ٤٤٥/٢ ـ ٤٤٦، نيل الابتهاج ١٨١/٢، مواهب الجليل ٣/١.

ـ ٨ ـ التاج والإكليل في شرح مختصر خليل:

لأبي عبدالله محمد بن يوسف الغرناطي الشهير بالمواق (٨٩٧هـ) له شرحان على مختصر خليل سمّى الكبير منهما: التاج والإكليل.

وهو مختصر في غاية الجودة في تحرير النقول الموافقة لقول المصنّف مع الاختصار البالغ غايته، قصد فيه المؤلّف استخراج نصوص يقابل بها مسائل مختصر خليل ليستعان بها على فهمه وتكون شاهدة على نقله وطريقته في ذلك هو: أنّه يأتي بلفظ خليل بنصّه ثمّ ينقل بإزائه نصّ غيره، ويتخيّر من النصوص ما يكون أقرب للفهم وأوجز في اللفظ، ولا يزيد على ما شهر إلاّ لأمر مّا، أو يكون مضاهياً له في الشهرة أو أشهر، من غير أن يتعرّض لألفاظه وحلّ تراكيبه البتّة.

وقد اعتمد ابن غازي في حاشيته على شرح المواق، وتكلّم على المواضع التي أشار المواق لاستشكالها، وافتتح بكتاب الطهارة وجعله في أحد عشر باباً، الأربعة الأولى مقدّمات، والسبعة الباقية مقاصد[(١)].

ـ ٩ ـ شرح حدود ابن عرفة:

لأبي عبدالله محمد بن قاسم الأنصاري المعروف بالرصّاع (٨٩٤هـ) والكتاب بعنوان الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، قام فيه الرصّاع بتجريد التعاريف الواردة في مختصر ابن عرفة وكتب عليها شرحاً مستقلاً لحدوده مبيّناً لفوائده وفاتحاً لأبواب عقوده.

وكان الرصّاع قد أكثر من النظر في تعريفات ابن عرفة للحقائق الفقهيّة الكلّية، وكان يحضّ طلبته على النظر في دقائقه والتفقّه في حقائقه لأنّها معينة على تحصيل الفرعيات، محصّلة لحقائق الفقهيات، ذلك أنّ رسومه هي قواعد مذهبيّة كلّيات.

(١) التاج والإكليل بهامش مواهب الجليل ٣/١ ـ ٧، و٢٦ ـ ٤١، توشيح الديباج ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥، نيل الابتهاج ٢٤٩/٢، شجرة النور الزكية ص ٢٦٢.

ولذلك سعى الرصّاع إلى شرح مختصر ابن عرفة فكشف أسراره، وأظهر ما خفي من معانيه، غير مقتصر على الشرح اللفظي بل متوسّعاً في عرض المباحث وإيراد الاعتراضات والتصدّي للجواب ومقابلة أقوال ابن عرفة بعضها ببعض، أو مقابلتها بأقوال غيره في الموضوع نفسه، فيبسط الأقوال ثمّ يقارن ويرجّح بينها.

وكان خلال شرحه لتلك التعريفات يتطرّق إلى بيان كلّ ما يتعلّق بها من شروط وأركان وموانع، وشرح ضوابط فقهيّة استقاها من المختصر، وأضاف تعريفات لم يذكرها ابن عرفة، انتقاها من مصادر الفقه المالكي وصاغها بصياغته وفق أصول ابن عرفة ومنهجه.

تضمّن هذا الشرح كثيراً من أقوال الفقهاء ومن أبحاث مجالس ابن عرفة وآراء تلاميذه الذين أخذ الرصّاع عن الكثير منهم، وركّز في شرحه على المسائل التي يكتنفها الغموض أكثر والتي تمسّ الحاجة إلى بيانها ويتوقّف فهم غيرها عليها، وقد يطيل البحث إذا تطلّب الأمر ذلك ولكنّه في الغالب ينهج نهج الاقتصاد في القول والعبارة حتّى لا تخرجه الإطالة عن المقصد(١).

ـ ١٠ ـ المعيار المعرب:

لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (٩١٤هـ) والعنوان الكامل للكتاب هو: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، من أعظم الكتب التي كادت تحيط بمذهب مالك، وهو عبارة عن موسوعة فقهيّة جمع فيها صاحبها فأوعى وحصّل فوعى، وأتى فيها على كثير من فتاوى المتقدّمين وفتاوى المتأخرين، فأمّا فتاوى إفريقية وتلمسان فاعتمد فيها على نوازل البرزلي والمازوني، وأمّا فتاوى

(١) شرح حدود ابن عرفة ٤٦/١ ـ ٤٧، ٦٠، ٦٤، ومقدّمة المحقق ٥/١ ـ ٦، ومضات فكر ٧٥/٢.

الأندلس وفاس فإنّما تيسّرت له من خزانة شيخه القاضي محمد ابن قاضي البلد الجديد الغرديس التغلبي.

يمتاز المعيار بكثرة ما احتوى عليه من النوازل فهو كما قال عنه مصنّفه» جمعت فيه من أجوبة متأخريهم العصريين ومتقدّميهم ما يعسر الوقوف على أكثره في أماكنه واستخراجه من مكامنه، لتبدّده وتفريقه، وانبهام محلّه وطريقه».

وقد رتّبه صاحبه على الأبواب الفقهيّة ليسهل الأمر فيه على الناظر، وصرّح بأسماء المفتين إلاّ في القليل النادر، وأثبت نصوص الأسئلة إلاّ في بعضها إذا لم يتيسّر له الوقوف على نصّ السؤال.

ولم يكن الونشريسي جامع فتاوى فحسب، بل كان ناقداً بصيراً، يردّ ويعترض، ويرجّح ويضعّف ويصدّر تعقيباته بعبارة «قلت».

وقد اهتمّ بتلخيص المعيار الفقيه المغربي أحمد بن سعيد المجيلدي الفاسي (١٠٩٤هـ) في كتاب سمّاه: الإعلام بما في المعيار من فتاوى الأعلام «عمد فيه إلى تلخيص الأسئلة والأجوبة التي أوردها الونشريسي محيلاً على الأصل لمعرفة الأدلّة، وحذف المكرّر مع التنبيه على محلّه في الأصل.

وتتجلّى مكانة المعيار في اهتمام فقهاء الأمصار به على توالي القرون، منذ عصر المؤلّف وإلى أيّامنا هذه فلا تكاد تخلو الدراسات الفقهيّة من النقل عنه والاعتماد عليه(١).

ـ ١١ ـ مواهب الجليل:

لأبي عبدالله محمد بن محمد الحطاب (٩٥٨) وعنوانه الكامل: مواهب الجليل شرح مختصر الشيخ خليل، ذكر في مقدّمته أنّ العلماء

(١) المعيار المعرب ١/١، ومقدمة محقّق المعيار، توشيح الديباج ص ٦٥، نيل الابتهاج ١٤٥/١، شجرة النور الزكية ص ٢٧٥، فهرس الفهارس ١١٢٣/٢.

أكثروا من وضع المصنّفات في الفقه، فمنها المطوّلات ومنها المختصرات وكان من أجلّ المختصرات على مذهب الإمام مالك هو مختصر الشيخ خليل، إلاّ أنّه لفرط الإيجاز كاد يعدّ من جملة الألغاز، فلذلك اعتنى العلماء بحلّ عبارته وإيضاح إشارته وفكّ مواضع من تراكيبه العسيرة، واستخراج كنوزه، وإبراز فوائده.

وذكر الحطّاب أنّ مواضع كثيرة فيه بقيت مغلقة، ومسائل كثيرة بقيت مطلقة، فقام بشرح جميع الكتاب والتكلّم على جميع مسائله مع ذكر ما تحتاج إليه كلّ مسألة من تقييدات وفروع مناسبة وتتمّات مفيدة من ضبط وغيره، مع ذكر غالب الأقوال وعزوها وتوجيهها غالبا، والتنبيه على ما في الشروح التي وقف عليها لهذا الكتاب، وهي الشروح الثلاثة لبهرام وشرح عبدالحق بن علي ابن الفرات المصري وشرح جمال الدين بن عبدالله بن مقداد بن إسماعيل الأقفهسي وشرح يوسف بن خالد بن نعيم البساطي، وحاشية أبي عبدالله محمد بن أحمد بن غازي العثماني وشرح الفصلين الأوّلين من كلام أبي عبدالله محمد بن أحمد ابن مرزوق التلمساني، والتنبيه على ما في كلام ابن الحاجب وشروحه، وكلام ابن عرفة وغيرهم لقصد تحرير المسائل.

وقد التزم الحطاب العزو غالبا إلاّ فيما ينقله من شروح بهرام والتوضيح وابن عبدالسلام وابن عرفة، فكان لا يعزو لهم غالبا إلاّ ما كان غريبا أو ذكر في غير موضعه.

ومال إلى البسط والإيضاح والبيان حرصا على إيصال الفائدة، وكان إذا ذكر نقولاً مختلفة، ذكر محصّلها آخر الأمر، وأطال الكلام كلّما رأى في ذلك فائدة عظيمة.

وعموما فهذا الكتاب من أكثر شروح مختصر خليل تحريرا وجمعا وتحصيلا، استغنى به الناس عن كثير من المطوّلات والمختصرات، وفيه دليل على جودة تصرّف مصنّفه وكثرة اطّلاعه وحسن فهمه، وقد توفّي قبل

تبييضه، وتركه مسودّة، فبيّضه ولده يحيى[1].

ـ ١٢ ـ البهجة في شرح التحفة:

لأبي الحسن عليّ بن عبدالسلام التسولي (١٢٥٨هـ) وهو شرح على الأرجوزة المسمّاة بتحفة الحكّام والمشهورة بالعاصميّة، نسبة لناظمها أبو بكر محمد بن محمد بن عاصم (٨٢٩هـ) وتقع في ١٦٩٨ بيتاً.

وهذه الأرجوزة من أجلّ ما ألّف في علم الوثائق والإبرام، لسلامة نظمها ووجازة لفظها، ولكونها قد اجتمع فيها ما افترق في غيرها، ولذلك وقع عليها القبول واعتمدها العلماء وشرحها جماعة، منهم الشيخ التسولي البهجة في شرح التحفة، وأبو عبدالله محمد التاودي في حلى المعاصم لبنت فكر ابن عاصم.

فأمّا حلى المعاصم فهو شرح وجيز قصد فيه صاحبه حلّ ما يحتاج من الألفاظ، والاقتصار على ما لا مندوحة عنه من النقل، متوخّيا في ذلك ـ كما قال ـ أسعد النقول بعبارته وأقربها إلى رمزه وإشارته مبتعدا عن طريق التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.

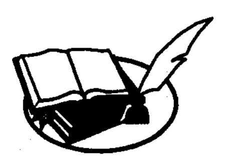
وأمّا البهجة في شرح التحفة، فقد تطرّق فيها صاحبها إلى إبراز ما خفي من معانيها وإعراب كلّ ألفاظها، وبيان منطوقها ومفهومها، وبيّن ما به العمل عند المتأخّرين من قضاة العدل، وشرح غالب وثائق الأبواب حتّى أدّى به ذلك إلى الإطناب، ليتدرّب بذلك من لم يتقدّم له مسيس بالفتوى من الناس، ويهتدي إلى كيفيّة تنزيل الفقه على وثائق الأحكام.

اعتمد المصنّف في شرحه على الشيخ خليل والتاودي ـ صاحب الشرح المتقدّم ـ وميارة والحطاب، ولكنّه لم يصرّح بالانتقاد على أحد من هؤلاء الشراح، إلاّ ما وقع في بعض المواطن من صدر الكتاب، وبرّر

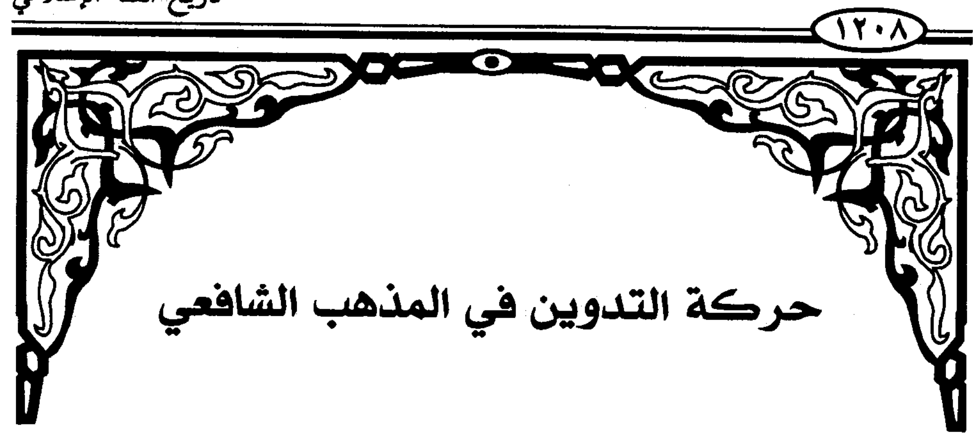
---

(١) مواهب الجليل ٢/١ ـ ٤، نيل الابتهاج ٢٨٦/٢، شجرة النور الزكية ص ٢٧٠.

منهجه ذلك باعتبار أنّ الإعراض يكفي في الإشارة لأولي الألباب، ثمّ إنّ لكلّ واحد منهجا يقتضيه ومذهباً يختاره للفتوى ويصطفيه[١].



(١) البهجة في شرح التحفة، وبهامشها حلى المعاصم ٢/١، شجرة النور الزكية ص ٢٤٧.



حركة التدوين في المذهب الشافعي

ـ ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ الروضة والمنهاج والمجموع[1]:

جميعها لأبي زكرياء يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) الذي بدأ التصنيف من حدود سنة ٦٦٠هـ، فصنّف روضة الطالبين وعمدة المتّقين، وهو مختصر من كتاب العزيز في شرح الوجيز للرافعي، وصنّف منهاج الطالبين وهو مختصر كتاب المحرّر للإمام الرافعي الذي اختصره بدوره من كتاب الوجيز للغزالي، وشرح المهذب ووصل فيه إلى أثناء الربا، وسمّاه المجموع.

فأمّا كتاب الروضة فقد قصد به مؤلّفه تسهيل الطريق إلى الانتفاع بكتاب العزيز في شرح الوجيز، فسلط طريقة متوسّطة بين المبالغة في الاختصار والإيضاح، وحذف الأدلّة وأشار إلى الخفيّ منها إشارات واستوعب جميع فقه الكتاب حتّى الوجوه الغريبة المنكرات، واقتصر على الأحكام دون المؤاخذات اللفظيّة، وضمّ إليه في أكثر المواطن تفريعات وتتمّات، وذكر في مواضع يسيرة استدراكات على الإمام الرافعي.

وقد ذكر في مقدّمته أنّ من حصّل هذا الكتاب فقد أحاط بالمذهب

---

(١) روضة الطالبين، ١/٥ ـ ٦، منهاج الطالبين ١/٣ ـ ٥، المجموع ١/١٧ ـ ٢١، و٩/٥٠١ ـ ٥٠٧، و١٢/٣ ـ ٤، كشف الظنون ١/٦٩٣ ـ ٦٩٤ و٢/٦٩٨ ـ ٧٠١، و٢/٧٢٨ ـ ٧٢٩.

وحصل له أكمل الوثوق به وأدرك حكم جميع ما يحتاج إليه من المسائل الواقعات.

ولذلك كان كتاب الروضة موضع اهتمام الفقهاء المحقّقين ومحطّ عناية الباحثين والدارسين طيلة هذا الدور الفقهي، فوضع عليه جماعة من علماء الشافعية المختصرات والحواشي وكتبوا عليه التعليقات والزيادات وصاغوه نظما، فاختصره برهان الدين إبراهيم بن موسى الكركي (٨٥٣هـ) وشرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المقري (٨٣٦) وجرّده من الخلاف وسمّاه الروض، وكتب عليه زين الدين عمر بـن أبي الحزم الكناني (٧٣٨) حاشية، ناقش فيها النووي في كثير من المواضع، ووضع عزّ الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن جماعة (٨١٩) على الروضة نكتا، وكتب السيوطي (٩١١هـ) على الروضة حاشية وهي المسماة بأزهار الفضّة، وله حاشية صغرى والينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع وله مختصر على الروضة مجرّدا من الخلاف وضمّ إليه زيادات وسمّاه العنبر، وله نظم على الروضة سمّاه الخلاصة وشرحه في كتاب سمّاه رفع الخصاصة، وكتب عليه الشيخ جمال الدين الأسنوي (٧٧٢هـ) كتاب المهمّات الذي استدرك عليه زين الدين عبدالرحيم بن الحسين (٨٠٦) في مهمّات المهمّات.

وكثيرون غير هؤلاء.

وأمّا منهاج الطالبين الذي هو مختصر كتاب المحرّر للإمام الرافعي، فإنّ الذي حدا بالإمام النووي إلى اختصاره، هو أنّ المحرر من الكتب المعتبرة والمشهورة بين الشافعيّة، قد حوى على كثير من الفوائد، وهو عمدة في تحقيق المذهب، التزم فيه مصنّفه أن ينصّ على ما صحّحه معظم الأصحاب، فكان كتاباً كبير الحجم قد كبر عن حفظ أكثر أهل ذلك العصر، فرأى النووي أن يختصره في نحو نصف حجمه مع ما ضمّه إليه من النفائس المستجدّات، ثمّ ذكر تصرّفاته، والتزم بعدم الحذف منه شيئاً من الأحكام أصلا، فأودعه المعاني الغزيرة بالألفاظ الوجيزة، وقرّب

المقاصد البعيدة بالأقوال السديدة، حتّى اشتهر وتداوله الشافعيّة واشتغلوا بإقرائه وشرحه فبعضها على الغاية في التطويل وبعضها اقتصر فيه غالبا على الدليل والتعليل.

ومن أشهر من شرحه تقيّ الدين السبكي (٧٥٦هـ) وصل فيه إلى الطلاق وسمّاه الابتهاج، فكمّله ابنه بهاء الدين أحمد، وشرحه أيضاً جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (٨٦٤هـ) وسمّاه كنز الراغبين شرح منهاج الطالبين، وهو شرح حلّ به ألفاظه وبيّن به مراده على وجه لطيف خال عن الحشو والتطويل، وحاو للدليل والتعليل، وشرحه سراج الدين عمر بن عليّ ابن الملقن (٨٠٤هـ) وسمّاه الإشارات إلى ما وقع في المنهاج من الأسماء والمعاني واللغات، ثمّ اختصره وسمّاه العجالة، ووضع عليه أيضاً كتاب تحفة المحتاج إلى أدلّة المنهاج، وشرحه عبدالرحيم جمال الدين عبدالرحيم الأسنوي (٧٧٢هـ) بلغ فيه إلى المساقاة وسمّاه الفروق وصنّف زيادات على المنهاج.

وشرحه كمال الدين محمد بن موسى الدميري (٨٠٨هـ) سمّاه النجم الوهّاج لخّصه من شرح السبكي والأسنوي وغيرهما، وعظم الانتفاع به خصوصا بما طرزه به من التتمات والخاتمات والنكت البديعة، وابتدأ من المساقاة بناء على قطعة شيخه الأسنوي، وشرح مختصره أبو يحيى زكرياء الأنصاري (٩٢٦هـ) وهو شرح ممزوج اختصره أوّلا وسمّاه منهج الطلّاب، ثمّ شرحه وسمّاه فتح الوهاب بشرح منهج الطلّاب.

ومن شروح المنهاج شرحان كبيران أحدهما إرشاد المحتاج إلى توجيه المنهاج، والآخر بداية المحتاج، كلاهما لبدر الدين أبي الفضل محمد بن أبي بكر المعروف بابن شهبة الأسدي (٨٧٤هـ).

وشرح المنهاج أيضاً شمس الدين محمد بن محمد الشربيني (٩٧٧هـ) وسمّاه مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج وضّح فيه المعاني الخفيّة وضمّنه الدليل والتعليل وبيّن ما عليه المعوّل من كلام المتأخّرين

والأصحاب، وهذّب فصوله وحقّقه فروعه وأصوله[١].

وشرحه كذلك فقيه مصر شمس الدين محمد بن أحمد الرملي (١٠٠٤هـ) خلا فيه عن الإسهاب المملّ وعن الاختصار المخلّ، وذكر فيه بعض القواعد وضمّ إليه ما ظهر من الفوائد في تركيب رائق وأسلوب فائق، وميّز فيه المعمول به من الأقوال من غيرها بتوضيح مبين واقتصر فيه على القول المعمول به في المذهب غير معتن بتحرير الأقوال الضعيفة.

أسّس فيه ما يعين على فهم المنقول واعتمد فيه على مصادر مشهورة ومعتبرة من شروح المنهاج وغيرها من كتب المتأخّرين[٢].

وغير ذلك من الشروح والمختصرات والحواشي والتعليقات.

وأمّا كتاب المجموع فقد كان عزم الإمام النووي على شرح المهذّب من أعظم الأعمال في تاريخ المعارف الإسلاميّة إذ تناوله على نهج فريد خالف به جميع من سبقه ومن لحقه بطريقته المبتكرة، فذكر فيه جملا من علومه الزاهرة وبيّن فيه أنواعا من فنونه المتعدّدة وبالغ في إيضاع الأحكام بأسهل العبارات وضمّ إلى ما في الأصل من الفروع والتتمّات والزوائد المستحدثات والقواعد المحرّرات والضوابط الممهّدات.

وبيّن ما ذكره الشيرازي وقد اتّفق أصحاب الشافعي عليه وما وافقه عليه الجمهور، وما انفرد به أو خالفه فيه المعظم.

ولم يترك قولاً ولا وجها ولا نقلاً في مذهب الشافعي إلاّ ذكره ولو كان ضعيفاً أو واهياً، مع بيان رجحان ما كان راجحاً وتضعيف ما كان ضعيفاً.

وحرص على تتبّع كتب الشافعية من المتقدّمين والمتأخّرين إلى زمانه من المبسوطات والمختصرات وكذلك نصوص الإمام الشافعي من الأمّ

(١) مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج ٢/١ ـ ٥.
(٢) نهاية المحتاج ٧/١ ـ ١٢.

ومختصر المزني والبويطي، كما تتبّع فتاوى الشافعية ومتفرّقات كلامهم في كتب الأصول والطبقات وفي شروحهم للحديث وغيرها، وذكر مذاهب السلف من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من فقهاء الأمصار بأدلّتها.

وكان النووي قد جمع هذا الشرح مبسوطا جدّا ثمّ رأى أنّ الاستمرار على هذا المنهاج يؤدّي إلى سآمة مطالعه ويكون سببا لقلّة الانتفاع به، فأعرض عن ذلك المنهاج وسلك طريقة متوسّطة، بحيث إذا كان من الأبواب التي لا يعمّ الانتفاع بها اختصر الكلام فيه.

فجاء الكتاب - كما قال صاحبه -: وإن سميّته شرح المهذّب فهو شرح للمذهب كلّه بل لمذاهب العلماء كلّهم.

ولم يستطع النووي إكمال موسوعته هذه، وإنّما انتهى به الشرح إلى غاية الجزء التاسع عند أوّل باب الربا فيما يتعلّق بمسألة مذاهب العلماء في بيان علّة الربا في الأجناس الأربعة ثمّ أكمل الجزءان العاشر والحادي عشر العلاّمة تقيّ الدين علي بن عبدالكافي السبكي (٧٥٦هـ) وهي المحاولة الأولى لتكملة كتاب المجموع، وتوفّي عند الردّ بالعيب من كتاب البيوع ثمّ أكمله تكملة ثانية بعد نقصانه الشيخ محمد بخيت المطيعي (١٣٥٤هـ) فحوى من المسائل أعوصها ومن المشكلات أعمقها.

- ٤ - المهمّات على الروضة:

لجمال الدين عبدالرحيم بن حسن الأسنوي (٧٧٢هـ) وعليها تتمّات للشريف عزّ الدين حمزة بن أحمد الحسيني (٨٧٤هـ) وعليها تعقبات لشهاب الدين أحمد بن العماد الأقفهسي (٨٠٨هـ) سمّاها التعليق على المهمّات أكثر فيها من تخطئته ونسبه لسوء الفهم وفساد التصوّر مع قوله أنّه قرأ الأصل على مصنّفه، واعتذر عنه بعضهم فقال: لو أورد الكلام ساذجا لم يلتفتوا إليه لكون الأسنوي عندهم أجلّ وأعلم، واستدرك عليها زين الدين عبدالرحيم بن الحسين المعروف بالحافظ العراقي (٨٠٦هـ) وسمّاه مهمّات المهمّات، وعلّق عليها شهاب الدين أحمد بن حمدان الأذرعي

(٧٨٣هـ) ولم يكمله، وعليه تعليقات للشيخ أحمد بن عماد (٨٠٨هـ) ورتّبها علاء الدين مغلطاي بن قليج بن عبدالله المصري (٧٦٢هـ) على أبواب الفقه، وكتب سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني (٨٠٥هـ) عليها حواش سمّاها معرفة الملمّات بردّ المهمّات.

واختصرها أبو زرعة أحمد بن عبدالرحيم العراقي مع إضافة حواشي البلقيني (٧٢٦هـ) واختصرها ابن الوكيل أحمد بن موسى التنوخي (٧٩١هـ) واختصرها أيضاً شمس الدين محمد بن عبدالله الصرخدي (٧٩٢هـ) ولخّصها تلخيصا حسنا شهاب الدين أحمد بن عبدالله الغزّي (٨٢٢هـ) ولتقيّ الدين أبي بكر بن محمد الحصني (٨٢٩هـ) تلخيص المهمات.

وشرحها شرف الدين عيسى بن عثمان الغزي (٧٩٩هـ) سمّاه مدينة العلم، وعلى المهمات نكت للقاضي تقيّ الدين أبي بكر بن أحمد بن شهبة (٨٥١هـ)، ومهمّات المهمات لسراج الدين أبي حفص عمر بن محمد اليمني المعروف بالفتي (٨٨٧هـ) اختصر فيها المهمات اختصارا حسنا، اقتصر فيه على ما يتعلّق بالروضة خاصّة، وعقد فيه مباحثات مع الأسنوي واستدرك عليه في الكثير من المناسبات، وله التبكيتات الواردات على مواضع من المهمّات[1].

ـ ٥ ـ الأنوار لعمل الأبرار:

لجمال الدين يوسف بن إبراهيم الأردبيلي (٧٩٩هـ) وهو كتاب معتبر في الفقه الشافعي، جمع فيه صاحبه ما يعمّ به البلوى من المسائل المهمّة غير المذكورة في المصادر المعتبرة للمذهب الشافعي.

وكان اعتماده أساسا على المصادر السبعة التالية، وهي: الكبير والصغير للرافعي والروضة وشرح اللباب والتعليقة والحاوي والمحرّر.

ومن شروح الأنوار، شرح نور الدين علي بن أحمد البوشي (٨٥٦هـ)

---

(١) كشف الظنون ٧٢٩/٢ ـ ٧٣٠.

وأفرد سراج الدين عمر بن محمد اليمني (٨٨٧هـ) زوائده في كتاب سمّاه أنوار الأنوار.

وعلى كتاب الأنوار تعليقات منها: تعليقة جلال الدين محمد بن أسعد الصديقي الدواني (٩٠٧هـ) وتعليقة نور الدين علي بن محمد الأشموني (٩٠٠هـ)[1].

وهناك كتب فقه من الأمّهات المعتبرة عند الشافعيّة لم ينفكّ الاعتناء بها في هذا الدور، حيث صنّفت حولها المطوّلات والمختصرات والشروح والحواشي والتعاليق والطرر، وأهمّها:

ـ ٦ ـ شروح التنبيه:

ووقع الاعتناء في هذا الدور كذلك بكتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي (٤٧٦هـ) فصنّف الفقهاء عليه الشروح الكثيرة، ومن أعظم تلك الشروح: شرح الإمام النووي سمّاه التحرير، وذكر فيه أنّ التنبيه من الكتب المباركة النافعة، فلذلك اعتنى بتحريره وتهذيبه، وقد سلك النووي في شرحه للتنبيه مسلكين، أوّلهما الاعتناء بما حواه الكتاب من مسائل تتعلّق بما يفتى به وتصحيح ما ترك المصنّف تصحيحه أو خولف فيه أو جزم بما هو خلاف المذهب وأنكر عليه، وقد جمع ذلك في كتاب سمّاه تصحيح التنبيه، والثاني بيان لغاته وذكر جميع ما يتعلّق بضبط ألفاظه، وهو ما اهتمّ به في كتابه التحرير.

وشرح التنبيه كذلك نجم الدين أحمد بن محمد المعروف بابن الرفعة (٧١٦هـ) شرحاً كبيرا، سمّاه كفاية النبيه، اشتمل على غرائب وفوائد كثيرة، قيل إنّه لم يعلّق على التنبيه مثله.

وعلى هذا الشرح اعتمد مجد الدين أبو بكر بن إسماعيل السنكلومي (٧٤٠هـ) في شرحه الذي لخّصه من شرحي الرافعي وابن الرفعة وسمّاه تحفة النبيه في شرح التنبيه.

---

(١) كشف الظنون ١/٢٠٣ ـ ٢٠٤.

ولجمال الدين الأسنوي مختصر من كتاب التنبيه سمّاه تذكرة النبيه ذكر فيه أنّ تصحيح التنبيه للنووي قد أهمل في كثير من المسائل، فقام الأسنوي بتجريد المهملات وجمعها في تأليف سمّاه التنقيح، ثمّ استخرج في تأليف جامع كتب فيه ما أهمله في التنقيح وميّز الزيادات التي من قبله، وفرغ من تأليفه سنة ٧٣٨هـ.

ولفقهاء هذا الدور على التنبيه كذلك مختصرات ومنظومات ونكات كثيرة[١].

ـ ٧ ـ شروح المحرّر:

واعتنوا بكتاب المحرّر لأبي القاسم عبدالكريم بن محمد الرافعي القزويني (٦٢٣هـ) وهو كتاب معتبر مشهور بين الشافعيّة، فشرحه القاضي شهاب الدين أحمد بن يوسف السندي الحصنكيفي (٨٩٥هـ) وسمّاه: كشف الدرر في شرح المحرّر، التزم فيه ذكر خلاف الأئمّة الثلاثة مع تنقيح مذهبه وبيان خلاف الترجيح بين الرافعي والنووي وما عليه الفتوى، وفرغ من تأليفه سنة ٨٨٢هـ، كما شرحه أيضاً شرف الدين عليّ الشيرازي (٩٠٧هـ).

واختصره علاء الدين عليّ بن محمد الباجي (٧١٤هـ) واختصره أيضاً الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي وسمّاه المنهاج.

ومن شروحه كذلك، شرح نور الدين علي بن يحيى الزيادي المصري (١٠٢٤هـ) والشيخ أبو بكر الشهرزوري (١٠١٤هـ) وسمّاه الوضوح[٢].

ـ ٨ ـ الحاوي الصغير:

لنجم الدين عبدالغفار بن عبدالكريم القزويني (٦٦٥هـ) وهو من الكتب المعتبرة بين الشافعية، وجيز اللفظ بسيط المعاني محرّر المقاصد

(١) كشف الظنون ٢/٣٩٥ ـ ٣٩٨.
(٢) كشف الظنون ٢/٥٠٦ ـ ٥٠٧.

مهذّب المباني حسن التأليف والترتيب جيّد التفصيل والتبويب.

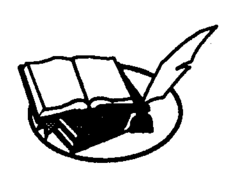
ولذلك عكفوا عليه شرحاً ونظماً واختصاراً، فمن شروحه: الشرح الموسوم بتوضيح الحاوي لقطب الدين أحمد بن الحسن الغالي (٧٧٩هـ) وعليه حاشية لبدر الدين حسن بن عمر حبيب الحلبي (٧٧٩هـ).

وسمّاها التوشيح أورد فيها زوائد مفيدة من إظهار الفتاوى وكشف بعض أسرار الحاوي وشرح أبي عبدالله محمد الناشري اليمني (٨٧٤هـ) وسمّاه إيضاح الفتاوى في النكت المتعلّقة بالحاوي.

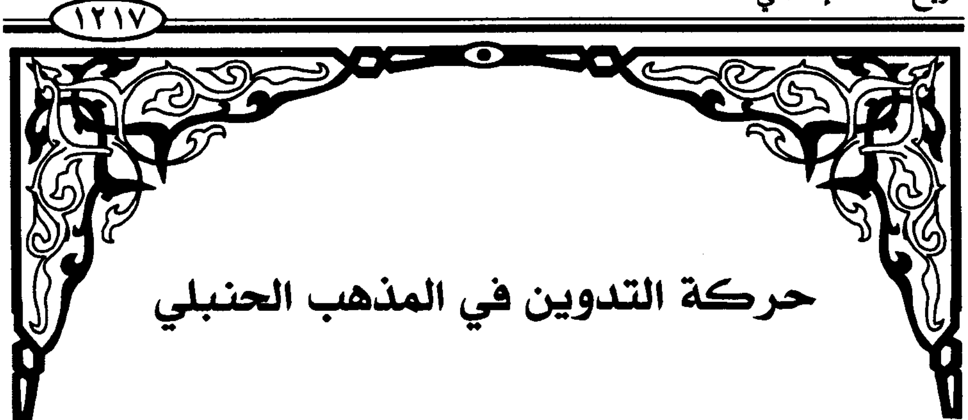
وعلى الحاوي اعتراضات وتصحيحات ونكت، ومنظومات أشهرها نظم زين الدين عمر بن مظفر الوردي (٧٤٩هـ) سمّاه البهجة الوردية، وهي في خمسة آلاف بيت وعليها شروح كثيرة[١].

ـ ٩ ـ الغاية القصوى في دراية الفتوى:

للقاضي ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي (٦٨٥هـ) اختصرها من كتاب الوسيط المحيط بأقطار البسيط للغزالي، وهو كتاب معتبر اعتنى بشرحه ودراسته الفقهاء، فشرحه غياث الدين محمد بن محمد الواسطي (٧١٨هـ) وبدر الدين محمد بن أسعد التستري (٧٣٥هـ) وجمال الدين محمد بن محمد الأقسرائي (٧٧١هـ)[٢].



(١) كشف الظنون ٤٨٨/١ ـ ٤٩٠.
(٢) كشف الظنون ١٩١/٢.



حركة التدوين في المذهب الحنبلي

ـ ١ ـ الفروع والمبدع شرح المقنع.

كلاهما لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن مفلح (٧٦٣هـ) أجاد فيه وأحسن على مذهبه، ومدحه ابن حجر في الدرر فقال: صنّف الفروع في مجلدين أجاد فيه إلى الغاية وأورد فيه من الفروع الغريبة ما بهر العلماء.

جمع ابن مفلح في كتابه الفروع غالب مسائل المذهب الحنبلي، حتّى كان يسمّى «مكنسة المذهب» وجرّده من الدليل والتعليل، وقدّم غالبا الراجح في المذهب، فإن اختلف الترجيح أطلق الخلاف، وذكر اصطلاحه في أوّل الكتاب كما هو عادة المصنّفين، ولم يقتصر على مذهب أحمد بل أشار إلى أقوال المذاهب الأخرى، وأشار إلى ذكر الوفاق والخلاف، وما وافقهم عليه الأئمّة الثلاثة وغيرهم، واستعمل في ذلك الرموز، وأطال النفس في بعض المباحث وربّما التجأ أحياناً إلى ذكر الدليل.

وقد اعتنى علماء الحنابلة بهذا الكتاب فشرحه أحمد بن أبي بكر محمد بن العماد الحموي وسمّاه: المقصد المنجح لفروع ابن مفلح، قال عنه بدران: قلّ أن يوجد نظيره، كما شرحه شيخ المذهب ومفتي الديار المصريّة محبّ الدين أحمد بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن عمر (٨٤٤هـ) وشرحه هذا أشبه بالحواشي منه بالشروح.

ولتقيّ الدين أبي بكر بن إبراهيم بن قندس (٨٦١هـ) حاشية على الفروع بها الكثير من التحقيق والفوائد.

ولأبي المحاسن يوسف بن محمد بن عمر الصالحي المرداوي (٨٧٨هـ) حاشية صحّح فيها ما أطلقه ابن مفلح من الخلاف، سمّاها نهاية الحكم المشروع في تصحيح الفروع[1].

ووضع أحمد بن أبي بكر بن محمد بن العماد الحموي (٨٨٣هـ) على الفروع كتاباً سمّاه المقصد المنجح لفروع ابن مفلح.

ولعلاء الدين بن الحسن عليّ بن سليمان المرداوي (٨٨٥هـ) ـ صاحب كتاب الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف ـ حاشية في تصحيح الفروع سمّاها: الدرّ المنتقى والجوهر المجموع في معرفة الراجح من الخلاف المطلق في الفروع.

وأمّا كتاب المبدع فهو شرح للمقنع لشيخ الإسلام موفق الدين ابن قدامة، قصد به الشارح تبيين حقائقه وتوضيح دقائقه وتذليل من اللفظ صعابه وكشف النقاب عن وجه المعاني، فنبّه فيه على ترجيح ما أطلق وصحّح فيه ما أغلق واجتهد في اختصاره[2].

ـ ٢ و٣ ـ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف والتنقيح المشبع في تحرير أحكام المقنع:

كلاهما لمجدّد مذهب الإمام أحمد في الأصول والفروع، الشيخ علاء الدين عليّ بن سليمان السعدي المرداوي (٨٨٥هـ) الذي انتصب لنصرة المذهب الحنبلي وضمّ شمله حيث وجد أهل زمنه قد أكبّوا على المقنع، فألّف عليه شرحه المسمّى بالإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، بيّن فيه الصحيح من المذهب والمشهور وما اعتمده أكثر الأصحاب وذهبوا إليه، وأطال فيه المباحث والكلام.

---

(١) الدرر الكامنة ٢٦٢/٤، كشف الظنون ٢٤٠/٢، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١٩ و٤٣٧ ـ ٤٣٨، الفروع ٣/١، مقدّمة محقّق أصول الفقه لابن مفلح ٢٢/١ ـ ٢٣.

(٢) المبدع شرح المقنع ٢/١، المكتب الإسلامي، بيروت.

وطريقته في شرحه: أنّه ينقل عن الإمام أحمد والأصحاب ويعزو إلى كلّ كتاب ما ينقل منه ويضيف إلى كلّ عالم ما يروى عنه، فإن كان المذهب في المسألة ظاهرا أو مشهورا أو قد اختاره جمهور الأصحاب وجعلوه منصورا فهذا لا إشكال فيه، وإن كان الترجيح مختلفا بين الأصحاب في مسائل متجاذبة المأخذ، اعتمد في معرفة المذهب على ما قاله المصنّف ومجد الدين بن تيمية (٦٥٢هـ) صاحب المحرّر وابن مفلح صاحب الفروع وابن رجب صاحب القواعد وابن تيمية صاحب مجموع الفتاوى وغيرهم من الحنابلة الذين هذّبوا كلام المتقدّمين ومهّدوا قواعد المذهب، فصار كتابه بذلك يغني المقلّد عن سائر كتب المذهب.

وهذا الكتاب دليل على تبحّر مصنّفه وسعة علمه وقوّة فهمه.

ثمّ اختصر منه كتابه المسمّى بالتنقيح المشبع في تحرير أحكام المقنع، فصحّح فيه الروايات المطلقة في المقنع وما أطلق فيه من الوجهين أو الأوجه وقيّد ما أخلّ به من الشروط وفسّر ما أبهم فيه من حكم أو لفظ واستثنى من عمومه ما هو مستثنى على المذهب وقيّد ما يحتاج إليه ممّا فيه إطلاقه، وكان يحمل على بعض فروعه ما هو مرتبط بها، وزاد مسائل محرّرة مصحّحة فصار كتابه تصحيحاً لغالب كتب المذهب[١].

ـ ٤ ـ مغني ذوي الأفهام عن الكتب الكثيرة في الأحكام:

ليوسف بن حسن بن أحمد بن عبدالهادي (٩٠٩هـ) الشهير بابن المبرد الصالحي، صدّر كتابه بعلم التوحيد، ثمّ بباب معرفة الإعراب، ثمّ بأصول الفقه، ثمّ بما يستعمل من الأدب، ثمّ أتبعه ببعض اصطلاحات في المذهب، ثمّ استرسل في الفقه على نمط وجيز، ثمّ ختمه بقواعد كليّة تترتّب عليها مسائل فرعيّة[٢].

---

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٣٦، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف ١/١٣، شذرات الذهب ٧/٤٨٧.

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

ـ ٥ ـ منتهى الإرادات في جمع المقنع مع التنقيح وزيادات:

لتقيّ الدين محمد بن أحمد الفتوحي المصري الشهير بابن النجار (٩٧٢هـ) والكتاب مشهور، وهو عمدة المتأخّرين في المذهب وعليه الفتوى فيما بينهم.

جمع فيه صاحبه بين كتاب المقنع لموفق الدين ابن قدامة والتنقيح لعلاء الدين المرداوي، وزاد عليهما أشياء مهمّة، وحرّر مسائله على الراجح من المذهب، فاشتغل به عامة الطلبة في عصره، واقتصروا عليه ثمّ شرحه المصنّف، وغالب استمداده فيه من كتاب الفروع لابن مفلح.

جمع فيه صاحبه بين كتاب المقنع لموفق الدين ابن قدامة والتنقيح لعلاء الدين المرداوي وزاد عليهما أشياء مهمّة، وحرّر مسائله على الراجح من المذهب، فاشتغل به عامة الطلبة في عصره، واقتصروا عليه ثمّ شرحه المصنّف، وغالب استمداده فيه من كتاب الفروع لابن مفلح.

وشرح منتهى الإرادات الشيخ منصور بن يونس بن صلاح الدين البهوتي (١٠٥١هـ) اعتمد فيه على شرح مؤلف المنتهى لكتابه، وعلى شرحه نفسه على الإقناع.

وكتب محمد بن أحمد بن أحمد البهوتي المعروف بالخلوتي (١٠٨٨هـ) تحريرات على هامش نسخته متن المنتهى، وعلى المتن حاشية لعثمان بن أحمد بن سعيد النجدي (١٠٩٧هـ) مال فيها إلى التحقيق والتدقيق[١].

ـ ٦ ـ ٧ ـ كشاف القناع عن متن الإقناع والروض المُرْبع شرح زاد المستقنع.

كلاهما لمنصور بن يونس بن صلاح الدين بن إدريس البهوتي (١٠٥١هـ)، فأمّا كشاف القناع فقد فرغ من تأليفه سنة ١٠٤٦هـ، وشرح به

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٣٩ ـ ٤٤١.

متن الإقناع لطلب الانتفاع لموسى بن أحمد الحجاوي (٩٦٨هـ).

والمتن جرّد مؤلفه في تحرير نقوله واختصارها وجرّده غالبا عن الدليل والتعليل، وجعله على قول واحد وهو ما رجّحه أهل الترجيح، وربّما ذكر بعض الخلاف لقوّته، أو عزا حكما إلى قائله خروجا من تبعته، وقد تصدّى البهوتي لشرحه شرحاً مفيدا دعّمه بالدليل والتعليل، ومزج الشرح بالأصل، فلا يميّز بينهما إلاّ صاحب بصيرة، وتتبّع المصادر التي استقى منها صاحب المتن متنه، كالمقنع والمحرّر والفروع والمستوعب، وما تيسّر للبهوتي الاطّلاع عليه من شروح تلك المصادر وحواشيها كالشرح الكبير والإنصاف وغيرها، وكان تعويله في الغالب على شرح المنتهى والمبدع، كما صرّح بذلك.

وربّما عزا بعض الأقوال لقائليها خروجا من عهدتها، وذكر ما أهمله صاحب الإقناع من القيود، وحفل الشرح بذكر علل الأحكام وأدلّتها على طريق الاختصار، وبيّن المعتمد من المواضع التي تعارض كلام صاحب المتن فيها، وما خالف فيها المنتهي، متعرّضا لذكر الخلاف فيها ليعلم مستند كلّ منهما.

وكتب الشيخ محمد الخلوتي عليه تعليقات جرّدت بعد موته، ولصاحبه كتاب في شرح غريب لغاته[1].

وأمّا الروض المربع فقد شرح به زاد المستقنع في اختصار المقنع لموسى بن أحمد الحجاوي أيضاً، فقصد إلى توضيح غامضه وتوضيح معانيه ودقائقه، وحلّ مشكله والإشارة إلى مسائل تمسّ الحاجة إليها وفوائد يحتاج إليها، ونبّه على ما خالف فيه المذهب[2].

وقد تميّز بعبارته المختصرة الواضحة وأسلوبه الرفيع، فكان من

---

(١) الإقناع في فقه الإمام أحمد ٢/١، دار المعرفة بيروت، كشّاف القناع ١٠/١، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٤١ ـ ٤٤٢ شذرات الذهب ٣٨٤/٨.

(٢) الروض المربع شرح زاد المستقنع ١/١، دار المؤيّد ومؤسسة الرسالة.

مظاهر العناية به كثرة الحواشي التي كتبت عليه.

ـ ٨ ـ ٩ ـ غاية المنتهى ودليل الطالب:

كلاهما للشيخ مرعي بن يوسف بن أحمد الكرمي ـ نسبة لطور كرم قرية بقرب نابلس ـ ثمّ المقدسي (١٠٣٣هـ) فأمّا غاية المنتهى فقد جمع فيه بين «الإقناع» و«المنتهى» وسلك فيه مسالك المجتهدين فأورد فيه اتّجاهات له كثيرة، يعنونها بلفظ: ويتّجه، ولكنّه جاء متأخّراً على حين فترة من علماء هذا المذهب، حيث تمكّن التقليد من أفكارهم، فلم ينتشر انتشار غيره من كتب التقليد.

وتصدّى لشرحه أبو الفلاح عبدالحيّ بن محمد بن العماد فشرحه شرحاً لطيفا دلّ على فقهه وجودة قلمه، لكنّه لم يتمّه، ثمّ ذيّل على شرحه هذا العلامة الجراعي فوصل فيه إلى باب الوكالة ثمّ اخترمته المنيّة، ثمّ تلاهما الشيخ الفقيه مصطفى بن سعد بن عبدة السيوطي الرحيباني ثمّ الدمشقي (١٢٤٣هـ) فاستوفى شرحه وكان ينقل المسألة من «المنتهى» ثمّ ينقل عبارة شرحها للشيخ منصور البهوتي، وينقل أيضاً المسألة من كتاب «الإقناع» ثمّ ينقل عبارة شرحه، وكان إذا وصل إلى اتّجاه لم يحقّقه، بل قصارى أمره أن يقول: لم أجده لأحد من الأصحاب، فكان كتابه عبارة عن جمع بين الشرحين من غير تصرّف.

ثمّ تلاه تلميذه حسن بن عمر بن معروف الشطي (١٢٧٤هـ) فأخذ في مواضع الاتّجاه من الغاية والشرح وانتصر للشيخ مرعي وبيّن صواب تلك الاتّجاهات، ومن قال بها غيره من العلماء، وذكر في غضون ذلك مباحث رائقة وفوائد لا يستغنى عنها[١].

وأمّا دليل الطالب لنيل المطالب فهو مختصر بالغ مصنّفه في إيضاحه، وبيّن فيه الأحكام أحسن بيان ولم يذكر فيه إلاّ ما جزم بصحّته أهل

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

التصحيح، وما عليه الفتوى فيما بين أهل الترجيح.

اعتنى فقهاء الحنابلة بشرحه، ومن أهمّها الشرح المسمّى بمنار السبيل شرح الدليل لإبراهيم بن محمد بن سالم بن ضَوْيان (١٣٥٣هـ) ذكر فيه الدليل والتعليل ليكون وافيا بالغرض من غير تطويل، وزاد في بعض الأبواب مسائل يحتاج إليها، وربّما ذكر رواية ثانية أو وجهاً ثانياً لقوّة الدليل، واعتمد في نقله على: كتاب الكافي لموفق الدين ابن قدامة (٦٢٠هـ) وعلى شرح المقنع لعبدالرحمٰن ابن قدامة (٦٨٢هـ) وكتاب الفروع لابن مفلح والقواعد لابن رجب وغيرها من كتب الحنابلة[١].

ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ـ كافي المبتدي وأخصر المختصرات ومختصر الإفادات:

هذه المتون الثلاثة للفقيه محمد بن بدر الدين بن بلبان (١٠٨٣هـ) الذي كان يقرأ الفقه لطلاب المذاهب الأربعة، وقد اعتنى الفقهاء من بعده بكتبه.

فأمّا «كافي المبتدي» فشرحه أحمد بن عبدالله بن أحمد الحلبي الأصل (١١٨٧هـ) شرحاً لطيفاً محرّراً وسمّاه: الروض النديّ شرح كافي المبتدي.

وأمّا أخصر المختصرات فهو متن مختصر جدًّا، اختصر فيه كافي المبتدي، وقد شرحه عبدالرحمٰن بن عبدالله بن أحمد الدمشقي (١١٩٢هـ) شرحاً محرّراً منقّحاً.

وأمّا مختصر الإفادات فهو وسط بين الإسهاب والإيجاز، استمدّه صاحبه من «الإقناع»، وصدّره بالعبادات ثمّ أحكام البيع والربا، ثمّ كتاب الآداب وفصّله فصولاً، ثمّ أتبعه بفضل الصلاة على النبيّ ﷺ، وفضل ذكر الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإخلاص، ثمّ أتبع

(١) منار السبيل في شرح الدليل ١/٥، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

ذلك بعقيدته التي اختصر بها «نهاية المبتدئين» لابن حمدان، ثمّ ختم الكتاب بوصيّة نافعة[١].

واعتنى فقهاء الحنابلة في هذا الدور كذلك بمصادر الدور السابق، وخاصّة منها مصنّفات موفّق الدين ابن قدامة، فصنّف القاضي علاء الدين المرداوي المعروف بابن مغلى (٨٢٨هـ) كتاباً على مقنع ابن قدامة وسمّاه التنقيح المشبع في تحرير أحكام المقنع، ذكر فيه أنّه اقتضب ما في كتاب الإنصاف من تصحيح ما أطلق الشيخ موفّق الدين في المقنع من الخلاف[٢].

وكان أوّل من شرح المقنع هو الإمام عبدالرحمٰن بن محمد بن أحمد بن قدامة (٦٨٢هـ) سلك فيه مسلك الاجتهاد في المذهب حيث اعتمد على ذكر المسألة من المقنع، ثمّ يذكر مذهب الموافق فيها والمخالف لها، ويذكر ما لكلّ من دليله، ثمّ يستدلّ ويعلّل للمختار، ويزيّف دليل المخالف[٣].

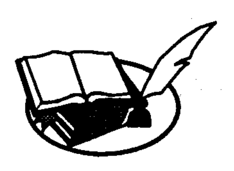
ثمّ شرحه سيف الدين أبو البركات ابن المنجا (٦٩٥هـ) وسمّاه الممتع شرح المقنع، قال في مقدمة كتابه أنّه أحبّ أن يشرح المقنع ويبيّن مراده ويوضّحه، ويذكر دليل كلّ حكم ويصحّحه، وطريقته أنّه يذكر المسألة ويبيّن دليلها، ويحقّق المسائل والروايات، ولم يتعرّض لغير مذهب الإمام أحمد[٤].

ومن شروحه أيضاً: شرح القاضي برهان الدين إبراهيم بن محمد الأكمل ابن مفلح (٨٨٤هـ) مزج المتن بالشرح، ولم يتعرّض فيه لمذاهب المخالفين إلاّ نادرا، ومال فيه إلى التحقيق وضمّ الفروع سالكا مسلك

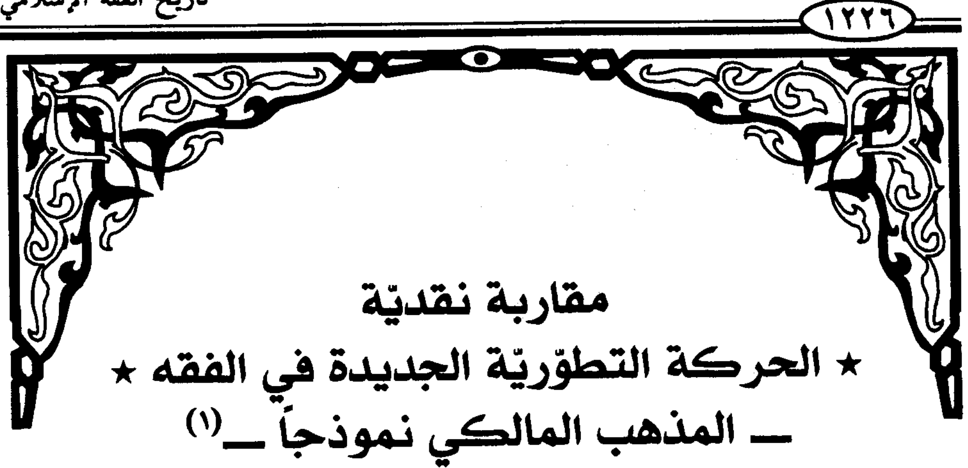
---

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.
(٢) كشف الظنون ٦٥٢/٢.
(٣) المدخل إلى مذهب أحمد ص ٤٣٥.
(٤) المدخل إلى مذهب أحمد ص ٤١٩ و٤٣٥ ـ ٤٣٦.

المجتهدين في المذهب، ولذلك اعتبر هذا الشرح أنفع شروح المقنع للمتوسّطين، وعلى طريقته سار شارح «الإقناع» ومن استمدّ[١].



(١) المدخل إلى مذهب أحمد ص ٤٣٥.



مقاربة نقديّة
★ الحركة التطوّريّة الجديدة في الفقه ★
ـ المذهب المالكي نموذجاً ـ(١)

لمّا بدأ الفقهاء يجنحون إلى معنى من الالتزام والاختصار انتقل بذلك الفقه من وضع التنقيح إلى وضع التقنين الذي هو وضع المختصرات المقتصرة على بعض الأقوال الفقهيّة التي كانت مدوّنة في مصادر دور الترجيح ودور التطبيق.

وابتدأت على ذلك تظهر الأوضاع المختصرة التي هي المتون التي عكف الناس عليها والتزموها من مثل مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي، وكتاب الكنز للنسفي في الفقه الحنفي، وكتاب المنهاج للنووي في الفقه الشافعي، إلى غير ذلك.

فتميّز القرن السابع بكونه قرن التزام للمنهج التقنيني الذي هو مبني على الاقتصار والاختصار، وفي الوقت الذي كان فيه الشيخ خليل في القرن الثامن يغرق في طريقة الالتزام ويساير ابن الحاجب ـ رجل

---

(١) محاضرات مغاربيّة ص٨٥ ـ ٨٨، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص ٦٨ و١٠٤، ومضات فكر ١/١٤٥ ـ ١٤٨، مجلّة الهداية، السنة ٢٧، صفر ـ ربيع الأوّل ١٤٢٣هـ، مقال بعنوان: فاس من خلال المخطوطات التونسيّة، وجميعها للعلاّمة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور.

المختصرات - فيزيد عليه في كثرة المسائل حتّى بلغ مائة ألف مسألة بالمنطوق غير المفهوم، ويزيد عليه بالاختصار حتّى جاء مختصر الشيخ خليل أقلّ حجما من مختصر ابن الحاجب مع أنّه يزيد عليه بالمسائل بأربعين في المائة تقريبا.

في هذا الوقت كان ابن عرفة يقاوم هذه الطريقة في دروسه وفي فتاويه وفي تأليفه المختصر، كأنّه يتحدّى به الشهرة التي اشتهر بها مختصر ابن الحاجب الفرعي.

وسلك ابن عرفة في فقهه الطريقة التي عبّر عنها أصحابه، أو عبّر عنها هو بنفسه «بالتفقّه» وهي طريقة بنيت على إحياء الأقوال المتروكة، أو المحكوم عليها بالضعف، أو المحكوم عليها بالمرجوحيّة، للنظر فيها من النواحي النقديّة التي سبق أن نظر في أمثالها على ذلك المنهج الإمام اللخمي في كتابه التبصرة.

فنشأ هذا المنهج الجديد الذي هو منهج التفقّه، وهو أنّ الراجح راجح، والمفتى به مفتى به، ولكن لا مانع مع ذلك من أن ننظر إلى غير الراجح، وإلى غير المفتى بها، وأن نناقش الأدلّة بين هذا وذاك، لا على معنى أنّنا سنفتي أو نحكم بتلك الأقوال المتروكة، ولكن على معنى أنّنا نجعل البحث فيها رياضة فقهيّة، وذلك ما عبّر عنه بالتفقّه.

وبهذه الطريقة الجديدة أحيى ابن عرفة منهج **البحث والاختيار والترجيح**، وربّما كان يأخذ ببعض ذلك في فتاويه كما نقل عنه تلاميذه، وخاصّة منهم محمد بن خلفة بن عمر التونسي المشهور بالأبّي (٨٢٨هـ).

وإذا كان ابن عرفة قد وقف بهذه الطريقة عند حدّ التفقّه لا الفقه، بحيث إنّه لم يعطها أثرا عمليّا، فإنّ تلاميذه من بعده الذين نشأوا على طريقته قد جعلوا من هذا التفقّه فقها، حيث أدخلوا في فتاويهم - ولا سيّما الذين تولّوا منصب القضاء منهم - الاختيارات والترجيحات التي كان ابن عرفة يسير عليها، كما نرى ذلك في نوازل أبي القاسم البرزلي (٨٤٤هـ)

وفي شرح ابن ناجي (٨٣٩هـ) على المدوّنة، وفي شرحه على مختصر ابن الحاجب، وفي أحكام ابن ناجي التي بنى عليها كثير ممّن أتى بعد ذلك من مخالفة العمل القضائي للراجح أو المشهور، ودرج عليها الشيخ يحيى المازوني المغيدي (٨٨٣هـ) فقيه مازونة في كتابة المشهور: الدرر المكنونة في نوادر مزونة، وتأثر بها أبو العباس الونشريسي (٩١٤هـ) في كتابه: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والمغرب، بحيث إنّها كوّنت اتّجاها جديدا قد تكون الأحداث ألجأت إليه ورجّحته، وبيّنت أنّ ما بني عليه الترجيح والاختيار إنّما كان مستندا إلى أمور من الإرهاق أصبحت غير متجلّية بتبدلّ الأحوال، ولا سيّما في الانقلابات الاجتماعيّة الهائلة التي ظهرت في القرنين الثامن والتاسع حيث عظمت في هذه الفترة مشكلة الأندلس، وتقاطر اللاجئون الأندلسيون على البلاد المغربية، وبدت نذر التدهور الاقتصادي والسياسي، وحدثت للناس في حياتهم الاجتماعيّة أقضية فقهيّة على قدر ما أحدثوا، فتطلّعوا إلى قضاء عادل بصير بالأحوال يتصرّف بالاختبار وحسن التطبيق وتحقيق مناط الأحكام، جاريا على ما يلائم التطلّعات الاجتماعيّة خاصّة وأنّ كثيراً من الأمور التي لو درجنا فيها على ما كان الفقهاء المتقدّمون يأخذون به من الترجيح لأصبحنا بذلك غير مستطعين أن نحقّق المصالح التي من أجلها شرّعت تلك الأحكام.

ولذلك تتابعت الكتب التي بدأت تستند إلى إفتاء المفتين وإلى تصرّفات القضاة فتجعل ذلك قانونا ملزما ينبغي أن تكمّل به الأوضاع الفقهيّة القديمة، فأصبح قاضي فاس أبو الحسن الزقّاق (٩١٢هـ) يجمع المسائل التي جرى فيها العمل بفاس على خلاف المشهور من المذهب المالكي «لما قد فشا من قبح حال وحيلة» فاتّخذ العمل القضائي الفاس مرجعا في الأقطار الإفريقيّة بما ورد في لاميّة الزقّاق، ثمّ ما ورد بعد ذلك في كتاب «العمليات العامّة» ممّا اختلف فيه عمل بعض المراكز المالكيّة عن بعض، وما اختلف فيه بعض تلك المراكز عن مناهج الترجيح والاختيار التي كان مأخوذا بها في المدوّنات القديمة للمذهب المالكي.

واعتمد فقهاء تونس على فقهاء فاس يدرسون كتبهم ويجمعون فتاويهم ويتنافسون في رسائلهم، فطلع عليهم الونشريسي بالمعيار، وأبو الحسن الصغيّر بتقييده على المدوّنة، وابن غازي (٩١٩هـ) بتكميله للتقييد.

واستهلّ القرن الحادي عشر بالشيخ يوسف الفاسي وأخيه عبدالرحمٰن (١٠٩٦هـ) فعمّت شهرتهما وتأبّدت بشهرة الذين تتابعوا عليها فيما بعد من آل الفاسي الفهريين مثل الشيخ عبدالقادر الفاسي(١٠٩١هـ) الذي ملأت حياته هذا القرن كلّه، والشيخ محمد المهدي الفاسي، وكان من أشهر كتب آل البيت الفاسي: نظم العمل الفاسي الذي لم يخل منه بيت فقيه.

كما عظمت شهرة الشيخ عبدالواحد بن عاشر (١٠٤٠هـ) بأراجيزه: مورد الضمآن، والمرشد المعين وما أحاط بهما من آثار الشهرة والعناية، وذاع صيت أبي العبّاس المقّري (١٠٤١هـ) غربا وشرقا، واشتهر أبو محمد ميّارة (١٠٧٢هـ) برسائله وشروحه على المرشد المعين وعلى لاميّة الزقّاق، فرسخت سمعة فاس الفقهيّة باختصاص أئمّة الفقه المالكي بفاس بتحقيق المذهب وتصحيح نقوله والرجوع إلى أمّهات الدواوين ومجاذبة الأنظار مع كبار فقهاء المذهب المالكي بمصر من أهل القرن الحادي عشر وتقويم مباحثهم، وذلك ما ظهرت به كتب الشيخ ابن رحّال (١١٤٠هـ) في تعقيبه لشرّاح المختصر الخليلي: الأجهوري وتلاميذه الشبرخيتي والخرشي والزرقاني، وذلك ما اشتهر به الشيخ محمد بن الحسن بنّاني (١١٩٤هـ) في حاشيته على الزرقاني، والشيخ محمد الرهوني (١٢٣٠هـ) في حاشيته على الزرقاني، حتّى أصبح الفقه المالكي عالة عليهم، لا يستقيم بحث فقهي بالغرب والشرق إلاّ عن طريق تحاريرهم، وختم القرن الحادي عشر بركني العلم والأدب الإمام أبي عليّ اليوسي (١١٠٢هـ) والشيخ ابن زاكور(١١٢٠هـ).

وكان يظهر مثل ذلك في غير فاس من مراكز الفقه المالكي الأخرى، لا سيّما تونس، حيث كان الشيخ قاسم عظّوم (١٠٠٩هـ) في القرن العاشر برسائله الشهيرة وتحقيقاته متّجها ـ في كثير من المسائل التي حدثت بعد

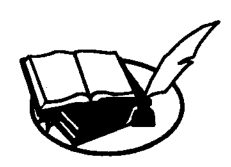
ابتداء الحكم العثماني، أو في أواخر العهد الحفصي - إلى الأخذ بالفتوى، أو الإشارة على القضاة في الحكم بأن يأخذوا بغير ما صرّح به في الكتب بأنّه الذي عليه القضاء أو عليه الفتوى، عملا بالمنازع الاجتهاديّة التي ترجع إلى هذا الضرب من الاجتهاد الذي بيّن أبو إسحاق الشاطبي أنّه لا يمكن أن ينقطع، وهو ما يعود إلى تحقيق المناط.

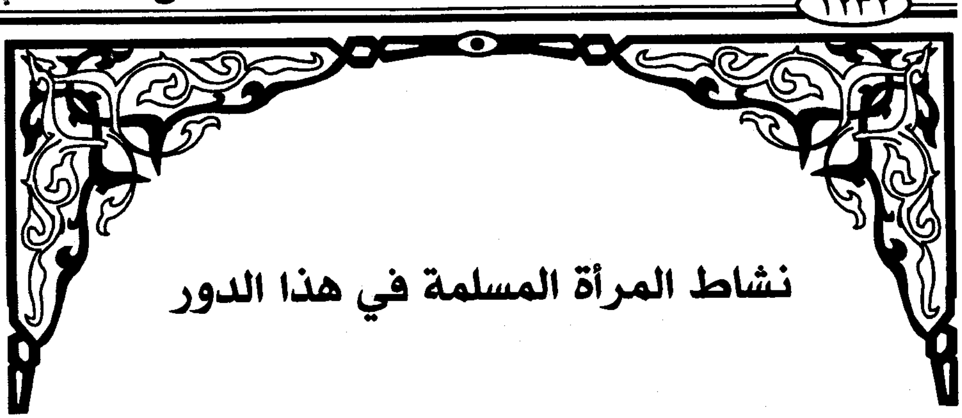
وعلى ذلك بنيت المنظومات الخاصّة بالعمل التونسي التي أشهرها كتاب «لقط الدرر في العمل المشتهر» لقاضي تونس محمد السنوسي بن مهنيّة (١٢٥٥هـ) وجرى على ذلك منهج الفقهاء في القرن الثاني عشر بين التونسيين والفاسيين، فكانت منازع الشيخ محمد التاودي ابن سودة (١٢٠٩هـ) بشرحه على العاصميّة وانتشار مجموعة فتاويه، وما نوّه به تلميذه التونسي الشيخ محمد بن سليمان المنّاعي (١٢٤٧هـ) والشيخ عليّ التسولي (١٢٥٨هـ) بشرح التحفة وحاشيته في شرح الزقّاقية ومجموعة فتاويه، تتقابل مع منازع الشيخ إسماعيل التميمي (١٢٤٨هـ) والشيخ محمد المحجوب (في الرسائل وفي الأحكام التي يمكن أن يصدق عليها بما يسمّى بالأحكام القياسيّة)، التي هي عبارة عن البحث في صور تطبيق الأحكام وبيان ما ينبغي أن يؤخذ به على ما يسنده النظر الفقهي الصحيح من تطبيق الحكم على المحلّ الذي ينطبق عليه.

ويتبع هذا مظهر من عناية التونسيين بتلك الأوضاع الفقهيّة المهمّة في حاشية حسن الشريف (١٢٣٤هـ) على شرح ميّارة على اللاميّة، وحاشية الشيخ أحمد بن الطاهر والشيخ محمد بن سلامة (١٢٦٦هـ) على التاودي.

وهكذا نستطيع أن نستخلص من خلال هذا العرض السريع أنّه رغم الجوّ العام الذي طبع هذا الدور الفقهي من انحطاط الهمم عن طلب الدليل وانكباب الناس على التقليد البحت، وتمكّن التقليد من العقول بحيث كادت مناهج المتقدّمين ومسالكهم أن تذهب أدراج الرياح، فإنّه قد انتصب لنصرة الحركة التطوّرية الجديدة في الفقه ثلّة ممّن خبروا ضرورة اختلاف مقتضيات التراجيح والاختيارات والتصرّفات بسبب اختلاف البلدان وتباين عوائدها

وأعرافها، فلم يزل بهم الفقه حيّاً نامياً متجدّداً، ولم يزل عمل التطبيق ومجاراة ما بين الفقه في أحكامه وبين الحوادث في انطباق تلك الأحكام عليها أمر واقع لم ينقطع أبداً.





نشاط المرأة المسلمة في هذا الدور

عرف هذا الدور الفقهي نساءاً اشتهرن بالفضل الباهر والتقدّم الظاهر ممّا يندر وجود أمثالهنّ، كنّ قد أحطن بالمعارف العلميّة على اختلاف أنواعها، وتوسّعن في فهم الفقه واستيعابه وتبحّرن في أحاديث الأحكام حتّى صرن مضرب الأمثال في فهم الدين والتفقّه فيه، تتخيّر الواحدة منهنّ أحياناً لنفسها في استنباط الأحكام وتتصدّر الإفتاء والتدريس وتصنّف الكتب ويقرأ عليها النساء والرجال على السواء، ويرتحل إليها أعلام عصرها يستجيزونها.

فهذه الشيخة الصالحة **أمّ زينب فاطمة** بنت عياش بن أبي الفتح بن محمد البغدادية (٧١٤هـ) كانت من العالمات الفاضلات، تحضر مجلس الشيخ تقيّ الدين بن تيميّة، وتستفيد منه ومن غيره، وكان ابن تيميّة يتعجّب من حرصها وذكائها حتّى أثنى عليها وكان يصفها بالفضيلة والعلم، ويذكر عنها أنّها كانت تستحضر كثيراً من المغني أو أكثره، ولذلك كان يستعدّ لها من كثرة مسائلها وحسن أسئلتها وسرعة فهمها.

وقد انتفع بها نساء أهل دمشق، ثمّ لمّا تحوّلت إلى القاهرة حصل بها النفع وارتفع قدرها وبعد صيتها، وكانت قد تفقّهت عند المقدسيين[1].

وهذه **أمّ محمد زينب** (٧٢٢هـ) بنت أحمد عمر بن أبي بكر بن شكر

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٧٢، الدرر الكامنة ٤/٢٢٦.

المقدسي يرتحل إليها الطلبة، وحدّثت بمصر والمدينة المنوّرة[١].

وأمّ **عبدالله زينب** (٧٤٠هـ) بنت الكمال أحمد بن عبدالرحيم المقدسية التي تفردت وروت كتبا كبارا حتى تكاثر عليها الطلبة وتزاحموا للأخذ عنها، وكان ممّن قرأ عليها ابن أختها شمس الدين محمد (٧٨٩هـ) ابن المحب الحنبلي المعروف بالصامت، والشيخ سعد بن عبدالله السبكي (٧٩٩هـ)[٢].

وهذه **مريم ستّ القضاة** (٧٥٨هـ) بنت الشيخ عبدالرحمٰن بن أحمد بن عبدالرحمٰن الحنبلية التي أجازت لولدها شمس الدين بن عبدالقادر النابلسي، وذكر ابن حجر أنّها أجازت كذلك لشيخته **فاطمة بنت خليل** الحنبليّة[٣].

وهذه **زينب** (٧٩٩هـ) بنت عبدالله بن عبدالحليم بن تيميّة الحنبلية بنت أخي الشيخ تقي الدين، قد سمعت من أعلام عصرها وأجازت للشيخ ابن حجر العسقلاني[٤].

وكان ممّن أجاز لابن حجر كذلك من أعلام النساء في القرن الثامن:

خديجة بنت العماد أبي بكر بن يوسف بن عبدالقادر الخليليّة (٨٠٢هـ) ثمّ الصالحيّة[٥]، و**شمس الملوك** (٨٠٣هـ) بنت ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الدمشقية[٦]، و**أمّ عمر**(٨٠٥هـ) **كلثوم** بنت الحافظ تقيّ الدين محمد بن رافع السلامي الدمشقية[٧]، وسمع على **زينب**

---

(١) شذرات الذهب ٢١٠/٦.
(٢) شذرات الذهب ٣٠١/٦، ٣٠٧ و٥٤/٧، ١١٣، الدرر الكامنة ١١٧/٢.
(٣) شذرات الذهب ٣٧٦/٦، الدرر الكامنة ٣٤٥/٤ ـ ٣٤٦.
(٤) شذرات الذهب ١١٣/٧.
(٥) شذرات الذهب ١٤٠/٧، الضوء اللامع ٢٧/١٢.
(٦) شذرات الذهب ١٥٣/٧، الضوء اللامع ٦٩/١٢.
(٧) شذرات الذهب ١٧٨/٧، الضوء اللامع ١١٨/١٢.

(٨٠٣هـ) **بنت العماد** أبي بكر بن أحمد بن محمد بن محمد بن جعوان[١]، وسمع من **ستّ الكلّ** (٨٠٣هـ) بنت أحمد بن محمد الزين[٢]، وسمع كذلك من **خديجة** (٨٠٣هـ) بنت أبي بكر بن عبدالملك الصالحية المعروفة **ببنت اللوري**[٣]، ومن **عائشة** (٨٠٣هـ) بنت أبي بكر بن محمد بن عمر بن قوام البالسية، الصالحية[٤].

وكان ابن حجر قد قرأ الكتب الكثيرة على **أمّ يوسف فاطمة** بنت محمد بن عبدالهادي المقدسية الصالحية الحنبلية (٨٠٣هـ) ومدحها بقوله: ونعمة الشيخة كانت[٥].

كما قرأ على **أمّ عيسى** (٨٠٦هـ) **مريم** بنت أحمد بن أحمد بن شمس الدين محمد بن إبراهيم الأذرعي، الكثير من مسموعاتها، وأشياء كثيرة بالإجازة، ومدحها بقوله: ونعمت الشيخة كانت ديانة وصيانة ومحبّة في العلم[٦].

وروى عن **عائشة** (٨١٦هـ) بنت محمد بن عبدالهادي بن محمد بن قدامة المقدسي الأصل أبوها، الصالحية الحنبلية المذهب، وقرأ عليها كتباً عديدة، وأخذ عنها الأئمة[٧].

وسمع عن **سارة** (٨٠٥هـ) بنت عليّ بن عبدالكافي السبكي[٨].

وغيرهنّ كثيرات.

وهذه **دهماء** (٨٣٧هـ) أخت الإمام المهدي أحمد بن يحيى، كانت

---

(١) شذرات الذهب ١٥٢/٧ الضوء اللامع ٤٠/١٢.
(٢) شذرات الذهب ١٥٢/٧، الضوء اللامع ٥٧/١٢.
(٣) شذرات الذهب ١٥٢/٧، الضوء اللامع ٢٦/١٢.
(٤) شذرات الذهب ١٥٧/٧، الضوء اللامع ٥٧/١٢.
(٥) شذرات الذهب ١٥٨/٧، الضوء اللامع ١٠١/١٢.
(٦) شذرات الذهب ١٨٠/٧، الضوء اللامع ١٢٤/١٢.
(٧) شذرات الذهب ٢٥٠/٧، الضوء اللامع ٨١/١٢.
(٨) شذرات الذهب ١٧٥/٧، الضوء اللامع ٨١/١٢.

عالمة فاضلة، أخذت العلم عن أخيها وقرأت عليه، ثمّ صنّفت شرحاً لمنظومة الكوفي في الفقه والفرائض، وشرحت مختصر المنتهى، وكانت تدرس الطلبة بمدينة ثلا حتى توفيت هناك(١).

وكذلك كانت **فاطمة** بنت الإمام المهدي أحمد بن يحيى مشهورة بالعلم، ولها مع والدها مراجعات في مسائل فقهية، حتى قال والدها: إنّ فاطمة ترجع إلى نفسها في استنباط الأحكام، وكان زوجها الإمام المطهر يرجع إليها فيما يشكل عليه من مسائل، وإذا ضايقه طلبة العلم في بحث، دخل إليها فتفيده الصواب، فيخرج بذلك إليهم، فيقولون ليس هذا منك، وإنّما هو من خلف الحجاب(٢).

وهذه **ستّ العيش** (٨٤٠هـ) أمّ عبدالله وأمّ الفضل عائشة بنت القاضي علاء الدين بن محمد بن علي الكنانية العسقلانية الأصل، ثمّ المصريّة الحنبلية، حضرت على جدّها فتح الدين القلانسي، وسمعت من العزّ ابن جماعة، والقاضي موفق الدين الحنبلي، وناصر الدين الحراوي، ولها إجازة من محبّ الدين الخلاطي وجماعة من الشاميين والمصريين، وأكثر عنها الطلبة وسمع عليها الأئمّة وكانت من الذكاء على جانب كبير تطالع كتب الفقه فتفهم وتحفظ(٣).

وأمّ عبدالله نشوان بنت جمال الدين عبدالله بن عليّ الكنانية ثمّ المصريّة الحنبلية (٨٧٧هـ) روى عنها جماعة من الأعيان منهم القاضي كمال الدين الجعفري النابلسي، وكان قريبها قاضي الحنابلة عزّ الدين الكناني لا يقوم لمن يدخل عليه بيته من النساء إلاّ لها لعلوّ همّتها وعقلها وتدبيرها، وقد حمد طلبة العلم محبتها فيهم وصبرها عليهم(٤).

---

(١) البدر الطالع ص ٢٥٩.
(٢) البدر الطالع ص ٥٤٣.
(٣) شذرات الذهب ٣٦٩/٧، الضوء اللامع ٧٨/١٢ ـ ٧٩.
(٤) شذرات الذهب ٤٦٦/٧، الضوء اللامع ١٢٩/١٢ ـ ١٣٠.

وهذا التقي الفاسي المالكي شيخ الحرم قد سمع بالمدينة من **فاطمة ابنة الشهاب الحرازي**، وقرأ بالقاهرة على مريم ابنة الأذرعي(١).

وهذا إبراهيم بن عليّ بن عطية بن ظهيرة (٨٩١هـ) الشافعي عالم الحجاز ورئيسه، قد أجاز له علماء كثيرون منهم: جدّته لأبيه **كمالية** ابنة القاضي تقي الدين الحراني، وجدّته لأمّه **كمالية** ابنة القاضي علي النويري(٢).

وكان محبّ الدين أبو بكر أحمد بن شرف الدين (٩١٦هـ) خطيب الخطباء بالمسجد الحرام الشافعي، قد أخذ على جدّته لأمّه **أمّ الفضل خديجة**، وتدعى سعادة بنت وجيه الدين عبدالرحمٰن بن أبي الخير(٣).

وهذه **عائشة** بنت يوسف بن أحمد بن ناصر بنت الباعوني **المعروفة بالباعونية** (٩٢٢هـ) العالمة العاملة التي نالت من العلوم حظًا وافرا، قد أجيزت بالإفتاء والتدريس، وألّفت عدّة مؤلفات، ووضعت الشروح، ولخّصت المصنّفات واختصرت الكتب، وكتبت الأراجيز(٤).

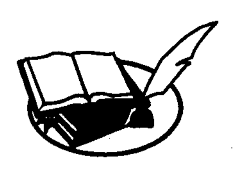
وهذه الشيخة الصالحة المتفقّهة الحنفيّة **خديجة** (٩٣٠هـ) بنت محمد بن حسن البابي الحلبي المعروف بابن البيلوني الشافعي، تختار مذهب أبي حنيفة مع أنّ أباها وأخوتها شافعيون(٥).

فلا غرابة بعد ذلك أن ترتقي المرأة العالمة إلى منصب الشورى وتستأثر به في بعض البلدان من دون الرجال، فنرى الشيخ فتح الله بن عبدالله بن موسى من علماء زليطن الليبيّة الذي تولّى القضاء سنة ١٠٤٠هـ

---

(١) الضوء اللامع ١٨/٧.
(٢) الضوء اللامع ٨٩/١.
(٣) شذرات الذهب ١١١/٨.
(٤) شذرات الذهب ١٥٢/٨.
(٥) شذرات الذهب ٢١٤/٨ _ ٢١٥.

في عهد رمضان داي والي طرابلس، يستخلص لمشورته مريم بنت فواز الشبلية[١].



(١) أعلام ليبيا ص ٤١، إحالة رقم ٢.



استخلاص ونتائج

إنّ أهمّ ما نخرج به من نتائج واستخلاصات من هذا الدور الفقهي الذي استمرّ على مدى ستّة قرون، هو:

ـ ١ ـ أنّ التأليف الفقهي منذ بداية هذا الدور، أصبح يسير على منهجين:

الأوّل: منهج متابعة التلخيص والتحرير والتهذيب لمسائل الأحكام الموضوعة على الأسلوب الذي تركناه في الدور السابق.

والثاني: منهج التفاصيل في الصور العمليّة لمسائل الأحكام والتوثيق ودراستها من حيث الوفاء بتحقيق المصالح الشرعيّة المنوطة بها على حسب مقتضيات الأحوال، وقد ظهرت على هذا المنهج الثاني كتب الأحكام والتوثيق، وتبعها ازدهار التحقيق الفقهي في جزئيات المسائل العمليّة الذي طفحت به الفتاوى والرسائل، ونشأت من هذا الاتّجاه القضائي التوثيقي أن انفتحت للقضاة أبواب واسعة للاجتهاد[1].

ـ ٢ ـ أنّ هذا الدور الفقهي قد شهد تطوّرا دخل على المعاني الفقهيّة وألفاظها الاصطلاحيّة، وعرف نزعة قويّة إلى تحليل المعاني وتمحيصها أنتجت تدقيقا في المصطلحات والضوابط ارتبطت به التحارير الفقهيّة في المذاهب، وحفلت به الرسائل والفتاوى، واستندت إليه تصرّفات القضاة

---

(١) ومضات فكر ٧٢/٢ ـ ٧٣.

التي تولّد عنها اختلاف جريان العمل وتطوّر الصيغ التوثيقيّة(١).

وانضمّ إلى ذلك التطوّر الذي دخل على المعاني الفقهيّة وألفاظها الاصطلاحيّة، عمل آخر قصد به إلى ضبط المعاني الفقهيّة الفرعيّة بذاتها، بوضع حدود لأبواب العبادات وضروب المعاملات والعقود بطريقة التحديد المنطقي الجامع المانع.

ـ ٣ ـ أنّ طرق التدريس كانت تختلف باختلاف الشيوخ، فمنهم من كان يعتمد على طريقة تقليدية، وهي الطريقة التي تعتمد على النقل والحفظ والتلقّي المحض، ومنهم من كان يعتمد على طريقة النظر والمناقشة والتعمّق في البحث الذي يرشد إلى طريق الاجتهاد في الفروع وتعليل الأحكام، وإثارة وجوه الخلاف والردّ عليها، وقد كان لهذه الطريقة أثرها في ازدهار المباحث الفقهية في هذا الدور.

ـ ٤ ـ أنّ أكثر الفقهاء قد غلب عليهم التقليد وألفوا الجمود واشتغلوا إمّا بشرح المطوّلات المملّة أو بحلّ الرموز التي عقدها من قبلهم، فتخدرت الأنظار بسبب الاختصار، وصرفت الأعمار في تتبّع التدقيقات ممّا لا تدعو الحاجة إليه في غالب الأحيان، ولا يفيد إلاّ فائدة قليلة جدّا، نسيانا منهم لمقاصد الشريعة.

وصار أغلبهم مذهبيين لا فقهاء مجتهدين إلى الحدّ الذي أصبح فيه المذهب مقدّم عند أصحابه على الكتاب والسنة لانحطاط الهمم عن طلب الدليل وانشغالها بالتقليد المحض، حتى بلغ الأمر ببعض الفقهاء أنّهم كانوا يؤثرون مذهبهم في بعض المسائل على ما يعلمونه صحيحاً ثابتا عن رسول الله ﷺ، فإذا جوبهوا بذلك قالوا: ولكن المرء يدافع عن مذهبه في الظاهر(٢).

فهذا متعصّب جدّا يعادي غيره من أصحاب المذاهب، كثير الحطّ

(١) ومضات فكر ٧٤/٢.

(٢) البدر ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

على علمائهم يتمنى تلفهم، ويدّعى بطلان الصلاة برفع اليدين فيها، ويصنّف في ذلك كتاباً[١]، وذاك يقع في أئمّة المذاهب ويرى ذلك عبادة[٢].

وهكذا سقط الفقه في هوّة سحيقة، وصار الخلاف نقمة بسبب الفرقة حتّى اصطلح البعض على تسمية هذا الدور بعصر الانحطاط أو عصر الجمود والتأخّر نظرا لانحطاط الهمم عن طلب الدليل وانكباب الناس على التقليد المحض، وأصبحت الحاجة إلى النظر والتحقيق والترجيح ضعيفة جدّا إن لم نقل منعدمة عند هذا الصنف من الفقهاء بحيث كادت معه مناهج المتقدمين ومسالكهم أن تذهب أدراج الرياح.

ولكن رغم ذلك فإنّ هذا الدور قد أنتج من العلماء الكبار ممّن يعملون بالأدلّة ويذهبون إلى الاجتهاد، ويدعون التعويل على التقليد، ممّن يقلّ نظيرهم من أهل العصور المتقدّمة، حيث كملت لديهم آلات الاجتهاد فلم يتعصبوا لمذهب بل يدورون مع الدليل حيث دار، حتّى صارت لهم اختيارات يخالفون فيها أحياناً المذاهب الأربعة لما يظهر لهم من دليل الحديث كما هو الشأن بالنسبة للشيخ العلامة شمس الدين محمد بن يوسف بن إلياس (٧٨٨هـ)[٣]، وابن تيميّة وجلال الدين السيوطي والإمام الشوكاني وغيرهم.

ولم يكن هذا المنهج ليغيب عن كثير من إخوانهم الفقهاء الذين سموا بأنفسهم وارتقوا إلى البحث في المسائل المتفق عليها والمختلف فيها بين الأئمّة الأربعة، وذكر دليل كلّ حكم وتصحيحه، فقد ذكر شهاب الدين القرافي في الفرق الثامن والسبعين: أنّه يجب على فقهاء العصر تفقد مذاهبهم فكل ما وجدوه على خلاف الإجماع أو القواعد أو النصّ أو القياس الجليّ السالم من المعارض الراجح، يحرم عليهم الفتيا به ولا

---

(١) شذرات الذهب ٣٧٤/٦، البدر الطالع ص ١٧٤.

(٢) شذرات الذهب ٥٥/٧.

(٣) شذرات الذهب ٥٠/٧.

يعرى مذهب من المذاهب عنه[١].

وهكذا سعى هذا الصنف من الفقهاء إلى تحقيق المسائل وشرحها مع ذكر أدلّتها ومذاهب المخالفين لها، وبيان مقاصدها، وصنّفوا الكتب في الفقه المقارن، فاشتملت تآليفهم مذاهب الأئمة الأعلام وأتباعهم، مع الاعتناء بنصوص هؤلاء الأئمة وفتاويهم، والاجتهاد في تحرير النقول، وتحقيق وجه ارتباطها بأصولها حتى رأينا جمال الدين التحريري المالكي (٨٠٧هـ): يحبّ الفقهاء الشافعيّة وتعجبه مذاكرتهم[٢]، ورأينا ابن الجمال المكي الشافعي (١٠٧٢هـ) الذي كان شافعي المذهب وكتب في الانتصار لإمام مذهبه كتاباً سمّاه: الانتصار النفيس لجناب محمد بن إدريس ـ أي الإمام الشافعي ـ لم يمنعه ذلك من شرح نظم الدر المهتدي في الفرائض على مذهب الحنفيّة[٣].

وكان الشيخ ملا عليّ قاري الحنفي (١٠١٤هـ) معروفاً بكثرة الاعتراضات على الأئمّة، ولا سيّما الإمام الشافعي وأصحابه، واعترض على الإمام مالك في إرسال يديه، حتّى نهى كثير من العلماء عن مطالعة مؤلفاته، في حين رأى غيرهم أنّ مثل تلك الكتابات هي دليل صحّة وليس علامة مرض، حتّى أنّ الإمام الشوكاني قال: «وهذا دليل على علوّ منزلته، فإنّ المجتهد شأنه أن يبيّن ما يخالف الأدلّة الصحيحة، ويعترضه، سواء كان قائله عظيماً أو حقيراً، فتلك شكاة ظاهر عنك عراها»[٤].

وهكذا عرف هذا الدور صنفين من الفقهاء كان لهم الأثر البالغ على المناهج الدراسية وعلى الإنتاجات الفقهيّة تأثراً وتأثيراً، وقد مسكا الحركة الفقهية من طرفيها، بين الحركة والجمود، وبين اليقظة والركود.

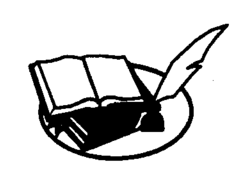
ـ ٥ ـ أنّ كثيراً من الفقهاء لم يكونوا بمعزل عن أوضاع الحياة

---

(١) الفروق ٢/١٠٩.
(٢) شذرات الذهب ٧/١٩٣ ـ ١٩٤، الضوء اللامع ٥/٤٢ ـ ٤٣.
(٣) كشف الظنون ٥/٦٠٦ ـ ٦٠٧.
(٤) البدر الطالع ص ٤٤٩.

الاجتماعيّة والاقتصادية والسياسية، فمنهم من اشتهر إضافة إلى تحصيل العلم بمواقفه الجهاديّة ضدّ الاستعمار، وتحرّيك عزائم أهل الإسلام لنصرة الدين، حتّى نال الكثير منهم شرف الشهادة في سبيل الله، ومنهم من أسهم بمواقفه في تصوّر طرق الإصلاح وسياسة البلاد، وبمشاركته المتميّزة في النشاط الوطني، فكانوا محلّ تقدير وإعجاب.

- ٦ - لمّا سيطر العثمانيون على سائر البلاد الإسلاميّة، انضاف إلى المراكز الفقهيّة القديمة، مركزا عظيما من مراكز التوجيه الفقهي والتخريج فيه، وهو المركز التركي الذي أسّس للعلم في العاصمة الإسلاميّة الجديدة أساسا راسخا، وازداد المذهب الحنفي نشاطا وانتشارا في سائر المراكز الفقهيّة الأخرى، ودخل بلاد المغرب العربي التي كان قد انفصل عنها منذ الأدوار الأولى، وفرض وجوده إلى جنب المذهب المالكي، وتواصلت الأصول المالكية والحنفية بهذا المركز كما لم تتواصل في أيّ مركز آخر، في حين استقلّ المذهب الحنبلي في أواخر هذا الدور الفقهي بالحجاز، وحلّ في قلوب أهل نجد محلاّ مقبولا.

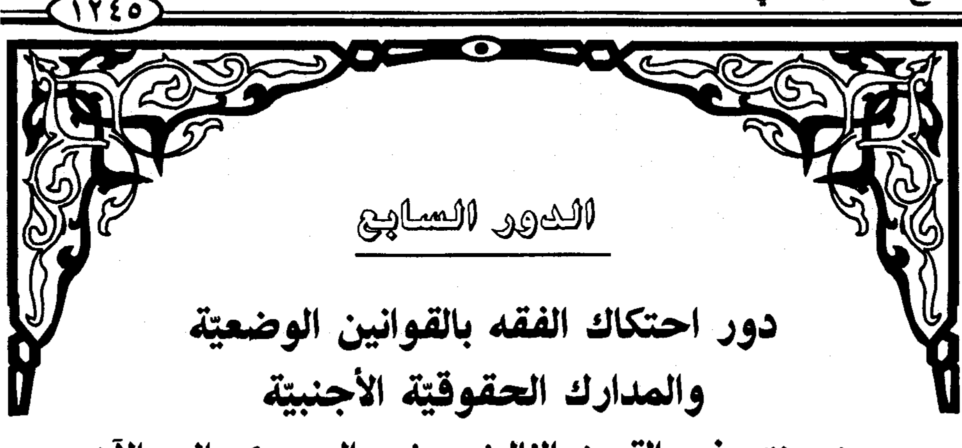





الجزء الثالث

يشمل الدور الأخير من تاريخ الفقه وهي الفترة التاريخيّة الممتدّة من منتصف القرن الثالث عشر الهجري إلى الآن.



الدور السابع

دور احتكاك الفقه بالقوانين الوضعيّة والمدارك الحقوقيّة الأجنبيّة من منتصف القرن الثالث عشر الهجري إلى الآن

تمهيد:

بينما كانت الحياة تدبّ دبيبها الهائل في الحضارة الغربيّة، وتنتهض وتهبّ من مرقدها، وتخطو إلى الأمام خطوات عملاقة، محطّمة بذلك أغلال أجيالها الوسطى تحطيما، وقابضة على العلوم، تشعل مصابيح النهضة نحو العصور الحديثة، كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدنّي والانحطاط أعمق دركة، حتّى بدا جامداً ساكناً، لا يستطيع مجاراة أوروبا اختراعاً وارتقاءاً، وتوالت الأيّام على العالم الإسلامي وهو هاجع مستغرق في هجعته لا يستيقظ، وشهدت الدولة العثمانية التي حكمت المسلمين قرونا عديدة هبوطا من شامخ عزّها إلى حضيض المذلّة والهوان، فدارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها تاريخ البشريّة.

وصاحب ذلك كلّه تفكّك في أوصال الدولة العثمانيّة، وانحلال في الولايات العربيّة منها، فإذا بالدول الغربيّة المجنونة بثورتها الصناعيّة المدجّجة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع، تحمل على جوانب العالم الإسلامي، وتخضع لها الأقطار الواحد منها تلو الآخر، بدءا بالجزائر، ثمّ اليمن، ثمّ تونس فمصر، ثمّ ليبيا والمغرب، ثمّ سوريا ولبنان

والعراق وفلسطين والأردن، وغيرها من الأقطار، ولم يمض غير اليسير من الزمن حتّى كانت الدول الأروبيّة في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري ومطلع القرن الرابع عشر قد اقتسمت جميع العالم الإسلامي، ما عدا قلب الجزيرة العربيّة.

ويومها قال الجنرال اللنبي - قائد الحملة الإنكليزيّة على الجبهة المصريّة الفلسطينيّة، حينما دخل القدس: «الآن انتهت الحروب الصليبيّة».

ووقف الجنرال كورو - القائد الفرنسي - على ضريح صلاح الدين الأيّوبي في دمشق، وقال: «ها قد عدنا يا صلاح الدين».

ثمّ كان القضاء المبرم على كيان الدولة العثمانيّة التي كانت تنازع وتلفظ أنفاسها الأخيرة، شاهداً على آخر دور من أدوار إذلال الغرب للشرق، حيث أعلن كمال أتاتورك إلغاء نظام الخلافة رمز وحدة المسلمين.

وبينما كان العالم المسيحي يقيم الأفراح في كلّ العالم احتفاء بهذا النصر، كان العالم الإسلامي في مأتم صامت يبكي عزًّا ضائعاً وملكاً مسلوباً وكرامة مهدورة وذلّة وانكساراً، يشتكي ويتوجّع، كما قال أحمد شوقي:

الهند والهة ومصر حزينة ... تبكي عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح؟

وهكذا غدت البلاد الإسلاميّة مرتعاً للغزاة الصليبيين ومرتعا للمستعمرين الغاصبين، وخضعت بلاد المسلمين عقوداً طويلة لسيطرة الغرب القاهر الذي غالى في إيلام المسلمين وقهرهم، ثمّ تحرّكت طلائع اليقظة من جسم الأمّة الساكن، واستيقظت دعوة الإصلاح النابعة من روح الإسلام في كلّ قطر من أقطار العالم الإسلامي، وظهر جيل الروّاد من المصلحين، وأخذت مبادىء التجدّد والإصلاح تنمو نموًّا مطّرداً، وتنتشر انتشاراً واسعاً، فقام في كلّ بلد من بلدان المسلمين عدد من روّاد الإصلاح ودعاته ينبّهون الغافلين ويوقظون النائمين ويحضّون الخاصّة ويستحثّون العامّة، وينادون

بوجوب استقصاء الشريعة الإسلاميّة واستدرار خيرها واستثمار الأوفق منها لمقتضيات العصر.

وتوالت الصرخات وأوقدت المصابيح فتحرّك المسلمون، وداروا حول أنفسهم فرأوا تعاسة أحوالهم، وما حلّ بساحتهم، وأخذت نفوسهم تجيش وتضطرب، ومشاعرهم تهتاج وتنبعث وقواهم تثور ثورانا عجبا بلغ أقصى أعماقه.

ورغم بحر المطامع الغربيّة الطامي، وشدّة تضييق الاحتلال الصليبي الضارب في العالم الإسلامي ومن حوله على غير انقطاع ولا حدّ، فإنّ روح الإصلاح لم تخفت، بل ظلّت تتمخّض تمخّضا شديدا منتقلة من حال حاضر إلى آخر مقبل(١).

وظهر الجيل الثاني من المصلحين من أمثال عبدالعزيز الثعالبي وسالم بو حاجب والطاهر بن عاشور بتونس ومحمد عبدة ورشيد رضا بمصر وعبدالرحمٰن الكوكبي وشكيب أرسلان بالشام وعبدالحميد بن باديس بالجزائر وعلّال الفاسي بالمغرب وغيرهم.

غير أنّ فريقا آخر من المسلمين الذين بلغت منهم مؤثرات الحضارة الغربيّة مبلغا عظيما، وتوغّل فيهم تيّارها توغّلا كبيرا، فقطعوا مع جذورهم واعتبروا أنّ ميراث الإسلام هو ميراث التخلّف والانحطاط، كانوا هم الذين تسلّموا في أغلب البلاد العربيّة زمام أمور هذه الأمّة، وتقلّدوا مواقع القرار في أغلب البلاد، وحاولوا تطبيق الأنموذج الغربي في التغيير لاختصار الطريق العربي إلى النهضة ولتحقيق التقدّم، فإذا بهم قد أوجدوا واقعا عربيّا ممسوخا مشوّها قلقا مضطربا، وطبّقوا تجربة «الحداثة والتقدّم» تطبيقا قسريّا، حيث غدت القوانين الوضعيّة الغربية هي السائدة في أنظمة الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع في أغلب البلاد العربية والإسلاميّة، فتعطّلت

---

(١) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي ٢٠/١ ـ ٢٣، ٢٥٩ ـ ٢٦٠، ٢٧٠ ـ ٢٧١، ٢٧٣ بتصرّف.

نتيجة ذلك جوانب عظيمة من أحكام الفقه الإسلامي، فكانت تجربتهم تقليدا مبتسرا لم يرافقها أيّ إصلاح فكري أو ثقافي أو نظمي.

ورغم ما حقّقته هذه الكيانات من إنجازات في مجالات زيادة المتعلّمين والأطباء والمهندسين وتوسعت في بناء الجيوش والهياكل العسكرية والأشكال النظميّة، وتكديس بعض المنتجات الاستهلاكيّة للحضارة الغربيّة الحديثة، لكنّها كانت مسؤولة عن عمليّة تجهيل المواطن العربي وتحطيم إرادته وكرامته وتدمير إنسانيته وتجاوز تراثه وتشويه هويّته وجعله يتمرّغ في التبعيّة الاقتصادية والغذائيّة والتكنولوجيّة والفكرية والثقافية والتربوية، بحيث لا يستطيع أن يستغني عن مستغلّيه من الغربيين بعد قرن ونصف من محاولات النهضة والتقدّم[1].

وقد استهدف التغريب في الدرجة الأولى إبعاد الإسلام عن المستويات السياسيّة والقانونيّة، حيث كانت الدولة الحديثة القائمة على إبداع غربيّ ملزمة منطقيّا بالتمثّل القانوني للغرب، بنقله ونسخه وتقليده، فجرى استبدال الشرع بالدساتير الغربيّة، وأبعد علماء الشريعة وفقهائها عن المجالات الحقوقيّة والإداريّة[2].

وإزاء التباين في منهج الفريقين ووسائل كلّ منهما لتحقيق الإصلاح العام في العالم الإسلامي، ونظرا للانحرافات الفكرية والثقافية والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعية التي تمّت ممارستها من قبل النخب السياسية التي أتيح لها فرصة الوصول إلى حكم البلاد الإسلاميّة، حدث صدام بين التيّارين استمرّ لفترة طويلة، بدأ فكريّا من خلال المجادلات والنقاشات السياسية ـ حول نظم الحكم ـ، والتربويّة ـ حول مناهج التعليم وبرامجه ـ، والاجتماعيّة ـ حول القضايا المتعلّقة بالمرأة ـ والاقتصاديّة ـ حول النظم الاقتصاديّة الكفيلة بتحقيق العدالة الاجتماعيّة ـ ثمّ تحوّل إلى صراع عنيف

---

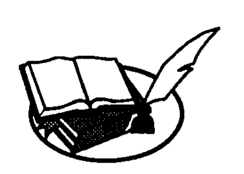
(١) فادي إسماعيل: الخطاب العربي المعاصر ص ٥ ـ ٦.

(٢) فادي إسماعيل: الخطاب العربي المعاصر ١١٤.

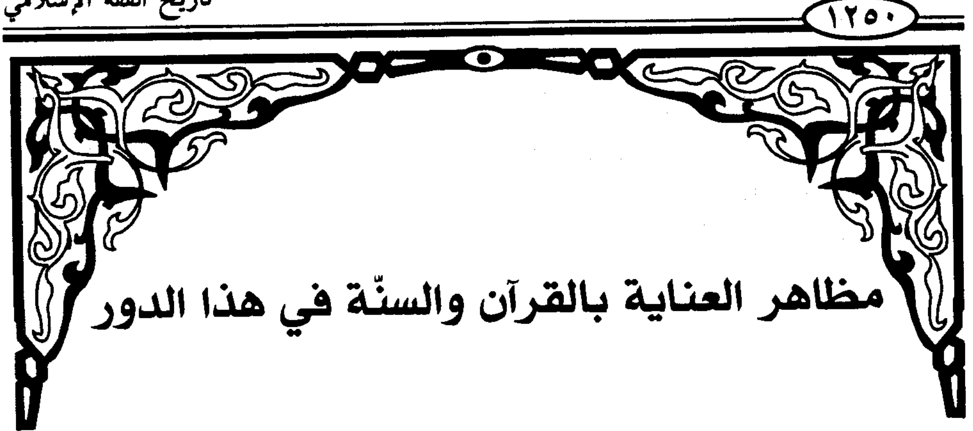
ركب خلاله الطرفان خطط العنف والمشاكسة، وحذق أنصارهما فنّ الشتم والسباب، فاتّهم الطرف الأوّل بأنّه مجتثّ من أصوله، منبتّ من جذوره، يعاني الاستيلاب الحضاري، واتّهم الطرف الثاني بالرجعيّة والماضويّة والجمود.

ويا ليته وقف الجدال عند هذا الحدّ، ولكنّه أدّى وللأسف إلى مواجهات عنيفة وابتلاءات قاسية أنتجت عنفا متبادلا ودماءً.

وككلّ المحن التي حدثت طوال الأجيال التي مرّ بها تاريخ الإسلام والمسلمين على اختلاف مظاهرها وصورها، فقد كان من شأنها أن تمهّد السبيل أمام المخلصين من أبناء الأمّة من أجل النقد والمراجعة، وإعادة النظر والتأمّل، فكان أن برز قادة هم أميل إلى انتهاج مناهج الرفق والموادعة، منهم إلى ركوب خطط العنف والمشاكسة، نأمل من وراء دعوتهم أن نجني أطيب الثمار، ورغم أنّ هناك مخاوف ومحذورات تقرأ في جبهة المستقبل، إلا أنّ في جبهة المستقبل أيضاً تقرأ الآمال الحسان[1].



(١) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي ١/٢٧٧.



مظاهر العناية بالقرآن والسنّة في هذا الدور

ـ ١ ـ القرآن الكريم:

ظلّ حال التفسير في بداية هذا الدور على ما كان عليه الحال في الدور السابق من الركود والجمود، لا يتعدّاه، ولا يحاول التخلّص منه، حتّى جاء عصر النهضة العلميّة الحديثة، فاتّجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى التحرّر من قيد هذا الركود، والتخلّص من نطاق هذا الجمود، ونظروا في كتاب الله نظرة ـ وإن كان لها اعتماد كبير على ما دوّنه الأوائل في التفسير ـ أثّرت في الاتّجاه التفسيري للقرآن تأثيرا لا يسعنا إنكاره، حيث تخلّصوا من الاستطرادات العلميّة التي حشرت في التفسير حشرا ومزجت به على غير ضرورة لازمة، وعملوا على تنقية التفسير من القصص الإسرائيلي الذي كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة على رسول الله ﷺ، أو على أصحابه عليهم رضوان الله تعالى، وألبسوا التفسير ثوبا أدبيّا اجتماعيّا يظهر روعة القرآن ويكشف عن مراميه الدقيقة وأهدافه السامية، والتوفيق بجدّ بالغ وجهد ظاهر بين القرآن وما جدّ من نظريات علميّة ثابتة، على تفاوت بين الموفّقين في الغلوّ والاعتدال[١].

وكان هذا اللون من التفسير ـ أي التفسير العلمي ـ أكثر رواجا وأعظم

---

(١) التفسير والمفسّرون ٢/٤٩٥ ـ ٤٩٦.

قبولاً عند المتأخرين، حيث استشرى أمره في هذا الدور الأخير، وراج لدى المثقّفين الذين لهم عناية بالعلوم، وعناية بالقرآن الكريم، وكان من أثر هذه النزعة التفسيريّة أن أخرج المهتمّون بها كثيراً من الكتب يحاول فيها أصحابها أن يحمّلوا القرآن كلّ علوم الأرض والسماء، وأن يجعلوه دالا عليها بطريق التصريح أو التلميح، باعتبار أنّ ذلك من أهمّ دلالات صدقه وإعجازه وصلاحيته للبقاء[1].

ومن أهمّ الكتب التي ظهرت فيها هذه النزعة التفسيريّة: كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لرجل الإصلاح الإسلامي عبدالرحمٰن الكواكبي (١٢٦٥هـ/١٨٤٩م - ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م) والكتاب عبارة عن مجموعة مقالات له، نشرها في بعض الصحف عندما زار مصر سنة ١٣١٨هـ.

وفي هذا الكتاب نجد المؤلف ينحاز انحيازا بليغا إلى التفسير العلمي، ويعتبر أنّ مسألة إعجاز القرآن أهمّ مسألة في الدين، ثمّ يأخذ في بيان ما اشتمال القرآن على ما جدّ من نظريات علميّة تؤيّد إعجاز القرآن[2].

ومال الشيخ محمد جمال الدين القاسمي (١٨٦٦م - ١٣٣٢هـ/١٩١٤م) في تفسيره محاسن التأويل، لهذه النزعة العلميّة، كما يتّضح من خلال نقله أقوال أحد أطباء عصره في مضارّ لحم الخنزير المبنيّة على التجارب الحسيّة[3].

وكان الشيخ محمود شكري الآلوسي (١٩٢٢م) - وهو حفيد الشيخ الآلوسي صاحب تفسير روح المعاني - قد وضع تأليفا بعنوان: ما دلّ عليه القرآن ممّا يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان، حاول فيه التوفيق بين القرآن وبين ما استحدثه علماء الفلك من نظريات وترجيحات وقواعد علميّة[4].

---

(١) المرجع السابق ٢/٤٩٧.
(٢) التفسير والمفسّرون ٢/٤٩٨.
(٣) المحتسب عبدالمجيد عبدالسلام: اتّجاهات التفسير في العصر الراهن ص ٥٤.
(٤) اتجاهات التفسير في العصر الراهن ص ٢٦٩.

ويظهر أنّ أستاذ المجاهدين الجزائريين الشيخ عبدالحميد بن باديس قد ساير هذا اللون من التفسير، ويتّضح ذلك من خلال دروسه التي كان يلقيها على مريديه والتي جمعت في كتاب بعنوان: تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير(١).

وكان مصطفى صادق الرافعي كذلك من أنصار هذه النزعة التفسيريّة، ومن المؤيّدين لها في كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة، وفيه عقد بحثاً خاصّاً لموضوع: القرآن والعلوم(٢).

وكذلك الدكتور عبدالعزيز إسماعيل في كتابه الإسلام والطبّ الحديث الذي جمع فيه مقالاته التي نشرها في مجلّة الأزهر، وفيه يقرّر أنّ القرآن ليس بكتاب طبّ أو فلك، ولكنّه يشير أحياناً إلى سنن طبيعيّة ترجع إلى هذه العلوم، وفسّر بعض الآيات الكونيّة تفسيرا علميّا أظهر به وجه الإعجاز فيها(٣).

ويعتبر الفيلسوف الإسلامي الشيخ طنطاوي جوهري (١٢٧٨هـ/١٨٧٠م - ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م) من أعظم علماء العصر الحديث تشيّعا للنزعة التفسيريّة العلميّة، وأكثرهم جمعا وإنتاجا لهذا التفسير العلمي في تفسيره: الجواهر، الذي حاول فيه أن يفسّر القرآن تفسيرا ينطوي على كلّ ما وصل إليه البشر من علوم، وقرّر أنّ في القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية.

غير أنّ هذا المؤلّف قد لاقى الكثير من لوم العلماء على مسلكه الذي سلكه في تفسيره، لما فيه من التكلّف الذي يذهب بغرض القرآن ويصرف القارىء عن هدي القرآن وجلاله وجماله(٤).

---

(١) اتجاهات التفسير في العصر الراهن ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩.

(٢) التفسير والمفسرون ٢/٥٠١، اتجاهات التفسير في العصر الراهن ص ٢٧٩ ـ ٢٨١.

(٣) التفسير والمفسرون ٢/٥٠٢، اتجاهات التفسير في العصر الراهن ص ٢٨٣، ٢٩١ ـ ٢٩٣.

(٤) التفسير والمفسرون ٢/٥٠٤ ـ ٥١٧، اتجاهات التفسير في العصر الراهن ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧.

وعلى نفس النهج سار تلميذه حنفي أحمد في كتابه التفسير العلمي للآيات الكونيّة في القرآن، وكذلك عبدالرزاق نوفل في كتبه: الله والعلم الحديث، والإسلام والعلم الحديث، والقرآن والعلم الحديث.

ومن أشهر المعاصرين المهتمّين اليوم بمسائل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، الدكتور زغلول النجّار، والشيخ عبدالمجيد الزنداني، اللذان أثبتا ما وصلا إليه من أبحاث في محاورات كثيرة وإنتاجات غزيرة.

ومن أشهر الذين نعوا على من يأخذ بهذا المسلك التفسيري، الشيخ محمود شلتوت، وأمين الخولي، ومحمد رشيد رضا، ومحمد مصطفى المراغي رحمهم الله.

كما أنكر الشيخ محمد عزّة دروزة (١٣٠٥هـ/١٨٨٨م ـ) في كتابه التفسير الحديث، استخراج النظريات العلميّة والفنيّة والكونيّة من الآيات القرآنيّة للتدليل على صدق القرآن وإعجازه[١].

وإضافة إلى هذا المنحى العلمي في التفسير، ظهر منهج آخر في هذا العصر يمتاز بمنحى أدبيّ اجتماعيّ، يكاد يكون جديدا وطارئا على التفسير، وهو ابتكار يرجع فضله إلى مفسّري هذا العصر الحديث، ويعود فضله إلى مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٤هـ/١٨٤٨م ـ ١٣٢٣هـ/١٩٠٥هـ).

هذه المدرسة التي نظرت للقرآن نظرة بعيدة عن التأثّر بمذهب من المذاهب، ووقفت من الروايات الإسرائيليّة موقف الناقد البصير، ولم تغترّ بما اغترّ به كثير من المفسّرين من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي كان لها أثر سيّئ في التفسير، ولم تجرؤ على الخوض في الغيبيات التي لا تعرف إلاّ من جهة النصوص الشرعيّة القاطعة، وأبعدت التفسير عن التأثّر باصطلاحات العلوم والفنون التي زجّ بها في التفسير بدون أن يكون في حاجة إليها، ونهجت بالتفسير منهجا أدبيّا اجتماعيّا كشفت من خلاله عن

---

(١) اتّجاهات التفسير في العصر الراهن ص ٦٢.

بلاغة القرآن وإعجازه، وأوضحت معانيه ومراميه، وأظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم ونظم الاجتماع، وعالجت مشاكل الأمّة الإسلاميّة خاصّة، ومشاكل الأمم عامّة بما أرشد إليه القرآن وما أثبته العلم من نظريات ثابتة، ودفعت ما ورد من شبه على القرآن وفندت ما أثير حوله من شكوك وأوهام بحجج قويّة، وذلك بأسلوب شيّق أخّاذ يستهوي القارىء[١].

غير أنّ ما يؤخذ على هذه المدرسة أنها أعطت للعقل حريّة واسعة، فتأوّلت بعض الحقائق الشرعيّة التي جاء بها القرآن، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز والتمثيل، وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لا تحتمل، وطعنت في بعض الأحاديث تارة بالضعف وتارة بالوضع مع أنّها أحاديث صحيحة رواها الشيخان.

ويعتبر الشيخ محمد عبده زعيم هذه المدرسة وعميدها، وممّن سار على منهجه وترسّم خطاه وتأثّر بطريقته، السيّد محمد رشيد رضا (١٢٨٢هـ/١٨٦٥م - ١٣٥٤هـ/١٩٣٥ م) والشيخ محمد مصطفى المراغي (١٢٩٨هـ/١٨٨١م - ١٣٦٣هـ/١٩٤٥ م) وهما خير من أنجبت هذه المدرسة[٢].

وتجدر الإشارة إلى أنّه قد ظهر في هذا العصر أشخاص تأوّلوا القرآن تأويلات زائفة على مقتضيات أهوائهم، فحرّفوا كتاب الله عن مواضعه باسم التجديد المزيّف، وبدّلوا أحكام الله باسم الحداثة والتقدّم، دون أن يراعوا في فهمه قوانين البلاغة، أو يتطرّقوا إلى تفسيره باعتماد السنّة القوليّة والعمليّة الثابتة، فأدخلوا في تفسير القرآن آراء سخيفة ومزاعم منبوذة، فتأوّلوا آيات الحدود من مثل حدّ السرقة وحدّ الزنى تأويلات لا تخضع لقواعد اللغة ولا تقرّها السنّة ولا تتّفق وحكمة التشريع، وفسّروا آيات الربا والحجاب تفسيراً يتضارب وأصول الشريعة العامّة.

---

(١) التفسير والمفسرون ٢/٥٤٧ - ٥٤٩.

(٢) انظر: المرجع السابق ٢/٥٤٩ - ٥٥١.

وقد تقبّل بعض المخدوعين من العامّة وأشباه العامّة تلك الأفهام الزائفة، في حين رفضها بكلّ إباء من حفظ الله عليهم دينهم وعقولهم[(١)].

وإضافة إلى العناية بتفسير القرآن الكريم، ظهرت في هذا الدور بوادر استئناف لحركة النشاط والتأليف في علوم القرآن، التي كان قد توقّف نموّها مع الإمام السيوطي في أواخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر، فألّف الشيخ طاهر الجزائري كتاباً بعنوان: التبيان في علوم القرآن، فرغ من تأليفه سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٧ م، وصنّف الشيخ محمد علي سلامة كتاباً حافلا سمّاه: منهج الفرقان في علوم القرآن[(٢)].

ثمّ وضع الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني كتاباً جليلا سمّاه: مناهل العرفان في علوم القرآن، عرض فيه جميع المباحث المتعلّقة بعلوم القرآن بأسلوب عذب، يتيسّر فهمه، عالج فيه شبهات العصر وضمّنه خطّا منيعا من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنّة، وجلّى أسرار التشريع وحكمه كلّما دعاه المقام، فجاء كتاباً نفيسا في موضوعه جامعا في ميدانه.

ووضع الشيخ الشهيد صبحي صالح كتاباً بعنوان مباحث في علوم القرآن، تميّز بشدّة بالتحقيق والتدقيق في المسائل، وعلى منواله كتب الشيخ منّاع قطّان وسايره في العنوان، كما وضع كثير من أفاضل العلماء كتبا تتناول بعض مباحث علوم القرآن، تمتاز بدقّة البحث، ووضعت كذلك الرسائل والدراسات الجامعيّة في مختلف الكلّيات والجامعات الإسلاميّة تتناول بالبحث بعض المسائل الدقيقة من مباحث علوم القرآن.

ـ ٢ ـ السنّة النبويّة:

تسلّمت البلاد الهنديّة منذ المرحلة الثانية من الدور السابق مشعل خدمة السنّة النبويّة، حيث أفسحت هذه البلاد صدرها لخدمة الحديث وعلومه والاعتناء برواية السنّة وبحث الروايات وانتقاد الأسانيد ونقد الرجال

(١) التفسير والمفسرون ٥٢٢/٢ ـ ٥٤٦.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ٣٨/١.

وبيان علل الحديث في همّة عظيمة، فوضعوا الشروح الممتعة والتعليقات النافعة على الأصول السنّة وغيرها والمؤلفات الكبيرة في أحاديث الأحكام وشرح الآثار[١].

ومن بين المعتنين منهم بخدمة السنّة الدكتور السيّد معظم حسين الذي اعتنى بتصحيح كتاب معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري، وقدّم له مقدّمة جليلة، عرض فيها ترجمة المؤلف، ونبذة هامّة عن تاريخ تدوين الحديث، ونشأة علم المصطلح[٢].

وقام الشيخ محمد عبدالحيّ اللكنوي الهندي (١٣٠٤هـ) بشرح كتاب المختصر في مصطلح أهل الأثر للسيّد الشريف الجرجاني، في كتاب سمّاه: ظفر الأماني في شرح مختصر الجرجاني، وقد طبع المختصر وشرحه ظفر الأماني بالهند[٣].

كما بذلت المملكة العربيّة السعودية بكلّ افتخار جهوداً في العناية بطبع الكثير من مصنّفات السنّة النبويّة، وتوزيعها مجّاناً.

وللشيخ لأبي عبدالله محمد البشير ظافر المالكي الأزهري (١٣٢٥هـ) كتاب: تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة على سيّد المرسلين.

ومن المعتنين بدراسة السنّة في هذا الدور، الشيخ المحدّث حبيب الله الشنقيطي الذي قام بجمع كتاب جليل في الأحاديث المتّفق عليها بين البخاري ومسلم في صحيحيهما، وسمّاه: زاد المسلم فيما اتّفق عليه البخاري ومسلم، رتّبه على حروف المعجم، وقد بلغت أحاديثه ألفاً ومائتين كلّها متّصلة الإسناد، ثمّ شرحه شرحاً وسطاً جمع فيه كثيراً من الفوائد الفقهيّة والحديثيّة، وسمّاه: فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد

---

(١) أبو زهو محمد: الحديث والمحدثون ص ٤٤١.

(٢) المرجع السابق ص ٤٤١ ـ ٤٤٢.

(٣) نفس المرجع ص ٤٩٤.

المسلم، كما تصدّى في هامش هذا الكتاب الجليل لبيان مواضع كلّ حديث من زاد المسلم في الصحيحين، من الكتب والأبواب ممّا يدلّ دلالة واضحة على اتّساع حفظه ونباهة شأنه ورسوخ قدمه في علوم السنّة[١].

ومن العلماء المعاصرين الذين اختصّوا بدراسة الحديث واستيعابه، الشيخ ناصر الدين الألباني الذي قام بعمليّة تجريد وتصفية لجميع الأحاديث، ووضع في ذلك: سلسلة الأحاديث الصحيحة، وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيّء في الأمّة التي اشتملت على أكثر من خمسة آلاف حديث، حيث قام بتصفية كتب التفسير والفقه والرقائق وغيرها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات المنكرة، فضلاً عن مؤلفاته الأخرى التي تدور كلّها في فلك خدمة السنّة ككتاب: ضعيف أبي داود، وضعيف الجامع الصغير، وضعيف الترغيب والترهيب وغير ذلك.

كما ألّف الشيخ محمد محمد أبو زهو كتاباً بعنوان: الحديث والمحدّثون أو عناية الأمّة الإسلاميّة بالسنّة النبويّة، نال به المؤلّف: شهادة العالميّة مع لقب أستاذ في علوم القرآن والحديث سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦ م، من الجامع الأزهر الشريف.

وألّف الشيخ الدكتور مصطفى السباعي كتاباً بعنوان: السنّة ومكانتها في التشريع، نال به المؤلف: شهادة العالميّة من درجة أستاذ في الفقه والأصول وتاريخ التشريع الإسلامي من كلّية الشريعة في الجامع الأزهر سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

وصنّف الدكتور الشهيد صبحي صالح كتاب: علوم الحديث مصطلحه، كما ألّف الدكتور محمد عجّاج الخطيب كتاب: السنّة قبل التدوين، اهتمّ فيه بدراسة عناية الأمّة الإسلاميّة بالحديث النبوي الشريف قبل مطلع القرن الهجري الثاني، كما ألّف كتاب: أصول الحديث علومه

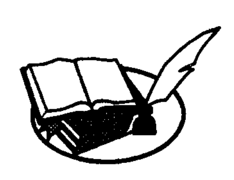
---

(١) الحديث والمحدّثون ص ٤٥٣.

ومصطلحه تناول فيه بالدراسة أهمّ القواعد والأسس التي اتّبعت في قبول الحديث وردّه، وفي تحمّله وآدائه.

وما يلحق بذلك من علوم مختلفة تتعلّق بأحوال الرواة والمرويات، وما يترتّب على ذلك من أحكام بين القبول والردّ.

وفي أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الهجري انتشرت المعاهد العليا والجامعات في مختلف البلاد الإسلاميّة التي اهتمّت بدراسة علوم الشريعة، ومنها علوم الحديث، فأقدم طلبتها على تأليف الدراسات المنهجيّة والرسائل الجامعيّة المعمّقة في مختلف فروع علوم الحديث.





مميّزات هذا الدور

ـ ١ ـ سيادة نظام الامتيازات القنصليّة:

إنّ ما ظهر في نظام الدولة العثمانيّة من أمر الامتيازات القنصليّة قد مكّن لغير المسلمين شوكة قائمة ذات شأن في المجتمع الإسلامي، وصاحب تلك الامتيازات ضعف الدول الإسلاميّة في المجال الدولي أمام الدول الأخرى، حتّى انتهى الأمر بفرض قوانين غير إسلاميّة على البلاد الإسلاميّة، بالنسبة إلى بعضها بنقل القانون الأجنبي، وبالنسبة إلى البعض الآخر بإصدار قانون باسم الدولة الإسلاميّة يخالف صريحه الأحكام الإسلاميّة، مثل القانون المشهور: بقانون الجزاء الهمايوني، وهو القانون العثماني الذي صدر سنة **١٢٧٥هـ/١٨٥٩** م، والذي بمقتضاه عطّلت رسميًا إقامة الحدود الشرعيّة بأمر من السلطان العثماني الذي يعتبر خليفة المسلمين(١).

فكان هذا المعنى من تعطيل الأحكام الشرعيّة وتقرير أحكام مخالفة لها طورا، والأخذ بقوانين تنسب إلى سيادة الامتيازات القنصليّة تارة أخرى، عاملا جديدا في زيادة تلاشي الوازع الديني في نفوس المسلمين، وأصبح المسلمون متواضعين تواضعا عمليًا على أنّ الدين معطّل وعلى أنّ أحكامه العمليّة في الحدود والمعاملات أحكام لا تقال ولا ينبغي أن تقال، وأنّ استسلامهم هذا قد أصبح أمرا مقبولا، وأصبح شعورهم الديني أو

---

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: ومضات فكر ١٤٨/١، ١٥٠.

الوازع الذي يزعهم عن مخالفة الدين عقيما أو ميّتا تماما، ولم تبق لهم من ناحية إعلانها إلاّ ناحية ما يتعلّق بنظام الأسرة وأحكام الزواج ممّا يعبّر عنه بالأحوال الشخصيّة، ذلك أنّ العدول عنها والعبث بها يعرّض الأسرة إلى أن يصير الناشئون من أبنائها ناشئين بطريقة محرّمة غير شرعيّة، وذلك ما لم يصل فتور وازعهم الديني إلى إباحته يومئذ[١].

ثمّ سارت بعد ذلك أغلب البلاد الإسلاميّة إلى اعتماد قوانين أجنبيّة خاصّة في المجالين المدني والجنائي، وكان ذلك الاختيار أعظم الأرزاء التي بلي بها المسلمون في حياتهم حيث جعلتهم يستشعرون بأنّ تلك القوانين التي يحتكمون إليها لا تنبع من ذاتيتهم ولا تمتّ إليهم بصلة، فلا يجدون لها احتراما لأنّها غير مستمدّة من روح ديانتهم، ولا يعرفون لها قداسة لأنّها ناشئة من روح غير روح حضارتهم.

ـ ٢ ـ صدور مجلّة الأحكام العدليّة:

في أواخر القرن الثالث عشر الهجري رأت الدولة العثمانيّة أنّ الحاجة ماسّة لوضع قانون مدني لتخرج محاكمها من طور الارتباك والاختلاف الناشئين عن الأقوال المختلفة في كتب الفقه الحنفي، وتقرّر الأحكام الشرعيّة على مقتضى الصياغة القانونيّة، فعهدت إلى لجنة مؤلّفة من سبعة علماء محقّقين وفقهاء مبرّزين في ذلك الوقت، برئاسة أحمد جودت باشا ناظر ديوان الأحكام العدليّة، لوضع كتاب في أحكام المعاملات «يكون مضبوطا سهل المأخذ عاريا من الاختلافات حاويا للأقوال المختارة سهل المطالعة. . . ليصير هذا الكتاب معتبرا مرعي الإجراء في المحاكم الشرعيّة مغنيا عن وضع قانون لدعاوي الحقوق التي ترى في المحاكم النظاميّة. . . ولتحصل به الكفاءة في تطبيق المعاملات الجارية على القواعد الفقهيّة على حسب احتياجات العصر».

«وبموجب الإرادة العليّة اجتمعت اللجنة في دائرة ديوان الأحكام

---

(١) ومضات فكر ١/١٥٠ ـ ١٥١.

العدليّة وبادرت إلى ترتيب مجلّة مؤلفة من المسائل والأمور الكثيرة الوقوع اللازمة جدًا من قسم المعاملات الفقهيّة، مجموعة من أقوال السادات الحنفيّة الموثوق بها، وقسّمت إلى كتب متعدّدة وسمّيت بالأحكام العدليّة»[1].

وكانت اللجنة كلّما فرغت من قسم أعطت منه نسخة لمقام مشيخة الإسلام ونسخاً أخرى لمن له مهارة ومعرفة كافية في علم الفقه ثمّ تجري ما يلزم من التعديلات بناء على بعض الملاحظات، ثمّ تحرّر نسخة مهذّبة وتعرضها على الصدر الأعظم، وكان أوّل قسم رفع إليه المقدّمة والكتاب الأوّل الذي هو كتاب البيوع.

وتمّ إنجاز هذه المجلّة في مدّة سبع سنوات، حيث صدرت الإرادة السنية السلطانيّة في سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٧م بلزوم العمل بجميع ما تضمّنته المجلّة، فجرى العمل بمقتضاها في جميع البلاد التابعة للدولة العثمانيّة ما عدا الجزيرة العربيّة واليمن ومصر.

وقد جاءت المجلّة في مقدّمة وستّة عشر كتاباً، فأمّا المقدّمة فقد اشتملت على مقالتين: تناولت المقالة الأولى تعريف علم الفقه وتقسيمه، وتناولت المقالة الثانية بيان القواعد الفقهيّة، وعددها تسع وتسعون قاعدة، وهي عبارة عن القواعد التي جمعها ابن نجيم ومن سلك مسلكه من الفقهاء رحمهم الله، وليس الغاية من جمعها ـ كما جاء في التقرير ـ أن يحكم القضاة بمجرّد الاستناد إلى واحدة من هذه القواعد ما لم يقفوا على نصّ صريح، وإنّما لما لها من فوائد كليّة في ضبط المسائل، بحيث أنّ من اطّلع عليها أمكنه أن يضبط المسائل بأدلّتها، وعن طريق هذه القواعد يمكن للإنسان تطبيق معاملاته على الشرع ولو على وجه التقريب، وبناء على

---

(١) من التقرير الذي تقدّم به المرحوم عالي باشا الصدر الأعظم، فيما يتعلّق بالمجلّة في غرّة محرّم سنة ١٢٨٦هـ/٥ ماي ١٨٧٦ (انظر: شرح المجلّة لسليم رستم الباز ص ٩ ـ ١٥، درر الحكّام شرح مجلّة الأحكام لعلي حيدر ٩/١ ـ ١٣، تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة ص ٥٤٧ ـ ٥٥٤).

ذلك لم تكتب هذه القواعد تحت عنوان كتاب أو باب، بل أدرجت في المقدّمة.

وأمّا الستّة عشر كتاباً، فكلّ كتاب منها قسّم إلى أبواب، وكلّ باب إلى فصول، وجعل في أوّل كلّ كتاب مقدّمة تشتمل على الاصطلاحات الفقهيّة المتعلّقة بذلك الباب، ثمّ بعد ذلك يقع ذكر المسائل على الترتيب، دون خلط بين بين المسائل والمبادىء كما في الكتب الفقهيّة القديمة، ولإجل إيضاح تلك المسائل الأساسيّة أدرج فيها كثير من المسائل المستخرجة من كتب الفتاوى على سبيل التمثيل(١).

ومجموع مواد المجلّة: ألف وثمانمائة وإحدى وخمسون ـ ١٨٥١ ـ مادة، ذات أرقام متسلسلة على منوال القوانين الحديثة ليسهل الرجوع إليها والإحالة عليها، اشتملت المقدمة منها على مائة مادة.

وتعتبر هذه المجلّة أعظم آثار الدولة العثمانيّة منذ نشأتها، وأوّل بوادر التجديد في الكتابة الفقهيّة المعاصرة بأسلوب الصياغة القانونيّة الحديثة، غير أنّ ما يعاب على اللجنة الرسميّة المكلّفة بوضع المجلّة أنّها التزمت المذهب الحنفي واقتصرت على الأقوال المختلفة داخل هذا المذهب دون محاولة الاستفادة من المذاهب الأخرى التي تسمح بفسحة في بعض الجوانب ممّا ضيّق فيه الحنفيّة كأحكام المشارطات العقديّة.

ولذلك فكرت الدولة العثمانية بإعادة النظر في المجلّة وأحكامها وتوسيع نطاقها وانتخبت سليم رستم الباز، وكان عضوا في مجلس شورى الدولة في الآستانة للقيام بهذا الشأن مع نخبة من فقهاء أعلام.

وكان سليم رستم الباز قد بسط للمجلّة شرحاً وافيا أوضح فيه ما غمض من أسرارها، وزاد فيها ضوابط مهمّة وفروعا كثيرة، وكان يعزو كلّ فرع إلى أصله، وأورد الحجج والدلائل وتعليلات المسائل، وبيّن ما هو الأقوى وما عليه الفتوى معتمدا في ذلك على ما نقّحه العلماء الأعلام وما

(١) انظر: التقرير في المصادر السابقة.

صحّحه الأئمة العظام من المتقدّمين والمتأخّرين[(١)].

كما قام علي حيدر أفندي ـ مدرّس المجلّة في كليّة الحقوق في الآستانة ورئيس محكمة التميز وأمين الفتيا ووزير العدليّة في الدولة العثمانيّة ـ بشرح المجلّة شرحاً وافياً عوّل عليه القضاة والمحامون، وأوجبت الدولة العثمانية تدريسه في مدرسة الحقوق، وصدقت عليه دائرة الفتيا الإسلاميّة العالية باعتباره جامعا لشرح مواد المجلّة كلّها[(٢)].

وغيرها من الشروح التي وصلت إلى أكثر من مائة، فضلاً عن الشروح المفردة لقواعد المجلّة، التي أشهرها: شرح القواعد الفقهيّة للشيخ أحمد بن محمد الزرقا، الذي سعى لجعلها مادة دراسيّة مستقلّة يجري تدريسها على حدة إلى جانب الأبواب الفقهيّة التقليديّة في برنامج المدارس الشرعية النظاميّة بسورية وتولّى تدريسها بنفسه مدّة عشرين عاما[(٣)].

ـ ٣ ـ مشروع مجلّة الأحكام الشرعيّة التونسيّة في وزارة خير الدين:

كان إصدار مجلّة الأحكام العدليّة العثمانيّة قد فتح الباب أمام البلاد التونسيّة وشجّعها على القيام بمحاولات لاستخراج تقنينات تعتمد على المصادر الإسلاميّة مع مراعاة الأحوال القطرية وأعرافها.

وذلك أنّ الوزير خير الدين باشا حين شرع في الاتّصال بالدول الأروبيّة طرحت مسألة توحيد الأحكام في القطر التونسي، حيث كان يعلم هذا الوزير أنّ دول أروبا لا ينقادون إلى إدخال رعاياهم تحت أحكام الشريعة الإسلاميّة في تونس إذا بقيت حالة القضاء على ما هي عليه آنذاك، إذ كان لكلّ من المذهب الحنفي والمذهب المالكي قاض مطلق الحكم في النوازل، مع ما يوجد بين المذهبين من الخلاف في كثير من الفروع بل وفي المذهب الواحد تختلف الأقوال، وكان للقاضي الاجتهاد في الترجيح

---

(١) شرح المجلّة لسليم رستم الباز ص ٣، ٨.

(٢) درر الحكّام شرح مجلّة الأحكام لعلي حيدر ١/٢، ٧ ـ ٨.

(٣) مقدّمة شرح القواعد الفقهيّة للشيخ أحمد الزرقا ص ١٠.

والتطبيق باعتبار الأصلح والعرف، فكان القاضي يحكم في حادثة بما يخالف حكم غيره من القضاة في مثلها من الحوادث.

وكان الأوروبيون يسعون إلى جعل الأحكام معروفة لهم من قبل، مضبوطة بما لا يتوهّمون معه ميل الحاكم إلى غير ما توجبه الحجّة، فما كان من الوزير خير الدين إلاّ أن أحضر القوانين المعمول بها في الدولة العثمانيّة المستمدّة من مجلّة الأحكام العدليّة، وكذلك القوانين المعمول بها في مصر، وكلّف أحد المهرة العارفين بالأحكام الأوروبية بأن يستخرج من أحكامهم ما يوافق حالة القطر التونسي وعرفه.

وبعد هذه الخطوات التحضيريّة شكّل الوزير لجنة تتألّف من شيخ الإسلام أحمد ابن الخوجة من علماء الحنفيّة، ومن عالمين من المجلس الشرعي من أعلام المالكيّة، وهما: الشيخ محمد النيفر المفتي، والشيخ عمر ابن الشيخ قاضي باردو، ومن أحد الوجهاء العقلاء العارفين بإصلاحات البلاد وتجارتها، وهو حسونة الحدّاد.

وكلّف هذه اللجنة باستخراج من مجموع ما قدّم لهم من وثائق، قانونا شرعيّا مطابقا للأحكام الشرعيّة والعرفية التي عليها عمل القطر التونسي من غير تخصيص بأحد المذهبين.

فاجتمعت اللجنة وخطت خطوات واسعة في هذا المشروع الذي نيط بها النظر فيه، ولكن عاق عن الاستفادة من ثمرة هذا العمل خروج الوزير خير الدين من الوزارة[(١)].

وقد ذكر الشيخ محمد البشير النيفر ـ حفيد الشيخ محمد النيفر عضو لجنة تأليف المجلّة ـ أنّ بحوزته كراريس تشتمل على فصول كثيرة ممّا وقع الاتّفاق على تدوينه[(٢)].

---

(١) محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ٢٦٩/١.

(٢) التراجم الوفيّة لأعلام الأسرة النيفريّة ص ٥٠.

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أنّه قد وقع بتونس كذلك إصدار مجلّة الالتزامات والعقود سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م التي اعتمدت اعتمادا راسخا على المصادر الإسلاميّة، وكانت قد تفوّقت في صياغتها على مجلّة الأحكام العدليّة، واهتمّت بوضع نظريّة عامّة للالتزامات.

ـ ٤ ـ قصور مجلّة الأحكام العدليّة عن الوفاء بالحاجة الزمنيّة:

رغم كثرة شروح المجلّة العثمانيّة فقد كان الشعور ـ كما يقول الشيخ مصطفى الزرقا ـ[١] بقصور هذه المجلّة عن الوفاء بالحاجة الزمنيّة يتزايد في نفوس المسؤولين، نظراً لالتزامها مذهباً واحداً وهو ما لا يكفي الأمّة في حاجاتها التشريعية المتجدّدة، ولذا كان النسخ والتعديل يتخطفان منها بين الحين والحين.

ثمّ في البلاد العربيّة المنفصلة عن الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، كان الشعور متزايدا بضرورة تغييرها بمجلّة أخرى أو بقانون مدني جديد يصاغ من شتى المذاهب، ويتلافى القصور والعيوب التي ظهرت في المجلّة.

وفي سوريا كلّفت وزارة العدل السورية إخصائيين بوضع قانون مدني مستمدّ من الفقه الإسلامي، وواف بالحاجات الزمنيّة الجديدة، وأوفدت لهذا الغرض سنة ١٩٤٩م أحد كبار القضاة إلى مصر وزوّدته بكتاب إلى الدكتور عبدالرزّاق السنهوري القانوني الشهير، ليتعاونا في وضع قانون مدني مستمدّ من الفقه الإسلامي، وبينما كان مشروع هذا القانون المدني الذي يصل التشريع الحقوقي والحاجات الحديثة فيه بماض فقهي مجيد تليد، في طريق الإنجاز والآمال معلّقة بنهايته، صادف أن وقع في العام نفسه أوّل انقلاب عسكري في سورية، الذي ألغى مشروع القانون المدني المستمدّ من الفقه الإسلامي، وأبطل العمل بأحكام المجلّة واستبدلها بالقانون المدني

---

(١) المدخل الفقهي العام ٢١/١ ـ ٢٣، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٨، ٣٠٠، ٣٠٣.

المصري الجديد المستمدّ من التشريع الفرنسي، الذي انساقت وراءه مصر في الأربعينيات تفني نفسها فيه، وتبقى على هوامشه ضائعة الجهود مضيّعة لمجد الجدود.

وهكذا بين عشيّة وضحاها بجرّة قلم هدموا أعظم صرح فقهي في العالم وأقاموا قانونا لا مرجع فيه لقاض أو محام أو دارس إلاّ أصوله واصطلاحاته الأجنبيّة.

وبعد سنوات تلتها العراق، فألغت المجلّة وأحلّت محلّها قانونا مدنيّا أجنبي الأصول أيضاً، لكنّه رصّع ترصيعا في أوّله ببعض القواعد الفقهيّة الكليّة التي في مقدّمة المجلّة لكي توهم الناظر لأوّل نظرة أنّ روح المجلّة وريحها منبثّان فيه.

وكذلك كان الحال بالنسبة لغيرها من البلاد العربيّة التي أهملت ذلك الفقه الذي تعاقبت على خدمته عشرات الأجيال من عباقرة الفقهاء وجهابذتهم ممّن انقطعوا إليه ووقفوا كلّ مواهبهم عليه، وأقامت قوانين أجنبيّة كاملة تربطنا بعجلة التشريع والفقه الأجنبيين، وتجعل تراثنا نسيا منسيّا.

وهكذا كانت أحكام المجلّة، بل فكرة استمداد التشريع المدني من الفقه الإسلامي، تسير نحو الزوال في البلاد العربيّة ذاتها إلاّ شبه الجزيرة العربية التي بقيت محصّنة من تأثير القوانين الأوروبيّة، حيث استمرّ في السعودية واليمن وبعض دول الخليج العمل بالتشريع الإسلامي، وأمّا بقيّة الدول العربيّة فقد وقع فيها استبدال دراسة الحقوق القانونيّة الغربيّة بدراسة الفقه الإسلامي، وأنشئت لذلك الكلّيات والمعاهد التي لا يدرّس فيها الفقه الإسلامي إلاّ في مجال ضيّق يتعلّق بأحكام الأسرة المعروفة بالأحوال الشخصيّة.

- ٥ - تطوير منهجيّة التقنين:

لا أحد ينكر أنّ «مجلّة الأحكام العدليّة» رغم أنّ صدورها قد جاء كما يقال بعد خراب البصرة، فإنّها قد أحدثت في هذا الدور يقظة

فقهيّة تمثّلت في اتّجاه العلماء في مصنّفاتهم إلى محاولة تقنين الفقه الإسلامي في محاولة منهم لترتيب أحكامه وتنظيم مسائله، وإعادة صياغتها صياغة تجري على أساليب الصياغة القانونيّة الحديثة القائمة على التنظيم الدقيق والترتيب البديع والتقسيم إلى مواد وأبواب متتالية، نزولا على حكم التطوّر في التأليف والتصنيف، مع عرض مسائله بتعبير لغوي واصطلاحيّ دقيق قريب إلى مدارك هذا العصر سيرا مع الأذواق القانونيّة المعاصرة حتّى يتيسّر فهمها وتسهل دراستها، ومراعاة الاستناد إلى مصادر الفقه الإسلامي دون غيرها من المصادر، والاحتفاظ بمقوّمات الفقه الإسلامي وجوهره.

وكانت هذه الكتابات الحديثة قد شهدت تطوّرا في منهجيّة التقنين من اعتماد المذهب الواحد إلى الاستفادة من جميع أقوال الفقهاء، فقهاء المذاهب المتّبعة، والمذاهب غير المتّبعة، الباقية منها والبائدة، المشهور منها وغير المشهور، فتخلّصت تآليفهم من نزعتها المذهبيّة إلى المجال الأوسع والطريق الأرحب في الاستفادة من جميع المذاهب الفقهيّة المختلفة، وأجريت الدراسات المقارنة داخل تلك المذاهب الفقهيّة، وأحياناً بين تلك المذاهب والقوانين الوضعيّة.

كما خرجت هذه الكتابات من ثوبها القديم الذي يميل إلى الإيجاز والاختصار إلى حدّ الإلغاز أو إلى التطويل إلى الحدّ الذي تفنى فيه الأعمار.

وقد كانت هذه المنهجيّة الجديدة في التقنين مطلب دعاة الإصلاح والتجديد من أمثال **عبدالرحمٰن الكواكبي** في كتابه أمّ القرى، **ومحمد عبده** في تقريره الذي رفعه إلى وزارة الحقانيّة في نوفمبر **١٨٩٩**م في بيان وجوب إصلاح المحاكم الشرعيّة، **ومحمد مصطفى المراغي** الذي أمر بتشكيل لجنة للقيام بهذا الإصلاح، أطلق عليها: لجنة تنظيم الأحوال الشخصيّة، وممّا قاله في افتتاح عملها: «إنّ إصلاح القانون إصلاح لنصف القضاء، أمّا إصلاح النصف الآخر فهو بيد القاضي نفسه، لأنّ عليه أن

يفهم الوقائع أوّلا كما هي بعد تلمّس أدلّتها ونقدها والموازنة بينها»[١].

وكان يقول لأعضائها: ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنّه يوافق الزمان والمكان، وأنا لا يعوزني بعد ذلك أن آتيكم بنصّ من المذاهب الإسلاميّة يطابق ما وضعتم[٢].

على أنّ كلام الشيخ المراغي يحمل على ما هو مقرّر عند الفقهاء من جواز ترجيح غير المشهور من الأقوال لملاءمتها لأوضاع الناس وجلبها لمصلحتهم المعتبرة.

فتقدّمت بذلك مناهج التأليف في الفقه وعمّ التجديد كلّ باب من أبوابه، وظهرت هذه المحاولات الجديدة في صياغة الفقه في شكل جهود جماعيّة أحياناً، وفي شكل جهود فرديّة أحياناً أخرى.

وفيما يلي لمحة عن بعض تلك الجهود في صياغة الفقه وبناء النهضة الفقهيّة الحديثة.

أوّلا: الجهود الجماعيّة:

*** الموسوعات الفقهية *:**

على إثر المؤتمر الدولي الهام المنعقد في باريس سنة ١٩٥١ والذي أشاد بمزايا الفقه الإسلامي[٣].

---

(١) المجددون في الإسلام من القرن الأوّل إلى القرن الرابع عشر ص ٤١٣.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) سبق هذا المؤتمر، مؤتمران آخران أشادت جميعها بمزايا الفقه الإسلامي، وفيما يلي عرض للقرارات القانونيّة الدوليّة الثلاثة:

القرار الأوّل: اتّخذه مؤتمر الحقوق المقارنة المنعقد بمدينة لاهاي عام ١٩٣٧، وهو يتضمّن ثلاثة مبادىء:

١ ـ اعتبار الشريعة الإسلاميّة مصدراً من مصادر التشريع العام.

٢ ـ اعتبارها حيّة قابلة للتطوّر.

٣ ـ اعتبارها تشريعاً قائماً بذاته ليس مأخوذاً من غيره.

القرار الثاني: اتّخذه مؤتمر المحامين الدولي عام ١٩٤٨، وهذه ترجمته: «اعترافا بما=

وأعرب عن أمله في تأليف موسوعة فقهيّة على طراز موسوعات الحقوق الأجنبيّة، اعتبر الشيخ مصطفى الزرقا أنّ ذلك الأمل هو المرحلة الجديدة التي يجب أن يجتازها تدوين الفقه الإسلامي لكي يظهر بها جوهره، ويدنو بها ثمره.

ورأى أنّ ذلك من أعظم ما يجب أن تفكّر فيه جامعة الدول العربيّة، وأنّه من الممكن أن يعهد به إلى لجنة تتألّف من بضعة أشخاص من الفقهاء والقانونيين، يتفرّغون له مع عدد من المساعدين خلال بضع سنين(١).

وكانت تلك الانطلاقة الحقيقيّة في التفكير لإنشاء موسوعة فقهيّة إسلاميّة.

= في التشريع الإسلامي من مرونة وما له من شأن، يجب على جمعيّة المحامين الدولية أن تتبنّى الدراسة المقارنة لهذا التشريع وتشجّع عليها.

القرار الثالث: اتّخذه مجمع الحقوق المقارنة الدولي المنعقد في باريس سنة ١٩٥١، وهذه ترجمته: «إنّ المؤتمرين بناء على الفائدة المتحقّقة من المباحث التي عرضت أثناء: أسبوع الفقه الإسلامي، وما جرى حولها من المناقشات التي تخلص منها بوضوح:

١ ـ أنّ مبادىء الفقه الإسلامي لها قيمة حقوقيّة تشريعية لا يمارى فيها.

٢ ـ وأنّ اختلاف المذاهب الفقهيّة في هذه المجموعة الحقوقيّة العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات، ومن الأصول الحقوقيّة، وهي مناط الإعجاب وبها يتمكّن الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها.

يعلنون رغبتهم في أن يظلّ: أسبوع الفقه الإسلامي، يتابع أعماله سنة فسنة، ويكلّفون مكتب المؤتمر وضع قائمة للموضوعات التي أظهرت المناقشات ضرورة جعلها أسّا للبحث في الدورة القادمة.

ويأمل المؤتمرون أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامي يسهل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه، فيكون معلمة فقهيّة تعرض فيها المعلومات الحقوقيّة الإسلاميّة وفقا للأساليب الحديثة (انظر: المدخل الفقهي العام ص ١١ ـ ١٢، و٢٣ ـ ٢٦، ٣٠٧، ٣٠٨).

(١) المدخل الفقهي العام ١/٢٥ ـ ٢٦.

* موسوعة الفقه الإسلامي ـ دمشق ـ:

بعد أن أنشئت كليّة الشريعة الإسلاميّة بجامعة دمشق عام ١٩٥٤م كان من باكورة نشاطها تنفيذ توصية أسبوع الفقه الإسلامي بباريس بشأن مشروع تأليف موسوعة الفقه الإسلامي، فأنشأت الكليّة لجنة خاصّة سنة ١٩٥٦م أيّام عمادة المرحوم الشيخ الدكتور مصطفى السباعي، وباشرت اتّصالاتها بعلماء العالم الإسلامي، ورصد لها في ميزانية الكليّة لعام ١٩٥٦م مبلغا للبدء بهذا المشروع.

وكانت هذه اللجنة برئاسة الدكتور مصطفى السباعي عميد الكليّة، وبعضويّة كلّ من الدكتور أحمد السمان والدكتور مصطفى الزرقا، والدكتور معروف الدواليبي، والدكتور يوسف العشّ.

وبدأت اللجنة أعمالها باستخراج الألفاظ العنوانية لموضوعات الفقه ومسائله وأحكامه من مختلف كتب المذاهب الأربعة لتكوين الهيكل اللفظي للموسوعة التي ستعرض فيها جميع أحكام الفقه في المذاهب الأربعة مرتّبة حسب حروف الهجاء لكلماتها العنوانيّة[1].

* موسوعة الفقه الإسلامي ـ مصر ـ:

في عهد الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨م تشكّلت لجنة مشتركة بين القطرين للتعاون على تصنيف موسوعة جامعة للفقه الإسلامي في مذاهبه المشهورة ـ بعد أن كانت قد سارعت إلى هذا المشروع العظيم جامعة دمشق ـ فتكوّنت لجنة خاصّة بالموسوعة تابعة للمجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، مشتركة بين السوريين والمصريين.

وكان المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة قد أصدر في سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١م جزءا نموذجيّا للموسوعة على سبيل التجربة أراد به أن

---

(١) المدخل الفقهي العام ١/٢٥٤، التشريع والفقه في الإسلام لمنّاع القطّان ص ٣٤٥ ـ ٣٤٩.

يكون تحت أنظار العلماء والمشتغلين بالفقه والقانون على أن يبدأ بإعداد الجزء الأوّل من أجزائها في صورته النهائيّة[١].

ثمّ بانفصال الوحدة عام ١٩٦١م توقّف عمل اللجنة، ثمّ تُوبع المشروع ببطء في مصر، ثمّ تحمّست له وزارة الأوقاف المصريّة من جديد ونشطت في تنفيذه.

* **موسوعة الفقه الإسلامي ـ الكويت ـ:**

قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة بالكويت سنة ١٩٦٧م بالإشراف على إصدار موسوعة للفقه الإسلامي باعتبارها من الضرورات العصريّة لحركة الفقه مع ما وصلت إليه العلوم الأخرى ولا سيما الدراسات الحقوقية، من تطوير في الشكل والأسلوب، لتيسير العودة إلى تراثنا الإسلامي والإفادة منه في استنباط الحلول للحاجات المستجدّة، وتوفير الوقت على المختصّين في القيام بدراساتهم فيه، وتمكين غيرهم من الإلمام بأبحاثه والاطّلاع على ما استنبطه الفقهاء من الكتاب والسنّة لتنظيم جميع شؤون الحياة.

وقد استمرّ العمل في مشروع الموسوعة في دورته الأولى خمس سنوات، أي إلى غاية سنة ١٩٧١ م، تمّ فيها وضع الخطّة وصنع معجم فقهي مستخلص من كتاب المغني لابن قدامة المقدسي، وإنجاز خمسين بحثا فقهيّا رئيسيّا، ثمّ توقّف المشروع فترة بقصد إعادة تقويم خطواته وتوفير متطلّباته وتجميع الجهود والطاقات للمضيّ في استكماله، ثمّ عاد المشروع مجدّدا سنة ١٩٧٧م بتكوين لجنة للتخطيط والتقويم الفوري للخطوات التنفيذيّة، وخلال لجان متخصّصة لكلّ مرحلة، والمراحل اللازمة للعمل بدءا باستخراج المصطلحات وانتهاء بنشر الأبحاث في مجلدات الموسوعة.

وغاية الموسوعة هو صياغة الفقه الإسلامي كما هو في مراجعه

(١) موسوعة الفقه الإسلامي المصرية ٦/١ ـ ٧.

الأصليّة بأسلوب سهل واضح مدعمّ بالاستدلال والتوجيهات وتبسيط العبارات المعقّدة التي تصادف فيه، مع الإشارة إلى اختلاف المذاهب والاجتهادات في كلّ موطن يكون فيه ذلك هامّا ومفيدا.

وقد اعتنت الموسوعة بالشكل والإخراج عنايتها بالمضمون والمحتوى، حيث جاءت الأحكام والمسائل الفقهيّة مرتّبة ترتيبا أبجديّا على حروف المعجم بحسب الحرف الأوّل وما يليه من الكلمة والعنوانيّة الدالة على الموضوع الفقهي.

فكلّ باحث يستطيع أن يراجع في الموسوعة عن حكم الشريعة وآراء الفقهاء في كلّ موضوع بالنظر إلى ترتيب حروف كلمته، فيراجع عن الكلمة ليرى ما تحتها من أحكام الشريعة وفقهها في الموضوع واختلاف المذاهب والآراء الفقهيّة في ذلك مع الإحالة على مواطن البحث في مراجعه الفقهيّة الأصليّة من كتب المذاهب.

وقد أسند الإشراف على سير العمل والتخطيط الرئيسي له إلى لجنة عامّة متكوّنة من ثمانية أعضاء، يجتمعون مرّتين في الشهر.

وقد التزمت اللجنة العامّة الإفادة من رصد الموسوعة في فترتها السابقة حيث نقّحت خطّة الكتابة بالاستنارة بخطط المشاريع المماثلة في كلّ من مصر وسورية، والتعاون مع المشاريع المشابهة في المملكة العربية السعودية، وتبنت ما رأته صالحا من البحوث الخمسين التي أنجزت سابقاً مع نشر قسم منها كنماذج عمليّة، كما قامت بالاتّصال والتعاون مع الفقهاء والجهات العلميّة المختصّة في العالم الإسلامي(١).

وهكذا، عرف هذا الدور موسوعات منظّمة منسّقة مرتّبة مصطلحاتها

---

(١) موسوعة الفقه الإسلامي ٦/١ ـ ٧، ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الكويت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، الموسوعة الفقهيّة: نشرة تعريفيّة ص ٨ ـ ١٥، ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الكويت ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، دراسات الخليج والجزيرة العربيّة، العدد ١٦، ص ١٧٥ ـ ١٧٩، استطلاع حول الموسوعة الفقهيّة بالكويت، مجلّة الوعي الإسلامي، السنة الحادية والعشرون، العدد ٢٤٦، ص ٨٤ ـ ٩٣.

على حروف المعجم، قد جمعت ما تشتّت من أحكام الفقه في بطون الكتب، وألّفت بين مذاهبه، وضمّت الشبيه إلى شبيهه، حتى يتمكّن الباحث أن يجد الموضوع الواحد في المكان الواحد مهما تعدّدت المذاهب واختلفت الأبواب والكتب وتعددت الفروع، وأن يلمّ في إيجاز بما استدلّ به القائلون فيما يحتاج إلى بيان للمدارك ووجهات النظر(١).

*** مشروع القانون المدني الموحّد على أساس الفقه الإسلامي(٢):**

كانت جامعة الدول العربيّة في منتصف السبعينيات قد كلّفت دائرتها القانونيّة وضع مشروع لقانون مدني تأخذ به من تشاء من الدول العربيّة، توحيدا للتشريع المدني فيها.

وألّفت لذلك لجنة خبراء من رجال القانون، وبدأت وضع المشروع في السبعينيات مستمدّا من التقنيات الأجنبيّة، ثمّ نبّهها رشدها العلمي إلى تغيير الاتّجاه في تفكيرها، فقرّرت الدائرة القانونيّة في جامعة الدول العربيّة وضع مشروع قانون مدني موحّد للبلاد العربيّة مستمدّا من الفقه الإسلامي بمختلف مدارسه ومذاهبه، واختارت لإنجاز هذا المشروع لجنة خبراء قامت خلال أربع سنوات ـ من عام ١٩٨١ إلى عام ١٩٨٤م ـ بوضع نصوص للركن الأساسي من القانون المنشود وهو النظريّة العامّة للالتزامات، والتي هي بمثابة العمود الفقري منه، مع تأصيل تلك النصوص على الفقه الإسلامي وأصوله، مادة فمادة.

ثمّ توقّفت جامعة الدول العربيّة عن متابعة هذا المشروع القانون المدنيّ الموحّد، بعد أن تمتّ صياغة نصوص النظريّة العامّة صياغة كاملة، وتأصيل كثير منها تأصيلا متينا.

---

(١) موسوعة الفقه الإسلامي المصرية ٦/١.

(٢) المدخل الفقهي العام ٣١/١ ـ ٣٢، إحالة رقم ١، و٣٠٤/١ ـ ٣٠٥، المدخل إلى نظريّة الالتزام العامّة ص ٥، ٦، و٢٩٧ ـ ٣٦٠.

وقد نشر الشيخ الزرقا في آخر كتابه المدخل إلى نظرية الالتزام العامة ملحقا تحت عنوان: نصوص مواد النظرية العامة للالتزامات في الفقه الإسلامي في مشروع قانون المعاملات المالية العربي الموحد كما أقرتها.

اللجنة العامة لتوحيد التشريعات بجامعة الدول العربيّة بناء على المذكرات التأصيليّة والصيغ التي وضعتها لجنة خبراء الأمانة العامة في الدائرة القانونيّة في جامعة الدول العربية بتونس سنة ١٩٨٤م.

وجملة مواد هذا القانون ٤٣٣ مادة، مقسّمة على خمسة أبواب، كالآتي:

* باب تمهيدي: يتضمّن الفصل الأوّل منه ٨٥ قاعدة كليّة فقهيّة هي عدد مواد الفصل، وأمّا الفصل الثاني بعنوان أحكام عامّة فيشمل المواد من ٨٦ إلى ١٤٥، تتعلّق بالقانون وتطبيقه وبالأشخاص والأشياء والأموال الحقّ.

* الباب الأوّل: مصادر الالتزام، من المادة ١٤٦ إلى ٢٩٨.

* الباب الثاني: آثار الالتزام، من المادة ٢٩٩ إلى المادة ٣٤٠.

* الباب الثالث: أوصاف الالتزام، من المادة ٣٤١ إلى المادة ٣٨٢.

* الباب الرابع: انقضاء الالتزام، من المادة ٣٨٣ إلى المادة ٤٣٣.

ثانياً: المجهودات الفرديّة:

إلى جانب هذه المجهودات الجماعيّة التي تعدّ على أصابع اليد الواحدة، فقد ظهرت أيضاً على مدى هذا الدور الفقهي مجهودات فرديّة لتقنين الفقه الإسلامي، حاول القيام بها بعض الباحثين المتخصّصين من أصحاب الكفاءات العالية، تطلّعوا إلى تدوين الأحكام الشرعيّة على صورة تشبه المجلّة العثمانيّة، وقدّموا محاولات ناضجة ومشروعات راقية لتقنين

الفقه الإسلامي المستمدّ من أصوله الشرعيّة والقادر أكثر من غيره على تحقيق المصلحة العامّة في شتّى جوانب الحياة.

ومن بين هؤلاء الذين وضعوا لبنات متينة البنيان في سبيل تحريرنا من الاستعمار التشريعي، نذكر:

ـ ١ ـ رائد التقنين الفقهي وزعيم المدرسة الحديثة محمد قدري باشا[(١)]:

وهو أحد الفقهاء المحدثين (١٢٣٧هـ/١٨٢١م ـ ١٣٠٦هـ/١٨٨٨ م) ومن رجال القضاء في مصر الذين كتبوا في الفقه الإسلامي وبسطوا مسائله في لغة سهلة مفهومة قريبة إلى مدارك هذا العصر.

ألّف ثلاثة كتب هي عبارة عن مشروعات لقوانين استمدّها من المذهب الحنفي، وهذه الكتب هي:

أ ـ الأحكام الشرعيّة في الأحوال الشخصيّة: وهو كتاب في أحكام الأصول الشخصيّة طبع ببولاق سنة ١٢٩٨هـ مصطبغا بصبغة المجلّة العثمانيّة في ترتيبه، جمع فيه أحكام الأسرة وفق الراجح في المذهب الحنفي وذكر فيه أحكام الزواج والطلاق، والوصيّة والهبة والميراث، والحجر والوصيّة وغيرها من المسائل التشريعيّة المتعلّقة بأحكام الأسرة.

وجعله في مواد سهلة الفهم قريبة التناول على من ليس له سابقة عهد بمزاولة فهم عبارات الفقهاء وحلّ رموز المتون ومعرفة اصطلاحات الشراح والمعلّقين، وبلغت مواد الكتاب ٦٤٧٦ مادة.

ب ـ مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان في المعاملات الشرعيّة: خصّصه لفقه المعاملات في المذهب الحنفي، لخّصه من عدّة كتب فقهيّة وجعله في ٩٤١ مادة، وقد سهّل المؤلف بكتابه هذا المقارنة

(١) كشف الظنون ٣٠٢/٦، مصادر الحقّ في الفقه الإسلامي ٦/١، إحالة رقم ١، قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف لمحمد قدري باشا.

بين القسم المدني من الشريعة على مذهب أبي حنيفة وبين القوانين الوضعيّة حين نظّم أحكام المذهب الحنفي في المسائل المدنيّة في مواد وأبواب متتالية على غرار مواد وأبواب القانون المدني المصري الأجنبي الأصول.

ج ـ قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف: جمع فيه أحكام الوقف وكلّ ما تعلّق به في مواد، فجاء الكتاب في سبعة أبواب اشتملت على عدد من الفصول التي ضمّت ٦٤٦ مادة.

ـ ٢ ـ الفقيه أحمد بن عبدالله القاري المكّي: (١٣٥٩هـ/١٩٤٠ م)[١].

الذي وضع كتاب: مجلّة الأحكام الشرعيّة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، حذا فيه مؤلفه حذو مجلّة الأحكام العدليّة لكنّه بناه على الفقه الحنبلي خاصّة، وبلغ به ٢٣٨٢ مادة.

ألّف هذا الكتاب عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤ م، ولم ينشر إلاّ عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م بعناية الباحثين الفاضلين، الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان، والدكتور محمد إبراهيم أحمد عليّ.

ـ ٣ ـ القاضي عبدالقادر عودة: (١٩٥٤ م).

الذي ألّف الموسوعة الجنائيّة القيّمة التي سمّاها: التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي وعلى الأخصّ القانون المصري، والكتاب عبارة عن دراسات في التشريع الجنائي الإسلامي ـ العام منه والخاص ـ مقارنة بالقوانين الوضعيّة.

وقد صاغ كتابه في ٦٨٩ مادة، استطاع من خلالها أن يظهر محاسن الشريعة وتفوّقها على القوانين الوضعيّة وسبقها إلى تقرير كلّ المبادىء الإنسانيّة والنظريات العلميّة والاجتماعيّة التي لم يعرفها العالم، ولم يهتد إليها العلماء إلاّ أخيرا.

على أنّ الكاتب لم يعتمد في مقارنته على مذهب واحد من مذاهب

(١) المدخل الفقهي العام ٣٠٥/١.

فقهاء المسلمين، وإنّما جعل عماد مقارنته على المذاهب الأربعة المشهورة، مجتهداً في بيان أساس الخلاف بين المذاهب إن كان ثمّة خلاف[١].

ـ ٤ ـ أستاذ القانونيين الدكتور عبدالرزاق السنهوري:

صاحب كتاب مصادر الحقّ في الفقه الإسلامي، وغيرها من الكتب القانونية المشهورة، وهذا الكتاب هو دراسات مقارنة بالفقه الغربي، كان قد ألقاها المؤلف على طلبة قسم الدراسات القانونيّة، تناول فيه الأسباب التي تنشىء الحقّ قانونا، وحصر بحثه في الحقوق ذات القيمة المالية، وهي الحقوق الشخصيّة والحقوق العينيّة كما تسمّى في لغة الفقه الغربي.

ومصادر الحق سواء كان الحقّ شخصيّا أو عينيّا، من أدقّ الموضوعات وأكثرها غموضا في الفقه الغربي حاول المؤلف أن يعالجه في الفقه الإسلامي، فوضع الفقه الإسلامي إلى جانب الفقه الغربي فيما هو هام وجوهري، وفيما هو دقيق خفيّ، وعالج الفقه الإسلامي بأساليب الفقه الغربي، لكنّه استند إلى المصادر الأولى في الفقه الإسلامي، ورجع إلى أمّهات الكتب المعتمدة في المذاهب المختلفة.

وقد وصل إلى أنّ الفقه الإسلامي نظام قانونيّ عظيم له صنعة يستقلّ بها، ويتميّز عن سائر النظم القانونيّة في صياغته.

والكتاب مهّد له بمقدّمة في الحقّ الشخصي والحقّ العيني في الفقه الإسلامي واستقصاء مصادر كلّ منهما، ثمّ جعل البحث في قسمين، تفرّد القسم الأوّل منها للتصرّفات القانونيّة وأهمّها العقد، واستعرض في القسم الثاني الوقائع القانونيّة[٢].

ـ ٥ أستاذ القانون المدني والشريعة الإسلاميّة: الشيخ مصطفى الزرقا:

---

(١) التشريع الجنائي مقارنا بالقانون الوضعي ١/٦ ـ ١٢.

(٢) مصادر الحق في الفقه الإسلامي ١/٥ ـ ٧.

صاحب المشروع المسمّى: «الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد»[١]، وهو سلسلة كتب، الجزآن الأوّل والثاني منها يسمّى: المدخل الفقهي العام، والجزء الثالث هو: المدخل إلى نظريّة الالتزام العامّة في الفقه الإسلامي، والجزء الرابع هو: النظريّة العامة للأحكام المدنيّة في الفقه الإسلامي، على غرار النظريّة العامة للالتزامات في الفقه الأجنبي.

فأمّا المدخل الفقهي العام فقد بني على ثلاثة أقسام هي:

١ ـ مقدّمة تعريفيّة وتاريخيّة عن مصادر الفقه وأدوار تطوّره، وعرض في آخر فصل من فصوله خطوطا رئيسيّة لخّص فيها تصوّراته في عمليّة توحيد التشريع الجنائي للبلاد العربيّة على أساس الشريعة الإسلاميّة.

٢ ـ يليها عرض للنظريات الفقهيّة الأساسيّة في مباني الأحكام الفقهيّة: وهي النظم والركائز التأسيسيّة الكبرى التي تعتبر دعائم الفقه وأركانه.

٣ ـ ثمّ بيان للقواعد الكليّة في الفقه التي صدرت بها مجلّة الأحكام العدليّة مرتّبة ترتيبا جديدا، مع شرح موجز لها.

ويعدّ كتاب المدخل الفقهي العام خير كتاب في التوطئة لدراسة مجلّة الأحكام العدليّة ـ القانون المدني العثماني القديم ـ فهو مدخل إلى الفقه الإسلامي عامّة وإلى مجلّة الأحكام العدليّة خاصّة بنى فيه نظريات فقهيّة عامّة لم ينسج فيها على منوال من سبقوه من شراح المجلّة، الذين جعلوا الفقه فتاوى وقضايا وجزئيات، على طريقة شرح المواد مفردة وسرد الأحكام المتفرّقة، بحيث تصلح تلك الشروح أن تكون مدوّنات للمحاكم ليرجع إليها الحكّام عند حاجاتهم إلى معرفة ما حول كلّ مادة وحكم من إيضاح وتفصيل، في حين حاول المؤلف أن يدرس المجلة بأسلوب البحث الموضوعي كما يدرس الأساتذة الفرنسيون في كليّة الحقوق بباريس مادة القانون المدني، وعلى نسق ما نشاهده في مؤلفات القانون المدني المهيّأة

---

(١) المدخل الفقهي العام ١/٥ ـ ٣٣، ٣٢٥.

للدراسة الجامعيّة في الأمم الأجنبيّة، حتى تصلح أن تكون كتبا تعليميّة في مجلّة الأحكام العدليّة الشرعيّة ومبادئها الفقهيّة لطلاب الحقوق في الجامعات، ولذلك جمع من أحكام القرآن والحديث وآراء الفقهاء من مختلف المذاهب ما يؤلّف نظريات عامّة تشبه النظريات الأوربيّة الحديثة فوفّق في محاولته توفيقا كبيرا وكان له فضل إخراج نظريات فقهية حديثة.

وأمّا المدخل إلى نظريّة الالتزام العامّة في الفقه الإسلامي: فهو بمثابة باب تمهيدي لصياغة تلك النظرية العامة الجامعة، ويشتمل على أربعة أبواب تلقي نظرة عامّة على فكرة الحقّ والالتزام والأموال والأشخاص.

وقد جرى فيها على طريقة حديثة في كتابة الفقه الإسلامي، وسلك فيها مسلكا عصريّا حيث تؤصل المسائل وتعرض الكلّيات وتبسّط النظريات وتشرح المصطلحات، ثمّ تستخرج الفروع من أصولها أو تردّ الجزئيات إلى كلّياتها، أو تطبّق النظريات على موضوعاتها، وهو بمثابة باب تمهيدي لصياغة تلك النظرية العامة الجامعة، ويشتمل على أربعة أبواب تلقي نظرة عامّة على فكرة الحقّ والالتزام والأموال والأشخاص.

وأمّا الجزء الرابع: فلم يصدر بسبب صدور القانون المدني السوري الذي حلّ محلّ مجلّة الأحكام العدليّة سنة **١٩٤٩**م.

وقد نشر الشيخ الزرقا بعض مضامين النظرية العامة فيما بعد منفصلة، منها:

١ ـ نظريّة التعسّف في استعمال الحقّ في الشريعة الإسلاميّة: صياغة قانونيّة لها لمشروع قانون مدنيّ مستمدّ من الفقه الإسلامي.

٢ ـ الفعل الضّار: من مصادر الالتزام، مؤصّلا ومستمدّا من الفقه الإسلامي بمذاهبه المختلفة.

ويقوم منهجه في سلسلة: الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد، على صوغ الأحكام الفقهيّة التي تشرح مجلّة الأحكام العدليّة كصياغة الفقه القانوني الحديث، ليلبس الفقه الإسلامي بذلك ثوبا جديدا يتّفق مع الأذواق

القانونيّة المعاصرة في صياغته ومظهره، ويحافظ في الأحكام والأنظار الفقهيّة على أصله وجوهره، وهذا ما تقتضيه الدراسة الجامعيّة وحاجة العصر.

اتّخذ من المذهب الحنفي أساسا للبحث مع الإلمام بالمذاهب الأخرى في بعض المواطن بحسب حاجة البحث ويوازن في أكثر الأحيان بين حكم الشريعة والقوانين السورية.

والكتاب ليس موسوعة للأحكام الفقهيّة أو الفتاوى أو مرجعا متعمّقا لدقائق الفقه وتفاصيله، بل هو مدخل موطّأ يعلّم الطالب الجامعي المفاهيم الفقهيّة الأساسيّة ومنهج التفكير الفقهي السديد، وليس تفاصيل وفروع الأحكام الفقهيّة التي تعجّ بها كتب الفقه التقليديّة، وما يتضمّنه الكتاب من أحكام فقهيّة هدفه الأساسي هو خدمة غرضه التعليمي بضرب الأمثلة وإيراد الشواهد وتشخيص المفاهيم المجرّدة، وتثبيت القضايا الرئيسيّة في ذهن الطالب.

وقد كان في نيّة المؤلف أن تكون السلسلة الفقهيّة: الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد، تمهيدا لقانون مدني حديث يخرجه في سورية مستمدّا من الفقه الإسلامي في مختلف مذاهبه الغنيّة، بحيث تقوم أسسه على أحسن ما في كلّ منها من النظريات والمبادىء الفقهيّة الخالدة، فننشىء قانونا مدنيّا يصل تشريعنا الحقوقي وحاجاتنا الحديثة فيه بماض فقهي مجيد زاخر.

*** الاجتهاد الجماعي في ظلّ غياب الاجتهاد المطلق:**

ممّا لا شكّ فيه أنّ درجة الاجتهاد المطلق قد تعطّل سبيل الوصول إليها منذ عصور، وما عدنا نجد من ارتقى إليها على كثرة من تطلّع إليها وادّعى بلوغها.

ذلك أنّ المتتبّع لمقامات المجتهدين الذين جاؤوا بعد القرن الرابع الهجري يكاد يجزم بأنّ عمل هؤلاء يدور في فلك اختيار القول بين أقوال على طريقة الإنصاف، أو رجوعا إلى دليل لاستنباط حكم لم يستنبطه واحد من السابقين، لكن على المناهج التي كانوا قد سلكوها من قبل للاستدلال.

وأعجب ما في ذلك أنّ الذين دعوا إلى الاجتهاد من القدماء والمحدثين وأتوا بما عدّوه وعدّه الناس عليهم اجتهادا، لم يكونوا فيما أتوا إلاّ في المراتب الدنيا من مقامات المجتهدين.

فهل زاد الواحد منهم على الاستقلال بالفتوى في مسائل معدودة، أو الانتصار لمذهب غير مذهبه أو لقول متروك أو ضعيف أو مرجوح؟[١].

ولكن إذا كان الاجتهاد المطلق قد تعذّر علينا إدراكه، فإنّ سبيل الاجتهاد الجماعي أمر ممكن عبر المجامع الفقهيّة.

المجامع الفقهيّة تلبية لنداءات المصلحين من فقهاء الأمّة:

كان الاجتهاد قد انقطع قبل هذا الدور بتنازل متتابع درجة فدرجة عند جمهرة الفقهاء، ورغم أنّ ذلك التنازل لم يشمل جميع الفقهاء لوجود قلّة تدافع في كلّ عصر حكم التنازل الذي أتى على الأكثرين، فإنّ الإنقطاع قد حصل بالفعل، وقنع المسلمون علماء وعامّة بحالة انقطاعه، ولم يحدث لهم اختلالا في أمرهم ولا اضطرارا كاللذين نحن فيهما اليوم.

وإنّما كان ذاك الاكتفاء في الحقيقة راجعا إلى أنّ أوضاع الحياة الفرديّة والاجتماعيّة قد استمرّت منذ أن انقطع الاجتهاد المطلق إلى أن ظهرت الحركة الإصلاحيّة الحديثة متّحدة أو متقاربة جدّا في عامّة مقوّماتها، فبقيت التقادير والاعتبارات المأخوذ بها على ما هي عليه، وبقيت صور تقدير الحوادث النازلة متشابهة، فكان تشابه الحوادث قاضيا بتشابه الأدلّة وتقارب مسالك الاستدلال، ولذلك فإنّ تعطّل الاجتهاد المطلق وتنازل الاجتهاد في المراتب لم يكن فيما قبل هذا الدور إلاّ نقصا علميّا، لم يترتّب عليه خلل اجتماعيّ.

أمّا بالنسبة لهذا الدور فإنّ الأوضاع قد انقلبت انقلابا تامّا بحيث أصبحت المسائل المدوّنة في كتب الفقه قليلة النظائر في الحياة العمليّة

---

(١) ابن عاشور محمد الفاضل: ومضات فكر ٣٨/٢.

الحاضرة، وذلك هو الذي جعل مشكلة الاجتهاد مصوّرة في هذا الدور بما لم تتصوّر به في القرون الماضية ولا يمكن أن تتصوّر به، فقد أصبحت مظهرا لانعزال الدين عن الحياة العمليّة واندفاع تيّار الحياة بالأمّة الإسلاميّة في مجرى الهوى الذي ما جاء الدين إلاّ ليخرج بالمكلّفين عن داعيته، فإذا استطاعت بعض الدول الإسلاميّة أن تلفّق قوانين للأحوال الشخصيّة تستمدّ من المذاهب المختلفة نصّا أو تخريجا، فأين هي من بقيّة القوانين العامّة والخاصّة؟ وأين الدارسون للشريعة والباحثون في الأحكام والداعون إلى الاجتهاد فيها من مبالغ الدراسات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والقانونيّة التي تطفح على بلاد الإسلام بكلّ نظام أجنبيّ مستعار دخيل على الملّة غريب على الدين؟[1].

من هنا نبتت فكرة إنشاء مجمع فقهي يضمّ جمعا من أعلام العصر وفقهائهم من مختلف البلاد الإسلاميّة، وبدأت نداءات أعلام هذا العصر تتوالى، ومن هذه النداءات:

*** نداء شيخ الإسلام محمد الطاهر بن عاشور:**

رأى الشيخ الطاهر بن عاشور بثاقب بصره أنّ الحاجة قد اشتدّت إلى إعمال النظر الشرعي والاستنباط والبحث عمّا هو مقصد أصلي للشارع وما هو تبع، وما يقبل التغيير من أقوال المجتهدين وما لا يقبله.

وبيّن أنّ الطريق إلى ذلك هو: أن يسعوا إلى جمع مجمع علميّ يحضره من أكبر علماء كلّ قطر إسلاميّ على اختلاف مذاهب المسلمين في الأقطار، ويبسطوا بينهم حاجات الأمّة ويصدروا فيها عن وفاق فيما يتعيّن عمل الأمّة عليه، ويعلموا أقطار الإسلام بمقرّراتهم.

وأن يعيّنوا أسماء العلماء الذين يجدونهم قد بلغوا رتبة الاجتهاد أو قاربوا، وأنّ على العلماء أن يقيموا من بينهم أوسعهم علماً وأصدقهم نظرا في فهم الشريعة فيشهدوا لهم بالتأهّل للاجتهاد في الشريعة، وأنّه يتعيّن أن

(١) ومضات فكر ٣٨/٢ ـ ٤٠.

يكونوا قد جمعوا إلى العلم العدالة واتّباع الشريعة لتكون أمانة العلم فيهم مستوفاة، ولا تتطرّق إليهم الريبة في النصح للأمّة[١].

وفي أثناء تفسيره لآية الربا، رأى أنّ مخرج المسلمين من المعاملات الربويّة يكمن في إنشاء مجمع مهمّته وضع القوانين المالية المبنيّة على الأصول الشرعيّة، فقال: لمّا صارت سيادة العالم بيد أمم غير إسلاميّة، وارتبط المسلمون بغيرهم في التجارة والمعاملة، وانتظمت سوق الثروة العالميّة على القوانين التي لا تتحاشى المراباة في المعاملات ولا تعرف أساليب مواساة المسلمين، دهش المسلمون، وهم اليوم يتساءلون، وتحريم الربا في الآية صريح، وليس لما حرّمه الله مبيح، ولا مخلّص من هذا المضيق إلاّ أن تجعل الدول الإسلاميّة قوانين ماليّة تبنى على أصول الشريعة في المصارف والبيوع وعقود المعاملات المركّبة من رؤوس الأموال وعمل العمّال وحوالات الديون ومقاصّتها وبيعها، وهذا يقضي بإعمال أنظار علماء الشريعة والتدارس بينهم في مجمع يحوي طائفة من كلّ فرقة كما أمر الله تعالى[٢].

*** نداء العلاّمة الشيخ محمد الفاضل بن عاشور:**

وأمّا ابنه الشيخ الفاضل فقد بيّن أنّ الطريق الأقوم إلى تحقيق تلك الغاية إنّما هو الشروع في عمل علمي صحيح يبنى قبل كلّ شيء على أنّ الذي يراد بعثه أو تجديده إنّما هو اجتهاد حقّ، وليس نقضا للاجتهاد أو عبثا فيه، وذلك بتبصير الباحثين بأنّ الاجتهاد حركة عقليّة في أحكام الدين المشروعة لمصالح الأمّة، وليس الاجتهاد مجرّد حركة عقليّة تتّجه مباشرة إلى المصالح.

وأنّ نصوص الوحي هي مادة الاجتهاد الأولى، ومنها تستمدّ القواعد التي تكون مباني للأنظار المتحرّية تطبيق الدين على حياة العصر بما يترجّح

---

(١) مقاصد الشريعة ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير ٤/٨٧.

به الظنّ أنّه مراد الله من مصلحة الأمّة اليوم، وإذا كان الاستنباط من الأدلّة يعتمد من جهة على مسالك الاستدلال التي بحث فيها القدماء وتضمّنها علم أصول الفقه، فإنّ تلك الجهة ليست إلاّ نصف أصول الشريعة الإسلاميّة فقط، وأمّا النصف الآخر فهو القواعد الفقهيّة الكليّة وهو النصف الأهمّ لأنّه مبني على فهم مقاصد الشريعة.

ورأى: أنّ فقهاءنا القدامى قد أبدعوا في إبراز القواعد الفقهيّة إلاّ أنّهم نظروا فيها إلى الناحية الاختلافيّة، وأنّه لو سلّط على استقرائهم استقراء لأمكن أن يستخرج به من تلك القواعد الجزئيّة قواعد اتّفاقيّة تكون أصولاً مشتركة بين المذاهب ومباني عامّة للفقه الإسلامي من حيث هو، وبذلك نسمو عن النظريات الظنيّة إلى القطعيات اليقينيّة.

وأنّه من خلال هذه القواعد الكليّة القطعيّة التي هي ملاك مقاصد الشريعة نجدّد الاجتهاد الرشيد في أفقه الأعلى، ونمكّن للدين سلطانه على حياتنا بعد أن انفلتت عنه[١].

*** نداء الشيخ أحمد شاكر:**

ودعا **الشيخ أحمد شاكر** إلى خطّة علميّة لتقنين الشريعة تقوم على: «اختيار لجنة قويّة من أساطين رجال القانون وعلماء الشريعة لتضع قواعد التشريع الجديد غير مقيّدة برأي أو مقيّدة بمذهب إلاّ نصوص الكتاب والسنّة وأمامها أقوال الأئمّة وقواعد الأصول وآراء الفقهاء، وتحت أنظارها آراء رجال القانون كلّهم، ثمّ تستنبط من النصوص ما تراه صواباً مناسباً لحال الناس وظروفهم ممّا يدخل تحت قواعد الكتاب والسنّة ولا يضادّ نصًّا ولا يخالف معلوماً من الدين بالضرورة»[٢].

---

(١) ومضات فكر ٢/٣٩ ـ ٤٣.

(٢) أحمد شاكر: الكتاب والسنّة يجب أن يكونا مصدر القوانين في مصر، ط القاهرة، ١٤٠٧، ص ٣٨ ـ ٣٩، نقلاً عن كتاب: نظرية الفقه في الإسلام للدكتور محمد كمال الدين إمام.

*** نداء الشيخ مصطفى الزرقا:**

في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي المنعقد في مكّة المكرّمة سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤ م، تقدّم الشيخ مصطفى الزرقا باقتراح يقضي إنشاء مجمع فقهي إسلامي، وقد ورد في اقتراحه: «إذا أريد إعادة الحيويّة لفقه الشريعة بالاجتهاد الواجب استمراره شرعا، والذي هو السبيل الوحيد لمواجهة المشكلات الزمنيّة الكثيرة بحلول شرعيّة حكيمة، عميقة البحث متينة الدليل، بعيدة عن الشبهات والريب والمطاعن، وتهزم آراء العقول الجامدة والجاحدة على السواء، فالوسيلة الوحيدة هي: اللجوء لاجتهاد الجماعة بديلا عن الاجتهاد الفردي، وطريقة ذلك تأسيس مجمع فقهي يضمّ أشهر فقهاء العالم الإسلامي ممّن جمعوا بين العلم الشرعي والاستنارة الزمنيّة وصلاح السيرة والتقوى، ويضمّ إلى هؤلاء علماء موثوقين في دينهم من مختلف الاختصاصات الزمنيّة اللازمة في شؤون الاقتصاد والاجتماع والقانون والطبّ ونحو ذلك، ليكونوا بمثابة خبراء يعتمد الفقهاء رأيهم في الاختصاصات الفنيّة»[(١)].

وقد كان من ثمرة هذه النداءات أن قامت المجامع الفقهيّة إلى جانب حركة الموسوعات الفقهيّة التي نشطت في أكثر من قطر إسلامي.

فكان مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر الشريف، والمجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي، ومجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، غير أنّ نشاط تلك المجامع كان مختلفا تماما عن نشاط حركة الموسوعات، فإذا كانت حركة الموسوعات الفقهيّة محاولة لإعادة كتابة الفقه كتابة تتلاءم مع أسلوب الكتابة العصريّة، فإنّ دور المجاميع يكمن في مواجهة المشكلات المعاصرة عبر الاجتهاد الجماعي.

والفرق واضح بين الإعادة والتأكيد، وبين التوليد والتجديد.

---

(١) منّاع القطّان: التشريع والفقه في الإسلام ص ٣٣٩.

ـ ١ ـ مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر الشريف:

وهو مجمع إقليميّ تأسّس سنة ١٩٦١م برئاسة شيخ الأزهر، ويتألّف هذا المجمع من عدّة لجان متخصّصة منها: لجنة البحوث الفقهيّة التي أوكل إليها مهمّة تقنين الأحكام الشرعيّة، على ضوء المذاهب المختلفة، والنظر في القضايا المستجدّة، وتقرير الأحكام المناسبة لها.

وقد عقد هذا المجمع مؤتمراً عامًّا دعي إليه علماء المسلمين من أقطار عديدة لمناقشة البحوث المعاصرة، وعقد أوّل مؤتمر له سنة ١٩٦٤م[١].

ـ ٢ ـ المجمع الفقهي الإسلامي:

هذا المجمع تابع لرابطة العالم الإسلامي، تمّ إنشاؤه في مكّة المكرّمة وعقدت دورته الأولى سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، وقد كان إنشاؤه بعد سنوات من اقتراح تقدّم به الشيخ مصطفى الزرقا عام ١٣٨٤هـ.

ولهذا المجمع اجتماعات دوريّة يبحث فيها مواضيع الساعة الملحّة، ومن المواضيع التي بحثت في دوراته وخرج في شأنها بقرارات، نذكر منها: قضيّة سوق الأوراق المالية والبضائع ـ المعروفة بالبورصة ـ، وما يجري فيها من عقود عاجلة وآجلة على الأسهم وسندات القروض والبضائع والعملات الورقية، ومسائل طبيّة عديدة كمسألة زرع الأعضاء، وأطفال الأنابيب وغيرها.

ـ ٣ ـ مجمع الفقه الإسلامي[٢]:

هذا المجمع من الأجهزة التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، ففي إطار مؤتمر القمّة الإسلامي الثالث أتمّت لجنة من خبراء منظّمة المؤتمر الإسلامي في اجتماعها في رجب ١٤٠١هـ وضع مشروع النظام الأساسي

(١) التشريع والفقه في الإسلام ص ٣٤٠.

(٢) محمد علي التسخيري: مع مؤتمرات مجمع الفقه الإسلامي ١/٩ ـ ١٠، ٣٤١.

لمجمع فقهي إسلامي، ثمّ عقدت لجنة موسّعة لوضع الصيغة النهائية له، ثمّ عقد المؤتمر التأسيسي للمجمع الفقهي الإسلامي في مكّة المكرّمة (٢٦ ـ ٢٨ شعبان ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ م).

وصرّح النظام الأساسي بأنّ المجمع يهدف إلى:

أ ـ تحقيق الوحدة الإسلاميّة نظريّا وعمليّا عن طريق السلوك الإنساني ذاتيّا واجتماعيّا ودوليّا وفقا لأحكام الشريعة الإسلاميّة.

ب ـ شدّ الأمّة الإسلاميّة لعقيدتها ودراسة مشكلات الحياة المعاصرة، والاجتهاد فيها اجتهادا أصيلا لتقديم الحلول النابعة من الشريعة الإسلاميّة.

ويسعى المجمع لتحقيق أهدافه عبر الوسائل التالية:

١ ـ وضع معجم للمصطلحات الفقهيّة ييسّر على المسلمين إدراك معناها لغة واصطلاحا عن طريق لجان متخصّصة.

٢ ـ كتابة الفقه الإسلامي بالطريقة التي تسهّل على الدارس والناظر أخذ ما يحتاجه، وذلك بوضع موسوعة فقهيّة شاملة.

٣ ـ التعاون والتنسيق مع المجامع واللجان والمؤسسات الفقهيّة القائمة في العالم الإسلامي.

٤ ـ تقنين الفقه الإسلامي عن طريق لجان متخصّصة.

٥ ـ تشجيع البحث الفقهي في نطاق الجامعات وغيرها من المؤسسات العلميّة حول تحدّيات العصر وقضاياه الطارئة.

٦ ـ إقامة مراكز بحوث للدراسات الإسلاميّة في بعض أنحاء العالم تخدم أهداف المجمع.

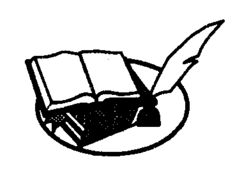
٧ ـ نشر بحوث المجمع بشتى الوسائل المتاحة على أوسع نطاق.

٨ ـ العمل على إحياء التراث الفقهي الإسلامي والعناية بأصول الفقه وكتب الخلاف.

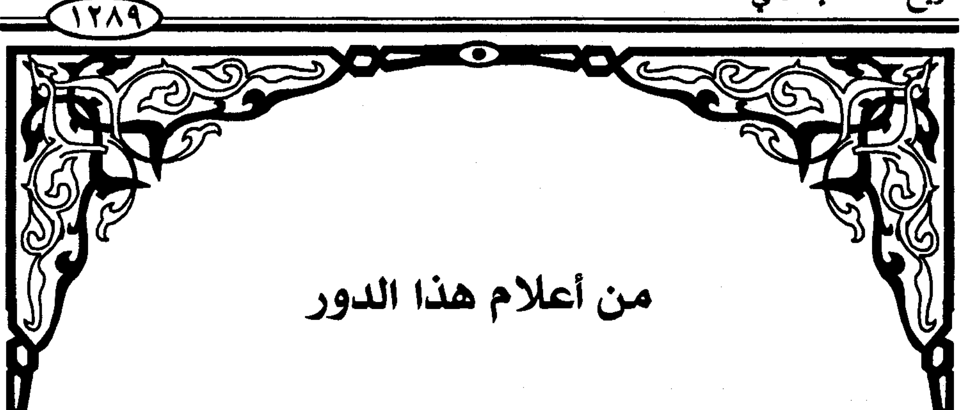
ويتكوّن أعضاء المجمع من الفقهاء والعلماء والمفكرين في شتى

مجالات المعرفة الإسلاميّة، وقد استطاع هذا المجمع أن يفرض وجوده على الصعيد الفقهي الإسلامي، وأصبح مرجعا مهمّا في هذا المجال، حيث كانت قراراته تترك أثرها الجيّد في مجال فهم النظرة الإسلاميّة للمشاكل المستجدّة والتي تتطلّب موقفا إسلاميّا معمّقا، كما كانت مئات البحوث المقدّمة مكتبة فقهيّة تثريها المناقشات الحرّة التي تجري خلال انعقاد الدورة، فتجعل الوصول إلى الحقيقة أقرب منالا، والحلول أكثر واقعيّة.

ومن أمثلة القضايا المستجدّة التي أصدر في شأنها المجمع قرارات وتوصيات[(١)]: أطفال الأنابيب، بنوك الحليب، أجهزة الإنعاش، التأمين وإعادة التأمين، النقود الورقية وتغيير قيمة العملة، تنظيم النسل، التمويل العقاري لشراء المساكن وبنائها، زراعة خلايا المخّ والجهاز العصبي، استخدام الأجنّة مصدرا لزراعة الأعضاء، زراعة الأعضاء التناسليّة، وغير ذلك من المسائل المستجدّة والقضايا المستحدثة.



(١) مع مؤتمرات مجمع الفقه الإسلامي ١٦١/١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠، ٤٢٩، ٤٧١، ٤٧٦، ٤٧٩، ٤٨٠.



من أعلام هذا الدور

من خلال تتبّع تراجم الأعلام يقف القارىء على تصريحات خطيرة تشير إلى تدهور نشاط الحركة الفقهيّة في نهاية الدور السابق وبداية هذا الدور، في البلاد المشرقية والجزيرة العربية وكذلك في البلاد المغربية، فهذا أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي يقول بعد ما رجع من حجته: «ما بقي بالبلاد المشرقية من تشدّ له الرحال في طلب العلم» ويقول ابنه أبو عبدالله محمد ـ من أعلام القرن الثاني عشر للهجرة ـ المرافق له في حجته تلك: «ما كنّا نسمعه قبل مشاهدتنا وحضورنا هذه البلدة من إفشاء العلم والحثّ عليه وكثرة العلماء وتعاطي الفنون ومداولتها لم نر شيئاً من ذلك، إمّا لدثوره وانقراضه بموت أهله، وإمّا مجازفة المارّين بهذه البلاد وهذرهم وافتخارهم بذلك بكونهم لقوا أهل العلم والصلاح، وقد قيل حدّث عن البحر ولا حرج، وحدّث عن مصر ولا حرج»[1].

ويذكر العلامة عبدالقادر بن بدران الدمشقي أنّ الأيّام التي كان بها الاعتناء بالعلم قد ولّت واضمحلّت وأنّ هذا الزمان قد أصبح معانداً للعلم وأهله، قد رماهم في سوق الكساد ونادى عليهم بالحرمان حتّى أنّه لم يبق في هذا الزمن في الجزيرة العربية للعلم رسم ولا ظلّ.

ويضيف: أنّه تمضي عليه الشهور بل الأعوام ولا يرى أحداً يسأله

---

(١) فهرس الفهارس ١١٥٧/٢.

عن مسألة في مذهب الإمام أحمد لانقراض أهله في الجزيرة وتقلّص ظلّه منها.

ثمّ يقول: ولولا أملي بنفع سكان جزيرة العرب من الحنابلة لما حرّكت قلماً، ولا خاطبت رسماً منها ولا طللاً.

ويعلّق آماله على منطقة نجد فيقول: إنّ كثيراً من سكان الجزيرة وخصوصاً أهل نجد يبذلون الآن النفيس بطبع كتب هذا المذهب ويحيون رفاة الكتب المندرسة منه[1].

وأمّا بلاد المغرب فيصرّح الشيخ محمد بن الحسن الحجوي بأنّ عدد علماء القرويين لا يبلغ في القرن الرابع عشر الهجري المائتين، بل ويقول: «ولا أظنّ أنّه يوجد في المغرب كلّه ثلاثمائة فقيه الآن»[2].

والحقيقة أنّ هذا الجهل ما عمّ إلاّ بفعل أقوام ألفوا الجمود على ما كان عليه الآباء، وتدرّعوا بالكسل عن طلب علوم الاجتهاد، فسدّوا على أنفسهم أبواب الترقّي وحرّموا على غيرهم فتح ما أغلقوه، ولا يزالون إلى اليوم يضربون على ذلك الوتر.

غير أنّ الله قد قيّض في هذا الدور كما قيّض في ما قبله من الأدوار ثلّة من الأعلام عرفوا بسعة اطّلاعهم وصدق إخلاصهم واشتهروا بسموّ فكرهم وبعد نظرهم، قد خبروا طرق الإصلاح في مجتمعاتهم ودرسوا مناهجه، فعرفوا كيف يخاطبون أقوامهم ويتملّكون زمام التوجيه والإرشاد في بلدانهم، حتّى أشرقت شمس الأمّة بنور أفكارهم وتعلّقت قلوب الناس بهم، وبعثوا في الأمّة روحا جديدة، ولكنّهم لم يجدوا الطريق موطّأ، وإنّما بليوا بكثرة المعاندين والخصماء، فنالهم من حاسديهم ما لا يليق بأمثالهم ومكانتهم، واتّهموا في دينهم وإخلاصهم، فصبروا في سبيل تحقيق الخير لأمّتهم وإصلاح أوضاع مجتمعاتهم، فكانوا بحقّ رجال هذا الدور وقادة

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص ٤٢٠، و٤٢٣.

(٢) الفكر السامي ٢٨٢/٤ ـ ٢٨٣.

نهضته في بلاد المشرق والمغرب.

فأمّا **ببلاد الشرق** فنذكر منهم بمصر والشام والعراق والحجاز ثلّة من الذين نقشت أسماؤهم على صفحات الأيّام، وبقي ذكرهم ما بقي الإسلام.

ـ ١ ـ مصر:

ففي مصر اشتهر:

* **محمد الأشموني (١٢١٨هـ ـ ١٣٢١هـ)**: أصله من أشمون جريس، قرية من أعمال المنوفية، تلقّى العلوم بالأزهر، واشتهر بالذكاء وجودة التعليق وإتقان التحصيل إلى أن تأهّل للتدريس فدرّس الكتب المتداولة بالأزهر صغيرة وكبيرة، وعنه أخذ كثيرون من كبار علماء الأزهر.

عمّر مائة سنة وثلاث سنوات، حتّى ألحق الأجداد بالأحفاد وصار جميع من بالأزهر إمّا تلاميذه أو ممّن في طبقتهم، ولم ينقطع عن التدريس والإفادة إلاّ قبل موته ببضع سنوات[1].

* **حسن العدوي الحمزاوي المالكي (١٢٢١هـ ـ ١٣٠٣هـ)**: التحق بالجامع الأزهر فتلقى الفقه والتفسير والحديث وبعض علوم الأدب والمنطق، وقرأ جميع العلوم المتداولة بالأزهر، ثمّ جلس للتدريس في سنة ١٢٤٢هـ، وانتفع به الطلبة وأخذ عنه كثير من مدرسي الأزهر.

له تآليف عديدة منها: حاشية على شرح الزرقاني على العزبة في الفقه، وتبصرة القضاة في المذاهب الأربعة[2].

* **محمد بن مصطفى بن يوسف بن عليّ الطنطاوي (١٢٤١هـ ـ ١٣٠٦هـ)**: حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وانتفع بأهل العلم وأجيز إجازة عامة، ثمّ طاف البلاد فدخل تركيا ورحل إلى الشام سنة ١٢٥٥هـ، ثمّ عاد إلى مصر سنة ١٢٦٠هـ ودخل الجامع الأزهر وانقطع

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٤١ ـ ٤٢.

(٢) شجرة النور الزكية ص ٤٠٧، اليواقيت الثمينة ص ٩٥ ـ ٩٦.

لطلب العلم بهمّة وجدّ واجتهاد، إلى أن صار إماماً في العلوم النقليّة والعقليّة مع شدّة ذكائه وحفظه، ثمّ رجع إلى الشام واستوطن دمشق سنة ١٢٦٥هـ فأقبل عليه الطلبة، ولم يزل يقرئهم إلى سنة ١٢٧٨هـ، ثمّ دعاه الأمير عبدالقادر الجزائري وأرسل جميع أولاده للأخذ عنه مع غيرهم من طلاب العلم والفنون[١].

*** حسن بن الشيخ رضوان بن محمد حنفي (١٢٣٩هـ ـ ١٣١٠هـ):** كان مالكيّ المذهب تأدّبا مع بلوغه الدرجة الاجتهاديّة، ولد ببلدة تسمّى ببا الكبرى بمديريّة بني سويف، وهاجر إلى مصر وجاور بالأزهر وجدّ واجتهد حتّى بلغ مقام التدريس وهو ابن سبع عشرة سنة وأصبح من أصحاب الرسوخ.

استفاد وأفاد وتوافد الراغبون على رحابه، ووقف العلماء العارفون على أبوابه، منهم: الشيخ حسن الطويل والشيخ محمد عبده وغيرهما من علماء المسلمين في عصره.

كانت محلّته مقصد العلماء ومحط رحال الأجلاء، وكان كذلك يرحل عن محلّته لتذكير الناس وميزان الشرع في أمره ونهيه هو العمدة والأساس[٢].

*** محمد العبّاسي المهدي (١٢٤٣هـ ـ ١٣١٥هـ):** حفظ القرآن الكريم، ثمّ اشتغل بالعلم سنة ١٢٥٦هـ ولِّي إفتاء الديار المصريّة سنة ١٢٦٤هـ وهو في الحادية والعشرين من عمره، ولأنّه لم يتأهّل بعد لمثل هذا المنصب الكبير أقيم له الشيخ خليل الرشيدي أمينا للفتوى يقوم بشؤونها حتّى يتأهّل صاحبها لها ويباشرها بنفسه، فأكبّ المترجم على الاشتغال بالعلم وخصوصا الفقه حتّى نال منه حظّا وافرا، وجلس للتدريس بالأزهر لإقراء كتاب الدرّ المختار.

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص٥٨ ـ ٦١.

(٢) اليواقيت الثمينة ص ٩٦ ـ ٩٨ .

باشر وظيفة إفتاء السادة الحنفيّة بعفّة وأمانة وتدقيق وتحقيق واشتهر بين الناس بالحزم وعدم ممالأة الحكام وفي سنة ١٢٨٧هـ صدر أمر الخديوي بتوليته شيخ الأزهر، فجمع بين الإفتاء ومنصب شيخ الأزهر، وخلال مشيخته سعى لإعادة ما كان لأهل الأزهر من المرتبات الشهرية والسنويّة، واستصدر أمراً من الخديوي بوضع قانون للتدريس وقانون الامتحانات.

وحين اندلعت الثورة العرابية عزل المترجم سنة ١٢٩٩هـ عن مشيخة الأزهر، وانفرد بالإفتاء، ثمّ أعيد بعد نهاية الثورة في نفس السنة، واستمرّ جامعاً للمنصبين قائماً بشؤونهما أتمّ قيام حتى عزل سنة ١٣٠٤هـ، ولم تحفظ عليه خلال الأربعين سنة من تولّيه منصب الإفتاء أيّ بادرة خطأ أو مخالفة للشرع، وسبب ذلك أنّه تولاّه وهو صغير، والعيون شاخصة إليه، فكان لا يفتي فتوى إلاّ بعد المراجعة والتدقيق، فحصلت له بذلك ملكة فيه حتى صار معدوم النظير لا يجاريه مجار في هذا المضمار.

له مجموع فتاوى سمّاها: الفتاوى المهدية في الوقائع المصرية[١].

* **رضوان بن محمد بن سليمان المكنّى بأبي عيد المعروف بالمخللاتي (١٢٥٠هـ/١٨٣٤م - ١٣١١هـ)**: كان شافعي المذهب، تلقّى علومه بالجامع الأزهر على علماء عصره، حتّى نبغ في العلوم الشرعية والعقليّة والعربيّة وخاصّة في علوم القرآن، وشهد له أهل عصره بالتفرّد.

أنتج في مختلف العلوم، وترك مجموعة من المؤلفات القيّمة في علوم القرآن والتوحيد والفقه[٢].

* **حسن بن أحمد بن عليّ الطويل (١٢٥٠هـ - ١٣١٥هـ)**: أحد من تفرّد في مصر بالبراعة في المعقول والمنقول، تربّى بمسقط رأسه قرية منية شهالة إحدى قرى المنوفية، ثمّ انتقل إلى طنطا فاشتغل بحفظ القرآن ثمّ حضر القاهرة واشتغل بطلب العلم بالجامع الأزهر فقرأ على شيوخ عصره

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٦٢ - ٧٢.

(٢) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٨٥ - ٩٢.

مثل الشيخ محمد عليش المالكي والشيخ حسن العدوي الحمزاوي والشيخ إبراهيم السقّا والشيخ محمد الأشموني وغيرهم، فظهرت عليه النجابة وكان دأبه في أوّل أمره مناقشة الشيوخ في الدروس بكثرة الأسئلة والتدخّلات، حتى حدث ما اضطرّه إلى الانقطاع عن الأزهر.

ثمّ عاد بعد ذلك وشهد له شيوخه بالتأهيل للتدريس فدرّس بالأزهر وكان أوّل درس ألقاه في شوال سنة ١٢٨٣هـ، غير أنّه لم يقتصر على العلوم المتداولة بالأزهر، بل بحث ونقّب وبرع في العلوم الحكميّة ونظر في الهندسة والجبر وغيرها.

قرأ عليه في الأزهر كثيرون من علمائه المشهورين، مثل الشيخ محمد عبده والشيخ محمد بخيت والشيخ أحمد الزرقاني وغيرهم.

نقل إلى نظارة المعارف وعيّن للتفتيش فيها، ثمّ نقل مدرّساً بمدرسة دار العلوم إلى سنة ١٣١٧هـ، فعمّ الانتفاع به وتخرّج عليه جمع من أبناء هذه المدرسة من أمثال الشيخ محمد الخضري والشيخ عبدالوهاب النجار.

كان كثير الاشتغال بأمور المسلمين، دائم الهموم لما أصابهم من التأخّر في مشارق الأرض ومغاربها، منتظراً فرجاً يأتيهم ولطفاً من الله يحفّهم، فتقوم فيهم دولة شعارها الدين تقوى على جمع شملهم، ولذلك لمّا قام المهدي بالسودان وانتصر انتصاراته المشهورة، واستولى على السودان، أحسن الشيخ حسن الطويل فيه الظنّ وقام بنصرته، وبلغ الإنكليز ذلك، وكاد يناله منهم أذى لولا أنّ سلمه الله[1].

* **عبدالكريم السناري السوداني (١٣٢٠هـ)**: نشأ في بلدته، وبيته بيت علم ثمّ هاجر إلى مصر وجاور بالأزهر وتفقّه في مذهب الشافعي حتّى صار إماماً فيه، ثمّ تحوّل لمذهب مالك، واجتهد حتى برع في كثير من العلوم، وتصدّر للتدريس ثمّ تحوّل إلى الإسكندريّة، ثمّ إلى المغرب

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٩٣ ـ ١٠١، شجرة النور الزكية ص ٤١٠، اليواقيت الثمينة ص ٩٨.

ومكث بها مدّة يدرّس ويفتي، وكان عالماً في الفقه بارعا في النوازل مفتيا، حفظ تحفة الحكام لابن عاصم وكان معوّلا عليها في النوازل.

رجع إلى الإسكندرية واستقرّ بها[1].

*** الشيخ محمد عبده (١٢٦٦هـ/١٨٤٩م - ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م):**

درس بكتاب قريته محلة نصر بجوار مدينة طنطا المصريّة، ثمّ أرسله أبوه إلى الجامع الأحمدي في طنطا حيث أقام ثلاث سنوات ثمّ انتقل إلى الجامع الأزهر فقضى فيه سنة ونصفا لم يستفد فيها شيئاً يذكر وينسب ذلك إلى فساد طريقة التعليم.

ثمّ انتبه لنفسه ولم ير بدّا من تلقّي العلوم فاستنبط لنفسه أسلوبا في المطالعة وأعمل فكرته في تفهّم ما يقرأه فاستلذّ العلم واستغرق في طلبه حتّى أحرز منه جانبا كبيرا على ما يستطاع إدراكه بتلك الطريقة.

اتّفق أن ورد على مصر سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م السيّد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده لا يزال في الأزهر وقد أدرك الثلاثين من عمره، فتخرج عليه واقتبس منه روحا حيّة، حتّى كان ألصق التلاميذ به وأقربهم إلى طبعه وأقدرهم على مباراته، فلمّا قضي على السيّد جمال بالإبعاد من الديار المصريّة، قال يوم وداعه لبعض خاصّته: «قد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالماً».

أوّل ما نشر على الناس من آثاره هو ما كتبه في جريدة الأهرام لبداية نشأتها سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، وهي فصول سامية المنزع مشتملة على أصول الدعوة الإصلاحيّة التي صرف حياته في سبيلها.

نال في سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م الشهادة العالمية الأزهرية من الدرجة الثانية وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

تقلّب في بعض المناصب العلميّة بين تدريس في المدارس الأميريّة

---

(١) شجرة النور الزكية ص ٤١٠، اليواقيت الثمينة ص ١٧٣ - ١٧٤ .

وتحرير في الوقائع المصريّة التي نشر فيها مقالات كثيرة في إصلاح التعليم وكتابة في الدوائر الرسميّة، حتّى كانت الحوادث العرابيّة التي حكم على إثرها بالنفي، فاختار سوريا.

رحّب به السوريون وأعجبوا بعلمه فأقام بينهم ستّ سنوات، وقد عهدوا إليه بالتدريس في بعض مدارسهم، ثمّ انتقل إلى باريس وهناك التقى بجمال الدين الأفغاني وأنشآ جريدة العروة الوثقى.

عاد إلى مصر بعد أن صدر في حقّه عفو، فولي القضاء وامتاز فيه بتحرّيه الحقّ، وظهرت مناقبه ومواهبه فعيّن سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م مستشارا في محكمة الاستئناف، ثمّ سمّي سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م عضوا في مجلس إدارة الأزهر فسعى جهده إلى إصلاح برامجه، ثمّ عيّن مفتيا للديار المصريّة سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م واستمرّ ينهض بمهمّة الإفتاء ستّ سنوات، إلى أن توفي.

كتب بقلمه في ترجمته لنفسه فقال: «ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأوّل تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمّة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى... وأمّا الأمر الثاني: فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير».

من مصنّفاته رسالة في التوحيد والإسلام والنصرانيّة ولتلميذه محمد رشيد رضا تفسير القرآن الكريم المعروف بتفسير المنار، الذي تضمّن آراء الشيخ محمد عبده ومواقفه.

وله مجموع الفتاوى التي أصدرها والتي دوّنت في مضبطة دار الإفتاء، وقد بلغ عددها ٩٤٤ فتوى، تدور موضوعاتها الرئيسيّة حول الوقف وقضاياه، والميراث ومشكلاته، والمعاملات ذات الطابع المالي والآثار الاقتصاديّة، وفي مشاكل الأسرة وقضاياها، وفي المسائل الجنائيّة.

والملاحظ أنّ ٨٠٪ من هذه الفتاوى كانت حول الحياة المالية

والاقتصادية وقضاياها، وفي هذه الفتاوى إضافات لفكر الإمام في الإصلاح الاجتماعي والتجديد الديني[١].

*** عليّ بن محمد بن أحمد المالكي الببلاوي الحسني الإدريسي (١٢٥١هـ ـ ١٣٢٣هـ):**

من قرية ببلاو التابعة لعمل ديروط الشريف من أعمال مديرية أسيوط، نشأ بها فحفظ القرآن ومبادىء العلوم، وحضر للأزهر سنة ١٢٩٦هـ، فقرأ به على شيوخ وقته مثل الشيخ محمد عليش والشيخ محمد الصاوي، وصحب مدّة حضوره الشيخ حسونة النواوي، فكانا يسكنان معا ويحضران معا الدروس إلاّ في درس الفقه، فإنّ الببلاوي كان مالكيا والنواوي كان حنفيّا.

جدّ واجتهد حتّى تأهّل للتدريس، وعيّن نقيبا للأشراف سنة ١٣١٢هـ، فأقام على هذه الخطّة نحو ثماني سنوات يجدّد معالمها ويحي ما درس منها، حتّى نقل منها شيخا للأزهر سنة ١٣٢٠هـ، وكان آنذاك الشيخ محمد عبده مفتي مصر وعضوا بمجلس إدارة الأزهر، فكان الشيخ النواوي يسايره في أفكاره الإصلاحيّة حتى لم يكن له من الرئاسة غير رسومها، والكلمة كلمة المفتي.

ولمّا اعتزم الشيخ محمد عبده نفض يده من الأزهر استقال الببلاوي من منصبه سنة ١٣٢٣هـ، وأقام ببيته مقبلا على العبادة وتلاوة القرآن حتى توفي في تلك السنة[٢].

*** حسونة بن عبدالله النواوي الحنفي (١٢٥٥هـ ـ ١٣٤٣هـ):** ولد

---

(١) تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ١/٣٨٠ ـ ٣٩١، الفتاوى في التجديد والإصلاح الديني للشيخ محمد عبده، تحقيق محمد عمارة، ص ٥ ـ ١٥ زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص ٢٨٠ ـ ٣٣٧، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ١٤٣ ـ ١٦٥، المجددون في الإسلام من القرن الأوّل إلى الرابع عشر ص ٣٩٩ ـ ٤٠٥.

(٢) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ١١٠ ـ ١١٣.

في قرية نواي التابعة لملوى من أعمال أسيوط، تلقى العلم بالأزهر على شيوخ وقته، ثمّ تولّى التدريس في الأزهر، وعيّن مدرّسا للفقه بدار العلوم ومدرسة الإدارة - مدرسة الحقوق بعد ذلك - وألّف أثناء تدريسه كتاب: سلم المسترشدين في الفقه الحنفي لتلاميذ مدرسة الإدارة.

حينما بدأ إصلاح نظام الأزهر بسعي من الشيخ محمد عبده، اختير الشيخ حسونة رئيسا لمجلس الإدارة، ثمّ شيخا للأزهر، ولمّا توفي الشيخ محمد مهدي العباسي سنة ١٣١٥هـ أضيف منصب الإفتاء الذي كان يشغله إلى الشيخ النواوي، إضافة إلى رئاسة الأزهر.

استمرّ الشيخ النواوي جامعاً للمنصبين حتّى وقع سنة ١٣١٦هـ خلاف بشأن إصلاح المحاكم الشرعيّة، وعرض على مجلس شورى القوانين اقتراح بندب قاضيين من مستشاري محكمة الاستئناف الأهليّة ليشاركا قضاة المحكمة الشرعية العليا في الحكم، فوقف الشيخ حسونة ضدّ ذلك الاقتراح، وأكبر الناس موقفه، ولا سيّما بعد أن سرى إلى الأذهان أنّ الحكومة تريد هدم الشريعة بذلك المشروع، وحاول الخديوي حمل الشيخ على قبول الاقتراح بعد تعديله وتغيير ما يراه مخالفا الشرع منه، فأصرّ على الامتناع وقال: «إنّ المحكمة الشرعية العليا قائمة مقام المفتي في أكثر أحكامها، ومهما يكن من التغيير في الاقتراح فإنّه لا يخرجه عن مخالفته للشرع، لأنّ شرط تولية المفتي مفقود في قضاة الاستئناف.

فأصدر الخديوي أمره بعزل الشيخ عن رئاسة الأزهر والإفتاء، وذلك سنة ١٣١٧هـ، فاعتكف الشيخ في منزله مقبلاً على شأنه حتى طلب سنة ١٣٢٤هـ للعودة على مشيخة الأزهر، فقبل، ثمّ استقال سنة ١٣٢٧هـ بسبب اختلال الأحوال في الأزهر.

وكان خلال توليته الأولى قد عيّن عضواً دائماً غير قابل للعزل بمجلس شورى القوانين، ولهذا بقي في المجلس بعد عزله من الأزهر والإفتاء، حتّى ألغي المجلس واستعيض عنه بالجمعيّة التشريعية وذلك سنة

١٣٣٢هـ[(١)].

*** محمد مصطفى المراغي (١٣١٩هـ/١٨٨١م ـ ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م):**

ولد بالمراغة بمديرية سوهاج، وكان بيته بيت علم، التحق بالأزهر وحصل على العالميّة سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤ م، وهو آنذاك في سنّ الثلاث وعشرين سنة، فأرسله الشيخ محمد عبده إلى السودان في خطّة قاضي شرع، وترقى الشيخ المراغي في مناصب القضاء الشرعي إلى أن صار قاضي قضاة السودان، ثمّ قاضي قضاة مصر.

انتفع بتوجيهات الشيخ محمد عبده في إصلاح المحاكم الشرعيّة، وكان القضاء الشرعي يلتزم مذهباً فقهيّا واحدا، فكان الشيخ المراغي أوّل من خرج على هذا الإجراء وعدل عن مذهب أبي حنيفة الذي كان يجري عليه القضاء الشرعي إلى مذهب مالك والشافعي وغيرهما في مسائل رأى فيها حرجا على الناس، وأمر بتشكيل لجنة للقيام بهذا الإصلاح أطلق عليها: لجنة تنظيم الأحوال الشخصيّة، وممّا قاله في افتتاح عملها: «إنّ إصلاح القانون إصلاح لنصف القضاء، أمّا إصلاح النصف الآخر فهو بيد القاضي نفسه، لأنّ عليه أن يفهم الوقائع أوّلا كما هي، بعد تلمّس أدلّتها ونقدها والموازنة بينها، وكان يقول لأعضائها: «ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنّه يوافق الزمان والمكان، وأنا لا يعوزني بعد ذلك أن آتيكم بنصّ من المذاهب الإسلاميّة يطابق ما وضعتم».

وفي سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م اختير المراغي شيخا للأزهر، وحين عزم على إدخال إصلاحات في نظامه عورض في ذلك فاعتزل بعد أربعة عشر شهرا من تعيينه، ثمّ عاد سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م شيخا للأزهر فأخذ بشيء من الحرص في تنفيذ منهجه الإصلاحي، غير أنّه لم يصل به إلى الغاية التي أرادها له الشيخ محمد عبده[(٢)].

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ١١٤ ـ ١١٩ .

(٢) انظر: المجددون في الإسلام من القرن الأوّل إلى الرابع عشر ص ٤١١ ـ ٤١٤.

*** محمد أبو زهرة (١٣١٦هـ/١٨٩٨م ـ ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)**: من كبار علماء الشريعة الإسلاميّة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، وعضو مجمع البحوث الإسلاميّة، انتدب للتدريس في كثير من الجهات، له أكثر من ثلاثين كتاباً في العلوم الإسلاميّة، منها: تاريخ المذاهب الإسلاميّة، العقوبة في الفقه الإسلامي، الجريمة في الفقه الإسلامي، الأحوال الشخصيّة، أحكام التركات والمواريث، محاضرات في الوقف، محاضرات في عقد الزواج وآثاره، وأفرد لبعض أئمّة الفقه وأعلام الإسلام لكلّ واحد منهم مؤلّفا عن حياته وعصره وآرائه وفقهه.

ـ ٢ ـ الشام:

واشتهر ببلاد الشام:

*** محمود الحمزاوي (١٢٣٦هـ ـ ١٣٠٥هـ)**: الحنفي المذهب، ولِّي إفتاء الشام اثنتين وعشرين سنة وأشهرا حتى وفاته، صنّف في التفسير والفقه وقواعده وأصوله واللغة، وله الفتاوى الحمزاوية[١].

ومن العائلات العلميّة التي كان لها فضل نشر العلم وتدريسه بالشام.

عائلة ابن عابدين: وقد اشتهر منهم:

*** أحمد عبدالغنيّ عمر المشهور بابن عابدين (١٢٣٨هـ ـ ١٣٠٧هـ)** الحنفيّ المذهب، حصل على إجازات عديدة من علماء عاملين وأئمّة معتبرين، وله مصنفات تفوق العشرين في الفقه والعقيدة والحديث[٢].

*** محمد علاء الدين بن محمد أمين عابدين (١٢٤٤هـ ـ ١٣٠٦هـ)**: ـ ابن صاحب الحاشية على الدر المختار المشهورة بحاشية ابن عابدين ـ

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠.

(٢) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

قاضي طرابلس الشام، صاحب التحريرات الرائقة والأبحاث الفائقة في جملة من علوم الفقه والحديث والأصول والتوحيد والتفسير[١].

* **أبو الخير محمد المعروف كأسلافه بابن عابدين (١٢٦٩هـ - ١٣٤٣هـ)**: هو ابن أحمد عبدالغنيّ وابن عمّ محمد علاء الدين، نشأ في حجر والده وأخذ عن جملة من أفاضل علماء عصره منهم: محمود الحمزاوي مفتي دمشق، لازم أمانة الفتوى بدمشق ما ينيف على خمس وثلاثين سنة.

كان متضلّعا في المذاهب الأربعة، وفريدا في المذهب الحنفي وكثير من العلوم العصريّة، له من المؤلفات عشرون مؤلفا[٢].

- ٣ - العراق:

وبالعراق ظهر من الفقهاء الأجلاء:

* **عبدالباقي بن شهاب الدين أبو الثناء محمود بن عبدالله الآلوسي البغدادي (١٢٥٠هـ - ١٢٩٦هـ)**: سعد الدين، القاضي الحنفي صاحب القول الماضي فيما يجب للمفتي والقاضي[٣].

* **طه بن أحمد بن محمد قسيم السندحي الكوراني أصلا البغدادي موطنا ودارا (١٢٣١هـ - ١٣٠٠هـ)**: الشافعي مذهباً المعروف بسنه لي زادة[٤].

* **محمد فيظي المفتي (١٢٣٧هـ - ١٣٠٧هـ)**: المشهور بالزهاوي،

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٢٥٣ - ٢٥٩.
(٢) فهرس الفهارس ١٥٧/١، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٢٩٦ - ٣٠١.
(٣) كشف الظنون ٤٠٥/٥ - ٤٠٦.
(٤) كشف الظنون ٣٥٥/٥.

الذي أخذ عن أعلام العراق حتى فاق أقرانه، فولي إفتاء بغداد وبقي في منصبه إلى أن توفي[١].

* **عليّ الكردي (١٢٢٦هـ - ١٣١٦هـ)**: الذي تقلّد وظيفة التدريس ثمّ وظيفة أمين الفتوى بالعراق، وعليه تخرّج جماعة من علماء بغداد[٢].

* **نعمان بن محمود بن عبدالله بن محمود الآلوسي البغدادي (١٢٥٢هـ ١٣١٧هـ)**: لم يبلغ سنّ العشرين إلاّ وصار من الأساتذة المعتبرين، اشتغل بالتأليف والتدريس في وطنه، ثمّ سافر إلى عاصمة الخلافة عن طريق الشام واجتمع بأعلام تلك الديار.

ألّف كتبا عديدة وتصانيف مفيدة منها الأجوبة النعمانية عن الأسئلة الهندية[٣].

* **عبدالسلام أفندي (١٢٣٤هـ - ١٣١٨هـ)**: من أكابر علماء العراق، أخذ العلم عن العلامة محمود شكري الآلوسي، وكان مدرّسا في مدرسة القادريّة محبوبا عند جميع البغداديين على اختلاف مذاهبهم[٤].

* **عبدالسلام بن الحاج سعيد البغدادي الحنفي (١٢٣٧هـ - ١٣٢٠هـ)**: مدرس القادرية والإمام بها، من تلاميذ المفتي الشيخ الآلوسي[٥].

* **أبو المعالي محمود شكري الآلوسي (١٢٧٢هـ - ١٣٤٢هـ)**: هو ابن عبدالله بهاء الدين بن محمود شهاب الدين، حفظ القرآن الكريم وهو ابن ثماني سنين، واستوعب قسما عظيما من الكتب المهمّة في المنقول والمعقول، والفروع والأصول وأدرك ما لم يدركه غيره.

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٣٣٥.
(٢) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٣٣١.
(٣) فهرس الفهارس ٦٧٢/٢، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٣٠٦ - ٣١٠.
(٤) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٣٣٤.
(٥) كشف الظنون ٤٦٢/٥ .

ألّف عدّة كتب ورسائل تتجاوز خمسين مؤلفا ما بين مختصر ومطوّل[١].

وأمّا أعلام الشيعة فقد استوعب ترجمتهم الشيخ محمد محسن الشهير بأغابزرك الطهراني صاحب الذريعة إلى تصانيف الشيعة في الجزء الأوّل من كتابه طبقات أعلام الشيعة الذي خصّصه لنقباء البشر في القرن الرابع عشر، وذكر ما يناهز ٩٠٠ علماً من أعلام الشيعة، من بينهم الكثير من أوتاد الفقهاء والأصوليين وتعرّض لذكر آثارهم العلميّة[٢].

ـ ٤ ـ الحجاز:

وبرز من سكان الجزيرة أهل نجد بالخصوص الذين بذلوا النفيس من أجل نشر الدعوة الوهابيّة الإصلاحيّة وأحيوا بتلك البلاد للعلم ذكرا.

وكان من أشهرهم ذكرا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري:

* **أبو العباس أحمد بن زيني دحلان المكي (١٢٣١هـ/١٨١٦م ـ ١٣٠٤هـ/١٨٨٦ م)**: مفتي الشافعية بمكّة المكرّمة وأحد من نفع الله به الإسلام في هذا الدور في تلك الربوع العربيّة، له مصنفات مشهورة، منها: كتاب السيرة النبوية، ومن محامد المصادفات أن تنشأ في زمنه أوّل مطبعة بمكّة فتولاّها، ومن ثمّ طبعت بعض مصنّفاته[٣].

واشتهر من بعده[٤]:

* **عيسى بن عكاس (١٢٦٨هـ ـ ١٣٣٨هـ)**: الذي ولد بالأحساء ونشأ بها، وقرأ الفقه المالكي والفقه الحنبلي، وعرف بحسن حفظه

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٣١١ ـ ٣١٩.

(٢) طبقات أعلام الشيعة، المطبعة العلميّة في النجف، ط ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

(٣) فهرس الفهارس ١/٣٩٠ ـ ٣٩١.

(٤) إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي ص ١١٠ ـ ١١٥.

واستحضاره وسمته حتّى صار من أعلام عصره، وقد سافر إلى قطر بطلب من أميرها لنشر العلم وعقيدة السلف ثمّ عاد بعد سنة إلى مسقط رأسه فعيّنه الملك عبدالعزيز قاضيا ببلده سنة ١٣٣٤هـ واستمرّ على قضائها مدّة حياته لا يأخذ مقابل وظيفته شيئاً تورّعا.

وعليه تخرّج عدد غير قليل من أهل نجد ومن الإمارات العربيّة.

* **عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ (١٢٦٥هـ - ١٣٣٩هـ)**: مفتي نجد وزعيمها في زمانه، ولد في مدينة الهفوف بالأحساء، ونزل به جدّه إلى مدينة الرياض فتعلّم بها الفقه والتوحيد والحديث والتفسير، ثمّ تصدّى للتدريس والإقراء فتخرّج عليه علماء كثيرون.

* **حسن بن حسين بن عليّ آل الشيخ (١٢٦٦هـ - ١٣٤٠هـ)**: ولد بالرياض وتعلم على مشائخ عصره، ثمّ ولِّي قضاء الإفلاج ثمّ قضاء المجمعة عاصمة سدير قاضيا لها ولبلدان سدير، ثمّ تولّى قضاء الرياض، ثمّ تفرّغ للتدريس زمن الملك عبدالعزيز آل سعود، وعنه أخذ كثير من الناس.

* **سليمان بن عطيّة (١٣١٧هـ - ١٣٦٣هـ)** الذي ولد بمدينة حائل ودرس الفقه عن فقهاء بلده، ونظم الفقه شعرا، منه زاد المستقنع مختصر المقنع في ثلاثة آلاف بيت، ونظم البيوع في متن دليل الطالب، وله متون منظومة في قواعد الفقه وفي البيوع وله ألغاز في الفقه.

* **عبدالرحمٰن بن قاسم (١٣٧٧هـ)**: من علماء نجد، الذي اشتهر بالبحث العلمي ونشر التراث.

* **عبدالله العنقري بن عبدالعزيز بن عبدالرحمٰن (١٢٩٠ - ١٣٧٣هـ)**: الذي ولد في ترمد من قرى الوشم بنجد، وأخذ عن مشاهير علماء عصره، ثمّ ولِّي قضاء إقليم سدير وبقي قاضيا أكثر من ثلاثين سنة، وعلى يديه تخرج علماء كثيرون.

* **عبدالرحمٰن بن سعدي** الذي ولد في العنيزة بالقصيم سنة

١٣٠٧هـ، وتعلّم العلوم الشرعيّة، ثمّ جلس للتدريس وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ولمع نجمه، وعنه أخذ الكثيرون، وترك مصنّفات عديدة في التفسير وفي أصول العقائد والتوحيد وفي الفقه، منها: حاشية على الفقه استدرك بها على جميع الكتب المتداولة والمؤلفة في المذهب الحنبلي، وكتاب إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب، رتّبه على طريقة السؤال والجواب، وله الفتاوى السعدية، وغير ذلك.

* **عبدالله بن حسن آل الشيخ (١٢٨٧هـ ـ ١٣٧٨هـ)**: إمام وخطيب المسجد الحرام، ولد بالرياض وبها نشأ وتعلّم، وكان داعيا للإصلاح الديني على طريقة جدّه محمد بن عبدالوهاب، عيّن في سنة ١٣٤٦هـ رئيسا للقضاة بالحجاز مع الإشراف على الحرمين الشريفين ورقابة المساجد والإشراف عليها واختيار الأئمّة وتعيينهم واختيار المرشدين والوعاظ وإرسالهم إلى القرى والبوادي للإرشاد والتعليم.

* **محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٣١١ ـ ١٣٨٩هـ)**: الذي ولد بالرياض ودرس العلوم الشرعيّة، ثمّ صار رئيس دار الإفتاء وقاضي القضاة في نجد، ثمّ ولّي رئاسة القضاء بنجد، ثمّ قاضي قضاة المملكة، وكان عالماً ذكيّا راجح العقل، وله رسائل عدّة وفتاوي.

وأمّا **الغرب الإسلامي** فقد أخذ بدوره في ركب الإصلاح، وتيقّظ روّاده لما يحتاج إليه من حياة نامية، وإذا ما تصدّى مؤرّخ للحديث عن الفقهاء الذين برعوا في حكمة التشريع وشملوا الحقوق برعاية وصيانة، فإنّ كثيراً من فقهاء هذه الربوع أهل لأن يذكروا في مقدمة أولاك الفقهاء.

ـ ١ ـ تونس:

فأمّا البلاد التونسيّة فقد اشتهرت فيها بيوت بإقبال أبنائها على العلم وتولّيهم للمناصب الشرعيّة كآل النيفر وآل عاشور بين فقهاء المالكية، وآل بيرم وآل أبي الخوجة بين الفقهاء الحنفيّة.

وكان نظام التعليم بالمعهد الزيتوني من أسباب تنافس أصحاب

المذهبين: المالكي والحنفي في ميدان العلم، رغم أنّ المذهب المالكي هو الذي يأخذ به معظم السكان[١].

وقد أخرج جامع الزيتونة في ظلّ هذا النظام فقهاء أجلّة يعتزّون بعلمهم، قد بلغوا غاية بعيدة في سعة العلم وتحقيق البحث، منهجهم الرجوع إلى الأصول والقواعد ومراعاة المصالح، فلا يقنعون بنقل الأقوال دون أن يتأوّلوها بالنقد والمناقشة.

وما زال الرسوخ في الفقه وربط الأحكام بأصولها من عناية الكثير من شيوخ جامع الزيتونة، تشهد لهذا كتاباتهم وفتاواهم ومقالاتهم التي كانت تنشر في الصحف التونسية أو المصريّة[٢].

ونذكر من بين هؤلاء:

* **أبو حفص عمر بن أحمد المعروف بابن الشيخ (حدود ١٢٣٩هـ/١٨٢٦م - ١٣٢٩هـ/١٩١١م)**: من أبناء مدينة بنزرت، نشأ بالعاصمة ودخل الجامع الأعظم سنة ١٢٥٩هـ فتلقى العلم على كبار الشيوخ مثل: محمد بن مصطفى البارودي ومحمد سلامة ومحمد معاوية ومحمود قبادو والشاذلي بن صالح ومحمد النيفر ومحمد بن الخوجة وحمدة بن عاشور وإبراهيم الرياحي وغيرهم.

جلس للتدريس بجامع الزيتونة منذ سنة ١٢٦٦هـ، وترقى في مناصب التدريس حتى عيّن سنة ١٢٨٣هـ مدرّساً من الطبقة الأولى، فدرّس كتباً عالية في علوم شتى تدريس بحث وتحقيق، لا يغادر عويصة أو عقدة إلاّ فتح مغلقها وأوضح مجملها بحيث يتعلّم الطالب من دروسه كيف تلتقط جواهر المعاني من أقوال المؤلفين زيادة عمّا يستفيده من العلم، فله مزيّة التحقيق والكشف عن أسرارها بوجه يدلّك عمّا له من سعة العارضة والغوص في أعماق المباحث إلى أبعد غاية.

---

(١) تونس وجامع الزيتونة ص ٧ - ٨.

(٢) تونس وجامع الزيتونة ص ٨.

كان نافذ الفكر في المباحث الغامضة قديرا على حلّ المسائل العويصة ولكنه لا يكثر من مناقشة المؤلفين وذوي الآراء، وإذا ناقش في عبارة أو رأي فبأدب واحترام.

وكانت عادته أن لا يورد بحثا أو جوابا عن اعتراض إلاّ بعد التثبيت والاستناد فيه إلى قاعدة مسلّمة، ومن هنا كان الغالب على أفهامه الاستقامة وإصابة المرمى، وإذا عثر على خلل لبعض المؤلفين التمس له المعذرة ما أمكنه وإلاّ قرّر وجه الخلل ونبّه على مكانه بأدب ولطف في البيان.

وكان له عقل أشرب قوانين المنطق، فلا يروج عليه الزيف وإن صدر من عظيم أو خرج في زخرف من القول.

جرى على العناية بأمر التدريس وبذل المجهود في تحرير المسائل وتنقيحها بدون أن يعنى بأمر التأليف، إلاّ ما يقتبسه تلاميذه من تحريراته القيمة ويضعونه على حواشي نسخهم.

استمرّ على التدريس نحوا من ستّين عاما، وحضر الشيخ محمد عبده في زيارته الأولى لتونس سنة ١٣٠٠هـ درسا له فأعجب بقيمة الشيخ ابن عمر ودرسه أيّما إعجاب.

كان في طليعة الشيوخ الزيتونيين الذين انصرف نحوهم المصلح خير الدين معتمدا عليهم في برنامجه الإصلاحي الشامل لنواحي الرقي الاجتماعي كلّها، فانتخب سنة ١٢٧٨هـ عضوا في المجلس الأكبر ونائبا لرئيس المجلس الاعتيادي فظهرت له براعة فائقة في تطبيق القوانين، واصطفاه الوزير خير الدين لمعاضدته في إنجاز التراتيب المهمّة التي نجمت عن عهد وزارته وفي مقدمتها تنظيم التعليم بجامع الزيتونة، فقد كان من أعضاء اللجنة التي سنّت القانون.

وبصفته تلك باشر تحرير بعض الفتاوى المنشورة بالرائد ـ الجريدة الرسمية للدولة ـ وشرح ما انغلق من المشاكل والتوقفات المعروضة على المجلس، وشارك في وضع القوانين وفي تطبيقها نظريّا ثمّ عمليّا لمّا أنيطت بعهدته خطّة رئاسة القسم التونسي من «المجلس المختلط العقاري» وكان

أوّل رئيس لهذا المجلس عند إحداثه، وكان بسبب ذلك محلّ إعجاب وتقدير المصلح خير الدين، ثمّ شارك في لجنة النظر في لائحة مجلّة العقود والالتزامات التونسيّة الصادرة سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م ـ التي تفوّقت في صياغتها على مجلّة الأحكام العدليّة العثمانيّة ـ بأسلوب أعجب به أساتذة الحقوق في الجامعات الأوروبيّة.

قلّد سنة ١٢٩٠هـ خطّة قاضي باردو ـ قاضي الجيش ـ، ثمّ سمّي سنة ١٣٠٨هـ مفتياً مالكيًّا فنهض بأعبائها وامتاز بالبراعة في تطبيق الأصول على الفروع.

دام الشيخ على تقدّم سنّه مضطلعا بالأعباء الشاقة اضطلاع الشباب، فكان وقته موزّعاً بين أشغال إدارة التعليم بالجامع، والنظر في نوازل المحكمة الشرعية ونوازل المحكمة العقارية وتحرير التقارير المستفيضة والتدريس بالجامع بما عهد منه من التدقيق وسعة البحث إلى أن سنة ١٣٢٥هـ حيث بلغ ما ينيف على الخمسة والثمانين سنة، فاستعفى من وظائفه جميعا إلاّ من التدريس الذي كان يراه عنوان قيمته وأشرف تكاليفه.

وبقي على خطّة التدريس لكنه لا يباشرها لشيخوخته، وقد أبت له همّته العالية أن يقبل مرتّب التدريس عن غير مباشرة فكان متخلّياً عن مرتّبه ليضمّ إلى مداخيل المباشرين للتعليم بالجامع تطوّعا، ولئلاّ تنقطع بينه وبينهم هذه العوائد فقد قام بتحبيس أملاك ذات بال على متطوّعي الجامع الأعظم لا يزال أجره بإذن الله غير منقطع بها وبالعلم الذي بثّه في صدور الرجال(١).

*** أبو عبدالله محمد بن عثمان النجّار (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م ـ ١٣٣١هـ/١٩١٣م):**

---

(١) تونس وجامع الزيتونة ص ٣٠ ـ ٣١، و١١٢ ـ ١١٦، تراجم الأعلام للشيخ الفاضل ابن عاشور ص ١٦٣ ـ ١٧٢، شجرة النور الزكية ص ٤٢٠ ـ ٤٢١، تاريخ معالم التوحيد ص ٦٢، ١٠٢، ١٣٧، تراجم المؤلفين التونسيين ٣/٢١٣ ـ ٢١٨، أعلام من الزيتونة ص ٤٥ ـ ٥٤، العلماء التونسيون لأرنولد هـ قرين ص ٣٢٩.

دخل جامع الزيتونة سنة ١٢٧٠هـ وتلقّى العلم عن والده الذي كان له مزيد اختصاص بالعلوم الحديثة، ثمّ عن خاله المفتي محمود قبادو النابغة الإفريقي وعن أعيان علماء عصره مثل شيخي الإسلام محمد معاوية وأحمد بن الخوجة، وكبير الشورى المالكية الشيخ محمد الشاذلي بن صالح، والمشائخ المفتين: محمد النيفر الأكبر ومحمد الطاهر بن عاشور وسالم بو حاجب وعمر بن الشيخ وغيرهم.

تولّى التدريس بجامع الزيتونة، وفي عام ١٣١٢هـ تولى منصب الإفتاء، فكان يجمع بين الفتوى والتدريس بجامع الزيتونة حتى توفي.

ذكر تلميذه محمد الخضر حسين: أنّه كان واسع الاطّلاع غزير العلم، ذا ذاكرة لا تخونه فيما يستودعها إيّاه من علم، تحريرا في العلوم التي تدرّس في جامع الزيتونة في درجات متساوية أو متقاربة، لم نر له في سعة الاطّلاع والمحاضرة بالعلوم على اختلاف فنونها من نظير، شديد الاستقصاء لما يقرّره الكاتبون، كثير العناية بنقد ما يوردونه من الآراء، وكان يحبّ البحث ويتلقّى مناقشة الطلّاب بصدر رحب.

ترك مصنفات كثيرة، منها: مجموع الفتاوى، وكتاب بغية المشتاق في مسائل الاستحقاق، جمع فيه ما تفرّق من مباحث هذا الكتاب وحرّر فيه أحكام النوازل التي تعرض بالقطر التونسي كثيراً، وله محررات فقهية كتبها بمناسبة ما يعرض من النوازل الهامة بالمحكمة الشرعية، وله تأليف ممتع في رؤية الهلال سمّاه تحرير المقال في أحكام رؤية الهلال، حرّر في أثناء بحثه مسائل فقهيّة وأصوليّة وفلكيّة[١].

*** أبو العباس أحمد ابن الخوجة الثاني (١٢٤٥هـ/١٨٣٠م -**

(١) تونس وجامع الزيتونة ص ٣١، ٩٧ - ٩٩، شجرة النور الزكية ص ٤٢١ - ٤٢٢، تاريخ معالم التوحيد ص ١٣٣، ٣٤٢، ٣٤٦، تراجم المؤلفين التونسيين ١٦/٥ - ١٨، العلماء التونسيون ص ٣٧٤.

١٣١٣هـ/١٨٩٦م): نشأ في حجر علم وفضل، فقرأ على والده شيخ الإسلام محمد بن أحمد ابن الخوجة، وبلغ من عناية والده به أنّه كان إذا خطرت في باله مسألة من مسائل العلم وهو في سريره، ينبّه ابنه من النوم ويلقيها إليه لئلا يفوت الابن أخذها عن أبيه.

دخل الزيتونة عام ١٢٥٨هـ فتلقى العلم عن عمّه حسن بن الخوجة وعن الشيوخ حسين البارودي وإبراهيم الرياحي وابن ملوكة ومحمد بن عاشور ومحمد بن سلامة ومحمد النيفر والشيخ معاوية وغيرهم، وأجاز له شيخ الإسلام بيرم الرابع.

تقدّم للتدريس بجامع الزيتونة وهو دون العشرين من عمره، فبهر العقول بتحقيقه وبراعة أسلوبه، ثمّ وقع ترسيمه مدرّسا رسميّا سنة ١٢٦٦هـ.

كان درسه مورداً لأذكياء العلماء، حسن النظر في مذاهب السياسة الشرعيّة، حرّر من الفتاوى الكثير، وكان يصوغها على طريقة النظر المستقلّ، فيطبّق الأصول والقواعد على الوقائع مع رعاية المصالح ومقتضيات الأحوال، ويجمع في أكثرها بين المذهبين الحنفي والمالكي.

ودأب على هذا المسلك البديع خمسة وأربعين عاماً تناول فيها تدريس أهمّ الكتب المتداولة بتدريس الجامع.

ولي القضاء الحنفي سنة ١٢٧٧هـ، فقام بأعباء هذه الخطّة بما اقتضاه علمه الجزيل وذكاؤه الأصيل في فهم حقائق النوازل وحسن إجرائها وتنزيل النصوص الفقهيّة على وقائعها تنزيلا محكما، ثمّ نقل إلى الإفتاء سنة ١٢٧٩هـ، فظهرت قيمته العالية ومداركه النادرة فكان نسيج وحده في فقه الفتوى بما أوتي من الذكاء ونفاذ البصر في القضايا المسؤول عنها، وما اكتسب من الضلاعة في علم أصول الفقه ضلاعة يستطيع بها تحقيق مناط الحكم ودفع التعارض بين النصوص وترجيح الأولى منها بالانطباق على واقعة الحال.

فصدرت بهذا الأسلوب الفتاوى المحرّرة البديعة حتى توجهت إليه الأنظار في المشكلات وتطاولت إليه الرقاب في الخفيات، وتعدّت شهرته حدود القطر إلى ما وراءها من بلاد الإسلام وعاصمة الخلافة، حتى طبقت شهرته العالم الإسلامي فأصبح يقصد بالاستفتاء من أقطار المغرب والمشرق ويتراجع مع أعاظم فقهاء الحنفية في عصره فتاواهم واستشكالاتهم فيتلقون تحقيقاته وتنزيلاته بالإذعان والإيقان.

وقد تكوّن له من هذا المقام الفقهي العلمي مقام اجتماعي سياسي، وذلك أنّ بصيرته الحادة في تفهّم النوازل العارضة ونظره العميق في أسرار النصوص الشرعية وإحاطته بأنظار أعلام فقهاء الإسلام على اختلاف مذاهبهم قد فتحت لنظره مناهج الوصول إلى إدراك ما كان أغلب الفقهاء بمعزل عن إدراكه من تطوّرات الحالة الاجتماعية والسياسية لبلاد الإسلام وما تقتضيه الأحكام الشرعية في تلك الأطوار من الأخذ بالتنظيمات المبنية على مراعاة أصول لم تجر تقاليد الحكومات الإسلامية بمراعاتها، ولكن قواعد الشريعة الإسلامية لا ترى في مراعاتها بأسا.

وعلى هذه النظرية تفرّعت تحريرات عديدة للشيخ ابن الخوجة في تأييد الإصلاحات التي أدخلها السلطان عبدالمجيد على هيكل الحكومة العثمانية وبيان أصول الشريعة في علائق المسلمين بغيرهم ونظام الشورى وأصول الحرية، إلى غير ذلك من مهمّات الأمور التي لم يزل علماء الشرق يومئذ عن إدراك كنهها بمعزل.

وكان الشيخ ابن الخوجة في طليعة العلماء الذين اعتضد بهم خير الدين في سبيل إنجاز برنامجه الإصلاحي حيث شارك مشاركة محسوسة في تأسيس نظام جمعيّة الأوقاف وفي إصلاح ترتيب التدريس بجامع الزيتونة وفي تأسيس المدرسة الصادقية، وكان الوزير خير الدين يعرف له منزلته الفائقة ويقرّ له من الأثر في تلك المؤسسات الخالدة.

وفي سنة ١٢٩٤هـ/١٨٨٠م أسندت إليه مشيخة الإسلام، فقرّب مقامها

من منازل التأثير في سير الأمور العامة حتّى كان أوّل من اشتهر بلقب شيخ الإسلام(١).

*** محمد الخضر حسين النفطي الجريدي التونسي (١٢٩٣هـ/١٨٧٤م - ١٣٧٧هـ/١٩٥٨ م)**: ولد بنفطة بالقطر التونسي من أسرة علم وصلاح، ودخل الزيتونة سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٧م ونبغ في العلوم، فطلب لتولي بعض الخطط العلمية قبل إتمام دراسته لكنه أبى وواظب على حضور دروس أكابر العلماء مثل عمر ابن الشيخ ومحمد النجار وسالم بو حاجب حتى نال درجة العالميّة، ونظم الشعر في سنّ الثانية عشر حتى انتهى بإصدار ديوان: خواطر الحياة.

أنشأ سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م مجلّة السعادة العظمى، وهي أوّل مجلّة أنشئت بالمغرب، ولقي في سبيل بثّ رأيه الإصلاحي ما يلقاه كلّ من سلك هذا السبيل، وقد كانت خطّته الإصلاح الاجتماعي والديني والعمل لإعادة مجد الإسلام، غير أنّ صدورها لم تدم إلاّ عاما ناقصا.

ولي قضاء بنزرت سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥ م، والتدريس والخطابة بجامعها الكبير، ثمّ رجع إلى العاصمة وتطوّع للتدريس بجامع الزيتونة، وفي سنة ١٣٢٥هـ أصبح مدرّسا بالصادقية وكلّف بالخطابة بالخلدونيّة.

سافر سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م إلى الشرق فدخل مصر وفلسطين ودمشق - وكان بها أخوه زين العابدين - وبيروت واسطنبول - وكان بها خاله الشيخ المكّي بن عزّوز - ورجع إلى تونس في نفس السنة، ثمّ هاجر في العام الذي يليه فاستوطن دمشق، وهناك نصّب للتدريس في المدرسة السلطانية في كرسي الشيخ محمد عبده - وكانت سوريا لا تزال تحت سلطان العثمانيين - ثمّ اعتقل بتهمة كتم حال المتآمرين على الدولة، ثمّ أطلق سبيله

---

(١) تراجم الأعلام ص ٩٣ - ١٠١، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٣٧٣ - ٣٧٧ كتاب العمر ٩٤٦/٢ - ٩٤٧، تراجم المؤلفين التونسيين ٢٤٤/٢ - ٢٤٧، تاريخ معالم التوحيد ص ١٩٢، ٣٤٢، فهرس الفهارس ٣٨٣/١ - ٣٨٤، الأعلام ٢٣٥/١، معجم المؤلفين ١٠٠/٢، العلماء التونسيون ص ٣٢١ - ٣٢٢.

بعد أن ثبتت براءته، فاضطرّ للخروج إلى الآستانة وتولى فيها الوعظ بجامع الفاتح وعيّن منشئا عربيّا بوزارة الحرب، وحين احتلّها الحلفاء رحل مع زعماء الحركة الاسلامية وعاد إلى دمشق سنة ١٩١٨م ولمّا بسطت فرنسا نفوذها على سوريا سنة ١٩١٩م ترك دمشق إلى القاهرة.

أقام بقيّة عمره في مصر ورقى فيها إلى أعلى المناصب، وفي القاهرة أتيح له أن يقاوم حركات التغريب بدعوته إلى إنشاء جمعيّة الشبّان المسلمين، وأنشأ بعد ذلك جمعيّة الهداية الإسلاميّة، وكانت مجلّته الهداية الإسلاميّة وقلمه من ألسنة الدفاع عن المغرب وقضاياه، ورسولا قويّا يستصرخ المشارقة.

واتّصل بالأزهر ونال إجازته وعمل في كلياته واختير عضوا في جماعة كبار العلماء ثمّ شيخا للأزهر عام ١٩٥٢م وعضوا في مجمع اللغة العربيّة.

أثرى المكتبة الإسلاميّة بعناوين كثيرة، منها: أسرار التنزيل، ورسائل الإصلاح والشريعة الإسلاميّة وتونس وجامع الزيتونة وتراجم الرجال وبلاغة القرآن وغيرها كثير.

وله كتابات جرّد فيها الشيخ قلمه للدفاع عن قضايا الإسلام المعاصرة، قرع فيها الحجّة بالحجّة وردّ على الدليل بالدليل فكان مثال العالم المحقّق، وهذه الكتب هي: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبدالرازق، والكتاب أجود دراسة فكريّة كتبت ضدّ كتاب عليّ عبدالرازق، وله نقض كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين، والكتاب أشدّ الكتب حجّة ضدّ طه حسين، وله نقد طويل لكتاب الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن لمحمد أبي زيد الدمنهوري، وردّ الشيخ الخضر يعتبر من المراجع العالميّة التي أثرى بها المكتبة الفقهيّة الإسلامية، وله نقد علميّ ردّ به على مقال لأحد العلماء يتعلّق بالحدود في الإسلام.

وهكذا كان رحمه الله يرصد كلّ الانحرافات الفكريّة التي يراد إلحاقها بالإسلام فلم يكفّ عن ملاحقة أصحابها والردّ عليهم ردودا علميّة في

حدود النقد النزيه الذي يخدم الفكر والعلم[1].

* **محمد الطاهر بن عاشور (١٢٩٦هـ/١٨٧٩م - ١٣٩٤هـ/١٩٧٣ م):**
من بيت آل عاشور الأشراف الأندلسيين، التحق بجامع الزيتونة سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٣م فثابر على تعليمه حتى أحرز شهادة التطويع سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩ م، وفي سنة ١٣٢٠هـ نجح في مناظرة التدريس من الرتبة الثانية وتولّى التعليم بصفة رسمية بالجامع الأعظم، وارتقى سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٥م بمناظرة إلى التدريس من الرتبة الأولى.

كان يستمرّ في إلقاء درسه بدون انقطاع مدّة تربو على الساعتين لا يرجع إلى ورقة ولا إلى كتاب في أسلوب عميق من الدرس والتحقيق يناقش المؤلفين والمفسرين والشراح وأصحاب الآراء ويقرع حججهم بحجّته ويردّ تخريجاتهم بأدلّة يلقيها وينسج برودها ويصقلها صقلا وينسبها إلى مراجعها وأصولها ومظانها وكأنّه قد طالعها منذ لحظة من كتاب بين يديه.

سمّي سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م نائبا عن الدولة لدى نظارة جامع الزيتونة العلميّة فابتدأ أعماله بإدخال نظم مهمّة على التعليم بحسب ما سمح به الحال، وحرّر يومئذ لائحة في إصلاح التعليم وعرضها على الحكومة فأمكن تنفيذ شيء منها.

ولمّا تأسّست لجنة النظر في تنقيح برنامج التعليم سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م كان الشيخ ابن عاشور عضوا في هذه اللجنة وهو الذي تولّى تقرير حالة التعليم، وكان الاعتماد على لائحته المشار إليها آنفا.

قدّم لائحة في بعث تعليم ابتدائيّ إسلاميّ منظّم في خمس مدن من مدن القطر التونسي، وهي: القيروان وسوسة وصفاقس وتوزر وقفصة.

---

(١) أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ص ١٧٣ - ١٧٦، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٣٧٨ - ٣٨١، محمد الخضر حسين: شيخ الأزهر الأسبق، لمحمد كرّو تراجم المؤلفين التونسيين ٢/١٢٦ - ١٣٥، شيوخ الزيتونة في القرن الرابع عشر الهجري ص ٥١ - ٧٣، العلماء التونسيون ص ٣٢١.

وفي سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م أسندت إليه خطّة القضاء المالكي بعاصمة تونس، ودخل في هيئة النظارة العلميّة التي تدير شؤون جامع الزيتونة، ووقع الاعتماد عليه في إصلاح حال التعليم بجامع الزيتونة وترقيته.

وفي سنة ١٣٤١هـ/١٩٢٣م سمّي مفتيا مالكيّا بالديار التونسيّة، ثمّ باش مفتي - رئيس المجلس الشرعي المالكي - سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م، ثمّ شيخ الإسلام المالكي وشيخ الجامع الأعظم سنة ١٣٥١هـ/١٩٣٢م، ثمّ فصل عن هذه الخطّة بسبب دسائس خصومه ومنافسيه وما أبداه وحاوله من إصلاح غاض به المحافظين من شيوخ الزيتونة، وأبدوا معارضة صريحه لبرنامجه الإصلاحي، ثمّ عاد إلى مباشرة مهامه على رأس مشيخة الجامع الأعظم من سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م إلى سنة ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.

أسرع منذ توليته مشيخة الجامع الأعظم وفروعه في أوائل عام ١٩٤٥م إلى الاهتمام بدرس الرغبات الزيتونية والكشف عن المرامي المنطوية عليها والأهداف الساعية لتحقيقها فسار بطريق التدرج لبلوغ الهدف المنشود لها من الرقي والرفعة من الناحيتين العلمية والإداريّة بما يحق للجامعة الزيتونية أن تفاخر به أرقى المؤسسات العلمية النظامية بالعالم الإسلامي آنذاك.

وبإثر استقلال البلاد عيّن عميدا للجامعة الزيتونية من سنة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م إلى سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

كانت بينه وبين الشيخ محمد الخضر حسين صداقة نادرة، بلغت في صفائها ومتانتها الغاية التي ليس بعدها غاية، وكان الشيخ محمد الخضر يقول: ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابه بأقلّ من إعجابي بعبقريته في العلم.

ترك الشيخ الطاهر ما يناهز الأربعين مؤلفا، تنوّعت بين التفسير والحديث والمقاصد، والأدب واللغة، كما شملت الدراسات الإسلاميّة فضلاً عن المقالات التي كتبها في الصحف والمجلات بتونس والقاهرة ودمشق، فصنّف تفسير التحرير والتنوير الذي أمضى في تحريره حوالي

أربعين سنة، وله النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح وكشف المغطّى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطّأ، وله الأمالي على مختصر خليل في الفقه وحاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب التنقيح في أصول الفقه، ومقاصد الشريعة الإسلامية التي انفرد بها بعد العزّ بن عبدالسلام والشاطبي، وغير ذلك من المؤلفات الغزيرة.

وله فتاوى عديدة في العبادات وفي شؤون الأسرة وفي الشؤون العامّة صدرت في المجلات ـ المجلة الزيتونية والهداية التونسية والهداية المصرية ومجلة المنار لرشيد رضا ـ وفي الجرائد ـ الزهرة والنهضة والوزير والعصر الجديد والعمل والصباح ـ[1].

* **محمد العزيز بن يوسف جعيط (١٣٠٣هـ/١٨٨٦م ـ ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م)**: اعتنى به والده، ولمّا اشتدّ عوده انخرط في سلك التعليم بجامع الزيتونة الأعظم، وتحصّل على كلّ الشهائد العلميّة التي يمنحها هذا المركز العلمي إلى أن سمّي أستاذا به عند إحداث هذه الخطّة سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م.

تتلمذ على شيوخ كبار منهم: ابن عمّه محمد بن حمّودة جعيط وسالم بو حاجب ومحمد الخضر حسين.

تولّى العديد من الوظائف بدءا بخطّة التدريس بالجامع الأعظم منذ عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م، ثمّ مدرّسا بالمدرسة الصادقية سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م، وتقلّد منصب الإفتاء المالكي سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٩م، وسمّي سنة

---

(١) تونس وجامع الزيتونة ص ١٢٣ ـ ١٢٦، التقويم الذهبي التونسي ص ٢، شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور للشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة ١٥٣/١ ـ ١٧٢، و٣١٥ وما بعدها، تراجم المؤلفين التونسيين ٣٠٤/٣ ـ ٣٠٩، أعلام من الزيتونة ص ١٢٧ وما بعدها، ٢٤٠ وما بعدها، شيوخ الزيتونة في القرن الرابع عشر الهجري ص ٩٨ ـ ١٠٦، محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه لإيّاد خالد الطبّاع، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور لبلقاسم الغالي، العلماء التونسيون ص ٣٣٠.

١٣٥٨هـ/١٩٣٩م شيخا للجامع الأعظم وفروعه وفي سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م سمّي شيخ الإسلام المالكي.

ثمّ كلّف سنة ١٣٧٦هـ/١٩٤٧م بوزارة العدل مع بقائه في خطّة مشيخة الإسلام، وسمّي عند الاستقلال مفتيا للديار التونسية إلى سنة ١٩٦٠م.

حاضر ودرّس وألّف المؤلفات ونشر الفتاوى وأسهم في ترشيد وتنظيم القضاء التونسي بفرعيه الشرعي والعدلي فوضع المجلّات وسنّ القوانين.

جمع الأستاذ محمد بوزغيبة فتاواه وحقّقها، أثناء إعداد رسالة علميّة حول الشيخ جعيط وفقهه، كان قد أصدرها الشيخ على مدى ثلاثين سنة - ما بين ١٩٢٩ و١٩٦٠ - تتناول مسائل العبادات والمعاملات والآداب والسلوك، وتعالج قضايا تتعلّق بأحكام الأسرة والتأمين وكثير من المسائل الحويّة التي لم تفقد حيويّتها حتى اليوم.

وهي حافلة بالأدلّة الشرعية.

أسهم في الحياة العلمية والاجتماعية لوطنه لا بوظائفه وبفتاواه فحسب، وإنّما كذلك بالتحرير في مجالات مختلفة بل وبإصداره مجلّتي: الإجراءات الشرعيّة والأحكام الشرعية.

من بين إصلاحاته الجريئة التقنين الذي أحدثه، حيث أصدر مجّلتين شرعيتين: مجلّة الإجراءات الشرعيّة ومجلّة الأحكام الشرعيّة التي أعدّها سنة ١٩٤٨م وبعد أن كوّن لجنة للنظر في مسودّة هذه المجلّة، ووقعت العديد من الجلسات، همّش المستعمر هذا المشروع.

كانت له مواقف سياسية رائدة، خاصّة فيما عرف بتونس في الثلاثينات بحوادث التجنيس، حيث تحدّى السلطة الفرنسية وعاضد الحركة الوطنيّة وأكّد يومها أنّ المتجنّس مرتدّ، لا يدفن في مقابر المسلمين إلاّ إذا تاب وأعلن إسلامه مجدّدا، وكان الشيخ آنذاك أحد أعضاء المجلس

الشرعي المالكي الذي أعلن أنّه يتعيّن على المتجنّس التائب عند حضوره لدى القاضي أن ينطق بالشهادتين مجدّدا، ويصرّح بأنّه يتخلّى عن الجنسيّة التي اعتنقها، وزاد الشيخ جعيط شرطا: وينبغي أن تتمثّل توبة المتجنّس في الإقلاع عن الامتيازات التي تحصّل عليها بموجب جنسيته الجديدة.

وفي فجر الاستقلال صرّح أحد القادة البارزين أن تونس ستكون دولة لائكيّة في نظامها بعد الاستقلال، فأنكر الشيخ محمد العزيز جعيط على قيام دستور لائكي تساس به البلاد التونسية وصرّح بلزوم التنصيص في الدستور على أن تكون الحكومة إسلاميّة ودينها الإسلام، وكتب مقالاً في المجلّة الزيتونيّة بعنوان: الإسلام دين ودولة وقوميّة.

ولـمّا وقع إثر الاستقلال توحيد القضاء وأدمجت المحاكم الشرعية بقضاتها وسائر موظّفيها في إطار محاكم الحقّ العام سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م اختار الشيخ جعيط الإحالة على المعاش، ونظراً لما كان يتمتّع به الشيخ من علم واسع وثقة عزّ نظيرها خيّرته الحكومة الأولى سنة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م - في عهد الاستقلال - أن يكون الرئيس الأوّل لمحكمة التعقيب - أي القاضي الأوّل لكافة المحاكم الموحّدة الشرعيّة والعدليّة - إلاّ أنّه أحجم عن مباشرة هذا المنصب ولازم بيته، فوقع التفكير في إحداث خطّة المفتي وإسنادها إليه، فصدر سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م أمر إحداث منصب مفتي الديار التونسية، وأسندت إلى الشيخ جعيط، فاستمرّ على مباشرة الإفتاء حتّى أقيل منها سنة ١٩٦٠[١].

*** محمد الفاضل بن عاشور (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م - ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م):**

من أبرز ثمار الزيتونة ونوابغها ومن أعلام الثقافة والفكر في الغرب

(١) فتاوى شيخ الإسلام محمد العزيز جعيط ص ١ - ٦، و١٩ - ٢٦، تراجم المؤلفين التونسيين ٣٧/٢ - ٤١، أعلام الزيتونة ص ٢٧١، ٢٩٢، ٢٩٨ شيوخ الزيتونة ص ٩٣ - ٩٧، العلماء التونسيون ص ٣٥٣.

الإسلامي خاصّة وفي العالم الإسلامي عامّة، كان من عائلة علم ومن بيت فقه ورئاسة، فقد انخرط والده في خطط شرعية مختلفة وسبقه في ذلك أجداده فتسنّموا ذرى المجد الشرعي، وعرف عمّاه منصّات الحكم والقضاء والدفاع.

ابتدأ القراءة في سنّ السادسة، وكان في سنّ العاشرة قد أعاد حفظ القرآن سلكة ثانية وابتدأ تعلّم اللغة الفرنسيّة على معلمين خصوصيين في ساعات معيّنة بالمنزل.

وابتدأ في سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م قراءة دروس في مبادىء القراءات والتوحيد والفقه والنحو في مسجد مجاور لبيته، وفي آخر السنة التحق بالتعليم الزيتوني، فنجح في التطويع سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م وانتسب إلى كليّة الآداب بجامعة الجزائر عام ١٩٣١م ونجح سنة ١٩٣٢هـ في المناظرة وسمّي مدرّساً، وكان قد اتّصل بالصحافة منذ عام ١٩٢٨م.

تقلّب في مناصب التدريس بالزيتونة إلى أن أصبح مدرّساً من الطبقة الأولى سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م واستمرّ على التدريس بتلك الصفة حتى سنة ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م، ثمّ ابتدأت رحلته في الخطط الشرعية فولي مفتي المالكية بالمحكمة الشرعية سنة ١٩٥٣م، ثمّ انتخب سنة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م لقضاء الحاضرة، هذه الخطّة التي شغلها قبله جدّه محمد الطاهر بن عاشور الأوّل، ثمّ والده محمد الطاهر بن عاشور.

وبعد ما يقرب من ستّة أشهر وقع توحيد القضاء وأدمجت المحاكم الشرعية بقضاتها وسائر موظّفيها في إطار محاكم الحقّ العام على إثر الاستقلال، فسمّي الشيخ الفاضل رئيس دائرة بمحكمة التعقيب، واستمرّ على رئاستها مدّة أربع سنوات وخمسة أشهر.

وفي سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦١ سمّي عميدا للكليّة الزيتونية للشريعة وأصول الدين، ثمّ مفتيا للجمهورية التونسية سنة ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، مع بقاء مباشرته لعمادة كليّة الشريعة بعد أن رفض تولّي الإفتاء مقابل التنازل عن العمادة، ودام مباشراً للخطتين مدة ثمانية أعوام حتى اختاره الله لجواره.

درّس بالمدرسة التونسية للحقوق - التي أدمجت سنة ١٩٧٢م في كلية الحقوق - فكان الشيخ الفاضل يحاضر فيها عن التشريع الإسلامي.

طاف البلاد شرقا وغربا، فدخل مصر والحجاز والجزائر والشام وليبيا والمغرب الأقصى، وزار فرنسا والنمسا واليونان ويوغسلافيا وبلغاريا، واشترك في مؤتمر المستشرقين باستانبول عام ١٩٥١ م، ونظّم أناشيد للشبان إبان الأزمة القومية سنة ١٩٣٩م تحديا لمحاولة الحكومة الفرنسية فرض أناشيد أجنبيّة على طلبة المدارس.

وأهمّ ما كان يؤثر في الحركة الاجتماعية بتونس في عهد شبابه هو نهضة الأمم الإسلاميّة نهضة شعبيّة بعد سقوط الخلافة العثمانية لتحقيق آمال الخلاص اعتمادا على الكفاح الشعبي.

كان آية إعجاب في المحافظة على ما يطالع وخزنه عنده، يرجع إليه في محاضراته العلميّة والأدبيّة المرتجلة في الكليّة والمحافل والمجامع والجمعيات والإذاعة داخل تونس وخارجها.

كتب في التاريخ وترجم لأصناف من الرجال الفقهاء، وترجم للأدباء ولرجال السياسة، وكتب دراسات مستفيضة جامعة، ونشر كتابه الحركة الأدبية والفكرية في تونس الذي أرّخ به لنهضة الفكر والأدب في تونس منذ عام ١٨٨١ إلى منتصف القرن العشرين(١).

- ٢ - المغرب الأقصى:

وأمّا بالمغرب الأقصى فنذكر:

*** أبو محمد عبدالقادر بن عبدالكريم الورديغي الشفشاوني**

(١) مقدمة كتاب تراجم الأعلام للشيخ الفاضل بن عاشور - ترجمة لنفسه في حديث أجرته معه مجلّة الندوة -، الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس للشيخ الفاضل بن عاشور - نفس الحوار مع الشيخ - تراجم المؤلفين التونسيين ٣/٣١٠ - ٣١٤، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ص ١٧٧ - ١٧٨، أعلام من الزيتونة ص ١٣٠، أعلام من الزيتونة ٢٨٤ - ٣٠٠.

(١٣١٣هـ): صاحب كتاب سعد الشموس والأقمار وزبدة شريعة النبيّ المختار في المذاهب الأربعة الذي سلك فيه مسلك كتاب القوانين الفقهيّة لابن جزي المالكي، وصاحب كتاب شمس الهداية لتذكار أهل النهاية وإرشاد أهل البداية، وهو في القضاء على المذاهب الأربعة وغيرهم من المذاهب ذوي الأحكام المتّبعة[١][٢].

* **جعفر بن إدريس الكتاني الحسني (١٣٢٣هـ)**: من علماء فاس وحامل راية المذهب المالكي على كاهله، وبيته بفاس معروف بالصلاح والعلم، كان كثير التصنيف والتقييد حتى قاربت مؤلفاته المائة، بقي مدّة وعليه المدار في النوازل والأحكام وإلى قوله المرجع.

توفي بفاس عن نيف وأربعين سنة، ولمّا بلغت وفاته أهل مكّة المكرّمة صلّوا عليه بالمسجد الحرام صلاة الغائب، وخلف عدّة أولاد كانوا أوطاد العلم، درّسوا من بعده وأفتوا.

* **أبو عبدالله محمد المهدي بن محمد بن خضر الحسني الوزاني الفاسي (١٣٤٢هـ)**: مفتي فاس وفقيهها العارف بمدارك الأحكام والنوازل ومسائل المذهب، وصاحب التآليف والرسائل العديدة، منها: حاشية على شرح التاودي على التحفة، والنوازل جمع فيها فتاوى المتأخّرين من علماء المغرب، والمعيار جمع فيه فتاوى المتأخرين والمتقدّمين، وشرح العمل الفاسي.

كان مفتيا مقصودا في المهمات من سائر الجهات، أقرأ العلوم وانتفع به الكثير من الفضلاء[٣].

* **أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر الزكاري المعروف بابن الخياط الفاسي (١٢٥٢هـ ـ ١٣٤٣هـ)**: كان من وعاة الفقه المالكي

(١) شجرة النور الزكية ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.
(٢) فهرس الفهارس ١/١٨٧ ـ ١٨٨، شجرة النور الزكية ص ٤٢٣.
(٣) شجرة النور الزكية ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

وحملته العارفين بأصوله وفروعه، خاتمة علماء فاس.

أدرك شيوخ أواخر القرن الثالث عشر وأخذ عنهم قراءة وسماعا[1].

*** محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي (١٢٩١هـ/١٨٧٤م - ١٣٧٦هـ /)**: بدأ تعليمه في سنّ السابعة فكان يتلقى القرآن الكريم على الفقيه محمد بن عمر السودي حفيد الشيخ التاودي الشهير، ثمّ دخل سنة ١٣٠٧هـ القرويين فدرس على جلّة الشيوخ.

وفي سنة ١٣١٦هـ ابتدأ في إلقاء الدروس بعدما أذن له بعض شيوخه، ولم تكن القرويين تعرف إذ ذاك امتحانا وإنّما كان يقوم مقامه إذن شيوخها الكبار لتلاميذهم في التدريس، ثمّ تتوزّع الشهرة والإقبال بقدر طول الباع.

اشتغل في التجارة في غير أوقات الدروس تدريبا، ودخل معترك الحياة وقرع باب السياسة وتقلّب في وظائف سامية عديدة، ثمّ استعفي سنة ١٣٢٣هـ وأقبل على نشر العلم بفاس والاشتغال بشيء من التجارة تكفّيا بها عن كلّ وظيف إلى سنة ١٣٣٠هـ، وعرضت عليه أثناء مدّة الإعفاء وظائف مهمّة فأعرض عنها اختيارا للسلامة.

وفي سنة ١٣٣٠هـ سمّي نائب الصدارة العظمى في وزارة العلوم والمعارف، فقبله رجاء النفع ونشر العلم.

وفي سنة ١٣٣٢هـ باشر تنظيم المجلس التحسيني لإصلاح التعليم بالقرويين، فأسّس هذا المجلس وألّف قوانينه التحسينية لكنّ الكثير من الشيوخ نفروا عن ذلك فاستعفي وعاد من حيث أتى، فرجع من الرباط إلى فاس للإقبال على الدرس والتأليف والتكفّي بشيء من التجارة.

وفي سنة ١٣٣٩هـ عاد لوظيف نيابة الصدارة العظمى فبثّ روح

(١) شجرة النور الزكية ص ٤٣٦.

النهضة في مدارس التعليم، بإحياء العلوم المدروسة والتشبّع من علوم العصر.

بلغت تآليفه أكثر من خمسين بين مطوّل ومختصر، أكثرها شهرة كتاب الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي[1].

ـ ٣ ـ ليبيا:

وبالقطر الليبي برز الكثير من أعلام الفقهاء الذين كانت لهم اليد الطولى في تثبيت هذا القطر على عروبته وثقافته ، فكان من هؤلاء:

* **حسين بن محمد بن عبدالكريم النائب الأوسي الأنصاري (١٢٢٣هـ ـ ١٢٩٨هـ)**: نشأ بطرابلس، وقرأ العلوم على أعلام عصره، وشيوخ مصره، رحل إلى تونس ولقي الشيخ إبراهيم الرياحي وحلبته، ثمّ رحل إلى مصر، ونال بها علماً وافرا.

برع في العلوم الشرعية، وكان له تصرّف في شتى الفنون، واليد الطولى في سائر العلوم، وتمكّن من الفقه، وتقدّم في معرفة المفروض والمسنون، وولِّي النيابة الشرعية بنفس الثغر، وسار فيها بسيرة مرضية ناهيك من عدل أظهر، ومن فضل به اشتهر[2].

* **محمد بن عبدالرزاق بن عبدالرحمٰن بن عزّ الدين اليشتي (١٢٣٦هـ ـ ١٣١٠هـ)**: تلقى العلم ببلده، ثمّ رحل إلى الأزهر سنة ١٢٦٧هـ ومكث هناك أربع سنوات، ثمّ رجع إلى مدينة الزاوية وتولّى التدريس فيها.

كان مثالا للجدّ في الدرس، وأخلص للعلم فانقاد له، وبذل النصح لتلامذته ففتح الله على يديه مغاليق قلوبهم.

---

(١) ترجمة لنفسه من إنشائه في كتابه الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ٩/١ ـ ٢٣.

(٢) أعلام ليبيا ص ١٠٠ ـ ١٠١.

كان أوّل شيخ ينشر العلم بمدينة الزاوية نشرا لم يسبق له مثيل، فهو معلّمها الأوّل، وأستاذها الأكبر، وكلّ من جاء بعده فهو تلميذه مباشرة أو بالواسطة.

تولّى الإفتاء بمدينة الزاوية، فكانت الأمور تنتهي إليه في كلّ ما يتعلّق بها علماً وسياسة، وكان ربّما يحتاج إليه الأمر في مركز الحكومة، وهو مشغول بقراءة الدرس، فيبقى الرسول في الانتظار إلى حين إنهاء الدرس وختمه[١].

* **أحمد بن محمد بن سالم بن أحمد بن رمضان بن مسعود (١٢٤٢هـ - ١٣١٥هـ)**: من علماء زليطن، كان علّامة محقّقا، أخذ على علماء زليطن، ثمّ رحل إلى الأزهر لطلب العلم، وأخذ عن الشيخ محمد علّيش شيخ المالكية، والشيخ حسن العدوي، وأحمد السنهوري، وإبراهيم السقّا، وغيرهم من أفاضل العلماء حتى برع في العلوم الأزهريّة منقولها ومعقولها.

عاد إلى بلده سنة ١٢٧٧هـ واشتغل بتدريس العلم دراسة تحقيق وتدقيق، وأسند إليه قضاء زليطن الشرعي، فقضى حياته بين خدمة العلم، وفصل النزاعات[٢].

* **محمد كامل بن مصطفى (١٢٤٤هـ/١٨٢٨م - ١٣١٥هـ/١٨٩٧ م)**:

كان عالماً فقيها، حفظ مذهب أبي حنيفة في وقت لم يكن له في طرابلس علماء أفذاذ وكاد أن ينقرض من طرابلس.

حفظ القرآن الكريم بمدينة الزاوية وأتمّه إجادة وتجويدا قبل السادسة عشرة، رحل إلى طرابلس فدرس بها ثلاثة أعوام حتى أجاد النحو وتوابعه والفقه وملاحقه والحديث وفروعه، ثمّ توجّه إلى مصر والتحق بالجامع الأزهر عام ١٢٦٣هـ/١٨٤٦ م، فدرس الفقه المالكي والحنفي دراسة

---

(١) أعلام ليبيا ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ - ٤٦.

مستوفاة، فدرس أقرب المسالك للشيخ الدردير وشرح الدردير على مختصر خليل وحواشي الشيخ الدسوقي والخرشي وغيرها.

وقرأ في مذهب أبي حنيفة مراقي الفلاح وحواشيه للشيخ أحمد الطحطاوي وشرح الدر المختار على متن تنوير الأبصار بحواشي الشيخ الطحطاوي كذلك وغيرها.

عاد إلى طرابلس بعد سبع سنوات، فجلس للإفادة ولم يتجاوز السادسة والعشرين، ودرّس في مدارس عديدة بطرابلس أهمّها المدرسة الرشيديّة وهي المدرسة النظاميّة الوحيدة التي أسّسها العثمانيون، والتي ما كانت تضارعها في البلاد مدرسة في حسن نظامها واختيار المدرّسين وإعداد الطلّاب.

رحل إلى مصر وتونس سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨١م وتركيا والحجاز، وولّي الإفتاء عام ١٣١١هـ/١٨٩٣م وبقي مفتياً لطرابلس إلى أن توفّي.

صنّف كتاب الفتاوى الكامليّة في الحوادث الطرابلسية، التي بدأ في جمعها سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م، إذ كان الناس يوجهون إليه برسائلهم وأسئلتهم من قبل أن يعيّن مفتيا رسميّا، والكتاب يحتوي على ألفين ونيف من الأسئلة التي وجّهها إليه أبناء طرابلس وأجوبتها في مجال العقيدة والعبادات والمعاملات والأحوال الاجتماعيّة.

وعندما بدأ الشيخ في جمع فتاويه حذف كثيراً من الأسئلة وأدخل على كثير منها الاختصار والتهذيب، كما ضمّ إلى فتاويه بعض الأسئلة التي وجّهت إليه وهو طالب في مصر، ومدرّس في طرابلس، وزائر بتونس، وحاج في البقاع المقدّسة سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٧م.

امتاز كتابه الفتاوى بأسلوب سهل وعبارة واضحة، وكان في فتاويه صاحب رأي واستنباط، وأحياناً يتوقّف في الفتوى تحرّيا ويسأل عنها علماء

عصره من شيوخ الأزهر وأعلام الزيتونة، فكان يراسل صديقه مفتي الديار المصريّة الشيخ العباسي المهدي، وصديقه الشيخ أحمد بن الخوجة مفتي تونس.

وقد طبع الكتاب سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥ م[١].

*** الطاهر بن محمد بن عبدالرزاق البشتي (١٢٨٣هـ - ١٣٢٨هـ):** نسبة إلى قرية الأبشات بالزاوية، كان أحد علماء الزاوية، ومن شعرائها وأدبائها، درس ببلده، وتمكّن في مدّة قصيرة من التفقّه في مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة، ثمّ رحل إلى الأزهر في أوائل القرن الرابع الهجري لاستكمال دراسته.

رجع إلى الزاوية بعد تخرّجه سنة ١٣٠٩هـ فدرّس بمسقط رأسه بقرية الأبشات، ثمّ تولّى الإفتاء بالزاوية سنة ١٣١٤هـ، فكان يفتي على مذهبي مالك وأبي حنيفة.

لمّا شرعت إيطاليا تتدخّل في شؤون طرابلس لدى حكومة الآستانة، وتسعى لاحتلالها، ذهب في وفد من الطرابلسيين والبرقاويين إلى الآستانة سنة ١٣١٩هـ لرفع شكوى إلى السلطان عبدالحميد.

كانت له بعض مقطوعات شعرية ضاعت فيما ضاع من كتبه أيّام الجلاء الذي حدث لسكان الزاوية أثناء حروبهم مع الإيطاليين[٢].

*** عمر بن محمد بن أحمد بن عمر المسلاتي (١٨٤٨م - ١٩٢٣ م):** مفتي طرابلس، أخذ عن فقهاء مدينة طرابلس، ثمّ رحل إلى الأزهر سنة ١٨٧٠، واستقرّ هناك ١٣ سنة، أخذ العلم عن مشاهير عصره، منهم: شيخ المالكية محمد علّيش، وأحمد الرفاعي، والباجوري، وأجازوه إجازة عامّة في مختلف العلوم.

---

(١) أعلام من طرابلس ص ٢١٤ - ٢٢٤.

(٢) أعلام ليبيا ص ١٣٩ - ١٤١.

عاد إلى طرابلس سنة ١٨٨٣، واشتغل بالتدريس، نحو أربعين سنة من حياته، انتفع خلالها طبقات متعدّدة من طلبة العلم.

تقلّب منذ ١٩٠٦ في الوظائف القضائية، وفي سنة ١٩١٠، عيّن من الآستانة بأمر من شيخ الإسلام، مفتيا في النواحي الأربعة، ثمّ مفتياً عامًّا لمدينة طرابلس سنة ١٩١٣.

لمّا أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ أنشىء فرع لجمعية الاتّحاد والترقّي في مدينة طرابلس لجعل البلاد تركية في جميع مظاهرها، فأسرع هو وثلّة من إخوانه إلى تأسيس حزب سياسي سمّوه «جمعيّة الجامعة العثمانيّة»، واختير رئيساً لها، ومبدأ هذه الجمعيّة المحافظة على عروبة البلاد وعثمانيتها.

قام سنة ١٩١٣ مع جماعة معه على إصلاح مدرسة أحمد باشا فوضعوا لها نظاماً خاصّاً وسمّوها «كليّة أحمد باشا» وأسندت رئاستها إلى صاحب الترجمة، وكان أوّل من تبرّع للتدريس بها، واستمرّ نشاطه العلمي بها بعد صلاة الظهر من كلّ يوم، إلى أن أحيل على التقاعد سنة ١٩٢١[(١)].

* **عمر بن أحمد بن عمّار الميساوي (١٩٣٠م)**: من علماء الزاوية وأفاضل رجالها، تخرّج في الأزهر، وأخذ العلم على كبار العلماء في عصره، وأجازه الشيخ محمد بن محمد علّيش، ابن الشيخ علّيش الكبير، بجميع مروياته بإجازة مؤرخة في سنة ١٣١٧هـ، ثمّ رجع إلى طرابلس، فتصدّر لتدريس العلوم الشرعية والعربية، واشتهر بإصابة الرأي فيما كان يصدر عنه من مسائل علميّة، فكان موضع ثقة الناس واحترامهم.

كان من أوّل الثائرين على الاحتلال سنة ١٩١١، ومن أوّل الذين انضمّوا إلى صفوف المجاهدين، فقبض عليه الإيطاليون ونفوه إلى إيطاليا أربع سنوات.

---

(١) أعلام ليبيا ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

وفي سنة ١٩١٩ وقع استبدال أسرى مسلمين بأسرى إيطاليين، فاختارته حكومة مصراتة من بين من اختارتهم من الأسرى، ثمّ عيّنته مفتيا، فكان أمينا على العلم، متحرّيا فيما يفتي به.

هاجر إلى مصر سنة ١٩٢٤ بعد دخول الإيطاليين طرابلس، وأقام بالإسكندرية، وفي سنة ١٩٢٦ انتخب عضوا في مؤتمر الخلافة العام، مندوبا عن طرابلس، واستقرّ بالإسكندرية إلى أن توفّي بها[١].

* **أحمد الفسّاطوي (١٩٣٦هـ)**: نسبة إلى فساطو، بلدة مشهورة في جبل نفوسة، من رجالات طرابلس الذين اشتهروا في فجر حياتهم بالنشاط الوطني، وبتحصيل العلم.

رحل إلى الأزهر سنة ١٣١٩ م، وسجّل اسمه في رواق المغاربة، وكان له فيه نشاط علمي، وفيه تخرّج، ثمّ رجع إلى وطنه سنة ١٣٢٧هـ، وأسندت إليه رئاسة المدرسة الإسلامية العليا.

بذل جهده في تربية النشء، وكان مع علمه صحفيّا ممتازا، بأدبه وفنّه، وكان معدودا في الوطنيين الذين كانت لهم مواقف ضدّ السياسة الإيطالية[٢].

* **إبراهيم بن مصطفى بن إبراهيم بن مصطفى بن محمد بن أبي بكر (١٢٧٣هـ ـ ١٣٦٢هـ/١٩٤٣ م)**: كان فقيهاً عالماً، وأديبا شاعرا، نشأ في بيت علم وفضل وأدب، وكان والده مفتيا بطرابلس، وكان جدّه مفتيا بها قبل والده.

كان نسيجا وحده، بين الفقهاء في شعره وأدبه، وبين الشعراء في فقهه وعلمه.

ابتدأ حياته العلميّة بالتلقّي عن شيوخ طرابلس، فدرس الفقه المالكي

(١) المرجع السابق ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) نفس المرجع ص ٧٣.

والحنفي، والحديث والتفسير، وما يتّصل بهذه العلوم من الأصول والفروع والوسائل والمصطلحات.

تولّى التدريس بطرابلس، وفي العهد العثماني شغل مناصب عديدة في المحاكم من سنة ١٣٠٦هـ إلى سنة ١٣٢٤هـ، ثمّ عيّن مفتيا لطرابلس سنة ١٣٢٤هـ، فقام بالوظيفة خير قيام.

لمّا احتلّ الطليان طرابلس سنة ١٩١٢، هاجر إلى الشام، ثمّ عاد إلى طرابلس، فعيّن عضوا في المحكمة الشرعية العليا، ثمّ رئيسا لها، وبقي فيها خمسة عشر عاما بين العضوية والرئاسة[١].

* **رحومة بن محمد الصاوي (١٢٨٣هـ - ١٣٦٦هـ)**: من علماء زليطن، العالم المجاهد، تلقى العلم عن علماء بلده، وجاور في المدينة المنوّرة مدّة من الزمن.

له مشاركة في العلوم الشرعية أصولها وفروعها، وحديثها وتفسيرها، وفي العلوم العربية، اشتغل بتدريس العلوم بزليطن، واختير مدرسا في الجامع الحميدي «جامع بو منجل» سنة ١٣٢٨هـ، وإماماً به وخطيباً.

لمّا احتلّ الإيطاليون طرابلس سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١ م، كان من أنصار الجهاد، والمحرّضين عليه بخطبه الجمعيّة ودروسه المسجديّة.

عيّن سنة ١٣٣٩هـ في وظيفة القضاء الشرعي بزليطن، واعتقله الإيطاليون سنة ١٣٤١هـ في جماعة كثيرة من أعيان زليطن، وحكم عليه بالسجن المؤبّد مع مصادرة ممتلكاته، قضى منها عشر سنوات في الاشتغال بالتأليف والنظم والجمع وشرح المتون وإلقاء الدروس، ثمّ أفرج عنه.

عيّن مدرّسا بمصراتة لمدّة ثلاث سنوات، ثمّ مدرّسا ببلده زليطن، فانتفع به خلق كثير، وتخرّج عليه أساتذة كرام[٢].

---

(١) أعلام ليبيا ص ١٤ - ١٧.

(٢) أعلام ليبيا ص ١١٢ - ١١٣.

* **محمد بن محمد بن منصور بن صالح البكّوش (١٩٤٩ م)**: من علماء زليطن، تلقّى ببلده مبادىء العلوم ثمّ رحل إلى الأزهر لطلب العلم سنة ١٣٢٠هـ، وانتسب إلى رواق المغاربة، وأخذ العلم عن الشيخ بخيت المطيعي، وحسن السقّا خطيب الأزهر إذ ذاك، وغيرهما، وشارك في جميع العلوم، ثمّ رجع إلى مسقط رأسه سنة ١٣٢٧هـ، فأسندت إليه وظيفة القضاء في عدّة بلدان من وطنه.

وفي سنة ١٩٣٨ أراد الإيطاليون إجبار الليبيين على التجنس، فأفتى بتحريم ذلك، على الرغم من أنّ كثيراً ممّن ينتسبون إلى العلم قد أفتوا بجواز ذلك.

وفي سنة ١٣٥٠هـ انتخب عضوا في المحكمة الشرعية العليا[١].

* **أحمد بن علي الشارف (حدود ١٨٧٢م ـ ١٩٥٩ م)**: من علماء زليطن، كان عالماً فاضلاً، وشاعراً ملهماً، عرف بشيخ الشعراء، ولِّي سنة ١٩٠٦ الخطابة والتدريس بمسجد بني مسلّم بمسلاتة، ثمّ ولِّي القضاء الشرعي في تاورغة نحو خمس سنوات، ثمّ القضاء بالقربولّي عشر سنوات.

سجنه الطليان لشعره الحماسي الذي كان يلهب به همم المجاهدين، ولمّا أطلق سراحه التحق بالمجاهدين بغريان التي لم تحتلّ بعد، فتولّى وظيفة كاتب أوّل لمفتي غريان.

وإثر صلح بنيادم سنة ١٩١٩ عيّن على قضاء سرت، وحين شكلت المحكمة الشرعية العليا بطرابلس سنة ١٩٢٢ عيّن عضوا بها، ثمّ رئيسا لها سنة ١٩٤٣، ثمّ أحيل على التقاعد[٢].

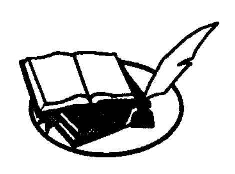
ولا يسعنا قبل أن نختم هذه الرحلة المباركة مع حركة الفقه في تطوّراته وتقلّباته إلاّ أن نشيد بأعلام الفقهاء المعاصرين الذين ملأوا الربع الأوّل من القرن الخامس عشر الهجري بدراساتهم الفقهيّة الحديثة

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) نفس المرجع ص ٦٩ ـ ٧١.

المتخصّصة، والذين يدرسون قضاياه الطارئة بأنظار مستقلّة وآراء تستضيء بالأدلّة، ويشبعون المواضيع المستحدثة بحثاً في جميع جوانبها تفريعاً وتأصيلاً، وتفسيراً وتعليلاً، وتمحيصا وتحقيقا، وينفتحون على جميع المذاهب الفقهيّة للاستفادة منها والترجيح بينها، في غير عصبيّة مذهبيّة مقيتة وإنّما سيراً مع أرجح الآراء وأقواها دليلاً، وأكثرها ملاءمة لأوضاع العصر ومقتضياته بلا هوى متّبع ولا زيغ مبتدع... ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١).



(١) سورة التوبة ـ الآية ١٠٥ ـ.



مقاربة نقديّة

- ١ - تأثير الفكر الإصلاحي الحديث في الفقه ومسائله:

من خلال خلاصة المعلومات العامّة المتعلّقة بتطوّر الحياة الفكريّة للإسلام في القرن الماضي يستطيع الدارس أن يقرّر بأنّ أهمّ المباحث التي شغلت العالم الإسلامي، قد نشأت أوّل ما نشأت في ميدان دعوات المصلحين الذين جعلوا موضوع نظرهم حالة المجتمع الإسلامي من حيث مقارنته بالمجتمعات الأوروبيّة الناهضة في تأخّره وتقدّمها[1].

وقد نشأ في محيط هذا المذهب الفكري الواسع مباحث المعضلات الفقهيّة التي طرحتها الحياة المعاصرة بكلّ ما فيها من حركة وتجدّد، وتتطرّقت نشرات الدعوة العامّة التي أشهرها: مجلّة المنار، إلى مشاكل كثيرة تتعلّق بالتشريع الإسلامي منها **ما يرجع إلى المعاملات المدنيّة** كمسألة البنوك والربا ومسألة شركات التأمين، وشهادات الاستثمار بصورها المختلفة، وكثير من المشكلات المالية، ومنها **ما يرجع إلى مسائل من أحكام العادات** - كما سمّاها الشاطبي - مثل مسألة الزكاة ومسألة اللباس ومسألة تحديد أوائل الشهور العربيّة، ومنها **ما يرجع إلى أحكام من الأحوال الشخصيّة** مثل مسألة أقصى أمد الحمل، ومسألة تعدّد الزوجات، ومسألة الطلاق، ومسألة استقلال المرأة الاقتصادي، وغيرها من المسائل التي نشأت

(١) مجلّة الهداية التونسية عدد ١ سنة ٢٧ ص ٥٦، مقال بعنوان: الترابط بين الحكمة العقليّة والحكمة الشرعيّة للشيخ المرحوم الفاضل ابن عاشور.

عن اتّصال الشرق بالغرب ممّا يمسّ الحياة اليوميّة في تطوّراتها وتقلّباتها[١].

واستمرّت مجلّة المنار تنظر نظرا متكرّرا مجدّدا في الأحكام الشرعيّة على أساس الدعوة الإصلاحيّة، وذلك بالرجوع إلى الأصول، وباعتبار المعاني والعوائد، وباعتبار الضرورات والحاجات، والتجرّد عن الالتزام المذهبي[٢].

وهكذا تناولت أنظار البحث والتعليم الأحكام الفقهيّة وتعلّقت بها أحاديث الترجيح والاستفسار والاختيار بصفة لم تعهد مثلها الأحكام الفقهيّة من قبل، إذ أصبح البحث يجري خارج ميادين الدراسة الفقهيّة فيولّد المناقشات الفكريّة ويثير المجادلات القلميّة من كلّ ما هو خارج عن ميادين الدراسة الفقهيّة وعن العمل الفقهي في الدراسة والتحرير ممّا هو مستقلّ عن سيطرة الفقهاء في التدريس والقضاء.

غير أنّ هؤلاء المصلحين لم يتوجّهوا إلى الفقه والتشريع بصورة مباشرة، إذ كانوا يمثّلون مذهباً إصلاحيّا شاملا، وتناولوا في نظرتهم الإصلاحيّة عامّة نواحي الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، فولّد ذلك فكرة منهجيّة كانت قوام مذهب عام تناول العقيدة والأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد.

وقد وقف الفقهاء في أكثر هذه المسائل أوّلا غير مكترثين، ثمّ متعجّبين، ثمّ منكرين أو مناصرين، فدخلت تلك المباحث سواء بإنكارهم أم بمناصرتهم مجال البحث الفقهيّ بالمعنى الأخصّ، وأصبحت حقيقة واقعة في عمل الفقهاء لا مناص لهم عنها في ميدان النظر وفي ميدان العمل.

وهكذا نشأ البحث في هذه المسائل ومثيلاتها ـ التي هي من صميم

(١) مجلّة الهداية ص ٥٦، ومضات فكر ١٥٢/١ ـ ١٥٣، الفتاوى في التجديد والإصلاح الديني للأستاذ الإمام محمد عبده ص ٢٣، ٢٤، ٣٠.

(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: ومضات فكر ١٥٢/١.

الفقه ـ أوّل ما نشأ في محيط الحركة الإصلاحيّة التي كانت المرجع الأصلي لإثارة تلك المسائل من خلال قيام دعاة الإصلاح بطرحها وبحثها ومعالجتها في نشرات الدعوة العامّة التي أشهرها: مجلّة المنار، ودعوا فيها إلى حلول متمشّية مع الطرائق التي درجوا عليها في حلّ مشاكل الإسلام العامّة[١]، وهنا تتجلّى الخصوصيّة العجيبة لهذا الوضع الغريب، فهؤلاء الدعاة الذين قاموا على رأس الحركة الإصلاحيّة لم يكونوا يوماً ما فقهاء بالمعنى الخاص، ولم يكن الفقه موضوع تخصّصهم العلمي أو العملي، ولكن رغم ذلك فقد كان أثرهم على الفقه مباشرا في جميع الأحوال، وما ذاك إلاّ لأنّهم انطلقوا في دعوتهم من خلال المناداة بفقه حديثي يقوم على الأدلّة ولا يلتزم التقليد، وبضرورة العودة إلى الكتاب والسنّة والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد ونبذ التقليد والجمود[٢].

فقاوم جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤هـ/١٨٣٨م ـ ١٣١٥هـ/١٨٩٧ م) التمزّق المذهبي ونادى بضرورة ترميم الوحدة الإسلاميّة، ونادى عبدالرحمن الكواكبي (١٢٦٥هـ/١٨٤٩م ـ ١٣٢٠هـ/١٩٠٢ م) بالترك جانبا اختلاف المذاهب التي نحن متّبعوها تقليدا، فلا نعرف مآخذ كثير من أحكامها، وأن نعتمد ما نعلم من صريح الكتاب وصحيح السنّة وثابت الإجماع، ورأى أنّه لا مانع من ترك النقول المتخالفة خصوصا منها المتعلّق بالبعض القليل من الأصول، والاجتماع على الرجوع إلى ما نفهمه من النصوص، أو ما يتحقّق عندنا حسب طاقتنا أنّه جرى عليه السلف[٣].

ومن هنا حملت هذه الدعوات في طيّاتها التنبيه إلى ما خلّفته عصور الانحطاط من مناهج في التأليف والتدريس والإفتاء والقضاء باعتبارها هي التي كرّست المذهبيّة الضيّقة والاتّباع الأعمى، والوقوف عند اجتهادات

(١) مجلّة الهداية التونسية عدد ١ سنة ٢٧ ص ٥٥ ـ ٥٦.
(٢) المدخل لدراسة الفقه الإسلامي، د سعيد محمد الجليدي ص ١٧٤، ومضات فكر ٣٠٩/٢.
(٣) أمّ القرى ص ١٣، ١٥.

وآراء مضت عليها قرون مع أنّ كثيراً من هذه الآراء كان يعالج مسائل غير ثابتة، تغيّرت بتغيّر الزمن والأحوال وأصبحت الأحكام والاجتهادات السابقة غير ملائمة لما في هذا العصر.

وقد استجاب المعنيّون بالفقه ودراسته وتطبيقه لدعوات الإصلاح التي ظهرت في هذا الدور، لمّا عرفوا أسباب جموده فبذلوا جهوداً كبيرة في سبيل إماطة ما علق بهذا الفقه من شوائب، وتجلية ما شابه من غموض ومحاولة تقديمه بصورة تجعله أسهل تناولاً وأكثر تعبيراً عن قيمته وأهميّته العلميّة والعمليّة[١].

ولولا الرواسب التي يعاني منها المجتمع الإسلامي، والعوائق السياسيّة والفكريّة المعادية للإسلام وأهله، أو الجاهلة بقيمته كشريعة صالحة للتطبيق أبدا، لوصلت هذه الجهود إلى غايتها المقصودة، ولكن لعلّها سنّة الحياة في التدرّج، فكما أنّ التقليد والجمود بدأ تدريجيّا من اجتهاد مطلق إلى اجتهاد مقيّد إلى اجتهاد في المذهب إلى تقليد مع بعض اجتهاد إلى تقليد مطلق عبر مدد متفاوتة، فكذلك انتهاؤه يكون بإذن الله تعالى تدريجيًّا، بدأ بالتنبيه إلى الحالة السيّئة التي انتهى إليها الفقه بسبب التقليد والركود ثمّ برسم الطريق إلى الخروج عن هذا الوضع الراهن وكيفيّة الانتقال إلى الوضع الأمثل الذي يستردّ به الفقه مكانته الأولى في عصور ازدهاره[٢].

ومن هذه الملاحظات المتسلسلة يتّضح لنا في جلاء كيف أنّ الحركة الفقهيّة التي ميّزت نهضة الإسلام الحاضرة لم تنشأ في ميدان الدراسة الفقهيّة، وإنّما نشأت في ميدان الحركة الإصلاحيّة، ثمّ انصبّ تيّارها على الحركة الفقهيّة انصباباً فأسفر في مجراها كرها لا طواعيّة.

وتلك هي الحقيقة التي تبدو ملاحظتها ـ كما مرّ ـ غريبة بينما تتلخّص في أنّ الفقه تأثّر بغير الفقه، وأنّ مدرسة حكميّة صرفة قد مسّت

(١) المدخل لدراسة الفقه الإسلامي ص ١٧٤.

(٢) المدخل لدراسة الفقه الإسلامي ص ١٧٤.

آثارها حياة الفقه فقضت فيها بهزّة تطوّر عظيم كان موجّها إليها لا متكوّنا منها[١].

ـ ٢ ـ قضايا التشريع المعروضة على النظر في هذا الدور:

من خلال النظر الإصلاحي الحديث في الفقه ومسائله تكوّنت مجموعة ممّا نستطيع أن نسمّيه قضايا التشريع الإسلامي، بعضها يرجع إلى أمور ثابتة في حياتنا مستقرّة في أوضاعنا القانونيّة التشريعيّة والاجتماعيّة نريد النظر فيها وتهذيبها بالتفقّه في معانيها ومراميها لما يرتبط بها من إصلاح أحوالنا الاجتماعيّة والسياسيّة، ونوع آخر مرتبط بشيء لم يكن موجودا في أوضاعنا ومعاملاتنا ولكنّه وجد إلى جنبنا ومسّ بنا وتردّدنا في أن نقدم عليه أو لا نقدم، فأردنا أن لا نقدم عليه إلاّ بوجه[٢].

وجاءت اليقظة الإسلاميّة الاجتماعيّة تنبّه النّاس إلى ما كانوا ذاهلين عنه من تعطيل الأحكام الشرعيّة وجريان القضاء بقوانين غير إسلاميّة، وبدأوا يحاولون مشكلة تطبيق الشرع الإسلامي في القوانين تطبيقا كاملا، فنشأ من ذلك لون جديد من قضايا التشريع الإسلامي، وهو لون: أشياء مهجورة هي في عقيدتنا وليست في واقعنا، نريد أن نرجعها إلى واقعنا حتّى يكون عملنا التطبيقي موافقا لحقائقنا الاعتقاديّة، فأصبحت طرائق قضايا التشريع الإسلامي التي عرضت على النظر في هذا الدور هي هذه الثلاث[٣].

١ : أمور فينا نريد أن نتحلّل منها: رغم أنّها ثابتة في حياتنا مستقرّة في أوضاعنا القانونيّة التشريعيّة والاجتماعيّة، ولكنّنا نريد أن نعيد تنظيمها وترتيبها، وأغلب هذه القضايا ممّا يعود إلى أحكام من الأحوال الشخصيّة، والعامل الحقيقي الذي يثير هذا النوع من القضايا هو حرصنا على أن نكون

(١) مجلّة الهداية التونسية عدد ١ سنة ٢٧ ص ٥٦.
(٢) ابن عاشور محمد الفاضل: ومضات فكر ١٥٣/١.
(٣) ومضات فكر ١٥٣/١ ـ ١٥٦ بتصرّف.

دائما وفي جميع أحوالنا وأوضاعنا بعداء عن ماضينا وحاضرنا ومتّجهين إلى ما يسمّى بالحداثة، ممّا هو في الحقيقة ليس إلاّ فضل الثوب الذي تنزعه أوروبا من حاضرها، وهذا الذي أثار مشاكل الطلاق ومشاكل تعدّد الزوجات وغيرها، خلال النظر في إصلاح أحوالنا الاجتماعيّة والسياسيّة.

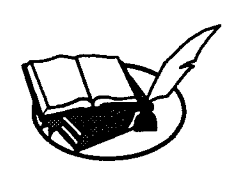
٢: وأمور بعدت عنّا نريد أن نردّها إلى واقعنا: وهي الأشياء المهجورة من ديننا والتي نريد أن نعيدها إلى الحياة العمليّة، والمسلمون جميعا يتمّنون هذا، وليس منهم من ينكره نظريّا، ولكنّهم على التفاوت يستصعبونه، بعضهم يستصعبه استصعابا ذاتيّا، وبعضهم يستصعبه باستصعاب الطريق المؤدي إليه، وكلّ ذلك راجع إلى ما عندنا من فتور الإرادات والدافع الديني، وهو فتور ثابت من باب أولى بعد أن ثبت فتور الوازع.

٣: وأمور مرتبكة نريد أن نقدم عليها بوجه: وأكثر هذه الأمور تتعلّق بالمعاملات المدنيّة، وهي أمور قد مسّت بحياتنا حقّا وأصبحنا ننظر إليها نظرنا إلى الحاجي أو حتّى إلى الضروري، فارتبكنا بين الإقدام عليها والإحجام عنها باعتبار ما لنا من شره للإقدام عليها ممّا نرى من المنفعة العاجلة في تحصيلها من جهة، وباعتبار ما في ضميرنا من وازع ديني، ممّا جعل ذلك ثقيلا علينا من جهة أخرى، فأصبحنا مضطرّين إلى أن نعالج الناحية الأخرى وأن نرضيها جهد المستطاع بأن نلتمس لنا - ولو على سبيل الوهو أو التخيّل - وجها يجعل هذا العمل الذي نريد أن نقدم عليه عملا مسموحا به.

وبذلك صار النوع الأوّل والنوع الثالث نوعين من المشاكل يرجعان إلى عقد نفسيّة موجودة في المجتمع الإسلامي، لا طريق إلى حملها على الحقيقة إلاّ بمعالجة تلك العقد.

وعلى ذلك فإنّ الحلول إنّما هي حلول ينبغي أن تتّجه إلى معالجة اليقين الإيماني بصورة تقوّي الدافع وتقوّي الوازع في نفوس المؤمنين، على معنى يجعل الجلب والدفع منظورا فيهما دائما إلى العقيدة الدينيّة التي ينبغي أن تكون مسيطرة طاغية على دواعي الشهوة والشره.

وإذا نحن اتّجهنا ـ كما يقول المرحوم العلامة الشيخ الفاضل بن عاشور ـ[1] إلى معالجة هذه العقدة النفسيّة قبل المشاكل التشريعيّة، فإنّنا سنلاحظ أنّ جمهور المسلمين سينكرون من أنفسهم ما عرفوا الآن إذا ما تمّ هذا العلاج، لأنّ كلّ واحد منهم يشعر بما يشعر به ضعيف الإرادة الذي يسرّه أن يقال له: إنّك مستقيم ولكنّه موقن بأنّه لا يستطيع الاستقامة، وكذلك نحن في موقفنا من هذه المشاكل الدينيّة، يسرّنا أن يقال لنا: إنّنا لسنا مخالفين للدين، مع أنّنا لا نستطيع أن نكبح جماح أنفسنا عمّا يخالف الدين، فنريد أمورا معيّنة بصورها المضبوطة ونريد من الدين أن يحلّلها لنا إلزاما، فإذا حلّلها فقد أرضى طموحنا، وعالج قضيّتنا وحلّ مشكلتنا لأنّها قضيّة نفسيّة، وإذا قال لنا: ينبغي أن تسلكوا مسلكا آخر وأن تعرضوا عن هذا، فإنّنا لن نجد من يقيننا ما يمكن أن يحملنا على الإعراض عن شيء ألفناه أو على ترك شيء نؤمّن منه مصلحة، لأنّ وازعنا الديني أضعف من ذلك.



(١) ومضات فكر ١/١٥٥ ـ ١٥٦.



استخلاص ونتائج

من أهمّ ما يمكن استخلاصه:

ـ ١ ـ أنّ تعطّل الاجتهاد المطلق وتنازل الاجتهاد في المراتب لم يكن فيما قبل هذا الدور إلاّ نقصا علميّا، لم يترتّب عليه خلل اجتماعيّ، وأمّا بالنسبة لهذا الدور فإنّ الأوضاع قد انقلبت انقلابا تامًّا بحيث أصبحت المسائل المدوّنة في كتب الفقه قليلة النظائر في الحياة العمليّة الحاضرة، وذلك هو الذي جعل مشكلة الاجتهاد مصوّرة في عصرنا الحاضر بما لم تتصوّر به في القرون الماضية ولا يمكن أن تتصوّر به[1].

ـ ٢ ـ أنّ الأساليب التأليفيّة في الكتب الفقهيّة القديمة لم تعد ملائمة لحاجات هذا العصر، لذلك تغيّرت هذه الأساليب في هذا الدور نزولاً على حكم التطوّر في التأليف والترتيب، فكان هذا الدور بحقّ عصر العناية في ترقية العلوم الشرعيّة، والتي منها الفقه.

ـ ٣ ـ أنّ مجلّة الأحكام العدليّة باعتبارها أوّل تقنين حديث للفقه الإسلامي قد انتهجت أسلوب الاختيار بين الأقوال داخل المذهب الواحد ـ الذي هو المذهب الحنفي ـ محاولة منها لتيسير عمل القضاة في العودة إلى الأحكام المراد تطبيقها، ثمّ تطوّر هذا المنهج في محاولات فرديّة وأخرى جماعيّة توصّلت إلى اعتماد منهج للتقنينات الحديثة في الفقه الإسلامي يقوم

(١) ومضات فكر ٣٩/٢.

على الاستفادة من اجتهادات جميع المذاهب الفقهيّة المختلفة بعد تلمّس أدلّتها والنظر في وجوه استدلالاتها والموازنة بين آرائها، والنظر في مدى تحقيقها للمصلحة الجماعية المعتبرة.

- ٤ - أنّ الفقه الإسلامي حين أتى عليه هذا الدور الذي هو دور الاحتكاك بالقوانين الوضعيّة والمدارك الحقوقيّة الأجنبيّة استطاع أن يجد من متانة مصطلحه ما حماه من أن يفسد التعبير الدخيل جوهره النقيّ، وأن يجد من ثروته ما تفضّل به على المعاني القانونيّة فجاءت أصيلة محكمة خالصة من التقعّر والالتواء[١]، حتّى أنّ أستاذ القانونيين في العصر الحديث، الدكتور عبدالرزاق السنهوري قد صرّح بأنّ الفقه الإسلامي نظام قانونيّ عظيم له صنعة يستقلّ بها ويتميّز عن سائر النظم القانونيّة في صياغته[٢].

- ٥ - أنّ اهتمام الدعوات الإصلاحيّة بالمعضلات الفقهيّة وتناولهم للقضايا المستحدثة، يندرج ضمن المشروع الإصلاحي الذي يهدف إلى تحقيق نهضة حديثة.

- ٦ - أنّ حلول هذه المشاكل ينبغي أن يرجع إلى تصميم المسلمين على أنّ حبّ الله هو الأولى بأن يتّبع، وأنّ الآخرة خير لنا من الأولى، وأنّ العبرة بالمحافظة على كياننا قبل العبرة بالمحافظة على أرباح جزئيّة، وأنّ قلب المؤمن ينبغي أن يوظّف على أنّ خيره كلّه في اتّباع أوامر الدين ونواهيه، مع ما يمكن من التصرّف في أحكام الدين وحسن تطبيقها، ومراعاة الظروف التي تنطبق فيها على ما يضمن التقدّم الذي دعانا الإسلام إليه[٣].

- ٧ - أنّ خلال مرحلة الجهاد ضدّ الاستعمار، كان العلماء والفقهاء

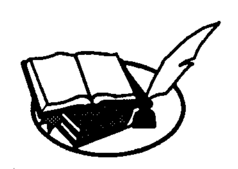
---

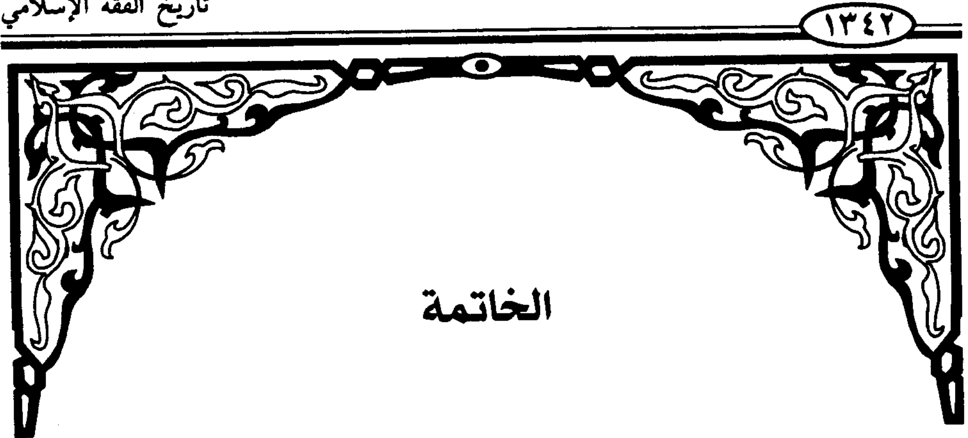
(١) المرجع السابق ٧٧/٢.

(٢) السنهوري: مصادر الحقّ في الفقه الإسلامي ٦/١.

(٣) ومضات فكر ١٥٧/١.

وتلاميذهم يعبّرون عن مواقفهم بكلّ جرأة في سياسة البلاد، وطرق الإصلاح، ويقودون المقاومة الشعبيّة، وقد اشتهروا بنشاطهم الوطني وبمشاركتهم المتميّزة في الصحافة التي ألبسوها ثوب العفّة والنزاهة، فكانت لهم مواقف شريفة في مراميها نزيهة في غاياتها جريئة في الصدع بها، تخطّت حدود ميدان العلوم والفقه والتشريع، ومسّت من قريب ميادين الدفاع عن حوزة الوطن.





الخاتمة

لقد نشأت حركة الفقه أوّل ما نشأت بأرض الهجرة التي بها نزلت أغلب الأحكام وبها تكوّنت الشريعة العمليّة، وفيها نشأت نواة الاجتهاد الأولى، فاجتهد النبيّ ﷺ، وأذن لأصحابه بالاجتهاد في حياته، وكان يقرّهم على ما أصابوا الحقّ في ما اجتهدوا فيه، وإن رآهم أخطؤوا أرشدهم إلى وجه الصواب في المسألة.

وبوفاة النبيّ ﷺ أصبح الصحابة الذين مارسوا الاجتهاد بين يدي النبيّ، المرجع لعموم المسلمين، ثمّ دعت مصلحة الإسلام والمسلمين أن يخرج كثير من الصحابة من المدينة المنوّرة فتوزّعوا في الأقاليم واستوطنوا بلدانا متفرّقة.

فكان توزّعهم في تلك الأمصار المختلفة قد أنشأ حركة اجتهاديّة في كلّ بلد نزلوا بها، فتأسّست بهم الحركة الاجتهاديّة في تلك البلدان وتكوّنت بهم المراكز الفقهيّة الأولى، التي تعمّقت وتجذّرت مع أعلام التابعين، ثمّ تأصّلت مع أئمّة اشتهرت المذاهب الفقهيّة بالإضافة إلى أسمائهم.

وكانت هذه المذاهب تتفاعل تفاعلا تطوّريّا في العمل الفقهي بما كوّن صورة واحدة من التطوّر يرجع إلى تفصيل أدوار، يعتبر كلّ دور من الأدوار مشتركا بين تلك المذاهب بصورة تتقرّر بالمقارنة الزمنيّة وتأثير التآليف والأوضاع بعضها في بعض.

وهذا المعنى من التفاعل إنّما يدلّنا على حقيقة ما ينقل من أنّ اختلاف أئمّة هذه الأمّة رحمة، إذ أنّ اختلافهم لم يكن على معنى الاختلاف الذي ينزع الأثمار من أغصانه، ولكنّه كان على معنى الاختلاف المجدي المثمر الذي يبني ولا يهدم[١].

وكانت نشأة علم أصول الفقه لأجل ضبط مواقع الخلاف بين أمصار الفقهاء التي تأسّست بفقهاء الصحابة، وتكوّن فيها فقهاء التابعين، ثمّ تكوّن فيها فقهاء تابعي التابعين الذين كان بهم استقرار المذاهب والإفصاح عن القواعد الأصوليّة التي كان الفقه يسير عليها من قبل بدون أن يفصح عنها الفقهاء.

فكانت نشأة علم أصول الفقه لضبط مواقع الخلاف ولبيان نتائج الاختلافات بين الفقهاء في قواعدهم بما يبدو في الفروع التي تختلف فيها فتاويهم لأجل الاختلاف فيما بينهم في الأصول الذي هو خلاف يرجع إلى أنواع الأدلّة وإلى الطرق المختلفة لاستفادة الخلاف الذي كان جاريا بين الفقهاء فيما أفتوا من الفروع الفقهيّة سواء أكان في الجيل الأوّل أم في الجيل الثاني أم في الجيل الثالث.

ثمّ كان اتّجاه الفقهاء إلى البحث عمّا يسمّى بحكمة الشريعة، واتّجهوا في موازنة الأقوال وتقديرها والحكم على بعضها بالإثبات، وعلى بعضها بالطرح إلى تحكيم المصالح، فنظروا إلى ما تقصد إليه الشريعة من تحقيق المصالح للعباد، ووازنوا بين الأقوال الفقهيّة باعتبار ما يكون منها أكثر تحقيقا للمصالح.

ومن هذا العمل الذي هو بيان حكم المشروعيّة وبيان مصالح الأحكام وعللها برز فنّ جديد نشأ في أوّل أمره فنّا ضئيلا في مبدئه، وهو فنّ القواعد والفروق الفقهيّة، ثمّ ازدهر هذا العمل بإثر حركة التنقيح أو الترجيح، وكان هذا الازدهار الذي ازدهر به فنّ القواعد والفروق متسبّبا في

---

(١) محاضرات ص ٣٨٠ ـ ٣٨١، ٣٨٩.

دخول الفقه في عمل الاقتصار والاختصار الذي شاع في المختصرات التي عكف عليها الفقهاء.

فأتى هذا الوضع الجديد بلون جديد في التفكير والتأليف يختلف اختلافا جوهريّا عن اللون الذي اصطبغت به كتب أصول الفقه، فكان أن برز هذا الفنّ المستقلّ إلى جنب فنّ الفقه، وهو فنّ يعتمد على طريقة تتنزّل إلى الأحكام الفرعيّة ثمّ تستخرج منها العلل والضوابط فتسمو بها إلى المراجع الكليّة التي تجعلها قواعد جامعة أو فروقا مبيّنة لمناشىء الاختلاف بين المسائل(١).

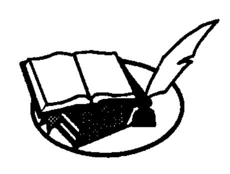
فكان هذا العلم جديرا بأن يمتاز عن علم أصول الفقه فسمّي علم القواعد أو الفروق، ويعرف أيضاً بعلم الأصول القريبة.

ثمّ جاء الإمام الشاطبي بما يعتبر عملا بنائيّا مكمّلا للنقص الذي كان باديا في علم أصول الفقه، فقرّر المقاصد الشرعيّة على صورة منهجيّة جامعة حاول بها دائما السموّ إلى المقام الأعلى الذي هو مقام الاتّفاق على المبادىء القطعيّة(٢) فتأسّس بذلك علم جديد هو علم المقاصد.

وهكذا نلاحظ أنّ لعلم الفقه علوم شرعيّة عديدة ذات صلة بمكان، منها: أصول الفقه والقواعد الفقهيّة والخلاف والمقاصد الشرعيّة.

ونرجو من الله فسحة من الوقت لاستكمال التأليف في تاريخ هذه العلوم التي هي ذات صلة بمكان، في ظلّ الأشغال الصارفة وتشتّت البال في طلب الرزق الحلال لعلّنا نستكمل بها الإفادة فيما جرت به الإرادة.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.



(١) محاضرات ص ٣٤٣، ٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٢) محاضرات ص ٣٦١، ٣٦٤.




الفهارس

* الآيات القرآنية.
* الأحاديث النبوية والآثار.
* الأعلام المترجم لهم.
* المصادر والمراجع.
* المحتويات.






★ الآيات القرآنية

الآية	رقمها	الصفحة
سورة البقرة		
﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾	٢٣	٣٢
﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾	٥٤	٥٦
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾	٨٣	٧٦، ٧٨
﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾	١٠٦	٦٨
﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾	١٢٥	٣٩
﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾	١٤٤	٧٠
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾	١٥٩	١١٧
﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾	١٦٣	٧٦
﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾	١٧٣	٥٤، ٥٧
﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾	١٧٧	٥٢
﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾	١٧٧	٥١

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾	١٧٨	٥٩
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾	١٨٠	٤٩
﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾	١٨٣	٥٤
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾	١٨٣	٤٩
﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾	١٨٥	٣٠، ٧٦
﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾	١٨٥	٥٨
﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾	١٨٧	٨٠
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾	١٨٩	٤٣
﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾	١٨٩	٥٣
﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾	١٨٩	٥١
﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾	١٩٣	٥٣
﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾	١٩٦	٥٠
﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾	١٩٦	٥٠
﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾	١٩٧	٥٣
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَىٰ﴾	١٩٨	٤٩
﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾	٢٠٣	٥٤
﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾	٢١٥	٤٥
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾	٢١٧	٢٨
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾	٢١٩	٤٧، ٦٢

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾	٢٢٠	٤٥، ٥١
﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾	٢٢١	٤٠
﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾	٢٢٢	٢٨
﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾		
﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾	٢٢٨	٤٧، ٤٩
﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾	٢٢٨	٥٢
﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾	٢٢٩	٥٢
﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾	٢٣٣	٥٠، ١٣٣
﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾	٢٣٣	٥٣
﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾	٢٣٤	٤٩
﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾	٢٣٨	٥٠
﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)﴾	٢٤١	٤٩
﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾	٢٤٥	٥١
﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾	٢٦٨	٥٦
﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)﴾	٢٧٥	٦٤

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾	٢٧٦	٦٤
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾	٢٧٧	٦٤
﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ اتَّقُوا۟ اللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾	٢٧٨	٦٤
﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾	٢٧٩	٦٤
﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ﴾	٢٨٠	٥٠
﴿وَاتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾	٢٨١	٣١

سورة آل عمران

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾	٧٧	٩٠
﴿لَن تَنَالُوا۟ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾	٩٢	٥١
﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾	٩٧	٤٩، ٧٦
﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾	١٠٠	٣٨
﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ الرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا۟ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾	١٣٠	٦٣
﴿وَالْكَٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾	١٣٤	١٩٦
﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۚ﴾	١٦١	١٣٥

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾	١٠	٤٥
﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾	١٩	٥٢
﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾	١٩	٧٦
﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	٢٤	٤٩
﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)﴾	٢٨	٥٧، ٥٩
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾	٢٩	٧٦
﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ...﴾	٢٩	١٠٢
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾	٤٣	٦٢
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾	٥٨	٤٩
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾	٥٩	٧٣
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾	٦٥	٢٨
﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾	٧٨	١٣
﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾	٩٥	٣٣
﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾	١٠٣	٤٩، ٧٧
﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾	١١٣	٢٧
﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠)﴾	١٦٠	٦٣

الآية	رقمها	الصفحة
سورة المائدة		
﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾	١	٥٤
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾	٣	٦٦
﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾	٤	٤٥، ٥٤
﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾	٦	٥٩
﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ﴾	٩	٥٤
﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾	١١	٧٩
﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾	٣٢	٧٩
﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ﴾	٣٣	٤٧
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾	٩١	٦٣، ٦٥
﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ﴾	٩٣	٥٤
سورة الأنعام		
﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾	٧٩	٢٥٤

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾	٨٢	٨١
﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾	١٢٠	٥٢
﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾	١٥٢	٤٥
﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾	١١٩	٥٧، ٥٩، ٦٥
﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾	١٥١	٦٥

سورة الأعراف

الآية	رقمها	الصفحة
﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾	٣٣	٥١
﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾	١٥٧	٦٠
﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾	١٨٧	٤٢

سورة الأنفال

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾	١	٤٦
﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾	٦٥	٦٨
﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾	٦٦	٦٨

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴿٦٧﴾﴾	٦٧	٩٧
﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴿٦٨﴾﴾	٦٨	٩٧
﴿فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا﴾	٦٩	٩٧
سورة التوبة		
﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾	٣٤	٥٣
﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴿٤٣﴾﴾	٤٣	٩٧
﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا﴾	٤٧	٩٧
﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم﴾	٦٠	١٣٠
﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾	١٠٠	٣٤٨، ٣٥٠
﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾	١٠٥	١٣٣١
﴿ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾	١٢٢	١٥
﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم﴾	١٢٨	١١٢
﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾	٢٧٥	٥٣
سورة هود		
﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿١٣﴾﴾	١٣	٣٢
﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول﴾	١٩	١٣

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الحجر		
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾	٩	١٥٥
سورة النحل		
﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾	٤٤	٢٧، ٧١
﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾	٦٤	٢٧، ٧٢
﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾	٦٧	٦٩
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾	٩٠	٤٨، ٥١
﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾	١٠١	٧١
﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾	١٠١	٧١
﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝﴾	١٠٢	٧١
سورة الإسراء		
﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	٣٤	٥٢
﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾	٤٤	١٣
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾	٨٥	٤١، ٤٢
﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝﴾	٨٨	٣٢
﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾	١٠٦	٣١

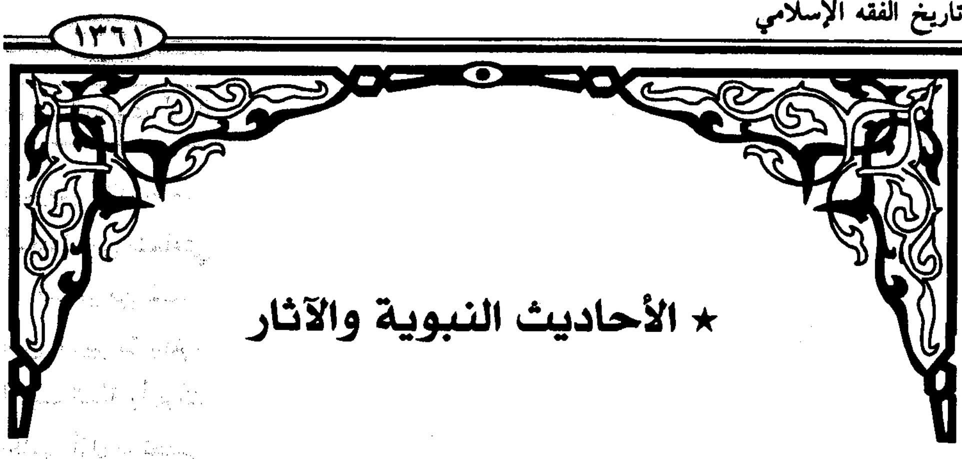
الآية	رقمها	الصفحة
سورة الكهف		
﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾	٦٢	١٩٢
﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾	٨٣	٤١
سورة طه		
﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾	٥٥	٢٥٤
﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾	١٠٥	٤٣
﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾	١٠٦	٤٣
﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾	١٠٧	٤٣
سورة الحج		
﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾	٢٩	٥٠
﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾	٣١	٥٢
﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾	٧٨	٥٨، ٥٩
سورة المؤمنون		
﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾	٩	٧٧
سورة النور		
﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٣	٥٢
﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾	٥٨	٥٤
﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا...﴾	٦٠	٣٢٩

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الفرقان		
﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾	٣٢	٣١
سورة الشعراء		
﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾	٢٢٤	٦٧
﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾	٢٢٧	٦٧
سورة الروم		
﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾	٣٩	٦٣
سورة لقمان		
﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	١٣	٨١
﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾	١٧	٦٦
سورة الأحزاب		
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾	٣٦	٢٦
﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾	٤٠	٧٦
﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾	٤٨	٥٢
﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾	٥٠	٥٠

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الزمر		
﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾	١٧	٣٤٨
﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾	١٨	٣٤٨
سورة الدخان		
﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾	٣	٣٠
سورة الأحقاف		
﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾	١٥	١٣٣
سورة محمد		
﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾	٣٠	٩٧
سورة الحجرات		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)﴾	١	٢٦
سورة الطور		
﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾	٣٤	٣٢
سورة النجم		
﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣)﴾	٣	٢٧
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)﴾	٤	٢٧

الآية	رقمها	الصفحة
سورة المجادلة		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾	١٢	٦٩، ٧٠
﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾	١٣	٦٩
سورة الحشر		
﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾	٧	٧٣
﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾	٨	١٩٧
﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾	٩	١٩٧
﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾	١٠	١٩٨
سورة الممتحنة		
﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾	٩	٥١
سورة التحريم		
﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾	٥	٣٩
سورة المزمل		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾	١ ـ ٤	٦٩

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾	٢٠	٦٩
سورة المرسلات		
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾	٤٨	٣٤
﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾	٥٠	٣٤
سورة النازعات		
﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾	٤٢ ـ ٤٤	٤٣
سورة التكوير		
﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾	٩	٦٥
سورة العلق		
﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾	١	٣١
﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾	٥	٣١، ٣٣
سورة الضحى		
﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾	٥	٣٤
سورة القدر		
﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾	١	٣٠



★ الأحاديث النبوية والآثار

طرف الحديث أو الأثر	مخرجه	الصفحة

- أ -

أبرز عمر بن عبدالعزيز سريره يوماً للناس، ثمّ أذن لهم فدخلوا، فقال: ما تقولون في القسامة؟ . . .	البخاري	٢٦٧
أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة	مسلم وأحمد	٩٦
أتى رسول الله ضيف فقال لبلال	النسائي وأحمد	١٠٣
أتاكم أهل اليمن أضعف قلوبا وأرقّ أفئدة	البخاري	١٥
الفقه يمان والحكمة يمنيّة	الشيخان	١٤
أتيت رسول الله من آخر الليل فصلّيت خلفه	أحمد	٢٢٢
أتي عثمان بن عفّان بامرأة قد ولدت في ستّة أشهر	مالك	١٣٣
أخذ نبيّ الله حريرا فجعله في يمينه، وأخذ ذهبا فجعله في شماله	النسائي وأحمد	٨٢
ارجع فأحسن وضوءك	مسلم	٨٥
أرحم أمّتي بأمّتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر	الترمذي وابن ماجة	١٧٢
أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده	البخاري	١١١
الاستئذان ثلاث فإن أذن لك فادخل وإلاّ فارجع	مالك	١١٨
استعن بيمينك وأومأ بيده إلى الخطّ	الترمذي	٩٢
استقرئوا القرآن من أربعة	الشيخان	٢٣٤

طرف الحديث أو الأثر	مخرجه	الصفحة
استوصوا بالنساء خيراً	الشيخان	٧٦
أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلاّ الله خالصا من قلبه أو من نفسه	البخاري	١٨١
اسق يا زبيّر ثمّ يبلغ الماء الجدر ثمّ أمسك	البخاري	٩٠
أصبت السنّة وأجزأتك صلاتك	أبو داود	١٠٠
اطلبني أوّل ما تطلبني على الصراط	الترمذي وأحمد	٢٦٤
أعطى النبيّ الجدّة السدس	مالك والجماعة إلاّ النسائي	٨٣، ١١٨
أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل	الترمذي وابن ماجة	٢٨٢، ٣٥١
أفلا شققت عن قلبه حتّى تعلم قالها أم لا؟	مسلم وأبو داود	١٠٣
اقرأه في كلّ سبع ولا تزد على ذلك، فإنّ لزوجك عليك حقّا	الشيخان	٢٩٠
اقرؤوا القرآن من أربعة نفر	مسلم	٢٣٤
أقضانا عليّ	البخاري	٢٤٠
اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلاّ حقّ	أبو داود	٩١، ٢٩١
ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه ليس نبيّ بعدي	البخاري	٢٣٩
ألم أخبر أنّك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كلّ ليلة		٢٩٠
بحسبك أن تصوم من كلّ شهر ثلاثة أيّام	الشيخان	٢٩٠
أمر الرسول بماعز فرجم	أحمد	٩٩
أمر النبيّ ابن مسعود فصعد على شجرة، أمره أن يأتيه	أحمد	٢٣٥
امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله	مالك وأصحاب السنن	١٤٠
أنا أقضي بينكم	أحمد	١٠١
إنّ ابني هذا سيّد وإنّي أرجو أن يصلح الله به بين فئتين من أمّتي	أبو داود	١٤٣
إنّ أخاك رجل صالح	البخاري	١٧٤
إنّ إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالسوق	البخاري	١١٧
إنّا كنّا لنعرف المنافقين نحن معشر الأنصار ببغضهم	الترمذي	٢٤٠
انظر ما كان من حديث رسول الله فاكتبه	البخاري	١٥٦
إنّ عبدالله رجل صالح لو كان يصلّي من الليل	البخاري	١٧٥

طرف الحديث أو الأثر	مخرجه	الصفحة
انفذ على رسلك حتى تنزل ساحتهم ثمّ ادعهم إلى الإسلام	البخاري	٢٣٩
إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين	البخاري	٨٠
إنّكم تزعمون إنّ أبا هريرة يكثر الحديث على رسول الله	أحمد	١١٧
إنّ الله جعل الحقّ على لسان عمر وقلبه	الترمذي وأحمد	١٦٨
إنّ الله عزّ وجلّ لا يستحي من الحقّ إذا فعل أحدكم فليتوضّأ	أحمد	٨٧
إنّ الله وضع الحقّ على لسان عمر يقول به	أبو داود وابن ماجة وأحمد	١٦٨
إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها أمر دينها	أبو داود	٣٩٢
إنّما أنا بشر وإنّكم تختصمون إليّ	البخاري ومالك	٥٥
إنّما ذلك سواد الليل وبياض النهار	البخاري	٨٠
إنّما يكفيك هكذا، وضرب النبيّ بكفّيه الأرض	البخاري	١٠٣
إنّ الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة	مسلم	١٣٢
إنّ هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض	الشيخان	٩٨
إنّ هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسّر منه	البخاري	٨٩
إن وسادك لعريض طويل إنّما هو الليل والنهار	أبو داود	٨٠
أهريقوها واكسروها	الشيخان	٩٨
أوّلوها له يفقهها	البخاري	١٣

- ب -

طرف الحديث أو الأثر	مخرجه	الصفحة
بسم الله الرحمٰن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرض	البخاري وأبو داود وابن ماجة	٩٣، ٣١٠
بل أنت تربت يداك، نعم يا أمّ سليم عليها الغسل إذا وجدت الماء	أحمد	٨٦
بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلاّ الله	البخاري ومسلم	٧٥
بينا أنا مع النبيّ في حرث وهو متكىء على عسيب إذ مرّ اليهود	الشيخان	٤٢
بينا أنا نائم إذ رأيت قدحاً أتيت فيه بلبن فشربت منه	الشيخان	١٦٨
بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون عليّ وعليهم قمص	البخاري	١٦٨
بينما أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد ندعو الله ونذكره	النسائي	١٨٢
بينما نحن جلوس مع النبيّ في المسجد دخل رجل	البخاري	٨٧

طرف الحديث أو الأثر	مخرجه	الصفحة
- ت -		
تأخذ إحداكنّ ماءها وسدرها فتطهر فتحسن الطهور	ابن ماجة	٨٥
تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنّة نبيّه	مالك	٧٣
- ح -		
الحمد للّه الذي وفّق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله	أبو داود وأحمد	١٢٧، ٢٨١
- خ -		
خذوا القرآن عن أربعة	الشيخان	٢٣٤، ٢٨٢
- د -		
دعا رسول الله عليّا وفاطمة وحسنا وحسينا، فقال: اللّهمّ هؤلاء أهلي	مسلم	٢٣٩
- س -		
سبقكم بها الغلام الدوسي	النسائي	١٨٢
سئلت عائشة عن المسح على الخفّين فقالت	مسلم	٢٤٠
- ص -		
صلّ معنا هذين	مسلم، وابن ماجه	٧٧
صلّوا كما رأيتموني أصلّي	البخاري	٧٨
صم يوماً وأفطر يوماً فذلك صيام داود	الشيخان	٢٩٠
صنع لنا عبدالرحمٰن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا	الترمذي	٣٩

طرف الحديث أو الأثر	مخرجه	الصفحة
- ط -		
طلّق عبدالرحمٰن بن عوف امرأته البتّة وهو مريض	مالك	١٣٢
- ع -		
العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر	البخاري وأحمد	٩٣، ٣١٠
- ف -		
فأنّى يشبهها ولدها هنّ شقائق الرجال	أحمد	٨٦
فرض رسول الله زكاة الفطر من رمضان صاعا من تمر	مسلم ومالك والترمذي والنسائي	٨٣
فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام	الشيخان	١٧٨
فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بعلا العشر	البخاري ومالك وأصحاب السنن	٧٩
- ق -		
قالت قريش ليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل عنه	الترمذي وأحمد	٤٢
قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا	أبو داود	١٠٢
قدم حذيفة بن اليمان على عثمان وكان يغازي أهل الشام	البخاري	١١٣
القضاة ثلاثة، قاضيان في النار، وقاض في الجنّة	الترمذي وأبو داود وابن ماجة	٢٧٧
قدم رسول الله المدينة ليس له خادم، فأخذ أبو طلحة بيدي	البخاري	٢٦٣
قطع النبيّ ﷺ سارقا من المفصل	البيهقي	٧٩
قوموا إلى سيّدكم أو خيركم	البخاري وأحمد	٩٨
- ك -		
كانت ضوال الإبل في زمان عمر بن الخطاب إبلا مؤبّلة	مالك	١٣٢
كانت اليهود إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنّ	مسلم	٤٤
كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات	مسلم ومالك	٧٠

طرف الحديث أو الأثر	مخرجه	الصفحة
كان النبيّ يصبح جنبا من غير طهر ثمّ يصوم	مسلم	١٤٠
كتب رسول الله كتاب الصدقة فلم يخرجه إلى عماله	الترمذي	٧٩
كلّ المسلم على المسلم حرام	مسلم وأبو داود وأحمد	٧٦
كنّاني رسول الله ببقلة كنت أجتنيها	الترمذي وأحمد	٢٦٣
كنت إلى جنب رسول الله فغشيته السكينة	أبو داود وأحمد	٣٣
كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أميّة بن زيد	البخاري	٨٣
كيف وقد قيل	البخاري	٨٤

- ل -

طرف الحديث أو الأثر	مخرجه	الصفحة
لأعطينّ الراية غدا رجلاً يفتح على يديه، يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله	البخاري	٢٣٨
لعلّك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك	البخاري والنسائي	٨٦
لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود	الشيخان	٢٦١
لقد قرأت على رسول الله بضعا وسبعين سورة	مسلم	١٣٤
لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدّثون، فإن يك في أمّتي أحد	البخاري	١٦٩
لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء	الترمذي	١٦٩
لك الأجر مرتين	أبو داود	١٠٠
اللّهمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته	مسلم	٢٦٣
اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد	البخاري	١٠٤
اللّهمّ اهد قلبه وثبّت لسانه	ابن ماجة	٢٣٩، ٢٩٣
اللّهمّ حبّب عبيدك هذا وأمّه إلى عبادك	مسلم	١٨١
اللّهمّ علّمه الحكمة وتأويل الكتاب	البخاري والترمذي وابن ماجة	٢٢٢
اللّهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل	أحمد	٢٢٢
اللّهمّ هؤلاء أهلي	مسلم	٢٣٩
اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه	أحمد	٢٣٩

طرف الحديث أو الأثر	مخرجه	الصفحة
لو اشترك فيها أهل صنعاء لقتلتهم	البخاري	١٣١
لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعا	مالك	١٣٢
لو كان بعدي نبيّ لكان عمر بن الخطّاب	الترمذي	١٦٩
لو كنت مؤمّرا أحداً دون مشورة المؤمنين لأمّرت ابن أمّ عبد	الترمذي وأحمد	٢٣٤
لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلاّ قسمتها بين أهلها كما قسم النبيّ خيبر	البخاري	١٣٧
ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة	الشيخان	٧٨
ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول	أبو داود وأحمد	٧٨
ليس كما تظنون إنّما هو كما قال لقمان لابنه	البخاري	٨١
ليس في أقلّ من خمس ذود شيء	الدارقطني	٧٨
لا أشكّ أنّ أبا هريرة سمع من رسول الله ما لم نسمع	الترمذي	١٨٢
لا ألفينّ أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري	الترمذي وأبو داود	٧٣
لا تكتبوا عنّي، ومن كتب عنّي غير القرآن فليمحه	مسلم	٩١
لا نورث ما تركناه صدقة	البخاري	٨٠
لا يرث القاتل شيئاً	أبو داود وأحمد	٨٠
لا يصلح ذلك ولكن بع تمرك ثمّ ابتع حاجتك	النسائي وأحمد	١٠٣
لا يصلينّ أحد العصر إلاّ في بني قريظة	البخاري	١٠١
لا يمنعنّ أحدكم مخافة الناس أن يقول بالحقّ إذا شهده أو علمه	أحمد	١٨٤

- م -

طرف الحديث أو الأثر	مخرجه	الصفحة
ما أشكل على أصحاب رسول الله شيء فسألنا عنه عائشة إلاّ وجدنا عندها منه علماً	الترمذي	١٧٨
ما ترون في هؤلاء الأسارى	مسلم وأحمد	٩٦
ما رأيت أحداً أفصح من عائشة	الترمذي	١٧٩
ما كلّ الحديث سمعناه من رسول الله، كان يحدّثنا أصحابنا	أحمد	٨٤
ما من أصحاب النبيّ أحد أكثر حديثاً عنه منّي إلاّ ما كان	البخاري	٩١
ما من رجل يذنب ذنبا فيتوضّأ فيحسن الوضوء	أحمد وابن ماجة	١١٩

طرف الحديث أو الأثر	مخرجه	الصفحة
ما نبعد أنّ السكينة تنطق على لسان عمر	أحمد	١٧٠
ما نزل بالناس أمر قطّ فقالوا فيه، وقال فيه عمر، إلاّ نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر	الترمذي وأحمد	١٦٩
ما يرغبني في الحياة إلاّ الصادقة والوهط	الدارمي	٩٢، ٢٩١
مرّ رسول الله بطعام قد حسنه صاحبه فأدخل يده	أحمد	٨٥
مرّ رسول الله فسمعت أمّي أمّ سليم صوته، فقالت	مسلم	٢٦٣
من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أخيه لقي الله	الترمذي	٩٠
وهو عليه غضبان	وأبو داود وأحمد	٩٠
من سرّه أن يقرأ غضًا كما أنزل فليقرأه	أحمد	٢٣٤
من سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقا إلى الجنّة	ابن ماجة	١٥٠
من قال عليّ ما لم أقل فليتبوّأ مقعده من النار	أحمد	١١٩
من قتل قتيلا له عليه بيّنة فله سلبه	مسلم ومالك	٩٩
من كنت مولاه فعليّ مولاه	الترمذي وابن ماجة	٢٣٩
من يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثمّ يقبضه إليه	مسلم وأحمد	١٨١

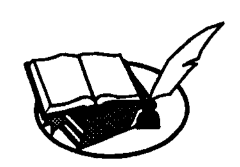
- ن -

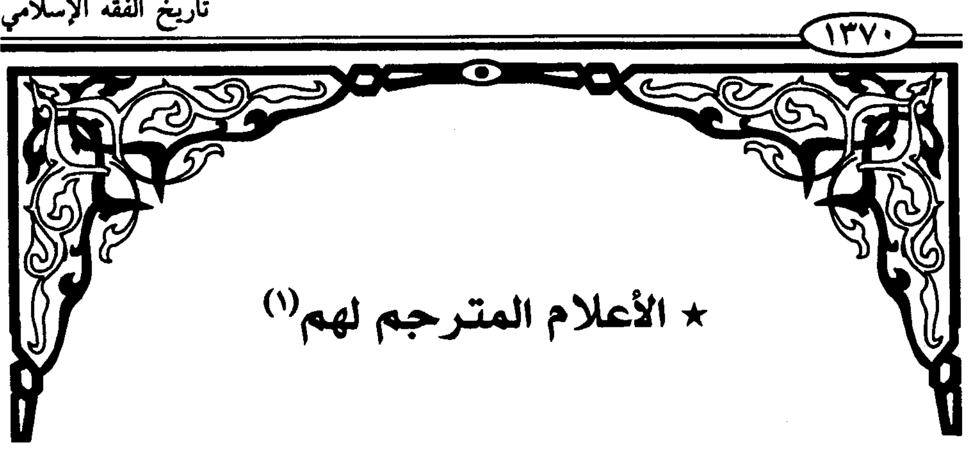
الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا	الشيخان	١٤
نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهنّ الحياء أن يتفقهن	البخاري وابن ماجة	٨٥
إنّ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته	الشيخان	٧٦
نهى النبيّ عن أكل كلّ ذي ناب من السباع وكلّ ذي مخلب من الطير	الجماعة	٨٢
نهى النبيّ عن أكل لحوم الحمر الأهليّة	الشيخان	٨٢

- هـ -

هذا شهر زكاتكم، فمن كان عليه دين فليؤدّ دينه	مالك	١٣٢
هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه؟	البخاري وأحمد	٣١٨

طرف الحديث أو الأثر	مخرجه	الصفحة
- و -		
وافقت ربّي في ثلاث، فقلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام	الشيخان	٣٩
والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة إنّه لعهد النبيّ الأميّ إليّ	مسلم وابن ماجة	٢٤٠
والذي نفسي بيده لأقضينّ بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم ردّ	الجماعة	٨٩
وقت صلاتكم بين ما رأيتم	مسلم	٧٨
الولاء لمن أعتق وإن اشترطوا مائة شرط	البخاري	١٠٤
والله ما أحد أحقّ بهذا المال من أحد، وما أنا بأحقّ به	أحمد	١٣٦
- ي -		
يا أبا هريرة أنت ألزمنا لرسول الله وأحفظنا لحديثه	الترمذي	١٨٢
يا ابن الخطّاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجّا قطّ إلاّ سلك فجّا غير فجّك	البخاري	١٦٩
يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلّوها	الترمذي	١٣٥
يا رسول الله: خادمك أنس ادع الله له	الشيخان	٢٦٣
يا عائشة، هذا جبريل يقرأ عليك السلام	الشيخان	١٧٨
يا عمرو صلّيت بأصحابك وأنت جنب	أبو داود وأحمد	١٠٢
يا معاذ إنّي لأحبّك، والله إنّي لأحبّك	أبو داود	٢٨٢
يسّرا ولا تعسّرا وبشّرا ولا تنفّرا وتطاوعا ولا تختلفا	الشيخان	٢٦٠
يغسل ذكره ويتوضّأ	مسلم وأحمد	٨٧
يقضي الله في ذلك	الترمذي وابن ماجة	٤٠





★ الأعلام المترجم لهم(١)

ـ أ ـ

آسية بنت عبد الواحد المقدسيّة: ٩٢٠
إبّان بن عثمان بن عفّان: ٢١٠
إبراهيم بن أحمد الحسيني: ١٠٠٨
إبراهيم بن أحمد الصقّال: ٨٣٧
إبراهيم بن أحمد المروزي: ٥٨٣
إبراهيم بن إسحاق الحربي: ٥٤٠
إبراهيم بن إسماعيل اللواتي: ٧٢٢
إبراهيم بن أبي بكر العوفي: ٩٧٩
إبراهيم بن جابر: ٦٠١
إبراهيم بن حسن اللقاني: ٩٥٧
إبراهيم بن حسن بن يحيى التونسي: ٧١١
إبراهيم بن خالد = أبو ثور: ٤١٣
إبراهيم بن خالد بن أحمد الصنعاني: ١١١٢
إبراهيم الرياحي: ١٠٥٠
إبراهيم بن عبد الرفيع الربعي: ١٠٣١
إبراهيم بن عبد الصمد = ابن بشير ٨٥٧
إبراهيم بن عبد الواحد: ٨٢١
إبراهيم بن عليّ بن ظهيرة: ١١٣٥
إبراهيم بن عليّ الفيروزابادي = أبو إسحاق الشيرازي: ٨٢٨
إبراهيم بن فتوح: ١١٠٣
إبراهيم بن محمد الطبري: ١١٣٣
إبراهيم بن مصطفى بن إبراهيم: ١٣٢٨
إبراهيم بن منصور العراقي: ٨٠٢
إبراهيم النخعي: ٢٥٥
الأبّي: محمد بن خلفة: ١٠٣٧
أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: ٦٨٧
أحمد بن إبراهيم الجرجاني: ٦٠٦
أحمد بن أحمد البرنسي ـ زرّوق ـ: ١٠٦٩

(١) لم نعتبر في ترتيب أسماء الأعلام: ابن، أبو، ال، أمّ، بنت.

أحمد بن أبي أحمد الطبراني: ٦٠٤
أحمد بن إسماعيل الطالقاني: ٨٤٠
أحمد أفندي بن عبد النبيّ: ١٠٥٤
أحمد أفندي: ـ منلا أحمد ـ: ١٠٥٣
أحمد بن أبي بكر الزبيدي: ١١١٦
أحمد بن الحارث بن مسكين: ٥٨١
أحمد الحجّار الحلبي: ٩٩٣
أحمد بن حسين البارودي: ١٠٥٩
أحمد بن الحسين البردعي: ٥٨٩
أحمد بن الحسين بن علي = أبو بكر البيهقي: ٦٩٨
أحمد بن الحسين الفناكي: ٦٩٠
أحمد ـ حميدة ـ بن الخوجة: ١٠٦٠
أحمد بن حنبل: ٤٠٨
أحمد بن خالد الخلّال: ٥٢٧
أحمد بن خلف المسيلي: ٧٢١
أحمد ابن الخوجة الثاني: ١٣٠٩
أحمد بن رشيد: ١١٦٠
أحمد بن رضيّ الدين الناشري: ١١١٧
أحمد بن زاغو التلمساني: ١٠٨٢
أحمد بن زيني دحلان: ١٣٠٣
أحمد بن سلمان بن الحسن النجّاد: ٥٩٩
أحمد السويدي: ١٠٠٨
أحمد الشريف: ١٠٥٥
أحمد بن شهاب الدين الغزّي: ٩٩٣
أحمد زرّوق: ١٠٦٩، ١٠٨٧
أحمد بن ظهير الدين ـ ابن ظهيرة ـ: ١١٣٤
أحمد عبد الغنيّ عمر ـ ابن عابدين ـ: ١٣٠٠
أحمد بن عبدالله الثابتي: ٦٧٩
أحمد بن عبدالله بن سهل ـ ابن البقال ـ: ٦٨٢
أحمد بن عبدالله الصعبي: ٧٣٩
أحمد بن عبدالله بن عبد الرحمٰن: ٧٠٩
أحمد بن عبدالله بن عرفة بن ذكوان: ٧٢٨
أحمد بن عبدالله الكرماني: ٦٥٨
أحمد بن عبد المحسن بن فتح الله: ١٠٨٩
أحمد بن عبد الملك = ابن المكوى: ٧٢٧
أحمد بن عثمان الملياني: ٨٦٥
أحمد بن عليّ البلوي: ١١٠٦
أحمد بن عليّ القسطلاني: ٨٧٧
أحمد بن عليّ المنجور: ١٠٧١
أحمد بن عليّ الرازي الجصّاص: ٥٩١
أحمد بن عليّ الشارف: ١٣٣٠
أحمد بن عمر الديربي: ٩٧١
أحمد بن عمر بن سريج: ٥٩٦، ٦٠٤
أحمد بن عمرو الشيباني: ٦٠٩
أحمد بن عيسى بن زيد بن علي: ٥٤٤
أحمد بن أبي الفتح الدينوري: ٨٣٣
أحمد الفساطوي: ١٣٢٨
أحمد القبّاب: ١٠٦٨
أحمد بن كامل بن خلف = ابن شجرة ٥٧٠
أحمد بن محمد الصاوي: ٩٦٠
أحمد بن محمد الأثرم: ٥٣٧

أحمد بن محمد الأخوي: ١١٢٨
أحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي: ٥٩١
أحمد بن محمد الإسفراييني = أبو حامد: ٦٧٥
أحمد بن محمد الإسكندراني: ٥٨١
أحمد بن محمد بن إسماعيل الطهطاوي: ٩٤٩
أحمد بن محمد الجزّار: ٧٢٣
أحمد بن محمد بن جزي الكلبي: ١٠٩٨
أحمد بن محمد الجوهري: ٦٨٥
أحمد بن محمد بن الحجاج: ٥٣٩
أحمد بن محمد بن حسين البارودي: ١٠٥٩
أحمد بن محمد الخلّال: ٥٩٨
أحمد بن محمد بن سالم: ١٣٢٤
أحمد بن محمد بن سعدي: ٧١٥
أحمد بن محمد بن صاعد: ٨٤٧
أحمد بن محمد الصاوي: ٩٦٠
أحمد بن محمد العدوي = الدردير ٩٥٨
أحمد بن محمد بن عبد الرحمٰن الطبري: ٥٩١
أحمد بن محمد بن عبد الغنيّ: ٨٢٢
أحمد بن محمد بن عمر- ابن الخيّاط الفاسي -: ١٣٢١
أحمد بن محمد بن عمر العقابي: ٨٤٩
أحمد بن محمد بن عيسى بن هلال: ٧٣٣
أحمد بن محمد بن سليمان: ٦٠٢
أحمد بن محمد الضبيّ - ابن المحاملي: ٦٧٦
أحمد بن محمد الطحاوي: ٥٨٠
أحمد بن محمد بن عبد الهادي: ١١١٣
أحمد بن محمد العبدي: ٦٧٤، ٨٣٨
أحمد بن محمد بن عليّ بن حجر: ١١٤٢
أحمد بن محمد القابلي: ١١١٥
أحمد بن محمد القدوري: ٦٦٥
أحمد بن محمد القزويني: ٦٧٢
أحمد بن محمد القلشاني: ١٠٤٠
أحمد بن محمد بن محمد الطبري: ١١٣٣
أحمد بن محمد مكّي الحسيني: ٩٤٩
أحمد بن محمد النيسابوري: ٦٠٧
أحمد بن محمود الأبيّ: ١٠٥٨
أحمد بن مصطفى برناز: ١٠٥٧
أحمد بن المظفر - ابن زين التجار-: ٨٠١
أحمد بن معالي بن بركة الحربي: ٨٣٤
أحمد بن المعذل: ٤٩٩
أحمد المكودي: ١٠٧٥
أحمد بن نصر الداودي: ٧٢١
أحمد بن نصر الله التستري: ٩٧٧
أحمد بن يحيى الحسني: ٦٣٨
أحمد بن يعقوب - أبو الفوارس -: ٦٥٩
أبو إدريس الخولاني: ٢٨٦

الإسبيري: محمد بن يوسف: ٩٨٤
أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي: ١٠٩٨
إسحاق بن إبراهيم بن مسرة: ٦٢٩
أبو إسحاق بن إبراهيم الدينوري: ٦٣٦
أبو إسحاق الإسفراييني: ٦٩٦
إسحاق بن إسماعيل بن حمّاد: ٥٠٠
إسحاق بن راهويه: ٣٦٣
إسحاق بن الفرات بن الجعد: ٤٥٥
إسحاق بن محمد الزبيدي: ١١٢٤
أبو إسحاق بن منصور القفصي: ٧١٤
إسحاق بن منصور الكوسج: ٥٣٨
إسحاق بن يوسف الصردفي: ٨٧٦
أسد بن الفرات: ٤٦٨
أسعد بن أبي بكر الإسكندراني: ١١٣٢
أسلم بن عبد العزيز: ٦٣٢
أسماء بنت يزيد بن السكن: ٣٢٧
إسماعيل بن أحمد الإسماعيلي: ٦٨٧
القاضي: إسماعيل بن إسحاق: ٥٩٢
إسماعيل بن أبي بكر الحسيني: ١١١٧
إسماعيل التميمي: ١٠٤٨
إسماعيل بن عبدالله المغربي: ١٠٠٣
إسماعيل بن عبيدلله الأنصاري: ٣٠١
إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي: ٩٩٣
إسماعيل بن مكّي بن عوف: ٧٩٦
إسماعيل بن أبي المهاجر: ٢٩٩
إسماعيل بن القاسم بن محمد: ١١١١
إسماعيل نعيم بن إبراهيم العلانية: ١١٧٠
إسماعيل وهبي بن محمد القونوي: ١١٧١
إسماعيل بن يحيى المزني: ٥٢٩
الأسود بن يزيد النخعي: ٢٤٦
الأسنوي، جمال الدين عبد الرحيم: ٩٦٢
أشهب بن عبدالعزيز: ٤٥٢
أصبغ بن الفرج: ٤٥٧
أصبغ بن خليل: ٤٨٩
ابن بنت الأعزّ: ٨٠٥
ابن أمير الحاج: شمس الدين محمد: ٩٨١
أمين الدين محمد النويري: ١١٣٧
أمين الواعظ بن محمد أفندي: ١٠٠٨
أنس بن مالك: ٢٦٢
أوج باشا: نور الدين حمزة: ١١٦٧
ابن أبي أويس الأصبحي: ٤٤٧
إيّاس بن معاوية: ٢٧٦
أيّوب السختياني: ٢٧٩

- ب -

باشماقجي زادة: عليّ بن محمد حفيد سيّد علي: ١١٧٠
بارودجي زادة: نائب بكتاش بن عمر: ١٠٠٧
باقشير: عبدالله بن محمد: ١١٢٢
القاضي الباقلاني: محمد بن الطيّب: ٦٦٩

باعلوي أحمد شريف: ١١٢٢
بامخرمة: أحمد بن عبدالله اليمني: ١١٢١
أمّ البدر بدرة بنت فخر الدين بن تيميّة: ٩٢١
بدر الدين الزركشي: ٩٦٣
بدر الدين القرافي: ٩٥٦
البرادعي: خلف بن أبي القاسم الأسدي: ٧١٣
البربري: محمد بن يحيى بن عمر: ٦٢٦
بركات بن محمد الحطاب: ١١٥٠
برهان الدين إبراهيم بن التاج عبدالوهاب: ١٠١٦
برهان الدين إبراهيم الصنهاجي: ١٠٠٣
برهان الدين بن إبراهيم بن ظهيرة: ١١٣٥
برهان الدين إبراهيم العسقلاني: ٩٧٣
برهان الدين إبراهيم بن فرحون: ١١٤٥
برهان الدين بن إبراهيم الفزاري: ٩٨٧
برهان الدين بن إبراهيم بن مفلح: ٩٩٨
برهان الدين اللقاني: ٩٥٧
برهان الدين بن نصر العسقلاني: ٩٧٣، ٩٧٦
بشر بن الحسين: ٦٠٩
ابن بشير: إبراهيم بن عبدالصمد: ٨٥٧
ابن بشير: محمد بن سعيد: ٤٨٢
ابن البقّال: أحمد بن عبدالله بن سهل: ٦٨٢
بقيّ بن مخلد: ٥٧٣
أبو بكر أحمد الخولاني: ٧٠٩
أبو بكر البيهقي: ٦٩٨
بكر خواهر زادة: ٨٤٨
أبو بكر السمعاني: ٨٤٥
بكر بن سوادة: ٣٠٣
أبو بكر الشاشي: ٨٣٠
أبو بكر الطرطوشي: ٧٩٥
أبو بكر بن عبدالرحمٰن: ١٩٣
أبو بكر بن عبدالله = القفال المروزي الصغير ٦٩٥
بكير بن عبدالله بن الأشجّ: ٢٩٢
أبو بكر بن العربي: ٨٧٠
أبو بكر بن عليّ بن موسى الهاملي: ١١٢٤
أبو بكر بن محمد ـ ابن خيّاط ـ: ١١١٧
أبو بكر بن محمد اليافعي: ٨٧٦
أمّ البهاء فاطمة بنت محمد البغدادية: ٩١٨
بهاء الدين بن علي اللخمي: ٨٠٤
بهاء الدين محمد بن محمد باقر: ١٠٢٨
بهرام بن عبدالله: ٩٥٣
البهلول بن راشد: ٤٦٧

ـ ت ـ

تاج الدين بن أحمد المدني: ١١٥٤
تاج الدين السبكي: ٩٨٨
تاج الدين عبدالوهاب = عرب شاه ٩٨٢

تاج الدين عبدالوهاب بن خلف = ابن بنت الأعزّ ٨٠٥
تاج الدين عبدالوهاب بن عفيف الدين اليافعي: ١١٣٩
تاج الدين عبدالوهاب العلوي: ٩٩٢
تاج الدين الفزاري: ٩٨٦
تاج العارفين بن أبي بكر العثماني: ١٠٤٤
ابن التبّان: عبدالله بن إسحاق: ٧٠٦
تجنى الوهابيّة: ٩٢٠
ابن التركماني: عثمان بن إبراهيم: ٩٤٢
التسولي: علي بن عبدالسلام: ١٠٧٧
تقيّة بنت محمد بن آموسان: ٩١٩
تقيّ الدين إبراهيم بن مفلح: ٩٩٨
تقيّ الدين أحمد بن تيميّة: ٩٩٤
تقيّ الدين أحمد بن عمر المقدسي: ٩٧٦
تقيّ الدين أحمد بن كمال الدين الشمني: ٩٤٤
تقيّ الدين بن زيتون: ١٠٣٠
تقيّ الدين السبكي: ٩٨٨
تقيّ الدين عبدالله بن محمد الزريراتي: ١٠١٢
تقيّ الدين محمد بن أحمد الفاسي: ١١٥٢
تقيّ الدين محمد بن أحمد - ابن النجّار: ٩٧٥
تقيّ الدين محمد بن أحمد اليافعي: ١١٣٨
تقيّ الدين بن محمد الدمشقي: ٩٩١

- ث -

ثابت بن أسلم البناني: ٢٧٩
أبو ثور: إبراهيم بن خالد: ٤١٣

- ج -

جابر بن زيد: ٢٦٦
جعثل بن هامان: ٣٠٢
جعفر بن أحمد بن عليّ القمّي: ٦١٠
جعفر بن إدريس الكتاني: ١٣٢١
جعفر بن محمد بن جعفر القمّي: ٦١٠
جعفر بن محمد المروزي: ٦٦٣
جعفر الصادق بن محمد الباقر: ٣٩٧
جعفر بن عبدالرحيم المخاني: ٧٣٩
جعفر بن عبدالله الدامغاني: ٨٢٧
ابن الجلّاب: عبيدالله بن الحسن: ٦٦٩
جلال الدين الدواني: ١٠٢٠
جلال الدين السيوطي: ٩٦٦
جلال الدين عبدالله بن أحمد الكوفي: ١٠٠٦
جلال الدين عبدالله بن شاس: ٧٩٧
جلال الدين نصر الله التستري: ١٠١٥
جمال الدين الحصيري: ٨٠٨
جمال الدين ابن الصفراوي: ٧٩٨
جمال الدين عبدالحميد الشيرازي: ١٠١٨
جمال الدين عبدالصمد - ابن الحرستاني -: ٨١٤
جمال الدين علي بن المسلم: ٨١٠

جمال الدين عمر بن إدريس الأنباري: ١٠١٥
جمال الدين محمد بن حسين القماط: ١١٢١
جمال الدين محمد بن رضيّ الدين اليمني: ١١١٨
جمال الدين محمد بن الصديق: ١١٢٥
جمال الدين محمد بن ظهيرة: ١١٣٤
جمال الدين محمد بن عبدالسلام: ١١٢١
جمال الدين محمد بن عبداللطيف الزرندي: ١١٢٧
جمال الدين بن محمد عليّ الطيّب: ١١٢٥
جمال بن عمر المكّي: ١١٣٢
جمال النساء بنت أحمد البغداديّة: ٩٢٠
جميل بن كريب = أبو كريب: ٣٠٤
الجنيد بن محمد البلياني: ١٠١٩
ابن الجوهري محمد بن أحمد: ٩٧١
الجويني: إمام الحرمين، عبدالملك بن عبدالله: ٨٤٢
جوى زادة محيي الدين محمد: ١١٦٧
جوى زادة محيي الدين محمد بن محمد: ١١٧٠

- ح -

ابن الحاجب: جمال الدين عثمان: ٧٩٨
ابن الحاج: عماد الدين محمد: ١٠٩٧
ابن الحاج: محمد بن أحمد بن خلف: ٨٧٠
الحارث بن قيس الأعور: ٢٤٩
الحارث بن مسكين: ٤٥٨
حامد بن عليّ العمادي: ٩٨٤
أبو حامد الإسفراييني: ٦٧٥
أبو حامد الغزالي: ٨٤٣
حامد بن محمود الحراني: ٨٥٢
حبان بن أبي جبلة: ٣٠٣
أمّ حبيبة عائشة بنت معمر: ٩١٩
حبيب بن أبي ثابت: ٢٥٩
حبيب بن أبي حبيب: ٤٤٧
حبيب الله بن عبدالله العلوي الدهلوي: ١٠١٩
حرملة بن يحيى التجيبي: ٤٦٢، ٥٣٠
ابن حزم الظاهري: ٧٣٦
حسن بن إبراهيم الزيلعي: ٩٤٩
الحسن بن أحمد الإصطخري: ٦٠٤
الحسن بن أحمد البنّاء: ٦٨١
حسن بن أحمد بن عليّ الطويل: ١٢٩٣
الحسن بن أحمد بن محمد ـ الجلال ـ: ١١١٠
الحسن بن أحمد بن يزيد: ٥٩٧
الحسن البصري: ٢٦٩
الحسن بن حامد البغدادي: ٦٨٠
الحسن بن حبيب الدمشقي: ٥٨٦
حسن بن حسين بن علي آل الشيخ: ١٣٠٤

الحسن بن الحسين بن أبي هريرة: ٥٩٧
الحسن بن رحال: ١٠٧٤
حسن بن رضوان حنفي: ١٢٩٢
الحسن بن زياد: ٤٢٤
الحسن بن سالار الغزنوي: ١٠٠٩
الحسن بن سعيد بن حمّاد: ٥٤٤
أبو الحسن بن سليمان: ٧١٤
حسن العدوي الحمزاوي: ١٢٩١
الحسن بن عليّ بن خلف: ٥٩٨
حسن بن علي العطّار: ٩٧١
الحسن بن عليّ بن فضال: ٥٤٤
حسن بن علي المسيلي: ٨٦٣
حسن بن عمّار الشرنبلالي: ٩٤٨
الحسن القرشي: ٧١٧
الحسن بن محمد بن إبراهيم الكواري: ٦٩٠
حسن بن محمد برتقيز: ١٠٦٤
الحسن بن محمد بن الحنفيّة: ٢٠٧
الحسن بن محمد الزعفراني: ٥٢٧
الحسن بن محمد بن شعيب = أبو عليّ السنجي: ٦٨٩
حسن بن محمد الهدّة: ١٠٤٩
أبو الحسن ابن المقلوب السوسي: ٧١٥
الحسن بن منصور الأوزجندي: ٨٥٠
حسونة بن عبدالله النواوي: ١٢٩٧
أبو الحسين ـ قاضي الحرمين ـ: ٦٠٧
الحسين بن أحمد اليزدي: ٨٤٧
حسين بن إبراهيم البارودي: ١٠٥٨
حسين البارودي الثاني: ١٠٥٩
حسين بن جمال الدين الخوانساري: ١٠٢٨
الحسين بن أبي زرعة: ٥٨٦
الحسين بن سعود الفراء: ٨٤٥
الحسين بن سعيد بن حمّاد: ٥٤٤، ٦٠١
الحسين بن عبدالنبيّ: ١١٧٠
الحسين بن عتيق الربعي: ٧٩٨
الحسين بن عليّ بن جعفر: ٦٨٨
الحسين بن علي الصيرمي: ٦٦٦
الحسين بن علي الكرابيسي: ٥٢٧
الحسين بن أبي القاسم البغدادي: ١٠١١
الحسين بن القاسم بن علي: ٧٤٠
حسين بن محمد الأوسي: ١٣٢٣
حسين بن محمد صالح الحسيني: ١٠٢٨
الحسين بن يوسف بن المطهر: ١٠١٦
الحفّار: محمد بن علي الغرناطي: ١١٠٠
حفصة بنت سيرين: ٣٢٩
الحكم بن عتيبة: ٢٥٨
حلولو: أحمد بن عبدالرحمٰن: ١٠٤١
حمّاد بن أبي سليمان: ٢٥٨
حمد بن ناصر بن معمر: ١١٥٩
حمزة بن عبدالله بن محمد الناشري: ١١٢٢
حمزة بن يوسف بن الحوراء: ٧١٧
حميدة بن محمد بيرم: ١٠٦٣

حميد الدين حمد الله الحسيني: ١١٦٥
حنش بن عبدالله: ٢٩٦
الإمام أبو حنيفة النعمان: ٣٦٨
حنيف الدين بن عبدالرحمن العمري: ١١٣١
حيدرة بن عمر الزندوردي: ٦٠١
حيدر بن محمد بن إبراهيم الشيرازي: ١٠١٩

- خ -

خارجة بن زيد: ٢٠٤
خالد بن أحمد النقشبندي: ١٠١٠
خالد بن أبي عمران التجيبي: ٣٠٥
خالد الكردي الشهرزوري: ٩٩٤
خديجة بنت سحنون: ٦٢٢
خديجة الشاهجانيّة: ٧٧٠
خديجة بنت العماد: ١٢٣٣
ابن خطيب الدهشة: نور الدين محمود: ٩٩١
الخطيب شمس الدين محمد بن أحمد:
ابن الخل: محمد بن المبارك: ٨٣٠
ابن بنت خلدون: عبدالمنعم بن إبراهيم: ٧١١
خلف بن أبي بكر التحريري: ١١٥١
خلف بن أبي القاسم الأسدي = البرادعي ٧١٣
خليل بن إسحاق الجندي: ٩٥٢
خواجة زادة: مصطفى بن يوسف: ١١٦٣
ابن خويز منداد: محمد بن أحمد: ٦٧٣
أمّ الخير فاطمة بنت عليّ بن المظفر: ٩١٨

- د -

دادة خليفة: برهان الدين إبراهيم بن بخشي: ٩٨٢
داود بن عليّ بن خلف: ٤١٥
ابن دحية: عمر بن حسن: ٨٧٤
ددة خليفة: كمال الدين: ١١٦٩
درّاس بن إسماعيل: ٦١٨
أمّ الدرداء: خيرة بنت أبي حدرد: ٣٢٧
أبو الدرداء: عويمر الأنصاري: ٢٨٤
الدردير: أحمد بن محمد العدوي: ٩٥٨
الدسوقي: محمد بن أحمد بن عرفة: ٩٥٩
ابن دقيق العيد: تقيّ الدين محمد: ٩٦٠
دهماء: ١٢٣٤
دهن اللوز بنت نورنجان: ٩٢٠

- ذ -

ابن أبي ذئب: هشام بن شعبة: ٣٥٩
أبو ذرّ الهروي: عبدالله بن أحمد: ٧٤١

- ر -

ابن راشد القفصي: محمد بن عبدالله: ١٠٣١

الراعي الغرناطي: محمد بن إسماعيل: ١١٠١
ابن الرايس: فضل بن نصر التاهرتي: ٦٢١
الربيع بن أنس: ٣٠٨
ربيعة الرأي: ٢١٤
ربيعة بن سميع: ٣١٧
ربيع بن سليمان بن عطاء الله: ٦١٧
الربيع بن سليمان المرادي: ٥٢٩
رجاء بن حيوة: ٢٨٧
رجاء بن عيسى الأنصناوي: ٦٦١
رحومة بن محمد الصاوي: ١٣٢٩
ابن رشد الجدّ: أبو الوليد محمد: ٨٦٩
ابن رشد الحفيد: أبو الوليد محمد: ٨٧١
الرصّاع: محمد بن قاسم: ١٠٤١
رضوان بن محمد بن سليمان: ١٢٩٣
ابن الرفعة: نجم أحمد بن محمد: ٩٦١
رفيع بن مهران: ٢٦٩
ركن الدين أحمد بن محمد القرمي: ١٠٢٥
ركن الدين شافع بن عمر الجبلي: ١٠١٤
ركن الدين عزيز بن محمد القزويني: ٨٤١
رمضان أفندي: ١٠٥٣
روح بن الفرج ـ أبو الزنباع ـ: ٥٨١
الروياني: عبدالواحد بن إسماعيل: ٨٣٩

ـ ز ـ

ابن زرب: محمد بن يبقى: ٧٢٦
زرّ بن حبيش: ٢٤٩
ابن أبي زرعة: محمد بن عبدالله: ٤٦٣
أبو زرعة: وليّ الدين العراقي: ١٠١٠
زفر بن الهذيل: ٤٢٤
الزقاق: علي بن قاسم: ١٠٦٩
القاضي زكرياء الأنصاري: ٩٦٨
الزملكاني: كمال الدين محمد بن عليّ: ٩٨٧
ابن أبي زمنين: ٧٣٠
أبو الزناد: عبدالله بن ذكوان: ٢١٥
زهيّر بن الحسن = أبو نصر السرخسي: ٦٩٨
ابن زويع: محمد بن عيسى: ٧١٩
ابن الزيّات: أبو الحسن عليّ: ٨٦٥
زياد بن عبدالرحمٰن: ٤٨١
زيد بن عبدالله اليمني: ٨٧٦
ابن أبي زيد القيرواني: ٧٠٥
زيد بن أسلم: مولى ابن عمر: ٢١٧
زيد بن ثابت: ١٧١
أبو زيد الدبّوسي: ٦٩٢
زينب بنت أحمد بن أبي بكر: ١٢٣٢
زينب بنت أبي سلمة المخزوميّة: ٣٢٧
زينب الشعرية: أمّ المؤيّد: ٩٢٠
زينب بنت الكمال: ١٢٣٣
زينب بنت عبدالله بن عبدالحليم بن تيميّة: ١٢٣٣

زين الدين أبو بكر بن حسين العثماني: ١١٣٩
زين الدين عبدالسلام الزواوي: ٨٢٥
زين الدين عبدالرحمٰن بن علي الزرندي: ١١٢٩
زين الدين بن نجيم: ٩٤٦

- س -

سالم بن إبراهيم الصنهاجي: ١٠٠٤
سالم بن أحمد بن فتح: ٧٣٨
سالم بن سالم المقدسي: ٩٧٧
سالم بن عبدالله: ٢٠٠
ابن أبي سبرة: ٣٥٩
ستّ العيش أمّ عبدالله: ١٢٣٥
ستّ الكتبة نعمة: ٩١٩
ستيتة: أمّ عبد الواحد: ٧٧٠
سحنون بن سعيد التنوخي: ٤٧٢
سراج الدين البلقيني: ٩٦٤
سراج الدين الحسين بن يوسف: ١٠١٣
سراج الدين عبداللطيف الحسني: ١١٢٥
سراج الدين عبداللطيف بن محمد الفاسي: ١١٥٥
سراج الدين عمر بن أحمد المصري: ١١٣٨
سراج الدين عمر بن علي = قارىء الهداية: ٩٤٣
سراج الدين عمر ابن الملقن: ٩٦٣
ابن سراج الغرناطي: محمد بن محمد: ١١٠١
السرخسي: محمد بن أحمد بن سهل: ٨٤٧
أبو السرور محمد: ١١٤٧
سعد الدين التافتازاني: ١٠٢٣
سعد الدين عيسى بن أمير خان: ١١٦٧
سعد الدين فضل الله الشامكاني: ١٠٢٢
سعد بن عبدالله بن أبي خلف: ٦١٠
سعد بن عبدالله المعافري: ٤٤٨
سعد الله بن عيسى بن أمير خان: ١١٦٧
سعد الله بن نصر: ٨٣٤
أبو السعود العمادي: ٩٤٧
أبو سعيد بن الأعرابي: ٧٣٩
سعيدة بنت عبدالملك: ٩٢٠
سعيد بن جبير: ٢٥١
سعيد بن حسان الصائغ: ٤٨٥
أبو سعيد الخدري: ١٨٣
سعيد الشريف الطرابلسي: ١٠٨٨
سعيد بن كثير بن عفير: ٤٥٦
سعيد بن محمد الغساني: ٥٧٤
سعيد بن مسعود التجيبي: ٣٠٠
سعيد بن المسيّب: ١٨٧
سعيد بن أبي هند: ٤٨٢
سفيان الثوري: ٤٠٤
سفيان بن سعيد الثوري: ٣٦٠
أمّ السلامة بنت أحمد: ٧٦٩
أبو سلمة بن عبدالرحمٰن: ١٩٤
ابن أبي سلمة: عبدالعزيز الماجشون: ٣٥٩
أمّ سلمة: هند بنت أبي أميّة: ٣٢٩

ابن سلمون المسيلي: ٧٢١
سليمان بن بلال: ٤٤٣
سليمان بن خلف = أبو الوليد الباجي: ٧٣٤
سليمان بن سالم القطان: ٦٢٢
سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب: ١١٥٩
سليمان بن أبي العزّ الأذرعي: ٩٤١
سليمان بن عطيّة: ١٣٠٤
سليمان بن علي الجبلي: ٦٣٧
سليمان بن المغيرة: ٣٦٠
سليمان بن يحيى بن عمر الأهدل: ١١٢٤
سليمان بن يسار: ٢٠٤
سند بن عنان الأزدي: ٧٩٦
سهل بن محمد الصعلوكي: ٦٩٣
ابن أبي سوار: ٧٢٠
السيّد الجرجاني: عليّ بن محمد: ١٠٢١
سيف الدين عبدالغني بن فخر الدين الحراني: ٨٥٤
السيوري: عبدالخالق بن عبدالوارث: ٧١٢
ابن السيوفي: بدر الدين حسن بن علي: ٩٩٢

- ش -

الإمام الشافعي = محمد بن إدريس: ٣٩٠
شاه وليّ الله الدهلوي: ١١٧٣
أبو شبرمة: عبدالله ابن شبرمة: ٤٠٤
ابن شبلون: عبدالخالق بن خلف: ٧٠٨
ابن شجرة: أحمد بن كامل: ٥٧٠
شرف الدين أحمد بن عبدالرحمٰن بن عسكر: ١٠١٢
شرف الدين أحمد بن قدامة: ٩٩٧
شرف الدين عبدالرحيم الزريراتي: ١٠١٥
شرف الدين عبدالغنيّ الحراني: ٩٧٦
شرف الدين محمود الشريشي: ٩٩٠
شريح القاضي: ٢٤٧
الشريف التلمساني: محمد بن أحمد: ١٠٧٨
الشريف التونسي: حسن بن عبدالكبير: ١٠٤٧
الشريف الكركي: محمد بن عمران: ١٠٠١
شعيب بن الحسين: ٨٦٣
شمس الدين الكرماني: ١٠٠٩
شمس الدين محمد بن أحمد البساطي: ٩٥٣
شمس الدين محمد بن أحمد الرملي: ٩٧٠
شمس الدين محمد بن أحمد السفاريني: ١٠٠١
شمس الدين محمد بن أحمد القرافي: ٩٥٣
شمس الدين محمد بن أحمد النابلسي: ١١٥٦

شمس الدين محمد بن البرزالي: ١٠١٣
شمس الدين محمد بن الشبريني: ٩٦٩
شمس الدين محمد بن شرف الدين: ٩٨٠
شمس الدين محمد بن عبدالرحمٰن بن عسكر: ٦٧٤
شمس الدين محمد بن عبدالله التمرتاشي: ٩٤٧
شمس الدين محمد ابن عسكر: ٩٧٤
شمس الدين محمد بن عليّ، ابن طولون: ٩٨٣
شمس الدين محمد بن غازي: ١٠٧٠
شمس الدين محمد القهستاني: ١٠٢٦
شمس الدين محمد بن محمد الآمدي: ١١٥٥
شمس الدين محمد بن محمد الفناري: ١١٦١
شمس الدين محمد بن مسلم الصالحي: ١١٥٤
شمس الدين محمد بن مفلح: ٩٩٧
شمس الدين محمد بن يوسف القونوي: ٩٨٠
شهاب الدين الآلوسي: ١٠٠٧
شهاب الدين أحمد البخاري: ١١٣٠
شهاب الدين أحمد بن شمس الدين البخاري: ١١٣٠
شهاب الدين أحمد بن عبدالعزيز: ٩٧٥
شهاب الدين أحمد بن عثمان اليمني: ١١٢٣
شهاب الدين أحمد بن عليّ الحسني: ١١٥٢
شهاب الدين أحمد بن عليّ النويري: ١١٤٧
شهاب الدين أحمد بن عمر الربعي: ١٠٠٢
شهاب الدين أحمد بن محمد الشلبي: ٩٤٨
شهاب الدين الأذرعي: ٩٩٠
شهاب الدين عبدالرحمٰن بن محمد بن عسكر: ١٠١١
شهاب الدين القرافي: ٩٥٠
شهاب الدين المقّري: ١٠٨٤
ابن شهاب الزهري: ٢١٠
شهدة بنت أحمد بن الفرج: ٩١٨
شهدة بنت أبي نصر الإبري: ٩١٨
شيخ زادة: محمد بن مصلح الدين القوجوي: ١١٦٧

- ص -

صاعد بن أحمد الطليطلي: ٧٣٨
صالح بن أحمد بن حنبل: ٥٣٨
صالح البلقيني: علم الدين: ٩٦٥
صالح بن حسين الكواش: ١٠٤٦
صالح بن محمد بن نوح العمري: ١١٥٤
صالح بن مهدي بن عليّ: ١١١١
ابن الصبّاغ: عبدالسيّد بن عبدالواحد: ٨٢٩
صدر الدين الثاني: ١٠٢٨
صدر الدين سليمان بن أبي العزّ: ٨٠٩
صدر الدين محمد بن عماد الدين الجويني: ٨٠٣

صدر الدين موهوب بن عمر الجزري: ٨٠٥
صدقة بن الحسين بن بختيار: ٨٣٤
صديق بن عليّ المزجاجي: ١١٢٥
صفيّ الدين عبدالمؤمن بن عبدالحقّ: ١٠١٤
صلاح الدين منصور بن يونس البهوتي: ٩٧٨

- ض -

الضحّاك بن مزاحم: ٣٠٧
ضياء الدين عبدالرحمٰن بن سعد القزويني: ١٠٢٥
ضياء الدين محمد بن محمد الهندي: ١١٢٧

- ط -

طاهر بن أحمد بن عبدالرشيد: ٨٤٩
طاهر بن برهان الدين: صدر الإسلام البخاري: ٨٤٨
طاهر بن عبدالله الطبري: ٦٧٧
طاهر بن محمد بن عبدالرزاق البشتي: ١٣٢٦
طاهر بن نصر الله بن جهبل: ٨١٣
طاووس بن كيسان: ٢٩٣
ابن طرار: أبو الفرج المعافى: ٥٦٩
ابن الطلّاع: محمد بن فرج: ٨٦٨
طلق بن جابان: ٣٠١
طليب بن كامل اللخمي: ٤٤٨
طه بن أحمد الكوراني: ١٣٠١

- ظ -

ظافر بن الحسين الأزدي: ٧٩٧
ظهير الدين ظهيرة بن محمد ابن ظهيرة: ١١٤٨

- ع -

عائشة: أمّ المؤمنين: ١٧٦، ٣١٩
عائشة الباعونيّة: ١٢٣٦
عائشة بنت الحسن الوركانيّة: ٧٧٠
عائشة بنت طلحة التيميّة: ٣٣٠
ابن عابدين: محمد أمين: ٩٨٤
عامر الشعبي: ٢٥٦
ابن أبي عامر: عبدالرحمٰن بن سعود: ٧١٩
عبادة بن الصامت: ٢٨٣
ابن عبّاد الهروي: ٦٩٩
أبو العباس الأبيوردي: ٦٧٩
عبدالأعلى بن وهب = ابن وهب: ٤٨٨
عبدالباقي بن شهاب الدين الآلوسي: ١٣٠١
عبدالباقي الزرقاني: ٩٥٧
ابن عبدالبرّ: يوسف بن عبدالله: ٧٣٣
عبدالجبار بن خالد السرتي: ٦٢٠
عبدالجبّار بن محمد الخواري: ٨٤٤

عبدالجليل بن مخلوف الصقلي: ٦٦١
ابن عبدالحكم: عبدالحكم بن عبدالله: ٤٥٩
ابن عبدالحكم: محمد بن عبدالحكم: ٤٦٠
عبدالحكيم بن شمس الدين السيالكوتي: ١١٧٣
عبدالحقّ بن عبدالرحمٰن الأزدي: ٨٦٤
عبدالحقّ بن محمد بن هارون: ٧٢٣
عبدالحميد الصائغ: ٨٦٠
عبدالحميد بن عمران الصدفي: ٨٦٧
عبدالحميد بن عبدالعزيز: ٥٨٦
عبدالخالق بن خلف = ابن شبلون: ٧٠٨
عبدالخالق ابن عبدالوارث = السيوري: ٧١٢
عبدالرحمٰن بن أحمد الجامي: ١٠٢٢
عبدالرحمٰن بن إسماعيل الدمشقي: ٨١٧
عبدالرحمٰن الأوزاعي: ٤٠١
عبدالرحمٰن بن الباز اليحصبي: ٧١٧
عبدالرحمٰن بن أبي جعفر: ٤٥٦
عبدالرحمٰن بن رافع: ٣٠٢
عبدالرحمٰن بن زياد بن أنعم: ٣٠٥
عبدالرحمٰن بن سعدي: ١٣٠٤
عبدالرحمٰن بن صخر = أبو هريرة: ١٨٠
عبدالرحمٰن بن عبدالعليّ: ٨٠٣
عبدالرحمٰن بن عبدالله الغافقي: ٦٦١
عبدالرحمٰن الغماري: ٨٢٥
عبدالرحمٰن بن أبي الفتح الحلواني: ٨٣٣
عبدالرحمٰن بن عبدالغنيّ: ٨٢٢
عبدالرحمٰن بن عبدالله البعلي: ١٠٠١
عبدالرحمٰن بن عبدالمؤمن: ٦٣٦
عبدالرحمٰن بن عفان الجزولي: ١٠٦٦
عبدالرحمٰن بن عليّ الجوزي: ٨٣٦
عبدالرحمٰن بن عليّ الكناني: ٧١٠
عبدالرحمٰن بن عيسى العمري: ١١٣١
عبدالرحمٰن الغرياني: ١٠٨٦
عبدالرحمٰن بن غنم: ٢٨٦
عبدالرحمٰن الفاسي: ١٠٦٦
عبدالرحمٰن بن القاسم: ٢١٣
عبدالرحمٰن بن قاسم النجدي: ١٣٠٤
عبدالرحمٰن بن كمال الدين ابن العديم: ٨١٠، ٩٤١
عبدالرحمٰن بن أبي ليلى: ٢٥٠
عبدالرحمٰن بن المبارك: ٣٦٣
عبدالرحمٰن بن محمد = اللبيدي: ٧١٠
عبدالرحمٰن بن محمد الحضرمي: ١١٢٤
عبدالرحمٰن بن محمد السجلماسي: ١٠٠٢
عبدالرحمٰن بن محمد بن فوران المروزي: ٧٠٠
عبدالرحمٰن بن موسى المغربي: ١٠٠٤
عبدالرحمٰن بن نجم الدين: ٨٢٠
عبدالرحمٰن بن هارون القنازعي: ٧٣١
عبدالرحيم بن أحمد الكتامي: ٧١٧

عبدالرحيم بن خالد الإسكندراني: ٤٤٨
عبدالرزاق بن همام: ٣٦٣
عبدالرؤوف المناوي: ٩٧٠
عبدالسلام أفندي: ١٣٠٢
عبدالسلام بن الحاج سعيد: ١٣٠٢
عبدالسلام بن السمح: ٧٣٦
عبدالسلام بن عبدالله الخضر: ٨٥٤
عبدالسلام بن عمر المارديني: ١١٧١
عبدالعزيز بن أحمد الجزري: ٦٨٤
عبدالعزيز البخاري: ٦٩٣
عبدالعزيز بن جعفر = غلام الخلّال: ٥٩٩
عبدالعزيز بن أبي حازم: ٤٤٢
عبدالعزيز بن حمد بن إبراهيم: ١١٦٠
عبدالعزيز بن حمد بن معمر: ١١٦٠
عبدالعزيز بن عبدالسلام عز الدين: ٨١٧
عبدالعزيز بن عبدالعظيم الطرابلسي: ١٠٨٦
عبدالعزيز بن عبدالله الداركي: ٥٧٧، ٦٧٥
عبدالعزيز بن عبدالله الناصري: ١١٥٩
عبدالعزيز بن عمر بن محمد: ١١٤١
عبدالعزيز بن محمد البصري: ٦٦٩
عبدالعزيز بن محمد الرحبي: ١٠٠٧
عبدالعزيز بن محمد بن عبيد الدراوردي: ٤٤٣
عبدالعزيز بن محمد بن النعمان: ٦٥٨
عبدالعزيز بن يحيى الكناني: ٥٣١
عبدالغفور البغدادي: ١٠١١
عبدالغنيّ بن عبدالواحد الجماعيلي: ٨٠٦
عبدالغنيّ بن عبدالواحد بن عليّ: ٨٢١
عبدالقادر بن عبدالكريم الورديغي: ١٣٢٠
عبدالقادر بن عبدالظاهر الحراني: ٨٥٢
عبدالقادر بن عمر التغلبي: ١٠٠١
عبدالقادر الفاسي: ١٠٧٢
عبدالقادر بن يحيى الطبري: ١١٣٤
عبدالقويّ بن محمد البجائي: ١١٥١
عبدالكريم السناري: ١٢٩٤
عبدالكريم بن عبدالصمد الطبري: ٧٧٦
عبدالكريم بن عبدالله العباسي: ١١٣٢
عبدالكريم بن محمد الرافعي: ٨٤١
عبدالكريم بن نجم الدين: ٨٢١
عبداللطيف الخجندي: ٨٤٠
عبدالله بن إبراهيم الأصيلي: ٧٢٦
عبدالله بن إبراهيم الحسيني: ١١٣٢
عبدالله بن أحمد بن إبراهيم الأبياني: ٦١٨
عبدالله بن أحمد باكثير: ١١٤١
عبدالله بن أحمد بن حنبل: ٥٣٩
عبدالله بن أحمد الشريف التلمساني: ١٠٨٠
عبدالله بن أحمد بن طالب الأغلبي: ٦١٣
عبدالله بن أحمد بن عليّ الحضرمي: ١١٢٠
عبدالله بن أحمد بن عود العماد: ٧٩٤

عبدالله بن أحمد بن محمد بن المغلس: ٦٠١
عبدالله بن إسحاق = ابن تبّان: ٧٠٦
عبدالله بن أسعد اليافعي: ١١٣٨
عبدالله بن إسماعيل البرقي: ٦٢١
عبدالله أفندي: ١٠٥٤
عبدالله بن حسن آل الشيخ: ١٣٠٥
عبدالله بن الحسن الصعدي: ١١٠٨
عبدالله بن الحسين الدامغاني: ٨٢٧
عبدالله بن الحسين السويدي: ١٠١٠
أبو عبدالله الحليمي: ٦٩٩
عبدالله بن سليمان بن داود: ٨٧٣
عبدالله بن شبرمة = أبو شبرمة: ٣٦٠
عبدالله بن شهاب الدين اليزدي: ١٠١٧
عبدالله بن رفاعة السعدي: ٨٠١
عبدالله بن الزبير الحميدي: ٥٣١
عبدالله الزويزي: ٧٢٠
عبدالله بن طاووس: ٢٩٧
عبدالله ابن ظهيرة: ١١٣٤
عبدالله بن عباس: ٢١٨
عبدالله بن عبدالباقي: ٨٣٤
عبدالله بن عبدالحكم: ٤٥٤
عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ: ١٣٠٤
عبدالله بن عبدالله الدكاري: ١١٥١
عبدالله بن عبيدلله = ابن أبي مليكة: ٢٣١
عبدالله بن عليّ بن أبي شيبة: ٣١٧
عبدالله بن عمر: ١٧٣
عبدالله بن عمر بن أحمد القيسي: ٦٣٣
عبدالله بن عمر الدبوسي: ٦٩٣
عبدالله بن عمر بن عبدالله: ١١٢٣
عبدالله بن عمر بن غانم الرعيني: ٤٦٦
عبدالله بن عمرو بن العاص: ٢٨٩
عبدالله العنقري: ١٣٠٤
عبدالله بن غالب بن تمام: ٧١٩
عبدالله فرّوخ: ٤٦٤
عبدالله بن محمد بن الأشجّ: ٦٢٣
عبدالله بن محمد بن خالد = ابن مرتنيل: ٤٨٨
عبدالله بن محمد الخوارزمي: ٦٧٩
عبدالله بن محمد بن سعد الله: ٧٩٣
عبدالله بن محمد ابن فرحون: ١١٤٤
عبدالله بن محمد بن عبدالله ابن فرحون: ١١٤٦
عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب: ١١٥٩
عبدالله بن محمد بن علي الفهري: ٨٠٤
عبدالله بن محمد بن قاسم: ٦٣٤
عبدالله بن محمد الهاشمي: ١٠٢١
عبدالله بن المغيرة بن أبي بردة: ٣٠٤
عبدالله بن مسعود: ٢٣٣
عبدالله بن مسلمة القعنبي: ٤٩٨
أبو عبدالله المقّري: محمد: ١٠٦٦
عبدالله بن نافع الصائغ: ٤٤٤
أمّ عبدالله نشوان: ١٢٣٥
عبدالله بن الوليد بن سعيد الأنصاري: ٦٦٢
عبدالله بن وهب: ٤٥٠
عبدالله بن يحيى بن دحون: ٧٣٢

عبدالله بن يزيد: ٣٠١
عبدالمحسن بن يعيش الحراني: ٨٥٢
عبدالمعطي السملاوي: ٩٧٠
عبدالملك بن بحر الجلاّب: ٧٣٩
عبدالملك بن حبيب: ٤٨٦
عبدالملك بن عبدالله = الجويني: ٨٤٢
عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج: ٣٥٨
عبدالملك بن عبدالله بن محمود: ٦٦٢
عبدالملك بن عيسى بن درباس: ٨٠٢
عبدالملك بن الماجشون: ٤٤٥
عبدالملك بن المنعم القلعي: ١١٣٢
عبدالمنعم بن إبراهيم = ابن بنت خلدون: ٧١١
عبد النبيّ المغربي: ١٠٠٤
عبدالواحد بن إسماعيل = الروياني: ٨٣٩
عبدالواحد بن الحسين الصيمري: ٦٧٥
عبدالواحد بن عاشر: ١٠٧٢
عبدالواحد بن محمد: ٦٦٤
عبدالوارث بن حسن = ابن معتب: ٧٠٨
عبدالوهاب بن سليمان بن عليّ: ١١٥٧
عبدالوهاب بن عبدالواحد: ٨١٩
عبدالوهاب بن محمد بن رامين: ٦٧٩
عبدالوهاب بن النحاس: ٧٩٤
عبدالوهاب بن نصر: ٦٧٠
عبيدالله بن الحسن = ابن الجلاّب: ٦٦٩
عبيدالله بن الحسين الكرخي: ٥٨٩
عبيدالله بن عبدالله بن عتبة: ٢٠٢
عبيدالله بن عمرو السلماني: ٢٤٦
عبيدالله بن محمد العكبري: ٦٧٩
أبو عبيد القاسم بن سلاّم: ٣٦١
العتبي: محمد بن أحمد: ٤٩٠
عثمان بن سعيد بن كثير: ٨٠٣
عثمان بن عبدالرحمٰن الشهرزوري: ٨١٦
عثمان بن عبدالحكم الجذامي: ٤٤٨
عثمان بن عبدالله الدمشقي: ١١٣٢
عثمان بن عيسى بن درباس: ٨٠٢
عثمان بن عيسى بن كنانة: ٤٤٣
عثمان بن مالك: ٧١٧
عرب شاه: تاج الدين عبدالوهاب: ٩٨٢
عروة بن الزبير: ١٩٠
عزّ الدين بن إبراهيم العسقلاني: ٩٧٣
عزّ الدين عبدالسلام بن وجيه الدين: ١١٢٣
عزّ الدين محمد بن أحمد النويري: ١١٣٧
عطاء بن أبي رباح: ٢٢٨
ابن عطاء الله الإسكندري: ٧٩٩
عطاء بن أبي مسلم الخراساني: ٣٠٧
ابن أبي عصرون: عبدالله بن محمد: ٨١٢
عفيفة بنت أحمد: أمّ هانىء الفارفانية: ٩١٩
عفيف الدين عبدالله الشحري: ١١٢٢
عقبة بن عامر: ٢٩١
عكرمة: مولى ابن عباس: ٢٢٦
علاء الدين حجي بن موسى: ٩٨٩

علاء الدين الرومي: ١١٦٦
علاء الدين عليّ بن يوسف: ١١٦٥
علاء الدين عليّ البكائي: ١١٦٥
علاء الدين عليّ بن سليمان المرداوي: ٩٧٤
علاء الدين عليّ بن محمود الهروي: ١٠٢٣
علاء الدين علي النويري: ١١٤٨
علاء الدين علي بن يحيى السمرقندي: ١٠٢٥
علاء الدين الكاساني: ٨٠٨
علاء الدين بن محمد بن أحمد السمرقندي: ٨٥٠
ابن علاق الغرناطي: محمد بن علي: ١٠٩٩
علقمة النخعي: ٢٤٤
ابن علويه الأبهري: ٦٦٨
عليّ بن أحمد التجيبي: ٨٦٤
عليّ بن أحمد بن جمال الدين: ١١٥٧
عليّ بن أحمد الدامغاني: ٨٢٧
عليّ بن أحمد بن سعيد = ابن حزم الظاهري: ٧٣٦
عليّ بن أحمد العدوي الصعيدي: ٩٥٨
عليّ بن أحمد الكوفي: ٦٠٢
عليّ بن أحمد النعيمي: ٦٩٠
عليّ بن إسماعيل الأبياري: ٧٩٧
عليّ بن أسباط: ٥٤٤
عليّ أصغر بن عبدالصمد البكري: ١١٧٣
عليّ أكبر بن محمد باقر الإيجي: ١٠٢٨
عليّ بن برهان الدين المرغيناني: ٨٥١
عليّ بن أبي بكر ـ الجمال المصري ـ: ١١٤٢
عليّ بن بلال الآملي: ٧٤٠
عليّ بن جار الله ابن ظهيرة: ١١٣٠
أبو عليّ الحسن اليوسي: ١٠٧٣
عليّ بن الحسين بن حرب: ٥٨٢
عليّ بن الحسين بن عليّ: ١٩٥
عليّ بن الحسين الموسوي: ٦٨٥
أبو عليّ ابن خلدون: ٧١٤
أبو عليّ الداودي: ٦٩١
عليّ بن محمد بن أحمد الحسني: ١٢٩٧
عليّ بن محمد البزدوي: ٨٤٩
أبو عليّ المروروذي: ٦٩٩
عليّ الرضا: ٥٤٣
عليّ بن أبي رافع: ٣١٧
عليّ بن زياد التونسي: ٤٦٥
أبو عليّ السنجي: ٦٩٦
عليّ السويدي البغدادي: ١٠٠٧
عليّ بن أبي طالب: ٢٣٧
عليّ بن عبدالقادر: ١٠٨٥
عليّ الكردي: ١٣٠٢
عليّ بن عبدالله بن إبراهيم = المتيطي: ٨٦٦
عليّ بن عبدالله البصير: ٩٨٣
عليّ بن أبي عبدالله الدامغاني: ٨٢٧
عليّ بن عبدالواحد السجلماسي: ١٠٨٤

عليّ بن عقيل بن محمد: ٨٣٢
عليّ بن عمر بن أحمد = ابن القصّار: ٦٦٩
عليّ بن فتح بن عبدالله: ٨٦٥
عليّ القلصادي: أبو الحسن: ١١٠٤
عليّ بن محمد = الماوردي: ٦٧٦
عليّ بن محمد الاستانبولي: ٩٤٨
عليّ بن محمد بن إسحاق: ٦٦٣
عليّ بن محمد البصري: ٦٧٣
عليّ بن محمد بن خلف = ابن القابسي: ٧٠٨
عليّ بن محمد الربعي = اللخمي: ٨٥٥
عليّ بن محمد الزرويلي: ١٠٦٥
عليّ بن محمد الشوكاني: ١١١٤
عليّ بن محمد عليّ بن جميل: ٨٢٥
عليّ بن محمد بن عيسى العدني: ١١٤٠
عليّ بن محمد ابن فرحون: ١١٤٣
عليّ بن محمد بن كاس: ٥٨٧
عليّ بن محمد بن ناصر الدين المنوفي: ٩٥٥
عليّ بن محيي الدين الشيرازي: ١٠١٩
عليّ بن مخلوف النويري: ٩٥١
عليّ بن موسى بن يزداد القمّي: ٦٠٨
عليّ بن النعمان: ٦٥٨
عليّ بن يوسف الدرويش: ١٠٥٨
عماد الدين محمد بن حزب الله = ابن الحاج: ١٠٩٧
عماد الدين محمد بن يونس الأربلي: ٨١٤
عمر بن أحمد بن عمّار الميساوي: ١٣٢٧
عمر بن أسعد بن المنجي: ٨٥٢
عمر بن إسماعيل بن يوسف: ٨٧٥
عمران بن موسى الطرابلسي: ٨٦٧
عمرة بنت عبدالرحمٰن: ٢٠٥، ٣٢٨
عمر بن حسين الآمدي: ١١٧١
عمر بن أبي الحسين ابن الصابوني: ٧٢٠
عمر بن الحسين بن عبدالله: ٥٨٧
عمر بن الخطاب: ١٦٧
عمر ابن الشيخ: ١٣٠٦
عمر بن عبدالرحمٰن السعيدي: ١٠٨٧
عمر بن عبدالعزيز بن مازة: ٨٤٨
عمر بن مجد السراج اليماني: ١١١٩
عمر بن محمد بن أحمد المسلاتي: ١٣٢٦
عمر بن محمد بن معيبد السراج: ١١٢٠
عمر بن محمد بن يوسف ابن حمّاد: ٥٩٥
عمرو بن الحارث: ٣٦٢
عمرو بن دينار: ٢٣٠
عمرو بن مقدام: ثابت بن هرمز: ٣١٧
عمرون بن محمد بن عمرون السوسي: ٧١٥
عناية الله بن عبدالله الوابكني: ١٠٢٧
أبو عون عبدالله بن عون: ٣٦٠
عياض بن موسى اليحصبي: ٨٥٨
عيسى بن إبّان اليحصبي: ٤٢٦
عيسى بن أحمد الغبريني: ١٠٣٦
عيسى بن دينار: ٤٨٣
عيسى بن سعادة السجلماسي: ٦٢٠

عيسى بن عكاس: ١٣٠٣
عيسى بن علاء: ٦١٩
عيسى بن مسعود الزواوي: ٩٥١
عيسى بن مسكين: ٦١٣
عين شمس بنت أحمد ابن أبي الفرج: ٩١٩

- غ -

ابن غازي: محمد بن أحمد: ١٠٧٠
ابن غانم عليّ بن محمد المقدسي: ٩٤٨
غلام الخلّال: عبدالعزيز بن جعفر بن أحمد: ٥٩٩
غيّاث الدين محمد الواسطي: ١٠٠٩

- ف -

فاطمة بنت سعد الخير: ٩١٩
فاطمة بنت علاء الدين السمرقندي: ٩١٩
فاطمة بنت عيّاش البغدادية: ١٢٣٢
فاطمة بنت المهدي: ١٢٣٥
فتيان بن أبي السمح: ٤٥٦
فتيان بن مباح الحراني: ٨٥١
ابن الفخّار: محمد بن عمر: ٧٣٠، ٧٤١
فخر الدين إسماعيل بن يحيى الشيرازي: ١٠١٩
فخر الدين طريح بن محمد النجفي: ١٠١٧
فخر الدين عبدالرحيم بن عبدالكريم: ٨٥٤
فخر الدين محمد بن تيمية: ٨٥٣
فخر الدين ابن هبة الله: ٨١٥
فرات بن إبراهيم بن فرات: ٦٠٢
أبو الفرج القامي: ٦٩١
الفضل بن شاذان: ٥٤٤
أمّ الفضل كريمة القرشية: ٩٢٠
فضل بن نصر التاهرتي = ابن الرايس: ٦٢١
ابن أبي الفهم التنوخي: ٥٨٧
ابن فورك: محمد بن الحسن: ٦٩٤

- ق -

ابن القابسي: عليّ بن محمد بن خلف: ٧٠٨
القاسم بن إبراهيم: ٥٤٤
قاسم بن أصبغ: ٦٢٧
أبو القاسم البرزلي: ١٠٣٩
قاسم بن سعيد العقباني: ١٠٨٢
قاسم بن زرّوق: ١٠٤٣
القاسم بن محمد: ٢٠٠
القاسم بن محمد الجمحي: ٧٣٩
قاسم بن محمد بن قاسم بن سيّار: ٦٣٠
القاسم بن عليّ: المنصور بالله العياني: ٧٤٠
قاسم بن قطلوبغا: ٩٤٥

قارىء الهداية: سراج الدين عمر بن علي: ٩٤٣
قاضي زادة: شمس الدين أحمد: ١١٦٩
ابن قاضي شهبة: تقيّ الدين بن شهاب الدين: ٩٩٢
قبيصة بن ذؤيب: ٢٠٧
قتادة بن دعامة السدوسي: ٢٧٥
قرة جلبي زادة: عبدالعزيز بن حسام الدين: ١١٧٠
القزديري: عبداللطيف بن حسن الجالقي: ٩٨٣
ابن القصّار: عليّ بن عمر: ٦٦٩
قصير الحنفي: ١٠٢٦
قطب الدين محمد بن سلطان: ٩٨٢
قطب الدين محمد بن علاء الدين الهندي: ١١٣٠
القفال الشاشي: محمد بن عليّ: ٦٠٥
القفّال المروزي الصغير: أبو بكر عبدالله: ٦٩٥
أبو قلابة: عبدالله بن زيد: ٢٦٧
قمير بنت عمرو الكوفية: ٣٣٠
ابن قيّم الجوزيّة: شمس الدين محمد بن أيّوب: ٩٩٦
قيس بن أبي حازم: ٢٥٠

- ك -

كثيرة بن مرّة: ٢٨٧
أبو كريب: جميل بن كريب: ٣٠٤
كريمة بنت عبد الوهاب القرشية: ٩٢٠
كريمة المروزيّة: أمّ الكرام: ٧٧٠
كمال الدين ابن العديم: ٧٩٤، ٨٠٩
كمال الدين محمد بن عبدالله الموصلي: ٨١١
كمال الدين محمد بن عبدالواحد = ابن الهمام: ٩٤٣
كمال الدين محمد بن يوسف الربعي: ٩٩٢
كمال الدين موسى البكري: ١١٢٢

- ل -

ابن لبّ: فرج بن قاسم: ١٠٩٧
اللبيدي: عبدالرحمٰن بن محمد: ٧١٠
لقمان بن يوسف: ٦٢٣
ابن لهيعة: عبدالله بن عقبة: ٣٦٢
الليث بن سعد: ٤٠٦
ابن أبي ليلى: محمد بن عبدالرحمٰن: ٣٦٠

- م -

ماجد بن هاشم البحراني: ١٠٢٨
المازري: محمد بن عليّ: ٨٥٦
ابن ماكولا: ٦٨٨
مالك بن أنس: ٣٧٧
الماوردي: عليّ بن محمد: ٦٧٦
المبارك بن عليّ الطباخ: ٨٧٧
المتيطي: عليّ بن عبدالله: ٨٦٦
مجاهد بن جبر: ٢٢٤

محمد بن إبراهيم ابن ظهيرة: ١١٣٦
محمد بن إبراهيم بن عليّ بن المرتضى: ١١٠٨
محمد بن إبراهيم بن فتاتة: ١٠٤٤
محمد بن إبراهيم بن المنذر: ٥٧٢
محمد بن إبراهيم بن عبدالواحد: ٨٢٢
محمد بن أحمد البغدادي: ٦٣٣، ٦٨٠
محمد بن أحمد البهوتي: ٩٧٨
محمد بن أحمد الحسني الفاسي: ١١٥١
محمد بن أحمد بن الحداد: ٥٨٣
محمد بن أحمد الرهوني: ١٠٧٦
محمد بن أحمد الزليطني: ١٠٨٦
محمد بن أحمد الزهري: ابن محرز: ٨٦٥
محمد بن أحمد بن أبي سعد: ٨٤٦
محمد بن أحمد بن سهل = السرخسي: ٨٤٧
محمد بن أحمد الطبري: ١١٣٤
محمد بن أحمد بن عبدالعزيز = العتبي: ٤٩٠
محمد بن أحمد بن عبدالله الأموي: ٦٢٩
محمد بن أحمد بن عبدالله المروزي: ٦٠٦
محمد بن أحمد بن عرفة = الدسوقي: ٩٥٩
محمد بن أحمد عظوم: ١٠٤٠
محمد بن أحمد بن عليّ الفاكهي: ١١٥٧
محمد بن أحمد بن عيسى البغدادي: ٦٦٢
محمد بن أحمد الغباري: ٦٨٢
محمد بن أحمد بن قدامة: ٨٢٤
محمد بن أحمد القرشي: ١١٢٩
محمد بن أحمد بن مجاهد: ٦٦٩
محمد بن أحمد المرداوي: ٩٧٨
محمد بن أحمد بن مساهل: ١٠٨٨
محمد بن أحمد بن موسى السخاوي: ١١٥٠
محمد بن أحمد النيسابوري: ٨٧٧
محمد بن أحمد ابن الوشاء: ٦٦١
محمد بن إدريس الشافعي: ٣٩٠
محمد بن إسحاق بن خزيمة: ٥٧١
محمد بن أسعد الصديقي = جلال الدين الدواني: ١٠٢٠
محمد بن إسماعيل بن صلاح: ١١١٣
محمد الأشموني: ١٢٩١
محمد بن أصبغ: ٨٧٠
محمد أفندي بن أحمد أفندي: ١٠٥٤
محمد الباقر بن عليّ بن الحسين: ٢٠٨
محمد باقر بن محمد تقيّ الأصبهاني: ١٠٢٨
محمد بن بدر الدين البلباني: ١٠٠٠
محمد برناز: ١٠٥٥
محمد بن أبي بكر عاصم: أبو يحيى: ١١٠٢
محمد بن أبي بكر القرشي: ١١٤٠
محمد بن أبي بكر الهمذاني: ١٠٢٧
محمد بيرم الأوّل: ١٠٦١

محمد بيرم الثالث: ١٠٦٢
محمد بيرم الثاني: ١٠٦١
محمد بيرم الرابع: ١٠٦٢
محمد التاودي: ١٠٧٥
محمد بن تقيّ الدين عبدالباقي: ١٠٠٠
محمد تقيّ الكاشاني: ١٠٢٩
محمد بن جرير الطبري: ٥٦٧
محمد بن جزي الكلبي: ١٠٩٥
محمد بن جعفر بن إسماعيل: ٦٠٨
محمد بن حبّان السمرقندي: ٥٧٠
محمد بن الحسن = ابن فورك: ٦٩٤
محمد بن الحسن بن إبراهيم: ٦٨٨
محمد بن الحسن البناني: ١٠٥٧
محمد بن الحسن الحجوي: ١٣٢٢
محمد بن الحسن الشيباني: ٤٢٢
محمد بن الحسن الطوسي: ٦٨٦، ٨٣٨
محمد بن الحسن بن عليّ الطوسي: ٦٨٦
محمد بن حسن الهدّة: ١٠٤٥
محمد بن الحسين = أبو يعلى الفرّاء: ٦٨١
محمد بن حسين البارودي: ١٠٥٨
محمد بن حسين بن ظهيرة: ١١٣٤
محمد بن الحسين بن فرّوخ: ٦١٠
محمد حسين بن مصطفى برناز: ١٠٥٧
محمد بن حمودة برتقيز: ١٠٦٤
محمد بن حميدة ابن الخوجة: ١٠٦٠
محمد بن حيدرة: ٨٣٩
محمد بن خالد البرقي: ٥٤٣
محمد الخضر حسين: ١٣١٢
محمد بن خليل غلبون: ١٠٨٩
محمد بن داود الظاهري: ٦٠٠
محمد أبو راس: ١٠٨٥
محمد رضيّ الدين ابن أبي الخير: ١١٤٦
محمد أبو زهرة: ١٣٠٠
محمد بن زهيّر بن أخطل: ٧٠١
محمد بن زاكور: ١٠٧٤
محمد زيتونة: ١٠٤٥
محمد بن سحنون: ٤٧٦
محمد بن أبي السرور البهوتي: ٩٧٩
محمد بن سعدون الميروقي: ٨٧٣
محمد بن سعيد بن شرف الأجدابي: ٧١٤
محمد سعيد الزواوي: ١٠٨٥
محمد بن سلامة القضاعي: ٦٦٢
محمد بن سليمان بن سعيد: ١١٦٣
محمد بن سليمان بن سومر: ١٠٠٢
محمد بن سليمان الصعلوكي: ٦٠٧
محمد بن سليمان المناعي: ١٠٤٧
محمد بن سليمان النعالي: ٦٦١
محمد بن سماعة: ٤٢٦
محمد السنوسي ابن مهنيّة: ١٠٤٩
محمد بن السيّد عبدالرسول بن قلندر: ١١٤٢
محمد بن سيرين: ٢٧٣
محمد بن شجاع: ٤٢٧
محمد بن شعبان: أبو عبدالله: ١٠٥٥

محمد بن شعبان الطرابلسي: ١٠٨٨
محمد بن شهاب الدين الخافي: ١٠٢٥
محمد ابن شهاب الدين الطوسي: ٨٠١
محمد بن صالح بن أمّ شيبان: ٦٦٨
محمد صالح بن محمد إسماعيل البرغاني: ١٠٢٩
محمد بن صالح بن ملوكة: ١٠٥١
محمد صنع الله الخالدي: ٩٩٣
محمد الطاهر بن عاشور الأوّل: ١٠٥٢
محمد الطاهر بن عاشور الثاني: ١٣١٤
محمد بن الطيّب = الباقلاني: ٦٦٩
محمد بن الفضل النيسابوري: ٨٧٧
محمد ابن عابدين: ١٣٠١
محمد بن عاصم: أبو بكر: ١١٠٠
محمد بن عاصم: أبو يحيى: ١١٠٠
محمد العباسي المهدي: ١٢٩٢
محمد عبده: ١٢٩٥
محمد بن عبدالجبّار الرعيني: ٨٦١
محمد بن عبدالحفيظ النعاس: ١٠٨٩
محمد عبدالحيّ بن أحمد الدمشقي: ١٠٠٠
محمد بن عبدالغفّار العلماوي: ٨٥١
محمد بن عبدالرحمٰن التاجي: ٩٨٤
محمد بن عبدالرحمٰن بن أبي الخير: ١١٤٦
محمد بن عبدالرحمٰن الرعيني: ١١٤٨
محمد بن عبدالرحمٰن الغزّي: ٩٩٣
محمد بن عبدالرزاق اليشتي: ١٣٢٣
محمد بن عبدالسلام البناني: ١٠٧٤
محمد بن عبدالسلام الهواري: ١٠٣٢
محمد بن عبداللطيف الخجندي: ٨٤٠
محمد بن عبدالله الأبهري: ٦٦٧
محمد بن عبدالله بن أحمد البزّاز: ٦٧٤
محمد بن عبدالله الإسكندري: ابن عين الدولة: ٨٠٣
محمد بن عبدالله البصري: ٦٧٣
محمد بن عبدالله البلخي: ٦٠٨
محمد بن عبدالله البيضاوي: ٦٧٩
محمد بن عبدالله الخرشي: ٩٥٨
محمد بن عبدالله الزركشي: ٩٧٢
محمد بن عبدالله بن أبي السعادات: ٨٣٨
محمد بن عبدالله بن شوعان: ١١٢٤
محمد بن عبدالله الصيرفي: ٥٨٤
محمد بن عبدالله بن عيسى = ابن أبي زمنين: ٧٣٠
محمد بن عبدالله بن محمد: ٦٣٦
محمد بن عبدالله بن يحيى: ٦٢٦
محمد بن عبدالله بن يونس التميمي: ٧٢٣
محمد عبدالمعطي بن أحمد السخاوي: ١١٥١
محمد بن عبدالملك الكرجي: ٨٤٦
محمد بن عبدالمنعم الأسدي: ٦٧٢
محمد بن عبدوس: ٤٧٨
محمد بن عبدون بن أبي ثور: ٦٢٣
محمد بن عبدالوهاب: ١١٥٨
محمد بن عبدويه: ٨٧٤

محمد بن عتاب بن محسن: ٧٣٢
محمد بن عرفة الورغمي: ١٠٣٣
محمد بن عطاء الله الهروي: ١٠٢٤
محمد بن عطيّة البصري: ٦٦٩
محمد علاء الدين بن محمد أمين عابدين: ١٣٠٠
محمد بن عليّ بن الأزرق: ١١٠٥
محمد بن عليّ بن إسماعيل = القفال الشاشي: ٦٠٥
محمد بن عليّ بن الحسين القمّي: ٦١٠
محمد بن عليّ الخروبي: ١٠٨٣
محمد بن عليّ الدامغاني: ٦٦٦
محمد بن عليّ بن سهل النيسابوري: ٦٩٣
محمد بن عليّ السنوسي: ١٠٩٠
محمد بن عليّ الشوكاني: ١١١٤
محمد بن عليّ بن الفخار: أبو بكر: ١٠٩٤
محمد بن عليّ بن الفخار: أبو عبدالله: ١٠٩٦
محمد بن عليّ النويري: ١١٣٦
محمد ابن العماد المقدسي: ٨٠٧
محمد بن عمر بن الأخضر: ٦٨٤
محمد بن عمر الواقدي: ٤٩٨
محمد العميدي السمرقندي: ٨٥٠
محمد بن عيسى = ابن زويع: ٨١٧
محمد بن عيسى التميمي: ٨٦٦
محمد بن عيسى المعافري: ٤٨٥
محمد بن مصطفى الطنطاوي: ١٢٩١
محمد بن مصطفى العمادي: ١١٦٩
محمد مصطفى المراغي: ١٢٩٩
محمد الفاضل بن عاشور: ١٣١٨
محمد فيظي: ١٣٠١
محمد بن القاسم بن شعبان: ٥٨١
محمد كامل بن مصطفى: ١٣٢٤
محمد بن اللبّاد = أبو بكر: ٦١٦
محمد بن المبارك: ٨٣٠
محمد محبّ الدين ابن أبي الخير: ١١٤٦
محمد المحجوب: ١٠٥٧
محمد ابن المحجوبة: ١٠٥٦
محمد بن محمد بن أحمد السخاوي: ١١٥٠
محمد بن محمد بن أحمد المروزي: ٦٠٧
محمد بن محمد الحطاب: ١١٤٩
محمد بن محمد الخضراوي: ١٠٤٥
محمد بن محمد الدوكالي: ١٠٧٦
محمد بن محمد الربعي التونسي: ١٠٠٤
محمد بن محمد السرقسطي: ١١٠٢
محمد بن محمد بن سفيان: ٥٨٧
محمد بن محمد الطيّب التلافلاتي: ٩٨٤
محمد بن محمد الطيّب بن سلامة: ١٠٥١
محمد بن محمد بن عبدالله ابن فرحون: ١١٤٥
محمد بن محمد العلاء البخاري: ١٠٢٦

محمد بن محمد بن عليّ الإسفراييني: ١٠٢٢
محمد بن محمد بن عليّ النويري: ١١٣٧
محمد بن محمد الفطيسي: ١٠٩٠
محمد بن محمد أكمل الدين: البابرتي: ٩٤٢
محمد بن محمد بن محمش الزيادي: ٦٩٥
محمد بن محمد المكني: ١٠٨٨
محمد بن محمد أبو منصور الأزدي: ٧٠٠
محمد بن محمد بن منصور البكوش: ١٣٣٠
محمد بن محمد بن النعمان: ٦٨٥
محمد بن محمود بن بون الخوارزمي: ١١٢٨
محمد بن مصطفى الأزهري: ١٠٥٥
محمد بن مصطفى البارودي: ١٠٥٩
محمد بن مصطفى حميد الكفوي: ١١٣٢
محمد بن مقاتل: ٤٢٧
محمد بن المنكدر: ٢١٦
محمد المهدي الوزاني: ١٣٢١
محمد بن موسى الخوارزمي: ٦٦٥
محمد ميارة: ١٠٧٢
محمد النجار: ١٣٠٨
محمد بن نصر المروزي: ٦٠٣
محمد بن النعمان: ٦٥٨
محمد بن هارون الكتاني: ١٠٣٣
محمد بن هبة الله: ٨١٠
محمد بن يحيى الزيدي: ١١٠٧
محمد بن يبقى = ابن زرب: ٧٢٦
محمد بن يحيى: بهران الزيدي: ١١١٠
محمد بن يحيى بن الحسين: ٦٣٨
محمد بن يحيى بن عمر = البربري: ٦٢٦
محمد بن يعقون بن إسحاق: ٦٠٢
محمد بن أبي يعلى الفرّاء: ٨٣٤
محمد بن يوسف بن مطروح: ٤٨٩
محمد بن يوسف: ٥٩٤
محمد بن يوسف الإسبيري: ٩٨٤
محمود الحمزاوي: ١٣٠٠
محمود شكري الآلوسي: ١٣٠٢
النووي: محيي الدين بن شرف: ٩٨٥
محيي الدين عبدالقادر بن سراج الدين الفاسي: ١١٥٦
محيي الدين عبدالقادر العبادي: ١١٥٣
محيي الدين عبدالقادر بن محمد الفاسي: ١١٥٥
محيي الدين بن فضلان: ٨٣١
محيي الدين محمد بن عليّ القرشي: ٨١٣
محيي الدين محمد بن يحيى النيسابوري: ٨٤٤
مريم ستّ القضاة: ١٢٣٣
ابن مرتنيل: عبدالله بن محمد بن خالد: ٤٨٨
مرثد بن عبدالله: ٢٩٢
مرعي بن يوسف المقدسي: ٩٧٨

أبو مروان المالكي: ٧٤٠
المزني: إسماعيل بن يحيى: ٥٢٩
ابن مزين: يحيى بن إبراهيم: ٤٨٨
مسروق بن الأجدع الهمداني: ٢٤٥
مسلم بن يسار: ٢٧٤
مصطفى بن عبدالكريم: ١٠٥٦
مصطفى بوغازلي: ١٠٥٨
مصطفى بن محمد البارودي: ١٠٥٩
مصطفى بن محمد بيرم: ١٠٦٣
أبو مصعب: أحمد بن أبي بكر: ٤٤٧
مصلح الدين مصطفى الرومي: ١١٦٤
مطرف بن عبدالله: ٤٤٦
ابن معتب: عبدالوارث بن حسن: ٧٠٨
معاذ بن جبل: ٢٨٠
معاذة بنت عبدالله العدوية: ٣٢٩
المعلّى بن منصور: ٤٢٥
معمر بن راشد الأزدي: ٣٦٣
معن بن عيسى: ٤٤٦
المغيرة بن عبدالرحمٰن المخزومي: ٤٤٢
المغيرة بن مقسم: ٢٥٩
مفتي شيخ الرومي: عبدالكريم: ١١٦٨
المفضل بن إسماعيل = أحمد بن إبراهيم بن الإسماعيلي: ٦٨٨
المفضل بن محمد بن مسعود التنوخي: ٦٦٣
مكحول بن عبدالله: ٢٨٨
ابن مكوى: أحمد بن عبدالملك: ٧٢٧
مكّي بن أبي طالب: ٧٤١
ابن أبي مليكة: ٢٣١
منذر بن سعيد البلوطي: ٦٣٤
منصور بن إسماعيل بن عمر: ٥٨٢
منصور بن عمر الكرخي: ٦٧٩
منلا حنفي: محمد التبريزي: ١٠٢٦
منلا خسرو: محمد بن فرامرز: ١١٦٢
المنلا عبدالرحمٰن البغدادي: ١٠١٠
منلا عليّ قاري الهروي: ١١٣١
المنلا مختار بن فتحي البغدادي: ١٠٠٧
ابن المنمر: عليّ بن محمد: ٧٢١
ابن المنير: عليّ بن محمد بن منصور: ٩٥٠
مهدي بن حسن بن أحمد القزويني: ١٠١٧
ابن الموّاز: محمد بن إبراهيم: ٤٦١
المواق: محمد بن يوسف: ١١٠٥
موسى بن أحمد الحجاوي: ٩٩٩
موسى بن أحمد ـ ابن الزين اليماني ـ: ١١١٠
أبو موسى الأشعري: ٢٦٠
موسى بن أبي الجارود: ٥٣١
موسى بن سليمان: ٤٢٥
أبو موسى عمران الهواري: ١٠٨٦
موسى بن فرج الهواري: ٧٢٣
موسى الكاظم: ٥٤٢
موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي: ٧١٦
موسى بن يحيى الصديني: ٧١٥
موفّق الدين سلامة بن صدقة: ٨٥٢
موفّق الدين عبدالله بن أحمد: ٨٢٣

موفّق الدين عبدالله بن محمد: ٩٧٦
موفّق الدين عبدالله المقدسي: ٩٧٢
موفّق الدين علي اليمني الناشري: ١١١٩
موهب بن حيي: ٣٠٠
مير غياث الدين منصور الشتكي: ١٠٢٧

- ن -

ابن ناجي القيرواني: قاسم بن يحيى: ١٠٣٧
ناصر بن الحسين العمري: ٧٠٠
ناصر الدين الزواوي: ١٠٧٨
ناصر الدين اللقاني: ٩٥٥
ناصر الدين نصر الله العسقلاني: ٩٧٣
نافع مولى ابن عمر: ٢٠٦
نامي الأربيلي: ١٠٠٧
نجم الدين أحمد النميري: ٩٧٢
نجم الدين الخبوشاني: ٨٠١
نجم الدين خضر بن شمس الدين النجفي: ١٠١٧
نجم الدين بن عبدالوهاب: ٨٢٠
نجم الدين محمد بن محبّ الدين الطبري: ١١٣٣
ابن النحوي: يوسف بن محمد: ٨٦٢
النسفي: عمر بن محمد بن أحمد: ٨٥٠
نسيم الدين محمد بن سعيد الكازوني: ١٠٢٠، ١١٣٩
أبو نصر السرخسي: ٦٩٨
نصر بن عبدالرزاق الجبلي: ٨٣٧
نصر بن فتيان بن مطر: ٨٣٥
نصر الله بن محمد اللاذقي: ٨١١
نصير الدين أحمد بن عبدالسلام بن عكبر: ١٠١٤
نظام الدين عبدالحيّ الجرجاني: ١٠٢٢
نفيس الدين: أبو الحرم مكّي: ٧٩٦
النعمان بن محمد: ٦٢٤
نعمان بن محمود الآلوسي: ١٣٠٢
نوح بن مصطفى القونوي: ٩٤٩
نور الدين عليّ الأجهوري: ٩٥٧
نور الدين عليّ الحسني: ١١٤٠
ذو النون بن أحمد السرماري: ١٠٢٦

- هـ -

هارون بن عبدالله الزهري: ٤٩٩
هارون بن نصر القرطبي: ٦٣١
أبو هريرة: ١٨٠
هشام بن عبيدالله: ٤٢٥
هلال بن يحيى: ٤٢٧
ابن الهمام: كمال الدين محمد: ٩٤٣

- و -

وجيه الدين عبدالرحمٰن بن حسين اليمني: ١١٢٣
وجيه الدين القوصي: ٧٩٤
ابن الوزّان الرازي: عماد الدين محمد: ٨٤١

أبو الوليد الباجي: سليمان بن خلف: ٧٣٤
وليّ الدين عبدالوليّ الخولاني: ١١١٨
الونشريسي: أحمد بن يحيى: ١٠٦٩
وهب بن منبه: ٢٩٥
ابن وهب: أبو وهب عبدالأعلى: ٤٨٨

- ي -

يحيى بن إبراهيم = ابن مزين: ٤٨٨
يحيى بن إبراهيم الخجندي: ١١٣٠
يحيى الأهدل: ١١١٢
يحيى بن الحسين بن القاسم: ٥٤٥، ٦٣٧
يحيى بن حمزة بن عليّ: ١١٠٨
يحيى بن سالم بن سعيد العمراني: ٨٧٤
يحيى بن سعيد الأنصاري: ٣٠٤
يحيى بن صالح الصنعاني: ١١١٤
يحيى بن عبدالعزيز: ٦٣١
يحيى بن عبدالرحمٰن بن وافد: ٧٢٩
يحيى بن عبدالله بن بكير: ٤٥٦
يحيى بن عبدالله بن يحيى الليثي: ٦٢٨
يحيى بن عمر: ٦١٤
يحيى المازوني: ١٠٨٣
يحيى بن محمد بن محمد الحطاب: ١١٥٠
يحيى بن معمر: ٤٨٧
يحيى بن يحيى بن بكير: ٤٩٨
يحيى بن يحيى الليثي: ٤٨٤
يخشى الخليفة الأماسي: ١١٦٦
يزيد بن أبي حبيب: ٢٩٢
يعقوب بن شيبة: ٥٠٠
أبو يعلى الصغير: محمد بن أبي خازم: ٨٣٥
أبو يعلى الفرّاء: ٦٨١
يوسف بن أحمد بن كجّ: ٦٨٩
يوسف بن حمّود بن خلف: ٧١٨
يوسف بن القاسم الميانجي: ٦٦٣
يوسف بن عبدالله بن محمد = ابن عبدالبرّ: ٧٣٣
يوسف بن عمر بن محمد بن يوسف: ٥٩٦، ٦٠١
يوسف بن عمرو بن يزيد الفارسي: ٤٥٦
يوسف بن محمد = ابن النحوي: ٨٦٢
يوسف بن محمد برتقيز: ١٠٦٤
يوسف بن محمد بن سليمان الهمذاني: ٧٣٦
يوسف بن يحيى البويطي: ٥٢٨
أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم: ٤٢١
يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حمّاد: ٥٩٤
يونس بن عبدالأعلى الصدفي: ٤٦٣، ٥٣٠



★ الأسر العلميّة

الأزجي: ٦٨٤
الإسماعيلي: ٦٨٦
البارودي: ١٠٥٨
برتقيز: ١٠٦٤
بيرم: ١٠٦٠
ابن تيميّة: ٨٥٣
ابن جهبل: ٨١٢
الجيلي: ٦٨٤
ابن الحنبلي: ٨١٩
ابن الخوجة: ١٠٦٠
الدامغاني: ٨٢٧
ابن الذكي: ٨١٣
السمعاني: ٨٤٥
الطبري: ١١٣٣
ابن ظهيرة: ١١٣٤
ابن عابدين: ١٣٠٠
ابن عبدالواحد: ٨٢١
ابن العديم: ٨٠٩
العكبري: ٦٨٢
الفرّاء: ٦٨٣، ٨٣٤
ابن فرحون: ١١٤٣
النويري: ١١٣٦، ١١٤٧



المصادر والمراجع[1]

- أ -

* **الآمدي**: أبو الحسن سيف الدين ت ٦٣١هـ.

١ - **الإحكام في أصول الأحكام.**

دار الكتب العلميّة، بيروت، طبعة ١٤٠٣/١٩٨٣، راجعها جماعة من العلماء بإشراف الناشر.

* **ابن الأبـار**: محمد بن عبدالله القضاعي ت ٦٥٨هـ.

٢ - **الحلّة السيراء.**

حققه وعلق حواشيه: الدكتور حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، مصر، ط ١٩٦٣/١.

* **ابن الأثير**: عز الدين الشيباني ت ٦٣٠هـ.

٣ - **أسد الغابة في معرفة الصحابة.**

تحقيق: محمد إبراهيم البنّا ومحمد أحمد عاشور، دار الشعب، مصر.

٤ - **الكامل في التاريخ.**

دار بيروت، ط - ١٣٨٦/١٩٦٦.

* **الإمام أحمد**: أبو عبدالله ابن حنبل ت ٢٤١هـ.

٥ - **المسند.**

تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط ١٣٦٩/١٩٥٠.

* **أرنولد**: هـ قرين.

---

(١) * التجأت في بعض الأحيان إلى اعتماد طبعتين مختلفتين للكتاب الواحد نظراً لطول المدّة التي استغرقها إخراج هذا التأليف، وقد أشرت إلى ذلك في محاله.

٦ ـ **العلماء التونسيون ١٨٧٣/١٩١٥.**
ترجمة حفناوي عمايرية وأسماء معلّى، دار سحنون والمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة» ط ١ ـ ١٤١٦/ ١٩٩٥.

* **الأزهري:** محمد البشير ظافر.

٧ ـ **اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة.**
دار الآفاق العربيّة، ط ١، سنة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

* **إسماعيل:** شعبان محمد.

٨ ـ **تهذيب شرح الأسنوي على منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي.**
مكتبة جمهورية مصر، ومكتبة الكليات الأزهريّة بالقاهرة.

* **إسماعيل:** فادي.

٩ ـ **الخطاب العربي المعاصر، قراءة نقديّة في مفاهيم النهضة والتقدّم والحداثة ١٩٧٨ ـ ١٩٨٧.**
المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ط ٢، ١٤١٣/١٩٩٣.

* **إسماعيل:** موسى.

١٠ ـ **عمل أهل المدينة وأثره في الفقه الإسلامي.**
دار ابن حزم، بيروت، ودار التراث ناشرون، الجزائر، ط ١، ١٤٢٤/٢٠٠٤.

* **الأشقر:** محمد سليمان.

١١ ـ **أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام الشرعيّة.**
مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨/١٩٨٨.

* **أغابزرك الطهراني:** محمد محسن.

١٢ ـ **نقباء البشر في القرن الرابع عشر.**
المطبعة العلميّة، النجف، ط ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

* **إمام:** محمد كمال الدين.

١٣ ـ **نظريّة الفقه في الإسلام ـ مدخل منهجي ـ**
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط ١٤١٨/١٩٩٨.

* **أمين:** أحمد.

١٤ ـ **ظهر الإسلام.**
دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥، ١٣٨٨/١٩٦٩.

١٥ ـ **زعماء الإصلاح في العصر الحديث.**
دار الكتاب العربي، بيروت (لم تذكر تاريخ الطبع ولا عددها).

ـ ب ـ

* **الباجي**: أبو الوليد ت ٤٧٤هـ.

١٦ ـ **المنهاج في ترتيب الحجاج.**

تحقيق عبدالمجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧م.

* **باز**: سليم رستم.

١٧ ـ **شرح المجلّة.**

دار التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٦/١٩٨٦ .

* **الإمام البخاري**: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ.

١٨ ـ **الجامع الصحيح (مع شرح ابن حجر).**

تعليق عبدالعزيز بن باز، واعتناء محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١، ١٤٢٤/٢٠٠٣.

* **ابن بدران**: عبدالقادر الدمشقي.

١٩ ـ **المدخل إلى مذهب الإمام أحمد.**

صحّحه وقدّم له وعلّق عليه الدكتور: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥/١٩٨٥.

* **ابن بسّام**: أبو الحسن عليّ الشنتريني ت ٥٤٢هـ.

٢٠ ـ **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.**

تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، ط ١، ١٣٩٩/١٩٧٩.

* **ابن بشكوال**: أبو القاسم خلف بن عبدالملك ت ٥٧٨هـ.

٢١ ـ **الصلة في تاريخ علماء الأندلس وعلمائهم ومحدّثيهم وفقهائهم وأدبائهم.**

دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني ـ ضمن سلسلة المكتبة الأندلسيّة ـ ط ٢، ١٤١٠/١٩٨٩.

* **البطليوسي**: عبدالله بن محمد ابن السيّد ت ٥٢١هـ.

٢٢ ـ **الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم.**

تحقيق الدكتور: محمد رضوان الدّاية، دار الفكر، دمشق، ط ٣، ١٤٢٤/٢٠٠٣.

* **البغدادي**: إسماعيل باشا.

٢٣ ـ **هديّة العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين.**
المكتبة الإسلاميّة والجعفريّة، تبريزي، طهران، ط ٣ سنة ١٣٨٧هـ.
* **البهوتي**: منصور بن يونس بن إدريس ت ١٠٥١هـ.
٢٤ ـ **كشّاف القناع عن متن الإقناع.**
راجعه وعلّق عليه الشيخ هلال مصيلحي مصطفى هلال، مكتبة النصر الحديثة، المملكة العربيّة السعوديّة.
٢٥ ـ **الروض المربع شرح زاد المستقنع.**
خرّج أحاديثه عبدالقدوس محمد نذير، دار المؤيّد ومؤسسة الرسالة.
* **البوطي**: محمد سعيد رمضان.
٢٦ ـ **ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية.**
مؤسسة الرسالة بيروت، ط ٥، ١٤٠٦/١٩٨٦.
* **بونار**: رابح.
٢٧ ـ **المغرب العربي: تاريخه وثقافته.**
الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط ٢، ـ ١٩٨١م.
* **بيرم الخامس**: محمد ت ١٣٠٧هـ.
٢٨ ـ **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار.**
دار صادر، بيروت، ط ١ ـ ١٣٠٣هـ.

ـ ت ـ

* **التجاني**: عبدالله بن محمد بن أحمد ت ق ٨هـ.
٢٩ ـ **تقييد الرحلة، المعروفة برحلة التجاني.**
قدّم لها العلامة المؤرخ التونسي حسن حسني عبدالوهاب الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، ط ١٩٨١م.
* **الإمام الترمذي**: أبو عيسى محمد بن عيسى ت ٢٧٩هـ.
٣٠ ـ **السنن.**
تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
* **التسخيري**: محمد عليّ.
٣١ ـ **مع مؤتمرات مجمع الفقه الإسلامي (المؤتمرات الفقهيّة).**
دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١ ـ ١٤٢٤/٢٠٠٣.
* **التسولي**: عليّ بن عبدالسلام ت ١٢٥٨هـ.

٣٢ ـ **البهجة في شرح التحفة ـ وبهامشها حلى المعاصم ـ**
دار الفكر، لبنان.
* **ابن تغري بردي**: جمال الدين أبو المحاسن ت ٨٧٤هـ.
٣٣ ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة.**
المؤسسة المصرية العامة، (نسخة مصوّرة عن دار الكتب بمصر، مع استدراكات وفهارس جامعة.
* التنبكتي: أحمد بابا ت ١٠٣٦هـ.
٣٤ ـ **نيل الابتهاج بتطريز الديباج.**
تحقيق الدكتور عليّ عمر، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣/٢٠٠٤.
* **تيمور**: أحمد باشا.
٣٥ ـ **أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث.**
دار الآفاق العربيّة، مصر، ط ١٤٢٣/٢٠٠٣.
* **ابن تيمية**: تقيّ الدين أحمد ت ٧٢٨هـ.
٣٦ ـ **رفع الملام عن الأئمّة الأعلام.**
دار مكتبة الحياة، بيروت، ط ١٩٨٠.
٣٧ ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام.**
جمع وترتيب عبدالرحمٰن بن محمد بن قاسم، بمساعدة ابنه محمد، المكتب التعليمي السعودي بالمغرب، ومكتبة المعارف المغرب.

- ج -

* **الجرجاني**: السيّد الشريف ت ٨١٦هـ.
٣٨ ـ **التعريفات.**
تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥/١٩٨٥.
* **ابن الجزري**: شمس الدين أبو الخير محمد ت ٨٣٣هـ.
٣٩ ـ **غاية النهاية في طبقات القرّاء.**
عني بنشره ج. برجستراسر: G. Bergstrasser، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢ ـ ١٤٠٠/١٩٨٠.
٤٠ ـ **النشر في القراءات العشر.**
أشرف على تصحيحه ومراجعته عليّ محمد الضبّاع، ط، دار الكتاب العربي، بيروت.

* ابن جزي: أبو عبدالله محمد بن أحمد ت ٧٤١هـ.
٤١ ـ **القوانين الفقهيّة.**
دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٤/١٩٨٤.
* جعيط: عبدالعزيز.
٤٢ ـ **فتاوى شيخ الإسلام محمد العزيز جعيط.**
دراسة وتحقيق محمد بن إبراهيم بوزغيبة، مركز الدراسات الإسلاميّة بالقيروان، تونس، ط ١، ١٩٩٤م.
* ابن الجلّاب: عبيدالله بن الحسين ت ٣٧٨هـ.
٤٣ ـ **التفريع.**
دراسة وتحقيق الدكتور: حسين بن سالم الدهماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٨/١٩٨٧.
* الجليدي: سعيد محمد.
٤٤ ـ **المدخل لدراسة الفقه الإسلامي.**
مطابع عصر الجماهير، ليبيا، ط ١٩٩٨م.
* الجندي: أنور.
٤٥ ـ **الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا.**
الدار القوميّة للطباعة والنشر، مصر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
* الجودي: محمد بن محمد بن صالح ت ١٣٧٣هـ.
٤٦ ـ **تاريخ قضاة القيروان.**
تقديم وتحقيق أنس العلّاني، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة» ط ١، ٢٠٠٤م.
* الجويني: عبدالملك بن عبدالله ـ إمام الحرمين ـ ت ٤٧٨هـ.
٤٧ ـ **الورقات في الأصول، ومعها شرح العبادي على شرح المحلّي على الورقات.**
دار الفكر، بيروت.

- ح -

* حاجي خليفة: مصطفى بن الله القسطنطيني ت ١٠١٧هـ.
٤٨ ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.**
مكتبة المتنبي، بغداد، ط ١٤١٤/١٩٩٤.
* ابن حارث الخشني: أبو عبدالله محمد ت ٣٦١هـ.

٤٩ ـ **قضاة قرطبة وعلماء إفريقية.**
عني بنشره وصححه وراجع أصله عزّت العطّار الحسيني، مكتبة الخانجي، مصر، ط ٢ ـ ١٤١٥/١٩٩٤.

* **ابن حبّان:** الحافظ أبو حاتم محمد ت ٣٥٤هـ.

٥٠ ـ **مشاهير علماء الأمصار.**
تصحيح المستشرق: م. فلايشهمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٧٩/١٩٥٩.

* **الحجاوي:** موسى بن أحمد أبو النجا ت ٩٦٠هـ.

٥١ ـ **الإقناع في فقه الإمام أحمد.**
دار المعرفة بيروت، لبنان.

* **ابن حجر العسقلاني:** شهاب الدين أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ.

٥٢ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة.**
دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٣٢٨هـ.

٥٣ ـ **تهذيب التهذيب.**
دار صادر بيروت، ط ١، ١٣٢٧هـ.

٥٤ ـ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.**
دار الجيل، بيروت، ط، ١٤١٤/١٩٩٣.

٥٥ ـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري.**
تعليق عبدالعزيز بن باز، واعتناء محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١، ١٤٢٤/٢٠٠٣.

* **الحجوي:** محمد بن حسن الثعالبي ت ١٣٧٦هـ.

٥٦ ـ **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي.**
اعتنى به أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٦/١٩٩٥.

* **ابن حزم:** أبو عبدالله عليّ بن أحمد الظاهري ت ٤٥٦هـ.

٥٧ ـ **الإحكام في أصول الأحكام.**
حقّقه وراجعه: لجنة من العلماء، دار الجيل، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧/١٩٨٧.

٥٨ ـ **المحلّى.**
دار الفكر، طبعة مصحّحة ومقابلة على النسخة التي حقّقها أحمد محمد شاكر.

* **حسن:** إبراهيم حسن.

٥٩ ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي.**
دار إحياء التراث العربي، مصر، ط ١٩٦٤/٧.
* **حسن**: عليّ إبراهيم.
٦٠ ـ **مصر في العصور الوسطى: من الفتح العربي إلى الفتح العثماني.**
مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ط ١٩٩٣م.
* **الحسني**: هاشم معروف.
٦١ ـ **تاريخ الفقه الجعفري: عرض ودراسة.**
تقديم محمد جواد مغنيّة، دار النشر للجامعيين.
* **حسين**: محمد الخضر ت ١٣٧٧هـ.
٦٢ ـ **تونس وجامع الزيتونة.**
جمع وتحقيق علي الرضا التونسي، المطبعة التعاونية، دمشق، ط ١٣٩١/١٩٧١.
* **الحطّاب**: أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمٰن ت ٩٥٤هـ.
٦٣ ـ **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل.**
دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
* **الحكيم**: محمد تقيّ.
٦٤ ـ **الأصول العامة للفقه المقارن.**
دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.
* **الحفناوي**: محمد إبراهيم محمد.
٦٥ ـ **التعارض والترجيح عند الأصوليين وأثرهما في الفقه الإسلامي.**
دار الوفاء، مصر، ط ٢، ١٤٠٨/١٩٨٧.
* **الحموي**: ياقوت، أبو عبدالله شهاب الدين ت ٦٢٦هـ.
٦٦ ـ **معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب.**
تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، ط ١ ـ ١٩٩٣م.
* **ابن حميد**: صالح بن عبدالله.
٦٧ ـ **رفع الحرج في الشريعة الإسلاميّة.**
مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكّة المكرّمة، ط ١.
* **حميد الله**: محمد.
٦٨ ـ **مجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة.**
دار النفائس، بيروت، ط ٧، ١٤٢٢/٢٠٠١.
* **الحميـدي**: محمد بن فتوح بن عبدالله ت ٤٨٨هـ.

٦٩ ـ **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر.**
تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، مكتبة الخانجي، مصر.
* **حيدر**: عليّ.
٧٠ ـ **درر الحكّام شرح مجلّة الأحكام.**
تعريب فهمي الحسيني، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١١/١٩٩١.

- خ -

* **الخالدي**: محمود.
٧١ ـ **الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية.**
دار الفكر، عمّان، ط ١، ١٤٠٤/١٩٨٤ .
* **الخضري**: محمد.
٧٢ ـ **تاريخ التشريع الإسلامي.**
دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ٩، ١٣٩٠/١٩٧٠.
* **الخطيب البغدادي**: أبو بكر أحمد بن عليّ ت ٤٦٣هـ.
٧٣ ـ **تاريخ بغداد.**
نسخة مصوّرة عن طبعة الخانجي، القاهرة، ١٣٤٩/١٩٣١.
* **الخطيب**: محمد عجّاج.
٧٤ ـ **أصول الحديث: علومه ومصطلحه.**
دار الفكر، بيروت، ط ٤، ١٤٠١/١٩٨١.
٧٥ ـ **السنة قبل التدوين.**
دار الفكر، بيروت، ط ٣، ١٤٠٠/١٩٨٠.
* **خلّاف**: عبدالوهاب.
٧٦ ـ **السياسة الشرعية.**
مؤسسة الرسالة.
* **ابن خلدون**: عبدالرحمٰن ت ٨٠٨هـ
٧٧ ـ **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المعروف بتاريخ العلامة ابن خلدون.**
دار الكتاب اللبناني، ط، ١٩٨٣.

٧٨ ـ **المقدّمة.**
دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٨/١٤١٩.
* **ابن خلكـان:** أبو العباس شمس الدين ت ٦٨١هـ.
٧٩ ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.**
تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر ودار الثقافة، بيروت.
* **خوجـة:** حسين ت ١١٤٥هـ
٨٠ ـ **ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان.**
تحقيق الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس.
* **ابن الخوجـة:** محمد ت ١٣٦١هـ.
٨١ ـ **تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد.**
تحقيق الجيلاني بن الحاج علي وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١٩٨٥/٢.
٨٢ ـ **صفحات من تاريخ تونس.**
تحقيق الجيلاني بن الحاج علي وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١٩٨٦/١.
* **ابن الخوجة:** الشيخ محمد الحبيب.
٨٣ ـ **محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية.**
طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، القطر، ٢٠٠٤/١٤٢٥.

ـ د ـ

* **الدارمي:** عبدالله بن عبدالرحمٰن ت ٢٥٥هـ.
٨٤ ـ **السنن.**
مطبعة الحلبي، القاهرة، ط ١٩٧٨/١٣٩٨.
* **أبو داود:** سليمان بن الأشعث ت ٢٧٥هـ.
٨٥ ـ **السنن.**
مراجعة وتعليق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار إحياء السنّة النبويّة.
* **الدمشقي:** شمس الدين ت ٧٦٥هـ.
٨٦ ـ **ذيل تذكرة الحفاظ.**
دار إحياء التراث العربي، بيروت (مطبوع بذيل تذكرة الحفاظ للذهبي).
* **الدبّـاغ:** عبدالرحمٰن بن محمد بن عبدالله ت ٦٩٩هـ.

٨٧ ـ **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان.**
المطبعة العربية التونسية، ط ١٣٢٠هـ، مذيّل الروايات والأخبار والتراجم والآثار بإفادات لأبي القاسم قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (٨٣٩هـ).
الطبعة الثانية: المكتبة العتيقة، تونس، ط ٢ ـ ١٩٩٣/١٤١٣، تصحيح وتعليق مجموعة من المحقّقين.

* **الدبوسي:** أبو زيد عبيدالله عمر ت ٤٣٠هـ.

٨٨ ـ **تأسيس النظر.**
تحقيق مصطفى محمد القبّاني الدمشقي، دار ابن زيدون، بيروت، ومكتبة الكليات الأزهرية القاهرة.

* **الداوودي:** شمس الدين محمد بن عليّ ت ٩٤٥هـ.

٨٩ ـ **طبقات المفسّرين.**
ضبطه ووضع حواشيه عبدالسّلام عبدالمعين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢/١٤٢٢.

* **دحلان:** أحمد بن زيني ت ١٣٠٤هـ.

٩٠ ـ **السيرة النبويّة.**
دار القلم العربي، حلب، سوريا، ط ١، ١٩٩٦/١٤١٧.

* **ابن أبي دينار:** محمد بن أبي القاسم الرعيني ت نحو ١١٠٩هـ.

٩١ ـ **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس.**
تحقيق وتعليق محمد شمّام، المكتبة العتيقة، تونس، ط ٣، ١٩٦٧/١٣٨٧.

ـ ذ ـ

* **الذهبي:** أبو عبدالله شمس الدين ت ٧٤٨هـ.

٩٢ ـ **تذكرة الحفاظ.**
دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* **الذهبي:** محمد حسين الذهبي.

٩٣ ـ **التفسير والمفسّرون.**
دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ـ ر ـ

* **الراعي:** شمس الدين محمد ت ٨٥٣هـ.

٩٤ ـ **انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك.**
تحقيق محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨١م.
* **الرافعي**: أبو القاسم عبدالكريم ت ٦٢٣هـ.
٩٥ ـ **العزيز شرح الوجيز.**
تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
* **ابن رشد**: أبو الوليد ـ الجدّ ـ ت ٥٢٠هـ.
٩٦ ـ **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة.**
تحقيق الدكتور محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤/١٩٨٤.
٩٧ ـ **المقدّمات لبيان ما اقتضته المدوّنة من الأحكام (مطبوع مع المدوّنة الكبرى).**
دار الفكر، بيروت، ط ١٤٠٦/١٩٨٦.
* **ابن رشد**: أبو الوليد ـ الحفيد ـ ت ٥٩٥هـ.
٩٨ ـ **بداية المجتهد ونهاية المقتصد.**
دار المعرفة، بيروت، ط ٨، ١٤٠٦/١٩٨٦.
* **ابن رشيق**: أبو عليّ الحسين ت ٦٣٢هـ.
٩٩ ـ **لباب المحصول في علم الأصول.**
تحقيق محمد غزالي عمر جابي، دار البحوث للدراسات الإسلاميّة وإحياء التراث، الإمارات العربيّة المتّحدة، دبي، ط ١، ١٤٢٢/٢٠٠١.
* **الرصّاع**: أبو عبدالله محمد بن قاسم ت ٨٩٤هـ.
١٠٠ ـ **شرح حدود ابن عرفة الموسوم بالهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية.**
تحقيق محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط ١/١٩٩٣م.

ـ ز ـ

* **الزاوي**: الطاهر أحمد.
١٠١ ـ **أعلام ليبيا.**
دار إحياء الكتب العربيّة، ط ١ ـ ١٣٨١/١٩٦١.
١٠٢ ـ **ترتيب القاموس المحيط للفيروزآبادي.**
الدار العربية للكتاب، ط ٣، ١٩٨٠.

* **الزرقا**: أحمد بن محمد ت ١٣٥٧هـ.

١٠٣ ـ **شرح القواعد الفقهية.**

تصحيح وتعليق مصطفى أحمد الزرقا، دار القلم، دمشق، ط ٢، ١٩٨٩/١٤٠٩.

* **الزرقا**: مصطفى أحمد ت ١٤٢٠هـ.

١٠٤ ـ **المدخل الفقهي العام.**

دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٨٨/١٤١٨.

١٠٥ ـ **المدخل إلى نظرية الالتزام العامة في الفقه الإسلامي.**

دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٩٩/١٤٢٠.

* الزرقاني: محمد عبدالعظيم.

١٠٦ ـ **مناهل العرفان في علوم القرآن.**

دار الفكر، بيروت، ط ١٩٨٨/١٤٠٨.

* **زكرياء**: أبو يحيى الأنصاري ت ٩٢٦هـ.

١٠٧ ـ **لبّ الأصول وشرحه غاية الوصول.**

مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر.

* **الزركشي**: بدر الدين محمد بن عبدالله ت ٧٩٤هـ.

١٠٨ ـ **البرهان في علوم القرآن.**

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط ٢.

١٠٩ ـ **الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة.**

تحقيق سعيد الأفغاني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠/١٤٠٠.

* **الزركلي**: خير الدين ت ١٩٧٦.

١١٠ ـ **الأعلام**: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. ط ٣.

* **الزنجاني**: شهاب الدين محمود بن أحمد ت ٦٥٦هـ.

١١١ ـ **تخريج الفروع على الأصول.**

حقّقه وقدّم له وعلّق حواشيه الدكتور: محمد أديب الصالح، مكتبة العبيكات، ط ١، ١٩٩٩/١٤٢٠ .

* **أبو زهرة**: محمد.

١١٢ ـ **تاريخ المذاهب الإسلامية.**

دار الفكر العربي، القاهرة.

١١٣ ـ **الشافعي: حياته وعصره، آراؤه وفقهه.**
دار الفكر العربي، القاهرة.
* **أبو زهو: محمد محمد.**
١١٤ ـ **الحديث والمحدّثون.**
دار الكتاب العربي، بيروت، ط، ١٤٠٤/١٩٨٤.
* **الزواوي: الشيخ عيسى بن مسعود.**
١١٥ ـ **مناقب سيّدنا الإمام مالك (مطبوع مع المدوّنة الكبرى ومقدّمات ابن رشد).**
دار الفكر، بيروت، ط ١٤٠٦/١٩٨٦.
* **زيدان: جرجي.**
١١٦ ـ **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر.**
دار مكتبة الحياة، لبنان، ط ٣.
* **ابن أبي زيد: أبو محمد عبدالله ت ٣٨٦هـ.**
١١٧ ـ **الرسالة الفقهية، مع غرر المقالة في شرح غريب الرسالة لأبي عبدالله محمد بن منصور بن حمامة المغراوي.**
إعداد وتحقيق محمد أبو الأجفان والهادي بن حمّو، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٨٦م.
١١٨ ـ **النوادر والزيادات على ما في المدوّنة من غيرها من الأمّهات.**
تحقيق الدكتور عبدالفتاح محمد الحلو، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٩م.
* **زيد: مصطفى.**
١١٩ ـ **النسخ في القرآن الكريم.**
دار الوفاء، مصر، ط ٣، ١٤٠٨/١٩٧٨.

ـ س ـ

* **السباعي: مصطفى ت ١٣٩٥هـ.**
١٢٠ ـ **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي.**
المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٤، ١٤٠٥/١٩٨٥.
* **السبكي: تاج الدين ت ٧٧١هـ.**
١٢١ ـ **طبقات الشافعية الكبرى.**
تحقيق محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى الحلبي مصر، ط ١ ـ ١٣٨٦هـ.

* ستانلي: لينبول.
١٢٢ ـ سيرة القاهرة.
ترجمه عن الإنجليزيّة: حسن إبراهيم حسن، وعليّ إبراهيم حسن، وإدوار حليم، مكتبة النهضة المصريّة، ط ٤، ١٩٩٣م.
* السخاوي: شمس الدين محمد بن عبدالرحمٰن ت ٩٠٢هـ.
١٢٣ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.
دار مكتبة الحياة، بيروت.
* السراج: الوزير محمد بن محمد الأندلسي ت ١١٤٩هـ.
١٢٤ ـ الحلل السندسية في الأخبار التونسية.
تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، ط ١٩٧٠.
* السرخسي: أبو بكر محمد بن أحمد ت ٤٩٠هـ.
١٢٥ ـ أصول السرخسي.
تحقيق أبو الوفاء الأفغاني، دار الكتاب العربي، مصر، ١٣٧٢هـ.
١٢٦ ـ المبسوط.
دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢.
* سزكين: فؤاد.
١٢٧ ـ تاريخ التراث العربي.
نقله إلى العربية الدكتور محمود فهمي حجازي، وراجعه الدكتور عرفة مصطفى والدكتور سعيد عبدالرحيم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، المملكة العربيّة السعودية.
* ابن سعد: محمد الزهري ت ٢٣٠هـ.
١٢٨ ـ الطبقات الكبرى.
دار صادر، بيروت.
* سلّام: الشيخ محمد عزّ الدين ت ١٤٢٠هـ.
١٢٩ ـ نظام الإرث في الإسلام.
تقديم ومراجعة فتحي العبيدي، المطبعة العصريّة، تونس، ط ١، ٢٠٠٣/١٤٢٤.
* السنهوري: عبدالرزّاق.
١٣٠ ـ مصادر الحقّ في الفقه الإسلامي.
دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، لبنان.

* **السيوطي**: جلال الدين عبدالرحمٰن ت ٩١١هـ.

١٣١ ـ **الإتقان في علوم القرآن.**

دار الفكر، بيروت.

١٣٢ ـ **إسعاف المبطأ برجال الموطأ (مطبوع مع كتاب تنوير الحوالك).**

دار الكتب العلميّة، بيروت.

١٣٣ ـ **تاريخ الخلفاء.**

تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، (لم تذكر دار النشر ولا رقم الطبعة ولا تاريخها).

١٣٤ ـ **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي.**

حقّقه وراجع أصوله عبدالوهاب عبداللطيف، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩/١٣٩٩.

١٣٥ ـ **تزيين الممالك بمناقب سيّدنا الإمام مالك (مطبوع مع المدوّنة الكبرى ومقدّمات ابن رشد).**

دار الفكر، بيروت، ط ١٩٨٦/١٤٠٦.

١٣٦ ـ **تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك.**

دار الكتب العلميّة، بيروت.

١٣٧ ـ **الجامع الصغير (مع فيض القدير).**

مكتبة مصر، ط ٢، ٢٠٠٣/١٤٢٤.

١٣٨ ـ **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.**

ط، حجريّة.

١٣٩ ـ **نظم العقيان في أعيان الأعيان ـ تراجم مشاهير القرن التاسع للهجرة ـ**

حرّره الدكتور فيليب حتّي، المطبعة السورية الأمريكيّة، نيويورك، ١٩٢٧م.

ـ ش ـ

* **الشاشي**: محمد بن أحمد القفال ت ٥٠٧هـ.

١٤٠ ـ **حلية العلماء.**

تحقيق الدكتور ياسين أحمد درادكة، مؤسسة الرسالة ودار القلم.

* **الشاطبي**: أبو إسحاق إبراهيم ت ٧٩٠هـ.

١٤١ ـ **الاعتصام.**

تحقيق سيّد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣/١٤٢٤.

١٤٢ ـ **الإفادات والإنشادات.**
تحقيق الدكتور محمد أبو الأجفان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.
١٤٣ ـ **فتاوى الإمام الشاطبي.**
تحقيق وتقديم الدكتور محمد أبو الأجفان، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ٤، ١٤٢١/٢٠٠١.
١٤٤ ـ **الموافقات.**
اعتنى بضبطه وترقيمه ووضع تراجمه وتخريج أحاديثه والتعليق عليه الشيخ عبدالله دراز، دار الفكر العربي.
* **الشافعي**: محمد بن إدريس ت ٢٠٤هـ.
١٤٥ ـ **الأمّ**، برواية الربيع بن سليمان.
دار الشعب، مصر، ١٣٨٨/١٩٦٨.
١٤٦ ـ **الرسالة.**
تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلميّة، بيروت.
* **شاه وليّ الله الدهلوي**: أحمد بن عبدالرحيم ت ١١٧٧هـ.
١٤٧ ـ **حجّة الله البالغة.**
دار إحياء العلوم، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م.
الطبعة الثانية: دار الجيل، ط ١، ١٤٢٦/٢٠٠٥، تحقيق الشيخ السيّد سابق.
* **الشعراني**: عبدالوهاب بن أحمد ت ٩٧٣هـ.
١٤٨ ـ **الطبقات الصغرى.**
وضع حواشيه محمد عبدالله شاهين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٤١٩/١٩٩٩.
* **شمّام**: محمود.
١٤٩ ـ **أعلام من الزيتونة.**
الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس ١٤١٧/١٩٩٦.
* **شمّام**: محمود، **والساحلي**: محمد العزيز.
١٥٠ ـ **شيوخ الزيتونة في القرن الرابع عشر الهجري.**
المطبعة العصريّة، تونس، ١٤٢١/٢٠٠٠.
* **الشهرستاني**: أبو الفتح ابن عبدالكريم ت ٥٤٨هـ.
١٥١ ـ **الملل والنحل.**
دار المعرفة، بيروت، ط، ١٤٠٦/١٩٨٦ (مطبوع بهامش الفصل في الملل والنحل لابن حزم).

* **الشوكاني**: محمد بن عليّ ت ١٢٥٠هـ.
١٥٢ ـ **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول.**
دار الفكر، بيروت.
١٥٣ ـ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع.**
تحقيق الدكتور حسين بن عبدالله العمري، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٨/١٤١٩.
١٥٤ ـ **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار.**
دار الجيل، بيروت.
* **الشيباني**: محمد بن الحسن ت ١٨٩هـ.
١٥٥ ـ **المبسوط.**
تصحيح وتعليق أبو الوفا الأفغاني، ط، مطبعة عالم الكتب.
* **الشيرازي**: أبو إسحاق إبراهيم ت ٤٧٦هـ.
١٥٦ ـ **طبقات الفقهاء.**
تحقيق إحسان عبّاس، دار الرائد العربي، بيروت، ط ٢.
١٥٧ ـ **المهذّب.**
طبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، مصر، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

ـ ص ـ

* **الصعيدي**: عبدالمتعال.
١٥٨ ـ **المجدّدون في الإسلام من القرن الأوّل إلى القرن الرابع عشر.**
مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٦/١٤١٦.
* **ابن الصلاح**: أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمٰن ت ٦٤٢هـ.
١٥٩ ـ **مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث.**
دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٧٨/١٣٩٨.

ـ ض ـ

* **الضبّي**: أحمد بن يحيى ت ٥٩٩هـ.
١٦٠ ـ **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس.**
دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني ـ ضمن سلسلة المكتبة الأندلسيّة ـ ط ١، ١٩٨٩/١٤١٠.

* ابن أبي الضياف: أحمد ت ١٢٩١هـ.
١٦١ - **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان.**
تحقيق محمد شمّام، الدار التونسية للنشر، ط/١٩٩٠.
* ضيف: شوقي.
١٦٢ - **تاريخ الأدب العربي.**
دار المعارف، مصر.

- ط -

* الطبّاع: إيّاد خالد.
١٦٣ - **محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه.**
دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤٢٦/٢٠٠٥.
* الطحاوي: أبو جعفر أحمد بن محمد ت ٣٢١هـ.
١٦٤ - **مختصر الطحاوي.**
حقّقه وعلّق عليه أبو الوفا الأفغاني، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، دار إحياء العلوم، بيروت.
* الطيبي: أمين توفيق.
١٦٥ - **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس.**
الدار العربيّة للكتاب، ط ١٩٩٧م.

- ظ -

* الظفيري: مريم محمد صالح.
١٦٦ - **مصطلحات المذاهب الفقهيّة، وأسرار الفقه المرموز في الأعلام والكتب والآراء والترجيحات.**
دار ابن حزم،، بيروت، ط ١، ١٤٢٢/٢٠٠٢.

- ع -

* ابن عابدين: محمد أمين ت ١٢٥٢هـ.
١٦٧ - **ردّ المحتار على الدرّ المختار: المعروف بحاشية ابن عابدين.**
تقديم عبدالجليل العطا، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط ٢ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

١٦٨ ـ **مجموعة رسائل ابن عابدين.**
دار إحياء التراث العربي، لبنان.
* **ابن عاشور:** شيخ الإسلام محمد الطاهر ت ١٣٩٤هـ.
١٦٩ ـ **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.**
الشركة التونسية للتوزيع.
١٧٠ ـ **أليس الصبح بقريب.**
دار سحنون، تونس، ودار السلام، القاهرة، ط ١، ١٤٢٧/٢٠٠٦.
١٧١ ـ **تفسير التحرير والتنوير.**
الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨٤م.
١٧٢ ـ **مقاصد الشريعة الإسلامية.**
المطبعة الفنيّة، تونس، ط ١، ١٣٦٦هـ.
* **ابن عاشور:** العلامة محمد الفاضل ت ١٣٩٠هـ.
١٧٣ ـ **أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي.**
مطبعة النجاح، تونس.
١٧٤ ـ **تراجم الأعلام.**
الدار التونسية للنشر.
١٧٥ ـ **الحركة الأدبية والفكرية في تونس.**
الدار التونسية للنشر، ١٩٧٢م.
١٧٦ ـ **محاضرات مغاربية.**
الدار التونسية للنشر. الطبعة الثانية: بعنوان: محاضرات، مركز النشر الجامعي، ط ١٩٩٩.
١٧٧ ـ **ومضات فكر.**
الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، الجزء الأوّل ١٩٨١ م، والجزء الثاني ١٩٨٢م.
* **ابن عبدالبرّ:** أبو عمرو القرطبي ت ٤٦٣هـ.
١٧٨ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (بهامش الإصابة لابن حجر).**
دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١٣٢٨/١هـ.
١٧٩ ـ **جامع بيان العلم وفضله.**
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
* **العبدري:** محمد بن محمد الحيحي ت ٦٩٠هـ.
١٨٠ ـ **الرحلة المغربية.**

حققه وقدّم له وعلّق عليه محمد الفاسي، ط، المغرب.
* **عبده:** الشيخ محمد ت ١٣٢٣هـ.
١٨١ ـ **الفتاوى في التجديد والإصلاح الديني.**
تحقيق محمد عمارة، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس.
* **عبدالرازق:** مصطفى.
١٨٢ ـ **تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلاميّة.**
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٩٤٤م.
* **عبدالوهاب:** حسن حسني ت ١٣٨٨هـ.
١٨٣ ـ **كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين.**
مراجعة وإكمال محمد العروسي المطوي، وبشير البكّوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١٩٩٠/١.
* القاضي عبدالوهاب: أبو محمد علي بن نصر ت ٤٢٢هـ.
١٨٤ ـ **المعونة على مذهب عالم المدينة.**
تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٨٥ ـ **التلقين في الفقه المالكي.**
تحقيق أبي أويس محمد بوخبزة، أبي الفضل بدر بن عبدالإله، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
* **ابن عذارى:** أبو عبدالله المراكشي ت ٦٩٣هـ.
١٨٦ ـ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.**
تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت.
* **أبو العرب:** محمد بن أحمد بن تميم ت ٣٣٣هـ.
١٨٧ ـ **طبقات علماء إفريقية وتونس.**
تقديم وتحقيق علي الشابي، ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، ط ١٩٨٥/٢م.
* **ابن العماد:** شهاب الدين أبو الفلاح ت ١٠٨٩هـ.
١٨٨ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب.**
تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار القلم، بيروت.
* **عودة:** عبدالقادر ت ١٩٥٤م.
١٨٩ ـ **التشريع الجنائي مقارنا بالقانون الوضعي.**
دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٨٥/١٤٠٥.

* **عيـاض**: أبو الفضل اليحصبي ت ٥٤٤هـ.
١٩٠ ـ **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.**
تحقيق د. أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ودار مكتبة الفكر، ليبيا.

- غ -

* **الغالي**: بلقاسم.
١٩١ ـ **شيخ الإسلام الأعظم محمد الطاهر بن عاشور.**
دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٧/١٩٩٦.
* **الغبريني**: أبو العباس أحمد بن أحمد ت ٧٠٤هـ.
١٩٢ ـ **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية.**
تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر.
* **الغزالي**: أبو حامد محمد بن محمد ت ٥٠٥هـ.
١٩٣ ـ **إحياء علوم الدين.**
دار الكتاب العربي، بيروت.
١٩٤ ـ **المستصفى من علم الأصول.**
دار الفكر، بيروت.
١٩٥ ـ **المنخول من تعليقات الأصول.**
حقّقه وخرّج نصّه وعلّق عليه، محمد حسن هيتو، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ١٤٠٠/١٩٨٠.
* **الغـزّي**: نجم الدين ت ١٠٦١هـ.
١٩٦ ـ **الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة.**
تحقيق الدكتور جبرائيل سليمان جبّور، دار الثقافة، بيروت.
١٩٧ ـ **الوجيز.**
اعتنى به نجيب الماجدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.
١٩٨ ـ **الوسيط.**
تحقيق أحمد محمود إبراهيم، دار السلام، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

- ف -

* ابن فرحون: برهان الدين إبراهيم ت ٧٩٩هـ.

١٩٩ ـ **إرشاد السالك إلى أفعال المناسك.**
دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات «بيت الحكمة»، تونس، ط ١، ١٩٨٩م.

٢٠٠ ـ **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب.**
دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٤١٧/١٩٩٦.

* **ابن الفرضي:** أبو الوليد عبدالله الأزدي ت ٤٠٣هـ.

٢٠١ ـ **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس.**
عني بنشره وصححه السيّد عزّت العطّار الحسيني الخانجي، مصر، ١٣٧٣/١٩٥٤.
الطبعة الثانية بعنوان: تاريخ علماء الأندلس، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني ـ ضمن سلسلة المكتبة الأندلسيّة ـ ط ٢، ١٤١٠/١٩٨٩.

* **فريد:** محمد بك المحامي.

٢٠٢ ـ **تاريخ الدولة العليّة العثمانية.**
تحقيق د. إحسان حقّي، دار النفائس، بيروت، ط ٢ ـ ١٤٠٣/١٩٨٣.

* **الفوزان:** صالح بن فوزان بن عبدالله.

٢٠٣ ـ **من مشاهير المجددين في الإسلام: ابن تيمية وابن عبدالوهاب.**
الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.

ـ ق ـ

* **القاري:** علي بن سلطان محمد الهروي.

٢٠٤ ـ **شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر لابن حجر.**
دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٣٩٨/١٩٧٨.

* **ابن القاضي:** أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي ت ١٠٢٥هـ.

٢٠٥ ـ **درّة الحجال في أسماء الرجال ـ ذيل وفيات الأعيان ـ**
تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، ودار التراث، القاهرة، ط ١، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٢٠٦ ـ **لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد (ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات).**
تحقيق محمد الحجّي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

* ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم ت ٦٧٦هـ.
٢٠٧ ـ **المعارف.**
دار الكتب، بيروت، ط ١٩٦٠م.
* **ابن قدامة**: موفق الدين المقدسي ت ٦٢٠هـ.
٢٠٨ ـ **الكافي.**
دار هجر، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٢٠٩ ـ **روضة الناظر وجنة المناظر.**
تحقيق سيف الدين الكاتب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨١/١٤٠١.
٢١٠ ـ **المغني: شرح مختصر الخرقي.**
تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي وعبدالفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب الرياض، ط ٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٢١١ ـ **عمدة الفقه.**
المكتبة العصرية بيروت، ط ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
* **قدري**: محمد باشا ت ١٣٠٦هـ.
٢١٢ ـ **قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف.**
دراسة وتحقيق مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية.
دار السلام، مصر، ط ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
* **القرافي**: بدر الدين ت ٩٤٦هـ.
٢١٣ ـ **توشيح الديباج.**
تحقيق وتقديم أحمد الشتيوي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٨٣/١٤٠٣.
* **القرافي**: شهاب الدين أحمد بن إدريس ت ٦٨٤هـ.
٢١٤ ـ **الذخيرة.**
دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٤م.
٢١٥ ـ **شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول.**
تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، دار الفكر ومكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ط ١، ١٣٩٣هـ.
* **القرشي**: عبدالقادر بن محمد ت ٧٧٥هـ.
٢١٦ ـ **الجواهر المضية في طبقات الحنفية.**
تحقيق الدكتور عبدالفتاح الحلو، طبعة الحلبي بالقاهرة ودار العلوم بالرياض.

* **القرطبي**: أبو عبدالله محمد بن أحمد ت ٦٧١هـ.

٢١٧ ـ **الجامع لأحكام القرآن.**

دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٣٦٩/١٩٥٠.

* **القرضاوي**: الشيخ يوسف.

٢١٨ ـ **الخصائص العامّة للإسلام.**

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٦، ١٤٠٩/١٩٨٨.

* **القطّان**: منّاع خليل.

٢١٩ ـ **التشريع والفقه في الإسلام: تاريخاً ومنهجاً.**

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٢/١٩٨٢.

* **ابن قطلوبغا**: زين الدين قاسم ت ٨٧٩هـ.

٢٢٠ ـ **تاج التراجم في من صنف من الحنفيّة.**

عني بتحقيقه إبراهيم صالح، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، دار المأمون للتراث بيروت.

* القلصادي: أبو الحسن عليّ ت ٨٩١هـ.

٢٢١ ـ **رحلة القلصادي.**

دراسة وتحقيق أستاذنا الدكتور محمد أبو الأجفان، الشركة التونسيّة للتوزيع.

* **ابن القنفذ**: أبو العباس أحمد بن حسن الخطيب ت ٨٠٩هـ

٢٢٢ ـ **شرف الطالب في أسنى المطالب ـ وفيات ابن قنفذ ـ (ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات).**

تحقيق محمد الحجّي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٢٢٣ ـ **الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية.**

تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبدالمجيد التركي، الدار التونسية للنشر، ط/١٩٦٨.

* **القنوجي**: صدّيق بن حسن ت ١٣٠٧هـ.

٢٢٤ ـ **أبجد العلوم.**

أعدّه للطبع ووضع فهارسه عبدالجبّار رزكار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ط ١٩٧٨م.

* **ابن القوطية**: ت ٣٦٧هـ.

٢٢٥ ـ **تاريخ افتتاح الأندلس.**

تحقيق إبراهيم الأنباري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني ـ ضمن سلسلة المكتبة الأندلسيّة ـ ط ٢، ١٤١٠/١٩٨٩.

* **ابن قيم الجوزية:**

٢٢٦ ـ **إعلام الموقعين عن ربّ العالمين.**

تحقيق عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ط، ١٩٧٣م.

ـ ك ـ

* **الكاساني:** أبو بكر بن مسعود **ت ٥٨٧هـ.**

٢٢٧ ـ **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع.**

نشر زكرياء عليّ يوسف، مطبعة العاصمة، القاهرة.

* **الكتـانـي:** عبدالحيّ بن عبدالكبير.

٢٢٨ ـ **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات.**

اعتنى به الدكتور إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢ ـ ١٤٠٢/١٩٨٢.

* **الكتبي:** محمد بن شاكر بن أحمد **ت ٧٦٤هـ.**

٢٢٩ ـ **فوات الوفيات والذيل عليها ـ ذيل على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ـ**

تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت.

* **ابن كثيـر:** عماد الدين أبو الفداء **ت ٧٧٤هـ.**

٢٣٠ ـ **البداية والنهاية.**

مكتبة المعارف، بيروت، ط، ١٤١٠/١٩٩٠.

٢٣١ ـ **تفسير القرآن العظيم.**

دار المعرفة، بيروت، ط، ١٤٠٢/١٩٨٢.

* **كحـالة:** عمر رضا.

٢٣٢ ـ **معجم المؤلفين:** تراجم مصنّفي الكتب العربية.

مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١٣٧٦/١٩٥٧.

* **الكرخي:** أبو الحسن عبيدالله **٣٤٠هـ.**

٢٣٣ ـ **أصول الكرخي (مطبوع مع كتاب تأسيس النظر للدبّوسي).**

دار ابن زيدون، ومكتبة الكليات الأزهرية، مصر.

* كرّو: أبو القاسم محمد.

٢٣٤ ـ **محمد الخضر حسين: شيخ الأزهر الأسبق.**

دار المغرب العربي، تونس ط ١، ١٩٧٣م.

* **الكنـانـي**: محمد بن صالح عيسى ت ١٢٩٢هـ.

٢٣٥ ـ **تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان.**

تحقيق وتعليق محمد العنابي، تونس، ط١/ ١٩٧٠.

- ل -

* **اللكنوي**: أبو الحسنات محمد بن عبدالحيّ ت ١٣٠٤هـ.

٢٣٦ ـ **الفوائد البهيّة في تراجم الحنفيّة.**

دار المعرفة، لبنان، طبعة مصوّرة عن طبعة كراتشي ١٣٩٣هـ.

* **لوثروب**: ستودارد.

٢٣٧ ـ **حاضر العالم الإسلامي.**

نقله إلى العربيّة عجّاج نويهض (وفيه فصول وتعليقات وحواش مستفيضة بقلم الأمير شكيب أرسلان).

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٤، ١٣٩٤/١٩٧٣.

- م -

* **الإمام ابن ماجة**: أبو عبدالله محمد بن يزيد ت ٢٧٣هـ.

٢٣٨ ـ **السنن.**

تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر.

* **الإمام مالك بن أنس ت ١٧٩هـ.**

٢٣٩ ـ **الموطّأ.**

تعليق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* **المالكـي**: أبو بكر عبدالله بن محمد ت نحو ٤٧٤هـ.

٢٤٠ ـ **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسّاكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم.**

حققه بشير البكوش، وراجعه محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤١٤/١٩٩٤.

* الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد ت ٤٥٠هـ.
٢٤١ ـ الحاوي الكبير.
تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
* مؤنس: حسين.
٢٤٢ ـ معالم تاريخ المغرب والأندلس.
دار المستقبل، مصر، ط ١/١٩٨٠.
* المحتسب: عبدالمجيد عبدالسلام.
٢٤٣ ـ اتّجاهات التفسير في العصر الراهن.
مكتبة النهضة الإسلاميّة، الأردن، ط ٣، ١٤٠٢/١٩٨٢.
* محفوظ: محمد.
٢٤٤ ـ تراجم المؤلفين التونسيين.
دار الغرب الإسلامي، ط ١ ـ ١٤٠٤/١٩٨٤.
* المحلّي: جلال الدين محمد بن أحمد ت ٨٦٤هـ.
٢٤٥ ـ شرح جمع الجوامع (مع حاشية البناني).
دار الفكر، بيروت.
* محمود: أحمد باكير.
٢٤٦ ـ إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي.
دار قتيبة بيروت، ط ١، ١٤١١/١٩٩٠.
* مخلوف: محمد بن محمد.
٢٤٧ ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية.
دار الفكر، بيروت.
* المدني: محمد.
٢٤٨ ـ المسائل التي بناها الإمام مالك على عمل أهل المدينة.
دار البحوث للدراسات الإسلاميّة وإحياء التراث، دبي، ط ١، ١٤٢١/٢٠٠٠.
* المرغيناني: برهان الدين عليّ بن أبي بكر ت ٥٩٣هـ.
٢٤٩ ـ الهداية شرح بداية المبتدي.
المكتبة الإسلامية (لم يذكر تاريخ الطبعة ولا مكانها).
* المزني: إسماعيل بن يحيى ت ٢٦٤هـ.

٢٥٠ ـ **المختصر (بهامش كتاب الأمّ للشافعي).**

دار الشعب، مصر، ط ١٩٦٨/١٣٨٨.

* **المسعودي:** أبو الحسن علي بن الحسين **ت ٣٤٦هـ.**

٢٥١ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر.**

تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة مصر، ط ٤ ـ ١٩٦٤/١٣٨٤.

* **الإمام مسلم:** أبو الحسين ابن الحجّاج **ت ٢٦١هـ.**

٢٥٢ ـ **الصحيح (بشرح النووي).**

دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١٩٨٧/١٤٠٧.

* **المشاط:** حسن بن محمد **ت ١٣٩٩هـ.**

٢٥٣ ـ **الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم أهل المدينة.**

دراسة وتحقيق الدكتور عبدالوهاب بن إبراهيم أبو سليمان، دار الغرب الإسلامي، ط ٢، ١٩٩٠/١٤١١.

* **المصراتي:** علي مصطفى.

٢٥٤ ـ **أعلام من طرابلس.**

دار مكتبة الفكر، ليبيا، ط ٢ ـ ١٩٧٢/١٣٩٢.

* **ابن مفلح:** شمس الدين أبو عبدالله محمد **ت ٧٦٣هـ.**

٢٥٥ ـ **أصول الفقه.**

حقّقه وعلّق عليه وقدّم له الدكتور فهد بن محمد السدحان، مكتبة العبيكان، المملكة العربيّة السعوديّة، ط ١٤٢٠/١هـ/١٩٩٩م.

* **المقدسي:** بهاء الدين **ت ٦٢٤هـ.**

٢٥٦ ـ **العدة شرح العمدة.**

دار الحديث، مصر، ط ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

* **مقديش:** محمود **ت نحو ١٢٢٨هـ.**

٢٥٧ ـ **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار (المعروفة بدائرة مقديش).**

تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١٩٨٨/١.

* **المقّري:** أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني **ت ١٠٤١هـ.**

٢٥٨ ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.**

حققه د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط ١٩٦٨/١٣٨٨.

* **المناوي**: عبدالرؤوف بن تاج العارفين ت ١٠٣١هـ.

٢٥٩ ـ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**.

مكتبة مصر، ط ٢، ٢٠٠٣/١٤٢٤.

* **ابن منظور**: أبو الفضل محمد بن مكرم ت ٧٧١هـ.

٢٦٠ ـ **لسان العرب**.

دار صادر، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٤م.

* **المواق**: محمد بن يوسف العبدري ت ٨٩٧هـ.

٢٦١ ـ **التاج والإكليل في شرح مختصر خليل (بهامش مواهب الجليل)**.

دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

* **موسى**: محمد يوسف.

٢٦٢ ـ **تاريخ الفقه الإسلامي**.

دار الكتاب العربي، مصر، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

* **ميكولش**: موراني.

٢٦٣ ـ **دراسات في مصادر الفقه الإسلامي**.

نقله عن الألمانية سعيد بحيري وعمر صابر عبدالجليل، ومحمود رشاد حنفي، وراجع الترجمة.

محمود فهمي حجازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٩/١٩٨٨.



- ن -

* **ابن نجيم**: زين الدين ت ٩٧٠هـ.

٢٦٤ ـ **الأشباه النظائر**.

تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق.

* **ابن النديم** : أبو الفرج محمد.

٢٦٥ ـ **الفهرست**.

تحقيق رضا تجدّد، طبعة طهران، ١٣٥٠/١٩٧١ .

* **الإمام النسائي**: أبو عبدالرحمٰن أحمد بن شعيب ت ٣٠٣هـ.

٢٦٦ ـ **السنن (بشرح السيوطي وحاشية السندي)**.

المكتبة التجارية الكبرى، ط ١، ١٣٤٨/١٩٣٠.

* النووي: أبو زكرياء يحيى بن شرف ت ٦٧٦هـ.
٢٦٧ - شرح صحيح مسلم.
دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١٤٠٧/١٩٨٧.
٢٦٨ - المجموع شرح المهذّب.
حقّقه وعلّق عليه وكمّله بعد نقصانه الشيخ محمد بخيت المطيعي، مكتبة الإرشاد، المملكة العربية السعودية.
٢٦٩ - التنقيح في شرح الوسيط.
تحقيق أحمد محمود إبراهيم، دار السلام، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
* النيسابوري: أبو عبدالله محمد ت ٤٠٥هـ.
٢٧٠ - معرفة علوم الحديث.
اعتنى بنشره وتصحيحه والتعليق عليه السيّد معظم حسين، المكتبة العلميّة بالمدينة المنوّرة، ط ٢، ١٣٩٧/١٩٧٧.
* النيفر: محمد الشاذلي ت ١٤١٨هـ.
٢٧١ - عنوان الأريب عمّا بالمملكة التونسية من عالم أديب.
المطبعة الرسمية، ط ١ - ١٣٥١/١٩٣٢.
* النيفر: محمد البشير ت ١٣٩٤هـ.
٢٧٢ - التراجم الوفيّة لأعلام الأسرة النيفرية.
راجعه وأعدّه محمد المختار النيفر، ط، ١٩٧٧م.

- هـ -

* ابن هشام: أبو محمد عبدالملك ت ٢١٨هـ.
٢٧٣ - السيرة النبويّة.
تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي.
* هيتو: محمد حسن.
٢٧٤ - الإمام الشيرازي، حياته وآراؤه الأصوليّة.
دار الفكر، ط ١، ١٤٠٠/١٩٨٨.

- و -

* الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد ت ٤٦٨هـ.

٢٧٥ ـ أسباب النزول.
تحقيق سعيد محمود عقيل، دار الجيل، بيروت، ط ١ ٢٠٠١م.
* وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت.
٢٧٦ ـ موسوعة الفقه الإسلامي.
٢٧٧ ـ الموسوعة الفقهيّة: نشرة تعريفيّة.
* وزارة الأوقاف بمصر.
٢٧٨ ـ موسوعة الفقه الإسلامي.
المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، القاهرة، ط ١٤١٠/١٩٩٠.
* الونشريسي: أحمد بن يحيى ت ٩٤١هـ.
٢٧٩ ـ المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب.
خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، ط ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٢٨٠ ـ الوفيات (ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات).
تحقيق محمد الحجّي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

- ي -

* اليافعي: عفيف الدين عبدالله بن أسعد ت ٧٦٨هـ
٢٨١ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان.
تحقيق عبدالله الجبوري، ط ١ ـ ١٤٠٥/ ١٩٨٤.
* ابن أبي يعلى: أبو الحسين محمد ت ٥٢٦هـ.
٢٨٢ ـ طبقات الفقهاء الحنابلة.
تحقيق الدكتور عليّ محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة، ط ١، ١٤١٩/١٩٩٨.

مقالات واستطلاعات:

* مقالتان بعنوان: فاس من خلال المخطوطات التونسيّة، والترابط بين الحكمة العقليّة والحكمة الشرعيّة للمرحوم العلامة محمد الفاضل بن عاشور.
مجلّة الهداية التونسيّة: السنة ٢٧، صفر ـ ربيع الأوّل ١٤٢٣هـ، أفريل ـ ماي ٢٠٠٢م.
* مقال بعنوان: علماء سوسة ودورهم في بناء الحضارة، للمرحوم الشيخ محمد الشاذلي النيفر.

ملتقى يحيى بن عمر بمدينة سوسة، أكتوبر ١٩٧٦، وزارة الشؤون الثقافية، تونس.

* مقال بعنوان: رسالة ابن أبي زيد القيرواني، دراسة بيبليوغرافية لأهمّ شروحها، لحسن الزين الفيلالي.

ملتقى عبدالله بن أبي زيد القيرواني شوال ١٤١٣هـ/أفريل ١٩٩٣ م، مركز الدراسات الإسلاميّة بالقيروان، تونس، ط ١، ١٩٩٤م.

* مقال بعنوان: حضور المدوّنة الكبرى في المؤلفات والحلقات الدراسيّة المالكية، لمحمد المنوني.

ملتقى الإمام سحنون جمادى الثانية ١٤١٢هـ/ديسمبر ١٩٩١ م، مركز الدراسات الإسلاميّة بالقيروان، تونس، ط ١، ١٩٩٣م.

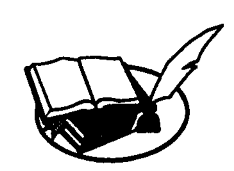
* استطلاع حول الموسوعة الفقهيّة بالكويت.

دراسات الخليج والجزيرة العربيّة: العدد ١٦.

* استطلاع حول الموسوعة الفقهيّة بالكويت.

مجلّة الوعي الإسلامي: السنة الحادية والعشرون، العدد ٢٤٦.

* التقويم الذهبي التونسي.





المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥ ـ ٦
المقدّمة	٧ ـ ١١
مدخل: تعريف علم الفقه وأدواره	١٣ ـ ١٩
تعريف علم الفقه	١٣ ـ ١٦
أدوار الفقه الإسلامي	١٧ ـ ١٩
الجزء الأول	
الأدوار الثلاثة الأولى من تاريخ الفقه الإسلامي	٢١ ـ ٥٥٣
* **الدور الأوّل: دور التأسيس**	٢٣ ـ ١٠٥
تمهيد	٢٣ ـ ٢٥
مصادر التشريع في هذا الدور	٢٦ ـ ١٠٥
* نزول القرآن، جمعه، ترتيبه، خصائصه	٣٠ ـ ٣٧
* طريقة تشريع الأحكام في هذا الدور	٣٧ ـ ٤٧
* طبيعة النصوص القرآنية	٤٧ ـ ٤٨
* منهج القرآن في بيان الأحكام	٤٨ ـ ٥٥
* خصائص التشريع الإسلامي	٥٦ ـ ٧١
* مفهوم السنة وواجب العمل بها	٧٢ ـ ٧٤
* وظائف السنّة النبويّة	٧٤ ـ ٨٣

الموضوع	الصفحة
* كيفيّة تلقّي الصحابة السنّة عن رسول الله	٨٣ ـ ٩١
* ما دوّن من السنّة في هذا الدور	٩١ ـ ٩٥
* من اجتهادات النبيّ	٩٦ ـ ٩٨
* من اجتهادات أصحاب النبيّ بحضرته	٩٨ ـ ٩٩
* من اجتهادات أصحاب النبيّ في غيبته	١٠٠ ـ ١٠٥
* **الدور الثاني: دور اجتهاد الصحابة والتابعين، وظهور المراكز الفقهيّة**	١٠٦ ـ ٣٣٤
تمهيد	١٠٦ ـ ١٠٧
المرحلة الأولى: عصر الخلفاء الراشدين	١٠٨ ـ ١٤٢
مصادر الفقه في هذا الدور	١١١ ـ ١١٤
منهج الصحابة في رواية الحديث	١١٥ ـ ١٢٧
منهج الصحابة في استنباط الأحكام الفقهية	١٢٧ ـ ١٢٩
من اجتهادات الصحابة في هذه المرحلة	١٣٠ ـ ١٤٢
المرحلة الثانية: عصر صغار الصحابة وكبار التابعين	١٤٣ ـ ٣٣٠
مظاهر العناية بمصادر الفقه في هذه المرحلة	١٤٧ ـ ١٦٥
مراكز الفقه في هذا الدور وأشهر القائمين عليها من الصحابة والتابعين	١٦٦ ـ ٣٠٨
* المدينة المنوّرة	١٦٦ ـ ٢١٧
* مكّة المكرّمة	٢١٧ ـ ٢٣٢
* الكوفة	٢٣٢ ـ ٢٦٠
* البصرة	٢٦٠ ـ ٢٧٩
* الشام	٢٨٠ ـ ٢٨٨
* مصر	٢٨٩ ـ ٢٩٢
* اليمن	٢٩٢ ـ ٢٩٦
* إفريقية التونسية	٢٩٧ ـ ٣٠٦
* خراسان	٣٠٦ ـ ٣٠٨
حركة تدوين الفقه في هذا الدور	٣٠٩ ـ ٣١٧
نشاط المرأة المسلمة في هذا الدور	٣١٨ ـ ٣٣٠
استخلاص ونتائج	٣٣١ ـ ٣٣٤

الموضوع	الصفحة
* **الدور الثالث: دور التأصيل والتفريع، أو استقرار المذاهب الفقهية** ...	٣٣٥ ـ ٥٥٦
تمهيد	٣٣٥ ـ ٣٣٧
مصادر الفقه في هذا الدور	٣٣٨ ـ ٣٤٧
* مناقشات استدلاليّة بين الأئمة	٣٤٧ ـ ٣٥٧
تسلسل الحلقة العلمية في مجال التشريع والفقه	٣٥٨ ـ ٣٦٥
المرحلة الأولى: مرحلة التأصيل أو ظهور أئمّة المذاهب الفقهيّة	٣٦٦ ـ ٤١٦
* أبو حنيفة النعمان	٣٦٩ ـ ٣٧٦
* مالك بن أنس	٣٧٧ ـ ٣٨٩
* محمد بن إدريس الشافعي	٣٩٠ ـ ٣٩٦
* جعفر الصادق	٣٩٧ ـ ٤٠٠
* عبدالرحمٰن الأوزاعي	٤٠١ ـ ٤٠٣
* سفيان الثوري	٤٠٤ ـ ٤٠٥
* الليث بن سعد	٤٠٦ ـ ٤٠٧
* أحمد بن حنبل	٤٠٨ ـ ٤١٢
* أبو ثور	٤١٣ ـ ٤١٤
* داود الظاهري	٤١٥ ـ ٤١٦
المرحلة الثانية: مرحلة التفريع أو تدوين فقه أئمة المذاهب	٤١٧ ـ ٥٤٦
* مدرسة أبي حنيفة	٤٢٠ ـ ٤٢٨
* حركة التدوين والتفريع في المذهب الحنفي	٤٢٩ ـ ٤٤٠
* مدرسة مالك	٤٤١ ـ ٥٠١
* حركة التدوين والتفريع في المذهب المالكي	٥٠٢ ـ ٥١٣
مقاربة نقديّة	٥١٣ ـ ٥٢٢
تأصيل المسائل	٥٢٢ ـ ٥٢٥
* مدرسة الشافعي	٥٢٦ ـ ٥٣٢
* حركة التدوين والتفريع في المذهب الشافعي	٥٣٣ ـ ٥٣٥
* مدرسة أحمد بن حنبل	٥٣٦ ـ ٥٤٠
* مدرسة الإمام الصادق	٥٤١ ـ ٥٤٦

الموضوع الصفحة

استخلاص ونتائج .... ٥٤٧ _ ٥٥٣

الجزء الثاني

الأدوار الثلاثة اللاحقة من تاريخ الفقه الإسلامي .... ٥٥٥ _ ١٢٤٢
*** الدور الرابع: دور التطبيق أو عصر مجتهدي المسائل** .... ٥٥٧ _ ٧٧٠
تمهيد .... ٥٥٧ _ ٥٥٩
مظاهر العناية بمصادر الفقه في هذا الدور .... ٥٦٠ _ ٥٦٥
المرحلة الأولى: النبضات الأخيرة لعصور الاجتهاد المطلق .... ٥٦٦ _ ٦٣٨
* ابن جرير الطبري .... ٥٦٧ _ ٥٧٠
* ابن حبّان السمرقندي .... ٥٧٠ _ ٥٧١
* ابن خزيمة .... ٥٧١ _ ٥٧٢
* ابن المنذر النيسابوري .... ٥٧٢ _ ٥٧٣
* بقيّ بن مخلد .... ٥٧٣ _ ٥٧٤
* سعيد الغسّاني .... ٥٧٤ _ ٥٧٧
* أبو القاسم الداركي ٥٧٧
* ابن ميسر القرطبي ٥٧٧
مراكز الفقه في هذه المرحلة وأشهر القائمين عليها من الأئمة الأعلام .. ٥٧٨ _ ٦٣٨
* مصر .... ٥٧٨ _ ٥٨٤
* الشام .... ٥٨٤ _ ٥٨٨
* العراق .... ٥٨٨ _ ٦٠٢
* بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر .... ٦٠٢ _ ٦٠٩
* بلاد المغرب .... ٦٠٩ _ ٦٢٥
* الأندلس .... ٦٢٥ _ ٦٣٥
* اليمن وبلاد الحجاز .... ٦٣٥ _ ٦٣٨
المرحلة الثانية: جنوح الفقهاء إلى التقليد وغلق باب الاجتهاد .... ٦٣٩ _ ٧٦٥
تمهيد .... ٦٣٩ _ ٦٤٥
جهود العلماء وعملهم في هذه المرحلة .... ٦٤٥ _ ٦٥٦

الموضوع	الصفحة
* تعليل ما استنبط الأئمّة من أحكام	٦٤٦
* الترجيح بين الآراء المتعدّدة في المذهب	٦٤٧ ـ ٦٤٨
* الانتصار للمذهب	٦٤٨ ـ ٦٥٦
مراكز الفقه في هذه المرحلة وأشهر القائمين عليها من الأئمة الأعلام	٦٥٧ ـ ٧٤١
* مصر والشام	٦٥٧ ـ ٦٦٤
* العراق	٦٦٤ ـ ٦٨٦
* بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر	٦٨٦ ـ ٧٠٣
* بلاد المغرب	٧٠٣ ـ ٧٢٤
* الأندلس	٧٢٥ ـ ٧٣٩
* اليمن وبلاد الحجاز	٧٣٩ ـ ٧٤١
حركة التدوين في دور التطبيق	٧٤٢ ـ ٧٧٠
* حركة التدوين في المذهب الحنفي	٧٤٥ ـ ٧٤٧
* حركة التدوين في المذهب المالكي	٧٤٨ ـ ٧٥٩
* حركة التدوين في المذهب الشافعي	٧٦٠ ـ ٧٦٣
* حركة التدوين في المذهب الحنبلي	٧٦٤ ـ ٧٦٥
استخلاص ونتائج	٧٦٦ ـ ٧٧٠
الدور الخامس: دور النقد والتنقيح والاختيار	**٧٧١ ـ ٩٢١**
تمهيد	٧٧١ ـ ٧٧٣
مظاهر العناية بمصادر الفقه في هذا الدور	٧٧٤ ـ ٧٨٢
جهود العلماء وعملهم في هذه المرحلة	٧٨٢ ـ ٧٩١
* وضع المصطلحات المتعلّقة بعلامات الإفتاء والترجيح في المذاهب	٧٨٢ ـ ٧٨٦
* انتشار المختصرات الفقهيّة	٧٨٦ ـ ٧٨٧
* اتّساع التأليف في مسائل الأحكام وكتب النوازل	٧٨٨ ـ ٧٩١
مراكز الفقه في هذه المرحلة وأشهر القائمين عليها من الأئمة الأعلام	٧٩٢ ـ ٨٧٨
* مصر	٧٩٢ ـ ٨٠٧
* الشام	٨٠٧ ـ ٨٢٥
* العراق	٨٢٦ ـ ٨٣٩

الموضوع	الصفحة

* بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر .... ٨٣٩ ـ ٨٥٤
* بلاد المغرب .... ٨٥٥ ـ ٨٦٧
* الأندلس .... ٨٦٧ ـ ٨٧٤
* اليمن وبلاد الحجاز .... ٨٧٤ ـ ٨٧٨
حركة التدوين في هذا الدور ٨٧٩
* حركة التدوين في المذهب الحنفي .... ٨٨٨ ـ ٨٩١
* حركة التدوين في المذهب المالكي .... ٨٩٢ ـ ٨٩٧
* حركة التدوين في المذهب الشافعي .... ٨٩٨ ـ ٩٠٤
* حركة التدوين في المذهب الحنبلي .... ٩٠٥ ـ ٩٠٩
مقاربة نقديّة: المذاهب الفقهيّة بين الاختصار والاختيار .... ٩١٠ ـ ٩١٤
استخلاص ونتائج .... ٩١٥ ـ ٩٢١
*** الدور السادس: دور التفقّه أو توليد المسائل وابتكار الأنظار والأبحاث ٩٢٢ ـ ١٢٤٢**
تمهيد .... ٩٢٢ ـ ٩٢٥
مظاهر العناية بالقرآن والسنّة في هذا الدور .... ٩٢٦ ـ ٩٣٣
جهود الفقهاء في هذا الدور .... ٩٣٣ ـ ٩٣٨
* متابعة التلخيص والتحرير والتهذيب لمسائل الأحكام .... ٩٣٣ ـ ٩٣٤
* تسليط الأنظار المجرّدة على الأقوال، وإحياء الأقوال المتروكة والاستدلال لها .... ٩٣٤ ـ ٩٣٥
* فتح باب العمل القضائي، أو منهج التفاصيل في الصور العمليّة لمسائل الأحكام .... ٩٣٥ ـ ٩٣٨
مراحل النشاط الفقهي في هذا الدور .... ٩٣٨ ـ ٩٤٠
مراكز الفقه في هذه المرحلة وأشهر القائمين عليها من الأئمة الأعلام .. ٩٤١ ـ ١١٧٥
* مصر .... ٩٤١ ـ ٩٧٩
* الشام .... ٩٧٩ ـ ١٠٠٤
* العراق .... ١٠٠٥ ـ ١٠١٨
* بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر .... ١٠١٨ ـ ١٠٢٩
* بلاد المغرب .... ١٠٢٩ ـ ١٠٩٤

الموضوع | الصفحة

* الأندلس .... ١٠٩٤ ـ ١١٠٧
* اليمن وبلاد الحجاز .... ١١٠٧ ـ ١١٦٠
* تركيا .... ١١٦٠ ـ ١١٧١
* بلاد الهند .... ١١٧١ ـ ١١٧٥
حركة التدوين في هذا الدور ١١٧٦
* حركة التدوين في المذهب الحنفي .... ١١٧٧ ـ ١١٩١
* حركة التدوين في المذهب المالكي .... ١١٩٢ ـ ١٢٠٧
* حركة التدوين في المذهب الشافعي .... ١٢٠٨ ـ ١٢١٦
* حركة التدوين في المذهب الحنبلي .... ١٢١٧ ـ ١٢٢٥
مقاربة نقديّة: الحركة التطوّريّة الجديدة في الفقه .... ١٢٢٦ ـ ١٢٣١
نشاط المرأة المسلمة في هذا الدور .... ١٢٣٢ ـ ١٢٣٧
استخلاص ونتائج .... ١٢٣٨ ـ ١٢٤٢

الجزء الثالث

الدور الأخير من تاريخ الفقه ١٢٤٣
* **الدور السابع: دور احتكاك الفقه بالقوانين الوضعية والمدارك الحقوقية الأجنبية** .... ١٢٤٥ ـ ١٣٤١
تمهيد .... ١٢٤٥ ـ ١٢٤٩
مظاهر العناية بالقرآن والسنّة في هذا الدور .... ١٢٥٠ ـ ١٢٥٨
مميزات هذا الدور .... ١٢٥٩ ـ ١٢٨٨
* سيادة نظام الامتيازات القنصليّة .... ١٢٥٩ ـ ١٢٦٠
* صدور مجلّة الأحكام العدليّة .... ١٢٦٠ ـ ١٢٦٣
* مشروع مجلّة الأحكام الشرعيّة التونسيّة في وزارة خير الدين .... ١٢٦٣ ـ ١٢٦٥
* قصور مجلّة الأحكام العدليّة عن الوفاء بالحاجة الزمنيّة .... ١٢٦٥ ـ ١٢٦٦
* تطوير منهجيّة التقنين .... ١٢٦٦ ـ ١٢٦٨
الجهود الجماعيّة والفرديّة لبناء النهضة الفقهيّة الحديثة .... ١٢٦٨ ـ ١٢٨٨
* الجهود الجماعيّة .... ١٢٦٨ ـ ١٢٧٤

الموضوع	الصفحة

* المجهودات الفرديّة .... ١٢٧٤ ـ ١٢٨٠
الاجتهاد الجماعي في ظلّ غياب الاجتهاد المطلق .... ١٢٨٠ ـ ١٢٨١
* المجامع الفقهيّة: تلبية لنداءات المصلحين من فقهاء الأمّة .... ١٢٨١ ـ ١٢٨٥
* المجامع الفقهيّة .... ١٢٨٦ ـ ١٢٨٨
من أعلام هذا الدور .... ١٢٨٩ ـ ١٣٣٠
* مصر .... ١٢٩١ ـ ١٣٠٠
* الشام .... ١٣٠٠ ـ ١٣٠١
* العراق .... ١٣٠١ ـ ١٣٠٣
* الحجاز .... ١٣٠٣ ـ ١٣٠٥
* تونس .... ١٣٠٥ ـ ١٣٢٠
* المغرب الأقصى .... ١٣٢٠ ـ ١٣٢٣
* ليبيا .... ١٣٢٣ ـ ١٣٣٠
مقاربة نقديّة .... ١٣٣٢ ـ ١٣٣٨
* تأثير الفكر الإصلاحي الحديث في الفقه ومسائله .... ١٣٣٢ ـ ١٣٣٥
* قضايا التشريع المعروضة على النظر في هذا الدور .... ١٣٣٦ ـ ١٣٣٨
استخلاص ونتائج .... ١٣٣٩ ـ ١٣٤١
الخاتمة .... ١٣٤٢ ـ ١٣٤٤
الفهارس .... ١٣٤٥ ـ ١٤٤٢
* **فهرس الآيات القرآنية** .... ١٣٤٧ ـ ١٣٦٠
* **فهرس الأحاديث النبويّة والآثار** .... ١٣٦١ ـ ١٣٦٩
* **فهرس الأعلام المترجم لهم** .... ١٣٧٠ ـ ١٤٠٠
* **فهرس الأسر العلميّة** ١٤٠١
* **فهرس المصادر والمراجع** .... ١٤٠٢ ـ ١٤٣٤
* **فهرس المحتويات** .... ١٤٣٥ ـ ١٤٤٢

